الدكتور ابراهيم نصحي

تاريخ الرومان

الجزء الثاني

١٣٣ — ٤٤ ق. م.

منشورات الجامعة الليبية
كلية الآداب

تاريخ الرومان

منشورات الجامعة الليبية
كلية الآداب

تاريخ الرومان

الجزء الثاني

١٣٣ — ٤٤ ق.م.

تأليف
الدكتور ابراهيم نصحي

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

القسم الأول

المرحلة الأولى في الصراع بين المحافظين أو «الأخيار» والتقدميين أو «الشعبيين»

١٣٣ – ٧٩ ق.م.

الفصل الأول

تيبريوس سمبرونيوس جراكوس[1]

أولاً — سوء الأوضاع في روما عند أواخر القرن الثاني قبل الميلاد

درج المؤرخون على تسمية القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية عصر الثورات. ومرد هذه التسمية الى أن هذا القرن بدأ في عام ١٣٣ ق م. بحركة إصلاح سرعان ما تحولت الى ثورة عارمة ضد طبقة الأقلية الحاكمة. أي طبقة السناتو. ولم تلبث هذه الثورة على الأوضاع القائمة أن تحولت بدورها الى حروب أهلية حامية الوطيس. واذا كانت المرحلة الأولى من الصراع انتهت باحتفاظ طبقة السناتو بامتيازاتها القديمة جميعاً بل بدعم سيطرتها، فانه عندما استؤنف الصراع ثانية لم تنته مرحلته الثانية إلا بالقضاء على النظام الجمهوري الروماني وإقامة أغسطس نظام حكم المواطن الأول (princeps).

---

(١) أهم فقرات المصادر القديمة التي تتناول الفترة من ١٣٣ حتى ٧٠ ق.م. مجموعة في كتاب :
A. H. J. Greenidge and A.M. Clay, Sources for Roman History B.C. 133-70, 2nd ed. reprinted 1966.

والشذرات القليلة الباقية من الخطب موجودة في كتاب :
H. Malcovanti, Oratorum Romanovum Fragmenta, 2nd ed., 1955.

وترجع هذه الاضطرابات العنيفة الى إخفاق نظم الحكم التقليدية التي ارتكزت عليها روما طوال عدة قرون حتّى أصبحت سيدة البحر المتوسط بل سيدة العالم المتمدن إذ ذاك . وقد كان طبيعياً أن تخفق هذه النظم لثلاثة عوامل رئيسية وهي : ١ ـ تدهور الأخلاق العامة . ٢ ـ عدم صلاحية النظم التي وضعت أصلاً لمدينة روما للنهوض بأعباء حكم إمبراطورية عالمية . ٣ ـ استمساك الهيئة الحاكمة بهذه النظم ، وقصرها أرفع الوظائف العامة على طبقتها ، وعجزها عن حل المشاكل الخطيرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ترتبت على فتوحات روما الخارجية .

ولا جدال في أنه بصدور قانون هورتنسيوس (Lex Hortensia) في عام ٢٨٧ ق . م . تم للعامة اكتساب المساواة مع البطارقة ، بيد أنه لا جدال كذلك في أنه كان من شأن طبيعة تكوين السناتو من الحكام السابقين ، وتكوين أرستقراطية جديدة تتألف من البطارقة وأبرز عناصر العامة ، واتفاق صوالح أعضاء هذه الأرستقراطية الجديدة ، وظروف الصراع مع هانيبال والفتوحات التي أعقبت ذلك ، أن هذه المساواة غدت سريعاً مساواة شكلية بحتاً . ولا جدال أيضاً في أنه منذ صدور قانون هورتنسيوس حتّى انتخاب تيبريوس جراكوس تريبونا للعامة (tribunus plebis) لعـــام ١٣٣ ق . م . كان السناتو هو الذي يقبض على أزمة الحكم ويوجه عادة سياسة الدولة الرومانية . وبقدر ما أسهمت الحروب والخراب الإقتصادي في انهيار الطبقة الوسطى ـ طبقة صغار ملاك الأرض ـ اشتد ساعد السناتو وأوغل في دعم سيطرته وكذلك في استغلال نفوذه لصالح الأرستقراطية ، ولا سيما عندما اكتسب حقاً جديداً هو حق تشكيل هيئات المحلفين للمحكمة الدائمة لاسترداد الأموال المبتزة (quaestio perpetua repetendarum) منذ إنشائها عند منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، وبذلك أصبح يحتكر تصريف العدالة فضلاً عن أرفع الوظائف العامة .

وإذا قلنا إن الحكم كان في قبضة السناتو ، فإنه يجب ألا تغرب عن البال

عدة حقائق هامة وهي : أن أعضاء السناتو لم يكونوا جميعاً متساوين في النفوذ والمرتبة ، وأن إدارة دفة السناتو كانت في قبضة نفر قليل من أعضائه وهم النبلاء بأدق معنى الكلمة ، وأنه كان لا يتمتع بسمة النبالة إلا من تولى هو أو أحد أسلافه وظيفة القنصلية ، وأن شرف تولي القنصلية كان مقصوراً على دائرة ضيقة من الأسر النبيلة ، وأنه لم ينجح في اقتحام سبيله الى تولي القنصلية من خارج هذه الدائرة « الساحرة » إلا عدد قليل من الأفراد كان عند نجاح أحدهم في تولي القنصلية يُدعى « رجلاً جديداً » (novus homo) ، بيد أنه بهذا النجاح كان يضفي على نفسه وأسرته وسلالته سمة النبالة . واذا كان في وسع عدد غير قليل ممن لم ينتموا الى هذه الدائرة « الساحرة » أن يتولوا وظائف عامة أدنى مرتبة من وظيفة القنصلية وبذلك يكتسبون حق عضوية السناتو ، فإنه لم يكن في وسعهم التمتع بنفوذ كبير في هذا المجلس ، لأنه بمقتضى التقاليد كان أكبر أعضاء السناتو مقاماً ، وهم الذين تولوا أرفع وظائف الدولة ، هم الذين يسيطرون على هذا المجلس ويوجهون سياسته . ولما كانت حوالي عشرين أسرة نبيلة هي التي تنفرد بتزويد الدولة بكبار حكامها وقواد جيوشها وحكام ولاياتها ، فانه تبعاً لذلك كانت هذه الأسر هي التي تنفرد بتوجيه سياسة السناتو ومن ثم بتوجيه سياسة الدولة . مثل ما كانت تنفرد بأداة الحكم في الدولة الرومانية وفي الإمبراطورية بأسرها .

ومنذ وقت بعيد كان النبلاء ينقسمون الى عدد من الجماعات المتنافسة على الفوز لأبنائها بالوظائف العامة وبخاصة وظيفتي القنصلية والقنسورية . وكانت كل جماعة من هذه الجماعات تتخذ شكل حلف سياسي (amicitia) بين عدد من الأسر أو العشائر وتلتف حول زعيم إحدى الأسر أو العشائر البارزة ، بيد أنه لم يحدث مرة أن استمر التحالف طويلاً بين ذات الأسر أو العشائر . وقد شهد النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد عدة أمثلة

للصراع الإنتخابي بين الجماعات النبيلة المتنافسة[٢]. ويبدو أنه عند عام ١٣٣ ق . م . أخذ النبلاء ينقسمون الى فريقين هما : فريق النبلاء الذين قبضوا على زمام الحكم واستمسكوا بالحفاظ على الأوضاع القائمة ووقفوا حجر عثرة في سبيل أي مشروع تقدم به الفريق الآخر التقدمي ، مما حدا بهذا الفريق الى مناشدة تأييد الشعب . وقد عُرف فريق المحافظين باسم « الأخيار » (Optimates) وفريق التقدميين باسم الشعبيين (Populares) ، وهو الاسم الذي أطلقه عليهم خصومهم . بيد أن هذا الإنقسام الى فريقين متناحرين لم يظهر واضحاً جلياً إلاّ بعد مقتل الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس وتبلور حركة الشعبيين المناهضة لهيمنة السناتو ومعارضته كل محاولة للإصلاح وتغيير الأوضاع القائمة . وسوف نرى أنه اذا كان بعض الزعماء الشعبيين ، مثل الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس ، مصلحين مخلصين لم ينشدوا تأييد الشعب إلا لخدمة صوالح الشعب ، فإن البعض الآخر لم يتخذوا من تأييد الشعب إلا وسيلة لخدمة أغراض شخصية أو لتقويض دعائم الأقلية الحاكمة[٣].

والواقع أنه إزاء إخفاق طبقة النبلاء الحاكمة إخفاقاً ذريعاً في إدارة الولايات وعجزها عن حل المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ترتبت على اتساع نطاق الإمبراطورية ، وإزاء احتكار هذه الطبقة الوظائف

---

(٢) عن الصراع السياسي في الجمهورية الرومانية ، راجع :

R. Syme, The Roman Revolution, 1939; L.R. Taylor, Party Politics in The Age of Caesar, 1949; H.H. Scullard, Roman Politics 220-150 B.C., E. Badian, Roman Clientelae 264-70 B.C., 1958; Chr. Meier, Res Publica Amissa, 1966; A.E. Astin, Roman Politics and Policies in Roman Republic, 1968; E.S. Gruen, Roman Politics and Criminal Courts 149-70 B.C., 1968.

(3) Cf. Ch. Wirszubski, Libertas as a Political Idea at Rome, 1950, Ch. 2; Meier, in Pauly-Wissowa-Kroll, Realencyc. s.v. Populares, and Res Publica Amissa, pp. 116-150; H. H. Scullard, From the Gracchi to Nero, 3rd ed., 1970, p. 9 and n. 6 p. 382.

العامة ، وبخاصة أرفعها مقاماً وأوسعها نفوذاً ، دون الطبقات الأخرى بما فيها الطبقة الاجتماعية الجديدة ، طبقة الفرسان ، وهي التي كان يزيد في نقمتها على الطبقة الحاكمة انفرادها بتكوين هيئات محلفي محكمة استرداد الأموال المبتذة ، كان طبيعياً أن تثور الأحقاد وأن ينبري الرجال المستنيرون ينشدون الإصلاح ، إما حباً في الإصلاح وإما رغبة في تحطيم دعائم الفئة القليلة العدد المتحكمة في مقاليد أمور البلاد .

ولما كان السناتو — كما ذكرنا — هو المسيطر على أداة الحكم طوال الفترة التي وقع فيها ما أجملناه من مساوىء ، فإنه كان طبيعياً أن يتشكك الناس لا في مقدرة السناتو على الحكم فحسب بل أيضاً فيما اذا كان من حقه أن يحكم على الإطلاق . ذلك أن السناتو لم يكن في الأصل إلا هيئة استشارية بحتاً تدلي برأيها للحاكم اذا ما طلب اليها ذلك دون أن يتقيد الحاكم بقبول هذا الرأي ، ولكنه على مر الزمن قضى العرف وكذلك الدستور بأن يستشير الحكام السناتو في كافة المسائل الهامة وبأن يتبعوا الرأي الذي يدلى به اليهم . واذا كان العرف ظل يقضي بضرورة عرض كل تشريع على السناتو قبل إصداره فانه بعد أن حرر قانون هورتنسيوس في عام ٢٨٧ ق . م . جمعية القبائل من موافقـــة السناتو (patrum auctoritas) على تشريعاتهـــا ، سواء قبل إصدارهـــا أم بعده ، دون أن يفرض الدستور الروماني أي قيد على سلطة هذه الجمعية في إقرار أي مشروع قانون ، لم يعد هناك أي سند دستوري لضرورة أخذ موافقة السناتو قبل عرض أي مشروع قانون على هذه الجمعية . وتبعاً لذلك فإنه كان في وسع أي حاكم جريء أن يتخطى السناتو كلية أو أن يضرب برأيه عرض الحائط دون أن ينطوي مثل هـــذا التصرف على أية مخالفة للدستور وإن انطوى ذلك على مجافاته للعرف والتقاليد المرعية . وقد كان في وسع السناتو عندئذ عرقلة عمل مثل هذا الحاكم بأن يحرك ضده زميلاً له أو أحد ترابنة العامة لاستخدام حق الڤيتو أو الاعتراض (intercessio) على أي مشروع لا يرضى عنه السناتو فيتعطل هذا المشروع .

وقد كانت سيطرة السناتو على الحكام وبوجه خاص ترابنة العامة أو
أداة مكنته من الاحتفاظ أمداً طويلاً بحق الموافقة (patrum âuctoritas
على كل تشريع قبل إصداره بالرغم من أنه لم يعد لهذا الحق أي سند دستور
منذ أن تحررت جمعية القبائل من كل قيد على حريتها في التشريع . بيد
عندما اشتد كرب العامة وساءت حالهم كان طبيعياً أن يظهر ترابنة مصلحو
يستخدمون سلطتهم في تحدي السناتو وفي اقتراح تشريعات لإصلاح الأوضاع
كما كان طبيعياً ألا تسلم الطبقة الحاكمة طواعية بالنزول عن امتيازاتها ، وت
لذلك لم يكن هناك مفر من وقوع صراع طويل مرير بين الفريقين . وإز
تدهور الأخلاق العامة واختلافها اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في الشطر الأو
من عهد الجمهورية ، لم يكن هناك أمل في أن يتسم هذا الصراع الجد
بمثل ما اتسم به الصراع القديم بين البطارقة والعامة من الصبر والأناة وتغلي
المصلحة العامة على الصوالح الطبقية أو الشخصية ، والعزوف عن الاشتب
المسلح وسفك الدماء .

ثانياً — مشكلة الأراضي

وقد كانت اللطمة الأولى التي كيلت للسناتو نتيجة لمحاولة نزيهة قام :
أحد ترابنة العامة في عام ١٣٣ ق . م . لمعالجة مشكلة الأراضي مستهدفاً إعا
تكوين الطبقة الوسطى — طبقة صغار المزارعين — وذلك عن طريق إعا
تعمير الريف بوضع حد لما يجوز حيازته من الأرض العامة (ager publicus
واستخدام المساحات الزائدة على هذا الحد في إنشاء ملكيات صغيرة . ذلا
أن اتساع نطاق الإقليم الروماني (ager Romanus) نتيجة لفتوحات رو
في إيطاليا ، وبخاصة نتيجة لفشل غزوة هانيبال ، قد صحبه اتساع مسا
الأرض العامة التي تملكها الدولة الرومانية ، وأن هذه الدولة استخدمت جا
من الأرض التي ضمتها في إنشاء مستعمرات عسكرية كان رجال كل من

يُمنحون جملة مساحة كبيرة من الأرض العامة ، وفي إنشاء مستعمرات مدنية كان كل فرد من رجالها يُمنح ملكية قطعة من الأرض امتلاكاً حراً . هذا الى أن الدولة الرومانية باعت جانباً من الأرض العامة للراغبين في الشراء ، كما أنها أعطت في عام ٢٠٠ ق . م . جانباً آخر لدائنيها[٤] .

وإزاء اتساع نطاق الأرض العامة كان الجانب الأكبر منها يؤجر للراغبين في ذلك من المواطنين الرومان ومواطني المجتمعات الحليفة . وقد كان الأثرياء أكثر المستفيدين من تأجير الأرض العامة بسبب نفوذهم وكذلك بسبب قدرتهم على توفير كل ما يلزم لاستغلال مساحة واسعة من الأرض إما بفلاحتها وإما بتربية الحيوان عليها . والمزايا التي كانت الأرستقراطية الرأسمالية الزراعية تحصل عليها من وراء ذلك تفسر الى حد على الأقل سبب معارضة السناتو في عام ٢٣٢ ق . م . مشروع قانون فلامينيوس[٥] لتوزيع أرض إقليم الغال (ager Gallicus = إقليم السنونس ، Senones ، شمالي بيقنوم) على فقراء المواطنين .

ولا جدال في ان النظام الذي اتبع في التصرف في الأرض العامة ، وبخاصة نظام تأجير الجانب الأكبر منها ، كان من أهم الأسباب التي أسهمت في جعل انتشار الضياع الكبيرة (Latifundia) عاملاً بارزاً بعيد الأثر في الزراعة الإيطالية . فقد دأب أغلب مستأجري الأرض العامة على وضع أيديهم عليها وحيازتها (possessio) . ولما كانت أداة الحكم في قبضة النبلاء ، وكان النبلاء في طليعة الأرستقراطية الرأسمالية الزراعية ، فإن الحكومة أغفلت عادة تأكيد حقوق الدولة على أغلب أرض الحيازة بإغفالها مطالبة أربابها

---

(٤) لما كان الثلث الباقي من الديون العامة التي اقترضتها الحكومة في أثناء الحرب البونية الثانية يستحق السداد في عام ٢٠٠ ق.م. وكانت الخزانة العامة لا تستطيع الوفاء بهذه الديون ، ولا سيما أن روما كانت على وشك الاشتباك مع فيليب الخامس في الحرب المقدونية الثانيه، فانه ترضية للدائنين نزلت لهم الحكومة عن مساحات كبيرة من الأرض العامة لقاء دفع إيجار إسمي احتفاظاً للدولة بحقها على ملكية هذه الأرض (Liv., xxxi, 13; C. A. H., ix, p. 17) .

(5) Polyb., II, 21, 7-8.

بسداد الإيجار المستحق عنها[٦] . وتبعاً لذلك فإنه بمضي الزمن نسي أرباب أرض الحيازة (possessores) أو تناسوا حقوق الدولة على هذه الأرض وأصبحوا يعتبرونها ملكاً خاصاً لهم ولأسرهم ، ويتصرفون فيها بالبيع والرهن والهبة كما لو كانت ملكاً حراً لهم . وفي حالات كثيرة كانت مساحة الأرض التي في قبضة حائزيها تزيد على الحد المسموح به قانوناً وهو ٥٠٠ يوجرا (iugera جمع iugerum وهو الفدان الروماني وكان يعادل حوالي ثلثي الفدان عندنا) .

وقد كان من أخطر ما صحب انتشار الضياع الكبيرة وازدهارها ظاهرتان ، وإحداهما هي نقص عدد صغار ملاك الأرض . وكان مرد ذلك غالباً الى أنه في بعض الجهات ترتب على منافسة الضياع الكبيرة أن فلاحة المزارع الصغيرة أصبحت غير مجزية فكان كثيرون من أربابها يبادرون الى بيعها وييممون وجوههم صوب روما ، والى أنه في جهات أخرى كان كبار الملاك يلجأون الى وسائل غير مشروعة لطرد صغار المزارعين من الأرض العامة التي منحوها أو لإرغامهم على بيع هذه الأرض لهم ، وكان هؤلاء أيضاً يفدون على روما . وتبعاً لذلك فإنه حين أقفر الريف الإيطالي بوجه عام من صغار المزارعين واكتظت روما بالمتعطلين وأشباههم ، أصبحت روما تواجه خطر نشوب أزمة تعجز يومها عن تكوين جيوشها من الطبقة الوسطى ، أي طبقة مواطنيها صغار الزراع وهم الذين كانوا من ناحية عماد تكوين قواتها طبقاً للقواعد المألوفة المعمول بها حتى ذلك الوقت ، ومن ناحية أخرى عنصراً رشيداً كان السناتو يقيم لرأيه وزناً في خلال القرن الثالث قبل الميلاد حين كانت الطبقة الوسطى لا تزال بخير .

والظاهرة الأخرى هي استخدام العبيد على نطاق واسع في استغلال

---

(٦) يوحي بذلك ما يرويه ابيانوس (App., Bell. Civ., I, 27) من أنه عندما تقرر في عام ١١٩ ق.م السماح لأرباب أرض الحيازة بالاحتفاظ بما في حيازتهم نص التشريع الخاص بذلك عن ضرورة أدائهم ايجاراً عن هذه الأرض .

الضياع الكبيرة . وإزاء الظروف السيئة التي كانت أعداد كبيرة من العبيد تعيش في كنفها ، لم تكن فكرة الثورة بعيدة عن أذهان هؤلاء التاعسين . واذا كانت شبه الجزيرة الإيطالية لم تشهد في خلال القرن الثاني قبل الميلاد ثورة عارمة بين العبيد مثل تلك التي نشبت في صقلية في عام ١٣٥ ق. م. ودامت ثلاث سنوات — على نحو ما سنرى — فإنها شهدت عدداً من الاضطرابات الصغرى التي قُضي عليها دون هوادة . ولم يكن من شأن وجود هذا الخطر الماثل في أذهان المفكرين أن يبعث على الاطمئنان والسكوت على مثل هذه الأوضاع .

* * *

ومجمل القول أنه في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد كانت روما تواجه سلسلة من المشاكل الخطيرة التي كان يجب معالجتها لوضع الأمور في نصابها . ذلك أنه بعد أن أصبحت مدينة روما إمبراطورية كبيرة كان يجب تطوير النظم الرومانية لتستطيع الدولة الرومانية مواجهة الإلتزامات المتزايدة المترتبة على اتساعها ، كما أنه كان يتعين حل المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أصبحت تتهدد كيان النظام الجمهوري . وقد كان النجاح في حل كل هذه المشاكل الخطيرة يتوقف على ظهور زعماء يتوافر لهم من اتساع الأفق وحصافة الرأي وصدق النية وقوة العزيمة ما يمكنهم من إقناع الطبقة الحاكمة والشعب بمواجهة مشاكل الدولة والمجتمع وحلها على نحو يخدم الصالح العام وإن انطوى ذلك على تحمل تضحيات فردية أو طبقية . وأما إذا أخفق الزعماء في معالجة المشاكل الملحة ، واذا أصرت بعض فئات المجتمع الروماني على تقديم الصوالح الشخصية أو الطبقية على الصالح العام ، فإنه لم يكن هناك مفر من وقوع اضطرابات شديدة تدك دعائم النظام الجمهوري .

ولا جدال في أن النابهين من الرومان كانوا يشعرون بسوء أحوال البلاد ويدركون ضرورة إصلاح الأوضاع ، ولكنه لم يتسن إلاّ لنفر قليل منهم إدراك ما كان يجب عمله لوضع الأمور في نصابها . وقد كانت المشكلة الاقتصادية أولى المشاكل التي حاول الرومان علاجها . ولعل أن مرد ذلك

كان الى تشعب هذه المشكلة ، فقد كانت لا تمس حياة الناس اليومية فحسب بل أيضاً الحياة العامة إذ أنها أصبحت تتهدد أمن الدولة وسلامتها في الداخل وفي الخارج . وكانت مشكلة حيازة الأرض العامة مشكلة شائكة قديمة العهد أثيرت أكثر من مرة منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، ففي عام ٣٦٧ ق . م . قضى قانون ليقينيوس (Lex Licinia) بألا تزيد مساحة الأرض العامة التي تجوز حيازتها على ٥٠٠ يوجرا[٧] (حوالي ٣٠٠ فدان) . وحوالي عام ١٨٠ ق . م . فيما يرجح صدر قانون مماثل لقانون ليقينيوس[٨] ، بقصد وقف انتشار الضياع الكبيرة ومنع تحويل الأرض الزراعية الى مراع . وفي عام ١٧٣ ق. م، خول السناتو لأحد القنصلين تحديد نطاق كل من الأرض العامة والأرض الخاصة في قمبانيا لوقف طغيان أرباب الأرض الخاصة على الأرض العامة وتقسيم الأرض العامة على فقراء المواطنين[٩] . وإزاء الضجة التي أثارها الرأسماليون الزراعيون لم تحاول الحكومة تكرار ما فعلته عندئذ واتجهت الى محاولة تجفيف مستنقعات بومبتيناي (Pomptinae) في لاتيوم والى إنشاء مستعمرة جديدة في أوكسينوم (Auxinum) .

وعندما تجددت مشكلة الفقراء في أعقاب تسريح الجيش بعد القضاء على قرطجنة وانتهاء القتال في بلاد الإغريق في عام ١٤٦ ق . م . تقدم جايوس لايليوس (G. Laelius) — الصديق الحميم لسقيبيو آيميليانوس وبإيحاء من هذا الرجل فيما يرجح — بمشروع لحل مشكلة الأراضي . وإذا كان من العسير تحديد التاريخ الذي تقدم فيه لايليوس بهذا المشروع ، فإنه من المحتمل أن ذلك كان في عام ١٤٥ ق . م . حين كان لايليوس برايتورا[١٠] . واذا كنا لا نعرف تفاصيل هذا المشروع ، فاننا نعرف على الأقل أنه صادف من معارضة السناتو وكبار أرباب الأراضي ما حمل لايليوس على سحب مشروعه فأكسبه

(7) App. Bell. Civ., I, 8; cf. Liv., X, 13, 4; C.A.H., VII, pp. 538 ff.
(8) Liv., XXXIV, 4, 9.
(9) Liv., XLI, 16, 9; XLII, 4, 3-4.
(10) Scullard, 1970, p. 25.

هذا التصرف لقب « العاقل » (Sapiens) . إذا صح ما يرويه بلوتارخ في هذا الصدد[11] .

وينهض دليلاً على بلبلة الأفكار وضعف الهمة وتحكم الأنانية والصوالح الشخصية أن المشكلة الاقتصادية التي تفاقمت عند منتصف القرن الثاني قبل الميلاد تفاقماً خطيراً يشهد عليه ازدياد عدد المتعطلين في روما ازدياداً هائلاً لم تلق إلا تلك المحاولة الفاترة التي قام بها لايليوس ، وأننا لا نجد أية محاولة للإصلاح في خلال الحقبة التالية إلا قانونين[12] استصدر أحدهما تريبون العامة أولوس جابينيوس (A. Gabinius) في عام ١٣٩ ق . م . واستصدر الآخر تريبون العامة لوقيوس قاسيوس لونجينوس (L. Cassius Longinus) في عام ١٣٧ ق. م. لجعل الإدلاء بالأصوات سراً لا جهراً عند انعقاد جمعيّي القبائل والمئينات لإجراء الانتخابات (وفقاً لأول هذين القانونين) وكذلك عند الانعقاد للفصل في القضايا فيما عدا قضايا الخيانة العظمى (وفقاً لثاني هذين القانونين) .

ثالثاً – نشأة تيبريوس جراكوس وبزوغ نجمه

وسط تلك الحالة السيئة التي أقضت مضاجع النابهين المخلصين من الرومان ، وحين كانت روما في شغل بالقضاء على نومانتيا في إسبانيا ، وكان القلق يساور الجميع من جراء حرب العبيد في صقلية ، ظهر مصلح شاب في الثلاثين من عمره يدعى تيبريوس سمبرونيوس جراكوس (Tiberius Sempronius Gracchus) . وكان تيبريوس أحد ترابنة العامة العشرة الذين انتخبوا لعام ١٣٣ ق . م . وتقلدوا مهام مناصبهم في العاشر من ديسمبر عام ١٣٤ ق . م .

(11) Plut., T. Gracch., VIII, 3.
(12) Cic., de Leg., I, 3, 15 ff..

وكان تيبريوس سليل أسرة [١٣] نبيلة (nobilis) اشتهرت بثقافتها العالية وأفكارها المتحررة وتمتعت بمكانة كبيرة في المجتمع الروماني. فقد ولي جده لأبيه القنصلية في عام ٢١٥ ق . م . وكان جده لأمه سقيبينو أفريقانوس قاهر هانيبال في واقعة زاما (عام ٢٠٢ ق . م .) ، وتولى أبوه القنصلية في عامي ١٧٧ و ١٦٣ ق . م . والقنسورية في عام ١٦٩ ق . م . وعندما توفي الأب في مقتبل العمر (عام ١٥٤ ق . م .) ترك تيبريوس وأخاه جايوس وأختهما سمبرونيا في رعاية أمهم قورنليا (Cornelia) وكانت سيدة فاضلة على جانب كبير من الذكاء والثقافة فضلاً عن أنها كانت زوجاً وفية وأماً رؤوماً ، فقد آثرت أن ترفض الزواج من ملك مصر بطلميوس الثامن (يورجتس الثاني Euergetes) لتقف حياتها على تربية أبنائها بعد وفاة زوجها ، فلا عجب أنها كانت تعتبر مثلاً فذاً للمرأة الرومانية . وبتوجيه قورنليا جمع أبناؤها بين أرفع الصفات الرومانية والثقافة الإغريقية ، فقد تلقوا تعليماً إغريقياً خليقاً بأحفاد سقيبيو أفريقانوس ، وكان من أكبر الدعاة للحضارة الهلينية. ذلك أن تيبريوس درس الخطابة على يدي أحد أساتذتها البارزين وهو ديوفانس (Diophanes) ، وكان أحد السياسيين المنفيين من ميتوليني (Mitylene) ، وفي رأي بعض الباحثين أن تيبريوس تأثر به الى حد كبير [١٤] ، لكن أغلب الباحثين يرجحون أن الأستاذ الذي كان أفعل أثراً في تكوين تيبريوس وتوجيهه هو الفيلسوف الرواقي بلوسيوس (Blossios) [١٥] من قوماي (Cumae) ، ويبدو أنه كان صاحب مبادىء رفيعة يميل إلى تطبيقها دون اعتبار لظروف عصر يتسم بالانحلال . ومن المحتمل جداً أن تعاليم بلوسيوس وتوجيهاته هي التي أوقدت في الشاب الشجاع النبيل التفكير جذوة

---

(١٣) عن أسرة جواكوس ، راجع

J. Carcopino, Autour des Gracques, 1928, Ch. II.

(14) Gelzer, Kleine, Schriften II, 1963, pp 77 ff.

(15) D.R. Duddley, J.R.S., 1941, pp. 94 ff.; T.S. Brown, Class Journ., 1947, pp. 471 ff.; Scullard, 1970, n. 6 p. 386.

الوطنية وبثت فيه حماساً دافقاً للإصلاح دون أن تجعل منه سياسياً حذراً بصيراً بالعواقب .

ويدل على عراقة أسرة جراكوس ومكانتها الاجتماعية وعلى مخايل النجابة التي بدأت تظهر مبكرة على تيبريوس أنه وهو لا يزال صبياً في العاشرة من عمره ضُم إلى جماعة العراف ، وأنه لم يكد يبلغ أشده حتى قبل أبيوس قلاوديوس بولكر (Appius Claudius Pulcher) زعيم السناتو (Princeps Senatus)[16] أن يزوجه ابنته قلاوديا (Claudia) . وحين كان تيبريوس في السابعة عشرة من عمره خدم تريبوناً عسكرياً تحت قيادة زوج أخته سقيبيو آيميليانوس في أثناء حصار قرطجنة (عام ١٤٦ ق . م .) حيث أظهر شجاعة فائقة ، فقد كان في طليعة الرومان الذين تسلقوا أسوار المدينة المحاصرة . وعندما بلغ تيبريوس السادسة والعشرين من عمره (عام ١٣٧ ق . م .) تولى أول وظيفة عامة وهي وظيفة الكوايستورية وكلف بتولي مهام هذه الوظيفة في إسبانيا مع القنصل هوستيليوس مانقينوس (Hostilius Mancinus) ، وهو الذي تولى قيادة حملة ذلك العام ضد نومانتيا .

ويعتبر تولي تيبريوس مهام وظيفته في إسبانيا حدثاً هاماً في حياته وذلك لسببين : وأحدهما هو ما يقال من أنه في خلال رحلته براً الى إسبانيا واجتيازه إقليم أترووريا شاهد مدى اتساع نطاق الضياع الكبيرة ومدى استخدام العبيد في استغلالها ومدى افتقار الريف الإيطالي الى أحرار المزارعين ، مما حفزه على بذل أقصى الجهد لإصلاح هذه الأوضاع . والسبب الآخر هو أنه بعد وصوله الى إسبانيا أنقذ جيش مانقينوس من كارثة محققة . ذلك أن

---

(١٦) حتى عهد الدكتاتور صلا ، كان زعيم السناتو هو عضو السناتو الذي يضعه القنسوران على رأس قائمة أعضاء هذا المجلس ، وتبعاً لذلك كان يعتبر أرفع أعضاء هذا المجلس مقاماً وصاحب الأولوية في إبداء الرأي عند عرض أى مشروع على المجلس . وخير مثل لذلك اعتبار سقيبيو أفريقانوس زعيماً للسناتو عقب انتصاره عند زاما ، ومن ثم فإنه من الإسراف في الرأي القول بأن زعيم السناتو كان أقدم عضو في هذا المجلس .

الإسبان حاصروا القوات الرومانية قرب نومانتيا حصاراً شديداً وتولى تيبريوس المفاوضات معهم لعقد الصلح . ولما كان والد تيبريوس يتمتع بمكانة كبيرة بين الإسبان بسبب ما عهدوا فيه من الصدق والنزاهة ، على خلاف غيره من الحكام الرومان ، فإنهم رفعوا الحصار وأخلوا سبيل الجيش الروماني بعد أن وعدهم تيبريوس باحترام شروط معاهدة الصلح . واذا كان نجاح تيبريوس في إنقاذ الجيش قد أكسبه تقدير الشعب ومحبته ، فان السناتو اتخذ موقفاً يغاير ذلك تماماً ، فقد رفض إبرام المعاهدة وجعل من مانقينوس كبش الفداء وقام بتسليمه الى الإسبان . وقد كان طبيعياً أن يثير هذا التصرف من جانب السناتو نقمة تيبريوس عليه ويُعدّه لئلا يتوقع مستقبلاً أية معاملة كريمة من هذا الجانب بعد موقفه غير الودي منه في هذه المسألة .

. ولعل أنه يكون من الإسراف في الرأي اذا عزونا الى عامل واحد ذلك الموقف الذي سرعان ما اتخذه تيبريوس مغامراً بمستقبله السياسي بل بحياته ، موقف المصلح الذي لا يلين في مناهضة الطبقة الحاكمة . ولعل أنه يكون أدنى الى الحقيقة اذا عزونا ذلك الموقف الى عدة عوامل وهي : نشأة تيبريوس في أسرة متحررة الفكر ، وثقافته الإغريقية التي أحاطته علماً بنظريات الإغريق السياسية وتطبيقاتها العملية ، والنتيجتان المتناقضتان لتصرفه في أزمة الجيش في إسبانيا : من ناحية رضاء الشعب عن هذا التصرف ومن ناحية أخرى تنكر السناتو له تنكراً وصم عمل تيبريوس بالفشل وأحرجه أشد الحرج مع الإسبان بعد الوعود التي قطعها على نفسه ، وقلقه من اضطراب الحالة الاقتصادية وأثر ذلك في طبقة صغار المزارعين وفي تكوين الجيش وفي ازدياد عدد المتعطلين الذين اكتظت بهم روما .

وبرغم أن المشاكل التي كانت روما تواجهها في عام ١٣٣ ق . م . كانت متعددة على نحو ما رأينا ، فإنه يبدو أنه خيل إلى تيبريوس أن موطن العلة وبيت الداء كان انهيار الطبقة الوسطى أو طبقة صغار أرباب الأراضي ، ولذلك فإنه ما أن انتخب تريبوناً للعامة لعام ١٣٣ ق . م . حتى أخذ يعد العدة

للتقدم بمشروع قانون بدا له أنه كفيل بإعادة تكوين هذه الطبقة [١٧] . وقد كانت تؤازر تيبريوس في محاولته جماعة قوية من أعضاء السناتو كان أبرزهم أبيوس قلاوديوس بولكر ، زعيم السناتو وحمو تيبريوس ، وبوبليوس ليقينيوس قراسوس موقيانوس (Mucianûs) وكان عالماً ثرياً انتخب فيما بعد قنصلاً وكاهناً أكبر (وكان هذا الرجل زوج شقيقة زعيم السناتو وكذلك حما جايوس جراكوس شقيق تيبريوس) ، وبوبليوس موقيوس سقايفولا ، وكان أحد قنصلي عام ١٣٣ ق . م . وشقيق موقيانوس . وفضلاً عن ذلك فان كوينتوس قايقيليوس متلّوس مقدونيقوس ، وهو الذي انتصر في الحرب المقدونية الرابعة وتولى القنصلية في عام ١٤٣ ثم فيما بعد في عام ١٣١ ق . م . . كانت تربطه بهذه الجماعة روابط ودية حميمة [١٨] . بيد أنه برغم مؤازرة هؤلاء الأنصار الأقوياء من أبرز أعضاء السناتو ، فاننا سنرى من مجرى الأحداث التالية ما يدل بجلاء على عدم اطمئنان تيبريوس الى فوزه بموافقة السناتو على مشروع قانونه وعلى أن تيبريوس كان مصيباً في هذا التقدير .

رابعاً ـ مشروع قانون الأراضي

إننا لا نعرف عن مشروع القانون الذي اقترحه تيبريوس إلا النقاط الرئيسية التالية :

١ ـ ألا يحتفظ أحد من الأرض العامة التي استولى عليها عن طريق الحيازة بأكثر من ٥٠٠ يوجرا مع السماح لكل ابن [١٩] من أبنائه الثلاثة (؟) بحيازة

---

(١٧) عن أهداف تيبريوس ، راجع :
Plut., T. Gracch., VIII; App., B.C. I, 11; Cic., Brut. 27, 103; de Har. Resp., 20, 43; Scullard, 1970, n. 7 pp. 386-7.

(18) Cf. Cic., de Rep. I, 19; Plut., T. Gracch., IX; Scollard, 1970, n. 8 p. 387.

(19) App., B.C., I, 9, 11.

كان الرأي السائد بين الباحثين حتى عهد قريب هو ألا يزيد ما تحوزه أسرة واحدة على ألف يوجرا، أي السماح لابنين اثنين فقط بأن يحوز كل منهما ٢٥٠ يوجرا بالإضافة الى ما يحوزه =

نصف هذه المساحة . وتعويضاً لأصحاب أرض الحيازة عما تستّرده الدولة منهم اقترح المشروع ألا يطرد الحائز مستقبلاً من أرضه وألا يدفع عنها إيجاراً للدولة[٢٠] . ومن الجائز أن المشروع كان يتضمن في صورته الأصلية نصاً خاصاً بدفع تعويض نظير الإصلاحات التي أدخلت على الأرض التي تستّردها الدولة[٢١] .

٢ ـ أن تستّرد الدولة أرض الحيازة التي تزيد على الحد الوارد في البند الأول وتقسمها الى أنصبة صغيرة[٢٢] تقوم بتوزيعها على فقراء المواطنين الرومان دون غيرهم[٢٣] ، بشرط ألا يبيعوها[٢٤] .

ومن الواضح أن هذا الحظر كان يستتبع عدم التصرف في الأرض بالرهن أو بالهبة وإن كان لا يستتبع عدم توريثها . ولا شك في أن الهدف من منع التصرف في ملكية الأرض الممنوحة كان تفادي تكرار الحالة الراهنة . ولما لم يكن معروفاً عندئذ سواء مساحة الأرض التي ستستّردها الدولة أم عدد المواطنين الذين ستوزع عليهم ، فانه يبدو أن المشروع لم ينص على مساحة ما سيمنح لكل مواطن وأنه ترك تقدير هذه المساحة للجنة القائمة على تنفيذ المشروع . واستناداً الى نص القانون الذي صدر فيما بعد في عام ١١١ ق . م . لا يبعد أن تكون اللجنة حددت هذه المساحة بثلاثين يوجرا[٢٥] .

= الأب ، ولكنه وفقاً للاتجاه الذي ظهر مؤخراً يبدو أنه كان يسمح لثلاثة أبناء بأن يحوز كل منهم ٢٥٠ يوجرا . راجع : E. Badian, Historia, 1962, p. 210, n. 52.

(20) App., B.C., I, 11.

(21) Plut., T. Gracch., IX, 2.

(22) App., B.C., I,9.

(23) E. Badian, Foreign Clientelae, 1958, pp. 169 ff.

لكن بعض الباحثين ((e.g. Heitland, II, p. 269)) يستخلصون من العبارات العامة التي أوردها أبيانوس (B. C. I, 10) أن التوزيع كان يشمل أيضاً الحلفاء الإيطاليين .

(24) App., B.C., I, 10.

(25) Cf. C.A.H., IX, p. 23; Scullard, 1970, p. 27 and n. 9 p 388.

٣ ـ أن تُنتخب لجنة ثلاثية[٢٦] (tresviri agris iudicandis adsignandis) لتحدد الأراضي الواجب استردادها وتتولى توزيعها على المستحقين .

ويتضح بجلاء مما أوردناه أن مشروع القانون الذي اقترحه تيبريوس لم يكن أكثر من : ١ ـ إحياء القانونين اللذين صدرا على التوالي في عام ٣٦٧ ق . م . وفي حوالي عام ١٨٠ ق . م . ولكنه أُغفل العمل بأحكامهما وهي التي كانت تقضي بألا يحتفظ أحد بأكثر من ٥٠٠ يوجرا من الأرض العامة . ٢ ـ وتوزيع الأرض الزائدة على هذا الحد بين فقراء المواطنين . ٣ ـ وإيجاد الأداة اللازمة لتطبيق أحكام مشروع القانون الجديد .

وقد كان مشروع قانون تيبريوس أكثر سخاء من القانونين القديمين ، لأنه سمح لاثنين أو من الجائز لثلاثة من أبناء أرباب أرض الحيازة بأن يحتفظ كل منهم أيضاً بنصف ما يحتفظ به الأب ، واعتبر الأرض العامة الباقية في حوزة الأب وأبنائه ملكاً خاصاً لهم لا تستردها الدولة مستقبلاً ولا تقتضي عنها إيجاراً منهم . وإذا صح ما رواه بلوتارخ ، فان المشروع الأصلي قضى كذلك بدفع تعويض عن الإصلاحات التي أُدخلت على الأرض التي تستردها الدولة لزيادتها على الحد الأقصى المسموح به . ومعنى ذلك كله أن مشروع قانون تيبريوس كان محاولة معتدلة نزيهة بعيدة عن العسف وعن الحزبية ولا ترمي الا الى إصلاح حال سيئة كان الكثيرون يلمسونها ويدركون خطورتها ومن بينهم أولئك الذين كانوا يجنون من ورائها خيراً كثيراً . ومع ذلك فإن هذا المشروع صادف معارضة شديدة . ذلك أن أرستقراطية السناتو كانت في طليعة كبار أرباب الأراضي ، وأن أغلب أعضاء السناتو كانوا يعارضون أي تغير في الأوضاع القائمة ، وأنهم منذ ما قام به فلامينيوس في عام ٢٣٢ ق . م . أصبحوا يعتبرون كل محاولة لتوزيع الأرض العامة على فقراء المواطنين اتجاهاً ثورياً يستهدف إثارة الدهماء للسيطرة على مقاليد الحكم والانتقاص من سلطة السناتو ، مما حدا بهم من قبل الى القضاء على مشروع

(26) App., B.C., I, 10.

لايليوس في مهده على نحو ما مر بنا . وفضلاً عن ذلك فإن مساحات كبيرة من الأرض كانت اليد قد وضعت عليها منذ سنين عديدة وانتقلت مع الأرض الخاصة من شخص الى آخر إما بالميراث وإما وفاء لقروض لم تسدد وإما بصفة كونها هدايا أعراس ، وأصبح في حالات كثيرة من العسير التفرقة بين ما كان أرضاً عاماً وأرضاً خاصة . وقد كان من بين شكاوى كبار أرباب الأراضي أن مقابر أجدادهم أقيمت في أنحاء متفرقة من الأرض التي ورثوها وأنه تبعاً لذلك لم يكن من اليسير الاحتفاظ بهذه المقابر في الأرض التي ستبقى لديهم بعد أن تسترد الدولة ما يزيد على الحد الأقصى الذي اقترحه المشروع [٢٧].

وإزاء هذه الاعتبارات المختلفة كان مشروع قانون تيبريوس يمس صوالح الأثرياء جميعاً سواء أكانوا من أعضاء السناتو أم من غيرهم . والواقع أن هذا المشروع كان لا يتهدد صوالح كبار أرباب أرض الحيازة من الرومان فحسب، بل أيضاً – على نحو ما سنرى فيما بعد – صوالح الكثيرين من حلفاء روما اللاتين والإيطاليين . وتبعاً لذلك كان المشروع يثير قلق المعتدلين في الرأي من نبلاء الرومان ، فقد كانوا يشعرون بأنه لم يكن من الحكمة ولا الإنصاف إنزال إساءة جديدة عندئذ بهؤلاء الحلفاء بعد أن أوسعتهم روما إساءة من قبل.

وفضلاً عن ذلك فإن السلطة التي اقترح المشروع تخويلها لأعضاء اللجنة الثلاثية كانت واسعة مبهمة وفي الإمكان إساءة استخدامها ، ولا سيما عندما ذاع أن النية كانت مبيتة على جعلها شبه أسرية بترشيح تيبريوس وأخيه جايوس وحميه أبيوس قلاوديوس لعضويتها . هذا إلى أن اشتراك تيبريوس في عضوية هذه اللجنة كان مخالفاً لما يقضي به القانون [٢٨] من أنه لا يحق لمن يقترح تشكيل لجنة أن يكون عضواً فيها .

وإذا كان مشروع قانون تيبريوس قد أثار معارضة الرأسماليين الزراعيين من رومان وحلفاء ، فإنه حاز إعجاب فئات كثيرة من فقراء المواطنين وكذلك

(27) App., B.C., I, 10.
(28) Cf., Cic., de lege agr., II, 8, 21.

صغار المزارعين . ذلك أن الفقراء المقيمين في روما منذ ان اضطروا الى هجر أراضيهم والبحث عن أي عمل في العاصمة هللوا للمشروع وكانوا يريدون إقراره ، لأنه في نظر الراغبين منهم في استئناف حياتهم السابقة كان يتيح لهم الفرصة لمزاولة حياة زراعية مجزية ، وفي نظر الراغبين منهم في البقاء في روما كان نزوح الكثيرين عنها يزيد في فرص حصولهم على عمل . ومما يجدر بالملاحظة أنه بالرغم من نزوح كل هؤلاء من الريف الى روما فانهم ظلوا مسجلين في قبائلهم الريفية الأصلية وكانت لهم فيها أصوات كثيرة . وكذلك حبذ المشروع الناخبون المقيمون في الريف فوفدت أعداد كبيرة منهم على روما لإقراره . وكان بعضهم من صغار المزارعين الذين يعانون من منافسة الضياع الكبيرة ويرجون أن يؤدي إقرار المشروع الى تحسن حالهم ، وكان البعض الآخر من الأجراء الأحرار ويعللون النفس بأن يصبحوا أرباب ملكيات صغيرة .

ولما كانت روما قد اكتظت عندئذ اكتظاظاً لم يسبق له مثيل بجموع هائلة أثار المشروع فيها آمالاً عزيزة عليها تتصل بصميم حياتها ، وكانت هذه الجموع لا تحفل كثيراً ولا قليلاً بالقواعد والتقاليد الدستورية ولا يعنيها من الأمر إلا تحقيق رغباتها ، وكان جانب كبير من هذه الجموع لا يستطيع البقاء طويلاً في روما بسبب دواعي العمل في الريف فضلاً عن تكاليف الإقامة في العاصمة ، وكان من شأن تغير ترابنة العامة سنوياً أن يجعل تريبوناً متحمساً للإصلاح مثل تيبريوس غير مستعد للانتظار حتى تسنح له فرصة أخرى تكون أكثر ملاءمة لتنفيذ إصلاحاته ، فإنه من اليسير أن نتصور أنه لم يكن من شأن ذلك كله أن يساعد على الأناة والتريث أو إفساح الصدر للمعارضة أو احتمال تأجيل الموافقة على المشروع مرة بعد أخرى حتى تهدأ الأعصاب الثائرة ويصفو الجو . بيد أنه إذا كان ذلك كله قد يفسر الإجراءات غير العادية التي سنرى أن تيبريوس اتبعها ، فانه لا يبرر هذه الإجراءات .

خامساً ــ تيبريوس يتحدى التقاليد ويشفع ذلك بالخروج على الدستور

وإزاء ما وجهه الرأسماليون الزراعيون من نقد مرير إلى مشروع قانون الأراضي وما توقعه تيبريوس من عدم موافقة السناتو على هذا المشروع ، أغفل تيبريوس السناتو كلية وتقدم بمشروع قانونه الى جمعية القبائل مباشرة . وقد كان هذا التصرف يفوق في جرأته ما فعله فلامينيوس في عام ٢٣٢ ق . م . ذلك أن فلامينيوس بدأ بأن عرض على السناتو مشروع قانونه الخاص بتوزيع أراضي إقليم الغال على فقراء المواطنين ، وعندما رفض السناتو الموافقة على هذا المشروع أغفل فلامينيوس رأي السناتو وعرض مشروع القانون على جمعية القبائل فأقرته ، على حين أن تيبريوس أهمل شأن السناتو كلية وتقدم بمشروع قانونه إلى جمعية القبائل مباشرة . ولا جدال في أن تصرف تيبريوس لم يكن غير دستوري ، لأن قانون هورتنسيوس كان قد حرر جمعية القبائل من كل قيد على حريتها في التشريع ، بيد أن هذا التصرف تغاضى عن العرف الذي كان يقضي بعرض كل التشريعات قبل إصدارها على السناتو واحترام رأي السناتو فيما يعرض عليه ، بدليل أن تجاهل فلامينيوس لرأي السناتو أثار سخطاً كبيراً . واذا كان من العسير اعتبار جمعية القبائل في عام ٢٣٢ ق . م . ممثلة للأمة مصدر السلطات ، فإنه كان من الإسراف في التقدير بل من الحمق الزعم بأنه في عام ١٣٣ ق. م. كانت هذه الجمعية ــ وقد أصبحت تحت سيطرة غوغاء روما ــ تعتبر ممثلة للشعب الروماني (Populus Romanus Quiritium) . ولم يكن من شأن إغفال تيبريوس للسناتو إلا أنه زاد في مناهضة هذا المجلس لمشروع القانون ، فلجأ الى أحد وسائله المألوفة في عرقلة أي عمل لا يروق له ، بأن حرض أحد زملاء تيبريوس ، وهو تريبون العامة جنايوس أوقتافيوس قايقينا[٢٩] (Gn. Octavius Caecina) ، على استخدام حقه في مصادرة

(٢٩) عن الصراع بين تيبريوس وأوقتافيوس ، راجع :
J. Carcopino, Autour des Gracques, Ch. I; R.M. Geer, Class. and Med. Studies to E.K. Rand, 1938, pp. 105 ff.; A.E. Astin, Scipio Aemilianus, pp. 332 ff.; Scullard, 1970, n. 10 p. 388.

مشروع قانون تيبريوس – أي استخدام حق الڤيتو – عند عرض المشروع على جمعية القبائل.

وقد استجاب أوقتافيوس الى رغبة السناتو وصادر مشروع قانون تيبريوس، فرد تيبريوس على ذلك باستخدام حقه في منع مباشرة جميع الأعمال الرسمية، ثم أعاد عرض مشروعه في الاجتماع التالي لجمعية القبائل بعد أن أدخل بعض التعديلات على المشروع الأصلي، إذا صح ما انفرد بلوتارخ بذكره[30]. واذا كان من العسير الجزم بماهية هذه التعديلات، فإنه من المرجح أنها لم تمس العناصر الأساسية في المشروع الأصلي. واستناداً على نص أبيانوس، وهو الذي لا يذكر دفع تعويض عن الإصلاحات التي أدخلت على الأرض الزائدة على الحد الذي يسمح به المشروع، فإنه من الجائز أن يكون تيبريوس قد حذف من مشروعه المعدل البند الخاص بالتعويض، اذا صح أنه كان موجوداً في المشروع الأصلي. واستناداً على أن الأرض التي كان المشروع يسمح لأرباب الحيازة بالاحتفاظ بها لم تصبح ملكاً خاصاً لهم إلا في عام ١١١ ق. م.، وعلى أن أرباب هذه الأرض طولبوا في عام ١١٩ ق. م. – على الأرجح – بدفع إيجار عنها، يحتمل أن يكون النص المعدل للمشروع قد اقترح إبقاء هذه الأرض أرضاً عامة[31]. ولعل أن الباعث على ما أدخله تيبريوس من تعديل على مشروعه الأصلي كان مزدوجاً، وهو من ناحية إرهاب خصومه لكيلا يستمروا في مناهضته فيتابع الانتقاص من المزايا التي كان المشروع يخولها لهم، ومن ناحية أخرى الفوز من جمعية القبائل بتأييد ساحق يضمن إقرار المشروع وتنفيذه.

وعندما كرّر أوقتافيوس موقفه السابق بمصادرة المشروع مرة أخرى، تبعت ذلك مناقشات حامية الوطيس بين تيبريوس وأوقتافيوس. ويأخذ

---

(30) Plut., T. Gr., X.
(31) Cf. C.A.H., IX, p. 25.

كثيرون من الباحثين بما يرويه أبيانوس[٣٢] من أنه عندما وقعت هذه الأزمة، واقترح بعض ذوي الرأي عرض المشروع على السناتو ، لم يتردد تيبريوس في الامتثال إلى هذا الاقتراح ولكن السناتو قابل المشروع مقابلة عاصفة فلم يكن من تيبريوس إلا أنه قرر إعادة عرض المشروع على جمعية القبائل في اجتماعها التالي . وعندما انعقدت هذه الجمعية لنظر المشروع للمرة الثالثة وعاود أوقتافيوس مصادرة المشروع ، إقترح تيبريوس أن تقرر الجمعية أيهما يجب أن يعتزل منصبه . وما أن رفض أوقتافيوس هذا الاقتراح غير الدستوري حتى ناشد تيبريوس الجمعية أن تعزل زميله في الحال على أساس أنه يناهض صوالح الشعب مع أنه انتخب من أجل مراعاتها والدفاع عنها . وإزاء حماس الجماهير للمشروع ، إستجابت الجمعية الى نداء تيبريوس وبادرت كل قبيلة من القبائل الخمس والثلاثين الى الإدلاء بأصواتها في مسألة العزل ، ولم يبق إلا إعلان نتيجة التصويت في كل قبيلة : ويجدر بنا التنويه هنا ، بأنه لم يكن لكل قبيلة إلا صوت واحد يعبر عن رأي غالبيتها ، وبأن عملية استطلاع آراء القبائل كانت تجري على مرحلتين متعاقبتين أولاهما جماعية وثانيتهما فردية . ذلك أنه في المرحلة الأولى كانت القبائل جميعها تدلي بأصواتها في وقت واحد لتتبين كل منها رأي غالبيتها فيما هو معروض أمام الجمعية ، وفي المرحلة الثانية كانت قبيلة بعد أخرى تعلن صوتها أو رأيها وفقاً للترتيب الذي تحدده القرعة في كل حالة . وعندما أعلنت القبيلة الأولى موافقتها على عزل أوقتافيوس من منصبه ، أوقف تيبريوس عملية إعلان الأصوات ليرجو زميله أن يعدل عن موقفه . وإزاء إصرار أوقتافيوس على رأيه استؤنفت عملية إعلان أصوات القبائل . وبعد أن أعلنت سبع عشرة قبيلة موافقتها بحماس دافق على عزل أوقتافيوس ولم يبق إلا إعلان موافقة قبيلة أخرى واحدة لتتكون الغالبية اللازمة لإتمام الموافقة على العزل ، أوقف تيبريوس عملية إعلان الأصوات مرة أخرى وعاود رجاء زميله العدول عن موقفه قبل أن يقع المحظور . وإزاء

---

(32) App., B.C., I, 12.

إصرار أوقتافيوس على موقفه استؤنفت عملية إعلان الأصوات ، وبمجرد إعلان موافقة القبيلة الثامنة عشرة على عزله تقرر هذا الأمر الجلل . وعلى الفور انتخبت جمعية القبائل بدلاً من أوقتافيوس تريبوناً آخر هو كوينتوس مميوس (Qüintùs Memmiùs) . وبعد ذلك وافقت الجمعية على مشروع تيبريوس ، فأصبح قانوناً (٣٣) يعرف بقانون سمبرونيوس الخاص بالأراضي (Lex Sempronia agraria) ، نسبة الى عشيرة تيبريوس وفقاً للعادة المألوفة .

ولا جدال في أن مشروع قانون تيبريوس كان مشروعاً طيباً أملته مقتضيات ملحة من أجل الصالح العام ، ولا جدال كذلك في أن المعارضة كانت غير جديرة بأي اعتبار . بيد أن حماس تيبريوس لإقرار مشروعه دفعه الى ابتداع سابقتين خطيرتين : وهما إغفال « ڤيتو » تريبونية العامة وعزل زميله . حقاً إن ڤيتو ترابنة العامة بعد أن كان أفعل أداة لحماية العامة من بطش البطارقة ورفع الظلم عنهم قد غدا على مر الزمن أداة ماضية في قبضة النبلاء لوقف عمل أي حاكم لا يرضون عنه ، أو بعبارة أخرى لكبح جماح الجمعية الشعبية. ولكن إساءة استخدام هذا الڤيتو كان لا يحول دون حسن استخدامه ، ولا سيما في هذا الوقت الذي اشتد فيه استبداد النبلاء . واذا أُبيح مرة إغفال هذا الڤيتو فما الذي كان يحول دون إغفاله كلما تقدم الى جمعية القبائل زعيم شعبي متهور بمشروع لا يستهدف إلا اكتساب محبة الجماهير دون نظر الى الصالح العام ؟ولا جدال في أن النبلاء أساءوا استخدام سلطتهم ، ولا في أن جمعية القبائل كانت نظرياً هي الأمة الرومانية ، غير أنه عندما أصبح مواطنو هذه الأمة منتشرين في أرجاء متفرقة في إيطاليا وخارجها وتبعاً لذلك يتعذر على الكثيرين من هؤلاء المواطنين حضور اجتماعات جمعية القبائل ، وعندما

---

(33) App., B.C., I, 12.

من الجائز ان تكون جمعية القبائل قد وافقت على مشروع قانون تيبريوس في فبراير أو ابريل عام ١٣٣ ق.م. راجع :

Scullard, 1970, n. 11 pp. 388-9.

أصبح أكثر المواطنين روية واتزاناً لا يؤمون اجتماعات هذه الجمعية بعد أن غدت تحت سيطرة غوغاء روما ، لم تعد جمعية القبائل تمثل الأمة الرومانية تمثيلاً صحيحاً . وأخطر من ذلك أنه لم يكن في وسع مثل هذه الجمعية الارتفاع الى مستوى الأحداث والتحكم في توجيه سياسة الدولة على نحو أفضل من نبلاء السناتو وهم الذين عركتهم التجارب والتمرس طويلاً بتولي مقاليد الأمور . وفي مثل هذه الظروف ألم يكن رفع كل قيد عن حرية جمعية القبائل في التشريع ينطوي على أخطار شديدة ، ولا سيما أنه لم يكن هناك أي ضمان لأن يكون ترابنة العامة دائماً على شاكلة تيبريوس من حيث صدق النية ونبل الهدف ؟

واذا كان الدستور الروماني قد خول للحاكم أن يستقيل من تلقاء نفسه كما خول للأمة أن تحاسبه بعد انتهاء مدة حكمه وكذلك خول لأي زميل له أن يصادر أي عمل لا يوافق عليه ، فإن هذا الدستور لم يبح لأحد حتى ولا للجمعية الشعبية التي انتخبت الحاكم أن تعزله قبل انتهاء مدة حكمه وإلا تعذر عليه أن يكون حاكماً أميناً مستقل الرأي .

واذا لم تكن وظيفة ترابنة العامة ، من الوجهة الفقهية ، في عداد الوظائف العامة للشعب الروماني بأسره ، وذلك لأنها أنشئت أصلاً لمراعاة صوالح العامة والدفاع عنها ولأن توليها ظل مقصوراً على الذين ينتمون الى العامة سواء بالمولد أم بالتبني ، فانه منذ انتهاء الصراع بين البطارقة والعامة أصبحت وظيفة ترابنة العامة جزءاً من الجهاز الحكومي الروماني وإحدى الأدوات الأساسية لتصريف شئون المواطنين الرومان جميعاً . ومعنى ذلك أن ترابنة العامة أصبح شأنهم شأن الحكام بأدق معنى الكلمة ، وتبعاً لذلك فان عزل أي تريبون للعامة كان مثل عزل أي حاكم أمراً غير مشروع . ومهما يكن من أمر الآراء الفقهية في مسألة عزل ترابنة العامة فانه لا جدال في أن تيبريوس بعزله زميله كال ضربة قاصمة لا لحصانة ترابنة العامة فحسب ، وهي التي كانت العماد الدستوري لمركزه هو نفسه ، بل أيضاً لحصانة مركز كل حاكم روماني . ذلك

أن استباحة عزل أوقتافيوس لمعارضته مشروع قانون هلل له الشعب انطوى على خطرين جسيمين ، وأحدهما هو أنه لم يعد في وسع أي تريبون نزيه أن يتصدى لمعارضة أي مشروع براق يكون زعيم من الزعماء أغرى جماهير الشعب على قبوله برغم تعارضه مع الصالح العام . ألم يكن معنى ذلك جعل ترابنة العامة أبواقاً تردد رغبات الدهماء بدلاً من أن يكونوا زعماء يتولون توجيههم ؟ والخطر الآخر هو أنه بعد سابقة عزل أحد ترابنة العامة مع كل الحصانة التي كان هؤلاء الترابنة يتمتعون بها ما الذي كان يمكن أن يحول دون عزل أي حاكم روماني متى تتوافر لخصمه الوسائل التي تمكنه من ذلك ؟

وعندما أصبح مشروع تيبريوس قانوناً إنتُخبت اللجنة الثلاثية التي نص القانون عليها لتتولى أمر تنفيذه ، وتكونت هذه اللجنة من تيبريوس نفسه وأخيه جايوس وحميه أبيوس قلاوديوس . ويبدو مما أورده ليفيوس (٣٤) أنه بمقتضى تشريع تال خولت اللجنة سلطة قضائية للفصل فيما ينشأ من منازعات حول ملكية الأرض التي تقع تحت طائلة قانون الأراضي . ووفقاً لما جاء عند أبيانوس(٣٥) كان يتعين اختيار أعضاء جدد للجنة في كل عام ، بيد أنه لما كان هذا لا يتفق مع ما هو معروف من أنه لم يطرأ أي تغير على أعضاء اللجنة إلا عند وفاة أحدهم ، فإن أكثر الباحثين يرون أن أبيانوس أساء التعبير عن وضع كانت بمقتضاه عضوية اللجنة سنوية مع جواز إعادة انتخاب أعضائها(٣٦)

وما أن باشرت اللجنة الثلاثية عملها حتى أدركت أن نجاح تنفيذ قانون الأراضي لا يتوقف فقط على استرداد الأرض العامة الزائدة على أحكام هذا القانون وتقسيم هذه الأرض الى إقطاعات وتوزيعها على فقراء المواطنين ، بل أيضاً على وجود اعتمادات مالية لمساعدة أرباب هذه الإقطاعات على الحصول على ما يلزمهم من بذور وماشية وأدوات زراعية ليتمكنوا من

---

(34) Liv., Epit., 58.
(35) App., B.C., I, 9.
(36) Cf. Carcopino, pp. 149 ff.

استغلال إقطاعاتهم . ووفقاً للعرف لم يكن يحق إلا للقناصل استخدام الأموال العامة دون أخذ موافقة السناتو . ولما كان تيبريوس قد أثار ثائرة السناتو بقانونه وبالأساليب التي لجأ اليها لإقرار هذا القانون ، فإن سيطرة السناتو على الشئون المالية أتاحت لهذا المجلس الفرصة ليكيل ضربة قاتلة للقانون برفض الموافقة على الاعتمادات المالية اللازمة لتنفيذه . غير أنه لم تلبث أن أتت اللجنة الثلاثية نجدة من حيث لم تحتسب . ذلك أنه على حين فجأة وصل الى روما مبعوث من برجام حاملاً معه نبأ وفاة أتالوس (Attalus) الثالث ملك برجام ووصية هذا الملك بأن تؤول الى روما مملكته وكنوزه[٣٧] ، فقرر تيبريوس الإفادة من هذا الإرث في تنفيذ قانون الأراضي[٣٨] . ولما كانت مباشرة الشئون المالية والخارجية وقفاً على السناتو منذ أمد بعيد ، وكان السناتو قد أبدى عدم استعداده للموافقة على الاعتمادات المالية اللازمة لتنفيذ قانون الأراضي ، فإنه لم يكن هناك سبيل أمام تيبريوس للإفادة من تركة أتالوس إلا بالاعتداء على حق السناتو التقليدي في مباشرة الشئون المالية والخارجية . وتبعاً لذلك فإن تيبريوس تقدم الى جمعية القبائل بمشروع قانون لتخصيص جانب من تركة أتالوس لتنفيذ قانون الأراضي ، وأعلن أنه سيتقدم بمشروع قانون آخر يقضي بأن تتولى جمعية القبائل تنظيم شئون مملكة برجام . ويبدو أن هذا التهديد بفتح الباب على مصراعيه أمام جمعية القبائل للتدخل في الشئون المالية والخارجية أرغم السناتو على الموافقة على الاعتمادات المالية اللازمة لتنفيذ قانون الأراضي . ولم يكن من شأن تحدي حق للسناتو لم يسبق تحديه وإفساح المجال أمام جمعية القبائل لممارسة اختصاصات وسلطات غير مألوفة إلا زيادة نقمة أعضاء السناتو على تيبريوس وإثارة أشد مخاوفهم حول أهدافه ومراميه .

سادساً — تيبريوس يرشح نفسه ثانية لتريبونية العام التالي ، مصرعه

وفي خلال الصيف ، عندما اقترب موعد الانتخابات لوظيفة التريبونية

(37) O.G.I.S. 338; 438; Lewis-Reinhold, Roman Civilization, I, pp. 321-3.
(38) E. Badian, Foreign Clientelae, pp. 173 ff.

لعام ١٣٢ ق.م. رشح تيبريوس نفسه لتولي هذه الوظيفة ثانية. ولعل أن يكون قد بعثه على الاستمرار في وظيفته عاملان، وأحدهما هو حرصه على متابعة تنفيذ قانون الأراضي، والعامل الآخر هو حماية نفسه من المحاكمة بعد انتهاء مدة تريبونيته وزوال حصانة هذه الوظيفة عنه. ولم يكن من شأن هذه الخطوة الجديدة التي أقدم عليها تيبريوس إلا إثارة مشكلة دستورية أخرى، وهي حق ترابنة العامة في تولي التريبونية عاماً بعد عام على التوالي [٣٩]. ولا جدال في أن ذلك كان أمراً مألوفاً في أثناء الصراع بين البطارقة والعامة غير أن ترابنة العامة عزفوا عن ذلك منذ أمد بعيد. ولا جدل أيضاً في أن تريبونية العامة لم تكن من الوجهة الفقهية البحت في عداد الوظائف العامة بيد أنها من الناحية العملية غدت كذلك منذ انتهاء الصراع بين البطارقة والعامة، كما سبق أن ذكرنا. ووفقاً لما قضى به قانون تنظيم تولي الوظائف العامة (Lex Villia annalis) وهو القانون الذي صدر في عام ١٨٠ ق.م. – كان محظوراً تولي الوظائف العامة سنتين متتاليتين. واذا جاز أن هذا القانون – بحكم نصه – كان لا ينطبق على تريبونية العامة، وأنه لم يوجد نص قانوني يحظر تولي وظيفة التريبونية عامين متتاليين، فإنه بعد أن أصبحت تريبونية العامة جزءاً من الجهاز الحكومي الروماني أصبح توليها عاماً بعد عام أمراً مخالفاً لروح الدستور وتقاليد السلف (mos maiorùm): ذلك أن تغيير الحكام بأدق معنى الكلمة وكذلك ترابنة العامة كان مكملاً لحصانتهم في أثناء مدة حكمهم وشرطاً أساسياً لعدم إساءة تلك الحصانة وأكبر ضمان للحيلولة دون أن يصبح أي شخص يتمتع بشعبية كبيرة حاكماً مطلقاً مستدبماً شأنه شأن الطغاة في بلاد الإغريق وشأن ملوك روما القدماء. وهو ما كان يثير أشد الفزع في الرومان. وسوف نرى بعد قليل من موقف ترابنة العامة أنفسهم يوم الانتخاب ومن

---

(٣٩) عن إعادة انتخاب ترابنة العامة، انظر:

C.A.H., IX, pp. 33-34, 61-2; A.H.M. Jones, Proceedings Camb. Philol. Soc., 1960, pp 35 ff.; L.R. Taylor, Atheneum, 1936, pp. 56 ff.; A. E. Astin, Scipio Aemilianus, pp. 351 ff.; Scullard, 1970, n. 14 p. 389.

مشروع القانون الذي تقدم به تريبون العامـــة جايوس بابيريوس جاربو (G. Papirius Garbo) في عام ١٣١ ق.م. ليجيز إعادة انتخاب ترابنة العامة [٤٠] أن هذا الأمر كان في ثلاثينات القرن الثاني قبل الميلاد مخالفاً على الأقل لروح الدستور الروماني ولما جرى العرف عليه منذ النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد . بل ان ما سيأتي ذكره عن الاضطرابات التي وقعت في عام ١١٠ ق . م . بسبب رغبة اثنين من ترابنة العامة في إعادة ترشيح نفسيهما للعام التالي [٤١] يدل على أنه حتى ذلك العام كانت مسألة إعادة انتخاب ترابنة العامة لا تزال مثار خلاف شديد في الرأي .

ويحدثنا بلوتارخ [٤٢] بأن تيبريوس روّج لإعادة انتخابه بالدعاية لعدد من مشروعات قوانين الإصلاح كان ينوي التقدم بها . ولما كان أبيانوس لا يشير إلى هذه المشروعات ، وكان جايوس جراكوس قد استصدر فيما بعد قوانين بمثل هذه المشروعات ، وكان من الجائز أن تكون قد عُزيت الى تيبريوس بعض مشروعات أخيه ، فإنه في ضوء معلوماتنا الحالية يصعب الجزم بماهية الإصلاحات التي كان تيبريوس ينوي القيام بها ، غير أن هذا لا ينفي أن يكون تيبريوس قد تقدم للناخبين ببرنامج للإصلاح يبرر إعادة انتخابه .

وقد كان من شأن إقدام تيبريوس على إعادة ترشيح نفسه ازدياد مخاوف النبلاء منه ونقمتهم عليه [٤٣] ، مما حفزهم على العمل حثيثاً للحيلولة دون نجاحه في الانتخابات بعد أن صبروا على فشل كل محاولاتهم لمنع صدور قانون الأراضي ثم لعرقلة تنفيذه ، معللين أنفسهم فيما يبدو بالأمل في أنه بانقضاء عام تريبونية تيبريوس ستنقشع الغمة ولن يعدموا وسيلة أو أخرى لإنقاذ

(40) Liv., Ep., 59; Cic , de Amic., 25, 95; de Or. II, 40, 170.
(41) Shalhust., Bell. Jug., 37, 1-2.
(42) Plut., T. Gr., XVI, I.
(43) E. Boren, Amer. Journ. Philol., 1961, pp. 358 ff.; Cf. Dio, Cass., fr. 83, 7 ff.

صوالحهم . وأما اذا أعيد انتخاب تيبريوس ثانية فإنه لن يكون هناك ما يحول دون إعادة انتخابه مراراً أخرى ودون صدور تشريعات جديدة قد تلحق بهم أضراراً جديدة . بل إنه اذا لم تصدر تشريعات جديدة ولكن اللجنة الثلاثية تابعت عملها بهمة ونشاط ، فإنه من المحتمل عندئذ أن يتعذر عليهم إنقاذ أراضيهم الزائدة على الحد الذي فرضه القانون .

وإزاء المخاوف التي استبدت بالنبلاء صمموا على استخدام كل وسيلة ممكنة لمنع إعادة انتخاب تيبريوس تريبوناً مرة ثانية ، ومهدوا لذلك ببذل كل جهد في نشر شائعات مغرضة عن أهداف تيبريوس ومراميه فأخذ يتناقص عدد مؤيديه . وقد ساعد على ذلك أن الانتخابات أجريت في شهر يوليه حين كان كثيرون من الناخبين الريفيين الذين وفدوا على روما من المناطق المجاورة لها للموافقة على قانون الأراضي قد عادوا الى مواطنهم وفي شغل بحصاد المحصول .

وعندما انعقدت جمعية القبائل فوق تل قابيتولينوس لإجراء الانتخابات لوظيفة التريبونية ، اعترض الأثرياء على إعادة تيبريوس ترشيح نفسه لهذه الوظيفة ونشب خلاف بين ترابنة العامة حول رياسة الجلسة مما أدى الى إرجاء انعقادها الى اليوم التالي . وفي هذا اليوم . عندما كرر الأثرياء تحديهم لشرعية ترشيح تيبريوس نفسه للتريبونية ثانية وانحاز الى جانبهم بعض ترابنة العامة ، يبدو أن تيبريوس أراد إرهاب خصومه وإفهامهم أنه مصمم على المضي قدماً في سبيله فأعطى لأنصاره إشارة ليلتفوا من حوله . وبالفعل أحاط به كثيرون منهم ، ولكن بعضهم الآخر فسروا الإشارة بأنها إيذان باستخدام العنف ، مما أدى الى وقوع بعض الشغب وفرار الأثرياء وترابنة العامة المعارضين وانتشار شائعتين كاذبتين فحواهما أن تيبريوس عزل باقي الترابنة وأنه أعلن نفسه تريبوناً للعام التالي دون إجراء انتخابات(٤٤) .

(44) App. B.C., I, 14-15.

وفي هذه الأثناء كان السناتو مجتمعاً في معبد ربة الإيمان (Fides) على مقربة من معبد يوبيتر قابيتولينوس (Jupiter Capitolinus) وهو الذي كانت جمعية القبائل تعقد جلستها أمامه . وعندما تناهت الى أسماع أعضاء السناتو أنباء ما حدث في جلسة جمعية القبائل وما أشيع كذباً عن تيبريوس ، حمل عليه خصومه حملة شعواء واتهموه بأنه يطمع في إقامة نفسه طاغية وطلبوا الى القنصل سقايفولا — وهو الذي كان يرأس جلسة السناتو يومئذ — أن ينقذ الدولة ويقضي على الطاغية . ولكن سقايفولا التزم جادة الصواب ورد على الطلب الذي وجه اليه بأنه لن يتخذ إجراء غير مشروع كما أنه لن يعترف بصلاحية أي إجراء باطل يتخذه الشعب . وهذا يدحض الزعم بأن « إحدى القواعد العامة في الدستور الروماني كانت تجيز استباحة دم من يسعى الى تنصيب نفسه طاغية » ، وإلا لما ادعى السناتو لنفسه حق إعلان حالة الطوارىء بإصدار ما يعرف بقرار السناتو النهائي (Senatus Consultùm Ultimùm) وهو الذي بمقتضاه كان القنصلان يخولان السلطة كاملة لاتخاذ أي إجراء للحفاظ على سلامة الدولة من أي مكروه ، دون أن يحق لأي حاكم آخر أو أي تريبون الاعتراض على ما يقرره القنصلان أو يحق لأي مواطن استئناف أي حكم يصدره القنصلان عندئذ . ومعنى الموقف الذي اتخذه سقايفولا يومئذ أنه كان يرى أن إعادة ترشيح تيبريوس للتريبونية أمر غير مشروع ، وأنه اذا مضت جمعية القبائل في سبيلها وأعادت انتخاب تيبريوس تريبوناً فإن هذا الإجراء باطل وأن الحكومة لن تقره أو تعترف به ، بيد أنه كان يرى كذلك أنه لم يكن من الحكمة وقف عملية الانتخاب بالقوة . غير أن الكاهن الأكبر والقنصل السابق بوبليوس سقيبيو ناسيقا (Nasica) والمتطرفون من أعضاء السناتو رأوا أنه كان من شأن الموقف الذي اتخذه سقايفولا مسايرة الثورة على الأوضاع القائمة ، وأخذوا على عاتقهم القضاء على هذه الثورة في مهدها . ذلك أن ناسيقا وأشياعه من أعضاء السناتو اندفعوا الى مكان انعقاد جمعية القبائل ، وفي طريقهم انضم اليهم عدد كبير من أتباعهم وعبيدهم

المسلحين . واذا كان الشغب الذي سبق ذلك قد أدى بطبيعة الحال الى انصراف فريق من الحاضرين في اجتماع جمعية القبائل ، فإن وصول هذا الحشد الكبير وعلى رأسه ناسيقا وعدد من أعضاء السناتو البارزين أرهب فريقاً آخر فولى هارباً من مكان الاجتماع ، مما يسر لناسيقا وصحبه أن يتغلبوا على الذين بقوا للدفاع عن تيبريوس . وفي الالتحام الذي وقع بين الفريقين قُتل تيبريوس و ٣٠٠ من أنصاره . ومع أن منع دفن الموتى كان يعتبر رجساً فاحشاً ، فإن المنتصرين انتظروا حتى الليل وألقوا بجثث ضحاياهم في نهر التيبر . وهكذا سُفك الدم لأول مرة في صراع أهلي روماني منذ طرد الملوك . ومن سخرية القدر أن السفاحين كانوا أنصار الدستور الذين وضعوا على هذا النحو سابقة خطيرة (٤٥) .

سابعاً — تعقيب

واذا كان واجب الإنصاف يقتضي أن نقرر أن تيبريوس جراكوس كان صادق النية في الإصلاح وأنه لم يبتغ من وراء ذلك نصب نفسه طاغية أو ملكاً وفقاً لمزاعم خصومه ، فإن هذا لا يعفيه من أنه في لهفته الشديدة على إقرار مشروع قانونه وفي حماسه الدافق لتنفيذ هذا المشروع بعد إقراره إعتدى اعتداء صارخاً على حرمة التقاليد الراسخة والقواعد الدستورية بإغفاله ڤيتو زميله ، وعزله هذا الزميل ، واتجاهه الى التدخل في الشئون المالية والخارجية والى أن يسند الى جمعية القبائل إختصاصات لم يكن في وسعها النهوض بها على نحو يكفل صوالح الدولة مع الحفاظ على النظام الجمهوري ، وترشيح نفسه لإعادة توليه تريبونية العامة في السنة التالية مباشرة . ولو أن السوابق والاتجاهات التي استحدثها تيبريوس كانت عملية وكفيلة بحسن تسيير دفة الدولة ووضع الأمور في نصابها ، لما كان عليه غبار ولكان مصلحاً فذاً جديراً بمكان

(45) App., B.C., I, 16-17; Liv., Epit., 58; Val. Max., III, 2, 17; Velleius, II, 3; ad Herenn., IV, 55, 68; [Victor] de Vir. Ill., 64.

مرموق في سجل التاريخ . بيد أننا سنرى كيف أن مجرى الأحداث التالية قد أثبت أن بدع تيبريوس كانت خطيرة العواقب ، وأنه بسبب سوء تقديره للظروف الراهنة ولعواقب ما أقدم عليه أفضت تصرفاته المنبثقة من رغبتـه الملحة في الإصلاح الى إشعال لهيب ثورة إكتوى الجميع بنيرانها ولم يخمد أوارها إلا بالقضاء على النظام الجمهوري الروماني .

وليس معنى ذلك أن النظم القائمة كانت نظماً صالحة لمواجهة مشاكل الدولة الرومانية ، أو أن القابضين على أزمّة الحكم في هذه الدولة كانوا أهلاً للاضطلاع بمهمتهم . ذلك أنه اذا كانت الحروب الطويلة قد أثبتت عدم صلاحية النظم القائمة التي كانت تقضي بتغيير الحكام سنوياً وتبعاً لذلك قواد الجيوش وحكام الولايات ، فإن إغفال تيبريوس مصادرة زميله مشروع قانون الأراضي ، وإقدام تيبريوس على عزل هذا الزميل ، ورغبة تيبريوس في إعادة توليه وظيفة التريبونية ، تدل على أن قصر مدة تولي الوظائف العامة على عام واحد كانت تنطوي على عيب آخر وهو تعذر القيام بمشروعات إصلاحية طويلة الأجل ومتابعة تنفيذ هذه الإصلاحات . والمشاكل العديدة التي واجهت روما في عام ١٣٣ ق . م . وكان الكثيرون يرزحون تحت عبئها بل كان استمرار قيامها يتهدد كيان الدولة ذاته تدمغ النبلاء والسناتو بالفشل الذريع في حكم الدولة الرومانية . وفي كنف هذه الظروف واستمساك الطبقة الحاكمة بالحفاظ على سيطرتها وامتيازاتها لم يكن هناك مفر ، إن عاجلاً أو آجلاً ، من تغيير النظم والأوضاع القائمة بعد أن فقدت صلاحيتها لمواجهة تبعات روما ومشاكلها المتزايدة . وتبعاً لذلك فانه كان أمراً محتوماً ظهور حركة للإصلاح ووقوع صدام بين ضحايا المشاكل القائمة وعلى رأسهم دعاة الاصلاح وبين القابضين على مقاليد الحكم المستفيدين من بقاء الأوضاع على ما كانت عليه .

واذا كان شباب تيبريوس وتحمسه للإصلاح قد دفعاه الى تخطي نطاق الحكمة في تصرفاته ، فإنه لم يعمد إلا الى مخاطبة العقول واستثارة عواطف

الجماهير على المظالم التي كانوا يشقون بها . على حين أن خصوم تيبريوس عمدوا الى إطلاق الشائعات والأكاذيب والى استخدام القوة الغشوم للقضاء عليه وعلى دعوته . ولا جدال في أنه لوكانت النظم القائمة نظماً صالحة، أو لو كان المضطلعون بشئون الحكم يرعون الصالح العام ، لما نشأت وتعددت كل تلك المظالم والمشاكل ، ولما كانت هناك حاجة ملحة الى الإصلاح دفعت تيبريوس الى ركوب متن الشطط بحيث أنه أصبح في ذمة التاريخ متهماً بأنه في سعيه الى الإصلاح أشعل لهيب ثورة لم تبق ولم تذر. بيد أنه إزاء ما سنراه من العوامل الأخرى التي أسهمت الى حد كبير في القضاء على النظام الجمهوري . يبدو لنا أنه من الإسراف في الرأي ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن تيبريوس يتحمل الجانب الأكبر من تبعة زوال النظام الجمهوري الروماني[٤٦] . ولا جدال في أنه لو كان في وسع خصوم تيبريوس أن يقرعوا الحجة بالحجة وأن يفندوا الأسس التي قامت عليها حركة الإصلاح لما كان هناك داع الى استخدام البطش والقوة . وهذا يدمغ خصوم تيبريوس بأنهم كانوا حماة فاسدين لنظام حكم فاسد ، ولا عجب أن حماقتهم وأنانيتهم واستمساكهم بالحفاظ على مكانتهم ومغانمهم قد دفعتهم الى سفك الدماء باسم الدفاع عن الحرية والتقاليد والقواعد الأساسية في الدستور . واذا كان بعض أعضاء السناتو قد اتسموا بالحكمة فلم يشاركوا في جريمة سفك دماء خصومهم . فإن حكمة هؤلاء الأعضاء لم تستطع كبح جماح المتهورين من زملائهم . وبذلك كشفت من جديد تلك الأقلية المتسيطرة عما يكمن فيها من عجز وقصور وعن عدم صلاحيتها لحل الأزمات التي كانت روما تواجهها . ومأساة تيبريوس . بما تكشفت عنه من تشبث كل من الفريقين المتصارعين بوجهة نظره وعدم استعداده

(46) R.E. Smith, The Failure of The Roman Republic, 1955.

وعن أسباب فشل النظام الجمهوري الروماني ، راجع :

Ch. Meier, Res Publica Amissa, 1966; P.A. Brunt, J.R.S., 1968, pp. 229 ff.; E.W. Gray, Cl. Rev., 1969, pp. 325 ff.

للتسامح مع الفريق الآخر ومحاولة استرضائه تفادياً للصدام الدموي ، تدل على الفارق الهائل بين العامة والبطارقة في صدر العصر الجمهوري وبين عامة الرومان ونبلائهم في القرن الأخير من عصر الجمهورية ، وتعدنا لأن نتوقع أسوأ الاحتمالات في الصراع الجديد المحتوم .

وأخيراً لا بد لنا من أن ننوه هنا بما سيتكشف لنا فيما بعد من أن قانون الأراضي — وهو الذي أفضت الجهود التي بذلت لإقراره وتنفيذه الى عواقب خطيرة — لم يؤد الى حل المشكلة الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك لأن تيبريوس أغفل من حسابه حقيقتين هامتين ، وإحداها هي غريزة حب التملك ، والأخرى هي عدم قدرة الكثيرين من الذين منحوا إقطاعات على تحمل حياة الريف الرتيبة بعد ما ألفوا الحياة البهيجة الصاخبة التي ألفوها في روما ، فما أن أبيح لهم بيع إقطاعاتهم حتى تخلصوا منها ويمموا وجوههم صوب العاصمة ووجد الأثرياء فرصة لاقتناء الضياع من جديد . وهكذا عادت الأوضاع الى ما كانت عليه تقريباً — باستثناء بقاء الحد الأقصى لما تجوز حيازته من الأرض العامة — وذهبت سدى كل التضحيات التي بذلت من أجل قانون الأراضي .

الفصل الثاني

الأحداث الداخلية والخارجية منذ مصرع تيبريوس حتى انتخاب أخيه جايوس تريبونا للعامة

الأحداث الداخلية

اولاً — السناتو يدعم سيطرته

رأينا كيف أن تيبريوس جراكوس تحدى سيطرة السناتو وهزها هزاً عنيفاً ، فكان أول هم للسناتو عندما خرج منتصراً من صراعه مع تيبريوس هو دعم سيطرته . ولما لم يكن أمراً مضموناً ولا مأمون العاقبة إلغاء قانون الأراضي على أساس أن عزل أوقتافيوس كان عملاً غير مشروع وأنه لولا ذلك لما أمكن إصدار هذا القانون ، فإن السناتو آثر تحين الفرص المناسبة لتعطيل تنفيذ هذا القانون أو على الأقل للحد من فاعليته . ولكنه لكي يحتفظ السناتو بسيطرته كان يجب ألا يتكرر ما أقدم عليه تيبريوس من إغفاله عرض مشروعه على السناتو ومن عزله تريبوناً يعارضه ومن اتجاهه الى الاعتداء على حق السناتو التقليدي في مباشرة الشئون المالية والخارجية بشروعه في إعطاء هذا الحق الى جمعية القبائل ، ومن إعادة ترشيح نفسه لوظيفة التريبونية . لأنه لم يكن

معنى ذلك كله إلا إقامة نظام للحكم يقبض على زمامه تريبون للعامة يتمتع بمكانة شعبية كبيرة تمكنه من إعادة انتخابه عاماً بعد آخر . وفي كنف مثل هذا النظام كان السناتو يفقد كل نفوذه وسيطرته . ومن ثم فإنه حفاظاً على الأوضاع القائمة وإرهاباً لمن يحاول اقتفاء أثر تيبريوس قرر السناتو أنه لا بد من تجريم كل هذه التصرفات ومعاقبة كل الذين تثبت إدانتهم بمساعدة تيبريوس على ما أقدم عليه .

وتبعاً لذلك كلف السناتو بوبليوس بوبيليوس لايناس (Popilius Laenas) – أحد قنصلي عام ١٣٢ ق . م . – بتشكيل محكمة غير عادية لمحاكمة كل من بقي على قيد الحياة من أنصار تيبريوس[1] . وقد كانت تعليمات السناتو للمحكمة بالغة الصرامة ، وبالرغم من أن المحكمة لم تذهب في تفسير هذه التعليمات إلى حد إعدام الذين أدينوا صلباً أو جلداً ، فإنها أعدمت أكثر أنصار تيبريوس بأساليب وحشية مختلفة وقضت دون محاكمة بنفي كل من تمكنوا من الفرار قبل إلقاء القبض عليهم . ولا أدل على إيغال هذه المحكمة في معاقبة أنصار تيبريوس من أنه لم ينج بحياته من بين كل الذين حوكموا أمامها سوى بلوسيوس أستاذ تيبريوس ، إلا أنه رأى من الحكمة ألا يبقى في إيطاليا فرحل إلى آسيا حيث انتحر بعد عامين أو ثلاثة .

وهكذا بسفك الدماء أول الأمر سفكاً سافراً لا مبرر له إلا شريعة الغاب ، ثم بسفك الدماء ثانية سفكاً مقنعاً تحت ستار من الشرعية الزائفة بمحاكمات عسفية ، رد السناتو رداً جذرياً مخضباً بالدماء على تحدي سيطرته . ومما له دلالته أن ناسيقا ، مدبر وقائد الهجوم المسلح الذي أودى بحياة تيبريوس و ٣٠٠ من أنصاره ، كان أحد أعضاء المحكمة الخاصة التي نكلت بأغلب البقية الباقية من أنصار تيبريوس . وبعد أن أدى ناسيقا دوره مرتين في القضاء على حركة تيبريوس ، كان وجود هذا النبيل الكريه المتطرف بين ظهراني أعضاء السناتو

(1) Sallust., B. Jug., 31, 7; Velleius, II, 7, 3; Val. Max., IV, 7; Cic., de Amic., 11, 37; Plut., T. Gr., XX.

في روما يسبب لهم حرجاً غير قليل . ومرد هذا الحرج الى أنه لم يفت خصومهم أن يرددوا كيف أن حفظة النظام القائم المدافعين عن الدستور ، وهم الذين أعدموا أنصار تيبريوس بتهمة استخدام العنف ، يسمحون بأن يبقى في صفوفهم رجل قاد المذبحة التي أزهقت روح رجل انتخبه الشعب وكانت تحمي حياته حصانة عقوبة الاعتداء عليها هي الإعدام . وقد وجد السناتو مخرجاً يخلصه من هذا الحرج وفي الوقت نفسه يقي هذا الرجل التعس من المحاكمة على جرمه بأن عينه عضواً في البعثة التي أنفذها لبحث شئون ولاية آسيا ، حيث توفي بعد ذلك ببضع سنين[٢] .

ويتسم عام ١٣١ ق . م . ببعض الأحداث المثيرة التي تعكس صورة الحالة القلق التي كانت تغشى روما وكذلك لمحاولة السناتو المستميتة لدعم سيطرته . ذلك أن أحد القنسورين اللذين توليا مهام القنسورية في هذا العام كان كوينتوس متلّوس مقدونيقوس[٣] . وقد هال متلّوس ما لاحظه من العزوف عن الزواج فدعا في خطبته المشهـــورة (de prole augenda) الى ضرورة جعل الزواج إجبارياً لزيادة عدد النسل[٤] . وأخطر من ذلك أنه عند مراجعة قائمة أعضاء السناتو وإعداد القائمة الجديدة لم يدرج فيها هذا القنسور تريبون العامة جايوس أتينيوس لابيو (G. Atinius Labeo) . ولما كان لابيو قد اعتبر حذف اسمه من قائمة أعضاء السناتو اعتداء على حرمة وظيفته ، فإنه استخدم السلطات القديمة لوظيفته ضد القنسور وقضى بجره الى صخرة تاربيا[٥] (Tarpeia) ليلقي به منها على غرار المجرمين الذين كان

---

(2) Plut., T. Gr., XXI; Val. Max., V, 3.
(3) Cf. Liv., Epit., 59; Cic., de domo, 139; Plin., N.H., VII, 142-6.
(4) Gellius, I, 6.
(يخطىء جايوس إذ يعزو هذه الخطبة الى متلوس نوميديقوس)
فيما بعد تلا أغسطس الخطبة نفسها على أعضاء السناتو لتحقيق الهدف نفسه ، راجع
Liv., Epit., 59; Suet., Aug., 89; Gellius, I, 6.
(5) Liv., Epit., 59
كانت صخرة تاربيا جرفاً يقذف منه بالسفاحين والخونة . واذا كانت المصادر القديمة=

يُقضى بإعدامهم على هذا النحو . واذا كان تدخل تريبون آخر قد أنقذ القنسور من الموت ، فإن لابيو تابع نشاطه في الانتقام من خصمه بمحاولته إنزال عقوبة قديمة أخرى بمتلّوس وهي تجريده من ممتلكاته وجعلها وقفاً مخصصاً للشئون الدينية[6] ، ولكنه فيما يبدو لم يكن أكثر توفيقاً في هذه المحاولة منه في سابقتها .

وتمتاز تريبونية جايوس بابيريوس جاربو في عام ١٣١ ق . م . بخطوتين هامتين : وإحداهما هي أنه استصدر قانوناً [7] جعل الإدلاء بالأصوات سراً عند التصويت على التشريعات بعد أن أصبحت السرية في التصويت مقصورة على الانتخابات منذ عام ١٣٩ وعلى الفصل في القضايا فيما عدا قضايا الخيانة منذ عام ١٣٧ ق . م . وقد كان الهدف من وراء هذه القوانين هو تحرر المواطنين من ربقة رعاتهم (patroni) الأغنياء والإدلاء بأصواتهم وفق اتجاهاتهم الخاصة دون خوف من مغبة ذلك ، ولكنه يبدو أن هذه القوانين لم تحقق الهدف المنشود ، وإلا لما لجأ جايوس ماريوس (G. Mariùs) — عندما أصبح أحد ترابنة العامة في عام ١١٩ ق . م . — الى استصدار قانون لتوفير أكبر قدر ممكن من الحرية للمواطنين عند الإدلاء بأصواتهم ، كما سيأتي ذكره .

وكانت الخطوة الأخرى التي خطاها جاربو هي أنه تقدم بمشروع قانون يجيز إعادة انتخاب ترابنة العامة طالما تمتع التريبون المرشح بتأييد الناخبين [8] . وتقدم جاربو بمثل هذا المشروع ينطوي على أمرين : وأحدهما هو الاعتراف صراحة بأن إعادة ترشيح تيبريوس للتريبونية كان إجراء غير مشروع أو على

= تختلف في تحديد موقع هذا الحرف (Lùcan., 3, 154; Dionys., 3, 7, 35 ; 4, 8, 18) فانه يتبين من هذه المصادر أنه كان في الركن الجنوبي الغربي (Varro, Ling. 5, 41.) لتل قابيتولينوس في روما .

(6) Liv., Epit., 59; Cic., de domo, 47, 123; Plin., loc. cit.

(7) Cic., de Leg., III, 16, 55.

(8) Liv., Epit., 59; Cic., de Amic., 25, 95; de Or. II, 40, 170.

الأقل يفتقر الى سند دستوري يبرره ، وهذا معناه أن السناتو كان محقاً في معارضته لهذا الإجراء . والأمر الآخر هو التمهيد لإقامة نظام للحكم يسيطر عليه تريبون شعبي له من المكانة ما يكفل تجديد انتخابه ، أو بعبارة أخرى التمهيد لإقامة حكم الفرد المطلق ، وهو ما أوحت به تصرفات تيبريوس جراكوس وأثار أشد نقمة السناتو عليه وتخاوفه منه . وهذا التهديد الجديد لسيطرة السناتو أثار حفيظة أكثر أعضاء السناتو تطرفاً لخوفهم على مكانتهم ونفوذهم ، كما أثار غضب المعتدلين منهم في الرأي لخوفهم مما قد يؤدي اليه إقرار مشروع قانون جاربو من استبداد شخص واحد بالسلطة . وتبعاً لذلك فإن هذا المشروع هوجم هجوماً عنيفاً وقام سقيبيو آيميليانوس بدور كبير في إحباطه . ولم يكن من شأن ذلك إلا اتساع الهوة بين سقيبيو وأنصار تيبريوس، ولا سيما إذا صح ما عُزي إلى سقيبيو من أنه عندما أراد جاربو إحراجه بسؤاله عن رأيه في مقتل تيبريوس أجاب بأنه اذا كان تيبريوس قد هدف الى الاستيلاء على الحكم فإنه قد نال جزاء عادلاً"[9]

(si is occupandae rei publicae animum habuisset, iure caesum)

وينسب شيشرون الى لايليوس رأياً مفاده أن الخطب التي ألقاها لايليوس وسقيبيو كان لها الفضل في إقناع جمعية القبائل برفض الموافقة على مشروع جاربو . ولكن بعض الباحثين[10] يرون أنه إذا أخذنا في الاعتبار أوضاع هذه الجمعية في تلك الأيام ، فإننا يجب ألا نستبعد احتمال إسهام عوامل أخرى في هذه النتيجة ، أي تأثير الأغنياء على أتباعهم . وفي رأي بعض الباحثين أن رفض هذا المشروع في عام ١٣١ ق . م . لم يقض عليه نهائياً ، وأنه فيما بين عامي ١٣١ و ١٢٣ ق . م . صدر تشريع يتفق في اتجاهه ومشروع جاربو وإن لم يكن واسع الوفاض على غراره[11] ، وذلك استناداً على انتخاب جايوس جراكوس تريبوناً للعامة مرتين متتاليتين لعامي ١٢٣

(9) Velleius, II, IV, 4; Liv., Epit., 59.
(10) W. E. Heitland, II, p. 289.
(11) W.E. Heitland, loc. cit.; Scullard, 1970, p. 31 and n. 18, p. 391.

و ۱۲۲ ق . م ، وعلى أن أبيانوس [١٢] في صدد حديثه عن انتخاب جايوس جراكوس لتريبيونية العامة مرتين متتاليتين يقول إنه عند عدم وجود عدد كاف من المرشحين لهذه الوظيفة كان القانون يخول الشعب انتخاب ترابنة العامة من هيئة المواطنين كافة ، أي بما في ذلك الترابنة الحاليين .

ويلقي ظلاً كثيفاً من الشك حول صحة رواية أبيانوس أمران : وأحدهما هو أنه لم يكن هناك أيسر على خصوم جايوس من أن يوفروا العدد اللازم من المرشحين ليحجبوا صلاحية ترشيحه للتريبونية ثانية . والأمر الآخر هو ما يحدثنا به صالوستيوس [١٣] من أنه في عام ۱۱۰ ق . م . عُطلت الأعمال العامة تعطيلاً خطيراً لعدة شهور بسبب النزاع الذي نشب عندما أراد اثنان من ترابنة العامة إعادة ترشيح نفسيهما لتريبونية العام التالي. ولو أن قانوناً يجيز تولي التريبونية مرتين متتاليتين كان قد صدر في عشرينات القرن الثاني قبل الميلاد لما نشب مثل هذا النزاع . ولو أن كل سبب النزاع كان الخلاف حول تفسير ما في نصوص مثل هذا القانون من غموض لما استغرق هذا النزاع تلك الشهور الطويلة . واذا كان هذا النزاع يوحي بأنه فيما بين عامي ۱۳۳ و ۱۱۰ ق . م . لم يصدر قانون يجيز تولي التريبونية مرتين متتاليتين فكيف يمكن إذن تفسير إعادة انتخاب جايوس جراكوس لتريبونية عام ۱۲۲ ق . م . دون عناء بعد توليه هذه الوظيفة في عام ۱۲۳ ق . م . ؟ يبدو لنا أن نجاح جايوس في تولي التريبونية ثانية يرجع الى عاملين : وأحدهما هو ما اكتسبه في خلال تريبونيته الأولى من شعبية كاسحة ، والعامل الآخر هو السخط العام الذي أعقب مقتل تيبريوس فلم يجرؤ السناتو ثانية على تكرار الجريمة التي اقترفها في عام ۱۳۳ ق . م .

(12) App., B.C., I, 21; Cf. A.H.M. Jones, Proc. Camb. Philol. Soc., 1960, pp. 35 ff.

(13) Sallust., B. Jug., 37, 1-2.

ثانية ــ لجنة قانون الأراضي

خلف تيبريوس جراكوس في عضوية هذه اللجنة الثلاثية حمو أخيه الكاهن الأكبر الجديد بوبليوس ليقينيوس قراسوس ، لكن عضويته لم تدم طويلاً لأنه بعد توليه القنصلية في عام ١٣١ ق . م . أسندت اليه قيادة الجيش في آسيا الصغرى حيث توفي في العام التالي عندما توفي أيضاً فيما يرجح أبيوس قلاوديوس فانتخب بدلاً منهما ماروقس فولفيوس فلاقوس (Fulvius Flaccus) وجايوس بابيريوس جاربو . وظلت اللجنة مؤلفة منهما ومن جايوس جراكوس حتى عام ١٢٢ ق . م .

باشرت اللجنة الثلاثية مهمة تنفيذ قانون الأراضي بنشاط جم أثار مشكلة خطيرة ، فقد سبقت الإشارة الى أن قانون الأراضي لم يمس صوالح أرباب أرض الحيازة من المواطنين الرومان فحسب بل أيضاً صوالح الحلفاء اللاتين والإيطاليين ، وهم الذين احتجوا الآن احتجاجاً شديداً على صرامة اللجنة الثلاثية في تطبيق أحكام القانون . وتفسيراً لذلك يجب ألا يغيب عن بالنا : ١ ــ أن الرومان منحوا بعض المجتمعات اللاتينية الحليفة مساحات من الأرض العامة الرومانية (ager publicus populi Romani) لتستغلها حسب ما يتراءى لها بشرط دفع إيجار عنها للدولة الرومانية ، وظلت هذه الأراضي رسمياً في حيازة تلك المجتمعات . ٢ ــ أنه عندما انتصر الرومان على المجتمعات الإيطالية واتخذوا منها حلفاء لهم استولوا على جانب من أقاليم هذه المجتمعات فأصبحت أرضاً عامة رومانية وسمحوا لهذه المجتمعات بالاحتفاظ بباقي أقاليمها . ٣ ــ أنه عندما كان يوجد فائض من الأرض العامة كان الرومان يسمحون لحلفائهم اللاتين والإيطاليين بالمشاركة فرادى في استغلال الأرض العامة ، وتبعاً لذلك أصبح كثيرون من الحلفاء اللاتين والإيطاليين في عداد أرباب الحيازة .

ومن الجائز أن الأراضي التي مُنحت للمجتمعات اللاتينية الحليفة كانت

لا تقع تحت طائلة قانون الأراضي على أساس أنها لم تكن في حيازة الأفراد وانما في حيازة المجتمعات . ولا جدال في أن الأراضي التي سمح للمجتمعات الإيطالية بالاحتفاظ بملكيتها لم تكن جزءاً من الأرض العامة الرومانية ومن ثم فإنها تكن خاضعة لأحكام قانون الأراضي . بيد أنه لم يكن هناك مفر من تطبيق هذا القانون على أرض الحيازة التي كانت في قبضة الحلفاء اللاتين والإيطاليين وتزيد على الحد الأقصى الذي نص عليه قانون الأراضي .

ولماذا ضاق الحلفاء ضيقاً شديداً بذلك ما دام أن هذا القانون قد طبق بالمثل على المواطنين الرومان ؟ ومرد هذا الضيق الشديد الى عدة عوامل أهمها اثنان : وأحدهما هو أنه اذا كان طبيعياً أن يسيء الى أي انسان حرمانه جزءاً من أرضه فإن هذه الاساءة الى الحلفاء كانت بالغة الأثر لأنها ألحقت بهم في وقت كانوا برمين فيه بمعاملة روما لهم بعد أن استخدمت قواتهم في فتح إمبراطوريتها دون أن تعتبرهم شركاء أنداداً أو أن تحول دون أن ينزل بهم حكامها سلسلة من المظالم لم يكن من شأنها إلا توكيد الإحساس بأنهم في مركز أدنى من مركز الرومان وإيغار صدورهم على وضعهم الذليل ، وتبعاً لذلك لم يكونوا في حاجة إلا الى فرصة مواتية للتعبير عن ضيقهم وتذمرهم . وقد أعطاهم نشاط لجنة الأراضي هذه الفرصة ، ولا سيما أنهم وقد أسهموا أمداً طويلاً في تحمل أعباء القتال من أجل روما شعروا بحيف شديد لأنهم كانوا سيحرمون أجزاء من أرض حيازتهم لتوزيعها على المواطنين الرومان الذين لم يكونوا أهلاً للتجنيد بسبب فقرهم وعدم إمكان تسجيلهم في فئات المواطنين الصالحين للتجنيد . وكان العامل الآخر [١٤] هو أنه عندما لم يقدم أرباب أرض الحيازة إقرارات بما في حيازتهم — وفقاً فيما يبدو لما كان القانون يتطلبه — وناشدت لجنة الأراضي كل من لديه معلومات تفيدها في أداء مهمتها ، انهال على اللجنة فيض من المعلومات أدى الى قيامها بالفصل في عدد كبير من المنازعات المزعجة . ذلك أن تحديد نطاق الأرض العامة أثار سلسلة من المشاكل

(14) App., B.C., I, 18-19.

المعقدة لأنه أصبح يتعين على كل فرد إقامة الدليل على حقه فيما لديه من أرض . ولم يكن ذلك أمراً ميسوراً في حالات كثيرة ، بل يقال إن بعض الوثائق التي قدمت كانت غامضة . ومرد ذلك الى أن المسح الأصلي للأرض لم يكن دقيقاً ، والى أنه حين كانت هناك وفرة من الأرض وسمحت الحكومة باستغلال هذه الأرض كان في وسع من يشاء أن يستغل أية قطعة من الأرض العامة الرومانية ثم يضعها في حيازته ، والى أنه على مر الزمن وانتقال الأرض من شخص الى آخر اختلطت أرض الحيازة بأرض الامتلاك الحر وأصبح من العسير التفرقة بين النوعين .

وبعد المظالم التي سبق للحلفاء أن عانوها من الرومان ، لم يكن من شأن إسناد الفصل في ملكية الأرض الى لجنة مكونة من ثلاثة من الرومان بث الطمأنينة في الحلفاء . وإزاء ذلك هرع كثيرون من الحلفاء الى روما لعرض مظلمتهم على السناتو ، وكانوا واثقين من أنهم سيلقون تأييداً كبيراً . ذلك أن المتطرفين من النبلاء كانوا على أتم استعداد لشد أزر أية حركة يكون من شأنها تعطيل العمل الكريه الذي قام به تيبريوس جراكوس . ولكن مثل هؤلاء النبلاء لم يكونوا أصدقاء مخلصين للحلفاء لأنهم اذا كانوا يومئذ مستعدين لمناصرة قضية الحلفاء بسبب اتفاق هذه القضية وصوالحهم الذاتية فإنهم هم أنفسهم الذين تسببوا في أغلب الإساءات التي نجم عنها تذمر الحلفاء . وستتكشف الأحداث المقبلة عن معارضتهم الشديدة لتحرير الحلفاء . بيد أن الحلفاء وجدوا في النبلاء المعتدلين أنصاراً أكثر أمانة وإخلاصاً من النبلاء المتطرفين . وكان سقيبيو آيميليانوس (Scipio Aemilianus) أبرز هؤلاء الأنصار الأوفياء وأكثرهم حماساً لنصرة الحلفاء ، فهو من ناحية كان لا يقر سياسة تيبريوس وأتباعه . ومن ناحية أخرى كان يدين بمكانته المرموقة الى انتصاريه على قرطاجنة ونومانتيا ويدرك تماماً أنه لولا المساعدات التي قدمها الحلفاء لما أحرزت روما انتصاراتها العسكرية . وتبعاً لذلك فانه كان يعتقد أن الحلفاء أولى وأحق بالأرض من المواطنين الرومان المتعطلين ، فانبرى للدفاع

عن قضية الحلفاء في عام ١٢٩ ق . م .

ولسوء الحظ أن مصدرنا الوحيد عما قام به سقيبيو في هذا الصدد هو الفقرة الغامضة التي أوردها أبيانوس[١٥] وكثيراً ما فُسرت بأنه عندما أثار سقيبيو الموضوع في السناتو وأفاض في الحديث عن المشاكل التي أثارها قانون الأراضي وطالب بحرمان اللجنة الثلاثية حق الفصل فيها لعدم ثقة أرباب الأراضي في أعضاء اللجنة ، تقرر حرمان اللجنة الثلاثية سلطاتها القضائية وإسنادها الى أحد قنصلي عام ١٢٩ ق . م . وهو جايوس سمبرونيوس توديتانوس (Tuditânus) الذي لم يلبث أن قاد حملة تأديبية الى إلّوريا وبذلك شُلّت حركة اللجنة الثلاثية الى أن أنقذها من هذا الشلل قانون الأراضي الذي استصدره جايوس جراكوس في عام ١٢٣ ق . م .

وهنا يجب ملاحظة أمرين : وأحدهما هو أنه استناداً على رواية ليفيوس[١٦] يرجح أن اللجنة الثلاثية مُنحت سلطاتها القضائية بمقتضى تشريع أصدرته جمعية القبائل بعد موافقتها على قانون الأراضي ، وأنه تبعاً لذلك كان لا يمكن حرمان اللجنة هذه السلطات إلا بمقتضى تشريع جديد[١٧] . بيد أن فقرة أبيانوس سالفة الذكر اذا كانت تحدثنا بأن السناتو ناقش الموضوع واتخذ قراراً فيه ، فإنها تحدثنا كذلك بأن الموقف الذي اتخذه سقيبيو أثار عليه نقمة العامة وكراهيتهم. وإن دل هذا على شيء فهو يدل على أن جمعية القبائل كانت لا يمكن أن توافق في هذه الظروف على إصدار تشريع يحرم اللجنة سلطاتها القضائية . وإزاء ذلك

(15) App., B.C. I, 19.
(16) Liv., Ep., 58.
(17) C.A.H., IX, pp. 42-3.

يذهب بعض الباحثين (Heitland, II, p. 286) الى ان السناتو هو الذي منح اللجنة الثلاثية سلطاتها القضائية عقب مقتل تيبريوس رغبة من هذا المجلس في استرضاء الجماهير بعد مقتل زعيمهم ، ولكنه يضعف هذا الرأي اعتبار جوهري وهو أنه كان من شأن تبرع السناتو بمنح اللجنة هذه السلطات تزويدها بأداة أساسية لتنفيذ ذلك القانون الكريه للنبلاء المتطرفين مع أنهم كانوا يتحينون الفرص لتعطيل تنفيذه .

فانه لا يبدو من الإسراف في الرأي القول بأن هذه الجمعية لم تصدر مثل هذا التشريع . والأمر الآخر هو انه لو صح فعلاً أن سلطة الفصل في كل المنازعات الناجمة عن تطبيق قانون الأراضي كانت قد أُسندت الى القنصل توديتانوس في عام ١٢٩ ق.م. لترتب حتماً على إقرار هذا المبدأ نتيجتان : وإحداها هي ممارسة القناصل الذين خلفوا توديتانوس هذه السلطة . والأخرى هي شل نشاط اللجنة الثلاثية لأن قناصل هذه الفترة كانوا يمثلون وجهة نظر النبلاء المتطرفين وتبعاً لذلك يناهضون حركة إصلاح الأراضي . بيد أنه ينقض ذلك ما يحدثنا به ديون قاسيوس[١٨] عن استمرار اللجنة الثلاثية في ممارسة نشاطها عقب وفاة سقيبيو ، وما تم عنه زيادة عدد المواطنين المسجلين في قوائم التعداد بين عامي ١٣٠[١٩] و ١٢٥ ق.م[٢٠] .

ذلك أنه بعد أن كان عدد المواطنين المسجلين في قوائم التعداد في عام ١٣٠ ق.م. يبلغ ٣١٨,٨٢٣ أصبح في عام ١٢٥ ق.م[٢١] . ٣٩٤,٧٣٦ ، أي بزيادة قدرها ٧٥,٩١٣ . ويختلف الباحثون في تفسير هذه الأرقام ، فالبعض يرى أنها لا تمثل إلا المواطنين أرباب الأراضي (assidui) الذين لديهم من الممتلكات ما يؤهلهم للخدمة العسكرية لأن قوائم التعداد كانت لا تتضمن المواطنين المعدمين (proletarii) . ومعنى ذلك أن الزيادة التي طرأت على عدد المواطنين المسجلين في قوائم التعداد ترجع الى أن تطبيق قانون الأراضي أدى الى منح عدد كبير من المعدمين (proletarii) ممتلكات رفعتهم الى مرتبة المواطنين أرباب الأراضي (assidui) فأصبحوا أهلاً للخدمة العسكرية وتبعاً لذلك أهلاً للتسجيل في قوائم التعداد .

---

(18) Dio Cass., Frag., 84, 2.
(19) Liv., Ep. 59.
(20) Liv., Ep. 60.

(٢١) راجع :
J. Beloch, Die Bevölkerung der griechisch-römisch Welt. Leipzig, 1886, pp. 346-8.

والبعض الآخر يرى أن هذه الأرقام تمثل المواطنين الرومان جميعاً ، وذلك على أساس أن قوائم التعداد كانت تشمل المواطنين البالغين جميعاً . ويؤيد هذا الرأي أمران : وأحدهما هو أنه منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كانت جمعية المئينات تضم خمسة مئينات أربعة منها للعمال ونافخي الأبواق (fabri et cornicines) وخامسها للمواطنين المعدمين[٢٢] (proletarii) . والأمر الآخر هو أنه في عام ١٠٤ ق . م . حين بلغ عدد المواطنين المسجلين في قوائم التعداد ٤٠٠,٠٠٠ مواطن شكا تريبون العامة فيليبوس من أنه لا يوجد في روما ألفان مواطن لديهم ممتلكات[٢٣] . ومع ذلك فان هذا الرأي لا يمكن أن يفسر زيادة عدد المواطنين الرومان البالغين زيادة هائلة تقرب من ٢٥٪ في خلال خمس سنوات إلا اذا كان هذا الرأي يفترض ضمناً أنه في الماضي لم يحظ عادةً أمر تسجيل المواطنين المعدمين باهتمام يذكر سواء من جانب القنسورس ، لأن هذه الفئة لم تكن في الظروف العادية موارد لضريبة الدم كما أنها لم تكن إطلاقاً من موارد ضريبة المال ، أم من جانب المعدمين أنفسهم ، لأنه لم يكن هناك ما يجنونه من وراء الاهتمام بتسجيلهم . غير أنه بعد أن استصدر تيبريوس قانون الأراضي — وهو الذي عرفنا أنه كان يهدف الى توزيع الأراضي على فقراء الرومان — أخذ المعدمون يعنون بتسجيل أنفسهم في قوائم التعداد .

واذا كانت الزيادة التي حدثت في عدد المواطنين المسجلين في قوائم التعداد فيما بين عامي ١٣٠ و ١٢٥ ق . م . ترجع الى تحويل عدد كبير من المعدمين (proletarii) الى أرباب أملاك (assuidui) وفقاً للرأي الأول ، وكان قد تقرر فعلاً في عام ١٢٩ ق . م . حرمان اللجنة الثلاثية مباشرة الفصل في كل المنازعات الناجمة عن تطبيق قانون الأراضي — وهو أمر كان لا بد من أن يفضي الى شل عمل اللجنة الثلاثية بمجرد صدور هذا

---

(22) Liv., 43, 10-11; Dion. Hal., IV, 16-18.
(23) Cic., de Off., II, 21, 73.

القرار — فإنه من العسير أن نتصور كيف أنه كان في وسع عمل اللجنة الثلاثية فيما بين تعداد عام ١٣٠ ق . م . وصدور قرار عام ١٢٩ ق . م . أن يؤدي الى تلك الزيادة الهائلة في عدد المواطنين أرباب الأملاك . وأما اذا كانت هذه الزيادة ترجع الى ما يتضمنه الرأي الثاني من أن أمل الفوز بنصيب من الأرض العامة حفز المواطنين غير المسجلين في قوائم تعداد عام ١٣٠ ق . م . على تسجيل أنفسهم في قوائم تعداد عام ١٢٥ ق . م. فإنه لم يكن هناك ما يحفزهم على ذلك إلا اذا كانت لا تزال هناك عندئذ أراض يمكنهم الحصول عليها وكذلك إلا اذا كانت اللجنة الثلاثية لا تزال مستمرة في مباشرة عملها ويجني الكثيرون ثمار ذلك العمل .

وهكذا فإنه سواء أأخذنا بالرأي الأول أم بالرأي الثاني لا نملك إلا الخروج بنتيجتين : وإحداهما هي أن قوائم تعداد عام ١٢٥ ق . م . توحي بتأييد ما يرويه ديون قاسيوس من أنه لم يكن من شأن ما حدث في عام ١٢٩ ق . م . وقف نشاط اللجنة الثلاثية [٢٤] . والنتيجة الأخرى هي أنه قد ترتب على تنفيذ قانون الأراضي زيادة عدد أرباب الأرض . بيد أنه في ضوء معلوماتنا الحالية لا نستطيع تحديد مدى هذه الزيادة ونحن في مأمن من الزلل .

وإزاء هذه الاعتبارات جميعاً يبدو أن أقرب تفسير لفقرة أبيانوس الغامضة الى القبول هو أنه لما كانت القضية التي أثارها سقيبيو في السناتو هي قضية الحلفاء اللاتين والإيطاليين ، وكانت علاقات الرومان مع هؤلاء الحلفاء تدخل في نطاق الشئون الخارجية وتبعاً لذلك تدخل في صميم اختصاص السناتو ، فانه من المرجح أن يكون السناتو قد نهى اللجنة الثلاثية عن الفصل في المنازعات الخاصة بأراض حائزوها من غير الرومان بسبب ما كان ذلك يثيره من مشاكل « خارجية » هي من اختصاص السناتو . وقرر إسناد سلطة الفصل في مثل هذه المنازعات الى القنصل توديتانوس . تاركاً للجنة الثلاثية

(24) C.A.H., IX, pp. 43-4.

مباشرة اختصاصاتها فيما يتعلق بالمواطنين الرومان . ولما كانت القرائن توحي بأن توديتانوس لم يفعل شيئاً . فان الحلفاء اللاتين والإيطاليين احتفظوا بما في حيازتهم من أرض عامة ، على الأقل مؤقتاً[25] .

ولم يكن من شأن انتصار سقيبيو للحلفاء في عام ١٢٩ ق . م . كسب جانب النبلاء المتطرفين أو عامة الرومان . ذلك أنه من ناحية اذا كان النبلاء المتطرفون قد أيدوا سقيبيو في مناصرته الحلفاء لمجرد النيل من قانون الأراضي ، فإن ما بدا في هذا الموقف من عطفه هو وأشياعه عطفاً قوياً على الحلفاء جعل النبلاء المتطرفين أقل اطمئناناً الى هذه الفئة من النبلاء المتسمة دائماً بالاعتدال في الرأي . ومن ناحية أخرى لما كان قد ترتب على قرار السناتو في عام ١٢٩ ق . م . بتأييد سقيبيو وأشياعه الحد من نطاق سلطات اللجنة الثلاثية واحتفاظ الحلفاء بأرض الحيازة وتبعاً لذلك حرمان فقراء الرومان أنصبة من هذه الأرض ، فإن سقيبيو ومشايعيه أثاروا كراهية الفقراء لهم كما زادوا النقمة عليهم بين صفوف أنصار الأخوين تيبريوس وجراكوس وهم الذين كان قد أغضبهم في عام ١٣١ ق . م . الدور الذي قام به سقيبيو ومشايعوه في إحباط مشروع قانون جاربو الخاص بجواز تجديد انتخاب ترابنة العامة .

وإزاء ذلك كله لم يفز سقيبيو ومشايعوه برضاء أي فريق من الفريقين المتطرفين فوجدوا أنفسهم في موقف بالغ الحرج . لا أدل عليه مما أصبح سقيبيو نفسه يتعرض له يومياً من مهاترات في الاجتماعات العامة في الفوروم . وفي صبيحة اليوم التالي لأحد هذه الاجتماعات العاصفة وُجد سقيبيو ميتاً في فراشه . ولم يكن هناك مفر من أن يؤدي موته فجأة الى انتشار شائعات بأن ميتته لم تكن طبيعية . وقد عزت الشائعات موته تارة الى أرملته سمبرونيا — شقيقة الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس — وتارة الى قورنليا (أم هؤلاء جميعاً) وتارة الى انتحاره وتارة الى أعضاء اللجنة الثلاثية[26] . ولا

---

(25) Cf. C.A.H., IX, pp. 42 and 44.

(٢٦) عن وفاة سقيبيو ، راجع :
J. Carcopino, Autour des Gracques, 1928, pp. 83 ff.

سبيل لدينا الى التحقق من سبب وفاة سقيبيو ، وإن كان غير مستبعد أنه مات ميتة طبيعية . ويوحي بذلك عدة قرائن مجتمعة ، وهي : ١ — أن شيشرون عزا الى لايليوس قوله في خطاب تأبين صديقه أن ميتته كانت طبيعية(٢٧) . ٢ — أن أصدقاء سقيبيو لم يقدموا أحداً بعينه للمحاكمة بتهمة قتله . ٣ — أن السناتو لم يأمر بإجراء تحقيق يكشف عن سبب وفاة هذا الرجل الذي أدى خدمات جليلة لوطنه . ولا جدال في أن النبلاء المتطرفين كانوا لا يأمنون جانب سقيبيو ، ولكنه يبدو لنا أنه لو خامرهم الشك في أن أحداً من أسرة تيبريوس جراكوس أو من أنصاره هو الذي أودى بحياة سقيبيو لانتهزوا هذه الفرصة للتشهير بخصومهم والانتقام منهم .

ومهما يكن من أمر ذلك فإن وفاة سقيبيو خلصت النبلاء المتطرفين وكل الرأسماليين الجشعين من رجل نبيل كان يسبب لهم حرجاً شديداً بنزاهته واستقامته وعدم أنانيته واعتداله في الرأي مثل ما خلصت الجراكيين دعاة الإصلاح من رجل كانت مكانته الممتازة وسياسته المعتدلة وكراهيته للشغب والعنف تجعل منه خصماً قوياً يقف عقبة كأداء في سبيلهم .

ولعل أن انتصار سقيبيو آيميليانوس للحلفاء كان الخطوة الأولى في برنامج(٢٨) كان يستهدف منحهم حقوق المواطنة الرومانية على أمل ألا يترتب على ذلك إحياء الطبقة الوسطى فحسب بل أيضاً إزالة مظالم حقيقية وكذلك فوز الدولة الرومانية بعدد من أثرياء الحلفاء ذوي العقل الراجح والبصيرة النافذة فتتقوى بهم صفوف الفرسان ، وتبعاً لذلك تقل الأهمية السياسية لسكان روما الجشعين الذين انحطت أخلاقهم ، ويجد السناتو أمامه قوة يضطر الى أن

(27) Cic., de Amic., 89; Malcovanti, Or. Rom. Fr., 2nd ed., p. 121 ; Schol. Bob., p. 118 (Stangl); Cf E. Badian, J.R.S., 1956, p. 220.

(٢٨) عن سياسة سقيبيو آيميليانوس ، راجع :
H.H. Scullard, J.R.S., 1960, pp. 59 ff; A.E. Astin, Scipio Aemilianus. 1967, pp. 81 ff., 190-226; E.S. Gruen, Roman Politics and The Criminal Courts, 1968, Ch. I.

يدخلها في حسبانه فتتحسن أحوال البلاد . واذا صح أن ذلك كله كان يدور في مخيلة سقيبيو ومشايعيه فإن معناه أن فريقاً من دعاة الإصلاح المعتدلين تصوروا أن منح الحلفاء حقوق المواطنة الرومانية كاملة كان كفيلاً بإعادة تكوين الطبقة الوسطى وتحسين أحوال البلاد . وهو الهدف الذي اعتقد الزعماء الشعبيون أن توزيع مساحات كبيرة من الأرض العامة على فقراء المواطنين الرومان كان كفيلاً بتحقيقه . وعلى كل حال فإن تاريخ الأربعين عاماً التي تلت وفاة سقيبيو سيرينا : كيف أن النبلاء والعامة أنفسهم أسهموا في فشل الحل الزراعي . وكيف أن مشكلة تحرير الحلفاء لعبت دوراً كبيراً على مسرح الأحداث ، وكيف أنه عندما تنبه الزعماء الشعبيون الى ضرورة إزالة مظالم الحلفاء قاومهم النبلاء والعامة على السواء مقاومة عنيفة . وكيف أنه عندما ضاق الحلفاء ذرعاً بوضعهم رفعوا السلاح في وجه روما فاضطرت كارهة الى تحقيق مطالبهم بمنحهم حقوق المواطنة كاملة ، وكيف أنه بعد ذلك لم يدخر الرومان وسعاً في ألا يكون لتمتع الحلفاء بحقوق المواطنة أية قيمة سياسية تذكر ، وكيف أنه لم تبذل أية محاولة لتطوير النظم العتيقة البالية بحيث تستطيع الدولة الرومانية مواجهة مشاكلها .

ثالثاً – بداية ظهور مشكلة تحرير الحلفاء على مسرح السياسة الرومانية

ويروي ليفيوس[29] أنه بعد وفاة سقيبيو اشتد الصراع مع اللجنة الثلاثية . ويحدثنا أبيانوس[30] بأنه بعد وفاة سقيبيو قاوم الإيطاليون تسليم أرض الحيازة مقاومة عنيفة مما أفضى الى اقتراح منحهم حقوق المواطنة الرومانية لكي يكفوا عن نزاعهم على الأرض لقاء حصولهم على هذه المنحة العظيمة ، فقد كان الإيطاليون – على حد قول أبيانوس – مستعدين لقبول ذلك لأن الأرض كانت أدنى شأناً في نظرهم من حقوق المواطنة .

---

(29) Liv., Ep., 59.
(30) App., B.C., I, 21.

وتوحي روايتا ليفيوس وأبيانوس بأنه عقب وفاة سقيبيو وانتهاء قنصلية توديتانوس استأنفت اللجنة الثلاثية مباشرة سلطاتها القضائية كاملة وأخذت تفصل في كافة المنازعات على الأرض بما في ذلك الأرض التي كانت في حيازة الحلفاء اللاتين والإيطاليين مما حدا بهم الى إثارة ضجة كبيرة أفضت الى اقتراح منحهم حقوق المواطنة الرومانية استرضاء لهم . ومجرى الأحداث التالية يشير الى أنه اذا كان كثيرون من الحلفاء ظلوا يفضلون الاحتفاظ بكيانهم الإقليمي ولا يتطلعون إلا الى إزالة مظالمهم التي تفاقمت بنشاط اللجنة الثلاثية ، فإنه في كنف تلك الظروف أصبح كثيرون أيضاً من الحلفاء يتطلعون الى الحصول على حقوق المواطنة الرومانية ليشاركوا الرومان حقوقهم بدلاً من مشاركتهم واجباتهم فقط ، وتبعاً لذلك هرعت أعداد كبيرة منهم الى روما للشكوى من حالهم والمطالبة بتصحيح وضعهم .

وقد ترتب على ذلك أنه في عام ١٢٦ ق. م. غصت روما بالكثيرين من الغرباء . بيد أن الطبقة الحاكمة في أنانيتها وقصر نظرها كانت تنفر من منح حقوق المواطنة الرومانية للحلفاء خشية أن يؤدي ذلك الى أن يصبح في زمرة المواطنين الرومان عدد كبير من الحلفاء الأثرياء النابهين فتتقوى بهم صفوف الفرسان وبذلك يجد السناتو نفسه أمام جماعة قوية منافسة تتحدى سيطرته وتضطره الى النزول عن بعض امتيازاته . فقد فات الطبقة الحاكمة أمر أجل وأعظم شأناً وهو أن المصلحة العامة — بصرف النظر عن ضرورة رفع مظلمة حقيقية لم يكن هناك مفر من رفعها إن طوعاً وإن كرهاً — كانت لا تتطلب تكوّن مثل هذه الجماعة القوية المنافسة فحسب بل أيضاً دخول أفواج كبيرة من الحلفاء في عداد المواطنين الرومان لتقل تبعاً لذلك الأهمية السياسية لعامة روما المنحلين . وكان العامة ايضاً في أنانيتهم وعماهم عن إدراك الصالح العام لا يرحبون بمنح الحلفاء حقوق المواطنة الرومانية خوفاً من أن يزداد عدد المواطنين فيقل تبعاً لذلك حظهم من فرص الإفادة من كونهم مواطنين رومان . وقد انتهز النبلاء فرصة اتفاقهم في الرأي مع عامة الشعب فحرضوا تريبون

العامـــة مارقوس يونيوس بنّوس (M. Junius Pennūs) على استصدار قانون يقضي بأن يمنع غير المواطنين الرومان من الاستقرار في روما وبأن يطرد منها أولئك الذين استقروا فيها(٣١) . وقد صدر هذا القانون الجائر برغم معارضة جايوس جراكوس له(٣٢) . ولما كان جايوس قد انتخب كوايستوراً لعام ١٢٦ ق . م . وبارح روما في ذلك العام لمباشرة عمله في سردينيا حيث قضى عامين ، فان هذا يوحي بأن بنّوس لم يكن تريبوناً للعامة في عام ١٢٥ ق . م . على نحو ما يرى بعض الباحثين وانما في عام ١٢٦ ق . م . وبأنه استصدر قانونه في أوائل هذا العام(٣٣) . ولم يكن من شأن هذا القانون الجائر إلا أنه زاد في نقمة الحلفاء ونبه الزعماء الشعبيين الى ضرورة استرضائهم فاحتلت مسألة تحرير الحلفاء جانباً هاماً من برنامج هؤلاء الزعماء في خلال الحقبة التالية .

وقد كان فولفيوس فلاقوس (Fūlvius Flāccus) ، عضو اللجنـــة الثلاثية ، أول من اجترأ على معالجة هذه المشكلة الشائكة . ذلك أنه عندما تولى فلاقوس القنصلية في عام ١٢٥ ق . م . أخذ يدعو لمشروع قانون نجهل تفاصيله ولكن فحواه هو منح حقوق المواطنة كاملة للحلفاء الراغبين في الحصول عليها ، وأما الحلفاء غير الراغبين في ذلك فإنهم يمنحون حق الاستئناف (provocatio) الى الأمة الرومانية من الأحكام الجائرة التي يصدرها ضدهم الحكام الرومان(٣٤) . وإن دل الشق الثاني من مشروع قانون فلاقوس على شيء فهو يدل على أن الحصول على الحقوق الرومانية لم يكن قد أصبح بعد هدفاً في ذاته يسعى اليه الحلفاء جميعاً برغم أن الحصول على هذه الحقوق كان يكفل لهم مشاركة الرومان سيادتهم وكذلك تخلصهم من مظالم الحكام الرومان . ومرد عزوف الكثيرين من الحلفاء عندئذ عن الحصول على الحقوق

---

(31) Cic., de Off., III, 47.
(32) Festus, p. 388 L; Malcovanti, Or. Rom. Fr., 2nd ed., fr. 22.
(33) E. Badian, Foreign Clientelae, p. 177.
(34) App., B.C., T, 21; 34; Val. Max., IX, 5, 1.

الرومانية الى أن الوطنية الإقليمية كانت لا تزال تنكر على مواطني مجتمعات لاتينية وإيطالية كثيرة الدخول في زمرة المواطنين الرومان اعتقاداً منهم بأن ذلك كان يفضي الى ذوبان هذه المجتمعات في الدولة الرومانية على أساس أنه من المتعذر أن يكون الإنسان مواطناً في دولتين في الوقت ذاته .

وبرغم ما يدل عليه انتخاب فلاقوس للقنصلية من أن العناصر التقدمية كانت عندئذ قوة ذات فعالية محسوسة ، وبرغم ما اتسم به مشروع قانون فلاقوس من الاتزان والحكمة السياسية وما لقيه من تأييد جايوس جراكوس وأنصاره ، فإن المشروع لم يصادف هوى لدى جماهير الناخبين الرومان لأنه كان من شأن موافقتهم عليه إفساح المجال أمام جيرانهم لمشاركتهم امتيازاتهم ، مما أتاح للسناتو الفرصة للتدخل في الأمر والإجهاز على مشروع القانون بالرغم من أن منح حقوق المواطنة كان قد أصبح منذ أمد بعيد من اختصاص جمعية القبائل . ويحدثنا فالريوس ماكسيموس[٣٥] بأنه بعد إلحاح طويل على فلاقوس حضر اجتماعاً للسناتو حيث توسل اليه الأعضاء توسلاً حاراً ليكف عن العمل على إقرار مشروع قانونه فاستجاب الى توسلاتهم . وأما أبيانوس[٣٦] فإنه يحدثنا بأن السناتو غضب غضباً شديداً من مشروع القانون ومن نشاط فلاقوس في الدعوة له ، ولذلك أسند الى فلاقوس قيادة حملة عسكرية في الخارج حيث انتهت مدة قنصليته في خلال مباشرتها . ومعنى ذلك أن عزوف فلاقوس عن المضي في مشروع قانونه يرجع الى توليه قيادة حملة عسكرية في الخارج . وهذا تفسير يصعب علينا قبوله . ولعل أن الأدنى الى القبول هو أن مرد هذا العزوف والمبادرة بتولي قيادة الحملة كان الى إدراك فلاقوس أنه لم يكن من الحكمة السياسية المثابرة في العمل على إقرار مشروع قانون يعارضه السناتو ولا يصادف قبولاً لدى عامة الشعب ، فاستسلم للظروف الراهنة ومضى الى بلاد الغال عبر الألب حيث تولى قيادة جيش

(35) Val. Max., loc. cit.
(36) App., loc. cit

روماني ليرد عن ماسيليا (Massilia ، حليفة روما) عدوان قبائل السالـّوفي (Sallùvii) .

وبقتل هذا المشروع فوت النبلاء والعامة على أنفسهم فرصة حل مشكلة كان مقدراً لها أن تصبح أهم مشكلة في حياة روما السياسية طوال الحقبة التالية ، وأن تزيد هذه الحياة في خلال ذلك مرارة على مرارة ، وأن تؤدي آخر الأمر الى حرب ضروس ما كانت لتنشب لو لم يكن النبلاء والعامة على السواء فريسة للأنانية وقصر النظر الى حد أعماهم عن استرضاء الحلفاء قبل أن يطفح كيلهم .

ولا أدل على خيبة الأمل التي أصابت الحلفاء نتيجة لفشل مشروع قانون فلاقوس من أن المستعمرة الزاهرة الكبيرة فرجلا ّي (Fregellae) — وكانت إحدى المستعمرات اللاتينية التي يزخر بها وادي نهر ليريس — هبت ثائرة قبل نهاية عام ١٢٥ ق . م . ويزيد في دلالة هذه الثورة على مدى المرارة التي كان يستشعرها عندئذ أصدقاء روما القدماء أنه حتى هذه اللحظة ظلت فرجلا ّي على الدوام صديقة وفية لروما ، وأنه بفضل المثل الذي ضربته فرجلا ّي في أحلك الأزمات التي مرت بالرومان في أثناء غزوة هانيبال ظلت جاراتها كذلك على ولائها للرومان . ومعنى ذلك أن سيادة روما على إيطاليا أصبحت مهددة بالانهيار . ذلك أنه اذا كانت حليفة لاتينية تتسم بالوفاء الشديد مثل فرجلا ّي قد اضطرتها المظالم التي كانت تنوء بها الى الثورة في وجه روما ، فما الذي كان يمنع الحليفات اللاتينيات الأخريات ومن باب أولى الحلفاء الايطاليين من اقتفاء أثر فرجلا ّي ، ولا سيما اذا أفضى الاشتباك مع هذه المدينة الى صراع طويل يشارك فيه جانب كبير من الجيش الروماني ؟ إنه لم ينقذ روما مؤقتاً من مثل هذه الورطة إلا أنها — حين دفعتها فداحة الخطر الى المبادرة بمحاصرة فرجلا ّي — تمكنت سريعاً من الاستيلاء عليها بفضل الخيانة ، وعاملتها معاملة قاسية ليكون ذلك عظة وعبرة لغيرها . فقد خرب الرومان المدينة وأعدموا المسئولين عن الثورة ونقلوا البقية الباقية من أهليها

الى مكان آخر جنوبيها حيث أنشئت في العام التالي مستعمرة رومانية تدعى فابراتريا (Fabrateria) . ولم تقف المحكمة غير العادية التي شكلها السناتو عند حد البحث عن المسئولين عن هذه الثورة بين أهالي فرجلاّي ، وذلك اعتقاداً من أعضاء هذه المحكمة أن هذه الثورة الفاشلة ما كانت لتنشب لو لم تلق تشجيعاً من بعض الرومان ، ولذلك فإن هذه المحكمة بذلت جهداً كبيراً لإلقاء هذه التبعة على الشعبيين زعماء حركة الإصلاح ، تقويضاً لدعائم مكانة خصوم السناتو بإظهارهم في ثوب أشخاص لا يترفعون عن إغراء حلفاء روما على الثورة ثم يتوارون عن الأنظار . وقد اضطر جايوس جراكوس ، عند عودته من الخارج ، الى بذل جهد كبير حتى برأ نفسه من هذه التهمة[٣٧] .

واذا كانت روما قد نجحت في القضاء على ثورة فرجلاّي في عام ١٢٥ ق . م . وأفهمت حلفاءها بصراحة صارمة أنها لا يمكن أن تسمح بمثل هذا العبث ، فإنها لم تنجح إلا في تأجيل الأزمة ٣٥ عاماً عندما نفد أخيراً صبر الحلفاء بعد ما مني به زعماء الإصلاح من فشل مرة بعد مرة في محاولة إزالة مظالمهم فاشتعل لهيب « حرب الحلفاء » في عام ٩٠ ق . م .

الأحداث الخارجية

اولاً — حرب العبيد الأولى في صقلية

كان من أخطر نتائج الحروب الطويلة وازدياد الثروة الفردية ازدياد عدد العبيد واستخدامهم على نطاق واسع في استغلال الضياع الكبيرة[٣٨] . وقد

(37) Liv., Ep., 60; Obsequens, 30; Velleius, II, 6, 4; Val. Max., II, 8, 4; Ammian, Marcell., XXV, 10; ad Herenn., 15, 22; Plut., G. Gracch., III; Heitland, II, pp. 294-5; C.A.H., IX, pp. 47-9; Scullard, 1970, p. 33 and n. 26 p. 392.

(38) W.L. Westermann, The Slave System of Greek and Roman Antiquity, 1955, pp. 57 ff.; P.A. Brunt, J.R.S.. 1958, pp. 164, ff.; Slavery in Classical Antiquity, 1960, edited by M.L. Finley.

ترتب على ذلك عجز المزارع الصغيرة عن منافسة الضياع الكبيرة بسبب الفارق الكبير في تكاليف الإنتاج ، وانتشار البطالة بين الأجراء الأحرار ، فكان لذلك كله أثر بالغ في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ولما كان عمل العبيد ثقيلاً ومعاملتهم سيئة وأملهم في الخلاص من عبوديتهم يكاد أن يكون منعدماً ، فإن اكتظاظ الريف بأعداد هائلة من هؤلاء التاعسين كان ينطوي على خطر جسيم يتهدد سلامة الدولة اذا جمع العبيد رأيهم على الثورة على وضعهم . وقد شهدت إيطاليا في خلال العشرين عاماً التي أعقبت هزيمة هانيبال عدداً من الثورات الصغيرة المتفرقة ، نشبت إحداها[٣٩] في عام ١٩٨ ق . م . في ستيا (Setia) على مقربة من روما ، وأخرى[٤٠] في عام ١٩٦ ق . م . في أترووريا وثالثة[٤١] في عام ١٨٥ ق . م . في أبوليا . وحوالي الوقت الذي وقعت فيه ثورة العبيد الكبرى في صقلية دبر مائة وخمسون عبداً مؤامرة في روما ذاتها[٤٢] ، ونشبت ثورتان صغيرتان[٤٣] إحداهما في مينتورناي (Minturnae) والأخرى في سينوسا (Sinuessa) . ولم يقتصر الأمر على إيطاليا وصقلية ، فقد وقعت اضطرابات بين العبيد في أماكن متفرقة في الإمبراطورية الرومانية كانت من بينها آسيا الصغرى[٤٤] وأتيقا وكذلك ديلوس حيث كانت توجد أكبر سوق في العالم القديم لبيع العبيد .

وقد قمعت روما هذه الثورات والاضطرابات جميعاً دون هوادة ، ولكنه مع ازدياد عدد العبيد باطراد واستمرار وضعهم السيء لم يكن هناك ضمان لعدم حدوث ثورات أخرى نتيجة لأخطر ثورات العبيد التي نشبت في ثلاثينات القرن الثالث قبل الميلاد في صقلية . وإزاء شدة قرب هذه الجزيرة

---

(39) Liv., XXXII, 26.
(40) Liv. XXXIII, 36.
(41) Liv., XXXIX, 29.
(42) Orosius, V, 9, 5.
(43) Orosius, V, 9, 4.
(44) Diod., XXIV, 2, 26; Strab., XIV, I, 38; Liv., Ep., 59.

من ايطاليا لا يبعد أن أحد حوافز تيبريوس جراكوس على الإصلاح الزراعي كان الخطر الكامن على الأمن في وجود أعداد كبيرة من العبيد في إيطاليا ، وأن أحد أهدافه من وراء قانون الأراضي كان نشر الأمن والطمأنينة بإنقاص عدد العبيد تبعاً لتحديد ملكية الأراضي وإعادة بناء الطبقة الوسطى ، طبقة صغار المزارعين .

ولما كانت صقلية مسرحاً لحروب تكاد ألا تنقطع مع القرطجنيين فانها لم تُعدم وفرة في العبيد ، وإزاء احتكاك هذه الجزيرة باستمرار مع قرطجنة يبدو أن إغريق صقلية أخذوا عن القرطجنيين عادة استخدام أعداد كبيرة من العبيد في استغلال مزارعهم الكبيرة ، وهي العادة التي لم تلبث أن شاعت بين الفرسان الرومان الذين وجدوا في أرض صقلية مجالاً رحباً لاستثمار أموالهم وأصبحوا يؤلفون غالبية كبار ملاك الأراضي هناك . وفي خلال القرن الثاني بل الميلاد لم يكن يزرع قمحاً من كل أرض صقلية إلا حوالي خمسها على حين أن الجانب الأكبر من باقي الأرض كان مخصصاً للرعي . ولا سبيل الى الشك في أن العبيد كانوا يُستخدمون على نطاق واسع في الزراعة وفي كل أنواع العمل في صقلية ، ولا في أن العبيد الرعاة كانوا — كما هي الحال دائماً — أكثر العبيد جلفة وشراسة . وإنه لمن اليسير أن نتصور أن الرعاة المضطلعين بمهامهم في الجانب الأكبر من صقلية كانوا أخطر فئة بين العبيد ، لأن طبيعة عملهم كانت تقتضي إعطاءهم حرية التنقل من مكان الى آخر مما كان يجعل الرقابة عليهم أكثر صعوبة منها على غيرهم ، وتبعاً لذلك كانت لديهم أفضل الفرص لتدبير الثورات . ولما كان العبيد جميعاً ، باستثناء قلة منهم ، يحيون حياة يصعب أن نتصور وجود ما يدانيها شظفاً وبؤساً ، وكان لا أمل لجموعهم في الخلاص من وضعهم التعس إلا بالثورة عليه ، فإنه لم ينقصهم إلا زعيم ليصبحوا جيشاً هائلاً يتهدد كيان النظام الاجتماعي القائم .

ومنذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد قام عبيد صقلية بين الفينة والأخرى بثورات متفرقة ، ولكنهم حوالي خريف عام ١٣٥ ق . م . قاموا بثورة

عارمة[٤٥] فاقت في خطورتها كل ما سبقها. ذلك أنه ظهر بين عبيد صقلية عندئذ زعيم قدير سوري الأصل يدعى يونس (Junus) استطاع بفضل براعته في أعمال الشعوذة وقوة شخصيته أن يكتسب مكانة كبيرة أولاً بين عبيد منطقة في وسط صقلية وبعد ذلك بين عبيد صقلية بوجه عام، مما مكنه من أن يوحد صفوفهم ويدفعهم الى القيام بثورة هائلة لم يستطع الرومان إخمادها إلا بعد مجهود شاق على مدى ثلاثة أعوام. (أنظر خريطة إيطاليا).

بدأت الثورة بالقرب من إنّا (Enna) — في وسط الجزيرة تقريباً — في ضيعة رجل إغريقي اشتهر بالقسوة حتّى في مجتمع كانت القسوة شيمته. وذات ليلة تجمع ٤٠٠ عبد في هذه الضيعة، وتحت جنح الظلام اقتحموا المدينة وأعملوا الذبح في كل من صادفهم الى أن تمت لهم السيطرة على المدينة. وعندئذ لم ينج من نقمتهم إلا القليلون الذين اتصفوا بالحسنى في معاملة العبيد وكذلك الصناع الذين كان في وسعهم إعداد أسلحة لهؤلاء السادة الجدد. وقد أحسن يونس استغلال هذا النصر المبدئي لدعم مركزه ونشر نفوذه بأن نادى بنفسه ملكاً واتخذ اسم انطيوخوس، وهو الاسم الذي حمله كثيرون من ملوك سوريا السلوقيين، وخلع على حظيته لقب ملكة، وشكل حكومة أو مجلساً استشارياً من أكثر الثوار قدرة وكفاية وكان أبرزهم رجل يدعى أخايوس (Achaeus)، وهو الذي يُعزى الى شجاعته ومواهبه قدر كبير من النجاح الذي أحرزته الثورة قبل القضاء عليها. ذلك أنه منذ أن أقام يونس نفسه ملكاً، اكتفى بأن

---

(٤٥) مصدرنا الرئيسي عن هذه الثورة هو ما تبقى من الجزء الرابع والثلاثين من كتاب المؤرخ ديودوروس الصقلي (Diod . Sic., xxxiv). ولعل أن ما أورده عن هذه الثورة كل من أوروسيوس (Orosius, v, 6 ; 9, 4-8) وفالريوس ماكسيموس (Val. Max. ii, 7, 9 ; ix, 12, 1) وفرونتيوس (Front., Strat., iv, 1, 26) وفلوروس (Florus, ii, 7 ; iii, 19) متسمد من الأجزاء التي فقدت من كتاب المؤرخ ليفيوس (راجع ملخصاته Liv., Ep., 56-59) ومن التاريخ الضائع الذي ألفه بيسو. ويمكن التزود ببعض المعلومات عن هذه الثورة مما كتبه استرابون (Strab., vi, 2, 6). أنظر :

Heitland, II, pp. 258-64; C.A.H., IX, pp. 11-16; Scullard, 1970, pp. 13-16, and n. 15 p. 383.

يكون رمزاً للثورة والمحور الذي يستقطب ولاء الثوار وتتجمع حوله وحدتهم. على حين أن أخايوس عمد الى بناء جيش الثورة. ولم يلق أخايوس في مهمته أي عناء، إذ أن الثوار أخذوا يتدفقون عليه من المنطقة المجاورة لمدينة إنّا فزاد عددهم في خلال فترة وجيزة من ٤٠٠ الى ٦٠٠٠. وفضلاً عن ذلك فإنه بعد حوالي شهر واحد زاد عدد الثوار زيادة كبيرة وأصبحت لهم قاعدة ثانية هي مدينة أجريجنتوم (Agrigentum). وكانت أكبر المدن الواقعة على الشاطىء الجنوبي لصقلية. ذلك أنه كان بين عبيد هذه المنطقة رجل يدعى قليون (Cleon)، وأن أنباء ما حدث في إنّا أغرت قليون على أن يحتذي حذو يونس فاستولى على أجريجنتوم. وينهض دليلاً على المكانة التي اكتسبها يونس سريعاً وكذلك على الرغبة الصادقة في نجاح الثورة وعلى ما أصبح الثوار مقتنعين به من أنه كان لا يمكن تحقيق النجاح المنشود إلا بتوحيد صفوفهم. أنه برغم نجاح قليون في الاستيلاء على أجريجنتوم فإنه بدلاً من أن يقيم نفسه زعيماً لحركة منفصلة وضع نفسه ورجاله وكل موارده تحت إمرة زعامة الحركة الأولى. ونتيجة لذلك انضم الى جيش الثورة حوالي ٥٠٠٠ ثائر آخرين مما شجع غيرهم على الانضمام الى هذا الجيش فبلغ عدده سريعاً حوالي ٢٠.٠٠٠ مقاتل وتمكن من الاستيلاء على مدينتي تاورمنيوم (Tauremnium) وقاتانا (Catāna). واذا كانت القرائن توحي بأن هدف يونس منذ البداية كان السيطرة على صقلية بأجمعها، وبأن الثوار تمكنوا من السيطرة على جانب كبير من صقلية، فإنه في ضوء معلوماتنا الحالية يصعب علينا تحديد مدى مكاسبهم تحديداً دقيقاً، وإن كنا نشك في سقوط مسانا (Messana) في أيديهم ونستبعد استيلاءهم على سراقوسة (Syracuse) وليلوبايوم (Lilybaeum).

وعلى كل حال فإنه كان من شأن اتساع نطاق هذه الثورة أنه أقلق الحكومة الرومانية قلقاً شديداً. ذلك أنه اذا قُدر لثوار صقلية أن تتكلل حركتهم بالنجاح، فإن ذلك كان كفيلاً بأن يحفز التاعسين من أمثالهم في أماكن أخرى على أن يحذوا حذوهم. وإزاء ذلك لم يكن هناك مناص من أن تتخذ الحكومة

الرومانية عندئذ إجراءات أكثر فعالية من تلك التي اتخذتها في الماضي ولم تكفل إلا مجرد منع الثورات المتفرقة من أن تصبح ثورة عامة تتحول الى حرب سافرة . ولا أدل على جسامة الخطر الذي كان يواجه روما عندئذ مما سبقت الإشارة اليه من نشوب ثورات أخرى للعبيد حوالي هذا الوقت في إيطاليا وفي خارجها . واذا كان يعوزنا الدليل على وجود منظمة تستهدف قيام العبيد في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية بثورة عامة ، فإن نشوب كل هذه الثورات يدل دلالة قاطعة على أن حال العبيد المسخرين في المناجم أو في المراعي أو في الضياع الكبيرة كانت بالغة السوء الى حد أنهم كانوا لا يترددون في الالتجاء الى العنف أملاً في الخلاص من محنتهم .

واذا صح أن ثورة إنّا بدأت في عام ١٣٥ ق . م . فإنه يحتمل أنه كان قرب نهاية هذا العام عندما اشتبك البرايتور لوقيوس بلاوتيوس هوبسايوس (L. Plautius Hypsaeus) مع الثوار بجيش روماني يتألف من ٨٠٠٠ مقاتل . ولما كان جيش الثوار يبلغ عندئذ أكثر من ضعف هذا العدد فإنه دحر الجيش الروماني ، وبفضل هذا النصر اشتد ساعد الثوار وتزايد عددهم . ونحن نجهل تفاصيل ما أعقب ذلك وإن كنا نعرف أنه في العام التالي عندما أسندت قيادة القوات الرومانية في صقلية الى جايوس فولفيوس فلاقوس ، أحد قنصلي عام ١٣٤ ق . م . ، لم يحرز أي نجاح يذكر . بيد أنه عندما خلف فلاقوس في القيادة لوقيوس قالبورنيوس بيسو (Piso) ، أحد قنصلي عام ١٣٣ ق . م . ، يبدو أن القائد الجديد بإصراره على تطبيق النظم العسكرية تطبيقاً دقيقاً جعل القوات الرومانية أكثر فعالية فتمكن من الاستيلاء على بعض معاقل الثوار ومن الضغط عليهم ضغطاً شديداً ، وبذلك مهد السبيل للقضاء على الثورة في عهد خلفه بوبليوس روبيليوس[٤٦] (P. Rupilius) ، أحد قنصلي عام ١٣٢ ق . م . ولا أدل على مدى فعالية ما قام به بيسو في إضعاف قوة الثوار من أن أهم ما تبقى أمام روبيليوس للقضاء عليهم كان حصار

(46) Liv., Ep, 59; Oros., V, 9, 7; Diod., XXXIV, 2, 22-23.

تاورمنيوم وإنّا . وقد بدأ روبيليوس عمله بمحاصرة المدينة الأولى حصاراً شديداً الى أن تمكن من الاستيلاء عليها بفضل المجاعة والخيانة . ولم تلبث إنّا أن لقيت المصير نفسه بعد اختفاء أخايوس ومقتل قليون وفرار يونس . وهكذا أُصيبت الثورة بضربات قاصمة في عام ١٣٢ ق . م . ولم يتبق إلا القضاء على العصابات الصغيرة التي هامت على وجوهها في أرجاء الجزيرة وكان من الممكن أن يضطرب حبل الأمن بسببها . وتبعاً لذلك عهد روبيليوس الى عدد من كتائبه بمهمة القضاء على هذه العصابات . وقد أدت هذه الكتائب مهمتها على خير وجه ، فنعمت صقلية سريعاً بهدوء لم تعهده منذ مدة طويلة . ويعجب بعض الباحثين من أنه عندما ألقى الرومان القبض على يونس — وقد وجدوه مختبئاً في كهف مع حاشية صغيرة مؤلفة من طاهيه وخبازه وخادمه الخاص ومضحكه — لم يعدموه وإنما أودعوه السجن الى أن مات ميتة طبيعية . ولعل أن ما أصاب يونس من مهانة على هذا النحو بعد ما تمتع به من مجد وسلطان كان عقاباً أشد قسوة ومرارة من الإعدام .

واذا كان الرومان قد اتبعوا في صقلية ما اتبعوه في أماكن أخرى من إنزال أشد صنوف العقاب بالعبيد الثائرين والضرب على أيديهم في أثنـــاء مقاومتهم ، فإنه يبدو أنه بعد سقوط إنّا عمد الرومان الى إعادة الثوار الى أصحابهم ، لأن الاستمرار في قتل العبيد عندئذ كان معناه مصادرة ملكية أولئك الذين قاتلت القوات الرومانية دفاعاً عن صوالحهم . وعلى نحو ما حدث في جهات أخرى ما أن أُخمدت الثورة في صقلية حتى مُلئت أماكن العبيد الذين قتلوا بعبيد آخرين وعاود أصحاب الضياع نشاطهم على غرار ما كانوا يفعلونه من قبل . وهكذا اذا كانت روما قد نجحت في إخماد ثورات العبيد في أرجاء الإمبراطورية ، فإن الضياع الكبيرة سواء في صقلية أم في غيرها وكذلك المناجم ظلت مسرحاً لأشد صنوف المظالم ، كما أن تجار العبيد في بحر إيجة ظلوا سادرين في غيهم يمارسون نشاطهم الأثيم ويزودون أرباب الضياع الكبيرة ومستغلي المناجم بكل ما يريدون من العبيد . ومعنى ذلك أن روما

عالجت ظواهر الداء لكنها لم تعالج أسبابه الحقيقية التي أدت إلى تفاقمه واندلاع لهيب الثورات ، وتبعاً لذلك ظل يتهدد روما خطر جسيم .

حقاً إنه فيما يخص صقلية أطيلت مدة تمتع روبيليوس بالسلطة التنفيذية واستبقي هناك ليتولى حكم هذه الولاية في عام ١٣١ ق . م . بوصف كونه بروقنصلاً وأرسلت اليه لجنة من عشرة أعضاء من السناتو لمساعدته في إعادة تنظيم حكم صقلية ، وأنه كان من شأن ما أُدخل على نظام الحكم في صقلية من تعديلات تضمنها القانون[٤٧] (Lex Rupilia) الذي صدر في عام ١٣١ ق . م . تحسن نظم صقلية في مجال الضرائب والإجراءات القانونية ، إلا أن المفاسد الكامنة سواء في نظام الإدارة ذاته أم في طريقة استغلال الضياع الكبيرة ظلت على حالها ، لأن بقاء هذه المفاسد كان في صالح أصحاب ذوي النفوذ من الرومان .

ثانياً — الحرب في اسبانيا

في خلال الحرب البونية الثانية فتح الرومان عدة أقاليم في إسبانيا بقصد حرمان قرطجنة القواعد والموارد التي تمكنها من غزو إيطاليا . وبعد انتهاء هذه الحرب حوّل الرومان في عام ١٩٧ ق . م . الأقاليم التي فتحوها في إسبانيا الى ولايتين دعوهما « إسبانية الدانية » (Hispania Citerior) و « إسبانيا القاصية » (Hispania Ulterior) . بيد أن الإسبان لم يخلدوا الى السكينة في ظل الحكم الروماني وأخذوا يقومون بثورات متفرقة واحدة بعد أخرى الى أن تمكن تيبريوس سمبرونيوس جراكوس — والد وسمي إبنه التريبون المصلح — من تهدئة الأوضاع بفضل الحملتين اللتين قام بهما في عامي ١٨٠ و ١٧٩ ق . م . وكذلك بفضل نزاهته وقوة شخصيته مما أكسبه ثقة الأهالي الوطنيين . وقد ترتب على التسوية العامة التي وضعها جراكوس الكبير سيطرة الرومان على

(47) Cic., II in Verr., II, 13, 32; 15, 37; 16, 39; 24, 59.

شبه جزيرة إسبانيا بأجمعها ، فيما عدا المناطق المطلة على المحيط الأطلسي . واستقرار الهدوء حتى عام ١٥٤ ق . م . عندما طفحت كأس الإسبان بالمظالم التي أنزلها بهم حاكم روماني بعد آخر ، واكتفاء السناتو بمعالجة شكاوى الذين وقع عليهم الظلم بوعود جوفاء .

وعندما نشبت الثورة وحُشد ضدها جيش روماني بعد آخر اتسمت القوات الرومانية بالعجز والقصور مثل ما اتسم قوادها بالغدر والقسوة ، مما أفضى الى الاستبسال في المقاومة وتبعاً لذلك امتداد الصراع أكثر من عشرين عاماً . ومن أمثلة أعمال الغدر والقسوة أن البروقنصل جالبا (Galba) ، بعد أن عقد صلحاً في عام ١٥١ ق . م . مع اللوسيتاني (Lusitani ، أقوى قبائل إسبانيا الدانية) وأغراهم على تسليم سلاحهم ، انقض عليهم وذبح عدة آلاف منهم . وتبرئة ساحة هذا القائد الغادر عندما أصر قاتو الكبير على تقديمه للمحاكمة أمر له دلالته على أن فساد الأخلاق العامة لم يكن مقصوراً على حكام الولايات.

ولم يكن من شأن هذه المذبحة المروعة إلا أنها حفزت أحد الناجين منها، وهو فيرياتوس (Viriathus) ، على تولي زعامة اللوسيتاني في صراعهم مع الرومان الى أن أرغم على التسليم ثم قُتل غدراً في عام ١٣٩ ق . م . وبعد ذلك تم سريعاً إخضاع اللوسيتاني . (أنظر خريطة إسبانيا) .

وفي أثناء الصراع مع اللوسيتاني كان الرومان قد عقـــدوا صلحاً في عام ١٥١ ق . م . مع أكثر القلتيبري (Celtiberi ، أقوى قبائل إسبانيا القاصية) . ولكن النجاح المبدئي الذي صادفه فيرياتوس شجع القلتيبري على الثورة في عام ١٤٣ ق . م . وإزاء تركز الحرب الإسبانية عندئذ حول نومانتيـــا (Numantia ، أهم مدن القلتيبري) درج المؤرخون على تسمية هذه المرحلة من الحرب « حرب نومانتيا » . ومرة أخرى نشهد مثلاً لتدهور الخلق الروماني ، ذلك أنه في عام ١٤٠ ق . م . عقد القائد الروماني كوينتوس بومبي (Pompeius) صلحاً مع النومانتيين بشروط معقولة شجعتهم على القبول .

ولكنه لم يلبث أن نقض شروط الصلح وتجاهل السناتو الأمر .

وفي عام ١٣٧ ق . م . ضيق النومانتيون الخناق على القنصل مانقينوس وجيشه المؤلف من ٢٠,٠٠٠ مقاتل ، ولم ينقذ القنصل وجيشه من كارثة محققة إلا أن النومانتيين قبلوا شروط الصلح لأن الذي تولى المفاوضات معهم وعرض عليهم هذه الشروط ووعد باحترامها كان الكوايستور الشاب تيبريوس سمبرونيوس جراكوس ابن ذلك الرجل الجليل الذي اكتسب بصدقه ونزاهته مكانة كبيرة بين الإسبان . ولكنه بعد أن فك النومانتيون حصارهم عن القوات الرومانية وبذلك فوتوا على أنفسهم فرصة إحراز نصر كبير ، رفض السناتو إبرام معاهدة الصلح وجعل من القنصل كبش الفداء وسلمه الى العدو مصفداً بالأغلال ، ولكن النومانتيين كانوا أكرم من أن يقبلوا القنصل وردوه الى بـــلاده[٤٨] .

وبعد سلسلة من الهزائم رأى الرومان أنه لن يخرجهم من ورطتهم إلا اذا تولى القيادة في إسبانيا قائد محنك . ولما لم يكن هناك رجل يتمتع بتقدير الجميع سوى سقيبيو آيميليانوس وهو الذي سبق له أن أخرج روما من ورطة مماثلة عندما هزم قرطجنة في عام ١٤٦ ق . م . ، فإنه استثناء من أحكام القانون الذي صدر حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وقضى بألا يتولى أحد القنصلية أكثر من مرة واحدة ، سمح الرومان لسقيبيو آيميليانوس بتولي القنصلية ثانية[٤٩] في عام ١٣٤ ق . م . وأسندوا اليه وضع أمور إسبانيا في نصابهـــا .

واذا كان يتبين من مصادرنا أن سقيبيو لم يحشد قوات جديدة بالطريقة المألوفة للاضطلاع بالمهمة التي أسندت اليه ، فإنه يبدو أن مرد ذلك لم يكن الى تأجج نيران حرب العبيد في صقلية عندئذ بقدر ما كان الى تقدير سقيبيو أن القوات الرومانية في إسبانيا كانت أحوج الى الكيف منها الى الكم . ولعل

---

(48) Liv., Ep., 56; Plut., T. Gracch., V; App., Iber., 83; Velleius, II, 1, 4 ff.
(49) Liv., Ep.; 56; App., Iber., 84-98.

أنه يؤيد ذلك أنه جمع من الممالك والدول الحليفة قوة تتألف من ٣٥٠٠ رجل من صفوة المحاربين الذين تطوعوا للقتال تحت قيادته ، فضلاً عن أنه حشد ٥٠٠ رجل من أصدقائه وأتباعه واتخذ من هذه الكتيبة (Cohors) حرساً خاصاً له تأميناً لحياته في أثناء قيامه بإصلاح ما اعوج في القوات الرومانية الموجودة في إسبانيا .

ولم يضع سقيبيو وقتاً في الوصول الى إسبانيا ولا ادخر جهداً في العمل على تطهير الجيش مما دب اليه من فساد وكسل وتراخ وترف وعدم إطاعة الأوامر بسبب عجز القواد في السنوات الأخيرة حتى أصبح الجيش عديم الفعالية . ذلك أن سقيبيو استبعد دواب الحمل غير اللازمة وجعل الجنود يحملون لوازمهم ، كما أنه استبعد من الحشود التي كانت عادة تتبع جيوش الحملات : المنجمين وتجار أدوات الترف وكذلك ألفي امرأة من بائعات الهوى . وبعد ذلك عكف على تدريب رجاله على تحمل المشاق وإطاعة الأوامر تحت رقابة ساهرة ، ثم قادهم في حملة ضد قبائل الفاقاي (Vaccae) . ولم تكن هذه الحملة ذات شأن إلا من حيث أنها أتمت تدريب الجنود على السير المنتظم ، وعلى القيام بعمليات استطلاعية دقيقة قبل التقدم وقبل جمع القوت . وعلى إقامة المعسكرات وفقاً للقواعد العسكرية الرومانية الدقيقة ، وعلى استعمال الفأس والجاروف بذات البراعة التي تستعمل بها الحربة والسيف .

وبعد أن أتم سقيبيو إعادة بناء القوات الرومانية في إسبانيا قادها ضد نومانتيا حيث أنشأ حول هذه المدينة نظاماً دقيقاً من خطوط الحصار ليرغمها على الاستسلام تجنباً لسفك دماء رجاله وارتكاب أي خطأ في هذه المرة . ولما كان سقيبيو قد استدعى للخدمة العسكرية قوات من القبائل الإسبانية الموالية للرومان وقام بتوزيع هذه القوات بين كتائب جيشه ، فإنه يقال إنه كانت تحت إمرته يومئذ حوالي ٦٠,٠٠٠ مقاتل على حين أن النومانتيين المحاصرين كانوا يبلغون حوالي ثُمن هذا العدد .

وقبل نهاية عام ١٣٤ ق . م . كانت نومانتيا محاصرة حصاراً تاماً . وكلما

اشتد الحصار على النومانتيين حاولوا دون جدوى مهاجمة محاصريهم . وأخيراً بعد حصار دام خمسة عشر شهراً اضطر النومانتيون الى التسليم في أواخر عام ١٣٣ ق . م . دون قيد أو شرط . فبيع في سوق النخاسة كل من بقي منهم على قيد الحياة ومُحيت المدينة من عالم الوجود . وبسقوط نومانتيا انتهت الحرب الإسبانية لأنه بمصيرها المفجع لقنت روما الإسبان درساً جيداً فلم يعودوا ثانية يسببون لها متاعب ذات شأن .

وقد كان من شأن الهدوء الذي ساد ولايتي إسبانيا بعد ذلك تشجيع الهجرة من إيطاليا للاستقرار حول قواعد القوات الرومانية وكذلك تشجيع الرأسماليين على السير قُدماً في استغلال المناجم . وتأميناً لاستتباب الأوضاع أنشأ الرومان عدة طرق تصل الى دواخل شبه الجزيرة . وإزاء افتقار الإسبان الى الإحساس بحضارة قومية عامة يستمسكون بها ، مع وجود أعداد كبيرة بين ظهرانيهم من المدنيين والعسكريين ، الرومان والإيطاليين ، انتشرت الحضارة الرومانية في إسبانيا . وأسهم ذلك في دعم السيطرة الرومانية عليها . ومما يجدر بالملاحظة أنه فيما بعد كانت الولايتان الإسبانيتان أكثر ولايات الإمبراطورية الرومانية اصطباغاً بالحضارة الرومانية وكذلك أوفرها رخاء .

وتمهيداً للأحداث المقبلة يجمل بنا أن نشير هنا الى أنه قد كان من بين رجال سقيبيو في الحرب الإسبانية عدد من الشبان الذين كان مقدراً لهم أن يقوموا بأدوار هامة في تاريخ روما . وهؤلاء الشبان هم جايوس جراكوس وبوبليوس روتيليوس روفوس (P. Rutilius Rufus) وجايوس ماريوس (G. Marius) ويوجورتا (Jugurtha) . ولم يكن يوجورتا مواطناً رومانياً وإنما أمير نوميدي فقد كان ابن أخ ميقيبسا (Micipsa) ملك نوميديا . ويقال[50] إن هذا الملك ، وقد أزعجه نشاط يوجورتا وطموحه ، أرسله الى الحرب الإسبانية على رأس تجريدة نوميدية أملاً في أن تدفعه جرأته الى أن

(50) Sallust., B. Jug., VI-IX.

يلقى حتفه فتتخلص بلاده مما قد يسبب لها من متاعب . بيد أن يوجورتا لم ينج من المخاطر فحسب بل اكتسب مجداً وتجربة . ذلك أنه عندما فطن سقيبيو إلى مواهبه وعهد اليه مرة بعد أخرى بمهام تتطلب الجرأة وحسن التقدير ونجح في أداء هذه المهام ، اكتسب محبة كبيرة وصداقة الضباط وكان أكثرهم ينتمون الى أكبر الأسر الرومانية . وعن طريق صلات يوجورتا بالضباط وأحاديثهم الصريحة في اجتماعاتهم الخاصة ، عرف ظواهر الإنحلال الخلقي في المجتمع الروماني وأدرك أنه في روما يمكن شراء أي شيء بما في ذلك الضمائر وأنه يستوي في ذلك ضمير رجل الشارع وضمير عضو السناتو النبيل مع الفارق طبعاً من حيث الثمن المناسب في كل حالة . وسنرى في معرض الحديث عن « حرب يوجورتا » كيف أن يوجورتا أفاد من ذلك كله فترة غير قصيرة .

ثالثاً — إنشاء ولاية آسيا [٥١] (Provincia Asia)

سبق أن ذكرنا أنه قبل وفاة أتالوس الثالث ملك برجام في عام ١٣٣ ق . م . أوصى بأن تؤول مملكته من بعده الى الشعب الروماني [٥٢] . وبعد العثور على نقش [٥٣] يتضمن بقايا نص هذه الوصية ونشر هذا النقش في أواخر القرن الماضي لم يعد هناك مجال للشك الذي أثاره المؤرخ الروماني صالوستيوس [٥٤] حول وجود مثل هذه الوصية . واذا كان يتبين من النقش السالف الذكر أن أتالوس أوصى بأن تبقى « حرة » مدينة برجام وإقليمها . فانه لا يستبعد أن

---

(٥١) راجع :
Heitland, II, pp. 282-5; C.A.H., IX, pp. 102 ff.; A.H.M. Jones, Cities of The Eastern Roman Provinces, pp. 57 ff.; E.V. Hansen, The Attalids of Pergamon, 1947, pp 142 ff.; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, 1950, Ch. VI; J. Vogt, Atti III Congresso Intern. di Epigr., 1957, pp. 45 ff.; Scullard, 1970, pp. 40-41, and n. 38 p. 396

(52) Liv., XIV, 63.

(53) Dittenberger, O.G.I.S. no. 338 = I.G.R.R. no. 289; Lewis-Reinhold, Roman Civilization, vol I, 1951, pp. 321-323.

(54) Sallust., fr. 4, 69, 8, ed. Maurenbercher.

تكون الوصية نصت على تمتع المدن الإغريقية الأخرى في هذه المملكة بوضع مماثل ، وأن الملك كان يقصد بذلك إعفاء المدن الإغريقية في مملكته من السيطرة الرومانية ومن دفع الجزية لروما . بيد أن الأحداث أثبتت أن أتالوس كان شديد التفاؤل على الأقل من حيث إعفاء المدن الإغريقية جميعاً من الضرائب أو من الخضوع لسيطرة حاكم الولاية الجديدة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه منذ انتصرت روما على أنطيوخوس الثالث في موقعة ماجنسيا في عام ١٨٩ ق . م . والتسوية التي وضعتها بمقتضى معاهدة أباميا في عام ١٨٨ ق . م . كان أغلب آسيا الصغرى منطقة نفوذ رومانية ، غير أنه حتى وفاة أتالوس الثالث كانت روما تمارس نفوذها هناك عن طريق أتباعها ملوك برجام . وتبعاً لذلك فإنه كان من شأن وفاة أتالوس الثالث وتوريث مملكته للشعب الروماني تولى روما الأمر بنفسها في آسيا الصغرى . وبرغم ما كان ذلك ينطوي عليه من مشاكل خطيرة ، فإن روما لم تتردد في قبول الإرث الذي آل اليها فجأة . وفي اعتقادنا أن تصرف روما على هذا النحو كان أمراً طبيعياً يتفق ومنطق الأحداث . ذلك أنه كان يتمشى مع السياسة التوسعية التي دأبت عليها روما منذ قبيل منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، كما كان يتمشى مع سياسة تأمين نفسها ضد الشرق الهلينيسي وهي السياسة التي دفعتها من قبل الى محاربة فيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث وبرسيوس . وينهض دليلاً على شدة المخاوف التي كانت تساور روما من ناحية الشرق الهلينيسي أنه حتى بعد إحرازها انتصارات حاسمة على أولئك الملوك الذين ذكرناهم كانت لا تزال تخشى مقدونيا وسوريا وتدخل ذلك في حسابها ، وأنه في القرن الأول قبل الميلاد أقلقها أشد القلق ازدياد قوة ميثريداتس الأكبر وپارثيا على نحو ما سنرى فيما بعد . (أنظر خريطة آسيا الصغرى).

ويحدثنا ليفيوس[٥٥] بأن أريستونيقوس (Aristonicus) استولى على

---

(55) Liv., XIV, 65.

« آسيا » برغم أن الملك أتالوس كان قد أورثها للشعب الروماني وتبعاً لذلك كانت « حرة » . وفي ضوء الأحداث التالية لا يمكن تفسير المقصود بهذه « الحرية » إلا بأن هذا الإرث كان يستتبع أمرين : وأحدهما هو عدم خضوع هذه التركة لأي ملك يوحد قواتها ومواردها ضد روما . والأمر الآخر هو استيلاء روما على هذه التركة التي كان لها من الثراء والحضارة ما يغري على تحويلها الى ولاية رومانية وما يعطي أهلها « الحرية » في أن يفعلوا ما يؤمرون به وفي أن يدفعوا ثمن هذه « الحرية » .

وتفسير ذلك أنه قبل أن يتسلم الرومان إرثهم ظهر مطالب بعرش مملكة برجام وكان رجلاً يدعى أريستونيقوس (Aristonicus) زعم أنه ابن غير شرعي ليومنس (Eumenes) الثاني (أي أنه أخٌ لأتالوس الثالث) ، وأن من حقه أن يخلف أخاه على العرش . وعندما فشل أريستونيقوس في الفوز بتأييد المدن الإغريقية الكبرى الواقعة على الساحل ، اتجه الى الداخل حيث أفلح في تكوين جيش كبير من المرتزقة ومن الناقمين على الأوضاع الاجتماعية السيئة ، وكان بعضهم من العبيد والبعض الآخر والأكبر عدداً من الأهالي الوطنيين . وقد استطاع أريستونيقوس السيطرة على جانب كبير من مملكة برجام ، لأن الحكومة الرومانية تلكأت كعادتها في اتخاذ إجراء حاسم منذ البداية ، واكتفت بأن ترسل في أوائل عام ١٣٢ ق . م . لجنة خماسية من أعضاء السناتو لتضع من الترتيبات ما تراه مناسباً لمواجهة الموقف . ويبدو أن هذه اللجنة لم تحسن تقدير الموقف ، فقد تصورت أنه كان يكفي لوضع الأمور في نصابها مناشدة الملوك المجاورين أصدقاء روما أن يهبوا للقضاء على أريستونيقوس . ولكنه سرعان ما تبين سوء تقدير اللجنة عندما أثبت أريستونيقوس أنه كان أكثر من ند للقوات التي أنفذها ضده ملوك بونطوس (Pontus) وقابادوقيا (Cappadocia) وبيثونيا (Bithynia) وبافلاجونيا (Paphlagonia) . وعندئذ لم يكن هناك مفر من أن تتولى روما بنفسها أمر أريستونيقوس . وتبعاً لذلك فإن بوبليوس ليقينيوس قراسوس ، أحد

قنصلي عام ١٣١ ق . م . ، أرسل على رأس جيش كبير الى آسيا ، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً وفي أوائل عام ١٣٠ ق . م . وقع في الأسر حيث لقي حتفه[٥٦] . غير أن خليفته ماركوس بربرنا (M. Perperna) ، أحد قنصلي عام ١٣٠ ق. م. ، تمكن من هزيمة أريستونيقوس وأسره وإرساله الى روما حيث أعدم . وكذلك أرسل بربرنا الكنوز الملكية الى روما حيث وصلت في عام ١٢٩ ق . م . ولكنه هو نفسه خر مريضاً وتوفي في برجام[٥٧] . ولم يبق أمام خليفته مانيوس أكويليوس (Mànius Aquilius) ، أحد قنصلي عام ١٢٩ ق. م. ، إلا أن يقوم بمظاهرة عسكرية لوضع الأمن في نصابه في الأقاليم النائية ، وأن يرأس لجنة العشرة التي أرسلها السناتو لوضع دستور الولاية الجديدة ، وهي التي سميت ولاية آسيا (Provìncia Asìa) ، وتعيين حدود هذه الولاية[٥٨] . ويبدو أن هذه اللجنة لم تكوّن هذه الولاية إلا من أعظم أجزاء مملكة برجام ثراء وأوفرها خصباً وأكثرها تحضراً ، وهي الأجزاء التي كانت تقع في الغرب وتشمل أغلب الجزر المجاورة[٥٩] .

وقد فاقت هذه الولاية باقي ولايات الجمهورية الرومانية كافة من حيث ما أفاء الله عليها من خيرات مثل ما فاقتها من حيث ما أنزله بها الرومان من أعمال العسف والابتزاز . ذلك أنه اذا كانت لجنة العشرة قد استبقت النظام الضريبي القديم الذي كان معمولاً به في مملكة برجام وسمحت لأهالي ولاية آسيا بجباية الضرائب ، فإنه لم تنقض بضع سنوات قليلة حتى تقرر إسناد جباية هذه الضرائب الى شركات رومانية من محترفي جباية الضرائب وسارع الرأسماليون الرومان الى بذل قصارى جهدهم في استغلال الولاية الجديدة . ولم يحدث فحسب أن أهالي الولاية أصبحوا نهباً لجشع جباة الضرائب الرومان،

---

(56) Justin., XXXVI, 4, 10; Florus, I, 35.

(57) Liv., Ep., 59; Gell., I, 13, 10; Strab., XIV, 1, 38; Florus, I. 35. Justin., XXXVI, 4, 7-8; Val. Max., III, 2, 12; Eutrop., IV, 20.

(58) Liv., Ep., 59; Strab.., XIV, I, 38; Justin., XXXVI, 4, 9; Eutrop., IV, 20.

(59) Cf. Senatus Consultum de agro Pergameno, Greenidge and Clay, Sources for Roman History, App. II A.

بل أيضاً أن الجاليات الإغريقية بوجه خاص ، سواء على الشواطىء أم على طرق التجارة الداخلية ، أصبحت تعاني من منافسة الرومان التجارية والمالية . وقد كان من شأن ذلك كله أن ولاية آسيا أصبحت تشعر الى أقصى حد بثقل وطأة الحكم الروماني . وزاد الطين بلة إلغاء الأسطول الذي كان ملوك برجام يعنون بالحفاظ عليه لحماية تجارة مملكتهم من قراصنة البحر . وقد كان من جراء حدوث ذلك بعدما أصاب قوة مصر البحرية وهن شديد منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ، وما اقتضته السياسة الرومانية من إضعاف قوة رودس البحرية ومن تقييد نشاط ملوك سوريا في البحر ، إزالة ما تبقى من عقبات كانت تعترض سبيل قراصنة البحر وترك شواطىء آسيا الصغرى تحت رحمتهم . ويجب ألا يفوتنا أمر ذلك كله لكي نفهم النجاح الذي أصابته فيما بعد دعوة ميثريداتس السادس الى التحرر من ربقة الحكم الروماني .

ولم تدخل لجنة العشرة في حظيرة « ولاية آسيا » تلك الأقاليم الشرقية المتطرفة التي كانت مملكة برجام تشملها لسبب غير أن الحفاظ على هذه الأقاليم تحت سيطرة الرومان كان سيكلفهم أكثر مما سيجنونه من وراء ضمها . ووفقاً لما كان يتبع في مثل هذه الأحوال أعطيت هبات مناسبة لأصدقاء روما الذين استجابوا الى نداء لجنة الخمسة وهبوا للقضاء على أريستونيقوس . واذا كان إعطاء لوقاونيا (Lycaonia) الى بافلاجونيا وقيليقيا تراخيا (Tracheia = الوعرة أو الجبلية) الى قابادوقيا لم يثر إشكالاً ، فإن التصرف في فروجيا (Phrygia) الكبرى كان أمراً آخر . ذلك ان أكثر هذا الإقليم كان يقع شرقي لوديا (Lydia) ، ويمتد حتى غالاتيا (Galatia) ، ويضم عدداً من المدن الإغريقية المزدهرة ولا سيما في الجنوب ، ويتمتع بموقع استراتيجي مهم ، وكان كل من نيقومدس (Nicomedes) الثاني ملك بيثونيا وميثريداتس (Mithridates) الخامس ملك بونطوس يطمع في الحصول على هـذا الإقليم . ويقال إنه كان للرشوة أثرها في فوز ميثريداتس بهذه الغنيمة من لجنة التسوية[٦٠] . ومن المرجح أن مثل هذه المنح كانت تعطى مشفوعة بتحفظ

(60) App., Mithr., 57.

شكلي مقتضاه أنها كانت لا تصبح نافذة المفعول إلا بعد موافقة السناتو والأمة الرومانية . واذا كانت العادة قد جرت في الماضي على إبرام التسويات التي تضعها لجان السناتو ، فإن الأحداث التي شهدتها روما مؤخراً ومر بنا ذكرها تدل على أن الأوضاع قد تغيرت . ولما كان عزيزاً على بيثونيا ألا تفوز بغنيمة ثمينة مثل فروجيا الكبرى وكذلك عزيزاً على طبقة الرأسماليين أن يفوت عليهم عدم ضم هذا الإقليم الى الولاية الجديدة فرصاً كبيرة للاستغلال ، فإن مسألة تقرير مصير فروجيا الكبرى أثارت ضجة كبرى في روما .

واذا كان الظلام يخيم كثيفاً حول تفاصيل ما حدث ، فإننا نعرف على الأقل أنه بعد عودة أكويليوس من آسيا في عام ١٤٦ ق . م . قُدم الى المحكمة الدائمة لاسترداد الأموال المبتزة .(quaestio perpetua de rebus repetundis) ، وأن الفضيحة التي أثارتها تبرئته قد أسهمت في انتخاب الزعيم الشعبي ماركوس فولفيوس فلاكوس لقنصلية عام ١٢٥ ق . م . وكانت إحدى الحجج التي تذرع بها جايوس جراكوس في دعوته الى تشكيل هيئات محلفي « المحكمة الدائمة لاسترداد الأموال المبتزة » من الفرسان بدلاً من أعضاء السناتو[٦١] ، وأن جايوس جراكوس أسهم في رفض مشروع قانون كان الهدف منه المصادقة على منح ميثريداتس الخامس فروجيا الكبرى[٦٢] ، وأنه عند وفاة هذا الملك في عام ١٢١ ق . م . كانت روما لا تزال ترفض الاعتراف بحق بونطوس على فروجيا الكبرى ، وأنه في عام ١١٦ ق . م . ، فيما يبدو ، تقرر ضم هذا الإقليم الى ولاية آسيا[٦٣] ، مما كان أحد الأسباب التي أوغرت صدر ميثريداتس السادس (١٢١ — ٦٣ ق . م .) على روما . ويتضح مما أورده شيشرون[٦٤] في إحدى مرافعاته أنه في عام ٥٩ ق . م . كانت فروجيا الكبرى جزءاً من ولاية آسيا .

---

(61) Cic., Div. in Caec., 21, 69; Ps. Ascon. in loc. p. 204 (Stangl).
(62) Malcovanti, Or. Rom. Fr., II, 2nd ed., 1955, pp. 187-8; Gell., XI, 10.
(63) Cf. O.G.I.S. 346 = I.G.R.R., IV, 752.
(64) Cic., pro Flacco, 65.

رابعاً – إنشاء ولاية غاليا فيما وراء الألب.[٦٥] (Gallia Transalpina)

كانت المستعمرة الإغريقية القديمة ماسيليا حليفة مخلصة لروما وقدمت لها خدمات جليلة في خلال الحرب مع هانيبال. وفضلاً عن ذلك فإن ماسيليا كانت تسيطر على المنطقة الساحلية الممتدة من نهر الرون الى جنوا تقريباً، وهي المنطقة التي كان يجتازها الطريق البري الوحيد الذي كان يصل بين روما وممتلكاتها الإسبانية. وكان من شأن وقوع هذه المنطقة تحت سيطرة قوة معادية لروما قطع اتصالها براً بإسبانيا وكذلك تهديد هذا الاتصال بحراً، لأن السفن القديمة كانت تسير عادة مساحلةً. هذا الى أن رخاء ماسيليا والمنطقة التابعة لها، حيث ازدهرت مزارع الكروم وأشجار الزيتون، كان يثير لعاب الرأسماليين الرومان ويحفزهم على المطالبة باستغلال ذلك الإقليم الخصب الواقع فيما وراء جبال الألب. (أنظر خريطة بلاد الغال).

وإزاء هذه الاعتبارات جميعاً انتهز السناتو فرصة مطالبة ماسيليا بمساعدتها على رد عدوان جيرانها السالّوفي (Salluvii) وأنفذ اليها جيشاً بقيادة فلاقوس أحد قنصلي عام ١٢٥ ق. م. على نحو ما مر بنا. وفي خلال هذا العام والعام التالي أنزل فلاقوس بالسالوفي وجيرانهم الفوقونتيي (Vocontii) سلسلة من الهزائم أكسبته حق الاحتفال بانتصاره[٦٦] على الغال عقب عودته الى روما في أواخر عام ١٢٤ ق. م. ولكن الانتصارات التي أحرزها فلاقوس

---

(٦٥) المصادر:

Strab., IV, 1, 11;2, 3; Liv. Ep. 61; Velleius, I, 15, 4; II, 10; Florius, I. 37; App., Gall. 12; Orosius, V, 13, 14; Cic., pro Front., 36; Plin., N.H.. VII, 126; Val. Max., IX, 6, 3; Eutrop. IV, 22

Heitland, II, pp. 286-7, 332-3; C.A.H. IX, pp. 110-13; C. Jullian, Hist. de la Gaule, III, pp. 1 ff.; J Carcopino, Hist. Romaine, II, pp. 275 ff.; C.H. Benedict, A History of Narbo, 1941; and The Romans in Southern Gaul, Amer Jour. Philol. 1942, pp. 38 ff.; Scullard, 1970, pp. 41-3, and n. 39 pp. 396-7.

(66) Fasti triumph. (123 B.C.).

لم تكن حاسمة ، ولذلك فإنه تعين على خليفته جايوس سكستيوس قالفينوس (Sextius Calvinus) ، أحد قنصلي عام ١٢٤ ق . م . ، أن يتم العمـــل الذي بدأه فلاقوس . وقد تابع سكستيوس قالفينوس الضغط على الغال وتوج نشاطه بالانتصار على جيش كبير حشده السالوفي والاستيلاء على مركزهم الرئيسي . ولم يكن أقل من ذلك أهمية أن قالفينوس أنشأ في مكان منيع به نبع غزير المياه قلعة رومانية عرفت باسم قلعة نبع سكستيوس[٦٧] (Castellum Aquae Sextiae ، نسبة الى عشيرة القائد المنتصر) وأسند الدفاع عن هذه القلعة الى قوة تتألف من قدماء المحاربين المجربين . ولما كانت هذه القلعة تسيطر على أقصر طريق الى الغرب يتفادى دلتا الرون بمشاكل عبورها كما تسيطر على أقصر طريق الى الشمال ، فإنه كان من شأن عمل قالفينوس ليس تأمين سلامة ماسيليا وكذلك سلامة الاتصال براً بإسبانيا فحسب بل أيضاً وضع اللبنة الأولى في إنشاء ولاية رومانية في جنوب بلاد الغال (فرنسا) .

بيد أنه كان من جراء إنشاء هذه القلعة والهزيمة المريرة التي نزلت بالسالوفي إثارة أشد مخاوف الغال ، فأخذوا يتأهبون لدرء الخطر المحدق بهم . وكان الغال محاربين أشداء ينتظمون في عدد من الوحدات القبلية المتفاوتة في القوة والأهمية . وكان الأرفرني (Arverni) — في الجنوب — يتزعمون حلفاً يضم عدة من هذه الوحدات التي كانت أهمها وحدة قبيلة الألوبرجس (Allobroges) الكبيرة القوية . غير أن الغال كانوا منكوبين بعوامل الفرقة بسبب مشاكلهم الداخلية وكذلك بسبب التنافس بوجه خاص بين الأرفرني ، وهم الذين كانوا يدعون لأنفسهم زعامة الغال ، وبين الأيدوي (Aedui) وهم الذين كانوا يؤلفون وحدة قبلية ضخمة في الشمال ويأبون التسليم بهذه الزعامة . وحين أدركت روما حتمية الصراع المقبل مع الغال ورأت في تناحرهم

(67) Liv., Ep. 61.

تقع هذه القلعة على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات الى الشمال الشرقي من المدينة الفرنسية الحديثة اكس — أن — بروفانس (Aix-en-Provence)

وتنافسهم فرصة ثمينة لتصطاد في الماء العكر كعادتها ، أغرت الأيدوي على محالفتها بحجة أن ذلك يعزز استقلالهم . وقد وقع الأيدوي في الشرك مثل كثيرين غيرهم دون أن يدركوا أنهم سوف يدفعون ثمن خلاصهم من ضغط إخوانهم في الجنس والعادات والتقاليد خضوعاً مستديماً للرومان .

ولما كان الألّوبرجس قد هبوا لنجدة زعماء السالّوفي عندما فروا اليهم بعد هزيمتهم ، فإن ڤالفينوس ردهم على أعقابهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن اعتدوا على إقليم الأيدوي حلفاء روما . وعندما أُوفد الى بلاد الغال في عام ١٢٢ ق. م. القنصل جنايوس دوميتيوس أهنوباربوس (Ahenobarbus) على رأس جيش كبير ، لجأ في البداية الى استخدام أسلوب المفاوضات لحسم النزاع ولكنه عندما طلب الى الألّوبرجس تسليم زعماء السالّوفي ردوا على هذا الطلب بالزحف جنوباً ضد الرومان فخف دوميتيوس الى لقائهم دون أن يعير أي انتباه للبعثة التي أنفذها اليه بيتويتوس (Bituitus) ملك الأرفرني لاعتقاد القائد الروماني أنه لم يكن لهذه البعثة هدف إلا تأجيل الاشتباك حتى تتاح الفرصة لانضمام قوات الأرفرني الى قوات الألّوبرجس . وفي عام ١٢١ ق . م . فيما يرجح ، أنزل دوميتيوس بالألّوبرجس هزيمة فادحة على ضفاف نهر الرون عند المدينة القديمة فيندليوم (Vindalium) ، وكانت تقع فيما بين المدينتين الحديثتين أفينيون (Avignon) وأورانج (Orange) . ولما كانت قوات الأرفرني لا تزال سليمة لعدم اشتراكها في القتال حتى ذلك الوقت ، فإن روما أرسلت جيشاً جديداً بقيادة كوينتوس فابيوس ماكسيموس ، أحد قنصلي عام ١٢١ ق . م . ، لينضم الى جيش دوميتيوس . وعندما عبر الأرفرني وحلفاؤهم نهر الرون على مسافة قريبة من فالنس (Valens) أنزل بهم فابيوس ودوميتيوس هزيمة حاسمة قررت مصير بلاد الغال جنوبي جبال السفن (Cevennes) . فقد أصبحت كل هذه المنطقة تحت سيطرة روما في وقت كان الرومان لا يترددون فيه عن استغلال فرصهم .

وعلى حين أن فابيوس عاد إلى روما بعد هذه الموقعة التي أكسبته حق

الاحتفـــال بانتصاره[٦٨] وكذلك لقب ألـوبروجيقوس (Allobrogicus = قاهر الألـوبرجس) . ظل دوميتيوس في بلاد الغال ليتم العمل الذي بدأه فلاقوس . ذلك أنه تمكن من القبض على بيتويتوس وإرساله الى إيطاليا ومن الحصول على اعتراف الألـوبرجس وجيرانهم رسمياً بالخضوع لروما وبذلك آلت الى السيطرة الرومانية منطقة كبيرة تمتد من جنيفا الى جبال البرانس وتحميها جبال السڤن الى حد ما من الناحية الغربية . وفضلاً عن ذلك فإنه تحالفت مع الرومان عدة من الوحدات القبلية المجاورة ، وكان أهم هؤلاء الحلفاء الأيدوي والسكواني (Sequani) . واذا كان لا شك في أن المنطقة الكبيرة السالفة الذكر قد تحولت الى ولاية رومانية جديدة تسمى « ولاية غاليا فيما وراء الألب » فانه لا يُعرف متى أنشئت رسمياً هذه الولاية وأصبح يعين لها بانتظام حاكم روماني ليتولى حكمها[٦٩] ولكنه لا جدال في أن هذه المنطقة كانت خاضعة للرومان خضوعاً تاماً منذ عام ١٢٠ ق . م . ومما يجدر بالملاحظة أن الرومان لم يضموا إقليم الأرفرني الى الولاية الجديدة، وأنه بالرغم من وقوع ماسيليا داخل هذه الولاية فإنها احتفظت باستقلالها بل سُمح لها بالسيطرة على الإقليم الساحلي حيث أُنشيء فيما بعد طريق معبد (Via Julia Augusta) يمتد من القاعدة البحرية التي عُرفت فيما بعد باسم فوروم يوليوس (Forum Julii = المدينة الحديثة فرجي Fréjus) الى « قلعة نبع سكستيوس » فمعبر نهـــر الرون (Traiectus Rhodani = تاراسقون Tarascon) ليلتقي بالطريق الذي كان دوميتيوس قد شرع في إنشائه بين هذا المعبر وجبال البرانس تيسيرا للاتصال بإسبانيا وعرف باسم هذا القائد المظفر ، أي طريق دوميتيوس (Via Domitia) . وقد كشف مؤخراً عند أحد مواقع هذا الطريق عن أحد أنصبة الطرق وقد سُجل عليه أقدم نقش لاتيني وصل الينا حتى الآن من بلاد الغال . وقد وصفه دوميتيوس في هذا النقش بالقائـــد المنتصر

(68) Fasti triumph, (? 120 B.C.).
(69) Cf. E. Badian, Foreign Clientelae, p. 264 n. 3, pp 287 ff; and in Mélanges Piganiol, 1966, pp. 901 ff.

(imperator) [٧٠]. ومن المحتمل أن تكون مدة بروقنصلية دومبتيوس قد أطيلت حتى عام ١١٨ ق . م . مما يفسر عدم احتفاله بانتصاره قبل عام ١١٧ ق . م. [٧١].

وبرغم معارضة السناتو تقرر في عام ١١٨ ق . م . [٧٢] على الأرجح إنشاء مستعمرة من المواطنين الرومان عند ناربو (Narbo Märtius = ناربون Narbonne) لتكون قاعدة عسكرية تحمي الأقاليم الغربية في الولاية الجديدة وموئلاً للحضارة الرومانية في تلك الأصقاع وكذلك مركزاً يمكن للعامة والفرسان على السواء جني ثمار إمكانياته الاقتصادية الكبيرة . ذلك أن منطقة ناربو كانت غنية بأرض زراعية فسيحة يمكن تقسيمها على المواطنين الرومان ، كما أنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين بلاد الغال وإسبانيا فضلاً عن أنها كانت تهيىء طريقاً قصيراً للحصول على صفيح بريطانيا عن طريق خليج بيسكاي . وقد أيد مشروع إنشاء المستعمرة الجديدة تأييداً قوياً خطيب شاب يدعى ليقينيوس قراسوس سنلتقي به فيما بعد مراراً . وفشل السناتو في منع الموافقة على هذا المشروع ينهض دليلاً على أمرين : وأحدهما هو أن السناتو لم يعد يتمتع عندئذ (بعد الأحداث العاصفة التي وقعت في أواخر عشرينات القرن الثاني قبل الميلاد وسنتناولها بعد قليل) بتلك السيطرة المطلقة التي كان يتمتع بها من قبل . والأمر الآخر هو أن طبقة الرأسماليين أو طبقة الفرسان أخذت تقوم بدور إيجابي في توجيه سياسة الدولة . ذلك أنه اذا كان من الجائز أنه كانت لا تزال توجد في روما أعداد كبيرة من المواطنين الفقراء الذين كان فريق منهم يتطلع الى الارتزاق في بلاد الغال . فإنه من العسير أن نتصور أنه كان يتوافر لدى هذا الفريق من القوة أو القدرة ما يكفل التغلب على معارضة

---

(70) Degrassi, Inscr. Lat. Lib. Rei Publ., n 460 a.
(71) Fasti triumph. (Greenidge and Clay p. 48) 117 B.C.
(72) Velleius, I, 15, 5.

تختلف آراء الباحثين اختلافاً كبيراً حول تاريخ إنشاء هذه المستعمرة ، راجع .
Scullard, 1970, n. 40 p. 397.

السناتو دون مساعدة الفرسان[٧٣] .

واذا كان طبيعياً أن تخمد روما في عام ١٢٦ ق . م . الاضطرابات التي وقعت في سردينيا[٧٤] ، وأن تقضي في عام ١٢٢ ق . م . على القراصنة الذين اتخذوا من جزر البليار[٧٥] قواعد لممارسة نشاطهم ، فإنه من اليسير أن نتصور تأثير الطبقة الرأسمالية في العمل على تأمين الطرق البحرية المؤدية الى إسبانيا وعلى احتلال جزر البليار[٧٦] لاستثمار مواردها الطبيعية . وسنرى تباعاً ما يؤكد تأثر مجريات السياسة الرومانية بالقوة السياسية التي اكتسبتها طبقة الفرسان من احتكارها ولاية القضاء بفضل تشريعات جايوس جراكوس التي سيأتي ذكرها بعد قليل .

ولقد كان مقدراً للمستعمرة الجديدة « ناربو » أن تزدهر ازدهاراً كبيراً الى حد أنها خلفت ماسيليا بوصف كونها الميناء الرئيسي الجنوبي لبلاد الغال ، وأن تقوم بدور كبير في صبغ الولاية الجديدة بالصبغة الرومانية ، وأن تخلع اسمها على هذه الولاية فأصبحت تدعى غاليا الناربونية (Gallia Narbonensis) .

---

(٧٣) يتشكك بعض الباحثين في أنه كان لصوالح الفرسان دخل في إنشاء المستعمرة الجديدة ، راجع
E. Badian, Roman Imperialism, 2nd ed., 1968, p. 24; Brunt, in The Crisis of The Roman Republic, 1969, ed. by R. Seager, p. 97; B. Levick, Class. Quarterly, New Series, XXI, May 1971, pp. 170-9.

(74) Liv., Ep., 60; Plut., G. Gracch., I; Fasti triumph. L. Orestes.

(75) Strab., III, 5, 1; Fasti triumph. Q. Caelius Metellus.

(٧٦) سنتناول في الفصل الرابع الكلام عن سردينيا وجزر البليار في سياق الحديث عن الأحداث الخارجية التي وقعت بعد مصرع جايوس جراكوس .

الفصل الثالث

جايوس جراكوس [1]

اولاً — صفات جايوس جراكوس وأهدافه

كان جايوس أصغر من أخيه تيبريوس بتسع سنوات . ولكنه كان يشبهه في الذكاء وحرية الرأي والثقافة العالية، غير أنه كان يفوق أخاه في اتساع أفق تفكيره وفي تفهم طبيعة الناس والأشياء وفي نشاطه الدافق وفي مواهبه الخطابية وفي كفايته لتصريف الشئون العامة . ومع ذلك فإن هذه الصفات جميعاً لم تعفه من الوقوع في أخطاء سنلمسها تباعاً .

اختير جايوس عضواً في لجنة قانون الأراضي وهو لا يزال في الحادية والعشرين من عمره . وقد أظهر بجلاء تأييده لحركة الإصلاح وذلك بمناصرته اقتراح جاربو الخاص بإعادة انتخاب ترابنة العامة ، وبمعارضته مشروع قانون بنّوس الخاص بطرد الحلفاء من روما ، وبتأييد مشروع قانون فلاقوس الخاص بتحرير الحلفاء . فلا عجب أن السناتو كان يعتبر جايوس رجلاً خطيراً ، ولذلك فإنه عندما تولى الكوايستورية في عام ١٢٦ ق . م . وأرسل الى سردينيا لتولي عمله هناك استُبقي عاماً آخر وكان في النية إبقاؤه هناك أطول

(١) عن المصادر القديمة والمراجع الحديثة ، انظر الفصل الأول : أولا — الحواشي (١) و (٢) و (٣).

من ذلك لولا أنه ظهر فجأة في روما قبل نهاية عام ١٢٥ ق . م . فوجهت اليه تهمة مبارحة مقر عمله دون إذن من رئيسه . كما اتهم بالتحريض على ثورة فرجلاي . وقد كان الهدف من وراء ذلك كله حرمان جايوس حق ترشيح نفسه لتريبيونية العامة ؛ إلا أنه بفضل مواهبه الخطابية تمكن من تبرئة ساحته والفوز في انتخابات عام ١٢٤ لتولي أحد مناصب تريبيونية عام ١٢٣ ق. م[٢] .

إن تيبريوس جراكوس لم يول اهتمامه إلا الى مشكلة واحدة من مشاكل عصره المعقدة المتشابكة وهي مشكلة انهيار الطبقة الوسطى ، وبذل قصارى جهده في محاولة علاج هذه المشكلة . وإزاء قصور تصوره لحقيقة الحال لم يحاول في الواقع إلا معالجة ظواهر هذه المشكلة دون أن يحاول القضاء على الأسباب التي أدت الى انبثاق ظواهرها . وفضلاً عن ذلك فإن تصرفات تيبريوس كانت نتيجة لاندفاع الشباب وقلة الخبرة والمران مما أضعف مركزه وزاد في عدد خصومه ونقمتهم عليه وأدى الى مأساته . وأما جايوس فإنه رأى بثاقب فكره أن سبب علة روما وموطن دائها كان النبلاء والسناتو — وهو الذي كان أداتهم لأنهم باحتكارهم الحقوق والمزايا السياسية والاجتماعية أوقفوا نمو الدائرة التي تستوعب القادرين على حكم الدولة ، وحدوا من فعالية الجمعيات الشعبية ، كما أنهم بقصر نظرهم واستمساكهم بالأوضاع القائمة استبقوا نظم الحكم العتيقة بعد أن أصبحت بالية غير صالحة لمواجهة مشاكل روما المتزايدة . وإزاء ذلك رأى جايوس أنه لا يمكن إصلاح حال أصبحت لا تطاق إلا بالحد من سلطان النبلاء ، وإحداث تغيير جوهري في علاقات السناتو بالحكام وكذلك في علاقات روما بسكان إيطاليا .

ورأى جايوس أن إحداث كل هذه التغييرات كان يتطلب تكوين جبهة سياسية قوية تتألف من كل الطبقات المتذمرة من الحكومة وأنصارها ، أي جبهة تتألف من أولئك الذين كانوا يودون العودة الى فلاحة الأرض ، ومن

---

(2) Malcovanti, Orat. Rom. Frag., II, pp. 132 ff.;
Plut., G. Grace., II-III; Cic., Orat., 70, 233; Gell., XV, 12.

أولئك الذين كان كل همهم أن يعيشوا في روما دون أن يشقوا كثيراً في كسب قوتهم أو يتكلفوا كثيراً في الإنفاق على حياتهم . ومن طبقة الفرسان الذين ساءهم ألا يتمتعوا بالامتيازات التي قصرها النبلاء على طبقتهم ، ومن أولئك الرومان النابهين المتحرري الأفكار الذين كانوا ينعون سوء الإدارة في الولايات وقصر الوظائف العامة على فئة بعينها وعدم إنصاف الحلفاء. ومن حلفاء روما الذين أصبحوا يتعطشون الى الحصول على حقوق المواطنة الرومانية وهي التي عرفنا أن أغلب العامة والنبلاء كانوا ينفرون من منحها للحلفاء .

من كل هذه العناصر المتباينة حاول جايوس أن يؤلف جبهة قوية للمعارضة توهم أنه بفضل تأييدها وبفضل مواهبه يستطيع تولي تريبونية العامة بضع سنوات متتالية يستصدر في خلالها من التشريعات ما يكفل له وضع الأمور في نصابها . بيد انه اذا كان لم يفت جايوس أن النبلاء لن يدخروا وسعاً في مقاومته ، ولا أن تنفيذ برنامجه كان يتوقف على تكرار انتخابه تريبوناً للعامة . ولا أن فوزه في الانتخابات كان رهناً باحتفاظه بنفوذه الشخصي على الفرسان وبوجه خاص على تلك الجماهير الغفيرة التي كانت تعيش في روما ولها وزن كبير في انتخاب ترابنة العامة ، فقد فاته أنه لم يكن يعني الفرسان ولا غوغاء روما إلا إرضاء صوالحهم الشخصية .

ويبدو أنه إزاء الشعبية الكاسحة التي اكتسبها جايوس سريعاً ويدل عليها إعادة انتخابه تريبوناً لعام ١٢٢ ق . م . دون معارضة وعجز النبلاء عن الحيلولة دون ذلك ودون تحريض زميل له لوقف نشاطه في أثناء تريبونيته الأولى ، التزم النبلاء جانب الاعتدال في مقاومة جايوس إلى أن نجحوا في تسخير زميل له في أثناء تريبونيته الثانية لينافسه في استهواء الجماهير ، فكال جايوس للسناتو أخطر لطماته وغامر بكل شيء في سبيل تحرير الحلفاء . وعندئذ حاربه النبلاء دون هوادة ففشل جايوس في تحرير الحلفاء وفي انتخابه تريبوناً مرة ثالثة لعام ١٢١ ق . م .وحين أصبح جايوس مواطناً عادياً لم يلبث أن لقي حتفه عندما شرع النبلاء في تحطيم ما بناه .

وقد استصدر جايوس ونفذ بسرعة مذهلة مجموعة من التشريعات في خلال تريبونيتيه. ولما كانت المصادر القديمة لا تمكننا من أن نتبين على وجه اليقين المراحل الثلاث التي مر بها كل تشريع من هذه التشريعات (ا — الإعلان غير الرسمي عن كل مشروع قانون، ب — الإعلان الرسمي عنه، جـ — الموافقة عليه)، ولا من أن نرتب هذه التشريعات ترتيباً زمنياً طبقاً لصدورها، ولا من أن نعرف بصفة أكيدة نصيب كل من تريبونيتي جايوس من هذه التشريعات [٣]. فلعل أنه يكون من الأوفق أن نتناول هذه التشريعات وفقاً للهدف منها وأن نقسمها تبعاً لذلك قسمين رئيسيين : وأحدهما يشمل التشريعات الموجهة نحو الحد من سلطة السناتو، والآخر يشمل التشريعات الاقتصادية والاجتماعية.

ثانياً — التشريعات الموجهة نحو الحد من سلطة السناتو

يبدو أن جايوس استهل نشاطه باقتراح مشروع قانون[٤] يقضي بأن أي تريبون أو حاكم عزله الشعب من وظيفته العامة لا يجوز له أن يتولى ثانية أية وظيفة عامة أخرى. واذا كان من الواضح أن موقف التريبون أوقتافيوس من مشروع قانون تيبريوس الخاص بالأراضي هو الذي أوحى الى جايوس بمشروع قانونه، فاننا في ضوء ما نعرفه عن خلق جايوس وأهدافه نرجح أن الباعث على تقدمه بهذا المشروع كان أجل وأسمى من الانتقام من شخص أوقتافيوس. ولعل أن جايوس كان يرمي من وراء هذا المشروع الى تحقيق هدفين : وأحدهما، هو تثبيط همة ترابنة العامة من الانقياد للسناتو تحقيقاً لرغباته وبذلك يُحرم هذا المجلس استخدام سلاح ماض كثيراً ما استخدمه لمنع الإصلاحات. والهدف الآخر، هو الاعتراف ضمناً بحق الشعب في عزل

---

(3) Heitland, II, p. 298; C.A.H., IX, pp. 49-50; Scullard, 1970, n. 28, p. 393.
(4) Plut., G. Gracc., IV; Festus, p. 119 L; cf, Diod., XXXV, 25.

الحكام وترابنة العامة الذين يتصرفون ضد رغباته وصوالحه ، وتبعاً لذلك الاعتراف ضمناً أيضاً بأن عزل أوقتافيوس كان عملاً مشروعاً . بيد أنه لما كان هذا المشروع يمس أوقتافيوس شخصياً وبذلك يبدو كأن جايوس لم يرد به إلا إشفاء غليل الانتقام ، وكان من المحتمل أن يثير اعتراضات كثيرة بسبب المشكلة الدستورية التي تضمنها ، فإن جايوس استجاب لرغبة والدته وسحب المشروع قبل التصويت عليه .

١ — قانون حماية المواطنين من محاكم السناتو غير العادية

(Lex Sempronia de Provocatione)

حين كان السناتو يخرج ظافراً من أزمة تهددت صوالحه أو سلامة الدولة كان عادة يعمد الى إقامة محكمة غير عادية لمحاكمة الذين يتهمون بالتسبب في وقوع الأزمة . وكان السناتو يكلف أحد الحكام المتمتعين بالسلطة التنفيذية (imperium) بتشكيل هيئة هذه المحكمة (consilium) . وعلى هذا النحو كانت تتشكل محكمة تعطي لنفسها حق إصدار أي حكم دون أن يكون هذا الحكم قابلاً للاستئناف ، مثل المحكمتين اللتين شكلتا منذ عهد قريب وعرفنا أن إحداهما شفت غليل السناتو في الانتقام من أنصار تيبريوس جراكوس ، وأن الأخرى تولت أمر المتهمين بتحريض فرجلاي على الثورة .

ولما كان السناتو يستطيع شهر هذا السيف المرهف على رقاب من يعتبرهم خطرين على الدولة أو بعبارة أصح خطرين عليه ، فإن إبقاء هذه السلطة في قبضة السناتو كان يهدد حياة كل من يحاولون مناهضته . ومما يجدر بالملاحظة أنه لم يكن لسلطة مثل هذه المحاكم أي سند من القانون إلا حق الحكام في إرغام المواطنين قسراً (coercitio) على الطاعة واحترام النظام والقانون ، وهو الحق الكامن فيما كان لهؤلاء الحكام من سلطة تنفيذية . بيد أنه كان من شأن ما منحه المواطنون الرومان من حق استئناف أحكام الجلد والإعدام أمام جمعية المئينات وأحكام الغرامات الكبيرة أمام جمعية القبائل قصر حق الحكام في إنزال عقوبات غير قابلة للاستئناف على ما هو دون ذلك . ومن ثم فإنه

لم يكن من حق المحاكم غير العادية التي كان السناتو يأمر بتشكيلها إصدار أحكام غير قابلة للاستئناف مهما تكن صرامتها . ومن الجلي أن تكليف السناتو الحكام بتشكيل محاكم غير عادية كان لا يكسب الحكام حق إنزال عقوبات بالمواطنين على نطاق أوسع مما كان يحق لهم حين يتصرفون تلقائياً ، لأن مدى هذا الحق قد حددته التشريعات الخاصة بحق المواطنين في استئناف (provocatio) أحكام الجلد والإعدام والغرامات الكبيرة .

ووفقاً للتقاليد الدستورية ، كان الشعب ، ممثلاً إما في جمعية المئينات وإما في جمعية القبائل ، هو المحكمة العليا للجنايات في الدولة . وعندما تقرر في عام ١٤٩ ق . م . إنشاء محكمة استرداد الأموال المبتزة كان ذلك بمقتضى قانون أصدره الشعب . ومعنى ذلك أن الشعب هو الذي أناب عنه هيئة قضائية للفصل في نوع معين من القضايا .

وإزاء هذه الاعتبارات رأى جايوس أنه للحفاظ على حق المواطنين في أن يكون الشعب هو الفيصل في أمر الأحكام الصارمة التي تصدر ضدهم كان لا بد من الحفاظ للشعب دون غيره على حقه الدستوري في تشكيل الهيئات القضائية . وقد أدرك جايوس أن الوسيلة المثلى لمنع السناتو من الأمر بتشكيل هيئات قضائية غير عادية هي الضرب على أيدي الحكام الذين يمتثلون لأوامر السناتو ويقومون بتشكيل مثل هذه الهيئات القضائية غير العادية . ذلك أن أهم ما يمكن استخلاصه مما وصل إلينا من قانون[5] جايوس في هذا الصدد هو أنه لا يحق إصدار حكم يمس حياة (caput) أي مواطن روماني دون إذن من الشعب (iniussu populi) ، أي دون أن يكون الشعب هو الذي أعطى تفويضاً بتشكيل المحكمة التي تصدر هذا الحكم ، وأن أي حاكم ينفذ عقوبة الإعدام في أي مواطن روماني دون صدور حكم من محكمة تملك حق إصدار

(5) Plut., G. Gracch,. IV; Schol. Ambros., p. 271 (Stangl); Cic., pro C. Rab. Perd. reo, 4, 12; pro Sest., 28, 61; in Cat., IV, 5, 10; in Verr. V, 63, 163.

مثل هذا الحكم يحاكم أمام الشعب ويكون جزاؤه النفي . ويبدو أن نص القانون قد صيغ على نحو يجعل أثره منسحباً على الماضي ، وذلك إبرازاً لما كان تخطى الحكام نطاق سلطتهم ينطوي عليه من الاعتداء الصارخ على حق المواطنين في الاستئناف وهو الحق الذي كفلته لهم تشريعات متعاقبة منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ولما كان بوبيليوس لايناس، أحد قنصلي عام ١٣٢ ق. م.، رئيس المحكمة غير العادية التي شكلها بأمر من السناتو لمحاكمة أنصار تيبريوس وقضت بإعدام أو نفي الكثيرين منهم دون إتاحة الفرصة لهم لاستئناف أحكامها الصارمة أمام الشعب ، وكان لايناس لا يزال على قيد الحياة ، فإن جايوس قدمه للمحاكمة أمام جمعية القبائل وهاجمه هجوماً عنيفاً استعاد ذكريات الماضي الأليمة . وإذ رأى لايناس عبث الدفاع عن نفسه ، بادر الى الرحيل عن روما قبل صدور الحكم ضده . وعندما لم يفلح أصدقاؤه في حمايته لم يكن في وسعهم أن يفعلوا أكثر من مصاحبته حتى أبواب العاصمة[٦] .

ولما كان لايناس قد حوكم أمام جمعية القبائل لا جمعية المئينات . فإن هذا يدل على أن جايوس قد جعل جمعية القبائل هي المسئولة عن تطبيق قانونه. ومعنى ذلك أن جايوس أسند اختصاص تشكيل المحاكم الى جمعية القبائل بدلاً من جمعية المئينات . وهذا تطور دستوري جديد[٧] .

٢ ــ قانون ولايات القناصل[٨] (Lex Sempronia de Provinciis Consularibus)

أسند الدستور الروماني الى جمعية المئينات انتخاب القناصل ، غير أن العرف جرى منذ عهد طويل على أن السناتو هو الذي كان يقرر سنوياً ، بعد انتخاب القنصلين، الولايتين اللتين يتولى هذان القنصلان أمرهما بعد انتهاء

(6) Cic., de Domo, 31, 82; de Leg., III, 11, 26; post Red. in Sen., 15, 37; Diod., XXXV, 26; Gell., I, 7, 7; Festus, 268, 310, 346 L; cf. Velleius, II, 7.

(7) C.A.H., IX, p. 57, n. 1; A.H.J. Greenidge, Legal Procedure of Cicero's Time, pp. 324 ff.

(8) Cic, de Domo, 9, 24; ad Fam., I, 7, 10; de Prov. Cons., 2, 3; 7, 17; Sallust, B. Jug., XXVII.

عام حكمهما في الداخل . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لثلاثة أمور وهي: ١ - أن السناتو انفرد بتوجيه السياسة الخارجية منذ أثبتت النكبة المروعة التي نزلت بالرومان في معركة قانّاي (Cannae) في عام ٢١٦ ق . م . مدى فشل السياسة الهجومية التي ألحت الجمعية الشعبية على اتباعها في محاربة هانيبال بدلاً من سياسة الحيطة والحذر التي كان السناتو أميل الى اتباعها . ٢ - أن أول عهد الرومان بالممتلكات الخارجية وإنشاء الولايات كان بعد الحرب البونية الثانية ، أي بعد انفراد السناتو بتوجيه السياسة الخارجية . ٣ - أن السناتو أصاب في توجيه السياسة الخارجية قدراً كبيراً من النجاح يدل عليه اتساع نطاق الإمبراطورية الرومانية باطراد .

بيد أن حق السناتو في إقرار الولايات القنصلية بعد انتخاب القناصل كان يتيح له الفرصة لمكافأة القناصل الموالين بأن يختار لهم أغنى الولايات حيث تتوافر فرص المغانم ، ومعاقبة القناصل المناوئين بأن يخصص لهم ولايات فقيرة لا تكون أكثر من منفى يقضون فيه عام حكمهم في الخارج . وتبعاً لذلك فإن هذا الحق وضع في يد السناتو سلاحاً ماضياً مشهوراً على رقاب القناصل . ولما كان جايوس يهدف الى تحرير القناصل من ربقة السناتو بيد أنه في الوقت نفسه كان لا يزال عندئذ يتوخى جانب الاعتدال في إصلاحاته ، فإنه لم يهاجم حق السناتو في إقرار الولايات القنصلية وانما اكتفى باستصدار قانون يقضي بتقرير الولايات القنصلية قبل انتخاب القناصل .

ويبدو مما يرويه شيشرون[٩] أن هذا القانون كان يتضمن بنداً يقضي بأنه لا يحق لأي تريبون من ترابنة العامة استخدام حقه في الاعتراض (intercessio) أو بعبارة أخرى حق الڤيتو ضد إقرار الولايات القنصلية . وهذا البند بالغ الأهمية فهو يدل على إدراك جايوس أن ترابنة العامة كثيراً ما كانوا أداة في يد السناتو ، وعلى عدم اطمئنان جايوس الى أن احتمال عزل الترابنة كان

(9) Cic., de Prov. Cons., 7, 17; cf. Bruns, Fontes, 7th ed., 10 ll. 70 ff.

كفيلاً بإبقائهم أوفياء لخدمة صوالح العامة . وهكذا بما أنه كان لا يزال في وسع السناتو استخدام بعض ترابنة العامة لتحقيق أهدافه وتبعاً لذلك في وسعه التحايل على أحكام القانون الجديد باستمالته تريبون أو آخر من ترابنة العامة ليستخدم حق الڤيتو كلما شرع السناتو في تحديد الولايات القنصلية لكي يتأجل صدور قرار السناتو الخاص بذلك الى ان يتم الانتخاب والتأكد من هوية القنصلين الجديدين، فإنه للقضاء على هذا التحايل أدمج جايوس هذا البند في قانونه .

ولا جدال في أن الطريقة الجديدة لتحديد الولايات القنصلية كانت أكثر اتساماً بالديمقراطية ، ولا في أنها حررت القناصل من ربقة السناتو ، أللهم إلا اذا كان من بين المرشحين للقنصلية رجل بارز الى حد أن انتخابه كان مؤكداً ، فإنه لم يكن هناك طائل من وراء احتياط القانون الجديد . ولا يمكن القول بأن الطريقة الجديدة قضت الى أي تحسن في إدارة الولايات . حقاً إنه في الظروف العادية كان السناتو كثيراً ما يتأثر بعوامل غير نزيهة في إقرار الولايات القنصلية، إلا أنه في الظروف غير العادية كان يستجيب عادة الى نداء الواجب فيرسل أحد القنصلين الى ولاية تتهددها الحرب اذا كانت له دراية بالشئون العسكرية ، ويرسل الآخر الى ولاية هادئة اذا كان مجرد رجل سياسي . وأما بعد صدور قانون جايوس فإن الولايات القنصلية أصبحت تحدد في وقت قد يتعذر فيه التنبؤ بالأزمات المقبلة . وفضلاً عن ذلك فإن القانون الجديد لم يبين كيفية تخصيص ولاية لكل من القنصلين فقد ترك أمر ذلك للاتفاق بينهما أو للقرعة اذا تعذر ذلك .

٣ — قانونا إصلاح القضاء :

ا — قانون معاقبة المحلفين المرتشين :

عندما صدر في عام ١٤٩ ق . م . قانون ڤالبورنيوس (Lex Calpurnia) الذي تقرر بمقتضاه إنشاء محكمة دائمة لاسترداد الأموال المبتزة Quaestio)

perpetua de rebùs repetùndis) للفصل في دعاوى الابتزاز المرفوعة على حكام الولايات بعد انتهاء مدة حكمهم ، تقرر كذلك اختيار أعضاء هذه المحكمة من بين أعضاء السناتو . وقد كان يعتور هذا النظام عيب فاضح واحد على الأقل وهو أن هيئة قضائية مؤلفة من أعضاء السناتو كانت تحاكم متهمين ينتمون عادة الى طبقتها . وكان هذا العيب وحده كفيلاً بإثارة الشكوك في عدالة مثل هذه الهيئات القضائية ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن بعض أعضاء هذه الهيئات على الأقل كانوا يعتبرون الجرائم التي يفصلون فيها حقاً مكتسباً للمتهمين ، وكانوا هم أنفسهم إما سبق لهم ارتكاب ما يماثلها وإما يتطلعون بشغف الى الفرصة المواتية لارتكابها . ولم يقف الأمر عند مجرد الشكوك إذ ان أبيانوس[١٠] يحدثنا بأن جايوس جراكوس ضرب مثلاً لانحراف هذه الهيئات القضائية بثلاث حالات صارخة بُرىء فيها المتهمون برغم افتضاح أمر فسادهم الذي شهد به مبعوثو الولايات التي كانوا يحكمونها . والواقع أن الأدلة متوافرة على تفشي الرشوة في هذه الهيئات القضائية .

وقد كان من الميسور إصلاح الفساد الذي استشرى في محكمة استرداد الأموال المبتزة بحسن اختيار محلفيها وجعل ارتشائهم جريمة . ويبدو أن جايوس بدأ يولي اهتمامه الى هذا الإصلاح في وقت كان لا يزال فيه يلتزم جانب الاعتدال وينأى عن الصدام العنيف مع السناتو . ولذلك فإنه لم يحاول أول الأمر أن يستبدل بمحلفي هذه المحكمة من أعضاء السناتو محلفين من الفرسان وإنما اقترح زيادة عدد أعضاء السناتو بأن يضاف اليهم ٣٠٠ عضو — وفي رأي آخر ٦٠٠ — من الفرسان[١١] ، بحيث يمكن عندئذ اختيار أبرز أعضاء السناتو وأبعدهم عن التحيز لحكام الولايات لتشكل منهم الهيئات القضائية التي تفصل في مختلف قضايا ابتزاز أموال أهالي الولايات . وإزاء المعارضة الشديدة التي قوبل بها هذا الاقتراح من جانب السناتو سحبه جايوس وتقدم

---

(10) App., B.C., I, 22.
(11) Plut., G. Gracch., V; Liv., Ep., 60.

بمشروع قانون يقضي بمعاقبة المرتشين من محلفي هذه المحكمة . ولما لم يكن في وسع السناتو معارضة مثل هذا المشروع فإن جايوس إستصدر به قانوناً[١٢] [Lex ne quis iudicio circumveniatur (circumveniretur)] . وبطبيعة الحال كان هذا القانون لا ينطبق إلا على المحلفين من أعضاء السناتو لأنه في ذلك الوقت لم توجد محكمة دائمة إلا محكمة استرداد الأموال المبتزة ولم يتألف محلفو هذه المحكمة إلا من أعضاء السناتو[١٣] .

ب ـ قانون اختيار المحلفين من الفرسان :

ويبدو أنه عندما اشتدت حمى الصراع بين جايوس والسناتو وأصبح صراعاً سافراً عنيفاً في أعقاب استخدام السناتو تريبون العامة ليفيوس دروسوس (L. Drusus) في أثناء تريبونية جايوس الثانيـــة (عام ١٢٢ ق . م .) لتقويض نفوذ هذا الزعيم الشعبي المصلح ، خطا جايوس خطوة جريئة كان من شأنها أن هيئات محلفي محكمة استرداد الأموال المبتزة أصبحت تتألف من الفرسان بدلاً من أعضاء السناتو . ولما كنا نفتقر الى دليل قاطع على انه في ذلك الوقت كانت توجد محاكم دائمة أخرى الى جانب محكمة استرداد الأموال المبتزة ، وكانت الفضائح التي حفزت جايوس أصلاً على إصلاح القضاء واستند عليها في دعوته الى ذلك تتصل جميعاً بقضايا نشأت من سوء الحكم في الولايات فإنه من المرجح أن إصلاح جايوس كان منصباً على محلفي محكمة استرداد الأموال المبتزة . بيد أنه بعد استصدار القانون الخاص بهذا الإصلاح الذي وضع قاعدة جديدة وهي اختيار المحلفين من الفرسان بدلاً من أعضاء السناتو ، كان طبيعياً اتباع هذه القاعدة في تشكيل هيئات المحلفين للمحاكم الدائمة الأخرى التي أنشئت بعد ذلك . ولعل أن هذا هو ما حدا بالكتاب

(12) Cic., pro Cluent., 4, 9; 54, 148; 55, 151; 56, 154.
(13) Cf. Scullard, 1970, p. 36 and n. 32, p. 395.

القدامى وببعض الباحثين المحدثين(١٤) الى القول بأن إصلاح جايوس اقتضى تعديل نظام يشمل محاكم متعددة لم تكن محكمة استرداد الأمول المبتزة إلا إحداها ، أي أن إصلاح جايوس على كل حال انتزع تصريف العدالة من السناتو وأسندها الى الفرسان . ومعنى ذلك أن النتيجة واحدة سواء أكان جايوس استصدر قانوناً لم يقض إلا باختيار محلفي محكمة الابتزاز دون غيرها من الفرسان ولكنه بذلك وضع قاعدة طبقت في اختيار محلفي المحاكم الأخرى التي أنشئت بعد ذلك ، أم كان قد استصدر قانوناً باختيار محلفي المحاكم جميعاً من الفرسان .

ولسوء الحظ أنه يتعذر علينا تبين تفاصيل القانون الخاص بهذا الموضوع . وكل ما يمكن استخلاصه على وجه اليقين من مصادرنا هو أنه بإيعاز من جايوس جراكوس استصدر زميله تريبون العامة مانيوس أقيليوس جلابريو (Manius Acilius Glabrio) قانوناً (١٥)(Lex Acilia repetundarum) يميل أكثر الباحثين الى أن جزءاً منه حفظه النقش المسجل على لوحة برونزية عثر عليها عند نابلي وتعرف أحياناً بلوحة بمبو (Tabula Bembina) . ويقضي هذا القانون باستبعاد الحكام وأعضاء السناتو وأفراد أسرهم من قوائم المحلفين وكان عددهم بمقتضى هذا القانون الجديد ٤٥٠ محلفاً يختارون سنوياً . وإزاء العطب الذي أصاب فقرتي هذا القانون اللتين نصتا على الشروط الواجب توافرها في محلفي محكمة استرداد الأموال المبتزة ، تتفاوت آراء الباحثين في مضمون هاتين الفقرتين . ولعل أدنى الآراء الى القبول هو أن هاتين الفقرتين

---

(14) Velleius, II, 6, 3; 13; 32; Tac., Ann., XII, 60; Diod., XXXV, 25 ; App., B.C. I. 22 ; Cic., in Verr. Act. I, 13, 38; 17, 51 ; Plut., G. Gracch., VI; Cf. Scullard, 1970, n. 31 pp. 393-5.

Naples Tablet « Tabula Bembina » in S. Riccobono, Fontes Juris Romani Antejustiniani, I, pp. 94 ff.; E.H., Warmington, Remains of Romani Antejustiani, I. pp. 94 ff.; E.H., Warmington, Remains of Old Latin, IV, pp. 317 ff.; E. G. Hardy, Six Roman Laws, pp. 1 ff.; Sherwin-White, J.R.S., 1972, pp. 82 ff.; cf. Mattingly, J.R.S., 1969, pp. 129 ff.; 1970, pp. 154 ff.

لم تذكرا بالاسم طبقة الفرسان وإنما حددتا شروطاً لا يمكن توافرها الا لدى أفراد هذه الطبقة بأن جعلتا الحد الأدنى لثروة المحلف ٤٠٠,٠٠٠ سسترتيوس[١٦] (Sestertius = حوالي ٤٥٠٠ جنيه استرليني) .

وتبعاً لأحكام هذا القانون كان على البرايتور الذي يُختار لرياسة المحكمة أن يختار هيئة محلفيها ، وكان عددهم عادة ٥٠ محلفاً ، من قائمة تتألف من ٤٥٠ مواطن يختارون سنوياً ممن تتوافر فيهم الشروط التي نص القانون عليها ، أي من الفرسان ، للفصل في أي شكوى من ابتزاز الأموال ضد أي مواطن روماني كان يشغل وظيفة عامة . ومعنى ذلك أنه كان لا يقع تحت طائلة هذا القانون التجار أو جباة الضرائب أو المرابون وهم الذين كانوا يوسعون الأهالي نهباً واستغلالاً . ورسم القانون الإجراءات الواجب اتباعها لجمع الأدلة وفحصها وإبداء الرأي فيها .

وهل كان من شأن استبدال محلفين من الفرسان بمحلفين من أعضاء السناتو أن محكمة استرداد الأموال المبتزة أصبحت أكثر حيدة واتساماً بالنزاهة في أحكامها مما كانت عليه من قبل ، أم أن جايوس خدع نفسه حين تصور أن ثراء المحلفين الجدد سيكون ضماناً لنزاهتهم وعدالة أحكامهم أو على الأقل أن السلاح الذي انتزعه من السناتو سيستخدمه الفرسان بحكمة واتزان ؟ إن الآراء تختلف في الحكم على هؤلاء المحلفين الجدد ، ولكن شيشرون[١٧] حين كان يطالب بإعادة اختيار المحلفين من الفرسان بعد أن أعاد صلا تشكيل هيئاتهم الى السناتو على نحو ما سنرى — أكد بأنه عندما كانت هيئات المحلفين تتألف من الفرسان في خلال الأربعين عاماً التي انقضت بين تريبونية جايوس الثانية ودكتاتورية صلا لم يرق الشك مرة الى نزاهتهم . بيد أنه ينتقص من قيمة شهادة شيشرون ما نعرفه على الأقل عن حالة واحدة صارخة وهي تلك

(16) Heitland, II, pp. 306-7, 310-11; T.P.V. Balsdon, Papers Br. Sch. Rome, 1938, pp. 98; f.; C.A.H., IX, pp. 75-8, 892-6; Scullard, 1970, p. 36 and n. 31 pp. 393-5.

(17) Cic, in Verr, Act. I, 13, 38.

التي أُدين حاكم نزيه وهو بوبليوس روتيليوس روفوس في عام ٩٢ ق . م .
ولا أدل على بطلان هذه الإدانة وبراءة هذا الرجل من أنه بعد إدانته ذهب ليقضي بقيه حياته معززاً مكرماً بين أهالي ولاية آسيا وهم الذين قيل زوراً إنه ابتز أموالهم . وهذا يوحي بأن محلفي الفرسان كانوا اكثر ميلاً إلى إدانة حكام الولايات منهم إلى تبرئة هؤلاء الحكام وكانوا ينتمون الى طبقة السناتو المنافسة لطبقة الفرسان وينبري لاتهامهم عادة رجال من طبقة الفرسان الذين كانت لهم في الولايات صوالح كبيرة . وهكذا نرى أنه إذا كان يعيب النظام القديم أن محلفين من أعضاء السناتو كانوا يحاكمون متهمين من ذات طبقتهم ويتعاطفون معهم ، فإنه كان يعيب النظام الجديد أن محلفين من الفرسان كانوا يحاكمون متهمين (حكام الولايات) ينتمون إلى طبقة منافسة ويتولى اتهامهم عادة رجال من ذات طبقة المحلفين . ومعنى ذلك أنه بعد أن كان محلفو محكمة استرداد الأموال المبتزة مثار شكوك ، بعثها التعاطف مع متهمين ينتمون الى ذات طبقتهم أصبحوا بعد القانون الجديد مثار شكوك مبعثها من ناحية التنافس الطبقي العنيف بين طبقتهم وطبقة المتهمين ومن ناحية أخرى التعاطف مع رجال الأعمال ، أصحاب الصوالح في الولايات ، القائمين بالاتهام . ومما يجدر بالملاحظة هنا أمران : وأحدهما ، هو أن قانون جايوس جراكوس الخاص بمعاقبة المحلفين المرتشين لم يطبق على المحلفين الجدد ، وذلك على أساس صدور هذا القانون قبل إعادة تشكيل محكمة استرداد الأموال المبتزة . والأمر الآخر ، هو أن الباعث لرجال الأعمال على اتهام حكام الولايات لم يكن الحرص على ان يلتزم أولئك الحكام النزاهة والأمانة مراعاة لصوالح أهالي الولايات وانما الحرص على صوالحهم الخاصة اذا اجترأ أولئك الحكام على الاضطلاع بواجباتهم فحاولوا الحد من جشع ملتزمي الضرائب والتجار والمرابين . وتبعاً لذلك لم يعد أمام حكام الولايات إلا أحد أمرين : إما أن يؤدوا الواجب ويتعرضوا لما يترتب على ذلك من إثارة نقمة رجال الأعمال وما يستتبعه ذلك من التقديم للمحاكمة ، وإما أن يتواطؤوا مع رجال الأعمال في استغلال أهالي

الولايات . وإذا كان يصعب القول الى أي مدى كان المحلفون الجدد أداة طيعة في قبضة رجال الأعمال وفريسة سهلة للرشوة ، لأنه لا يمكن تأييد الشكوك بالبراهين الدامغة ، فإنه مع ذلك تساورنا الشكوك في أنه كان من شأن التعديل الذي دبر جايوس إدخاله على تشكيل محكمة استرداد الأموال المبتزة رفع مستوى القضاء أو إنصاف أهالي الولايات .

بيد أنه لا شك في أنه قد ترتب على القانون الخاص بتعديل تشكيل محكمة استرداد الأموال المبتزة نتيجة سياسية بالغة الأهمية بسبب ما كان لها من عواقب خطيرة . فقد سبق أن ذكرنا ان هذا القانون الجديد وضع قاعدة جديدة وهي قاعدة اختيار هيئات المحلفين من الفرسان بدلاً من أعضاء السناتو ، وأن هذه القاعدة الجديدة اتبعت في تشكيل هيئات المحلفين لكل المحاكم التي أنشئت بعد ذلك . وهكذا إنفردت طبقة الفرسان (Ordo Equester) بولاية القضاء فأصبحت هذه الطبقة الاجتماعية قوة سياسية منافسة لطبقة السناتو . ولما كانت طبقة السناتو من ناحية شديدة الحرص على مكانتها وامتيازاتها التي تمتعت بها طويلاً وتبعاً لذلك شديدة النقمة على إفلات المحاكم من قبضتها وكذلك شديدة الرغبة في استعادة ما فقدته ، وكانت طبقة الفرسان من ناحية أخرى شديدة السعادة بالمكانة الجديدة التي تبوأتها وبالمغانم الجديدة التي فازت بها ، فإنه نشب بين الطبقتين تنافس عنيف مشئوم . فلا عجب أن سياسياً بارزاً مثل شيشرون –وكان من الفرسان بحكم نشأته ومن النبلاء بحكم توليه القنصلية– قد سعى جاهداً الى إحلال الوفاق بين هاتين الطبقتين (Concordia ordinum) ولكن دون طائل على نحو ما سنرى فيما بعد .

وهكذا نرى أنه لو أن السناتو أصغى الى صوت العقل وقبل الاقتراح الأول الذي تقدم به جايوس جراكوس لتشكيل هيئات المحلفين من أعضاء السناتو بعد إدخال فريق من الفرسان في زمرتهم بحيث تصبح هذه الهيئات مكونة من أفضل عناصر السناتو والفرسان ، لربما كان هناك أمل في رفع مستوى القضاء ورفع الظلم عن أهالي الولايات أو على الأقل تفادي التنافس السياسي

الخطير بين طبقة الفرسان والسناتو . ولكن السناتو بقصر نظره وأنانيته ووقوفه في وجه الإصلاح وعمله على تقويض نفوذ جايوس، دفع جايوس الى اتخاذ الخطوة التي ترتبت عليها النتائج الخطيرة السالفة الذكر .

واذا صح ما يرويه أبيانوس[١٨] من أنه بعد صدور القانون الخاص باختيار المحلفين من الفرسان صرح جايوس بأنه قد حطم بذلك قوة السناتو الى الأبد ، فإن هذه العبارة تنم على الأقل عن أن جايوس كان يدرك النتيجة السياسية المترتبة على استبعاد أعضاء السناتو من هيئات المحلفين . ولما كان أحد الأهداف التي توخاها جايوس هو الحد من سلطة السناتو ، فإنه لا يمكن قبول ما يذهب اليه بعض الباحثين[١٩] من أن النتيجة السياسية المترتبة على القانون الخاص بتعديل تكوين محكمة استرداد الأموال المبتزة لم تكن في حسبان جايوس .

ولا جدال في أن الفرسان كانوا جديرين بالفوز بنصيب من السلطة السياسية أكبر مما كان ميسوراً لهم حتى ذلك الوقت . ولو أن جايوس بدلاً من اهتمامه بتعديل تشكيل هيئات المحلفين كان قد استصدر تشريعاً فتح أمام الفرسان أبواب الوظائف العامة وتبعاً لذلك أبواب السناتو لأمكنه تطعيم أداة الحكم بدماء جديدة كانت في أشد الحاجة اليها وكان في الإمكان توفيرها من صفوف طبقة الفرسان وهي التي كانت أكثر طبقات المجتمع الروماني نشاطاً وإقداماً . وذلك على حين أن تعديل تشكيل هيئات المحلفين لم يؤد فيما يبدو الى رفع مستوى القضاء ولا إلى إنصاف أهالي الولايات وإن كان قد أدى الى تقليم أظافر السناتو دون إصلاحه ، والى إعطاء الفرسان سلطة خطيرة دون تحميلهم أية مسئولية[٢٠] ، والى نشوب تنافس عقيم مشئوم بينهم وبين نبلاء السناتو .

ومنذ أمد طويل يدور بين الباحثين جدل عنيف حول إذا ما كان نقل محلفي المحاكم الدائمة ، أي محاكم الجنايات ، من قبضة السناتو الى قبضة

(18) App., B.C., I, 22.
(19) C.A.H., IX, p. 79.
(20) M. Cary, History of Rome, 1938, p. 290.

الفرسان قد ترتب عليه حدوث تغيير مماثل في تشكيل المحاكم المدنية كذلك .
وإنه لمن العسير الجزم بذلك ولا سيما أن اختيار قضاة المحاكم المدنية كان رهناً بمشيئة طرفي النزاع في كل قضية على حدة مع توجيه البرايتور . واذا كان العرف قد جرى في الماضي على اختيار هؤلاء القضاة من أعضاء السناتو .
فإنه غير مستبعد أنه بعد عام ١٢٢ ق . م . — كنتيجة طبيعية منطقية للتطورات التي طرأت على المحاكم الدائمة — لم يعد الاختيار مقصوراً على أعضاء السناتو ؛ غير أن هذا لا يستتبع حتماً استبعادهم . ومعنى ذلك أنه من الجائز أن يكون تشكيل المحاكم المدنية قد تأثر ولو الى حد ما بالتعديل الذي أدخل على تشكيل المحاكم الدائمة أو محاكم الجنايات(٢١) .

٤ — قانون جباية ضرائب ولاية آسيا(٢٢) (Lex Sempronia de provincia Asia)

إن نظام فرض ضريبة مباشرة على أساس حصول الدولة على نصيب من المحصول السنوي — عادة عشر المحصول ولذلك سُميت الضريبة ضريبة العشور — كان نظاماً شائعاً في العصور القديمة بسبب ملاءمته لاقتصادياتها .
وحين كان استثمار الأرض هو المورد الرئيسي لدخول الأفراد لم يكن هناك ما هو أعدل من أن تشارك الدولة دافعي الضريبة زيادة دخلهم أو نقصه تبعاً لحالة المحصول في كل موسم زراعي . بيد أنه كان يعتور هذا النظام بعض العيوب لعل أهمها أن تقدير المطلوب من كل فرد أداؤه وجمع نصيب الدولة ونقله وتخزينه كانت أموراً تتطلب جهازاً إدارياً كبيراً لم يكن توفيره أمراً ميسوراً للحكومات ومن بينها الحكومة الرومانية إذ ذاك . ومن ثم فإن الحكومات كانت تلجأ عادة الى استخدام ملتزمين محترفين ليتولوا عنها أمر جباية الضرائب .

وقد كان نظام ضريبة العشور هو السائد في ولاية آسيا من قبل ضمها

---

(21) Cf. C.A.H., IX, p. 76.
(22) Cic., in Verr. III, 6, 12; Diod., XXXV, 25; Schol. Bob., p. 154 (Stangl); Cf. Cic., ad Att. I, 17, 9.

الى الإمبراطورية الرومانية . غير أنه الى أن تولى جايوس جراكوس تريبونية العامة كانت المجتمعات المحلية في هذه الولاية هي التي تقوم كل منها بجباية ضرائبها عن طريق جباة محليين ، كما أنه اذا صح أن السناتو كان قد احترم شروط وصية أتالوس وأعفى المدن الإغريقية في مملكة برجام السابقة من دفع الضرائب ، فإن هذا الإعفاء لم يدم طويلاً فيما يبدو على نحو ما سنرى .

ولما كانت ولاية آسيا ولاية فسيحة غنية ليس من اليسير جمع ضرائبها النوعية وتصريفها على أحسن وجه ، وكانت هذه الولاية تفتح أمام طبقة الفرسان آفاقاً واسعة للاستثمار ، وكان جايوس حريصاً على كسب ود هذه الطبقة وفي الوقت نفسه يتطلع الى زيادة موارد الدولة التي أثقل كاهلها بقانوني القمح وإنشاء المستعمرات اللذين ستتناول الكلام عنهما فيما بعد ، فإنه استصدر قانون (Lex Sempronia de provincia Asia) نظم بمقتضاه طريقة جباية الضرائب في هذه الولاية .

وإذا صح ما يعزوه أبيانوس[٢٣] الى ماركوس أنطونيوس في خطبة ألقاها في أفيسوس عقب موقعة فيليبي (Philippi) في عام ٤٢ ق.م. ، فإنه يتبين من ذلك أمران : وأحدهما هو أن قانون جايوس جراكوس أدخل في وعاء دافعي الضرائب في ولاية آسيا مواطني مدنها الإغريقية وهم الذين كانوا معفين من هذه الضرائب حتى صدور هذا القانون . والأمر الآخر هو أن جباة الضرائب دأبوا على الإيغال في نشاطهم فكانوا يجبون من أولئك المواطنين قدراً أكبر من النسبة المقررة .

وقد تقرر بمقتضى قانون جايوس أن تعتبر ضرائب ولاية آسيا بأسرها وحدة واحدة ، وأن يقوم القنسورس بإشهار حق جبايتها في مزاد علني يعقد في روما ذاتها . وبطبيعة الحال كان يفوز بهذا الحق من يعرض دفع أكبر مبلغ للخزانة العامة في نظير أن يجبي لحسابه الخاص ضرائب الولاية .

(23) App., B.C., V, 4.

وإن دل هذا النظام الجديد على شيء فإنه يدل على رغبة جايوس في ألا يتقدم الى هذا المزاد إلا شركة غنية من شركات محترفي التزام الضرائب المؤلفة من كبار الرأسماليين أو بعبارة أخرى الفرسان ، لأن مثل هذه الشركات فقط هي التي كان في وسعها دفع مبالغ كبيرة للحكومة لقاء قيامها بجباية ضرائب مثل ضرائب هذه الولاية الشاسعة الغنية . ومعنى ذلك أن جايوس إذ أوصد الباب بإحكام في وجه جباة الضرائب المحليين في ولاية آسيا جعل جباية ضرائب هذه الولاية وقفاً على الفرسان .

ولم يكتف جايوس بذلك بل إنه وفر للفرسان ضماناً في مضاربتهم للفوز بالغنيمة . ذلك أن الشركة التي كانت تقدم أكبر عطاء وتفوز تبعاً لذلك بالعقد كانت تلتزم بشروط هذا العقد لمدة خمس سنوات ، لأن القنسورين هما اللذان كانا يشهران المزاد ويبرمان العقد في كل مرة ؛ وكان القنسوران لا ينتخبان إلا كل خمس سنوات لأداء الأعمال المنوطة بهما والتخلي عن منصبيهما في خلال مدة لا تزيد على خمسة عشر شهراً منذ توليهما منصبيهما . وكثيراً ما كانت المنافسة بين المتزايدين تؤدي الى ارتفاع سعر شراء العقد بحيث أنه اذا حدث في أثناء مدة سريان العقد أن المحصول هبط بسبب قحط أو وباء أو حرب فإن الشركة المتعاقدة كانت تتحمل خسارة كبيرة . وكان السناتو وحده هو الذي له حق إعادة النظر في شروط العقد ، مما كان يخوله سلطة كبيرة على ملتزمي جباية الضرائب . ولكنه بمقتضى قانون جايوس تخلص الملتزمون على الأقل من المخاوف التي كانت تساورهم في هذا الصدد بوضع شروط واضحة لإعادة النظر في عقود التزام جباية الضرائب .

ولا جدال في أن تولي شركة كبيرة من المحترفين أمر جباية ضرائب ولاية آسيا كان يضمن للخزانة العامة الرومانية الحصول من هذه الولاية على دخل كبير منتظم كانت الدولة الرومانية في حاجة ملحة إليه ؛ وفي الوقت نفسه كان يكسب جايوس عرفان طبقة الفرسان وتأييدها . بيد أن ذلك كله كان على حساب أهالي الولاية أنفسهم ، فمن ناحية حرم قانون جايوس

الجباة المحليين جني ثمار الاشتغال بجباية ضرائب وطنهم مثل ما حرم المدن الإغريقية في هذه الولاية الإعفاء من دفع الضرائب ، ومن ناحية أخرى أسلم الأهالي جميعاً الى الجباة الرومان الجشعين ، فقد كان كل همهم هو اعتصار دافعي الضرائب لجباية أكثر ما يمكن جبايته من أجل الوفاء بالمبلغ الذي تعاقدوا عليه مع الحكومة وتغطية تكاليف عملية الجباية وجني الأرباح التي تسد جشعهم . حقاً إن القانون قد نص على النسبة المقررة الواجب جبايتها وعلى عدم تجاوز هذه النسبة ، كما أنه كان من واجب حاكم الولاية السهر على احترام القانون . واذا كان جايوس قد تصور أن هذه الضمانات كفيلة بحماية الأهالي من ابتزاز الجباة ، فإنه كان شديد التفاؤل . ذلك أن الجباة بوصف كونهم مواطنين عاديين لا يشغلون وظائف عامة كانوا لا يقعون تحت طائلة قانون مكافحة الابتزاز ، وتبعاً لذلك فإنه لم يكن هناك ما يردعهم عن تجاوز النسبة المقررة للضريبة إلا رقابة حاكم الولاية . بيد أن الحاكم كان يفتقر دائماً الى الجهاز الإداري اللازم لمراقبة عمل الجباة في كل أنحاء الولاية . وأهم من ذلك أنه كثيراً ما كان يفتقر أيضاً الى الشجاعة اللازمة للوقوف في وجه جحافل الجباة خوفاً من تلفيق تهمة له وتقديمه للمحاكمة أمام محلفين من الفرسان . وحسبنا ما سبق ذكره عما حدث لبوبليوس روتيليوس روفوس لأنه كان حاكماً شجاعاً نزيهاً أدى واجبه بأمانة ، وكذلك ما جاء في سياق خطبة مارقوس انطونيوس في أهل افيسوس من أن جباة الضرائب دأبوا على تجاوز النسبة المقررة للضريبة .

ثالثاً — التشريعات الاقتصادية والاجتماعية

١ — قانون الأراضي[٢٤] : (Lex agraria)

إن معلوماتنا عن هذا القانون غامضة أشد الغموض وإن كان يبدو أنه

---

(24) Plut., G. Gracch., V; Liv., Ep., 60; (Victor) de Vir. III., 65; Velleius, II, 6, 9; Oros., V, 12; Flor., II, 3; C.I.L., I, 2nd ed., 2, n. 585; Bruns, Fontes, 7th ed., I, 3, 11; C.A.H. IX., pp. 66-8; Scullard, 1970, p. 34 and n. 29 p. 393.

كان إحياء لقانون تيبريوس ، وأن جايوس اتبع السُّنة التي كان المصلحون الرومان يتبعونها عادة عند إحياء قانون قديم مع تعديله ، وهي تقديم مشروع قانون جديد يشتمل على مواد القانون القديم مع إضافة التعديلات الجديدة المرغوب فيها .

وإزاء ما أبديناه من القرائن الدالة على أن اللجنة الثلاثية استمرت تباشر عملها بعد وفاة سقيبيو آيميليانوس يصعب علينا قبول ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن الحركة التي قام بها سقيبيو حرمت اللجنة اختصاصاتها القضائية جميعاً فشل نشاطها تبعاً لذلك مما حدا بجايوس الى استصدار قانونه لانتشال اللجنة الثلاثية من الشلل الذي أصابها .

وقد سبق أن أوردنا رواية ليفيوس(٢٥) بأنه بعد وفاة سقيبيو اشتد الصراع مع اللجنة الثلاثية ، كما أوردنا رواية أبيانوس(٢٦) بأنه بعد وفاة سقيبيو قاوم الإيطاليون تسليم أرض الحيازة مقاومة عنيفة ، وعرضنا أن هاتين الروايتين معاً توحيان بأنه عقب وفاة سقيبيو وانتهاء قنصلية توديتانوس استأنفت اللجنة الثلاثية مباشرة سلطاتها القضائية كاملة وأخذت تفصل في كافة المنازعات على الأرض بما في ذلك الأرض التي كانت في حيازة الحلفاء . وإزاء ذلك يصعب قبول ما يراه بعض الباحثين من أن الهدف من قانون جايوس كان رد الاختصاصات القضائية كاملة الى اللجنة الثلاثية بعدما ترتب على حركة سقيبيو حرمانها الفصل في المنازعات الخاصة بالحلفاء .

ولعل أن الأدنى الى القبول هو أن القانون الذي منح اللجنة الثلاثية اختصاصاتها القضائية كان قد صيغ في عبارات عامة خولت اللجنة سلطة الفصل في المنازعات على الأرض العامة . ويلوح أن هذه العبارات بدت عندئذ واضحة وضوحاً كافياً يشير الى أن اختصاصات اللجنة تمتد الى المواطنين الرومان وغيرهم ما دامت الأرض التي في حيازتهم أرضاً عامة .

(25) Liv., Ep., 59.
(26) App., B.C., I, 21.

ولكنه إزاء البلبلة في الأفكار الناجمة عن حركة سقيبيو وما تبع هذه الحركة فيما يبدو من حجب سلطة اللجنة الثلاثية عن الحلفاء، وكذلك إزاء الاضطرابات التي واجهتها اللجنة في أعقاب مباشرتها سلطاتها على أولئك الحلفاء ، رأى جايوس انه لا بد من القضاء على كل لُبسة وغموض حول الاختصاصات القضائية للجنة الثلاثية . وتبعاً لذلك أعاد جايوس صياغة قانون أخيه واستصدر به قانوناً جديداً جعل الاختصاصات القضائية للجنة الثلاثية جزءاً منه ونص في هذا القانون صراحة على أن هذه الاختصاصات تمتد الى كل من كانت في حيازته أرض عامة سواء أكان مواطناً رومانياً أم أحد الحلفاء اللاتين أو الإيطاليين .

ويذكر مصدر قديم[٢٧] أن جايوس استصدر قانوناً يقضي بألا تكون في حيازة أحد في إيطاليا أكثر من ٢٠٠ يوجرا ، ولكنه إزاء صمت سائر المصادر القديمة الأخرى عن ذلك ، وإزاء الضجة الهائلة التي أثارها قانون تيبريوس حين جعل الحد الأقصى للملكية ٥٠٠ يوجرا يصعب علينا أن نتصور إقدام جايوس على إنقاص هذا الحد الى أقل من النصف . ويذهب أحد الباحثين في تفسير هذا المصدر القديم الى حد الزعم بأن جايوس قرر جعل مساحة كل إقطاع يوزع على فقراء المواطنين ٢٠٠ يوجرا . ولا يمكن قبول هذا الرأي لسببين : وأحدهما هو أن مساحة الأرض العامة كانت لا تسمح بمثل هذا السخاء . والسبب الآخر هو أنه اذا فرضنا جدلاً أنه كانت توجد أرض عامة كافية لمنح مثل هذه الإقطاعات الكبيرة فانه كان من الحمق منحها لأنه كان يتعذر على فقراء المواطنين استثمارها . ولعل الأصح أن يكون المصدر القديم السالف الذكر قد خلط بين قانون الأراضي وقانون إنشاء مستعمرة يونونيا (Junonia) وهو القانون الذي سنعرض له فيما بعد .

---

(27) Siculus Flaccus, Corpus Agrimentorum, ed. Thulin, I, p. 100 ; C.A.H. IX, p. 67 n 1; Scullard, 1970, n. 29 p. 393.

٢ ـ قانون القمح [٢٨] : (Lex frumentaria)

إذا كان يتعذر علينا أن نقف من مصادرنا على تفاصيل هذا القانون ، فإننا نستطيع أن نتبين منها على الأقل أنه من أجل تنظيم تموين روما بالقمح والقضاء على ما كانت أسعاره تتعرض له باستمرار من تقلبات شديدة بسبب جشع التجار ، تقرر ان تشتري الحكومة من الخارج كميات كبيرة من القمح وتودعها في مخازن تقيمها لهذا الغرض بميناء أوستيا وتبيع منها لكل مواطن روماني يرغب في ذلك قدراً معيناً في كل شهر بسعر ثابت على مدار العام بسعر قدره ٦ ١/٣ آس (أي بحوالي خمسة قروش) للموديوس الواحد (Modius = مكيال روماني يعادل نصف كيلة تقريباً) .

وقد وجهت الى جايوس اتهامات كثيرة بسبب استصداره هذا القانون . ذلك أنه اتهم برشوة الناخبين على حساب الدولة التي حملها هذا القانون أعباء مالية كبيرة . واتهم كذلك بالقضاء على نتائج الإصلاح الزراعي ، وذلك على أساس أنه لكي تخفف الدولة أعباءها المالية كان يتعين عليها شراء القمح بأبخس الأسعار ، أي من منتجات عبيد صقلية وإفريقيا وغيرهما . ومعنى ذلك أن الدولة أصبحت أكبر عميل لكبار الرأسماليين الذين كانوا يستثمرون أموالهم في الخارج ، وأصبح الاهتمام بتقدم الزراعة الإيطالية متوقفاً على عاطفة أهل البر وهذه العاطفة وحدها لا تكفل اتباع سياسة مثمرة مستمرة . واتهم أيضاً بتشجيع البطالة ، وذلك على أساس أنه لم يكن هناك مفر من المقارنة بين حياة المزارع الصغير ، وهي دائماً رتيبة وشاقة ، وبين حياة المتعطلين في روما وهم الذين أصبحوا يتمتعون بشراء القمح بسعر زهيد مما كان ييسر لهم الحياة دون تكبد مشاق القيام بأي عمل منتظم ، وذلك فضلاً عن تمتعهم بمباهج العاصمة والإصغاء الى خطب الساسة والمرشحين

---

(28) Plut., G. Gracch., V-VI; App., B.C.I., 21; Liv., Ep., 60; Diod,, XXXV, 25; Velleius, II, 6, 3; Oros., V, 12; Schol Bob. pp. 96, 125 St.; Cic., de Off. II, 21, 72; Tusc. Disp., III, 20, 48; pro Sest., 48, 103; C.A.H., IX, pp. 57-60; Scullard, 1970, pp. 34-5.

للوظائف العامة والمآدب والحفلات التي كان هؤلاء يقيمونها إرضاء للناخبين وكسباً لأصواتهم . ومعنى هذا الاتهام أنه إزاء هذه الاعتبارات ازداد عدد الفقراء الذين خفوا الى روما ليصوتوا من أجل ملء بطونهم فازداد عدد الطبقة الفقيرة التي كانت عُدة المهرجين السياسيين والتي أصبحت الحكومة تعولها وفقاً لأحكام هذا القانون ، وكأن الحكومة أصبحت تعول الغوغاء من أجل هدم ما قضت البلاد سنين طويلة من النشاط والكفاح في بنائه .

ولكي نتبين مدى ما في هذه الاتهامات من إنصاف أو إسراف يجب أن نذكر بادىء ذي بدء أن قيام الحكومة الرومانية بتنظيم تجارة القمح وضبط أسعاره لم يكن بدعة استحدثها جايوس جراكوس ، ذلك أنه منذ المجاعة التي اجتاحت كثيراً من بلاد شرق البحر المتوسط في عام ٣٢٩ ق.م. أخذت دولة بعد أخرى من دول العالم الهلينيسي تدرك أن الحكومة مسئولة عن توفير حاجة المجتمع الى ما يكفيه من المؤنة بسعر زهيد ، بل إن بعض الدول الصغرى ذهبت الى حد توفير الحبوب الغذائية لفقراء مواطنيها بالمجان[٢٩] . واذا كان جايوس قد أخذ بمبدأ مسئولية الحكومة عن توفير الغذاء للمواطنين بسعر زهيد فإنه لم يذهب الى حد إطعام الفقراء بالمجان ، ولكنه لا جدال في أن القانون الذي استصدره مهد السبيل للنظام الذي استحدث فيما بعد وبمقتضاه كان الفقراء يعطون منحاً من القمح دون مقابل . غير أنه ليس من الإنصاف تحميل جايوس تبعة ذلك .

واذا استثنينا الأيام العصيبة التي مرت بها روما في أثنـاء الحرب البونية الثانية ، فإن روما لم تعان مؤخراً من أية مجاعة ، غير أن القرائن متوفرة على أنه في الثلث الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً مقادير القمح التي تصل اليها مما كان يؤدي الى تقلبات موسمية خطيرة في الأسعار . وقد كان الموقف دقيقاً بوجه خاص في مستهل الربع الأخير

---

(29) W. W. Tarn, Hellenistic Civilization, 2nd ed., p. 44.

من هذا القرن لأن صقلية كانت لا تزال تعاني من آثار الدمار التي ترتبت على ثورة العبيد ، ولأنه في عام ١٢٥ ق.م. نكبت ولاية إفريقيا بأرجال من الجراد أتت على أغلب محصولها ، ثم أعقب هذه الكارثة وباء هلك فيه أكثر من ٢٠٠٠٠٠ من سكان الإقليم المحيط بمدينتي أوتيقا وقرطجنة [٣٠] . ولما كان ارتفاع سعر القمح على حين فجأة يفضي إلى القلق والاضطراب ، فإنه لا يمكن أن يُعاب على جايوس استصداره قانوناً يضمن تزويد المواطنين باحتياجاتهم الأساسية بسعر معقول على مدار السنة .

ولا جدال في أن هذا السعر كان يقل كثيراً عن الأسعار التي كانت سائدة قبل صدور القانون ، ولا في أن هذا القانون حمل الخزانة العامة عبئاً ثقيلاً [٣١] لم يخفف كثيراً من وطأته محاولة جايوس زيادة دخل الدولة بتعميم نظام المكوس الجمركية [٣٢] . ولعل أن شعور جايوس بثقل هذا العبء كان أحد الحوافز التي بعثته على استصدار قانونه الخاص بتنظيم جباية الضرائب في ولاية آسيا مما يرجح أنه بمقتضى هذا التنظيم ألغي إعفاء المدن الإغريقية في هذه الولاية من دفع الضرائب . بيد أنه لا جدال كذلك في أن جايوس عالج بقانون القمح مشكلة حقيقية كان من الممكن أن يؤدي بقاؤها أو استفحال أمرها الى نتائج خطيرة تهون أمامها أية تضحيات تتحملها الخزانة العامة . ذلك أنه إذا أخذنا في الاعتبار أن الحاجة الى لقمة العيش أشد العوامل إثارة في نفوس عامة الناس فإننا ندرك جيداً أنه اذا لم تفعل الحكومة الرومانية شيئاً لتخفيف عبء الحياة على الفقراء فإنه كان من الجائز أن يترتب على ذلك نشوب ثورات فثورات مضادة كان يمكن أن تتهدد كيان الدولة بأسره اذا تصادف نشوب هذه الثورات في أثناء أزمة خارجية ، أو إذا انتهز فرصة هذه الثورات رعايا روما وحلفاؤها المتذمرون وهبوا عندئذ لاستعادة حريتهم .

---

(30) Oros., IV, II, 2 ff.
(31) Cic., de Off., II, 21, 72.
(32) Velleius, II, 6, 3; Gell., N.A., XI, 10, 3.

ولو أن جايوس قصر الإفادة من قانونه على فقراء المواطنين لربما كان من الجائز اتهامه باستخدام الأموال العامة لرشوة فقراء روما . ولما كان شيشرون[٣٣] يحدثنا بأن لوقيوس قالبورينوس بيسو – أحد قنصلي عام ١٣٣ ق. م. وأحد خصوم جايوس البارزين – تقدم كغيره من المواطنين لشراء نصيبه من القمح وفقاً لأحكام قانون القمح ، فإن هذا يدل على أن حق شراء القمح بسعر زهيد كان مباحاً لكل مواطن روماني . واذا كان هذا لا يستتبع حتماً أن كل الموسرين حذوا حذو بيسو ولم يروا غضاضة في الإفادة من أحكام القانون ، فإنه لا ينفي على كل حال أن الخدمة الجليلة التي أداها جايوس بقانونه قد أفاد منها بنوع خاص أولئك الذين كان ارتفاع أسعار الحبوب يلحق بهم أضراراً جسيمة وهم الذين كانوا يؤلفون الغالبية الكبرى من سكان روما أي متوسطي الدخل وبوجه خاص الفقراء . فلا عجب أن يكون هذا القانون قد أكسب جايوس شعبية كبيرة .

وهل كان يترتب حتماً على صدور هذا القانون القضاء على نتائج الإصلاح الزراعي وزيادة عدد المتعطلين في روما ؟ إن الإصلاح الزراعي كان يستهدف إعادة تكوين الطبقة الوسطى بمنح إقطاعات صغيرة لفقراء المواطنين . وقد كانت مؤنة روما من القمح لا تعتمد على محصول صغار المزارعين بوجه عام ، لأن صعوبة النقل الداخلي كانت تضطرهم الى بيع الفائض عن حاجتهم من محاصيلهم في أقرب المدن الى مزارعهم . وتبعاً لذلك فانه من بين أرباب المزارع الصغرى كان لا يصدر القمح الى روما إلا أولئك الذين كانت مزارعهم قريبة من العاصمة . ولم يكن هؤلاء المزارعون الصغار في عداد الذين منحوا إقطاعات سواء بمقتضى قانون تيبريوس أم بمقتضى قانون جايوس . وعلى كل حال فإن هؤلاء المزارعين كانوا لا يؤلفون إلا نسبة صغيرة من جموع صغار المزارعين . وفضلاً عن ذلك فإنه لم يكن صغار المزارعين القريبين من روما هم الذين يجنـــون

(33) Cic., Tusc. Disp., III, 20, 48.

الأرباح الباهظـــة من ارتفاع أسعار القمح قبـــل صدور قانون جايوس ، وذلك من ناحية لأنه بسبب قلة فائض محصولهم ورقة حالهم كانوا يبادرون الى بيع قمحهم في أول الموسم حين يكون السعر معتدلاً ، ومن ناحية أخرى لأن التجار المضاربين كانوا لا يغفلون اقتناص كل فرصة تسنح للكسب بشراء أية كمية ممكنة بمجرد ظهور المحصول وتخزينها لفرض السعر الذي يحلو لهم في الوقت المناسب .

وفي رأي بعض الباحثين أنه حيث أن قانون جايوس لم يمنح القمح دون مقابل بل حدد له سعراً ثابتاً ، وحيث أنه لم يكن في وسع المتعطلين الذين لا يملكون أي مال شراء القمح سواء قبل خفضه وتحديد سعره أم بعد ذلك ، فإنه لا يمكن القول بأنه كان من شأن تحديد سعر زهيد للقمح تشجيع البطالة . بيد أنه لا يسعنا إلا أن نلاحظ انه لما كان من شأن قانون القمح تخفيف عبء الحياة على الذين كانوا لا يمارسون عملاً منتظماً أو لا يمارسون إلا أعمالاً وضيعة لا تدر عليهم دخلاً كافياً ، فإننا نرى أنه اذا لم يكن فعلاً من شأن قانون القمح التشجيع على البطالة الكاملة فإنه لم يكن من شأنه كذلك التشجيع على العمل الدءوب المتواصل . وإننا لنستبعد أن يكون ذلك قد فات جايوس ونرجح أنه قد كان من بين أهداف قانون القمح إيجاد وسيلة موقتة لتخفيف أعباء الحياة على أولئك الفقراء الى أن يتيح لهم أو على الأقل لكثرة منهم فرصة تكسب قوتهم بالعمل الجاد على نحو ما سنرى عند الحديث عن قانونه الخاص بإنشاء مستعمرات جديدة .

وهل كان من شأن تخفيف أعباء الحياة على فقراء روما تشجيع المزارعين الصغار الذين منحوا بمقتضى قانوني تيبريوس وجايوس الخاصين بالأراضي على هجر إقطاعاتهم والعودة الى روما ؟ هذا مستبعد إلا اذا أضيفت الى هذا العامل عوامل أخرى لم يكن جايوس مسئولاً عنها على نحو ما سنرى .

وفي ضوء ما عرضناه يصعب قبول ما اتهم به جايوس من أنه لم يستهدف

من وراء قانون القمح إلا اكتساب شعبية كبيرة دون أن يتبصر العواقب السيئة التي كان يمكن أن تترتب على استصداره هذا القانون .

٣ – قانون الجيش (Lex Militaris)

إن ما وصل الينا عن هذا القانون ينم عن روح معتدلة لا تبرر ما يزعمه ديودوروس[٣٤] من أن هذا القانون أدى الى تراخي النظام في الجيش ، ولا الى ما يستخلص من عبارات ديودوروس أن هذا القانون أعطى المواطنين الرومان حق استئناف أحكام الإعدام التي يصدرها ضدهم القواد في أثناء الخدمة العسكرية . ذلك أن هذا الحق كان قد منح للمواطنين الرومان منذ النصف الأول في القرن الثاني قبل الميلاد بمقتضى أحـــد قوانين عشيرة بورقيوس[٣٥] (Leges Porciae) . وسنرى بعد قليل أن اقتراح ليفيوس دروسوس إعطاء هذا الحق للحلفاء اللاتين في أثناء الخدمة العسكرية ينم عن تمتع المواطنين الرومان بمثل هذا الحق ، لأنه من غير المعقول أن يكون الحلفاء اللاتين في وضع أفضل من المواطنين الرومان .

ويتضح مما يرويه بلوتارخ[٣٦] عن قانون الجيش الذي استصدره جايوس جراكوس أنه اقتضى إلا تقل سن المجند عن السابعة عشر عاماً، وأن تمد الحكومة الجنود بملبسهم دون استقطاع شيء من راتبهم الضئيل . ذلك أنه بعد أن كانت الخدمة في فرق الجيش الروماني مقصورة على المواطنين الذين أتموا على الأقل السابعة عشرة من عمرهم وكان في وسعهم تزويد انفسهم بملبسهم وسلاحهم عندما يدعون للخدمة العسكرية ، كثيراً ما كان يُغفل الحد الأدنى لسن التجنيد وبالتدريج أُنقص النصاب المالي اللازم توافره لدى المجندين الى حد أنه أصبح يدعى للخدمة العسكرية مواطنون عاجزون عن تزويد أنفسهم بالسلاح أو بالملبس فكانت الحكومة تتولى أمر ذلك وتستقطع من راتبهم

(34) Diod., XXXIV-V, 25, 1.
(35) Bloch-Carcopino, La republique romaine, II, p. 144.
(36) Plut., G. Gracch., V.

الضئيل ثمن ملبسهم .

واذا كان يبدو أن قانون الجيش الذي استصدره جايوس لم يفعل أكثر من أنه قضى على عيب خطير ومظلمة حقيقية دون أن يدخل إصلاحات عسكرية على نظم الجيش ، فإنه يبدو كذلك أن هذا كان أمراً طبيعياً معقولاً لأن جايوس كان يفتقر الى الخبرة العسكرية التي تؤهله لإدخال مثل هذه الإصلاحات ، وذلك فضلاً عن أنه كان لا يتمتع بالسلطة التنفيذية imperium التي تمكنه من ذلك . ولعل أن أهمية هذا القانون مستمدة من أنه كان بداية الاتجاه نحو إصلاح الجيش بعد أن أهملت الحكومة أمره . وسنرى فيما بعد أنه لم يضطلع بمهمة إدخال إصلاحات جذرية على نظم الجيش تريبون من ترابنة العامة وانما القائد العسكري المحنك جايوس ماريوس .

٤ ــ قانون الطرق [٣٧] :

لا جدال في أن سرعة المواصلات وسهولتها بين أنحاء البلاد عامل هام في الحياة الاقتصادية ، ولا في أنه كانت توجد في إيطاليا عدة من الطرق الكبرى . بيد أن هذه الطرق كانت طرقاً عسكرية ، وهو ما يستدل عليه من نظام تخطيطها ومن أن الأماكن التي كانت تمر بها كانت ذات أهمية استراتيجية وليست اقتصادية . وتبعاً لذلك فإن إنعاش حالة البلاد الاقتصادية كان يتطلب شبكة جديدة من الطرق . واذا كان من المرجح أن جايوس كان يستهدف تحقيق هذا الهدف ، فإنه من المرجح أيضاً أنه كان لهذا القانون هدف آخر . ذلك أن سهولة المواصلات لا تخدم التجارة والصناعة فحسب بل تخدم السياسة أيضاً ، لأن سهولة الانتقال الى روما كان يساعد على وحدة إيطاليا السياسية وبوجه خاص على ازدياد الصبغة التمثيلية للجمعيات الرومانية فتقل تبعاً لذلك الأهمية السياسية لغوغاء روما . ولعل أن جايوس كان يدرك أن تحقيق هذا

(37) Plut., G. Gracch., VI; App., B.C., I, 23; Dassau; L.L.S., 5808 = Degrassi, Insc. Lat. Lib. Rei Pub., I, 458.

الهدف أمر ضروري لنجاح الحكم الشعبي واستقراره بعد حرمان السناتو احتكاره توجيه سياسة الدولة الرومانية . وقد يؤيد ذلك ما يُرجح من أنه عندما استصدر جايوس قانون الطرق كان يفكر في منح الحلفاء اللاتين والإيطاليين حقوق المواطنة الرومانية كاملة لا ليزيل بذلك مظلمة حقيقية فحسب بل أيضاً ليترتب على ذلك ان تدخل في زمرة المواطنين تلك العناصر الجادة المتزنة التي كانت تعيش خارج روما ولا يمكنها الحضور اليها عند انعقاد الجمعيات الشعبية إلا اذا تيسرت لها سبل الوصول الى العاصمة الرومانية .

وقد كان من جراء قيام جايوس نفسه بتنفيذ هذا القانون بسرعة كبيرة إثارة نقمة السناتو عليه . وذلك لأن جايوس من ناحية اعتدى على إشراف السناتو على الخزانة العامة وكذلك على احتكاره القيام بالمشروعات العامة ، ولأنه من ناحية أخرى لم يحترم العادة التي جرت على أن مقترح أي قانون لا يتولى تنفيذه . بيد أن سرعة إنشاء الطرق لم يؤثر على جودتها ، وفضلاً عن ذلك فان جايوس أصبح صاحب فضل على العمال والصناع والتجار الإيطاليين الذين أفادوا من إنشاء الطرق .

٥ ــ قانون إنشاء المستعمرات للمواطنين الرومان [٣٨] :

(Lex Sempronia de coloniis deducendis)

كان إنشاء المستعمرات لحل أزمة تزايد السكان أمراً مألوفاً لدى الرومان منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وإن كانت اعتبارات عسكرية قد أسهمت في إنشاء هذه المستعمرات وأملت اختيار الأماكن التي أقيمت فيها . وينهض دليلاً على امتزاج الاعتبارات الاقتصادية والعسكرية أنه كان يُختار لإنشاء هذه المستعمرات مواقع استراتيجية في أغنى بقع إيطاليا ليستطيع المستعمرون الدفاع عن مستعمراتهم وكذلك تكسب قوتهم .

وعندما فكر جايوس جراكوس في إنشاء مستعمرات جديدة لم يكن

(38) Liv., Ep., 60; Plut., G. Gracch., X; Velleius, II, 6.

للاعتبارات العسكرية دخل ولم يول انتباهه فقط الى اختيار أماكن ليست لها إلا صلاحيات زراعية فحسب مثل قابوا [٣٩] بل أيضاً الى اختيار أماكن أخرى ذات صلاحيات زراعية وتجارية مثل نبتونيا (Neptunia) بالقرب من تارنتم على الخليج الجنوبي الكبير المعروف باسم هذه المدينة ومثل مينرفا (Minerva) بالقرب من سقولاقيوم[٤٠] (Scolacium) عند الأطراف الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة الإيطالية . وحسبنا دليلاً على الأهمية التجارية لهاتين المستعمرتين الساحليتين أنهما كانتا تقعان على أحد الطريقين البحريين اللذين كانا يربطان غرب البحر المتوسط بشرقه .

ولم يكن الأمر الجديد في قانون مستعمرات جايوس مجرد اختيار مثل هذين الموقعين لإنشاء المستعمرات بل أيضاً اختيار فئة بعينها للمشاركة في إقامة المستعمرات الجديدة . ومن المرجح أن أغلب المستعمرين كانوا من الفقراء وهم الذين حاول الأخوان جراكوس تحسين حال الكثيرين منهم بالإصلاح الزراعي كما حاول جايوس تخفيف عبء الحياة على باقيهم بقانون القمح الى أن يجد لهم سبيلاً لتكسب قوتهم بالعمل الجدي . بيد أنه اذا كان في نية جايوس الإفادة من الصلاحيات الزراعية لهذه المستعمرات كي يتكسب كثيرون من هؤلاء الفقراء قوتهم وفقاً للطريقة القديمة المألوفة أي عن طريق فلاحة الأرض ، فإنه يبدو أنه كان ينوي كذلك الإفادة من المواقع التي اختيرت بعناية لإقامة هذه المستعمرات عليها بالتجارة أيضاً . ولا ينهض دليلاً على ذلك مجرد اختيار مواقع المستعمرات بل أيضاً في الظاهرة الجديدة المتمثلة في اختيار عناصر ميسورة الحال للاشتراك مع العناصر الفقيرة في هذه المستعمرات . ذلك أن اشتغال أي مجتمع بممارسة التجارة كان يتطلب توافر رؤوس أموال لديه ، ومن أجل تحقيق ذلك طعم جايوس المستعمرين بعناصر ميسورة الحال .

---

(39) Plut., G. Gracch., VIII.

(40) Velleius, I, 15; Plin., N.H., III, 99; Strab., VI, 3, 4; Plut., G. Gracch., VIII.

ويؤيد ذلك أنه عندما استصدر التريبون روبريوس – زميل جايوس في تريبونيته الثانية – بإيحاء من المصلح الكبير قانونا [٤١] (Lex Rubiria) بإنشاء مستعمرة يونونيا (Junonia) بالقرب من قرطجنة ، قضى هذا القانون بأن تتكون هذه المستعمرة من عدد يقل عن ٦٠٠٠ مواطن يمنح كل منهم إقطاعاً يمتلكه امتلاكاً حراً ، وبأن تكون مساحة الإقطاع ٢٠٠ يوجرا ، وذلك فيما يرجح في بعض الحالات فقط وليس قطعاً في كلها . ومنح بعض هؤلاء المستعمرين إقطاعات مساحة كل منها ٢٠٠ يوجرا يدل على أنه اذا كان أغلب المستعمرين من المواطنين المعدمين – وهو ما تنم عنه رواية أبيانوس بجلاء – فلا بد من أن بعضهم كانوا من الموسرين الذين كان لديهم من الموارد ما يتيح لهم استثمار مثل هذه الإقطاعات الكبيرة . ولعل أن يكون هذا هو ما حدا بيلوتارخ الى الزعم بأن جايوس اختار لمستعمراته رجالاً من الموسرين[٤٢] ، وبعث بعض الباحثين المحدثين على القول بأن الغرض من إنشاء مثل هذه المستعمرات كان تخفيف أزمة الازدحام الخانق في روما بإتاحة الفرصة أمام ميسوري الحال الذين كانوا أكثر رغبة في ممارسة النشاط التجاري منه في النشاط الزراعي ، أو بعبارة أخرى أمام صغار الرأسماليين [٤٣] واذا كنا لا نستبعد على جايوس الرغبة في إنعاش صغار الرأسماليين ، فإننا نستبعد أن ذلك كان هدفه من وراء إنشاء المستعمرات الجديدة ، ذلك أن عدد أفراد هذه الفئة لم يكن من الكثرة بحيث يترتب على إيفادهم الى المستعمرات الجديدة إمكان تعمير هذه المستعمرات أو إنقاص عدد سكان روما إلى أي حد محسوس . وتبعاً لذلك فإننا نميل الى الرأي القائل بأن هدف

(41) Bruns, Fontes, 7th ed., I, 11; App., Pun., 136; B. C., I, 24; Plut., G. Gracch., X; Velleius, II, 7; C.A.H., IX, pp. 69; 73-4; Scullard, 1970, p. 37.

وعن تاريخ إنشاء مستعمرة يونونيا والمستعمرات الأخرى ، انظر

C.A.H., IX, pp. 891-2; Broughton, Magistrates of Rom. Rep., I, p. 515 nos. 4 and 7, p. 519 nn. 4 and 5; E. Badian, Foreign Clientelae, App. A; Scullard, 1970, n. 34 p. 395.

(42) Plut., G. Gracch., IX.

(43) e.g. Heitland, II, p. 308; A. E R Boak, History of Rome, 1962, p 180.

جايوس من وراء إنشاء هذه المستعمرات كان متمشياً مع الاتجاه الذي بدأه أخوه تيبريوس وتابعه هو نفسه ، وهو الاتجاه الذي كان يتوخى نقل الفقراء من روما الى أماكن أخرى يستطيعون فيها تكسب قوتهم بالعمل الجدي المثمر . بيد أنه اذا كان لم ينتظر من كل الذين أفادوا من قانون الأراضي إلا الاشتغال بزراعة الإقطاعات التي منحوها بمقتضى هذا القانون ، فانه كان ينتظر من الذين أفادوا من قانون المستعمرات استغلال إقطاعاتهم وكذلك استغلال الإمكانيات التجارية التي امتازت بها مواقع مستعمراتهم . وتبعاً لذلك فإنه عند اختيار أرباب هذه المستعمرات عني جايوس بأن يتألفوا من فئتين أكثرهما عدداً من الفقراء وأصغرهما من الذين كانت لديهم الوسائل لممارسة النشاط التجاري . ومهما تكن الآمال العراض التي عُقدت على هذا القانون فإن نتائجه كانت طفيفة . وهذا في حد ذاته يوحي بأن عدد صغار الممولين الذين أسهموا في إنشاء هذه المستعمرات لم يكن بالكثرة المزعومة .

٦ ـ مسألة تحرير الحلفاء الإيطاليين :

يرى فريق من الباحثين[٤٤] أن جايوس جراكوس لم يتقدم إلا بمشروع قانون واحد (Lex de Sociis et nomine Latino) لمعالجة مشكلة الحلفاء وأن هذا المشروع كان يقضي بمنح الحلفاء اللاتين حقوق المواطنة الرومانية كاملة ومنح الحلفاء الإيطاليين الحقوق اللاتينية . ويرى فريق آخر[٤٥] أن جايوس تقدم بمشروعين لمعالجة هذه المشكلة .

ونحن إذ نميل الى الأخذ بالرأي الثاني نرجح أن يكون جايوس قد قدم مشروع القانون الأول في خلال تريبونيته الأولى وقدم المشروع الثاني في أوائل عهد تريبونيته الثانية . والواقع أن جايوس كان شديد العطف على الحلفاء ، وأن هذا العطف كان أمراً معروفاً للجميع . وآية ذلك ما سبق

(44) Heitland, II pp. 309, 312; E. Badian, Foreign Clientelae, pp. 185 ff., 299 ff.

(45) C.A.H., IX, pp. 70-1, 78-80; Scullard, 1970, pp. 35, 37-8, and n. 36 p. 396.

ذكره من أن جايوس عارض مشروع قانون بنّوس الذي صدر في عام ١٢٦ ق.م. وقضى بطرد الحلفاء من روما . ومن أن جايوس أيد مشروع القانون الذي تقدم به فلاقوس في عام ١٢٥ ق. م. لتحرير الحلفاء، ومن أن جايوس كان أحد المواطنين الرومان الذين حوكموا في عام ١٢٤ ق . م . بتهمة تشجيع فرجلاي على الثورة . ولما كان جايوس يدرك أن عطفه على الحلفاء لم يفقده تأييد الجماهير بدليل انتخابه تريبوناً للعامة ، وأنه كان لا بد من حل مشكلة الحلفاء ، فإنه من الجائز أن يكون ازدياد شعبيته ازدياداً هائلاً نتيجة لاستصداره بعض ما ذكرناه من القوانين التي جنى منها الشعب ثماراً هنية قد شجعه على معالجة مشكلة الحلفاء دون إبطاء . بيد أنه لما كان جايوس يتوخى في خلال تريبونيته الأولى أخذ الأمور بهوادة على نحو ما ذكرنا ، وكان يدرك أن مشكلة الحلفاء مشكلة عويصة وأن مشروع فلاقوس الفضفاض مُني بالفشل في عام ١٢٥ ق . م . ، فإنه فيما يبدو قرر أن يعالج هذه المشكلة على مراحل . وإزاء ذلك نرجح أنه تقدم في خلال تريبونيته الأولى بمشروع قانون متواضع (Lex de Sociis nomine Latino) يزيل مظلمة الحلفاء اللاتين فقط بمنحهم حقوق المواطنة الرومانية كاملة [٤٦] . ولعل أن جايوس كان يعتقد أن النجاح سيحالف مثل هذا المشروع المتواضع ، وذلك ظناً منه أن هذا المشروع لم يكن ثورياً أكثر من التشريعات التي سبق إصدارها في القرن الثالث وفي النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ومُنحت بمقتضاها الحقوق الرومانية كاملة لمواطني بعض المدن الذين كانوا لا يتمتعون إلا بجزء من هذه الحقوق ، وأملاً في أن تكون ثورة فرجلاي قد أبرزت الخطر الكامن في ترك مظالم الحلفاء اللاتين دون علاج وأقنعت مواطنيه بضرورة تلافي ذلك . وإذا كنا نعرف أن جايوس لم يفلح في استصدار قانون بهذا المشروع ، فإننا لا نستطيع أن نتبين من مصادرنا إذا كانت جمعية القبائل قد رفضته أو إذا كان ما لمسه جايوس من عدم تهيؤ الجو لإقرار المشروع قد دفعه الى سحبه

(46) Cf. App., B.C., I, 23; Plut., G. Gracch., VIII.

قبل التصويت عليه انتظاراً لفرصة مواتية للقيام بمحاولة أخرى في هذا الصدد .

وعندما طفحت كأس السناتو بنشاط جايوس عمل على تقويض نفوذه بالطريقة نفسها التي اكتسب بها جايوس هذا النفوذ . ذلك أن السناتو حرض تريبون العامة ليفيوس دروسوس — أحد زملاء جايوس في تريبونيته الثانية — على أن يتقدم إلى جمعية القبائل بعدد من المشروعات الخلابة التي كان هدفها الأساسي إيهام الجماهير بأن السناتو لم يكن أقل حباً في الإصلاح وحدباً على الجماهير من جايوس ، وبأن هناك ترابنة آخرين يستطيعون أن يبزوا جايوس تفانياً في خدمة الجماهير دون إغفال أسوأ مظالم الحلفاء اللاتين . وسرعان ما وقعت الجماهير في حبائل هذه المغالطة فأقرت هذه المشروعات وأصبحت قوانين (Leges Liviae) [٤٧] ، وأخذت الجماهـير تنفض من حول جايوس . فقد قضى أحد قوانين ليفيوس دروسوس بإنشاء اثنتي عشرة مستعمرة تتألف كل منها من ٣٠٠٠ مستعمر دون أن يُشترط توافر نصاب مالي لدى أي واحد من المستعمرين أو أن يدفع أحد منهم أيجاراً عن الإقطاع الذي يمنحه . وقضى قانون آخر بأن يُعفى من دفع الإيجار كل الذين منحوا إقطاعات منذ عام ١٣٣ ق . م . ومن الواضح أن الهدف من هذين القانونين كان إبراز الفارق في العطف على الجماهير بين دروسوس وبين الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس ، لأنه في هذا الوقت لم يكن جايوس قد أنشأ فعلاً إلا مستعمرتين اثنتين فقط وهما مستعمرتا نبتونيا وميرفا ، واشتُرط توافر نصاب معين لدى فريق من الذين اختيروا لإنشاء هاتين المستعمرتين . وفضلاً عن ذلك فإنه منذ توزيع الإقطاعات في عام ١٣٣ ق . م . كان تيبريوس وكذلك جايوس فيما يبدو يشترطان أن يدفع أرباب الإقطاعات إيجاراً للدولة عن إقطاعاتهم . وقضى قانون ثالث بعدم جلد الحلفاء اللاتين ، وذلك للإيهام بأن هذا الإجراء وحده كان كفيلاً بحماية اللاتين من طغيان الحكام الرومان وتبعاً لذلك كافياً لاسترضائهم بإزالة أسوأ مظالمهم دون حاجة الى الذهاب في

(47) App., B.C. I, 23; 35; Plut., G. Gracch., IX.

السخاء معهم الى حد منحهم الحقوق الرومانية كاملة لإشراكهم مع المواطنين الرومان في التمتع بمزايا هذه الحقوق. وهكذا ظهر دروسوس في ثوب مصلح أكثر إشفاقاً على فقراء المواطنين ورعاية لصوالحهم من الأخوين جراكوس. ولكي يمعن دروسوس في إبراز الفارق بينه وبين الأخوين جراكوس ويظهر بمظهر الرجل الذي لا يتطلع الى أي مجد أو كسب شخصي من وراء إصلاحات أكد أن الفضل فيها يرجع الى السناتو، أبى الاشتراك في اللجان التي شكلت للإشراف على تنفيذ قوانينه.

ويخيم ظلام كثيف حول مصير قوانين دروسوس. واذا كان تشكيل لجان لتنفيذ هذه القوانين لا يدع مجالاً للشك في إصدارها، فإنه ليس في مصادرنا ما ينم عن أن هذه اللجان فعلت شيئاً [٤٨]. وهذه النتيجة السلبية تشير الى أن الهدف من إصدار هذه القوانين المعسولة لم يكن إلا إضعاف نفوذ جايوس وتقويض دعائم مكانته بين الجماهير؛ وتدل على أنه بعد تحقيق الهدف المنشود أهمل تنفيذ القوانين المعسولة. ومع تسليم الأستاذ «لاصت» (Hugh Last) بذلك يعود فلا يستبعد ان قانونين من قوانين دروسوس نُفذا فعلاً. ومرد ذلك إلى انه بعد أن يروي صالوستيوس [٤٩] في سياق حديثه عن حرب يوجورتا أن أحد رجال القوات الرومانية وكان يدعى توربيليوس (Turpilius) حوكم أمام مجلس عسكري قضى بجلده وإعدامه، ويعقب صالوستيوس على ذلك بعبارة «nam is civis ex Latio erat». وهذه العبارة مشكوك في صحتها، وترجمتها الحرفية إما «لأنه (توربيليوس) كان مواطناً لاتينياً» وإما «لأنه لم يكن إلا مواطناً لاتينياً». وفي رأي الأستاذ لاصت أنه اذا كانت هذه العبارة صحيحة فإنها تنطوي على إشارة الى قانون دروسوس الخاص بإعفاء اللاتين من الجلد وتدل على تمتع اللاتين عندئذ بهذا الحق الذي منحوه بمقتضى أحد قوانين دروسوس. ومعنى ذلك عند

(48) C.A.H., IX, p. 72; Scullard, 1970, p. 37, and n. 33.
(49) Sallust., , B. Jug., LXIX, 4.

الأستاذ لاصت أنه مع التسليم بأن القانون الخاص بالمستعمرات لم يُنفذ فإن القانون الخاص باللاتين نُفذ وهذا يسمح بالافتراض بأن القانون الخاص بالإعفاء من دفع إيجار عن الإقطاعات قد نُفذ أيضاً. ونحن نرى انه اذا صحت فعلاً هذه العبارة فإنها لا تنطوي على إشارة الى قانون دروسوس بل تبين أن سبب صدور ذلك الحكم هو أن توربيليوس لم يكن مواطناً رومانياً وانما مواطن لاتيني. واذا سلمنا جدلاً بأنها تنطوي على إشارة الى قانون دروسوس فإنها لا تدل على تمتع اللاتين بالحق الذي منحوه بمقتضى هذا القانون بدليل أنه حُكم على توربيليوس بالجلد والإعدام.

وفي رأي آخر [٥٠] أن عبارة civis ex Latio ومعناها الحرفي « مواطن من لاتيوم » لا تستتبع حتماً أن توربيليوس كان مواطناً لاتينياً وانما يمكن أن تعني مواطناً رومانياً أصله من لاتيوم أو قدم من لاتيوم. وهذا رأي يصعب قبوله لأن عقوبتي الجلد والإعدام كان لا يجوز تنفيذهما في مواطن روماني دون منحه حق الاستئناف أمام الشعب. وعلى كل حال فإن صاحب هذا الرأي يسلم بأن قانون دروسوس الخاص بإعفاء اللاتين من الجلد لم ينفذ.

ولعل أن يكون جايوس قد رد على حركة السناتو ودروسوس بأن حفز روبريوس على استصدار القانون الخاص بإنشاء مستعمرة يونونيا، وأقيليوس على استصدار القانون الخاص بتعديل تشكيل هيئات محلفي محكمة استرداد الأموال المبتزة، وذلك ليدعم مركزه بين العامة والفرسان قبل أن يقوم بمحاولته الثانية لمعالجة مشكلة الحلفاء. وعلى كل حال فإنه من الجائز أن يكون جايوس وقد أحس في أعقاب صدور قوانين دروسوس أنه قد لا يستطيع ضمان الفوز بالتريبونية عاماً بعد عام بحيث يمكنه معالجة مشكلة الحلفاء علاجاً مرحلياً، لم يكن أمامه إلا أحد أمرين إما أن يسقط هذه المشكلة من برنامجه وإما أن يحاول علاجها دفعة واحدة. ولما كان بقاء هذه المشكلة

(50) E. Badian, Foreign Clientelae, pp. 190, 196.

يتهدد كيان الدولة ويتنافى مع مبادىء جايوس على حين أن حلها كان أمنية عزيزة عليه ، فإنه قرر أن يطرح الحيطة ظهرياً مغامراً بكل شيء في سبيل حل هذه المشكلة دفعة واحدة. وتبعاً لذلك أخذ جايوس يدعو الى مشروع قانون نعرف اسمه [٥١] (Lex de Sociis et nomine Latino) ولكنه يتعذر علينا التأكد من حقيقة فحواه. ذلك أن فلّيوس [٥٢] (Velleius) يحدثنا بأن جايوس كان يريد منح حقوق المواطنة لجميع الإيطاليين حتى جبال الألب. ورواية فلّيوس تجد سنداً في إحدى [٥٣] فقرات بلوتارخ حيث يحدثنا بأن جايوس أراد منح الإيطاليين جميعاً ذات حق الانتخاب الذي كان المواطنون الرومان يتمتعون به. غير أن بلوتارخ يعود بعد ذلك فيقول في فقرة أخرى [٥٤] إن جايوس أغضب الرومان لأنه اقترح مساواة اللاتين بالرومان في انتخاب الحكام. ويروي أبيانوس [٥٥] أن جايوس أراد منح اللاتين حقوق المواطنة كاملة ومنح الحلفاء الإيطاليين حق الانتخاب. وإذا كان لا يمكن أخذ الشق الثاني من رواية أبيانوس مأخذ الجد لأن حق الانتخاب كان جزءاً أساسياً من الحقوق العامة الرومانية وهي التي كانت لا تمنح إلا للمتمتعين بالحقوق الخاصة ، فإن هذا الشق وإن كان يدل على عدم فهم أبيانوس النظم الرومانية إلا أنه يدل على أن مشروع قانون جايوس كان أقل سخاء للإيطاليين منه للاتين ، بمعنى أن يكون جايوس قد اقترح منح اللاتين حقوق المواطنة الرومانية كاملة ومنح الإيطاليين الحقوق اللاتينية (Ius Latii) أو بعبارة أخرى الحقوق الخاصة وهي التي كانت لا تشمل حقي الانتخاب وتولي الوظائف العامة. ويميل كثيرون من الباحثين الى الأخذ بهذا الرأي ، ولا سيما أنه يجد سنداً في العبارات التي اقتطفها مصدر

---

(51) Cic., Brut., 26, 99.
(52) Velleius, II, 6, 2.
(53) Plut., G. Gracch., V.
(54) Plut., G. Gracch., VIII.
(55) App., B. C., I, 23.

قديم متأخر[٥٦] من الخطبة التي استثار بها القنصل فانّيوس (Fannius) عواطف العامة ضد مشروع جايوس . وكان مما جاء في هذه الخطبة سؤال القنصل للجماهير عما يتبقى لهم من أماكن في المباريات والحفلات العامة بعد منح حقوق المواطنة للاتين . ولا يبعد أن هذه الخطبة هي ذات خطبة فانيوس التي يحدثنا شيشرون بأن القنصل ألقاها مهاجماً فيها جايوس جراكوس بمناسبة مشروع قانونه الخاص بالحلفاء الإيطاليين واللاتين[٥٧] .

واذا أخذنا بأكثر الآراء اعتدالاً وهو القائل بأن مشروع جايوس لم يقترح إلا منح اللاتين حقوق المواطنة الرومانية كاملة ومنح الإيطاليين حقوق المواطنة الخاصة ، فإن معنى ذلك أن جايوس وقد أدرك استحالة مساواة الحلفاء جميعاً بالرومان اضطر الى الاكتفاء بأن يحاول صبغ إيطاليا حتى جبال الألب بصبغة رومانية من ناحية القانون الخاص فضلاً عن تحرير المدن اللاتينية من القيود التي أثارت حقداً دفيناً بينها وبين الرومان وعطلت تجارتها وهددت ملكية أراضيها .

ويبدو أن جايوس في أثناء دعايته لمشروع قانونه كان ينادي بحق الأفراد في حماية أنفسهم أكثر من حقهم في التمتع بالسلطة . ولم تكن الحماية التي ينادي بها حماية من الدولة الرومانية وانما حماية من عسف النبلاء وجورهم[٥٨] . ويلوح أن جايوس كان ينادي بذلك ليضفي على مشروعه طابعاً ديمقراطياً ليكتسب عطف الجماهير الذين ذاقوا آلاماً مريرة من طغيان النبلاء فيروا في الحلفاء إخواناً لهم في الكرب والبلاء ويهبوا لتأييد المشروع وإقراره .

وبرغم أن قوانين دروسوس الجذابة كانت قد أضعفت مكانة جايوس الشعبية ، فإنه ربما كانت تُرجى فائدة من وراء استصراخه عواطف الجماهير لو لم يستثر أحط النزعات فيهم أعداء المشروع بخطب نارية نفذت الى قلوبهم

(56) Julius Victor, 6, 4; Malcovanti, Or. Rom. Frg., I, 2nd ed., p. 144.
(57) Cic., Brut., 26, 99.
(58) Cf. Gell, X, 3.

لأنها خاطبت أنانيتهم مهولة الخسائر التي سيتكبدونها عندما يشاركهم الحلفاء التمتع بمزايا الحقوق الرومانية . ويمكن أن نتصور الأثر المدمر لهذه الخطب عندما نتبين أن ألد أعداء مشروع جايوس كان صديقاً مقرباً اليه وهو القنصل فانيوس الذي يرجع الفضل في فوزه بقنصلية عام ١٢٢ ق.م. الى الدعاية الانتخابية التي قام بها جايوس لمساعدته .

والواقع أنه باستثناء النابهين المتحررين في تفكيرهم ، البعيدي النظر في تقديرهم ، كان أغلب الرومان من مختلفي الطبقات يناهضون مشروع جايوس ، اعتقاداً بأن منح اللاتين الحقوق العامة ومنح الإيطاليين الحقوق الخاصة بمقتضى هذا المشروع لا بد من أن يؤدي الى منح الإيطاليين أيضاً الحقوق العامة فيتحرر الحلفاء جميعاً ، وبأن تحقيق ذلك يتهدد صوالح هذه الطبقات . ذلك أن أعضاء السناتو وعلى رأسهم النبلاء المتطرفون ، وهم الذين لم يؤيدوا في عام ١٢٩ حركة سقيبيو المناصرة للحلفاء حباً في الحلفاء أو عطفاً عليهم وانما كراهية في قانون الأراضي قد اتضح موقفهم بجلاء في عامي ١٢٦ و ١٢٥ ق.م. ، وكانوا لا يريدون تحرير الحلفاء خشية أن يؤدي ذلك الى تقوية ساعد المعارضة وتبعاً لذلك تهديد مكانتهم المرموقة . وكان دهماء روما أيضاً يكرهون تحرير الحلفاء خوفاً من أن يقلل ذلك فرص تمتعهم بامتيازات حقوق المواطنة الرومانية . وكان الفرسان كذلك لا يميلون الى تحرير الحلفاء خوفاً من منافستهم ومن احتمال انضمام هؤلاء الناخبين الجدد الى دهماء روما في تأييد مشروعات قد تضر بصوالح الطبقة الرأسمالية .

وعندما توافدت على روما أعداد كبيرة من الحلفاء اللاتين والإيطاليين ليشرحوا بأنفسهم المظالم التي كانوا يرزحون تحت عبئها أملاً في أن يستدروا بذلك عطف جماهير الرومان عليهم فيؤيدوا مشروع قانون جايوس ، خشي السناتو مما قد يكون لهذه الدعاية من أثر في نتيجة التصويت على مشروع القانون ، ولذلك أصدر تعليماته الى القنصلين باتخاذ ما يلزم إجراء يكفل بأن يكون كل الغرباء الذين لا يملكون قانوناً حق التصويت على بعد خمسة

أميال من روما عند نظر مشروع القانون أمام جمعية القبائل [٥٩] . وإذ شرع القنصل فانّيوس على الفور في تنفيذ تعليمات السناتو ، قابل جايوس هذا الإجراء باصدار بيان حمل فيه على فانّيوس حملة شعواء ووعد بأن يحمي بما له من سلطة كل من أراد من الحلفاء البقاء في روما [٦٠] . ومع ذلك لا بد من أن جايوس كان يدرك استحالة تنفيذ هذا الوعد لأن تريبون العامة كان لا يستطيع حماية أحد إلا بوجوده الشخصي بجواره ، وغني عن البيان أنه كان لا يتسنى لفرد واحد أن يتواجد بجوار أعداد كبيرة غصت بها مدينة كبيرة مثل روما .

وإذا كنا لا نعرف عن يقين هل صادر ليفيوس دروسوس المشروع [٦١] عند عرضه على جمعية القبائل دون أن يخشى في مثل هذه الظروف مصيراً مثل مصير أوقتافيوس زميل تيبريوس جراكوس ، أو هل رفضت جمعية القبائل الموافقة على المشروع ، فإننا نعرف على الأقل أن جايوس لم يوفق في استصدار قانون بهذا المشروع وأنه لم يجرؤ على محاولة التقدم به مرة أخرى . وإن دل هذا على شيء فهو يدل على معارضة الرومان بوجه عام لتحرير الحلفاء وكذلك على مدى تقلص شعبية جايوس .

حقاً إنه كان في وسع أي مفكر سياسي روماني أن يقدر أن مسألة تحرير الحلفاء كانت كفيلة بهدم أي زعيم يتبناها . بيد أن جايوس لم يكن زعيماً عادياً يتمتع بمكانة عادية ، ولعل أنه وقد أظهر دواماً عطفه على الحلفاء دون أن يفقده هذا العطف محبة الجماهير رأى في تقديره أن هذه المحبة كفيلة بإقناعهم بقبول هذا المشروع الكريه اليهم . واذا كنا لا نستبعد أن رجلاً ذكياً مثل جايوس لا بد من أن يكون قد استشعر أحياناً أنه بإصراره على حل مشكلة الحلفاء كان لا يجازف بمستقبله السياسي فحسب بل بحياته وبمصير

(59) App., B.C., I, 23.
(60) Plut., G. Gracch., XII.
(61) Cf. App., B.C., I, 23.

تشريعاته وببقاء الجبهة التي كونها ، فإنه يخيل الينا أن مُثله العليا جعلته على مر الأيام يرى أن كل تضحية تهون في سبيل هدف لم يعد يعتبره مجرد تحطيم قيد ثقيل يزيل مظالم حقيقية وإنما آخر ركن في عمل مصلح يستهدف وحدة إيطاليا السياسية ودعم الحكم الشعبي . وفشل جايوس في تحقيق هدفه النبيل إذ يدينه بسوء التقدير لأنه لم يدرك مدى تفكير غالبية مواطنيه ولا مدى تحكم الصوالح الشخصية في نفوسهم ، يدمغ هؤلاء المواطنين بضيق الأفق وقصر النظر والأنانية العمياء .

رابعاً – فشل جايوس جراكوس في الانتخابات

في وقت غير معروف على وجه التحديد في خلال عام ١٢٢ ق.م.ذهب جايوس الى إفريقيا حيث قضى سبعين يوماً في الإشراف على إنشاء مستعمرة يونونيا (٦٢) . ولما كان جايوس في روما في مستهل عام ١٢٢ ق.م. أي في أوائل تريبونيته الثانية – حين عمل دروسوس زميله في هذه التريبونية على هدم نفوذه مما حدا بجايوس الى تدبير استصدار قانون إنشاء مستعمرة يونونيا وقانون اختيار محلفي محكمة استرداد الأموال المبتزة من الفرسان قبل محاولته الثانية لحل مشكلة الحلفاء – وكان جايوس في روما أيضاً في صيف عام ١٢٢ ق.م. عند إجراء الانتخابات للعام التالي ، فإننا نرجح أن غيبة جايوس عن عن روما كانت في ربيع عام ١٢٢ ق.م. عقب فشل محاولته الثانية لحل مشكلة الحلفاء ، على أمل أن يؤدي نشاطه في إنشاء مستعمرة يونونيا الى استرجاع ما فقده من شعبية نتيجة لتحمسه الشديد لتحرير الحلفاء .

وقد يؤيد ما نذهب اليه أن خوف خصوم جايوس مما قد يترتب على نجاحه في إنشاء مستعمرة يونونيا من استعادة مكانته حفزهم على أن ينشروا بين الجماهير الساذجة أسوأ الشائعات عن المستعمرة الجديدة . ذلك أنهم

(62) App., B.C., I, 24; Plut., G. Gracch., X-XI.

زعموا أن السماء في غضبها على هذه المستعمرة أرسلت ريحاً صرصراً عاتية اقتلعت علماً من يدي حامله وقذفت بالضحايا من فوق مذابحها الى مسافات بعيدة تقع خارج السياج المقدس (pomerium) واقتلعت أحجار الحدود فالتقطتها الذئاب في أفواهها ومضت بها كما لو كانت عظام خراف . ولم يكن من شأن كثرة ترديد هذه الأراجيف في أثناء غياب جايوس وأصدق أنصاره فلاقوس (أحد قنصلي عام ١٢٥ ق.م . الذي لم ير غضاضة في تولي التريبونية في عام ١٢٢ ق.م. لشد ساعد جايوس) إلا اقتناع الجماهير بعدم رضاء الآلهة عن إنشاء المستعمرة الجديدة . ولم يقف خصوم جايوس عند هذا الحد بل وجهوا اليه تهمتين(٦٣) تنمان عن خروجه على أحكام قانون إنشاء هذه المستعمرة . وإحدى هاتين التهمتين هي أن جايوس تجاوز عدد المستعمرين الذي حدده قانون إنشاء المستعمرة واختار بدلاً من ذلك ٦٠٠٠ مستعمر . والتهمة الأخرى هي أنه اختار هؤلاء المستعمرين من كل أنحاء إيطاليا ، أي أنه لم يقصر المستعمرين على المواطنين الرومان وإنما اختار أيضاً مستعمرين من الحلفاء . وإذا كان قد أريد بهذه التهمة الإيحاء للجماهير بأن جايوس عمد الى تحرير فئة من الإيطاليين عن طريق ملتو وهو إشراكهم في إنشاء مستعمرة رومانية مما كان يستتبع تمتعهم بحقوق المواطنة كاملة ، فإن هذه التهمة توحي كذلك بأمرين : وأحدهما هو أن إنشاء هذه المستعمرة جاء في أعقاب فشل مشروع جايوس الخاص باللاتين والإيطاليين . والأمر الآخر هو أن خصوم جايوس أرادوا كذلك بهذه التهمة أن يدخلوا في روع الجماهير أن مثل هذا الزعيم غير جدير بالثقة لأنه اذا كان بعد فشله في تحرير الحلفاء صراحة قد حاول تحقيق ذلك جزئياً بطريق ملتو فإنه كان لا يمكن الاطمئنان الى عدم التجائه الى شتى الأساليب لتحقيق هدفه .

وبمثل هذه الأساليب الممجوجة نجح خصوم جايوس في ان يحرموه جني ثمار الجهود الأمينة التي أنفقها في إنشاء مستعمرة يونونيا . ولا أدل على نجاح

(63) Cf. App., B.C., I, 24.

خصوم جايوس من أنه عندما رشح نفسه في صيف عام ١٢٢ ق.م . ليتولى التريبونية مرة ثالثة في عام ١٢١ فشل في الانتخابات . ومما له دلالته أنه حين فشل جايوس في الانتخابات كان أحد اللذين انتخبا لتولي القنصلية في عام ١٢١ هو لوقيوس أوبيميوس[٦٤] الذي أخمد ثورة فرجلاي دون هوادة وكان من أشد خصوم مشروع قانون جايوس الخاص باللاتين والإيطاليين ، مما يوحي إيحاء قوياً بأن السبب الرئيسي في فشل جايوس في الانتخابات كان تبنيه مسألة تحرير الحلفاء . وإزاء ذلك وإزاء ما يدل عليه هذا الفشل من ضياع نفوذ جايوس نستبعد ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن يكون جايوس قد اجترأ بعد الانتخابات على القيام بمحاولته الثانية سالفة الذكر لحل مشكلة الحلفاء . وعلى كل حال فإنه يصعب أن نتبين من مصادرنا ولو بصيصاً من الضوء على نشاط جايوس في الفترة الواقعة بين الانتخابات وانتهاء مدة تريبونيته في العاشر من ديسمبر عام ١٢٢ ق.م. عندما تولى ترابنة العامة الجدد مهام عملهم وأصبح جايوس يومئذ مواطناً عادياً وإن كان لا يزال عضواً في اللجنة الثلاثية الخاصة بتطبيق قانون الأراضي .

خامساً ــ مصرع جايوس جراكوس ، « قرار السناتو النهائي »

وفي مستهل عام ١٢١ ق.م. أوعز خصوم جايوس الى أحد ترابنة العامة الجدد ــ وكان يدعى مينوقيوس روفوس (Minucius Rufus) بأن يتقدم الى جمعية القبائل بمشروع قانون لإلغاء قانون روبريوس الخاص بإنشاء مستعمرة يونونيا[٦٥] . وقد كان طبيعياً أن يبذل جايوس قصارى جهده

(64) Oros., V, 12; Plut., G. Gracch., XI, XII.

(٦٥) عن الأحداث التي بدأت على هذا النحو وانتهت بمأساة أليمة ، أنظر :
Oros., V, 12; App., B.C., I, 24-26; Plut., G. Gracch., XVII-XVIII; [Victor] de Vir. Ill., 65; Festus, 310 L (Or. Rom. Frg., 2nd ed. p. 193); Liv., Ep., 61; Diod., XXXIV, 28 a; Velleius, II, 6, 5; Cic., Phili., VIII, 4, 14; in Cat., I, 2, 4; Sallust., B. Jug., XVI, 2; XXXI, 7; Pln., N.H., XXXIII, 3, 48; Heitland, II, pp. 317-20; C.A.H. IX, pp. 82 ff.; Scullard, 1970, p. 38.

في مناهضة هذا المشروع ، ولكنه كان من الحمق أن يستمع لنصيحة المتهورين من بطانته ويكوّن لنفسه حرساً خاصاً من أكثر أنصاره وفاء له . ذلك أنه لم يلبث أن وقع بين أنصار جايوس وخصومه شجار قُتل في أثنائه رجل يدعى أنتولّيوس (Antyllius) كان أحد مساعدي القنصل أوبيميوس . وقد استغل خصوم جايوس هذا الحادث العابر لإثارة الرأي العام ضده للقضاء عليه وعلى أنصاره قضاء مبرماً . ذلك أن أولئك الخصوم نظموا لجثة القتيل موكباً طاف بأرجاء روما ومر بالسناتو حيث حمل أوبيميوس على جايوس وأعوانه حملة شعواء . وقد اعتبر السناتو هذا الحادث دليلاً على نية مبيتة للقيام بفتنة مسلحة ، وتبعاً لذلك أصدر للقنصل أوبيميوس قراراً لحماية الدولة . وهذه هي أول مرة نعرف عن يقين أن السناتو أصدر فيها مثل هذا القرار وكان يسمى « قرار السناتو الخاص بضرورة الدفاع عن الدولة (senatus consultum de republica defendenda) الى أن أصبح يعرف عادة باسم « قرار السناتو النهائي » (senatus consultum ultimum) منذ أطلق يوليوس قيصر عليه هذه التسمية في كتابه عن الحروب الأهلية [٦٦] .

ولما كانت السُنّة التي اتبعها السناتو في هذه المناسبة ودأب على استعمالها في مناسبات أخرى سُنّة بالغة الأهمية بسبب ما ترتب عليها من عواقب وخيمة وما أثارته من جدل عنيف طوال الفترة الباقية من عهد النظام الجمهوري الروماني ، فإنه يجدر بنا الوقوف هنيهة لمناقشة هذه المسألة . وأما عن نص القرار الذي أصدره السناتو في هذه المناسبة فإن شيشرون عند استشهاده بهذا القرار في خطبتين من خطبه المشهورة يمدنا بصيغتين لهذا القرار ، وإحداهما هي : « بناء على ما عرضه القنصل لوقيوس أوبيميوس عن حالة الدولة قرر أعضاء السناتو فيما يخص هذه المسألة أنه يجب على القنصل لوقيوس أوبيميوس أن يحمي الدولة »[٦٧] .

(66) Caes., B.C., I, 5, 3
(67) Cic., Philip., VIII, 4, 4.

(Quod L. Opimius consul verba fecit de re publica de ea re ita consuerunt uti L. Opimium consul rem publicam defenderet.)

والصيغة الأخرى هي : « قرر السناتو أن يعني القنصل لوقيوس أوبيميوس بألا يصيب الدولة أي مكروه »(٦٨) .

(Decrevit quondam senatus, ut L. Opimus consul videret ne quid res publica detrementi caperet.)

وعند حديث صالوستيوس عن القرار الذي اتخذه السناتو بمناسبة الثورة المسلحة التي قام بها قاتيلينا (Catilina) في عام ٦٣ ق.م. يعطينا الصيغة التالية لنص قرار السناتو يومئذ : « قرر السناتو أن يتخذ القنصلان ما يلزم من إجراء كيلا يصيب الدولة أي مكروه »(٦٩) .

(...senatus decrevit darent operam consules ne quid res pubilica detrimenti caperet.)

وفي سياق حديث يوليوس قيصر عن الخلاف الذي نشب بينه وبين السناتو يروي كيف أن السناتو رفض إنهاء الخلاف ودياً ولجأ الى إصدار « قراره النهائي » وأن السناتو كان لا يلجأ الى اتخاذ مثل هذا القرار في الماضي إلا حين كانت روما على وشك الدمار وكان الناس جميعاً قد فقدوا الأمل في إنقاذها من جرأة الأشرار ، وأن القرار الذي اتخذه السناتو قبل نشوب الحرب الأهلية كان نصه : « ... أن يتخذ القنصلان والبرايتورس وترابنة العامة وكل القناصل السابقين الموجودين بالقرب من المدينة ما يلزم من إجراء لحماية الدولة من أن يصيبها أي مكروه »(٧٠) .

(...dent operam consules, prnetores, tribuni plebis quique pro consulibus sint ad urbem ne quid res publica detrimenti capiat.)

ويتبين من دراسة هذه الصيغ ثلاثة أمور : وأحدها هو أنه اذا كانت الصيغة الأولى التي أوردها شيشرون تختلف الى حد ما عن الصيغة الثانية على

---

(68) Cic., in Cat., I, 2, 4.
(69) Sallus., B. Jug., XXIX, 2.
(69) Sallust., B. Jug., XXIX, 2.

حين أن هذه الصيغة تقرب من الصيغتين اللتين أوردهما على التعاقب صالوستيوس ويوليوس قيصر ، فإن مضمون هذه الصيغ الأربع جميعاً متماثل وهو ضرورة دفع الأذى عن الدولة . والأمر الثاني هو أنه في أول الأمر كان القرار يوجه الى أحد القنصلين فقط مثل القرار الذي صدر ضد جايوس جراكوس ثم حدث تطور فأصبح القرار يوجه الى القنصلين معاً مثل القرار الذي صدر ضد قاتيلينا ، وبعد ذلك حدث تطور آخر فأصبح القرار يوجه الى القنصلين والبرايتورس وترابنة العامة والقناصل السابقين . وتدل عبارات قيصر على أن هذا التطور الأخير كان قد أصبح مألوفاً قبل القرار الذي صدر ضده .

والأمر الثالث هو أن هذه الصيغ جميعاً صيغ غامضة مبهمة لا تنص صراحة على تعطيل الدستور أو إباحة إغفال أي تشريع من التشريعات القائمة ، غير أن هذه الصيغ تنم عن إحساس السناتو بأن سلامة الدولة معرضة للخطر وتستحث القنصل أو القنصلين وغيرهما على درء الخطر بكل وسيلة ممكنة ، كما أنها تنطوي ضمناً على تأييد أي إجراء تقتضيه الظروف . وهنا يجب أن نلاحظ حقيقتين : وإحداهما هي أن المحافظة على استتباب الأمن والنظام في الدولة كانت أهم واجبات القناصل بمقتضى سلطتهم التنفيذية (imperius) المخولة لهم ، ولكن في نطاق ما رسمه الدستور . والحقيقة الأخرى هي أن السناتو لم يكن دستورياً إلا هيئة استشارية لا تملك أكثر من أن تقترح على الجمعية الشعبية المختصة إصدار تشريعات جديدة أو إلغاء تشريعات قائمة ، وتبعاً لذلك فإنه كان لا يحق للسناتو أن يمنح ما لا يملك ، أي أنه لم يكن من حق السناتو تعطيل الدستور أو تخويل القناصل سلطات تجاوز الحدود التي وضعتها التشريعات لمدى استخدام سلطتهم التنفيذية . وهذه الحدود قد فرضتها التشريعات المتعاقبة التي منعت القناصل والبرايتورس الحاليين والسابقين من استخدام السلطة العسكرية داخل روما وكفلت حق المواطنين في استئناف أحكام الاعدام أمام الشعب ، وذلك فضلاً عن التشريع الذي

أصدره جايوس مؤخراً وقضى بألا يحق إصدار حكم يمس حياة أي مواطن روماني إلا من محكمة أمر الشعب بتشكيلها كما قضى بنفي أي حاكم ينفذ عقوبة الإعدام في أي مواطن روماني دون صدور حكم من محكمة تملك هذا الحق . ومعنى ذلك أنه سواء من الناحية الدستورية أم من الناحية النظرية البحت لم يكن يجوز سواء لقرار السناتو النهائي أن ينطوي على أكثر من التنبيه الى قيام حالة خطيرة تقتضي المواجهة بهمة ونشاط ، أم للقناصل أن يستمدوا من هذا القرار تفويضاً بممارسة سلطات أوسع مما سمح به الدستور .

بيد أنه من الناحية العملية، لا جدال في أن الضرورات تبيح المحظورات ولا في أنه كان من حق الدولة الرومانية أن تحمي نفسها من المخاطر بكل وسيلة ممكنة تقتضيها الظروف . ومعنى ذلك أنه اذا تفاقمت أزمة من الأزمات بحيث أصبح من المتعذر معالجتها بالوسائل العادية ، فإنه لم يكن هناك مفر من قيام شخص مسئول أو هيئة مسئولة بالتنبيه الى قيام حالة الخطر ليكون ذلك من ناحية إنذاراً للذين يتهددون سلامة الدولة بأنه اذا فشلت الوسائل العادية لوضع الأمور في نصابها فإنه ستستخدم كل وسيلة أخرى ، ومن ناحية أخرى حافزاً للقناصل على عدم ادخار أي وسع لدرء الخطر عن الدولة وكذلك مبرراً لاتخاذهم الإجراء الضروري لوضع الأمور في نصابها وإن اقتضى ذلك تجاوز الحدود الدستورية لسلطتهم ، بمعنى الالتزام بألا يُمارس من الإجراءات غير الدستورية إلا القدر الذي يكفل القضاء على الخطر ثم تصريف الأمور بالأساليب الدستورية .

ولنر الآن كيف نفذ أوبيميوس القرار النهائي للسناتو . لقد كان أول ما فعله أوبيميوس هو أنه دعا أعضاء السناتو وأتباعهم وعبيدهم الى تسليح أنفسهم . وفي وجه الخطر الذي انطوى عليه هذا التهديد انقسم رأي الجانب الآخر أول الأمر . إذ أن فلاقوس كان يرى مقابلة القوة بمثلها على حين أن جايوس كان يفضل عندئذ فيما يلوح الاستسلام والعزوف عن استخدام القوة . بيد أنه عندما دعا أوبيميوس هذين الزعيمين الى المثول أمام السناتو

وأدرك جايوس النتيجة المحتومة للاستجابة الى مثل هذه الدعوة ، نزل عند رأي فلاقوس ولم يلبث هذان الزعيمان وأنصارهما أن استولوا على تل أفنتينوس للاعتصام به . ومع ذلك فإنه قبل وقوع المحظور بُذلت محاولة أخيرة للتفاهم عن طريق ابن فلاقوس ، ولكنه إزاء رفض الزعيمين أن يضعا نفسيهما في قبضة القنصل والسناتو وإزاء إصرار القنصل على ألا يتفاوض إلا مع الزعيمين الكبيرين نفسيهما ضاع كل أمل في فض النزاع سلمياً . فقد اقتحم أوبيميوس تل أفنتينوس بالقوة التي أعدها ، وفي أثناء الاشتباك الذي وقع لقي فلاقوس وابنه وجايوس وكثيرون غيرهم مصرعهم وأُلقي القبض على كثيرين آخرين وأودعوا السجن . ولم يكتف أوبيميوس بذلك بعد أن قصم ظهر الفتنة بل إنه أمر بإعدام السجناء . وهكذا راح ضحية هذه التصرفات حوالي ٣٠٠٠ ، إذا صحت رواية بلوتارخ عن ذلك .

وبعد المذبحة وإلقاء جثث ضحاياها في نهر التيبر ، قام أوبيميوس بمراسيم دينية لتطهير المدينة من الدماء التي خضبتها وأعاد بناء معبد إلهة الوفاق (Concordia) وسجل عليه نقشاً نصه « معبد الوفاق من عمل أوبيميوس » ويحدثنا بلوتارخ بأنه ذات ليلة كتب مجهول تحت هذا النقش عبارة نصها « أقام الشقاق معبداً للوفاق »[٧١] .

وفي ضوء الاعتبارات العملية يجب أن يبنى الحكم على تصرفات أوبيميوس على ثلاثة أسس وهي : أولاً — هل بلغت الأزمة في حقيقة الأمر حد الخطورة الذي زعمه أوبيميوس وأثار مخاوف السناتو ؟ وثانياً — إذا كان ذلك صحيحاً هل التزم أوبيميوس بألا يمارس إلا القدر الضروري من الإجراءات غير الدستورية للقضاء على الخطر وبعد ذلك لجأ الى تصريف الأمور بالأساليب الدستورية ؟ وثالثاً — أكانت فعلاً تصرفات أوبيميوس موجهة الى الحفاظ على سلامة الدولة ؟[٧٢] .

---

(71) Plut., G. Gracch., XVII.
(72) C.A.H., IX, pp. 86-7.

اذا سلمنا جدلاً بأن إقدام جايوس على تكوين حرس خاص وقتل أنتوليوس مساعد أوبيميوس ثم قيام جايوس وفلاقوس وأنصارهما بالاعتصام بتل أفنتينوس ورفض هذين الزعيمين الاستجابة الى أمر القنصل بالمثول أمام السناتو أعمال يمكن اعتبارها بدايـــة لثورة مسلحة تتهدد سلامـــة الدولة وتقتضي مقابلة القوة بمثلها فإنه لا غبار على مسلك أوبيميوس في سفك دماء مواطنين رومان دون محاكمة لأن ذلك كان النتيجة الطبيعية لاستخدامه القوة في اقتحام تل أفنتينوس من أجل ضرورة القضاء على الثورة في مهدها ، وكذلك لا غبار على جمعية القبائل التي برأت أوبيميوس في عام ١٢٠ ق.م. من تهمة استخدام وسائل عنيفة غير دستورية في القضاء على ثورة مسلحة لم تكن هناك وسائل أخرى لإخمادها ، وذلك على أساس أن الثائرين بشهرهم السلاح في وجه الدولة أصبحوا تلقائياً أعداءها (hostes) وتبعاً لذلك فقدوا التمتع بحقوق المواطنين الدستورية .

ولو أن أوبيميوس وقف عند هذا الحد ثم قدم الذين أُلقي القبض عليهم للمحاكمة لربما أمكن القول بأن خطورة الموقف كانت تبرر تجاوز القنصل نطاق سلطته الدستورية، وبأن تصرفاته لم تكن موجهة إلا الى الحفاظ على سلامة الدولة . بيد أنه بعد اقتحام تل أفنتينوس وقتل زعماء الثورة ونفر من الثائرين وإلقاء القبض على عدد كبير منهم – أي بعد تبديد شمل الثائرين وقصم ظهر الثورة – أعدم أوبيميوس ذلك العدد الكبير من السجناء دون محاكمة ودون إتاحة الفرصة لهم لاستئناف حكم الإعدام أمام الشعب . وهذا إجراء عسفي غير دستوري لا يبرره بأي حال أنه مستمد من قرار السناتو النهائي ، لأنه إذا جاز أن الاعتبارات العملية كانت تبيح للسناتو أن يدعي لنفسه حق تخويل القناصل سلطات غير دستورية لمواجهة الخطر ، فإنه بعد انقضاء حالة الخطر لم يعد هناك أي مبرر على الإطلاق لتجاوز حدود الدستور : ولا ينهض دليلاً على سلامة هذا الإجراء أن جمعية القبائل برأت ساحة أوبيميوس . ذلك أن هذه الجمعية التي برأت أوبيميوس في عام ١٢٠ ق.م.

برغم أنه أعدم مواطنين رومان دون محاكمة ودون أي مبرر يخشى منه على سلامة الدولة بعد القضاء على الثورة ، سنراها تقرر في عام ٥٨ ق.م. نفي شيشرون لأنه حين كان قنصلاً وواجهته ظروف أشد خطورة أعـدم ـ بموافقة السناتو وبعد صدور قرار السناتو النهائي له ـ بضعة مواطنين ثبت عليهم تكوين مؤامرة واسعة النطاق بل ذهبوا في تآمرهم الى حد مفاتحة إحدى قبائل الغال لمساعدتهم على قلب نظام الحكم بقوة كبيرة مسلحة . وهذا التناقض العجيب في موقف جمعية القبائل إزاء أوبيميوس وإزاء شيشرون إن دل على شيء فهو يدل على مدى جهل العامة بالتشريعات والقواعـد الدستورية ومدى استعدادهم للوقوع فريسة سهلة لعوامل الخوف من البطش أو الإغراء بالوعود المعسولة ، أو بعبارة أخرى على أنه لا يجوز الاعتداد برأي جمعية القبائل في المسائل الدستورية .

والواقع ان إقدام أوبيميوس على إعدام السجناء إذ يدينه كما يدين جمعية القبائل التي برأته يدل على أن الهدف لم يكن مجرد الحفاظ على سلامة الدولة ، ويلقي الشك على مدى خطورة الأزمة ويوحي بأن أوبيميوس وأعضاء السناتو اتخذوا من حادث قتل أنتوليوس فرصة للتنكيل بخصومهم والقضاء عليهم قضاء مبرماً ، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن الاعتصام بتل أفنتينوس ورفض جايوس وفلاقوس تنفيذ أمر القنصل بالذهاب الى السناتو كانا تاليين لصدور قرار السناتو النهائي . ومعنى ذلك أنه عندما أصدر السناتو قراره النهائي لم يكن قد حدث إلا أمران : وأحدهما هو أن جايوس كوّن لنفسه حرساً خاصاً ، وهذا في حد ذاته لم يكن تصرفاً غير مشروع ، والأمر الآخر هو مقتل أنتوليوس ، ولم يكن ذلك أكثر من جريمة قتل عادية في شجار عابر . ولو أنه لم تتملك أوبيميوس وأعضاء السناتو رغبة جامحة في الانتقام من خصومهم وقطع دابرهم لما كلفهم إلا قدر يسير من الحكمة لتهدئة الحال ، ولما تفاقمت الأزمة على ذلك النحو الذي مر بنا .

وقد كان قرار جمعية القبائل بتبرئة أوبيميوس قراراً بالغ الخطورة لأنه

انطوى على الاعتراف صراحة بحق القناصل في تجاوز نطاق سلطتهم الدستورية استناداً على قرار غامض يصدره السناتو ، وكذلك الاعتراف ضمناً بحق السناتو في إصدار مثل هذا القرار كلما دعت الضرورة . وقد ترتبت على ذلك نتيجتان خطيرتان : وإحداهما هي أن تصرفات أوبيميوس أصبحت سابقة لتحرر سلطة القناصل التنفيذية من كل قيد على مدى استخدامها ، وتبعاً لذلك الضرب عرض الحائط بحق تمتع به المواطنون منذ أربع قرون تقريباً وهو حق الاستئناف (provocatio) وكذلك بتشريع جايوس الذي أريد به حماية المواطنين من محاكم السناتو غير العادية وجعل الشعب وحده هو صاحب الحق في إصدار أحكام تمس حياة المواطنين . والنتيجة الأخرى هي أن القرار الذي أصدره السناتو لأوبيميوس أصبح كذلك سابقة لقرارات مماثلة اتخذ منها السناتو وسيلة جديدة تخلف محاكمه غير العادية في الانتقام من خصومه . ومعنى ذلك أن قرار السناتو النهائي أصبح بمثابة إعلان للأحكام العرفية وأنه بمقتضى هذا القرار أصبحت تضفي على الحكام المكلفين بوضع الأمور في نصابها كل السلطات التي كانت في الماضي تمنح للدكتاتور وهو وحده الذي كانت تصرفاته معفاة من التعطيل بحق الترابنة في الاعتراض (intercessio) ويملك حق إعدام المواطنين دون محاكمة ودون استئناف[٧٣] .

ويدل على السلطات الهائلة التي اكتسبها قرار السناتو النهائي على هذا النحو ما يرويه صالوستيوس بصدد حديثه عن القرار النهائي الذي أصدره السناتو لشيشرون ضد قاتيلينا في عام ٦٣ ق.م. — أي بعد حوالي ستين عاماً من الأحداث التي نحن بصددها الآن — فهو يقول[٧٤] إنه « وفقاً لما جرى

(٧٣) أنظر :

C.A.H., IX, pp. 82-9; C. Wirszubski, Libertas as a Political Idea at Rome, pp. 55 ff.; F. A. Marsh, 3rd ed., 1963, pp. 69-70, n. 1 p. 413; A.W. Lintott, Violence in Republican, Rome, 1968, pp 149 ff.

(74) Sallust., B. Cat. XXIX, 3.

عليه العرف الروماني كانت السلطة الممنوحة للقنصل على هذا النحو سلطة لا تحد ، فقد كانت تخوله حشد جيش وإعلان حرب وفرض أي التزام على الحلفاء والمواطنين سواء بسواء واستخدام سلطته التنفيذية كاملة في الداخل وفي الخارج وإصدار الحكم بأقصى عقوبة ... ». وانطلاقاً من هذا العرف فيما يبدو نادى شيشرون [٧٥] بمبدئه المشهور القائل بأن « سلامة الأمة » (Salus populi) يجب أن تكون هي « القانون الأعلى » (Sùprema lex) الذي يتعين على الأقل على من بيدهم السلطة التنفيذية العليا (Summum imperiùm) مراعاته . ولا جدال في أن هذا المبدأ متأثر بموقف شيشرون من مؤامرة قاتيلينا ، وما أبعد الفارق بين موقف كل من شيشرون وأوبيميوس من الظروف التي واجهت كل منهما .

سادساً – الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس في ذمة التاريخ

إنصافاً للأخوين جراكوس وكذلك إنصافاً للتاريخ لا بد من أن نفرق بين ذات تشريعاتهما وبين الأساليب التي توسلا بها لاستصدار هذه التشريعات وتنفيذها والنتائج التي ترتبت على تشريعاتهما وأساليبهما . ولعلنا بذلك نستطيع التوصل الى حكم أدنى الى الحقيقة مما توصل إليه مناصروهما من ناحية وقادحوهما من ناحية أخرى ، فهما ليسا إلا مصلحين مخلصين في نظر الفريق الأول ورجلين ثوريين في نظر الفريق الثاني .

لقد عرفنا كيف أن تيبريوس عُني بإعادة بناء الطبقة الوسطى عن طريق منح المواطنين الفقراء الذين ازدحمت بهم روما – وكان من بينهم أعداد كبيرة من المتعطلين أو أشباههم – إقطاعات زراعية من الأرض العامة التي كانت في حيازة الأثرياء . وقد كان أحد أهداف جايوس متابعة عمل أخيه في إعادة بناء الطبقة الوسطى ، بيد أنه فيما يبدو عندما لاحظ أن الجانب الأكبر

(75) Cic., de Leg., III, 3, 8.

من الأرض العامة التي كان يمكن توزيعها قد استنفد عمد الى أن ينشيء للمواطنين مستعمرات قصد ببعضها على الأقل تهيئة الفرص للنشاط التجاري .

ولا جدال في أن الأخوين كانا ينشدان بإخلاص معالجة أزمة خطيرة ، هي أزمة انهيار الطبقة الوسطى وازدحام روما بالمتعطلين ، ولا في أنهما نجحا في التخفيف من وطأة هذه الأزمة بقدر ذلك العدد الكبير من المزارعين والمستعمرين الذين أتاحا لهم فرص ممارسة حياة جديدة . بيد أنه من الإسراف في الرأي القول بأن الأخوين نجحا في حل المشكلة أو أنه كان من شأن تشريعاتهما التي استهدفت حل هذه المشكلة النجاح في حلها على المدى الطويل ، فقد كان المصير المحتوم لهذه التشريعات هو الفشل . ذلك أن ممارسة الزراعة يتطلب قدرة على العمل الجاد الدؤوب وتحمل حياة الريف الرتيبة، على حين أن أغلب المزارعين الجدد كانوا يفتقرون الى هذه القدرة والى روح الجد والعمل بسبب ما ألفوه في روما من ذلك اللون من حياة البطالة والكسل والتمتع بمباهج العاصمة . واذا أضيف الى ذلك الافتقار الى المال اللازم لاستثمار الأرض نستطيع أن نتصور لماذا عندما أبيح لأرباب الإقطاعات بيع إقطاعاتهم بادر الكثير ون منهم الى ذلك وهرعوا الى روما . ومن ناحية أخرى كان من شأن حرمان كبار المزارعين جانباً من أرض الحيازة فضلاً عن الأساليب التي اتبعها الأخوان استثارة نقمة الكثيرين من ذوي النفوذ لمحاربة هذه التشريعات والحيلولة دون نجاحها . ولا يقل عن ذلك شأناً أنه قد ترتب على تنفيذ قانون الأراضي الذي استصدره تيبريوس إثارة مشكلة الحلفاء بعواقبها الوخيمة . وإن دل ذلك كله على شيء فهو يدل على أن تيبريوس برغم صدق نيته في معالجة أزمة خطيرة لم يتدبر الأمر تدبيراً كافياً ولم يحسن تقدير ظروف عصره . واذا كان هذا يبرر اتهام تيبريوس بالتهور والمثالية الخيالية ، فإنه لا يبرر اتهامه بأنه كان زعيماً غوغائياً (demagogue = popularis) لم يستهدف إلا تصيد أصوات الناخبين ليتمكن من تجديد إعادة انتخابه .

ولعل أن قانون القمح كان أهم تشريعات جايوس الاقتصادية والاجتماعية

ولا شك في أنه أدى بهذا القانون خدمة جليلة برغم أنها ألقت على كاهل الخزانة العامة عبئاً ثقيلاً ربما كانت الرغبة في تخفيف وطأته أحد العوامل في استصداره قانون جباية ضرائب ولاية آسيا . ولا شك ايضاً في أنه كسب عن طريق هذين القانونين تأييد العامة وتأييد الفرسان وهم الذين تصور أنه دعم تأييدهم له بقانون اختيار محلفي محكمة الابتزاز من طبقتهم .واذا كان الشك سيظل قائماً حول مدى ارتفاع مستوى القضاء من جراء هذا القانون ، فإنه لا سبيل الى الشك في أنه لم يكن من شأن هذين القانونين مراعاة صوالح أهالي الولايات وإن كان من شأنهما تقوية الفرسان وجعلهما طبقة قوية منافسة لطبقة السناتو . ولعل أن هذا كان أهم ما استهدفه جايوس من وراء هذين القانونين ليكسر شوكة السناتو وهو الذي طالما طغى وعجز عن حل مشاكل الدولة . ولا جدال في أن جايوس أراد مخلصاً معالجة مشكلة خطيرة هي مشكلة الحلفاء ليزيل مظالم صارخة ويحقق وحدة إيطاليا السياسية ويدعم الحكم الشعبي ، ولكنه لسوء حظ الجميع فشل جايوس في تحقيق هذا الهدف النبيل بسبب أنانية أكثر فئات المجتمع الروماني وقصر نظرها وتخلفها الفكري ، مما يدل على أن جايوس بدوره لم يحسن تقدير ظروف عصره . واذا كان لا جدال في ان التشريعات التي استصدرها جايوس أكسبته أنصاراً كثيرين ولا في أنه لوكان قد نجح في استصدار قانون بمشروعه الخاص بالحلفاء لأكسبه ذلك أنصاراً آخرين ، فإنه مع ذلك يصعب اتهام جايوس بأنه استصدر أو سعى الى أن يستصدر أي تشريع كان هدفه الوحيد دعم نفوذه الشخصي دون تأدية خدمة لوطنه .

بيد أنه مما يجدر بالملاحظة أن النتائج غير المباشرة لقوانين الأخوين جراكوس والأساليب التي اتبعاها لاستصدار هذه القوانين كانت أبعد منها أثراً وأخطر شأناً . فقد كانت إحدى النتائج غير المباشرة لقانون الأراضي الذي استصدره تيبريوس التعجيل بظهور مشكلة الحلفاء مما حدا بفلاقوس ثم جايوس الى محاولة معالجتها ولكن دون طائل . وكان من شأن فشلهما

تفاقم هذه المشكلة بحيث أنها احتلت مكاناً هاماً بين أحداث الحقبة التالية ولم تحل إلا رغم أنف الرومان عندما امتشق الحلفاء الحسام ضد روما في عام ٩٠ ق . م .

وكانت إحدى نتائج قانوني جايوس الخاصين بالمحلفين وجباية ضرائب آسيا ان طبقة الفرسان أصبحت قوة سياسية نشبت بينها وبين طبقة النبلاء منافسة شديدة . وسواء أكان جايوس قد قدر أم لم يقدر عواقب منافسة هاتين الطبقتين ، فإن هذه المنافسة أسهمت في ازدياد الحياة السياسية اضطراباً على اضطراب . ذلك أن طبقة الفرسان مُنحت سلطة قضائية استمدت منها نفوذاً سياسياً كبيراً دون أن تُحمّل أية مسئولية : وكان ذلك أمراً بالغ الخطورة لأن هذه الطبقة كانت طبقة رجال أعمال لا يعنيها إلا صوالحها المادية . وإزاء تصدي النبلاء للفرسان بدعوى الحرص على الصالح العام أو على الأصح بدافع النقمة على الفرسان لأنهم خلفوهم في عضوية محكمة استرداد الأموال المبتزة ثم احتكروا المحاكم الدائمة الجديدة التي أنشئت بعد ذلك ، اصطدمت هاتان الطبقتان اصطداماً عنيفاً إلا حينما كان تورط الزعماء الشعبيين في أعمال العنف تتهدد صوالح هاتين الطبقتين فيرغمهما ذلك على التقارب .

والأساليب التي اتبعها تيبريوس لاستصداره قانون الأراضي وتنفيذه ، والتجاء الأخوين إلى إعادة تولي تريبونية العامة دون انقطاع لتنفيذ برنامجيهما ، واشتراك تيبريوس وجايوس في لجنة تنفيذ قانون الأراضي ، وتولي جايوس بنفسه تنفيذ قانون الطرق — انطوى ذلك كله على تحدي هيمنة السناتو على مقاليد الأمور وكذلك على الخروج على الأوضاع الدستورية . وقد كانت بداية الخطر الحقيقي عندما أغفل تيبريوس « ڤيتو » زميله أوقتافيوس ثم عزل هذا الزميل المعارض فقد . كان معنى ذلك من ناحية ليس فقط الخروج على العرف والتقاليد بل أيضاً تحدي هيمنة السناتو بحرمانه الوسيلة الوحيدة الفعالة التي كان عن طريقها يستطيع وقف أي تشريع لا يقره وكبح جماح جمعية القبائل حفاظاً على هيمنته ؛ ومن ناحية أخرى جعل ترابنة العامة أبواقاً لتنفيذ رغبات

الجماهير ؛ ومن ناحية ثالثة إسناد تصريف أمور الدولة الى جمعية القبائل بتوجيه أي تريبون من ترابنة العامة يتمتع بشعبية كبيرة تتيح له تجديد انتخابه للتريبونية طالما احتفظ بشعبيته .

وقد كان هذا الاتجاه مدعاة لخوف حقيقي لأنه كان اتجاهاً خطراً نحو أسوأ أنواع الديمقراطية . فقد سبق أن أوضحنا أنه في هذا الوقت كان أكثر من يؤمون اجتماعات جمعية القبائل عادة هم حثالة الأمة الرومانية أو بعبارة أخرى غوغاء روما . ولا يمكن أن يزعم أحد أن هذه الغوغاء كانت تمثل الأمة الرومانية أو أنها كانت أقدر من السناتو على تصريف شئون الدولة ، أو أنه كان هناك أي سبيل الى ضمان أن يوجد دائماً بين ترابنة العامة رجال من طراز تيبريوس وجايوس يكون في وسعهم أن يحسنوا توجيه جمعية القبائل بفضل إخلاصهم ونبل أهدافهم وصدق عزيمتهم في خدمة صوالح الوطن بقدر ما تسعفهم مداركهم حتى لا تنحدر الديمقراطية الى حكم الرعاع على نحو ما انحدرت اليه في أثينا بسوء زعامة قليوفون (Cleophon) الهوجاء بعدما ارتفعت اليه بفضل زعامة بريقلس الرشيدة . وقد رأينا كيف أنه مع وجود تريبون العامة المخلص النزيه جايوس جراكوس الذي أكسبته خدماته شعبية كبيرة نجح زميله تريبون العامة ليفيوس دروسوس في تقويض أركان هذه الشعبية وتوجيه جمعية القبائل كيفما أراد بفضل مشروعات جذابة مغرية. ورأينا كذلك كيف أن هذه الجمعية بتبرأتها أوبيميوس– جلاد عام ١٢٢ ق . م . أضفت على تصرفاته غير الدستورية وضمناً على قرار السناتو النهائي ثوباً فضفاضاً من المشروعية ترتبت عليه نتائج خطيرة . وحسبنا أنه بهذه التبرئة أضاعت الجمعية حق الاستئناف الذي تمتع به المواطنون طويلاً وكافحوا من أجله كفاحاً مريراً ، وفي الوقت نفسه أهدرت الجمعية الحق الذي أعطاه جايوس للشعب في ألا يصدر غير الشعب أحكاماً تمس حياة المواطنين . وذلك كله ينهض دليلاً قاطعاً على عدم صلاحية جمعية القبائل لتصريف أمور الدولة دون رقابة فعالة عليها .

ولا جدال في أن السناتو قد أثبت أنه لم يعد جديراً بهيمنته على مقاليد الحكم ، بيد أن إضعاف مركزه في وقت تواجه فيه البلاد سلسلة من المشاكل ولا توجد هيئة أخرى تستطيع أن تخلفه بجدارة لم يكن من شأنه إسداء أية خدمة للبلاد . وإذا جاز القول بأن برنامج الأخوين جراكوس لم يتضمن أصلاً تعديل الدستور أو الخروج عليه وانما جاء ذلك نتيجة لمعارضة السناتو الهوجاء ، فإن تخطي الأخوين للسناتو منذ البداية وتوجههما بمشروعات قوانينهما مباشرة الى جمعية القبائل ينم عن سياسة مبيتة لتغيير الأوضاع القائمة أو بعبارة أخرى عن تحد مقصود لسيطرة السناتو ونقل سيطرته الى جمعية القبائل وهي التي لم تكن أهلاً لممارسة هذه السيطرة . واذا أضيفت الى ذلك تصرفاتهما الأخرى فإنه يصعب عدم وصف مسلكيهما بالثورية . ولا يعفيهما من ذلك : الدفع بأنهما في حماسهما لتنفيذ مشروعات كانا مقتنعين بفائدتها قد دفعتهما المعارضة العقيمة الى الخروج على القواعد الدستورية .

وقد خرج السناتو من صراعه مع الأخوين جراكوس منتصراً بيد أن مكانته تزعزعت . ولا عجب في ذلك فقد كان يعيب السناتو أنانيته العمياء ، وعجزه الفاضح عن حل مشاكل الدولة التي أقام نفسه مهيمناً على شئونها ، وحرصه على سيطرته حرصاً دفعه الى ركب متن الشطط في تصرفاته ، مما كان وبالاً عليه وعلى البلاد بأسرها . ذلك أن السناتو قابل تحدي تيبريوس بوضع سابقة خطيرة حذا خصومه حذوها فيما بعد ، وهي سابقة الالتجاء الى العنف وسفك الدماء عند استحكام حلقات أزمة داخلية . وبعد ذلك قابل السناتو تحدي جايوس وسلبه إياه سلاح المحاكم غير العادية بابتداع سُنّة جديدة خطيرة العواقب ، وهي سُنّة تخويل القناصل سلطات غير دستورية بمقتضى قراره النهائي . وسنرى كيف أنه اذا كان هذا السلاح الجديد قد أفلح مراراً في وضع الأمور في نصابها واستعادة السناتو سيطرته من جديد ، فإنه حين شهر السناتو هذا السلاح على القائد المظفر يوليوس قيصر الذي كانت تسانده قوات أكبر من قوات الحكومة لم يرتد السلاح الى قلب السناتو فحسب بل

أيضاً الى قلب النظام الجمهوري بأسره.

وإزاء ما ترتب على اتجاهات الأخوين جراكوس من تنبيه العامة الى قوتهم وحقهم في ممارسة السلطة المستمدة من سيادة الشعب، وإزاء ما اتسمت به تصرفات السناتو من العجز والقصور والظلم والعنف، وازاء ما مُنحه الفرسان من سلطة سياسية لم يكن من شأن استعادة السناتو هيمنته على مقاليد الأمور استقرار الأوضاع وعودتها الى سابق عهدها. فقد ترتب على ذلك كله انقسام البلاد قسمين متطاحنين يتألف أحدهما من الأخيار (Optimates) المحافظين، ويتألف الآخر من فئتين غير متكافئتين: كانت إحداهما هي فئة الشعبيين (Populars) التقدميين، وكانت الفئة الأخرى هي فئة الفرسان (Equites). وكانت فئة الشعبيين أوفر من فئة الفرسان عدداً وأكثر منها ميلاً الى العنف والفوضى. بيد أن فئة الفرسان كانت أوفر من الشعبيين مالاً وتبعاً لذلك تخشى على صوالحها المادية من أعمال الشغب، ومن ثم فإنها كانت لا تؤيد الشعبيين في صراعهم مع الأخيار إلا حينما كانت خدمة صوالحها تقتضي ذلك(٧٦).

ووسط هذا التطاحن الحزبي وجد الإنتهازيون فرصتهم لتحقيق مآربهم الشخصية، وتحكمت الصوالح الخاصة في تكييف مجرى الأحداث، فلا عجب أن شاعت الرشوة وانتشر الفساد في كل طبقات المجتمع وهبط مستوى أداة الحكم هبوطاً شديداً. وإذ أصم «الأخيار» آذانهم عن إدخال أي تعديل على الدستور، استمساكاً منهم بالأوضاع القائمة للحفاظ على مكانتهم وامتيازاتهم، برزوا في خلال هذا الصراع في ثوب حماة الدستور المدافعين عن النظام الجمهوري.

---

(٧٦) راجع بصفة خاصة:
P.A. Brunt, The Equites in The Late Republic; in Deuxième Conf. Intern. d'Hist. Econ., 1962, pp. 131 ff.; C. Nicolet, L'Ordre Equestre, 1966; E. Badian, Roman Imperialism in the Late Republic, 1968, pp. 26 ff.; E.S. Gruen, Roman Politics, 1968, pp. 140 ff.

واذا وازنا بين الخدمات التي أداها فعلاً الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس وبين العواقب الوخيمة التي ترتبت على أعمالهما ، فإننا لا نتردد في القول بأن الميزان ليس في صالحهما . واذا كان يمكن أن يلتمس لهما بعض العذر بإلقاء التبعة على معارضيهم وكذلك على تهور العامة وأنانيتهم أنانية لا يكاد أن يعادلها إلا أنانية النبلاء ، فإن هذا يدينهما بعدم تقدير الأمور حق قدرها ، وهو ما يؤكده عدم تقديرهما لعواقب أعمالهما .

ومهما يختلف الباحثون في الحكم على هذين الرجلين ، فإنه لا خلاف في أن أعمالهما تعتبر بداية عهد من الصراع الدموي العنيف لعب فيه السناتو وجمعية القبائل وترابنة العامة والقواد العسكريون أدواراً بارزة الى أن قضى أغسطس على هذا العهد بإقامة نظام المواطن الأول (Princeps) أو بعبارة أخرى الحكم الملكي أو الإمبراطوري . وفي كنف هذا النظام ، بعد أن سئم الناس العنف والشغب وسفك الدماء ، لم يعد كل أولئك إلا أشباحاً باهتة يسيطر عليها الحاكم بأمره ويوجهها كيفما أراد .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الأحداث الداخلية والخارجية منذ مصرع جايوس جراكوس حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد[1]

ماريوس

الاحداث الداخليـــة

اولاً ـ محاكمات وأحداث ذات دلالات هامة

عندما أفاق أنصار جايوس من هول الكارثة التي أودت بحياته وحياة الكثيرين من مشايعيه ، صمموا على الثأر لزعيمهم وإخوانهم بمعاقبة أوبيميوس وتحدي ما انطوى عليه قرار السناتو النهائي . وتبعاً لذلك قام في عام ١٢٠ ق . م . تريبون العامة دقيوس سوبولو (Decius Subulo) باتهام أوبيميوس أمام جمعية القبائل . وقد سبق أن أوضحنا أنه اذا كان يمكن تبرير اقتحام أوبيميوس تل أفنتينوس للقضاء بكل وسيلة ممكنة على فتنة مسلحة قبل أن

(١) المصادر والمراجع الرئيسية هي بوجه عام ذات المصادر والمراجع عن عصر الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس المذكورة في الفصل الأول (أولا ــ الحواشي ١ و ٢ و ٣) . ويضاف الى ذلك ما سيأتي ذكره في حينه .

يستشري خطرها ، فإنه بعد القضاء على هذه الفتنة في مهدها، فإنه لم يكن هناك ما يبرر إقدام أوبيميوس على أن يعدم دون محاكمة ذلك العدد الكبير من المواطنين الذين أُلقي القبض عليهم ودون إعطائهم فرصة للاستئناف ، فقد كان مثل هذا الإجراء إجراء غير مشروع لأنه يتعارض مع حق الاستئناف وكذلك مع قانون جايوس جراكوس الذي قضى بعدم جواز إصدار حكم يمس حياة المواطنين إلا من محكمة أذن الشعب بتشكيلها . وبرغم ذلك بُرئت ساحة أوبيميوس[2] . ومن الدلائل على الانهيار الخلقي أن جايوس جاربو — وهو الذي كان في الماضي صديق جايوس جراكوس ثم هجر جانبه وكوفىء على ذلك بانتخابه لقنصلية عام ١٢٠ ق . م . — لم يجد غضاضة في الدفاع دفاعاً حاراً عن أوبيميوس ولا في الذهاب الى حد القول بأن جايوس جراكوس لقي بمصرعه جزاء عادلاً[3] .

وقد سبق أن أوضحنا أيضاً ما كانت لتبرئة أوبيميوس من دلالات يمكن تلخيص أهمها في الاعتراف صراحة بحق القناصل في تجاوز نطاق سلطتهم الدستورية استناداً على قرار غامض يصدره السناتو ؛ وكذلك الاعتراف ضمناً بحق السناتو في إصدار مثل هذا القرار كلما اقتضت الظروف ذلك . ولم يكتف السناتو بفوزه بهذا النصر البالغ الأهمية ، ذلك أنه لم يلبث في العام نفسه (عام ١٢٠ ق . م .) أن أحرز نصراً آخر عندما نجحت تدابيره وتمكن تريبون العامة لوفيوس قالبورنيوس بستيا (Bestia) من حث جمعية القبائل على إصدار قرار[4] يقضي بأن يُستدعى من المنفى بوبليوس بوبيليوس لايناس وهو الذي كان أول ضحايا قانون جايوس جراكوس الذي أُريد به حماية المواطنين من محاكم السناتو غير العادية ولذلك قضى بعدم جواز إصدار حكم يمس حياة المواطنين إلا من محكمة أذن الشعب بتشكيلها كما

(2) Liv., Ep., 61; Cic., de Orat., II, 25, 104-6; 30, 132; 39, 165; 40, 169-70; C.A.H., IX, pp. 85 ff., 93.
(3) Cic., de Orat., II, 25, 106; 39, 165; 40, 170.
(4) Cic., Brut., 34, 128.

قضى بنفي أي حاكم ينفذ عقوبة الإعدام في أي مواطن روماني دون صدور حكم من محكمة تملك حق إصدار مثل هذا الحكم .

بيد أنه في العام التالي (عام ١١٩ ق. م.) تلقى « الأخيار » (Optimates) لطمتين . ذلك أنهم عندما أرادوا معاقبة دقيوس سوبولو على تحديهم باتهام أوبيميوس ودبروا تقديمه للمحاكمة بتهمة ابتزاز الأموال ، نجح دقيوس في كسب تأييد الفرسان وبرأه محلفوهم من التهمة(٥) .

وفي هذا العام أيضاً ثار الشعبيون (Populares) من جاربو عندما تولى عنهم الخطيب الشاب لوقيوس ليقينيوس قراسوس تقديم جاربو للمحاكمة بتهمة غير معروفة وحمل عليه حملة شعواء دفعت جاربو الى الانتحار قبل صدور الحكم في القضية(٦) .

وهاتان القضيتان ، وانتصار قراسوس للشعبيين في ثانيتهما ومناصرته لهم وللفرسان في استصدار القرار الخاص بإنشاء مستعمرة « ناربو » في عام ١١٨ ق . م . برغم معارضة السناتو لإنشاء هذه المستعمرة ، أمور لها دلالات هامة : منها أن السناتو برغم انتصاراته الأخيرة لم يكن سيد الموقف ، وأن الفرسان أصبحوا قوة لها وزنها في تكييف مجرى الأحداث ، وأن قراسوس كان يتبع في هذه المرحلة الباكرة من حياته سياسة مناهضة « للأخيار » تختلف عن السياسة التي سنراه يتبعها فيما بعد قرب نهاية حياته .

وفي عام ١١٦ ق . م . تنافس على أحد منصبي قنصلية العام التالي رجلان إتصف أحدهما بالنزاهة والاستقامة والتعفف عن الدنايا وهو بوبليوس روتيليوس روفوس (P. Rutilius Rufus) واتصف الآخر بالخبث والدهاء وفساد الذمة وممالأة السناتو وهو مارقوس آيميليوس سقاوروس(٧)

---

(5) E. Badian, J.R.S., pp. 91 ff.; E.S. Gruen, Rom. Politics, pp. 109 ff.

(6) Cic., Brut., 43, 159; in Verr. III, 1, 3; ad Fam., IX, 21, 3; de Leg., III, 35; Val. Max., VI, 5, 6

(7) A. R. Hands, J.R.S., 1959, pp. 56 ff.

(M. Aemilius Scaurus) . وعندما نجح الثاني في الانتخابات قدمه الأول للمحاكمة بتهمة استخدام الرشوة في الانتخابات ، ولكنه لم يلبث أن بُرىء ورد التحية لخصمه بتوجيه التهمة نفسها اليه . واذا كنا لا نعرف نتيجة المحاكمة فإنه من المحتمل أن يكون روفوس قد بُرىء كذلك .

وأحداث عامي ١١٥ و ١١٤ ق. م. تلقي بعض الضوء على الأوضاع في روما عندئذ فترينا الى أي مدى استشرى الفساد في المجتمع الروماني . ذلك أنه يبدو أن القنسورين اللذين توليا منصبيهما في عام ١١٥ ق . م . استخدما سلطة منصبيهما لصالح « الأخيار » ، فقد استبعدا من قائمة أعضاء السناتو أسماء اثنين وثلاثين عضواً [8] لعل أن بعضهم على الأقل كانوا ممن لا يسايرون الركب فقد كان أحدهم — وهو جايوس ليقينيوس جتا (Geta) قنصلاً منذ عهد قريب ثم انتخب فيما بعد قنسوراً في عام ١٠٨ ق . م .

وقد وضع القنسوران سقاوروس على رأس قائمة أعضاء مجلس السناتو وبذلك أصبح زعيم هذا المجلس[9] (Princeps Senatus) وأبرز أعضائه والمتحدث باسمه لمدة خمسة وعشرين عاماً . ولعل أن هذا الاختيـــار كان مكافأة لسقاوروس على ما أظهره في أثناء قنصليته في عام ١١٥ ق . م . من التفاني في خدمة صوالح « الأخيار » ، فهو صاحب القانون الذي لا نعرف عنه إلا اسمه (Lex Aemilia) وأنه كان خاصاً بتسجيل المعتقين[10] في عدد محدود من القبائل الرومانية . وفي أول الأمر كان تسجيل المعتقين مقصوراً على القبائل الأربع الحضرية ولكنهم بالتدريج أصبحوا يسجلون في القبائل الريفية أيضاً وفقاً لشروط دقيقة . ولكنه منذ قنسورية تيبريوس سمبرونيوس جراكوس الكبير (والد التريبونيين تيبريوس وجايوس) في عام ١٦٩ ق. م . قُصر تسجيل المعتقين ، باستثناء أثريائهم ، على قبيلة حضرية واحدة هي قبيلة

(8) Liv. Ep., 62.
(9) Sallust., B. Jug., XXV, 4; Plin., N.H., VIII, 57, 223.
(10) (Victor) de Vir. Ill., 72.

اسكويلينا(Tribüs Esquilina). ولما كان الرعاة (Patroni) في الماضي يستطيعون التأكد من الفوز بأصوات معتقيهم لأن الإدلاء بالأصوات كان علانية فإنه يبدو أن العمل بهذا النظام قد أُغفل سريعاً وعادت الأوضاع الى ما كانت عليه قبل عام ١٦٩ ق . م . بيد أنه لما كان الإدلاء بالأصوات قد أصبح سراً في الانتخابات منذ عام ١٣٩ وفي التشريعات منذ عام ١٣١ ق . م . ، وكان الرعاة قد أصبحوا تبعاً لذلك لا يستطيعون ضمان الفوز بأصوات معتقيهم . وكان الأخيار لا يزالون يأملون في الفوز بتأييد القبائل الريفية ضد القبائل الحضرية المشاغبة ، فإنه صيانةً للقبائل الريفية من التأثر بالمعتقين وقد أصبح أمرهم مشكوكاً فيه يبدو أن قانون سقاوروس قضى بقصر تسجيل المعتقين على القبائل الحضرية دون غيرها[11] .

وقد استصدر سقاوروس كذلك قانوناً ضد الترف في المآدب[12] . وقد لا نعدو الحقيقة اذا تصورنا أن هذا القانون كان موجهاً بصفة خاصة ضد الفرسان لأن ثراءهم المالي الفاحش كان مقروناً بفقر مدقع في آداب السلوك . ولأن الثروة المفخورة تفتقر عادة الى ما يحد من غلواء مظاهرها وتدفع أصحابها عادة الى الإيغال في الحياة المترفة ولا سيما في أقرب مظاهرها الى النفوس وهي المآدب . وعلى كل حال فإن صدور هذا القانون يوحي بأن الترف في المآدب كان قد بلغ حداً كبيراً من السفه . وإن كنا نشك في مدى فعالية مثل هذا القانون .

ولما كانت المسارح لا تعرض عادة إلا ما يستهوي أفئدة الجماهير وبذلك كانت عروض المسارح تعكس صورة لمستوى الأخلاق السائدة ، فإن اتخاذ قنسوري عام ١١٥ ق . م . إجراءات صارمة تقضي بتطهير كل ألوان الترفيه وقصرها على أكثرها بساطة وأبعدها عن الإثارة[13] ينهض دليلاً على

(11) C. A. H., IX, p. 96.
(12) (Victor) de Vir. III., 72; Gell., II, 24, 12; Plin., N.H., VIII, 57, 223.
(13) Cassiodor Chronica.

مدى الفساد الخلقي ، وهو الذي تطالعنا فوراً صورة له في وسط كان يجب أن يرتفع فوق مستوى الشبهات . ذلك أنه في العام التالي (عام ١١٤ ق . م .) أهاج روما هياجاً شديداً ما لاكته الألسن عن سوء سلوك ثلاث من الكاهنات المعروفات باسم « الفتيات العذارى » مع بعض الفرسان . ولما كانت هؤلاء الكاهنات ينتمين الى أرفع الأسر حسباً ونسباً ، فإن الشعبيين انتهزوا فرصة هذه الفضائح للنيل من الأخيار . وإزاء الضجة الكبرى التي أثارتها هذه الفضائح قدمت الكاهنات الثلاث للمحاكمة أمام محكمة الكاهن الأكبر المؤلفة منه ومن أعضاء جماعة الكهنة . وكان الكاهن الأكبر عندئذ، وهو لوقيوس قايقيليوس (Caecilius) متلوس ، أحد أقطاب الأخيار . وعلى كل حال فإن هذه المحكمة الدينية لم تدن إلا واحدة فقط من المتهمات الثلاث . وقد صدم هذا الحكم الرأي العام صدمة شديدة لاعتقاد الجماهير بأن انحراف « الفتيات العذارى » كان يثير غضب الآلهة وتبعاً لذلك يتهدد الدولة بأشد المخاطر مما كان يستوجب قطع دابر المنحرفات جميعاً . وإزاء ذلك نجح أحد ترابنة العامة في عام ١١٣ ق . م . في استصدار قانون بتشكيل هيئة قضائية خاصة لإعادة النظر في هذه القضية [١٤] . وقد أُسندت رياسة هذه الهيئة القضائية الى رجل اشتُهر بنزاهته وكذلك بصرامة أحكامه وهو لوقيوس قاسيوس لونجينوس، وكان أحد قنصلي عام ١٢٧ ق . م . وأحد قنسوري عام ١٢٥ ق . م . وخلد اسمه في مجال القضاء بالقاعدة المعروفة التي وضعها دائماً نصب عينيه وعبر عنها بسؤاله « من الذي أفاد » (Cui bono fuerit) من الجريمة (**) ، أي أنه لمعرفة مرتكب أية جريمة يجب البحث عمن أفاد من ارتكابها . وقد اتبع لونجينوس أشد الأساليب قسوة في التحقيق وانتهت محكمته بإدانة الفتاتين اللتين سبقت تبرأتهما وكذلك بعض الفتيات العذارى الأخريات ، وبطبيعة

---

(14) Ascon., in Milon., p. 45.

(**) Ascon., in Milon., p. 46; Mayor, on Cic., Philip., II, 35 Pauly-Wissows-Kroll, Realency., Cassii no. 72.

الحال أيضاً أولئك الرجال الذين شاركوا في هذه الفضائح ، بيد أن مصادرنا[١٥] لم تسجل الأحكام التي صدرت ضدهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، لأن الجماهير لم ترَ في هذه الأحكام بالإدانة ما يكفي لتطهير البلاد من الدنس واسترضاء الآلهة . ولم تهدأ ثائرة الجماهير إلا عندما استطلع السناتو إما الجماعة المشرفة على الكتب السيبولية (Sibyllae) وإما جماعة العراف الإتروسقيين ونفذ ما أُوصي به من تقديم أربع ضحايا بشرية تتألف من إغريقيين وغاليين نُحروا في الفوروم بواريوم[١٦] (Forum Boarium) .

وقد ورد في ملخص الجزء الرابع والستين[١٧] من كتاب ليفيوس أنه في عام ١١١ ق.م. شب حريق هائل في روما أتى على جانب كبير منها . وبسبب ضياع هذا الجزء من كتاب ليفيوس وصمت مصادرنا الأخرى عن هذا الحريق لا ندري ما كان صداه في نفوس الرومان ، ولعل أنهم اعتبروا الحريق دليلاً على أن ما فعلوه لم يكن كافياً لاسترضاء الآلهة فأكملت عملهم إسهاماً منها في تطهير روما الدنسة .

ويحدثنا صالوستيوس[١٨] بأنه في عام ١١٠ ق . م . نشب بين ترابنة العامة خلاف عنيف أفضى الى اضطراب أحوال البلاد اضطراباً شديداً نجم عنه تأجيل إجراء الانتخابات العامة حتى آخر ذلك العام ، وبأن هذا الخلاف نشأ من أن اثنين من ترابنة عام ١١٠ ق . م . وهما بوبليوس لوقولّوس (Lucullus) ولوقيوس أنّيوس (Annius) أرادا ترشيح نفسيهما لتولي

(15) Oros., V, 15; Porphyr., ad Hor. Sat., I, 6, 30; Dio Cass. fr. 87, 5; Macr., Sat., I, 10, 5; Cic., Brut., 32, 122; 43, 159; de Dom., 53, 136; de Inv., I, 43; Val. Max., III, 7, 9; Obsequens, 37.

وعن الملابسات السياسية لمحاكمة الفتيات العذارى ، انظر :

E. S. Gruen, Roman Politics and The Criminal Courts, pp. 127 ff.

(16) Plut., Quaest. Rom., 83.

(17) Obsequens, 39.

(18) Sallust., B. Jug., XXXVII, 1-2.

تريبونية العام التالي ولكن زملاءهما وقفا لهما بالمرصاد. وهكذا يتضح لنا أنه حتى عام ١١٠ ق. م. لم يكن قد فُصل نهائياً في مسألة جواز إعادة انتخاب ترابنة العامة ؛ وأن هذه المسألة كانت لا تزال مثار خلاف كبير في الرأي. وغني عن البيان أنه لو كان قد صدر تشريع يجيز إعادة انتخاب ترابنة العامة ، وهو ما يقول به كثيرون من الباحثين. بل لو أن غالبية الآراء كانت قد أصبحت تحبذ ذلك ، لما حدثت الاضطرابات التي يحدثنا عنها صالوستيوس ، ولنجح لوقولّوس وأنّيوس في تحقيق رغبتهما. وهذا يؤيد ما سبق أن أبديناه من أن مرد فوز جايوس جراكوس بتريبونيته الثانية دون مقاومة لم يكن الى صدور تشريع يجيز إعادة انتخاب ترابنة العامة وإنما الى الشعبية الكاسحة التي اكتسبها جايوس في خلال تريبونيته الأولى.

ويعطينا صورة عن مدى تفشي الفساد بين الأخيار في إدارة دفة السياسة الخارجية ما سنراه بعد قليل في سياق الحديث عن حرب يوجورتا ، وحسبنا الإشارة هنا الى أنه عندما فاحت رائحة الرشاوى التي اشترى بها يوجورتا ملك نوميديا ذمم الكثيرين من النبلاء شكلت في عام ١٠٩ ق. م. هيئة قضائية لبحث الأمر وقضت بإدانة عدد كبير من أبرز أعضاء السناتو[١٩].

ثانياً — مسألة الأرض العامة Ager Publicus

مر بنا أن السناتو بدأ مهاجمة أعمال جايوس جراكوس قبل مصرعه بأن حرض تريبون العامة مينوقيوس روفوس على التقدم بمشروع قانون لإلغاء قانون روبريوس (Lex Rubria) الخاص بإنشاء مستعمرة يونونيا مما أفضى الى الأحداث التي أودت بحياة جايوس وكثيرين من أنصاره. بيد أنه برغم أن قانون مينوقيوس قد صدر بعد ذلك ولم تعد توجد رسمياً مستعمرة باسم

(19) Sallust., B. Jug., XL; Gruen, Roman Politics and Criminal Courts, pp. 142 ff.

يونونيا ، فإنه سُمح لمستعمريها بالاحتفاظ بإقطاعاتهم وفقاً فيما يبدو للقواعد التي كانت متبعة مع أرباب الإقطاعات في إيطاليا[٢٠] .

ويحدثنا أبيانوس[٢١] بأنه بعد وفاة جايوس جراكوس صدرت ثلاثة قوانين كان من شأنها القضاء على الإصلاح الزراعي الذي حاوله الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس . وهذه القوانين هي :

١ — في عام ١٢١ أو ١٢٠ ق . م . أباح قانون جديد للذين مُنحوا أرضاً بمقتضى قانون الأراضي بيع أنصبتهم ، وهو ما كان قانون تيبريوس قد حظره . ويقول أبيانوس إن القانون الجديد أتاح للأثرياء فرصة شراء هذه الأنصبة او انتحال شتى المعاذير للضغط على صغار المزارعين لترك أراضيهم .

ويرفض بعض الباحثين ما يذهب اليه أبيانوس في هذا الصدد ويرون أنه من الجائز أن تيبريوس نفسه لم يقصد أن يكون الحظر مستديماً وأنه لو كان عندئذ على قيد الحياة لما عارض إلغاء هذا الحظر ، لأنه كان من الحمق ربط المزارعين بأراضيهم اذا ثبت عجزهم عن النجاح في ممارسة الزراعة . ويمضي أصحاب هذا الرأي فيقولون بأنه لم يكن من شأن القانون الجديد تمهيد سبيل العودة الى تكوين ضياع كبيرة لأن الأنصبة التي وزعت على صغار المزارعين ظلت جزءاً من الأرض العامة وكان لا يمكن استيعابها في الضياع الكبيرة طالما ظل باقياً الحد الأعلى لحيازة الأرض العامة وفقاً لقانون تيبريوس وهو الحد الذي نعرف أنه لم يلغ ، وتبعاً لذلك لا بد من أن الأرض المبيعة لم تنتقل ملكيتها الى كبار الملاك وانما الى آخرين من صغار المزارعين ، إلا أنه من الجائز أن يكون القانون الجديد قد أتاح الفرصة لبعض المضاربين أن يجنوا أرباحاً من عمليات الشراء والبيع[٢٢] .

ونحن نشك في أن تيبريوس لم يقصد أن يكون الحظر على بيع الأنصبة

---

(20) C.A.H., IX, p. 98.
(21) App., B. C., I, 27.
(22) C. A. H., IX, p. 99; Scullard, 1970, p. 45.

مستديماً ، وإلا لقضى بذلك على ما كان يستهدفه من وراء قانونه وتكرر ازدحام روما بالمتعطلين . ولا جدال في أنه اذا أدرك صغار المزارعين أنه لم يكن في وسعهم بيع أراضيهم وأنه لم يكن أمامهم سبيل آخر لتكسب قوتهم إلا فلاحة أراضيهم ، فإنهم كانوا يضطرون الى بذل أقصى الجهد لجعل عملهم مثمراً . وإذا قصروا في ذلك فإنه كان لا يجوز للدولة أن تكافأهم على تقصيرهم بالسماح لهم ببيع أراضيهم . ومن الجلي أنه لم يكن من شأن السماح ببيع الإقطاعات حفز الهمم على بذل أقصى الجهد سواء لجعل الزراعة عملاً مثمراً أم لتحمل حياة الريف الرتيبة الخالية من مباهج روما . ومن الجلي كذلك أن السماح ببيع الإقطاعات طعن سياسة الإصلاح الزراعي في الصميم .

وأما عن إفادة الأثرياء من القانون الجديد ، فإن بقاء الحد الأعلى لحيازة الأرض العامة كان لا يقف سبيلاً إلا في وجه من كانت في حيازتهم أرض تبلغ هذا الحد ، وليس لدينا ما يقطع بل ما يوحي بأن الضياع الكبرى القديمة جميعاً كانت تبلغ الحد الأقصى المسموح به . واذا سلمنا بذلك جدلاً ، فإنه يصعب أن نتصور أن بقاء الحد الأعلى لحيازة الأرض العامة كان يحول دون شراء إقطاعات صغار المزارعين وإنشاء ضياع كبرى جديدة لا تزيد كل منها على هذا الحد ، إلا اذا أمكننا أن نتصور انه فيما بين عامي ١٣٣ و ١٢١ أو ١٢٠ ق . م . أصبح جمع الثروة مقصوراً على من كانوا يملكونها من قبل وكان في حيازة كل منهم الحد الأقصى المسموح به ، أو بعبارة أخرى إلا اذا أمكننا أن نتصور أن أبناء الجيل الجديد من الرومان عزفوا عن عرض الدنيا الزائل فأقلعوا عن جمع الثروة وعن استثمار جزء على الأقل من ثروتهم في الأرض . وهذا أمر يصعب تصوره ليس فقط لأنه يجافي غريزة حب التملك بل أيضاً لأنه لا يتمشى مع معلوماتنا عن الثروات التي كان رجال الأعمال يجمعونها وعن ميلهم الى استثمار بعض ثروتهم في الأرض بوصف كون ذلك أضمن أنواع الاستثمار .

٢ — ويعزو أبيانوس الى تريبون العامة سبوريوس ثوريوس[٢٣] استصدار قانون (Lex Thoria) — في عام ١١٩ ق . م . على الأرجح — تقرر بمقتضاه :

ا — أن توقف منذ ذلك الوقت عملية توزيع الأرض العامة .

واذا كان هذا البند يتضمن إلغاء اللجنة الثلاثية تبعاً لإلغاء العمل الأساسي الذي أنشئت من أجله وهو توزيع الأرض العامة ، فإنه لا يدل على أنه لم تعد توجد أرض عامة يمكن توزيعها وإلا لما كان هناك داع للنص على وقف عملية التوزيع .

ب — أن يحتفظ أرباب أرض الحيازة (Possessores) بما في حيازتهم بشرط أن يدفعوا عنها إيجاراً للدولة .

وإذا كان معنى ذلك تأمين أرباب الأرض على ما في حيازتهم أي عدم طردهم منها مستقبلا ، وهو ما يذكرنا بمشروع قانون تيبريوس قبل تعديله ، فإنه ليس معناه إلغاء نظام الحيازة ولا جعل أرض الحيازة ملكاً حراً لأربابها ، لأن اشتراط دفع إيجار عنها للدولة يدل على أن الدولة ظلت تحتفظ بحق ملكية هذه الأرض وعلى أن هذه الأرض ظلت معتبرة أرضاً عامة (ager publicus) . ويؤكد هذا التفسير أن أرض الحيازة لم تصبح ملكاً حراً لأربابها إلا بمقتضى القانون الثالث على نحو ما سنرى .

حـ — أن يُستخدم ما يجبى من إيجار أرض الحيازة لفائدة الفقراء .

وفي ضوء ما سيرد ذكره عن المحاولة التي بُذلت حوالي هذا الوقت لتعديل « قانون القمح » يجوز أن معنى هذه العبارة الغامضة التي أوردها أبيانوس هو استخدام حصيلة إيجار أرض الحيازة في توفير كميات كبيرة من القمح لبيعها للفقراء بثمن بخس .

---

(23) App., B. C. I, 27; Lewis and Reinhold, Roman Civilization, I, p. 257; Cf. Broughton, M.R.R., I, p. 542.

ومن الواضح أنه إذا كان هذا القانون في صالح أحد فإنه لم يكن قطعاً في صالح الفقراء ولذلك أُريد التحايل عليهم لإقراره بفرض إيجار على أرض الحيازة واستخدام هذا الإيجار في رشوة الفقراء ولو بالعبارات المعسولة. ولا جدال في أن وقف توزيع الأرض العامة بعد السماح لمن مُنحوا أرضاً بمقتضى قانون الأراضي ببيع أرضهم ينم عن اتجاه واضح يهدف الى القضاء على سياسة الإصلاح الزراعي التي تبناها الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس.

٣ - وأغلب الظن أنه في عام ١١١ ق. م. استصدر أحد ترابنة العامة - ولعل أنه كان ثوريوس، إذا صح ما أورده شيشرون[٢٤] في هذا الصدد - القانون الثالث[٢٥]. ويمكن تلخيص هذا القانون الطويل المعقد في النقاط التالية:

ا - فيما يخص الأرض العامة التي كان الشعب الروماني يملكها في إيطاليا حين كان بوبليوس موقيوس سقايفولا ولوقيوس قالبورنيوس بيسو قنصلين (أي في عام ١٣٣ ق. م.):

١ - جميع الأراضي التي قامت اللجنة الثلاثية بتقسيمها الى أنصبة صغيرة وتوزيعها وكذلك جميع الأراضي التي تركتها هذه اللجنة لحائزيها القدامى تصبح ملكاً حراً لأربابها بشرط ألا تجاوز مساحة كل نصيب من الأنصبة التي وزعت ثلاثين يوجرا وألا تزيد مساحة أرض الحيازة القديمة على الحد الأقصى الذي قرره قانون الأراضي وبعد صدور هذا القانون لا يجوز استصدار أي تشريع أو استخدام أية سلطة تنفيذية لحرمان أصحاب هذه الأراضي أو الذين تؤول ملكيتهم اليها: الانتفاع بأرضهم أو امتلاكها.

٢ - جميع تلك الأجزاء من الأرض العامة التي كانت اللجنة الثلاثية

---

(24) Cic., Brutus, 36, 136; Cf. Broughton, M. R. R., I, p. 542.

(25) Bruns, Fontes, 7th ed., 11; C.I.L., I, 2nd ed., no. 585 = Warmington, Remains of Old. Latin, IV, pp. 370 ff.; Lewis and Reinhold, I, pp. 257-264; S. G. Hardy, Six Roman Laws, pp. 35 ff.

قد منحتها في مقابل استيلائها على أرض لإنشاء مدينة أو مستعمرة تصبح ملكاً حراً لأربابها أو ورثتهم أو من آلت اليهم بطريقة أو أخرى بعد منحها .

٣ ـ وأما عن الأراضي التي كان قد أبيح للمستعمرات (Coloniae) والبلديات (Municipia) والمجتمعات التي في مستواها ، الرومانية منها واللاتينية ، استغلالها بصفة جماعية وتولي عنها بعض الأفراد أمر ذلك إما باستئجار الأرض وإما بحيازتها ، فإن ملكية الأرض تؤول الى الذين جروا على استئجارها أو حيازتها .

٤ ـ كل ما تبقى بعد ذلك من الأرض العامة ، اذا كانت صالحة للزراعة فإن القنسورس يقومون بتأجيرها للراغبين في استئجارها ، وأما اذا كانت من أراضي المراعي فإنها تصبح مراعي عامة (āger compascuus) ، أي يباح رعي المواشي فيها دون مقابل ، بشرط ألا يزيد عدد رؤوس الماشية الذي لدى المواطن الواحد على الحد الأقصى الذي عينه القانون .

ب ـ وأما فيما يخص الأرض العامة في ولاية أفريقيا ، فإن الجزء الثاني من هذا القانون اعترف بالحقوق المكتسبة ، أي بملكية الأرض هناك لأربابها سواء أكانوا مُنحوها بمقتضى قانون روبريوس برغم إلغائه وانما بشرط ألا تزيد الملكية الفردية على مائتي يوجرا ، أم بمقتضى قرار من السناتو لصالح المجتمعات الحرة في أفريقيا التي ظلت وفية لروما في أثناء الحرب البونية الثالثة وكذلك للمجتمعات التي هجرت جانب قرطجنة وانضمت الى الرومان في أثناء هذه الحرب ، وذلك فضلاً عن الأراضي التي كان سقيبيو أفريقانوس منحها لأسرة ماسينيسا . وأما فيما عدا ذلك من الأرض العامة في ولاية أفريقيا فإن القانون نظم طريقة استغلالها الى أن يتم بيعها .

حـ ـ وأما فيما يخص الأرض العامة في قورنثة ، فإن الجزء الثالث من هذا القانون مشوه على نحو يصعب معه استخلاص فحواه وإن كان لا يُستبعد أنه نظم وضع الأرض العامة في قورنثة على غراره ما فعل في ولاية أفريقيا .

ولا جدال في أن هذا القانون حسم وضع الأرض العامة وبدد مخاوف أرباب الأراضي بالاعتراف لهم بامتلاك ما كانوا قد مُنحوه أو كان في حيازتهم امتلاكاً حراً لا يجوز التعرض له أو الاعتداء عليه بأي شكل من الأشكال ، وتبعاً لذلك ألغي الإيجار الذي كان القانون السابق قد فرضه على أرض الحيازة . ولما كان هذا القانون قد رسم كيفية التصرف الواجب اتباعها فيما تبقى من الأرض العامة سواء في إيطاليا أم في خارجها ، فإنه قضى على نظام الحيازة . بيد أن هذا القانون مع اعترافه بنتيجة عمل الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس بمقتضى قانوني الأراضي وقانون إنشاء المستعمرات قد أسهم مع القانون الذي أباح بيع الإقطاعات الزراعية في تمهيد السبيل للعودة الى اقتناء ضياع كبيرة ليس فقط في أفريقيا بل أيضاً في إيطاليا على نحو ما سبق إيضاحه ، وكذلك في القضاء قضاء مبرماً على السياسة التي انتهجها الأخوان جراكوس لإعادة إحياء طبقة صغار المزارعين . وإزاء ذلك يدق علينا أن نفهم كيف أن هذا القانون أفاد ولم يضر الطبقة التي كان الأخوان يستهدفان خدمة صوالحها. هذا الى أن القول بأن هذا القانون لم يمس الأوضاع كما كانت عليه في عام ١٢١ ق . م . بل كان من شأنه أن يضفي عليها صفة الدوام [26] يغفل أمرين: وأحدهما ، هو أنه حتى عام ١٢١ ق . م . كان يمكن استخدام الأرض العامة في إيطاليا وفي خارجها بتوزيع أجزاء منها وإنشاء المستعمرات . والأمر الآخر ، هو أنه لما كان هذا القانون لم يلغ أول هذه القوانين الثلاثة وهو القانون الذي سمح ببيع الإقطاعات وتبعاً لذلك أتاح للذين لديهم أموال دون أن تكون لديهم مساحات كبيرة من الأرض فرصة اقتناء ضياع كبيرة ، وهو أمر لم يكن ميسوراً منذ صدور قانون تيبريوس في عام ١٣٣ حتى عام ١٢١ ق. م. ، فإنه لم يكن إذن من شأن هذا القانون الثالث استبقاء الأوضاع على ما كانت عليه في عام ١٢١ ق . م .

(26) C.A.H., IX, p. 101.

ولعل أن صاحب القانون الثالث أو بالأحرى « الأخيار » ، وهم الذين نرجح أنهم كانوا مدبري استصداره ، لم يسلموا بنتيجة أعمال الأخوين جراكوس (الأنصبة الزراعية التي وزعت والحد الأقصى لمساحة أرض الحيازة) إلا رغماً عنهم لأنه كان لا يمكن إلغاء الحد الأعلى للملكية أرض الحيازة ومنح أرباب هذه الأرض حق امتلاكها امتلاكاً حراً وفي الوقت نفسه حرمان أرباب الإقطاعات إقطاعاتهم دون أن يترتب على ذلك نشوب اضطرابات خطيرة . وفي ذلك الوقت كانت روما مشتبكة في حرب يوجورتا وهي التي أثارت قلقاً شديداً في روما وسخطاً بالغاً على السناتو ، ومن ثم فإنه كان من الحمق إضافة متاعب جديدة للسناتو بالانتقاض على أعمال الأخوين جراكوس انتقاضاً سافراً في مسألتين حساستين وثيقتا الاتصال ببعضهما بعضاً ، وهما وضع الإقطاعات التي كان الأخوان جراكوس قد وزعاها والحد الأقصى الذي عيناه بقانونيهما لمساحة أرض الحيازة . وإزاء ذلك كان من الحكمة تفادي التعرض لهاتين المسألتين الشائكتين ومنح أرباب الإقطاعات حق امتلاكها ليفوز الأثرياء بالحق نفسه فيما يخص أرض الحيازة .

وفي رأينا أن هذه القوانين الثلاثة[٢٧] تتخذ اتجاهاً واحداً لا يستهدف أساساً إلا خدمة الأثرياء وهدم سياسة الإصلاح الزراعي التي نادى بها الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس .

ثالثاً ـ نشأة جايوس ماريوس[٢٨] وبداية ظهوره على مسرح الأحداث السياسية :

ولد ماريوس في عام ١٥٧ ق. م. وكان ينتمي إلى أسرة ريفية إيطالية

(27) Cf. E. Badian, Historia, 1962, pp. 209 ff.
(28) Plut., Marius, I ff., T.F. Carney, A. Biography of Marius (Supp. no. 1 of Proc. Afr. Class. Ass. 1962); E. Badian, Marius and The Nobles, Durham Un. Journ., 1964, pp. 141 ff.; J.R.S., 1965, p. 93.

الأصل تعيش في قرية قرياتاي (Creatae) وكانت تتبع بلدة جبلية تسمى أربينوم (Arpinum) وتقع على بعد حوالي ٩٠ كليومتراً جنوب شرقي روما .

وكانت أربينوم إحدى بلاد الفولسقي (Volsci) وانضمت الى السمنيين (Samnites) في محاربة الرومان في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنه عندما انتصر الرومان على السمنيين قرب بولا (Bola) في عام ٣٠٥ ق . م . استولوا على أربينوم من بين ما استولوا عليه عندئذ . وفي عام ٣٠٣ ق . م . منحت روما أهالي أربينوم حقوق المواطنة الخاصة(٢٩) (Civitas Sine Suffragio) ، وفي عام ١٨٨ ق . م . منحتهم روما حقوق المواطنة كاملة فأصبحوا مواطنين رومان كاملي الأهلية (cives optimo iure) وأدمجوا في عداد قبيلة قورنيليا(٣٠) (Tribus Cornelia) .

ويبدو أنه اذا كانت أسرة ماريوس تشتغل بالزراعة بحكم بيئتها الريفية ، فإنه يبدو كذلك أنها كانت على قدر من الثراء بدليل أنه عندما انخرط ماريوس في سلك الخدمة العسكرية وحارب تحت قيادة سقيبيو آيميليانوس في حرب نومانتيا كان يخدم في فرق الفرسان حيث اكتسب بشجاعته ومهارته ثقة قائده وتقديره فكافأه على مواهبه العسكرية بترقيته الى مرتبة تريبون عسكري (tribunus militaris) . وبعد وفاة سقيبيو رعت ماريوس أسرة متلّوس (Metelli) الكبيرة وهي التي كانت في ذلك الوقت تتمتع بأعظم النفوذ في الدولة الرومانية . وبفضل مساعدة هذه الأسرة انتخب ماريوس أحد ترابنة العامة لعام ١١٩ ق . م . فكان ذلك بداية لحياة عامة بعيدة الأثر في مجرى التاريخ الروماني . وبرغم ما فُطر عليه ماريوس من الطموح وبرغم اتصاله بأكثر رجال عصره ثقافة ورقة حاشية ، فإنه لم يحذ حذوهم في الانتهال من موارد الثقافة الإغريقية ، ولم يستطع إطلاقاً أن يصقل سلوكه ويتخلص من خشونته الريفية . ولعل أنه أدرك أنه في وقت كانت روما تفتقر فيه الى الرجال

(29) Diod., XX, 90; Liv., IX, 44; X, 1.
(30) Liv., XXXVIII, 36; Festus, 262 L; Cic., pro Planco, 20.

العسكريين النابهين كانت مواهبه العسكرية وحدها كفيلة بأن تحقق له أطماعه .

ونحن لا نعرف شيئاً عن نشاط ماريوس في الحياة العامة منذ عودته من اسبانيا في عام ١٣١ ق . م . الى أن كان تريبوناً للعامة في عام ١١٩ ق . م . واذا كانت تصرفاته فيما بعد توحي بأنه كان يعطف على سياسة الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس ، فإنه ليس هناك ما يشير الى أنه قام بأي دور إيجابي سواء في تأييد هذه السياسة أم في الأحداث التي أودت بحياة جايوس والكثيرين من أنصاره في عام ١٢١ ق . م .

وعندما أصبح ماريوس تريبوناً للعامة أظهر بجلاء من الدلائل ما يشير الى تمتعه بالجرأة وقوة الشخصية والاستقلال في الرأي . ذلك أنه اقترح مشروع قانون لا نعرف عنه إلا أنه كان من شأنه الإقلال الى أدنى حد ممكن من فرص التأثير على المواطنين عند الإدلاء بأصواتهم . وقد أثار هذا المشروع ثائرة النبلاء فلم يكن من القنصل لوقيوس قوتّا (Cotta) — زميل لوقيوس متلّوس في قنصلية عام ١١٩ ق. م . — إلا أنه أقنع السناتو باتخاذ قرار يقضي باستدعاء ماريوس أمام السناتو لتفسير سلوكه . وهذا يوحي بأن ماريوس لم يكن قد أخذ موافقة السناتو مسبقاً على مشروع قانونه . ويحدثنا بلوتارخ بأنه عندما مَثُل ماريوس أمام السناتو لم يتصرف تصرف شاب دخل لتوه الحياة العامة دون أن يكون له من جلائل الأعمال ما يشد أزره وإنما أظهر على الفور تلك الثقة بالنفس التي زودته بها أعماله العظيمة المقبلة . ذلك أنه عندما احتدم النقاش وانتصر متلّوس لزميله القنصل ولمعارضي مشروع القانون لم يفقد ماريوس رباطة جأشه بل أمر بإلقاء القبض على القنصلين فانهارت المعارضة ومضى ماريوس في سبيله واستصدر قانونه[٣١] (Lex Maria Tabellaria) .

وإزاء ذلك كان طبيعياً أن يفقد ماريوس عطف النبلاء وفي مقدمتهم أسرة متلّوس، وأن يكتسب تهليل العامة ، ولكن العامة ما كادوا يهللون لظهور زعيم

(31) Plut., Marius, IV, 1-3; Cic., de Leg., III, 17, 38.

جديد لا يخشى التصدي للسناتو حتى أفهمهم ماريوس في مناسبة تالية أنه لا يخشى كذلك التصدي لهم . ذلك أنه عندما حدث بعد فترة قصيرة أن عُرض مشروع قانون للتوسع في بيع القمح بسعر زهيد لم يتردد ماريوس في معارضة هذا المشروع والحيلولة دون إقراره ، وبذلك أثبت للعامة والنبلاء على السواء أنه « رجل لا يحابي أياً من هذين الفريقين على حساب الصالح العام »(٣٢) . وهنا تجدر الإشارة الى أنه كان قد حدث قبل ذلك أن تريبوناً من ترابنة العامة يدعى مارقوس أوقتافيوس — وكان رجلاً آخر غير زميل تيبريوس جراكوس — ألغى(٣٣) قانون القمح الذي استصدره جايوس جراكوس ، واستبدل به قانوناً أخف منه وطأة على الخزانة العامة(٣٤) .

وفي وقت ما تزوج ماريوس « يوليا » (Julia) وكانت ابنة سكستوس قيصر الذي أصبح قنصلاً في عام ٩١ ق . م . وعمة يوليوس قيصر ، وبذلك اكتسب ماريوس تأييد أسرة رومانية عريقة . وبعد فشله في انتخابات عام ١١٧ ق . م . لتولي منصب الأيديلية نجح بصعوبة في انتخابات عام ١١٦ لتولي البرايتورية في العام التالي (عام ١١٥ ق . م .) ، فقد جاء في مؤخرة المرشحين الذين نجحوا واتهم بالرشوة في الانتخابات وقدم للمحاكمة إلا أنه على عكس ما كان منتظراً برئت ساحته لتساوي عدد الأصوات المؤيدة للإدانة والمعارضة لها . وتوحي عبارات بلوتارخ بأن التهمة كانت صحيحة وبأن ماريوس لم ينج من الإدانة إلا برشوة بعض المحلفين الذين كانوا يميلون الى إدانته(٣٥) .

ولم يقم ماريوس بأي عمل يستحق الذكر في أثناء برايتوريته ، ولكنه عندما أرسل في العام التالي (١١٤ ق . م .) ليتولى حكم ولاية إسبانيا القاصية (Hispania Ulterior) بوصف كونه قائماً بعمل برايتور (pro praetore)

---

(32) Plut., Marius, IV, 4.
(33) Cic., Brutus, 62, 222; C.A.H., IX, p. 95; Scullard, 1970, p. 47
(34) Cic., de Off., II, 21, 72.
(35) Plut., Marius, V; T.F. Carney, Acta Juridica, 1959, pp. 232 ff.

استطاع أن ينشر الأمن والسلام في ربوع ولايته[٣٦]. وبعد ذلك لا نلتقي بماريوس قبل اختياره في عام ١٠٩ ق . م . مساعداً (legatus) لقائد الحملة التي أرسلت ضد يوجورتا على نحو ما سنرى فيما بعد .

ولما كانت أهم الأحداث الداخلية التي وقعت في الشطر الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد تختلط اختلاطاً شديداً بحرب يوجورتا وحرب القيمبرى والتيوتون، فإننا سنعرض لها في المكان المناسب .

الاحداث الخارجيـــة

في خلال الفترة التي نحن بصددها الآن شغلت روما بعدد من المتاعب في شمال إيطاليا وفي البلقان وفي أفريقيا . وقبل أن تنفض روما يدها من حرب يوجورتا في أفريقيا تهددتها أخطار القيمبرى والتيوتون . وسنرى أن مشاغل شمال إيطاليا والبلقان اقتضت من روما خوض سلسلة من الحروب كانت بعضها قليلة الأهمية في ذاتها ولكنها في مجموعها أفضت الى الربط من ناحية بين إيطاليا وولاية مقدونيا ومن ناحية أخرى بين إيطاليا والولايتين الرومانيتين في إسبانيا ، فقد عرفنا أنه كان من جراء إنشاء ولاية غاليا فيما وراء الألب أن روما أصبحت تسيطر على منطقة تتصل بعضها ببعض من إيطاليا حتى إسبانيا .

اولاً — شمال إيطاليا

كانت تعيش في شمال إيطاليا قرب السفوح الجنوبية لجبال الألب مجموعة من القبائل المتبربرة المشاغبة . وتحدثنا المصادر القديمة بأنه في عام ١١٨ ق . م .

(36) Plut., Marius, VI.

أخضعت روما إحدى[٣٧] هذه القبائل المشاغبة (Stoeni) . ويحتمل أن مضارب هذه القبيلة كانت في المنطقة الجبلية الواقعة شمال غربي بحيرة جاردا . وفي عام ١١٥ ق . م . أرسلت روما حملتين تأديبيتين إحداهما ضد قبيلة (Karni) كانت تنزل شرقي القبيلة السالفة الذكر والأخرى ضد الليجوريين وجيرانهم من الغال[٣٨] . وقد كان من جراء هذه الحملات نشر الأمن والسلام في ربوع وادي البو[٣٩] .

وينم عن سياسة روما التي كانت تستهدف دعم سيطرتها على شمال إيطاليا وتيسير اتصالها بالغرب الأعمال الإنشائية التي قام بها ماركوس آيميليوس سقاوروس حين كان قنصوراً في عام ١٠٩ ق . م . فقد استبدل سقاوروس بالجسر الخشبي القديم[٤٠] (Pons Mulvius) جسراً من الحجر وأنشأ طريقاً جديداً[٤١] عرف باسمه (Via Aemilia Scauri) . وكان هذا الطريق امتداداً لطريق قديم (طريق اورليوس ، Via Aurelia) يخرج من روما ويتجه صوب الشمال الغربي في أترووريا . وكان طريق آيميليوس سقاوروس يبدأ من بيساي (Pisae) أو لونا (Luna) في أترووريا ويمضي مقترباً من الشاطىء حيثما أمكن ويصل الى جنوا حيث كان يلتقي بطريق بوستوميوس (Via Postumia) الذي أنشىء عند منتصف القرن الثاني قبل الميـــلاد للاتصال بوادي البو . ولم يقف طريق سقاوروس عند جنوا بل كان يمتد الى ما وراء ذلك بحوالي خمسين كيلومتراً حتى مكان على الساحل يدعى فادا

---

(37) Liv., Ep., 62; Oros., V, 14; Fasti triumph. Q. Marcius Rex.

(38) (Victor) de Vir. Ill., 70; Fasti triumph. Consul M. Aemilius Scaurus.

(39) Cic., de Inv., II, 37, 111; in Pis., 26, 22.

(٤٠) كان هذا الجسر مقاماً على نهر التيبر شمالي روما ويبدأ منه الطريق الشمالي العام ، طريق فلامينيوس (Via Flaminia) وهو الطريق الذي أنشأه جايوس فلامينيوس حين كان قنصوراً في عام ٢٢٠ ق.م.

(41) (Victor) de Vir. Ill., 72; Strab., V, 1, 11; R. Delbrueck, Hellenistische Bauten in Latium, I; T, Frank, Roman Buildings of The Republic, p. 141.

ساباتيا (Vada Sabatia) . ويدل على الأهمية التي أصبح الرومان يعلقونها على تيسير الاتصال بوادي البو أن سقاوروس أنشأ طريقاً ثانياً يخرج من فادا ساباتيا ويتجه صوب الشمال الشرقي ليلتقي عند درتونا (Dertona) مع طريق بوستوميوس القادم من جنوا . وكان هذا الطريق الثاني الذي أنشأه سقاوروس يمتاز على طريق بوستوميوس من حيث أنه كان يجتاز الأبنين عن طريق ممر أيسر كثيراً في العبور من الممر الذي كان طريق بوستوميوس يسلكه . وفضلاً عن ذلك فإنه بعد إنشاء الطريق الجديد أصبح هناك طريقان يمكن استخدام أيهما تبعاً للظروف من أجل اجتياز أكثر المناطق وعورة بين ساحل ليجوريا ووادي البو . وكانت نقطة التقاء هذين الطريقين ذات أهمية كبيرة . واذا كانت قد أنشئت هناك مستعمرة رومانية قبل عام ١٠٨ ق . م . فإنه يحتمل ان يكون على الأقل قد زيد عدد نزلائها حوالي ذلك الوقت . وأما فيما يخص الانتقال في المنطقة الممتدة من فادا ساباتيا إلى بداية طريق دوميتيوس (Via Domitia) – وهو الذي عرفنا أنه كان يبدأ من معبر نهر الرون (Traiectus Rhodani) ويمتد حتى إسبانيا – فإنه الى أن أنشيء في هذه المنطقة فيما بعد طريق معبد (Via Julia Augusta) يبدو أن الرومان اكتفوا مؤقتاً بالدرب الذي كان موجوداً ويكفل لهم الاتصال براً بالغرب وهم في مأمن من القراصنة[٤٢] .

ثانياً – البلقان

وكانت البلقان مسرحاً جم النشاط للرومان منذ عام ١٣٥ ق . م . ذلك أن الانتصارات التي أحرزها عندئذ سرفيوس فلاقوس على شاطيء دلماتيا (Dalmatia) ومارقوس قوسقونيوس (Cosconius) في الداخل لم تؤد الى استقرار الأوضاع في إلّوريقوم (Illyricum) مما حدا بالقنصل

(42) Heitland, II, pp. 334-5.

جايوس سمبرونيوس توديتانوس الى القيام في عام ١٢٩ ق. م. بحملة ضد أهالي إقليم قارسو (Carso) في الشمال الغربي من إلوريقوم والى الجنوب الشرقي من أكويليا ولكنه مُني بالفشل . بيد انه بعد انضمام يونيوس بروتس إليه أمكن دعم سيطرة روما على دلماتيا الى ما وراء زارا[٤٣] (Zara) في مواجهة جزيرة قورقورا (Corcyra = كورفو) .

وبعد أن هدأ بال روما من ناحية البلقان حوالي عشر سنوات في أعقاب هذا النصر ، ظهرت لها في عام ١١٩ ق . م . متاعب جديدة في ناحية أخرى من البلقان حين اشتبكت قبيلة الإسقورديسقي (Scordisci) مع سكستوس بومبي الحاكم الروماني لولاية مقدونيا . وكان الإسقورديسقي قبيلة قلتية كبيرة تنزل في تراقيا جنوبي الوادي الأدنى لنهر الساف ويمتد إقليمها شرقاً عبر نهر الموراف . وقد أنزلت هذه القبيلة هزيمة فادحة بالقوات الرومانية[٤٤] مما اقتضى لوقيوس قايقيليوس متلّوس — أحد قنصلي عام ١١٩ ق . م . — أن يقضي ذلك العام والعام التالي، بوصف كونه عندئذ بروقنصلاً ، في شن حرب لا هوادة فيها ضد الإسقورديسقي ليثأر للشرف الروماني ويسترد هيبة الرومان ومكانتهم في هذه المنطقة . وقد نجح متلّوس في مهمته وأكسبه هذا النجاح حق الاحتفال في عام ١١٧ ق . م . بانتصاره وحمل لقب دلماتيقوس[٤٥] (Delmaticus) .

وفي عام ١١٥ ق . م . خرج مارقوس آيميليوس من أكويليا ميمماً وجهه صوب الشمال الشرقي حيث نشر النفوذ الروماني بين الشعوب النازلة في المنطقة التي ينبع منها نهر الساف وكسب صداقة هذه الشعوب وكان أبرزها شعب التاوريسقي (Taurisci) . ويبدو أنه حوالي هذا الوقت تعرضت

(43) Liv., Ep., 59; Plin., N.H., III, 19, 29; Degrassi, Inscr. Ital., XIII, 1, 3 n. 90, pp. 73 ff

(44) Dittenberger, Syl. Insc., 3rd ed., 1915 ed., 1915, 700.

(45) Liv., Ep. 62; App., Illyr., 11; Fasti triumph, L. Caecilius Metellus pro consule Delmaticus.

مقدونيا لخطر شديد من ناحية الإسقورديسقي بوجه خاص وبعض القبائل التراقية الأخرى . بيد أنه ليست لدينا معلومات أكيدة إلا عن الهزيمة الساحقة التي أنزلها الإسقورديسقي بجايوس بورقيوس قاتو[٤٦] ، أحد قنصلي عام ١١٤ ق . م . مما أسهم في إدانته بتهمة ابتزاز الأموال من ولاية مقدونيا[٤٧] . ولم يمح عار الرومان ويثأر لهذه الهزيمة إلا الجهود التي بذلها جايوس متلوس قابراريوس (Caprarius) في عام ١١٢ ق . م . وبوجه خاص ماركوس ليفيوس دروسوس — غريم جايوس جراكوس وزميله في تريبونية عام ١٢٢ ق . م . — فقد أفلح في مطاردة الإسقورديسقي الى ما وراء الدانوب[٤٨] . ومع ذلك فإن الإسقورديسقي لم يلبثوا أن عاودوا هجماتهم مما يبدو أنه شجع قبائل تراقية أخرى على الانضمام اليهم في عدوانهم . وإزاء هذا الخطر قاد ماركوس مينوقيوس روفوس — أحد قنصلي عام ١١٠ ق . م . — سلسلة من الحملات تمكن بفضلها من أن يكسر مؤقتاً شوكة الإسقورديسقي ويهزم القبائل التراقية الأخرى التي شاركتهم العدوان ، مما أكسب مينوقيوس حق الاحتفال في عام ١٠٦ ق . م . بانتصاره الذي أقام بهواً تذكارياً[٤٩] (Porticus Minucia) لتخليده .

وإذا كان نتيجة لكل هذه الضروب من النشاط التي بذلها الرومان في البلقان أنه قد أصبح يتوافر لديهم اتصال بري مباشر بين إيطاليا وولاية مقدونيا ولم يعد يفصل هذه الولاية عن ولاية آسيا إلا تراقيا ، فإن تأمين الحدود الشمالية للبلقان لم يتحقق إلا في فترة تالية ، على نحو ما سنرى .

---

(46) Liv., Ep., 63; Florus, I, 39.
(47) Velleius, II, 8; Cic., in Verr., III, 80, 184; IV, 10, 22.
(48) Liv., Ep., 63; Florus, I, 39.
(49) Liv., Ep., 65; Velleius, II, 8; Florus, I, 39; Eutrop., IV, 27; Degrassi, I.L.L.R.P., I, p. 337.

ثالثاً ـ حرب يوجورتا[٥٠]

١ ـ نوميديا :

جرت أحداث هذه الحرب في نوميديا (الجزائر على وجه التقريب) وكانت في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد تنقسم الى قسم شرقي يحكمه أمير يدعى ماسينيسا (Masinissa) وقسم غربي على رأسه أمير يدعى سوفاكس (Syphax) . وحدث أن الأمير الثاني طرد الأول من إمارته في أواخر الحرب البونية الثانية وانضم الى قرطجنة في محاربة الرومان عندما نقلوا مسرح الحرب الى أفريقيا ، فكان طبيعياً أن ماسينيسا انحاز الى جانب الرومان وقدم لهم مساعدات قيمة في موقعة زاما (عام ٢٠٢ ق . م .) . وقد كافأ الرومان ماسينيسا على خدماته بإقامته ملكاً على نوميديا بأجمعها وبمساعدته على نشر نفوذه على حساب قرطجنة ، فامتد سلطانه قبل وفاته في عام ١٤٩ ق . م . من حدود موريتانيا في الغرب الى حدود قورينائية في الشرق . وبطبيعة الحال لم تكن نوميديا مملكة مستقلة تمام الاستقلال عن روما وإنما إحدى توابعها التي تدور في فلكها . وقد كان الخوف من انتعاش قرطجنة ثانية عاملاً هاماً من عوامل دعم صلات الود بين روما ونوميديا ولذلك فإنه عندما دمر الرومان قرطجنة تدميراً شاملاً في عام ١٤٦ ق . م . تبددت نهائياً تلك المخاوف التي كانت تدفع نوميديا الى مناشدة الرومان المساعدة وإطاعة أوامرهم باستمرار منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، ولكن أمر نوميديا ظل يعني الرومان وبخاصة لكونها جارة ولاية أفريقيا .

---

(٥٠) إن مصدرنا الرئيسي عن هذه الحرب هو كتاب سالوستيوس « حرب يوجورتا » (Bellum Jugurthinum) ولكنه يجب استخدام هذا المصدر بقدر كبير من الحذر لافتقاره في كثير من المواضع الى الدقة في التواريخ والمعلومات الجغرافية والعسكرية . وتوجد عن هذه الحرب بعض المعلومات السطحية المتناثرة في ملخصات الأجزاء المفقودة من كتاب ليفيوس وفيما نقله عن هذه الملخصات يوتروبيوس وأوروسيوس ، وفيما كتبه بلوتارخ وأبيانوس وديون قاسيوس .

وعندما توفي ماسينيسا قسم الرومان مملكته بين أبنائه الثلاثة الشرعيين ولكنه بوفاة اثنين منهما آلت كلها الى أحدهم وهو ميقيبسا (Micipisa) ، وكان رجلاً معتدلاً مسالماً ظل يتبع سياسة أبيه الموالية لروما حتى توفي في عام ١١٨ ق. م. وعندما انفرد ميقيبسا بالملك آوى في قصره يوجورتا (Jugurtha) ، وكان ابن أحد أخويه ولكن ميقيبسا رفض عندئذ الاعتراف به أميراً ملكياً لأنه لم يكن ثمرة زواج شرعي . وعندما أنجب ميقيبسا ابنين وهما أدهربال (Adherbal) وهيمبسال (Hiempsal) كان طبيعياً أن يثير ذلك غيرة الشاب الطموح يوجورتا الذي نجح في اكتساب محبة كبيرة بين الناس بفضل ذكائه وشجاعته وحبه للمخاطرة وقدرته على إنشاء الصداقات مما أثار مخاوف ميقيبسا ، فأرسله في عام ١٣٤ على رأس القوة التي أسهمت بها نوميديا في حرب نومانتيا على أمل أن يقضي نحبه في هذه الحرب الضروس[٥١] .

بيد أن النتيجة كانت على عكس ما ارتجاه ميقيبسا ، فقد تمكن يوجورتا بذكائه وجرأته من اكتساب ثقة القائد الروماني سقيبيو آيميليانوس. وتعلم أساليب القتال الرومانية ، والوقوف على الكثير من نقائص الرومان ، مما أثار في نفسه الأطماع ليفيد من مواهبه ومن مكامن الضعف في روما حيث كان لكل شيء ثمنه فيقيم نفسه ملكاً على نوميديا بعد وفاة عمه[٥٢] . وعندما انتهت الحرب ، عاد يوجورتا الى نوميديا محملاً بالهدايا الثمينة من سقيبيو وكذلك مزوداً من هذا القائد برسالة الى الملك كلها ثناء على شجاعة يوجورتا والخدمات الجليلة التي أداها لروما في أثناء الحرب[٥٣] . ويحتمل أنه فيما بين عامي ١٢١ و ١١٨ ق . م .[٥٤] تبنى ميقيبسا ابن أخيه ظناً منه أنه على هذا النحو يستطيع أن يكسب جانبه ويؤمن مستقبل ابنيه ، وتبعاً لذلك أوصى ميقيبسا بأن يخلفه على العرش ابناه الشرعيان أدهربال وهيمبسال وابنه بالتبني يوجورتا . ويقال

(51) Sallust., B. Jug., V-VII, 2.
(52) Sallust., VII, 3 — VIII, 1.
(53) Sallust., VIII, 2 — IX, 2.
(54) Sallust., XI, 6.

إنه عندما مرض ميقيبسا ودنت منيته أوصى ورثته بأن يكونوا يداً واحدة كما أوصى يوجورتا خيراً بشريكيه في الملك[٥٥] .

٢ ـ أطماع يوجورتا وعجز السناتو عن كبحها :

وعندما توفي ميقيبسا في عام ١١٨ ق . م . خلفه على العرش ورثته الثلاثة ، ولكن يوجورتا لم يلبث أن كشف القناع سريعاً عن أطماعه، إذ يحتمل أنه في عام ١١٧ ق . م.[٥٦] دبر يوجورتا مقتل هيمبسال فانقسم النوميديون فريقين غير متكافئين ، ذلك أن أكثرهما عدداً انضم الى أدهربال على حين أن أكثرهما تمرساً بالقتال انحاز الى يوجورتا . وقد بادر أدهربال بارسال مبعوثيه الى روما لإبلاغها بمقتل أخيه وأخذ يستعد لمجابهة يوجورتا ، ولكنه هُزم في أول اشتباك بينهما وفر الى روما [٥٧].

وبعد أن تخلص يوجورتا على هذا النحو من شريكيه ، بقي عليه أن يؤمن مركزه باكتساب اعتراف الرومان به . وتبعاً لذلك أرسل الى روما بعثة مزودة بكميات كبيرة من الذهب والفضة وأوصى مبعوثيه بألا يدخروا وسعاً في شراء ذمم كل من يستطيعون لتحقيق مأربه . ولم يكد هؤلاء المبعوثون يصلون الى روما حتى أخذوا يوزعون الرشاوى يمنة ويساراً[٥٨] .

وعندما طرحت المسألة أمام السناتو حوالي عام ١١٦ ق . م . عرض الفريقان روايتين متضاربتين تمام التضارب : فقد ندد أدهربال بأخلاق يوجورتا ، واتهمه بقتل أخيه وطرده هو شخصياً من مملكته التي ورثها شرعاً عن جده الذي أدى لروما خدمات جليلة وعن أبيه الذي كان صديقاً وفيـاً للرومان ، وطالب بمعاقبة يوجورتا ورد إرثه الشرعي إليه . وورد مبعوثو يوجورتا بأن النوميديين هم الذين قتلوا هيمبسال بسبب قسوته المتناهية ،

---

(55) Sallust., IX, 2 — X.
(56) Liv., Ep., 62.
(57) Sallust., XI, 2 — XIII, 4.
(58) Sallust., XIII, 5-8.

وبأن أدهربال شن حرباً لامبرر لها وهزم فيها، وبأن يوجورتا لم يتغير عما كان عليه في نومانتيا [٥٩] . وبرغم هذا التضارب بين روايتي الفريقين فان الرشاوى التي وزعها مبعوثو يوجورتا – وكان أمرها شائعاً معروفاً – ألقت الشكوك على رواية المبعوثين مما حفز بعض أعضاء السناتو ، وفي مقدمتهم سقاوروس ، على تأييد أدهربال . ولكنه إزاء الخدمات التي سبق ليوجورتا أداؤها وبفضل الرشاوى التي وزعها اتخذ السناتو قراراً وسطاً يقضي بتشكيل لجنة برياسة أوبيميوس لتقسيم نوميديا بين يوجورتا وأدهربال . ويحدثنا صالوستيوس بأنه عندما وصلت اللجنة الى إفريقيا أحسن يوجورتا وفادتها ورشا الكثيرين من أعضائها فاختصته بالقسم الغربي من المملكة وكان أوفر خصوبة وأكثر سكاناً من القسم الشرقي الذي أعطته لأدهربال وكان يبدو شكلاً أفضل من القسم الأول لأنه كان يفوقه من حيث كثرة عدد الموانى والمنشآت [٦٠] . واذا كنا لا نستبعد أنه كان للرشوة دورها في تحديد مساحة كل من هذين القسمين ، فإننا نرجح أن العامل الأساسي في إعطاء القسم الشرقي لأدهربال هو أن هذا القسم كان مجاوراً لولاية أفريقيا وأنه لم يكن من صالح روما أن يجاور هذه الولاية ملك مثل يوجورتا قد يسبب لها طموحه وجرأته متاعب كانت هي في غنى عنها .

ولسنا نعرف عن يقين تاريخ الأحداث التالية ، وإن كان يبدو أنه لم ينقض على هذا التقسيم وقت طويل قبل أن حاول يوجورتا جر أدهربال الى محاربته بأن أغار ذات مرة على منطقته واستولى على بعض الأسرى والأسلاب ثم انسحب . ولما لم تؤد هذه الإغارة الى أكثر من احتجاج دبلوماسي ، أعد يوجورتا جيشاً كبيراً وقام بغزوة واسعة النطاق مما أرغم أدهربال على أن يتصدى ليوجورتا، وفي الوقت نفسه أنفذ بعثة الى روما لإبلاغها بما حدث . وعندما هُزم أدهربال في أول اشتباك مع خصمه ، انسحب الى عاصمته

(59) Sallust., XIV-XV, I.
(60) Sallust., XV, 2 — XVI.

قيرتا [٦١] (Cirta) وكان أغلب سكانها من التجار الإيطاليين وقد استجابوا الى نداء أدهربال وهبوا هبة صادقة للدفاع عن المدينة . وفي أثناء قيام يوجورتا بمحاصرة قيرتا وصلت بعثة من السناتو للتوفيق بين الخصمين وإنهاء القتال . ولما لم تفلح هذه البعثة في عمل شيء أرسل أدهربال من جديد يستصرخ السناتو لإنقاذه، ولكن السناتو لم يفعل أكثر من أنه أنفذ على عجل بعثة أخرى كان سقاوروس أحد أعضائها . وعندما وصلت البعثة الى أوتيقـــا (Utica) في ولاية أفريقيا أرسلت في استدعاء يوجورتا ، فحاول اقتحام قيرتا عنوة ليستولي عليها وعلى غريمه قبل مقابلة البعثة ، ولكنه فشل في محاولته وخشي مغبة استبقاء البعثة في انتظاره أطول من ذلك فخف اليها . وبعد لقاء طويل وحديث كثير تخلله إنذار يوجورتا بالويل والثبور اذا لم يفك الحصار ، عادت البعثة أدراجها دون أن تفلح في الوصول الى نتيجة[٦٢] .

وعندما تناهت الى قيرتا أنباء فشل هذه البعثة أيضاً ، تصور الإيطاليون — وهم الذين كانوا أصحاب أكبر الفضل في صمود هذه المدينة أمام يوجورتا — أنهم اذا سلموا سوف ينجون بحياتهم اعتماداً على مكانة روما وهيبتها . وتبعاً لذلك نصحوا أدهربال بالتسليم بشرط ألا يمسه يوجورتا بسوء وأن يترك للسناتو أمر الفصل في النزاع . ولما لم يكن أدهربال في مركز يمكنه من إرغام الإيطاليين على الاستمرار في المقاومة ، فإنه نزل عند رأيهم . وعندما فتحت المدينة أبوابها لم يكتف يوجورتا بقتل أدهربال بل إنه أعمل السيف في كل النوميديين البالغين وكذلك في كل الإيطاليين الذين وجد معهم سلاحاً [٦٣] ، مما يدل على مدى استهانته بروما وتصوره أنه كان في وسعه أن يفعل ما يشاء طالما أنه لديه من الأموال ما يمكنه من شراء ذمم ذوي النفوذ من الرومان .

---

(٦١) يرجح أن موقعها كان عند قسطنطينية (Scullard, 1970, n. 12 p. 399) ولكن البعض يقترح «الكف»
(R. Charlier, L'Antiquité Classique, 1950, pp. 289 ff.).

(62) Sallust., XX-XXV.

(63) Sallust., XXVI.

٣ ـ أولى مراحل الحرب ، بستيا وسقاوروس ، يوجورتا في روما :

وعندما وصلت أنباء هذه المذبحة الى روما في أواخر صيف عام ١١٢ ق . م . وعرض الأمر على السناتو ، عمد عملاء يوجورتا الى التهوين من الفظائع وتعطيل وصول السناتو الى قرار ، مما حدا بجايوس مميوس (Memmius ـ وكان قد انتخب تريبوناً للعامة منذ قليل) الى شن حملة لاذعة على السناتو أهاجت الفرسان والعامة هياجاً شديداً ، فاضطر السناتو الى اتخاذ قرار باعتبار إيطاليا ونوميديا ولايتي قنصلي عام ١١١ ق . م . وبالموافقة على الاعتمادات المالية اللازمة لإرسال جيش الى أفريقيا . وعند إجراء القرعة بين القنصلين المنتخبين كانت نوميديا من نصيب لوقيوس قالبورنيوس بستيا [٦٤] ـ وهو الذي كان تريبوناً للعامة في ١٢٠ ق . م . واستصدر القانون الخاص باستدعاء بوبيليوس لايناس من منفاه . وعندما علم يوجورتا بالقرار غير المنتظر الذي اتخذه السناتو ، أنفذ الى روما مبعوثين لتدارك الموقف عن طريق الرشوة على نحو ما فعل المبعوثون الذين أوفدوا الى روما بعد قتل هيمبسال وطرد أدهربال ، ولكن السناتو رفض استقبال المبعوثين الجدد وأمر بأن يغادروا إيطاليا في ظرف عشرة أيام إلا اذا كانوا قد جاءوا يعرضون تسليم الملك ومملكته . وازاء ذلك اضطر المبعوثون الى العودة يجرون أذيال الفشل والخيبة [٦٥] .

وعندما أعد بستيا جيش الحملة اختار أفراد حاشيته جميعاً من النبلاء وكان من بينهم سقاوروس ، على أمل أن يتخذ منهم درعاً يقي أية حماقة يرتكبها ، فقد كان بستيا يتمتع بصفات عقلية وبدنية طيبة إلا أنه كان رجلاً جشعاً . وفي عام ١١١ ق . م . استهل بستيا حملته بمهاجمة النوميديين هجوماً قوياً اقتحم فيه عدداً من مدنهم واستولى على أسرى كثيرين [٦٦] . وعلى حين فجأة توقف هذا النشاط ودخل بستيا مع يوجورتا في مفاوضات تمخض عنها

(64) Sallust., XXVII.
(65) Sallust., XXVIII, 1-3.
(66) Sallust , XXVIII, 4-7.

وقف القتال والاعتراف بيوجورتا لقاء قيامه بتسليم ثلاثين فيلاً وعدد كبير من الماشية والخيول ودفع مبلغ صغير من المال . ويفسر صالوستيوس هذا التغير المفاجىء لمجرى الأحداث والوصول الى مثل هذا الاتفاق برشوة بستيا والمبلغ الكبير الذي تمكن يوجورتا عن طريقه من التغلب على معارضة سقاوروس المبدئية وإغرائه على الموافقة(٦٧) . واذا كان بعض الباحثين يقبلون رواية صالوستيوس فيما يخص بستيا فإنهم يترددون في قبولها فيما يخص سقاوروس ، ويشفعون ذلك بأنه كانت لهذه الاتفاقية بعض المزايا فقد أنهت حرباً محفوفة بالمخاطر وأعادت السلم وانطوى عقدها على الاعتراف ضمناً بتبعية نوميديا لروما(٦٨) ، ومعنى ذلك أن مزايا الاتفاقية وليست الرشوة هي التي دفعت سقاوروس الى الموافقة عليها . ونحن يصعب علينا أن نتصور أنه كانت هناك أية ميزة للاتفاق مع رجل مخاتل طموح مثل يوجورتا لم يحترم عهداً ولا ميثاقاً . وفضلاً عن ذلك فإن ما سبق عرضه يدل على أن تبعية نوميديا لروما لم تكن أمراً جديداً ، ولا جدال في أنه لم يكن لمثل هذا الاعتراف الضمني الجديد أية قيمة لصدوره عن رجل لا يقيم أي وزن سواء للوعود أم لروما ، وحسبنا دليلاً على ذلك مذبحة الإيطاليين في قيرتا . ولعل أننا لا نعدو الحقيقة اذا أبدينا أنه كان لا يمكن أن يعقد اتفاق مصالحة مع رجل مثل يوجورتا إلا رجال من طرازه تجردوا من البصيرة السياسية ومن كل القيم الأخلاقية .

وقد أهاجت هذه الاتفاقية وملابساتها الرأي العام في روما ، ذلك أن الفرسان هاجوا هياجاً شديداً لأنه بعد أن تهددت صوالحهم في نوميديا تهديداً خطيراً من جراء نشاط يوجورتا وجرأته التي دفعته الى ارتكاب مجزرة قيرتا

(67) Sallust., XXIX.
Von Fritz, Trans. Am. Philol. Ass., 1943, pp. 134 ff.; D.C. Earl, The
Von Fritz, Trans. Am. Philol. Ass., 1943, pp. 134 ff.; D.C. Earl, The
Political Thought of Sallust, 1961, esp. ch. V; V.R. Syme, Sallust, 1964, chs. X; XI; Gruen, Roman Politics, ch. V; Scullard, 1970, n. 12 p. 400.

لم يتلق رداً رادعاً ، ووجد الشعبيون في تقاعس الأخيار وفشلهم المزري وفساد ذممهم المفضوح فرصة ثمينة للنيل من الأخيار . وهكذا وجد السناتو نفسه في مأزق شديد الحرج ولا يدري كيف يتصرف ولا سيما أن الفضيحة تناولت زعيمه سقاوروس . ولم يكن من جايوس مميوس إلا أنه انبرى مرة أخرى لمهاجمة النبلاء هجوماً عنيفاً وإشعال لهيب حماس العامة فوافقوا على اقتراحه باستدعاء يوجورتا الى روما مع تأمينه على حياته للإدلاء بأسماء الذين ابتاع ذممهم منـــذ بدء النزاع ، وأسندوا الى البرايتور لوقيوس قاسيوس لونجينوس مهمة الذهاب الى نوميديا وإحضار يوجورتا(٦٩) .

وإذ استجاب يوجورتا الى الاستدعاء ، تعمد أن يجيء الى روما على هيئة من وقع به ضيم وجاء الرومان ينشد الإنصاف فارتدى ثياباً ذرية مهلهلة على نحو ما جرت عليه العادة في مثل هذه الظروف ، وذلك استدراراً للعطف . ولكي يؤمن يوجورتا نفسه ضد كل الاحتمالات اشترى بمبلغ كبير من المال ذمة تريبون العامة جايوس بايبيوس (Baebius) . وعندما مثل يوجورتا أمام جمعية القبائل سرد مميوس تدابير هذا الملك وجرائمه وطالبه بأن يعلن على الملأ أسماء الذين شجعوه وساعدوه على ما ارتكبه . بيد أن تريبون العامة المرتشي ، جايوس بايبيوس ، لم يلبث أن تدخل وأمر يوجورتا بأن يلوذ بالصمت . وبرغم هياج الشعب ووعيده فإن بايبيوس لم يتزحزح عن موقفه ، فانفض الاجتماع وتنفس يوجورتا وعملاؤه الصعداء(٧٠) .

وكاد يوجورتا أن يخرج مظفراً منتصراً على خصومه لولا أنه ارتكب حماقة جديدة . ذلك أنه كان قد فر الى روما بعد مذبحة قيرتا الأمير النوميدي ماسيفا (Massiva) ، وكان حفيد ماسينيسا وخصماً ليوجورتا . وحدث عندئذ أن سبوريوس ألبينوس (Spurius Albinus) ــ أحد اللذين انتخبا لقنصلية عام ١١٠ ق . م . ــ حرض هذا الشاب على أن يطلب الى السناتو

(69) Sallust., XXX-XXXII, 1.
(70) Sallust., XXX-XXXIV.

إقامته على عرش نوميديا . وإذ خشي يوجورتا عواقب هذه المحاولة أمر رجلاً من حاشيته يدعى بوميلقار (Bomilcar) تدبير اغتيال هذا المنافس الجديد فوراً ، فاستأجر بوميلقار بعض المجرمين لارتكاب هذه الجريمة وأفلح أحدهم في تنفيذها ولكنه أمكن القبض عليه واعترف على بوميلقار فألقي القبض عليه وأصبح واضحاً أن المحرض الأصلي على ارتكاب الجريمة كان يوجورتا نفسه . وقد دفع يوجورتا كفالة مالية للإفراج عن بوميلقار حتى يحين موعد محاكمته ولكنه ما أن أُخلي سبيله حتى ولى هارباً الى نوميديا . وبعد ذلك ببضعة أيام تبعه يوجورتا نفسه لأن السناتو أمره بمغادرة إيطاليا . ويحدثنا صالوستيوس بأنه عندما بارح يوجورتا روما تلفت اليها في صمت عدة مرات وأخيراً قال ما مؤداه « مدينة للبيع ومصيرها المحتوم هو الزوال سريعاً اذا وجدت مشترياً يستطيع دفع ثمنها . »[٧١]

٤ ـ ثانية مراحل الحرب : الأخوان البينوس :

في عام ١١٠ ق . م . استأنف القنصل سبوريوس البينوس الحرب ولكنه إزاء أساليب المراوغة التي عمد إليها يوجورتا تفادياً للاشتباك في معركة حاسمة مع القوات الرومانية لم يحقق البينوس أية نتيجة تذكر قبل اضطراره الى العودة الى روما لإجراء الانتخابات للعام التالي تاركاً قيادة الجيش لأخيه أولوس[٧٢] (Aulus) ، وكان مساعداً (legatus) للقائد بمرتبة قائم بعمل برايتور (pro praetore) . وعندما انفرد أولوس بالقيادة حاول الاستيلاء على بلدة سوثول (Suthul) حيث قيل إن كنوز الملك كانت مودعة فيها ولكنه فشل في محاولته ، ونجح يوجورتا في استدراجه الى مكان قصي في الغرب ، وذات ليلة هاجم المعسكر الروماني من كل ناحية وحاصره حصاراً شديداً وخيّر أولوس بين قتله هو ورجاله أو عقد الصلح معه والانسحاب وجيشه

---

(71) Sallust., XXXV; LXI, 1; Liv., Ep. 64.
(72) Sallust., XXXVI.

في خلال عشرة أيام . وبرغم الشروط المهينة التي عرضها يوجورتا فان أولوس قبلها وعقد الصلح إنقاذاً لحياته وحياة رجاله(٧٣) .

وإذا كان صالوستيوس في مستهل حديثه عن مغامرة أولوس الفاشلة يقول إن أولوس استدعى الجيش من معسكرات الشتاء في شهر يناير (أي في أول شهر من عام ١٠٩ ق. م .) للقتال(٧٤) ، فإنه يعود بعد ذلك فيقول « بعد المعاهدة المخزية التي عقدها أولوس وزع القنصلان المنتخبان، (Consules designati) متلّوس وسيلانوس الولايتين فيما بينهما »(٧٥) (إيطاليا ونوميديا) . ووصف متلّوس وسيلانوس بأنهما القنصلان المنتخبان ، ينم عن أنهما لم يكونا قد توليا عندئذ مباشرة أعمال منصبيهما وهو الأمر الذي كان يحدث عادة في أول يناير . ولا جدال في أن انتخابات عام ١١٠ ق . م . تأخرت ، كما سبق ذكره ، بسبب الخلاف الشديد الذي نجم عن إصرار اثنين من ترابنة ذلك العام على إعادة ترشيح نفسيهما للعام التالي ، ولكنه من المستبعد أن تكون الانتخابات القنصلية لعام ١٠٩ ق . م . قد تأخرت الى ما بعد بداية ذلك العام . ويقطع بذلك أنه في موضع آخر(٧٦) يحدثنا صالوستيوس بأنه بعد وصول أنباء الكارثة الى روما عرض « القنصل البينوس » أمر المعاهدة على السناتو وحشد تعزيرات جديدة وبأنه عندما منع ترابنة العامة « القنصل » من نقل هذه القوات أبحر بنفسه الى ولاية أفريقيا حيث كان الجيش قد انسحب اليها وفقاً للمعاهدة . وذهاب سبوريوس البينوس الى ولاية أفريقيا يدل على إجرائه الانتخابات قبل ذلك ، ووصفه « بالقنصل » عند إبحاره منفرداً الى أفريقيا يدل على أن عام قنصليته لم يكن قد انتهى . أي أن أول يناير لم يكن قد حل بعد . ولو أن هذا التاريخ كان قد حل بعد إجراء الانتخابات لكان القنصلان الجديدان قد توليا مهام منصبيهما ولما وصف سبوريوس عندئذ « بالقنصل » .

(73) Sallust., XXXVII, 3-XXXVIII; Liv., Ep., 64; Oros., V. 15.
(74) Sallust., XXXVII, 3.
(75) Sallust., XLIII, 1.
(76) Sallust., XXXIX.

وقد كان لعقد الصلح مع يوجورتا بمقتضى معاهدة أولوس رد فعل بالغ الأثر في روما. ذلك أن السناتو اعتبر هذه المعاهدة باطلة لأنها عقدت دون إذن منه ولا من الأمة الرومانية. وأهم من ذلك أنه في أوائل عام ١٠٩ ق. م. فيما يرجح نجح تريبون العامة جايوس ماميليوس ليمتانوس (Mamilius Limetanus) في أن يستصدر من جمعية القبائل قراراً بتشكيل هيئة قضائية من الفرسان لمحاكمة كل الذين حامت حولهم شبهات التواطؤ مع يوجورتا منذ البداية حتى ذلك الوقت. واذا كانت المحاولات التي بذلها في الخفاء أولئك الذين كانوا يخشون عواقب هذا القرار قد فشلت في منع صدوره، فإنها نجحت على الأقل في اختيار سقاوروس بين أعضاء الهيئة القضائية. ومع ذلك فإن هذه الهيئة تابعت عملها بنشاط محموم[٧٧]، وأدانت الكثيرين من النبلاء وكان أبرزهم أحد كبار الكهنة وهو جايوس جالبا وأربعة من القناصل السابقين وهم أوبيميوس وبستيا وسبوريوس ألبينوس وجايوس قاتو وتقرر نفيهم[٧٨].

٥ ــ ثالثة مراحل الحرب : متلّوس :

وفي عام ١٠٩ ق. م. تولى قيادة الحرب ضد يوجورتا القنصل كوينتوس قايقيليوس متلّوس، وكان من أكثر النبلاء نفوذاً وكفاية ونزاهة. وقبل أن يذهب متلّوس الى أفريقيا حشد قوات كبيرة وعُني بأن يختار مساعديه (legati) من أكثر الرومان خبرة وتمرساً بالقتال، وكان هذان المساعدان هما جايوس ماريوس، وقد سبقت الإشارة الى مواهبه العسكرية، وبوبليوس روتيليوس روفوس، وكان قد ألف عندئذ كتاباً عن التدريب العسكري.

وعندما وصل متلّوس الى ولاية أفريقيا ووجد أن جيش ألبينوس في حالة سيئة، لم يبادر الى مهاجمة يوجورتا قبل القيام بتدريب قواته وتنظيمها وبث روح عالية فيها، فقضى جانباً من الوقت في ذلك كما قضى جانباً آخر

(77) Sallust., XL.
(78) Cic., Brutus, 33, 127; 34, 128; pro Balbo, 11, 28; pro Sest., 67, 140; de Nat. Deor.. 111, 74; Gruen, Roman Politics, pp 142 ff.

في مفاوضات غير مجدية مع بعثة نوميدية . ولم يقم متلّوس في عام ١٠٩ ق . م . إلا بحملة قصيرة مركزة قبل أن يغير استراتيجيته . وفي خلال هذه الحملة استولى متلّوس على بلدة تجارية مزدهرة تسمى فاجا (Vaga) ثم التقى مع يوجورتا على ضفاف نهر يدعوه صالوستيوس نهر موثول (Muthul) في معركة انتهت بتبديد شمل النوميديين دون أن يحرز الرومان فيها نصراً حاسماً ، لأن يوجورتا ظل حراً طليقاً وفي وسعه حشد جيش آخر . وكانت أهم نتيجة لهذه المعركة هي أن متلّوس قرر أنه قد يكون أجدى عليه ألا يعمد ثانية الى الاشتباك مع العدو في معارك كبرى : بل أن يعمـــد الى أسلوب الاستنزاف بتخريب الأراضي الخصبة والاستيلاء على البلاد الآهلة بالسكان التي كانت نقط ارتكاز العدو ، وبذلك يتزعزع ولاء الأهالي لملكهم ويفقد يوجورتا بالتدريج مصدراً بعد آخر من مصادر موارده . وتبعاً لذلك قسم متلّوس قواته قسمين تولى بنفسه قيادة أحدهما وتولى ماريوس قيادة القسم الآخر ، وقام الإثنان بتنفيذ الخطة الجديدة إلى أن حل الشتاء، فانسحب متلّوس وماريوس مع الجانب الأكبر من الجيش الى ولاية أفريقيا تاركين وراءهما حاميات كافية للدفاع عما تم الاستيلاء عليه .

وفي أثناء توقف العمليات العسكرية بسبب الشتاء تابع متلّوس جهوده لإنهاء الحرب عن طريق إغراء بوميلقار بمختلف الوعود على أن يستغل ثقة يوجورتا فيه ويحتال عليه ويسلمه للرومان . بيد أن بوميلقار لم يفعل أكثر من أنه أقنع يوجورتا بالتسليم تلقائياً بدلاً من أن تضطره الظروف الى ذلك . وبالفعل أنفذ يوجورتا مبعوثين لإبلاغ متلّوس باستعداده للتسليم دون قيد أو شرط ثم أطاع ما أمر به متلّوس من دفع مبلغ كبير من المال وتسليم كل فيلته وعدد كبير من الخيول وأسلحة كثيرة . غير أنه عندما طلب اليه متلّوس الحضور الى المعسكر الروماني تردد طويلاً وآخر الأمر بدلاً من أن يسلم نفسه أخذ يستعد لاستئناف القتال . وفي هذه الأثناء كان عام ١٠٩ ق . م . قد انتهى وأطيلت مدة تمتع متلّوس بالسلطة التنفيذية عاماً آخر ليستمر بوصفه

بروقنصلاً في قيادة القوات الرومانية ضد يوجورتا (٧٩) .

ويحدثنا صالوستيوس بأنه عندما استأنف يوجورتا نشاطه أوعز الى أهالي فاجا بالثورة على الحامية الرومانية هناك ، فانتهزوا فرصة الاحتفال بعيد قومي حين كانت الحامية الرومانية لا تتوقع شراً وانقضوا عليها وقتلوا جميع أفرادها باستثناء قائدها تيتوس توربيليوس . وما أن علم متلّوس بذلك حتى زحف على فاجا ونكل بأهلها تنكيلاً وعقد مجلساً عسكرياً لمحاكمة توربيليوس . وإزاء عجز هذا الرجل عن دفع تهمة الخيانة عن نفسه تقرر جلده وإعدامه (٨٠) . وقد سبقت الإشارة الى هذه المسألة ومناقشة ملابساتها في معرض الحديث عن إعفاء اللاتين من الجلد بمقتضى أحد قوانين ليفيوس دروسوس . وبقي أن نشير هنا الى أن ماريوس كان أحد أعضاء المجلس العسكري السالف الذكر والى أن بلوتارخ (٨١) يعزو إدانة توربيليوس الى إلحاح ماريوس على ذلك . ولعل أن رواية بلوتارخ متأثرة بالمذكرات التي كتبها الدكتاتور صلا بعد نشوب خصومة عنيفة بينه وبين ماريوس ، على نحو ما سنرى فيما بعد .

وبعد أن كشف يوجورتا مؤامرة دبرها بوميلقار لاغتياله وأعدم المتآمرين، لم يعد يثق في أحد وأصبح دائب الحركة من مكان الى آخر (٨٢) . ولكن متلّوس فاجأه ذات مرة فاشتبك الفريقان في معركة دون نتيجة حاسمة لأن يوجورتا وأكثر رجاله رأوا نجاتهم في الفرار وولوا وجوههم صوب مكان يسمى ثالا (Thala) ، فاقتفى متلوس أثرهم ولكنه عند اقتراب الرومان سارع يوجورتا بالانسحاب . ولما كانت ثالا بلدة هامة فإن متلّوس صمم على أخذها ولذلك حاصرها أربعين يوماً الى أن وقعت في قبضته (٨٣) . وفي هذا

(79) Sallust., XLIII-LXII.

عن استراتيجية متلوس وتواريخ الاحداث عند تطبيقها، أنظر :

M. Holroy, J.R.S., 1928, pp. 1 ff.

(80) Sallust., LXVI-LXIX.

(81) Plut., Marius, VIII .

(82) LXX-LXXII, 2.

(83) LXXIV-LXXVI.

الوقت أنفذت مدينة لبدة (Leptis Magna) — إحدى مدن طرابلس الثلاث — بعثة الى متلّوس تناشده إرسال حامية اليها للقضاء على التدابير التي كان يقوم بها أحد عملاء يوجورتا لإشعال لهيب الثورة هناك . وكانت لبدة في بداية الحرب مع يوجورتا قد طلبت الى بستيا ثم الى روما عقد معاهدة تحالف وصداقة مع الرومان ، وعندما أجيبت الى طلبها ظلت صديقة وفية للرومان . ويحتمل أن ذلك كان أيضاً شأن شقيقتيها أويا وصبراطة . وقد استجاب متلّوس الى رجاء لبدة وأرسل اليها حامية بقيادة جايوس أنّيوس[٨٤] (Annius).

وبعد سقوط ثالا في قبضة الرومان اتجه يوجورتا الى الجنوب حيث كان يوجد إقليم الجايتولي (Gaetuli) وحشد منهم جيشاً وقام بتدريبه ، وكذلك عمل على كسب جانب بوكوس (Bocchus) ملك موريتانيا (المغرب على وجه التقريب) ، وكان يوجورتا قد تزوج إحدى كريمات هذا الملك قبل نشوب الحرب ، ومع ذلك فإنه في بداية الحرب عرض بوكوس على الرومان التحالف معهم ولكنهم رفضوا ذلك . ولم يجد يوجورتا صعوبة في إقناع بوكوس بالانضمام اليه في مقاتلة الرومان بحجة أنهم يكرهون الملوك ولا هدف لهم إلا الفتح والتوسع . وبعد أن تم الاتفاق بين الملكين زحفا بقواتهما على قيرتا حيث كان متلّوس قد وضع أسلاب الحرب وأسراه وعتاده[٨٥] .

وقد أغفل صالوستيوس ذكر أحداث كثيرة من أحداث هذه الحرب ، وكان أهم الأحداث التي أغفل ذكرها استيلاء الرومان على قيرتا وهي لم تكن فقط قلعة نوميديا بل أيضاً من أقوى المعاقل في الدنيا بأسرها . ومن المحتمل أن يكون الرومان قد انتهزوا فرصة انسحاب يوجورتا من ثالا وانشغاله بحشد جيش جديد من الجايتولي وبالتفاهم مع بوكوس ليقوموا بالاستيلاء على قيرتا بعد استيلائهم على ثالا[٨٦] .

---

(84) Sallust., LXXVII.
(85) Sallust., LXXX-LXXXI
(86) C.A.H., IX, p. 125, n. 1

وعند وصول الملكين الى قيرتا ، كان متلّوس في معسكر حصين بالقرب من هذه المدينة ولكنه آثر عدم الاشتباك معهما في معركة قبـل أن يعلم بمناوشات مبدئية عدد القوات الجديدة التي استقدمها العدو. وفي هذه الأثناء جاءت الأنباء من رومـا بإسناد القيـادة الى جايوس ماريوس ، فعمد متلّوس الى محاولة إقناع بوكوس بعدم التورط في الحرب(٨٧) .

٦ ـ رابعة مراحل الحرب : ماريوس

مر بنا أن متلّوس اختار جايوس ماريوس أحد مساعديه وأنه حين عمد متلّوس الى أسلوب حرب الاستنزاف بعد معركة نهر موثول وقسم قواته قسمين تولى هو قيادة أحدهما وتولى ماريوس قيادة القسم الآخر . وقد أظهر ماريوس في كل العمليات التي شارك فيها شجاعة فائقة وكفاية ممتازة . وبما أنه كان رجلاً طموحاً ولديه كل الصفات التي تؤهله لتولي منصب القنصلية فإنه طالب متلّوس أكثر من مرة بالسماح له بالذهاب الى روما لترشيح نفسه لهذا المنصب . وإزاء الصد الجارح الذي صادفه من متلّوس وكان يتضمن أنه لا يجوز لرجل مثله ـ أي « لرجل جديد » (novus homo) لم يسبق لأحد من ذويه تولي القنصلية ـ أن يدفعه طموحه الى هذا المدى ، أطلق ماريوس للسانه العنان في الإشادة بكفايته العسكرية وفي الحط من قدر متلّوس واتهامه بأنه يطيل الحرب عامداً ليتمتع بممارسة السلطة البروقنصلية، زاعماً أنه لو أسندت اليه قيادة جيش لا يزيد عدد رجاله على نصف عدد رجال متلّوس لأنهى الحرب في بضعة أيام . وحرص ماريوس بوجه خاص على أن يتحدث في ذلك كله مع التجار ، وكان يوجد منهم عدد كبير في أوتيقا ويعنيهم انتهاء الحرب التي كبدتهم خسائر كبيرة بسبب تعطيل تجارتهم . وسرعان ما نقلت الرسائل الى روما كل ما كان ماريوس يذيعه وصادف ذلك آذاناً صاغية لدى الفرسان حرصاً على صوالحهم وكذلك لدى الشعبيين ليكيلوا للأخيار لطمة

(87) Sallust., LXXXII-LXXXIII.

أخرى بعد أن أدانت عدداً منهم تلك الهيئة القضائية التي شكلت بناء على اقتراح ماميليوس ليمتانوس ، وبذلك أصبح الجو ممهداً لانتخاب ماريوس قنصلاً [٨٨] . وأخيراً عندما ضاق ذرع الصبر بمتلّوس إزاء إلحاح ماريوس سمح له (قبيل موعد الانتخابات في عام ١٠٨ ق.م. بإثني عشر يوماً — اذا صح ما يرويه بلوتارخ[٨٩] عن ذلك) بالذهاب الى روما حيث انتخب قنصلاً لعام ١٠٧ ق . م . ومما له دلالته أنه بعد انتخاب ماريوس ، ضرب الشعب عرض الحائط بما كان السناتو قد قرره من حيث استمرار متلّوس في تولي قيادة الحرب في عام ١٠٧ ق . م . ، ذلك أنه بناء على اقتراح أحد ترابنة العامة قرر الشعب بأغلبية كبيرة أن تسند الى ماريوس قيادة الحرب ضد يوجورتا[٩٠] . وبهذ القرار لم يلغ الشعب قرار السناتو فحسب بل اعتدى على حق السناتو في تحديد الولايات القنصلية وإسناد القيادات العسكرية وهو حق مارسه السناتو طويلاً .

وبعد فوز ماريوس بقيادة الحرب أولى اهتمامه الى حشد قوات لتعزيز الجيش الموجود في أفريقيا . ولم يكتف ماريوس في هذا الصدد بأن يحذو حذو ما فعله متلّوس منذ عامين أي باستدعاء قوات من الحلفاء اللاتين والإيطاليين والدول الخاضعة لنفوذ روما ، بل إنه استحدث سُنّة جديدة كانت لها عواقب خطيرة بفتح باب التطوع أمام كل مواطن روماني مهما يكن حظه من الثروة ، دون مراعاة ما كان معمولاً به حتى ذلك الوقت من حيث عدم تجنيد من لم يكن لديهم على الأقل الحد الأدنى لنصاب الثروة اللازم للتجنيد . وإزاء ما اكتسبه ماريوس بين الجماهير من إعجاب وما بثه فيهم من ثقة في النصر وأمل في الحصول على نصيب من أسلاب النصر تملكتهم رغبة شديدة في الخدمة تحت قيادة هذا القائد الشعبي القدير الذي أطلق لسانه

(88) Sallust., LXIII-LXIV; Plut., Marius, VIII, 3.
(89) Plut., Marius, VIII, 4.
(90) Sallust., LXXIII

في مهاجمة الأخيار جماعة وأفراداً . وسرعان ما ظهر أن « الرغبة الجامحة في الذهاب مع ماريوس » (lubido cum Mario eundi) وضعت تحت إمرته قوات كانت أضخم مما اقترحه أصلاً وكان أغلبها من أفقر المواطنين[٩١] (proletarii = capite censi) . وبعد أن ترك ماريوس وراءه في إيطاليا الكوايستور لوقيوس قورنليوس صلا (Sulla) ليحشد من الحلفاء اللاتين والإيطاليين قوة كبيرة من الخيالة[٩٢] ، أبحر الى أفريقيا ميمماً وجهه شطر أوتيقا حيث تسلم القيادة من بوبليوس روتيليوس روفوس ، المساعد الآخر لمتلوس ، لأن هذا القائد تفادى مقابلة ماريوس[٩٣] وعاد الى روما حيث احتفل في عام ١٠٦ ق . م . بانتصاراته على يوجورتا وحمل لقب نوميديقوس[٩٤] (Numidicus) عن جدارة ، لأنه في الواقع أنزل بيوجورتا ضربات شديدة وأضعف قواته ضعفاً كبيراً وحرمه شرق نوميديا ووسطها ، وإن كان لم تتح له الفرصة للقضاء عليه قضاء مبرماً . غير أنه يؤخذ على متلّوس أنه منذ أن علم بحرمانه القيادة وإسنادها الى ماريوس لم يحرك ساكناً وذلك حتى لا يأتي ماريوس ويجني ثمار جهوده جميعاً .

وعند وصول ماريوس وقواته الى أفريقيا ، انسحب يوجورتا وبوكوس واتخذ كل منهما موقعاً بعيداً عن موقع الآخر وليس من اليسير الاقتراب منه ، وبذلك أتاحا لماريوس فرصة ثمينة لتدريب رجاله تدريباً عملياً بالقيام بسلسلة من الهجمات على بعض القلاع والبلدان السهلة المنال بسبب ذات طبيعتها وافتقارها الى حاميات قوية . وبعد انقضاء أكثر عام ١٠٧ في هذه العمليات وفي بعض المناوشات ، اتبع ماريوس خطة تماثل الخطة التي اتبعها متلّوس بعد معركة نهر موثول ، فقد وضع نصب عينيه الاستيلاء على كل الأماكن

---

(91) Sallust., LXXXIV-LXXXVI, 3; Plut., Marius, IX; Val. II, 3, 1; Gell., XVI, 10, 10.
(92) Sallust., XCV.
(93) Sallust., LXXXVI, 4.
(94) Velleius, II, 11; Fasti triumph. Q. Caecilius Metellus Numidicus.

التي كان يمكن أن يتخذ منها يوجورتا قواعد له . وبفضل وفرة عدد رجال ماريوس كان يترك في كل مكان يتم الاستيلاء عليه حامية أكبر مما كان في وسع متلوس تركها . والحادث الوحيد في حملة عام ١٠٧ ق . م .الذي يتحدث عنه صالوستيوس تفصيلاً هو استيلاء ماريوس على قابسا (Capsa) ، وكانت بلدة كبيرة قوية في الجنوب ذات أهمية بالغة بالنسبة ليوجورتا بسبب مناعتها وصعوبة الوصول اليها . وعندما أرغم ماريوس قابسا على التسليم دون أن يكلفه ذلك خسائر تذكر ، دمر هذه البلدة وأعدم البالغين من أهليها وباع الباقين منهم في سوق النخاسة ووزع الثمن على جنوده ، فازدادت محبته ومكانته بين الجنود وأصبح النوميديون يخشون بأسه[٩٥] .

وبعد ذلك استولى ماريوس على عدة بلدان أخرى ، واذا كانت بعضها قد قاومته فإن أهالي أكثرها وقد أفزعهم ما جرى في قابسا آثروا السلامة وهجروا بلدانهم[٩٦] . ويبدو أن نشاط ماريوس في هذه العمليات استمر طوال شتاء عام ١٠٧/ ١٠٦ ق . م . وأنه ترتبت على هذه العمليات أن كل المنطقة الواقعة بين ولاية أفريقيا شرقاً وقيرتا وما الى جنوبها غرباً فقدت كل أمل لها في المقاومة وأصبحت في قبضة الرومان ، لأن صالوستيوس يحدثنا بأنه بعد ذلك أقدم ماريوس على عمل كان لا يقل صعوبة عن الاستيلاء على قابسا وإن لم يماثله خطورة وهو الاستيلاء على قلعة في وادي نهر مولوقا (Moluccha) ، وهو الذي كان يفصل بين مملكتي يوجورتا وبوكوس[٩٧] ، أي أنه كان على بعد حوالي ٨٠٠ كيلو متر غربي قيرتا . وهذا الزحف الطويل غرباً ينم عن أربعة أمور ، وأحدها هو أن الاستيلاء على هذه القلعة النائية كان جزءاً من حملة عام ١٠٦ ق . م . والأمر الثاني هو تخويل ماريوس الاستمرار في قيادة القوات الرومانية بوصف كونه بروقنصلاً . والأمر الثالث هو وصول صلا بتعزيزات الخيالة قبل الإقدام على هذه المغامرة البعيدة وليس في أثناء

(95) Sallust., LXXXVII-XCII, 2.
(96) Sallust., XCII, 3
(97) Sallust., XCII, 4-XCIV

مهاجمة القلعة على نحو ما يروي صالوستيوس[٩٨] . والأمر الرابع هو أن حملة عام ١٠٦ كانت تستهدف طرد يوجورتا من النصف الغربي من مملكته ، وكذلك إرهاب بوكوس بظهور القوات الرومانية على مشارف مملكته فيظل بعيداً عن الاشتراك في القتال ، إذ يبدو أنه لم ينقض وقت طويل على وصول ماريوس الى أفريقيا حتى انسحب بوكوس بقواته ودأب بعد ذلك على إرسال مبعوثيه الى ماريوس للإعراب عن رغبته في صداقة روما ولبث الطمأنينة في ماريوس من ناحيته[٩٩] .

ويحدثنا صالوستيوس بأنه بعد كل الخسائر التي لحقت بيوجورتا استصرخ بوكوس ليعود بقواته الى نوميديا ، وبأن يوجورتا لم يفلح في إقناع بوكوس بالانضمام اليه بقوات كبيرة إلا عندما أغراه على ذلك بأن وعده بالنزول له عن ثلث مملكته اذا نجحا سوياً في طرد الرومان من أفريقيا أو في إنهاء الحرب دون أن يفقد شيئاً من مملكته[١٠٠] . ويمضي صالوستيوس فيقول إنه لما كان فصل الشتاء قد اقترب ، فإن ماريوس قرر الزحف شرقاً لقضاء هذا الفصل على الساحل . واذا صح ما يرويه ديون قاسيوس وأوروسيوس[١٠١] ، نقلاً عن ليفيوس ولكن صالوستيوس يغفل ذكره ، وهو أن الرومان فقدوا عندئذ مؤقتاً مدينة قيرتا — وكانت حلقة هامة في خطوط مواصلات الرومان — فإن هذا يفسر سرعة زحف ماريوس شرقاً لاستعادة هذه المدينة . ومما يؤخذ أيضاً على صالوستيوس أنه يروي لنا أن بوكوس ويوجورتا اشتبكا مع ماريوس في معركتين : أولاهما حين كان يتأهب للذهاب الى معسكر الشتاء[١٠٢] ، أي حين كان لا يزال عند حدود موريتانيا ، والمعركة الثانية في اليوم الرابع من الأولى حين كان على مسافة قريبة من قيرتا[١٠٣] . ومعنى ذلك أن تكون

---

(98) Sallust., XCV, 1.
(99) Sallust., LXXXVIII, 5.
(100) Sallust., XCVII, 1-3.
(101) Dio Cass., fr. 89, 5; Oros., V, 15, 10.
(102) Sallust., XCVII, 3.
(103) Sallust., CI.

قوات الفريقين قد قطعت الجانب الأكبر من مسافة قدرها حوالي ٨٠٠ كيلو متر في خلال يومين ، وهذا أمر غير معقول . ولعل الأصح أن يكون الملكان قد تركا ماريوس يزحف شرقاً مسافة غير قصيرة دون التعرض له إدخالاً للطمأنينة على قلبه فتقل يقظته ، وذات مرة تحينا فرصة جنوح الظلام وانقضا عليه فجأة ولكنه تمكن من الصمود لهما وبلوغ تلين قريبين احتمى بهما هو وقواته . وقد أحاط جنود العدو بالتلين إحاطة تامة ولكنهم قضوا شطراً كبيراً من الليل في السمر الى أن غلبهم النوم . وعند بزوغ الفجر ، حين كانوا لا يزالون يغطون في نومهم ، انقضت عليهم القوات الرومانية وقتلت الكثيرين منهم وبددت شمل الباقين (١٠٤) . وبعد ذلك تابع ماريوس زحفه شرقاً متخذاً كل الاحتياطات خشية المفاجآت . فقد أسند الى صلا قيادة الجناح الأيمن حيث وضع الخيالة ، والى مساعده أولوس مانليوس (Manlius) قيادة الجناح الأيسر حيث وضع أصحاب المقاليع ورماة السهام وكتائب الليجوريين ، ووضع في مقدمة الجيش وفي مؤخرته فصائل خفيفة العدة بقيادة الرّابئة العسكريين ، ودأب القائد العام نفسه على التنقل من وحدة الى أخرى من وحداته شاحذاً الهمم بالثناء أو التقريع حسبما اقتضت الظروف (١٠٥) . وفي اليوم الرابع من بداية المعركة الأولى ، وعلى مسافة قريبة من قيرتا ، خاض الفريقان المعركة الثانية وكانت معركة ضارية انتهت بانتصار الرومان انتصاراً حاسماً من حيث أنها أدت الى استرداد قيرتا — اذا صح انها كانت قد فقدت — وحفزت بوكوس على أن يرسل بعدها بخمسة أيام مبعوثين الى ماريوس راجياً اختيار اثنين من رجاله للتفاوض معهما . وقد استجاب ماريوس الى رجاء الملك وأرسل اليه صلا ومانليوس (١٠٦) .

وفي أثناء المفاوضات قاد ماريوس حملة الى الجنوب للاستيلاء على إحدى قلاع يوجورتا . وعندما انتهت هذه المهمة عاد ماريوس الى قيرتا حيث وجد

(104) Sallust., XCVII, 3-XCIX.
(105) Sallust., C.
(106) Sallust., CI-CII

أن بعثة ثانية أرسلها بوكوس تلتمس الإذن لها بالذهاب الى روما . وبعد استطلاع رأي صلا وكل عضو من أعضاء السناتو كان موجوداً في ولاية أفريقيا سمح ماريوس للبعثة بالذهاب الى روما . وهناك أبلغت البعثة بأن السناتو مستعد لعقد معاهدة صداقة مع بوكوس عندما يبرهن عملاً لا قولاً على أنه جدير بذلك(١٠٧) .

وعندما ارتاح بوكوس للأنباء التي حملتها اليه البعثة وطلب الى ماريوس أن يوفد اليه صلا ، استجاب ماريوس الى هذا الطلب . وقد قام صلا برحلة محفوفة بالمخاطر ولكنه وصل سالماً بفضل جرأته وقوة شخصيته وجرأة الحرس الصغير نسبياً الذي رافقه وكذلك بفضل القوة التي أرسلها بوكوس بقيادة ابنه لاستقباله في الطريق ومصاحبته(١٠٨) . وعندما وصل صلا وجد أن يوجورتا أوفد عميلاً له يدعى أسبار (Aspar) كان بينه وبين بوكوس روابط ود وثيقة . وعندئذ بدأ صراع دبلوماسي أدلى بدلوه فيه كل من أسبار وبوكوس وصلا ، فقد حاول أسبار إقناع بوكوس بالقبض على صلا وتسليمه ليوجورتا باعتبار أن ذلك كان خير وسيلة تضمن إرغام الرومان على قبول عقد الصلح . وحاول بوكوس إقناع صلا بأنه شديد الرغبة في عقد الصلح مع الرومان وعلى أتم استعداد لإعطائهم كل ما يطلبونه من مال ورجال وسلاح لمحاربة يوجورتا دون أن يشارك في ذلك على الإطلاق . وأما صلا فإنه أكد لبوكوس أن الرومان ليسوا في حاجة الى ما عرضه من مساعدات بدليل ما أظهروه بمواردهم الخاصة من تفوق على قواته وقوات يوجورتا ، وأن السبيل الوحيد لكسب رضائهم وصداقتهم هو القبض على يوجورتا وتسليمه اليهم . وبعد تردد طويل نزل بوكوس عند رأي صلا وتفاهم معه على التدابير التي تحقق الهدف المنشود . وتبعاً لذلك أدخل بوكوس في روع أسبار أنه سيلبي رغبة يوجورتا ، وأنه سيتخذ من رغبة الرومان في عقد الصلح ذريعة لعقد اجتماع يحضره هو

(107) Sallust., CIII-CIV.
(108) Sallust., CV-CVII.

(بوكوس) وصلا ويوجورتا للتفاهم على شروط الصلح ، وأنه عند حضور صلا يتّم القبض عليه ويُسلم ليوجورتا ، وأنه تفادياً لإثارة شكوك صلا يجب أن يحضر يوجورتا غير مسلح وفي رفقة عدد قليل من أتباعه . وعندما رحب يوجورتا بهذا الترتيب تم الاتفاق على موعد الاجتماع ومكانه . وفي اليوم المتفق عليه أخفى بوكوس جماعة من رجاله وراء التل الذي اختير لعقد الاجتماع عليه ، وفي الموعد المحدد ذهب الى ذلك التل وفي رفقته صلا وعدد قليل من الأتباع . وعندما أقبل يوجورتا على هذا النحو أيضاً وفقاً لما سبق الاتفاق عليه لم يلبث أن أطبق رجال بوكوس على يوجورتا وأتباعه وقتلوا هؤلاء الأتباع وسلموا يوجورتا الى صلا (١٠٩) .

وهكذا راح ضحية الخديعة رجل كان له باع طويل فيها . وبالقبض على يوجورتا انتهت الحرب في خلال النصف الأول من عام ١٠٥ ق . م . فيما يبدو ، لأن صالوستيوس يحدثنا بأنه عندما علم الرومان بأن الحرب في نوميديا وضعت أوزارها وبأن يوجورتا كان في طريقه الى روما أسيراً ، انتخبوا ماريوس في غيبته قنصلاً وأسندوا اليه قيادة الحرب في بلاد الغال ، كما يحدثنا بأنه في اليوم الأول من يناير عام ١٠٤ ق . م . تولى ماريوس مهام قنصليته الثانية وأقام مهرجان نصر عظيم (١١٠) . وقد عرض ماريوس في هذا المهرجان الملك الأسير وابنيه قبل أن يلقى الملك السابق حتفه (١١١) . ومما يجدر بالملاحظة هنا أن انتخاب ماريوس لقنصلية عام ١٠٤ ق. م . كان مخالفاً للقواعد والتقاليد التي كانت تقضي بتقدم المرشح شخصياً للانتخابات ، كما أنه كان مخالفاً لأحد أحكام قانون تنظيم تولي الوظائف العامة (Lex Villia Annalis) الذي قضى بضرورة انقضاء عشر سنوات بين تولي ذات الوظيفة مرتين ، وكذلك كان مخالفاً لأحكام القانون الذي صدر حوالي منتصف القرن الثاني قبل

---

(109) Sallust., CVIII-CXIII; Diod., XXX, 39; Plut., Sulla, III; Marius. X.
(110) Sallust., CXIV, 3.
(111) Plut., Marius, XII; Liv., Ep., 67.

الميلاد وقضى بألا يتولى أحد القنصلية مرتين، وهو القانون الذي ذكرنا آنفاً أن سقيبيو آيميليانوس استثنى منه في عام ١٣٥ ق. م. بسبب تأزم موقف الرومان في الحرب الإسبانية وسمح له بتولي القنصلية مرة ثانية في عام ١٣٤ ق . م . لينهي بكفايته تلك الحرب . وإزاء نجاح ماريوس في إنهاء حرب يوجورتا وإزاء الخطر الجديد الذي ظهرت بوادره في بلاد الغال لم تفلح تحذيرات المعارضة من خطورة تكرار الاستثناء من القانون في الحيلولة دون انتخاب ماريوس لقنصليته الثانية ، وهي التي سنرى أنها أدت الى استثناء جديد خطير يتمثل في تولي القنصلية عدة سنوات متتابعة . وبإسناد الشعب قيادة الحرب في بلاد الغال الى ماريوس خرج مرة أخرى على التقاليد الدستورية التي كانت تختص السناتو بتحديد الولايات القنصلية وإسناد القيادات العسكرية .

وقد ظل الرومان أمداً طويلاً بعد انتهاء هذه الحرب يعزون الفضل في انتهائها وفقاً لوجهة نظرهم الحزبية ، فالنبلاء أو الأخيار كانوا يرجعون أكبر الفضل في ذلك الى متلّوس وصلا ، والعامة أو الشعبيين كانوا ينسبون الفضل كله الى ماريوس . وإنصافاً للحقيقة يجب أن نقرر أن متلّوس أسهم في النتيجة النهائية بأن مهد لها بإضعاف قوات يوجورتا مما اضطره الى طلب مساعدة بوكوس ، وأن نجاح دبلوماسية صلا هو الذي أنهى الحرب فعلاً بالقبض على يوجورتا ، بيد أنه لولا الانتصارات التي أحرزها ماريوس وتوج بها انتصارات متلّوس مما أرهب بوكوس وأشعره بقوة روما لما استطاع صلا أن يقنع هذا الملك بتسليم يوجورتا .

ومهما يكن من أمر ذلك فإنه يبدو أنه وفقاً للتسوية (١١٢) التي وضعتها روما بعد الحرب لم تضم شيئاً يذكر الى ولاية أفريقيا ، إذ أنها فيما يحتمل أقامت على الجزء الشرقي من نوميديا — وهو الذي كان قد اختص به أدهربال

(١١٢) أنظر :
S. Gsell, Histoire de l'Afrique du Nord, VII, pp. 9 ff., 263; C.A.H., IX, p 130; Scullard, 1970, pp. 52-3.

في عام ١١٦ ق . م . ـ أخاً غير شقيق ليوجورتا كان يدعى جاودا (Gauda)
وأعطت بوكوس الجزء الغربي مع احتفاظه بموريتانيا . وهكذا يبدو أن روما
قنعت بما تلقته من دروس في هذه الحرب وبما كسبته من أسلاب ضخمة
فضلاً عن تأمين ولاية أفريقيا ونشر السلام في ربوع المنطقة المجاورة لها في
شمال أفريقيا وما تبع ذلك من انفتاح هذه المنطقة ثانية أمام نشاط التجار
والرأسماليين ، فتركت أمور هذه المنطقة في قبضة حاكمين وطنيين
موالين لها وأولت عنايتها على عجل الى جبهة أخرى في الشمال كانت
الأوضاع فيها قد تحرجت تحرجاً شديداً على نحو ما سنرى .

٧ ـ أهمية حرب يوجورتا :

برغم أنه لم تكن لهذه الحرب أهمية ذاتية ، فإنها أثرت تأثيراً بعيد المدى
في مجرى الأحداث السياسية الرومانية بل إنها تعتبر بداية فترة جديدة
في تاريخ روما السياسي . ذلك أنه من ناحية كان من جراء مذبحة قيرتا وتقاعس
السناتو واتهام قواده بالعجز والرشوة انضمام الفرسان الى الشعبيين أو العامة
في مناهضة الأخيار أو النبلاء وفي العمل حثيثاً على إنهاء هذه الحرب إنهاء
حاسماً يرد على روما هيبتها وكرامتها ويضمن فتح شمال أفريقيا للنشاط التجاري
والمالي . وتبعاً لذلك لم يحدث فقط أن العامة والفرسان نجحوا في انتخاب
القائد الشعبي « الرجل الجديد » ماريوس لقنصلية عام ١٠٧ ق . م . بل انهم
ذهبوا في تحديهم للنبلاء الى حد أنهم ضربوا عرض الحائط بقرار السناتو
الخاص باستمرار متلوس في تولي قيادته في نوميديا في عام ١٠٧ وأسندوا
هذه القيادة الى ماريوس . وقد كان تدخل الشعب على هذا النحو في
أمر هو من صميم اختصاص السناتو بمقتضى العرف والتقاليد الدستورية سابقة
خطيرة للسلطات الواسعة التي منحها الشعب بعد ذلك لكل من بومبي ويوليوس
قيصر وكانت نذير شؤم على النظام الجمهوري الروماني .

ومن ناحية أخرى لعل أن البدعة التي استحدثها ماريوس في حشد القوات

التي اعتبرها لازمة لشن حرب ناجحة أسهمت أكثر من أي عامل آخر في تيسير نشوب تلك السلسلة من الحروب الأهلية التي بدأت منذ ثمانينات القرن الأول قبل الميلاد ولم يضع حداً لها إلا القضاء على النظام الجمهوري وإقامة النظام الملكي على أنقاضه. فقد كان النظام المتبع في الظروف العادية حتى ذلك الوقت هو قصر الخدمة العسكرية في الفرق الرومانية على المواطنين المسجلين في مئينات موزعة على خمس فئات (Classes) متباينة في المرتبة تبعاً لتباين ثروة المواطنين. وكان يعفى من الخدمة العسكرية أفقر المواطنين (Proletarii = Capite Censi) ، وهم الذين لم يكن لديهم الحد الأدنى للنصاب اللازم للتسجيل في الفئة الخامسة. وكان لا يمثل أعدادهم الضخمة في جمعية المئينات سوى مئين واحد. وقد كان أسوأ عيوب هذا النظام القديم أنه كان يفرض الخدمة العسكرية لمدة تزيد طولها بالتدريج على مواطنين لديهم من الصوالح المادية ما كان يسيء اليهم والى الاقتصاد القومي انقطاعهم عن مباشرة أعمالهم، على حين أن هذا النظام القديم كان يعفي من الخدمة العسكرية الفقراء الذين كان إسهامهم في النشاط الاقتصادي محدوداً أو معدوماً. واذا كانت قد بُذلت محاولات متكررة للحد من هذا العيب بإنقاص الحد الأدنى للنصاب اللازم للتسجيل في الفئة الخامسة، فإن هذا النظام ظل سارياً حتى انتخاب ماريوس قنصلاً (١١٣). ومن الجلي أنه في كنف هذا النظام كان المجندون لا يحرصون على خوض حملات طويلة الأمد وإنما على تسريحهم في أول فرصة ممكنة رغبةً منهم في العودة لمباشرة صوالحهم الخاصة. وهذا يفسر ما حدث أكثر من مرة في خلال القرن الثاني قبل الميلاد من ارتفاع أصوات المجندين للمطالبة بتسريحهم (١١٤). وذلك بالرغم من أن الرومان كانوا لا يتأخرون عن الاستجابة الى داعي الوطن حين كانت تتهدده مخاطر تقتضيهم البقاء طويلاً في الخدمة العسكرية.

(113) Sallust., LXXXVI, 2; Gell., XVI, 10, 10.
(114) Liv., XXXV, 56, 9; XL, 35, 11.

وقد يبدو لأول وهلة أن بدعة ماريوس بفتح باب التطوع أمام فقراء المواطنين لم تكن أكثر من استكمال عملية خفض النصاب اللازم لإدراج المواطنين في الفئة الخامسة، وأن هذه البدعة أدت خدمات جليلة للدولة الرومانية لأنها بفتح أبواب التطوع أمام أفقر المواطنين والاعتماد عليهم اعتماداً أساسياً في التجنيد خلصت الدولة من عدد كبير من المتعطلين، وتركت أصحاب الصوالح يمارسون نشاطهم الاقتصادي بانتظام، ووفرت عدداً هائلاً من المجندين المستعدين لقضاء أية مدة في الخدمة العسكرية لأنه لم يكن لديهم ما يحفزهم على العودة الى الحياة المدنية وترك الجندية وهي التي كانت تهيئ لهم تكسب رزقهم والاستمتاع بحياة طريفة مليئة بالمغامرة. بيد أنه هنا بالذات كان مكمن النتائج الخطيرة التي تمخضت عنها بدعة ماريوس ويحتمل انه لم يقدرها أو يتوقعها عندما ابتكر بدعته. ذلك أن النتائج غير المباشرة لهذه البدعة هي أن الفرق الرومانية أصبحت تتألف من رجال اتخذوا من الجندية حرفة لهم، وحفاظاً على مورد رزقهم أصبحت لا تعنيهم في كثير ولا قليل ذات القضية التي يحاربون التي من أجلها. وتبعاً لذلك فإنه عند انتهاء الحرب التي جندوا من أجلها كانوا يرحبون أيما ترحيب اذا ما وجد قائدهم حجة أو أخرى لاستبقائهم في الخدمة العسكرية وقيادتهم في أية حملة دون أن يبالوا حتى إذا كانت هذه الحملة موجهة ضد روما نفسها خدمةً لأطماع القائد. ومعنى ذلك أنه وقد أصبحت صوالح الجنود مرتبطة بصوالح قائدهم لم يعد ولاء الجيش للدولة وانما للقائد.

وقد صاحب تغير طابع الجيش الروماني وتكوينه الاجتماعي ظاهرة بالغة الخطورة. ذلك أنه اذا كانت الجمعيات الشعبية في عهد الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس لم تعد تمثل الأمة الرومانية تمثيلاً صحيحاً لوجود الكثيرين من المواطنين الرومان في جهات متفرقة نائية عن روما، فإنه بعد «حرب الحلفاء» ومنح الحقوق الرومانية كاملة لأعداد كبيرة من الإيطاليين، وهم الذين كان يتعذر على أكثرهم حضور الجمعيات الشعبية، أصبحت هذه

الجمعيات بازدياد مطرد أبعد ما تكون عن تمثيل الأمة الرومانية . وأما الجيش الجديد فإنه بحكم تكوينه من أعداد كبيرة من المواطنين (سواء بفضل أصلهم أم بفضل منحهم الحقوق الرومانية) وبحكم ترابطه وتدريبه لم يكن فحسب أكثر الهيئات الشعبية تعبيراً عن رغبات جانب كبير من المواطنين بل أيضاً أداة بالغة الفعالية في قبضة القواد الطموحين .

وفي كنف هذه الأوضاع أصبح السيف والسيف وحده هو الفيصل الحاسم في أزمات الدولة الرومانية ، ففقدت النظم الدستورية على عجل ما تبقى لها من قيمة ، وأصبح زوال النظام الجمهوري الروماني أمراً محتوماً .

رابعاً — حرب القيمبرى والتيوتون

١ — أصلهم :

يُفهم من المصادر القديمة [115] أن طغيان بحر الشمال على جتلند (Jutland) وفريسيا (Frisia) حفز قبيلتي القيمبرى (Cimbri) والتيوتون (Teutoni) حوالي عام ١٢٠ ق . م . على هجرة مواطنهما الأصلية بحثاً عن مواطن جديدة . وبرغم ما قال به بوسيدونيوس [116] (Posidonius) في صدر القرن الأول قبل الميلاد من أن هاتين القبيلتين كانتا من القلت (Celtae) ، فإن يوليوس قيصر [117] يعتبر كل سكان أوربا الوسطى ابتداء من الضفة الشرقية لنهر الراين — بما في ذلك القيمبرى والتيوتون — قبائل جرمانية . بيد أنه يبين مما يرويه ديون قاسيوس أنه كان ملماً بما كتبه بوسيدونيوس ، فهو يحدثنا بقوله [118] «ينبع نهر الراين من جبال الألب القلتية ، على مسافة قصيرة من رايتيا (Rhaetia) ويتجه غرباً فيشكل

(115) Strab., VII, 2-3; Festus, 15 L.
(116) Jacoby, Fr. Gr. H., II, no. 87.
(117) Caes., Bell. Gall., I, 1; 33; II, 3-4; 29 et passim.
(118) Dio Cass., XXXIX, 49, 1-2.

حداً بين بلاد الغال وسكانها الى اليسار وبين القلت الى اليمين ثم يصب في المحيط . ومنذ أن أخذت هاتان الفئتان من الشعوب أسماءها المختلفة — فقد كانت شعوب هاتين الفئتين النازلتين على جانبي هذا النهر تدعى قديماً شعوبا قلتية — استمر هذا النهر يعتبر حتى اليوم حداً فاصلاً بين هاتين الفئتين من الشعوب . » ومع ذلك فإن كثيرين من الباحثين يميلون الى اقتفاء أثر يوليوس قيصر ويعتبرون القيمبرى والتيوتون قبيلتين جرمانيتين [١١٩] .

وقد نشر مؤخراً أحد علماء الآثار من الألمان الغربيين كتاباً [١٢٠] يشرح فيه أن نتائج أعمال الحفر والتنقيب عبر القارة الأوربية تشير الى أن التيوتون والقيمبرى كانوا من القلت والى أن حضارة المنطقة التي تقع شرقي الحوض الأدنى للراين ويحدها شمالاً نهر ليبي (Lippe) وشرقاً نهر (لايني) (Leine) كانت حضارة قلتية ، والى أن الأصح مما قال به يوليوس قيصر ويأخذ به كثيرون من الباحثين المحدثين هو أن القبائل الجرمانية كانت تتركز شرقي المنطقة السالفة الذكر في مناطق مثل غاليسيا (Galicia) وبوهيميا ومورافيا وغرب سلوفاكيا وفي شريط عريض يمتد شرقاً الى البحر الأسود عبر مولدافيا في رومانيا .

٢ — كوارث رومانية :

ا — هزيمة جاربو :

ومهما يكن من أمر ذلك ومن أمر الباعث الذي حدا بالقيمبرى والتيوتون الى هجرة مواطنهم الأصلية بحثاً عن موطن جديد [١٢١] . فإن القيمبرى لم

---

(١١٩) عن هذه المشكلة ، راجع
B. Niese, Röm. Gesch., p 159; F Stählem, Die Schwein in röm. Zcit, 2nd., ed., pp. 45 ff.; C.A.H., IX, pp. 139-41.

(120) R. Hachmann, Dic Germanen, 1971.

(١٢١) عن الطريق الذي سلكه أولئك المهاجرون وفقاً لما جاء في المصادر القديمة ، انظر :
Strab., VII, 2; Plut., Marius, XI; App., Celt., 13.

يلبثوا أن تهددوا التاوريسقي (Taurisci) ، وهم الذين عرفنا أن الرومان نشروا نفوذهم عليهم وكسبوا صداقتهم بفضل العمليات التي قام بها سقاوروس في عام ١١٥ ق . م . وإزاء الخطر الذي تعرض له هؤلاء الأصدقاء الجدد أنفذ الرومان جنايوس جاربو ، أحد قنصلي عام ١١٣ ق . م ، على رأس جيش كبير لدرء هذا الخطر . وقد استجاب القيمبرى الى طلب القنصل بالانسحاب بعيداً ، ولكنه عندما حاول تطويقهم غدراً أنزلوا به هزيمة فادحة بالقرب من نوريا (Noreia) ، أي في منتصف المسافة بين المدينتين الحديثتين كلاجنفورت (Klagenfurt) في جنوب النمسا ولوبليانـــا (Ljubliana) في شمال يوغوسلافيا . وعند عودة جاربو الى روما قُدم للمحاكمة ومات منتحراً [١٢٢] مثل أخيه جايوس جاربو من قبل .

ب ــ هزيمة سيلانوس :

وبرغم أنه بعد هذا النصر كان الطريق مفتوحاً أمام القيمبرى لينقضوا على إيطاليا ، فإنهم لسبب غير معروف اتجهوا بدلاً من ذلك صوب الشمال الغربي وقضوا السنوات الثلاث التالية متنقلين حول منابع الدانوب . وفي عام ١١٠ ق . م . عبروا نهر الراين [١٢٣] متجهين صوب بلاد الغال حيث انضمت اليهم قبائل أخرى كانت أهمها قبائل التيوتون والتيجوريني (Tigurini) والتوجني (Tougeni) والأمبرونس (Ambrones) .

ولما كان وجود هذه الجموع الهائلة من أولئك المهاجرين في بلاد الغال يتهدد سلامة الولاية الرومانية « غاليا فيما وراء الألب » أو « غاليا الناربونية » وكذلك سلامة حلفاء روما خارج هذه الولاية ، فإن السناتو بادر بإرسال ماركوس يونيوس سيلانوس (Junius Silanus) ــ أحـــد قنصلي عام ١٠٩

(122) Liv., Ep , 63; Cic., ad Fam., IX, 21, 3; Velleius, II, 12, 3; App., Clt., 13.

(يذكر أبيانوس خطأ التيوتون بدلا من القيمبري)

(123) Velleius II, 8, 3; Florus, I, 38.

ق . م . — لدرء هذا الخطر . وعندما أنهى المهاجرون الى القنصل أنه لا مأرب لهم ولا غاية إلا الحصول على أراض يستطيعون العيش فيها بسلام ، أبلغ القنصل طلبهم إلى السناتو . وعلى أثر رفض السناتو الموافقة على هذا المطلب ، اشتبك سيلانوس مع القيمبرى ورفاقهم في معركة هزموه فيهـا هزيمة فادحة [١٢٤] كانت خطيرة العواقب لأنها بقدر ما بثت من الثقة في المهاجرين نالت من مكانة الرومان وهيبتهم في نظر الغال الذين هزمهم الرومان وأذلوهم منذ عهد قريب فبدأت تراودهم فكرة الثأر لما لحقهم .

جـ — هزيمة لونجينوس :

ومن الغريب أنه للمرة الثانية لم يحاول القيمبرى الإفادة من انتصارهم على الرومان . ذلك أن هذه المعركة نشبت فيما يرجح في مكان ما في وادي الرون خارج الولاية الرومانية ، وبدلاً من أن يقوم المهاجرون بعد انتصارهم في هذه المعركة باقتحام الولاية الرومانية انقسموا فريقين على رأس أحدهما القيمبرى وعلى رأس الآخر التيجوريني ، وانصرف الفريق الأول صوب الشمال وأخذ الفريق الثاني يحوم حول الحدود الغربية للولاية الرومانية . وبعد فترة غير قصيرة شبت نيران الثورة بين الفولقاي تقتوساجس (Volcae Tectosages) ، وكانوا شعباً حليفاً للرومان يعيش حول تولوسا (Tolosa = مدينة طولوز الحديثة) . وإزاء هذا الخطر أنفذ السناتو جيشاً بقيادة لوقيوس قاسيوس لونجينوس — أحد قنصلي عام ١٠٧ ق . م . — فتمكن من طرد التيجوريني من المنطقة المجاورة لتولوسا ، ولكنه عندما حاول مطاردتهم فى وادي الجارون انقضوا عليه عند مكان يقع جنوب شرقي مدينة بوردو (Bordeaux) الحديثة وقتلوا القنصل ومساعده وأبادوا أغلب الجيش . فلم ينج منه إلا عدد قليل من الجنود ابتاعوا حياتهم بتسليم عدد من الرهائن ونصف

---

(124) Liv., Ep., 65; Florus, I, 38, 3, 4; Velleius, II, 12, 2.

عتادهم [١٢٥] . ومن الغريب أنه بعد انتصار التيجوريني ارتدوا الى أواسط بلاد الغال .

ولما كان كوينتوس سرفيليوس قايبيو (Servilius Caepio) — أحد قنصلي عام ١٠٦ ق . م — قد أحرز انتصارات في إسبانيا أكسبته حق إقامة مهرجان نصر في العام السابق [١٢٦] ، فإن السناتو أسند اليه قيادة الجيش الجديد الذي أرسله الى بلاد الغال . وقد وجه قايبيو عنايته الى إخضاع الفولقاي ، وكان ذلك أمراً يسيراً بعد انسحاب التيجوريني فقد استعاد قايبيو مدينة تولوسا دون مقاومة ورأى أن خير عقاب ينزله بهذه المدينة هو تجريد معبدها من كنوزه الذهبية والفضية وهي التي قدرت قيمتها بخمسة عشر الف تالنت [١٢٧] (حوالي أربعة ملايين جنيه استرليني) وإرسال هذه الكنوز الى روما . وبعد استيلاء قايبيو على هذا الصيد الثمين زعم أنه أرسله مخفوراً الى ماسيليا لنقله بحراً الى روما ولكنه في الطريق الى هذا الميناء هاجم لصوص الركب وتغلبوا على الحرس وسرقوا الكنوز . ومهما يكن من أمر هذا الزعم فإن مصير الكنوز ظل مجهولاً . واذا كان الشك لم يرق الى قايبيو في أول الأمر وأطيلت مدة توليه القيادة لعام ١٠٥ ق . م . بوصف كونه عندئذ بروقنصلاً ، فإنه فيما بعد اتهم بأن دعوة السطو على الكنوز لم تكن إلا ابتكاراً تفتق عنه ذهنه لإخفاء جريمة اختلاسه هذه الكنوز [١٢٨] ، وسنرى بعد قليل ما كان من أمر هذه التهمة .

د — كارثة أراوسيو :

وإزاء تجدد خطر القيمبرى والتيوتون في عام ١٠٥ ق . م . على الولاية

---

(125) Liv., Ep., 65; Oros., V, 15, 23; Caes., Bell. Gall., I, 7.

قيصر يدعو التيجوريني (الهلفتيين) ، وذلك لأنهم كانوا أحد شعوب هلفتيا = سويسرا .

(126) Fasti triumph. Q. Servilius Caepio.

(127) Posid. apud Strab., IV, 1, 13; Justin., XXXII, 3, 10; Oros., V, 15; Dio Cass., fr. 90; Gell., III, 9.

(128) Cic., de Nat. Deor., III, 30, 74; (Victor) de Vir Ill., 73, 5.

الرومانية أُرسل الى بلاد الغال جيش ثان بقيادة أحد قنصلي ذلك العام وهو جنايوس مالّيوس ماكسيموس (Mallius Maximus) لتعزيز الجيش الذي كان قايبيو يتولى قيادته . بيد أنه لما كان مالّيوس « رجلاً جديداً » على حين أن قايبيو كان نبيلاً عريقاً ، فإنه عز عليه أن يكون مكان الصدارة لمالّيوس بوصف كونه قنصل ذلك العام ، وتبعاً لذلك تعذر تعاون القائدين الرومانيين سوياً تعاوناً مثمراً . وبيان ذلك أنه حين كان القيمبرى والتيوتون ورفاقهم يزحفون جنوباً في وادي الرون ظل قايبيو على الضفة الغربية للنهر ومالّيوس على الضفة الشرقية حيث وضع القنصل قوة أمامية بقيادة مساعده القنصل السابق ماركوس أورليوس سقاوروس . وعندما قضى العدو على هذه القوة قضاء مبرماً ، أصبح جلياً أن زحف العدو كان على الضفة الشرقية وأنه كان يتعين على قايبيو أن يعبر النهر وينضم الى زميله قبل بدء المعركة ، فأصدر مالّيوس الأمر بذلك واضطر قايبيو كارهاً الى إطاعة الأمر . غير أنه عندما عبر قايبيو النهر تنفيذاً للأمر ، استبقى قواته في معسكر منفصل على مسافة بعيدة عن قوات مالّيوس . ولم تفلح البعثة التي كان السناتو قد أوفدها لتسوية الخلاف بين القائدين في إقناع قايبيو بالانضمام الى مالّيوس . وفي السادس من اكتوبر عام ١٠٥ ق . م . نشبت عند أراوسيو (Arausio = أورانج الحديثة) معركة هائلة أباد فيها الغزاة الجيشين الرومانيين وفقد الرومان حوالي ٨٠,٠٠٠ مقاتل[١٢٩] ، وبذلك نكبوا بكارثة تفوق الكارثة التي أنزلها بهم هانيبال في معركة قانّاى (Cannae) في عام ٢١٦ ق . م .

وبرغم أن الطريق أصبح مفتوحاً أمام الغزاة للإغارة على الولاية الرومانية بل على إيطاليا ذاتها ، فإنهم انشطروا مرة أخرى فريقين . تزعم القيمبرى أحدهما واتجهوا صوب إسبانيا وتزعم التيوتون الآخر وانصرفوا محومين في بلاد الغال[١٣٠] . وبذلك أُتيحت للرومان فرصة لإعادة بناء قواتهم والاستعداد

(129) Sallust., B Jug., CXIV, 1; Liv., Ep., 67; Licinianus, p. 11 F.; Dio Cass., fr 91; Plut., Lucullus, XXVII; Oros., V, 16.

(130) Liv., Ep., 67; Obsequens, 43; Plut., Marius, XIV, 1.

للخطر الشديد الذي أصبح يتهددهم . وقد كان من حسن حظهم أنه في هذا الوقت انتهت حرب يوجورتا وبذلك أصبح في الإمكان إسناد القيادة في الشمال الى ماريوس . وعجز الرومان عن خوض غمار الحرب بنجاح في جبهتين في وقت واحد يدل على مدى ما وصلوا اليه عندئذ من الافتقار الى القواد ذوي الكفاية . ولعل أن إذن السناتو لماريوس بأن ينشد مساعدة الدول الحليفة عبر البحار(١٣١) يدل على أن خسائر الرومان في الشمال استنفدت الكثير من قواتهم .

٣ ــ إصلاحات ماريوس العسكرية :

وما أن تولى ماريوس مهام منصبه قنصلاً في أول يناير عام ١٠٤ ق . م . وحشد كل ما يستطيع من قوات حتى سارع الى ولاية غاليا فيما وراء الألب حيث عكف على تدريب جيشه .

ولا جدال في أن ماريوس هو الذي ابتدع الاعتماد على التطوع بدلاً من الخدمة الإجبارية ، ووحد تسليح الجنود بحيث أصبح كل منهم يحمل سيفاً وحربة طويلة (pilum) وجعل لكل فرقة وكذلك لكل كتيبة في الجيش علمها الخاص بها ، وأوقف تشكيل قوات المشاة الخفيفي العدة (Velites) من المواطنين الرومان وأصبح يُعتمد في ذلك على الليجوريين وعلى المرتزقة من الكريتيين ، غير أنه يصعب أن نعزو الى ماريوس بدء استخدام المرتزقة في الجيش الروماني . واذا كان المواطنون الرومان المسجلون في مئينات الفرسان قد ظلوا المورد الذي كان القواد يختارون منه ضباطهم وحرسهم الخاص ، فإنهم فقدوا منذ أمد بعيد صفتهم العسكرية بوصف كونهم خيالة الجيش الروماني وأصبحت الدولة الرومانية تعتمد باطراد على الحلفاء الإيطاليين ثم كذلك على النوميديين والتراقيين ثم على الغال وغيرهم في تزويد الجيش الروماني بقوات الفرسان . وإنه لمن العسير قبول الرأي القائل بأن ماريوس

---

(131) Diod., XXXVI, 3.

هو الذي استحدث دفعة واحدة نظام استخدام الكتيبة (Cohors) بدلاً من الفصيلة (manipulus) في المناورة والقتال . ذلك أنه من ناحية كانت الكتائب هي النظام المألوف منذ أمد بعيد في قوات حلفاء روما اللاتين والإيطاليين . ومن ناحية أخرى يحدثنا بوليبيوس[١٣٢] بأن الرومان اتبعوا نظام الكتائب في إسبانيا في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد . وفضلاً عن ذلك فإنه يتبين بجلاء من رواية صالوستيوس[١٣٣] عن مجرى حرب يوجورتا في عام ١٠٩ ق . م . – أي حين كان ماريوس لا يزال مساعداً لمتلّوس – أن نظام الكتائب كان مستخدماً عندئذ . ولو أن ماريوس هو الذي استحدث هذا النظام يومئذ لما أغفل صالوستيوس ذكر ذلك ولا سيما أنه كان معنياً بالإشادة بماريوس . ولعل الأصح أن يقال إنه منذ القرن الثالث قبل الميلاد بدأ الرومان يدركون أن الفصيلة كانت أصغر من أن تصلح دائماً وحدة قتالية ذات فعالية فأخذوا يجربون من حين الى آخر نظام استخدام الكتائب بدلاً من الفصائل في القتال والمناورة الى أن خطا ماريوس الخطوة الحاسمة في هذا الاتجاه وجعله النظام الأساسي للفرق الرومانية عندما تولى قيادة الحرب ضد القيمبرى والتيوتون ورفاقهم . وعلى كل حال فإنه منذ ذلك الوقت أصبحت الفرقة الرومانية (legio) تتألف من ٦٠٠٠ جندي ينتظمون في عشر كتائب ، وأصبحت كل كتيبة تتألف من ثلاث فصائل وكل فصيلة من سريتين أو مئينين (centuriae) . وقد ترتب على وفرة المجندين المتطوعين الذين اتخذوا من الجندية حرفة لهم ، وعلى تنظيمهم في وحدات قتالية قوية ، وعلى تدريبهم تدريباً عالياً ، وعلى تمرسهم بالقتال عاماً بعد آخر ، أنه أصبح لروما جيش مشاة من مواطنيها لا يدانيه جيش آخر في العالم القديم . بيد أنه من الناحية السياسية كان لبناء مثل هذا الجيش نتائج خطيرة بعيدة المدى سبقت الإشارة اليها وسنلمسها تباعاً . وفضلاً عن ذلك فإنه لا بد من أن يكون تنظيم

---

(132) Polyb., XI, 23, 1.
(133) Sallust, B. Jug., LI, 3; LVI, 3-4.

الجيش الروماني على نسق قوات الحلفاء اللاتين والإيطاليين قد أسهم في إحساس هؤلاء الحلفاء بالمرارة لحرمانهم التمتع بالحقوق الرومانية[١٣٤] .

ومما يجدر بالملاحظة أنه من أجل القضاء على الخطر القادم من الشمال وبسبب فرط الثقة في كفاية ماريوس العسكرية استباح الشعب لنفسه الخروج على كل الأعراف والتقاليد الدستورية على نحو لم يسبق له مثيل بتكرار انتخاب ماريوس للقنصلية وإسناد القيادة اليه ، ليس فقط لعام ١٠٤ ق . م . بل أيضاً للأعوام ١٠٣ و ١٠٢ و ١٠١ ق . م . ثم كافأه على انتصاره بانتخابه قنصلاً للمرة السادسة لعام ١٠٠ ق . م . .

٤ ـ ماريوس يسحق الأمبرونس والتيوتون :

انتهز ماريوس فرصة انشغال العدو عن الولاية الرومانية ليقضي عامي ١٠٤ و ١٠٣ وجانباً من عام ١٠٢ ق . م . في تدريب جيشه تدريباً عالياً على المناورة وكذلك على استخدام السلاح عند الاشتباك وفقاً لأساليب المجالدين ، مقتفياً في ذلك أثر روتيليوس روفوس[١٣٥] ـ أحد قنصلي عام ١٠٥ ـ عندما أتته أنباء كارثة أراوسيو . ولكي لا يضيق الجنود بحياة التدريب الرتيبة وضع ماريوس سابقة اتبعها الأباطرة فيما بعد ، وهي سابقة استخدام الجيش في المنشآت العامة . ذلك أن ماريوس لاحظ أن الرواسب الطميية عند مصب الرون كانت تعوق الاتصال بين هذا النهر والبحر ، فاستخدم جنوده في شق قناة[١٣٦] (fossa Mariana) تمتد من الرون عند أرلاتي (Arelate = آرل Arles) حتى البحر عند مكان يقع بالقرب من القرية الحديثة فو[١٣٧]

(134) Cf. Heitland, II, pp. 336-8; C.A.H., IX, pp. 146-7; J. Suolahti, The Junior Officers of The Roman Army, 1955; T.F. Carney, Class. Quart., 1955, pp. 203 ff.; R.E. Smith, Service in The Post — Marian Army, 1958; Scullard, 1970, pp. 58-9, nn. 26-28 p. 402.

(135) Val. Max., II, 3, 2.

(136) Strab., IV, 1, 8; Plut., Marius, XV.

(137) P. Diole, 4000 Years Under The Sea (Eng. Trans. 1954), Ch. V.

(Fos) . وعلى هذا النحو أتاح ماريوس للسفن بلوغ الرون آمنة، ويسّر سبل تموين جيشه ، وساعد على ازدهار تجارة أرلاتي بل كل جنوب بلاد الغال بوجه عام . وقد كان من شأن ذلك أيضاً خدمة صوالح الفرسان وكسب رضائهم (١٣٨) .

وعندما عادت قوات العدو وتجمعت سوياً في شمال بلاد الغال كانت تضم جموعاً هائلة لو انها زحفت سوياً بجحافلها على الولاية الرومانية أو على إيطاليا لواجهت ماريوس أزمة بالغة الخطورة ، إلا ان هذه الأزمة لم تلبث أن خفت حدتها فجأة عندما قرر العدو مهاجمة إيطاليا من ثلاث جهات في وقت واحد بحيث يزحف عليها التيوتون والأمبرونس من الغرب متخذين الطريق الساحلي ، وينقض عليها القيمبري من الشمال عبر ممر برنر ، ويهجم عليها التيجوريني من الشرق عند أكويليا .

وعندما تكشفت خطة العدو ترك ماريوس لزميله في قنصلية عام ١٠٢ ـ كوينتوس لوتاتيوس قاتولوس (Lutatius Catulus) ـ مهمة الدفاع عن إيطاليا ، وانبرى هو لمواجهة الزحف السريع القادم من الغرب، حيث أقام ماريوس معسكره على الضفة الشرقية لنهر الرون . ولحسن حظ روما مرة أخرى أنه وفقاً لتقدير ماريوس اشتبك معه العدو في الغرب قبل اشتباكه مع قاتولوس في إيطاليا . وبيان ذلك أنه في صيف عام ١٠٢ ق . م . ـ فيما يبدو ـ زحف التيوتون والأمبرونس سريعاً على ماريوس، ولكنهم فشلوا سواء في استدراجه الى خوض معركة معهم أم في اقتحام مواقعه فقرروا أن يتركوه وشأنه وأن يزحفوا على إيطاليا . وبعد أن تركهم ماريوس يمضون جميعاً في طريقهم الذي اضطرتهم طبيعته الى تفريق قواتهم ، بارح ماريوس مواقعه الأصلية وسارع عن طريق آخر الى قلعة نبع سكستيوس (Aquae Sextiae) حيث سد على العدو طريقه . وعند قدوم الأمبرونس في المقدمة عجلوا بمهاجمة ماريوس في موقعه المنيع دون انتظار وصول التيوتون وكانوا

(138) C.A.H., IX, p 147, Scullard, 1970, p. 59.

يؤلفون الجانب الأكبر من قوات العدو، فأنزل ماريوس بالأمبرونس خسائر كبيرة ولم ينج منهم إلا عدد قليل ارتد لينضم الى التيوتون في مهاجمة ماريوس بعد فترة قصيرة انتهزها القائد الروماني ليرسل خمس كتائب من رجاله لتختفي وراء مرتفعات خلف قوات العدو . وعندما بدأت المعركة الثانية بعد يوم أو يومين من المعركة الأولى وحمي وطيسها انقضت الكتائب الخمس على العدو من المؤخرة . وبفضل ما أحدثه هذا الهجوم المفاجىء من اضطراب في صفوف العدو الى جانب ما توافر للرومان من ميزات الموقع والتفوق في النظام والتدريب والسلاح أبيدت قوات العدو إبادة تامة [١٣٩] . ذلك أنه وفقاً لما أورده بلوتارخ فقد العدو أكثر من ١٠٠,٠٠٠ بين قتيل وأسير ، وهو تقدير يبدو أدنى الى القبول من تقدير كل من ليفيوس وأوروسيوس إذ أن الأول يقدر خسائر العدو بحوالي ٣٠٠,٠٠٠ بين قتيل وأسير ويذهب الثاني في تقديره هذه الخسائر الى حوالي نصف مليون .

وبفضل هذا النصر الحاسم [١٤٠] الذي أحرزه ماريوس أُنقذت إيطاليا من الخطر الداهم الذي كان يتهددها من الغرب ، وارتفعت مكانة روما في بلاد الغال ، وانتشر السلام والهدوء في ربوع ولاية روما فيما وراء الألب .

٥ ــ القيمبرى يتدفقون على وادي البو :

وعندما علم ماريوس عقب هذه الموقعة بقليل أنه انتخب قنصلاً للمرة الخامسة (لعام ١٠١ ق . م .) شخص الى روما ، لكنه لم يلبث أن اضطر الى مغادرتها قبل الاحتفال بانتصاره وإلى إصدار أوامره الى جيشه بالانتقال من بلاد الغال للانضمام الى جيش قاتولوس بسبب الأنباء المزعجة التي جاءت

(139) Plut., Marius, XVI-XXII; Liv., Ep. 68; Velleius, II, 12; Florus, I, 38, 3, 5-11; Front., Strat., II, 4, 6; Eutrop., V, 1, 2; Oros., V, 16; Dio Cass., fr. 94.

(140) Heitland, II, pp. 373-4; C.A.H., IX, pp. 148-9; E. Sadée, Klio, 1940, pp. 225 ff. ; A. Donnadieu, Rev. Etud. Anc., 1954, pp. 281 ff. ; Scullard, 1970, pp. 59-60.

مث الشمال . ذلك أنه عندما علم قاتولوس أن القيمبرى يزحفون عبر ممر برنر بدلاً من أن ينتظرهم حتى يصلوا الى منطقة مكشوفة يستطيع فيها رجاله التفوق على العدو بفضل حسن تدريبهم على المناورة ، آثر التقدم وسط التلال الواقعة على الضفة الشرقية لنهر أثسيس (Athesis = الأديج Adige) واختار لجيشه موقعاً بالقرب من تريدنتوم (Tridentum = ترنتو) ليسد الطريق في وجه الغزاة . بيد أنه إزاء تفوق القيمبرى تفوقاً كبيراً في العدد ورفض الجنود الرومان الاستمرار في هذا الموقع المحفوف بالمخاطر ، استخلص قاتولوس جيشه بصعوبة وانسحب الى ما وراء نهر البو تاركاً كل الوادي شمالي هذا النهر تحت رحمة العدو [١٤١] .

٦ ـ معركة ڤرقلاي :

وحين وقف القيمبرى ينتظرون عبثاً قدوم التيوتون ، كان ماريوس قد انضم بقواته الى قاتولوس وجيشه . ويحدثنا بلوتارخ بأن القيمبرى أنفذوا مبعوثيهم الى ماريوس لإعطائهم هم وإخوانهم في السلاح ، التيوتون ، أرضاً ، وبأن ماريوس رد عليهم ساخراً بقوله انه منح إخوانهم في السلاح كل ما يمكن أن يحتاجوا اليه من أرض الى الأبد ، وبأنه عندما استشاط المبعوثون غضباً من هذه السخرية توعدوه بالعقاب الذي سينزلونه به هم والتيوتون ، وبأنه عندئذ عرض أمامهم ماريوس زعماء التيوتون الأسرى مكبلين بالأغلال[١٤٢] . واذا كانت هذه الرواية لا تخلو من التنميق والابتكار ، فإنها إذ تعطينا نموذجاً من النماذج التي صاغها خيال الأدباء عن أحداث حرب القيمبرى لتخليد أمجاد الرومان ، تصور مدى الارتياح العميق الذي استشعره الرومان بانتصارهم على عدو أثار فيهم فزعاً شديداً .

ويبدو أن المفاوضات والاستعدادات دامت وقتاً طويلاً قبل أن يعبر

(141) Liv., Ep., 68; Plut., Marius, XXIII.
(142) Plut., Marius, XXIV.

ماريوس وقاتولوس نهر البو بقوات تبلغ حوالي ٥٥٠٠٠ مقاتل [١٤٣] ويلتقي الرومان مع الغزاة في أواخر شهر يوليه [١٤٤] عام ١٠١ ق . م . بالقرب من فرقلاي (Vercellae — عند منتصف المسافة بين المدينتين الحديثتين ميلانو وتورينو) في معركة [١٤٥] أحرز فيها ماريوس وقاتولوس انتصاراً لا يقل حسماً عن انتصار ماريوس عند نبع سكستيوس . وتختلف روايات القدماء [١٤٦] في عدد خسائر القيمبرى في هذه المعركة بين ١٤٠,٠٠٠ قتيل وأسير وفقاً لليفيوس و ١٢٠,٠٠٠ قتيل و ٦٠,٠٠٠ أسير وفقاً لبلوتارخ و ٦٥٠٠٠ قتيل وفقاً لفلوروس ، وهو الذي يحدثنا بأن التيجوريني لم يشتركوا في المعركة وبأنهم كانوا عند مداخل الألب من الناحية الشرقية وبأنهم لم يلبثوا أن ولوا هاربين ، وبأنه كان لوقع النصر والخلاص من المخاطر الشديدة أبلغ الأثر في نفوس الرومان [١٤٧] . وفي العام التالي أنشأ الرومان مستعمرة حصينة عند ابورديا [١٤٨] (Epordeia) لترقب ممرات سان برنار وتحمي وادي البو من الناحية الشمالية الغربية .

وهكذا تنفست روما أخيراً الصعداء لنجاتها من الخطر الذي وفد عليها من الشمال وأثار فيها أشد المخاوف بعد الهزائم التي أصابتها ولا سيما في أعقاب كارثة أراوسيو . وعندما عاد ماريوس وقاتولوس الى روما احتفلا بانتصارهما الباهر . ومهما يكن الدور الذي قام به قاتولوس في معركة فرقلاي وادعاؤه بأنه صاحب الفضل في النصر الروماني في هذه المعركة وإشادة فريق من أعضاء السناتو بنصيبه في هذا النصر ، فإنه لا جدال في أن صاحب الفضل الأكبر في القضاء على الخطر كان ماريوس . ذلك أنه لولا نجاحه في إبادة

(143) Plut., Marius, XXV, 4.
(144) Plut., Marius, XXVI, 4.
(145) Plut., Marius, XXV-XXVII; Heitland, II, pp. 375-6; T.F. Carney, Athenaeum, 1958, pp. 229 ff.; Scullard, 1970, p. 60 and n. 30 p. 403.
(146) Liv., Ep., 68; Plut., Marius, XXVII, 3; Florus, I, 38 3, 14-18.
(147) Florus, I, 38, 3, 18-21.
(148) Velleius, I, 15, 5.

الجحافل التي كانت قادمة من المغرب لما أمكن جمع شمل القوات الرومانية لملاقاة الغزاة الذين عبروا جبلال الألب ، ولولا براعته في القيادة وفي المناورة لما استطاعت القوات الرومانية بكل ما توافر لها من إمكانيات وتدريب أن تسحق عند ڤرقلاي قوات تفوقها في العدد تفوقاً هائلاً .

ولعل أن أهم ما تمخضت عنه غزوة القيمبرى والتيوتون ورفاقهم هي انها : أولاً — أثبتت مدى أهمية بسط سيطرة الرومان فيما وراء الألب لتأمين سلامتهم من ناحية الشمال . وثانياً — أكدت من جديد عجز قواد النبلاء الهواة عن دفع المخاطر عن الإمبراطورية الرومانية . وثالثاً — أظهرت بجلاء أن الشعب لا يحفل إطلاقاً بالنظم والتقاليد الدستورية ، وذلك بانتخاب ماريوس غيابياً للقنصلية خمس مرات متتالية للأعوام ١٠٤ و١٠٣ و ١٠٢ و ١٠١ و ١٠٠ ق . م . وقد كان ذلك ظاهرة خطيرة لأنه لم يبق إلا إقامة ملكية غير مقنعة . وعلى كل حال فإنه على هذا النحو رفع الشعب ماريوس الى ذروة المجد ، فأصبح أقوى شخصية في الدولة . ولكن قبل أن نرى اذا كان ماريوس سيثبت في ميدان السياسة ما أثبته من كفاية وبراعة في ميدان القتال يجب ان ننتهي أولاً من استعراض الأحداث الخارجية .

وحسبنا أن نشير هنا الى أنه كان نذير شؤم للمستقبل ما تحدثنا به مصادرنا القديمة(١٤٩) من أن ماريوس منح حقوق المواطنة الرومانية في ميدان القتال لجميع أفراد كتائب قامرينوم (Camerinum) جزاء ما أبدوه من شجاعة في محاربة القيمبرى ، ومن أنه عندما سئل بعد ذلك كيف استباح لنفسه تجاوز حدود القانون على هذا النحو أجاب بأنه لم يكن في وسعه أن يتبين صوت القانون وسط صليل السيوف !.

(149) Val. Max., V, 2, 8; Plut., Marius, XXVIII, 2; Cic., pro Balbo, 20, 46.

خامساً ـ حروب صغرى

١ ـ سردينيا :

بعد أن اغتصبت روما جزيرة سردينيا من قرطجنة في عام ٢٣٨ ق . م . كونت منها ومن قورسيقا ولاية في عام ٢٢٧ ق . م . وعندما ثار السردينيون في أعقاب ذلك أنفذت روما اليهم حملة تأديبية ولم يواف عام ٢٢٥ ق . م . حتى كانت قد أخمدت الثوار فيما عدا بعض العشائر الجبلية وصادرت جانباً من أراضي الجزيرة وفرضت على باقي الأراضي ضريبة العشور ، وأصبحت سردينيا وصقلية وفيما بعد ولاية أفريقيا المصادر الرئيسية الثلاثة لتزويد روما بالغلال . ولم تكن الضريبة التي فرضتها روما على السردينيين ثقيلة ولكن حرمانهم تصدير حاصلاتهم الى الأسواق الغربية بسبب احتكار روما الحصول على هذه الحاصلات أدى الى تدهور حياتهم الاقتصادية .

وقد ظل السلام سائداً في سردينيا لمدة عشرين عاماً بعد انتهاء الحرب البونية الثانية ، بيد أنه عندما وجهت روما عنايتها الى إخضاع الليجوريين ، إخوان القورسيقيين والسردينيين في أعمال القرصنة ، ثارت قورسيقا وسردينيا في عام ١٨١ ق . م . واذا كان الرومان قد أخمدوا سريعاً الثورة التي نشبت عندئذ في قورسيقا ، فإن الاضطرابات في هذه الجزيرة دأبت على أن تتكرر بين فينة وأخرى الى أن أخضع الرومان قورسيقا نهائياً في عام ١٦٣ ق . م . وأما في سردينيا فإن نيران الثورة ظلت مشبوبة حتى أخمدها تيبريوس سمبرونيوس جراكوس الكبير وضاعف الضريبة المفروضة على أهليها (١٧٧ ـ ١٧٦ ق . م .) . ولم يكن من شأن ذلك أن الأوضاع استقرت تماماً في الجزيرة أو أنه سادها أكثر من سلام قلق كان ينذر بهبوب العاصفة إن عاجلاً أو آجلاً .

وعندما هبت سردينيا ثائرة في عام ١٢٦ ق . م . أنفذ الرومان اليها حملة بقيادة أحد قنصلي ذلك العام وهو لوقيوس أورليوس أورستس

(Aurelius Orestes) . وأهم ما نعرفه عن هذه الحملة هو أن جايوس جراكوس كان يصحب قائدها بوصف كونه كوايستورا ، وأنه أقنع أهالي سردينيا بتزويد الجنود طواعية بملبسهم عندما قبل السناتو تظلمهم مما فُرض عليهم قسراً [١٥٠] ، وأنه فيما يقال بفضل ما كان ميقيبسا ملك نوميديا يكنه من التقدير لأسرة جراكوس تبرع بتزويد الجيش بالقمح[١٥١] ، وأنه برغم أن السناتو أطال بروقنصلية أورستس عاماً آخر بقصد استبقاء جايوس بعيداً عن روما فإن جايوس عاد إلى روما في أواخر عام ١٢٥ ق . م . مطمئناً الى سلامة تصرفاته[١٥٢] . وأما عما قامت به هذه الحملة ، فإننا لا نعرف شيئاً غير أن منح أورستس حق إقامة مهرجان انتصار وإقامته هذا المهرجان في ديسمبر عام ١٢٢ ق . م .[١٥٣] يوحيان بأن الظروف اقتضت القيام بعمليات طويلة كللت آخر الأمر بالنجاح ، وهو ما يؤيده قول ليفيوس[١٥٤] ان اورستس أخضع ثوار سردينيا .

ولسنا أسعد حظاً في معلوماتنا سواء عن العمليات التي قام بها مارقوس متلوس عندما أرسل بعد قنصليته — حين كان زميلاً لسقاوروس في عام ١١٥ ق . م . — الى سردينيا (وإن كانت هذه العمليات أهلته رسمياً لإقامة مهرجان انتصار في روما في يوم ١٥ من يوليه عام ١١١ ق . م .وهو اليوم نفسه الذي احتفل فيه أخوه بالنصر الذي أحرزه في تراقيا[١٥٥]) أم عن عمليات حملة الخطيب والفيلسوف الإبيقوري تيتوس البوقيوس (Albucius — أحد برايتورس عام ١٠٥ ق . م .) وهو الذي ركب رأسه وأعطى نفسه حق

---

(150) Plut., G. Gracch., I.
(151) Plut., G. Gracch., II.

(١٥٢) انظر الفصل الثالث ، ص ٨٦

(153) Fasti triumph. L. Aurelius Orestes pro conule ex Sardinia VI idus Dec.
(154) Liv., Ep., 60.
(155) Velleius, II, 8, Eutrop., IV, 25; Fasti triumph. M. Caecilius Metellus pro consule ex Sardinia. G. Caecilius Metellus Caprarius pro consule ex Thraecia.

الاحتفال بانتصاره وأقام مهرجان النصر في سردينيا ذاتها ، فحوكم على ذلك في عام ١٠٣ ق . م . وتقررت إدانته(١٥٦) .

٢ ـــ جزر البليار :

كان قراصنة البحر يتخذون من جزر البليار قواعد لهم ، وإن لم يكن جميعهم من أهالي هذه الجزر وهم الذين كانوا يشتهرون ببراعتهم في استخدام المقاليع . وإزاء نشاط القراصنة يبدو أن رغبة الرومان في تأمين سلامة الطرق البحرية بين إيطاليا وإسبانيا كانت الهدف الأول وإن لم يكن الهدف الوحيد الذي حدا بالرومان الى الاستيلاء على جزر البليار . ذلك أنه فضلاً عما كان لأهالي هذه الجزر من قيمة عسكرية ، كانت الجزر نفسها تتمتع بتربة خصبة وفيما بعد اكتسبت منتجاتها من غلال وأنبذة شهرة كبيرة . وقد أسند الرومان فتح هذه الجزر الى كوينتوس متلّوس ـــ أحد قنصلي عام ١٢٣ ق . م . ويبدو أن متلّوس لم يجد صعوبة كبيرة في الاستيلاء على هذه الجزر ، فقد أتم ذلك وأنشأ في مايورقا (Maiorca) مستعمرتين رومانيتين هما بالما (Palma) وبولّنتيا (Pollentia) وعاد الى روما للاحتفال بانتصاره في عام ١٢١ ق . م . وحمل لقب بالياريقوس (Baliaricus)(١٥٧) .

ومما يجدر بالملاحظة هنا أمران : وأحدهما هو أن أحد أقطاب الأخيار أو بعبارة أخرى أحد زعماء النبلاء هو الذي قام بإنشاء هاتين المستعمرتين ، وأنه قام بذلك في وقت قريب جداً من حركة جايوس جراكوس لإنشاء المستعمرات وكذلك من القانون الخلاب الذي استصدره ليفيوس دروسوس لإنشاء اثنتي عشرة مستعمرة وأعلن صراحة أنه فعل ذلك بتوجيه السناتو . والأمر الآخر هو ما يحدثنا به استرابون من أن متلّوس اختار ثلاثة

---

(156) Cic., de prov. Cons., 7, 15; in Pis., 38, 92; Div in Caec., 19, 63 ; pro Scauro, 40.

(157) Liv., Ep., 60; Strab., III, 5, 1; Fasti triumph. Q. Caecilius Metellus Bliaricus pro consule de Baliaribus.

آلاف من نزلاء الرومان (أو الإيطاليين) في إسبانيا ليكونوا في عداد رجال هاتين المستعمرتين . وإزاء ما كان لجزر البليار من صلاحيات تجارية لعل أننا لا نعدو الحقيقة اذا تصورنا أن المستعمرين الذين اختارهم متلّوس من نزلاء إسبانيا كانوا من طبقة رجال الأعمال . وهكذا يبدو أن الحكومة الرومانية باستيلائها على جزر البليار وتأمينها سلامة التجارة مع إسبانيا وإنشائها مستعمرتين في تلك الجزر استهدفت فيما استهدفته أن تثبت للعامة وللفرسان على السواء أن النبلاء لم يكونوا أقل حرصاً من تيبريوس وجايوس جراكوس على خدمة صوالح العامة والفرسان[١٥٨] . واذا أضفنا هذا الى ما سبقت الإشارة اليه في سياق الحديث عن مستعمرات جايوس جراكوس وعن إنشاء مستعمرة ناربو ، فإنه يتضح لنا أنه في الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد أخذ أثر الاعتبارات التجارية يبرز في توجيه السياسة الرومانية .

٣ ــ صقلية : حرب العبيد الثانية[١٥٩] :

سبق أن ذكرنا أن سوء حال العبيد أدى الى قيامهم في جهات متفرقة في الإمبراطورية الرومانية بعدد من الثورات كانت أخطرها تلك الثورة التي نشبت في صقلية في ثلاثينات القرن الثاني قبل الميلاد وأدت الى حرب العبيد الكبرى ، وأنه بعد نجاح روما في إخماد هذه الثورات لم تعن باستئصال أسباب التذمر مما كان من شأنه حفزهم على تحين الفرص للثورة مرة أخرى . فلا عجب أن يودوروس[١٦٠] يحدثنا بأنه قبيل الثورة الكبرى الثانية لعبيد صقلية قام العبيد في إيطاليا ببعض الثورات المحلية الصغرى في أماكن متفرقة ، كانت أولاها في نوقريا (Nuceria) حيث كون ثلاثون عبداً مؤامرة قُضي عليها سريعاً .

---

(158) Cf. C.A.H., IX, pp. 152-3.

(١٥٩) مصدرنا الرئيسي عن هذه الحرب هو ديودوروس الصقلي (fr. xxxvi, 1 - 11) لأنه ليست هناك قيمة تذكر لما أورده عنها فلوروس (II, 7, 10-12) وديون قاسيوس (fr. 93). انظر :

Heitland, II, pp. 377-82; C.A.H., IX, pp. 153-7.

(160) Diod., XXXVI, 2.

وكانت ثانيتها في قابوا حيث ثار مائتا عبد وأخمدت ثورتهم أيضاً سريعاً . وكانت ثالثتها ثورة غريبة في بابها وأخطر من الأوليين . ذلك أنه في عام ١٠٤ ق . م . – فيما يحتمل – تكاثرت الديون على فارس روماني يدعى تيتوس فتّيوس (Vettius) بسبب غرام عنيف استبد به . وعندما عجز عن الوفاء بديونه دبر بوسائله الخاصة اقتراض مبلغ أنفقه في شراء ٥٠٠ زرد وفي تسليح عبيده وأقام نفسه ملكاً على قمبانيا . وبهذه الصفة أعدم دائنيه وزحف على الضياع في المنطقة المجاورة لضيعته ودعا عبيدها للثورة واذ لبوا دعوته على الفور سلحهم وكون منهم جيشاً قوامه ٣٥٠٠ عبد . ويمكننا أن نتصور مدى الخطر الذي كان يمكن أن تتعرض له روما اذا نجح هذا المغامر في الوصول الى قلب إيطاليا حيث الضياع الكبيرة بأعدادها الغفيرة من العبيد . وقد أدرك السناتو على الفور خطورة الموقف وبادر بإرسال قوة على رأسها البرايتور لوقيوس لوقولّوس (Lucullus) للقضاء على مغامرة فتيوس . ومما يجدر بالملاحظة أن لوقولّوس لم ينجح في مهمته إلا بفضل الخيانة والخديعة .

وقد كان أخطر من ذلك شأناً ما حدث في صقلية ولا سيما توافق حدوثه حين كانت روما مغلولة الأيدي في الشمال وتقتضيها أخطار القيمبرى والتيوتون ورفاقهم إرسال أفضل مقاتليها الى تلك الجبهة ومناشدة الملوك أتباعها مدها بالمساعدة . وعندما رد نيقومدس الثاني ملك بيثونيا بأنه عاجز عن تقديم أية مساعدة لأن أغلب الراشدين من رجاله قد خطفهم جباة الضرائب ويعملون عبيداً في الضياع الكبرى في الولايات الرومانية ، أصدر السناتو قراراً[١٦١] بأن كل الحلفاء الذين ولدوا أحراراً واستعبدوا في الولايات يجب أن تعاد اليهم حريتهم ، وأمر حكام الولايات بأن يسهروا على تنفيذ هذا القـــرار .

وعندما أُبلغ هذا القرار الى البرايتور أو البروبرايتور بوبليوس ليقينيوس

---

(161) Diod., XXXVI, 3.

نرفا (Nerva) — وهو الذي كان يتولى حكم صقلية في عام ١٠٤ ق. م. — قام على الفور باتخاذ ما يلزم من إجراء لتنفيذه وشرع في بحث التظلمات التي قدمت اليه ، فلم تنقض بضعة أيام حتّى كان قد حرر أكثر من ٨٠٠ رجل مستعبد . وقد سرت أنباء التحرير بين العبيد في كل أنحاء صقلية سريان النار في الهشيم ، فهرعت أعداد كبيرة من العبيد الى الحاكم ينشدون الخلاص من عبوديتهم ، على حين أن أصحاب العبيد غضبوا غضباً شديداً وذهب أقطابهم لمقابلة الحاكم . وسواء أكان هؤلاء الأقطاب قد استخدموا الرشوة أم أن الحاكم كان أضعف من أن يقاوم نفوذهم وضغطهم ، فإنه أوقف نشاطه في عملية التحرير وأمر باقي المتظلمين بالعودة إلى سادتهم .

وعندما خاب أمل العبيد في الحرية ، قام عدد منهم بثورة صغيرة في بلدة هاليقواى (Halicyae) جنوبي سجستا (Segesta) في أقصى الغرب . وقد تمكن الرومان من القضاء سريعاً على هذه الثورة — بفضل الخيانة كالعادة — ولكنه لم يلبث أن أعقب ذلك نشوب ثورة أخطر شأناً وأوسع نطاقاً كان مركزها إقليم هرقليا مينوا (Heraclea Minoa) على الساحل الجنوبي . وعندما أرسل نرفا ضد الثوار قوة صغيرة قوامها ٦٠٠ مقاتل هُزمت هذه القوة وقُتل أكثر رجالها ولم ينج الباقون بحياتهم إلا لأنهم ألقوا سلاحهم واستسلموا . وقد بث هذا النصر الثقة في الثوار وأمدهم بكمية من الأسلحة فتشجع آخرون على الانضمام اليهم وسرعان ما أصبح عددهم يربو على ٦٠٠٠ ثائر . وعندئذ عقدوا اجتماعاً عاماً واختاروا شخصاً يدعى سالفيوس (Salvius) ملكاً لهم . وقام سالفيوس بتقسيم الثوار ثلاث فئات أمرها بالانتشار في الريف لضم عبيد آخرين الى صفوف الثوار وجمع الخيول وغيرها من الدواب ثم الالتقاء في موعد ومكان حددهما . وقبل انقضاء وقت طويل كانت تحت إمرة سالفيوس ٢٠,٠٠٠ راجل و ٢٠٠٠ خيال مدربين على القتال ، فاجترأ على الزحف على الأقاليم الغنية في شرق الجزيرة حيث حاصر مدينة مورجانتيا (Morgantia) . وعندما تقدم نرفا بقوة قوامها ١٠,٠٠٠

من الإيطاليين والصقليين لرفع الحصار عن هذه المدينة ، اضطر الى الانسحاب بعد أن مني بهزيمة فقد فيها ٦٠٠ قتيل فقط و ٤٠٠٠ أسير ، لأن سالفيوس أذاع أنه سيبقي على حياة كل من يلقي سلاحه ويستسلم . ومرة أخرى كان من جراء انتصار الثوار والفوز بأسلحة القتلى والأسرى أنهم ازدادوا عدداً وشجاعة فاستأنفوا حصار مورجانتيا . وكان يشارك في الدفاع عن هذه المدينة عدد كبير من العبيد وعدهم سادتهم بالتحرير اذا نجحوا في إنقاذ المدينة . بيد أنه عندما فشل الثوار في الاستيلاء على المدينة وطالب عبيدها بالوفاء بالوعد أمر نرفا بعدم تحرير أحد منهم ، وإزاء ذلك انضم أكثرهم الى الثوار [١٦٢] .

وفي هذه الأثناء كانت حمى الثورة قد تفشت بين جموع العبيد في منطقة سجستا وليلوبايوم وغيرهما من المدن المجاورة في غرب صقلية . وقد تولى زعامة هؤلاء الثوار رجل وُلد في قيليقيا كان يسمى آثنيون (Athenion) ويعمل مشرفاً على عبيد أخوين من الأثرياء ويشتهر ببراعته في التنجم وبجرأته النادرة . ولم يلبث آثنيون أن أثبت أنه كان أيضاً على قدر كبير من الذكاء وبعد النظر ، ذلك أنه عندما اختير ملكاً وشرع في بناء قواته لم يحذ حذو غيره من زعماء الثوار بحشد كل الملتفين حوله في الجيش ، بل قصر الانخراط في صفوف المحاربين على أكثر الثوار صلاحية للقتال وكلف الآخرين بالاستمرار في مباشرة أعمالهم السابقة ليوفروا للجيش مؤنة كافية . ولكي يمنع أتباعه من القيام بأعمال تخريبية — كما هي العادة في مثل هذه الظروف — زعم أنه علم من استطلاع النجوم بأن الآلهة تنبأت له بأنه سيصبح ملكاً على صقلية بأجمعها ، ولذلك فإنه يجب الحفاظ على سلامة أرضها وحاصلاتها وماشيتها كافة بوصف كونها ممتلكاته الخاصة . وعندما حشد تحت إمرته أكثر من ١٠,٠٠٠ مقاتل اجترأ على محاصرة مدينة ليلوبايوم المنيعة . ولكنه عندما أدرك حماقة الخطوة التي اتخذها أمر قواته بالانسحاب زاعماً أنه بذلك يستجيب لأمر الآلهة وإلا أصابهم جميعاً مكروه . وحين كان على

(162) Diod., XXXVI, 4.

وشك الانسحاب وصلت الى المدينة قوة من جنود موريتانيا لتعزيز الدفاع عن المدينة المحاصرة ، وفي أثناء الانسحاب خرجت هذه القوة من المدينة وألحقت بعض الخسائر بالمنسحبين فأعجبوا بصدق نبوءة آثنيون وبراعته في استطلاع النجوم(١٦٣) .

ولم تلبث أن عمت الفوضى وانتشر الاضطراب من جراء سيطرة العبيد على كل أنحاء صقلية باستثناء بعض المدن الساحلية الحصينة وغيرها من القلاع . وفي كنف هذه الأوضاع سادت أعمال السلب والنهب والقتل ، ولم يشارك في ذلك العبيد فحسب بل أيضاً الأحرار الذين أفقرهم نظام الضياع الكبيرة ووجدوا عندئذ فرصتهم للإفادة بقدر ما يستطيعون(١٦٤) . وبعد أن عاث سالفيوس فساداً في الريف حتى سهل ليونتيني (Leontini) الغني ، اتخذ لقب تروفون (Tryphon = العملاق) واتجه صوب الغرب حيث احتل قلعة تريوقالا (Triocala) — شمالي هرقليا ، واستدعى آثنيون على نحو ما يستدعي ملك قائداً في خدمته . ولخيبة أمل الناقمين على الثورة بدلاً من أن يقع نزاع بين الرجلين يمهد السبيل الى القضاء على الثورة ، استجاب آثنيون الى الاستدعاء ووضع نفسه تحت قيادة تروفون . وقد اتخذ هذا الرجل من تريوقالا عاصمة له وحصنها وشيد لنفسه فيها قصراً واختار من أذكى أتباعه مستشارين له واتخذ كل المظاهر الخليقة بملك(١٦٥) . ويبدو أن خضوع آثنيون على الفور أثار ريبة تروفون فسجنه فترة قصيرة ثم أفرج عنه .

ويبدو أنه حتى هذا الوقت كان الرومان يعتمدون في مقاومة الثوار على القوة الصغيرة التي كانت توجد عادة في صقلية وعلى بعض التجريدات التي أمكن حشدها . وعندما تفاقمت الأزمة على نحو ما مر بنا عني السناتو بأن يزود الحاكم الجديد لصقلية في عام ١٠٣ ق . م . — البروبرايتور لوقيوس

(163) Diod., XXXVI, 5.
(164) Diod., XXXVI, 6; 11.
(165) Diod., XXXVI, 7

ليقينيوس لوقولّوس — بقوات كافية كان قوامها ١٧٠٠٠ مقاتل لم يتألفوا من الرومان والإيطاليين فحسب بل أيضاً من البيثونيين والتساليين والأقارنانيين ، مما يدل على مدى حاجة روما الى المحاربين حين كانت تخوض غمار حرب ضروس في الشمال ثم تفاقمت أزمة صقلية . وعندما زحف لوقولوس على الثوار قرروا ألا يبقوا في قلعتهم بل أن يخرجوا للقائه بقوة تبلغ نحواً من ٤٠،٠٠٠ مقاتل ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة خسر فيها الثوار نصف قوتهم وجُرح آثنيون ولكنه نجا من الأسر بتظاهره بالموت ، وفر الباقون تحت ستار الليل الى تريوقولا .

وقد كان لهذه الهزيمة وقع عميق الأثر في نفوس أغلب الثوار فقد حطمت معنوياتهم الى حد أنهم فكروا في العودة الى سادتهم ووضع أنفسهم في قبضتهم لو لم يقنعهم بالعدول عن ذلك أكثر الثوار تطرفاً وإصراراً على القتال حتى نهايته المريرة . وبدلاً من أن يستغل لوقولوس انتصاره ويزحف فوراً على تريوقالا أضاع أكثر من أسبوع قبل قيامه بذلك . وعندما فشل في الاستيلاء على وكر الثوار وانسحب انتعشت آمالهم من جديد[١٦٦] .

وبعد عودة لوقولوس الى روما اتهم بضعف الهمة وخوار العزيمة وكذلك بالارتشاء وتقرر نفيه . ولا جدال في أنه كان جديراً بما ناله من جزاء ، فقد كان سلوكه مريباً منذ انتصاره وبعد ذلك معيباً الى أقصى حد إذا صح ما يرويه ديودوروس من أنه عندما علم لوقولوس بتعيين البرايتور جايوس سرفيليوس خلفاً له سرح جيشه وأشعل النار في معسكره وفي العتاد ليقلل فرص خليفته في النجاح . وقد حدث فعلاً أن حاكم صقلية الجديد في عام ١٠٢ ق . م . لم يصب أي نجاح يُذكر ، بل إنه عندما توفي تروفون وخلفه آثنيون في زعامة الثوار عجز سرفيليوس عن الحد من نشاط آثنيون في محاصرة المدن والسيطرة على أنحاء كثيرة في صقلية . فلا عجب أنه عند عودة سرفيليوس الى روما

(166) Diod., XXXVI, 8.

حوكم وعوقب بمثل ما عوقب به لوقولّوس[١٦٧] .

وعندما سحق ماريوس جحافل التيوتون والأمبرونس في عام ١٠٢ ق. م. وانضم بقواته الى قاتولوس كان في وسع السناتو أخيراً أن يعهد الى قنصل وهو مانيوس أكويليوس (Aquilius) – زميل ماريوس في قنصلية عام ١٠١ ق . م . – بوضع أمور صقلية في نصابها . ولا أدل على مدى أعمال التخريب التي ارتكبها الثوار في صقلية من أن هذه الجزيرة التي كان القمح أعظم حاصلاتها وتعتبر أحد المصادر الرئيسية لتزويد روما بالقمح أصبحت عندئذ تواجه مجاعة . ولم يلبث أكويليوس أن أخمد الثورة تماماً بهزيمة الثوار في معركة قُتل فيها آثنيون ثم بمطاردة الفارين دون هوادة والاستيلاء على معاقلهم وقتل الكثيرين منهم . ويقال إنه عندما أرسل الى روما ألف أسير آثروا أن يقتلوا بعضهم بعضاً على أن يصارعوا الوحوش[١٦٨] .

ولما كان أكويليوس لم يحتفل بنصره بإقامة مهرجان نصر صغير (Ovatio) إلا في عام ٩٨ ق . م .[١٦٩] فإنه من الجائز أن تكون مدة حكمه في صقلية قد أطيلت حتى آخر عام ٩٩ ق . م . ويبدو أن أكويليوس وضع من القواعد ما كفل انتشار الأمن والسلام في صقلية والقضاء على كل أمل لعبيدها في الثورة ثانية ، بدليل أنهم لم يحركوا ساكناً سواء عندما رفع الحلفاء الإيطاليون السلاح في وجه روما (٩٠ – ٨٩ ق . م .) أم عندما تزعم سبارتاقوس (Spartacus) ثورة عارمة (٧٣ – ٧١ ق . م .) للعبيد في جنوب إيطاليا .

ويعطينا الحادث التالي فكرة عن القواعد الصارمة التي وضعها أكويليوس

(167) Diod., XXXVI, 8-9; Plut., Lucullus, I, 1; Cic., Div. in Caec., 19, 63; Realencycl., s.v. Licinius (coll. 375 ff.) et Servilius (Coll. 1763 ff.;); C.A.H., IX, p 155

(168) Diod., XXXVI, 10.

(169) Liv., Ep., 69; Cic., de Orat., II, 47, 195; Broughton, M.R.R., II, 4 [V. Kal. Feb 98 قبل (Ovatio) موكب نصر صغير]

ويرينا الى أي مدى ذهب حكام صقلية من بعده في تطبيقها . ذلك أنه عندما أهدي وعل بري الى البرايتور لوقيوس دوميتيوس – خليفة أكويليوس في حكم صقلية – وتبين هذا الحاكم أن الذي رمى الوعل رمية قاتلة برمح صيد كان عبداً من الرعاة يمتلكه أحد الصقليين ، أمر بإعدام هذا العبد فوراً تطبيقاً للأوامر المعمول بها عندئذ وكانت تقضي بإعدام كل عبد يحمل سلاحاً [١٧٠] . وهكذا أُخمدت أنفاس عبيد صقلية ، وهدأ بال سادتهم واستأنفوا سيرتهم الأولى ، واستمر تجار العبيد سادرين في نشاطهم الذميم ليوردوا عبيداً آخرين بدل الذين لاقوا حتفهم .

واذا كان بوسيدونيوس[١٧١] يحدثنا عن وقوع اضطرابات حوالي هذا الوقت بين العبيد الذين كانوا يعملون في مناجم أتيكا ، وكانت الفقرات التي اقتطفها منه آثنايوس[١٧٢] (Athenaeus) لا توحي بأن هذه الاضطرابات كانت رجعاً لأصداء ثورة العبيد في صقلية ، فإن وقوع هذه الاضطرابات بين عبيد أتيكا ينهض دليلاً آخر ، اذا كانت هناك حاجة الى دليل ، على سوء حال العبيد حيثما كانوا .

وبعد عودة أكويليوس الى روما وإقامة مهرجان نصر صغير قُدم للمحاكمة بتهمة ابتزاز الأموال . ولم يداخل شيشرون الشك في أن أكويليوس كان مذنباً ، ولكنه بفضل نفوذ ماريوس وبراعة المحامي ماركوس أنطونيوس بُرئت ساحة المتهم[١٧٣] . ومما يدل على سوء سمعة أكويليوس بأنه كان رجلاً شديد الجشع وعلى ذيوع هذه السمعة أن ميثريداتس أنهى حياته في عام ٨٨ ق . م . بصب ذهب مذاب في حلقه[١٧٤] .

---

(170) Cf. Cic., in Verr. III, 125; V, 5, 4.
(171) Müller, Fr. H. G., III, no. 35.
(172) Posid. ap. Athen., VI, 272 E-F.
(173) Liv., Ep., 70; Cic., in Verr., V, 1, 3; pro Flacco, 39,98; de Orat., II, 28, 124; 47, 196; Brutus, 62 222.
(174) App., Mithr., I, 21; Cic., Tusc. Disp., V, 5, 4; Cf. Licinanus, p. 26 F.

٤ — القراصنة :

مر بنا أنه عندما حول الرومان مملكة برجام الى ولاية آسيا ألغوا الأسطول الذي كان ملوك برجام يعنون بالحفاظ عليه لحماية تجارة مملكتهم من قراصنة البحر ، وأنه كان من شأن حدوث ذلك بعد ما أصاب قوة مصر البحرية من وهن شديد منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ، وما اقتضته السياسة الرومانية من إضعاف قوة رودس البحرية وتقييد نشاط السلوقيين ملوك سوريا في البحر ، إزالة ما تبقى من عقبات كانت تعترض سبيل قراصنة البحر ، وترك شواطىء آسيا الصغرى تحت رحمة قراصنة قيليقيا تراخيا (Tracheia = الجبلية أو الوعـــرة) .

وقد كان هذا الإقليم الجبلي الفقير في موارده جزءاً من إمبراطورية السلوقيين ، إلا أنه بمقتضى شروط معاهدة أباميا (Apamea) التي عقدتها روما مع انطيوخوس الثالث في عام ١٨٨ ق . م . عقب انتصارها عليه في معركة ماجنسيا (Magnesia) ، حُظر على أنطيوخوس أن يزيد أسطوله على عشر سفن حربية وأن يرسل أية سفينة حربية من سفنه غربي رأس ساربدونيوم (Sarpedonium) في الطرف الشرقي من قيليقيا تراخيا . ولما كانت أحكام هذه المعاهدة ملزمة لكل ملك سوريا منذ عقدها في عهد انطيوخوس الثالث ، وكانت طبيعة قيليقيا تراخيا تحول دون وصول قوة كبيرة الى هذا الإقليم براً ، فإن هذا الإقليم أصبح قاعدة مواتية للمطالبن بعرش الدولة السلوقية عندما نكبت هذه الدولة بسلسلة من حلقات الصراع العنيف على العرش منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد .

ويعزو إسترابون [١٧٥] نشأة القرصنة على شاطىء قيليقيا الى حلقتين من الصراع على عرش سوريا : وكانت الحلقة الأولى بين سلالة السلوقيين والقائد العسكري ديودوتوس (Diodotus) وهو الذي اغتصب العرش في عام

(175) Strab., XIV, 5, 1-2.

١٤٢ ق . م . واتخذ لنفسه لقب تروفون (Tryphon) وتولى حكم شطر من الدولة السورية الى أن هزمه وقتله انطيوخوس السابع الصيدوي (Sidetes) في عام ١٣٨ ق . م . وكانت الحلقة الثانية من الصراع بين السلوقيين أنفسهم . وفي أثناء الحلقة الأولى اتخذ تروفون قاعدة له مدينة حصينة تقع في الطرف الغربي من قيليقيا تراخيا وتسمى قوراقسيوم (Coracesium) ونظم من الأهالي الوطنيين عصابات للقرصنة من أجل تزويده بما كان يفتقر اليه من موارد . وبعد القضاء على تروفون حذا حذوه في ذلك المتطلعون الى العرش السلوقي في أثناء الحلقة الثانية من الصراع . وهكذا غدت قوراقسيوم قاعدة لنشاط قراصنة قيليقيا ، وهو النشاط الذي امتد في الربع الأخير من القرن الثاني ليشمل كل الحوض الشرقي للبحر المتوسط ابتداء من قوريني وكريت والبلوبونيز [١٧٦] ، وكان يدر الخير العميم على أربابه من وراء كثرة من كانوا يخطفونهم ويبيعونهم في أسواق النخاسة حيث يقال إنه كان يباع في اليوم الواحد عشرة آلاف عبد [١٧٧] .

وبرغم ذلك فإن الحكومة الرومانية لم تفعل على مدى عدة سنين أكثر من إرسال بعثات دبلوماسية للاحتجاج لدى الدول التي حملتها تبعة التقصير في وقف نشاط القراصنة . وكيف يمكن تفسير هذا التقاعس من جانب الحكومة الرومانية وهي التي رأيناها منذ قليل تعمل على تأمين التجارة البحرية من القراصنة في الحوض الغربي للبحر المتوسط وكان الواجب يحتم عليها تأمين سلامة التجارة البحرية في حوضه الشرقي أيضاً بعد أن أصبحت سيدة هذه المنطقة وملتزمة بأن تكفل سلامة رعاياها هناك . ولعل أن مرد ذلك التقاعس كان الى عدة عوامل أهمها : ١ ــ قصر نظر الحكومة الرومانية مما أعماها عن اتخاذ إجراء فعال يقطع دابر الخطر بمجرد ظهوره لكيلا يستفحل ويصعب معالجته . ٢ ــ ما جرت عليه عادة الرومان من عدم الاحتفاظ بأسطول كبير

---

(176) Florus, I, 41, 6.
(177) Strab., XIV, 5, 2.

حين لا يكونون مشتبكين في حرب بحرية . ٣ — أن تجارة إيطاليا مع شرق البحر المتوسط لم تنشط فيما يبدو نشاطاً محسوساً إلا في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد . ٤ — أن خطر القراصنة في هذه المنطقة لم يستفحل إلا في ذلك الوقت .

ولا أدل على مدى استفحال هذا الخطر في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد من أنه حين كانت روما عندئذ مغلولة الأيدي في محاربة القيمبرى والتيوتون ورفاقهم منحت البرايتور ماركوس انطونيوس ، الخطيب المشهور ، سلطة بروقنصلية وجعلت مهمته (provincia) التي أبحر في عام ١٠٢ ق . م . على رأس حملة لأدائها هي القضاء على نشاط القراصنة القيليقيين [١٧٨] ، ولكنه فيما يبدو أعطى تعليمات أوسع مدى من ذلك.

ولم يقف الأمر عند إنفاذ هذه الحملة ، ذلك أنه في حوالي عام ١٠٠ ق . م . صدر قانون يقضي بمنع دخول القراصنة جميع موانئ الإمبراطورية الرومانية ، ومناشدة حلفاء روما بألا يسمحوا للقراصنة بأن يتخذوا في بلادهم قواعد لهم أو بأن يجدوا فيها ملاذاً لهم [١٧٩] .

واذا كان الشك لا يرقى الى أن أنطونيوس استولى على معاقل القراصنة على شاطئ قيليقيا تراخيا وكذلك على الأراضي الواطئة في بامفوليا (Pamphylia) ولا الى أنه نجح في وقف نشاط القراصنة لبضعة أعوام ، فإنه من العسير الجزم بمدى ما قام به في مهمته التي قضى فيها عامين وكوفئ عليها بمنحه انتصاراً [١٨٠] . واذا كنا نعرف أنه كان من نتائج هذه الحملة إنشاء ولاية رومانية جديدة تسمى ولاية قيليقيا (Provincia Cilicia) ، فإن بعض الباحثين يرون أن هذه الولاية لم تضم أكثر من الأراضي الواطئة في بامفوليا [١٨١] ، لكنه يدق

(178) Liv., Ep., 68; Cic., de Orat., I, 18; Degrassi, I.L.L.R.P., I, 342,
(179) S.E.G. III, 378; Lewis-Reinhold, Roman Civilization, I, pp. 325-7; H. Stuart Jones, J.R.S., 1926, pp. 155 ff.; C.A.H., p. 351,
(180) Cic., Rab. perd., 9, 26; Plut., Pomp., XXIV, 6.
(181) C.A.H., IX, p. 351.

علينا أن نفهم تسمية الولاية الجديدة « ولاية قيليقيا » إلا اذا كانت تضم الى جانب شطر من بامفوليا مناطق أخرى[١٨٢] كان من بينها على الأقل القسم الغربي من شاطىء قيليقيا تراخيا حيث كانت توجد أهم معاقل القراصنة وهي التي لا شك في أن أنطونيوس أخضعها . وعلى كل حال فإن التاريخ التالي للقراصنة يدل على أن الرومان لم يحتفظوا في الولاية الجديدة بقوة بحرية تكفل سلامة الملاحة في شرق البحر المتوسط .

(182) Cf. Liv., Ep., 77; App. Mithr., III, 20; Heitland, II, p. 386.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الأحداث في روما وإيطاليا
منذ عام ١٠٦ حتى عام ٨٨ ق. م.

أولاً – الحالة في روما في أثناء غيبة ماريوس في الخارج

١ – « الأخيار » يجلبون النكبات على أنفسهم :

لم يصبر الأخيار (Optimates) طويلاً على اللطمات التي كيلت لهم في عام ١٠٩ ق . م . عندما شد الفرسان أزر الشعبيين وتقرر إنشاء الهيئة القضائية التي اقترحها تربيون العامة ماميليوس وأدانت عدداً كبيراً من الطبقة الحاكمة ، وفي عام ١٠٨ ق . م . عندما تضافر الفرسان والشعبيون فانتُخب « الرجل الجديد » ماريوس قنصلاً للعام التالي واعتُدي على اختصاصات السناتو وضُرب عرض الحائط بقراره الخاص بإطالة مدة قيادة متلّوس وأُسندت قيادة حرب يوجورتا الى ماريوس .

ويبدو أن ما أعقب ذلك من هدوء في الصراع الداخلي أتاح للأخيار الفرصة ليلتقطوا أنفاسهم ويحاولوا دعم مكانتهم ، فارتكبوا حماقة جديدة دعمت لبضع سنوات التعاون بين الفرسان والشعبيين وحفزتهم على أن يردوا للأخيار الصاع صاعات مضاعفة . ذلك أن القنصل كوينتوس سرفيليوس

قايبيو –أحد قنصلي عام ١٠٦ ق. م.– قبل أن يبرح روما الى تولوسا استصدر بمساعدة قراسوس[1] قانوناً أدخل على تشكيل هيئات المحلفين تعديلاً تتضارب المصادر القديمة في ماهيته ومداه. ذلك أنه على حين أن بعض هذه المصادر [2] يذكر أن هيئات المحلفين أصبحت تتألف من الفرسان وأعضاء السناتو ، يذكر تاقيتوس[3] أن هيئات المحلفين أصبحت ثانية تشكل من أعضاء السناتو . ويرجح كفة تاقيتوس ما جاء في إحدى مرافعات شيشرون [4] من أن الفرسان وأعضاء السناتو لم يشتركوا في تكوين هيئات المحلفين قبل قانون بلاوتيوس[5] (Lex Plautia) ، وهو القانون الذي صدر في عام ٨٩ ق . م . ، على نحو ما سنرى فيما بعد . واذا صح ما يراه أغلب الباحثين من أن قانون قايبيو قد ألغاه قانون سرفيليوس الخاص باسترداد الأموال المبتزة (Lex Servilia de rebus repetundis) وهو القانون الذي استصدره تريبون العامة سرفيليوس جلاوقيا (Servilius Glaucia) في عام ١٠٤ أو ١٠١ ق . م . ، فإنه يبدو إذن أن قانون قايبيو كان خاصاً بتشكيل محكمة استرداد الأموال المبتزة وأنه قضى بالعودة ثانية الى تشكيل هيئة محلفي هذه المحكمة من أعضاء السناتو ، أي بإعادة الوضع الى ما كان عليه قبل صدور قانون أقيليوس (Lex Acilia) في أثناء تريبونية جايوس جراكوس الثانية [6] .

وقد أتاحت كارثة أراوسيو الفرصة للمعارضة لكي تثأر من الأخيار في شخص السناتو وقايبيو ، وهو الذي جر في ركابه بحكم الضرورة « الرجل الجديد » ماليوس لأنهما كانا القائدين عند وقوع هذه الكارثة . وكان قايبيو

(1) Cic., Brutus, 43, 161-44, 164.
(2) Obsequens, 41; Cassiodoros Chronica.
(3) Tacit., Ann., XII, 60, 4.
(4) Cic., in Verr. II, i, 9, 26.
(5) Asconius, p. 79 C.
(٦) للاطلاع على مناقشه وافية لقانون قايبيو ، انظر :
J.P.V. Balsdon, Papers Br. Sch. Rome, 1938; Scullard, 1970, n. 18 pp. 400-1.

موضع نقمة شديدة بسبب قانونه القضائي والشبهة القوية التي حامت حوله من جراء اختفاء كنوز تولوسا . وكانت أول لطمة كيلت للسناتو ولقايبيو هي حرمان هذا البروقنصل في عام ١٠٥ ق.م. سلطته البروقنصلية (proconsulare imperium) بمقتضى قرار أصدره الشعب[٧] . وفي عام ١٠٤ ق. م. طُرد قايبيو من السناتو بناء على قانون أصدره الشعب وقضى بأن يُطرد من السناتو كل عضو من أعضائه أُدين في جريمة أو حُرم سلطته التنفيذية[٨] . وفي ذلك العام أيضاً شُكلت هيئة قضائية خاصة لمساءلة قايبيو عن كنوز تولوسا ، ولكن معلوماتنا عن هذا الموضوع غامضة وإن كان يبدو أن قايبيو أفلح عندئذ في الإفلات من عقوبة صارمة[٩] ، لأنه لم يلبث أن قُدم للمحاكمة في العام التالي على نحو ما سنرى في سياق الحديث عن أحداث عام ١٠٣ ق . م . وكان من بين الذين قدموا للمحاكمة في عام ١٠٤ ق . م . العاصف القنصل السابق سيلانوس وزعيم السناتو سقاوروس ولكنهما لم يُدانا[١٠] . وكذلك في عام ١٠٤[١١] على الأرجح وليس في عام ١٠١ ق . م . استصدر تريبون العامة سرفيليوس جلاوقيا قانونه (Lex Servilia) الذي سبقت الإشارة اليه ويُرجح أنه بمقتضاه ألغى قانون قايبيو القضائي ، وذلك فضلاً عن أنه قضى باختصار الإجراءات وتجنب التأجيلات المؤدية الى تعطيل الفصل في القضايا وجعل كل الذين ساعدوا على ارتكاب جريمة الابتزاز شركاء في ارتكابها .

وبرغم ما فاز به العامة في أثناء صراعهم مع البطارقة من حق الحصول على عضوية الجماعات الدينية بل تولي المناصب الدينية العليا ، فإنه إزاء طول عهد الأسر العريقة بممارسة الشئون الدينية وتولي كل جماعة من الجماعات

---

(7) Liv., Ep., 67; de Orat., II, 47, 197 f.

(8) Asconius, p. 78 C

(9) Cf. J. Lengle, Hermes, 1931, pp. 302 ff , Gruen, Roman Politics, pp. 162 ff.

(10) Asconius, 80 C; 21 C; Gruen, op. cit., pp., 171 ff., Trans. Am. Philol. Ass., 1964, pp. 99 ff.

(11) C.A.H., IX, pp. 162-3, Scullard, 1970, p 55 and n. 19 p. 401.

الدينية اختيار اعضائها الجدد احتكرت أوليجاركية السناتو الى حد كبير عضوية الجماعات الدينية وقلما تيسر لأحد من خارج طبقة النبلاء الحصول على عضوية هذه الجماعات . ولذلك فإنه يمكننا أن نعزو الى حملة المعارضة ضد « الأخيار » القانون [١٢] (Lex Domitia de Sacerdotiis) الذي استصدره في عام ١٠٤ ق. م . تريبون العامة جنايوس دوميتيوس أهنوباربوس (Ahenobarbus) . فقد قضى هذا القانون بأنه عند اختيار أعضاء جدد في أية جماعة من الجماعات الدينية يجب أن تعرض أسماء المرشحين على جمعية شعبية تتألف من سبع عشرة قبيلة تُختار بالاقتراع من بين القبائل الخمس والثلاثين ، وتقوم هذه الجمعية بانتخاب الأعضاء الجدد وتقدم أسماء من انتخبتهم الى الجماعة الدينية التي يهمها الأمر لتصدر قرارها بتعيين أعضائها الجدد . وإذا كان على هذا النحو قد حوفظ شكلاً على التقاليد القديمة من حيث حق الجماعات الدينية في تعيين أعضائها ، فإنه من الناحية العملية لم يكن في وسع الجماعات الدينية الا أن تعين من انتخبهم الشعب . ومما يجدر بالملاحظة أن القاعدة التي قضى قانون دوميتيوس باتباعها عند اختيار أعضاء الجماعات الدينية كانت متبعة من قبل في حالة اختيار الكاهن الأكبر فقط . ولما كانت القبائل لا تستطيع أن تختار الكاهن الأكبر إلا من بين أعضاء جماعة الكهنة ، فإن اختيار هؤلاء الأعضاء بالانتخاب الشعبي كان لا يفتح أمام العامة الباب للفوز بهذه العضوية فحسب بل أيضاً بمنصب الكاهن الأكبر ذي الأهمية السياسية الكبرى .

٢ — ساتورنينوس :

كان من بين ترابنة العامة الجدد الذين تولوا في ١٠ من ديسمبر عام ١٠٤ ق . م . مهام عملهم لمدة عام ينتهي في يوم ٩ من ديسمبر عام ١٠٣ ق. م. التريبون لوقيوس أبّوليوس ساتورنينوس (Appuleius Saturninus) . وكان مقدراً لهذا الرجل أن يتولى التريبونية مرة ثانية لعام ١٠٠

(12) Cic., de Leg. Agr., II, 7, 18; Velleius, II, 12, Suet., Nero, II.

ق . م . وأن يكون من أسوأ أمثلة الزعماء الشعبيين (Populares) . ولا جدال في أن معلوماتنا عن ساتورنينوس مستمدة من مصادر معادية له ، غير أن أعماله المصحوبة دائماً بالشغب والعنف توحي بأنه استحق سمعته السيئة وتكشف عن المخاطر التي كانت تتهدد صوالح الدولة عند تولي تريبونية العامة رجل متهور يفتقر الى ما تحلى به الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس من الخلق النبيل والمبادىء الرفيعة ولكنه يقتفي أثر السوابق التي وضعاها ويتخذ من جمعية القبائل أداة لخدمة صوالحه الخاصة .

ولسوء الحظ أن مصادرنا القديمة لا تمكننا من أن نتبين على وجه اليقين نصيب كل من تريبونيتي ساتورنينوس من القوانين التي استصدرها . وقد ملأ ساتورنينوس حقداً على الأخيار ورغبة في الانتقام منهم أنه كان في عام ١٠٤ ق.م. كوايستوراً لأوستيا ميناء روما (Quaestor Ostiensis) ، أي مكلفاً بمهمة الإشراف على الغلال التي تصل الى أوستيا لتموين روما ، ولكنه إزاء إهماله في أداء مهمته اتخذ السناتو خطوة غير مألوفة وهي أنه أعفى ساتورنينوس من مهمته وأسندها الى زعيم السناتو سقاوروس[١٣] .

ويبدو أن ساتورنينوس استهل نشاطه في تريبونيته الأولى بالتعاون مع زميله تريبون العامة جايوس نوربانوس[١٤] (Norbanus) في متابعة الهجوم على قايبيو سارق كنوز تولوسا . وعلى كل حال فان نوربانوس قدم قايبيو للمحاكمة أمام جمعية القبائل حيث وقعت اضطرابات عنيفة طُرد في أثنائها تريبونان معارضان وأُصيب سقاوروس زعيم السناتو بحجر في رأسه . ولم يكن من شأن هذه الاضطرابات إلا أنها زادت نوربانوس إصراراً على المضي في المحاكمة وتقررت إدانة قايبيو ومصادرة أملاكه ونفيه فرحل الى أزمير

---

(13) Diod , XXXVI, 12; Cic., de Har. Resp., 20, 43; Pro Sestio, 17, 39.

(١٤) عن تولي نوربانوس تريبونية العامة لعام ١٠٣ ق.م. انظر Broughton, M.R.R., I, pp. 565-6.

حيث توفي [١٥] .

وينفرد أحد المصادر القديمة [١٦] بالحديث عن مشروع قانون (Lex frumentaria) تقدم به ساتورنينوس الى جمعية القبائل لبيع القمح بسعر قدره خمسة أسداس الآس، فأنهى الكوايستور قايبيو (يرجح أنه كان ابن سارق تولوسا) الى السناتو «أن الخزانة العامة لا يمكن أن تتحمل عبء مثل هذه المنحة الضخمة . »

(docuit senatum aerarium pati non posse largationem tantam)

وإزاء ذلك اتخذ السناتو قراراً بأنه اذا أصدر الشعب هذا القانون فانه يكون قد أضر بذلك صوالح الدولة . وعندما تجاهل ساتورنينوس « ڤيتو » بعض زملائه ترابنة العامة ومضى في سبيله لاستصدار قانون بمشروعه تدخل قايبيو وفض الاجتماع بالقوة فقُدم جزاء ذلك للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى على نحو ما سيأتي ذكره فيما بعد .

واذا صح ما جاء في هذا المصدر عن السعر ، واذا كان هذا هو سعر الموديوس ، فإنه كان معنى ذلك إنقاص السعر الى ما يقل عن سُبع السعر الذي حدده قانون جايوس جراكوس للقمح [١٧] وهو القانون الذي مر بنا أن التريبون أوقتافيوس عدل أحكامه في عام ١١٩ ق . م . لتخفيف العبء الذي كانت الخزانة العامة تتحمله . بيد أنه إزاء ما تنطوي عليه عبارة المصدر القديم من خفض سعر القمح عن سعر السوق خفضاً كبيراً ، وإزاء جواز قراءة هذه العبارة على نحو آخر بعد تعديلها تعديلاً طفيفاً ، يرجح بعض الباحثين أنه من المحتمل أن مشروع قانون ساتورنينوس لم يقترح إلا العودة الى العمل بأحكام قانون جايوس جراكوس [١٨] . وهذا الاحتمال جائز إلا أن هناك عدة اعتبارات

---

(15) Liv., Ep., 67; Cic., de Orat., II, 107; 197-9; pro Balbo, 11, 28; ad Herenn., I, 14; 24; Oros., V. 16, 1-7, Val. Max., IV, 7, 3; C.A.H., p. 16; Scullard, 1970, pp. 56-7, and n. 22 p. 401.

(16) ad Herenn., I, 12, 21.

(17) Heitland, II, pp. 397-8; C.A.H., IX, p. 165.

(18) C.A.H., IX, p 165 n. 4; Scullard, 1970, p. 57, and n 24 p. 402.

توحي بأن الأقرب الى الاحتمال هو قبول العبارة الواردة في المصدر القديم كما هي بكل ما تنطوي عليه من خفض السعر خفضاً كبيراً . وهذه الاعتبارات هي : اولاً ، ما أفضى به الكوايستور قاييبو الى السناتو عن ضخامة عبء المنحة المقترحة ثم إقدامه على فض اجتماع جمعية القبائل بالقوة . وثانياً ، قرار السناتو سالف الذكر . وثالثاً ، ما سنراه من تجرد ساتورنينوس من كل شعور بالمسئولية . ورابعاً، رغبة ساتورنينوس الملحة في اكتساب عطف الجماهير بأي ثمن .

ولا يذكر مصدرنا القديم اذا كانت المصادقة على هذا المشروع قد تمت أم لا . غير أنه سواء أكانت هذه المصادقة قد تمت أم لم تتم ، فإنه كان من شأن محاولة ساتورنينوس في هذا الاتجاه إظهار عطفه على العامة وكسب ودهم وتأييدهم بوصف كونه خليفة الأخوين جراكوس في مناصرتهم ورعاية صوالحهم .

ومن المرجح أنه في عام ١٠٣ وليس في عام ١٠١ ق . م . استصدر ساتورنينوس قانـــوناً (١٩) (Lex Appuleia de maiestate) بإنشاء محكمة دائمة (quaestio perpetua) تؤلف هيئة محلفيها من الفرسان لمحاكمة كل من يتهم بجريمة الحط من قدر الأمة الرومانية (crimen maiestatis minutae populi Romani) أو بعبارة أخرى جريمة الخيانة العظمى وهي التي كانت قبلاً تُسمى perduellio وتوجه الى مرتكبي أعمال أضرت بالدولة وتتولى جمعية المئينات الفصل فيها . ولما كان « الحط من قدر الأمة الرومانية » لا يقل غموضاً عن « الإضرار بالدولة » ، وكانت المحكمة الجديدة

---

(١٩) وجد في بانتيا Bantia بجنوب إيطاليا جزء من قانون روماني (Bruns, Fontes, 7th ed., 9; Warmington, R.O.L., IV, 294). يعتقد بعض الباحثين (H. Stuart Jones, J.R.S., 1926. p. 171) أنه جزء من قانون ساتورنينوس بينما يخالف هذا الرأي بعض آخر ، انظر G. Tibiletti, Atheneum, 1953, pp. 1 ff. E.J. Yarnold., A.J.P., 1957 pp. 163 ff., Carney, J.R.S., 1969, pp. 283 ff.; Scullard, 1970, n. 23 pp. 401-2

ليست فقط أقدر على الفصل في القضايا وأسرع من جمعية المئينات بل كانت أيضاً مشكلة من الفرسان ، فإنه أصبح يوجد سلاح بتار في وسع من يستطيع استخدامه أن يشهره على رقاب الأخيار سواء أكانوا من رجال السياسة أم من القواد الفاشلين .

ولا شك في أن هدف ساتورنينوس من استصدار هذا القانون كان قبل كل شيء هدفاً سياسياً هو الرغبة في كسب تأييد الفرسان وهم الذين قضى القانون بتشكيل هيئة المحكمة الجديدة منهم وكذلك الرغبة في القضاء على كل معارضة تقف في وجه نشاطه لدعم مكانته[٢٠] . ولا أدل على ذلك من أن ساتورنينوس لم يلبث أن قدم الكوايستور قايبيو للمحاكمة بتهمة أنه بفضه اجتماع جمعية القبائل عنوة قد حط من قدر الأمة الرومانية[٢١] (maiestatem minuit populi Romani) .

وقد خطا ساتورنينوس خطوتين ليكسب جانب ماريوس بأن نشط في حملة الدعاية الانتخابية التي تكللت بفوز ماريوس بقنصليته الرابعة لعام ١٠٢ ق . م . وبأن استصدر قانوناً سخياً لصالح قدماء محاربي حرب يوجورتا ، فقد قضى هذا القانون بمنح كل واحد من هؤلاء المحاربين إقطاعاً في أفريقيا مساحته ١٠٠ يوجرا[٢٢] . ومما يجدر بالملاحظة أنه عندما عرض ساتورنينوس مشروع هذا القانون على جمعية القبائل وصادره أحد ترابنة العامة لم يُقض على المعارضة بالمناقشة وإنما بوابل من الأحجار اضطرت التريبون المعارض الى مغادرة الاجتماع نجاةً بحياته . وبعد أن خلا الجو لساتورنينوس على هذا النحو وافقت الجمعية على المشروع فأصبح قانوناً واجب النفاذ . ومهما يكن من أمر اختلاف الباحثين[٢٣] هل صدر هذا القانون في خلال تريبونية

(20) Heitland, II, pp. 398-400; C.A.H., IX, pp. 158-61; Scullard, 1970, p. 57.
(21) ad Herenn., I, 12, 21; II, 17; Cic., Brutus, 169.
(22) (Victor) de Vir. Ill., 73, 1; C.A.H., IX, p. 166; E. Gabba, Athenaeum, 1951, pp. 12 ff.
(23) See Scullard, 1970, n. 31 pp. 403-4.

ساتورنينوس الأولى أم الثانية (أي في عام ١٠٣ أم ١٠٠ ق. م)، فإنه لا جدال حول تنفيذه. وحسبنا دليلاً على ذلك أنه في القرن الثالث بعد الميلاد كانت مستعمرتا ثيباريس (Thibaris) وأوخي مايوس (Uchi Maius) - الواقعتين في الإقليم الجبلي جنوبي نهر باجراداس (Bagradas) - لا تزالان تحملان لقب ماريانا[٢٤] (Mariana). بيد أنه ورد في نقش[٢٥] كُشف عنه مؤخراً أن ماريوس هو مؤسس مستعمرة ثوبورنيقا (conditor coloniae thuburnicae).

وعلى هذا النحو عمل ساتورنينوس على كسب جانب ماريوس وقدماء محاربيه والفرسان والعامة، وبدا في مظهر الزعيم الشعبي الذي خلف الأخوين جراكوس في تولي زمام الحركة المناهضة «للأخيار». ويبدو أنه نجح في إحياء سيرة الأخوين جراكوس الى حد أن مغامراً مجهولاً يدعى لوقيوس اكويتيوس (Equitius) رأى أن الفرصة مواتية ليدعي أنه ابن تيبريوس وجراكوس، مع أنه كان وفقاً لبعض الروايات القديمة عبداً هارباً ووفقاً لبعضها الآخر عبداً محرراً. وبرغم أن قنسوري عام ١٠٢ ق. م. رفضا تسجيله في عداد المواطنين، وأن سمبرونيا أخت الزعيمين جراكوس وأرملة آيميليانوس أنكرت ادعاءه، وأن مصير أبناء تيبريوس جميعاً كان معروفاً للناس كافة، فإن هذا المغامر انتخب في عام ١٠٠ ق. م. تريبوناً للعامة ولكنه قُتل في أول يوم تولى فيه مهام منصبه[٢٦].

ولما كان ساتورنينوس قد أصبح في عام ١٠٢ ق. م. مواطناً عادياً (privatus) لا يشغل أية وظيفة عامة، شأنه في ذلك شأن التريبون السابق جلاوقيا، فإنه كان هناك أمل في أن تهدأ الأحوال وينقطع الصراع في الداخل

(24) Dessau, I.L.S., nn. 6790, 1334; Cf. S. Gsell, Hist. anc. d'Afrique du Nord, VII, pp. 10, 263 ff.
(25) Année Ep., 1951, n. 81.
(26) App., B.C., I, 33; Val. Max., II, 2, 18; IX, 7, 1-2 (Victor) de Vir. Ill., 73; Heitland, II, p 394; C.A.H., IX, pp. 166-7.

الى أن ينتهي على الأقل صراع الرومان في الخارج . بيد أنه عندما انتخب ابنا العم متلّوس نوميديقوس ومتلّوس قابراريوس قنسورين أثارا شغباً شديداً برفضهما تسجيل المغامر اكويتيوس في عداد هيئة المواطنين . وزاد الطين بلة أن نوميديقوس صمم على طرد ساتورنينوس وجلاوقيا من السناتو . ولا أدل على عجز الأخيار عن الوقوف في وجه المعارضة ، وعلى المحبة التي اكتسبها جلاوقيا بفضل إلغائه قانون قايبيو القضائي ، وعلى المكانة التي احتلهـــا ساتورنينوس بفضل التشريعات التي أصدرها في تريبونيته من أن قابراريوس اضطر الى إنقاذ الموقف برفض الموافقة على طرد ساتورنينوس وجلاوقيا من السناتو[27] .

وفي كنف هذه الظروف وكذلك الظروف الخارجية التي عرفنا ما كان من أمرها لم يكن غريباً ولا عسيراً انتخاب ماريوس لقنصليته الخامسة لعام ١٠١ ق . م . وأهم ما نعرفه عن الأحداث الداخلية في هذا العام قبل عودة ماريوس من ڤرقلاي هو ما يحدثنا به ديودوروس[28] من أن ميثريداتس السادس ملك بونطوس أنفذ الى روما في عام ١٠١ ق . م . بعثة سياسية ومعها مبلغ كبير من المال لرشوة أعضاء السناتو ، وأن ساتورنينوس أهان هذه البعثة ، وأن السناتو شجع المبعوثين على التقدم بشكوى رسمية اليه ، وأن السناتو قرر محاكمة ساتورنينوس . وكانت لأشخاص المبعوثين السياسيين حصانة لا يجوز المساس بها ، وكان الاعتداء على هذه الحصانة يعتبر جريمة عقابها الإعدام أو النفي . وقد بدت إدانة ساتورنينوس أمراً مفروغاً منه ، لأنه في مثل هذه الحالات كان أعضاء من السناتو هم الذين يقيمون دعوى الاتهام وأعضاء من السناتو أيضاً هم الذين يفصلون في الدعوى . وإزاء الخطر الداهم الذي أصبح يتهدد ساتورنينوس قام بحملة دعاية واسعة النطاق زاعماً أنه سيذهب ضحية خدمته صوالح الشعب وعداء السناتو له بسبب ذلك . وعندما انعقدت المحكمة

---

(27) App., B.C., I, 28; Cic., pro Sestio, 41, 101; Val. Max., IX, 7, 2; (Victor) de Vir. Ill., 73; Oros., V, 17.

(28) Diod., XXXVI, 15.

غُص المكان بأعداد كبيرة من أنصار المتهم الى حد يبدو معه أنهم أرهبوا القضاة فأصدروا الحكم ببراءته . وهكذا لم ينج ساتورنينوس فحسب بل اكتسب عطف الجماهير بسبب الخطر الذي أدخل في روعهم أنه تعرض له من أجلهم فانتخبوه مرة أخرى لتريبونية العامة .

ثانياً ــ الحالة بعد عودة ماريوس

عندما فرغ ماريوس من أمر الغزاة بانتصاره عند ڤرقلاي ، عاد الى روما حيث احتفل بانتصاره الذي كوفىء عليه بانتخابه قنصلاً للمرة السادسة لعام ١٠٠ ق . م . وقد انتخب لهذا العام أيضاً جلاوقيا برايتوراً وساتورنينوس لتريبونيته الثانية على نحو ما سبق ذكره ، وإن بقي أن نذكر أنه صاحب حملته الانتخابية شغب كثير قتل فيه أحد منافسيه(٢٩) .

وعندما اعتلى ماريوس خشبة المسرح السياسي في عام ١٠٠ ق . م . كان له من المكانة والنفوذ ما ييسر له وضع الأحوال الداخلية في نصابها ، ولكنه لم يظهر ما ينم عن أنه كانت له أية كفاية سياسية أو أي اهتمام إلا بتوفير إقطاعات لقدماء محاربيه . وبدلاً من أن يتولى أمر ذلك بنفسه عهد الى ساتورنينوس بتحقيق هذا الهدف . وقد رحب ساتورنينوس بالاضطلاع بهذه المهمة أملاً في أن تهيء له زيادة رصيده من الشعبية . ويبدو أن ساتورنينوس استصدر قانونين كان أحدهما (Lex Appuleia Coloniae) يقضي بإنشاء مستعمرات في صقلية وآخايا ومقدونيا وفي جزيرة تقع قرب الشاطىء الشمالي الأفريقي وتسمى قرقينا (Cercina) ومن المحتمل أيضاً في قورسيقا ، وبتخويل ماريوس منح حقوق المواطنة الرومـانية لعدد قليل من أعضاء كل مستعمرة(٣٠) . وهذا يدل على أنه لم يكن يراد إنشاء مستعمرات « رومانية »

---

(29) Liv., Ep., 69; Plut., Marius, XXVIII-XXIX; App., B.C. I, 28; (Victor) de Vir. Ill., 73; Florus, II, 4, 16; Velleius, II, 12; Oros., V, 17.

(30) (Victor) de Vir. Ill, 73; Cic., pro Balbo, 48-49; C.A.H., IX, pp. 168-9; Scullard, 1970, p 61 and n. 31 pp. 403-4.

مؤلفة من المواطنين الرومان وانما مستعمرات « لاتينية » . وبما أنه كان يعز على المواطنين الرومان حرمانهم التمتع بممارسة حقوق المواطنة كاملة بانخراطهم في مستعمرات لا تتمتع إلا بقدر محدود من الحقوق فإنه كان يترتب على ذلك ألا يُقبل كثيرون منهم على الاشتراك في هذه المستعمرات وأن يتألف أغلب وإن لم يكن كل نزلائها من حلفاء روما اللاتين والإيطاليين . وقد كان من العدل أن يلقى هؤلاء الحلفاء نوعاً من الجزاء لقاء مشاركتهم في محاربة القيمبري والتيوتون ورفاقهم .

ولما كان من شأن هذا العطف على الحلفاء إثارة غضب العامة لأنهم في أنانيتهم كانوا يكرهون أن يروا الحلفاء يشاركونهم امتيازاتهم ، فإنه يبدو لنا أن ساتورنينوس عمل على موازنة القانون الأول بقانون ثان (Lex Appuleia agraria) يقضي بتوزيع أراض في بلاد الغال فيما وراء الألب[٣١] وبأن يقسم أعضاء السناتو على احترام أحكام هذا القانون في ظرف خمسة أيام من من موافقة الشعب عليه وإلا فإن من يرفض حلف هذا القسم يفقد عضوية السناتو ويدفع غرامة قدرها عشرون تالنتا (حوالي ٥٠٠٠ جنيه استرليني) . وقد أثار هذا البند غضب السناتو فلجأ الى وسيلته المعهودة وهي تحريض بعض ترابنة العامة على مصادرة المشروع . وكان هناك أمل في رفض هذا المشروع لأن ساتورنينوس أغضب غوغاء روما بما أبداه من عطف على الحلفاء، ولكن ساتورنينوس احتاط للأمر بأن استقدم من الريف فريقاً من قدماء المحاربين . وعندما حل يوم التصويت على المشروع واعترض عليه بعض ترابنة العامة أُخرجوا بالقوة من الاجتماع ، غير أنه عقب ذلك أخذت أصوات بعض الحاضرين ترتفع مرددة أن السماء أرعدت ، أي أن الطوالع سيئة ، ووفقاً لما جرت عليه عادة الرومان في مثل هذه الأحوال كان يجب فض الاجتماع . وإزاء إصرار ساتورنينوس وصحبه على المضي قُدماً في الإجراءات اللازمة لإقرار المشروع وقع اشتباك كانت الغلبة فيه أول الأمر للمعارضين ولكن

(31) App., B.C., I, 29; C.A.H., IX, p. 168 n. 1.

أنصار ساتورنينوس لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وطردوا المعارضين من الاجتماع وتمت الموافقة على المشروع وأصبح قانوناً واجب النفاذ. وعندما دعا ماريوس السناتو الى الاجتماع ليقسم أعضاؤه على احترام هذا القانون أعلن متلوس نوميديقوس أنه لن يقسم على احترام مثل هذا القانون ولقي من التأييد ما أدى الى انفضاض الاجتماع دون أن يحلف أي عضو من أعضاء السناتو القسم المطلوب. وحين أدرك ماريوس الحرج الذي أوقعه فيه تهور ساتورنينوس وصحبه لجأ الى ما ينم عن برمه بهؤلاء الحلفاء. ذلك أنه في اليوم الخامس بعد صدور القانون - أي في اليوم الأخير من المهلة المحددة لحلف القسم - دعا ماريوس السناتو مرة أخرى للاجتماع واقترح أن يحلف الأعضاء القسم على احترام هذا القانون بقدر ما هو قانون، وذلك إرضاء للمتحمسين للقانون الى أن ينفضوا ويعودوا الى ديارهم في الريف، ثم بعد ذلك لن يكون عسيراً اعتبار هذا القانون باطلاً لأن الموافقة عليه تمت عنوة (per vim) وبرغم الطوالع السيئة. وقد وافق أعضاء السناتو جميعاً فيما عدا نوميديقوس على رأي ماريوس وحذوا حذوه في حلف القسم على النحو الذي اقترحه. وقد آثر نوميديقوس أن يبرح روما الى رودس تفادياً لوقوع اشتباك بين أنصاره وأنصار ساتورنينوس، ولكن هذا الرجل لم يقنع بذلك لأنه لم ينس محاولة نوميديقوس طرده هو وجلاوقيا من السناتو. فقد استصدر ساتورنينوس قانوناً بحرمان نوميديقوس «من الماء والنار»[٣٢] (aquae et ignis interdictio) وكان معنى ذلك نفيه وتجريده من حقوق المواطنة، أي نفيه ومصادرة أملاكه واستباحة دمه اذا عاد الى روما دون صدور قانون جديد بالعفو عنه.

ولم يحدث بعد ذلك شيء ذو بال الى أن حل موعد الانتخابات للعام

(32) Liv., Ep., 69; App., B.C., I, 29-31; Plut., Marius, XXVIII-XXIX; Cic., de Domo, 31, 82; pro Sestio, 16, 37; (Victor) de Vir Ill., 62; 73 , Heitland, II, pp. 396-7; C.A.H., IX, p. 170; Scullard, 1970, pp 61-2.

التالي (عام ٩٩ ق . م .) وانتخب ساتورنينوس للمرة الثالثة تريبوناً للعامة . وبالرغم من أن جلاوقيا كان برايتوراً في عام ١٠٠ ق . م . ومن أن قانون تنظيم تولي الوظائف العامة (Lex Villia Annalis) كان يقضي بمرور عامين بين تولي البرايتورية والقنصلية ، فإن جلاوقيا رشح نفسه لقنصلية عام ٩٩ ق . م .

وكان مرشحاً أيضاً لهذه الوظيفة الخطيب المشهور ماركوس أنطونيوس الذي عرفنا أنه قام بحملة ضد قراصنة قيليقيا ، وجايوس مميوس الذي مر بنا أنه في عام ١١٢ ق . م . هاجم السناتو هجوماً لاذعاً بسبب تصرفاته العاجزة المريبة إزاء أطماع يوجورتا . وعندما تبين في أثناء عملية الانتخاب أن فوز أنطونيوس بأحد منصبي القنصلية أمر مفروغ منه وأنه من الجائز أن يتفوق مميوس على جلاوقيا في الفوز بالمنصب الآخر حرض ساتورنينوس وجلاوقيا عصابة من الأشرار فانقضت على مميوس وانهالت عليه ضرباً حتى فارق الحياة مما أفزع الناخبين وأدى الى انفضاض اجتماع جمعية المئينات .

ولما كانت أعمال العنف والشغب التي اتسمت بها تصرفات ساتورنينوس وجلاوقيا قد أثارت الأخيار والفرسان سواء بسواء ، وكان التجاؤهما الى استخدام المحاربين القدماء من أهل الريف في إقرار القوانين قد أثار حفيظة غوغاء العاصمة أيضاً ، فان السناتو انتهز فرصة الاشمئزاز العام الذي أثارته جريمة قتل مميوس ليضع حداً لهذا العبث . ذلك أنه بناء على اقتراح سقاوروس زعيم السناتو أصدر هذا المجلس « قراره النهائي » (Senatus Consultum Ultimum) للقنصلين وغيرهما من الحكام لحماية الدولة من أن يصيبها أي مكروه . بيد أنه كان المقصود طبعاً أن يتولى تنفيذ هذا الأمر ماريوس نفسه بوصفه كونه أكثر القنصلين والحكام جميعاً نفوذاً وخبرة عسكرية . ولم يجد ماريوس مندوحة من تنفيذ القرار ، فقد سبق أن رأينا قبل وقوع الجريمة الأخيرة كيف أنه أصبح يحس بالقلق وعدم الارتياح الى تصرفات حليفيه . وهكذا أدت سوء تصرفات ساتورنينوس وجلاوقيا الى أن يتيحا لخصومهما فرصة

القضاء عليهما . والى أن تستخدم ضدهما الوسيلة نفسها ، وسيلة البطش والقوة ، التي استخدماها للسيطرة على مقاليد الأمور ، وإلى أن يكون ماريوس ذاته ، حليف الأمس ، هو الذي يستخدم القوة ضدهما .

ولما كان ساتورنينوس وجلاوقيا وأشياعهما قد تحصنوا على تل قابيتولينوس، فإن ماريوس حاصر هذا التل ، وبعد قطع المياه عنه أرغم المحاصرون على التسليم وألقي القبض عليهم . وحفاظاً على حياتهم من الجماهير الثائرة أمر ماريوس بنقلهم الى قاعة اجتماع السناتو للتحفظ عليهم حتى تتم محاكمتهم . ولكن خوف الجماهير من أن يكون ذلك مجرد ذريعة لإنقاذ ساتورنينوس وجلاوقيا وعصابتهما حدا بفئة من الجماهير الى الإقدام على خطوة جريئة . ذلك أن هذه الفئة تسلقت قاعة اجتماع السناتو وحطمت سقف هذه القاعة وظلت تمطر المحجوزين فيها بوابل من الحجارة حتى أزهقت أرواحهم . وكان من بين الذين لقوا حتفهم ساتورنينوس وجلاوقيا وكوايستور يدعى ساوفيوس (Saufeius) وكذلك اكويتيوس — الذي ادعى انه ابن تيبريوس جراكوس — وكان قد انتخب تريبوناً للعامة وقتل في ذات اليوم الذي كان مفروضاً أن يتولى فيه مهام منصبه[٣٣] . ومعنى ذلك أن هذه الجماعة الشريرة لقيت حتفها في يوم ١٠ من ديسمبر عام ١٠٠ ق . م .

ويبدو أنه قد تبع ذلك تدمير منزل ساتورنينوس[٣٤] ومصادرة أملاكه هو وجلاوقيا وغيرهما ممن قتلوا[٣٥] . وسواء أكان التشريع الذي استصدره ساتورنينوس في عام ١٠٠ ق. م . بالقوة الغشوم (per vim) قد أُلغي[٣٦]

(33) Liv., Ep., 69; App., B.C., I, 32-33; Oros., V, 17; Val. Max., III, 2, 18, VI, 3, 1; VIII, 6, 2; Florus, II, 4; Velleius, II, 12; (Victor) de Vir. Ill., 73; Cic., Brutus, 26, 224; Rab. perd., 20, 28; Plut., Marius, XXX-XXXI.
(34) Val. Max., VI, 3, 1.
(35) Oros., V, 17, 10.
(36) E. Gabba, Athenaeum, 1951, pp. 13 ff.

عندئذ أم اعتبر باطلاً وأُغفل تنفيذه[٣٧] ، وهو ما نرجحه ، فإن النتيجة واحدة .

وكان طبيعياً أنه بُذلت بعد ذلك عدة محاولات لاستدعاء متلّوس نوميديقوس من منفاه ولكن ماريوس قضى على أولى هذه المحاولات في أواخر أيام قنصليته ، وصادر محاولة ثانية في عام ٩٩ ق . م . تريبون العامة بوبيليوس فوريوس[٣٨] (Furius) ، وكان رجلاً متقلباً تارة مع ساتورنينوس وتارة ضده . ويبدو أن تريبوناً آخر من ترابنة عام ٩٩ ق . م . وهو سكستوس تيتيوس (Sextus Titius) رأى الفرصة مواتية لاكتساب محبة الجماهير فتقدم الى جمعية القبائل بمشروع قانون لتوزيع الأراضي . وبرغم اعتّراض بعض زملائه على المشروع ووقوع نذر سيئة ، فإن تيتيوس استصدر بمشروعه قانوناً لم يلبث أن ألغي[٣٩] .

والمصادر القديمة المعادية لماريوس تتهمه بالغدر ، بيد أنه يصعب قبول هذا الاتهام . ذلك أنه اذا دلت تصرفات ماريوس على شيء فهي تدل على قصر نظره وعدم صلاحيته لأن يكون زعيماً سياسياً ، فقد حالف ساتورنينوس وجلاوقيا إلى أن أرغمته سوء تصرفاتهما على أن ينفض يده منهما بالتدريج . ولم تفلح مناهضته لهما آخر الأمر إلا في إظهاره في ثوب رجل متجرد من المبادىء ففقد بذلك عطف أشياع هذين الزعيمين المتهورين وكان قبل ذلك قد فقد بتحالفه معهما عطف الفرسان . وأما عن السناتو فإنه لم يأمن يوماً جانب ماريوس ، وبعد أن قضى لبانته منه باستخدامه في القضاء على حليفيه السابقين لم يعد محتاجاً اليه . وحيث أن الدولة لم تكن عندئذ مهددة بأخطار خارجية ، فإنه لم تعد هناك حاجة الى الخدمات الوحيدة التي أثبت ماريوس صلاحيته لأدائها .

---

(37) Cic., de Leg., II, 6, 14; pro Balbo 48; Diod., XXXVI, 16; E. Badian, Historia, 1962, p. 219; A.W. Lintott, Violence in Republican Rome, 1968, pp. 152 ff.; Scullard, 1970, p. 62, and n. 34 p. 404.

(38) Oros., V, 17; Dio Cass., fr. 95, 2.

(39) Cic., de Leg., II, 6, 14; de Orat. II, 11, 48; Obsequens, 46; Val. Max., VIII, 1, 3.

بيد أنه من الإنصاف أن نقرر أنه حين وجد ماريوس نفسه منبوذاً على هذا النحو ، لم يلجأ عندئذ الى الاستعانة بقدماء محاربيه للاستيلاء على السلطة بالقوة أو بالتهديد باستخدام القوة . غير أن هذا الخطر ظل ماثلاً طالما بقي ماريوس في روما ، فقد كان في وسعه أن يجمع حوله في أي وقت عدداً كبيراً من قدماء المحاربين . ويبدو أن ماريوس قد آثر التريث فبارح روما في أواخر عام ٩٩ أو في خلال عام ٩٨ ق . م . الى آسيا[٤٠] مؤملاً أن ينشأ من الظروف ما يقتضي الاعتماد على خدماته فيستدعي لأدائها وبذلك يسترد مكانته ثانية دون عنـــاء .

لقد كانت لدى ماريوس عند عودته مظفراً من ڤرقلاي فرصة قلما سنحت لغيره ، فرصة لحفظ التوازن بين الأحزاب المتصارعة في روما ولإصلاح نظام الحكم ، ولكنه أهدر هذه الفرصة وترك مقاليد الأمور بين يدي ساتورنينوس الذي اتخذ من جلاوقيا سنداً له وعوناً ودفعت تصرفاتهما بالبلاد الى حافة الثورة وألفت بين الفرسان والأخيار وأضعفت الشعبيين إضعافاً شديداً .

وتدل الأحداث التي مرت بنا منذ عهد الأخوين جراكوس حتى الآن على أنه طالما احتفظ الزعيم الشعبي بوظيفته كان في وسعه أن يتحدى السناتو ، وعلى أنه طالما تمتع الزعيم الشعبي برضاء العامة كانوا لا يأبهون إطلاقاً بالقواعد الدستورية ، وعلى أنه في مثل هذه الظروف لم يكن في وسع السناتو إلا غض الطرف عن القواعد الدستورية والالتجاء الى القوة لكبح جماح الزعماء الشعبيين ، وعلى أن الزعماء الشعبيين المتهورين لم يروا بدورهم غضاضة في استخدام القوة لتحقيق مآربهم . وحين أصبح الفريقان الرئيسيان المتصارعان يخترقان حرمة الدستور ويلجآن الى القوة أصبح هذا الضرب من الأساليب أمراً مألوفاً في الحياة السياسية الرومانية . وبطبيعة الحال كان ذلك كله يؤذن بزوال النظام الجمهوري الروماني .

(40) Plut., Marius, XXXI ; Cic., Brutus, I, 5, 3.

ثالثاً – السناتو يسترد سيطرته

١ – رد اعتبار متلوس نوميديقوس – محاكمات زعماء شعبيين :

وعندما بارح ماريوس روما تنفس السناتو الصعداء ، وما أن خلا له الجو أخيراً حتى حفز تريبون العامة كوينتوس بومبي روفوس فاستصدر قانوناً قضى برد اعتبار نوميديقوس واستدعائه من منفاه(٤١) وعنى السناتو كذلك بتصفية الحساب مع عدد من أقطاب الشعبيين ، فقد قُدم للمحاكمة التريبون السابق فوريوس ، وهو الذي كان قد عارض في عام ٩٩ استدعاء نوميديقوس من المنفى ، ولكنه قبل إصدار الحكم في القضية انقض الجمهور على هذا الرجل المتلون ومزقه إرباً . ومن الطريف أن جايوس أبّوليوس دقيانوس (Appuleius Decianus) الذي قام بدور الاتهام في هذه القضية قُدم للمحاكمة لأنه اجترأ على التعبير عن أسفه على الطريقة التي لقي بها ساتورنينوس مصرعه(٤٢). وعندما قُدم للمحاكمة التريبون الشعبي السابق سكستوس تيتيوس يُقال إنه كان من بين أسباب إدانته احتفاظه في بيته بتمثال نصفي لساتورنينوس(٤٣) . ومن المحتمل أنه تنتمي الى هذا الوقت أيضاً محاكمة جايوس نوربانوس ، وهو الذي حالف ساتورنينوس ولم يتورع مثله عن استخدام العنف لإدانة قايبيو سارق تولوسا وصاحب القانون القضائي الذي ألغاه جلاوقيا . وبرغم أن أعضاء هيئة المحكمة كانوا من الفرسان ، حلفاء الأخيار عندئذ ، وبرغم شهادة سقاوروس زعيم السناتو ضد نوربانوس ، فإن المتهم فاز بالبراءة . وأغلب الظن أن الفضل في تبرئته لم يكن ضعف أركان التهمة الموجهة اليه أو قوة دفاع ماركوس انطونيوس(٤٤) عنه بقدر ما كان عدم ميل محلفي الفرسان الى إدانة

---

(41) Liv., Ep., 69; Gell., XIII, 29, 1; Cic., pro Planco, 69; ad Fam., I, 9, 16; de Orat., II, 40, 167; App., B.C., I, 33; Plut., Marius, XXXI; Val. Max., IV, 1, 13; V, 2, 7.

(42) Cic., pro Rab. perd., 9, 24; Val. Max., VIII, 1, 2; App., B.C., I, 33; Dio Cass., fr. 95, 3.

(43) Cic., pro. Rab. perd., 9, 24-25; de Orat., II, 11, 48; Quintil., VI, 1, 49.

(44) Cic., de Orat., II, 25, 107; 28, 124; 47, 197 ff.; de Off., II, 14, 49; Val. Max., VIII, 5, 2.

متهم أسهم في هدم الرجل الذي استصدر قانوناً حرمهم ولاية القضاء فترة من الزمن .

٢ — قانون القنصلين قايقيليوس وديديوس :

وقد كان من بين الحيل التي عمد اليها الزعماء الشعبيون مؤخراً حيلتان كانتا قديماً غير مشروعتين : وإحداهما هي إدماج عدة موضوعات لا تتصل بعضها ببعض في تشريع واحد ، وذلك لضمان إقرار ما كان يجوز رفضه لو انه عرض في مشروع قانون مستقل . والحيلة الأخرى هي الإعلان رسمياً عن المشروعات وفقاً للعرف ثم أخذ الأصوات عليها سريعاً دون إتاحة فرصة كافية لوصول أخبارها الى المواطنين المنتشرين في أماكن متفرقة وحضور من يهمهم الأمر للإدلاء بأصواتهم ، وذلك لتفويت الفرصة على المعارضة . ولوضع حد لهذا العبث استصدر قنصلا عام ٩٨ ق . م . — وهما كوينتوس قايقيليوس متلوس نبوس (Nepos) وتيتوس ديديوس (Didius) قانوناً [٤٥] (Lex Caecilia Didia) سنرى له دوراً هاماً في الأحداث المقبلة . وقد قضى هذا القانون بأنه لا يجوز أن تدمج في مشروع قانون واحد موضوعات لا تتصل ببعضها بعضاً ، وبأنه يجب ألا تؤخذ الأصوات على مشروع قانون إلا بعد مرور الأسبوع الثالث (trium nundinum) على الإعلان الرسمي (promulgatio) عن هذا المشروع ، أي بعد مرور أربعة وعشرين يوماً ، ذلك أن الأسبوع الروماني (nundinum) كان يتكون من ثمانية أيام .

وينهض صدور هذا القانون دليلاً على مدى قوة رد الفعل للحركات الشعبية التي جرت مؤخراً وكذلك على مدى استقرار الأمور للسناتو بفضل ما حدث بين الأخيار والفرسان من تآلف سنرى أنه لم يكن مقدراً له الاستمرار طويلاً . ولعل أن يكون هذا الاستقرار قد أغرى الأخيار على ارتكاب حماقة جديدة كانت لها عواقب وخيمة على نحو ما سنرى توا .

---

(45) Cic., Philip., V, 3, 8; de Domo, 20, 23.

٣ ـ قانون القنصلين ليقينيوس وموقيوس :

وبرغم ما كان الحلفاء اللاتين والإيطاليون يعانونه من مظالم زاد في وطأتها عسف لجان الأراضي في نشاطها ، وبرغم خيبة أمل الحلفاء في الحصول على حقوق المواطنة منذ فشل محاولات سقيبيو آيميليانوس وفولفيوس فلاقوس وجايوس جراكوس ، وبرغم صدور قانون بنّوس الجائر ، فإن الحلفاء أسهموا في محاربة يوجورتا والتيوتون والقيمبري ورفاقهم . ومع ذلك فإن العامة في أنانيتهم وقصر نظرهم وكراهيتهم الشديدة لأن يشاركهم الحلفاء التمتع بامتيازاتهم رأوا غضاضة في قانون إنشاء المستعمرات الذي استصدره ساتورنينوس في عام ١٠٠ ق . م . لأن الحلفاء كانوا يفيدون من هذا القانون ، فغضب العامة على ساتورنينوس وفترت همتهم في تأييده . ويبدو أن أعداداً كبيرة من اللاتين والإيطاليين انتهزت فرصة التجاء ساتورنينوس وجلاوقيا الى استخدام محاربين قدماء من أهل الريف لتحقيق أهدافهما وهرعت الى روما وشاركت في الاضطرابات الأخيرة ومارست حقوق المواطنة وهي التي رأينا مراراً أن أغلب الرومان كانوا حريصين أشد الحرص على عدم منحها لحلفائهم .

وتمشياً مع سياسة تصحيح الأوضاع والعمل على الإقلال من فرص وقوع اضطرابات تماثل تلك التي وقعت مؤخراً ، استصدر قنصلا عام ٩٥ ق. م . ــ وهما لوقيوس ليقينيوس قراسوس وكوينتوس موقيوس سقايفولا ــ قانوناً [٤٦] (Lex Licinia Mucia de civibus regundis) قضى بتشكيل هيئة خاصة لبحث حالة كل حليف يزعم أنه مواطن روماني وتخويل هذه الهيئة الحق في أن تطرد من روما كل الذين لا يثبت حقهم في التمتع بحقوق المواطنة الرومانية .

---

(46) Cic., de Off., III, 11, 47; pro Cornel. ap. Ascon., 67 C; pro Sest., 13, 30; pro Balbo, 21, 48; 24, 54, Brutus, 16, 63; Schol. Bob In Orat. pro Sest., p. 129 St.; Salust, Hist. I, 20.

وبطبيعة الحال لم يترتب على تنفيذ هذا القانون أنه قد طُرد أيضاً أولئك الحلفاء الذين كانوا يقيمون في روما لممارسة أعمالهم دون ممارسة الحقوق الرومانية اغتصاباً، أي أنه لم تكن نتيجة تنفيذ هذا القانون أنه لم يبقَ في روما من الأجانب إلا غير الحلفاء [٤٧] . بيد أنه يبدو أن عدد الذين اشتبه في أمرهم وطردوا من روما كان كبيراً، فكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس الحلفاء ، ذلك أن صدور هذا القانون أثبت أن الرومان — شعبيين وفرساناً وأخياراً — كانوا لا يزالون يأبون على حلفائهم الذين شاركوهم أثقل أعبائهم أن يشاركوهم كذلك امتيازاتهم مما زاد في شعور الحلفاء بالمرارة والضيم وعجل بنشوب الحرب بينهم وبين الرومان ، إذا صح ما يرويه أحد مصادرنا القديمة [٤٨] . وهكذا نرى أنه اذا كان القانون الجديد من الناحية النظرية عملاً سليماً لا غبار عليه ، فإنه من الناحية العملية كان خطأً سياسياً فاحشاً .

٤ — فضيحة إدانة روتيليوس روفوس وتصدع أركان الوفاق بين الأخيار والفرسان :

عندما تولى سقايفولا حكم ولاية آسيا في عام ٩٤ ق. م [٤٩] اتخذ مساعداً (legatus) له بوبليوس روتيليوس روفوس وهو الذي عرفنا أنه كان خبيراً بالشؤون العسكرية وأسهم في تدريب جنود ماريوس وتولى القنصلية في عام ١٠٥ ق . م . وكان روفوس « رجلاً جديداً » إلا أنه كان من مناصري الأخيار ويتسم بالنزاهة والاستقامة في عصر عز فيه توافر هاتين الصفتين لدى الرومان . ومثل سقايفولا كان روفوس يعتنق مبادىء الفلسفة الرواقية ومتبحراً في فقه القانون وأسهم في تطوير القانون المدني الروماني . فلا عجب أن هذين الرجلين وضعا نصب أعينهما إقامة حكم نزيه في ولاية آسيا يكفل حماية

(47) Heitland, II, pp. 409-10 ; C.A.H., IX, p. 175
(48) Cic., ap. Ascon, 76 C.
(49) Diod., XXXVII, 5; Ascon., 14 C; Cic., in Verr., III, 90, 209; ad Fam., I, 9, 26; ad Att., V, 17, 5; VI, 1, 15; Val. Max., VIII, 1, 5-6; E. Badian, Athenaeum, 1956, pp. 104 ff.

الأهالي من جشع جباة الضرائب (publicani) والمصرفيين (negotiatores)
والتجار (mercatores) الذين زحفت جحافلهم على هذه الولاية لامتصاص
دماء أهليها . ولم يكتف هذان الرجلان النزيهان برفض قبول
الرشاوى والهدايا بل اتخذا من التدابير ما يحول دون الحصول من الأهالي على
أكثر مما كان القانون يبيحه مع المبادرة بمعاقبة كل من يحاول ذلك . وكان طبيعياً
أن يؤدي ذلك كله الى خفض أرباح شركات الفرسان وهي التي كانت تعقد
آمالاً كبيرة على استغلال الولاية بالأساليب المعوجة التي دأبت على استخدامها .
ولما كان سقايفولا قد بارح الولاية بعد تسعة أشهر تاركاً مقاليد الأمور فيها في
قبضة روفوس الى أن يأتي حاكم جديد، وكان روفوس قد تابع بصرامة لا هوادة
فيها السياسة التي وضعها مع سقايفولا ، وكان يفتقر الى الحماية التي كان يضفيها
على سقايفولا توليه منصب الكاهن الأكبر وانتماؤه الى أسرة كبيرة ذات
نفوذ واسع ، فإن الفرسان رأوا في روفوس الفريسة التي كان يمكنهم عن طريقها
تلقين الأخيار درساً مفاده أنه لا يستطيع أحد منهم اعتراض تيار جمع الثروة
دون أن يجرفه هذا التيار . وتبعاً لذلك فإنه في عام ٩٢ق. م. قُدم روفوس
للمحاكمة بتهمة ابتزاز الأموال . وإزاء ثقة روفوس في أمانته ونزاهته وإيمانه
بسلامة تصرفاته أبى أن يتولى الدفاع عنه أحد مشاهير المحامين وتولى الدفاع
عن نفسه وازدرى الاعتذار عن تصرفاته بل أعرب عن أسفه لما انحدرت اليه
أحوال الدولة الرومانية . وقد انتهت المحاكمة بإدانة روفوس وإلزامه برد ما
زُعم أنه ابتزه . ولا أدل على بطلان التهمة من أنه بعد إدانة روفوس ذهب
ليعيش معززاً مكرماً بين أهالي الولاية الذين اتهم بأنه ابتز أموالهم (٥٠) . ولم
يكن من شأن هذه الفضيحة القضائية إلا أنها أثبتت بالدليل القاطع أن الإصلاح
الذي أدخله جايوس جراكوس ووضع بمقتضاه محكمة استرداد الأموال المبتزة

(50) Liv., Ep., 70; Velleius, II, 13; Cic., Brutus, 30, 114-15; pro Font., 17, 38; in Pis., 39, 95; de Orat., I, 227-33; Dio Cass., fr. 97, 1; Quintil., Inst. Orat., XI, 1, 12; Oros., V, 17, 12; Val. Max., II, 10, 5; Suet., de Gramm. et Rhet., 6; Athen., IV, 66

في قبضة الفرسان لم يؤد الى رفع مستوى القضاء أو إنصاف أهالي الولايات ، فضلاً عن أنها أفضت الى فصم عرى الوفاق القصير الأمد بين الفرســان والأخيار .

وفي خلال هذا العام أو في العام التالي بُذلت محاولة لاتهام سقاوروس زعيم السناتو بابتزاز الأموال في ولاية آسيا عندما ذهب اليها في عام ٩٦ ق . م . على رأس بعثة من أعضاء السناتو لدراسة أحوال هذه الولاية . وكان مما أوصت به هذه البعثة جعل هذه الولاية ولاية قنصلية . وكان من جراء ذلك إسناد ولاية آسيا الى القنصل سقايفولا في عام ٩٤ ق . م . بعد انتهاء مدة قنصليته في عام ٩٥ ق . م . ومعنى ذلك أن هذه البعثة كانت مسئولة عن النكبة التي حلت بالفرسان .، وقد كان سقاوروس يتحمل أكبر قسط من هذه المسئولية لأنه كان رئيس هذه البعثة ولأنه حبذ تولي سقايفولا حكم ولاية آسيا . ولا يستتبع هذا حتماً أن سقاوروس كان غير مجرح . وعلى كل حال فإنه ليس في مصادرنا ما ينم عن نتيجة هذه المحاكمة التي دامت وقتاً غير قصير (٥١) .

وفي عام ٩٢ ق . م . كان يتولى القنسورية ليقينيوس قراسوس ، الخطيب المعروف ، وجنايوس دوميتيوس أهنوباربوس وكان في الوقت نفسه كبير الكهنة أيضاً . وقد نشب بين هذين القنسورين خلاف حاد أدى الى اعتزالهما منصبيهما ، ولكنهما قبل ذلك اتفقا على مسألة واحدة وهي إغلاق مدارس الخطابة اللاتينية . وفي الماضي كان يتولى تدريس الفلسفة والخطابة أساتذة إغريق الى أن قرر السناتو في عام ١٦١ ق . م . طردهم من روما (٥٢) ولكنه سرعان ما بطل مفعول هذا القرار وعاود الفلاسفة وأساتذة الخطابة الإغريق نشاطهم في روما . وإزاء تزايد أهمية الخطابة باطراد في الحياة العامة الرومانية أخذ يظهر منذ عهد قريب أساتذة محليون يدرسون الخطابة اللاتينية ، وكانوا

---

(51) Cic., pro Scaur. ap. Ascon., 21 C; Val. Max., III, 7, 8 ; Plin., N.H., XXXVI, 15, 116, E. Badian, Athenaeum, 1956, p. 120 n. 3; 1959, pp. 279 ff.

(52) Gell., N.A., XV, 11, 1.

أدنى شأناً من الأساتذة الإغريق الذين كان لهم من ثقافتهم الواسعة ما يفيدون به طلابهم أكثر من مجرد أساليب إثارة الجماهير . فلا عجب أن أصدر القنسوران قراراً بإغلاق هذه المدارس الجديدة[٥٣] .

رابعاً – تريبونية ماركوس ليفيوس دروسوس (الصغير)

في العاشر من ديسمبر عام ٩٢ ق . م . تولى دروسوس (الصغير) ابن خصم جايوس جراكوس مهام وظيفة التريبونية لعام ٩١ ق . م . وكان شاباً نبيل الأخلاق سامي الأهداف يبدو أنه اتخذ من جايوس جراكوس نموذجاً له ، غير أنه كان يختلف عن جايوس من حيث أنه لم يكن خصماً وإنما عضد للسناتو ، مثل ما كان يختلف عن أبيه وسميّه من حيث أنه لم يكن أداة في قبضة السناتو وانما صاحب برنامج إصلاح يستهدف خدمة صوالح الدولة الرومانية وكذلك في واقع الأمر خدمة صوالح السناتو على المدى البعيد .

ومن الغريب أن دروسوس كان مثل تيبريوس يتمتع بتأييد زعيم السناتو ، وكان في هذه الحالة سقاوروس . وذلك فضلاً عن تأييد أشهر خطيبين في عصره وهما أنطونيوس وقراسوس . وكذلك تأييد عدد آخر من أكثر أعضاء السناتو نفوذاً مثل أفراد أسرة متلّوس[٥٤] . ولسوء الحظ أن ما يشوب مصادرنا القديمة من نقص يسدل ستاراً كثيفاً من الغموض على أهم مشاكل تريبونية دروسوس ، بل لا يدع سبيلاً الى أن نتبين عن يقين ترتيب تشريعاته . مما كان من شأنه أنه أدى الى تباين وجهات نظر الباحثين تبايناً كبيراً[٥٥] .

بيد أنه يبدو معقولاً أنه من وجهة نظر رجل مصلح مثل دروسوس كانت

---

(53) Suet., de Gramm. et Rhet., 25; Cic., de Orat., III, 24, 93-95; Tacit., Dial. de Or., 35.

(54) E. Badian, Historia, 1957 pp. 318 ff.; Gruen, Roman Politics, pp. 206 ff

(٥٥) انظر :

Scullard, 1970, n 4, p 405

هناك مشكلتان شائكتان تتطلبان علاجاً حاسماً سريعاً . وكانت إحداهما هي مشكلة النزاع بين طبقتي الأخيار والفرسان على تكوين هيئات المحلفين . وهو النزاع الذي خمد برهة لينفجر ثانية بعد فضيحة إدانة روتيليوس روفوس . واذا كان الأخيار يتطلعون إلى إعادة اختيار المحلفين من أعضاء السناتو ، فإنه لم يكن منتظراً أن يسلم الفرسان دون مقاومة عنيفة ذلك السلاح الذي كان أكبر ضمان لدعم مكانتهم في الدولة والحفاظ على صوالحهم المادية وهي التي كانت أهم ما يعنيهم . وفي تقدير أي سياسي حكيم بصير بالعواقب كان مثل هذا الصراع يضر بصوالح السناتو والدولة بأسرها . وكانت المشكلة الأخرى أشد خطراً وأعتى من الأولى وهي مشكلة إزالة مظالم الحلفاء ولا سيما بعد أن ترك قانون عام ٩٥ ق . م . (Lex Licinia Mucia) أسوأ الأثر في نفوسهم ، فأصبح من أهم واجبات رجال السياسة الرومان إحداث تغيير جوهري في العلاقة بين روما وباقي إيطاليا . ولا أدل على صعوبة تحقيق هذا الهدف مما رأيناه مراراً من موقف مختلف الطبقات الرومانية إزاء تحرير الحلفاء . وفي ضوء ذلك يبدو أنه اذا كان دروسوس قد استجاب الى طلبات الحلفاء الملحة « ووعدهم » باستصدار قانون يمنحهم حقوق المواطنة الرومانية[٥٦] ، فإنه كان أعقل من أن يجازف بأن يستهل نشاطه باستصدار هذا القانون . والواقع أن رواية فليوس[٥٧] توحي بأن اتجاه دروسوس الى استصدار قانون بتحرير الحلفاء كان تالياً للتشريعات التي استصدرها لاكتساب شعبية كبيرة بالوسائل المعهودة .

وفي ضوء ذلك يبدو أن دروسوس بدأ باستصدار أربعة قوانين أو من المحتمل قانونين يتألف كل منهما من شقين يعالج كل شق منهما موضوعاً بعينه . وكان أحد هذه القوانين أو أحد شقي القانون الأول خاصاً بتوزيع الأراضي[٥٨] . وكان القانون الثاني أو الشق الثاني للقانون الأول خاصاً بإنشاء

(56) App., B.C., I, 35, 1.
(57) Velleius, II, 14, 1.
(58) Liv, Ep, 71

مستعمرات[٥٩] . ولعل أن المقصود بذلك كان تنفيذ المستعمرات التي اقترحها أبوه في عام ١٢٢ ق . م . وكان القانون الثالث أو الشق الأول من القانون الثاني خاصاً بتوزيع القمح بسعر بخس[٦٠] . ويبدو أنه لمواجهة تكاليف بيع القمح بسعر زهيد استصدر دروسوس الصغير (وليس أبوه في عام ١٢٢ ق . م .) القانون الرابع أو الشق الثاني من القانون الثاني وكان يقضي بأن تُسك ثُمن ($^{1}/_{\text{٨}}$) عدد قطع العملة الفضية (denarius) قطعاً من البرونز مغطاة فقط بطبقة من الفضة[٦١] . ويرى أحد الباحثين أنه لم يحدث أن سُكت رسمياً مثل هذه العملة البرونزية المطلية بالفضة ، وأنه إزاء عدم وجود دليل على زغل الدينار في السنوات التي أعقبت عام ٩١ ق . م . مباشرة لعل أن الأمر لم يتعد تقدم دروسوس بمشروع قانون لم تتم المصادقة عليه[٦٢] . وفي رأينا أنه لعل أن عدم سك عملة برونزية مموهة بالفضة بعد عام ٩١ مباشرة لم يكن مرده الى رفض المصادقة على تشريع دروسوس الخاص بذلك وانما إلى إلغاء تشريعاته جميعاً على نحو ما سنرى . بيد أنه يصعب فهم أو تفسير التشريع الذي استصدره البرايتور جراتيديانوس (Gratidianus) في عام ٨٦ ق . م . وقضى بتمغ العملة الفضية إلا اذا كان قد حدث على الأرجح في عام ٨٧ ق . م . أنه حين كانت الحكومة الرومانية في ضائقة شديدة بسبب انقطاع ضرائب ولاية آسيا نتيجة لاستيلاء ميثريداتس عليها وبسبب نشوب أزمة سياسية حادة اقتضت حشد قوات كبيرة للدفاع عن روما ، اضطرت الحكومة الى إحياء تشريع دروسوس الملغى مع التوسع فيه باستصدار تشريع بسك عملة برونزية مموهة على نطاق أوسع مما قضى به التشريع الملغى .

---

(59) C.I.L., I, 2nd ed., 199 (= I.L.S. 49); X, 44 and Add. III, 1003.

(64) Velleius, II, 13, 2.

(61) Plin., N.H., XXXIII, 46; C.A.H., IX, p. 179; Cf. H. Mattingly, Num. Chron., 1924, p. 46; Proc. Br. Acad., XXXIX, p. 242; Scullard, 1970, n. 4 p. 405.

(62) M Crawford, Num. Chron., 1968, pp 57 ff

ويحدثنا بلينيوس بأن هذه التشريعات أكسبت دروسوس شعبية كبيرة[٦٣].
ويبدو أنه بعد أن كسب جانب الشعب على هذا النحو اتجه نحو معالجة المشكلة الخاصة بتكوين هيئات المحلفين. ويحدثنا فلّيوس[٦٤] بأن دروسوس كان يهدف الى أن يستعيد السناتو مكانته القديمة ويستّرد من الفرسان امتياز تشكيل هيئات المحلفين وهو الامتياز الذي سلبه إياه جايوس جراكوس. ويحدثنا أبيانوس[٦٥] بأن دروسوس أراد أن يوفق بين طبقتّي الفرسان والسناتو اللتين كان بينهما عداء شديد بسبب مسألة المحاكم، وبأنه لكي يزيل دروسوس هذا العداء وفي الوقت نفسه يعيد المحاكم الى السناتو لجأ الى الحيلة التالية وهي أنه استصدر قانوناً باختيار المحلفين من السناتو بعد زيادة عدد أعضاء هذا المجلس وكانوا حوالي ٣٠٠ عضو بإضافة أعضاء جدد من الفرسان يماثلون في عددهم أعضاء السناتو القدامى. وهذه الرواية تذكرنا بما كان جايوس جراكوس قد اقترحه ولكن السناتو عارضه قبل صدور قانون أقيليوس. ورواية أبيانوس تدل صراحة على أن قانون دروسوس أعاد الى السناتو تشكيل هيئات المحلفين من أعضائه بعد زيادة عددهم عن طريق تعويض طبقة الفرسان عن فقدهم هذا الامتياز بتعيين ثلاثمائة منهم أعضاء في السناتو. وأما ملخص ليفيوس[٦٦] فإنه يحدثنا بأن دروسوس استصدر قانوناً جعل طبقتّي السناتو والفرسان شريكين متساويين في تشكيل هيئات المحلفين. وهذا يوحي بأن طبقة الفرسان فقدت ميزة الانفراد بتشكيل هيئات المحلفين دون منحها أي مقابل يعوضها عن مشاركة السناتو إياها في تشكيل هيئات المحلفين.

وما هي الحقيقة التي يغلفها ضباب التضارب في مصادرنا القديمة؟ إزاء المعارضة القوية التي أبداها السناتو لمشروع قانون دروسوس القضائي ثم مسارعة السناتو فيما بعد إلى إلغاء هذا القانون يبدو أن رواية أبيانوس عن زيادة

---

(63) Plin., N.H., XXV, 52.
(64) Velleius, II, 13, 2.
(65) App., B.C., I, 35.
(66) Liv., Ep 71

أعضاء السناتو بإدخال عدد مماثل لعددهم من الفرسان في زمرة طبقتهم المرموقة لا تجافي الحقيقة . وقد مر بنا أنه قبل صدور قانون أقيليوس الذي استبعد أعضاء السناتو من هيئات محلفي محكمة استرداد الأموال المبتزة استصدر جايوس جراكوس قانوناً بمعاقبة المرتشين من محلفي هذه المحكمة ، كما مر بنا أنه عندما آلت هذه المحكمة الى الفرسان نجحوا في زعمهم أن هذا القانون كان لا ينطبق إلا على المحلفين من أعضاء السناتو . ويؤكد أبيانوس[٦٧] وشيشرون[٦٨] أن قانون دروسوس القضائي تضمن بنداً يجرّم المحلفين المرتشين . ولما كان قانون جايوس جراكوس الخاص بالمحلفين المرتشين لا يزال قائماً ويمكن تطبيقه على أي عضو من أعضاء السناتو يشترك في هيئات المحلفين ويكون مجرحاً ، ولما كان يترتب على منح فريق من الفرسان عضوية السناتو أن يصبح شأنهم شأن غيرهم من أعضاء السناتو من حيث وقوعهم تحت طائلة قانون جايوس جراكوس ، فإن ورود بند خاص بالمحلفين المرتشين في قانون دروسوس القضائي يشير إلى أمرين : وأحدهما ، هو أن الهدف المقصود من هذا البند لم يكن المحلفين من أعضاء السناتو لوقوعهم تحت طائلة قانون ساري المفعول . والأمر الآخر ، هو أن قانون دروسوس القضائي قضى بأن تتألف هيئات المحلفين الجديدة من طبقتي السناتو والفرسان وليس من أعضاء السناتو بعد زيادة عددهم وإلا لما كان هناك معنى لهذا البند .

ولا تدع مصادرنا سبيلاً الى الشك في أن دروسوس كان نصيراً مؤزراً للسناتو[٦٩] فكيف أقدم على أن يضيف الى أعضاء هذا المجلس فريقاً من الفرسان ؟ يبدو أن دروسوس في إخلاصه واتساع أفقه وتغليبه الصالح العام على صالح طبقته قدّر أنه في كنف احتكار السناتو محكمة استرداد الأموال المبتزة لم تكن العدالة أسعد حظاً منها حين آلت هذه المحكمة الى الفرسان، وأنه قد تبع

---

(67) App., loc. cit.
(68) Cic. pro Cluent., 15, 3; pro Rab. Post., 16.
(69) Velleius, II, 13, 2; Liv., Ep., 71; Cic., de Orat., I, 7, 4; pro Mil., 7, 16; Diod., XXXVII, 10

انتزاع هذه المحكمة من قبضة السناتو نضال عنيف بين طبقتي الفرسان والسناتو ، وأنه لن يكون من شأن استرداد السناتو احتكاره إلا نشوب نضال عنيف جديد يسيء الى الصالح العام دون أي ضمان لإنصاف العدالة . وأما اذا عُوض الفرسان عن احتكارهم تكوين هيئات المحلفين بإدماج أبرزهم في طبقة السناتو ، فإنه كان هناك أمل في أن يترتب على ذلك إحلال الوفاق مكان الشقاق بين طبقتي السناتو والفرسان ، ومن الجائز أيضاً رفع مستوى العدالة . ولعل أننا لا نعدو الحقيقة إذا تصورنا أن دروسوس كان يحاول على هذا النحو تحقيق ما سنرى شيشرون يحاوله عبثاً ، ونعني الوفاق بين طبقتي السناتو والفرسان (Concordia Ordinum) . بيد أن ذلك كان فكرة خيالية لا يمكن تحقيقها إلا اذا نزل النبلاء عن غلوائهم وحبهم للسلطة والسيطرة ونزل الفرسان عن جشعهم وتفانيهم في جمع المال ورعاية صوالحهم الخاصة . وقد كان ذلك كله أمراً عسيراً لأنه كان يرتطم بالنزعات المتأصلة في أغوار النفوس .

واذا كان دروسوس يأمل في أنه بهذا الحل الوسط السعيد يستطيع حل مشكلة تشكيل هيئات المحلفين والفوز برضاء السناتو والفرسان ، فإنه كان مغرقاً في تفاؤله ولم يفز إلا بسخط السناتو والفرسان ، فمن ناحية لم يرَ السناتو أن استرداده نصف الميزة التي تمتع بها طويلاً كان مبرراً لإقحام الفرسان على طبقته المرموقة المنفردة بالحكم ولا سيما أنه كان من شأن ذلك في تقدير السناتو زيادة قوة الفرسان ومساعدتهم على تحدي الطبقة الحاكمة ومناهضتها . ومن ناحية أخرى لم يرَ الفرسان في دخول فريق منهم حظيرة السناتو تعويضاً كافياً عن حرمانهم الانفراد بما أصبحوا يعتبرونه حقاً مكتسباً يكفل صوالحهم ويدعم مكانتهم السياسية في الدولة . وفضلاً عن ذلك فان البند الخاص بالمحلفين المرتشين أثار أشد هواجس الفرسان لأنهم كانوا حتى ذلك الوقت بمنأى عن التعرض لأي خطر مهما ارتشوا . فلا عجب أنه ما أن أعلن دروسوس عن مشروع قانونه حتى أخذت أصوات الاحتجاج عليه ترتفع عالية داخل السناتو وخارجه . وقد تولى زعامة هذه المعارضة لوقيوس مارقيوس فيليبوس

(Philippus) ، أحد قنصلي ذلك العام . وشد أزر فيليبوس خارج السناتو طبقة الفرسان وكذلك زوج أخت دروسوس وهو قابيبو الذي رأيناه يتحدى ساتورنينوس . وقد شهد السناتو اجتماعات صاخبة ولم تفلح مؤازرة سقاوروس ولا خطابة كل من قراسوس وأنطونيوس في الحد من غضب السناتو على دروسوس ونفوره منه . وشهد الفوروم كذلك أحداثاً من العنف والشغب تماثل أحداث عهد ساتورنينوس[٧٠] .

ومع ذلك نجح دروسوس في استصدار قانونه القضائي[٧١] (lex iudicaria). واذا كان هذا النجاح قد أثار على دروسوس أغلب أعضاء السناتو وكل طبقة الفرسان ، فإنه ظل يتمتع بمكانته بين عامة الشعب بسبب ما أفادوه من تشريعاته الأخرى[٧٢] . وعندئذ عمد معارضو دروسوس الى إثارة العامة ضده بدعوى أنه ينوي تحرير الحلفاء ويغرق المواطنين الرومان بكل أولئك الحلفاء الذين سيحصلون على حقوق المواطنة .

والواقع أن كل مصادرنا تشير الى أن دروسوس كان معنياً بتحرير الحلفاء ، والى أن دروسوس وعد بتحريرهم ، والى أنه منذ بداية تريبونيته وفد على روما عدد كبير من الحلفاء ونشطوا في الدعوة لتأييد تشريعاته على أمل أن يحقق وعده لهم بالتحرير .

ولا أدل على عطف دروسوس على الحلفاء ووجود تفاهم وتعاطف بين دروسوس والحلفاء من أن أبرز زعماء المارسي (Marsi) ، وهو كوينتوس بومبايديوس سيلو (Pompaedius Silo) — وهو الذي سنراه يقوم بدور بارز في حرب الحلفاء — نزل ضيفاً في بيت دروسوس فترة من الوقت[٧٣] .

(70) Cic., de Orat., III, 1, 1-2, 6; App., B.C., I, 35; Florus, II, 5; (Victor) de Vir. Ill., 66; Plin., N.H., XXVIII, 9; 148; Val. Max., IX, 5, 2.

(71) Liv., Ep., 71; Diod., XXXVII, fr. 10; Cic., pro Rab. Post., 7, 17; pro Cluent., 56, 153; Ascon., in Scaur., 21 C.

(72) App., B. C., I, 36.

(73) Plut., Cat Min., II; (Victor) Vir. Ill., 80.

وقد أورد ديودوروس[٧٤] قسماً يُفهم من فحواه أن دروسوس وعد زعماء الحلفاء باستصدار قانون يمنح الحلفاء حقوق المواطنة ، وأن هؤلاء الزعماء أقسموا : على ألا يدخروا نفساً ولا نفيساً في تأييد دروسوس ، وعلى أن يحصل كل زعيم على قسم مماثـــل من أكبر عدد ممكن من أفراد مجتمعه ، وعلى أنهم اذا أصبحوا مواطنين رومان بمقتضى قانون دروسوس الموعود فإنهم سيعتبرون روما وطنهم ودروسوس ولي نعمتهم .

وإزاء ما هو مسلم به من عطف دروسوس على الحلفاء ووعده لهم بالتحرير ونشاطهم في تأييد تشريعاته لا نرى مبرراً للشك في أن يكون زعماء الحلفاء قد عاهدوا دروسوس على تأييده وأقسموا له يميناً ما ليست بالضرورة أنها كانت على النحو ذاته الذي أورده ديودوروس ويُعزى الى القنصل فيليبوس نشره ، وذلك فيما يبدو لاستخدامه ضد أنصار دروسوس في المحاكمات التي سيأتي ذكرها[٧٥] . بيد أننا نستبعد ما روجه خصوم دروسوس ضده من أنه اتفق مع الحلفاء على استخدام القوة في تحريرهم . ذلك أنه ينفي هذه التهمة أمران : وأحدهما ، هو أنه عندما علم دروسوس بأن بعض الحلفاء يدبرون اغتيال القنصلين ، فيليبوس –خصمه العنيد– وزميله ، بادر الى تنبيـــه فيليبوس ليأخذ القنصلان حذرهما . والأمر الآخر ، هو أنه عندما أصدر السناتو قراراً باعتبار كل تشريعات دروسوس باطلة لم يفعل دروسوس شيئاً بل إنه لم يستخدم حق الڤيتو لمصادرة هذا القرار[٧٦] . وإذا كنا لا نستبعد ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن ذات الوثيقة التي نشرها فيليبوس كانت مزيفة وأن الباعث على تزييفها كان استخدامها دليلاً ضد أنصار دروسوس في المحاكمات التي أعقبت ذلك ، فإننا نرى أن هذا لا ينفي وعد دروسوس للحلفاء بالتحرير أو اتصاله بزعمائهم أو وقوفه على نواياهم وتدابيرهم .

(74) Diod., XXXVII, 11.
(75) Cf. Heitland, II, p. 420; C.A.H., IX, p. 181 n. 1; H. J. Rose, Harv. Theol. Rev., 30, 1937, pp. 165 ff.; L.R. Taylor, Party Politics in The Age of Caesar, 1949, p. 46; Scullard, 1970, n. 5 p. 406.
(76) Diod., XXXVII, 10.

وقد أفلح خصوم دروسوس في إثارة العامة ضده الى حد اضطر معه الى التريث حتى تخف حدة الأزمة وتهدأ الأعصاب الثائرة قبل الإقدام على اتخاذ الإجراءات اللازمة لاستصدار قانون بمشروعه الخاص بتحرير الحلفاء. وهذا يدحض مزاعم خصوم دروسوس عن اتفاقه مع الحلفاء على استخدامهم ضد المعارضة وتحريرهم بالقوة المسلحة. ولكي نفهم ماكان لهذا التريث من رد فعل شديد في نفوس الحلفاء المتلهفين على الفوز بالحقوق الرومانية يجب ألا تغرب عن بالنا مشاعر الإنسان المتلهف على الحصول على شيء عزيز المنال فهو يضيق بكل تأخير في تحقيق أمنيته ويؤول هذا التأخير أسوأ تأويل. وهكذا كان من جراء تريث دروسوس إصابة الحلفاء بخيبة الآمال العراض التي علقوها على وعوده، وإثارة غضبهم عليه لاعتقادهم بأنه خدعهم، وكذلك إثارة مخاوفهم من أنهم ولم يحصلوا على الحقوق الرومانية قد تعتبر أراضيهم أرضاً عامة (ager pubilcus) وتصادر من أجل إنشاء المستعمرات وتوزيع الأراضي تنفيذاً للمشروعين أو شقي المشروع اللذين كانا قد ساعدا على إقرارهما في مقابل الفوز بالحقوق الرومانية. وإزاء ذلك وفد على روما كثيرون من الحلفاء وبخاصة من أومبريا (Umbria) وأترووريا وشدوا أزر القنصل فيليبوس في مهاجمة تشريعات دروسوس[77]. وقد انتهز فيليبوس فرصة السخط العام واستصدر من السناتو قراراً اعتبر كل تشريعات دروسوس باطلة[78]. ويبدو من مصادرنا أن السناتو استند في ذلك على ثلاث حجج: وإحداها هي الشغب الذي صاحب استصدار التشريعات، والثانية هي استصدار التشريعات بالرغم من سوء الطوالع، والثالثة هي عدم احترام القانون (Lox Caeclia Didia) الذي قضى بعدم جواز إدراج عدة مسائل منفصلة في تشريع واحد. وإزاء اعتبار تشريعات دروسوس جميعاً باطلة من الجائز أن

---

(77) App., B. C., I, 36; J. Heurgon, J.R.S. 1959, pp. 41 ff., E. Badian, Historia, 1962, pp. 225 ff.

(78) Cic., de Domo, 16, 41; 19, 50; de Leg, II, 6, 14; 12, 31; pro Cornel. ap. Ascon., 68 C, Ascon. in Cornelian, 68 C; Diod., XXXVII, 10.

يكون دروسوس قد أدمج في قانون واحد مسألتي توزيع الأراضي وإنشاء المستعمرات ، وفي قانون آخر مسألتي بيع القمح بسعر زهيد وتمويه العملة البرونزية بالفضة ، وفي قانون ثالث مسألتي زيادة عدد أعضاء السناتو وتشكيل هيئات المحلفين من الفرسان وأعضاء السناتو ، فضلاً عن البند الخاص بمعاقبة المحلفين المرتشين .

ولما كان دروسوس قد فقد عطف وتأييد الجانب الأكبر من أنصاره ولم يعد له حول ولا قوة فإنه أدرك ما مني به من فشل ذريع وسلم بالأمر الواقع المرير فلم يناضل للدفاع عن تشريعاته أو لاستصدار قانون تحرير الحلفاء . وحين استشعر دروسوس أن حياته ذاتها أصبحت مهددة بالخطر اعتكف في بيته حيث أخذ يمارس واجباته العامة . وبطبيعة الحال كان يتردد عليه كثيرون من الزوار ، وذات ليلة طعنه شخص مجهول طعنة نجلاء(٧٩) .

ولم ينته الأمر عند هذه الجريمة النكراء . ذلك أنه ما أن تولى تريبونية العامة في العاشر من ديسمبر عام ٩١ ق . م . كوينتوس ڤاريوس هوبريدا (Varius Hybrida) — وكان إسباني الأصل مجهول النسب — حتى استصدر برغم اعتراض بعض زملائه قانوناً (Lex Varia de maiestate) قضى بإنشاء محكمة غير عادية (quaestio extraordinaria) لتحاكم بتهمة الخيانة العظمى (maiestas) كل من حامت حولهم شبهة تشجيع الحلفاء على نيل الحقوق الرومانية بالقوة(٨٠) . وقد باشرت هذه المحكمة عملها بنشاط

(79) App., B. C., I, 36; Velleius, II, 14; 15; (Victor) de Vir. Ill., 66; Seneca, de Brev. Vit., 6, 2.

(80) App., B.C., I, 37; Ascon., in Scaur., 22 C ; in Cornelian., 73 C ; Cic., Brutus, 89, 304-5; Val. Max., VIII, 6, 4; R. Seger, Historia, 1967, pp. 37 ff.; E. Badian, Historia, 1969, pp. 447 ff.

ولكن أحد الباحثين يخالف الرأي السائد بإنشاء محكمة غير عادية بمقتضى هذا القانون ويرى أن ما فعله هذا القانون هو أنه أعاد تعريف تهمة الخيانة وأنه كان من شأن ذلك أنه استبدلت بمحكمة الخيانة التي شكلت بمقتضى قانون ساتورنينوس (Lex Appuleia de maiestate) محكمة أخرى ظلت قائمة حتى عهد صلا . أنظر :

Gruen, J.R.S, 1965, pp. 59 ff.; Roman Politics and Criminal Courts, p. 216 n. 2.

جم وراح ضحيتها كثيرون من أبرز رجال السناتو المعتدلين في الرأي [81] .
وذهب ڤاريوس في تماديه الى حد أنه قدم للمحاكمة سقاوروس زعيم السناتو .
ويحدثنا مصدر قديم بأن سقاوروس فاز بالبراءة بمجرد مثوله أمام المحكمة
وقوله « إن ڤاريوس الإسباني يتهم سقاوروس زعيم السناتو بأنه حرض
الحلفاء على امتشاق الحسام . سقاوروس زعيم السناتو ينفي التهمة ولا يوجد
أي شاهد ضده . أينا تصدقون أيها الرومان ؟ » [82] .

والاعتقاد السائد هو أنه عندما اقتضت ظروف الحرب مع الحلفاء أن
يصدر السناتو قراراً بوقف نشاط المحاكم العادية عُطلت هذه المحكمة أيضاً ،
بيد أن بعض الباحثين يرون أن هذه المحكمة تابعت نشاطها دون سائر المحاكم
الأخـــرى [83] .

خامساً ــ حرب الحلفاء الإيطاليين

درجت المصادر القديمة حتى آخر القرن الأول للميلاد على أن تدعو هذه
الحرب أحياناً « الحرب المارسية » (Bellum Marsicum) وأحياناً أخرى
« الحرب الإيطالية » (Bellum Italicum) . ومنذ القرن الثاني للميلاد
تطالعنا تسمية ثالثة وهي « حرب الحلفاء » (Bellum Sociale) . ويبدو
أن التسمية الأولى كانت أقدم في الاستعمال من غيرها ثم أخذت التسمية الثانية
تخلف الأولى منذ عام ٧٨ ق . م . [84] ولعل أنه يكون أدق في التعبير تسمية
هذه الحرب « حرب الحلفاء الإيطاليين » ، ذلك أنه من ناحية اذا كان المارسي
(Marsi) قد قاموا بدور كبير في هذه الحرب فإن السمنيين (Samnites)

(81) Cic., Brutus, 56, 205; App., B.C., I, 37; Scullard, 1970, n. 6 p. 406.
(82) Ascon., in Scaur., 22 C.
(83) Heitland, II, p. 427; H. Hill, Roman Middle Class in Republican Period, 1952, p. 136; Gruen, Roman Politics, p. 216 n. 2; J.R.S., 1965, pp. 59 ff.
(84) C.A.H., IX, p. 185 n. 1.

قاموا بدور مماثل، ومن ناحية أخرى فإنه باستثناء مستعمرة فنوسيا (Venusia) اللاتينية الواقعة على مشارف سامنيوم (Samnium) بقي الحلفاء اللاتين جميعاً على ولائهم لروما في أثناء هذه الحرب . ويبدو أن مرد ذلك لم يكن الى أن الحلفاء اللاتين كانوا أقل اهتماماً من الحلفاء الإيطاليين بالحصول على الحقوق الرومانية مع أنهم بحكم قربهم من روما كان أيسر عليهم من الإيطاليين ممارسة هذه الحقوق ؛ أو الى مجرد أن الرومان كانوا أكثر كرماً في معاملة الحلفاء اللاتين ، وانما الى أن أغلب الحلفاء الإيطاليين وقد لمسوا من أنانية مختلف الطبقات الرومانية ما يدل بجلاء على نفور الرومان بوجه عام من إدماجهم في عدادهم ووضعهم على قدم المساواة معهم ، لم يعد هدفهم هو الحصول على الحقوق الرومانية وإنما تحرير أنفسهم من ربقة الرومان والانفصال عن الدولة الرومانية وإنشاء دولة مستقلة لهم . ولعل أن الحلفاء اللاتين قد أدركوا بحكم قربهم من روما وسهولة وصول القوات الرومانية اليهم سيكونون فريسة سهلة وضحية أكيدة لفكرة خيالية صعبة التحقيق ، فآثروا السلامة والعافية .

١ ــ الإيطاليون يؤلفون دولة متحدة :

اذا كانت محاولة دروسوس آخر المحاولات التي عقد الحلفاء عليها آمالهم في التحرير سلمياً ، فإنه يبدو أنه منذ طردهم من روما في عام ٩٥ ق . م . أخذوا يتدبرون الأمر وصمموا على تحرير أنفسهم بالقوة المسلحة ، لأنه ما أن لقي دروسوس مصرعه حتى شبت نار الفتنة في أسقولوم (Asculum) عاصمة البيقني (Piceni) أو البيقنتس (Picentes) في شتاء عام ٩١ / ٩٠ ق . م . ذلك أنه عندما خشي السناتو عواقب انتشار التذمر بين الإيطاليين أنفذ مبعوثين الى مختلف المجتمعات الإيطالية لتقصي الأخبار والوقوف على نوايا الإيطاليين . وما أن علم أحد هؤلاء المبعوثين بأن مدينة أسقولوم تتبادل الرهائن مع مدينة أخرى وأنهى هذا الخبر الى البرايتور جايوس سرفيليوس ــ وكان يقوم مع مساعده (legatus) فونتيوس بعملية استطلاع في إقليم

البيقني – حتى سارع سرفيليوس الى أسقولوم وخاطب أهليها بعبارات شديدة كلها وعيد وتهديد مما أدخل في روعهم أن تدابيرهم انكشفت فأجهزوا على سرفيليوس ومساعده وكذلك على كل من كان في المدينة من الرومان[٨٥] .

وفي أعقاب ذلك شقت عصا الطاعة على روما أقوى الشعوب الجبلية الإيطالية وكونت اتحاداً . وكانت هذه الشعوب تتألف من مجموعتين رئيسيتين : إحداهما في الشمال وتتكون من المارسي وجيرانهم ، والأخرى في الجنوب وتتكون من السمنيين وجيرانهم . ومن المحتمل أن قطعة العملة [٨٦] التي كشف عنها ونقش عليها اسم ك . (بومبايديوس) سيلو وصورة ثمانية محاربين يؤدون القسم تمثل الشعوب الثمانية الإيطالية التي تألف منها الاتحاد . وهذه الشعوب هي : المارسي والبيقني والبايليجني (Paeligni) والفستيني (Vestini) والمـــاروقيني (Marrucini) والفرنتاني (Frentani) والسمنيين والهيربيني[٨٧] (Hirpini) .

وقد اتخذ المتحالفون من مدينة قورفينيوم (Corfinium) الاستراتيجية الموقع في إقليم البايليجني عاصمة لهم وأطلقوا عليها اسم إيطاليا (Italia) وأقاموا فيها منشآت عامة أبرزها فوروم متسع وقاعة لاجتماع مجلس السناتو وزودوا هذه العاصمة بكميات وفيرة من المال والمؤنة ومعدات الحرب [٨٨] . وعلى حين أن إسترابون[٨٩] لا يذكر عن دستور هذا الاتحاد إلا أن الحلفاء اجتمعوا في قورفينيوم واختاروا قنصلين وبعض البرايتورس ، يحدثنـــا ديودوروس[٩٠] بأن الحلفاء كونوا مجلساً مشتركاً (مجلس سناتو) يتألف من ٥٠٠ عضو على أن يختار من بينهم عدد من الرجال الجديرين بحكم الدولة المتحدة القادرين على تأمين سلامتها . وإلى هؤلاء أسندت قيادة الحرب وأعطي

(85) Liv., Ep , 72; App., B. C., I, 38; Diod., XXXVII, 13; Obsequens, 54.
(86) C.A.H., Plates, Vol. IV, 2 b.
(87) C.A.H., IX, p. 186; Scullard, 1970, p. 67.
(88) Diod., XXXVII, 2, 4.
(85) Liv., Ep., 72; App., B. C I, 38; Diod., XXXVII, 13; Obsequens, 54.
(90) Diod., XXXVII, 2, 5-7.

السناتو سلطة كاملة . وتبعاً لذلك قرر السناتو أن يُختار سنوياً قنصلان وإثنا عشر برايتوراً . وكان القنصلان هما كوينتوس بومبايديوس سيلو ، الزعيم المارسي ، وجايوس بابيوس موتيلوس (Papius Mutilus) ، زعيم السمنيين . وقسمت الدولة الى منطقتي اختصاص بين القنصلين ، كانت إحداهما في الشمال وقنصلها سيلو ، والأخرى في الجنوب وقنصلها موتيلوس . ووضع تحت إمرة كل من القنصلين ستة برايتورس لمعاونته . وبعد أن وضعوا نظم الحكم على هذا النحو المماثل تقريباً للنظم الرومانية عكفوا على خوض غمار الحرب بهمة ونشاط .

ويختلف الباحثون في ماهية هذا الاتحاد ، إذ أن البعض يرى أنه كان في المقام الأول حلفاً عسكرياً [٩١] ، على حين أن أغلب الباحثين يرون أنه كان اتحاداً يتسم بكل مقومات الدولة ولكنه عند هذا الحد ينتهي اتفاق هذه الغالبية في الرأي . ذلك أن البعض إذ يقبل رواية ديودوروس بأن دستور هذه الدولة الإيطالية كان مماثلاً للدستور الروماني يرى أنه تبعاً لذلك لا يكون هناك مجال للقول بأن مبدأ التمثيل النيابي اتبع في تكوين مجلس السناتو الإيطالي [٩٢] . ولا يستبعد بعض آخر من الباحثين مبدأ التمثيل النيابي فحسب بل أيضاً صحة رواية ديودوروس بأن الدستور الإيطالي كان على نمط الدستور الروماني . ويرى هذا البعض أن الحلفاء الإيطاليين أفادوا من توزيعهم الإقليمي وكونوا اتحاداً ثنائياً يتألف من شعبتين إحداهما في الشمال بزعامة سيلو بوصفه كونه القائد الأعلى لقواد أقاليم شعبته ، والشعبة الأخرى في الجنوب بزعامة موتيلوس بوصف كونه أيضاً القائد الأعلى لقواد أقاليم شعبته [٩٣] . ومما يؤخذ على هذا الرأي انه لا يبين كيفية تكوين مجلس السناتو الإيطالي . ويقبل بعض ثالث من الباحثين رواية ديودوروس القائلة بأن دستور الدولة الإيطالية

(91) E. D. Meyer, Historia, 1958, pp 74 ff
(92) Mommsen Röm., Gesch., III, pp. 504-6 (Eng. Trans.).
(93) C.A.H., IX, pp. 186-7; Cf. E.T. Salmon, Samnium and The Samnites, 1967, pp. 348 ff

وُضع على نمط الدستور الروماني ، ومع ذلك فإن هذا البعض يرى أن مجلس السناتو الإيطالي كان يتألف من أعضاء يمثلون الشعوب التي تكونت منها الدولة الجديدة لأن هذا المجلس هو الذي كان يصدر التشريعات ويختار الحكام لهذه الدولة .(٩٤)

ونحن نميل الى الأخذ برأي أغلب الباحثين من حيث أن هدف الثوار كان إنشاء دولة مستقلة . ونعتقد أن الرأي الأخير أدنى الى القبول ، فمن ناحية قول ديودوروس أن الدستور الإيطالي كان يماثل تقريباً الدستور الروماني لا يستتبع حتماً أنه كان صورة طبق الأصل ، ومن الجائز جداً أن ديودوروس لم يقصد إلا أن الدستورين كانا متماثلين من حيث أنه في كل منهما كان يوجد مجلس للسناتو وحاكمان رئيسيان يدعيان قنصلين ويساعدهما حكام أدنى مرتبة يدعون برايتورس . ومن ناحية أخرى لما كان الإيطاليون قد ثاروا على روما لأنها حرمتهم المشاركة في التمتع بحقوق المواطنة وممارستها فإنه لا يعقل أنه حين أقام أولئك الثوار لدولتهم مجلساً دستورياً لم تكن كل الشعوب التي تألفت منها دولتهم ممثلة بطريقة أو أخرى في هذا المجلس .

وعلى كل حال فإنه تعبيراً عن قيام هذه الدولة وإعراباً عن أهدافها ودعماً للوحدة بين أعضاء كل اتحادها ، سكت الدولة الجديدة لنفسها عملة نُقش على أحد وجهيها شكل رمزي يمثل « إيطاليا » وبعض المحاربين يقسمون يمين الولاء لها ، وعلى الوجه الآخر شكل يمثل « الثور الإيطالي » وهو يفتك « بالذئب الروماني » . وتحمل بعض قطع العملة أسماء القواد باللاتينية وبعضها الآخر تحمل أسماء القواد باللغة الأوسقية (٩٥) .

ومما يجدر بالملاحظة أنه اذا كان لم ينقض وقت طويل على نشوب الحرب حتى كان الثوار قد كسبوا مؤيدين لهم في لوقانيا وآبوليا وجنوب قمبانيا ، فإنه مضى

---

(94) T. Frank, Roman Imperialism, pp. 301, 311; Class. Journ., XIV, 1919, p. 547; History of Rome, 1966, p. 230.

(95) C.A.H., IX, p. 186, Plates, Vol. IV, 2 b. c; Scullard, 1970, p. 67.

بعض الوقت قبل أن يجدوا مثل هذه المؤازرة في أتروريا وأومبريا ، ولم ينضم اليهم البروتيي (Brutii) في الطرف الجنوبي الغربي إلا قرب النهاية ، على حين أن أهل إقليم قالابريا (Calabria) القديم في أقصى الجنوب الشرقي ظلوا بمنأى عن الثورة ، بل إن بعض المجتمعات الإيطالية في الأقاليم الثائرة ظلت على ولائها لروما . ذلك أن بينّا[96] (Pinna) رفضت الانضمام الى الفستيني في ثورتهم ، وأنميناتوس ماجيوس[97] (Minatus Magius ، جد المؤرخ فلّيوس باترقولوس ، Velleius Paterculus) حشد قوة في إقليم الهيربيني وقدم مساعدة قيمة للرومان في عام ٨٩ ق . م . كما أن الطبقات العليا قاومت الثوار في آبوليا . وليس تفسير هذا الشذوذ أمراً عسيراً ، ولعل أن مرده كان الى تلك الروابط التي دأبت الطبقة الحاكمة الرومانية على إنشائها وتنميتها مع الطبقات العليا الإيطالية القابضة على مقاليد الأمور المحلية وكان من صالح بعض هذه الطبقات على الأقل استمرار الأوضاع القائمة . وإزاء ما كانت المدن البحرية الإغريقية في جنوب إيطاليا قد قاسته في الماضي على أيدي السمنيين وغيرهم من القبائل السابلّية كان طبيعياً ألا تنضم هذه المدن الى الثوار[98] .

واذا كان معنى ذلك أن الإيطاليين جميعاً لم يسهموا في الثورة فإن هذا لا ينفي أن الثورة التي قامت بها غالبيتهم العظمى كانت ثورة ضخمة عارمة هددت كيان الدولة الرومانية بأشد المخاطر ، فقد كان في وسع الثوار حشد أعداد كبيرة من المحاربين الأشداء الذين كانوا في الماضي درعاً قوياً لروما وأداة ماضية فعالة تحت إمرتها في كل الحروب التي خاضتها منذ أن سيطرت على شبه الجزيرة الإيطالية في عام ٢٦٥ ق . م . وقد كان من جراء ذلك أن كثيرين من الإيطاليين ألفوا نظم الرومان العسكرية وأساليبهم الحربية واكتسبوا

(96) Diod., XXXVII, I, 3-4.
(97) Velleius, II, 16.
(98) C.A.H., IX, p 186

خبرة قتالية كبيرة . وحين وجدت روما نفسها بين عشية وضحاها وجهاً لوجه أمام هذه الأزمة الحادة التي تسببت هي فيها بأنانيتها وقصر نظرها ، واجهت الموقف بشجاعتها المألوفة في تاريخها القديم ، معتمدة على ولاء لاتيوم وشمال قمبانيا والمستعمرات اللاتينية ، وعلى قدرتها على جلب المساعدات من غاليا قيس ألبينا (Gallia Cisalpina = غاليا هذه الناحية من الألب) ومن صقلية وإسبانيا ونوميديا ، وعلى احتفاظها في قبضتها بأهم الموانى البحرية[٩٩] . وهكذا استطاع الفريقان أن يحشدا قوات كبيرة لخوض غمار حرب بلغت من العنف والضراوة ما حدا بديودوروس الى أن يعتبرها أعظم الحروب القديمة[١٠٠] . (أنظر خريطة إيطاليا) .

٣ ــ المرحلة الأولى في الحرب :

لما كانت هناك جبهتان رئيسيتان ، إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب ، فإنه عندما اشتعل لهيب الحرب في عام ٩٠ ق . م . أسند الرومان القيادة في كل جبهة الى أحد قنصلي ذلك العام ، واختار كل من القنصلين نخبة من الرجال المجربين ليكونوا مساعديه (legati) . وقد تولى القيادة في الجبهة الشمالية ضد سيلو القنصل بوبليوس روتيليوس لوبوس (Lupùs) وكان مساعدوه : ماريوس (بطل حروب يوجورتا والتيوتون والقيمبري) وجنايوس بومبي إسترابون (والد بومبي الأكبر) وكوينتوس سرفيليوس قايبيو (ابن سارق تولوسا) وجايوس بربرنا (Perperna) وفالريوس مسالا (Valerius Messala) . وتولى القيادة في الجبهة الجنوبية ضد موتيلوس القنصل الآخر لوقيوس يوليوس قيصر وكان مساعدوه : تيتوس ديديوس (وكان قد سبق له الانتصار على الإسقورديسقي والقلتيبري) وبوبليوس ليقينيوس قراسوس (وكان قد أحرز انتصارات على اللوسيتاني) وصلا (وكان له دور كبير في إنهاء حرب يوجورتا بالقبض عليه وأظهر كفاية كبيرة

---

(99) C.A.H., IX, p. 188.
(100) Diod., XXXVII, 2, 1; 19-21.

في محاربة القيمبري) ومارقوس قلاوديوس مارقلّوس (وكان قد اشترك مع ماريوس في الفتك بالتيوتون في معركة نبع سكستيوس) وبوبليوس لنتولوس[١٠١] (Lentulus) . وهكذا حشد الرومان أفضل رجالهم العسكريين المجربين ليتولوا زمام الحرب ضد الإيطاليين .

وبرغم كثرة المصادر القديمة التي تناولت الكلام عن هذه الحرب فإن هذه المصادر ليست شافية[١٠٢] . واذا كانت رواية أبيانوس[١٠٣] أوفاها جميعاً فإنه؛ تتخللها ثغرات كثيرة . ولا تمدنا رواية فلّيوس[١٠٤] ولا ملخصات[١٠٥] الأجزاء الضائعة من تاريخ ليفيوس ولا الفقرات التي استمد فحواها من تلك الأجزاء كل من فلوروس[١٠٦] ويوترويبوس[١٠٧] وأوروسيوس[١٠٨] إلا بفكرة عامة عن هذه الحرب . وترجمة بلوتارخ لحياة ماريوس وصلا[١٠٩] لا تعرض لهذه الحرب إلا بإيجاز مخل يتسم بالعداء لماريوس والمحاباة لصلا[١١٠] مما يوحي بأن مذكرات صلا كانت المصدر الذي اعتمد عليه بلوتارخ فيما أوجزه عن هذه الحرب . بيد أننا نجد معلومات قيمة في الفقرات القليلة الباقية من كتاب ديودوروس السابع والثلاثين وفي الشذرات الواردة عند إسترابون[١١١] وفرونتينوس[١١٢] وبلينيوس الأكبر[١١٣] .

واذا كان يتعذر علينا أن نستخلص من مصادرنا وصفاً متصلاً لسير الحرب

---

(101) App., B.C., I, 40; C.A.H., IX, p. 188.
(102) Heitland, II, pp. 427-9; C.A.H., IX, p. 189 n. 1; Scullard, 1970, n. 10 p. 408.
(103) App., B.C., I, 38-53.
(104) Velleius, II, 15-18; 20, 2; 21, 1; 29, 1.
(105) Liv., Ep., 72-77.
(106) Florus, II, 6.
(107) Eutropius, V, 3.
(108) Orosius, V, 18.
(109) Plut., Marius, XXXII 3-XXXIV, 1; Sulla, VI, 6-10.
(110) Plut., Marius, XXXIII.
(111) Strab., V, passim; VI, 1.
(112) Front., Strat., I, 5, 17; II, 4, 16, III, 17, 8
(113) Plin, N.H., III, 70

أو أن نتبين منها على وجه اليقين خطط كل من الفريقين ، فإنه مع ذلك يبدو أنه كان للقوات الإيطالية الشمالية هدف مزدوج وهو اتخاذ إقليم البيقني قاعدة لنشر الثورة في أومبريا وشمال أتروريا لقطع الإمدادات عن الرومان من غاليا قيس ألبينا ، والزحف غرباً من قورفينيوم والاستيلاء على ما يجاورها من المستعمرات اللاتينية الموالية لروما مثل صورا (Sura) في وادي ليريس وألبا فوقنس (Alba Fucens) وقارسيولي (Carseoli) الواقعتين على طريق فالريوس (Via Valeria) المؤدي الى روما ، وذلك فضلاً عن المدينة الإيطالية بينّا وهي التي مر بنا أنها رفضت مشاركة باقي الفستيني في الثــورة .

وكانت خطة الرومان في الشمال هي معاقبة أسقولوم على مذبحتها وعزل إقليم البيقني ، وإنقاذ المستعمرات والبلاد الموالية لهم . ولما كان سقوط المستعمرات اللاتينية في أيدي الثوار يهدد روما تهديداً خطيراً ، فإن الجانب الأكبر من قواتهم الشمالية بقيادة القنصل لوبوس اتجهت للدفاع عن هذه المستعمرات وعُهد الى بومبي إسترابون وباقي القوات الشمالية بأمر معاقبة أسقولوم وعزل إقليم البيقني . ولكن الإيطاليين ردوا بومبي إسترابون عن أسقولوم واضطروه الى الانسحاب الى فيرموم (Firmum) حيث حاصروه فترة من الوقت إلى أن أتته نجدة من غاليا قيس ألبينا فاستطاع أن يرفع الحصار ويعود فوراً الى محاصرة أسقولوم . ويُعزى الى هذا النجاح انتخابه أحد قنصلي العام التالي (عام ٨٩) .

ويبدو أنه في بداية الحرب حاصر الإيطاليون بينّا وألبا فوقنس وقارسيولى وصورا ، وأن الجانب الأكبر من القوات الرومانية الشمالية حاول إنقاذ هذه المدن ولكن الرومان نُكبوا أول الأمر بهزيمة تلو هزيمة . فقد هُزم أولاً بربرنا وحُرم قيادته وضُم ما تبقى من قواته الى القوات التي كان ماريوس يقودها . وبعد ذلك هُزم القنصل لوبوس في معركة نشبت في وادي تولنوس (Tolenùs) هزيمة منكرة لقي فيها مصرعه . غير أن ماريوس تمكن من إنقاذ الموقف

بانقضاضه فجأة على الإيطاليين وإنزاله بهم خسائر جسيمة فاضطروا الى الانسحاب . ومع ذلك فإن القيادة العليا في الشمال لم تُسند اليه لأن قايبيو كان قد أحرز نصراً على بعض قوات العدو فاتُخذ ذلك ذريعة لتقسيم القيادة بينه وبين ماريوس . ولكن سيلو لم يلبث ان أوقع قايبيو في كمين وأجهز عليه وعلى جيشه . وعندئذ فقط انفرد ماريوس بالقيادة العليا في الشمال ولم يلبث أن أحرز نصراً كبيراً على قوات من المارسي والماروّقاني كانت قد تحرشت به فأنزل بها خسائر جسيمة اضطرتها الى الفرار حيث صادفها صلا وقضى على البقية الباقية منها . ولعل أن صلا كان يعمل في الجناح الشمالي لقوات الرومان الجنوبية وبذلك أتيحت له الفرصة لمشاركة ماريوس هذا النصر .

وفي ضوء النصرين اللذين أحرزهما ماريوس والخسائر الكبيرة التي أنزلها بالعدو لا مجال للشك في أن بلوتارخ يجافي الحقيقة حين يقول إن ماريوس فقد شهرته العسكرية في هذه الحرب(١١٤) .

واذا كان من المرجح أن الإيطاليين استولوا على بينّا بعد دفاعها دفاعاً مجيداً ، وكانت الشواهد تدل على أنهم خربوا إقليم قارسيولي ، وكانت القرائن توحي بأنهم حاصروا صورا، وكان من الثابت أنهم حاصروا ألبا فوقنس حصاراً شديداً ، فإننا لا ندري ماكان مصير هذه المستعمرات الثلاث بعد النصرين اللذين أحرزهما ماريوس .

وأما في الجنوب فإنه كانت للإيطاليين ثلاثة أهداف رئيسية : وهي أولاً ، الاستيلاء على قلعة آيسرنيا (Aesernia) ، وكانت تسيطر على الطريق من قورفينيوم الى بنفنتوم (Beneventum) وتبعاً لذلك تهدد الاتصال بين القوات الرئيسية الإيطالية في الشمال وفي الجنوب . وثانياً ، غزو جنوب قمبانيا من أجل : ١ — الفوز ببعض خيرات تلك المقاطعة الغنية ؛ ٢ — تهديد الأرض العامة التي تملكها روما هناك وهي التي كانت تعرف باسم إقليم

(114) Plut., Marius, XXXIII.

قمبانيا (Ager Campanus) وكانت أهم مورد للخزانة العامة الرومانية والقاعدة الرئيسية للقوات الرومانية الجنوبية ؛ ٣ – تهديد خطوط المواصلات الرومانية مع الشرق والجنوب في شبه الجزيرة الإيطالية. وثالثاً ، نشر الثورة في آبوليا ولوقانيا.

وتبعاً لذلك كانت القوات الرومانية الجنوبية التي يقودها القنصل قيصر ومساعدوه تواجه أعباء ضخمة. وقد هزم الإيطاليون القنصل قيصر مرتين ، وأرغموا آيسرنيا على التسليم بعد حصار شديد وبعد فشل صلا في إنقاذها . وبعد أن غزا موتيلوس بقوات سمنية كبيرة مقاطعة قمبانيا واستولى على مدينة بعد أخرى حتى سيطر على الجانب الأكبر من جنوب قمبانيا تقدم لمحاصرة آقرّاي (Acerrae) حيث كان في انتظاره القنصل قيصر ومعه نجدات كبيرة غالية ونوميدية . وعندما اشتبك الفريقان دارت الدائرة على موتيلوس فانسحب بعد أن فقد ٦٠٠٠ من رجاله . ولسنا نعرف شيئاً عن الأحداث التي أعقبت ذلك في قمبانيا في خلال عام ٩٠ ق . م . ويبدو أن القنصل قيصر ، بعد أن أحرز هذا النصر ، عاد الى روما لإجراء الانتخابات لحكام العام التالي واستصدار القانون المعروف باسم عشيرته (Lex Julia) وكان قانوناً بالغ الأهمية على نحو ما سيأتي ذكره فيما بعد .

وقد كانت إحدى نتائج نجاح السمنيين في قمبانيا عزل القوات الرومانية في لوقانيا وآبوليا حيث أنزل الإيطاليون بهذه القوات هزائم فادحة واستولوا على مدن كثيرة كانت من بينها قانوسيوم (Canusium) وقلعة فنوسيا (Venusia) المنيعة وبذلك قطعت أيضاً خطوط المواصلات الرومانية مع ميناء برونديسيوم (برنديزي) .

وأسوأ من ذلك أنه كان من نتائج النكبات التي أصابت الرومان في الميدانين الشمالي والجنوبي أن الثورة بدأت تمتد الى مقاطعتي أترووريا وأومبريا في أواخر عام ٩٠ ق . م . ، فقد كان من شأن انتشار الثورة في هاتين

المقاطعتين قطع مواصلات روما البرية مع بلاد الغال وإسبانيا فضلاً عن وضع مساحة واسعة وقوات كبيرة تحت إمرة الاتحاد الإيطالي . وإذا كانت الروايات الرومانية القديمة تزعم أن القوات التي أرسلت ضد الثوار في هاتين المقاطعتين أحرزت انتصارات هناك ، فلعل أن العامل الأفعل أثراً كان التشريعات التي سنرى تواً أن الرومان اضطروا الى إصدارها إنقاذاً للموقف . وعلى كل حال فإنه لم يُقض على الثورة في أتروريا وأومبريا قبل العام التالي (٨٩ ق . م .)

٢ ـ تشريعات رومانية :

كان من جراء النكبات التي حلت بالرومان أنهم اضطروا الى استخدام الأساليب السياسية لإنقاذ الموقف الخطر الذي وجدوا أنفسهم فيه . ذلك أنه عندما عاد الى روما القنصل لوقيوس يوليوس قيصر لإجراء الانتخابات لحكام العام التالي استصدر قبل انتهاء قنصليته في عام ٩٠ ق . م . قانوناً (Lex Julia) قضى بمنح حقوق المواطنة الرومانية كاملة ليس فقط لكل المجتمعات اللاتينية والإيطالية التي لم تحارب روما [١١٥] بل أيضاً على الأرجح لكل مجتمع إيطالي يكف فوراً عن القتال[١١٦] . وذلك لأن الهدف لم يكن فقط منع انتشار الثورة بمكافأة المجتمعات التي بقيت على ولائها لروما واجتذاب المجتمعات التي بدأ ولاؤها يهتز كما حدث مثلاً في أومبريا وشمال أتروريا ، بل أيضاً قصم ظهر الثورة بإشاعة الفرقة في صفوف الشعوب الإيطالية المتحالفة . ونص القانون على أنه لا يصبح نافذ المفعول على أي مجتمع قبل أن يصدر هذا المجتمع قراراً بقبول حقوق المواطنة الرومانية .

---

(115) App., B. C., I, 49; Cic., pro Balbo, 8, 21; Gell., N.A., IV, 4, 3; C.A.H., IX, p. 195.

(116) Velleius, II, 16, 4; Heitland, II, pp. 440-1; Scullard, 1970, p. 69 and n. 13 p. 408

ويرى بعض الباحثين أنه بمقتضى هذا القانون قصر توزيع المواطنين الجدد على ثماني أو عشر قبائل فقط من القبائل الرومانية الخمس والثلاثين . انظر :

Brunt, J.R.S., 1965, pp. 107 ff.; Cf. L.R. Taylor, Voting Districts of The Roman Republic, 1960, pp. 107 ff.

وخوّل هذا القانون للقواد الرومان أن يمنحوا محاربيهم من غير الرومان حقوق المواطنة الرومانية جزاء ما يبدونه من الاستبسال في القتال . ذلك أنه قد جاء في أحد النقوش[117] أنه وفقاً لقانون يوليوس (ex lege Jŭlia) منح جنايوس بومبي إسترابون حقوق المواطنة الرومانية لثلاثين من الخيالة الإسبان الذين كانوا في معسكره عند أسقولوم (in castreis apud Asculum) . ومن المرجح أنه لم يترتب على هذا القانون الحكيم القضاء كلية على الاستقلال المحلي للمجتمعات التي قبلت الحقوق الرومانية بمقتضاه بل تحويلها الى بلديات (municipia) مستقة استقلالاً محلياً[118] . ويحتمل أنه في خلال عام ٨٩ ق . م . صدر قانون[119] (Lex Calpurnia) بالتفاصيل الخاصة بإعادة تنظيم الأوضاع في هذه البلديات بعد التطورات الأخيرة .

ويبدو أنه لم يكد اثنان من ترابنة العامة يتوليان مهام منصبيهما في ١٠ من ديسمبر عام ٩٠ ق . م .[120] حتى استصدرا في أواخر عام ٩٠ أو أوائل عام ٨٩ ق . م . قانوناً[121] (Lex Plautia Papiria) قضى — فيما يُرجح — بمنح حقوق المواطنة الرومانية كاملة لأي فرد بالشروط التالية : ١ — أن يكون مواطناً مسجلاً في أحد المجتمعات الحليفة؛ ٢ — أن تكون إيطاليا هي موطنه الدائم (domicilium)؛ ٣ — أن يعلن رسمياً عن رغبته في الحصول على حقوق المواطنة الرومانية أمام برايتور الأجانب (praetor peregrinus) في روما في ظرف ستين يوماً من صدور هذا القانون .

ويتفق الباحثون جميعاً على أن هذا القانون الجديد مكمل لقانون يوليوس

---

(117) I.L.S., 8888.
(118) A. N. Sherwin — White, Roman Citizenship, pp. 136 ff.
(119) Sisenna, fr. 120 P.
(١٢٠) يرجح أحد الباحثين أن هذين التريبونين لم يتوليا منصبيهما في أواخر عام ٩٠ لعام ٨٩ وإنما في أواخر عام ٨٩ لعام ٨٨ ق.م. أنظر :
E. Badian, Proc. African Class. Assoc., 1958, pp. 3 ff.
(121) Cic., pro Archia, 4, 7; Schol. Bob., p. 175 St.; App., B.C., I, 53; Velleius, II, 17.

قيصر (Lex Julia) لكنهم يختلفون حول ماهية النقص الذي يستوفيه القانون الجديد . ذلك أن بعضهم يرى أن القانون الجديد لم يستهدف منح حقوق المواطنة لكل مواطن عادي من مواطني المجتمعات الحليفة وإنما لأي مواطن فخري (ascriptus) لم يكن مقيماً في مجتمعه حين مُنح هذا المجتمع حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى قانون يوليوس(١٢٢) . وإذ يسلم البعض بأن تلافي بعض نواحي النقص في قانون يوليوس كان من بين أهداف القانون الجديد يرى أن ما لدينا من معلومات طفيفة عن هذا القانون لا توحي بأنه استحدث مبدأ خاصاً بمنح الأفراد بدلاً من المجتمعات حقوق المواطنة الرومانية (١٢٣) . وعند بعض ثالث من الباحثين أن القانون الجديد تلافى النقص الذي كان يعيب قانون يوليوس وهو الذي كان لا يمنح حقوق المواطنة الرومانية لكل فرد يرغب فيها وإنما لأفراد المجتمع الذي يقرر هذه الرغبة . وأما وفقاً للقانون الجديد فانه اذا رفضت غالبية أي مجتمع الإفادة من قانون يوليوس — سواء لأن غالبية هذا المجتمع آثرت الاستمرار في الحرب أم لأنها مع عزوفها عن المشاركة في الحرب وبقائها موالية لروما كانت تؤثر الاحتفاظ لمجتمعها بكيانه الذاتي وعدم الاندماج في الدولة الرومانية — كان في وسع أي مواطن من مواطني مثل هذه أو تلك المجتمعات أن يحصل فردياً على حقوق المواطنة بتنفيذ الشروط التي تطلبها القانون الجديد(١٢٤) . ولما كان من شأن فتح الأبواب على مصاريعها أمام الإيطاليين ، أفراداً ومجتمعات ، للحصول على الحقوق الرومانية إشاعة الفرقة في صفوفهم ودق معاول شديدة الهدم في كيان اتحادهم ، فإننا نميل الى ترجيح كفة الرأي الأخير .

ويكمل قانون يوليوس (Lex Julia) وقانون التريبونين (Lex Plautia Papiria) قانون (١٢٥) ثالث (Lex Pompeia) إستصدره القنصل

(122) A.N. Sherwin-White, op. cit., p. 132.
(123) Scullard, 1970, pp. 69-70 and n. 15 pp. 408-9.
(124) C.A.H., IX, p. 195; T. Frank, Hist. of Rome, 1966, p. 231.
(125) Ascon, in Pison., 3 C; Plin., N.H., XX, 138.

بومبي إسترابون في عام ٨٩ ق . م . ويتفق الباحثون على أن هذا القانون كان خاصاً بالمنطقة المعروفة باسم « غاليا قيس ألبينا » (Gallia Cisalpina = غاليا هذه الناحية من الألب) . وكانت هذه المنطقة تتألف من قسمين : أحدهما شمالي البو ويعرف باسم « غاليا ترانس بادانا » (Gallia Transpadana = غاليا فيما وراء البو) ويمتد من الضفة الشمالية لنهر البو حتى سفوح الألب ، والقسم الآخر جنوبي البو ويعرف باسم « غاليا قيس بادانا » (Gallia Cispadana = غاليا هذه الناحية من البو) ويمتد من الضفة الجنوبية للبو حتى خط وهمي كان يجري من نهر أرنوس (Arnus) في الغرب الى نهر آيسيس (Aesis) في الشرق ثم أرجع شمالاً الى نهر روبيقون (Rubicon) قبل عهد صلا فيما يحتمل . واذا كان كل الأهالي الوطنيين في القسم الشمالي (غاليا فيما وراء البو) وجانب كبير من الأهالي في القسم الجنوبي (غاليا هذه الناحية من البو) ينحدرون من أصل قلتي ، فإنه منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد كان الرومان قد أنشأوا في القسم الشمالي مستعمرتين لاتينيتين (قرمونا وأكويليا) وفي القسم الجنوبي مستعمرتين لاتينيتين أخريين (بلاقنتيا وبونونيا) ومستعمرتين رومانيتين عسكريتين (بارما وموتينا) فضلاً عن عدد كبير من المستعمرات المدنية الصغيرة (fora) . وعلى حين أن الأهالي الوطنيين في القسم الشمالي كانوا عبارة عن مجتمعات قبلية لا يعنيها عندئذ في كثير أو قليل الحصول على الحقوق الرومانية ، كان الأهالي الوطنيون في القسم الجنوبي قد تحولوا الى مجتمعات شبه حضرية حتى أنه لم يكن هناك فارق يذكر — اذا كان هناك فارق على الإطلاق — بين الأوضاع في القسم الجنوبي وفي أومبريا وشمال أتروريا . ومن ثم فإنه عندما تكون الاتحاد الإيطالي انضمت إليه تباعاً أغلب المدن الوطنية في هذا القسم .

ويرى أحد الباحثين أن القانون الجديد ، أي « قانون بومبي » ، أكد ما قضى به « قانون يوليوس » من منح حقوق المواطنة لكل المستعمرات اللاتينية شمالي البو وجنوبيه وأعطى الحقوق اللاتينية للمجتمعات الوطنية شمالي

البو[١٢٦] . ويرى اثنان من الباحثين أن « قانون بومبي » منح حقوق المواطنة الرومانية لكل المستعمرات اللاتينية في غاليا هذه الناحية من الألب (غاليا قيس ألبينا) بقسميها الشمالي والجنوبي والحقوق اللاتينية (Ius Latii) للبلدان الوطنية (oppida) في هذين القسمين[١٢٧] . وهذا الرأي حدا بأحد الباحثين[١٢٨] الى المناداة بالعودة الى رأي قديم[١٢٩] فحواه أنه بمقتضى هذا القانون وليس بمقتضى تنظيمات صلا الإدارية في عام ٨١ ق . م . أصبحت « غاليا قيس ألبينا » بقسميها شمالي البو وجنوبيه الولاية الرومانية العاشرة وأصبح يتولى حكمها بروقنصل أو بروبرايتور بدلاً من النظام الذي كان متبعاً منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ويضع زمام هذه المنطقة في قبضة القنصلين المضطلعين بالحكم في روما .

ويضعف القول بأن « قانون بومبي » اكتفى بمنح حقوق المواطنة الرومانية للمستعمرات اللاتينية كافة والحقوق اللاتينية للمجتمعات أو البلدان الوطنية شمالي البو فقط أو شمالي البو وجنوبيه اعتباران : وأحدهما هو أنه لما كان هدف الرومان هو إضعاف الثورة وإبعاد أكبر عدد ممكن من المجتمعات عن صفوف الثوار ، فإن الاكتفاء بمنح الحقوق اللاتينية للبلدان الوطنية في القسمين الشمالي والجنوبي لم يكن وحده كفيلاً بتحقيق هذا الهدف . والاعتبار الثاني هو أنه لما كان « قانون يوليوس » كفيلاً بمنح حقوق المواطنة الرومانية للمستعمرات اللاتينية حيثما كانت ، فإنه لم يكن هناك داع لأن يؤكد القانون الجديد هذه المنحة للمستعمرات اللاتينية في « غاليا قيس ألبينا » ، أي في غاليا هذه الناحية من الألب بشطريها . وأما القول بأن « قانون بومبي » حول هذه المنطقة الى ولاية رومانية فإنه يثير الشك في صحته عدم وجود أية إشارة في

(126) C.A.H.. IX, pp. 195-6.

(127) G.E.F. Chilver, Cisalpine Gaul, 1941, p. 8; T. Frank, Hist. of Rome, 1966, p. 231.

(128) U. Erwins, Pap., Br. School Rome, 1955, pp. 73 ff.

(129) E.G. Hardy, J.R.S., 1916, pp. 66 ff.

مصادرنا الى أي حاكم خاص بهذه الولاية قبل عام ٧٥ ق . م .[١٣٠] مما يعطي سنداً للرأي القائل بأن صلا هو الذي أنشأ الولاية الرومانية العاشرة ، أي ولاية غاليا قيس ألبينا [١٣١] .

وفي ضوء معلوماتنا الحالية لعل أن أدنى الآراء الى القبول هو الرأي القائل بأن « قانون بومبي » قضى بمنح حقوق المواطنة الرومانية لكل الأهالي الوطنيين في القسم الجنوبي من « غاليا قيس ألبينا » وإعطاء الحقوق اللاتينية لكل الأهالي الوطنيين في القسم الشمالي[١٣٢] (غاليا فيما وراء البو)، وهم الذين كان لا يعنيهم إطلاقاً عندئذ الحصول على الحقوق الرومانية[١٣٣] كما سلف القول . وأمـــا المستعمرات اللاتينية في قسمي غاليا قيس البينا فإنها بعد صدور « قانون يوليوس » لم تكن في حاجة الى تشريع جديد يمنحها أو يؤكد منحها الحقوق الرومـــانية .

ولما كانت الظروف هي التي أرغمت الرومان على أن يمنحوا الإيطاليين حقوق المواطنة فإنهم لم يكونوا مخلصين في إعطاء هذه المنحة التي اغتصبت منهم قسراً . ذلك أن القرائن لا تدع مجالاً للشك في أن الرومان عمدوا عندئذ الى قصر تسجيل المواطنين الجدد على عدد محدود من القبائل الرومانية . وهنا تواجهنا مشكلة تثير جدلاً عنيفاً بين الباحثين . ذلك أنه وفقاً لرواية أبيانوس[١٣٤] لم يسجل المواطنون الجدد في القبائل الرومانية الخمس والثلاثين القديمة لكيلا يطغوا بعددهم على المواطنين القدامى في هذه القبائل وإنما أُنشئت عشر قبائل جديدة للمواطنين الجدد على ألا تعلن هذه القبائل آراءها إلا في مؤخرة القبائل

---

(130) Sallust., Hist., II, 98 (75 B.C.); Plut., Lucullus, V, 1 (74 B.C.).

(١٣١) يشك بعض الباحثين في أنه حتى بعد ٨١ ق.م كانت غاليا قيس ألبينا بانتظام إحدى الولايات الرومانية . أنظر

E. Badian, Historia, 1962, p. 232.

(132) Heitland, II, p. 446; Cf. Scullard, p. 70 and n. 16, p. 409.

(١٣٣) عن وضع الأهالي الوطنيين شمالي البو (Transpadni) ، أنظر :

L. R. Taylor, The Voting Districts of The Roman Republic, 1960, Ch.V.

(134) App., B.C., I, 49.

القديمة . ونجد إشارة غامضة الى قبيلتين جديدتين في إحدى الشذرات (١٣٥) التي تبقت من كتاب مؤرخ معاصر يدعى سيسنّا (Sisenna) . ويحدثنا فلّيوس (١٣٦) بأن المواطنين الجدد وزعوا على ثماني قبائل لكي لا يطغوا بعددهم ونفوذهم على المواطنين القدامى فيصبح أصحاب الفضل أقل شأناً من المتفضل عليهم ، وبأن قينّا (Cinna) – في عام ٨٧ ق . م . – رأى من البراعة السياسية أن يوزعهم بين القبائل جميعها . واذا كانت رواية فلّيوس تؤكد رواية أبيانوس من حيث سبب قصر تسجيل المواطنين الجدد على عدد محدود من القبائل فإنه لا يمكن الجزم من رواية فلّيوس اذا كانت هذه القبائل قبائل جديدة أم قديمة . غير أن الاحتمال الأخير جائز جداً .

وقد أفاض الباحثون في مناقشة هذه المشكلة (١٣٧) ، ولعل أن يكون الرأي الأدنى الى القبول هو أنه كان قد تقرر فعلاً إنشاء عشر قبائل جديدة ، وفقاً لرواية أبيانوس ، وأنه من أجل إنشاء هذه القبائل انتُخب في عام ٩٠ ق . م . قنسوران جديدان (١٣٨) (وكان أحد هذين القنسورين يوليوس قيصر صاحب قانون منح حقوق المواطنة) وإلا لما كان هناك مبرر لانتخاب قنسورين في عام ٩٠ ق . م . بعد أن كان هناك قنسوران في عام ٩٢ ، أي قبل انقضاء فترة السنوات الخمس التي جرى العرف على انقضائها بين انتخاب وآخر لهذا النوع من الحكام الرومان . وإذا أضفنا الى ذلك ما يحدثنا به شيشرون (١٣٩) عن عجز القنسورين عن أداء عملهما بسبب غضب المواطنين الجدد ، وإشارة سيسنّا الغامضة الى قبيلتين جديدتين ، لا يبعد أنه إزاء غضب المواطنين الجدد بسبب تسجيلهم في قبائل جديدة لم يفلح القنسوران إلا في إنشاء قبيلتين

---

(135) Sisenna, fr 17 P.
(136) Velleius, II, 20.
(137) Heitland, II, pp. 446-50, C. A. H., IX, p. 196; L. R. Taylor, Voting Districts, Ch. 8; F.B. Marsh, Hist. Roman World, 3rd ed., 1963, App. 4, pp. 381-4, Scullard, 1970, p. 70 and n. 18 p. 409.
(138) Cic., pro Archia, 5, 11; Plin, N. H. XIII, 3, 24; Festus, 366 L.
(139) Cic., pro Archia, 5, 11.

جديدتين فقط وعندئذ احتالا على الأزمة التي واجهتهما بتسجيل باقي المواطنين الجدد — أي أغلبهم — في ثماني قبائل قديمة وبأن قضيا بأن هذه القبائل وكذلك القبيلتين الجديدتين لا تعلن آراءها إلا بعد باقي القبائل القديمة . وهنا يجب ألا يفوتنا ما سبق التنويه به من أنه لم يكن لكل قبيلة إلا صوت واحد يمثل رأي غالبيتها ويعتبر الرأي المعبر عنها ، ومن أنه اذا كانت القبائل جميعاً تدلي بأصواتها في وقت واحد لتبين الرأي المعبر عن كل منها ، فإن كل قبيلة كانت لا تعلن رأيها إلا وفقاً لترتيب تقرره القرعة في كل مناسبة . وسنرى بعد قليل أنه في عام ٨٨ ق . م . إستصدر تريبون العامة سولبيقيوس روفوس (Sulpicius Rufus) تشريعاً ألغى مبدأ قصر تسجيل المواطنين الجدد على عدد محدود من القبائل بأن قضى بتسجيلهم في القبائل الخمس والثلاثين القديمة جميعاً ، مما كان من شأنه إلغاء القبيلتين الجديدتين . ومن الجائز أنه بعد ذلك بفترة قصيرة عندما استولى صلا بقوة السلاح على روما ولم يعد في وسع أحد إذ ذاك معارضته وألغى تشريعات سولبيقيوس ووضع دستوراً مؤقتاً أدمج المواطنين الجدد في ثماني قبائل من القبائل القديمة ، وهو عدد القبائل الذي يحدثنا فليوس بأن المواطنين الجدد سجلوا فيه . وعلى هذا النحو يمكن تفسير ما يبدو في مصادرنا من تناقض وكذلك تفسير الأحداث التـــالية .

ويمكن فهم السبب الذي أغضب المواطنين الجدد من قصر تسجيلهم على عدد محدود من القبائل ، سواء أسجلوا في عشر قبائل جديدة أم في قبيلتين جديدتين وأدمج أغلبهم في ثماني قبائل قديمة —حيث طغت أصواتهم على أصوات المواطنين القدامى في هذه القبائل — فأصبح تبعاً لذلك عدد القبائل الرومانية إما ٤٥ (٣٥+ ١٠) وإما ٣٧ (٢٧ قديمة خالصة + ٨ خليطة + ٢ جديدتين . ذلك أنه وفقاً لمبدأ قصر تسجيل المواطنين الجدد على عدد محدود من القبائل لم يكن في وسعهم أن يؤثروا تأثيراً يذكر في نتيجة أي تشريع أو انتخاب لأنه لم يكن لهم في أية حالة من هاتين الحالتين إلا عشرة أصوات من

٤٥ أو من ٣٧ . بل إذا صحت رواية أبيانوس بأن القبائل التي سجل فيها المواطنون الجدد كانت لا تعلن آراءها إلا بعد باقي القبائل الأخرى فإنه على الأرجح قلما كانت تسنح لقبائل المواطنين الجدد الإعلان عن رأيها كلية ، وذلك لأن عملية أخذ رأي القبائل كانت تتوقف بمجرد تكوّن أغلبية مطلقة أي ٢٣ من ٤٥ أو ١٩ من ٣٧ أو ١٨ من ٣٥ .

ومهما يكن من أمر نظام التسجيل الذي اتبع في عام ٨٩ ق . م . فإنه لم يكن مقدراً له أن يدوم ، ولم يكن من شأنه أن يحقق كل ما كان الرومان ينشدونه من وراء منح حقوق المواطنة للحلفاء أو أن يساعد على دعم سيطرة السناتو ، فقد ترتب على قصر تسجيل المواطنين على عدد محدود من القبائل دفع بعض الحلفاء على الاستمرار في الحرب ، وإعطاء الزعماء الشعبيين ورقة رابحة يلعبون بها في الصراع المقبل .

وما دمنا في معرض الحديث عن التشريعات التي صدرت في أواخر عام ٩٠ وأوائل عام ٨٩ ق . م . يجمل بنا أن نتناول الكلام عن تشريع آخر صدر في عام ٨٩ قبل أن نستأنف الحديث عن الحرب في مرحلتها الثانية . ذلك أن تريبون العامة ماركوس بلاوتيوس سيلفانوس – أحد التريبونيين اللذين استصدرا القانون (Lex Plautia Papiria) المكمل لقانون يوليوس – إستصدر قانوناً قضائياً[١٤٠] (Lex Plautia iudicaria) وضع مبدأ جديداً في اختيار المحلفين ، فقد قضى هذا القانون بأن تنتخب كل قبيلة خمسة عشر رجلاً من رجالها دون أي اعتبار لصفته أو ثروته أو طبقته ، وبأن يُختار المحلفون ممن انتخبتهم القبائل جميعاً . ولم تلبث المحكمة التي شكلت بمقتضى أحكام هذا القانون أن أدانت كوينتوس فاريوس هوبريدا[١٤١] ، وفيما يبدو أيضاً بعض أنصاره ، وتقرر نفيهم جميعاً . ومن سخرية الأقدار أن

(140) Ascon., in Cornel., 79 C; Cic., pro Cornel. ap. Ascon., 79 C.
(141) Cic, Brutus, 85, 305; de Nat. Deor., III, 33, 81; Val. Max., VIII, 6, 4.

ڤاريوس وصحبه أُدينوا ونُفوا طبقاً لأحكام القانون الذي كان ڤاريوس نفسه قد استصدره منذ عام واحد تقريباً .

٣ ـ المرحلة الثانية في الحرب :

ويستوقف النظر بادىء ذي بدء أننا لا نسمع شيئاً عن ماريوس بعد العام الأول للحرب . وأغلب الظن أن مرد ذلك لم يكن الى تقدم سنه وضعف صحته وقلة كفايته العسكرية على نحو ما يروي بلوتارخ(١٤٢) ، ولا الى عدم رغبة الحكومة الرومانية في استبقائه في الميدان على نحو ما يرى بعض الباحثين(١٤٣) ، وإنما الى إدراك ماريوس نفسه أنه بعد صدور التشريعات الرومانية التي فتحت أبواب الحصول على حقوق المواطنة الرومانية على مصاريعها أمام الحلفاء أصبحت قضيتهم ميئوساً منها ، وأنـــه لم يكن من الحكمة السياسية التورط الى أبعد مما تورط فيه ضد الحلفاء وإلا تعذر عليه استغلال المواطنين الجدد مستقبلاً في تحقيق أطماعه ، وهو ما توحي به الأحداث المقبلة على نحو ما سنرى .

وسواء أكانت التشريعات الخاصة بمنـــح حقوق المواطنة للحلفاء قد صدرت كلها أم بعضها قبل بداية حملات عام ٨٩ ق . م . فإنه كانت لهذه التشريعات آثار بعيدة المدى في مجرى الصراع على نحو ما سيتضح بعد قليل . وفي هذا العام تولى القنصلان الجديدان جنايوس بومبي إسترابون ولوقيوس بورقيوس قاتو قيادة القوات الرومانية الشمالية ولكنهما اقتسماها فتوجه أولهما الى جبهة البيقني وثانيهما الى جبهة المارسي ، حيث لقي مصرعه في معركة عند بحيرة فوقينوس (Fucinus) . وعندئذ أصبحت القوات الرومانية الشمالية جميعاً خاضعة لقيادة إسترابون ، غير أنه ترك أمر جبهة المارسي لمساعديه مورنا (Murena) ومتلّوس بيوس (Pius ، ابن نوميديقوس) وسرفيوس سولبيقيوس .

---

(142) Plut., Marius, XXXIII.
(143) C.A.H., IX, pp. 196-7.

وفي جبهة البيقني تركز الصراع حول مصير أسقولوم التي شدد الرومان الحصار عليها . وعندما تمكنت قوة كبيرة من السمنين والمارسي أن تشق طريقها الى الشمال لإنقاذ المدينة المحاصرة وشد أزر الثورة التي كانت بدأت تتفشى في أومبريا وأترووريا نشبت معركة كبيرة بين الفريقين أحرز فيهـــا إسترابون نصراً حاسماً على جيش إيطالي يتألف من ٦٠,٠٠٠ مقاتل ، (١٤٤) فقد أنزل بهذا الجيش خسائر جسيمة وقضى البرد والجوع على عدد آخر ممن نجوا من المعركة . وكانت لهذا النصر نتائج بالغة الأهمية ، ذلك أنه من ناحية اضطرت أسقولوم الى التسليم يوم ١٧ من نوفمبر أو قبيل ذلك اليوم(١٤٥) ونكل الرومان بأهليها تنكيلاً . ومن ناحية أخرى يبدو أن هذا العام لم يشارف على نهايته حتى كان مورنا وبيوس قد أرغما المارسي على التسليم وكان سولبيقيوس قد أخضع الفستيني والماروقاني .

ولا أدل على انهيار الثورة في الشمال نتيجة لهذه الكوارث ومنح حقوق المواطنة الرومانية من نقل عاصمة الدولة المتحدة من قورفينيوم (إيطاليا) الى آيسرنيا(١٤٦) وفرار بومبايديوس سيلو الى سامنيوم في الجنوب . وفي ٢٥ من ديسمبر عام ٨٩ ق . م . احتفل إسترابون بالنصر الذي أحرزه على « البيقني وأسقولوم » ، (١٤٧) ولكنه لم يلبث أن عاد الى ميدان القتال في العام التالي بوصف كونه بروقنصلاً ليقضي على فلول العصابات الثائرة التي رفضت الاستسلام .

وأما في الجنوب فإن صلا كان يتولى قيادة القوات الرومانية في قمبانيا ، حيث حاصر المدن الساحلية التي وقعت في العام الماضي في قبضة السمنيين .

---

(144) Velleius, II, 21, 1; Liv., Ep., 74; Dio Cass., fr. 100; App., B.C., I. 48; 50.

(١٤٥) راجع I. L. S. 8888 ، علماً بأن جلتزر على صواب في تأريخ هذا النقش بعام ٨٩ ق.م. انظر . M. Gelzer, Roemische Studien, II, p. 68.

(146) Diod., XXXVII, 2, 9.

(147) Fasti triumph., Gn. Pompeius Sex. Strabo consul de Asculaneis Picentibus.

وفي أثناء محاصرة مدينة بومبيي (Pompeii) وقعت فتنة بين رجال أسطول روماني كان يشارك في حصار هذه المدينة وقتل المتمردون البينوس(١٤٨) (Albinus) قائد الأسطول . ولم يتخذ صلا أي إجراء تأديبي مع المتمردين مكتفياً بأن يطلب إليهم أن يكفّروا عن جريمتهم بالاستبسال في القتال. ولعل أن هذا التسامح مرده الى دقة الموقف العسكري عندئذ لأن جيشاً كبيراً من الإيطاليين وبعض الجنود الغال الهاربين من القوات الرومانية كان يتقدم لمساعدة المدينة المحاصرة . وبفضل المناورات البارعة والقيادة الحكيمة تمكن صلا من تبديد شمل هذا الجيش ففرت فلوله الى نولا (Nola) ، ولكن مدينة بومبيي ظلت تقاوم حتّى استولى صلا على ستابياي (Stabiae) وأخضعت قوة رومانية أخرى مدينة هرقولانيوم (Herculaneum) . ويبدو أنه عندما لم تبق إلا نولا في قبضة الإيطاليين زحف صلا شرقاً ، وبعد أن استولى على مدينتين (آيقلانوم ، Aeclanum وقومبسا ، Compsa) من مدن الهيربيني سلك طريقاً غير مألوف الى وسط سامنيوم حيث أخذ القائد السمني موتيلوس على غرة واضطره الى الانسحاب الى آيسرنيا مما أتاح لصلا أن يستولي دون عناء كثير على بوفيانوم فتوس (Bovianum Vetus) . وكانت إحدى مدن السمنيين وقاعدة كبيرة من قواعد الإيطاليين .

وبعد هذا النجاح الكبير الذي أحرزه صلا واطمئنانه الى انه لم يعد هناك خطر على روما ترك جيشاً يحاصر نولا وذهب الى روما حيث انتخب قنصلاً للعام التالي (عام ٨٨ ق . م .) وأُسندت اليه القيادة في آسيا لمواجهة الخطر الجديد الذي ظهر هناك بظهور أطماع ميثريداتس التوسعية (١٤٩) .

وأما في آبوليا فإن أحد القواد الرومان المساعدين — جايوس قوسقونيوس ، Cosconius — هزم جيشاً من السمنيين قرب قاناي (Cannae) واسترد

(148) Plut., Sulla, VI, 9; Oros., V, 18, 22; Liv. Ep., 75; App., B.C., I, 50, 3; Val. Max., IX, 8, 3; Velleius, II, 16, 2.

(149) Liv., Ep., 75; Plut., Sulla, VI, 9; App., B C., I, 51-52.

أغلب ما كان الرومان قد فقدوه في العام السابق . وفي آخر عام ٨٩ ق . م . تولى القيادة في هـــذا الميدان متلّوس بيوس بعد النصر الذي أحرزه على المارسي . وفي لوقانيا كذلك استردت القوات الرومانية عدة مدن .

وهكذا بانتهاء عام ٨٩ ق . م . كان الاتحاد الإيطالي قد تفككت أواصره بفضل الانتصارات العسكرية التي أحرزها الرومان في خلال هذا العام وكذلك بفضل التشريعات التي أملتها عليهم هذه الأزمة الخطيرة . فقد ألقى السلاح كثيرون من الإيطاليين ليفيدوا من هذه التشريعات ويتمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية . ومع ذلك فإن نولا وبعض معاقل الثوار في لوقانيا استمرت في عنادها شأنها في ذلك شأن السمنيين (١٥٠) ، أعداء روما الألداء منذ قديم الأزل .

وقد كان السمنيون أشد هؤلاء جميعاً بأساً وحفزهم زعيمهم سيلو على متابعة القتال لإرغام روما على أن ترد اليهم استقلالهم الذي حرمتهم إياه منذ حوالي قرنين . ومن سخرية القدر أنهم اتخذوا قاعدة لهم قلعة آيسرنيا المنيعة وهي التي كانت في الماضي أكبر قيد على حريتهم . وقد حشد السمنيون جيشاً قوامه ٣٠.٠٠٠ راجل و ١٠٠٠ خيال وتكللت جهودهم سريعاً بالنجاح فقد تمكنوا في عام ٨٨ ق . م . من استرداد بوفيانوم فتوس ، ولكن أحوالهم لم تلبث أن تبدلت عندما هزم سيلو وقتل في خلال ذلك العام نفسه في معركة كبيرة أعقبها استيلاء الرومان على فنوسيا بعد بقائها أكثر من عامين في قبضة الثوار . ولا أدل على عناد السمنيين من الخطوة اليائسة التي اتخذوها عندئذ وهي أنهم أنفذوا مبعوثيهم الى ميثريداتس السادس للتوسل اليه أن يغزو إيطاليا إنقاذاً لهم (١٥١) . ومرد هذه الخطوة اليائسة الفاشلة الى أنه بعد مقتل سيلو

---

(150) E. Badian, Foreign Clientelae, p. 228, n 3.
(151) Diod., XXXVII, 2, 11.

إن بعض قطع العملة التي سكتها دولة الاتحاد الإيطالي توحي بوجود اتصالات بين ميثريداتس والثوار ، انظر :

E.A. Sydenham, The Coinage of The Roman Republic, nn. 632, 643 ; Scullard, 1970, n. 29 p. 412.

والنكبات المتتالية لم يعد السمنيون قوة يُخشى بأسها وإن استطاعوا الاحتفاظ بآيسرنيا . ولما كان قد قضى على معاقل الثوار في آبوليا ، فإنه لم يبقَ معادياً لروما الا آيسرنيا ونولا وبعض عصابات الثوار في أماكن متفرقة قُضي عليها بالتدريج . وهكذا أُسدلت الستار على حرب الحلفاء الإيطاليين . ولم يكن نصيب السمنيين وغيرهم ممن رفضوا الإفادة من التشريعات الرومانية التي صدرت في عامي ٩٠ و ٨٩ ق . م . واستمروا في القتال الى أن أرغموا على إلقاء السلاح إلا أن يعاملوا معاملة الأعداء الذين أُقهروا على الاستسلام (dediticii) وكان من حق الرومان أن يقرروا مصيرهم حين يرون وكيف يشاءون . وتبعاً لذلك اذا كانوا لم يمنحوا عندئذ حقوق المواطنة الرومانية فإنه كان مقدراً ألا يدوم انتظارهم طويلاً .

٤ ــ نتائج الحرب :

يتفق الباحثون على أنه كان يتعذر على روما أن تخرج مظفرة من هذه الحرب بهذه السرعة اذا لم تكن قد سلمت بما رفضته من قبل وأوغل صدور حلفائها الإيطاليين حقداً عليها وكراهية لها ودفعهم الى تحديها على نحو ما رأينا .

وقد ترتب على منح حقوق المواطنة الرومانية للحلفاء الإيطاليين زوال ذلك العهد الذي كانت فيه إيطاليا عبارة عن مجموعة من المقاطعات الخاضعة لروما ، وبداية عهد جديد أصبحت فيه الجمهورية الرومانية تنتظم كل إيطاليا تقريباً . وعلى حد قول شيشرون[١٥٢] أصبح لكل مجتمع تقريباً من المجتمعات الإيطالية وطنان : أحدهما وطن طبيعي ، أي وطنه الإيطالي ، والآخر وطن سياسي ، أي الجمهورية الرومانية التي أصبحت وطناً مشتركاً (Communis Patria) لكل سكان إيطاليا تقريباً . بيد أنه يجب ألا يفوتنا أن نشير الى أن عدداً من المدن الإغريقية في جنوب إيطاليا مثل هرقليا ونيابوليس وغيرهما فضلت أن تبقى حليفات حرة . هذا الى أن المجتمعات الوطنية شمالي البو لم

---

(152) Cic., de Leg., II, 2, 5.

تمنح إلا الحقوق اللاتينية . وفضلاً عن ذلك فإن « المستسلمين » (dediticii) تُركوا دون تحديد مركزهم القانوني ، وبذلك أصبحوا أداة مفيدة في الصراع الداخلي المقبل . ولم يكن لصقلية نصيب مما حصل عليه الإيطاليون لأنها لم تشترك في ثورتهم .

واذا كان عدد كبير من الحلفاء قد اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية ، فإنه تكاتفت على الانتقاص من الأهمية السياسية لهؤلاء المواطنين الجدد عدة عوامل كان أهمها عاملان : وأحدهما ، هو تسجيل هؤلاء المواطنين في عدد محدود من القبائل الرومانية على نحو ما عرفنا . والعامل الآخر ، هو أن مواطن استقرار أغلب هؤلاء المواطنين كانت بعيدة عن روما مما كان لا يتيح لهم أن يؤموا بانتظام اجتماعات جمعية القبائل أو جمعية المئينات ، وتبعاً لذلك كانوا بعيدين عن مجريات الأحداث في روما . وقد كان من جراء ذلك كله أن المنازعات الحزبية القديمة استمرت على نحو ما كانت عليه من قبل، وأن مواطني الأقاليم البعيدة لم يلعبوا أي دور يذكر في الصراع الذي أدى الى القضاء على النظام الجمهوري الروماني إلا بوصف كونهم مقاتلين في فرق الطامعين في الاستيلاء على السلطة .

وقد كانت لهذه الحرب نتائج اقتصادية ملموسة بسبب ما تكلفته الحرب من نفقات باهظة وأفضت اليه من تخريب جهات كثيرة في إيطاليا ومن شلل الحياة الإقتصادية ، مما أدى الى أزمة مالية حادة . وخير دليل على هذه الأزمة أنه إزاء سوء حال الكثيرين واضطرارهم الى الاستدانة وعجزهم عن الوفاء بديونهم وملاحقة الدائنين لهم برفع القضايا عليهم ، هب البرايتور سمبرونيوس أسلّيو (Asellio) في عام ٨٩ الى نصرة المدينين بإحياء قانون قديم كان يحرم دفع أرباح عن القروض ، وبتطبيق هذا القانون مما أهاج الدائنين ودفعهم الى قتل أسليو في وضح النهار وهو يرتدي ملابسه الرسمية ويقوم بتقديم القرابين للإلهين التوأمين قاستور وبولكوس [١٥٣] . ولا أدل على مدى

(153) Liv., Ep., 74 ; App., B.C., I, 54; Val. Max., IX, 7, 4; Heitland, II. p. 450; Scullard, 1970, n. 19 p. 409.

انهيار الأمن والنظام في روما من أن أحداً لم يُعاقب على هذه الجريمة .

واذا كان الزمن كفيلاً بإصلاح الخراب المادي ، فإن الخسارة في الأرواح وفي الأخلاق كانت لا تعوض ، فقد أفنت الحرب نحواً من ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل في زهرة الشباب . وخير دليل على انهيار الأخلاق حادث مقتل البرايتور أسليو وكثرة المناسبات التي نشبت فيها حركات التمرد والعصيان بين صفوف القوات الرومانية في أثناء هذه الحرب . وربما كان أسوأ مثل لذلك هو ما حدث بين رجال الأسطول الذي كان يساعد صلا في حصار بومبيي على نحو ما مر بنا .

ولعل أن أخطر ما تمخضت عنه هذه الحرب كان أمرين : وأحدهما ، هو ظهور جيل جديد من القادة العسكريين الأكفاء الذين كانوا ينتمون الى مختلف الأحزاب السياسية في روما ، وكان لكل من هؤلاء القواد أتباع لهم أطماع وإن لم تكن لديهم أخلاق . والأمر الآخر ، هو أنه قد كان من بين الإيطاليين الذين ألقوا السلاح آلاف ممن تعذرت عليهم العودة الى ممارسة طرق معيشتهم السلمية بسبب سوء الحالة الاقتصادية وتخريب مساحات واسعة من الأراضي ، فأصبح كل ما يتطلعون اليه هو أن تعطى لهم الفرصة ليثبتوا ولاءهم لأعدائهم السابقين ويتكسبوا قوتهم في خدمة قائد أو آخر .

وقد كان أبرز هؤلاء القواد النبيل لوقيوس قورنليوس صلا الذي مر بنا نه أحرز انتصارات باهرة في هذه الحرب وكوفىء عليها بانتخابه قنصلاً لعام ٨٨ ق . م . ولد صلا في عام ١٣٨ ق . م . وكان سليل إحدى أسر البطارقة (patricii) العريقة ، ولكن الزمن أخنى عليها فكانت منذ وقت طويل فقيرة مغمورة . وقد بدأ نجم صلا يلمع عندما كان كوايستوراً تحت إمرة ماريوس في حرب يوجورتا ونجح في كسب صداقة بوكوس مما أفضى الى القبض على يوجورتا وكذلك الى كراهية ماريوس له ، وهي الكراهية التي يبدو أنها اشتدت في أثناء محاربة التيوتون مما حدا بصلا الى عدم الاستمرار في الخدمة العسكرية تحت قيادة ماريوس في أثناء مقاتلة القيمبري مؤثراً العمل

تحت قيادة القنصل الأرستقراطي قاتولوس . وأما زميل صلا في قنصلية عام ٨٨ ق . م . وهو كوينتوس بومبي روفوس فإن أبرز ما يعرف عنه هو أنه حين كان تريبوناً للعامة في عام ٩٩ ق . م . إستصدر القانون الذي صحح وضع متلّوس نوميديقوس وأعاده من منفاه .

سادساً — تريبونية بوبليوس سولبيقيوس روفوس

كان قنصلاً عام ٨٨ ق . م . — صلا وبومبي روفوس — من الأخيار (Optimates) ولم يوليا أية عناية لمواجهة الأوضاع الجديدة التي أعقبت الحرب الأهلية . فقد كان أهم ما يعني به صلا عندئذ هو القضاء على البقية الباقية من الثوار ليبادر بالذهاب الى آسيا لكي يتولى القيادة ضد ميثريداتس . ولم يكن لدى القنصل الآخر من المواهب أو المقدرة أو سعة الأفق ما يمكنه من اتباع سياسة كفيلة بمعالجة مشاكل السلم بعد أن أصبحت الجمهورية الرومانية تضم كل إيطالياً تقريباً .

وتبعاً لذلك خلا الجو لتريبون العامة بوبليوس سولبيقيوس روفوس وكان خطيباً مفوهاً لم ينافسه في هذا المجال من معاصريه إلا اجايوس أورليوس قوتّا (Aurelius Cotta) ، وكان كلاهما ينتميان الى الفئة المعتدلة من النبلاء المتسمة بآرائها المتحررة ، وهي الفئة التي كانت تساند دروسوس الصغير . ويبدو أن سولبيقيوس بدأ تريبونيته على ود ووئام مع السناتو ولكنه لم يلبث أن أثار على نفسه أغلب أعضاء هذا المجلس وبخاصة أكثرهم رجعية فسخطوا عليه سخطاً شديداً تتجاوب أصداؤه في روايات ديودوروس وبلوتارخ وأبيانوس . ولولا ما يحدثنا به شيشرون [١٥٤] وصاحب رسالة قديمة [١٥٥] عن سولبيقيوس لسجل التاريخ عنه أنه كان رجلاً ثورياً لا يقدر المسئولية .

---

(154) Cic., de Orat., I, 7, 25; III, 3, 11; de Har. Resp., 19, 41; 20, 43; Brutus, 55, 203; 63, 226; de Amic., I, 2.

(155) ad Herennium, II, 28 45.

ويمكن تقسيم أعمال سولبيقيوس قسمين : أحدهما سلبي والآخر إيجابي . وأما عن أعماله السلبية فإننا نعرف منها اثنين كان أحدهما فيما يلوح في مستهل تريبونيته أي في شهر ديسمبر عام ٨٩ ق . م . عندما أثلج صدور الأخيار بمنع الأيديلس السابق جايوس قيصر إسترابون من ترشيح نفسه لقنصلية عام ٨٨ على أساس أنه لم يسبق له تولي وظيفة البرايتورية[١٥٦] . وقد يبدو هذا غريباً لأن سولبيقيوس لم يتول مهام تريبونيته إلا في ١٠ من ديسمبر عام ٨٩ ، ولكن القرائن توحي بأن الانتخابات لوظيفة القنصلية لعام ٨٨ تأخرت عن موعدها المعتاد بسبب ظروف الحرب ، فقد مر بنا أن أحد قنصلي عام ٨٩ وهو قاتو قتل في ميدان القتال وأن القنصل الآخر وهو إسترابون كان لا يزال منهمكاً في الاستيلاء على أسقولوم حتى حوالي يوم ١٧ من نوفمبر . وتبعاً لذلك لم يكن ميسوراً إجراء الانتخابات لقنصلية العام التالي قبل عودة إسترابون الى روما . ولم يكن من شأن تأخير الانتخابات لوظيفة القنصلية تأخير الانتخابات لوظيفة التريبونية .

وأما العمل السلبي الآخر فهو أن سولبيقيوس صادر مشروع قانون كان يهدف الى استدعاء الذين نُفوا دون محاكمة عادلة[١٥٧] . وفي رأي أحد الباحثين أن هذا المشروع كان يهدف الى استدعاء كل الذين نفتهم محكمة فاريوس وكذلك أولئك الذين نفتهم المحكمة التي شكلت بمقتضى قانون بلاوتيوس (Lex Plautia) في العام الماضي ، أي استدعاء ضحايا فاريوس وكذلك فاريوس ورفاقه[١٥٨] . وفي رأي باحث آخر أنه ربما كان المقصود هو فاريوس أو بعض رفاقه[١٥٩] . وقد يجد هذا الرأي سنداً في أنه لم يكن معقولاً أن يعارض سولبيقيوس استدعاء ضحايا فاريوس وهم الذين كانوا رفاقه في تأييد اتجاهات دروسوس الصغير الطيبة نحو الإيطاليين . ومع ذلك فإن احتمال صحة الرأي الأول أمر

---

(156) Cic., de Har. Resp., 20, 43; Brutus, 63, 226; Ascon, in Scaur., 25 C.
(157) Liv., Ep., 77; ad Herenn, II, 28, 45.
(158) C.A.H., IX, p. 202.
(159) Heitland, II, p. 452.

غير مستبعد ، أي أنه لا يبعد أن يكون صاحب المشروع قد اقترح استدعاء المنفيين جميعاً دون تحديد ليضمن الموافقة على اقتراحه، بيد أن سولبيقيوس لم يرَ عندئذ أن استدعاء ضحايا فاريوس كان يستأهل رد اعتبار رجل مثل فاريوس ومن كانوا على شاكلته .

وأما أعمال سولبيقيوس الإيجابية فهي مجموعة من القوانين تعرف باسم عشيرته أي قوانين سولبيقيوس (Leges Sulpiciae) . ويتضح من المصادر القديمة أن سولبيقيوس تقدم بأربعة مشروعات قوانين يمكن تلخيصها فيما يـلي :

١ ــ أن يُطرد من السناتو كل عضو من أعضائه تزيد ديونه على ألفي دينار [١٦٠] (Denarius) . ولا جدال في أن هذا المشروع كان يكيل للسناتو لطمة تشفي غليل الفرسان وترضيهم .

٢ ــ أن يُستدعى المنفيون ضحايا فاريوس وكذلك فاريوس ورفاقه [١٦١] . وكان هذا المشروع يرضي الفئة المعتدلة من النبلاء الذين كانوا من طراز سولبيقيوس وكذلك يرضي الفرسان .

٣ ــ أن يُحرم صلا قيادة الحرب ضد ميثريداتس وتُسند هذه القيادة الى ماريوس [١٦٢] . ولم يكن هذا المشروع اعتداء على صلا فحسب بل أيضاً على اختصاص السناتو . ولا يمكن تبرير هذا المشروع بأن متطلبات الحرب الجديدة كانت تقتضي ذلك لأن صلا قد أثبت في حرب الحلفاء جدارته العسكرية ، على حين أن ماريوس وإن كان قائداً ممتازاً إلا أنه كان يناهز عندئذ الثمانين من عمره . ومن الواضح أن هذا المشروع كان يرضي ماريوس والعامة ومحاربيه القدماء .

---

(160) Plut., Sulla, VIII.
(161) Liv., Ep., 77; App, B.C. I, 55.
162) Liv., Ep., 77; Velleius, II, 18; App., B.C., I, 56; Plut., Marius, XXXVIII; Sulla, VIII.

٤ ـ أن يُسجل المعتقون والمواطنون الجدد في القبائل الرومانية جميعاً(١٦٣) .

وقد مر بنا أنه في عام ١١٥ ق . م . قضى قانون آيميليوس سقاوروس (Lex Aemilia) بقصر تسجيل المعتقين على القبائل الأربع الحضرية فيما يحتمل . ومر بنا أيضاً أنه عندما نشبت حرب الحلفاء الإيطاليين وأراد الرومان نشر الفرقة بين الثوار الإيطاليين بمنحهم حقوق المواطنة الرومانية أولاً جماعات ثم أفراداً قصروا تسجيل المواطنين الجدد على عدد محدود من القبائل الرومانية . ولما لم يكن المعتقون بمثل كثرة الإيطاليين ، فإنه لم يكن لتوزيعهم على القبائل الرومانية كلها من الأهمية السياسية مثل ما كان لتوزيع الإيطاليين .

ويحدثنا أبيانوس(١٦٤) وبلوتارخ(١٦٥) بأن سولبيقيوس كان أداة في قبضة ماريوس ، وبأن رغبة سولبيقيوس في توزيع المواطنين الجدد لم تكن هدفاً في ذاته وانما وسيلة لكسب تأييد الناخبين في إقرار مشروعاته الأخرى وبخاصة إعطاء ماريوس قيادة الحرب ضد ميثريداتس . ولعل أن الأصح كان العكس لأن النظرة الفاحصة تكشف على الفور أمرين : وأحدهما هو أن أهم مشروعات سولبيقيوس جميعاً هو مشروع إعادة توزيع المعتقين والمواطنين الجدد على القبائل الرومانية كلها . والأمر الآخر هو أن هذا المشروع من بين مشروعات سولبيقيوس كان مشروعاً جديراً بسياسي متحرر الفكر واسع الأفق مثله . وهذا هو ما حدا ببعض الباحثين الى القول بأنه لما كان سولبيقيوس يتوقع معارضة عنيفة لهذا المشروع الرئيسي ، فإنه لكي يتمكن من التغلب على هذه المعارضة وإقرار هذا المشروع عمـل على كسب الفرسان وماريوس بالمشروعات الثلاثة الأخرى(١٦٦) .

---

(163) Liv., Ep., 77; App., B.C., I, 55; Plut., Sulla, VIII.
(164) App., B.C., I, 55.
(165) Plut., Marius, XXXV; 1; Sulla, VIII.
(166) Cf. C.A.H., IX, pp. 204-5; Scullard, 1970, p 71

بيد أنه في رأي باديان[١٦٧] (E. Badian) وفرانك[١٦٨] (T. Frank) أن ذلك لم يكن خطة سولبيقيوس منذ البداية . ويمضي باديان فيقول إن ما نعرفه عن خلق سولبيقيوس وماضيه السياسي يجعلنا نرجح أنه بادىء ذي بدء تقدم بمشروعه الخاص بإنصاف المعتقين والمواطنين الجدد لكنه سرعان ما وجد أنه لا يحظى إلا بتأييد قليل فأخذ يجمع ويسلح عصابات من الإيطاليين والمعتقين ليضمن إقرار مشروعه ، وأنه إزاء تدخل القنصلين باصدار قرار يقضي بوقف مباشرة جميع الأعمال العامة (iustitium) اضطر عندئذ الى التحالف مع ماريوس والفرسان . ولعل أن أكثر ما يعيب هذا الرأي هو أنه يصور سولبيقيوس على هيئة رجل ساذج لا يدرك دخائل السياسة الرومانية ولا يعرف مدى كراهية النبلاء والعامة سواء بسواء لأن يمضوا في سخائهم نحو الإيطاليين بحيث يسمحون لهم بأن يصبحوا قوة سياسية في الدولة الرومانية بعد ما مُنحوا حقوق المواطنة رغم أنف الرومان وهم الذين أهدروا دماء جايوس جراكوس ودروسوس الصغير بسبب رغبتهما في تحرير الإيطاليين .

ولعل أن الأرجح هو أن سولبيقيوس كان يدرك تمام الإدراك المعارضة القوية التي سيلقاها مشروعه الرئيسي فتحالف مع ماريوس والفرسان على أن يحقق لهم أغراضهم في مقابل تحقيق هدفه .

وفي ضوء ما أصبح مألوفاً في الحياة السياسية الرومانية ليس هناك ما يدعو الى الشك فيما تعزوه المصادر القديمة الى سولبيقيوس من أنه اتخذ لنفسه حرساً يتألف من ٦٠٠ من شباب الفرسان المعادين للسناتو واحتفظ بقوة مسلحة قوامها ٣٠٠٠ من المعتقين . واذا كانت المصادر القديمة تلوذ بالصمت عن التدابير التي اتخذها معارضو سولبيقيوس فانه لا يعقل أنهم أغفلوا اتخاذ ما يلزم من الوسائل الكفيلة بحماية أنفسهم . وفي مثل هذه الظروف كان طبيعياً أن يضطرب الجو وتقع مصادمات بين الفريقين . وعندما اقترب يوم أخذ الأصوات

(167) E. Badian, Foreign Clientelae, 1958, pp. 232-4.
(168) T. Frank, History of Rome, 1966, pp. 232-3.

على مشروعات قوانين سولبيقيوس ، أصدر القنصلان قراراً يقضي بوقف مباشرة جميع الأعمال العامة (iustitium) لبضعة أيام . وقد رد سولبيقيوس على ذلك بأن حشد كل أنصاره وأعلن أن قرار القنصلين باطل ، وأعقب ذلك صراع بين الفريقين قتل فيه ابن القنصل بومبي روفوس ولكن الأب تمكن من الفرار من روما . وأما صلا فإنه وُجد مختبئاً في بيت ماريوس . وسواء أكان يدين بحياته الى ماريوس أم لا ، فإنه اضطر الى إلغاء قرار تعطيل الأعمال العامة وسارع بمبارحة روما لينضم الى قواته التي كانت تعسكر عند نولا . وبخروج القنصلين من روما خلا الجو لسولبيقيوس وتمت الموافقة على جميع تشريعاته . وعندما أرسل ماريوس تريبونين عسكريين الى نولا لإحضار الجيش الموجود عند هذه المدينة كان صلا قد سبقهما الى هناك . ولم يرفض الجيش الانضمام الى ماريوس فحسب بل قتل التريبونين (١٦٩) .

سابعاً ــ جيش روماني يستولي على روما

ولم يلبث صلا أن رد على تصرفات سولبيقيوس الثورية بتصرف أكثر ثورية وأبعد أثراً في حياة روما السياسية وهو أنه زحف سريعاً بقواته على روما . ولأول مرة في تاريخ روما تخطى جيش روماني سياجها المقدس واستولى على عاصمة الدولة الرومانية ، دون أن تجدي فتيلاً اعتراضات ضباطه أو محاولات برايتورين منعه من ذلك . وهكذا وضع صلا سابقة خطيرة اقتفى أثرها غيره ، وهكذا أيضاً أصبح السيف هو الذي يفصل في المنازعات الأهلية ، وأصبحت الكلمة العليا للقائد الذي يتمتع بثقة العدد الأكبر من أولئك الجنود المحترفين وهم الذين لم يعد ولاؤهم للدولة وانما لقائدهم . ولما كان يساند صلا جيش مؤلف من ست فرق ولم يكن لدى الحكومة ولا ماريوس ولا سولبيقيوس فرصة لحشد قوة على وجه السرعة بحيث يمكن وقف زحف

(169) Plut., Marius, XXXV; Sulla, VIII-IX; App., B.C, I, 56-57.

صلا ، فإنه وزميله بومبي روفوس — وكان قد انضم اليه — دخلا روما دون مقاومة تقريباً . وقد تبع ذلك قتال في الشوارع لبضع ساعات قليلة أقدم ماريوس في خلالها على عمل طائش وهو أنه وعد العبيد بتحريرهم اذا حملوا السلاح وحاربوا معه ، ولكن دعوته لم تلق آذاناً صاغية . وقبل أن ينقضي اليوم كان ماريوس وسولبيقيوس قد فرا هاربين تاركين صلا سيد روما دون منازع [١٧٠] . ومن سخرية القدر أن صلا انتزع هذا النصر من ماريوس بفضل الأداة التي صاغها وأحسن صنعها ماريوس نفسه ، ونعني الجيش المكون من متطوعين محترفين ولاؤهم لقائدهم وليس للدولة .

وبوجود الجيش في روما تحت إمرة قائده صلا ، لم يجد هذا القائد أية مشقة في تنفيذ مشيئته . ويبدو أن صلا بدأ نشاطه في روما عندئذ بأن استصدر قراراً — من السناتو على الأرجح — باعتبار ماريوس وابنه وسولبيقيوس (وكان لا يزال رسمياً أحد ترابنة العامة) وعدداً من أبرز أنصار الزعيمين الكبيرين « أعداء » للدولة (hostes) [١٧١] ، أي تجريدهم من حقوق المواطنة واستباحة دمائهم ومصادرة أملاكهم . وكان هذا إجراء شديداً وسابقة أخرى خطيرة لأن مصير هؤلاء المواطنين تقرر دون محاكمة . وكانت الخطوة الثانية التي خطاها صلا هي إلغاء قوانين سولبيقيوس على أساس أنها استصدرت بالقوة (per vim) [١٧٢] . وإذا كان سولبيقيوس قد لقي مصرعه سريعاً فإن ماريوس تمكن بعد عدة مغامرات من الإفلات الى شمالي أفريقيا حيث كانت توجد مستعمرات جنوده القدماء وحيث انضم اليه ابنه وعدد من أنصاره [١٧٣] .

---

(170) Liv., Ep., 77; App., B.C., I, 57-60; Plut., Marius, XXXV; Sulla, IX.
(171) Liv., Ep., 77; B.C., I, 60; Cic., Brutus, 45, 168; Plut., Sulla, X; Val. Max., III, 8, 5.

ينفرد فليوس (Velleius, II, 19, 1) بالقول بأن هذا الإجراء كان بمقتضى قانون .

(172) Cic., Philip., VIII, 2, 7.
(173) Plut., Marius, XXXV ff.; App., B.C., I, 61-62; Liv., Ep. 75.

وعن فرار ماريوس ، انظر :

T.F. Carney, Greece and Rome, 1961, pp. 98 ff.

ولما كان صلا شديد الحرص على المبادرة الى تولي قيادته ضد ميثريداتس ، فإنه لم يبقَ في روما إلا الوقت اللازم لوضع تنظيمات مؤقتة تكفل دعم مركز السناتو واستقرار الأوضاع الى أن يعود صلا من الشرق فيعالج النظم الرومانية معالجة جذرية . وانفراد أبيانوس بسرد قوانين صلا المؤقتة لا يبرر الشك في صحة روايته [١٧٤] وهي التي يتبين منها أن هذه القوانين قضت بعدم عرض شيء على الشعب دون أخذ موافقة السناتو مسبقاً ، وهو ما كان تقليداً دستورياً محترماً عادة حتى بعد صدور قانون هورتنسيوس في عام ٢٨٧ ق . م . ، ولم يصبح الخروج على هـذا العرف أمراً مألوفاً إلا منذ تريبونية تيبريوس جراكوس . وكان قانون آخر يقضي بعرض كل التشريعات على جمعية المئينات (Comitia Centuriata) وهي التي كانت أكثر اتزاناً من جمعية القبائل (Comitia Tributa) نتيجة لأن طريقة تنظيم الجمعية الأولى كانت تعطي للأثرياء أغلبية الأصوات فيها . ويُعتقد أنه كان من شأن هذين القانونين الحد مما كان لجحافل العامة من أهمية سياسية وكذلك كبح جماح ترابنة العامة . واذا كان من المحتمل أنه لتقوية السناتو وتمكينه من النهوض بأعبائه وذلك بتغذيته بدماء جديدة استصدر صلا قانوناً بإضافة ٣٠٠ عضو جديد إلى أعضاء السناتو القدامى ، فإنه من المستبعد أن يكون المجال قد اتسع لتنفيذ هذا القانون قبل وقوع الاضطرابات التي أعقبت رحيل صلا . ومن أجل تخفيف ضائقة المدينين استصدر صلا قانوناً بتحديد سعر الفائدة على القروض [١٧٥] . ويتحدث ملخص ليفيوس حديثاً مقسطاً جداً عن إنشاء مستعمرات [١٧٦] .

واذا كان الشعب لم يستطع معارضة أكثر تشريعات صلا إجحافاً بحقوقه ، فإنه انتهز فرصة الانتخابات لوظيفة القنصلية لعام ٨٧ ق . م . وخزل مرشحي صلا لهذه الوظيفة (وكان أحدهما ابن أخيه) وانتخب مرشحين آخرين وهما

---

(174) App., B.C., I, 59; Cf. Liv, Ep., 77.
(175) Festus, 464 L.
(176) Liv., Ep., 77.

جنايوس أوقتافيوس، وكان من الأخيار، ولوقيوس قورنليوس قينّا (Cinna) وكان معروفاً بميوله المشربة بروح العطف على ماريوس[177] . ولم يسع صلا إلا الاكتفاء باستحلاف قينّا على احترام التشريعات التي وضعها . ولكي يحول صلا دون أن يحذو بومبي إسترابون حذوه ويزحف على روما بالجيش الذي كان لا يزال يتولى قيادته في بيقنوم استصدر من السناتو قراراً بإسناد قيادة هذا الجيش الى القنصل الآخر زميل صلا وهو بومبي روفوس . ومما يدل من جديد على أن ولاء الجنود لم يعد للدولة وانما لقائدهم – على نحو ما رأينا منذ قليل في حالة صلا – هو أن جنود إسترابون لم يذعنوا لقرار نقل القيادة . ذلك أن إسترابون ، برغم ضيقه بحرمانه قيادته ، أحسن لقاء روفوس وتنحى له مؤقتاً عن القيادة ، غير أنه ما أن بدأ روفوس مباشرة مهامه في اليوم التالي حتى أجهز الجنود عليه فتولى إسترابون قيادته من جديد وكأن شيئاً لم يحدث[178] .

---

(177) Plut., Sulla, X.
(178) Liv., Ep., 77; App., B.C., I, 63; Velleius, II, 20.

الفَصْلُ السَّادِسُ

الاحداث الخارجية والداخليـــة
من أوائل القرن الاول حتى عام ٧٩ ق.م.

صـلا

الاحداث الخارجية

اولاً — حرب ميثريداتس الأولى[١]

١ — مملكة بونطوس :

أثار هذه الحرب ميثريداتس السادس يوباتور (Eupator) ملك بونطوس (Pontus) . وكانت هذه المملكة تطل على النصف الشرقي للشاطىء الجنوبي للبحر الأسود إبتداء من نهر هالوس (Halys) وتمتد الى مسافات متفاوتة

(١) المصادر القديمة الرئيسية هي :
Plut., Sulla, XVI-XXVI; App., Mithr., 1-63; Memmnon, fr. Hist. of Heraclea, fr. 22-25 (Jac.); Licinianus, fr. 24-27 F.

وأهم المراجع الحديثة هي :
T. Reinach, Mithridate Eupator, 1890; C.A.H., IX, Ch. V; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, 1950, Chs. 8 and 9.

داخل هضبة الأناضول ، وكانت أقاليمها الشرقية غنية بالحديد بوجه خاص وكذلك بالنحاس والفضة . وقد استرعى غنى هذه الأقاليم بالمعادن اهتمام الإغريق فأنشأوا على الساحل بعض مستعمراتهم . وبعد خضوع آسيا الصغرى للفرس ثم قضاء الاسكندر الأكبر على الإمبراطورية الفارسية ونشوب الصراع بين القواد خلفاء الاسكندر ، أنشأ مملكة بونطوس حوالي عام ٣٠٢ ق . م . رجل كان ينتمي الى صفوة نبلاء الفرس . وبالتدريج أخذت رقعة هذه المملكة تتسع وتستوعب كذلك المدن الإغريقية الساحلية . واذا كانت الأسرة المالكة قد اصطبغت بصبغة هلينية قوية وجعلت الإغريقية اللغة الرسمية في المملكة ، وكانت هذه المملكة تضم عدداً من المدن الإغريقية ، فإن المؤثرات الإغريقية لم تنتشر في أرجاء هذه المملكة التي كان الجانب الأكبر من رعاياها شرقيين والطابع الغالب على مختلف نواحي حياتهم طابعاً شرقياً .

وكانت العلاقات بين ميثريداتس الخامس (١٥٠ — ١٢١ ق . م .) وروما علاقات ودية . وقد عرفنا كيف أنه ساعد الرومان ضد أريستونيقوس وكان يطمع في الحصول على فروجيا الكبرى وأصبح يتوقع ذلك بعد تفاهمه مع أكويليوس ولجنة العشرة التي أرسلها السناتو لوضع التسوية اللازمة بعد القضاء على أريستونيقوس . وقد عرفنا كذلك كيف أن جايوس جراكوس أسهم في رفض مشروع قانون كان يهدف الى المصادقة على منح ميثريداتس الخامس فروجيا الكبرى ، وكيف أنه في عام ١١٦ ق . م . فيما يبدو تقرر ضم هذا الإقليم الى ولاية آسيا مما أوغر صدر ميثريداتس السادس (١٢١ — ٦٣ ق . م .) على روما .

٢ — أطماع ميثرايداتس السادس يوباتور :

وقد كان هذا الملك شديد الطموح ، وعندما واتته الفرصة لبسط رقعة مملكته دون المجازفة بالاصطدام مع الرومان — فقد كان جيرانه الى الجنوب والغرب حلفاء روما — لم يتردد في انتهاز هذه الفرصة في وقت لا يمكن تحديده

بأكثر من أنه كان سابقاً لنشوب حرب ميثريداتس الأولى . وعلى كل حال فإنه عندما اشتد ضغط القبائل المتبربرة، وبخاصة الإسقوثاي (Scythae) ، على المستعمرات الإغريقية في القرم وناشدت ميثريداتس المساعدة بادر على الفور الى نجدتها . ولم تلبث قوات « النجدة » أن فرضت سيطرة ميثريداتس على كل الشاطىء الشمالي للبحر الأسود حيث اتخذ من بانتيقابايوم (Panticapaeum) عاصمة لهذه الممتلكات ، وأقام في هذه العاصمة نائباً عنه لحكم هذا الجزء الجديد من المملكة ، وكان نائب الملك عادة أحد أبنائه . وفي أثناء قيام ميثريداتس ببسط سيطرته على شمالي البحر الأسود عمل كذلك على نشر سيطرته شرقاً . ذلك أنه منذ النصف الأول للقرن الثاني قبل الميلاد كانت أرمينيا الصغرى تعتبر تابعة لمملكة بونطوس ، وعندما قرر ميثريداتس السادس تحويل هذه التبعية العرفية الى تبعية فعلية لم يلق مقاومة في ذلك . ولسنا نعرف كيف ولا متى ضم ميثريداتس الى ممتلكاته باقي الساحل الجنوبي الشرقي ومملكة قولخيس (Colchis) . وهذه الفتوحات في شمال البحر الأسود وجنوبه الشرقي وضعت تحت إمرة ميثريداتس السادس موارد وفيرة من المال والغلال والرجال مما يسر له بناء جيش وأسطول قويين ، وبذلك أصبح هذا الملك أقوى عاهل في آسيا الصغرى .

وعند أواخر القرن الثاني قبل الميلاد طاف ميثريداتس مستخفياً بآسيا الصغرى حيث وقف على كل ما يسود ولاية آسيا الرومانية من قلق واضطراب بسبب سوء الإدارة الرومانية هناك ، مثل ما وقف على ما كانت جاراته (قابادوقيا وغالاتيا وبافلاجونيا وبيثونيا) تشعر به من عدم الارتياح لسطوة الرومان والآثار المترتبة على ذلك . فقد كانت هذه الدول شأنها شأن بونطوس تُعتبر شكلاً دولاً مستقلة حليفة لروما لكنها كانت فعلاً تعتبر توابع روما منذ انتصارها على انطيوخوس الثالث في عام ١٨٩ ق . م . وبخاصة منذ إنشائها ولاية آسيا . وقد كانت قابادوقيا أقوى جارات بونطوس غير أن بيثونيا كانت أكثر هذه الجارات تحضراً وكذلك تذمراً من سوء استغلال رجال

الأعمال الرومان لأهليها . وإزاء ذلك كله وانشغال روما بالخطر الداهم القادم من الشمال حين كانت لا تزال مشتبكة في حرب يوجورتا ، وجد ميثريداتس الفرصة سانحة للاتفاق مع نيقومدس الثاني ملك بيثونيا على التوسع سوياً في هضبة الأناضول . وفي عام ١٠٤ ق.م . استولى الحليفان على بافلاجونيا ثم غالاتيا . ووسط انهماك روما في مشاغلها الأخرى غض السناتو الطرف مؤقتاً عن الأحداث الجارية في آسيا الصغرى . وقد كانت قابادوقيا هي الفريسة التالية التي انقض عليها الحليفان ولكنهما لم يلبثا أن اختلفا على اقتسام هذه الغنيمة فلم يكن من ميثريداتس إلا أنه طرد حليفه وانفرد بالغنم . وإزاء ذلك لم يسع الحليف الطريد (نيقومدس) إلا أن يشكو لروما . ولما كانت روما قد تخلصت عندئذ من خطر التيوتون والقيمبري فإنها أصدرت الى ميثريداتس أمراً مشدداً بالانسحاب من قابادوقيا وبافلاجونيا ، واضطر ميثريداتس الى تنفيذ هذا الأمر صاغراً . غير أنه صمم على تحقيق أطماعه عن طريق تيجرانس ملك أرمينيا الكبرى وكان مستقلاً تمام الاستقلال عن روما وعلى صلات وثيقة مع جارته الكبرى بارثيا ، فزوج ميثريداتس ابنته كليوبترة الى تيجرانس وأغراه على غزو قابادوقيا . وعندما استجاب تيجرانس الى ذلك تدخلت روما ثانية ، فقد تمكن صلا في عام ٩٦ ق . م . — وكان عندئذ يحكم ولاية قيليقيا — من إقناع تيجرانس بالانسحاب وإعادة أريوبارزانس (Ariobarzanes) الى عرش قابادوقيا . وحين تحطمت مرة أخرى آمال ميثريداتس في التوسع في الأناضول لم يعد هناك شك في أمرين : وأحدهما ، هو أنه لا يمكن تحقيق هذه الآمال طالما ظلت روما تنفذ إرادتها في آسيا الصغرى . والأمر الآخر هو أنه طالما ظلت هذه الآمال تراود ميثريداتس لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بينه وبين روما حين تواتيه الفرصة الملائمة لتحقيق هذه الآمال .

وسرعان ما واتت ميثريداتس فرصته عندما توفي نيقومدس الثاني ونشب خلاف عنيف بين ابنيه على ولاية العرش وغُلت يد روما في حرب الحلفاء الإيطاليين ، فاستولى ميثريداتس بمساعدة صهره تيجرانس على بيثونيا وقابادوقيا

في عام ٩٠ ق . م . بيد أنه ماكادت روما تجتاز أزمة العام الأول للحرب حتى أنفذت في عام ٨٩ ق. م. بعثة على رأسها مانيوس أكويليوس ــ قاهر عبيد صقلية في ثورتهم الثانية ــ وأصدرت أمرها الى جايوس قاسيوس حاكم ولاية آسيا بوضع قوات تحت إمرة أكويليوس والبعثة لإقامة نيقومدس الثالث على عرش بيثونيا وإعادة أريوبارزانس الى عرش قابادوقيا . ولما كان ميثريداتس حتى هذه اللحظة حريصاً على أن يتفادى تبعة المبادأة بالاشتباك في صراع مسلح مع الرومان فإنه استجاب الى أمر أكويليوس والبعثة بالانسحاب ، ولكنه رفض تقديم أية مساعدات لروما في حرب الحلفاء الإيطاليين . واذا كانت بعض قطع العملة[٢] التي سكتها دولة « الاتحاد الإيطالي » وكذلك البعثة التي يحدثنا ديودوروس بأن الثوار أنفذوها الى ميثريداتس متوسلين اليه أن يغزو إيطاليا توحي بوجود اتصالات بين الثوار وميثريداتس وبأنهم كانوا على الأقل يتوقعون مساعدته لهم ، فإنه لم يرتكب هذه الحماقة .

٣ ــ ميثرايداتس سيد آسيا الصغرى :

ولم يقف أكويليوس عند هذا الحد بل استحث نيقومدس على غزو بونطوس في عام ٨٨ ق . م . فأرسل ميثريداتس احتجاجين الى أكويليوس ولكنه ظناً منه أن استجابة ميثريداتس الى الأوامر الرومانية كان مبعثها الضعف لم يتغاض فحسب عن الاحتجاجين بل شرع أيضاً في غزو غالاتيا بالقوات القليلة التي استطاع أن يوفرها له حاكما ولايتي آسيا وقيليقيا . وعندئذ ضرب ميثريداتس بكل حيطة عرض الحائط واكتسح بقواته الضخمة قوات نيقومدس وأكويليوس واجتاح ولاية آسيا حيث يسر عليه مهمته أنه قطع على نفسه عهداً بإلغاء الضرائب وتحرير المدن الإغريقية ، فاستقبلته المدن استقبالاً حماسياً اللهم إلا اذا استثنينا بعضاً منها على الساحل الجنوبي فاضطر الى محاصرتها . وهكذا

---

(2) Cf. E. A. Sydenham, The Coinage of The Roman Republic, nn. 632, 643; Scullard, 1970, n. 29, p. 412.

(3) Diod., XXXVII, 2, 11.

تمكن ميثريداتس بحملة واحدة من الاستيلاء على الجانب الأكبر من آسيا الصغرى . هذا الى أن أسطوله اجتاح الجزر المجاورة لشاطىء آسيا الصغرى الغربي ولم تفلح في مقاومته إلا جزيرة رودس . وقد أسكرت ميثريداتس نشوة هذا النصر السهل فرأى أنه لا يكمله إلا اذا قضى على الأعداد الكبيرة من الرومان والإيطاليين الموجودين في ولاية آسيا . وتبعاً لذلك أصدر أمره بأن يُعدموا جميعاً نساء ورجالاً وأطفالاً في ذات يوم معين[٤]. ويبلغ أقل تقدير لعدد الذين راحوا ضحية لهذا الأمر الرهيب بحوالي ٨٠,٠٠٠[٥] ويقدرهم بلوتارخ [٦] بحوالي ضعف هذا العدد (١٥٠,٠٠٠). وعلى هذا النحو أصبحت كل المدن الآسيوية التي نفذت هذا الأمر شريكات لخصم روما في العداء وفي الإجــرام .

٤ ــ الحرب في بلاد الإغريق :

وبفضل نشاط عملاء ميثريداتس في بلاد الإغريق لم يلبث أن وفدت عليه من أثينا بعثة من الديمقراطيين على رأسها رجل اسمه أريستيون (Aristion) تدعو سيد آسيا الصغرى الجديد لتحرير بلاد الإغريق من ربقة الرومان مثل ما حرر آسيا الصغرى . وقد أحسن ميثريداتس استقبال البعثة ووعدد بتحقيق رجائها . وعند عودة أريستيون ثار الديمقراطيون على الأقلية الأرستقراطية الحاكمة التي كان الرومان يساندونها ، وأقام أريستيون نفسه حاكماً مطلقاً على أثينا قبل شهر يوليه عام ٨٨ ق. م.[٦] وحين توفر على هذا النحو لميثريداتس ميناء كبير (بيرايوس ، ميناء أثينا) لأسطوله وقاعدة برية (أتيكا) لاجتياح بلاد الإغريق بادر بإرسال أسطوله بقيادة أرخلاوس (Archelaus) . وفي الطريق احتل الأسطول دون مشقة جزر القوقلادس (Cyclades) .

(4) App., Mithr.. 22-23.
(5) Val., Max., IX, 2, 4, Ext. 3.
(6) Plut, Sulla XXIV, 4.
(6) W.S. Ferguson, Hellenistic Athens, p. 444 n. 1.

وعندما وصل أرخلاوس الى أثينا ترك لأرستيون حامية تشد أزره ثم وجه عنايته الى السيطرة على باقي بلاد الإغريق. ولم تلبث أن أتت أرخلاوس قوات مساعدة استولت على جزيرة يوبويا (Euboea) وشرعت في مهاجمة دمترياس (Demetrias)، وبدا كأن كل بلاد الإغريق ستسقط في قبضة قوات أرخلاوس قبل وصول صلا وجيشه، غير أن كوينتوس بروتيوس صورا (Bruttius Sura - مساعد حاكم مقدونيا) استطاع وقف زحف العدو ورد أرخلاوس على أعقابه الى أتيكا(7).

وفي عام ٨٧ ق. م. عندماوصل صلا الى أبيروس على رأس خمس فرق رومانية، زحف سريعاً على أتيكا حيث حاصر أريستيون في أثينا وأرخلاوس في بيرايوس. بيد أن مركز صلا كان محفوفاً بالخطر، فمن ناحية كان ميثريداتس قد أرسل براً عن طريق تراقيا قوات ضخمة جديدة قد تنجح في اجتياح مقدونيا وتصل في أي وقت من الشمال. ومن ناحية ثانية كانت القوات الأسيوية الموجودة في يوبويا تهدد اتصاله بالقوات الرومانية في الشمال حيث عاد صورا لينضم الى رئيسه في مقدونيا بسبب ما كان يتهددها من خطر جيش العدو القادم براً. ومن ناحية ثالثة، إزاء عداء الحكومة الرومانية الجديدة لصلا اضطر إلى فرض التزامات ثقيلة على الإغريق لتوفير المؤنة لقواته بل اضطر الى نهب كنوز المعابد وبخاصة معابد دلفي وأبيداوروس (Epidaurus) وأولومبيا (Olympia) لدفع مرتبات الجنود، فكان من المحتمل أن تقع اضطرابات خطيرة بين الإغريق وتنضم مدن كثيرة الى أرخلاوس. وفضلاً عن ذلك فإنه لم يكن أمراً يسيراً إخضاع ميناء حصين مثل بيرايوس دون أن يتوافر لدى صلا أسطول يكون نداً لأسطول أرخلاوس. وتبعاً لذلك أنفذ صلا مساعده لوقولوس (Lucullus) في شتاء عام ٨٧/ ٨٦ ق. م. لجمع أسطول من الدول البحرية الموالية لروما في شرق البحر المتوسط(8). وقد

(7) Plut., Sulla, XI.
(8) App., Mithr., 33; Plut., Lucullus, II; Sulla, XI, 2; XII; XV, 1.

عكف صلا على تشديد الحصار براً على أثينا دون إهمال شأن بيرايوس الى أن تمكن من إخضاع الأولى في أول مارس عام ٨٦ ق. م . ثم ركز كل جهوده على المدينة الثانية ونجح في الاستيلاء عليها بعد فترة وجيزة ولكنها كانت عامرة بالصراع المرير . وعندما أدرك أرخلاوس عجزه عن إنقاذ بيرايوس انسحب بحراً بقواته وانضم في تساليا الى الجيش القادم براً بقيادة أرياراثس (Ariarathes) ابن ميثريداتس(٩) .

ولحسن حظ صلا أن أرياراثس تصور فيما يبدو أن مهمته الأولى كانت إنشاء مملكة لنفسه في تراقيا فأضاع وقتاً ثميناً في تنظيم هذا الإقليم بعد الاستيلاء عليه . وعندما زحف بعد ذلك على مقدونيا صادف بعض المقاومة من القوات الرومانية ومن الأهالي . وأسهم كذلك في تأخير وصول الجيش عن الوقت المناسب مرض أرياراثس ووفاته قبيل سقوط أثينا . وعندما انضم أرخلاوس الى هذا الجيش، تولى قيادته وزحف جنوباً صوب بويوتيا(١٠) (Boeotia) .

وفي هذه الأثناء كان صلا قد زحف بدوره شمالاً الى بويوتيا . وعند خايرونيا (Chaeronea) التقى الرومان في معركة مع عدو تبلغ قواته حوالي أربعة أمثال قواتهم (١١) . ومع ذلك فإنه بفضل براعة صلا في المناورة وسرعة تحريك قواته وتدخله شخصياً حيثما تحرج الموقف أحرزت القوات الرومانية نصراً باهراً ، فاضطر أرخلاوس إلى الانسحاب مع فلول قواته الى خالقيس (Chalcis) في جزيرة يوبويا .

وقد علم صلا عندئذ بأن الحكومة الرومانية اعتبرته عدواً للدولة ، ودمرت

---

(9) App., Mithr., 34-41; Plut., Sulla, XIII-XV, 1.

(10) App., Mithr., 35; 41; Plut., Sulla, XV.

(١١) عن أعداد الفريقين في هذه المعركة ، انظر :

Plut., Sulla, XV; App., Mithr., 41; 45; Memnon, 22; Liv. Ep. 82 ; C.A.H., IX, p. 249.

وعن المعركة ، أنظر .

C.A.H., IX, pp. 249-52; N.G.L. Hammond, Klio, 1938, pp. 186 ff.

قصوره في العاصمة وفي الريف ، وأعدمت أصدقاءه ، وأنفذت القنصل فلاقوس ومساعده فيمبريا (Fimbria) على رأس فرقتين ، وبأن فلاقوس ومن معه كانوا في طريقهم الى بلاد الإغريق . ووفقاً لرواية بلوتارخ[١٢] ، نقلاً فيما يبدو عن مذكرات صلا ، كانت حملة فلاقوس موجهة في الظاهر ضد ميثريداتس ولكن في الواقع ضد صلا . وأما وفقاً لرواية ممنون[١٣] – ويأخذ بما جاء فيها أحد الباحثين[١٤] – فإنه لم يكن لحملة فلاقوس هدف إلا محاربة ميثريداتس . وفي رأينا أنه لا يوجد تناقض بين الروايتين بل إنهما تكملان بعضهما بعضاً . ذلك أنه لما كانت الحكومة الرومانية قد اعتبرت صلا عدواً للدولة ، وكان ذلك يستتبع تجريده من حقوقه المدنية كافة بل استباحة دمه ، فلا جدال في أن ذلك كان يستتبع أيضاً تجريده من سلطته البروقنصلية وعزله من قيادته . ولا جدال أيضاً في أن الحكومة الرومانية لم ترسل فلاقوس لشد أزر صلا وإنما ليخلفه في قيادة الحرب ضد ميثريداتس ، وهو ما يقول به أبيانوس[١٥] . ومعنى ذلك أن إرسال القنصل فلاقوس كان إعلاناً رسمياً ملموساً بعزل صلا وتنبيهاً جلياً واضحاً لميثريداتس بألا يعقد صلحاً مع أحد غير القنصل . بيد أنه من الجائز أن التعليمات التي أعطيت لفلاقوس نهته عن التعرض لصلا وذلك لسببين : وأحدهما ، هو أن فلاقوس لم يكن نداً لصلا . والسبب الآخر ، هو أن الفيصل لن يكون القتال في بلاد الإغريق وانما في آسيا الصغرى مع ميثريداتس نفسه . وتبعاً لذلك كان من صالح الحكومة الرومانية ترك صلا وجنوده منهمكين مع القوات الأسيوية لينشغل الفريقان بالصراع في بلاد الإغريق فتتاح الفرصة أمام فلاقوس لتصفية الحساب مع ميثريداتس واختلاس النصر وما يستتبعه ذلك من أسلاب توفر للحكومة الموارد التي تمكنها من مواجهة صلا إذا حدثته نفسه بعد الفراغ من بلاد الإغريق بتحديها .

---

(12) Plut., Sulla, XX, 1.
(13) Memnon, fr. 24
(14) E. Badian, J.R.S., 1962, p. 56.
(15) App., Mithr., 51.

وإزاء الموقف العدائي الذي اتخذته الحكومة الرومانية من صلا، فإنه بطبيعة الحال توقع أسوأ الاحتمالات من قدوم فلاقوس. وتبعاً لذلك فإنه ما أن فرغ صلا من معركة خايرونيا حتى زحف شمالاً الى تساليا للقاء فلاقوس في موقع ملائم. ويوحي بصحة ما افترضناه عن تعليمات الحكومة الرومانية لفلاقوس أنه عندما وصل الى تساليا تجنب الاشتباك مع صلا ومضى في سبيله براً ليسبقه الى غزو آسيا الصغرى. ولم يشأ صلا اقتفاء أثره لأن الأخبار كانت قد أتته بأن أرخلاوس قد وصلته نجدة كبيرة وأنه عاد ثانية الى بويوتيا فخف جنوباً لملاقاة العدو. وعند أورخومنوس (Orchomenus) أحرز صلا نصراً جديداً على عدو يفوقه في العدد أضعافاً مضاعفة، واضطر أرخلاوس الى الفرار مرة أخرى الى خالقيس(١٦).

وقبل وصول فلاقوس وفيمبريا الى آسيا الصغرى، كانت لأنباء انتصارات صلا وكذلك لظروفه آثار بعيدة المدى هناك، فمن ناحية أخذت المدن تظهر ضيقها « بمحررها » من جراء أساليب الحكم التي اتبعها فضلاً عما فرضه عليها من الإلتزامات الثقيلة لإرسال الإمدادات لقواته في بلاد الإغريق، ومن ناحية أخرى رأى ميثريداتس في افتقار صلا عندئذ الى أسطول يغزو به آسيا الصغرى مع قدوم فلاقوس ليتسلم منه القيادة فرصة للحفاظ على مملكته وكل ما يمكن من فتوحاته في آسيا الصغرى بعقد الصلح مع صلا. فأرسل تعليمات الى أرخلاوس لمحاولة التفاهم مع صلا على أفضل شروط ممكنة(١٧). وبعد اتصالات غير مباشرة، التقى صلا وأرخلاوس في إحدى مدن بويوتيا الساحلية(١٨) ووضعا شروط اتفاق مبدئي لعرضها على ميثريداتس. وكانت هذه الشروط(١٩) تتضمن: ١ ـ أن يقوم أرخلاوس بتسليم أسطوله الى صلا

(16) App., Mithr., 49-50; Plut., Sulla, XX-XXI; Licinianus, 24 F; Oros., VI, 2, 6; Eutrop., V, 6, 3; C.A.H., IX, pp. 252-3.

(17) App., Mithr., 54.

(١٨) على الأرجح أوليس (Licinianus, 26 F). أو قرب دليوم (Plut., Sulla, XXII, 3).

(19) App., Mithr., 55; Licinianus, 26 F; Cf Plut., Sulla, XXII.

والانسحاب من المواقع التي كان لا يزال يحتلها . ٢ ـ أن يُعاد كل الأسرى والعبيد الهاربين والجنود الفارين من الخدمة في القوات الرومانية . ٣ ـ أن ينسحب ميثريداتس من كل الأقاليم التي استولى عليها في آسيا الصغرى . ٤ ـ أن يدفع ميثريداتس تعويضاً عن تكاليف الحرب . ٥ ـ أن يصبح ميثريداتس ثانيةً صديقاً وحليفاً للشعب الروماني .

وفي ضوء ما سنراه من استمرار أرخلاوس في الاضطلاع بدور الوسيط بين صلا وميثريداتس ، ومن زحف صلا في عام ٨٥ ق . م . صوب آسيا الصغرى براً عن طريق مقدونيا وتراقيا ، ومن عدم اعتماده في عبور الدردنيل إلا على السفن التي جمعها لوقولّوس، يصعب قبول رواية ملخص ليفيوس [٢٠] من أن أرخلاوس سلم نفسه وأسطوله الى صلا، وما يذهب اليه بعض الباحثين [٢١] من أنه حدث اتفاق سري بين صلا وأرخلاوس على أن يقوم الأخير بتسليم أسطوله الى صلا وسحب حامياته من القواعد التي كانت لا تزال في قبضته . ولعل أن مصدر الشك في سلوك أرخلاوس الى حد اتهامه بعدم الجدية في أثناء معركة خايرونيا أمران : وأحدهما هو أنه في أثناء انتظار وصول رد ميثريداتس كان أرخلاوس ضيفاً معززاً مكرماً لدى صلا . والأمر الآخر هو أن صلا منحه ضيعة كبيرة في يوبويا ولقب صديق وحليف الشعب الروماني [٢٢] . وليس تفسير ذلك أمراً عسيراً ، إذ يبدو من ناحية أن انتصارات صلا لم تترك لدى أرخلاوس شكاً في أن صوالح ميثريداتس كانت تقضي بالتفاهم مع صلا فلم يدخر وسعاً في أن يقنع بذلك أولاً أولئك الذين حملوا شروط الصلح الى الملك وبعد ذلك الملك نفسه . ومن ناحية أخرى لم تغب اتجاهات أرخلاوس عن فطنة صلا وأدرك بذكائه أنه اذا نجح في كسب ود أرخلاوس وفي الحفاظ على هذا الود سيفيد من وراء ذلك تجنب الاشتباك في حرب محفوفة

---

(20) Liv., Ep., 82.

(21) Reinach, op. cit., p. 187; Cf. C.A.H., IX, pp. 256-7.

(22) Plut., Sulla, XXIII, 2.

بالمخاطر بسبب افتقاره الى اسطول واحتمال انضمام فيمبريا (وكان قد خلف فلاقوس في قيادة القوات الرومانية في آسيا الصغرى على نحو ما سنرى بعد قليل) الى ميثريداتس ضده . ولا شك في أنه كان من الحكمة إنهاء النزاع مع ميثريداتس بالمفاوضة ليتيسر لصلا أن يصفي حسابه سريعاً مع فيمبريا ثم يتفرغ لإيطاليا. ويجب ألا ننسى في هذا المقام العبارة التي أمر صلا بنقشها على قبره ونصها « لم يفقه صديق في حسن الصنيع ولا عدو في شدة الانتقام »[٢٣] . وأغلب الظن أنه عندما تحرج مركز ميثريداتس في آسيا الصغرى ، على نحو ما سيأتي ذكره ، وأصبح من المتعذر عليه إرسال إمدادات للأسطول والقوات الموجودة في أوربا ، أمر أرخلاوس بإعادة الأسطول وهذه القوات. وبطبيعة الحال كان من شأن ذلك أن يدعم مركز صلا في بلاد الإغريق . وفي أثناء انتظار وصول رد ميثريداتس زحف صلا على مقدونيا وشن حملات تأديبية على القبائل الشمالية التي كانت تغير على هذه الولاية وتتهدد سلامتها[٢٤] .

٥ — الحروب في آسيا الصغرى :

كان فلاقوس رجلاً فظاً شديد الجشع غير محبوب من جنوده وعلى خلاف مع فيمبريا ، ولم يكد يصل الى آسيا الصغرى حتى أجهز عليه فيمبريا وتولى القيادة بدلاً منه[٢٥] . وفي الشهور الأولى من عام ٨٥ ق . م . قام فيمبريا بحملة عاصفة ضد المدن الإغريقية في بيثونيا وولاية آسيا ، وفرض عليهـا التزامات ثقيلة ، وعامل إليوم (Ilium) بقسوة متناهية لأنها ناشدت صلا المساعدة[٢٦]. وفي أثناء هذه الحملة عندما تجمع جيش كبير بقيادة ابن ميثريداتس وأقدر قواده على ضفة نهر رونداقوس (Rhyndacus) لمحاولة وقف زحف فيمبريا من بيثونيا، شقت القوات الرومانية سبيلها عبر النهر

(23) Plut., Sulla, XXXVIII, 4.
(24) App., Mithr., 55; Licinianus, 27 F.
(25) App., Mithr., 51-52; Dio Cass., fr. 104; Memnon, 24; Oros. VI, 2, 9; Strab., XIII, 1, 27.
(26) Liv., Ep., 83; Obsequens, 56 b; App., Mithr., 53; Dio Cass., fr 104.

تحت جنح الظلام ، وعند الفجر فاجأت العدو في معسكره وقضت على الجانب الأكبر من جيشه(٢٧) ، ففر ابن الملك مع فريق من خيالته الى ميثريداتس في برجام ، وتابع فيمبريا زحفه على هذه المدينة . وعندما فر الملك الى بيتاني (Pitane) على الشاطىء حاصر فيمبريا هذه المدينة من ناحية البر وبعث برسالة عاجلة الى لوقولـّوس يناشده محاصرة المدينة من ناحية البحر ، ولكن لوقولـّوس رفض التعاون مع فيمبريا فأفلت ميثريداتس الى موتيليني(٢٨) (Mytilene أو Mitylene) .

وقد مر بنا أنه في شتاء عام ٨٧/ ٨٦ عهد صلا الى لوقولـّوس بمهمة جمع أسطول من الدول الموالية لروما في شرق البحر المتوسط . وقد وجد لوقولـّوس صعوبة كبيرة في الحصول على عدد كاف من السفن ، لأنه إزاء ازدياد قوة ميثريداتس وعداء الحكومة الرومانية القائمة لصلا وتعذر التنبؤ عندئذ سواء بنتيجة الصراع الراهن بين ميثريداتس وصلا أم الصراع المقبل بين صلا وخصومه في روما ، كانت الدول الموالية لروما لا تميل الى توريط نفسها بتقديم مساعدات كبيرة لصلا خشية إغضاب ميثريداتس من ناحية والحكومة الرومانية المناهضة لصلا من ناحية أخرى . وتبعاً لذلك لم يستطع لوقولـّوس أن يجمع في خلال عام إلا عدداً قليلاً من السفن حصل عليها من قبرص وفينيقيا وبامفوليا . وتنفيذاً لأوامر صلا ، انضم لوقولـّوس بأسطوله الصغير في ربيع عام ٨٥ ق . م . الى أسطول رودس وقامت هذه القوة البحرية المشتركة بإشعال لهيب الثورة في المدن الواقعة على الشاطىء الغربي لآسيا الصغرى وفي الجزر القريبة منه وتمكنت من استرداد جزيرتي قوس (Cos) وقنيدوس (Cnidos) وطرد أعوان ميثريداتس من قولوفون (Colophon) وخيوس (Chios) . وعندما رفض لوقولـّوس التعاون مع فيمبريا عند بيتاني — على نحو ما سبق ذكره — كان يقوم وسفنه بعملية استطلاعية ولم يلبث أن التقى بشطر من أسطول العدو وهزمه .

---

(27) Memnon, 24; Front., Strat., III, 17, 5.
(28) App., Mithr., 52; Plut., Lucullus, III.

وبعد ذلك أنزلت قواته بالاشتراك مع قوات رودس هزيمة بالأسطول الرئيسي للعدو قرب تندوس (Tenedos) .

وعندئذ فقط تمكن لوقولّوس من معاودة الاتصال بصلا ، وكان قد بدأ زحفه غرباً عبر تراقيا ووصل حتى قوبسلا (Cypsela) . وبناء على تعليمات صلا اتجهت القوات البحرية المنتصرة الى أبودوس (Abydos) على الضفة الجنوبية للدردنيل لتقفل هذا الممر المائي الهام في وجه العدو وتنتظر وصول صلا لتقوم بنقله هو وقواته الى آسيا(٢٩) . ذلك أنه حين كان صلا لا يزال في مقدونيا أوفد اليه ميثريداتس بعثة لإبلاغه بأن الملك مستعد لإبرام شروط الصلح المقترحة فيما عدا إخلائه بافلاجونيا . وأضاف المبعوثون الى ذلك أنه لو أن الملك تفاوض مع فيمبريا لحصل على شروط للصلح أفضل من التي عرضها صلا . وقد ضايقت صلا مقارنته بفيمبريا فرد على المبعوثين بأنه سيشخص بنفسه الى آسيا ليرى اذا كان ميثريداتس يريد الحرب أم السلم(٣٠) . ومما يدل على رغبة صلا الملحة في إنهاء النزاع مع ميثريداتس بالمفاوضة اذا أمكن، أنه إذ أفهم المبعوثين أنه يرفض التنازل عن شيء مما اشترطه وأرغد لهم وأزبد وشرع في الاستعداد للزحف عبر تراقيا ، أوفد أرخلاوس الى الملك لإقناعه بشروط الصلح المقترحة . وقد كان صلا لا يزال في فيليبي (Philippi) عندما عاد اليه أرخلاوس حاملاً اليه رد ميثريداتس بأنه على استعداد لمقابلته(٣١) . ومرد ذلك الى أن مركز الملك كان قد تحرج جداً نتيجة للنجاح الذي صادفه فيمبريا في البر والروديون ولوقولّوس في البحر . وبعد عودة أرخلاوس زحف صلا عبر تراقيا ، وعندما وصل الى قوبسلا طلب الى لوقولّوس انتظاره في الدردنيل ، كما سبق ذكره ، لنقله هو وقواته الى آسيا ، وذلك من ناحية ليكون في مركز يمكنه من الوصول بالمفاوضات مع الملك الى نتيجة حاسمة . ومن ناحية أخرى ليولي عنايته بعد ذلك الى القضاء على فيمبريا .

(29) Plut., Lucullus, II-III; App. Mithr., 56.
(30) App., Mithr., 57.
(31) Plut., Sulla, XXXIII, 3-6.

وفي صيف عام ٨٥ ق. م. اجتمع صلا مــع ميثريداتس في داردانوس (Dardanus) بالقرب من طروادة ، وتم الاتفاق على أن يقوم الملك بتسليم سبعين سفينة من أسطوله ، والانسحاب من كل الأقاليم التي فتحها في آسيا الصغرى ، ودفع غرامة قدرها ٢٠٠٠ تالنت ، لقاء الاعتراف به ملكاً على بونطوس وصديقاً وحليفاً لروما. وبعد أن وفق صلا بين ميثريداتس وأريوبارزانس ونيقومدس ، ملكي قابادوقيا وبيثونيا الشرعيين ، أبحر ميثريداتس الى بونطوس (أغسطس عام ٨٥ ق . م .)[٣٢] .

ويحدثنا بلوتارخ[٣٣] بأنه أغضب جنود صلا عقد الصلح مع ميثريداتس بهذه الشروط اللينة بعد أن قضى بإعدام عدد كبير من الرومان والإيطاليين ، وبأن صلا برر تسامحه مع الملك بأنه على هذا النحو تفادى المصاعب التي كان من الممكن أن تنجم اذا انضم فيمبريا الى ميثريداتس في مقاومته .

ولم يكد صلا يفرغ من عقد الصلح مع ميثريداتس حتى استدار لفيمبريا وكان قد انسحب جنوباً الى ثواتيرا (Thyatira) حيث أطبق عليه صلا وطلب اليه التسليم . وعندما رفض فيمبريا ذلك وشرع صلا في تطويقه ، فشلت جهود فيمبريا سواء في منع الكثيرين من جنوده من الانضمام الى صلا أم في حث باقي جنوده على القتال أم في تدبير محاولة لاغتيال صلا أم في التوصل الى مقابلته . وإذ أسقط في يد فيمبريا لم يجد أمامه مخرجاً من ورطته إلا الانتحار في معسكره ، وفقاً لبلوتارخ[٣٤] ، أو بمعبد إيسقولابيوس (Aesculapius) في برجام بعد أن فر الى هذه المدينة ، وفقاً لأبيانوس[٣٥] .

وبعد أن ضم صلا الى قواته الفرقتين اللتين كانتا تحت إمرة فيمبريا وجه عنايته الى وضع أمور آسيا الصغرى في نصابها . ذلك أنه عهد الى مساعده

---

(32) Memnon, 25 (Jac.); Plut., Sulla, XXII, 5; XXIV, 1-3; App. Mithr., 56-58; Liv., Ep., 83.
(33) Plut., Sulla, XXIV, 4.
(34) Plut., Sulla, XXV, 1.
(35) App., Mithr, 59-60.

جايوس سقريبونيوس قوريو (Scribonius Curio) بمهمة إقامة نيقومدس الثالث على عرش بيثونيا وأريوبارزانس على عرش قابادوقيا ، واعتبر رودس وخيوس وإليوم وماجنسيا ومدن لوقيا (Lycia) وغيرها صديقات حليفة لروما ، إما جزاء لها على تعاونها معه وإما تعويضاً لها عما أصابها من كوارث بسبب وفائها له . وأما المدن التي كانت قد تعاونت مع ميثريداتس مثل برجام وميلتوس وأفسوس وغيرها ، فإن صلا حرمها حريتها وأمرها بأن العبيد الذين حررهم ميثريداتس يجب إعادتهم فوراً الى سادتهم . ولما كان شتاء عام ٨٥/ ٨٤ ق. م. قد اقترب فإن صلا وزع جنوده على هذه المدن وأمرها بأن تأويهم في بيوت أهاليها وتطعمهم ، بل أيضاً أن يعطي كل مضيف لكل ضيف يومياً ١٦ دراخمة اذا كان جندياً عادياً و ٥٠ دراخمة — وذلك فضلاً عن رداءين — اذا كان قائد سرية (Centurion) . ولم يتردد صلا في إنزال أشد صنوف العذاب بكل مدينة أو فرد رفض تنفيذ أوامره . وبالإضافة الى ذلك فرض صلا على الولاية دفع ٢٠,٠٠٠ تالنت بمثابة تعويض عن تكاليف الحرب والضرائب المتأخرة عن السنوات الخمس الماضية [٣٦] . ومن أجل سداد هذا المبلغ الضخم قسمت الولاية الى خمسة [٣٧] أقاليم واعتُبر كل إقليم مسئولاً عن سداد نصيب معين من هذا المبلغ . ويبدو أن هذا التقسيم ظل أساساً للتنظيم المالي الذي اتبع فيما بعد في ولاية آسيا . وبرغم أن صلا كان لا يعطف على الفرسان ، فإنه من المستبعد [٣٨] أن يكون قد حرم ملتزمي جباية الضرائب (publicani) شراء حق جباية ضرائب ولاية آسيا [٣٩] وأنهم

(36) Plut., Sulla, XXV, 2; App., Mithr., 60-62; Scullard, 1970, n. 32, pp. 412-3.

(٣٧) يشك في صحة ما أورده أحد المصادر القديمة (Cassiodoros Chronica) من أن صلا قسم الولاية الى ٤٥ إقليماً (XLV Regiones) راجع :

C.A.H., IX, p. 260 n. 1; V. Chapot, Province romaine proconsulaire d'Asie, pp. 89 ff.

(38) C.A.H., IX, p. 260; T.R. Holmes, Roman Republic, I, p. 395; P.A. Brunt, Latomus, 1956, pp. 17 ff.

(39) Cic., ad Quint. fr., I, 1, 33.

ظلوا محرومين هذا الحق الى أن أعاده اليهم بومبي الأكبر (٤٠) .

وإزاء ضخامة الغرامة المفروضة وعجز الأهالي عن الوفاء بها لم تكن أمامهم وسيلة إلا الالتجاء الى قارضي النقود الرومان . واذا أضيف الى جشع جامعي الضرائب وإيغال قارضي النقود في احتساب فوائد باهظة على الديون ازدياد نشاط القراصنة لا يأخذنا العجب مما تردت اليه حال أهالي ولاية آسيا من ضنك وبؤس في خلال بضع سنين .

وفي عام ٨٤ ق. م . ترك صلا مساعده مورنا (Murena) على رأس فرقتي فيمبريا لحكم ولاية آسيا وأبحر من أفسوس على رأس قواته مزوداً بما جمعه من أموال ونهبه من كنوز واتجه الى بلاد الإغريق حيث قضى بضعة شهور قبل عودته الى إيطاليا . وفي أثناء وجود صلا في بلاد الإغريق تصادف أن توفي رجل من تيوس (Teos) كان يدعى أبلّيقون (Apellicon) وكانت لديه مكتبة تضم أغلب رسائل أرسطو وثيوفراسطوس واستولى صلا على هذه المكتبة . وكانت هذه الرسائل القيمة قد انتقلت بالإرث من شخص إلى آخر ونقلت الى سقبسيس (Scepsis) بآسيا الصغرى حيث أخفاها أصحابها خوفاً من أن يعرف بأمرها ملوك برجام ويستولوا عليها لضمها الى مكتبتهم المشهورة. وعندما نال العطب من الرسائل بسبب إخفائها تحت الأرض باعها أصحابها الى أبلّيقون الذي نقلها الى أثينا . وعندما استولى صلا على مكتبة هذا الرجل ونقلها الى روما قام بنشر الرسائل العالمان الروديان تورانّيو (Tyrannio) وأندرونيقوس (٤١) .

ثانياً – ازدياد نشاط القراصنة

منذ أن قام ميثريداتس برحلته في آسيا الصغرى قبل نشوب الحرب أدرك

(40) Cic., in Verr., III, 6, 12.
(41) Plut., Sulla, XXVI, Strab, XIII, 608-9

الفائدة التي كان يمكن أن يجنيها من وراء استخدام سفن القراصنة في تحقيق أطماعه . وفي المراحل الأولى للحرب نشط القراصنة في التعاون مع أسطوله ، وإن كان ليس من الميسور دائماً تمييز نشاطهم عن نشاط أسطول الملك . وعندما تبين من سير الحرب أنه سيتعذر على ميثريداتس الاحتفاظ بفتوحاته ، أخذ القراصنة يعملون لحسابهم الخاص . ولم يكن من شأن انسحاب قوات ميثريداتس في آخر الحرب إلا أن القراصنة ازدادوا انطلاقاً في متابعة نشاطهم. ولا أدل على ذلك من أنه بعد عقد الصلح كانت كل شواطىء آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه نهباً لسطوهم عليها . وقد بلغت بهم الجرأة الى حد أنهم سطوا على جزيرة ساموتراقيا ونهبوا معبدها في أثناء وجود صلا في هذه الجزيرة(٤٢) .

وحين كان صلا يتولى حكم ولاية قيليقيا في عام ٩٦ ق . م . أدرك أنه لا يمكن إخضاع معاقل القراصنة الساحلية إخضاعاً مستديماً دون إخضاع المنطقة الداخلية الجنوبية في آسيا الصغرى من لوقيا (Lycia) حتى جبال الطوروس إخضاعاً كاملاً . ذلك أنه عند مهاجمة قراصنة الساحل كانوا ينسحبون الى الدواخل ويتلقون معونات قوية من القبائل الجبلية ويستردون ما فقدوه .

وقد ساعد على استفحال أمر القراصنة في أعقاب حرب ميثريداتس الأولى أنه بالإضافة الى ما كان قراصنة قيليقيا تراخيا يلقونه من عون القبائل الجبلية في إيساوريا (Isauria) وبيسيديا (Pisidia) ، انحازت الى جانبهم علانية مدن ساحلية كبيرة في بامفوليا مثل أتاليا (Attaleia) وسيدي (Side) ، وأن قرصاناً كبيراً يدعى زنيقتس (Zenicetes) سيطر على كل الشاطىء الشرقي لإقليم لوقيا ومعظم جبال سولوما (Solyma) . وكانت تتفرع من جبال الطوروس فتطل على خليج بامفوليا وتنتهي عند رأس خليدونيا (Chelidonia) .

وللقضاء على أوكار القراصنة يبدو أن صلا وضع خطة تقضي بالسيطرة

(42) App., Mithr., 63.

على كل المنطقة الجنوبية الساحلية والداخلية ، وبإخضاع القبائل النازلة على جانبي جبال الطوروس ، وأن مورنا بدأ بتنفيذ هذه الخطة فاحتل الجزء الداخلي من لوقيا كخطوة أولى نحو القضاء على زنيقتس ، وجمع اسطولاً لاستخدامه ضد قراصنة البحر ، ولكن نشوب حرب ميثريداتس الثانية أوقف مؤقتاً محاربة القراصنة (٤٣) .

ثالثاً ـ حرب ميثريداتس الثانية

يحدثنا أبيانوس (٤٤) بأنه بعد انتهاء الحرب الأولى انصرف ميثريداتس الى الاستعداد لإخضاع ثورتين قامت إحداهما في قولخيس والأخرى بين قبائل بسفور القرم (Bosporus Cimmerius) ، وبأنه عندمـــا خمدت الثورة الأولى بمجرد استجابة ميثريداتس الى طلب أهالي قولخيس إقامة ابنه (ميثريداتس « فيلوباتور فيلادلفوس »(٤٥)) حاكماً عليهم إسترّاب الملك في ابنه فلم يلبث أن استدعاه وأعدمه . ويمضي أبيانوس في حديثه فيروي كيف أنه من أجل إخضاع الثورة الأخرى أعد ميثريداتس حملة كبيرة برية وبحرية مما أوحى سريعاً بالاعتقاد بأن مثل هذه الحملة لم تُعد لتوجيهها ضد القبائل الثائرة وإنما ضد الرومان ، ولا سيما أن ميثريداتس لم يكن قد أعاد بعد كل قابادوقيا الى أريوبارزانس وأن الشكوك ساورت ميثريداتس في إخلاص أرخلاوس ظناً منه أن هذا الرجل تساهل أكثر مما ينبغي في مفاوضاته مع صلا ، ففر أرخلاوس الى مورنا وأقنعه بأن يسبق ميثريداتس الى المبادأة بالعدوان . بيد أن أبيانوس يذكر في مستهل حديثه أن مورنا انتحل أوهى المعاذير لشن الحرب طمعاً في مغانم النصر . وفكرة تطلع مورنا الى المغانم لا يجوز استبعادها ولا سيما في ضوء ما سنعرفه من سيرة هذه الحرب ، ولكنه من الجائز أيضاً أن يكون عزوف ميثريداتس عن إخلاء قابادوقيا

---

(43) C.A.H., IX, pp 352-3.
(44) App., Mithr., 64.
(45) O.G.I.S., 375.

كلها وقيامه بإعداد تلك الحملة الكبيرة قد أثارا في مورنا إزاء نوايا ميثريداتس شكوكاً أيدها فرار أرخلاوس وما حمله من أنباء . وعلى كل حال فإن مورنا اتخذ من تصرفات ميثريداتس ذريعة للزحف عبر قابادوقيا ومهاجمة قومانا(Comana) . وكانت إحدى المدن الريفية الكبرى في مملكة بونطوس ، فأرسل اليه الملك بعثة دبلوماسية تطالبه باحترام شروط معاهدة الصلح التي عُقدت مع صلا . ولما لم تكن هذه الشروط قد سجلت في وثيقة ، فإن مورنا رد على البعثة بأنه لا علم له بهذه الشروط ، وبعد أن نهب كل ما أمكن الوصول اليه انسحب الى قابادوقيا لقضاء شتاء عام ٨٣/ ٨٢ ق . م .

ولم يسع ميثريداتس إلا أن يرسل بعثة الى صلا والى السناتو للشكوى من تصرفات مورنا . وفي هذه الأثناء زحف مورنا بقواته حتى تخطى نهر هالوس وأغار على ٤٠٠ قرية في مملكة بونطوس دون أن يلقى أية مقاومة من الملك لأنه كان ينتظر عودة البعثة . وعندما فرغ مورنا من إغارته عاد محملاً بالأسلاب الى غالاتيا حيث وافاه قاليديوس (Calidius) ، وكان السناتو — استجابة منه الى شكوى ميثريداتس — قد أوفده لإبلاغ مورنا بعدم التعرض للملك . ومع ذلك فإن مورنا لم يلبث أن عاود الهجوم[٤٦] ، وزحف هذه المرة حتى سينوب[٤٧] . وعندئذ لم يجد الملك مناصاً من مقابلة العدوان بمثله . ويُستخلص من رواية أبيانوس الغامضة أنه بناء على أوامر ميثريداتس زحف قائده جورديوس (Gordius) غرباً حيث أغار فيما يبدو على بعض القرى في بافلاجونيا واتخذ لنفسه موقعاً منيعاً على ضفة أحد الأنهار (ربما كان نهر أمنياس — Amnias — أحد روافد نهر هالوس)[٤٨] ليقطع على مورنا خط الرجعة في أثناء عودته . ولم يشتبك الفريقان الى أن أتى ميثريداتس بنفسه على رأس جيش كبير . وعندئذ نشبت معركة عنيفة هُزم فيها مورنا هزيمة ساحقة واضطر الى الانسحاب على عجل الى فروجيا .

---

(46) App., Mithr., 65.
(47) Memnon, 26 (Jac.).
(48) C.A.H., IX, p. 353 n. 3.

وفي أعقاب هذا النصر طرد ميثريداتس كل حاميات مورنا من قابادوقيا ، بيد أنه قبل أن يمضي الى أبعد من ذلك في متابعة انتصاره كان أولوس جابينيوس (Aulus Gabinius) قد وصل حاملاً أمرين مشددين من صلا : أحدهما الى مورنا بضرورة وقف نشاطه العدواني ضد ميثريداتس ، والآخر الى ميثريداتس نفسه بضرورة مصالحته أريوبارزانس . وبعد ذلك عقد في عام ٨١ ق . م . مؤتمر تم فيه الاتفاق على تنفيذ ما أمر به صلا . وتوكيداً لصلات الود بين ميثريداتس وأريوبارزانس خطبت ابنة الأول — وكانت طفلة في الرابعة من عمرها — الى الملك الثاني بشرط أن يحتفظ ميثريداتس بذلك الجزء من قابادوقيا الذي كان لا يزال في قبضته وكذلك بجزء آخر من هذه الدولة . وعلى هذا النحو انتهت حرب ميثريداتس الثانية[٤٩] ، وإذ فاز منها ميثريداتس بجانب من قابادوقيا ، فاز أيضاً مورنا دون أي حق بلقب القائد المظفر[٥٠] (imperator) وفيما بعد بحق الاحتفال بنصره[٥١] المزعوم .

الاحداث الداخلية

أولاً — الحالة في أثناء غيبة صلا

١ — قوات رومانية تستولي على روما مرة ثانية :

لم يكد صلا يبرح إيطاليا حتى كان قينا — أحد قنصلي عام ٨٧ ق . م . — قد نسي أو تناسى يمينه لصلا واقترح إحياء قانون سولبيقيوس الخاص بتوزيع المعتقين والمواطنين الجدد على القبائل كلها ، فأعقب ذلك وقوع اضطرابات عنيفة . ذلك أنه من ناحية كان يوجد في روما كثيرون من المواطنين الجدد وسرعان ما أقبل عليها كثيرون آخرون لشد أزر نصيرهم الجديد. ومن ناحية أخرى

---

(49) App., Mithr., 66.
(50) Dittenberger, Syllogue, 3rd ed., 745; Cic., pro Murena, 5, 12.
(51) Cic., de Imp. Gn Pompei, 3, 8

فإنه وقد ابتعد ماريوس عن روما بهروبه الى أفريقيا، لم يتّردد قدماء المواطنين في إظهار معارضة أقوى مما سبق أن أظهروه لإعادة توزيع المواطنين الجدد ، وكان القنصل الآخر – أوقتافيوس – زعيمهم الطبيعي في هذه المعارضة . وعندما صادر بعض ترابنة العامة مشروع القانون، وقع اشتباك عنيف بين الفريقين انتهى آخر الأمر بفرار قينّا وأعوانه من روما . وكان أبرز هؤلاء الأعوان كوينتوس سرتوريوس (Sertorius) وجنايوس بابيريوس جاربو . وفي أعقاب ذلك أصدر السناتو قراراً قضى باعتبار قينّا عدواً للدولة (hostis) ، وتبعاً لذلك جُرد قينّا من وظيفته وحقوق المواطنة وانتخب قنصلاً بدلاً منه رجل ضعيف مسالم يدعى لوقيوس قورنليوس مرولا (Merula) وكان كاهن يوبيتر [٥٢] (flamen Dialis) .

بيد أن قينّا لم يكن بالرجل الذي يُقضى عليه بمثل هذه السهولة ، ولا سيما أنه منذ بضعة شهور فقط كان صلا قد ضرب المثل لكيفية معاملة روما حين يتأزم الموقف فيها . وتبعاً لذلك فإنه ما أن فر قينّا من روما حتى أخذ يجمع قوات كبيرة ، وساعده على ذلك أن أغلب القوات الباقية في إيطاليا كانت تتألف من المواطنين الجدد وهم الذين برز أمامهم في ثوب نصيرهم ، وأن قينّا كسب على الفور الفرقة التي كان صلا قد تركها تحاصر نولا . وعندما طاف قينّا بعدد من المدن الإيطالية الخايفة أحسنت استقباله وأمدته بالقوات والمال على أساس أنه لقي ما لقيه بسبب انتصاره لقضية المواطنين الجدد وكانت قضية هذه المدن . وهكذا لم يجد قينّا صعوبة في جمع موارد وفيرة وحشد جيش كبير وإن كان أكثره في حاجة الى التدريب .

وفي هذه الأثناء كان ماريوس قد وصل الى أترووريا ، وأعلن تحرير عبيد الضياع الكبرى ، وجاهر بمناصرته لقضية المواطنين الجدد ، وشرع في تكوين جيش من العبيد والإيطاليين . هذا الى أنه اتصل بقينّا لينتهي اليه أنه على أتم

(52) App., B.C., I, 64-65; Liv., Ep., 79.

استعداد لإطاعة أوامره بوصف كونه قنصلاً . وقد بادر قينّا الى قبول ما عرضه ماريوس واعتبره بروقنصلاً (٥٣) ، أي أن قينّا تجاهل إلغاء صلا لقوانين سولبيقيوس وهي التي كان أحدها قد أسند قيادة الحرب ضد ميثريداتس الى ماريوس بمرتبة بروقنصل . وبرغم معارضة سرتوريوس للتفاهم مع ماريوس، فإن قينّا رأى مكسباً كبيراً في انضمام ماريوس الى حركته بسبب شهرته العسكرية ، ولذلك اتفقا على الزحف سوياً على روما بحيث يهاجمها ماريوس من الغرب بعد الاستيلاء على أوستيا ، وسرتوريوس من الشمال وقينّا وجاربو من الجنوب والشرق (٥٤) .

وفي وجه هذه الأزمة الحادة ، حين كان ماريوس وقينّا يحشدان الجنود ويقومان بتدريبهم ، سارع أوقتافيوس ومرولا الى تقوية تحصينات روما وبذل السناتو أقصى جهد في حشد قوات للدفاع عن العاصمة . ذلك أنه من ناحية برغم شكوك السناتو في نوايا جنايوس بومبي إسترابون اضطر كارهاً الى الاستنجاد به ليخف الى روما بجيشه الذي كان لا يزال يتولى قيادته في بيقنوم . ومن ناحية أخرى طلب السناتو الى أهالي غاليا عبر البو إرسال نجدات تنضم الى جيش إسترابون ، وكان السناتو يأمل في أن يسرع أهالي هذه المنطقة بإرسال نجداتهم من باب الاعتراف بالجميل لبومبي إسترابون بوصف كونه صاحب القانون (Lex Pompeia) الذي حصلوا بمقتضاه على الحقوق اللاتينية . ولما كان كثيرون من الإيطاليين قد رفضوا إلقاء السلاح في أثناء الحرب وتبعاً لذلك لم يفيدوا من قوانين عامي ٩٠ و ٨٩ ق . م . واعتُبروا

---

(53) Plut., Marius, XLI; E. Badian, Foreign Clientelae, p. 241.

(٥٤) المصادر القديمة لهذا الصراع بين الحكومة الرومانية وخصومها هي :
App., B.C., I, 65-70; Plut., Marius, XLI-XLIII; Sertorius, IV-V; Diod., XXXVIII, 5, 1-3; Velleius, II, 19-21; Dio Cass., fr. 102, 8; Liv. Ep., 79-80; Licinianus, 16-21 F; Florus, II, 9; Oros., V, 19; Eutrop., V, 7; Obsequens, 56 a.

وأهم المراجع الحديثة هي :
Heitland, II, pp. 459-62; C.A.H., IX, pp. 261-4; E. Badian, op. cit., pp. 238-40; Scullard, 1970, p. 73.

بعد الحرب « مستسلمين » ، فإنهم كانوا الناحية الثالثة التي اتجه اليها السناتو مناشداً المساعدة بأن عرض عليهم حقوق المواطنة الرومانية دون قيد أو شرط فيما يبدو عدا مساعدة الحكومة في صراعها مع الجيوش التي كانت تتهددها . وكانت الناحية الرابعة هي متلّوس بيوس وكان لا يزال يقود جيشاً في الجنوب ضد السمنيين .

وقد استجاب إسترابون الى نداء السناتو وخف الى روما بعد فشله ، فيما يبدو ، في التفاهم مع قينّا على تولي القنصلية سوياً لعام ٨٦ ق . م .[٥٥] وأما أهالي غاليا عبر البو فإنه يصعب تقدير مدى استجابتهم . وعلى كل حال فإنه يبدو أن مسارعة قينّا بإرسال قوات الى الشمال حالت دون وصول أية نجدات من هذه الناحية . وأما عن عرض حقوق المواطنة على الإيطاليين «المستسلمين» فإنه لم يكن من شأن تقدم السناتو به في أثناء هذه الأزمة أن يثير حماساً شديداً له بدليل أن عدد الذين استهواهم هذا العرض لم يشكلوا اكثر من ست عشرة كتيبة . وأما عن متلّوس فإنه ذهب الى روما مع جانب من جيشه تاركاً بقيته أمام السمنيين فانقضوا على هذه البقية وأبادوها وبذلك لم يعد هنالك ما يعوق السمنيين عن الانضمام الى قوات قينّا .

وإزاء ذلك كله لم يتوافر لدى الحكومة قوات كافية لمواجهة القوات الكبيرة التي كانت تزحف على روما من أربع جهات . وازداد الموقف حرجاً عندما استولى ماريوس على أوستيا وبذلك سيطر على المصدر الرئيسي لتموين روما . بيد أنه عندما زحف ماريوس على روما واستولى على تل يانيقولوس على الضفة الغربية لنهر التيبر ، أوقف القنصل أوقتافيوس زحفه بالاشتباك معه في معركة ألحقت بماريوس خسائر كبيرة . ويقال إنه كان من الممكن استعادة التل إلا أنه إزاء الخسائر الكبيرة التي منيت بها قوات أخرى للحكومة في معركة خاضتها مع سرتوريوس ، طلب إسترابون الى أوقتافيوس

(55) Cf. Liv., Ep., 79; Velleius, II, 21; Heitland, II, 460-2; E. Badian, 239-40.

ألا يتابع انتصاره . وقد كان من جراء هذه الحيطة بالإضافة الى خسائر المعركة الأخرى وتفشي المرض بين رجال قوات الحكومة أن معنوياتهم انحطت فأخذ الكثيرون منهم ينضمون الى القوات المهاجمة ، بل بُذلت محاولة فاشلة لاغتيال إسترابون ، وكان أقدر قواد الحكومة . فلا عجب أنه عندما مرض وتوفي بعد ذلك بقليل انهار كل أمل للحكومة في الدفاع . ذلك أن قواتها كانت لا تكن أي احترام لأوقتافيوس، وإذ رفض متلّوس قبول دعوة هذه القوات لتولي القيادة مكان القنصل انحازت قوات الحكومة الى خصومها فلم يبق أمامها إلا التفاوض مع قينّا . وقد رفض قينّا التفاوض إلا بوصف كونه قنصلاً ، فأفسح له مرولا مكانه بالاستقالة واعترف السناتو بقينّا قنصلاً . وعندما طلب اليه السناتو أن يقسم بألا يقتل أحداً، رفض بأن يعد بشيء أكثر من أن يكون رحيماً بقدر ما تسمح الظروف. وقبل نهاية عام ٨٧ ق . م . لم يسع السناتو إلا أن يسمح لقينّا بدخول روما . وهكذا في خلال مدة لا تتجاوز عاماً واحداً سقطت روما للمرة الثانية في قبضة قوات من أبنائها .

٢ ــ قينّا وماريوس في روما :

لم يقبل ماريوس العودة الى روما إلا بعد رد اعتباره هو وأعوانه بإلغاء قرار تجريدهم من حقوق المواطنة ، فكان ذلك أول عمل رسمي قام به قينا بعد دخوله روما . وما أن أسرع ماريوس عندئذ بالعودة، وقد امتلأ قلبه حقداً ومرارة ورغبة في التشفي والانتقام للإهانات التي لحقت به في روما وفي أثناء فراره الى أفريقيا ، حتى أطلق لنفسه العنان في الانتقام من خصومه مما أفزع الكثيرين من الأخيار ففروا من روما الى معسكر صلا في بلاد الإغريق . وقد كان من أبرز الذين قتلوا القنصل أوقتافيوس والخطيب ماركوس أنطونيوس وعدد يصعب تحديده من رجال السناتو . وعندما قُدم للمحاكمة القنصلان السابقان مرولا وقاتولوس ، زميل ماريوس في قنصلية عام ١٠٢ ق . م . ، آثرا الانتحار . ولما كان عام ٨٧ قد أوشك على الانتهاء فان قينّا وماريوس

أقيما قنصلين لعام ٨٦ بعد إجراء انتخابات شكلية . وفي أعقاب ذلك اعتُبر صلا عدواً للدولة وصودرت ممتلكاته ودمرت قصوره وألغيت تشريعاته . ولكن ماريوس لم يتمتع طويلاً بقنصليته السابعة إذ أنه مرض وتوفي في الثالث عشر من شهر يناير عام ٨٦ ق . م . ومن المرجح أنه بعد وفاة ماريوس وليس قبلها أفلت زمام المعتقين وعاثوا فساداً خمسة أيام وخمس ليال رهيبة فلم يسع قينّا إلا أن يقضي على الإرهاب بالإرهاب بأن أمر جنوده بقتل هؤلاء المجرمين ذات ليلة وهم نيام في مخيماتهم(٥٦) .

٣ – قينّا سيد روما (Dominato Cinnae)

ا – قينّا والمشاكل العاجلة :

وإذ سيطر قينّا على الموقف أصبح سيد روما قرابة ثلاثة أعوام (٨٦ و ٨٥ و ٨٤ ق . م .) وأخذ يولي عنايته الى معالجة المشاكل العاجلة التي كانت تواجه روما عندئذ . وقد بدأ قينّا بشغل (Suffectio) منصب القنصلية الذي خلا بوفاة ماريوس بإسناد هذا المنصب الشاغر لبقية العام الى لوقيوس فالريوس فلاقوس(٥٧) وهو الذي كان قنصلاً في عام ١٠٠ وقنسوراً في عام ٩٧ ق . م .

وكانت المشكلة الملحة التي تواجه الحكومة الرومانية عندئذ وتستوجب حلاً عاجلاً هي مشكلة المدينين . وقد عرفنا أن البرايتور أسليو دفع حياته

(56) Liv., Ep., 80; Plut., Marius, XLIII-XLVI; Sertorius, V; App., B.C., I, 71-74; Diod., XXXVIII, 5, 4; Cic., de Or., III, 2, 8; pro Sest., 21, 48; 36, 77; in Cat., III, 10, 24; Brutus, 89, 307; pro Scaur., 32, 80; Philip., I 14, 34; Tusc. Disc., V, 19, 55; de Nat. Deor., III, 32, 80; ad Att., IX, 10, 3; Dio Cass., fr. 102, 8ff.

ويلاحظ أن بعض الباحثين يرون أن الروايات القديمة المعادية لماريوس بالغت في وصف المذبحة التي ارتكبها المعتقون ، انظر .

Heitland, II, pp. 463-4; H. Bennet, Cinna and his Times, 1923, pp. 20 ff ; C.A.H., IX, pp. 264-5; T.F. Carney, Marius, pp. 65 ff.; E. Badian, Historia, 1957, p. 339 n. 177; Scullard, 1970, n. 23 p. 410.

(57) App., B.C., I, 75.

ثمناً لمحاولته معالجة هذه المشكلة في عام ٨٩ ق . م . ، وأن صلا حاول تخفيف وطأتها في عام ٨٨ ق . م . بتخفيض سعر الفائدة على الديون ، ولكن هذه المشكلة لم تلبث أن تفاقمت تفاقماً شديداً . ذلك أن الأزمة الاقتصادية الحادة المترتبة على حرب الحلفاء زادتها حدة نتائج الحربين الأهليتين الأخيرتين واستيلاء ميثريداتس على ولاية آسيا . وكان من جراء ذلك أن الدائنين أصبحوا أكثر إلحاحاً في المطالبة بسداد ديونهم والمدينين أكثر عجزاً عن الوفاء بهذه الديون . وقد عولجت هذه المشكلة باتخاذ خطوتين قام بإحداهما برايتور المدينة ماريوس جراتيديانوس[٥٨] (Gratidianus) وبالأخرى القنصل البديل (Consul Suffectus) فلاقوس[٥٩] . وتفاصيل الخطـوة الأولى غير معروفة ولكنه يبدو من حديث بلينيوس في هذا الصدد أن جراتيديانوس اتخذ إجراء قضى بتمغ العملة الفضية . وقد كان من شأن ذلك إما وقف تداول العملة البرونزية المموهة التي يبدو أن الحكومة قررت سكها على نطاق واسع في عام ٨٧ ق . م .[٦٠] — وإن كان يُنسب إصدار هذه العملة الى دروسوس الصغير — وإما السماح باستمرار تداول هذه العملة البرونزية المموهة بالفضة مع خفض قيمتها بحيث تتفق ومعدل النسبة القديمة بين قيمة الفضة والبرونز[٦١] . وكانت الخطوة التي اتخذها فلاقوس خطوة جريئة عنيفة فقد استصدر قانوناً قضى بتسوية الديون لقاء سداد ربعها فقط .

ويتصل بالأزمة المالية اتصالاً وثيقاً ويدل على أنها لم تمسك بخناق الأفراد فحسب بل بخناق الدولة أيضاً تقديم الشاب جنايوس بومبي (فيما بعد بومبي الأكبر) للمحاكمة على أساس أن والده المتوفي القنصل السابق بومبي إسترابون احتفظ لنفسه بالجانب الأكبر من أسلاب الحرب عندما استولى على أسقولوم ولم يقدم حساباً الى الخزانة العامة عن هذه الأسلاب ، وأنه يتعين على الإبن

(58) Cic., de Off., III, 20, 80; Plin., N.H., XXXIII, 6, 27; 9, 132.
(59) Velleius, II, 23; Sallust. B. Cat., 33.
(٦٠) راجع الفصل الخامس : رابعاً – تريبونية ماركوس ليفيوس دروسوس (الصغير) ص ٢٤٨ .
(61) Cf. Heitland, II, pp. 465-6; C.A.H., IX, p. 266; Scullard, 1970, p. 73.

أن يعوض الدولة عما اختلسه الأب . ويبدو أن الدفاع ارتكز على أن حصيلة هذه الأسلاب نُهبت من البيت في أثناء حالة الفوضى التي أعقبت عودة قينّا وماريوس الى روما . وقد تولى هذا الدفاع كوينتوس هورتنسيوس وكان لا يزال في مستهل حياته ومقدراً له أن يصبح من أبرز خطباء ومحامي عصره . وكان يشد أزر المدعي عليه جنايوس بابيريوس جاربو ، وكان من أقطاب العهد الجديد . وعلى كل حال فإن بومبي أُعفي من دفع أي شيء ، وبعد انتهاء المحاكمةبأيام تزوج إبنة جاربو(٦٢) .

وقد أسند قينّا الى فلاقوس مهمة عسيرة وهي أن يقوم رجل مثله ليست لديه أية خبرة ولا كفاية عسكرية بتولي قيادة الحرب ضد ميثريداتس بدلاً من صلا . وقد عرفنا كيف أن فلاقوس تفادى الاشتباك مع صلا ومرق سريعاً في بلاد الإغريق ليسبقه الى آسيا الصغرى حيث قضى عليه مساعده فيمبريا . وعندما قُتل فلاقوس زامل قينّا في تولي القنصلية لعامي ٨٥ و ٨٤ ق . م . جنايوس بابيريوس جاربو (٦٣) .

ويبدو أنه عندما قبض قينّا على ناصية الحال توخى أمرين : وأحدهما هو التزام جانب الاعتدال فكسب بذلك تعاون الكثيرين من النبلاء بدليل أن بعضهم قبل تولي الوظائف العامة في عهده ، ومثل ذلك فلاقوس زميل قينّا في قنصلية عام ٨٦ ق . م . وفيليبوس — خصم دروسوس الصغير — وبربرنا وهما اللذان توليا وظيفة القنسورية في هذا العام ، على نحو ما سيأتي ذكره . وساعد على هذا التعاون نفور فريق من النبلاء من تصرفات صلا غير الدستورية وإصرار هذا الفريق على مناهضة صلا حتى النهاية . وكل هذا يوحي بنجاح سياسة الاعتدال التي اتبعها قينّا وباستقرار الأوضاع وهدوء الأحوال(٦٤) .

---

(62) Plut,, Pomp., IV; Oros., V, 18, 26; Cic, Brutus, 64, 230; Val. Max., V, 3. 6.

(63) Liv., Ep., 83; App., B.C., I, 77.

(64) Carney, Marius, p. 66; Gruen, Roman Politics, pp. 239 ff.; Badian, J.R.S., 1962, pp. 47 ff.; C.M. Bulst, Historia, 1964, p. 307; Cf. Balsdon, J.R.S., 1965, p. 230, Scullard, 1970, n. 26 p. 411

وينهض دليلاً على ذلك ما يحدثنا به شيشرون [٦٥] من أن روما نعمت بالهدوء على مدى ثلاثة أعوام (٨٦ و ٨٥ و ٨٤ ق . م .)

وكان الأمر الآخر الذي توخاه قينّا هو معالجة مشكلة المواطنين الجدد علاجاً ناجعاً ليضمن استقرار الأوضاع الداخلية وكذلك ما هو أهم من ذلك ونعني ازدياد قدرته على تجنيد قوات كافية للصراع المقبل المحتوم مع صلا . ولما كانت المصادر القديمة تخلو من أية إشارة إلى صدور تشريع جديد خاص بتوزيع المعتقين والمواطنين الجدد على القبائل الرومانية جميعاً ، فإنه يبدو أنه إرضاء للذين حرروا بمقتضى قوانين عامي ٩٠ و ٨٩ ق . م . وكذلك للذين لم يفيدوا من هذه القوانين ولكنهم قبلوا عرض السناتو وانضموا الى قوات الحكومة في أثناء الأزمة الأخيرة على نحو ما مر بنا ، إعتُبر أن قانون سولبيقيوس الخاص بتوزيع المعتقين والمواطنين الجدد على القبائل جميعاً لا يزال قائماً ، وذلك فيما يبدو نتيجة لإلغاء تشريعات صلا جميعاً وهي التي كان من بينها إلغاء هذا القانون .

ولا يمكن تفسير انتخاب قنسورين جديدين – وهما فيليبوس وبربرنا [٦٦] – في عام ٨٦ ق . م . برغم عدم انقضاء فترة الخمس السنوات المعتادة على انتخاب القنسورين السابقين في عام ٨٩ ق . م . إلا بالرغبة في تطبيق قانون سولبيقيوس بتوزيع المعتقين والمواطنين الجدد على القبائل كلها . ويؤيد فكرة إحياء قانون سولبيقيوس سالف الذكر أننا نطالع في ملخص ليفيوس [٦٧] « أن المعتقين وزعوا على القبائل الخمس والثلاثين » . (Libertini in quinque et triginta tribus distributi Sunt.) وقد أصدر السناتو في عام ٨٤ ق . م . قراراً نجد فحواه في المصدر نفسه قبل الجملة السابقة ببضعة أسطر حيث جاء : « مُنح المواطنون الجدد حق التصويت بمقتضى قرار السناتو » . (Novis Civibus Senatus Consulto suffragium datum est.)

---

(65) Cic., Brutus, 90, 308
(66) Cic, in Verr., I, 55, 143, de Domo, 32, 84.
(67) Liv., Ep., 84.

وهذا القرار يوحي بأمرين : وأحدهما هو أن عملية تسجيل وتوزيع المواطنين الجدد على القبائل الخمس والثلاثين استغرقت نحواً من عامين . والأمر الآخر هو أن السناتو أراد إدخال الطمأنينة على نفوس المواطنين الجدد من ناحية موقفه في هذه المرحلة إزاء ممارستهم حقوق المواطنة الرومانية بعد توزيعهم على القبائل الرومانية جميعها ، ذلك أن منح حقوق المواطنة لم يكن من اختصاص السناتو وانما من اختصاص الجمعية الشعبية .

واذا كانت مظلمة المواطنين الجدد من حيث تسجيلهم وتوزيعهم على القبائل الرومانية جميعاً قد أزيلت على هذا النحو ، فإن القرائن توحي بأن عملية تسجيلهم وتوزيعهم كانت غير كاملة ، ذلك أنه وفقاً للمصادر القديمة كان عدد المواطنين المسجلين عندئذ ٤٦٣٠٠٠ مواطن على حين أن عددهم في عام ١١٤ ق . م . كان ٣٩٤٣٣٦ مواطن ، ولا يعقل أنه في حوالي ثلاثين عاماً وبعد منح اللاتين والإيطاليين حقوق المواطنة الرومانية لم يزد عدد المواطنين إلا ٦٨,٦٦٤ . ولعل أن مرد ذلك كان الى اضطراب أحول البلاد وتغيب الكثيرين من الإيطاليين في الخارج مثل أولئك الذين كانوا في فرق صلا ، فضلاً عما يحدثنا به شيشرون[٦٨] عن إهمال بعض البرايتورس في إعداد قوائم بطلبات الإيطاليين الراغبين في الحصول على حقوق المواطنة وفقاً لأحكام القانون[٦٩] (Lex Plautia Papiria) .

ب ـ الاستعداد لعودة صلا :

ويبدو أن أهم ماكان يشغل بال كل من قينّا وجاربو في عامي ٨٥ و ٨٤ ق . م . هو الاستعداد لعودة صلا . ذلك أن أبيانوس[٧٠] ـ وهو أكمل المصادر القديمة في هذا الصدد ـ يحدثنا عن قيام هذين القنصلين بحشد الفرق وإعداد

(68) Cic., pro Archia, 5, 9.
(69) Heitland, II, p. 466; C.A.H., IX, p. 268; Scullard, 1970, p. 74 and n. 25 p. 411.
(70) App., B.C., I, 77 ff.

أسطول وتوفير الموارد اللازمة للصراع المقبل المحتوم . وفي أثناء هذا النشاط المحموم كان صلا قد انتصر على ميثريداتس وفيمبريا وبعث في آخر عام ٨٥ الى السناتو بياناً يسرد فيه الخدمات التي أداها للدولة منذ حرب يوجورتا وينعي على المعاملة السيئة التي لقيها هو وصحبه جزاء ذلك ، ويعرب عن نيته في الانتقام من المجرمين المسئولين عن ذلك وكذلك في احترام كل الحقوق التي منحت للمواطنين الجدد . وقد رد السناتو على هذا البيان بأن أوفد الى صلا بعثة تنهي اليه استعداد المجلس للتوفيق بينه وبين خصومه ولتأمينه على حياته ؛ ومعنى ذلك أن السناتو أراد إفهام صلا أنه يتوقع منه أن يسرح جيشه ويعود الى روما مواطناً عادياً . وفي الوقت نفسه طلب السناتو الى قينا وجاربو وقف حشد الجنود والاستعداد للحرب الى أن يصل رد صلا ، فوعدا بذلك ولكنه ما أن رحلت البعثة حتى استأنفا نشاطهما السابق . وفي رأي بعض الباحثين أن قينا سمح بإرسال البعثة لأن شجاعته خانته في هذا الموقف . وربما كان هذا جائزاً ، بيد أنه في ضوء الرسالة التي حملتها البعثة وتصرفات قينا التالية لعل أن الأدنى الى الحقيقة هو أن قينا كان واثقاً من أن صلا المنتصر صاحب الماضي الرهيب في عام ٨٨ ق . م . لن يقبل الوفاق ولا تسريح جيشه ، وتبعاً لذلك أراد قينا أن يظهر في ثوب الرجل المسالم الراغب في الوفاق ولكن الخوف من الانتقام الذي أعرب عنه صلا في بيانه يدفعه الى اتخاذ التدابير اللازمة لدرء ويلات هذا الانتقام عن نفسه وعن مواطنيه . ولا شك في أنه كان من شأن إثارة الخوف والهلع من الأعمال الرهيبة التي ستعقب عودة صلا مساعدة قينا وجاربو على تعبئة قواتهما .

وبعد أن جدد قينا وجاربو إقامة نفسيهما قنصلين للعام التالي (٨٤ ق . م .) زاد نشاطهما في الاستعداد لمحاربة صلا . ولما كانا ينويان محاربته في بلاد الإغريق فإنهما حشدا قواتهما على الشاطىء الشرقي عند أقونا . وبالفعل عبر الجزء الأول من هذه القوات البحر الأدرياتي في الشتاء إلى إلّوريقوم . بيد أنه عندما حل ربيع ٨٤ وبدأ الجزء الثاني في رحلته عبر الأدرياتي صادفته

أنواء اضطرت بعض السفن الى العودة من حيث أتت . وما أن وصلت هذه السفن إلى البر الإيطالي حتّى تسلل الذين كانت تحملهم عائدين الى مواطنهم كرهاً منهم في محاربة مواطنيهم . وحين علمت القوات الباقية في أنقونا بما حدث وقعت فتنة بين رجالها وقتلوا قينّا .

وفي رأي أحد الباحثين أن قينّا ذهب في سياسة الوفاق والاعتدال الى حد محاولة التفاهم مع صلا، وأن فلاقوس لم يُرسل لانتزاع القيادة من صلا وانما لمعاونته في محاربة ميثّريداتس، وأن إرسال قينّا القوات الى إلوريقوم لم يكن بقصد محاربة صلا وانما بقصد تدريبها على القتال(٧١) . ويضعف من هذا الرأي عدة اعتبارات أهمها : أولاً — أنه لم يكن من شأن إرسال قنصل على رأس حملة الى حرب يتولى القيادة فيها البروقنصل صلا استرضاء صلا إطلاقاً ، لأنه كان لا يمكن أن يغيب عن فطنة صلا — ولا سيما بعد اعتباره عدواً للدولة — أن أبسط معنى لمثل هذا الإجراء كان تجريده من القيادة العليا وإسنادها الى القنصل . وثانياً — لو صح حقاً أن حملة فلاقوس أرسلت لمعاونة صلا في محاربة ميثّريداتس لأُنهي أمر ذلك مسبقاً الى صلا تفادياً للعواقب الوخيمة الّتي قد تترتب على عدم معرفة صلا حقيقة هدف هذه الحملة ، وتبعاً لذلك لما اضطر صلا الى الزحف شمالاً ليتخذ موقفاً مناسباً لمنازلة فلاقوس اذا حاول الاشتباك معه . وقد سبق تفسير سبب عدم وقوع الاشتباك . وثالثاً — يدق علينا أن نفهم حشد قوات في إيطاليا وإرسالها عبر البحر لمجرد التدريب في بلاد الإغريق حيث كان صلا موجوداً ، ولا سيما أن هذه القوات قد حشدت برغم أمر السناتو بوقف الاستعداد للقتال حتّى يصل رد صلا على الرسالة الّتي حملتها إليه البعثة . واذا سلمنا جدلاً بأن قينّا حاول أول الأمر استرضاء صلا وكان لديه أمل في الوصول الى وفاق ، فلا بد من أن تكون الانتصارات الّتي أحرزها صلا والتهديدات الّتي تضمنها بيانه قد قضت

---

(71) E. Badian, Foreign Clientelae, p. 242; Waiting for Sulla, J.R.S., 1962, Cf. Scullard, 1970, p. 78 and n 26 p. 411, and n. 31 p. 412.

على كل أمل لدى قينّا في الوفاق المنشود زعماً وحفزته على بذل أقصى الجهد استعداداً للصراع المحتوم مع صلا .

وبعد مصرع قينّا لم يشأ جاربو العودة الى روما لاختيار قنصل (Consul Suffectus) يملأ المكان الشاغر الى أن هدده ترابنة العامة بتجريده من سلطته (abrogatio) فاضطر الى الإذعان ولكنه إزاء سوء الطوالع أوقفت إجراءات اختيار القنصل البديل مرتين ، وعندئذ اضطر المعارضون لجاربو الى أن يذعنوا لإرادة السماء ويتركوا جاربو قنصلاً وحيداً لبقية عام ٨٤ ق. م .

وفي أعقاب ذلك عدل جاربو عن فكرة محاربة صلا في بلاد الإغريق، فاستدعى القوات التي سبق إرسالها الى هناك وشرع في دعم سيطرته على الإيطاليين بأخذ رهائن منهم ضماناً للاحتفاظ بولائهم . ولكن السناتو قاوم هذا الاتجاه (٧٢) مؤثراً وسيلة أفضل وهي كسب ود الإيطاليين بالتوكيد لهم بأنه بعد أن تم توزيعهم على القبائل الرومانية جميعاً لم يعد هناك ما يخشونه على ممارستهم حقوق المواطنة من جانب السناتو ، وهو الذي وقف طويلاً عقبة كأداء في سبيل منحهم حقوق المواطنة ثم عمل بعد منحهم هذه الحقوق على ألا يكون لها أثر فعال في السياسة الرومانية . ولذلك يُرجح أنه في هذا الوقت ولهذا الغرض أصدر السناتو القرار السابق الذكر الخاص بمنح المواطنين الجدد حق التصويت برغم أنه لم يكن من اختصاص السناتو منح هذا الحق ، كما سلف القول . ويبدو أنه كان لهذا القرار بعض الأثر في انتصار فريق من الإيطاليين على الأقل للحكومة الرومانية في مقاومة صلا ، على نحو ما سنرى .

وحوالي هذا الوقت جاء رد صلا على الرسالة التي حملتها اليه بعثة السناتو ، وكان رداً يحمل أسوأ النذر . ذلك أن صلا أنهى الى السناتو أنه يرفض مصالحة خصومه بعد كل الجرائم التي ارتكبوها ، بيد أنه اذا تراءى للدولة أن تكون رحيمة بهم فإنه لن يعترض على ذلك . وطالب بأن يعاد اليه والى كل الذين

(72) Liv., Ep., 84.

فروا لاجئين اليه كل ما سلبوه من ممتلكات ومناصب وامتيازات . وأما فيما يخص ما عرضه السناتو من تأمين سلامة صلا فإنه قال إنه وهو على رأس جيش موال له أقدر من السناتو ليس فقط على تأمين سلامة نفسه وصحبه بل أيضاً على تأمين سلامة السناتو(٧٣) .

وقد كان معنى هذا الرد واضحاً جلياً لا لُبسة فيه ولا غموض وهو أن صلا لن يسرح جيشه وأنه لن يعوق توليه حكم روما حكماً مطلقاً إلا إذا غُلب على أمره في ميدان القتال . ويبدو أن القرار الذي يحدثنا ملخص ليفيوس(٧٤) بأن السناتو أصدره في عام ٨٤ ق . م . وقضى بتسريح الجيوش جميعاً في كل مكان كان يهدف الى جعل احتفاظ صلا بجيشه عملاً غير مشروع . وبطبيعة الحال لم يكن لمثل هذا القرار أي وزن أو قيمة في نظر قائد مظفر مثل صلا لديه موارد وفيرة من أسلاب الحرب ويشد أزره جيش كبير مدرب شديد الولاء له ، ولا سيما أن هذا القائد نفسه سبق أن وطأ بقدمه أقدس التقاليد يوم تخطى بجيشه الصغير سياج روما المقدس واستولى على العاصمة عنوة . وإن دل هذا القرار على شيء فهو يدل على مدى ما كان لرد صلا من أثر عميق أوقع جاربو وأعوانه والسناتو في أشد حالات الفزع والارتباك . وينهض دليلاً على أن جاربو وأعوانه كانوا يدركون عدم جدوى هذا القرار أنهم تابعوا استعدادهم لقتال صلا.

وعندما شارف عام ٨٤ ق . م . على نهايته انتخب لتولي قنصلية عام ٨٣ ق . م . لوقيوس سقيبيو أسياتيقوس (Asiaticus) وجايوس نوربانوس (Norbanus ، الذي تولى اتهام قاييبو سارق كنوز تولوسا) ، وكان كلاهما من أنصار ماريوس ويتسمان بالنشاط وعلى قدر من الخبرة العسكرية ولكنهما لم يكونا من طراز قادر على مغالبة صلا . وعلى كل حال فإنهما بذلا قصارى جهدهما في الاستعداد لمنازلة صلا متخذين موقف الدفاع ، أولهما في قمبانيا

(73) App., B C., I, 79.
(74) Liv., Ep., 84

وثانيهما في آبوليا ، وتولى جاربو — بوصف كونه بروقنصلاً — القيادة في غاليا قيس ألبينا (غاليا هذه الناحية من الألب) . ويبدو أنه لتوفير قاعدة مناسبة لجيوش الحكومة استصدر تريبون العامة ماركوس يونيوس بروتس قراراً بإنشاء مستعمرة في قابوا[٧٥] ، هذا إذا صح أن إنشاء هذه المستعمرة يرجع الى عام ٨٤ ق . م .

ثانياً — الحالة بعد عودة صلا

١ — استيلاء صلا على إيطاليا :

ويحدثنا بلوتارخ[٧٦] بأنه قبل أن يبحر صلا من بلاد الإغريق في ربيع عام ٨٣ ق . م . على رأس قوة تبلغ حوالي ٤٠,٠٠٠ مقاتل أقسم له جنوده بأنهم سيظلون في خدمته بعد عودتهم الى إيطاليا ولن يفعلوا إلا ما يأمرهم به . وعندما وصل صلا الى بروندیسیوم لم يلق أية مقاومة من قوات الحكومة وانضم اليه أنصار أقوياء مثل متلّوس بيوس وماركوس ليقينيوس قراسوس وأهم الجميع الشاب بومبي الذي استغل مكانة أبيه بومبي استرابون في بيقنوم ، حيث كانت له ضيعة واتصالات كثيرة ، وحشد ثلاث فرق وضعها في خدمة صلا . وعندما بدأ صلا زحفه صوب قمبانيا حاول القنصل نوربانوس أن يعوق عبوره نهر فولتورنوس فنشبت بينهما عند قاسيلينوم[٧٧] (Casilinum) معركة هزم فيها نوربانوس فانسحب مع جانب من جيشه الى المستعمرة الجديدة في قابوا وأرسل الجانب الآخر من جيشه الى نيابوليس ، فترك صلا بعض قواته لمحاصرة هذين المكانين ويمم وجهه صوب تيانوم (Teanum) حيث أقبل القنصل الآخر سقيبيو على رأس جيش يسوده اليأس ويرنو الى السلم . وإذ

(75) Cic., de Leg. Agr., II, 33, 89.
(76) Plut., Sulla, XVII.
(٧٧) الأرجح أنها قاسيلينوم (Velleius, II, 25, 4; Florus, II, 9, 19) وليست قانوسيوم (Conusium). الواقعة في قمبانيا (App., B. C., I, 84) .

تناهى أمر ذلك الى صلا لم يشتبك مع سقيبيو وإنما عرض عليه التفاوض وأعلن القائدان هدنة وتبادلا الرهائن . ويتبين مما أورده شيشرون[٧٨] في هذا الصدد أن المفاوضات تناولت حقوق المواطنة والتصويت ووضع السناتو في الدستور . ويتضح من رواية أبيانوس[٧٩] ثلاثة أمور ، وأحدها هو أن المفاوضات سارت سيراً مرضياً لأن سقيبيو أوفد سرتوريوس الى قابوا لاستطلاع رأي نوربانوس . والأمر الآخر هو أن سرتوريوس كان لا يثق في صلا ويعتقد أن القتال سيستأنف حتماً ولذلك فإنه انتهز فرصة الهدنة واستولى على سويسّا أورونقا (Suessa Aurunca) ، وكانت ذات موقع استراتيجي وأعلنت انضمامها الى صلا . والأمر الثالث هو أن رجال صلا كذلك انتهزوا فرصة الهدنة ليكسبوا رجال سقيبيو الى جانبهم . ولا أدل على ذلك من أنه ما أن شكا صلا الى سقيبيو مما قام به سرتوريوس وأعلن سقيبيو انتهاء الهدنة حتّى انضم رجاله جميعاً الى صلا ولم يبق في المعسكر الآخر إلا القنصل وابنه فوقعا في قبضة صلا ولكنه أطلق سراحهما ولم يلبث سقيبيو أن حشد جيشاً جديداً في أترووريا . وبعد أن أطلق صلا سراح سقيبيو حاول إغراء نوربانوس على الدخول معه في مفاوضات ، ولكن نوربانوس رفض الوقوع في أحابيل الشرك الذي وقع فيه زميله وظل محاصراً في قابوا . وإذ ضاق سرتوريوس ذرعاً بعجز القنصلين وسوء تصرفاتهما انصرف الى إسبانيا ، وكان فيما يبدو قد عين حاكماً لولاية إسبانيا الدانية (Hispania Citerior) ولكنه ظل في إيطاليا بسبب الحرب .

وقد انقضى باقي هذا العام (عام ٨٣) والطرفان يبذلان أقصى الجهد لزيادة قوة كل منهما بمختلف الوسائل . وكان من أهم الوسائل التي لجأ اليها صلا هي تأمين المواطنين الجدد على الحقوق التي اكتسبوها[٨٠] . وقد انتخب لقنصلية العام التالي (عام ٨٢) جاربو وماريوس الصغير ابن القائد الكبير برغم

(78) Cic., Philip., XII, 27.
(79) App., B.C., I, 85-86.
(80) Liv., Ep., 86.

أنه لم يكن قد تولى قبل ذلك وظيفة البرايتورية وكان لا يزال شاباً في السادسة [٨١] أو السابعة[٨٢] والعشرين من عمره.

وكان الصراع مريراً في عام ٨٢ ق.م. وانضم في خلاله اللوقانيون والسمنيون الى جانب قوات الحكومة، ووقعت بين الفريقين معارك طاحنة في لاتيوم وأتروريا وأومبريا وغاليا قيس ألبينا. ذلك أن صلا زحف من قمبانيا شمالاً وعند ساقريبورتوس (Sacriportus) التقى بماريوس الصغير في معركة أنزل فيها بهذا القنصل خسائر جسيمة فسلم كثيرون من رجاله الى صلا وفر الباقون الى قلعتي نوربا (Norba) وبراينستي (Praeneste). وإذ احتمى ماريوس في براينستي ترك صلا مساعده أوفلا (Ofella) يحاصر هذه القلعة وزحف بباقي قواته على روما ودخلها دون أية مقاومة[٨٣]، ليجد أن ماريوس كان قد أمر برايتور المدينة لوقيوس يونيوس بروتس داماسيبوس (Damasippus) بإعدام أبرز رجال السناتو، وأن البرايتور نفذ هذا الأمر. وكان من بين ضحايا هذه المذبحة لوقيوس دوميتيوس — أحد قنصلي عام ٩٤ ق.م. — والكاهن الأكبر موقيوس سقايفولا، وكذلك بوبليوس انتيستيوس[٨٤] (Antistius) لأنه كان والد زوجة بومبي الثانية وظُن أنه كان موالياً لصلا بسبب انضمام بومبي الى جانبه[٨٥].

وقد كان لاستيلاء صلا على روما قيمة معنوية كبيرة ولكنه لم يكن في وسعه أن يبقى فيها طويلاً. فقد كانت الحاجة ملحة اليه خارجها حيث كانت قوات الفريق الآخر تحارب بعناد شديد. وإزاء ذلك اكتفى صلا بإلغاء تشريعات قينا وبوضع ترتيبات مؤقتة لضمان سلامة العاصمة وتصريف الشئون العامة وألقى خطاباً في الشعب لتهدئة روعه وإدخال الطمأنينة إلى قلبه

(81) Velleius, II, 26, 1.
(82) App., B.C., I, 87.
(83) App., B.C., I, 89.
(84) Liv., Ep. 86; 87; App., B C., I, 87-89.
(85) Plut., Pomp., IX, 3.

ثم خرج لمواجهة جاربو في أتروريا ، وكان قد أحضر إليها قوات جديدة من غاليا قيس ألبينا بعد فشله في نجدة القوات التي وضعها في بيقنوم تحت قيادة بعض مساعديه واشتبك معها متلّوس وبومبي وانتصرا عليها .

وعندما التقى صلا وجاربو عند قلوسيوم (Clusium) نشبت بينهما معركة طاحنة دون نتيجة حاسمة لصالح أيهما ، ولكن سير المعارك في الجهات الأخرى كان في صالح قوات صلا . ذلك أن بومبي وقراسوس زحفا على أومبريا وانتصرا على قوات الفريق الآخر ، كما أن متلّوس غزا غاليا قيس ألبينا واحتل الإقليم الواقع حول رافنّا . وإزاء تضييق الخناق على براينستّي أرسل اليها جاربو نجدة بعد أخرى ولكن دون جدوى . وكذلك فشل جيش كبير من السمنيين واللوقانيين في الوصول الى براينستّي لاعتّراض صلا سبيل هذا الجيش . ولم تكن نجدة ثالثة أرسلها جاربو أكثر توفيقاً من سابقتيها . وقد أفلح نوربانوس في شق طريقه الى الشمال ليتولى القيادة في غاليا قيس ألبينا ولكنه عندما قام بمهاجمة متلّوس نُكب بهزيمة فادحة وخسائر جسيمة . وحين وصلت في أعقاب هذه الكارثة فرقة من اللوقانيين كانت قد جاءت للانضمام الى نوربانوس ، دعا قائد اللوقانيين نوربانوس ومساعديه الى وليمة وأجهز على كل من لبوا الدعوة وانضم بفرقته إلى الجانب الآخر . ولما كان نوربانوس لم يلب الدعوة فإنه نجا بحياته ولكنه إزاء ماحدث وسيطرة متلّوس على كل المنطقة الواقعة بين الأبنين والألب غلبه اليأس ففر هارباً الى رودس حيث انتحر . وقد كان من جراء ضياع غاليا قيس ألبينا وفشل النجدات في الوصول الى براينستّي أن اليأس ملك جاربو أيضاً فهرب الى أفريقيا ، تاركاً جيشه في أتروريا ليقضي بومبي على جانب منه ويتفرق باقيه . واذا كانت بعض مدن منعزلة في أتروريا مثل فولاترّاي (Volaterrae) ظلت تقاوم ، فإنه أصبح في وسع الجانب الأكبر من قوات صلا في أتروريا أن تبرح هذا الإقليم لمواجهة الخطر الداهم الذي أخذ يتهدد روما . ذلك أنه بعد فرار جاربو انضم ثلاثة من مساعديه بما تبقى لديهم من قوات الى الجيش الكبير المكون

من السمنيين واللوقانيين . وبعد فشل كل هؤلاء في اقتحام طريقهم الى برايـنستي عبر الممر الضيق الذي كان صلا نفسه يشرف على الدفاع عنه تحولوا فجأة صوب روما ، فترك صلا مساعده أوفلا يتابع حصار برايـنستي وخف على عجل الى روما فتمكن من بلوغها قبل العدو . وبعد ظهر اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ٨٢ ق . م . اشتبك الفريقان خارج أحد أبواب روما — وهو باب قولّينا (Porta Collina) — في معركة طاحنة كاد في بدايتها أن يُقضى على الجناح الأيسر الذي كان صلا يقوده ، ولكن انتصار الجناح الأيمن بقيادة قراسوس أتاح لصلا أن يصمد وحفز إحدى فرق العدو على التسليم والانقلاب على رفاقها . ولم تنته المعركة بانهزام العدو إلاّ عند منتصف الليل . ولعل أن المذبحة التي أجراها صلا في الأسرى ، وكان أكثرهم من السمنيين وراح ضحيتها عدد يتراوح تقديره بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ ، لم تقع إلا في ثالث يوم بعد المعركة حين كان السناتو مجتمعاً وأفزع صراخ الذين قيدوا الى حتفهم أعضاء المجلس وأخذوا يتساءلون عما كان جارياً ، أجابهم صلا بألاّ يشغلوا بالهم بمثل هذه التفاهات فهي ليست سوى عقاب بعض المجرمين . وقد قررت هذه المعركة مصير برايـنستي ، لأنه عندما ألقيت داخل أسوارها رؤوس القواد الذين كانوا يحاربون صلا ويحاولون فك الحصار عنها سلمت حاميتها . واذ فشل ماريوس الصغير في محاولته الهرب انتحر ، ولم يلبث أن أُعدم كذلك أغلب الذين بقوا على قيد الحياة من المدافعين عن برايـنستي(٨٦) .

ويمكن القول أنه بسقوط برايـنستي انتهت الحرب الأهلية في إيطاليا على نحو يكاد أن يكون تاماً وأصبح صلا سيد إيطاليا الأوحد ، وإن ظلت مدن قليلة تقاوم لمدد متباينة في طولها . وقد كان أهم من ذلك خصوم صلا الذين كانوا يسيطرون على إسبانيا وسردينيا وصقلية وأفريقيا . فقد كان من الممكن أن يحشدوا في هذه الولايات قوات كبيرة وأن يحرموا روما موارد إسبانيا وقمح سردينيا وصقلية وأفريقيا وكان بالغ الأهمية لمؤنة روما .

(86) App., B.C, I, 87-94.

٢ — إخضاع خصوم صلا في الولايات :

وأما عن سردينيا فإن الرجل المذبذب لوقيوس مارقيوس فيليبوس — وهو القنصل السابق الذي كان خصماً لدروسوس الصغير ثم قبل التعاون مع قينّا بتوليه القنسورية في عام ٨٦ ق. م. — قاد حملة ضد هذه الجزيرة في عام ٨٢ ق . م . وهزم حاكمها كوينتوس أنطونيوس بالبوس (Balbus) وأعدمه[٨٧] وبذلك أراح بال صلا من هذه الناحية وأثبت ولاءه لسيد روما الجديد .

ولما كانت السيطرة على صقلية مهمة ليست يسيرة ولا سيما بعد أن انضم الى جيش حاكم هذه الجزيرة — وهو مارقوس بربرنا ابن قنصل عام ٩٢ ق . م . — أسطول أحضره جاربو من أفريقيا ، فإن صلا أسند هذه المهمة الى بومبي في أواخر عام ٨٢ أو أوائل عام ٨١ ق. م. وبما أن الأوضاع كانت قد استقرت في روما وبما أن بومبي لم يكن قد تولى بعد وظيفة عامة تخوله التمتع بالسلطة التنفيذية (imperium) التي تسمح له بتولي قيادة بعض قوات الدولة ، فإن السناتو منحه سلطة برايتورية[٨٨] . ولم يجد بومبي صعوبة في إخضاع صقلية حيث سرعان ما اختفى بربرنا (ولن نلتقي به ثانية قبل وفاة صلا) تاركاً أمر مساعدة جاربو الى البرايتور السابق مارقوس بروتس . وفي أثناء قيام سفن بومبي بعمليات استطلاعية صادفت بروتس وأحاطت به فآثر الانتحار . وبعد ذلك بقليل وقع جاربو في قبضة قوة أرسلها بومبي الى جزيرة قوسّورا (Cossura = بانتلاريا)، وبأمر من بومبي أُعدم جاربو « وهو الذي تولى القنصلية ثلاث مرات .... وأُرسلت رأسه الى صلا »[٨٩] ، فأخذ أعداء بومبي يطلقون عليه لقب « الشاب الصغير السفاح »[٩٠] (adulescentulus carnifex) . بيد أنه إذا صح ما يرويه شيشرون[٩١] فإن بومبي عامل

(87) Liv., Ep., 86; Heitland, II, p. 501; C.A.H., IX, pp. 277-8.
(88) Liv., Ep., 89; Licinianus, 31 F.
(89) App., B.C., I, 95; Liv., Ep. 89; Val. Max., Max., IX, 13, 2; Eutrop., V, 8.
(90) Val. Max., VI, 2, 8.
(91) Cic., de imp. Gn. Pompei, 21, 61; de Leg. Man., 61

مدن صقلية باعتدال واتزان ولم يواف خريف عام ٨١ ق . م . حتى كان قد وضع أمور الجزيرة في نصابها وبارحها الى أفريقيا .

ويخيم الظلام على أحوال ولاية أفريقيا في أثناء حملة صلا في شرق البحر المتوسط ، ولكنه يبدو أنه عندما استولى قينا على روما فر متلوس بيوس الى هذه الولاية حيث أخذ يحشد بعض القوات[٩٢] الى أن غلبه على أمره البرايتور جايوس فابيوس هادريانوس ، وكان رجلاً ظالماً جشعاً مما حدا بالمواطنين الرومان في أوتيقا الى أن يقضوا عليه حرقاً[٩٣]. وعندما خلف هادريانوس في حكم ولاية أفريقيا جنايوس دوميتيوس أهنوباربوس — صهر قينا[٩٤] — جمع قوة كبيرة وتحالف معه رجل يدعى يارباس (Iarbas) ، وكان قد طرد هيمبسال بن جاودا من مملكة نوميديا الواقعة غربي الولاية الرومانية .

وإزاء ذلك كانت المهمة التي تواجه بومبي في أفريقيا تنبىء بصراع على نطاق واسع . ويحدثنا بلوتارخ[٩٥] بأن بومبي أبحر الى أفريقيا على رأس حملة تتألف من ست فرق و ١٢٠ سفينة حربية و ٨٠٠ سفينة نقل ، وبأنه ما كاد بومبي ينزل جانباً من قواته عند أوتيقا والجانب الآخر عند قرطجنة حتى انضم اليه ٧٠٠٠ مقاتل هجروا جانب العدو . وفي أول معركة مع العدو انتصر بومبي على دوميتيوس أهنوباربوس انتصاراً ساحقاً ، ولقي دوميتيوس حتفه ، ويقال إنه لم ينج من قواته التي كانت تتألف من ٢٠,٠٠٠ مقاتل إلا ٣٠٠٠ فقط . ولم ينقض وقت طويل على هذا النصر حتى كان بومبي قد سيطر على الولاية بأجمعها . وبعد ذلك غزا بومبي نوميديا وقبض على يارباس وأعاد هيمبسال الى عرشه ، ثم قفل راجعاً الى أوتيقا بعد أن أخمد كل مقاومة لحكومة صلا . واذا صح ما يرويه بلوتارخ فان حملة بومبي التي قضى بها على خصوم صلا

---

(92) Liv., Ep., 83.
(93) Liv., Ep., 86; Cic., in Verr., II, 1, 27, 70; Diod., XXXVIII-XXXIX, 11.
(94) Oros., V, 24, 16.
(95) Plut., Pomp., X-XII.

في أفريقيا لم تستغرق إلا أربعين يوماً .

وفي أوتيقا وصل بومبي أمر من صلا بأن يسرح جميع فرقه عدا فرقة واحدة ، وبأن يظل مع هذه الفرقة في ولاية أفريقيا حتى يصل الحاكم الجديد الذي سيخلفه . وقد كان ذلك الأمر أسوأ جزاء على خدمات بومبي ، فقد كان معناه حرمان بومبي شرف الاحتفال بنصره مما أغضبه بطبيعة الحال وأثار ثائرة جنوده الأوفياء وكادوا أن يدفعوه الى الخروج على صلا ، ولكن الحكمة تغلبت آخر الأمر . وعندما عاد بومبي الى روما استرضاه صلا بمنحه حق الاحتفال بانتصاره على نوميديا[٩٦] وكذلك لقب الأكبر[٩٧] (Magnus) . واذا كان بومبي قد احتفل بانتصاره في ١٢ من مارس عام ٨١ ق . م . وفقاً لبعض الباحثين[٩٨] أو عام ٨٠ وفقاً لبعض آخر[٩٩] . أو عام ٧٩ وفقاً لبعض ثالث[١٠٠] ، فإنه هو نفسه لم يستخدم لقب « الأكبر » إلا عندما أُرسل بعد وفاة صلا الى إسبانيا[١٠١] ، على نحو ما سيأتي ذكره .

وعندما أنفذ صلا البرايتــور جايوس أنّيوس لوسقوس (Annius Luscus) الى إسبانيا في أوائل عام ٨١ ق . م . استطاع أن يطرد سرتوريوس منها مؤقتاً . وبعد أن صادف سرتوريوس سلسلة من المخاطر استجاب الى دعوة من اللوسيتاني في عام ٨٠ ليتولى قيادتهم في ثورة جديدة ضد روما ، مما حدا بصلا الى أن ينفذ الى إسبانيا زميله في قنصلية ذلك العام وهو متلّوس بيوس[١٠٢] الذي خاض صراعاً طويلاً مع سرتوريوس . ولنا عودة فيما بعد لتتبع سيرة سرتوريوس في إسبانيا .

(96) Liv., Ep., 89; Frontin, Strat., IV, 5, 1; (Victor) de Vir. Ill., 77; Licinianus, 31 F.
(97) Plut., Pomp., XIII-XIV.
(98) E. Badian, Hermes, 1955, pp. 107 ff.
(99) R.E. Smith, Phoenix, 1960, pp. 1 ff.
(100) C.A.H., IX, p. 280.
(101) Plut., Pomp., XIII.
(102) Plut., Sertor, VI-X; Pomp., XVII; App., B.C., I, 97; 198; Velleius, II, 25.

٣ ــ إقامة صلا دكتاتوراً :

وبانتهاء الحرب الأهلية انتهاء يكاد أن يكون تاماً في نوفمبر عام ٨٢ ق . م . وعودة صلاالى روما انتهت قانوناً وعرفاً سلطته البروقنصلية . وبوفاة أحد قنصلي (ماريوس الصغير) ذلك العام وتجريد القنصل الآخر (جاربو) من حقوق المواطنة وتبعاً لذلك من منصبه ، لم يعد هناك أحد يتولى رسمياً السلطة العليا في الدولة . ولما كان صلا قد أصبح بقوة السيف السيد الأوحد للدولة وكان حريصاً على مراعاة الشكليات ، فإنه لكي يعطي مركزه صبغة شرعية أوعز الى السناتو باختيار حاكم مؤقت (interrex) ، وكان ذلك هو الإجراء المألوف حين يُقتل أو يموت القنصلان أو يتعذر عليهما لسبب أو لآخر ممارسة سلطتهما التنفيذية (imperium) . وقد اختار السناتو زعيمه لوقيوس فالريوس (وكان أحد قنصلي عام ١٠٠ ق. م.) حاكماً مؤقتاً . ويبدو أن الناس تصوروا أن الحاكم المؤقت سيتبع الإجراء المألوف أيضاً في مثل هذه الأحوال وهو اختيار قنصلين بديلين (Consules Suffecti) لملء المنصبين الشاغرين ، ولكن صلا أوعز الى فالريوس باستصدار قانون بإقامته دكتاتوراً . ولما لم يكن في وسع فالريوس ولا أي مواطن آخر معارضة صلا ، فإنه استجاب الى طلبه واستصدر من جمعية المئينات قانوناً بإقامة صلا دكتاتوراً لمدة غير محددة من أجل سن القوانين وتنظيم شئون الدولة [١٠٣] (dictator legibus Scribundis et rei Publicae Constituendae) ومن العسير أن نتبين على وجه اليقين اذا كان قد سبق ذلك أم أعقبه إقرار جميع تصرفات صلا حين كان قنصلاً وبروقنصلاً ، وإقامة تمثال لصلا المظفر السعيد الحظ (Cornelio Sullae Imperatori Felici) ، ولا إذا كان قد صدر

(103) App., B.C., I, 97-99; Plut., Sulla, XXXIII; Cic., de Leg. Agr. III, 2, 5; de Leg., I, 15, 42; ad Fam, XIII, 11, 3; Cf. Bruns, Fontes, 7th ed., 11 l. 22

قرار رسمي بمنح صلا لقب « السعيد الحظ »[١٠٤] (Felix) . غير أن بلوتارخ[١٠٥] يحدثنا بأنه منذ أقام صلا مهرجان انتصاره على ميثريداتس في يناير عام ٨١ ق . م . أمر بأن يُدعى دائماً بهذا اللقب ، وبأنه في رسائله الرسمية الإغريقية كان يدعو نفسه « المقرب الى أفروديتي » (Epaphroditus) . ولا يفوتنا هنا التنويه بأن الإلهة التي كان الإغريق يدعونها أفروديتي كان الرومان يدعونها فينوس وبأنه كان من بين صفاتها أنها إلهة الحظ السعيد .

واذا كان القانون الذي عُين صلا بمقتضاه دكتاتوراً قد نص على أن هذا التعيين كان لمدة غير محددة ، فإن صلا لم يشأ أن يشغل هذا المنصب أكثر من حوالي عامين (من أواخر عام ٨٢ حتى أوائل عام ٧٩ ق. م .) . بيد أنه بمقتضى هذا القانون بعث صلا من جديد وظيفة الدكتاتورية ، وهي التي عزف الرومان عن الالتجاء إليها في كل الأزمات التي مرت بهم منذ انتهاء الحرب البونية الثانية ، وكذلك وضع سابقة خطيرة أخرى الى جانب سابقة استيلائه على السلطة بالقوة . ذلك أنه في الماضي كان الدكتاتور لا يعين بقانون وكان تعيينه لمدة محددة لأداء مهمة معينة ، وأما في حالة صلا فإنه عُين بقانون ولمدة غير محددة لأداء مهمة واسعة الوفاض . وقد كان ذلك سابقة خطيرة حذا حذوها يوليوس قيصر وأعضاء « الحكومة الثلاثية الثانية » . وموطن الخطر هو : أولاً — أنه لم يكن في وسع أحد استخدام حق الاعتراض « الڤيتو » (Intercessio) على أي إجراء يتخذه الدكتاتور ولا استخدام حق الاستئناف (Provocatio) إزاء أي حكم يصدره . وثانياً — أنه كان من شأن استصدار قانون من الشعب بمنح صلا هذه السلطة الواسعة لمدة غير موقوتة بفترة معينة اعتبار إقامة صلا دكتاتوراً أمراً ارتضاه الشعب ، وتبعاً لذلك كان من حق صلا الاحتفاظ بهذا المنصب طالما احتفظ برضاء الشعب . بيد أنه لما كان الشعب لم

---

(١٠٤) راجع :
Heitland, II, pp. 500-1; J.P.V. Balsdon, J.R.S., 1951, pp. 1 ff.;
E. Badian, Historia, 1962, p 229; Scullard, 1970, p. 82 and n. 37 p. 413

(105) Plut., Sulla, XXXIV.

يصدر هذا القانون إلا وسيف الإرهاب مشهور على رقابه . وكان صلا يستطيع في أي وقت استدعاء محاربيه القدماء لشد أزره والفتك بخصومه ، فإنه لم يكن هناك أي أمل في أن يعتزل صلا منصبه إلا حين يتراءى له ذلك أو يدركه الموت . فلا عجب أن أطلق القدماء على عهد صلا من أواخر عام ٨٢ حتى أوائل عام ٧٩ ق . م . « ملكية صلا » (Sullanum regnum) .

ولا أدل على الطابع الفذ الذي اتسم به حكم صلا من أنه في عام ٨١ ق . م . سمح بانتخاب قنصلين ، وفي عام ٨٠ ق . م . تولى أحد منصبي القنصلية الى جانب توليه السلطة العليا بوصف كونه دكتاتوراً . وفي رأي أبيانوس[١٠٦] أن صلا كان النموذج الذي حذا أباطرة الرومان حذوه فيما بعد حين كانوا يعينون قناصل ويتولون أحياناً منصب القنصلية الى جانب توليهم السلطة العليا . وقد فات أبيانوس ما سنراه من أن يوليوس قيصر حاكى صلا في ذلك قبل أن يحاكيه الأباطرة .

وقد كان قنصلا عام ٨١ ق . م . من صنائع صلا وهما ماركوس تولّيوس دقولا (Tullius Decola) وجنايوس دولابلا[١٠٧] (Dolabella) ، وبطبيعة الحال لم يكن لهما وزن ولا قيمة . ومما يجدر بالذكر هنا أنه عندما عاد أوفلاّ مظفراً من محاصرة ماريوس الصغير في برانستي ، وظن أن صلا سيكافأه على خدماته بأن يغض الطرف عن ترشيحه لقنصلية عام ٨١ دون أن يكون قد تولى قبل ذلك البرايتورية بل الكوايستورية ، وأصر على الاستمرار في دعايته الانتخابية برغم أمر صلا له بالانسحاب ، أمر صلا بقتله في الفوروم على مرأى من الناس ، وبرر هذه الجريمة بأن أوفلاّ خالف أوامره[١٠٨] .

وفي عام ٨٠ ق . م . عندما تولى صلا أحد منصبي القنصلية الى جانب توليه الدكتاتورية كان زميله في القنصلية متلّوس بيوس[١٠٩] . ويحدثنا

---

(106) App., B.C., I, 103.
(107) App., B.C., I, 100.
(108) App., B.C., I, 101, Plut., Sulla, XXXIII; Liv., Ep., 89.
(109) App., B.C , I, 103; Cic., pro Roscio Amer., 48, 139.

أبيانوس [١١٠] بأن صلا لم يلبث أن أبعد زميله الى إسبانيا ليتولى قيادة الحرب ضد سرتوريوس . وعندما حل موعد الانتخابات لقنصلية عام ٧٩ ق.م. أوعز صلا بانتخاب أبيوس قلاوديوس بولكر (Pulcher) وبوبليوس سرفيليوس فاتيا (Vatia) قنصلين [١١١] .

وفي خلال الفترة التي تولى فيها صلا سلطته المطلقة عُني في وقت واحد بتحقيق هدفين يتصلان ببعضهما بعضاً وهما وضع دستور جديد واتخاذ الوسائل التي خُيل اليه أنها تكفل بقاء هذا الدستور .

٤ ـ إنتقام صلا الرهيب من خصومه :

وقد كان في مقدمة هذه الوسائل قطع دابر خصوم صلا السياسيين في روما وخارجها ، فهو لم يكتف بالمجازر البشرية التي أجراها عقب انتصاره عند باب قولّينا ولا عقب سقوط برابنستي ونوربا . ذلك أنه حرص على معاقبة كل من أطاع قينّا أو جاربو أو ماريوس أو نوربانوس بأن حمل السلاح ضده وكان لا يزال على قيد الحياة ، أو قدم معونات مالية لهذا الغرض ، أو استضاف صديقاً له من هؤلاء الخصوم أو من يلوذ بهم ، أو أقرض أو اقترض مالاً من أي واحد من هؤلاء . واذا صح ما يرويه شيشرون[١١٢] فإنه من أجل معاقبة هؤلاء جميعاً استصدر صلا قانوناً (Lex Cornelia) بتجريدهم من حماية القانون ومصادرة أملاكهم وبيعها في المزاد العلني دون محاكمة (proscriptio) ، ويمنح مكافأة للوشاة (delatores) الذين يرشدون عن المختفين منهم وكذلك لكل من يقتل واحداً من هؤلاء التاعسين ، وبحرمان أبنائهم وأحفادهم تولي الوظائف العامة وعضوية السناتو . وتطبيقاً لهذا القانون أخذ صلا ينشر تباعاً من حين الى آخر قوائم سوداء بأسماء أولئك الذين جردهم من حماية القانون وصادر أملاكهم (proscripti) .

---

(110) App., B.C., I, 97; 103.
(111) App., B.C., I, 96.
(112) Cic., in Verr., I, 43, 125; 44, 128.

وقد كان من شأن نشر قائمة سوداء بعد أخرى على فترات مع منح مكافآت لقاء الإرشاد عن هؤلاء البائسين أو قتلهم إشاعة انعدام ثقة الناس في بعضهم بعضاً ونشر الفزع والقلق على الحياة والممتلكات مما لم يفض فحسب الى إثارة غريزة حب البقاء بالإسراع الى الإرشاد عن الأصدقاء إثباتاً للولاء وتأميناً للحياة والممتلكات ولو الى حين ، بل أفضى أيضاً الى إثارة أحط النزعات البشرية للانتقام من خصومات شخصية أو للإفادة من شراء الممتلكات المصادرة بأسعار زهيدة . ذلك أنه على مر الزمن لم يكن عسيراً أن تضاف الى القوائم السوداء أسماء أشخاص لا يزالون على قيد الحياة أو بعد قتلهم بذريعة أنهم كانوا خصوم صلا مع أنه لم تكن لهم أو على الأقل لبعضهم أية جريرة سوى أنهم كانوا إما خصوم بعض الوشاة وإما أصحاب ممتلكات أسالت لعاب الطامعين فيهـــا .

ومن اليسير أن نتصور أنه في مثل هذا الجو العفن كان من أكثر المستفيدين من هذه الكوارث المقربون الى صلا . ويبرز من بين هؤلاء معتقه الإغريقي خروسوجونوس (Chrosygon os) . وتعطينا قضية مشهورة من عام ٨٠ ق . م . صورة للأوضاع في هذا العهد الرهيب ولمدى ما وصل اليه تفنن نهازي الفرص . ذلك أن خروسوجونوس كان يطمع في ممتلكات سكستوس روسقيوس أمرينوس (Roscius Amerinus) فدبر الإغريقي الجشع مقتل هذا الرجل الثري ولم يكتف بإضافة اسم القتيل الى قائمة الذين استبيحت دماؤهم بل إنه لكي يضمن حرمان ابن القتيل إرثه وبذلك يؤمن لنفسه الفوز بالغنيمة المنشودة. أوعز الى أحد عملائه بتقديم الإبن للمحاكمة بتهمة قتل أبيه ، مع أنه لم تكن هناك حاجة الى ذلك بعد إدراج اسم القتيل في القائمة السوداء فقد كان ذلك يستتبع مصادرة أملاك القتيل . ولعل أن الباعث على هذا الإمعان في حبك الجريمة كان الوثوق من أنه لن يجرؤ أحد على الدفاع عن المتهم . والواقع أن القضية كانت دقيقة جداً ، لأنه كان لا يمكن الدفاع عن المتهم دون مهاجمة خروسوجونوس ، وكان الاجتراء على مهاجمة مثل هذا الشخص المقرب الى

صلا يتطلب شجاعة نادرة ، وأخطر من ذلك أنه كان من الممكن أن يُحمل قيام محام بارز بذلك على أنه تهجم على صلا عن طريق غير مباشر . وإزاء ذلك أُسندت مهمة الدفاع في هذه القضية الى الشاب النابه ماركوس تولّيوس شيشرون (Tullius Cicero) المعروف بمواهبه الخطابية وبانتمائه الى أسرة مغمورة من أربينوم مثل ماريوس إلا أنها لم تكن من أشياعه . وقد استخدم شيشرون كل مهارته الخطابية ليلتمس لصلا العذر بأنه وسط مشاغله الجمة كان لا يمكنه أن يحيط بتدابير خروسوجونوس الإجرامية ، وينحى باللائمة على هذا الرجل الذي استغل مشاغل صلا وصلته الوثيقة به فأطلق العنان لنفسه الشريرة في ارتكاب الموبقات وإثراء نفسه وحوارييه . وبعد أن دلل شيشرون على أن القتيل كان من أعوان صلا وفوق مستوى الشبهات في ولائه له ، وعلى أن الجريمة الوحيدة التي ارتكبها القتيل هي أنه بجده الدؤوب أصبح صاحب ممتلكات أثارت شهية خروسوجونوس لالتهامها ، كما دلل على براءة المتهم من جريمة قتل أبيه ، قال إنه إذا أمكن التسليم جدلاً بأن القتيل كان من خصوم صلا وبأنه تبعاً لذلك وضع على قوائم الذين أبيح سفك دمائهم وبأن الابن قتل أباه فإنه وفقاً لما قضى به صلا كان يجب إعطاء الابن المكافأة المقررة بدلاً من تقديمه الى المحاكمة ! وهكذا أدى الإمعان في حبك الجريمة الى افتضاح أمر مرتكبيها .

وبالرغم من صدور الحكم ببراءة المتهم فإنه لم يسترد ممتلكات أبيه . ومن المحتمل جداً أن روسقيوس لم يكن الشخص الوحيد الذي قُتل أولاً ثم أُضيف اسمه بعد ذلك الى القوائم السوداء ، ولا سيما اذا عرفنا أن لوقيوس سرجيوس قاتيلينا (Sergius Catilina) قتل أخاه قبل الحرب الأهلية ثم طلب الى صلا إدراج اسمه في القوائم السوداء زاعماً أن أخاه القتيل كان من خصومه ولا يزال على قيد الحياة واستجاب صلا الى طلبه(١١٣) .

(113) Plut., Sulla, XXXII, 2.

وتعطينا المصادر القديمة صورة بشعة للجرائم التي ترتبت على الإجراء الذي اتخذه صلا بتجريد خصومه من حماية القانون (١١٤) مما جلل صلا بالعار أبد الدهر . وإنه لمن العسير تقدير عدد ضحايا هذه الجرائم ، وإن كان أبيانوس يقول إنه كان من بينهم ٤٠ عضواً من أعضاء السناتو و ١٦٠٠ من طبقة الفرسان(١١٥) مما يوحي بأن نكبة الفرسان كانت أسوأ من نكبة غيرهم . ويؤكد فالريوس ماكسيموس أن عدد الذين نُشرت أسماؤهم في القوائم السوداء بلغ ٤٧٠٠(١١٦) ويذهب أوروسيوس الى حد القول بأن عدد ضحايا صلا وصل الى ٩٠٠٠(١١٧) .

وليس هناك ما هو أبلغ في الدلالة على مدى ما انحدر اليه صلا في إنزال نقمته بخصومه السياسيين مما فعله بالبرايتور السابق ماركوس ماريوس جراتيديانوس وكان ابن أخ ماريوس بالتبني . ذلك أنه لما كان القائد الكبير المتوفي قد دفع قاتولوس — زميله في قنصلية عام ١٠٢ — الى الانتحار في عام ٨٧ ق . م . عقب سيطرة قينا على روما ، فإن صلا قضى بأن يقطع جسم جراتيديانوس إرباً فوق مقبرة قاتولوس(١١٨) . ومضى صلا في أعماله الانتقامية الجنونية الى حد أنه أمر بنثر رماد أو بقايا جثة ماريوس في نهر الأنيو فضلاً عن إزالة الأنصاب التي أقيمت تذكاراً لانتصاره على يوجورتا والتيوتون والقيمبرى(١١٩) . بيد أنه يأخذنا العجب من أن الشاب جايوس يوليوس قيصر نجا بحياته برغم أن عمته كانت زوجة القائد الكبير ماريوس ،

(114) Liv., Ep., 88; Plut., Sulla, XXX-XXXII; App., B.C., I, 95; Velleius, II, 28.

ونطالع في أشعار لوقانوس (Lucan., Phars., II, 68-232) أكمل وصف لأعمال الإرهاب التي ارتكبها ماريوس وصلا .

(115) App., B.C., I, 95.

(116) Val. Max., IX, 2, 1.

(117) Oros., V, 21.

(118) Ascon., in Or. in Tog. Cand., 84 C; Florus, II, 9, 26; Lucan., Phars., II, 175.

(119) Cic., de Leg., II, 22, 26.

ومن أن قينّا وماريوس كانا قد عيناه — وهو لا يزال صبياً في الرابعة عشرة من عمره — كاهناً ليوبيتر (flamen Dialis) بعد انتحار مرولا في عام ٨٧ ق . م . ومن أنه كان متزوجاً من قورنليا ابنة قينّا ، ومن أنه رفض إطاعة أمر صلا بأن يطلق قورنليا . ويقال إنه عندما توسل الى صلا فريق من النبلاء ليعفو عن هذا الشاب المرح ويدعه وشأنه لأنه بانغماسه في مجونه ومسراته كان لا يمكن أن يشكل أي خطر ، استجاب صلا الى توسلاتهم ولكنه حذرهم بقوله إنه لن يتمخض خير عن هذا العفو لأن شخصية هذا الشاب تنطوي على أكثر من ماريوس واحد . وقد رأى قيصر عندئذ أن من الحكمة مغادرة روما بل إيطاليا كلها حتى تنقشع هذه الغمة فرحل الى آسيا الصغرى [١٢٠] .

وقد كان من بين الوسائل الأخرى التي توسل بها صلا لتأمين نفسه واستقرار دستوره بعد أن يعتزل الحكم أنه اختار من عبيد خصومه الذين قضى عليهم وصادر أملاكهم ١٠,٠٠٠ عبد كانوا أحدث أولئك العبيد سناً وأقواهم بنية وحررهم وخلع على كل منهم اسم قورنليوس (Cornelius) ، وكان اسم عشيرة الدكتاتور ، واتخذ منهم أعواناً رهن إشارته لحماية شخصه وتنفيذ مشيئته [١٢١] .

ولما كانت القوات التي أعانت صلا تتألف — وفقاً لأقل تقدير — [١٢٢] من ٢٣ فرقة أي من حوالي ١٢٠,٠٠٠ مقاتل ، وكانت الخزانة العامة تنوء بعبء الاحتفاظ بجيش قائم ، وكان صلا قد أدرك قيمة استخدام الفرق الموالية لقائدها في حسم المنازعات السياسية ولكنه لم تغب عن فطنته خطورة تجميع الجنود المرحين في منطقة واحدة ، فإنه سرح محاربيه ومنحهم إقطاعات زراعية من أراضي المجتمعات التي عاقبها بمصادرة أراضيها [١٢٣] وكذلك فيما يبدو

(120) Plut., Caes., I; Suet., Div., Jul., I-III.
(121) App., B.C., I, 100; C.I.L., 2nd ed., I, 2, n. 722.
(122) App., B.C., I, 100, 104.
راجع ملخص ليفيوس (Liv., Ep., 89) حيث جاء أن عدد الفرق كان ٤٧ .
(123) App., B.C., I, 96; 104; Cic., in Cat., II, 9, 20

من أراضي الذين أعدمهم ومن الأرض العامة (ager publicus) . وعلى هذا النحو أنشأ صلا لمحاربيه مستعمرات في جهات متفرقة بإيطالياظناً منه أن هذا الإجراء كان كفيلاً بالاحتفاظ بولائهم فلا يضمن تأمين حياته فحسب بل أيضاً بقاء دستوره بعد أن يتوفى ، لأنه في تقديره كان بقاء هذا الدستور خير ضمان لاحتفاظ محاربيه بإقطاعاتهم . واذا كنا لا نعرف أسماء كل المستعمرات التي أنشأها صلا لمحاربيه ، فإننا نعرف أنه كانت من بينها على الأقل فايسولاي[١٢٤] (Faesulae) وأرّتيوم[١٢٥] (Arretium) وفولاترّاي[١٢٦] (Volaterrae) وقلوسيوم[١٢٧] (Clusium) وسبولتيوم[١٢٨] (Spoletium) وإنترأمنيا[١٢٩] (Interamnia) وبراينستّي[١٣٠] وسويسولا[١٣١] (Suessula) وقابوا[١٣٢] وأوربانا[١٣٣] (Urbana) وأبلا (Abella)[١٣٤] ونولا[١٣٥] وبومبي[١٣٦] ، وذلك فضلاً عن عدد من المستعمرات في لاتيوم مثل أريقيا (Aricia) وبوفيلاّي[١٣٧] (Bovillae) ، الى جانب مستعمرة آلريا[١٣٨] (Aleria) في قورسيقا حيث كانت توجد مستعمرة لمحاربي ماريوس القدماء .

وقد كان طبيعياً أن تترتب على أعمال مصادرة مساحات واسعة من الأراضي

(124) Cic., pro Mur., 24, 49; in Cat., III, 6, 14; Licinianus, 34 F.
(125) Cic., ad Att., I, 19, 4; pro Mur., 24, 49.
(126) Cic., ad Att., 19, 4.
(127) Plin., N.H., III, 5, 52.
(128) Florus, II, 9, 27.
(129) I.L.S., 5671.
(130) Florus, II, 9, 27; Cic., de Leg. Agr., II, 28, 78; in Cat., I, 3, 8.
(131) Liber Coloniarum, p. 237, 5 (in Lachman's Gromatici Veteres).
(132) Liber Coloniarum, p. 232, 1.
(133) Plin., N.H., XIV, 6, 62.
(134) Sallust., Hist., II, 97 M
(135) I.L.S., 6344.
(136) C.I.L., X, p. 89; cf I L S. 6354.

(١٣٧) عن هذه المستعمرات ، راجع :
E. Gabba Athenaeum 1951 pp. 270-2.
(138) Plin., N. H., III, 6, 80.

في أعقاب حرب الحلفاء ثم الحرب الأهلية نتائج اقتصادية واجتماعية خطيرة . فمن ناحية وجد أرباب رؤوس الأموال الفرص سانحة لاقتناء ضياع كبيرة، ومن ثم ازداد من جديد عدد هذه الضياع ، وتبعاً لذلك ازدادت منافستها للمزارع الصغيرة وكذلك ازداد الخطر على الأمن العام من جراء استخدام العبيد ثانية على نطاق واسع في استثمار الضياع الكبيرة . وقد كان هذا الخطر الآن أشد منه في أي وقت مضى بسبب ازدياد الإقبال على مشاهدة مباريات المجالدين مما استتبع ازدياداً مطرداً في عدد العبيد الأشداء المدربين على القتال الصالحين للاشتراك في هذه المباريات . ومن ناحية أخرى إزاء منافسة الضياع الكبيرة مع عدم قدرة الكثيرين من أرباب الإقطاعات في المستعمرات الجديدة على حسن استغلال إقطاعاتهم أو عدم ميلهم الى بذل الجهد في ذلك ، لم تلبث أن ساءت حالهم الى حد بعيد . ولما كان هؤلاء المزارعون الفاشلون قد احتلوا في مجال الزراعة أماكن الآلاف من الإيطاليين ، وهم الذين كانوا أقدر العناصر على النهوض بالزراعة الإيطالية ، فإنه لم يكن هناك مفر من اضطراب الحياة الاقتصادية . ومن ناحية ثالثة لم تكن أمام تلك الجموع الإيطالية الغفيرة التي طُردت من أراضيها وحُرم بعضها حقوق المواطنة الرومانيةولا تلك الأسر التي أُعدم عائلوها وصودرت أيضاً ممتلكاتها إلا أشباح الفاقة والتسول فالسطو والنهب . فلا عجب أن ازداد الناقمون على النظام الجديد ، ولا أن ذات الوسائل التي عمد اليها صلا لدعم هذا النظام أسهمت في هدمه قبل انقضاء وقت طويل على إقامته .

ولا يبعد ما يرويه بلوتارخ (١٣٩) من أنه قد كان من بين الوسائل التي توسل بها صلا لدعم نظامهأنه عمل على توطيد ولاء بومبي له وكانت أعماله في الحرب الأهلية تبشر بمستقبل باهر . وعلى غرار ما كان مألوفاً في الدول الهلينيسية من الالتجاء الى المصاهرات لتقوية الروابط السياسية ، عُني صلا بأن يربط بومبي اليه برباط المصاهرة قبل إيفاده الى صقلية وأفريقيا . ذلك أنه كانت لزوجة

(139) Plut., Sulla, XXXIII, 3; Pomp., IX.

صلا الرابعة متلاّ (Metella) إبنة تدعى آيميليا (Aemilia) من زوجها السابق آيميليوس سقاوروس . وبرغم أن آيميليا كانت متزوجة وحاملاً من زوجها مانيوس جلابريو (Glabrio) وأن بومبي كان متزوجاً من أنتيستيا (Antistia) — وهي التي عرفنا أن أباها أنتيستيوس قُتل قبل ذلك بقليل بأمر من ماريوس الصغير لأن صهره بومبي كان يساند صلا — فان صلا أمر الزوجين بأن يطلقا زوجتيهما وبأن يتزوج بومبي من آيميليا . وقد انصاع الزوجان لأمر الدكتاتور وذهبت آيميليا لتموت في بيت بومبي بعد ذلك بقليل في أثناء الوضع . وهذا الزواج غير المبارك إذ ينهض دليلاً آخر على مدى طغيان صلا وتجرده وكذلك تجرد بومبي من أوليات المبادىء الإنسانية ، يعطينا لمحة عن شخصية بومبي وخلقه . ومن سخرية القدر أن بومبي كان من أكبر معاول هدم دستور صلا .

ثالثاً — دستور صلا

الى أن انتخب صلا أحد قنصلي عام ٨٨ ق . م . لم يكن قد قام بأي دور إيجابي في مناصرة « الأخيار » (Optimates) ضد « الشعبيين » (Populares) . واذا كان زواجه الرابع عندئذ من متلاّ أرملة سقاوروس وسليلة أسرة متلّوس النبيلة قد دعم صلته بالأخيار ، فإن العامل الحاسم في دخوله معترك الصراع الحزبي كان محاولة ماريوس والشعبيين حرمانه قيادة الحرب ضد ميثريداتس . وعندما زحف صلا على روما بجيشه ووضع بذلك سابقة خطيرة كانت بداية لعهد الدكتاتوريات العسكرية في روما لم ينزعج لهذا التصرف الشعبيون فحسب بل الأخيار أيضاً . بيد أنه إزاء ما قام به الشعبيون بعد مغادرته روما من إلغاء تشريعاته واعتباره عدواً للدولة والتنكيل بالأخيار مرتين — إحداهما عقب دخول قينّا وماريوس الكبير روما والثانية قبيل دخول صلا روما ثانية — أصبح صلا بحكم الظروف الخصم الأول الطبيعي للشعبيين وتبعاً لذلك النصير الأكبر

للأخيار . ومعنى ذلك أن إسراف الشعبيين في الانتقام من صلا ومن الأخيار وخصومة صلا الشخصية للشعبيين وعودته مظفراً على رأس جيش كبير هي العوامل التي جعلته ذلك النصير الأكبر للأخيار .

ويبدو أن الظروف القلقة المضطربة التي مرت بها روما منذ تريبونية تيبريوس جراكوس حتى دكتاتورية صلا هي التي أوحت الى الدكتاتور بما كان يجب عمله لاستقرار الأوضاع وعدم تكرار تلك الأحداث المريرة . ولا جدال في أن تلك الأحداث كانت نتيجة طبيعية للحركة الثورية التي بدأها الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس بتحدي حكومة السناتو بقدر ما كانت نتيجة لقصور هذه الحكومة وفسادها وسوء تصرفاتها . وقد كان الباعث الرئيسي على الصراع طوال الخمسين عاماً الماضية يكمن في عجز السناتو عن حل مشاكل الدولة وفي افتقاره الى سند دستوري يبرر حقه في السيطرة على الحكم . وعندما تحدى ترابنة العامة الطبقة الحاكمة وشلوا حركة السناتو في الإشراف على شئون الحكم وأطلقوا عقال جمعية القبائل في التشريع كانت النتيجة سلسلة من الشغب والاضطرابات مما أدى الى الاعتقاد حتى بين أكثر الرومان اعتدالاً في التفكير بأن نجاة روما من أزماتها كانت لا يمكن أن تتحقق في ظل ديمقراطية من هذا النوع .

ويبدو أنه إزاء هذه الاعتبارات رأى صلا أن الأوضاع لا يمكن أن تستقر إلا اذا وضع من النظم ما يكفل استعادة السناتو مكانته القديمة آخذاً في الاعتبار : أولاً — ضرورة تزويد السناتو بسند دستوري يبرر سيطرته على شئون الحكم وكذلك ضرورة تطعيمه بدماء جديدة تساعده على أداء مهمته . وثانياً — أن أقوى أداة في مناهضة السناتو كانت تريبونية العامة . وثالثاً — أن نظام تولي الوظائف العامة لم يُراع دائماً بدقة وأن بعض الحكام كثيراً ما أساءوا استخدام سلطتهم . رابعاً — أنه بعد المثل السيء الذي ضربه هو نفسه باستخدام القوة للسيطرة على الحكم قد جد عامل جديد كان لا بد من إدخاله في الحساب .

وبرغم أن صلا كان قد أصبح سيد إيطاليا بأسرها من ناحية الأمر الواقع

وديكتاتورها من الناحية القانونية de iure ، فإنه لكي يضفي على de facto النظم التي تراءى له وضعها طابعاً قانونياً يكسبها صفة الدوام لم يصدرهـا بقرارات منه وانما فضل أن يرعى القواعد الدستورية وأن يستصدر بها قوانين (Leges Corneliae) من جمعية المئينات حيث لم تصادف تشريعاته بطبيعة الحال أية مقاومة . واذا كان أبيانوس يورد ذكر تشريعات[١٤٠] صلا قبل ذكر مهرجان انتصاره[١٤١] وهو المهرجان الضخم الذي أقامه صلا في أواخر شهر يناير[١٤٢] عام ٨١ ق . م . ، وكان من الجائز أن يكون صلا قد أعلن رسمياً عن بعض مشروعات قوانينه في أواخر عام ٨٢ ق. م. ، فان الأرجح أن إقرار هذه التشريعات واستصدار قوانين بها قد تم تباعاً في خلال عامي ٨١ و ٨٠ ق. م . ويمكن تقسيم دستور صلا أو إصلاحاته الدستورية الى ثلاثة أقسام وهي :

تشريعات لدعم سيطرة السناتو

١ — زيادة عدد أعضاء السناتو :

يحدثنا أبيانوس[١٤٣] بأن صلا أضاف الى أعضاء السناتو « حوالي ٣٠٠ عضو جديد من أفضل عناصر الفرسان » ، ويكتفي ملخص ليفيوس[١٤٤] بالقول بأن صلا استكمل أعضاء السناتو « من طبقة الفرسان » (ex equestri ordine) ، ويذهب صالوستيوس[١٤٥] الى أن صلا اختار من الجنود العاديين أعضاء في السناتو (ex gregariis militibus ..... Senatores) ،

(140) App., B.C., I, 100.
(141) App., B.C., I, 101.
(142) Fast. triumph., [L. Cornelius Sull] a Felix dict (actor)..., III k. Febr.; Val. Max., II, 8, 7; Plin., N.H. XXXIII, 1, 16; Plut., Sulla, XXXIV.
(143) App. B.C., I, 100
(144) Liv., Ep., 89.
(145) Sallust., B. Cat., XXXVII, 6.

ويروي ديونيسيوس الهاليقارناسي[146] أن صلا اختار «من عامة الناس أعضاء في السناتو».

ولعل أن هذه المصادر لا تناقض بقدر ما تكمل بعضها بعضاً إذا فهمنا أن عبارات صالوستيوس وديونيسيوس ليست إلا إسرافاً في التعبير عن حقيقة لا يرقى الشك اليها وهي أن السناتو بتكوينه الجديد كان يضم أعضاء من خارج طبقة السناتو التقليدية ، واذا تصورنا أن حرص صلا على بقاء دستوره قائماً حدا به الى أن يراعي أمرين . وأحد هذين الأمرين هو أن يكون السناتو ممثلاً لأهم الطبقات في المجتمع الروماني وغيره من المجتمعات في الدولة الرومانية بعد أن اتسعت حتى شملت كل سكان إيطاليا تقريباً ، وذلك من ناحية لتغذية السناتو بدماء جديدة تجعله أكثر قدرة على الاضطلاع بأعبائه ومن ناحية أخرى ليدعم حق هذا المجلس في إشرافه على حكم الدولة الرومانية وتوجيه سياستها . والأمر الآخر هو أنه وقد اعتزم إنشاء محاكم جديدة يُختار محلفوها من أعضاء السناتو بدلاً من الفرسان كان لا بد من أن يكون عدد أعضاء السناتو كافياً لتوفير المحلفين اللازمين للمحاكم الجديدة كما كان لا بد من تعويض الفرسان عما نزل بهم من كوارث وعن انتزاع المحاكم من قبضتهم على أمل أنه بذلك يقضي على الصراع والتنافس بين طبقتي السناتو والفرسان ويكفل نجاح النظام الجديد لتشكيل هيئات المحلفين . وإزاء ذلك يبدو أن صلا عندما عُني بأمر استكمال أعضاء السناتو لم يتجه فحسب إلى المصادر المألوفة لشغل عضوية السناتو ، أي الأسر النبيلة بل أيضاً الى أبرز مناصريه ممن لم ينتموا الى طبقة السناتو . ويبدو أن صلا في تشكيل هيئات المحلفين الجديدة إستوحى فكرة جايوس جراكوس ودروسوس الصغير بأن اختار من الفرسان لعضوية السناتو عدداً يقارب عدد باقي الأعضاء الآخرين ، أي حوالي ٣٠٠ من ٦٠٠ أو ٢٥٠ من ٥٠٠ . ومن المرجح أن هؤلاء الأعضاء الجدد من الفرسان لم

---

(146) Dionys. Hal., V, 77, 5.

يختاروا فقط من أولئك المسجلين في مئينات الفرسان الثمانية عشر – وهي التي كان لا يسجل فيها إلا شباب النبلاء – بل أيضاً من طبقة الفرسان (ordo equester) بأوسع معنى الكلمة ، أي ممن يملكون نصاب الفرسان ، مع مراعاة اختيار عدد من أعضاء الأرستقراطيات المحلية في المجتمعات التي مُنحت حقوق المواطنة حديثاً . ومهما يكن من أمر الكيفية التي اتبعها صلا في تكوين السناتو الجديد ، فإنه لا شك في أنه قد حرص أشد الحرص على ألا يختار لعضوية السناتو إلا أولئك الذين كانوا يناصرونه أو على الأقل لم تُعرف عنهم ميول شعبية (١٤٧) .

ومن أجل تفادي أي نقص في عدد أعضاء السناتو – وهو الذي ظلت عضويته لمدى الحياة مثل ما كانت عليه الحال من قبل – زاد صلا عدد الكوايستورس الى عشرين وقرر أن يصبحوا جميعاً أعضاء في السناتو بعد انتهاء عام توليهم مناصبهم(١٤٨) . ولما كانت جمعية القبائل هي التي تنتخب الكوايستورس ، فإنه كان من شأن دخول الكوايستورس السناتو عاماً بعد آخر أن يصبح السناتو على مر الزمن مجلساً انتخبه الشعب بطريق غير مباشر . وقد ترتب على تزويد السناتو بأعضائه على هذا النحو نتيجة أخرى سيأتي ذكرها فيما بعد .

٢ – تقليم أظافر ترابنة العامة :

اذا كان تطور الأحداث في خلال القرنين الماضيين قد جعل من ترابنة العامة سلاحاً ماضياً في قبضة أوليجاركية السناتو لوقف أي تشريع لا ترضى عنه هذه الأوليجاركية ، فإن الأحداث التي شهدتها روما منذ تريبونية تيبريوس جراكوس قد أثبتت كيف أنه كلما تولى تريبونية العامة رجل نشيط موهوب

(147) Cf. Heitland, II, pp. 509-10; C.A.H., IX, pp. 286-8; E. Gabba, Athenaeum, 1956, pp. 124 ff.; Scullard, 1970, pp. 83-4, and no 39 p. 414.

(148) Tacit., Ann., XI, 22; Bruns, Fontes, 7th ed., III, 12.

وقعت اعتداءات على الدستور وتلقت الأوليجاركية لطمات عنيفة زعزعت مكانتها وسلبتها سيطرتها على شئون الحكم وتوجيه سياسة الدولة . ومعنى ذلك أنه طالما بقيت اختصاصات ترابنة العامة كما هي بقي كامناً فيها احتمال تكرار ذلك كله . ولم يكن صلا في حاجة الى استعادة تاريخ روما منذ أن كان صبياً في عام ١٣٣ ق . م . فقد كانت تكفيه تجربته الشخصية عندما حرمه تريبون العامة سولبيقيوس قيادة الحرب ضد ميثريداتس دون أي مبرر .

ولتفادي خطورة ترابنة العامة لم يذهب صلا الى حد إلغاء وظيفتهم وإنما اكتفى بثلاثة إجراءات : كان أحدها[١٤٩] هو أن من يتولى تريبونية العامة لا يحق له على الإطلاق أن يتولى بعد ذلك أية وظيفة عامة أخرى . وقد كان من شأن ذلك صرف ذوي الكفاية والطموح عن تولي تريبونية العامة ، وبانصراف الأكفاء عن تولي هذه الوظيفة تفقد أهميتها وتنعدم خطورتها . ومن الجائز أنه اذا كان صلا لم يقرر منع تولي التريبونية مرتين فإنه اشترط انقضاء فترة عشر سنوات بين هاتين المرتين ، وذلك على غرار ما سنرى أنه قرره فيما يخص سائر الوظائف العامة الأخرى .

وكان الإجراء الثاني خاصاً بحق ترابنة العامة في اقتراح مشروعات القوانين (ius rogandi) . ويذكر ملخص ليفيوس[١٥٠] أن صلا حرمهم هـذا الحق حرماناً كاملاً (omne ius legum ferendarum ademit.) . ولكن الشك يساور بعض الباحثين في مدى صحة هذه العبارة لأنهم يرون أنه قبيل استعادة تريبونية العامة كل اختصاصاتها في عام ٧٠ ق . م . استصدر اثنان من ترابنة العامة قانونين[١٥١] يتبين من ديباجة[١٥٢] أحدهما (Lex Antonia

(149) App., B.C., I, 100.

وعن فقدان تريبونية العامة أهميتها مؤقتاً ، راجع :

Suet., Div. Jul., V; Velleius, II, 30; Cic., ap. Ascon., 81 C.

(150) Liv., Ep., 89.

(151) Cf. Heitland, II, p. 506, n. 1; C.A.H., IX, p. 293, n. 3, p. 896; Scullard, 1970, n. 41, p. 415

de Termessibus) ومما أورده صالوستيوس[١٥٣] بصدد القانون الآخر (Lex Plotia de reditu Lepidanorum) أن السناتو وافق على مشروعي هذين القانون قبل إقرارهما واستصدار قانونين بهما . ومعنى ذلك أن ترابنة العامة لم يُحرموا حق اقتراح مشروعات القوانين ، ولكن هذا الحق قُيد بضرورة حصولهم على موافقة السناتو (patrum auctoritas) على أي مشروع قانون قبل تقديمه الى الجمعية الشعبية ، وهو ما يبدو أنه اشترط كذلك بالنسبة للحكام ذوي السلطة التنفيذية (imperium) . ومن الواضح أنه كان من شأن هذا القيد دعم سيطرة السناتو والقضاء على أي مشروع قانون خطر يقترحه أي حاكم أو تريبون من ترابنة العامة ، أو بعبارة أخرى تزويد السناتو بحق دستوري في الهيمنة على شئون الحكم وتوجيه سياسة الدولة بقتله في المهد أي تشريع لا يقره وبموافقته على ما يتراءى له من مشروعات القوانين التي تُقدم تلقائياً أو بإيعاز منه . بيد أنه مما يجدر بالملاحظة ان الباحثين لا يتفقون على أن تاريخ القانونين السالفي الذكر اللذين استصدرهما تريبونان من ترابنة العامة سابق لاستعادة ترابنة العامة كل اختصاصاتهم في عام ٧٠ ق . م .

وكان الإجراء الثالث هو إضافة قيود أخرى على حق ترابنة العامة في الاعتراض (intercessio) الى جانب ما كان جايوس جراكوس قد فرضه على هذا الحق في قانونه الخاص بتحديد الولايات القنصلية قبل انتخاب القنصلين سنوياً . ولا جدال في أن صلا لم يلغ حق ترابنة العامة في الاعتراض[١٥٤] . ويوحي ما يحدثنا به شيشرون[١٥٥] من أن ترابنة العامة ظلوا يمارسون نجدة (auxilium) العامة من بطش الحكام ذوي السلطة التنفيذية (imperium) بأن صلا قصر حق الترابنة في الاعتراض على ذلك الأمر وهو الذي كان الهدف الأصلي لهذا الحق .

(152) Bruns, Fontes, 7th ed., I, 3, 14; C.I.L., I, 2nd ed., 2, 389 ; for date cf. Broughton, Mag. Rom. Rep. II, 139 and 141 n. 8.
(153) Sallust., Hist., III, 47 M.
(154) Sallust., Hist., II, 21 M; Caes., B.C., I, 5, 1; 7, 3.
(155) Cic., de Leg., III, 9, 22.

وأما حرمان ترابنة العامة حقهم في تقديم المتهمين في جرائم سياسية للمحاكمة أمام جمعية القبائل فانه كان نتيجة طبيعية للنظام القضائي الجديد الذي وضعه صلا وسيأتي الحديث عنه فيما بعد .

٣ ـ كبح جماح الحكام :

ا ـ تنظيم تولي الوظائف العامة :

لكي يستعيد السناتو مكانته السابقة حين كان زمام الحكومة في قبضته ، لم يكتف صلا باشتراط الحصول على موافقة السناتو (patrum auctoritas) على كل مشروع قانون قبل عرضه على الشعب لإقراره واستصدار قانون به بل اتخذ إجراءات أخرى توخياً للحيطة .

وكان أحد هذه الإجراءات يهدف الى منع صغار الشبان من سرعة تولي الوظائف العامة وما يصاحب ذلك من ممارستهم السلطة العليا قبل أن ينضجوا نضجاً كافياً مما قد يدفعهم الى الشطط ، وكذلك الى منع تكرار ما حدث في حالة ماريوس وقينّا وجاربو من تولي القنصلية سنوات متتالية . ومن أجل ذلك استبدل صلا بقانون فيلّيوس (Lex Villia annalis) الصادر في عام ١٨٠ ق . م . قانوناً جديداً ينص على الشروط الواجب توافرها فيمن ينخرطون في سلك الوظائف العامة (cursus honorum) . وهذه الشروط هي : أولاً ــ ألا يتولى القنصلية إلا من سبق له تولي البرايتورية ، والا يتولى البرايتورية الا من كان قد تولى قبل ذلك الكوايستورية . وثانياً ــ ألا تقل سن المرشح للقنصلية عن ٤٢ عاماً وللبرايتورية عن ٣٩ عاماً وللكوايستورية عن ٣٦ عاماً . وثالثاً ــ أن يكون قد مضى عامان على الأقل بين تولي أية وظيفة عامة وتولي وظيفة أعلى منها[١٥٦] . ورابعاً ــ أن تكون قد انقضت عشرة أعوام على الأقل بين تولي الوظيفة ذاتها مرتين .

---

(١٥٦) في رأي بعض الباحثين أن الثلاثين كانت السن الأدنى لتولي الكوايستورية ، ولكننا نرجح أنها كانت السادسة والثلاثين ، وذلك استناداً الى حجتين : وإحداهما هي قول شيشرون بأنه كان=

ب ـ تضييق اختصاصات القنسورس :

منذ إنشاء وظيفة القنسورية حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لم تقتصر اختصاصات القنسورس على تسجيل المواطنين الرومان وممتلكاتهم تبعاً لقبائلهم وتوزيعهم على المئينات والفئات المختلفة وفحص قوائم الإحصاء ومعاقبة الذين أعطوا بيانات غير صحيحة ، بل كانت تشمل كذلك معاقبة الذين اتسموا بالجبن في القتال أو بددوا الأموال العامة أو أساءوا السلوك في حياتهم الخاصة ، هذا الى جانب التعاقد باسم الدولة على استثمار ممتلكاتها وتنفيذ المشروعات العامة .

وحتى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كان اختيار أعضاء السناتو من حق الحكام الذين يتمتعون بأعلى سلطة تنفيذية ، وكانوا في الظروف العادية القناصل وفي الظروف غير العادية الدكتاتوريين . بيد أنه في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد استصدر تريبون العامة أوفينيوس قانوناً (Lex Ovinia) تقـــرر بمقتضاه أن يتولى القنسورس اختيار أعضاء السناتو . وتبعاً لذلك أصبح

= يتعين على المرشح لأية وظيفة أن يكون قد أتم السادسة والثلاثين من عمره (Cic., de imp. Cn, Pomp., 21,62) والحجة الأخرى هي أنه وفقاً لقانون صلا كان الذي يتولى البرايتورية في التاسعة والثلاثين من عمره لا يستطيع تولي القنصلية قبل الثانية والأربعين أي بفارق ثلاث سنوات . وتبعاً لذلك وللفقرة الواردة عند شيشرون يكون الأرجح وجود فارق ثلاث سنوات كذلك بين سن المرشح الكوايستورية وسن المرشح للبرايتورية . ويؤكد ذلك إشتراط مرور سنتين بين تولي وظيفتين متفاوتتين في المرتبة، ذلك أن هذا الشرط كان يقتضي في الواقع مرور ثلاث سنوات بين الترشيح لوظيفتين متفاوتتين في المرتبة : إحدى هذه السنوات الثلاث هي سنة تولي الوظيفة التي نجح المرشح في الفوز بها ، والسنتان الأخريان هما المدة الواجب انقضاؤها بين تولي الوظيفتين الأدنى والأعلى .

عن المصادر العديدة التي تتناول قانون صلا الخاص بتنظيم تولي الوظائف العامة وعن مناقشة هذا الموضوع مناقشة مستفيضة ، راجع :

T. Mommsen, Staatsrecht, I, 3rd ed., pp. 570 ff.; Heitland, II, 507-9; C.A.H., IX, pp. 289-91; A.E. Astin, The Lex Annalis Before Sulla, 1958; E. Badian, J.R.S , 1959, pp 81 ff.; Scullard, 1970, p. 85 and n. 42 p. 415.

القنسوران اللذان كانا ينتخبان كل خمسة أعوام – عادة – يراجعان القائمة القديمة لأعضاء السناتو لملء الأماكن الشاغرة في المجلس ويعدان قائمة جديدة بأعضاء السناتو (lectio senatus) . وعلى مر الزمن اتخذ القنسوران من الحق الجديد الذي اكتسبوه ذريعة لبسط رقابتهم الخلقية على أعضاء السناتو فأصبحوا لا يراجعون القوائم القديمة لأعضاء السناتو من أجل ملء الأماكن الشاغرة فحسب بل أيضاً ليستبعدوا من عضوية المجلس أولئك الذين كانوا في رأيهم لسبب أو آخر غير صالحين لهذه العضوية وذلك بوضع قرين اسم كل واحد من هؤلاء الأعضاء العلامة (nota censoris) الدالة على عدم الصلاحية ، ثم يعدون قوائم جديدة تشمل الصالحين لعضويته من الأعضاء القدامى والأعضاء الجدد الذين ارتأوا إدراجهم . وقد ظل القنسورس يمارسون رقابتهم الخلقية بدقة وعناية طالما تمسك المواطنون الرومان بوجه عام والقنسورس بوجه خاص بمستوى خلقي رفيع . بيد أنه وسط الانهيار الخلقي العام والصراع الحزبي العنيف كثيراً ما أساء القنسورس استخدام سلطتهم في هذا الصدد ، فكثيراً ما حدث أن رد قنسوران اعتبار أعضاء في السناتو كان قنسوران سابقان قد استبعداهم .

وهكذا إزاء تمتع القنسورس بالسلطة التي تخول لهم إدراج من يشاءون في عداد أعضاء السناتو واستبعاد من يشاءون منهم ، كان في وسع القنسورس إدخال تعديل على تكوين السناتو بل كان من الممكن أن يكون هذا التعديل على نطاق واسع إذا تولى القنسورية مستقبلاً ، مثل ما حدث أحياناً قليلة في الماضي ، رجل أو آخر من ذوي الميول الديمقراطية . فمن أجل تحرير أعضاء السناتو من رقابة القنسورس على سلوكهم العام والخاص ، والحيلولة دون عبث هؤلاء الحكام بتكوين السناتو جعل صلا تزويد هذا المجلس بأعضائه مستقبلاً يتم تلقائياً على نحو ما أوضحنا آنفاً . وبمقتضى هذا الإجراء جرد صلا القنسورس من حق اختيار أعضاء السناتو وإعداد قوائم بهم ، وهو الحق الذي رأينا أنهم استمدوا منه حق مراجعة القوائم القديمة واستبعاد منها ما يشاءون وإعداد قوائم

جديدة يدرجون فيها من يشاءون .

ويبدو أن صلا لم يقف عند هذا الحد في تضييق اختصاصات القنسورس ، ذلك أن شيشرون يحدثنا بأنه في عامي ٨٠ و ٧٥ ق . م . تولى القناصل بأنفسهم التعاقد باسم الدولة على المشروعات العامة[157] (censoriae locationes) .

وهكذا على غرار ماكان من أمر صلا إزاء تريبونية العامة وهي التي رأينا أنه حدّ من اختصاصاتها دون إلغائها ، نرى أنه أيضاً أنقص تلك الاختصاصات الواسعة التي كانت للقنسورية[158] لكنه لم يلغ تلك الوظيفة [159] .

جـ ـ تقييد حكام الولايات :

أدرك صلا من تجربته الشخصية الخطر الذي كان يمكن أن يتهدد الحكومة في روما من حاكم ولاية على رأس جيش موال له . حقاً إنه لم يحدث أن كان دائماً تحت إمرة حكام الولايات قوات رومانية كبيرة ، بيد أن ذلك كان يحدث حينما وحيثما نشأت أخطار تقتضي وجود مثل هذه القوات على نحو ما رأينا في حالات متلّوس وماريوس وصلا مثلاً . وفضلاً عن القوات الرومانية القليلة التي كانت توجد في كل ولاية لحفظ الأمن فيها والدفاع عنها الى حين وصول قوات أخرى فإنه كان في وسع حكام الولايات حشد ما يشاءون من القوات محلياً .

وحتى عشرينات القرن الثالث قبل الميلاد كان لا يشغل وظيفة البرايتورية سنوياً سوى شخصين اثنين هما برايتور المدينة (praetor urbanus) وبرايتور الأجانب (praetor peregrinus) . وعندما أُنشئت أولى ولايتين رومانيتين وهما ولاية صقلية وولاية سردينيا وقورسيقا تقرر في عام ٢٢٧

(157) Cic., II in Verr., III, 7, 18.
(158) Schol. Gronov., p. 326 St. (in Cic., Div. in Caec., 3, 8); Cic., de Leg., III, 12, 27; cf. Cic., pro Cluent., 54, 148.
(159) Heitland, II, p. 521; C.A.H., IX, pp. 299-300; Scullard, 1970, p. 84, and n. 40 pp. 414-5; cf. L.A. Taylor, Voting Districts, p. 119.

ق . م . أن ينتخب سنوياً برايتوران آخران ليتوليا حكم هاتين الولايتين .
وكذلك عندما أنشئت ولايتا إسبانيا الدانية والقاصية تقرر في عام ١٩٧ ق . م .
انتخاب برايتورين آخرين سنوياً لحكم هاتين الولايتين الجديدتين ، وبذلك
أصبح عدد البرايتورس الذين ينتخبون سنوياً ستة . وبرغم أن عدد الولايات
زاد تباعاً فأصبحت توجد قبل عهد صلا تسع ولايات (بإنشاء ولايات أفريقيا
ومقدونيا وآسيا وغاليا ترانس ألبينا وقيليقيا) ثم عشر ولايات في عهد صلا
(بإنشاء ولاية غاليا قيس ألبينا ، كما سيأتي ذكره) فإن عدد البرايتورس ظل
ستة الى أن زاد صلا عددهم على نحو ما سنرى بعد قليل . ذلك أن الرومان
بدلاً من أن يزيدوا عدد البرايتورس ليتوفر لديهم عدد من الحكام يقابل عدد
الولايات لجأوا الى فكرة إطالة (prorogatio) مدة تمتع القناصل والبرايتورس
بسلطتهم التنفيذية (imperium) عاماً واحداً أو أكثر في الخارج ليتولوا
حكم الولايات بصفة كون الواحد منهم عندئذ بروقنصلاً (pro consule)
أو برو برايتوراً (pro praetore) — أي قائم بعمل قنصل أو برايتور— وفقاً لمرتبته
الأصلية . بيد أنه كثيراً ما كانت الظروف تقتضي القنصل في أثناء العام الأصلي
لحكمه أن يتولى زمام الأمور في ولاية مهددة بالخطر ، على نحو ما رأينا مثلاً
في حالة ماريوس . وبما أنه كانت توجد الى ما قبل دكتاتورية صلا تسع
ولايات على حين أنه لم يوجد سنوياً إلا قنصلان وستة برايتورس فإنه لم يكن
ميسوراً تغيير حكام الولايات في كل عام مما كان يستوجب إطالة مدة بعض
حكام الولايات لأكثر من عام واحد لكي يتوفر العدد اللازم من هؤلاء الحكام.
وهنا كان يكمن خطر مزدوج وهو إتاحة الفرصة أمام الحكام
الطموحين لدعم صلاتهم بالقوات التي تحت إمرتهم ، وكذلك لجمع ثروات
طائلة تساعدهم على تحقيق أطماعهم .

إن مصدراً قديماً واحداً من القرن الثاني للميلاد يذكر أن صلا أضاف
أربعة برايتورس جدد[١٦٠] . أي أن صلا جعل عدد هؤلاء الحكام عشرة .

---

(160) Pompon., in Dig., I, 2, 2, 32.

غير أنه يتبين من كتابات شيشرون ــ وهو الذي عاصر صلا وتدرج في سلك الوظائف العامة حتّى تولى القنصلية في عام ٦٣ ق. م. وكان من أبرز الشخصيات في الحياة العامة الرومانية حتّى مصرعه في أواخر عام ٤٣ ق. م. ــ أنه منذ عهد صلا حتّى عهد يوليوس قيصر كان عدد البرايتورس بانتظام ثمانية (١٦١) . ويؤيد ما جاء عند شيشرون قول فلّيوس إن قيصر زاد عدد البرايتورس من ثمانية الى عشرة(١٦٢) . وفي ضوء ذلك يميل أغلب الباحثين الى القول بأن صلا زاد عدد البرايتورس من ستة الى ثمانية ، وبأنه على هذا النحو أصبح في الإمكان تغيير حكام الولايات سنوياً .

ويرفض اليوم كثيرون من الباحثين(١٦٣) وجهة نظر مومسون القائلة بأن النظم التي وضعها صلا قضت بمنع القناصل والبرايتورس من مغادرة إيطاليا ــ أي من تولى قيادات عسكرية خارج إيطاليا ــ في أثناء عام حكمهم (١٦٤) . وذلك لتفادي ما فعله صلا نفسه . بل يرى البعض أنه لم يوجد تفاهم ضمني على عدم تولي القناصل والبرايتورس قيادات عسكرية في أثنـــاء عام حكمهم (١٦٥) . والواقع أن القرائن لا تؤيد وجهة نظر مومسون ، ذلك أنه في عام ٧٧ ق. م. عهد السناتو الى القنصلين دقيموس بروتس ومارقوس ليفيانوس (Livianus) بتولي قيادة الحرب في إسبانيا ضد سرتوريوس ولكنهما رفضا هذه المهمة فأُسندت الى بومبي ، وأنه في عام ٧٤ ق. م. أنفذ السناتو القنصلين لوقيوس لوقولّوس (Lucullus) ومـــارقوس قوتّا (Cotta) الى الشرق ليتولى أولهما حكم ولاية قيليقيا وقيادة القوات الرومانية في حرب ميثريداتس الثالثة وليتولى ثانيهما حكم ولاية بيثونيا ، وكذلك أرسل مارقوس أنطونيوس قرتيقوس (Creticus) ــ ويحتمل أنه كان برايتوراً

(161) Cic., ad Fam, VIII, 8, 8; cf. pro Milo, 15, 39; in Pis., 15, 35.
(162) Vellius, II, 89
(163) Cf. C.A.H., IX, pp. 293-8; Scullard, 1970, p. 85, and n. 44, pp. 415-6.
(164) T. Mommsen. Roem. Gesch. (Eng. Trans.), Bk. IV, Ch. X « The Sullan Constitution ».
(165) J P.V. Balsdon, J.R S., 1939, pp. 58 ff.

في ذلك العام – لمحاربة القراصنة . ولا تعوزنا الأمثلة للتدليل على تولي القناصل والبرايتورس قيادات عسكرية في إيطاليا ذاتها منذ انتهاء دكتاتورية صلا حتى دكتاتورية قيصر ، وحسبنا أن نذكر مثلين قريبين جداً من عهد صلا ، ذلك أنه في عام ٧٨ ق . م . تولى القنصلان قمع الاضطرابات التي وقعت في أتروريا ، وأنه في عام ٧٢ ق . م . تولى القنصلان مهمة إخضاع ثورة العبيد في إيطاليا بزعامة سبارتاقوس (Spartacus) وعندما فشلا في ذلك تولى الأمر البرايتور ماروقوس ليقينيوس قراسوس .

ومما يجدر بالملاحظة كذلك أنه إذا كان صلا قد هيأ الأسباب لتغيير حكام الولايات سنوياً ، فإننا مع ذلك نجد أمثلة لحكام ظلوا في ولاياتهم أكثر من عام واحد . وإذا كانت الظروف التي اكتنفت ولاية قيليقيا يمكن أن تفسر بقاء بوبليوس سرفيليوس إساوريقوس (Isauricus) في هذه الولاية من عام ٧٨ الى عام ٧٥ ق . م. ، فإنه يصعب تبين الأسباب التي بررت تولي جايوس فرّس (Verres) مثلاً حكم صقلية ثلاثة أعوام (٧٣ و ٧٢ و ٧١ ق. م .)

وفي ضوء ما أسلفناه يتعذر علينا قبول الرأي القائل بأن النظم التي وضعها صلا اقتضت منع القناصل والبرايتورس من تولي قيادات عسكرية في أثنـــاء عام حكمهم الأصلي ، وبقصر توليهم هذه القيادات على العام التالي لذلك مباشرة ، بل إنه ليتعذر القول بأنه كان يتعين تغيير حكام الولايات سنوياً . وإذا كنا لا نستبعد أن صلا كان يتمنى أوضاعاً من هذا القبيل فإننا نعتقد أنه لم تغب عن فطنة رجل من طراز صلا أنه كان يستحيل تحقيق هذه الأمنية في كنف الظروف التي كانت روما تمر بها وأنه كان من العبث وضع نظم تقضي بذلك ، لأن مثل هذه النظم كانت تحول دون اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الظروف الطارئة التي قد تنشأ في إيطاليا أو في الإمبراطورية والتي قد تبلغ من الخطورة ما يقتضي إرسال أحد القنصلين أو كليهما أو بعض البرايتورس لمعالجة الأزمة . ولعل الأرجح أن يكون صلا قد ترك للسناتو حرية التصرف وفقاً لمتطلبات الظروف التي تواجهها الدولة . وبعد أن هيأ صلا الأسباب لتغيير حكام الولايات

سنوياً، وقلم أظافر ترابنة العامة، وقضى بعد تقديم أي مشروع قانون الى الشعب دون موافقة السناتو ، خيل إليه أنه سيصبح في وسع السناتو أن يمارس دون منازع حقه القديم في إسناد القيادات العسكرية الى الذين يطمئن اليهم حين تنشأ الحاجة الى ذلك ، وتحديد الولايات القنصلية والولايات البرايتورية ، وتغيير الحكام وفقاً لمقتضيات الظروف .

ولمواجهة الخطر الذي كان صلا يخشاه من جانب حكام الولايات ، استصدر قانوناً جديداً للخيانة العظمى (Lex maiestatis) لم يصل الينا نصه ، ولكن شيشرون يمدنا بفحوى بعض نصوصه وهي التي يبدو أنها كانت تعتبر الحاكم قد ارتكب خيانة عظمى اذا غادر ولايته ، أو زحف بجيشه عبر حدودها ، أو خاض حرباً ، أو غزا إقليماً دون إذن من السناتو والشعب الروماني (١٦٦) ، بل اذا ظل في ولايته مدة تزيد على ثلاثين يوماً بعد وصول خليفته (١٦٧) .

وسنرى بعد قليل كيف أن كل إجراءات الحيطة التي اتخذها صلا كانت ضرباً من العبث بعد أن ضرب هو نفسه أسوأ مثل ، وبعد أن حوّل ماريوس الجيش الروماني الى جيش من المتطوعين المحترفين وأصبح الجنود لا يدينون بالولاء للدولة وإنما لقائدهم لأن مصير حياتهم أصبح مرتبطاً بمستقبل قائدهم . وإزاء القوة الغشوم والصوالح الشخصية والأطماع الجامحة لم تعد القوانين الوضعية ولا التقاليد العريقة الدستورية تجدي فتيلاً ، فقد أصبح السيف هو الفيصل ، أو بعبارة أخرى أمهر القواد وأقدرهم على اكتساب ولاء أكثر الجنود ، وتبعاً لذلك أصبح النظام الجمهوري الروماني يعالج سكرات الموت .

٤ ــ اختيار أعضاء الجماعات الدينية :

مر بنا أن رغبة العامة في القضاء على احتكار أوليجاركية السناتو عضوية

---

(166) Cic., in Pis. 21, 50; pro Cluent., 35, 97; ad Fam., III, 11, 2.
(167) Cic., ad Fam., III, 6, 2.

الجماعات الدينية حدث بتربيون العامة جنايوس دوميتيوس في عام ١٠٤ ق. م. الى استصدار القـانون (Lex Domitia de Sacerdotiis) الذي قضى بجعل اختيار أعضاء الجماعات الدينية عن طريق الانتخاب الشعبي .

ولما كان دستور صلا يهدف الى دعم سيطرة السناتو ، وكانت الجماعات الدينية تقوم بدور هام في الحياة السياسية ، وكانت عضوية هذه الجماعات تكسب المتمتعين بها نفوذاً ومكانة اجتماعية مرموقة ، وكان قانون دوميتيوس قد حرم نبلاء السناتو ميزة اختيار أغلب أعضاء هذه الجماعات من صفوفهم ، فإن صلا لم يترك هذا الوضع على حاله . ذلك أن الدكتاتور ألغى نظام اختيار اعضاء الجماعات الدينية بالانتخاب الشعبي وفقاً لقانون دومتيوس وأعاد النظام الذي كان معمولاً به من قبل ، وبذلك أصبحت ثانية كل جماعة دينية هي التي تتولى بنفسها اختيار أعضائها [١٦٨] . وفضلاً عن ذلك فإن صلا زاد أعضاء كل جماعة الى خمسة عشر عضواً [١٦٩] . ولم يكن من شأن ما أجراه صلا من تعديل في هذا الصدد دعم مكانة السناتو فحسب بل أيضاً توفير ما كان استقرار الأوضاع يقتضيه من وجود تجانس ووفاق بين السناتو والجماعات الدينية ، وكذلك إتاحة الفرص لمكافأة أعضاء السناتو على خدماتهم العامة باختيار بعضهم أعضاء في هذه الجماعات .

نظم إدارية ومالية واجتماعية

منذ القرن الثاني قبل الميلاد حتى عام ٨٢ ق . م . [١٧٠] كان شأن منطقة غاليا قيس ألبينا شأن باقي إيطاليا من حيث أنه لم يكن لها حاكم خاص بها وانما تخضع لإشراف القناصل ومساعديهم . ولا جدال في أن وجود قبائل مشاغبة عند الألب بجوار هذه المنطقة قد استلزم وضع حاميات في هذه المنطقة

---

(168) Dio Cass., XXXVII, 37, 1.
(169) (Victor), de Vir. Ill., 79; Liv., Ep. 89; Cic., ad Fam., VIII, 4, 1.
(170) Cf. App., B.C., I, 66; 87; Cic., II, in Verr., I, 13, 34.

التي كانت بمثابة الباب الشمالي لإيطاليا ، ولا في أن إعفاء القناصل والبرايتورس من مهمة العناية بأمر هذه المنطقة كان يساعد على انصرافهم الى مهامهم المدنية في أثناء عام حكمهم مما كان من شأنه المساعدة على استقرار الأوضاع الداخلية وكذلك على الإقلال من فرص تولي الحكام قيادات عسكرية في أثناء عــام حكمهم الأصلي. وقد مر بنا أن الوثائق تخلو من ذكر اسم أي حاكم لولاية غاليا قيس ألبينا قبل عام ٧٥ ق.م.[١٧١] ولا توجد أية قرينة على أن هذه الولاية أنشئت فيما بين هذا العام وأوائل عام ٧٩ ق.م. حين انتهت دكتاتورية صلا .

وفي ضوء هذه الاعتبارات جميعاً نميل الى ترجيح ما يذهب اليه أغلب الباحثين من أن صلا هو الذي أنشأ ولاية غاليا قيس ألبينا. ويحدثنا مصدر قديم[١٧٢] بأن صلا كان آخر روماني زاد نطاق السياج المقدس (pomerium) لمدينة روما وبأنه وفقاً للعرف السائد كان لا يقدم على مثل هذا العمل إلا من بسط رقعة الإقليم الروماني في إيطاليا . وإذا كان من المحتمل أن الحدود الجنوبية الشرقية لمنطقة غاليا قيس ألبينا قد أرجعت شمالاً من نهر آيسيس (Aesis) الى نهر روبيقون (Rubicon) قبل عهد صلا ، فلعل أنه عندما جعل الدكتاتور هذه المنطقة الولاية الرومانية العاشرة أجرى تعديلاً آخر في حدودها الجنوبية إما عند الوسط وإما عند الغرب مما أعطاه حق التعديل الذي أدخله على سياج روما المقدس[١٧٣].

وقد مر بنا أن صلا زاد عدد البرايتورس فيما يرجح الى ثمانية . وقد كان من شأن ذلك أنه في أثناء العام الأصلي لحكم البرايتورس يتولى اثنان منهم أمر القضايا المدنية ويتولى الستة الباقون رياسة المحاكم الجنائية الجديدة التي أنشأها صلا ، وأنه بعد انتهاء العام الأصلي يتوفر من القنصلين والبرايتورس الثمانية عدد

(171) Sallust., Hist., II, 98 d(M); Plut., Lucullus, V.
(172) Seneca, de Brev. Vit., 13, 8.
(173) Scullard, 1970, p. 85 and n. 43 p. 415; Cf. E. Badian, Historia, 1962, p. 232; Roman Imperialism, 2nd ed., 1968, p. 34.

كاف لتغيير حكام الولايات الرومانية العشر في كل عام بقدر ما تسمح الظروف .

وقد مر بنا كذلك أن صلا زاد عدد الكوايستورس الى عشرين . وقد كان لهذا الإجراء هدفان عرفنا أحدهما وهو تزويد السناتو تلقائياً في كل عام بأعضاء جدد . والهدف الآخر هو توفير عدد كاف من الموظفين لمباشرة شئون الدولة المالية بصفة خاصة . وكان يُوضع كوايستور تحت إمرة كل من القنصلين ويعمل كوايستوران أمينين للخزانة العامة (quaestores aerarii) ، ويتولى كوايستور أوستيا (quaestor Ostiensis) الإشراف على تموين روما بالقمح وعلى سفن الأسطول الراسية في هذا الميناء . وكان يوزع أربعة كوايستورس على أربعة مناطق في إيطاليا للإشراف على الشئون المالية والإدارية هناك وفيما يبدو أيضاً على باقي سفن الأسطول الراسية في الموانى الموجودة في هذه المناطق ، وذلك لأن هؤلاء الموظفين كانوا يدعون كوايستورس الشئون الإيطالية (Quaestores Italici) أو كوايستورس الأسطول (Quaestores Classici) . وأما الأحد عشر كوايستوراً الباقون فإن اثنين منهم كانا يلحقان بحاكم ولاية صقلية ، ويلحق كوايستور واحد بحاكم كل ولاية من الولايات الرومانية التسع الأخرى .

وإزاء سوء حالة روما المالية ألغى صلا قانون بيع القمح بسعر أقل من سعر السوق [١٧٤] . ويحدثنا أبيانوس [١٧٥] بأنه لكي يعوض صلا الخزانة العامة عما استنزفته الحروب الأهلية فرض ضرائب جديدة على الولايات والدول التابعة لروما دون أن يحترم الإعفاءات التي سبق لبعض المدن التمتع بها بمقتضى المعاهدات التي عقدت معها أو المنح التي أعطيت لها في مقابل خدماتها الماضية . ويحدثنا شيشرون [١٧٦] بأن صلا كان يساوم المدن التي فرض عليها الضرائب ليعفيها من دفع هذه الضرائب لقاء دفع مبالغ معينة فوراً . ويقول شيشرون

(174) Licinianus, 34 F.; Sallust., Hist., I, 55, 11 M.
(175) App., B.C., I, 102.
(176) Cic., de Off., III, 87.

في إحدى مرافعاته المشهورة [١٧٧] إن صلا استغل سلطته المطلقة فأصدر قراراً بإعفاء بعض الأفراد من ديونهم للخزانة العامة وإن السناتو أبرم عندئذ هذا القرار ولكنه عاد بعد وفاة الدكتاتور فألغى القرار وألزم المنتفعين به بسداد ديونهم كاملة للخزانة العامة . ولم يقف سخاء صلا عند هذا الحد ، اذا جاز تسمية مثل هذا السفه سخاء، ذلك أن بلوتارخ [١٧٨] يحدثنا عن العطايا التي أجزلها لذوي الحظوة لديه من الموسيقيين والممثلين الهزليين والنساء الجميلات وأدنى فئات المعتقين . ولم تكن هذه العطايا من جيب صلا الخاص فالدكتاتور يعجز عن وضع يده في جيبه بقدر ما يسهل عليه وضعها في جيوب غيره ومدها الى الخزانة العامة . وينهض دليلاً على أن صلا لم يترفع عن مد يده الى الأموال العامة وابتزاز مبالغ طائلة أنه بعد وفاته وانهيار دستوره بُذلت محاولات متكررة لاسترداد بعضها من ابنه فاوستوس (Faustus) ولكن دون طائل [١٧٨] .

ووسط مشاغل صلا بوضع نظم سياسية وإدارية ومالية وقضائية من ناحية ، وانهماكه في جرائم القتل وأعمال المصادرة والسلب والنهب من ناحية أخرى ، والانغماس في الدنس والفجور ومجالس الشراب [١٧٩] من ناحية ثالثة ، أبى الدكتاتور فيما يبدو إلا أن يترك مسحة ولو عابرة من عهده على كل ناحية من نواحي الحياة في المجتمع الروماني . ذلك أنه استصدر كذلك قوانين للحد من البذخ ولتهذيب الأخلاق ! ذلك أن المصادر القديمة تذكر أن صلا استصدر قوانين للحد من الإسراف في الإنفاق على المآدب [١٨٠] والجنائز والمقابر [١٨١] وكذلك لتهذيب الأخلاق [١٨٢] . ويحدثنا بلورتاخ [١٨٣] بأن صلا نفسه خرج على قوانينه بالموكب الجنائزي الفخم الذي أقامه لزوجته متلاً

(177) Cic., II in Verr., III, 81-2.
(178) Plut., Sulla, XXXIII; Comp. Lysander and Sulla, III.
(178) Cic., pro Cluento, 94; de Leg. Agr., I, 12; Ascon., 72.
(179) Plut., Comp. Lysander and Sulla, III.
(180) Plut., Sulla, XXXV; Gell, II, 24, 11; Macrob., Saturnalia, III, 7, 11.
(181) Plut., Sulla, XXXV; Cic., ad Att., XII, 36, 1.
(182) Plut., Comp. Lysander and Sulla, III
(183) Plut., Sulla, XXXV

وبالمآدب المترفة وحفلات الشراب والعربدة التي أقامها ليعزي بها نفسه على فقد زوجته العزيزة . ويمضي بلوتارخ فيروي كيف أن صلا لم يلبث أن فتنته شابة مطلقة تدعى فالريا (Valeria) فلم يضع وقتاً وتزوجها .

النظام القضائي (١٨٤)

١ ـ تمهيد :

حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، كانت الأساليب المتبعة في الدولة الرومانية للفصل في القضايا الجنائية أساليب معقدة بالية تتسم بكثير من ظواهر نشأة هذه الدولة حين كان الرومان لا يزالون مجتمعاً صغيراً في وسع مواطنيه مباشرة كل شئونهم العامة . ذلك انه اذا كانت نظمهم قد أسندت الى البرايتورس النظر في القضايا المدنية ثم امتد اختصاصهم الى القضايا الجنائية القليلة الأهمية ، فإن الفصل في القضايا الجنائية الخطيرة كان من اختصاص القناصل وكانوا يتولون تنفيذ أحكامهم فوراً بمقتضى ما كانت سلطتهم التنفيذية تنطوي عليه من حق إرغام المواطنين قسراً (Coercetio) على إطاعة النظام واحترام القانون . وإزاء إيغال القناصل في استخدام سلطاتهم القضائية وحق القسر (Coercetio) وازدياد حقوق الشعب صدر تشريع بعد آخر لحماية المواطنين بإعطائهم حق استئناف (provocatio) الأحكام الشديدة ضدهم في أول الأمر أمام جمعية الكور (Comitia Curiata) وفيما بعد أمام جمعية المئينات وجمعية القبائل عندما خلفت هاتان الجمعيتان جمعية الكور في الأهمية . وتبعاً لذلك أصبح

---

(١٨٤) عن هذا النظام ، راجع :
Heitland, II, pp. 522-9; C.A.H., IX, pp. 304-8; L. Homo, Roman Political Institutions, pp. 87-9; W. Kunkel, Untersuchungen Z. Entwicklung d. Rom. Kriminalverfahrens in Vorsullanischer Zeit (Bayer Akad. d. Wiss. Phil.-Hist. Kl., Abhand, N.F 56) Munchen, 1962; Scullard, 1970, pp. 85-6, and n 45 p 416.

يحق للمواطنين الذين صدرت ضدهم أحكام بالنفي أو بالإعدام[185] أو بدفع غرامات كبيرة تزيد على ٣٠٢٠ آس (multa suprema) استئناف الحكمين الأول والثاني أمام جمعية المئينات والحكم الثالث أمام جمعية القبائل بوصف كون هاتين الجمعيتين محكمتي الشعب (iudicia populi) . وعلى هذا النحو غدا الشعب ممثلاً في جمعيتي المئينات والقبائل بمثابة المحكمة العليا للجنايات .

وإزاء قيود حق الاستئناف على القناصل في تنفيذ أحكامهم بحيث أصبح منذ القرن الثاني قبل الميلاد لا يمكن في الظروف العادية نفي أي مواطن روماني أو إعدامه أو اقتضاء غرامة كبيرة منه قبل سماع استئنافه ورفضه ، درج القناصل على اتباع أقصر الطرق وذلك بأنه عند وجود قضية تدخل عقوبتها في نطاق العقوبات القابلة للاستئناف كان القناصل يعرضون القضية مباشرة على الجمعية الشعبية المختصة . وهكذا اذا كان اختصاص القناصل القضائي قد ظل باقياً دون أن يُمس ، فإن دورهم أصبح لا يتعدى إقامة الدعوى . ومعنى ذلك أن شأنهم أصبح شأن ترابنة العامة الذين اتخذوا لأنفسهم حق إقامة الدعوى أمام جمعية القبائل على الذين ارتكبوا جرائم سياسية .

ومن الجلي أن قيام جمعية القبائل أو جمعية المئينات بالفصل في القضايا كان عملية بطيئة شديدة التعقيد دون أي ضمان لإحقاق الحق . ذلك أنه اذا سلمنا جدلاً بأن المواطنين الذين كانوا يؤمون اجتماعات هاتين الجمعيتين كانوا يمثلون الأمة الرومانية مصدر السلطات ، فإننا يجب أن نسلم كذلك بأنه لم يكن في وسع أية جمعية من هاتين الجمعيتين القيام بدور هيئة مُثلى من المحلفين ، فقد كانت كل منهما تضم أعداداً كبيرة من المواطنين وليست لغالبيتهم العظمى دراية بالقانون ولا أي قدر من الثقافة أو الكفايـــة يمكنهم من تفهم دقائق القضايا ولا سيما المعقدة منها ، وذلك فضلاً عن عجزهم عن الحيدة أو عدم التأثر بمظاهر استدرار العطف .

---

(١٨٥) في عام ١٩٥ ق.م. صدر قانون يحظر جلد المواطنين الرومان .

وعندما أدرك الرومان عجز الجمعيتين الشعبيتين عن ممارسة سلطاتهما القضائية ممارسة مباشرة عند وقوع أمور خطيرة تمس الصالح العام كانوا يلجأون كلما اقتضى الأمر الى أن تفوض جمعية المئينات عنها حاكماً واحداً أو أكثر من الحكام المتمتعين بالسلطة التنفيذية (imperium) في تشكيل محكمة غير عادية (quaestio extraordinaria) واحدة أو أكثر للفصل في قضايا بعينها باسم الشعب . وبناء على التفويض الذي أعطاه الشعب للحاكم كان الحاكم يشكل هيئة (Consilium) المحكمة من بعض الشخصيات البارزة للفصل في القضايا موضع التفويض . وبما أن الشعب هو الذي فوض الحاكم في تشكيل محكمته وكانت هذه المحكمة تفصل في القضايا بأمر الشعب وباسمه فإنه كان لا يجوز استئناف أحكامها .

وفي ضوء ما أوضحناه كانت جمعية المئينات – على الأقل حتى عهد جايوس جراكوس – هي التي تملك حق إعطاء التفويض لأي حاكم يتمتع بسلطة تنفيذية في تشكيل محكمة غير عادية تستطيع إصدار أحكام تمس حياة المواطنين . وكان الإجراء المألوف هو أن يقترح السناتو على جمعية المئينات إصدار قرارها بالتفويض المطلوب ، بيد أن السناتو لم يلبث أن اغتصب لنفسه حق إعطاء التفويض بإنشاء محاكم غير عادية كلما خرج من أزمة من الأزمات التي تهددت صوالحه أو سلامة الدولة ، على نحو ما مر بنا بصدد الحديث عن جايوس جراكوس . ولما كان هذا الاغتصاب افتئاتاً على حقوق الشعب فإن جايوس استصدر قانونه الذي حظر إصدار حكم يمس حياة (Caput) أي مواطن روماني دون إذن من الشعب (iniussu populi) أي دون أن يكون الشعب هو الذي أعطى تفويضاً بتشكيل المحكمة التي تصدر مثل هذا الحكم . ووسط الصراع الحزبي الذي احتدم لم يعد الشعب ينتظر اقتراحاً من السناتو بإعطاء تفويض بتشكيل محكمة غير عادية بل دأب منذ عام ١١٣ ق. م . على إعطاء هذا التفويض تلقائياً . واذا كان مثل هذا التصرف يعتبر تحدياً للسناتو ، فإنه لم يكن أكثر من استخدام الشعب حقوقه الدستورية .

ومثلما أثبتت جمعية المئينات عجزها عن الفصل في القضايا الجنائية المعقدة التي كانت عقوبتها الإعدام أو النفي أثبتت جمعية القبائل في القضايا الجنائية التي كانت عقوبتها دفع تعويض كبير أو غرامة فادحة . وقد كان أطراف النزاع في مثل هذه القضايا حكام الولايات الرومانية من ناحية وأهالي الولايات الذين وقع عليهم الضرر من ناحية أخرى . ولما كان أحد طرفي النزاع في كل قضية من هذه القضايا مواطناً رومانياً والطرف الآخر من غير المواطنين ، فإنه وفقاً للعرف المتبع كان أمر هذه القضايا في بادئ الأمر من اختصاص برايتور الأجانب ، وكان كالعادة عند عرض القضية عليه يشكل هيئة من المحكمين للفصل في موضوع القضية . ونعرف أنه على الأقل في عام ١٧١ ق . م . عندما شكت ولايتا إسبانيا من جور حاكميهما ، أمر السناتو البرايتور بتشكيل محكمة لتقدير الأضرار وقضت هذه المحكمة على الحاكمين المتهمين بتعويض المتضررين ولكنهما تهرباً من رد ما ابتزاه بمبارحة روما . وفي عام ١٧٠ ق . م . اتبع السناتو إجراء أكثر صرامة ضد برايتور سابق يدعى لوقرتيوس جالبا (Lucretius Galba) وكان قد أساء معاملة حلفاء روما في بلاد الإغريق إبان الحرب المقدونية الثالثة . ذلك أن السناتو أوعز الى اثنين من ترابنة العامة بمساءلة جالبا أمام جمعية القبائل وفرضت عليه الجمعية غرامة كبيرة . بيد أنه في عام ١٤٩ ق . م . برأت هذه الجمعية ذاتها متهماً أكثر إجراماً وهو سولبيقيوس جالبا وكان قد أوسع الإسبان نهباً وتقتيلاً ، ولكنه نجح في استدرار شفقة أعضاء جمعية القبائل بظهوره هو وأفراد أسرته أمامهم وهم يذرفون الدموع ويرتدون ثياباً مهلهلة .

غير أن هذه المهزلة أدت الى نقل الفصل في قضايا سوء الإدارة في الولايات — ولا سيما أن هذه القضايا أخذت تزداد باطراد — من جمعية القبائل الى محكمة خاصة . ذلك أنه في العام نفسه الذي برىء فيه سولبيقيوس جالبا استصدر تريبون العامة لوقيوس قالبورينوس بيسو (Calpurnius Piso) قانوناً (Lex Calpuria) قضى بإسناد الفصل في قضايا ابتزاز أموال

أهالي الولايات الى محكمة دائمة هي المحكمة الدائمة لاسترداد الأموال المبتزة (quaestio perpetua de rebus repetundis) . ومنذ إنشاء هذه المحكمة حتى عهد جايوس جراكوس كان محلفو هذه المحكمة لا يختارون إلا من أعضاء السناتو . ومنذ عهد جايوس جراكوس حتى عهد صلا — باستثناء فترة قصيرة فيما بين عامي ١٠٦ و ١٠٤ ق . م . — كان المحلفون يختارون من الفرسان .

وفي ضوء معلوماتنا الحالية يصعب الجزم بالمحاكم الدائمة التي أنشئت فيما بين عام ١٤٩ ق. م . ودكتاتورية صلا ، ولكن أغلب الباحثين يميلون الى القول بأنه في عهد جايوس جراكوس لم تكن توجد سوى محكمة استرداد الأموال المبتزة ، وبأنه في وقت ما سابق لعام ٩٥ ق . م . أنشئت محكمة دائمة للفصل في جرائم القتل العمد ودس السم (quaestio de sicariis et vneficiis) ، وبأنه عقب عام ٩٥ ق . م . مباشرة أنشئت محكمة أخرى للفصل في جرائم استخدام العنف في الحياة العامة (quaestio de vi publica) ، وبأنه في عام ٨٦ ق . م . أنشئت محكمة أخرى للفصل في جرائم اختلاس الأموال العامة[١٨٦] (quaestio de peculatu) .

٢ — إصلاحات صلا القضائية :

وقد كان من شأن استمرار هذا التطور أن تحل المحاكم العامة (iudicia publica) بالتدريج محل محكمتي الشعب (iudicia populi) أي جمعية المئينات وجمعية القبائل .

واذا كان صلا قد هدف إلى إصلاح النظام القضائي القائم بأن أنشأ محاكم جديدة بحيث تستوعب اختصاصات المحاكم العامة جميعها كل أنواع الجرائم

(186) Cf E. Badian, Historia, 1962, p. 207, Gruen, Roman Politics and Criminal Courts, pp. 117, 124 ff.; 258 ff.; A. W. Lintott, Violence in Republican Rome, 1968, Ch. VIII; Scullard 1970, n. 45 p. 416.

وبأن حدد تحديداً دقيقاً الجرائم التي تدخل في اختصاص كل محكمة والعقوبات الملائمة لكل جريمة ، فإنه لم يضع قانوناً جنائياً شاملاً بل قصر اهتمامه على الجرائم الكبرى التي كان لا يمكن تنفيذ عقوباتها – طبقاً للشرائع القديمة – إلا بإذن من الشعب . وأما الجرائم الصغرى فإنه ترك أمر الفصل فيها للحكام على نحو ما كان شأنها من قبل .

ومنذ وضع صلا نظامه القضائي أصبحت القضايا المدنية والجنائية تعرض بادىء ذي بدء على برايتور المدينة وبرايتور الأجانب . وفي حالة القضايا المدنية كان النزاع يُحال الى محكمة تتألف من قاض واحد أو أكثر تبعاً لأهميـة الموضوع . وفي حالة القضايا الجنائية الكبرى كان الأمر يُحال الى المحكمة العامة المختصة .

وبمقتضى قوانين صلا القضائية (Leges Corneliae de iudiciis publiciis) أصبحت توجد سبع محاكم جنائية عامة دائمة (quaestiones perpetuae) لكل منها اختصاص معين . وهذه المحاكم هي :

١ – محكمة جرائم القتل العمد ودس السم[١٨٧] (quaestio de Sicariis et Veneficiis) . وكان اختصاص هذه المحكمة يشمل كذلك جرائم الحريق وارتشاء محلفي المحاكم والإدلاء أمامها بشهادة الزور . واذا ثبت أن المتهم كان ينوي ارتكاب الجريمة ، فإن أركان الجريمة كانت تعتبر متوفرة لإدانته سواء أكانت الجريمة قد ارتكبت فعلاً أم لا . وكان الذين شاركوا الفاعل الأصلي والذين ساعدوه على ارتكاب الجريمة يلقون العقاب نفسه الذي يلقاه الفاعل الأصلي . وكانت عقوبة هذه الجرائم هي الإعدام ، ولكن هذه العقوبة كانت لا تُنفذ فعلاً إلا في حالة جريمة قتل ذوي الأرحام (parricidium) فقط ، وأما في حالة الجرائم الأخرى فإنه كانت تتاح للمذنب فرصة للفرار إلى المنفى .

(187) Cic., pro Cluent., 54, 148; Cf. Justinian, Inst., IV, 18, 5; Dig., XLVIII, 8.

ب ـ محكمة الاعتداء على الشخص [188] (quaestio de iniuriis أو quaestio iniuriarum) . ومعلوماتنا طفيفة عن اختصاص هـذه المحكمة والعقوبات التي كانت تفرضها ، ولكنه يبدو أنها كانت تفصل في قضايا الاعتداء الصارخ على الشخص وإلحاق الأذى به مادياً بالضرب أو معنوياً بالسب العلني والتشهير مما كان يقتضي عقوبة أشد من مجرد دفع تعويض مالي نتيجة لرفع قضية مدنية (actio iniuriarum) .

جـ ـ محكمة التزوير والتزييف (quaestio de falsis) . وكان قانون صلا الذي أنشئت هذه المحكمة بمقتضاه يُسمى أيضاً قانون الوصايا [189] (Lex testamentaria) أو قانون الوصايا والعملة [190] (Lex testamentaria et nummaria) . وكان اختصاص هذه المحكمة يشمل كافة أنواع التزوير والتزييف والتدليس . ولا نعرف عن يقين العقوبات التي كانت تُفرض على الذين كانوا يُدانون في جريمة من هذا القبيل ، وإن كان يصعب أن نتصور أنها كانت تقل عن وصمة المذنب بأحط درجات « سوء السمعة » (infamia) وهي التي كانت تستتبع حرمانه صلاحياته لتولي الوظائف العامة ولعضوية المحاكم وللإدلاء بالشهادة أمام المحاكم .

د ـ محكمة استرداد الأموال المبتزة [191] . وقد بنى صلا قانونه الخاص بجريمة الابتزاز على قانون جلاوقيا [192] (Lex Servilia de rebus repetundis) مع إدخال تعديلات طفيفة عليه . واذا كان يُشك فيما اذا كانت العقوبة قد زيدت بإرغام المذنب على رد المبلغ الذي ابتزه مرتين ونصف مرة بدلاً من مرتين فقط ، فإنه يُرجح أن العقوبة أصبحت تشمل كذلك حرمان

---

(188) Justinian., Inst., IV, 4, 8; cf Dig., III, 3, 42, 1
(189) Justinian., Inst., IV, 18, 7
(190) Cic., in Verr., I, 42.
(191) Cic., pro Rab. Post., 4, 8; Div. in Caec., 19; I, in Verr., 36; II in Verr., I, 27; II in Verr., II, 76.
(192) Cic., in Verr., I, 9, 26; Brutus, 62, 224, pro Rab. Post., 4, 8; pro Balbo, 23, 54; cf. Val. Max., VIII, 1, 8, 11.

المذنب ألزم ضرورات الحياة في الدولة الرومانية وهو ما كان يُعبر عنه بحرمانه الماء والنار (aquae et ignis interdictio) ، وكان معنى ذلك حرمان المذنب حقوقه المدنية بما في ذلك حماية القانون أي استباحة دمه ، وذلك لإرغامه على الذهاب الى المنفى تلقائياً . ومن ثم فإن عبارة « حرمان الماء والنار » أصبحت التعبير التقليدي عن النفي .

هـ ـ محكمة اختلاس الأموال العامة [193] (Quaestio Peculatus) .

وإنه لمما يثير الدهشة أن الإدانة في مثل هذه الجريمة كانت لا تستتبع إلزام المذنب برد أكثر مما اختلسه على حين أنه في جريمة ابتزاز أموال أهالي الولايات كان المذنب يُلزم بأن يرد على الأقل ضعف ما ابتزه . ويصعب أن نتصور أنه كان لا يصحب الإدانة باختلاس الأموال العامة قدر من وصمة سوء السمعة يماثل ما كان يلحق بالذين يُدانون بابتزاز أموال أهالي الولايات .

و ـ محكمة الرشوة في الانتخابات [194] (Quaestio de ambitu) .

وكانت عقوبة هذه الجريمة هي حرمان الشخص الذي يُدان حق ترشيح نفسه لأية وظيفة عامة لمدة عشر سنوات .

ز ـ محكمة الخيانة العظمى [195] (Quaestio maiestatis) .

اتسع مدلول الخيانة العظمى على مر الزمن بحيث أصبح في الإمكان تطبيقها على أي عمل أو تصرف يحتمل إساءة تأويله . ويكاد أن يكون مؤكداً أن عقوبة هذه الجريمة كانت النفي « حرمان الماء والنار » .

ومن بين البرايتورس الثمانية المنتخبين سنوياً كان يُسند الى اثنين (برايتور المدينة وبرايتور الأجانب) أمر القضايا المدنية ، ويُعهد الى كل برايتور من الستة الباقين برياسة إحدى المحاكم العامة (iudicia publica) للجنايات . ولما كانت توجد سبع محاكم عامة فإن رياسة محكمة القتل العمد ودس السم

---

(193) Cic, pro Cluent., 53, 147; pro Mureno, 20, 42.
(194) Schol. Bob., p. 78 St. (in Cic., pro Sull., 5, 7)
(195) Cic., in Pis, 21, 50; pro Cluent., 35, 97; ad Fam., III, 11, 2.

كانت تُسند عادة الى أحد الأيديلس السابقين وكان يعرف باسم « قاضي المحكمة » (iudex quaestionis) .

ونتبين من المصادر القديمة أنه بمقتضى نظام صلا القضائي أصبحت هيئات محلفي محاكم الجنايات لا تتكون إلا من أعضاء السناتو دون غيرهم [١٩٦] ، وأنه من أجل ذلك كان أعضاء السناتو يقسمون بالاقتراع الى عدة هيئات (decuriae) من المحلفين[١٩٧] ، وأنه عند عرض أية قضية على إحدى محاكم الجنايات كان من حق طرفي النزاع رد (reiectio) بعض أعضاء هيئة المحلفين قبل نظر القضية [١٩٨] ، وأنه بعد ذلك كان باقي أعضاء هيئة المحلفين الذين لم يُردوا ينظرون القضية ويصدرون حكمهم فيها بالأغلبية المطلقة إما بالبراءة (absolvo) وإما بالإدانة (condemno) وإما بالعجز عن الوصول إلى قرار (non liquet) ، وأنه حتى عام ٧٠ ق . م . على الأقل كان يحق للمتهم أن يطلب الى المحكمة أن يدلي المحلفون بآرائهم جهراً أو بالاقتراع السري[١٩٩] .

ولا بد من التنويه هنا بأن ما لدينا من معلومات لا يتيح لنا الجزم اذا كان أعضاء السناتو يُقسمون في بداية كل عام بالاقتراع الى عدة هيئات (decuriae) من المحلفين ويعهد الى هيئة (decuria) بعد أخرى من هذه الهيئات بالفصل في القضايا تبعاً لحاجة مختلف محاكم الجنايات ، أم أنه عند عرض أية قضية على إحدى هذه المحاكم كانت تشكل بالاقتراع هيئة من المحلفين للفصل في هذه القضية بعينها . وإذا صح الاحتمال الأول ، أي أن هيئات المحلفين كانت تشكل موسمياً دون انتظار متطلبات المحاكم ، فلا بد من أن يكون نظام صلا قد تفادى الوقوع في خطأ توزيع هيئات المحلفين على المحاكم المختلفة منذ تشكيل هذه الهيئات ، فقد كان من شأن اتباع مثل هذا

(196) Velleius, II, 32; Tacit., Ann., XI, 22; Cic., in Verr., I, 13, 37.
(197) Cic., in Verr., II, 32, 79; Schol. Gronov, p. 335 St.
(198) Cic., in Verr., II, 31, 77.
(199) Cic., pro Cluent., 27, 75

الإجراء إتاحة فرصة كافية لإحاطة المتهمين علماً بأشخاص هيئة المحلفين التي ستفصل في قضاياهم ، مما كان يفسح المجال للعبث والرشوة .

ومهما يكن من أمر الطريقة التي كانت تتبع في تخصيص هيئات المحلفين التي تفصل في القضايا ، فإن أحكام محاكم الجنايات كانت أحكاماً نهائية لا يجوز استئنافها أمام جمعية المئينات أو جمعية القبائل ، وذلك على أساس أن محاكم الجنايات أنشئت بمقتضى قوانين أصدرها الشعب لتحاكم المتهمين في ضوء الأدلة المقدمة ضدهم وتصدر أحكامها بما يلائم كل جريمة من عقوبة قرر الشعب أنها جزاء وفاق لها .

وإذا كان تكوين هيئات المحلفين أصبح سريعاً مثار نزاع حاد — لأن محاكم صلا ورثت عن نموذجها الأصلي ، أي عن محكمة استرداد الأموال المبتزة تركة من النزاع السياسي — وكان السناتو قد فقد في عام ٧٠ ق . م . احتكار تكوين هيئات المحلفين من أعضائه ، فإن المحاكم ذاتها ظلت باقية تمارس عملها .

رابعاً — صلا في ذمة التاريخ

عندما فرغ صلا من تشريعاته في خلال عام ٨٠ ق . م . اعتزل الحكم من تلقاء نفسه في مطلع العام التالي وسرح حرسه الخاص معتمداً على ولاء معتقيه وقدماء محاربيه . وقد قضى صلا البقية القليلة الباقية من حياته في قصره الريفي القائم في ضيعته في قمبانيا على مقربة من قوماي وبوتيولي[٢٠٠] (Puteoli) . وهناك كان صلا يوزع وقته بين الصيد والقنص والملذات وبين قراءة الأدب وكتابة مذكراته وهي التي أورد بلوتارخ شذرات منها في كتابه المعروف « تراجم العظماء » . وفي عام ٧٨ ق . م . توفي صلا في الستين من عمره ، وشيع جثمانه في موكب جنائزي رسمي كبير الى مثواه الأخير في ساحة الإله

(200) App., B. C, I, 103-104; (Victor) de Vir. Ill., 75.

مارس في روما[٢٠١] . واستجابة الى أمره نُقشت على قبره عبارة فحواهـا « لم يفُقه صديق في حسن الصنيع ولا عدو في شدة الانتقام »[٢٠٢] .

ولا جدال في أن حياة صلا الخاصة كانت معيبة ، ولا في أنه كان رجلاً تجرد من المشاعر الإنسانية النبيلة ، ولا في أن الرحمة قُدَّت من قلبه ، ولا في أنه كان قائداً بارعاً أدى خدمات جليلة لروما في ميادين القتال ، ولا في أنه استباح التقاليد الدستورية بالاستيلاء على روما عنوة مرتين وبإقامة نفسه دكتاتوراً لمدة غير موقوتة قبل أن يتفرغ لوضع دستور جديد للدولة الرومانية . فهل حالفه التوفيق في وضع هذا الدستور الذي كلف الرومان والإيطاليين أفدح الأثمـان ؟

عندما تسلم صلا مقاليد الحكم كان يتهدد استقرار الأوضاع وحكم الدولة حكماً سليماً ثلاثة عوامل رئيسية : وأحدها هو عجز السناتو عن حل مشاكل الدولة وافتقاره الى سند دستوري يبرر سيطرته على الحكم . والعامل الثاني هو جنوح عامة روما الى ممارسة حقوق الشعب الدستورية دون أي قيد وذلك على أساس أنهم الأمة الرومانية مصدر السلطات مع أنهم كانوا أبعد من أن يكونوا ممثليها الحقيقيين ولا سيما بعد منح حقوق المواطنة الرومانية للحلفاء اللاتين والإيطاليين ، وذلك فضلاً عن افتقارهم الى الكفاية اللازمة لتوجيه سياسة الدولة . والعامل الثالث هو الحكام الطموحون ، وكان يجعلهم خطراً داهماً على الأوضاع الدستورية السليمة إمكان تمتعهم بقيادات عسكرية تضع تحت إمرتهم أعداداً كبيرة من الجنود المحترفين وهم الذين أصبحوا لا يدينون بالولاء للدولة وإنما لقوادهم .

ولا جدال في أن صلا كان متأثراً بتجاربه الشخصية حين وضع دستوره الذي هدف من ورائه الى القضاء على العوامل التي كانت تتهدد استقرار

---

(201) Liv., Ep., 90; App., B.C., I, 106; Plut , Sulla, XXXVIII
(202) Plut., Sulla, XXXVIII, 4.

الأوضاع في الدولة . وحين لمس صلا عدم صلاحية جمعيّي المئينات والقبائل بأوضاعهما الراهنة للاضطلاع بشئون الحكم لم يحاول إصلاح نظام تكوين هاتين الجمعيتين بحيث يجعلهما تمثلان الأمة الرومانية تمثيلاً صحيحاً وتضطلعان بدور إيجابي في إدارة دفة الحكم وبذلك يعيد التوازن الدستوري البديع الذي شهده القرن الثالث قبل الميلاد ، وإنما توخى أقصر الطرق بالعمل على دعم سيطرة السناتو . ومن أجل ذلك اشترط صلا موافقة السناتو على كل مشروع قانون قبل عرضه على الشعب ، وزاد عدد أعضاء السناتو مراعياً اختيار نصف هؤلاء الأعضاء من أهم طبقتين في المجتمع الروماني بل في مختلف مجتمعات الدولة الرومانية ، وجعل الفوز بعضوية السناتو مستقبلاً عن طريق الانتخاب الشعبي غير المباشر وذلك باعتبار عام تولي الكوايستورس مهامهم مؤهلاً للفوز بعضوية السناتو . وفضلاً عن ذلك فإن صلا كبح جماح القوى التي كان من الممكن أن تتهدد سيطرة السناتو ، وهي ترابنة العامة والحكام . ولا جدال في أنه كان من شأن هذه الإجراءات جميعاً دعم سيطرة السناتو وجعله أوثق اتصالاً بالشعب بوجه عام عن ذي قبل وأقدر على الاضطلاع بمهامه . بيد أنه لا جدال كذلك في أن صلا إذ حرر السناتو من كل القيود التي كان من الممكن أن تكفل عدم إساءته سلطته المطلقة لم يلق على أعضائه إلا مسئولية جماعية عن أعمالهم العامة . ولم يكن من شأن انتزاع المحاكم من الفرسان ووضعها في قبضة السناتو القضاء على التنافس والصراع بين طبقتي السناتو والفرسان وانما تيسير السبل أمام السناتو والحكام المنتقين من طبقته للجنوع عن الطريق السوي في أداء الواجبات العامة . وإزاء هذه الاعتبارات يصعب إعفاء صلا من تهمة معالجة مشكلة الحكم من وجهة نظر حزبية قاصرة كانت لا يمكن أن تؤدي الى الاستقرار المنشود .

وقد عنى صلا عناية كبيرة بألا يحذو أحد من الحكام حذوه ويستولي على السلطة بالقوة ، فوضع من النظم ما يكفل تغيير حكام الولايات في كل عام وما تصور أنه يكفل منع الاستيلاء على الحكم عنوة . بيد أنه في الواقع لم

تكن هذه النظم كفيلة بمنع وقوع المحظور لأن الأزمة الحقيقية التي كانت روما تعانيها كانت أزمة أخلاقية تتمثل في تقديم أكثر الرومان صوالحهم الشخصية على الصالح العام وتتجلى أخطر مظاهرها في تقديم القواد أطماعهم والجنود مستقبل حياتهم على كل اعتبار آخر . وتبعاً لذلك فإنه لم تكن هناك جدوى من كل إجراءات الحيطة التي اتخذها صلا طالما ظلت الأطماع تتحكم في القواد وظل الجنود يعتمدون على قوادهم للحصول على أود حياتهم عند تسريحهم ، أي طالما ظلت هناك صوالح مشتركة بين قواد تستبد بهم الأطماع وبين جنود محترفين في حاجة الى تأمين مستقبل حياتهم .

ولا جدال في أنه لم يكن في وسع صلا إصلاح الأخلاق بقانون أو بمجموعة من القوانين ، فأخلاق الشعوب لا تُصلح بالقوانين وإنما بالقدوة الحسنة والأمثلة الطيبة التي يضربها الزعماء والحكام . وقد وضع صلا مجموعة من القوانين التهذيبية ولكن مثل هذه القوانين كانت لا تستطيع معالجة جوهر الأزمة الأخلاقية . وقد أثبت صلا نفسه بخروجه على هذه القوانين عدم جدواها وتعذر احترامها وقلة أثرها . وأنه لما يثير العجب أن صلا كان يعرف مدى تدهور أخلاق مواطنيه ويدرك أن أكبر مكمن للخطر على الحكم الدستوري كان القواد الطموحين وولاء الجنود لقوادهم بسبب لقمة العيش ، ومع ذلك لم يحاول تحطيم روابط هذا الولاء وتحويله من القواد الى الدولة ، فما كان أيسر عليه من أن يضع من النظم ما كان من شأنه أن تكفل الدولة جنودها وترعاها عند تسريحهم ، وأن تفرض أقصى عقوبة ليس فقط على كل قائد بل أيضاً على كل من يحمل السلاح ضد الحكومة الشرعية .

ومع ذلك فإننا نشك في أنه كان يرجى أي نفع من وراء أي إجراء للحيطة بعد السابقتين الخطيرتين اللتين وضعهما صلا ولم يغب أمرهما بطبيعة الحال على من أتوا بعده من القواد الطموحين . وإحدى هاتين السابقتين هي استيلاؤه على روما بالقوة الغشوم ، وبذلك أثبت بجلاء لا لُبسة فيه ولا غموض أن السلطة العسكرية أضمن وسيلة للسيطرة على الحكم وأفعل أثراً من السلطة

التريبونية لإقرار كل التشريعات التي يشتهيها صاحب الأمر والنهي . والسابقة الأخرى هي تولي الدكتاتورية بقانون لمدة غير موقوتة بفترة معينة . وإذ أسكرت صلا نشوة النصر أطلق لنفسه الشريرة العنان في الانتقام من خصومه وراح يضع النظم وفقاً لوجهة نظر حزبية قاصرة ويتصرف في شئون الدولة بأسرها كما يشاء ، غير مبال بالتقاليد الدستورية ولا بالحقوق المشروعة أو المكتسبة معتمداً على ولاء قدماء محاربيه والعبيد الذي أعتقهم . ومن الجلي أنه لا يمكن إرساء قواعد نظام ثابت مستقر على مثل هذه الأسس ، لأنه كان من اليسير على غيره أن ينهج نهجه ويقتفي أثره في هذا الصدد . وكذلك كان طبيعياً أن كل الذين ألحق بهم ضيماً كانوا يتطلعون الى زعيم يقوض دعائم دستور صلا ويزيل ما أصابهم من إجحاف سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي . وما كان أكثر هؤلاء ! وإزاء ذلك كله لا نعجب من أن دستور صلا لم يعمر طويلاً على نحو ما سنرى .

وهكذا اذا استثنينا النجاح الذي أصابه صلا في تنظيم محاكم الجنايات ، فإننا لا نتردد في القول بأنه جلل نفسه بعار الجرائم الدموية والخلقية التي ارتكبها ، وفشل في وضع الدستور الملائم لحكم الدولة الرومانية ، وأسهم بالأساليب التي اتبعها وبالسوابق التي وضعها في تقويض دعائم هذا الدستور .

القسم الثاني

المرحلة الثانية في الصراع بين «الأخيار» و«الشعبيين»

الفَصْلُ السَّابِعُ

الأحداث في روما وفي إيطاليا
منذ عام ٧٨ حتى عام ٦٦ ق. م.

بومبي الأكبر وقراسوس

إنهيار دستور صلا

أولاً – تركة صلا المثقلة

لم تعمر أهم أركان دستور صلا أكثر من تسع سنوات . وقبل أن نتبين كيفية انهيار هذا الدستور يجب أن نشير الى المشاكل الشائكة التي واجهتها روما عند وفاة صلا . ذلك أنه بعد الإجراءات العنيفة التي اتخذها صلا كان الجو في إيطاليا مشحوناً بالتذمر ، فقد كان الإيطاليون قلقين لأن صلا وإن كان قد اختار من أبرزهم أعضاء في السناتو الجديد واعترف للإيطاليين بالحقوق الرومانية التي مُنحوها إلا أنه بإلغائه تشريعات قينّا ربما يكون قد عاد فقصر توزيعهم على ثماني قبائل فقط أو على أحسن تقدير لم يُعن باستكمال تسجيلهم جميعاً في القبائل كلها . وهكذا لم يفعل صلا شيئاً ليجعل لحقوق الإيطاليين السياسية أية قيمة فعلية سواء لأنفسهم أم لروما ، وبقيت فكرة وجود حكومة تمثل إيطاليا تمثيلاً صحيحاً أمراً بعيداً عن أفق السياسة الرومانية .

وإذا كان الإيطاليون بوجه عام غير مطمئنين الى النظام الذي وضعه صلا ، فإنه كان أقل اطمئناناً اليه وأكثر رغبة في إزالته تلك المجتمعات الإيطالية التي حملت السلاح ضده وعاقبها بحرمانها الحقوق الرومانية فضلاً عن مصادرة أراضيها وإنشاء مستعمرات عليها لقدماء محاربيه . وكان طبيعياً أن يتطلع كل ضحايا هذه التصرفات أو ورثتهم الى فرصة لاستعادة الحقوق والثروة التي فقدوها . هذا الى أن الكثيرين من المستعمرين الجنود كانوا يتوقون الى الفرصة التي تتيح لهم ترك حياة الريف برتابتها ومشاكسات أصحاب الأرض الأصليين والعودة الى حياة الجندية العامرة بالمغامرات وفرص اغتراف الأسلاب .

وفي روما ذاتها كان هناك كثيرون من الرومان الذين لم يفقدوا آباءهم وثرواتهم فحسب بل فقدوا أيضاً حقوقهم السياسية بسبب عطف حقيقي أو مفترى عليهم نحو ماريوس وأشياعه، فكانوا يعارضون حكم نبلاء صلا ويتطلعون الى استعادة حقوقهم السياسية . وكان لا يزال يوجد كثيرون من الشعبيين أشياع ماريوس ، وكانوا يلحفون في المطالبة بتحرير تريبونية العامة من القيود التي فرضها عليها صلا . وكانت تريبونية العامة بالغة الأهمية لأي رجل طامع في السلطة دون أن يكون لديه من المواهب أو الفرص ما يتيح له الفوز بقيادة عسكرية تهيىء له الفوز بالسلطة والمغانم . وقد وجد المطالبون بتحرير تريبونية العامة تأييداً واسعاً من الجماهير ، فقد كانت الجماهير تدين لترابنة العامة بما كانت قد اكتسبته من أهمية في الحياة السياسية وبما كانت قد منحته من إقطاعات زراعية ومن فرص شراء القمح بسعر زهيد . وكان طبيعياً أن يتوق العامة الى عودة الأوضاع السابقة ، فقد كانت الجمعيات الشعبية لا تزال دستورياً مصدر السلطات . وكان العامة يتوقون بوجه خاص الى استعادة الميزة التي أطاح بها صلا بإلغاء قانون بيع القمح بسعر أقل من سعر السوق.

وكان الفرسان يتطلعون الى استعادة سيطرتهم على المحاكم بانتزاعها من قبضة أعضاء السناتو .

وهكذا هبت العواصف من كل جانب على السناتو متحدية قدرته على

ممارسة السلطة التي وضعها صلا في قبضته، وكان السناتو بطبيعة الحال حريصاً على الحفاظ على سلطته وعلى النظم التي كانت هذه السلطة تنبثق منها . ولم تلبث الأحداث في ظرف السنوات التسع التالية أن تمخضت من جديد عن الحقيقة المريرة التي سبقت الإشارة اليها ، وهي أن مصدر القوة في روما قد أصبح السيف والسيف وحده ، فطالما بقي قادة الجيوش على وفاق مع السناتو ، احتفظ السناتو بسيطرته ونفوذه . ولكنه اذا ما وجد القواد صوالحهم في ممالأة خصوم السناتو تضاءلت سيطرة السناتو وانكمش نفوذه ، لأن جنود العهد الجديد — كما مر بنا — كانوا لا يدينون بالطاعة للدولة وانما لقوادهم . وهكذا تكاتفت السوابق والميول الحقيقية في هذا العصر الى تأييد نتائج بدعة ماريوس ، تلك النتائج التي طورها صلا تطويراً خطيراً حين علم الجنود أن واجبهم هو التطلع الى قائدهم لا الى السناتو لكي يُكافأوا على خدماتهم .

وقد كانت هذه الحقيقة المريرة — حقيقة أن السيف وحده هو الذي أصبح مصدر القوة الحاسمة في روما — هي العامل الفعال الذي تسلط على السياسة الرومانية وتحكم في تكييف مجرى الأحداث التي أودت في النهاية بالنظام الجمهوري الروماني .

ثانياً — ماركوس آيميليوس ليبيدوس

كان ليبيدوس من أسوأ النبلاء خلقاً ، فقد كان رجلاً نهازاً للفرص واسع الأطماع قليل الكفاية ، استغل توليه حكم صقلية[1] في عام ٨٠ ق.م . وأعمال مصادرات صلا[2] لإثراء نفسه . وبعد أن جنى ليبيدوس ثمار السير في ركاب صلا حتى اعتزل الحياة العامة ، ولمس التذمر الواسع النطاق من دستور صلا ، رأى أن يستغل هذا التذمر للفوز بأحد منصبي القنصلية لعام ٧٨ ق . م . فانبرى لمهاجمة الدستور البغيض في دعايته الانتخابية . واذا كان صلا لم يوعز

(1) Cic., II in Verr., III, 91, 212
(2) Sallust, Hist., I, 55, 18 M.

باستبعاد ترشيح لبيدوس ، فإنه لم يخف سخطه على المساعدة الّتي كان بومبي يقدمها لمثل هذا الرجل [٣].

ولا أدل على مقدار كراهية الرومان للدستور صلا من أن لبيدوس فاز بأكثر أصوات الناخبين وجاء في المكان الثاني النبيل كوينتوس لوتاتيوس قاتولوس (Lutatius Catulus) ابن زميل ماريوس في قنصلية عام ١٠٢ ق . م . ولما كان قاتولوس نبيلاً من طراز آخر غير طراز لبيدوس ، فإنه لم يمض وقت طويل قبل أن يصطدم القنصلان . وأول صدام نعرف أنه وقع بينهما كان حول جنازة صلا ، فقد كان قاتولوس والنبلاء يريدون نقل جثمان صلا من قمبانيا الى روما وتشييعه الى مثواه الأخير في موكب جنائزي رسمي كبير ، على حين أن لبيدوس وأنصاره كانوا يعارضون ذلك ولكنهم غُلبوا على أمرهم وانتصرت وجهة النظر الأخرى [٤] .

وكسباً لود العناصر المتذمرة من أعمال صلا ، تقدم لبيدوس بثلاثة مشروعات قوانين كان أحدها لرد الأراضي المصادرة الى أصحابها الإيطاليين ، والثاني لاستدعاء الذين نُفوا لعطف حقيقي أو مفترى عليهم نحو أشياع ماريوس ، والثالث لإحياء قانون القمح الذي ألغاه صلا [٥] .وإذا كان أحد مصادرنا القديمة [٦] يحدثنا بأن لبيدوس كان يميل الى إبقاء تريبونية العامة مكبلة بالقيود الّتي فرضها صلا عليها ، فإن مصدراً آخر [٧] يحدثنا بأنه كان يحبذ تحرير التّريبونية من تلك القيود ويورد لنا خطاباً [٨] ألقاه لبيدوس — فيما يبدو في أواخر عام ٧٩ أو أوائل عام ٧٨ ق . م . — وهاجم فيه طغيان صلا هجوماً عنيفاً . وأغلب الظن أن عدم اتفاق هذين المصدرين على موقف لبيدوس تجاه تريبونية العامة لا يدل حتماً على وجود تناقض بين مصدرينا بقدر ما يدل على

---

(3) Plut., Pomp., XV, 1-2.
(4) App., B.C., I, 105-106; Plut., Sulla, XXXVIII.
(5) App., B.C., I, 107; Licinianus, 33 F.
(6) Licinianus, 33-34 F.
(7) Sallust., Hist., I, 77, 14 M.
(8) Sallust., Hist., I, 55, 22 M.

ميوعة سياسة لبيدوس واستعداده لتغيير مواقفه تبعاً لما تمليه عليه مصلحته الخاصة . ولعل أن لبيدوس كان أول الأمر يرى أنه من الخير له إبقاء ترابنة العامة مقلمي الأظافر ليخلو له الجو ويفعل ما يشاء ولكنه إزاء مطالبة الجماهير بإعادة اختصاصات الترابنة كاملة غيّر موقفه ليحتفظ بتأييد الشعب له .

وعلى كل حال فإن قاتولوس تصدى لمعارضة مشروعات قوانين لبيدوس عندما أراد أخذ موافقة السناتو عليها قبل اتخاذ الإجراءات اللازمة لإقرارها واستصدار قوانين بها . ويبدو أن السناتو أخذ بوجهة نظر قاتولوس ورفض الموافقة على هذه المشروعات باستثناء مشروع قانون القمح اذا صح مـــا يستخلص من أحد مصادرنا أن لبيدوس نجح في استصدار قانون بهذا المشروع [9]. غير أن الشك يساورنا في ذلك لأنه لو كان قد صدر مثل هذا القانون لما كان هناك داع لإصدار قانون مماثل في عام ٧٣ ق . م . ، اللهم إلا إذا كان قانون لبيدوس قد صدر فعلاً ثم أُلغي عندما وقعت الأحداث التي سيأتي ذكرها وأفضت إلى اعتبار لبيدوس عدواً للدولة .

وحين استفحل الشقاق بين لبيدوس وقاتولوس تدخل السناتو بينهما وأقنعهما بأن يقسما على ألا يحتكما الى السلاح لتسوية خلافاتهما [10] ، غير أن الأحداث التي وقعت في أتروريا لم تلبث أن أدت الى اشتباكهما . ذلك أن بعض مزارعي فايسولاي (Faesulae) الذين صودرت أراضيهم هاجموا مستعمري صلا من محاربيه القدماء وطردوهم من أراضيهم بعد اشتباك عنيف سقط فيه بعض القتلى . فأنفذ السناتو القنصلين لوضع الأمور في نصابها في أتروريا ، ولكن لبيدوس بدلاً من أن يسهم في إخماد الثوار دعا كل الذين أنزل بهم صلا حيفاً الى الانضمام اليه . وبحجة أنه مُنح ولاية غاليا فيما وراء الألب ليتولى حكمها في عام ٧٧ ق . م . عهد الى مساعده ماركوس بروتس بحشد قوات في غاليا هذه الناحية من الألب . وفي مطلع عام ٧٧ ق . م . زحف

(9) Licinianus, 34 F.
(10) App., B.C., I, 107.

لبيدوس على روما وطالب بتوليه قنصلية ذلك العام . بيد أن السناتو كان قد اتخذ أهبته لمواجهة هذا الموقف الخطير . ذلك أنه استجابة الى الخطاب الناري الذي ألقاه فيه لوقيوس مارقيوس فيليبوس (ذلك الرجل المذبذب الذي كان أحد قنصلي عام ٩١ ق . م . وخصم دروسوس الصغير وقنسوراً في عهد قينّا ثم نصيراً لصلا) مهاجماً لبيدوس هجوماً عنيفاً ومناشداً السناتو أن يحزم أمره ويصدر قراره النهائي (Senatus Consultum Ultimum) ويعتبر لبيدوس عدواً للدولة ، أصدر السناتو قراره النهائي واعتبر لبيدوس عدواً للدولة . ولم يكتف السناتو بأن أسند الى قاتولوس مهمة ردع لبيدوس ، ذلك أنه من أجل إخضاع مساعده بروتس منح بومبي سلطة بروبرايتورية (imperium propraetore) برغم أنه لم يكن قد تولى بعد أية وظيفة عامة بل إنه لم يكن بعد عضواً في السناتو. وعلى مقربة من ساحة الإله مارس انتصر قاتولوس على لبيدوس فارتد الى أتروريا . وفي هذه الأثناء كان بومبي قد خف شمالاً وحاصر بروتس في موتينا (Mutina) الى أن أرغمه على التسليم ثم أمر بإعدامه . وبعد ذلك قفل بومبي راجعاً الى أتروريا حيث هزم لبيدوس عند قوسا (Cosa) ، ولكن لبيدوس تمكن من الفرار مع ما تبقى من قواته الى سردينيا حيث توفي بعد قليل ، فأبحر مساعده مارقوس بربرنا مع الجانب الأكبر من هذه القوات الى إسبانيا حيث انضم الى سرتوريوس(١١) .

ثالثاً — إسناد قيادة الحرب في إسبانيا الى بومبي

واذا كان السناتو لم يلق عناء في القضاء على لبيدوس بفضل الإجراءات

(11) Licinianus, 34 F.; Sallust., Hist., I, 65-67; 69; Oratio Philippi in Senatu; App., B.C., I, 107; Liv., Ep., 90; Plut, Pomp., XVI; Sueton., Div. Jul., III; Florus, II, 11; Oros., V, 22; Xonar, X, 2; Val. Max., VI, 2, 8; Macrob., I, 13, 17; Heitland, III, pp. 4-5; C.A.H., IX, pp 315-7, Scullard, 1970, pp. 88-9 and n. 2 p. 417

الحاسمة التي اتخذها ضده ، فإن التأييد الذي لقيه لبيدوس يدل على مدى التذمر الذي كان فاشياً في إيطاليا وكان من الممكن أن يؤدي الى عواقب وخيمة لو حاول الإفادة منه زعيم أكثر كفاية من لبيدوس .

وقد كشفت هذه الأزمة عن فقر السناتو في القواد الأكفاء وكذلك عن سوء تقديره لعواقب الأمور بإسناد قيادة عسكرية عليا الى شاب لم يسبق له تولي أية وظيفة عامة ، وهو ما كان صلا يرغب في تفاديه وهدف بدستوره الى أن يجعله أمراً متعذراً . ومعنى ذلك أن السناتو في لهفته على إنقاذ الموقف حفاظاً على النظام الذي يدعم مركزه خرج على إحدى القواعد الأساسية التي أريد بها دعم هذا النظام . وقد كان هذا الخروج خطوة خطيرة العواقب على نحو ما سنرى وكانت في الواقع أول خطوة نحو دك هذا النظام وتقويض دعائم مركز السناتو .

ذلك أنه حين أصبحت الأوضاع في إسبانيا تنذر بأخطار شديدة وتتطلب المبادرة بإرسال نجدة الى متلّوس ، أخذ بومبي ينتحل شتى المعاذير لعدم تسريح قواته ويطالب بإرساله لنجدة متلّوس . ولما كان القنصلان دقيموس بروتس وماركوس ليفيانوس اللذان انتخبا بعد لأي لعام ٧٧ ق . م . رجلين يفتقران الى الخبرة العسكرية ورفضا الذهاب الى إسبانيا ، وكان السناتو لم يجد بين أعضائه الحكام السابقين رجلاً قادراً على إرغام بومبي على تسريح جنوده ثم منازلة سرتوريوس بنجاح ، فإنه إنقاذاً للموقف استقر رأي السناتو على الاستجابة الى مطلب بومبي . وبناء على اقتراح فيليبوس قرر السناتو منـــح بومبي سلطة بروقنصلية (imperium proconsulare) ليتولى بمقتضاها حكم ولاية إسبانيا الدانية (Hispania Citerior) وقيادة الجيش فيها ، أي أن السناتو لم يوفد بومبي الى إسبانيا بوصف كونه مساعداً (legatus) لمتلّوس ولو من حيث الشكل مثل ما كان شكلاً مساعداً لقاتولوس في المرة السابقة وإنما بوصف كونه زميلاً لمتلّوس وعلى قدم المساواة معه . ويحدثنا بلوتارخ بأنه في هذه المناسبة عندما ذُهل أحد أعضاء السناتو

من اقتراح فيليبوس وسأله عما اذا كان ضرورياً منح بومبي سلطة بروقنصل لأداء هذه المهمة ، رد عليه فيليبوس قائلاً بأن بومبي لن يذهب للقيام بعمل قنصل واحد وانما للقيام بعمل القنصلين كليهما (non pro consule sed pro consulibus) ، ومعنى ذلك أن القنصلين كليهما كانا لا يصلحان لأداء أي عمل(١٢) .

وهكذا نرى أن خروج السناتو على دستور صلا بمنح بومبي قيادة عسكرية عليا لقمع بروتس أدى الى إرغامه على الخضوع لمطالب بومبي ومنحه قيادة عسكرية أعلى ، خروجاً على الدستور مرة ثانية وخطوة خطيرة أخرى نحو دكه . واذا كان بومبي وهو يتولى سلطة بروبرايتورية وبعد انتصاره في حملتين صغيرتين استطاع أن يملي رغبته على السناتو ، فإن هذا يعدنا لأن نتوقع ما سوف يفعله بومبي بعد توليه سلطة بروقنصلية وبعد انتصاره في حرب كبيرة . حقاً إن بومبي لم يظهر بعد أية صداقة للشعبيين ، بيد أنه لم يكن نصيراً مؤزراً للأخيار .

رابعاً ــ الحالة في روما وفي إيطاليا في أثناء غيبة بومبي في إسبانيا

١ ــ فساد محلفي المحاكم يثير المطالبة بالإصلاح :

مر بنا أنه عندما نجا الشاب جايوس يوليوس قيصر من غضب صلا ذهب الى آسيا الصغرى . وهناك ضمه ماركوس ثرموس (Thermus) حاكم ولاية آسيا الى حاشيته ثم أنفذه الى بيثونيا لحشد أسطول . وقد أفضت صلات قيصر الوثيقة بنيقومدس ملك بيثونيا الى اتهامه بالشذوذ الجنسي ووصفه بأنه « ملكة بيثونيا » . وعندما تولى بوبليوس سرفيليوس إساوريقوس في عام ٧٨ ق . م . حكم ولاية قيليقيا ومحاربة القراصنة انخرط قيصر في خدمته فترة قصيرة (١٣) .

(12) Plut., Pomp., XII; Cic., Phil., XI., 8, 18
(13) Sueton., Div., Jul , I-III.

غير أن هذا الشاب — وكان لا يزال عندئذ في الثانية والعشرين من عمره[١٤] — ما أن علم بوفاة صلا حتى قفل راجعاً الى روما . وبحكم ميول قيصر وصلاته — بوصف كونه ابن أخ زوجة ماريوس وصهر قينّا — كان خصماً للسناتو . بيد أن قيصر كان أعقل من أن ينضم الى حركة لبيدوس الطائشة ومن أن يحاول تقدم الصفوف قبل أن يكتسب من المكانة ما يؤمن مركزه ويضمن له النجاح . غير أنه لم يركن الى السكون وإنما عمد الى كشف نقائص الطبقة الحاكمة ، وكانت محكمة استرداد الأموال المبتزة تهيء مجالاً فسيحاً لذلك ولإبراز مواهبه الخطابية . وتبعاً لذلك تولى في عامي ٧٧ و ٧٦ ق . م . إقامة الدعوى على جايوس قورنليوس دولابلاّ[١٥] (Dolabella) وجايوس أنطونيوس هوبريدا[١٦] (Hybrida) ، متهماً أولهما بابتزاز الأموال في ولاية مقدونيا والثاني بابتزاز أموال بعض الإغريق . وبرغم قوة الأدلة ضد هذين المتهمين فإن المحكمة برأتهما . ومع ذلك فإن قيصر حقق هدفه لأنه لم يكن من شأن مثل هذين الحكمين إلا الحط من قدر المحلفين من أعضاء السناتو ، ولم يكن ذلك من الوجهة السياسية أقل أهمية من إدانة دولابلا وهوبريدا ومعاقبتهما . وفضلاً عن ذلك فان قيصر وقد أدرك قيمة مواهبه الخطابية غادر روما الى رودس لإتقان فن الخطابة على ابولونيوس مولو (Molo)، وكان أبرز أساتذة هذا الفن من الإغريق عندئذ[١٧] .

ولم تلبث أن هبت عاصفة جديدة من الاحتجاج المرير على محلفي السناتو في عام ٧٤ ق . م . عندما أقام أولوس قلونتيوس (Cluentius) الدعوى على زوج أمه أوبيّانيقوس (Statius Albius Oppianicus) متهماً إياه بأنه حاول قتله بدس السم له وأصدرت محكمة القتل العمد ودس السم حكمها بإدانة المتهم . وقد كان سراً مفضوحاً أن المدعي استخدم الرشوة السافرة للفوز

(14) Macrob., Saturn., I, 12, 34; Sueton., Div. Jul., LXXXVIII.
(15) Sueton., Div. Jul., IV; Plut., Caes., IV; Cic., Brutus, 92, 317.
(16) Plut., Caes., IV, Asconius, in Or. in Tog. Cand., 84 C.
(17) Sueton., Div. Jul., IV

بحكم الإدانة [١٨] ، مما أثار فضيحة كبيرة أهاجت الرأي العام ، وحدا بالمحامي الذي كان يتولى الدفاع عن المتهم في هذه القضية — وكان تريبون العـامة لوقيوس كوينقتيوس (Quinctius) — الى مهاجمة السناتو ومحلفي المحاكم من أعضائه هجوماً عنيفاً والى تقديم رئيس المحكمة (iudex quaestionis) التي أدانت أوبيانيقوس للمحاكمة ونجح في استصدار حكم بتجريمه هو وأحد أعضاء محكمته [١٩] .

وهكذا لم تكن قد انقضت بضع سنوات على انفراد أعضاء السناتو بتكوين هيئات محلفي المحاكم العامة الدائمة حتى كانت الأدلة قد تجمعت تباعاً على فساد هؤلاء المحلفين . وتبعاً لذلك فقد الناس ثقتهم في هؤلاء المحلفين جميعاً المجرحين منهم والنزيهين ، ووجد الفرسان في كشف سوءات محلفي السناتو بريق أمل في تحقيق بغيتهم بانتزاع المحاكم من قبضة السناتو ، ممـا حفزهم على التقرب الى الشعبيين . ويقال إنه بعد فضيحة قضية أوبيانيقوس بثلاث سنوات اقترح أحد ترابنة العامة — ماركوس لولّيوس باليانقوس (Lollius Paliancus) — في عام ٧١ ق . م . بأن تشكل هيئات المحلفين من ثلاث فئات وهي : أعضاء السناتو والفرسان وترابنة الخزانة العامة [٢٠] (tribuni aerarii) . وسواء أصح أن هذا الاقتراح قد قُدم في عام ٧١ ق . م . أم لم يُقدم ، فإنه لم ينفذ إلا في العام التالي على نحو ما سنرى فيما بعـد .

٢ — بداية حركة تحرير تريبونية العامة من قيودها :

وقد صاحبت الهجوم على هيئات محلفي المحاكم من أعضاء السناتو حركة أشد وأقوى لتحرير تريبونية العامة من القيود التي كانت تكبلها . وقد بدأ هذه الحركة جنايوس سيقينيوس (Sicinius) حين كان تريبوناً للعامة في عام ٧٦ ق. م.

(18) Cic., I, Verr., I, 13, 38-39.
(19) Cic., pro Cluent., 77-79; 84-85; 89-94; 108-113.
(20) Schol. Gronov., II, p. 328 St.

واذا كان أحد قنصلي ذلك العام — وهو جايوس قوريو (Curio) — قد أفلح في وقف سيقينيوس عند حده ، فإن كوينتوس أوبيميوس — أحد ترابنة العامة في عام ٧٥ ق . م . — استأنف المطالبة بفك عقال ترابنة العامة مما حدا بأحد قنصلي ذلك العام — وهوجايوس أورليوس قوتّا (Cotta)، صديق ليفيوس دروسوس الصغير — الى أن يأخذ على عاتقه إقناع السناتو بالموافقة على مشروع قانون [٢١] يلغي أحد التشريعات التي كان صلا قد هدف من ورائها الى منع أي سياسي طموح قدير من تولي تريبونية العامة بحرمان من يتولاها ترشيح نفسه لأية وظيفة عامة بعد ذلك .

ولم يلبث السناتو أن ندم على موافقته على مشروع القانون الذي استصدر به أورليوس قانوناً (Lex Aurelia) سمح لترابنة العامة بتولي الوظائف العامة . ذلك أنه في العام التالي (عام ٧٤ ق . م .) أوعز بمحاكمة أوبيميوس بحجة أنه أساء استخدام ڤيتو الترابنة . وقد قضت المحكمة ، وكان يرأسها البرايتور جايوس ڤرّس (Verres) ، بإدانة أوبيميوس وفرضت عليه غرامة فادحة أودت بثروته ، على نحو ما يذكر شيشرون في أثناء سرد تصرفات ڤرّس المعيبة [٢٢] . بيد أن المطالبة باستعادة حقوق ترابنة العامة كاملة لم تكف : وقد تولى أمر ذلك في عام ٧٤ ق . م . تريبون العامة قوينقتيوس [٢٣] وفي عام ٧٣ ق . م . تريبون العامة وكاتب الحوليات جايوس ليقينيوس ماقر (Macer). واذا صح ما أورده صالوستيوس [٢٤] على لسان ماقر من أنه لن يحسم مشاكل روما إلا بومبي عندما يعود من إسبانيا فإنه كان صادقاً في تنبؤه بالمستقبل .

٣ — أثر نشاط القراصنة :

ترتب على نشاط القراصنة واحتياجات القوات الرومانية في مختلف

---

(21) Asconius, 66, 78
(22) Cic., II in Verr., I, 155-157.
(23) Plut., Lucullus, V, 4.
(24) Sallust., Hist., III, 48, 21-23 M.

ميادين القتال تناقص كميات القمح التي كانت تصل الى روما وتبعاً لذلك ارتفاع ثمنها فاشتدت الضائقة على سكان روما مما حدا بقنصلي عام ٧٣ ق . م . — وهما ماركوس ترنتيوس لوقولّوس وجايوس قاسيوس لونجينوس — الى استصدار قانون (Lex Terentia Cassia) قضى بأن تعمل الترتيبات اللازمة لسرعة نقل القمح من صقلية الى روما[٢٥] وكذلك بأن يباع شهرياً لكل مواطن محتاج خمسة مكاييل (modii) بسعر قدره ٦ ١/٣ آس[٢٦] . ومما يجدر بالملاحظة ان هذه الكمية كانت ذات الكمية التي تصرف لنزلاء السجون[٢٧] ، وأن السعر كان يماثل السعر الذي حدده جايوس جراكوس في قانونه ، وأنه من المرجح أن عدد الذين كان يسمح لهم بالشراء لم يزد على ٤٠,٠٠٠ مواطن[٢٨] .

٤ — إسناد قيادات عسكرية ذات دلالة هامة :

في عام ٧٥/ ٧٤ ق . م . توفي نيقومدس الثالث ملك بيثونيا وأورث مملكته الى روما فحولتها الى ولاية رومانية[٢٩] . وعندما تجدد خطر ميثريداتس السادس يوباتور عهد السناتو الى قنصلي عام ٧٤ ق . م . في أثناء عام حكمهما الأصلي بمواجهة الموقف في آسيا الصغرى . ذلك أن السناتو أسند الى القنصل لوقولّوس قيادة القوات البرية ضد ميثريداتس وحكم ولايتي قيليقيا وآسيا ، كما أسند الى القنصل قوتّا قيادة القوات البحرية وحكم بيثونيا[٣٠] .

وفي عام ٧٤ ق . م . أيضاً اضطرت الظروف السناتو الى منح البرايتور ماركوس أنطونيوس سلطة بروقنصلية غير محددة (imperium infinitum aequum) من أجل محاربة القراصنة[٣١] . وقد وضع السناتو بذلك سابقة

(25) Cic., II, in Verr., III, 70, 163; V, 21, 32.
(26) Asconius, 8 C; cf. Cic., pro Sestio, 25, 55
(27) Sallust., Hist., III, 48, 19 M.
(28) Cic., II in Verr., III, 30, 72.
(29) App., Mithr., 7; B.C., I, 111; Liv., Ep., 93, Eutrop. VI, 6; Schol. Gronov., 316 St.; Magie, Roman Rule in Asia Minor, II, 1200-1
(30) Liv., Ep., 93; Plut., Lucullus, V-VI.
(31) Plut., Anton., I; Velleius, II, 36; [Ascon.] in Verr. II, 259 St.

خطيرة سيفيد منها بومبي فيما بعد .

وعندما نشبت ثورة العبيد في إيطاليا في عام ٧٣ ق . م . بزعامة سبارتاقوس واستفحل أمرها وفشل قنصلا عام ٧٢ ق . م . في قمعها ، أسند السناتو الى البرايتور ماركوس ليقينيوس كراسوس سلطة بروقنصلية غير عادية وعهد اليه بقمع هذه الثورة .

وهكذا يتبين بجلاء أن ظروف الإمبراطورية الرومانية كانت لا يمكن أن توحي الى رجل سياسي وفي الوقت نفسه قائد عسكري مثل صلا أن يضع قانوناً يمنع تولي القناصل والبرايتورس في أثناء عام حكمهم الأصلي من تولي قيادات عسكرية ليس فقط في الخارج بل أيضاً في إيطاليا ، لأن صلا كان يعرف الأوضاع في إيطاليا والأخطار الخارجية التي تكتنف الإمبراطورية ويدرك أنه كان من شأن ذلك كله أن تطرأ ظروف تقتضي تقتضي مواجهتها اتخاذ الإجراءات التي تكفل درء المخاطر .

٥ — ثورة العبيد بزعامة سبارتاقوس *

أخذ الرومان عن الإتروسقيين مباريات المجالدين (gladiatores) ، وكانت عبارة عن مباريات للمبارزة تقام أصلاً في مناسبة تشييع جنازة أحد العظماء . وأول مرة نعرف عن يقين أنه أقيمت فيها مثل هذه المباريات في روما كانت في عام ٢٦٤ ق . م . عندما اشترك فيها ستة مجالدين أي ثلاثة أزواج من المتبارزين . بيد أنه على مر الزمن لم تعد إقامة مباريات المجالدين مقصورة على مناسبات تشييع الجنازات وأصبح أمراً مألوفاً أن يشترك فيها ١٠٠ زوج من

(*) المصادر القديمة :
App., B.C. I, 116-120; Plut., Crassus, VIII-XI, Florus, II, 8; Eutrop., VI, 7; Oros., V, 24; Velleius, II, 30, 5; Plin., N. H., XXXIII, 49; Horat., Od. III, 14; Epod., XVI, 5.

المراجع الحديثة :
Heitland, III, pp. 10-11, 13-14; T. Rice Holmes, Rom. Rep., I, pp. 386 ff.; C.A.H., IX, pp 329-32; Scullard, 1970, pp. 95-6 and n. 9 p. 418.

المجالدين، بل إنه في حفل الألعاب الذي أقامه يوليوس قيصر حين كان أيديلس في عام ٦٥ ق. م. اشترك ٣٢٠ زوجاً من المجالدين، مما يدل على مدى ما وصل اليه شغف الرومان بهذا اللون من ألوان الترفيه. ومثل هذا الاستمتاع بمشاهدة مبارزين يشوهون ويقتلون بعضهم بعضاً يعرض لنا جانباً خطير العواقب من جوانب التعفن الخلقي الذي تفشى بين الرومان، فقد لا نعدو الحقيقة اذا تصورنا أنه كان من شأن موافقة كثرة من الرومان على هذه الأعمال الإجرامية وتعودهم على رؤيتها ان امتد ارتكاب مثل هذه الأعمال من المجتلد الى الحياة العامة وأصبح أمراً مألوفاً كلما احتدم الصراع السياسي في روما على نحو ما سنرى.

وكان المجالدون عادة أسرى حرب اشتراهم أصحابهم في سوق النخاسة لإعدادهم إعداداً خاصاً لهذه المباريات، كما أن البعض الآخر كانوا من المجرمين الذين صدرت عليهم أحكام بالإعدام. وكانت توجد مدارس لتدريب المجالدين على أيدي مدربين محترفين كانوا إما أصحاب هذه المدارس وإما أنهم كانوا يعملون لحساب الحكومة أو بعض الأفراد. وكانت مدرسة قابوا من أشهر مدارس المجالدين. وفي بعض الحالات كان كل مبارز يرتدي خوذة ذات حافة أمامية ويحمل درعاً وسيفاً قصيراً. وفي حالات أخرى كان كل مبارز يحمل درعاً مستديراً وسيفاً مقوساً. وفي حالات غيرها كانت عُدة المجالد لا تزيد على شبكة ورمح ذي ثلاث شعب. وكان مصير المنهزم عادة هو أن يقتله قاهره ولكنه كان ينجو أحياناً بحياته اذا أجاد النزال واكتسب بذلك جانب النظارة فلوحوا بمناديلهم إظهاراً لعطفهم عليه [٣٢].

وقد سبقت الإشارة الى سوء حال العبيد الذين أوغل الرومان في استخدامهم في الزراعة. ولم تكن حال المجالدين أقل سوءاً، فقد كان تدريبهم شاقاً مضنياً ومصيرهم الهلاك إن عاجلاً أو آجلاً. وفي خلال عام ٧٣ ق. م. هب حوالي السبعين من مجالدي مدرسة قابوا ثائرين بزعامة مجالد تراقي يدعى

(32) Daremberg-Saglio, Dict., s.v Gladiateurs; Oxford class. Dict., s.v. Gladiators; Heitland, II, pp. 243-4 and passim with bibliog.

سبارتاقوس ومجالدين غاليين يدعيان قريكسوس (Crixus) وأوينوماوس (Oenomaus) . ولم يكد الثوار يعتصمون بجبل فيزوف — وهو الذي لم يصبح بركاناً إلا منذ عام ٧٩ م — حتّى أخذ ينضم اليهم عدد كبير من العبيد الذين ضاقوا ذرعاً بحياتهم في الضياع الّتي كانوا يفلحونها . وكانت النتيجة الطبيعية لنجاح الثوار في هزيمة حملتين أعدهما السناتو على عجل وأرسل إحداهما بعد الأخرى لقمع الثورة قبل أن يستحفحل أمرها أن اشتد ساعد الثوار واتسع نطاق نشاطهم وازداد عدد الذين انضموا اليهم . فلم يواف عام ٧٣ ق . م . على نهايته حتّى كانوا قد سيطروا على كل جنوب إيطاليا وبلغ عددهم نحواً من ٧٠,٠٠٠ . ولما كان سبارتاقوس أعقل من أن يتصور أنه كان في وسع عصابات من العبيد الاحتفاظ طويلاً بسيطرتها على جنوب إيطاليا ، فإنه كان يرى أن من الحكمة أن ينتهز هو ورفاقه الفرصة الحالية قبل نجاح الحكومة في حشد قوات كبيرة ضدهم ويشقوا طريقهم شمالاً الى الألب ثم يذهب كل منهم الى وطنه الأصلي . بيد أن قريكسوس وأتباعه من الغال وكذلك الجرمان عارضوا هذا الرأي الحكيم مفضلين البقاء في إيطاليا لينعموا بما كانوا يجنونه من وراء أعمال السلب والنهب ، مما أرغم سبارتاقوس على العدول مؤقتاً عن فكرته .

وفي عام ٧٢ ق . م . تولى القنصلان — لوقيوس جلّيوس بوبليقولا (Gellius Publicola) وجنايوس قورنليوس لنتولوس قلوديانوس — أمر قمع ثورة العبيد . وبرغم أن بوبليقولا أو أحد مساعديه تمكن من القضاء على قريكسوس والقوات الّتي كانت تحت إمرته ، فإن سبارتاقوس أنزل بالقنصلين هزيمة بعد أخرى وشق طريقه الى الشمال حيث هزم عند موتينا ، جنوبي البو ، جايوس قاسيوس بروقنصل غاليا هذه الناحية من الألب . ومع أن الطريق أصبح بذلك مفتوحاً أمام العبيد ليبرحوا إيطاليا ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك وعادوا أدراجهم جنوباً قاصدين صقلية فيما يرجح . ولعل أن يكون النجاح الذي صادفه العبيد قد ساعدهم على إقناع سبارتاقوس بالذهاب الى

صقلية حيث كانت توجد آلاف من العبيد المتذمرين الذين كانوا على أتم استعداد للانضمام اليهم ، وبذلك يتحرر هؤلاء العبيد ويتوافر للثوار من القوة والموارد ما يمكنهم من الاحتفاظ بصقلية والاستمتاع بخيراتها .

وللخروج من هذه الأزمة بعد الكوارث التي أنزلها العبيد بالقوات الرومانية اتّجه السناتو في أواخر عام ٧٢ ق . م . الى البرايتور ماركوس ليقينيوس قراسوس فمنحه سلطة بروقنصلية غير عادية ووضع تحت إمرته ست فرق الى جانب فلول الفرق الأربع التي كانت مع القنصلين . وقد كان قراسوس ممن أعانوا صلا على السيطرة على إيطاليا وأثبتوا كفاية عسكرية ، ومع ذلك فإنه فشل في سد الطريق جنوباً في وجه سبارتاقوس ورجاله فتمكن العبيد من الوصول الى رجيوم (Rhegium) في أقصى الطرف الجنوبي من إيطاليا ، ولكنهم فشلوا في الحصول على السفن التي تنقلهم الى صقلية . وعندئذ حاول قراسوس حصر العبيد في تلك المنطقة الضيقة المجدبة ليرغمهم على الاستسلام ولكن دون طائل ، فقد استطاعوا أن يشقوا سبيلهم شمالاً ثم انعطفوا شرقاً صوب بروندیزیوم على أمل أن يستطيعوا الإبحار منها . بيد أن وصول ماركوس لوقولّوس عندئذ في طريق عودته من مقدونيا سد طريق بروندیسیوم في وجوههم فحولوا اتجاههم صوب الشمال حيث التقوا بقراسوس .

وفي هذه الأثناء حين كان قراسوس لا يزال عاجزاً عن قهر العبيد كان بومبي قد أنهى حرب سرتوريوس وعاد الى إيطاليا ، فتقرر أن يهب لمساعدة قراسوس في مهمته . بيد أنه قبل اشتراك بومبي في محاربة العبيد كان الخلاف قد دب في صفوفهم مما يسر على قراسوس أن ينزل بهم هزيمتين فادحتين وأن يقتل سبارتاقوس وعدداً كبيراً منهم . وعندما فر كثيرون من العبيد شمالاً التقى بهم بومبي وأجهز عليهم ، وبذلك خول لنفسه الزعم بأنه هو الذي أنهى حرب العبيد وأخمد ثورتهم .

وفي رأينا أنه لا ينقص من قدر سبارتاقوس ما يقول به أحد الباحثين [٣٣]

(33) Scullard, 1970, p. 96.

من أن هذا الثائر كان وليد ظروف محلية ولم يعتمد على عبيد المدن وإنما على عبيد الريف الذين اشتدت عليهم وطأة الذل والمهانة فولوا هاربين ، ولم يكن صاحب فلسفة سياسية يحارب من أجلها وإنما كان رجلاً شجاعاً وضع رأسه على كفه من أجل حريته التي أنكرتها عليه ظروف تعسة اكتنفت مكانه وزمانه . أليست كل ثورة وليدة ظروف محلية ؟ وهل لا بد من أن يكون الثائرون من أجل الحرية أصحاب فلسفة سياسية ليفوزوا بالتقدير الخليق بهم ؟ وأليس من يثور في سبيل الحرية دون أن يكون له أي إلمام بالنظريات السياسية أولى وأحق بالتقدير من غيره ؟ ألا يكفي أن عبداً أبى الذل والهوان فشجع رفاقه على أن يحطموا الأغلال التي كبلتهم لا من أجل السلب والنهب ولا من أجل الوصول الى مقاعد الحكم وإنما لكي يتنسموا عبير الحرية ويعيشوا كما ولدوا أحراراً ؟ وما عيب سبارتاقوس أن عبيد المدن – وقد كانوا على كل حال أقل كثيراً من عبيد الريف وأحسن حالاً – لم يستجيبوا الى نداء الحرية ؟ وعدم اعتماد سبارتاقوس على عبيد المدن يجب أن يحسب له لا عليه ، لأنهم وقد آثروا البقاء على حالهم – لا رضاء بما لهم وانما لخوفهم من مغبة العواقب – كان لا يمكنه أن يحشدهم في صفوفه إلا إذا هاجم المدن وأسلمها لأعوانه ليوسعوها نهباً وسلباً وتقتيلاً . ولا جدال في رأينا أن سبارتاقوس يستحق الإجلال والتقدير من أجل هبته للحرية وشجاعته في القتال من أجل الفوز بها وبراعته في التنظيم وقدرته على أن يكوّن من رفاقه غير النظاميين جيشاً استطاع أن ينزل هزائم متعددة بالجيوش الرومانية الى أن دبت الفرقة بين صفوف رجاله وانقسموا على أنفسهم فقدم حياته قرباناً للحرية .

وهذه الثورة على قلة أهميتها الذاتية تمخضت عن نتائج هامة ، فهي من ناحية خربت جنوب إيطاليا تخريباً كان له تأثيره على الحياة الاقتصادية في إيطاليا . ومن ناحية أخرى دقت ناقوس الخطر من الجديد مما حفز كثيرين من كبار ملاك الأراضي على أن يبدأوا صفحة جديدة من حيث تحسين معاملة العبيد والاتجاه نحو استبدال الأجراء الأحرار بالعبيد فلم تنشب ثانية ثورة

أخرى بين العبيد بمثل خطورة هذه الثورة .

ولعل أن النتائج السياسية كانت أهم نتائج هذه الثورة . ذلك أن انتصار قراسوس أدخل في روعه أنه قائد عسكري يتمتع بمواهب عظيمة الشأن، هذا الى أن مشاركة بومبي إياه في النصر النهائي حرمه الفضل كل الفضل في شرف إنهاء الحرب مما بث فيه نحو بومبي كراهية شديدة لم تلبث أن أصبحت متبادلة، وقد كانت لهذه الكراهية نتائج بالغة الأهمية ستبرز في مجرى الأحداث المقبلة وبخاصة ما وقع منها بعد ذلك ببضع سنين (٣٤) . وقد كانت أخطر نتيجة سياسية مباشرة لهذه الثورة هي التي سنتناول الحديث عنها توا عندما وجد السناتو نفسه أمام قائدين منتصرين على رأس قوات كبيرة عند أبواب روما .

خامساً ـ الحالة الداخلية منذ عودة بومبي حتى عام ٦٦ ق.م.

١ ـ مطلبان لبومبي وقراسوس :

عندما أُخمدت ثورة العبيد واجهت السناتو أزمة سياسية حادة لم يكن في وسعه اجتيازها بسلام . ذلك أن كلاً من بومبي وقراسوس زحف بجيشه صوب روما واحتفظ به دون تسريحه . فهل أجدت فتيلاً كل إجراءات الحيطة التي اتخذها صلا ؟ وبرغم ما كان بين هذين القائدين المنتصرين من نفور فإنهما للإفادة من ظروفهما وتحقيق أطماعهما لم يلبثا أن دفنا مؤقتاً أحقادهما واتفقا على المطالبة بأمرين : وأحدهما هو منح بومبي حق إقامة موكب نصر كبير (triumphus) لإخماده الثورة الإسبانية ومنح قراسوس حق إقامة موكب نصر صغير (Ovatio) لقمعه ثورة العبيد، والمطلب الآخر هو السماح لهما بترشيح نفسيهما لقنصلية عام ٧٠ ق . م .(٣٥) وكان مطلب

(٣٤) عن بومبي وقراسوس ، راجع :

J. Van Ooeteghem, Pompée le Grand, 1954; W.S. Anderson, Pompey, his Friends and the Literature of the First Century B.C., 1963; F.E. Adcock, Marcus Crassus, Millionaire, 1966.

(35) Plut., Pomp., XXI-XXII; Crassus, XI-XII; App., B.C., I, 121.

قراسوس الأول مقبولاً ولا غبار عليه لأنه أخمد ثورة خطيرة وسبق له تولي البرايتورية ، وتبعاً لذلك كان يحق له إقامة موكب نصر صغير . وأما عن ترشيح نفسه لقنصلية عام ٧٠ ق . م . فإنه كان يجافي أحكام القانون الخاص بتنظيم تولي الوظائف العامة لأنه وقد تولى البرايتورية في عام ٧٢ ق . م . ولم يكن قد انقضى بعد عامان على ذلك كان لا يحق له ترشيح نفسه إلا لقنصلية عام ٦٩ ق. م . ومن الواضح أنه لو كان هذا المطلب الهام مطلباً دستورياً لا غبار عليه مثل مطلبه الآخر لما كان هناك داع لتحالفه مع غريمه بومبي ومساندة المطلبين بالتهديد باستخدام القوة . ويقول بعض الباحثين في تفسير هذا التحالف أن العامة والنبلاء كانوا لا يثقون في قراسوس وأن تأييد الفرسان له بوصف كونه أبرز ممثلي طبقة رجال الأعمال كان لا يكفل له الفوز بالقنصلية دون تأييد بومبي وهو الذي كانت انتصاراته على بروتس مساعد لبيدوس وعلى سرتوريوس ثم على العبيد قد أكسبته شعبية كبيرة . وقد نفهم عدم ثقة العامة في قراسوس ولكنه يدق علينا أن نفهم عدم ثقة النبلاء وهم الذين منحوه منذ أقل من عام سلطة بروقنصلية غير عادية لقمع حركة سبارتاقوس . وفي اعتقادنا أنه لو كان مطلب ترشيح قراسوس لقنصلية عام ٧٠ ق. م. مطلباً دستورياً مشروعاً ولو أنه لم ينضم الى بومبي لرحب به النبلاء ولبذلوا قصارى جهدهم لانتخابه قنصلاً على أمل أن يستطيع كبح جماح بومبي .

وطبقاً للعرف والقواعد الدستورية لم يكن من حق بومبي إقامة موكب نصر كبير لأنه لم يكن قنصلاً ولا برايتوراً ، كما أنه كان لا يحق له تولي القنصلية لأنه لم يسبق له تولي وظيفتي الكوايستورية والبرايتورية وكان عمره يقل بست سنوات عن السن المقررة لتولي القنصلية . بيد أنه من ناحية أخرى كان قد سبق لبومبي أن أقام موكب نصر كبير بإذن خاص من صلا جزاء انتصاره على خصوم الدكتاتور ؛ وكان السناتو قد أجاز لنفسه منذ أمد طويل حق إعفاء بعض الشخصيات الممتازة مما كان العرف والتقاليد الدستورية تقضي به فيما يخص تولي الوظائف العامة أو ممارسة السلطة التنفيذية (imperium) .

بل إن السناتو استخدم هذا الحق ثلاث مرات مع بومبي نفسه بمنحه سلطة برايتورية مرة للقيام بحملتي صقلية وأفريقيا وسلطة بروبرايتورية مرة لردع بروتس مساعد لبيدوس وسلطة بروقنصلية مرة لمحاربة سرتوريوس . وقد كان طبيعياً من وجهة نظر بومبي أن يشعر بأنه وقد سار مجرى حياته العامة حتى ذلك الوقت سيراً غير طبيعي لا يتبع النهج المألوف ومارس فعلاً السلطات البرايتورية والبروبرايتورية والبروقنصلية دون تولي الوظيفتين المؤهلتين للتمتع بهذه السلطات وأحرز انتصارات متتالية كان خليقاً بالسناتو أن يسمح له عندئذ بتولي القنصلية مباشرة ولا يقتضي منه ماكان يزدري أن يفعله ولا يمكن أن يقبله وهو أن يعود فيبدأ من أدنى الوظائف العامة وهي الكوايستورية .

واذا كان من اليسير أن ندرك وجهة نظر بومبي وقدرته على تحقيق مطلبيه بفضل شعبيته وأهم من ذلك بفضل وجود جيشه على أبواب روما ، وأن ندرك كذلك كنه قلق السناتو ومخاوفه على النظام القائم من ناحية بومبي اذا حقق له بغيته ، فإنه يتعذر علينا أن نرى كيف كان في وسع السناتو أن يمنع بومبي من تنفيذ مشيئته . فمن أين كان يمكن أن يأتي السناتو العون لوقف بومبي عند حده ؟ أمن قراسوس الذي حالف بومبي وكان أحد مطلبيه غير دستوري وتبعاً لذلك لا أمل له في الفوز بالقنصلية دون معاونة حليفه ؟ أم من ماروقوس لوقولّوس الذي وصل لتوه من مقدونيا ولم تكن لديه قوات كافية فضلاً عن أنه لم يكن نداً لبومبي شعبياً أو عسكرياً ؟ أم من متلّوس وكان لا يزال في إسبانيا ؟ أم من لوقيوس لوقولّوس وكان لا يزال منهمكاً في حرب ميثريداتس الثالثة ؟ أم من عامة المواطنين وكانوا يعتبرون بومبي بطلاً جديراً بالاضطلاع بأية وظيفة ولا يحفلون كثيراً ولا قليلاً بالقواعد التي تنظم تقلد وظائف لم يكن لديهم أي أمل في تقلدها ، ويردون تمسك السناتو بهذه القواعد الى التزمت الذي لم يكن الباعث عليه إلا المصلحة الشخصية ؟[36] .

(36) Cf. Heitland, III, pp, 13 ff.; T. Rice Holmes, Rom. Rep., I, p. 390; C.A.H., IX, pp. 332 ff.; F.B. Marsh, Rom. World, 3rd ed., 1963, pp. 144 ff. Scullard, 1970, n 10 pp. 418-9

ولو أن السناتو كان يعرف حقيقة خلق بومبي ونواياه . ويدرك أنه لم يكن يطمع إلا في تولي القنصلية والتمتع بشعبية كبيرة وفي أن تعتبره الدولة رجلها الذي تفزع اليه في الملمات ، لما كان أيسر على السناتو من أن يكسب جانب بومبي ليدعم النظام القائم بإرضاء غروره بدلاً من رفض مطلبيه وإلقائه في أحضان المعارضة . واذا لم يكن في وسع السناتو التعرف على حقيقة خلق بومبي ونواياه فإنه كان يجب على السناتو أن يقدر الموقف حق قدره . وأن يدرك أنه لن يكون من شأن رفض ما لم يكن في وسعه منعه إلا تقويض أركان النظام القائم وهو الذي كان يستمد منه سيطرته وسبق أن حدث به ذات رغبته في الحفاظ على هذه السيطرة الى منح بومبي سلطتي البروبرايتورية والبروقنصلية — أي الى تمهيد السبيل أمام بومبي ليطالبه بالقنصلية .

٢ — قنصلية بومبي وقراسوس الأولى في عام ٧٠ ق.م :

ويبدو أنه عندما رفض السناتو السماح لبومبي وقراسوس بترشيح نفسيهما للقنصلية تولى بومبي معالجة الموقف بأن ألهب حماس الجماهير بالمناداة بضرورة إعادة اختصاصات التراابنة كاملة[٣٧] ، وكسب جانب الفرسان بالوعد بإصلاح نظام تشكيل هيئات المحلفين[٣٨] . وإزاء وجود جيشي بومبي وقراسوس على أبواب روما وتأييد العامة والفرسان لهما لم يسع السناتو آخر الأمر إلا أن يستجيب الى مطلبيهما فرشحا نفسيهما وانتخبا قنصلين[٣٩] لعام ٧٠ ق . م . ولا جدال في أن انتخاب بومبي وقراسوس قنصلين على هذا النحو كان إعلاناً صريحاً عن فشل دستور صلا في منع الجيش من التدخل في الحياة السياسية الرومانية ومثلاً آخر يحتذيه قواد آخرون ، وتبعاً لذلك نذيراً بتجدد الحرب الأهلية وسير النظام الجمهوري الروماني قُدماً نحو الهاوية . وإزاء ما صادفه بومبي وقراسوس من معارضة السناتو وما لقياه من تأييد العامة والفرسان لم

(37) Plut., Pomp., XXI, App., B C., I, 121.
(38) Cf., Cic., I in Verr., I, 15, 45.
(39) Plut , Pomp , XXII.

يكن هناك مفر من تقويض أهم الأركان الباقية من دستور صلا .

وبعد الانتخابات أقام قراسوس موكب نصره الصغير [٤٠] ولكنه لم يسرح جيشه لأن بومبي احتفظ بجيشه وأرجأ إقامة موكب نصره الكبير حتى آخر يوم في عام ٧١ ق . م . [٤١] بحجة انتظار عودة متلوس من إسبانيا ليحتفلا سوياً بنصرهما على سرتوريوس . ويتضح من رواية أبيانوس [٤٢] أن بومبي وقراسوس ظلا محتفظين بجيشيهما حتى بعد أن توليا مهام القنصلية في أول يناير عام ٧٠ ق . م . وذلك فيما يبدومن ناحية لإرغام السناتو على إقرار ما يقترحانه من تشريعات كريهة للنبلاء . ومن ناحية أخرى لأن كلاً من القنصلين كان لا يثق في الآخر . وسرعان ما دب الشقاق بين الحليفين واستفحل أمره الى أن اضطرا تحت إلحاح الشعب الى التصافي وكان تصافياً ظاهرياً ولكنهما على كل حال سرحا جيشيهما في وقت يصعب تحديده [٤٣] .

ا ـ ترابنة العامة يستردون اختصاصاتهم كاملة :

وكان أول التشريعات التي اقترحها بومبي وقراسوس تشريعاً يعيد الى ترابنة العامة كل الاختصاصات التي سلبهم صلا إياها بالقيود التي فرضها على حقهم في اقتراح التشريعات وفي استخدام حق الاعتراض . والواقع أنه لم تعد هناك مندوحة من استصدار مثل هذا التشريع بعد أن خول لترابنة العامة ترشيح أنفسهم لأية وظيفة عامة بمقتضى القانون (Lex Aurelia) الذي مر بنا أن القنصل جايوس أورليوس قوتا استصدره في عام ٧٥ ق . م . فقد كان من شأن هذا القانون إزالة القيد الذي كان ينفر الرجال القادرين الطموحين من ترشيح أنفسهم لتريبونية العامة . ولا عجب أنه قد تبع ذلك اشتداد المطالبة

(40) Cic., in Pis., 24, 58; Plin., N.H., XV, 125; Gell., VI, 23.
(41) Velleius, II, 30.
(42)) App., B.C., I, 121.
(43) Heitland, III, p. 17; T. Rice Holmes, Rom. Rep., I, pp. 390-1; Marsh. Rom World, pp. 148, 385-6; Scullard, 1970, p. 97 and n. 10 pp. 418-9, Cf. Sherwin-White, J.R.S., 1956, pp. 5 ff

باستعادة ترابنة العامة باقي اختصاصاتهم. وإزاء هذا الإلحاح وتبني بومبي وقراسوس للمشروع لم يكن في وسع السناتو رفض الموافقة عليه فاستصدرا به قانوناً[٤٤] يصعب القول ان بومبي كان يدرك عندئذ أنه سيجني من ورائه ثماراً يانعة في عامي ٦٧ و ٦٦ ق . م . على نحو ما سنرى فيما بعد .

ب – إعادة حقوق المواطنة الى أنصار لبيدوس :

ومن الجائز بل من المرجح أن يكون قد أعقب استعادة ترابنة العامة اختصاصاتهم كاملة صدور القانون[٤٥] (Lex Plotia de reditu Lepidanorum) الذي تقرر بمقتضاه إعادة حقوق المواطنة الى أنصار لبيدوس الذين انضموا بعد مقتله الى سرتوريوس . وهذا القانون هو أحد القانونين اللذين مر بنا أن بعض الباحثين يستندون عليهما في القول بأن صلا لم يحرم ترابنة العامة حق اقتراح مشروعات القانون وانما اكتفى بتقييد هذا الحق بموافقة السناتو على مشروعات القوانين قبل عرضها على الشعب .

ج – مشكلة تشكيل هيئات المحلفين :

وقد كانت مشكلة تشكيل هيئات المحلفين مشكلة حقيقية تتطلب علاجاً جذرياً لم يكن أمره يسيراً . لأنه اذا كانت الفضائح القضائية الأخيرة قد أثبتت من جديد فساد محلفي السناتو ، وهو الفساد الذي كان قد حدا بجايوس جراكوس من قبل الى جعل اختيار المحلفين مقصوراً على طبقة الفرسان . فإن محلفي الفرسان أثبتوا كذلك أنهم لم يكونوا أفضل من محلفي السناتو . وحسبنا دليلاً على ذلك فضيحة قضية روتيليوس مما بعث صلا على وضع المحاكم

(44) Liv., Ep., 97; Plut., Pomp., XXII; Velleius, II, 30, Cic., de Leg., III, 9, 22; I in Verr., I, 15, 44.

(45) Suet, Div. Jul., V; Sallust, Hist., III, 47 M; Scullard, 1970, p. 99; cf. C.A.H., IX, pp. 293, 896; L.R. Taylor, Class. Phil., 36, 1941, p. 121 ; Broughton, Mag. Rom Rep., II, 130, n. 4; R. Syme, Class. Phil., 50, 1955, p 129.

ثانية في قبضة السناتو . وإزاء ذلك كله لم يكن من شأن إرجاع الوضع الى ما كان عليه قبل عهد صلا وضع الأمور في نصابها . ولا أدل على صعوبة هذه المشكلة من أن علاجها استغرق بعض الوقت ويبدو أنه تم على مرحلتين .

د ـ القنسورس يستردون اختصاصاتهم :

وكانت أولى هاتين المرحلتين هي رد اختصاصات القنسورس الى ما كانت عليه قبل عهد صلا . ذلك أن لوقيوس جلّيوس بوبليقولا وجنايوس قورنليوس لنتولوس قلوديانوس ، قنصلي عام ٧٢ ق . م . ، انتُخبا قنسورين لإجراء التعداد وتسجيل المواطنين الجدد وتطهير السناتو من أسوأ أعضائه وكان عدد غير قليل من الانتهازيين قد فازوا منذ عهد قريب بعضوية السناتو بفضل مسارعتهم الى تأييد صلا ، وكان من بينهم كثيرون وربما أكثر المحلفين المرتشين الذين ارتكبوا الفضائح القضائية التي أثارت الرأي العام في سبعينات القرن الأول قبل الميلاد . ويتبين من مصادرنا القديمة[٤٦] أن القنسورين باشرا مهامهما بنشاط فقد أجريا التعداد وأخيراً تم تسجيل المواطنين الجدد في جميع القبائل . ويدل على ذلك أن عدد المواطنين بلغ عندئذ ٩١٠,٠٠٠ مواطن على حين أنه عندما تقرر في عام ٨٦ ق. م. توزيعهم على القبائل جميعها واستغرقت عملية التعداد والتسجيل حوالي عامين لم يزد عدد المواطنين المسجلين اذ ذاك على ٤٦٣٠٠٠ مواطن مع أنه في عام ١١٤ ق . م . كان عددهم ٣٩٤,٣٣٦ . وقد سبق أن ذكرنا أنه ليس معقولاً أنه في خلال ثلاثين عاماً وبعد منح اللاتين والإيطاليين حقوق المواطنة الرومانية لم يزد عدد المواطنين إلا ٦٨,٦٦٤ مواطن .

ويتبين من مصادرنا القديمة كذلك أن القنسورين الجديدين راجعا قائمة أعضاء السناتو واستبعدا منها أربعة وستين اسماً . ولكن هذا وحده لم يكن ليكفل نزاهة المحلفين مستقبلاً ولا ليرضي خصوم السناتو ولا سيما أنه واتتهم

(46) Liv., Ep., 98; Cic., Div. in Caec., 38; I in Verr., I, 18, 54; pro Cluent., 42, 119; Ascon., in Orat. in Tog. Cand., 84 C; Dio Cass., XXXVII, 30; Plut., Pomp., XXII.

عندئذ فرصة فضيحة جديدة كشفت عن فساد الإدارة في الولايات، وهو الفساد الذي كان يشجع عليه اطمئنان الحكام العابثين الى الفوز بالبراءة من المحلفين المرتشين اذا اجترأ أحد على تقديمهم للمحاكمة.

ه ـ قضية ڤرّس :

ذلك أن البرايتور السابق جايوس ڤرّس (Verres) تولى حكم ولاية صقلية ثلاثة أعوام متتالية (٧٣ و ٧٢ و ٧١ ق . م .) بفضل صلاته الوثيقة بالبارزين من أعضاء السناتو ، وعاث في ولايته فساداً أصبح مضرب الأمثال . فما أن عاد ڤرّس الى روما في عام ٧٠ ق . م . حتّى جاء في أثره من كل مدينة تقريباً من مدن صقلية وفد يسعى وراء تقديم هذا الحاكم العابث للمحاكمة بعد أن ذهبت سدى كل الشكاوى التي سبق لضحاياه رفعها الى السناتو .

ولما كان شيشرون قد اكتسب شهرة كبيرة في مجال المحاماة منذ دفاعه في قضية روسقيوس أمرينوس في عهد صلا ، كما اكتسب ثقة الصقليين بفضل نزاهته واستقامته حين كان كوايستوراً في ليلوبايوم بغرب صقلية في عام ٧٥ ق . م . فإن المبعوثين الصقليين لجأوا اليه لإقامة الدعوى ضد ڤرّس. ومما يجدر بالملاحظة أنه حتّى هذا الوقت كان شيشرون، بوصف كونه « رجلاً جديداً » (novus homo) يريد شق طريقه في الحياة العامة ، قد رأى أن يقصر نشاطه في مجال المحاماة على الدفاع دون الاتهام ليفوز بتأييد الذين يدفع عنهم تهماً باطلة ويتجنب العداء المحتوم الذي يعقب إقامة دعاوى الاتهام، وبذلك يكتسب الأصدقاء ويتفادى العداوات فيبرز في الحياة العامة بوصف كونه مدافعاً قوياً لا متهماً خطيراً . بيد أنه في هذه الحالة بالذات بسبب بشاعة الجرائم التي ارتكبها ڤرّس، وعطف شيشرون على ضحاياه. وإدراكه الأهمية السياسية لقضيتهم في الظروف الراهنة ، وتبعاً لذلك مدى الفائدة التي كان نجاحه في هذه القضية يمكن أن يعود بها عليه وعلى الطبقة التي ينتمي اليها بحكم أصله . أي طبقة الفرسان . قبل شيشرون رجاء الصقليين وقام لأول مرة بدور الاتهام .

ولم يجعل مهمة شيشرون شاقة عسيرة افتقاره إلى المواهب أو الأدلة وإنما صلات ڤرّس القوية والأساليب الملتوية التي لجأ اليها أصدقاؤه الأقوياء من الطبقة الحاكمة. وكان على رأسهم كوينتوس هورتنسيوس (الذي كان حتى هذا الوقت أبرز محامي عصره) والأخوان كوينتوس ومارقوس متلّوس. وتصادف أن هورتنسيوس وكوينتوس متلّوس كانا مرشحين لمنصبي القنصلية لعام ٦٩ ق. م.، وأن مارقوس متلّوس كان مرشحاً لأحد مناصب البرايتورية ذلك العام. وقد حدث فعلاً أنهم جميعاً فازوا بالمناصب التي رشحوا لها وأنه عند إجراء القرعة أُسندت رياسة محكمة استرداد الأموال المبتزة في عام ٦٩ ق. م. الى مارقوس متلّوس. واذا كان شيشرون قد انتخب لوظيفة الأيديلية القوروليه فان هذا المنصب كان لا يضارع في أهميته مناصب الطرف الآخر، بيد أن نجاح شيشرون في الانتخابات برغم ما استخدم ضده من رشوة وجاه لإسقاطه يعتبر نصراً باهراً.

وإذ تولى هورتنسيوس مهمة الدفاع عن ڤرّس، استخدم كل مهارته لتأجيل نظر القضية حتى يتولى هو وكوينتوس متلّوس في أول يناير عام ٦٩ ق. م. مهام وظيفة القنصلية ويتولى مارقوس متلّوس البرايتورية ورياسة محكمة استرداد الأموال المبتزة ومن ثم يستطيع ثلاثتهم عندئذ استخدام نفوذهم وسلطاتهم لتبرئة ساحة ڤرّس.

وكانت أولى الوسائل التي استخدمت لتعطيل نظر القضية وسيلة لا تزال مألوفة حتى اليوم وهي وسيلة إثارة دفوع فرعية قانونية لا هدف لها إلا التأجيل تحقيقاً لهدف بعينه يخدم إما الدفاع وإما الاتهام وكان في هذه الحالة خدمة للدفاع. ذلك أنه بُذلت محاولة لمنع شيشرون من تولي الاتهام بالاتفاق مع كوينتوس قايقليوس (Caecilius) على أن يطلب الى المحكمة إسناد هذه المهمة اليه على أساس أنه وقد خدم كوايستوراً تحت إمرة ڤرس كان أدرى بسلوكه وأحق من شيشرون وأولى بالاضطلاع بمهمة الاتهام في هذه القضية. وبطبيعة الحال اقتضى ذلك الفصل أولاً في هذه المسألة الفرعية قبل نظر القضية الأصلية.

واذا كان شيشرون قد نجح في الفوز برفض طلب قايقيليوس وبتوليه هو نفسه مهمة الاتهام ، فإن الخصم قد نجح على هذا النحو في كسب بعض الوقت مثل ما نجح أيضاً في أن تنظر المحكمة قضية أخرى قبل نظر قضية ڤرّس وكذلك في أن تحدد المحكمة لشيشرون مهلة طولها ١١٠ من الأيام لجمع الأدلة اللازمة من جزيرة صقلية وبدء نظر القضية في الخامس من شهر أغسطس عام ٧٠ ق . م . ولما كان يتخلل النصف الثاني من العام عطلات رسمية تستغرق خمسين يوماً ، فانه إذا أطال الاتهام في بسط قضيته وعرض أسانيده وأطال الدفاع في مرافعته كان من الجائز أن يطول نظر القضية حتى العام التالي .

بيد أن شيشرون قضى على كل أمل في ذلك بأن استهل مرافعته استهلالاً بارعاً موجزاً لم يفته فيه أن ينذر صراحة بأنه عندما يتولى منصب الأيديلية سيقيم الدعوى على كل من تحوم حوله شبهة في أنه أثر في الحكم في هذه القضية سواء أكان قد أعطى أم أخذ رشوة . وبعد ذلك اكتفى بسرد التهم الموجهة الى ڤرّس وإقامة الأدلة الدامغة عليها وتقديم الشهود الذين أيدوها . وإذ عجز هورتنسيوس عن أن يجد ثغرة في مرافعة الاتهام أو في الأدلة أو في شهادة الشهود وفشل في استمالة جانب المحلفين بالرشوة ، انسحب من الدفاع ونصح موكله بالذهاب تلقائياً إلى المنفى ، فغادر ڤرّس إيطاليا الى ماسيليا قبل أن تصدر المحكمة حكمها بإدانته غيابياً .

ولا جدال في أن شيشرون أدى مهمته في هذه القضية على خير وجه وأصبح منذ ذلك الوقت يحتل مكان الصدارة بين محامي عصره . بيد أنه يغلب على الظن أن تلك المطالبة القوية بإصلاح نظام تشكيل هيئات محلفي المحاكم الدائمة وخوف محلفي السناتو من استبعادهم من هذه الهيئات كانا أبلغ أثراً من مرافعة شيشرون في المحلفين الذين أصدروا حكمهم بإدانة ڤرّس . وقد اتخذ شيشرون من مرافعته في هذه القضية وسيلة لبناء مستقبله السياسي بأن استخدم كل مواهبه الأدبية الممتازة في تنميق مرافعته ليترك أثراً أدبياً لكفايته ومواهبه وكذلك لعجز الحكومة القائمة وفسادها . فتزداد مكانته وتكافأه

المعارضة على الحط من قدر السناتو . وتبعاً لذلك نشر شيشرون مرافعته على هيئة سبع خطب تضمنت مرافعته ضد مطلب قايقيليوس الخاص بتولي الاتهام في هـــذه القضية (Divinatio in Caecilium) وكذلك الجزء الثـــاني (Actio Secunda in Verrem) من المرافعة التي كان مفروضاً أن شيشرون سيدلي به بعد سماع مرافعة الدفاع وهو الذي عرفنا أنه لم يترافع فلم يكن هناك مجال لإلقاء شيشرون ذلك الجزء من مرافعته . وسنأتي هنا بإيجاز على أهم محتويات مرافعة شيشرون ضد ڤرس بسبب ما تلقيه من ضوء على فساد الطبقة الرومانية الحاكمة ، وعلى سوء إدارة الولايات ، وعلى ما كان المفكرون النابهون يستشعرونه من ضيق باستمرار مثل هذه الأوضاع .

كشف شيشرون النقاب عن نقائص ڤرّس جميعها منذ أن تولى الكوايستورية في عام ٨٤ ق. م . وعمل تحت إمرة القنصل الشعبي جنايوس بابيريوس جاربو ، فبيّن كيف أنه هجر جانب الشعبيين لينضم الى صلا ، وكيف أنه عندما ذهب الى الشرق في عام ٨٠ ق . م . تعاون مع دولابلاّ حاكم ولاية قيليقيا في نهب أموال الأهالي ، وكيف أنه حين كان برايتوراً في عام ٧٤ ق . م . استغل وظيفته مرة أخرى لإثراء نفسه . وبعد ذلك انتقل شيشرون الى الجرائم التي ارتكبها ڤرّس عندما تولي حكم صقلية وضرب بدستور الولاية (Lex provinciae) عرض الحائط ، شارحاً كيف أنه في سبيل جمع الثروة استباح لنفسه سلب المدن والمعابد والأفراد التحف التي كانت تراثاً إغريقياً ثميناً ، وكيف أنه كان يستولي على الممتلكات الخاصة بتدبير تهم باطلة للناس واستخدام سلطته ونفوذه في استصدار أحكام ظالمة بمصادرة تلك الممتلكات ، وكيف أنه كان يتواطأ مع جباة الضرائب على جمع معدل أكبر مما قرره القانون ويرغم الأهالي على الاستجابة الى طلبات الجباة ، وكيف أنه كان يختلس ثمن القمح الذي تشتريه الحكومة من صقلية ، وكيف أنه كان يرغم المدن على أن تقدم له بدلاً من كمية القمح المخصصة قانوناً للحاكم وحاشيته ثمن هذا القمح بسعر يفوق سعر السوق . وكيف أنه حين كان شديد الوطأة على الأهالي غليظ

القلب في معاملتهم كان في الوقت نفسه ليناً كريماً مع عملائه قراصنة البحر .

وإذ صب شيشرون جام غضبه على ڤرّس وأبان أن الحافز على ارتكاب هذه الجرائم كانت رغبته في اقتناء ثروة عريضة يستطيع استخدامها في شراء ذمم المحلفين اذا قُدم للمحاكمة ، وفي إشباع نهمه وجشعه هو ورفاق السوء من كلا الجنسين ، وفي مجاراة الحياة المترفة المتهتكة التي كان يحياها أقرانه من أعضاء السناتو ، لم تصب سهام شيشرون ڤرّس وحده بل أصابت أيضاً أعضاء السناتو بوجه عام فقد كان منهم الأثرياء المترفون وحكام الولايات الفاسدون أمثال ڤرّس ، وكذلك محلفو المحاكم المرتشون ، فكسب شيشرون بذلك جانب المعارضة.

واذا كان لا شك في أن شيشرون كان يعطف عطفاً حقيقياً على الصقليين أثار فيه نقمة شديدة تتجاوب أصداؤها عالية في هذه المرافعة ، فإنه لا شك كذلك في أن هذه المرافعة كانت ضرباً من الدعاية السياسية لخدمة أهداف شيشرون السياسية في ذلك الوقت بالذات . ولا أدل على ذلك من الفارق الشاسع بين حملة شيشرون اللاذعة على ڤرّس لابتزازه الأموال وتجريحه السناتو تجريحاً شديداً في عام ٧٠ ق . م . ، وبين تهوينه أمر التهمة ذاتها عن موكله فلاقوس وإشادته بالسناتو [٤٧] بعد ذلك بأحد عشر عاماً (عام ٥٩ ق . م .) . ولا جدال في أن فلاقوس لم ينحدر الى درك ڤرّس ولكنه على كل حال كان حاكماً منحرفاً ، ولا جدال أيضاً في أن السناتو لم يكن قد تطهر من أوضاره في خلال هذه المدة ، ولكن الظروف السياسية كانت قد تغيرت وكان هدف شيشرون عندئذ هو رأب الصدع في الوفاق بين طبقتي السناتو والفرسان (Concordia Ordinum) . وفي سبيل ذلك لم يبال شيشرون بإنصاف أهالي الولايات ولا بإحقاق الحق فحلل يومئذ ما حرمه بالأمس وأشاد بالذين أوسعهم وخزاً وتجريحاً .

---

(٤٧) انظر :
Cic., pro Flacco.

و – إصلاح نظام تشكيل هيئات المحلفين :

بيد أنه قبل أن ينشر شيشرون مرافعته بعد تنميقها كان ما أماط اللثام عنه في أثناء إقامة الدعوى قد هز الرأي العام هزة عنيفة كان من جرائها أن السناتو لم يعارض مشروع القانون الذي أوعز القنصلان الى البرايتور لوقيوس أورليوس قوتّا (شقيق أحد قنصلي عام ٧٥ ق . م .) بتقديمه فتمت الموافقة عليه وأصبح قانوناً (Lex Aurelia Iudicaria) تقرر بمقتضاه تشكيل هيئات المحلفين على نحو ما كان تريبون العامة باليانقوس قد اقترحه في العام السابق ، أي أن تشكل هيئات المحلفين من ثلاث فئات وهي : أعضاء السناتو ، والفرسان وترابنة الخزانة العامة[٤٨] .

واذا كنا نفتقر الى ما ينفي أويؤيد ما ذهب اليه مومسن[٤٩] من أن ترابنة الخزانة العامة كانوا أصلاً رؤساء قبائلهم ، فإن الشواهد الصريحة التي يمدنا بها الفقيه الروماني الشهير ماروقس فارّو[٥٠] (Varro) لا تدع مجالاً للشك في أنهم كانوا يقومون بمهمة صيارفة الفرق الرومانية الى أن انتقل هذا الاختصاص الى الكوايستورس . وإزاء استمرار وجود هذه الفئة من الترابنة الى حد أنهم في عصر شيشرون كانوا يؤلفون طبقة[٥١] (Ordo) بعينها من طبقات مواطني الدولة كان يشترط لعضويتها توافر نصاب مالي (قدره ٣٠٠,٠٠٠ سسترتيوس على الأقل)[٥٢] يأتي في المقام التالي مباشرة للنصاب المالي اللازم لعضوية طبقة الفرسان (وقدره ٤٠٠,٠٠٠ سسترتيوس على الأقل) لا بد من أنه كان لهؤلاء الترابنة اختصاص معين ليس لدينا بعد علم عنه ولا عن عدد هؤلاء الترابنة ولا عن طول مدة بقائهم في مناصبهم .

---

(48) Liv., Ep, 97; Plut., Pomp., XXII; Ascon., 206 St., in Pis., 17 C; Velleius, II, 32; Schol. Gronov., 328 St.; Schol. Bob., 94 St.; Cic., ad Att., I, 16, 3; Phil., I, 8, 20.
(49) Mommsen, Staatsrecht, III, p. 189.
(50) Varro, Logistoricon Libri, V, 181; cf. Festus, 2 L.
(51) Cf. Cic., pro Rab. perd. reo, 9, 27; in Cat., IV, 7, 15; pro Planco, 8, 21.
(52) Schol. Bob., 91 St.; Suet., Aug., XXXII, 3.

ولما كان النصاب المالي اللازم للاندماج في طبقة ترابنة الخزانة يدل على أنهم كانوا من الرأسماليين المتوسطي الحال وتبعاً لذلك كانوا يتفقون والفرسان في الصوالح ، فإنه كان من شأن إشراكهم والفرسان مع أعضاء السناتو في تكوين هيئات المحلفين أن تصبح المحاكم من الناحية الواقعية في قبضة الرأسماليين ، كبارهم ومتوسطي الحال منهم ، من غير أعضاء السناتو . ولعل أن هذا يفسر ما يذهب اليه ملخص ليفيوس وبلوتارخ من أن المحاكم نُقلت الى الفرسان (٥٣) .

وإزاء افتقارنا الى نص قانون أورليوس القضائي تعددت آراء الباحثين (٥٤) حول كيفية تطبيق هذا القانون . ومهما يكن من أمر ذلك فإنه لا جدال في ثلاثة أمور : وأحدها هو أن الرأسماليين خرجوا من صراعهم مع طبقة السناتو منتصرين بأن أصبحوا يؤلفون ثلثي أعضاء هيئات المحلفين . والأمر الثاني هو أنه اذا كان من شأن النظام الجديد لتشكيل هيئات المحلفين أنه بعد أن أصبح المحلفون من طبقة السناتو أقلية لم يعد في وسع الحكام العابثين المنتمين الى هذه الطبقة الإفلات من العقوبة بفضل تعاطف المحلفين من طبقتهم ، فإنه كان لا يزال في وسعهم النجاة عن طريق الرشوة . ذلك أن قانون صلا الخاص بمحاكمة المحلفين كان شأنه شأن قانون جايوس جراكوس المماثل لا ينطبق إلا على المحلفين من أعضاء السناتو وذلك لصدور هذين القانونين حين كان المحلفون لا يتألفون إلا من أعضاء السناتو . وأسوأ من ذلك أنه لم يكن هناك ضمان لعدم إدانة حاكم بريء نزيه وقف حائلاً في وجه نشاط الرأسماليين في ولايته. والأمر الثالث هو أنه كان من شأن اختيار ثلثي المحلفين من الرأسماليين بعد استباحة أحكام قانون تولي الوظائف العامة واستعادة القنسورس وترابنة العامة اختصاصاتهم كاملة تقويض أركان آخر دعامة أقام عليها صلا سيطرة السناتو

(53) Liv, Ep., 97; Plut, Pomp., XXII

(54) Cf. J.L. Strachan-Davidson, Problems of the Roman Criminal Law, II, pp. 84-95; T. Rice Holmes, Rom. Rep., I, pp. 391-5; C.A.H., IX, pp. 338-40

وهيمنته . وهكذا قوض تلميذ صلا وربيبه دعائم دستور أستاذه .

ولم يكن معنى ذلك أن الجمهورية الرومانية أصبحت بخير أو أن نظم الحكم فيها أصبحت ديمقراطية . ذلك أن التناحر الحزبي لم يلبث بعد فترة قصيرة أن اشتد ، وأن ترابنة العامة بذلوا جهوداً غير مشكورة في السير قُدُماً نحو حكم الفرد المطلق ، وأن النظم والتقاليد لم يعد لها وزن ولا قيمة إلا للتذرع بها أو لخرقها خدمةً لصوالح هذا القائد أو ذاك . ولم يكن في وسع الكثيرين من المواطنين الصالحين الذين كانوا يُعارضون العنف والشغب وحكم السيف والاستبداد بالسلطة عمل شيء أكثر من أن يغمضوا عيونهم عن الواقع المرير .

٣ ـ لطمات متلاحقة للسناتو :

ا ـ يوليوس قيصر[٥٥] :

لم يستخدم بومبي وقراسوس نفوذهما بوصف كونهما قنصلي عام ٧٠ ق. م. في الانتخابات للعام التالي . وإذ آثر كل منهما انتظار الفرصة المناسبة لتولي سلطة تناسب أطماعه رفض الإثنان عندئذ تولي سلطة بروقنصلية في الخارج . وبينما ركن بومبي الى العزلة ، تابع قراسوس الأسلوب الذي كان قد عمد اليه منذ بداية حياته العامة لاكتساب محبة الناس باستغلال ثروته الطائلة في إعطاء المنح وإقامة الحفلات وإقراض النقود لذوي النفوذ .

وقد تولى قنصلية عام ٦٩ ق . م . كوينتوس هورتنسيوس وكوينتوس متلّوس وكانا من أبرز رجال السناتو ، وكذلك تولى قنصلية عام ٦٨ ق . م . رجلان من الطراز نفسه . وهكذا بدا كأن شيئاً لم يحدث ، فمن ناحية ظلت مقاليد الأمور في قبضة السناتو ، ومن ناحية أخرى ساد الحياة العامة هدوء

---

(٥٥) عن بداية حياة قيصر العامة ، راجع :
L.R. Taylor, Class. Phil., 1941, p. 121; Trans. Amer. Philol. Assoc., 1942, pp. 1 ff.; Greece and Rome, 1957, pp. 10 ff.; R. Syme, J.R.S., 1944, pp. 94, ff.; E. Badian, J.R.S., 1959, pp. 81 ff.; Scullard, 1970, n. 12 p. 419.

غير مألوف الى حد أن أبرز أحداث عام ٦٩ أو ٦٨ ق . م . كانت وفاة قورنليا إبنة قينّا ويوليا أرملة ماريوس وكانتا على التعاقب زوجة وعمة الشاب جايوس يوليوس قيصر ، وهو الذي كان يتأهب عندئذ للذهاب الى ولاية إسبانيا القاصية ليتولى عمله هناك بوصف كونه كوايستوراً . وقد انتهز قيصر فرصة تشييع جنازة عمته ليكتسب لنفسه شعبية كبيرة تفيده في بناء مستقبله . ذلك أنه عرض في موكب الجنازة صور (imagines) البطل الشعبي ماريوس، وكان ذلك تحدياً سافراً للسناتو وإعلاناً صريحاً عن ميول قيصر واتجاهاته بقصد اكتساب رضاء خصوم السناتو وكان لا يزال بينهم كثيرون من أشياع ماريوس . وفضلاً عن ذلك فإنه في خطاب التأبين(٥٦) الذي ألقاه قيصر أشاد بأصل عمته للإشادة بأصل عشيرته، زاعماً أنها تنحدر من ناحية الأم عن الملك أنقوس (Ancus — أحد ملوك روما القدماء) ومن ناحية الأب عن الإلهة فينوس ، والدة المؤسس الأسطوري لمدينة روما . ومن الجلي أنه كان من شأن الإشادة بعراقة أصل عشيرة يوليوس وقرن ذلك بإحياء ذكرى البطل الشعبي صهر هذه العشيرة إبراز أمرين : وأحدهما هو الفارق بين سلالة عشيرة يوليوس وكان معروفاً أنه على مدى مئات السنين لم يستغل أحد من هذه العشيرة عراقة الأصل الرفيع للتمتع بامتيازات سياسية وبين سلالات العشائر الأخرى العريقة التي أوغلت في الفساد . والأمر الآخر هو أن ميول عشيرة يوليوس العريقة كانت ميولاً شعبية على عكس غيرها من العشائر العريقة . ولم يكن أحب الى الشعب من رجل عريق الأصل شعبي الميول وفوق مستوى الشبهات . وبعد استهلال قيصر حياته العامة هذا الاستهلال البارع انصرف الى إسبانيا للاضطلاع بأولى مهامه الرسمية .

ب — إصلاحات تريبونا العامة قورنليوس وجابينيوس :

وبرغم أن قنصلي عام ٦٧ ق . م . كانا مثل قناصل العامين السابقين من

---

(56) Sueton., Div., Jul., VI.

رجال السناتو . فإن دلائل الضعف الذي أصاب مكانة السناتو أخذت تظهر بوضوح . ذلك أن القنصلين الجديدين — جايوس قالبورنيوس بيسو (Piso) ومانيوس أقيليوس جلابريو (Glabrio) — لم يستطيعا الفوز في الانتخابات إلا بالرشوة السافرة . وأهم من ذلك وأبلغ أثراً في مجرى الأحداث السياسية أنه لأول مرة منذ دكتاتورية صلا كان من بين ترابنة العامة العشرة في ذلك العام تريبونان من أكثر الشعبيين نشاطاً وقوة عزيمة وهما جايوس قورنليوس وأولوس جابينيوس .

لم يحاول الرومان بوجه عام تلافي ما كان يعيب القانون المدني من نقص وغموض عن طريق التشريع وانما عن طريق البيانات (edicta) التي كان يصدرها سنوياً برايتور المدينة (praetor urbanus) وبرايتور الأجانب praetor peregrinus) وكذلك كل حاكم من حكام الولايات في بداية مدة حكم كل منهم . وكانت هذه البيانات تتضمن الظروف التي في كنفهـــا سيُقبل رفع القضايا لإنصاف من وقع عليهم ضيم وكذلك القواعد التي ستبنى عليها الأحكام . وكانت هذه البيانات تغذي القانون المدني الروماني على الدوام بمبادىء قانونية جديدة مستمدة من تفسيرات فقهاء القانون . وبرغم أن هذه البيانات كانت تصدر سنوياً ، وأنه بصدور البيان الجديد كان البيان السابق يصبح لاغياً ، فإنه وقد جرى كل برايتور وكل حاكم ولاية على أن يدمج عادة في بيانه محتويات بيان سلفه مع ما قد يَعنّ له من إضافات ، أصبحت هذه البيانات تعرف باسم « البيانات الدائمة » (edicta perpetua) . ومع ذلك فإنه حتى عام ٦٧ ق . م . لم يوجد قانون يلزم البرايتور أو حاكم الولاية بعدم الخروج على القواعد الواردة في بيانه[٥٧] . ويبدو أن بعض البرايتورس وحكام الولايات كانوا يتغاضون عن القواعد الواردة في بياناتهم خدمة لأحد طرفي النزاع أو نكاية فيه ويبنون أحكامهم على تفسيرات جديدة للقانون

(57) Cf. Cic., II in Verr., I, 46, 119; pro Cornelio, fr. 18 b, Dio Cass., XXXVI, 40, 2.

ويصدرون بذلك بيانات طارئة (edicta repentina) .

ومن أجل وضع حد لمثل هذا العبث استصدر تريبون العامة قورنليوس قانوناً [٥٨] (Lex Cornelia) قضى بأن يبني البرايتورس تصريفهم العدالة على البيانات الدائمة التي يصدرونها (Ut praetores ex edictis suis perpetuis ius dicant) ، أي البيانات التي يصدرونها في بداية تولي مهامهم ، وبألا يجوز لهم إصدار بيانات طارئة . ويشك بعض الباحثين [٥٩] فيما ذهب اليه مومسون [٦٠] من أن الخروج على البيانات الدائمة كان على نطاق واسع ومن أن البرايتورس كانوا يشاركون في هذا العبث . وفي رأينا أنه لو لم يكن الأمر كذلك لما كان هناك داع لاستصدار قانون قورنليوس سالف الذكر والنص على البرايتورس بالذات ، وتبعاً لذلك نعتقد مع مومسون أن هذا القانون كان دعامة قوية لتصريف العدالة في سائر أنحاء الإمبراطورية الرومـــانية .

وعمل قورنليوس كذلك على اتخاذ إجراء حاسم ضد الرشوة في الانتخابات (ambitus) ولا سيما بعد استخدامها على نطاق واسع في انتخاب قنصلي عام ٦٧ ق. م. فتقدم بمشروع قانون يقضي بزيادة العقوبات التي تفرض على الذين يدفعون الرشاوى وكذلك بمعاقبة الوسطاء (divisores) الذين يقومون بتوزيع الرشاوى على الناخبين . وقد عارض السناتو هذا المشروع بحجة أنه كان من شأن صرامة العقوبات المقترحة دفع الناس على العزوف عن تقديم المذنبين للمحاكمة وكذلك دفع المحلفين على العزوف عن فرض مثل هذه العقوبات وتبعاً لذلك كان الهدف المنشود لا يتحقق . وعندما أوعز السناتو الى القنصل قالبورنيوس بإعداد مشروع قانون يقترح عقوبات أقل صرامة ، وافق قورنليوس على المشروع المعدل وبذلك أتيح للقنصل

(58) Ascon., 58; Dio Cass, XXXVI, 40, 3.
(59) C.A.H., IX, p. 343.
(60) Momsen, Roem. Gesch., Eng. Trans, V, pp. 434 ff.

الذي فاز بمنصبه عن طريق الرشوة في الانتخابات أن يخلد ذكرى قنصليته بقانون (Lex Calpurnia de ambitu) ضد الرشوة في الانتخـــابات. وقد قضى هذا القانون بفرض غرامة مالية على الراشين وبحرمانهم الى الأبد تولي الوظائف العامة[61] .

ويعزى الى قورنليوس الفضل في صدور قانون[62] آخر خاص بالإعفاءات (privilegia) من أحكام القانون ، وهي الإعفاءات التي درج السناتو على منحها لذوي الحظوة لديه . وفي الماضي البعيد كان الإجراء المألوف هو أن يقرر السناتو ما يشاء منحه من إعفاءات ثم يعرضها على الشعب ويأخذ موافقته عليها ، ولكنه عندما اشتد ساعد السناتو وتدعمت سيطرته أخذ يغفل باطراد عرض قرارات الإعفاءات على الشعب متجاهلاً سيادته . بيد أنه اذا كانت سيادة الشعب قد تجوهلت فإنها لم تُلغ . واذا كان الشعب قد أغفل تأكيد سيادته في هذا الصدد فإنه في صحوته الجديدة بعد استعادة ترابنة العامة اختصاصاتهم كاملة لم يكن هناك مفر من تأكيد سيادة الشعب من جديد . وقد كان مشروع قانون قورنليوس يستند على حجة قوية مفادها هو أنه بما أن الشعب هو الذي يشرع القوانين فهو وحده صاحب الحق في منح الإعفاءات من أحكام هذه القوانين . ولما كان السناتو قد رأى في هذا المشروع حداً من سلطانه وسيطرته فإنه أوعز الى تريبون العامة سرفيليوس جلوبولوس (Globolus) بمعارضته ، وتبعاً لذلك فإنه عندما عرض قورنليوس مشروع قانونه على الشعب تصدى له جلوبولوس واستخدم حقه في الاعتراض (intercessio) عليه وكاد قورنليوس أن يضرب بهذا الاعتراض عرض الحائط لولا تدخل القنصل بيسو واحتجاجه احتجاجاً شديداً على مثل هذا التصرف مما أدى الى فض الاجتماع . وقد تبعت ذلك مناقشة الموضوع في السناتو وانتهى الأمر مرة أخرى بقبول قورنليوس حلاً وسطاً قضى به القانون الجديد وهو أن

(61) Dio Cass., XXXVI, 38; Asconius, 58 C; C.A.H., IX, pp. 343-4.
(62) Dio Cass., XXXVI, 39; Asconius, 58 C; Heitland, III, pp. 53-4; C.A.H., IX, p. 344

يستمر السناتو في اتخاذ قرارات باقتراح الإعفاءات المراد منحها وانما بشرطين : وأحدهما ، هو ألا يقل عن مائتين عدد الأعضاء الحاضرين في كل جلسة تتخذ فيها مثل هذه القرارات . والشرط الآخر ، هو عرض هذه القرارات على الشعب لإبرامها . واستعداد قورنليوس للتفاهم وقبوله مرة أخرى حلاً وسطاً يدلان على أنه لم يكن ينشد إلا الإصلاح بقدر ما كانت الظروف تسمح به دون إحداث قلقلة أو اضطراب ، وإلا لركب رأسه واستثار الشعب على معارضيه ونفذ وجهة نظره .

ولم تقف اللطمات المتلاحقة التي كيلت للسناتو عند هذا الحد . فقد كانت إحدى الفضائح المزمنة في الحياة العامة تتصل بالزيارات التي كان السفراء الأجانب ومبعوثو أهالي الولايات يقومون بها الى روما لطرح مشاكل بلادهم على السناتو . وكان العرف يقضي بأن أحد القنصلين هو الذي يقدم البعثات الأجنبية الى السناتو وأن يكون ذلك في بداية العـــام . ومنذ أن اتسع نطاق الإمبراطورية الرومانية وتبعاً لذلك علاقاتها الخارجية ، وانحدرت الأخلاق الرومانية وغدا لكل شيء ثمنه في روما ، أصبحت الرشوة أضمن وسيلة تكفل الوصول الى القنصل والمثول أمام السناتو دون تأخير طويل والحصول على القرار المطلوب . وحفاظاً على مظاهر الوقار الخليقة بالطبقة العليا كان يجب أن يتم كل شيء في الخفاء عن طريق وسطاء يعرفون مقدار ما يجب دفعه للقنصل وغيره من الحكام ــ تفادياً للعرقلة ــ ولأعضاء السناتو ، وذلك تبعاً لأهمية القرار المطلوب ومعدل السرعة التي يُراد استصداره بها . ويعرفون كذلك المصرفيين الذين يستطيعون تقديم القروض اللازمة لسد نهم ذلك الجيش الجرار . ولا شك في أن فوائد هذه القروض كانت مرتفعة . وعلى هذا النحو كانت البعثات الأجنبية نهباً لجشع الحكام وأعضاء السناتو وقارضي النقود . ومع ذلك فإنه بعد تحمل كل هذه الأعباء المالية والفوز من السناتو بالقرار المطلوب . لم يكن هناك ما يضمن أن السناتو لن يعود فيما بعد فيلغي هذا القرار أو أن يضرب به الحكام الرومان المحليون عرض الحائط . وأما القروض وفوائدها

فإنه كان يتعذر التحلل من سدادها لأن الدائنين كانوا يستخدمون كل ما في وسع الرومان من قوة وبطش لإرغام المدينين على السداد . ويبدو أنه لم يكن أمراً عملياً أن تحضر البعثات معها الأموال اللازمة للرشوة دون الاضطرار الى الاستعانة بالمصرفيين الرومان ودفع فوائد باهظة . ذلك أن أعضاء السناتو كانوا إما شركاء مستخفين للمصرفيين وإما على أحسن تقدير يستثمرون أموالهم في المصارف وتبعاً لذلك كانوا يفيدون مرتين : إحداهما من الرشاوى ذاتها ، والأخرى من فوائد القروض التي تعقد لدفع الرشاوى . وكان عدم اتصال المبعوثين بالمصرفيين ينم عن أنهم أحضروا معهم مبالغ كبيرة ، وكان ذلك يؤدي فوراً الى زيادة مقادير الرشاوى الواجب دفعها فضلاً عما كان يؤدي إليه من العراقيل الخطيرة المترتبة على إغفال صوالح المصرفيين الرومان . فقد كان من شأن هذا الإغفال إثارة نقمة أولئك المصرفيين واستخدام نفوذهم القوي في عرقلة مساعي مثل أولئك المبعوثين الذين جهلوا أو تجاهلوا الأصول المرعية في الرشوة .

ولم يكن في وسع الأقلية النزيهة من أعضاء السناتو وضع حد لهذا الفساد الذي كان يشارك فيه كثيرون من أعضاء السناتو ويعاونهم عليه الفرسان خدمة لصوالحهم الشخصية ، وذلك برغم أنه لم يكن بطبيعة الحال من صالح الدولة الرومانية امتصاص دماء الولايات والدول الخاضعة للنفوذ الروماني . ذلك أنه فضلاً عن الآثار المعنوية المترتبة على ذلك ، كان أمراً جلياً حتى للمواطن الروماني العادي أن رخاء الولايات كان أمراً ضرورياً لضمان قدرتها على دفع ضرائبها وهي التي كان دخلها ييسر إعفاء المواطنين الرومان من دفع الضرائب. ولم يفت ترابنة العامة تنبيه مواطنيهم بهذه الحقيقة . ولا أدل على ان هذا الفساد الذي أوضحنا أمره كان قد استشرى عندئذ وتجاوز المدى من أنه أثار حفيظة رجل الشارع . ولعل أن يكون قد أسهم في ذلك أن رجل الشارع كان لا يحظى بنصيب من تلك الرشاوى .

وعلى كل حال فإن تريبوني العامة قورنليوس وجابينيوس كانا يعبران

عن المشاعر السائدة عندما تقدما بثلاث مشروعات قوانين لوضع حد لهذا العبث . ذلك أن جابينيوس اقترح أن يحظر تقديم قروض في روما لأهالي الولايات وأن على حكام الولايات اعتبار صكوك هذه القروض باطلة وألاّ يسمحوا بإقامة دعاوى لاسترداد هذه القروض . وكذلك تقدم قورنليوس باقتراح مماثل فيما يخص إعطاء قروض في روما لسفراء الدول الأجنبية . وإذا كان يبدو أن اقتراح قورنليوس لم يتخط دور مناقشته في السناتو على أساس أنه لم يكن هناك داع لاستصدار مثل هذا التشريع بعد القـــرار (Consultum) الذي كان السناتو قد أصدره في هذا الصدد في عام ٩٤ ق . م . بمناسبة الملابسات التي صاحبت زيارة بعض سفراء كريت لروما، فإن مشروع جابينيوس تمت الموافقة عليه وأصبح قانوناً [٦٣] . وتبع ذلك نجاح جابينيوس في استصدار قانون آخر [٦٤] حتم على السناتو استقبال البعثـــات الأجنبية في كل يوم من أيام شهر فبراير وكذلك في أيام الشهر الإضافي الذي كان يُزاد كل عامين تصحيحاً للتقويم. وقد كان ذلك عرفاً مألوفاً [٦٥] ولكن السناتو درج على إغفاله ليضطر البعثات الأجنبية على شراء رضائه . ومع ذلك لم تكن هناك جدوى من صدور هذين القانونين على نحو ما سنرى ، ذلك أن بيت الداء كان أزمة روما الأخلاقية ، والأخلاق لا يمكن إصلاحها بالقوانين .

٤ ـ السير قُدُماً نحو حكم الفرد المطلق :

ا ـ قانون جابينيوس الخاص بمحاربة القراصنة :

وقد كان أهم تشريعات عام ٦٧ ق . م . قانون آخر استصدره جابينيوس في مستهل ذلك العام ولكننا أرجأنا الحديث عنه حتى الآن لاتصاله اتصالاً وثيقاً بقانون آخر صدر في العام التالي ، ولأن هذين القانونين كليهما كانا نذير سوء بالمصير المحتوم الذي كان النظام الروماني الجمهوري متجهاً

(63) Cic., ad Att., VI, 2, 7.
(64) Cic., ad Q. Fr., II, 13, 3; cf. ad Att., I, 14, 5.
(65) Cic., II in Verr., I, 35, 90.

نحوه . ذلك أن خطر القراصنة على التجارة كان قد استفحل بامتداد نشاطهم حتى شمل كل أرجاء البحر المتوسط وهدد وصول القمح الى روما فارتفعت أسعاره ارتفاعاً كبيراً بعث على الإلحاح في المطالبة بقطع دابر القراصنة [٦٦] . وأصبحت هذه المشكلة تحتل مكان الصدارة في الحياة الرومانية عند أواخر عام ٦٨ ق.م. وإزاء ذلك بادر جابينيوس بالتقدم بمشروع قانون ينص على إسناد مهمة القضاء على القراصنة الى قائد واحد يُمنح سلطات لم يسبق لها مثيل . فقد نص المشروع على أن يُكلف بهذه المهمة بروقنصل يُخول التمتع بسلطته ثلاث سنوات ، وعلى أن يكون صاحب السلطة العليا (imperium maius) في منطقـــة تشمل البحر المتوسط بأسره ، وعلى أن يتمنـــع الى جانب ذلك بسلطة معـــادلة [٦٧] (aequum) لسلطـــة حكام الولايات الساحلية لمسافة تمتد خمسين ميلاً من البحر في كل ولاية من هذه الولايات . وعلى أن يوضع تحت إمرته مبلغ قدره ٦٠٠٠ تالنت (حوالي مليون ونصف مليون جنيه استرليني) وأسطول مكون من ٢٠٠ سفينة ، فضلاً عن أي عدد من المقاتلين والملاحين يراه ضرورياً ، وكذلك خمسة عشر مساعداً (legati) بمرتبة بروبرايتور[٦٨] . وإذا كان المشروع لم يقترح اسم بروقنصل بعينه ليتولى مهمة القضاء على القراصنة ويتمتع بكل هذه السلطات الواسعة . فإنه لم يغب عن السناتو أن بومبي كان المقصود ولا أنه كان من شأن منح مثل هذه السلطات لأي قائد جعله صاحب الكلمة العليا في الدولة مما كان يتهدد ما تبقى للسناتو من سيطرة ونفوذ . والواقع أنه كان من شأن منح هذه السلطات لأي قائد روماني أن يجعل منه ملكاً غير متوج وأن يتهدد النظام الجمهوري بأشد المخاطر .

ويحدثنا بلوتارخ بأن أعضاء السناتو جميعاً باستثناء يوليوس قيصر انبروا

(66) Plut., Pomp., XXIV-XXV, 1; Dio Cass., XXXVI, 20-23.
(67) Velleius, II, 31, 2; Ehrenberg, A.J P, 1953, pp. 117 ff.; Scullard, 1970, n. 14 p. 419.
(68) Dio Cass., XXVI, 23; Cf. Plut., Pomp., XXV, 2-3

لمعارضة المشروع معارضة عنيفة ، وبأن قيصر لم يؤيد المشروع حباً في بومبي وإنما رغبة في كسب ود الشعب الذي كان شديد الحماس للمشروع[٦٩] . وربما أيضاً — في تقديرنا — رغبة من قيصر في التقرب الى بومبي . وعندما أدرك السناتو عبث مقاومة المشروع بالخطب ، أوعز الى اثنين من ترابنة العامة بتدبير منع إقراره ، فحاول أحدهم — وهو لوقيوس روسقيوس أوتو (Otho) — اكتساب جانب الفرسان بأن استصدر قانوناً[٧٠] (Lex Roscia) رد اليهم امتيازاً كانوا قد حرموه فيما يبدو في عهد صلا ، وهو أن يشغلوا في المسرح مقاعد الصفوف الأربعة عشر التالية مباشرة للصفوف الأمامية المخصصة لأعضاء السناتو . وقام التريبون الآخر — وهو لوقيوس تربلّيوس (Trebellius) باستخدام حقه في مصادرة المشروع عندما عُرض على جمعيـــة القبائل ، مما حدا بجابينيوس الى أن يحذو حذو تيبريوس جراكوس ويطلب الى الجمعية عزل زميله المعترض . وعندما أعلنت سبع عشرة قبيلة أصواتها بالموافقة على العزل ولم يبق إلا إعلان صوت قبيلة واحدة أخرى بالموافقة لإصدار قرار العزل ، تراجع تربلّيوس عن موقفه . وسواء أصح ما يرويه ديون قاسيوس من أن أوتو اقترح عندئذ على الجمعية إسناد مهمة إخضاع القراصنة الى قائدين بدلاً من قائد واحد ، أم ما يرويه بلوتارخ من أن هذا الاقتراح قُدم في اجتماع عام (Contio) ، فإن هذا الاقتراح لم يلق قبولاً . ولم يحدث فقط أن جمعية القبائل أقرت مشروع قانون جابنيوس فأصبح قانوناً[٧١] (Lex Gabinia de piratis persequendis) نافذ المفعول وأسندت مهمة إخضاع القراصنة الى بومبي ، بل إنها استجابت الى طلب بومبي وزادت عدد سفن أسطوله الى ٥٠٠ وعدد رجاله الى ١٢٠٫٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠٠ من الخيالة وعدد مساعديه الى أربعة وعشرين وخصصت

(69) Plut., Pomp., XXV, 3.
(70) Cic., pro Murena, 40; Velleius, II, 32, 3; Liv., Ep., 99; Asconius, 78-9.
(71) Dio Cass., XXXVI, 24-36 a; Plut., Pomp., XXV, 4-7.

له كوايستورين[٧٢] . وهكذا – على حد قول فلّيوس – أُسندت الى رجل واحد وسائل كافية للسيطرة على العالم أجمع تقريباً [٧٣] .

واذا كان قد سبق أنه في عام ٧٤ ق . م . مُنح البرايتور ماركوس أنطونيوس سلطة بروقنصلية غير محددة (infinitum) لمحاربة القراصنة وكان ذلك سابقة أفاد منها بومبي في عام ٦٧ ق. م.، فإن السلطة التي مُنحت لبومبي والموارد والقوات التي وضعت تحت إمرته كانت تفوق كثيراً كل ما خُول لأنطونيوس وسابقة أشد خطراً . وتبعاً لذلك لم يكن قانون جابينيوس الذي أفضى الى إغداق هذه السلطة على بومبي ووضع كل هذه الموارد والقوات تحت إمرته ضربة قاصمة لسيطرة السناتو فحسب بل كان كذلك خطوة واسعة نحو زوال النظام الجمهوري الروماني .

ولا أدل على فرط الثقة في كفاية بومبي العسكرية من أنه بمجرد إسناد مهمة محاربة القراصنة اليه هبطت أسعار القمح [٧٤]. وبرغم أن بومبي لم يستخدم إلا جانباً قليلاً من القوات التي وضعت تحت إمرته ، فإن الحملة التي شنها على القراصنة في عام ٦٧ ق . م . وقطع بفضلها دابرهم في البحر المتوسط بأجمعه لم تستغرق أكثر من ثلاثة شهور ، على نحو ما سنرى في معرض الحديث عن الأحداث الخارجية .

ب – قانون مانيليوس الخاص بإسناد قيادة الحرب في آسيا الى بومبي :

وحين كان بومبي لا يزال في قيليقيا عقب نجاحه ضد القراصنة ، وكان لوقولّوس لا يزال عاجزاً عن إنهاء حرب ميثريداتس الثالثة التي طال أمدها ، كان الرأي العام في روما يميل الى إسناد القيادة في هذه الحرب الى بومبي . وتقرباً الى بومبي استغل تريبون العامة جايوس مانيليوس (Manilius)

---

(72) Plut., Pomp., XXVI, 2.
(73) Velleius, II, 31, 2.
(74) Plut., Pomp., XXVI, 2.

مشاعر السخط على لوقولّوس والتهليل لبومبي لكي يتقدم في عام ٦٦ ق . م . بمشروع قانون يقضي بأن يُسند الى بومبي حكم ولايات آسيا وقيليقيا وبيثونيا ، وقيادة الحرب في آسيا وإطلاق يده في حل المشاكل الشرقية ، وذلك فضلاً عن الاحتفاظ بالسلطات المخولة له بمقتضى قانون جابينيوس . وإزاء حماس الشعبيين والفرسان لمشروع قانون مانيليوس وتأييد قيصر وشيشرون له ، لم تجد فتيلاً معارضة أبرز أعضاء السناتو مثل هورتنسيوس وزعيم السناتو قاتولـّوس ، فقد أقرت جمعية القبائل المشروع وأصبح قانوناً[٧٥] (Lex Manilia de imperio Pompei) .

ولا جدال في أنه لم يسبق للشعب الروماني أن منح طائعاً مختاراً مثل كل هذه السلطات لأي مواطن روماني . ولا جدال أيضاً في أن ذلك كان نذيراً بالمصير المحتوم للنظام الجمهوري الروماني عما قريب ، مثل ماكان النتيجة المنطقية لفشل حكومة السناتو في معالجة مشاكل الدولة وعجزها عن ممارسة سلطتها لصالح الشعب بأكمله ، وكذلك نتيجة لفشل حركة الإصلاح التي بدأها الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس وحمل لواءها غيرهما من ترابنة العامة . وعندما فشل هؤلاء الترابنة في الإصلاح واستمر السناتو سادراً في غيه انفتحت الأبواب على مصاريعها أمام القواد العسكريين ولا سيما أنه قد مهدت السبل أمامهم إصلاحات ماريوس العسكرية ، والسابقة الخطيرة التي وضعها صلا بالاستيلاء على السلطة بالقوة ، والسوابق الخطيرة التي وضعها السناتو نفسه بمنح بومبي — قبل أن يتولى أية وظيفة عامة — سلطة بروبرايتورية ثم سلطة بروقنصلية ، ومنح البرايتور ماركوس أنطونيوس سلطة بروقنصلية غير محددة . وقد جاء بومبي وقراسوس فحصدا ثمار ذلك كله وأرغما السناتو على الاستجابة الى مطلبيهما بالتهديد باستخدام القوة .

(75) Cic., pro Lege Manilia; Plut., Pomp., XXX; Dio Cass., XXXVI, 42-43 ; App., Mithr., 97, Velleius, II, 93, 1.

ولم يلبث الشعب أن وضع سابقة بالغة الخطورة بمنح بومبي سلطات هائلة لو انه أراد استغلالها ونصب نفسه سيداً للعالم الروماني لما استطاع أحد أن يحول دون ذلك . واذا كنا سنرى أن بومبي لم يفعل ذلك وفوت هذه الفرصة على نفسه ، فإننا سنرى أيضاً أن قيصر لم يفوت فرصته .

الفصل الثامن

الأحداث الخارجية منذ عام ٧٨ حتى عام ٦٣ ق.م.

اولاً – حرب سرتوريوس (١)

كان كوينتوس سرتوريوس سابيني الأصل وولد في بلدة نورسيا (Norsia) في عام ١٢٣ ق . م . وقد عجمت الحروب عوده وأكسبته خبرة عسكرية فائقة ، فهو بعد أن نجا من كارثة أراوسيو (عام ١٠٥ ق . م .) حارب تحت إمرة ماريوس ضد التيوتون والقيمبري (١٠٢ – ١٠١ ق . م .)

---

(١) المصادر الرئيسية :

Liv., Ep., 90-96; Plut., Sertorius; Pomp., XVII-XX; App., B.C., I, 108-115 ; Iber., 99-100; Florus, II, 10; Eutr., VI, 1; Oros., V. 23; Sallust., Hist. fragmenta Books I and II; A. Schulten, Fontes Hispaniae Antiquae, IV, 1937, pp. 160 ff.

ومما يجدر بالملاحظة أن صالوستيوس وبلوتارخ يصوران وجهة النظر الشعبية المناصرة لسرتوريوس على حين أن أبيانوس وغيره من الكتاب الذين اعتمدوا على تاريخ ليفيوس ينحون نحو هذا المؤرخ ويصورون وجهة النظر الأرستقراطية .

المراجع الرئيسية :

Heitland, III, pp. 23-36; T.R. Holmes, Rom. Republic, I, pp. 369 ff., P. Treves, Athenaeum, 1932, pp. 127 ff.; C.A.H., IX, pp. 318-26 ; A. Schulten, Sertorius; E. Gabba, Athenaeum, 1954, pp. 77 ff. ; W.H. Bennett, Historia, 1961, pp. 459 ff., Scullard, 1970, pp. 89-92 and n. 4 p. 417.

ثم حارب تحت قيادة ديديوس ضد القلتيبيرى في إسبانيا (٩٥ ق . م .) ، وبعد ذلك اشترك في القتال ضد الحلفاء الإيطاليين . وقد كان سرتوريوس كوايستوراً في غاليا هذه الناحية من الألب في عام ٩١ ق . م . عندما بدأت ثورة الحلفاء التي أدت الى تلك الحرب المعروفة « بحرب الحلفاء الإيطاليين » . وقرب أواخر هذه الحرب أُسندت الى سرتوريوس قيادة أحد الجيوش الرومانية وأثبت كفاية عالية . وبفضل شخصيته وكفايته العسكرية تمتع بمكانة كبيرة أثارت مخاوف صلا في عام ٨٨ ق . م . فرفض قبول ترشيحه لتريبونية العامة وبذلك ألقى به في أحضان جماعة ماريوس ، ولكنه لم يكن ميالاً الى أعمال العنف والإرهاب . ولا أدل على ذلك من أنه بعد هروبه مع قينّا وعودتهما سوياً الى روما في عام ٨٧ ق . م . عقب هزيمة قوات الحكومة ، عارض معارضة شديدة أعمال العنف التي لجأ إليها ماريوس ورجاله وأسهم في وضع حد لها . وحين كان سرتوريوس برايتوراً في عام ٨٣ ق . م . بذل كل ما في وسعه لمساعدة قنصلي ذلك العام ضد صلا ، وإذ ضاق ذرعاً بعجزهما وسوء تصرفاتهما ولى وجهه شطر إسبانيا وكان قد أُسند إليه حكم ولاية إسبانيا الدانية (Hispania Citerior) . ويحدثنا صالوستيوس [2] بأنه في أثناء الحرب الأهلية حرص سرتوريوس على أن تتسم تصرفاته بالعدل والطيبة .

وعندما وصل سرتوريوس وفريق من أشياعه الى إسبانيا في مستهل عام ٨٢ ق . م . شرع في العمل على كسب ولاء الأهالي الوطنيين وتأييد الرومان النازلين هناك وكذلك على حشد جيش وتكوين أُسطول . غير أن صلا لم يتح له الفرصة اللازمة لدعم مركزه في إسبانيا ، ذلك أن الدكتاتور لم يكتف بتجريد سرتوريوس من حقوقه المدنية بل أنفذ ضده في أوائل عام ٨١ ق . م . البرايتور جايوس أنّيوس لوسقوس (Annius Luscus) على رأس فرقتين . وإزاء تفوق لوسقوس من حيث عدد القوات النظامية وخيانة أحد أعوان غريمه ، اضطر سرتوريوس الى مغادرة إسبانيا مع أشياعه . وبعد سلسلة من

(2) Sallust., Hist., I, 90 M.

المغامرات في البحر وفي موريتانيا ، قبل سرتوريوس في عام ٨٠ ق.م. دعوة من اللوسيتاني ليعود الى إسبانيا ويتولى قيادتهم في ثورة جديدة ضد روما .

وعندما عاد سرتوريوس الى إسبانيا وجد في انتظاره قوة من اللوسيتاني قوامها ٤٧٠٠ مقاتل وسرعان ما هزم لوقيوس فوفيديوس (Fufidius) حاكم ولاية إسبانيا القاصية (Hispania Ulterior) . ولم يواف عام ٨٠ ق . م . على نهايته حتى كان سرتوريوس قد زاد عدد رجال جيشه الى ٨٠٠٠ مقاتل واتخذ من أشياعه الرومان ضباطاً ساعدوه على تدريب الجيش تدريباً عالياً بحيث أصبح أداة صالحة لحرب العصابات وكذلك للمعارك النظامية. هذا الى ان سرتوريوس لم ينجح في كسب ثقة اللوسيتاني فحسب بل أيضاً القلتيبري بفضل نزاهته واعتداله وقوة شخصيته وبراعته في استغلال معتقدات الإسبان في الخرافات ، وهو ما تدل عليه قصة احتفاظه بظبي أبيض زعم أنه كان يستوحيه في استنباء المستقبل . ولم يكن سرتوريوس أقل نجاحاً في اكتساب تأييد نزلاء إسبانيا من الرومان والإيطاليين (Hispanienses) ، فقد بنى دعايته بينهم على أساس أنه لا يشهر السلاح في وجه روما وإنما في وجه حكومة صلا غير الشرعية ، فأخذوا يلتفون حوله كما أخذ يهرع اليه أشياع ماريوس الذين نجوا بحياتهم عندما قرر صلا استباحة دمائهم .

وإزاء تجدد خطر سرتوريوس أنفذ صلا زميله في قنصلية عام ٨٠ ق . م . (كوينتوس متلّوس بيوس) ليتولى حكم ولاية اسبانيا القاصية ويقمع حركة سرتوريوس . وعندما شرع متلّوس في محاولة القضاء على سرتوريوس بالتعاون مع قالفينوس حاكم ولاية إسبانيا الدانية ، وزع سرتوريوس قواته فبعث بأقدر مساعديه – هيرتوليوس (Hirtuleius) – لمواجهة قالفينوس وتمكن من هزيمته وقتله . واستطاع جانب آخر من قوات سرتوريوس شل حركة متلّوس ، وتولى سرتوريوس نفسه القضاء على القوات التي كان يقودها ثوريوس (Thorius) مساعد متلّوس (٧٩ – ٧٨ ق . م .) . وفي العام التالي انتصر هيرتوليوس على لوقيوس مانليوس – حاكم ولاية غاليا فيما

وراء الألب ـ وكان قد خف لنجدة متلّوس، وضيق سرتوريوس الخناق على متلّوس واضطره الى الانسحاب وراء نهر بايتيس (Baetis = جواد الكبير) . فما أن حل صيف عام ٧٧ ق . م . حتى كان في وسع سرتوريوس أن يزحف دون مقاومة عبر وسط إسبانيا وأن يبسط سيطرته على القلتيبري . ولم تحل نهاية ذلك العام حتى كان سرتوريوس يسيطر على الجانب الأكبر من إسبانيا ويمتد نفوذه الى أكويتانيا وولاية غاليا فيما وراء الألب .

وهكذا استطاع سرتوريوس تكوين قوة رومانية إسبانية هائلة بل دولة كبيرة ، ذلك أنه اتخذ من مدينة أوسقا (Osca) عاصمة له واختار من بين مشايعيه الرومان ثلاثمائة كوّن منهم مجلساً استشارياً شبيهاً بمجلس السناتو الروماني ، وأنشأ على مقربة من العاصمة مدرسة أرسل اليها زعماء القلتيبري أبناءهم وبذلك أعطوا سرتوريوس ـ دون أن يدروا ـ رهائن تضمن ولاءهم له .

وفي أواخر عام ٧٧ ق . م . ازداد حجم القوة الموجودة في إسبانيا والمناهضة لحكومة روما الأرستقراطية ، وذلك نتيجة لوصول بربرنا من سردينيا الى إسبانيا على رأس بقايا قوات لبيدوس ، إذ يقال إن عدد المقاتلين الذين أحضرهم بربرنا الى إسبانيا كان حوالي ٢٠,٠٠٠ من المشاة و ١٥٠٠ من الخيالة . ومهما يكن من أمر صحة هذه الأرقام ، فإنه لا شك في أن القوة المناهضة لحكومة روما قد ازداد عدد رجالها مما أثار أشد مخاوف السناتو الروماني وبدا له أن سرتوريوس قد يكرر محاولة هانيبال ويقوم بغزو إيطاليا من إسبانيا . وهذه المخاوف هي التي حفزت السناتو على ارتكاب الحماقة التي ندم عليها فيما بعد ، أي حماقة إرسال بومبي الى إسبانيا لنجدة متلّوس . ويبدو أن السناتو لم يقدر أنه لم يكن من شأن انضمام رجل من طراز بربرنا الى سرتوريوس شد أزر هذا الرجل الفذ . وقد يعدنا لفهم ما سيحدث فيما بعد أن نشير هنا الى ما تحدثنا به مصادرنا من أنه في أول الأمر كان بربرنا يريد العمل منفرداً ضد متلّوس ، ولكنه تحت ضغط إلحاح رجاله اضطر كارهاً

الى الانضمام الى سرتوريوس فملكته الغيرة منه وأخذ يعمل على بث الفتنة فيمن حوله .

وعندما وصل بومبي الى إسبانيا في عام ٧٦ ق . م . لم يكن في بادىء الأمر أكثر توفيقاً من متلّوس . ذلك أنه عندما حاول الاستيلاء على الطريق الممتد بجوار الشاطىء الشرقي وبخاصة سهل فالنتيا (Valentia) الساحلي ليتخذ من هذه المنطقة قاعدة له ضد القلتيبيري، وزع سرتوريوس قواته ببراعة ، فقد أسند الى بربرنا منع بومبي من عبور الإبرو ، والى هيرتوليوس مراقبة متلّوس في الجنوب ، واتخذ هو نفسه موقعاً في أعالي الإبرو ليهب لنجدة أيهما اذا اقتضى الأمر . وعندما نجح بومبي في عبور الإبرو وزحف على ساجونتوم (Saguntum) وتقهقر بربرنا إلى فالنتيا ، خف سرتوريوس الى محاصرة لاورو (Lauro) لأن استيلاءه عليها كان يؤمن فالنتيا . وإزاء ذلك حاول بومبي رفع الحصار عن لاورو ولكن سرتوريوس أنزل به هزيمة فادحة اضطرته الى الانسحاب شمالاً الى ما وراء الإبرو . بيد أنه في هذه الأثناء اشتبك هيرتوليوس مع متلّوس في معركة عند إيتاليقا (Italica) ومُني بالهزيمة . وبدلاً من أن يتابع متلّوس انتصاره بالتدخل في الساحل الشرقي يمم وجهه شمالاً الى البرانس لقضاء الشتاء ، بينما شرع بومبي في إخضاع القلتيبيري النازلين حول أعالي الإبرو . (أنظر خريطة إسبانيا) .

ومن المرجح أنه في خلال شتاء عام ٧٦/ ٧٥ ق . م . دخل سرتوريوس في مفاوضات مع ميثريداتس ملك بونطوس تكللت بعقد معاهدة بينهما تنص على أن يقدم الملك الى سرتوريوس ٣٠٠٠ تالنت (أي حوالي ثلاثة أرباع مليون جنيه استرليني) وأربعين سفينة حربية لقاء اعتراف الثاني بحق الأول في بيثونيا وقابادوقيا ، وذلك وفقاً لرواية بلوتارخ[٣] . وأما رواية أبيانوس ، وهي تمثل وجهة النظر المعادية لسرتوريوس ، فإنها تذهب الى أن سرتوريوس

---

(3) Plut., Sertorius, XXIII.

اعترف لميثريداتس كذلك بحقه في ولاية آسيا [٤].

ويجب أن يلاحظ أن هذا التحالف عقد قبل وفاة نيقومدس الثالث ملك بيثونيا في عام ٧٤ ق. م . وتوريثه مملكته لروما ، وأن قابادوقيا كذلك لم تكن ملكاً لروما . وأما ولاية آسيا فإنها كانت جزءاً هاماً من الإمبراطورية الرومانية، ويصعب أن نتصور أن رجلاً من طراز سرتوريوس كان يقبل التفريط في أي جزء من الإمبراطورية الرومانية ، وإن كان لم يرَ غضاضة في محالفة الملك الذي كان يعتبر خطراً يتهدد السيطرة الرومانية على آسيا الصغرى . ولعل أن يكون سرتوريوس قد قدر أنه كان من شأن إرضاء أطماع ميثريداتس تفادي خطره وكسب مساعدته حتى يصفي حسابه مع الحكومة الرومانية التي كان يعتبرها حكومة غير شرعية ، ثم يتفرغ بعد ذلك لميثريداتس ويردعه اذا حاول الاعتداء على ولاية آسيا . ولما كان قراصنة البحر على علاقات وثيقة مع ميثريداتس ويمارسون نشاطاً خطيراً يهدد مواصلات الحكومة الرومانية مع ولاياتها جميعاً ، فإنه كان من شأن التحالف الذي عقد بين سرتوريوس وميثريداتس دعم صلة سرتوريوس بالقراصنة وازدياد إفادته من خدماتهم . بيد أنه من ناحية أخرى كان من شأن هذا التحالف كذلك زيادة نقمة الحكومة الرومانية على سرتوريوس وحفزها على مضاعفة الجهود للقضاء عليه .

وقد كان مجرى الحرب في عام ٧٥ نذير شؤم على سرتوريوس مستقبلاً . ذلك أن متلوس زحف جنوباً من البرانس صوب وسط إسبانيا حيث سحق قوات هيرتوليوس عند سجوفيا (Segovia) ثم سارع شرقاً للانضمام إلى بومبي وكان قد بدأ محاولة ثانية للاستيلاء على سهل فالنتيا واكتسح قوات بربرنا عندما اعترضت طريقه وتابع زحفه جنوباً حيث اشتبك مع سرتوريوس وبربرنا في معركة كاد أن يهزم فيها لولا أن متلوس وصل في الوقت المناسب وأنقذ الموقف دون أن يستطيع الوصول إلى نتيجة حاسمة . ذلك

(4) App., Mithr., 68.

أن سرتوريوس انسحب إلى ساجونتوم وحصن نفسه فيها ولجأ إلى حرب العصابات . ولم يلبث سرتوريوس أن أنزل خسائر كبيرة بقوات خصميه وهدد خطوط إمداداتهما وبذلك خيب أملهما في الاستيلاء على فالنتيا واضطرهما الى الانسحاب شمالاً لقضاء فصل الشتاء .

وإزاء افتقار بومبي الى الموارد والقوات لقهر سرتوريوس ، بعث الى السناتو رسالة أنذر فيها بأنه اذا لم تصله نجدات كافية فإنه سيعجز عن منع انتقال الحرب إلى إيطاليا ذاتها[٥] . وعندما أرسل السناتو الى بومبي الأموال اللازمة وفرقتين ، عدل في عامي ٧٤ و ٧٣ ق . م . عن فكرة الاستيلاء على سهل فالنتيا وعمد هو ومتلوس الى مهاجمة المناطق الجبلية في قلتيبريا حيث كان سرتوريوس قد انسحب مع الجانب الأكبر من قواته .

ولما كان أمد الحرب قد طال دون أن يحرز سرتوريوس نصراً حاسماً ، وكان سير الحرب في خلال عامي ٧٤ و ٧٣ ق . م . مزيجاً من النصر مرة والهزيمة مرة أخرى ، فإن مشاكل سرتوريوس أخذت تتفاقم . ذلك أن حماس الإسبان له أخذ يفتر وثقتهم فيه تضعف . وساعد على برم الإسبان وضيقهم أن مساعدي سرتوريوس الرومان الذين أوكل إليهم الشئون الإدارية أساءوا اليه إساءة بالغة بسوء تصرفاتهم مع الإسبان وادعائهم بأنهم لا يفعلون أكثر من تنفيذ أوامر رئيسهم . وعندما أخذ كثيرون من الإسبان يهجرون جانب سرتوريوس وينحازون الى جانب الفريق الآخر ، عمد سرتوريوس الى الانتقام منهم في أشخاص أبنائهم تلاميذ مدرسته . ولم يكن السناتو الذي أنشأه سرتوريوس وكونه من مناصريه الرومان والإيطاليين أقل مصدراً للحرج بسبب تركيز السلطة في قبضة سرتوريوس ، ولا سيما أن بربرنا دأب على تغذية سوء الظن بسرتوريوس . وهكذا أخذ سرتوريوس يفقد مكانته ، ومع اشتداد وطأة الأزمات أخذ يفقد أعصابه أيضاً . وتذهب المصادر المعادية له الى حد

(5) Sallust., Hist., II, 98 M.; E. Badian, Foreign Clientelae, pp. 279 ff.

اتهامه بأنه أصبح كسلاً وأكثر احتفالاً بإشباع نزواته البهيمية . ومهما يكن من أمر ذلك فإن بربرنا دبر اغتياله في عام ٧٢ ق . م.[٦] وتولى القيادة من بعده ، ولكن بومبي لم يلبث أن هزمه وأسره ثم أعدمه . وباستيلاء بومبي على المدن القليلة الباقية التي كانت لا تزال تقاومه تمكن من إنهاء الحرب في عام ٧١ ق . م .

وبإيعاز من بومبي وموافقة السناتو استصدر قنصلا عام ٧٢ ق . م . قانوناً (Lex Gellia Cornelia) خول لبومبي منح حقوق المواطنة الرومانية لمن يستحق ذلك من الإسبان جزاء خدماتهم للرومان . ومما يستحق التنويه به هنا هو أنه قد كان من بين الإسبان الكثيرين الذين منحهم بومبي حقوق المواطنة الرومانية مواطن من قادس اتخذ لنفسه اسم لوقيوس قورنليوس بالبوس (Balbus) ورحل الى روما حيث اكتسب مكانة كبيرة وقام بدور هام في الحياة السياسية[٧] . وبدلاً من أن يعمل بومبي السيف في الإسبان الذين قاوموه مقاومة شديدة ، قام بترحيلهم الى مستعمرة جديدة (Lugdunum Convenarum = القرية الفرنسية الحديثة St. Bertrand - de - Comminges) أنشأها لهم في جنوب بلاد الغال شمالي البرانس[٨] . واذا كان بومبي قد أسهم بدور كبير في إنهاء الحرب وعزا اليه أنصاره الفضل الأكبر في ذلك واتهموا متلوس بالميل الى أخذ الأمور بهوادة وتجنب تحمل المشاق[٩] ، فإنه لا جدال في أن متلوس قد اضطلع أيضاً بدور مشكور في محاربة رجل قدير مثل سرتوريوس .

---

(٦) أبدى أحد الباحثين مؤخراً أن سرتوريوس اغتيل في عام ٧٣ وليس في عام ٧٢ ق.م. أنظر :
W. M. Bennett, Historia, 1961, pp. 459 ff.

(7) Cf. Cic., pro Balbo.

(8) Ptol., II, 7, 3 ; Lavedan, Lizop et Sapène, Fouilles de St. Bertrand, 1922-29; R. Lizop, Convenae, 1931.

(9) Val. Max., IX, 15.

ثانياً – محاربة القراصنة

١ – الحملات الرومانية السابقة لحملة بومبي ضد القراصنة :

مر بنا أن نشاط قراصنة البحر كان مصدر قلق للرومان منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، مما حدا بهم فيما بين عامي ١٠٢ و ١٠٠ وكذلك في عام ٩٦ ق . م . الى بذل بعض الجهود للقضاء على هذا النشاط الهدام ، وأنه كان من جراء حربي ميثريداتس الأولى والثانية عرقلة جهود الرومان في الاستيلاء على أوكار القراصنة الواقعة على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية وازدياد نشاطهم ازدياداً كبيراً ساعد على تفاقمه اشتراك القرصان الكبير زنيقتس في هذا النشاط (١٠) .

وفي عام ٧٨ ق . م . استأنف الرومان مكافحتهم للقراصنة بإسناد هذه المهمة الى أحد قنصلي العام السابق بوبليوس سرفيليوس فاتيا فعمد الى تنفيذ الخطة التي يبدو أن صلا كان قد وضعها حين كان يتولى حكم ولاية قيليقيا في عام ٩٦ ق . م ومنع مورنا من تنفيذها نشوب حرب ميثريداتس الثانية . وقد سبق أن ذكرنا أن صلا أدرك أنه كان لا يمكن إخضاع معاقل القراصنة الساحلية إخضاعاً مستديماً دون إخضاع المنطقة الداخلية الجنوبية في آسيا الصغرى من لوقيا حتى جبال الطوروس إخضاعاً كاملاً .

وبعد أن قضى سرفيليوس (١١) الشهور الأولى من قيادته في اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمهمته ، هاجم أوكار القراصنة على شاطىء لوقيا وتمكن في عام ٧٧ ق . م . من الاستيلاء على هذا الشاطىء في أعقاب انتصاره على القراصنة في معركة بحرية (١٢) . وفي العام التالي هاجم سرفيليوس معاقل

---

(١٠) راجع الفصل الرابع : ص ص ٢١٩ – ٢٢٢ والفصل السادس : ص ص ٣٠٩ – ٣١١.

(١١) عن نشاط سرفيليوس فاتيا ضد القراصنه ، راجع .

H.A. Ormerod, J.R.S., 1922, pp. 35 ff.; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, pp. 287 ff.

(12) O.G.I.S., 552.

زنيقتس الجبلية وحالفه التوفيق في القضاء على هذا القرصان الخطير وفي إخضاع بامفوليا[١٣] . وبنجاح سرفيليوس في عام ٧٥ ق . م . في إخضاع إساوريا (Isauria) مهد السبيل أمام مهاجمة قيليقيا تراخيا ومعاقل القراصنة في جبال الطوروس . بيد أن نجاح سرفيليوس لم يكن أكثر من نجاح مؤقت ، لأنه إذا كان قد نجح في الاستيلاء على كثير من معاقل القراصنة وفي قتل وأسر عدد غير قليل منهم ، فإن أكثرهم وجدوا ملاذاً لهم في كريت وفي غيرها من الجزر . وما أن عاد سرفيليوس الى روما في عام ٧٥ ق . م . للاحتفال بانتصاره حتى عاد القراصنة الى أوكارهم السابقة واستأنفوا نشاطهم .

وكانت خطة الرومان في عام ٧٤ ق . م . لوضع حد لنشاط القراصنة تتألف من ثلاث خطوات . وكانت إحدى هذه الخطوات هي تحويل قورينائية – وكانت قد آلت الى روما في عام ٩٦ ق . م . بمقتضى وصية بطلميوس أبيون – الى ولاية رومانية ، وذلك من ناحية لمنع القراصنة من استخدامها في نشاطهم ، ومن ناحية أخرى فيما يحتمل للإفادة من مواردها في تخفيف وطأة الأزمة الاقتصادية في روما[١٤] . وكانت الخطوة الثانية هي قيام لوقيوس أوقتافيوس – وكان أحد قنصلي عام ٧٥ ق . م . وعين خلفاً لسرفيليوس في حكم ولاية قيليقيا – بهجوم بري من الشمال على قواعد القراصنة في جنوب آسيا الصغرى . وكانت الخطوة الثالثة هي تطهير أعالي البحار من القراصنة . وقد اختار الرومان للقيام بهذه المهمة رجلاً تافهاً يفتقر إلى الكفاية اللازمة هو البرايتور مارقوس انطونيوس ، وكان ابن سميه الخطيب المعروف الذي حارب القراصنة في عامي ١٠٢ – ١٠١ ق . م . وقد مر بنا أن السناتو وضع عندئذ سابقة خطيرة بأن أسند الى أنطونيوس سلطة بروقنصلية عليا غير محددة (imperium infinitum aequum) . وقد كان من شأن منح أنطونيوس مثل هذه السلطة الواسعة جعله صاحب الكلمة العليا في كل أرجاء

(13) Cic., de Leg. Agr, I, 2, 5.
(14) S. I. Oost, Class. Philol 1963, n. 45.

البحر المتوسط وكذلك تخويله . حيثما اقتضى الأمر . التمتع على شواطىء هذا البحر بسلطة معادلة لسلطة حكام الولايات الرومانية الساحلية . ويقال إن أعمال الابتزاز التي ارتكبها أنطونيوس ومساعدوه في الولايات الرومانية كانت أفدح من سطو القراصنة عليها[15] .

ويحدثنا صالوستيوس بأنه بعد قيام أنطونيوس ببعض العمليات عند شواطىء إسبانيا جعل كريت هدفه الرئيسي[16] . واذا كان يمكن تفسير نشاط أنطونيوس قرب شواطىء إسبانيا برغبته في تطهير غرب البحر المتوسط فإنه فشل في ذلك . واذا كان يمكن تفسير هجومه على كريت بأنها كانت منذ وقت بعيد مركزاً هاماً من مراكز القراصنة ، فإنها كانت أقل أهمية من الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى . وعلى كل حال فإن أنطونيوس بمهاجمته كريت أثار حرباً هزم فيها هزيمة فادحة مما أرغمه قبيل وفاته في هذه الجزيرة في عام ٧١ ق . م . على أن يعقد مع الكريتيين صلحاً رفض السناتو إبرامه كما رفض رجاء الكريتيين اعتبارهم ثانية أصدقاء وحلفاء الأمة الرومانية[17] .

ولم يكن من شأن هزيمة أنطونيوس ورفض السناتو قبول أي شروط معقولة للصلح مع الكريتيين إلا إغراء القراصنة على التمادي في نشاطهم ، فاستولوا على عدد كبير من المدن وسطوا على جزيرتي ديلوس وإيجينا وخربوهما[18] . وعندما جاءت روما شكاوى جديدة من الأعمال التي ارتكبها قراصنة كريت ، أنفذ السناتو في عام ٦٨ ق . م . كوينتوس قايقيليوس متلّوس — أحد قنصلي العام السابق — الى كريت . وقد استغرق متلّوس حوالي ثلاثة أعوام (٦٨ — ٦٦ ق . م .) قبل أن يتمكن من إخضاع كريت وتحويلها الى ولاية رومانية ويفوز بلقب قرتيقوس[19] (Creticus = قاهر كريت) .

(15) Cic., II, in Verr., III, 91-93, 213-16; Sallust., Hist., III, 2 M
(16) Sallust., Hist., III, 5-6 M.
(17) Diod., XL, 1; Dio Cass., fr. 111.
(18) Plut., Pomp., XXIV-XXV, 1.
(19) Heitland III, pp. 56-7; C.A.H., IX, p. 375.

وحين كان متلّوس مغلول اليدين في صراعه مع الكريتيين انضم الى القراصنة الآخرين أعداد كبيرة من المحاربين الذين هجروا أساطيل ميثريداتس بعد هزيمتها مؤخراً فتابعوا نشاطهم بجرأة أذهلت العالم القديم. ذلك أن نشاطهم امتد الى صقلية وإيطاليا ذاتها فأصبحت شواطئها من بروندیسیوم حتى أوستيا نهباً للقراصنة، بل إن طريق أبيوس أصبح غير مأمون. وكان القراصنة خطراً مستطيراً على التجارة البحرية وعلى حياة الناس وأمنهم، فقد كانوا ينهبون السفن والموانىء ويخطفون الناس إما لاقتضاء فدية من القادرين على دفعها لقاء إطلاق سراحهم، وإما لبيعهم في أسواق النخاسة. وكان السناتو يدرك تمام الإدراك أنه لم يعد في الإمكان القضاء على خطر القراصنة إلا إذا أسندت هذه المهمة الى قائد لديه القدرة على قطع دابرهم. ولما لم يكن هناك من هو أقدر من بومبي على الاضطلاع بهذه المهمة، وكان السناتو يخشى على مركزه من منح بومبي سلطات واسعة للقيام بهذه المهمة، فإنه آثر أن يترك القراصنة وشأنهم.

٢ – بومبي والقراصنة[٢٠] :

وعندما تمادى القراصنة في نشاطهم الى حد أنه أصبح من المتعذر وصول السفن المحملة بالقمح الى روما مما أدى الى ارتفاع سعر القمح في العاصمة بل الى أنها أصبحت تواجه خطر وقوع مجاعة فيها، استصدر تريبون العامة جابينيوس قانونه الذي ترتب عليه إسناد مهمة محاربة القراصنة الى بومبي.

---

(٢٠) المصادر الرئيسية :
App., Mithr., XIV, 94-96; Plut., Pomp., XXVI, 3, — XXIX; Liv., Ep., 99; Dio Cass., XXXVI, 18-19.

المراجع الرئيسيه :
H.A. Ormerod, The Distribution of Pompeius' Forces in the Campaign of 67 B.C., Liverpool Annals of Arch. and Anthr., X, 1933, pp. 46 ff.; Heitland, III, pp. 56-7; A.H.M. Jones, Cities Eastern Rom. Emp., pp. 202 ff.; C A H., VIII, pp. 372-5; J. Reynolds, J.R S, 1962, pp. 97 ff,

وقد أظهر بومبي من البراعة والكفاية في أداء مهمته ما مكنه من قطع دابر القراصنة في خلال ثلاثة شهور . ذلك أن بومبي وقد أدرك أنه لا يكفل له تحقيق الهدف المنشود إلا إذا ضيق الخناق على القراصنة في كل أرجاء مجال نشاطهم في وقت واحد ، قسم البحرين المتوسط والأسود الى ثلاث عشرة منطقة وزع عليها قواته ووضع على رأس قوات كل منطقة قائداً من مساعديه (legati) . وعهد الى قائد كل منطقة بمهاجمة قوات القراصنة في منطقته والاستيلاء على معاقلهم الموجودة هناك ، ووضع من التنظيمات ما يكفل التعاون بين قواد المناطق المختلفة لعزل عصابات القراصنة الدائبة على التنقل من جهة الى أخرى ومنعها من اتباع أساليبها المألوفة في الإسراع الى نجدة وحدات القراصنة المهددة بالخطر . وكانت المنطقة التي تولى قيادتها ترنتيوس فارّو (Terentius Varro) من أهم مناطق القيادات المحلية ، فقد كانت تمتد من صقلية غرباً الى مجموعة جزر القوقلادس (Cyclades) في بحر إيجة شرقاً . ومن مضايق أوترانتو شمالاً الى شواطىء أفريقيا جنوباً ، وكان من جراء نشاط فارّو إغلاق مضايق أوترانتو في وجه قراصنة إلّوريا ودلماتيا ومنعهم من مغادرة الأدرياتي ، كما كان من جراء تعاون فارّو مع القائد المنوط به تطهير الشاطىء الأفريقي إقامة حاجز فصل الحوض الشرقي للبحر المتوسط عن حوضه الغربي .

وقد بدأت حملة بومبي في أوائل ربيع عام ٦٧ ق . م . بانقضاض قواد المناطق المختلفة على معاقل القراصنة في تلك المناطق دفعة واحدة . وفي الوقت نفسه قام بومبي على رأس أسطول مكون من ستين سفينة باكتساح أعالي البحار في الحوض الغربي للبحر المتوسط فبدد شمل القراصنة هناك وألقى بهم في أحضان القوات الرومانية الموزعة على مناطق هذا الحوض ففتكت بالقراصنة . وبفضل ذلك تمكن بومبي في خلال أربعين يوماً من تطهير الحوض الغربي للبحر المتوسط من أدران القراصنة تطهيراً تاماً . فعاد القمح يتدفق على روما من ولايات أفريقيا وصقلية وسردينيا .

وفي أثناء غيبة بومبي كان القنصل بيسو يبذل كل جهده لعرقلة إمداد

بومبي باحتياجاته مما حدا بجابينيوس الى إعداد مشروع قانون لعزل بيسو من منصبه . وتفادياً لاحتدام الصراع الحزبي في روما وضماناً لتوفير الاحتياجات اللازمة للحملة ، وقد كان لا يزال أمامها أخطر جزء من مهمتها ، قام بومبي بزيارة خاطفة لروما قبل أن يولي وجهه شرقاً .

وفي خلال حملة دامت ٤٩ يوماً طهر بومبي الحوض الشرقي أيضاً من القراصنة بعد أن أنزل بأسطولهم هزيمة فاصلة قرب قوراقسيوم وحاصر هذه القلعة المنيعة حصاراً شديداً أرغمها على التسليم . ولم يلبث أن أعقب ذلك تسليم القراصنة في كل أنحاء قيليقيا . ولا يُعزى نجاح بومبي الى كفايته وبراعة خطته وضخامة قواته فحسب ، بل أيضاً الى ما أظهره من الاعتدال في معاملة الأسرى مما شجع الكثيرين على التسليم والإرشاد الى مخابىء الباقين .

ولما كان بومبي قد أدرك بثاقب فكره أن الانتصارات العسكرية وحدها كانت لا تحول دون تجدد خطر القراصنة إلا اذا كفل للقراصنة الذين بقوا على قيد الحياة سبلاً شريفة لتكسب أود معيشتهم ، فإنه بعد أن هزم القراصنة ودك معاقلهم واستولى على أسلحتهم عمَّر بفريق منهم عدداً من المدن كانت تفتقر افتقاراً شديداً الى السكان مثل مدن « قيليقيا المنبسطة» (Cilicia Pedias). وأبرز مثل للمدن التي عمّرها بومبي على هذا النحو مدينة سولي (Soli) — وكان تيجرانس، ملك أرمينيا، قد نقل أكثر سكانها لتعمير عاصمته الجديد — ومدينة دومي (Dome) في آخايا، وكان عدد سكانها قد اضمحل اضمحلالاً شديداً . وأنشأ بومبي لفريق آخر من القراصنة عدداً من المستعمرات في جهات متفرقة . ويُستخلص من إشارة فرجيليوس الى رجل عجوز — وكان من قوروقوس (Corycus) في قيليقيا — رآه بالقرب من تارنتم مغتبطاً بفلاحة أرض تتطلب مجهوداً شاقاً أن إقليم قالابريا القديم كان من بين الجهات التي أنشأ فيها بومبي مستعمرات للقراصنة .

ثالثاً – حرب ميثريداتس الثالثة وذيولها

١ – مقدمات الحرب :

مر بنا أن صلا أنهى الحرب الأولى في عام ٨٥ ق. م. وعقد مع ميثريداتس معاهدة صلح داردانوس بشروط لينة وترك مورنا ليتولى حكم ولاية آسيا ، وأن تطلع مورنا الى الفوز بغنائم النصر أفضى الى نشوب الحرب الثانية التي انتهت في عام ٨١ ق . م . بفضل الأمرين المشددين اللذين أرسلهما صلا الى مورنا وميثريداتس ، وكانا يقضيان بأن يوقف الحاكم الروماني نشاطه العدواني ضد ميثريداتس وبأن يصالح الملك أريوبارزانس ملك قابادوقيا ، وذلك تطبيقاً لشروط صلح داردانوس . وبرغم انتهاء الحرب الثانية وتصالح ميثريداتس مع أريوبارزانس ومطالبة ميثريداتس في عام ٧٩ ق . م . بأن يبرم السناتو معاهدة صلح داردانوس ، فإن الحكومة الرومانية سواء في أثناء عهد صلا أم بعد اعتزاله الحكم أغفلت اتخاذ هذا الإجراء . وقد كان طبيعياً أن يثير هذا الإغفال شكوك ميثريداتس في نوايا الرومان إزاءه وأن يبعثه على العمل حثيثاً على تقوية نفسه وإثارة المتاعب للرومان .

فمن ناحية إستعاد ميثريداتس سيطرته كاملة على ممتلكاته في القرم ، ومن ناحية أخرى نشط عملاؤه في حث القبائل النازلة بالقرب من ولاية مقدونيا على مهاجمة هذه الولاية الرومانية ، وتابع ميثريداتس تقديم المساعدات لتلك القبائل مما أدى الى إزعاج حكام مقدونيا على مدى عدة سنوات . ومن ناحية ثالثة عقد ميثريداتس معاهدة مع سرتوريوس وحصل منه على الاعتراف بحقه على قابادوقيا وبيثونيا وكذلك على تزويده بضباط رومان يساعدونه على تدريب قواته التي يُقال إنها بلغت ما يتراوح بين ١٠٠.٠٠٠ و ١٥٠.٠٠٠ مقاتل ، فضلاً عن ٤٠٠ سفينة حربية . ومن ناحية رابعة أنشأ ثانية علاقات مع قراصنة قيليقيا وكانوا خصوماً طبيعيين للرومان ، ولم تكن انتصارات سرفيليوس قد أثرت تأثيراً يُذكر في قوتهم البحرية بدليل ما مر بنا ذكره

عن نشاطهم . ومن ناحية خامسة شجع ميثريداتس صهره تيجرانس ملك أرمينيا على احتلال قابادوقيا . وكان تيجرانس قد أصبح قوة كبرى بتوحيده أرمينيا تحت سيطرته وبسط رقعة دولته بالاستيلاء على الولايات الشمالية في إمبراطورية بارثيا وكذلك على سوريا وقيليقيا المنبسطة . وعندما استولى تيجرانس على قابادوقيا وقيليقيا المنبسطة نقل حوالي ٣٠٠,٠٠٠ من سكانهما لتعمير المدينة الجديدة « تيجرانوقرتا » (Tigranocerta) التي أنشأها وأرادها أن تكون عاصمة خليقة بملكه الواسع[٢١] .

٢ ـ الحرب فيما بين عامي ٧٤ و ٦٧ : لوقولّوس :

وقد أفضى النزاع على بيثونيا الى نشوب الحرب التي كان الطرفان يتوقعانها ويستعدان لخوض غمارها مما بعث ميثريداتس على بذل الجهود التي سلفت الإشارة اليها وبعث السناتو على الاحتفاظ في ولاية آسيا بأربع فرق[٢٢] .

وفي أواخر عام ٧٥ أو أوائل عام ٧٤ ق . م . توفي نيقومدس الثالث ملك بيثونيا . ووفقاً لشارح قديم[٢٣] لم يترك الملك المتوفى وصية ، ولكنه وفقاً لما أورده ليفيوس[٢٤] وأبيانوس[٢٥] أوصى نيقومدس بمملكته الى روما . وتؤيد ذلك إشارة شيشرون[٢٦] الى بيثونيا بأنها كانت إرثاً (hereditas) آل الى روما . ولا يبعد أن يكون نيقومدس قد اقتفى أثر أتالوس الثالث في عام ١٣٣ ق . م . وبطلميوس أبيون في عام ٩٦ ق . م . وأورث هو أيضاً بدوره مملكته الى روما . وقد بادر السناتو الى قبول الإرث واعتبر بيثونيا ولايـــة رومانية وطلب الى حاكم ولاية آسيا اتخاذ الإجراءات الكفيلة بضم بيثونيا الى

---

(21) App., Mithr., 67; 69; Plut., Pomp., XXVIII.
(22) Sallust., Hist., II, 47 M.
(23) Schol. Gronov., 316 St.
وفي رأي أحد الباحثين ان هذا الشارح فيما يبدو يعكس وجهة نظر صالو ستيوس . انظر :
Scullard, 1970, n. 17, p. 420.
(24) Liv., Ep., 93.
(25) App., Mithr., 71; B.C., I, 111.
(26) Cic., de Leg. Agr., II, 40

الإمبراطورية الرومانية [٢٧] .

ولما كان من شأن ذلك إفلات بيثونيا من ميثريداتس وكذلك استكمال سيطرة الرومان على المضايق المؤدية الى البحر الأسود ، فإن ميثريداتس لم يضع وقتاً قبل العمل على تحقيق أطماعه . وبيان ذلك [٢٨] أن ميثريداتس نصب نفسه مدافعاً عن حقوق ابن مزعوم لنيقومدس في عرش بيثونيـــا ، وفي أوائل عام ٧٤ ق . م . زحف عبر بافلاجونيا قاصداً غزو بيثونيا . وفي الوقت نفسه أرسل قوة الى قابادوقيا لتقوم بحماية مدنها وصد أي هجوم على بونطوس من ناحية قيليقيا ، كما أرسل عندئذ أو بعد ذلك بقليل قوة أخرى الى الجنوب حيث أثارت القلاقل في بيسيديا (Pisidia) وقيليقيا الى أن ردها على أعقابها ديوتاروس (Deiotarus) وكان كبير أمراء غالاتيا وشديد الولاء للرومان .

ولما كان أوقتافيوس حاكم قيليقيا قد توفي وكان ماركوس يونقوس (Juncus) حاكم ولاية آسيا قد استدعي الى روما لعجزه وقصوره ، فإن السناتو أوكل الى قنصلي عام ٧٤ ق . م . مواجهة الموقف في آسيا الصغرى بأن أسند الى أحدهما — وهو ماركوس أورليوس قوتا — ولاية بيثونيا وقيادة القوات البحرية الرومانية والحليفة ، والى القنصل الآخر — وهو لوقيوس لوقولّوس — ولايتي قيليقيا وآسيا وقيادة القوات البرية ، وكانت تتألف من فرقة حشدها في إيطاليا ومن فرقتين تركهما سرفيليوس في قيليقيا ومن فرقتي فيمبريا اللتين تركهما صلا في ولاية آسيا .

---

(27) Velleius, II, 42.

(٢٨) المصادر الرئيسية لهذه المرحلة في الحرب .

Plut., Lucullus, VI-XXXVI; App, Mithr., 67-90; Liv., Ep., 93-98; Dio Cass., XXXVI, 1-17.

أهم المراجع

T.R.S. Broughton, Magistrates Rom, Rep., II, p. 106; T.R. Holmes, Rom. Rep., I, pp. 409-26; C.A.H., IX, pp 356-71; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, pp. 323 ff.

ولا جدال في أنه مع انهماك بومبي عندئذ في إسبانيا ، كان لوقولّوس خير من توكل اليه قيادة الحرب ضد ميثريداتس . ومع ذلك فان بلوتارخ يحدثنا بأنه لم يفلح في الحصول على هذه المهمة إلا بفضل نجاحه في كسب ود براقيا (Praccia) حظية بوبليوس قورنليوس قثجوس (Cethegus) ، وكان من أقوى أعضاء السناتو نفوذاً وأحطهم خلقاً . واضطرار قنصل من أفضل قناصل عصره خلقاً وكفاية الى الالتجاء الى مثل هذه الوسيلة للحصول على قيادة عسكرية أمر بالغ في دلالته على مدى الفساد الذي استشرى بين الطبقة الحاكمة الرومانية وعلى كيفية إدارة شئون الدولة.

وعلى نحو ما حدث مراراً عديدة ، بدأ الرومان الحرب بداية سيئة . ذلك أن ميثريداتس أرغم قوتنا على الانسحاب الى خلقدنيا (Chalcedon) حيث هزمه براً وبحراً ودمر أربع سفن رومانية واستولى على ستين سفينة . وبعد ذلك تابع زحفه غرباً ولم يجد صعوبة في الاستيلاء على الشواطىء الجنوبية لبحر مرمرة (Propontis) حتّى وصل الى قوزيقوس (Cyzicus) — وكانت جمهورية إغريقية زاهرة موالية للرومان وكان الرومان يحترمون استقلالها . وإذ أبت قوزيقوس الخضوع لميثريداتس والسماح له بدخولها حاصرها براً وبحراً بقوات كبيرة ولكن دون طائل بسبب مناعة المدينة واستبسالها وكذلك بسبب كثرة قوات الحصار وحاجتها الى كميات ضخمة من المؤنة وإسراع لوقولّوس الى قطع خطوط إمدادات العدو . وإزاء نقص المؤنة وتفشي المرض بين قوات الحصار وقدوم الشتاء وزحف لوقولوس لنجدة المدينة المحاصرة اضطر ميثريداتس الى الانسحاب إلى بيثونيا بعد أن لحقت به خسائر كبيرة .

وقد قضى لوقولّوس شتاء عام ٧٤/ ٧٣ ق. م . في قوزيقوس معنيـاً باتخاذ الاستعدادات اللازمة للقيام بحملة قوية في الربيع التالي . ولما كان أول ما يعنيه هو تحطيم أسطول العدو الذي كان يهدد اتصاله بإيطاليا، فإنه كلف مساعديه بجمع السفن من حليفات روما البحرية وتكوين أسطول جديد . وقد انتصر هذا الأسطول على أسطول العدو في معركتين بحريتين وطرده من بحر

إيجة . وفي هذه الأثناء استرد لوقولّوس الجانب الأكبر من بيثونيا ، ولكن ميثريداتس كان يسيطر على أكثر المدن الساحلية واقتحم سبيله الى هرقليا واضطرها الى معاداة الرومان . وإزاء ذلك دخل قوتّا البحر الأسود على رأس أسطول وعكف على حصار هرقليا ، واستغرقه الاستيلاء عليها عامين بفضل مناعتها والحاميات التي وضعها ميثريداتس فيها . وعندما سقطت هرقليا في قبضة الرومان نهبوها وخربوها واسترقوا من لم يقتلوه من مواطنيها ونقل قوتّا الكثير من كنوزها الى روما . ولما كان قوتّا قد أسرف فيما ارتكبه من أعمال النهب والقسوة فإن خصومه قدموه للمحاكمة بعد عودته وتقررت إدانته ، كما تقرر إطلاق سراح الأسرى وتعويض المتضررين من مواطني المدينة المنكوبة.

وحين كان قوتّا في شغل بمحاصرة هرقليا قام لوقولّوس بغزو بونطوس ذاتها ، وبعد أن قضى الجانب الأكبر من عامي ٧٣ و ٧٢ ق . م . في محاصرة قلاعها توغل في الداخل واستولى على يوباتوريا (Eupatoria) ثم انقض على القوات الرئيسية للعدو عند قابيرا (Cabeira) حيث هزم ميثريداتس وألحق به خسائر كبيرة فولى هارباً الى تيجرانس في أرمينيا . وفي أعقاب المعركة سلمت قابيرا فقضى فيها لوقولّوس شتاء عام ٧٢/ ٧١ ق. م. ثم عاد الى ولاية آسيا تاركاً لمساعديه استكمال الاستيلاء على باقي المدن الكبيرة . وبسقوط سينوب وأميسوس في عام ٧٠ ق . م . تم إخضاع بونطوس بأسرها .

وقد كانت حالة ولاية آسيا بالغة السوء بسبب الالتزامات المالية التي فرضها صلا على المدن مما أغرقها في الديون ، وكذلك بسبب شطط جباة الضرائب في عسفهم ، وتبعاً لذلك كانت الولاية نهباً للمرابين وجباة الضرائب الرومان . ولم يكن لوقولّوس بالرجل الذي يسمح باستمرار هذه الأوضاع ، ولا سيما أنه كان يدرك أن احتفاظ الرومان بسيطرتهم على الولاية كان لا يتطلب القضاء على ميثريداتس فحسب بل أيضاً القضاء على الأسباب التي كان يمكن أن يتذرع بها ميثريداتس أو غيره لينصب نفسه نصيراً لأهالي الولاية . وتبعاً لذلك كان يجب إقناع هؤلاء الأهالي عملياً بأن السيطرة الرومانية كانت على الأقل تعادل

إن لم تكن تفضل سيطرة أي ملك . ومن أجل ذلك عكف لوقولّوس على تصحيح الأوضاع السيئة في ولاية آسيا ، فقضى بخفض سعر الفائدة على الديون الى ١ ٪ شهرياً ، وبإلغاء ما زاد من الفوائد المتراكمة على مقدار الدين الأصلي ، وبألا يجوز للدائن الاستيلاء على أكثر من ربع دخل المدين سنوياً . وبحرمان الدائن الحصول على أي شيء اذا كان قد أدمج الفائدة مع الدين الأصلي . واذا كان لوقولّوس قد خفف على هذا النحو أعباء أهالي الولاية مما مكنهم من التخلص من ديونهم في خلال أربع سنوات وبذلك اكتسب عرفانهم الى حد أن مدناً كثيرة أنشأت أعياداً باسمه (Lucullea) ، فإنه من ناحية أخرى أثار على نفسه غضب الرأسماليين في روما الى حد أنهم اعتبروه ألد أعدائهم ولجأوا الى كل وسيلة للنيل من قدره وكسب الشعبيين الى جانبهم في المطالبة بعزله وذلك باتهامه بإطالة الحرب عامداً لتحقيق صوالح شخصية .

ومثل ما أثارت استقامة لوقولّوس غضب الفرسان عليه ، أثار إصراره على مراعاة النظم العسكرية بدقة غضب جنوده ونقمتهم وكانوا لا يزيدون على خمس فرق من بينها فرقتا فيمبريا . وكان رجال هاتين الفرقتين محاربين قدماء محنكين ، ولكنه أفسدتهم الحياة الطليقة المتحررة من القيود بين أهالي ولاية لا حول لهم ولا قوة على وقف مطالبهم . وقد نجح لوقولّوس في أول الأمر في ترويضهم ولكنه لم ينجح إطلاقاً في اكتساب محبتهم واجتذابهم اليه بسبب إصراره دائماً على منع الجنود من السلب والنهب وحماية ممتلكات أعدائه المنهزمين . وتبعاً لذلك فإنه كلما طال أمد الحرب أخذ الفيمبريون يضيقون ذرعاً بلوقولّوس ويتقاعسون في تنفيذ أوامره ويبثون الفتنة بين باقي قواته ، فتعذر عليه أن يكلل جهوده بنصر حاسم على نحو ما سنرى .

ويبدو أنه في عام ٧٠ ق . م . بعد أن تم الاستيلاء على بونطوس وإصلاح الأوضاع في ولاية آسيا ، قام لوقولّوس بإرسال أبيوس قلاوديوس الى

أرمينيا ليطالب تيجرانس بتسليم ميثريداتس . ولما كان تيجرانس عندئذ في سوريا ، فإن أبيوس انتهز فرصة انتظار عودة الملك للتفاهم سراً مع قادة بعض الولايات والمدن التي أدخلها تيجرانس في حظيرة إمبراطوريته . وحتى هذا الوقت كان تيجرانس قد عزف عن تقديم أية مساعدة لميثريداتس بل إنه رفض مقابلته ولم يسمح له إلا بأن يكون لاجئاً لديه . وعندما عاد تيجرانس من سوريا ورفض تسليم ميثريداتس أعلن عليه أبيوس الحرب فأخذ تيجرانس يعد جيشاً لمساعدة ميثريداتس .

وفي عام ٦٩ ق . م . ترك اوقولّوس قوة بقيادة مساعده سورناتيوس (Sornatius) للحفاظ على بونطوس وغزا أرمينيا بباقي قواته واستولى على تيجرانوقرتا بعد أن كبد تيجرانس وميثريداتس خسائر فادحة . ولم يترتب على هذه الهزيمة أن تيجرانس فقد عاصمته الجديدة فحسب بل أيضاً الجزء الجنوبي من ممتلكاته وانقطعت صلته بسوريا فارتقى عرشها لفترة وجيزة أمير من أسرة السلوقيين . وقد كان يمكن تبرير هذه الحملة الجريئة على أساس أنها كانت ضرورية لكيل ضربة قاصمة لتيجرانس تمنعه من غزو بونطوس لو أن لوقولّوس اكتفى بذلك ، ولكنه لم يفعل — على نحو ما سنرى — مما أغضب جنوده المرهقين من طول أمد القتال ، كما أغضب السناتو لعدم استئذانه في غزو أرمينيا ، وكذلك أعطى خصومه الفرصة لاتهامه بالسعي وراء تحقيق أمجـــاد شخصية . ويُقال إنه استخدم الرشوة في محاولته تهدئة العاصفة التي هبت عليه ولكن دون طائل . ذلك أنه سُحبت من اوقولّوس ولاية آسيا في عام ٦٩ ق . م . وولاية قيليقيا في عام ٦٨ ق . م . وأُسند حكم بيثونيا وبونطوس الى أقيليوس جلابريو — أحد قنصلي عام ٦٧ ق . م . — كما أسندت قيادة الحرب الى بومبي في عام ٦٦ ق . م .

وبعد موقعة تيجرانوقرتا فر تيجرانس الى أواسط أرمينيا حيث لحق به ميثريداتس ، وحاول كل من تيجرانس ولوقولّوس الحصول على مساعدات من بارثيا . ويقال إنه عندما كشف لوقولّوس أن ملك بارثيا كان يمالىء

تيجرانس مثل ما كان يمالئه ولا ينوي تقديم أية مساعدة لأحد ، صمم على إرغامه على مساعدة الرومان بشن الحرب عليه . وتبعاً لذلك طلب الى سورناتيوس إحضار باقي القوات الرومانية من بونطوس ليقوم بغزو بارثيا ، ولكن الجنود رفضوا التحرك مما شجع القوات التي كانت مع لوقولّوس على رفض الاشتراك في غزو بارثيا ، فعدل لوقولّوس عن تصميمه وقرر أن يتابع فتح أرمينيا . وفي صيف عام ٦٨ ق . م . زحف لوقولّوس شمالاً صوب ارتاكساتا (Artaxata — العاصمة القديمة) ولكنه بعد أن هزم تيجرانس وميثريداتس على ضفاف نهر أرسانياس (Arsanias) في معركة حامية دون أن تكون حاسمة ، رفض الجنود متابعة التوغل داخل أرمينيا . وإزاء ذلك اضطر لوقولّوس الى العودة أدراجه جنوباً حيث استولى على نصيبين (Nisibis) وقضى هناك شتاء عام ٦٨/ ٦٧ ق . م . وسط متاعب جنوده وهي المتاعب التي عمل على تفاقمها بوبليوس قلوديوس (Clodius) ، وكان رجلاً مشاغباً نصب نفسه « صديقاً للجنود » .

وقد انتهز تيجرانس وميثريداتس فرصة انسحاب لوقولّوس جنوباً فشرع أولهما في استرداد ما فقده ودخل ثانيهما بونطوس حيث استرد سريعاً بعض المدن وهزم هادريانوس — أحد مساعدي لوقولّوس — وحاصره في قابيرا مما اضطر مساعداً آخر للوقولّوس — وهو ترياريوس (Triarius) — الى أن يخف لنجدة المدينة المحاصرة . وبعد إنقاذ قابيرا نجح هادريانوس وترياريوس في إبعاد خطر ميثريداتس مؤقتاً ، وإزاء حلول فصل الشتاء انسحب كلا الفريقين للاعتصام وراء خطوط منيعة . وفي أوائل عام ٦٧ ق . م . بادر ميثريداتس بالهجوم ونجح في استدراج ترياريوس الى الاشتباك معه في معركة بالقرب من زيلا (Zela) وأنزل بالقوات الرومانية خسائر كبيرة . وعندما وصل لوقولّوس بعد هذه المعركة بوقت قصير ، انسحب ميثريداتس الى قلعة تالاورا (Talaura) المنيعة لينتظر وصول تيجرانس وكان قد بدأ زحفه بجيش كبير على قابادوقيا . وقد أراد لوقولّوس أن يخف

لمواجهة تيجرانس ولكن جيشه رفض أن يتحرك ، فناشد حاكمي قيليقيا وبيثونيا الجديدين المساعدة ولكنهما أبيا عليه ذلك. وحين شُلّت حركة لوقولّوس على هذا النحو نشط ميثريداتس في استعادة الجانب الأكبر من بونطوس ، كما نشط تيجرانس في اكتساح قابادوقيا. وقد ظل لوقولّوس مشلول الحركة حتى خلفه بومبي في قيادة الحرب في العام التالي (عام ٦٦ ق . م .) ليجني ثمار الجهود التي بذلها لوقولّوس في كسر شوكة ميثريداتس وتيجرانس. وإذا كان لوقولّوس بنزاهته وصلابته وتحميله جنوده فوق طاقتهم قد أسهم في حرمان نفسه تتويج جهوده بأكاليل النصر الحاسم، فإن الفرسان والشعبيين بل السناتو أيضاً كان لهم جميعاً نصيب كبير في ذلك .

٣ ـ بومبي يتولى زمام القيادة[٢٩] :

كان بومبي في قيليقيا عندما أُسندت اليه قيادة الحرب في آسيا ، فخف شمالاً حيث التقى بلوقولّوس في الجزء الشرقي من غالاتيا . وبعد لقاء عاصف حلت فيه المهاترات محل المجاملات تسلم بومبي قيادة البقية الباقية من قوات لوقولّوس عدا فئة قليلة من الجنود سمح لهم بومبي بأن يصحبوا القائد المخلوع لأنهم فيما يُظن كانوا من المصابين .

ولكي يتيح بومبي لنفسه الفرصة اللازمة لإعداد حملته وضمان الوصول الى نتيجة حاسمة عمل على الحيلولة دون تعاون ميثريداتس وتيجرانس بأن دخل مع فرآتس (Phraates) ملك بارثيا في مفاوضات جدية أفضت الى عقه محالفة معه ضد تيجرانس وهو الذي كان بدوره يحاول دون جدوى الفوز

---

(٢٩) المصادر الرئيسية

Plut., Pomp., XXX-XLII; App., Mithr., 91-119; Dio Cass., XXXVI, 20-XXXVII, 20; Liv., Ep., 100-102; Joseph , Antiq. Jud., XIV, 2-5, 1; Bell. Jud., I, 6-7.

أهم المراجع :

J.G. Anderson, Pompey's Campaign against Mithridates, J.R.S., 1922; Heitland, III, pp. 59 ff.; C.A.H. IX, pp 376-383.

بمحالفة فرآتس . ويُعزى فشل تيجرانس في محاولته الى أنه كان قد استولى على ممتلكات فرآتس الغربية في بلاد ما بين النهرين ، وكذلك الى شهرة بومبي العسكرية التي مكنته من النجاح حيث فشل لوقولّوس من قبل . وفي الوقت نفسه دخل بومبي مع ميثْريداتس في مفاوضات لم يكن القصد منها إلا شل حركته وذلك بإفهامه أنه من الممكن تسوية النزاع ودياً . وبعد نجاح بومبي في التحالف مع فرآتس أبلغ ميثْريداتس شروطاً للصلح كان لا يمكنه قبولها فقطعت المفاوضات . وهكذا اذ انصرف تيجرانس لمواجهة فرآتس ، وجد ميثْريداتس نفسه وحيداً على رأس جيش يتألف من ٣٠,٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الخيالة أمام القوات الكبيرة التي جمعها بومبي ، وكان قد استغل فرصة المفاوضات في رفع الروح المعنوية في رجال جيش لوقولّوس المهلهل وفي إحضار القوات التي كان يستخدمها ضد القراصنة وكذلك القوات الموجودة في بيثونيا وقيليقيا فضلاً عن المساعدات التي حصل عليها من أريوبارزانس ملك قابادوقيا الأصلي ومن أمراء غالاتيا . ويقدر عدد المقاتلين الذين خاض بهم بومبي حملته ضد ميثْريداتس بما لا يقل عن ٥٠,٠٠٠ مقاتل .

وفي صيف عام ٦٦ ق . م . أمر بومبي أسطوله بحراسة شواطىء آسيا الصغرى وقام بغزو بونطوس . فأخذ ميثْريداتس يرتد الى الداخل ليطيل خطوط مواصلات عدوه ويستنزف قواته بأساليب حرب العصابات . واستمرت الحال على هذا المنوال الى أن نجح بومبي في إيقاع خيالة العدو في كمين وقضى عليها قضاء مبرماً فخلا له الجو ليحاصر ميثْريداتس ٤٥ يوماً في بلدة داستيرا (Dasteira) المنيعة ، ويحتمل أنها كانت المكان الذي أنشئت عليه فيما بعد مدينة نيقوبوليس . واذا كان ميثْريداتس قد أفلح ذات ليلة في الإفلات من الحصار ، فان بومبي استطاع اللحاق به بعد قليل وهزيمته هزيمة فادحة اضطرته الى الفرار ثانية الى أرمينيا مناشداً تيجرانس المساعدة .

وفي هذه الأثناء كان فرآتس قد غزا أرمينيا وحاصر تيجرانس في أرتاكساتا ولكنه لم يلبث أن انسحب مع جانب من قواته تاركاً الجانب الآخر

ليتولى أمر الحصار بقيادة ابن تيجرانس الخارج على طاعة أبيه ، مما أتاح لتيجرانس أن يبدد شمل محاصريه . وإزاء شكوك تيجرانس في نوايا ميثريداتس بسبب مفاوضاته السابقة مع بومبي لم يكتف برفض تقديم أية مساعدة للملك الهارب بل إنه أيضاً أعلن عن مكافأة لمن يأتيه برأسه ، مما حدا بميثريداتس الى الهرب من أرمينيا الى قولخيس حيث قضى شتاء عام ٦٦/ ٦٥ ق . م . في ميناء ديوسقورياس (Dioscurias = سباستبول) . وقد أمر بومبي الأسطول بمحاصرة موانىء البحر الأسود ، وزحف على أرتاكساتا استجابة الى دعوة ابن تيجرانس ، وعلى مسافة قصيرة من هذه المدينة التقى بتيجرانس على رأس قواته ولكن شجاعة الملك خانته فاستسلم دون قيد أو شرط . وإذ عفا عنه بومبي وأبقاه على عرشه هاج الابن هياجاً شديداً ، فأمر بومبي بالقبض عليه ليعرضه في مهرجان نصره الكبير .

وبعد فراغ بومبي على هذا النحو من حرب أرمينيا يمم وجهه صوب حدودها الشمالية حيث قضى الشتاء في وادي نهر قورش . وكان يجاور هذه الحدود الألبانيون وإلى غربهم الإيبريون . وعندما أفزع الألبانيين وجود بومبي على مقربة من مواطنهم حاولوا أخذه على غرة ولكنه ردهم على أعقابهم بخسائر كبيرة .

واستهل بومبي حملة ربيع عام ٦٥ ق . م . بدحر الإيبريين وشق طريقه الى البحر الأسود حيث التقى بإحدى وحدات أسطوله وتابع زحفه شمالاً على أمل اللحاق بميثريداتس ، ولكن وعورة جبال القوقاز حالت دون ذلك فترك بومبي لأسطوله مهمة تضييق الخناق على ميثريداتس وعاد أدراجه صوب الجنوب الشرقي حيث أكمل إخضاع الإيبريين والألبانيين واستمر في زحفه شرقاً حتى أصبح على مسيرة ثلاثة أيام من بحر قزوين . ولما كان بلينيوس يحدثنا بأن بومبي عُني بالتحري عن طول الطريق من بحر قزوين الى الهند ، فإنه من الجائز أن بومبي كان يهدف من وراء هذه الحملة التي قضى فيها بضعة شهور الى تأمين طريق التجارة الشرقية القادم من الهند الى البحر الأسود ماراً ببحر

قزوين ، وهو هدف سبق أن عُني بتحقيقه سلوقوس الأول واجتذب فيما بعد اهتمام نيرون . بيد أنه من الجائز أيضاً أن بومبي لم يهدف إلا الى الفوز بأمجاد عسكرية نتيجة لانتصاره على شعوب لم يكن للرومان بها علم من قبل . وعلى كل حال فإنه تفادياً لإرهاق جنوده قفل راجعاً الى أرمينيا الصغرى حيث استولى على البقية الباقية من حصون ميثريداتس هناك ، وقضى شتاء عام ٦٥/ ٦٤ ق . م .

وحين كان بومبي في شغل بحملته الشرقية ، أفلح ميثريداتس في مغافلة الأسطول الروماني والمروق الى الجزء الشرقي من بحر آزوف ، وكان جزءاً من ممتلكاته على الشواطىء الشمالية للبحر الأسود . وقد كان ماخارس (Machares) ابن ميثريداتس يحكم هذه الممتلكات نيابة عن أبيه ولكنه خرج على طاعته وعقد في عام ٧٠ ق . م . صلحاً مع لوقولّوس فاعترف به حاكماً شرعياً لهذه الممتلكات . وبفضل مكانة ميثريداتس استطاع أن يستعيد سريعاً ولاء زعماء القبائل في المنطقة التي وصل اليها وأن يشعل لهيب الثورة ضد ابنه في القرم . ولم يلبث الأب أن زحف ضد الإبن وضيق الخناق عليه في بانتيقابيوم الى أن اضطره الى الانتحار . وبعد هذه المأساة استعاد ميثريداتس ممتلكاته الشمالية .

وحدث كذلك في عام ٦٥ ق . م . أن فرآتس حاول أن يسترد من تيجرانس إقليم جوردويني (Gordyene) الواقع في أعالي الدجلة قرب نصيبين ، ولكن بومبي أرسل مساعديه أفرانيوس (Afranius) وجابينيوس فاحتلا جوردويني مما أثار غضب فرآتس وطلب إلى بومبي عقد معاهد جديدة معه ، ولكن بومبي رفض هذا الطلب.

وفي ربيع عام ٦٤ ق . م . ذهب بومبي الى بونطوس حيث وضع تسوية مؤقتة للأوضاع في آسيا الصغرى واستقبل الملوك الموالين لروما وكذلك بعثة أوفدها ميثريداتس بعد استعادته ممتلكاته الشمالية . وقد جاءت البعثة تطلب

عقد الصلح على أن يستعيد ميثريداتس بونطوس لقاء اعترافه بالسيادة الرومانية . ولم يرفض بومبي طلب البعثة ولكنه اشترط حضور الملك اليه ليقدم بنفسه خضوعه واستسلامه . وعندما رفض ميثريداتس هذا الشرط ترك بومبي لأسطوله مهمة تشديد الحصار على غريمه وانصرف ليولي عنايته الى مشاكل أخرى . ذلك أن بومبي كان قد قرر ضم سوريا لكي يتيسر له وضع أمور الشرق في نصابها ، وتبعاً لذلك أمر أفرانيوس وجابينيوس بتسليم جوردويني الى تيجرانس والاتجاه الى سوريا .

وعندما عاود فرآتس مهاجمة تيجرانس أنفذ بومبي بعثة لتسوية النزاع بينهما ، وشخص الى سوريا حيث كانت الفوضى تغشاها منذ أن فقدها تيجرانس عقب انتصار لوقولّوس عليه في موقعة تيجرانوقرتا . ذلك أن أنطيوخوس الثالث عشر ، وهو الذي اعترف به لوقولّوس ملكاً شرعياً لسوريا ، خطفه أمير حمص وخلفه على العرش فيليب الثاني حفيد انطيوخوس الثامن جروبوس (Grypus) . وقد بلغ من ضعف الملك السوري أن سلطته كانت لا تتعدى حدود عاصمته انطاكية وأن الإمارات المجاورة التي كانت في الماضي تابعة للسلوقيين غدت مستقلة بل إن بعضها ، وبخاصة إمارة اليهود ومملكة النبط ، أخذت توسع رقعتها على حساب جيرانها . وباستثناء الإمارات والمدن القوية ، كانت كل المنطقة الممتدة من الفرات الى شاطىء البحر المتوسط ومن جبال الطوروس الى قيليقيا نهباً لعصابات قطاع الطرق . وكانت أخطر مشكلة واجهت بومبي هي النزاع بين الأخوين هورقانوس (Hyrcanus) وأريسطوبولوس الثاني (Aristobulus) على عرش إمارة اليهود (Judaea) وتدخل النبط في هذا النزاع ، الذي سوي مؤقتاً بانتصار جابينيوس وسقاوروس — مساعدي بومبي — لأصغر الأخوين وهو أريسطوبولوس . وإزاء ذلك تفرغ بومبي في خلال ما بقي من عام ٦٤ لنشر الأمن واستقرار الأوضاع في سوريا بإرسال عدة وحدات من قواته لقطع دابر قطاع الطرق ودك معاقل القراصنة على الشاطىء وإخضاع حكام الولايات المختلفة .

وقد كان من شأن إخضاع النبط الإسهام في استقرار الأوضاع في سوريا ، وامتداد السيادة الرومانية الى البحر الأحمر ، وتبعاً لذلك السيطرة على جانب مهم من التجارة الشرقية ، لأن البتراء عاصمة النبط كانت مركزاً كبيراً لتجارة القوافل القادمة من الجنوب ومن الشرق محملة بالتوابل والعطور والحرير وغير ذلك من متطلبات الحياة المترفة التي كان الإقبال عليها شديداً وبخاصة في روما . وإزاء هذه الاعتبارات خرج بومبي في عام ٦٣ ق . م . على رأس حملة ضد البتراء ، ولكنه قبل أن يمضي طويلاً في طريقه أثارت شكوكه تصرفات أريسطوبولوس فقرر أن يستولي على أورشليم (بيت المقدس) ويقيم هوركانوس مكانه . وإزاء مناعة المدينة واستماتة أهليها في الدفاع عنها استغرق الاستيلاء عليها ثلاثة شهور . ولعل أنه بسبب اقتراب الشتاء وكثرة المشاغل عدل بومبي عن القيام بحملته ضد النبط في معاقلهم الجبلية المنيعة ، ولكنه في العام التالي أرسل ضدهم مساعده سقاوروس . واذا كان سقاوروس لم يفلح في قهر النبط فإنه فيما يبدو أفلح في الحصول على ولائهم بدليل أن بومبي أعاد اليهم دمشق في التسوية النهائية التي وضعها على نحو ما سنرى .

وحين كان بومبي في طريقه الى البتراء أتاه نبأ وفاة ميثريداتس . وكان هذا الملك ، بعد فشل المفاوضات لعقد الصلح ، قد أخذ يبذل جهداً كبيراً في إعداد حملة يغزو بها إيطاليا من الشمال بالزحف في حوض الدانوب ثم اجتياز ممرات الألب الشمالية . بيد أن الالتزامات المرهقة التي فرضها ميثريداتس على رعاياه أفضت الى ثورتهم عليه بزعامة ابنه فارناقس (Pharnaces) وكان أبوه قد غضب عليه ثم عفا عنه لكنه لم يثق في عفو أبيه وضيق الخناق عليه في قلعة بانتيقابيوم الى أن أرغمه على الانتحار .

ولا جدال في أن ميثريداتس كان أقوى الخصوم الذين واجهتهم روما في الشرق ، ولا في أنه كان واسع الأطماع ويتمتع بكثير من المواهب والصفات التي مكنته من بناء مملكة كبيرة وحشد قوات هائلة وكسب احترام جيرانه

ورعاياه من الوطنيين والإغريق والنهوض من كبوة بعد أخرى . ومع ذلك فإنه بالرغم من كل مواهبه وصفاته ومكانته وقيامه بدور نصير الشرق ضد الغرب . وبرغم كل المساعدات التي قدمها له القواد الإغريق والرومان المنفيون . وبرغم تجنيد قواته من شعوب محبة للقتال ، فإنه لم ينتصر في معركة واحدة على قوات رومانية على رأسها قائد قدير ، وإن كان قد انتصر مراراً في مناوشات الكر والفر ، مما يدل على أنه لم يكن قائداً بارعاً وإن كان خبيراً بحرب العصابات قدر خبرته بالمكر والخداع . والواقع أن حروب ميثريداتس ضد الرومان تبرز مدى قوته ومواطن ضعفه على السواء . ذلك أنه اذا كانت إفاقته من الكوارث وإعادة بناء قوات كبيرة تكشفان عن قوة شخصيته وقدرته على استخدام سلطته المطلقة كاملة ، فإن ذات إصراره على الاستمرار في الاحتكام الى السيف مع إمبراطورية هائلة لم يكن له قبل عليها ، ومحاصرته قوزيقوس بجيش هائل عجز عن إطعامه ، وتحميله رعاياه ما لا طاقة لهم عليه من أجل إعداد حملة يغزو بها إيطاليا مع أنه لم يستطع التغلب على الرومان في وطنه — فإن ذلك كله يدل على سوء تقديره لعواقب الأمور ، وعلى عجزه عن إدراك مدى ما كانت سلطته المطلقة تستطيع تحقيقه وعلى عدم تكافؤ قدراته ومواهبه مع أطماعه الواسعة . وعلى غرار حروب يوجورتا والتيوتون والقيمبري والقراصنة ، كشفت حروب ميثريداتس عن قصور حكومة السناتو وعجزها الى أن تغلب الشعب على هذا القصور والعجز وأسند القيادة الى قائد لديه الكفاية اللازمة لوضع الأمور في نصابها . بيد أن السناتو والشعب على السواء دفعا ثمناً باهظاً لهذه الانتصارات . فقد كانت النتيجة المنطقية لإضعاف حكومة السناتو دون قدرة الجمعيات الشعبية على أن تخلف السناتو في القبض على زمام الأمور وتوجيه سياسة الدولة هي طغيان سلطة القواد والقضاء على النظام الجمهوري الروماني .

٤ – بومبي ينظم شئون الشرق الأوسط [٣٠] :

بعد استيلاء بومبي على بيت المقدس، عاد في أواخر عام ٦٣ ق. م. الى أميسوس لقضاء فصل الشتاء . وقد قضى العام التالي في آسيا الصغرى حيث قام ، بمقتضى السلطة التي خولها له قانون مانيليوس ، بتنظيم شئون الشرق الأوسط دون الاستعانة بلجنة العشرة التي درج السناتو على إرسالها لوضع التسويات التي تعقب انتصار القواد الرومان . وقد هدف بومبي من وراء التنظيمات التي وضعها الى الحفاظ على النفوذ الروماني في غرب آسيا والى نشر الأمن والسكينة بين ربوع هذه الأرجاء الفسيحة في البر وفي البحر . وتحقيقاً لما استهدفه بومبي توخى ما يلي :

أولاً – ألا يضم الى الإمبراطورية الرومانية إلا الأجزاء التي كانت الضرورات العسكرية تقتضيها .

ثانياً – مراعاة القاعدة الرومانية المألوفة وهي التي كانت تقضي بالإبقاء على الممالك والإمارات والمدن الموالية لروما ، ومكافأة كل منها بقدر ما أدته لها من خدمات ، واحترام التقاليد المحلية .

ثالثاً – حماية الحدود الشرقية لآسيا الصغرى ، وذلك بتقوية الممالك والإمارات والمدن الواقعة في شرقها ووسطها ، ومصادقة أرمينيا الكبرى عدوة بارثيا اللدودة .

رابعاً – رعاية الحياة الحضرية في آسيا الصغرى وفي سوريا .

---

(٣٠) المصادر الرئيسية :
Plut., Pomp., XXXVIII-XLII; App., Mithr., 114-115; Dio Cass., XXXVII, 7 and 7 a; Plin., ad Trian., Imp., 79; 80; 112; 114; 115; Cf. Cic., Philip., II, 37. 94.

أهم المراجع :
C.A.H., IX, pp. 390-6; A.H.M. Jones, Cities Eastern Rom. Emp., pp. 157 ff., 202 ff.; D. Magie, Rom. Rule in Asia Minor, Ch. XV; T. Frank, Rom. Imperialism, pp. 323 ff. ; Marshall, J.R.S., 1968, p. 103, n 3; Scullard, 1970, n. 24 p. 421.

وتبعاً لذلك لم يدخل بومبي في حظيرة الإمبراطورية الرومانية إلا سوريا التي حولها الى ولاية رومانية جديدة . وعلى حين أنه ترك ولاية آسيا على النحو الذي تركها عليه صلا ، بسط رقعة ولايتي بيثونيا وقيليقيا بأن ضم الى الأولى الأقاليم الساحلية في بافلاجونيا والنصف الغربي من بونطوس حتى نهر هالوس (Halys) أو نهر إيريس (Iris) ، وضم الى الثانية قيليقيا المنبسطة ولوقاونيا (Lycaonia) وبيسيديا وجنوب فروجيا . ووضع بومبي لسوريا وبيثونيا وقيليقيا نظماً دقيقة مفصلة ظلت سارية المفعول على الأقل في بيثونيا حتى أوائل القرن الثاني للميلاد . (أنظر خريطة آسيا الصغرى) .

ومكافأة لفارناقس على دوره في التخلص من أبيه عقد معه بومبي معاهدة تحالف وصداقة واعترف به ملكاً على ممتلكات أبيه في شمال البحر الأسود . ومكافأة كذلك لديوتاروس كبير أمراء غرب غالاتيا أغدق عليه بومبي لقب ملك ومنحه الجزء الشرقي من الأقاليم الساحلية في بونطوس ابتداء من نهر هالوس أو نهر إيريس حتى ترابزوس . وترك بومبي المنطقة الساحلية في قولخيس وكذلك إيبريا وألبانيا تحت إمرة حكامها المحليين الذين اعترفوا بالسيادة الرومانية . وفي وسط آسيا الصغرى اعترف بومبي بعدد من صغار الأمراء . وفي شرق آسيا الصغرى دعم بومبي مركز أريوبارزانس على عرش قابادوقيا ومركز أنطيوخوس على عرش قوماجني (Commagne) وأعطى كلاً من هذين الملكين الإقليم المجاور لمملكته في بلاد ما بين النهرين . وأما الأقاليم الواقعة في الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين فإن بومبي لم يسمح لفرآتس بأن يسترد منها إلا أديابني (Adiabene — حول نينوى) على حين أنه سمح لتيجرانس بالاحتفاظ بجوردويني (حول نصيبين) ومنح جزءاً من غرب بلاد ما بين النهرين لأميرين عربيين كانا حليفين للرومان .

ولما كان يقع على مشارف الحدود الشرقية لولاية سوريا الرومانية عدد غير قليل من الإمارات الصغيرة — أهمها خالقيس (Chalcis ، قنسرين) وحمص — وكان هؤلاء الأمراء وكذلك ملك النبط في الجنوب قد أعربوا عن

ولأنهم للرومان ، فإن بومبي اعترف بهؤلاء الحكام وأعاد دمشق إلى ملك النبط . وإذا كان بومبي قد أقام هورقانوس حاكماً على إمارة اليهود وكاهناً أكبر لهذه الإمارة ، فإنه تقليماً لأظافره لم يمنحه لقب ملك وفصل عن إمارته أغلب المناطق التي كان قد اجتاحها في فلسطين منذ أربعين عاماً، فقد حرم بومبي اليهود عشر مدن تقع على نهر الأردن جنوبي البحر الميت وإقليم السامرة والمنطقة الساحلية الممتدة من غزة حتى جبل الكرمل ، ورد كل هذه الأصقاع الى أصحابها الأصليين .

ولم يكتف بومبي بتأمين السيطرة الرومانية على غرب آسيا على نحو ما أوجزنا ، بل إنه قام أيضاً بما يعتبر من أجل أعماله في الشرق ، وهو رعاية الحياة الحضرية . ذلك أنه في بعض الحالات أعاد تعمير مدن قديمة كانت قد اضمحلت وفقدت أغلب سكانها من جراء الحروب الطويلة أو إغارات القراصنة أو نقل الكثيرين من سكانها لتعمير عاصمة تيجرانس الجديدة . وفي حالات أخرى أنشأ مدناً جديدة بنقل سكان القرى المجاورة الى هذه المراكز الحضرية الجديدة . وفي حالة واحدة وهي مدينة نيقوبوليس كان مواطنو هذه المدينة مزيجاً من الأهالي الوطنيين ومن جنود بومبي الذين أصيبوا في خلال الحرب . وقد بلغ عدد المدن التي أنشأها بومبي أو أعاد تعميرها تسعاً وثلاثين، راعى أن يكون لكل منها إقليم يكفي لإعالتها وحكومة أرستقراطية تدير شئونها المحلية ، أي أن بومبي منحها جميعاً استقلالاً ذاتياً . وكذلك أبقى بومبي على الاستقلال الذاتي الذي كانت تتمتع به المدن القديمة الموجودة في الولايات الرومانية في آسيا . بيد أنه من بين كل هذه « الدول الحرة » (Civitates liberae) لم تكن إلا قلة قليلة منها معفاة من الضرائب (immunes) مثل رودس وقوزيقوس . وكانت القاعدة العامة هي أن تؤدي هذه المدن أو « الدول » لروما ذات الضريبة التي كانت تؤديها لحكامها السابقين . وكان ذلك أيضاً شأن مرارعي أرض الملك في بيثونيا وبونطوس . وكذلك كان على الحكام التابعين لروما ، أي حكام الأقاليم الواقعة غربي الفرات ، سواء أكانوا ملوكاً

أم أمراء أم كهنة . أن يدفعوا لروما جزية سنوية .

ولا جدال في أن بومبي جنى ثمار الجهود التي بذلها لوقولوس ، بيد أنه لا جدال كذلك في أنه أحسن استخدام القوات الكبيرة التي وضعت تحت إمرته والسلطات الواسعة التي مُنحت له . ذلك أنه مثل ما طهر البحار من القراصنة أنقذ آسيا الصغرى من المخاطر التي كانت تتهددها كما أنقذ سوريا من الفوضى التي كانت تغشاها ، وأمن سيادة روما على غرب آسيا ، ونشر في هذه الأرجاء عهداً من السلم لم تألفه منذ قضى الاسكندر الأكبر على الإمبراطورية الفارسية ، مما ساعد على النهوض الاقتصادي وانتشار الحضارة الإغريقية في تلك الأرجاء . واذا كان من شأن التسوية التي عقدها بومبي مع بارثيا بذر بذور المتاعب للمستقبل ، فإنه كان واثقاً من أن وجود معابر سوريا والفرات في قبضة حلفاء روما لن يجعل رد أي عدوان تقوم به بارثيا أمراً عسيراً .

وبفضل الضرائب التي فرضها بومبي وتعويضات الحرب التي اقتضاها جنت روما أكبر قدر من الثروة عاد عليها من أية حرب خاضت غمارها . ذلك أنه بعد أن وزع بومبي على جنوده مبلغاً قدره ٣٨٤ مليون سسترتيوس أودع الخزانة العامة عند عودته ٤٨٠ مليون سسترتيوس. وزاد دخل الجزية سنوياً من ٢٠٠ مليون الى ٣٤٠ مليون سسترتيوس .

الفصل التاسع

الاحداث الداخلية منذ عام ٦٥ حتى عام ٥٩ ق.م.

يوليوس قيصر

أولا – روما في أثناء غيبة بومبي

كان من جراء منح بومبي كل تلك السلطات الواسعة بمقتضى قانوني جابينيوس ومانيليوس أن مصير الجمهورية الرومانية لم يعد متوقفاً على ما يقرره السناتو أو الجمعيات الشعبية ، وإنما على ما يقرره بومبي عند عودته من الشرق . وفي أثناء غيبة هذا الرجل القوي شهدت روما صراعاً مضطرباً كانت تغذيه الأحقاد والأطماع والصوالح الشخصية والخوف من أن يحذو بومبي حذو صلا . وقد كان من أسوأ مظاهر هذا الصراع بداية الالتجاء الى تنظيم عصابات مسلحة ومناداة العابثين المسرفين بإلغاء الديون . فلا عجب أن كان هذا الوقت وقت محنة وضيق للمواطنين الأوفياء للنظام الجمهوري وكان أبرزهم شيشرون ومارقوس بورقيوس قاتو . واذا كان شيشرون قد أيد قانون مانيليوس فإنه كان يدرك تماماً أن تكرار منح مثل هذه السلطات الواسعة التي مُنحت لبومبي كان يقضي على النظام الجمهوري . ولما كان الشعبيون يتهددون بتصرفاتهم الهوجاء النظام الجمهوري وكذلك صوالح طبقة الفرسان ، وهي التي كان شيشرون ينتمي اليها بحكم نشأته ، على حين أن « الأخيار » كانوا أقوى نصير

للنظام الجمهوري ، فان شيشرون أخذ يميل الى جانب الأخيار وأصبح هدفه السياسي محاولة التوفيق بين طبقتي الفرسان والأخيار (Concordia Ordinum) ليمكن بفضل ذلك إقامة حكومة قوية تضع الأمور في نصابها وتحافظ على النظام الجمهوري . ولا جدال في أن شيشرون كان رجلاً نهازاً للفرص وعلى استعداد للتضحية ببعض مبادئه من أجل تحقيق أغراض كانت تبدو له أكثر أهمية ، ولكنه لا جدال أيضاً في أنه كان نصيراً مخلصاً للنظام الجمهوري ، وإن كان لم يعد هناك أمل في إنقاذ هذا النظام . ولا يقلل من شأن شيشرون بل يزيده قدراً استماتته في الدفاع عن هدف نبيل وإن كان قد أصبح ميئوساً منه . وأما قاتو فإنه كان لا يعرف المساومة لأن مزاجه الجدي وأفكاره الرواقية أعدته للكفاح كفاح الأبطال من أجل الجمهورية. بيد أن الجمهورية كانت قبل كل شيء نظاماً أرستقراطياً ولم يكن شيشرون ولا قاتو رجلاً أرستقراطياً بمعنى الكلمة فلم يحظ أحد منهما بتأييد كامل من الأرستقراطية الحقودة القصيرة النظر المنقسمة على نفسها شيعاً متنافسة .

ولقد لعب أدواراً هامة في هذه الأحداث قراسوس وقيصر . وكان أولهما نهباً لغيرة شديدة من مكانة بومبي وسلطاته وكلاهما نهباً للخوف من أن يقيم بومبي نفسه دكتاتوراً عند عودته . ولم يكن مبعث هذا الخوف حرصهما على الجمهورية وإنما حرص الأول على حياته وثروته وحرص الاثنين على أطماعهما الشخصية مما حدا بهما الى التحالف سوياً والعمل على إعداد العدة لمجابهة عودة بومبي .

ويحتل كذلك مكاناً بارزاً في الأحداث التالية رجل رفيع الأصل لكنه وضيع الخلق يدعى لوقيوس سرجيوس قاتيلينا[1] (Sergius Catilina) . وقد مر بنا أن قاتيلينا قتل أخاه ثم أدرج اسمه في إحدى قوائم صلا السوداء بفضل صلته بالدكتاتور فقد أظهر ولاءه له بالقتال في صفوفه في أثناء

(1) Sallust., Bell., Cat., V, XIV-XVIII.

الحرب الأهلية . وبعد هذه الحرب جمع قاتيلينا ثروة من أعمال مصادرات صلا ولكنه بدد ثروته في حياته الخاصة المعيبة . وبرغم ماكان معروفاً عن سوء سلوكه فإن قنسوري عام ٧٠ ق . م . غضا الطرف عن ذلك ولم يستبعداه مع من استبعداهم من أعضاء السناتو . وفي عام ٦٨ ق . م . تولى قاتيلينا وظيفة البرايتورية ، وفي العام التالي أسند اليه حكم ولاية أفريقيا حيث عاث فساداً ، ولذلك فإنه عند عودته الى روما في عام ٦٦ ق . م . وجهت اليه تهمة ابتزاز الأموال . وكانت لمحاكمة قاتيلينا بهذه التهمة ذيول هامة سيأتي ذكرها بعد قليل.

١ ـ محاكمات ، شغب ، مؤامرة أول يناير عام ٦٥ ق.م.

انتهز السناتو فرصة غياب بومبي لينزل نقمته بعدد من ترابنة العامة السابقين عن طريق تقديمهم للمحاكمة . وكان في مقدمة الذين حوكموا جايوس ليقينيوس ماقر ، وكان أحد ترابنة العامة في عام ٧٣ ق. م. ومن أبرز الذين ألحوا في المطالبة بإعادة اختصاصات ترابنة العامة كاملة . وإذ وجد ماقر ألاّ مفر من إدانته قضى على نفسه[٢] . وقد أنقذ جابينيوس نفسه من المحاكمة بمغادرته إيطاليا وانضمامه الى بومبي ، وأما زميله قورنليوس فإنه قُدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وبعد أن ساد محاكمته كثير من الشغب انتهى الأمر بتبرئته بفضل نفوذ بومبي ودفاع شيشرون[٣] . وماكادت تريبونية جايوس مانيليوس تنتهي في التاسع من ديسمبر عام ٦٦ ق . م . حتّى قُدم للمحاكمة بتهمة ابتزاز الأموال ، وحدد شيشرون ، بوصف كونه برايتوراً ورئيس المحكمة ، آخر يوم في ذلك العام لنظر هذه القضية ، ولكنه بسبب الشغب الذي وقع يومئذ أجلها إلى العام التالي . وما أن فاز مانيليوس بالبراءة من هذه التهمة حتّى وجهت إليه تهمة الخيانة العظمى وتقررت إدانته [٤] في عام ٦٥ ق.م. .

---

(2) Val. Max., IX, 12, 7; Plut., Cic., IX; Cic., ad Att., I, 4, 2.

(٣) أنظر :

Cic., pro Cornel.

(4) Dio Cass., XXXVI, 44, 1-2; Asconius, 53, 57 St.; Plut., Cic., IX; Schol. Bob, Cic. pro Milo., 284.

ولم يقف الأمر عند أحداث الشغب التي كانت تقع في أثناء المحاكمات، بل حدث ما هو أخطر من ذلك نتيجة لما جرى في أثناء انتخابات صيف عام ٦٦ ق. م. ذلك أن بوبليوس أوترونيوس بايتوس (Autronius Paetus) وبوبليوس قورنليوس صلا (ابن أخ الدكتاتور) انتخبا لتولي قنصلية عام ٦٥ ق . م . ولكنهما أدينا بتهمة الرشوة وأُبطل انتخابهما[٥] وأجريت الانتخابات ثانية وفاز فيها اثنان من الأخيار وهما لوقيوس قوتّا ولوقيوس توركواتوس (Torquatus) . وقد أوغر صدر قاتيلينا أن القنصل المشرف على هذه الانتخابات رفض قبول ترشيحه بسبب تهمة ابتزاز الأموال الموجهة اليه[٦] .

وفي أعقاب ذلك تكونت مؤامرة[٧] لاغتيال القنصلين الجديدين في أول يناير عام ٦٥ ق . م . عند ذهابهما الى السناتو ، وإقامة أوترونيوس وصلا مكانهما ، ولكن المؤامرة فشلت بسبب ذيوع أمرها واتخاذ الحيطة لحماية القنصلين . ويدعو بعض الباحثين هذه المؤامرة « مؤامرة قاتيلينا الأولى » لاعتقادهم أن قاتيلينا كان زعيمها[٨] ، ولكن القرائن توحي بغير ذلك ومن ثم فإننا نميل الى الرأي القائل بأن دور قاتيلينا في هذه المؤامرة كان ثانوياً[٩] .

ويستوقف النظر أنه بعد كشف المؤامرة ونجاة القنصلين لم يأمر السناتو بإجراء التحقيق وتقديم المتهمين للمحاكمة ، بل إن السناتو أسند إلى أحد أعضاء المؤامرة — جنايوس قالبورنيوس بيسو — حكم ولاية إسبانيا الدانية . وعندما قُدم قاتيلينا للمحاكمة في عام ٦٥ ق . م . بتهمة ابتزاز الأموال، ذهب القنصل توركواتوس الى المحكمة مرتدياً زيه الرسمي ومن حوله حشمه الرسميون وشهد لصالح المتهم الذي شارك في تدبير اغتياله . وسنجد تفسيراً لهذا كله فيما سنعرضه تواً . بيد أنه تجدر الإشارة هنا الى رجل من طراز آخر هو ماركوس

---

(5) Sueton., Div. Jul., IX, 1 ; Sallust., B.C., XVIII, 2.
(6) Asconius, 89, 90; Sallust., B.C., XVIII, 2.
(7) Sallust., B.C., XVII-XVIII; Cf. Sueton., Div. Jul., IX; Asconius, 83.
(8) e.g. C.A.H., IX, pp. 475-8; E.G. Hardy, The Catilinarian Conspiracy, 1924, Ch. II.
(9) Heitland, III, pp. 72, 108.

بورقيوس قاتو وكان يشغل في ذلك العام وظيفة الكوايستورية ، وبهذا الوصف كان أحد أميني الخزانة العامة . وكان قاتو رجلاً نزيهاً سلك في مباشرة مهام منصبه سبيلاً جدياً يختلف عما درج عليه الكوايستورس من ترك شئون الخزانة العامة لصغار موظفيها . وعندما عكف قاتو على تفهم عمله وأدائه بدقة متناهية لم يكتف بالإصرار على الوفاء بالديون المتأخرة للدولة ، واستبعاد موظفي الخزانة العامة المقصرين في عملهم ، بل إنه عندما تبين من دراسة وثائق الخزانة العامة أنه بناء على أوامر صلا صُرفت مبالغ كثيرة مكافأة للوشاة وقتلة الذين جردهم الدكتاتور من حقوقهم المدنية قرر استعادة هذه المبالغ فتبعت ذلك سلسلة من المحاكمات في العام التالي[10] . وعلى هذا النحو ولكن دون قصد أتاح قاتو للشعبيين فرصة ثمينة للقصاص من أذناب صلا .

٢ — تدابير قراسوس وقيصر :

أشرنا الى دوافع قراسوس وقيصر للاستعداد لمجابهة بومبي . وقد كان قراسوس يتمتع بنفوذ كبير في السناتو بفضل ثروته العريضة التي أكسبته تأييد الكثيرين من أعضاء السناتو إما بشراء ذممهم وإما بالقروض التي كان على الدوام مستعداً لتقديمها . وفضلاً عن ذلك فإنه في عام ٦٥ ق . م . كان قراسوس قنسوراً وتبعاً لذلك كان في وسعه أن يستبعد من السناتو أولئك الأعضاء الذين قد يناهضوه . وتحقيقاً للهدف الذي كان يسعى اليه عمل على ان يكسب الى جانبه أكبر عدد ممكن من كافة الطبقات وبخاصة أولئك الذين كان يتوسم فيهم القدرة على مساعدته على تحقيق هدفه .

وكان يوليوس قيصر أقدر الذين اتخذ منهم قراسوس حلفاء لمناهضة بومبي . وقد وجد قيصر في هذه المحالفة فرصة ثمينة لبناء مستقبله السياسي . ذلك أنه انتخب أيديلس لعام ٦٥ ق . م . وبفضل ما استدانه من قراسوس والطريقة البارعة التي تعاون بها مع زميله في الأيديلية — ماركوس قالبورنيوس بيبولوس

(10) Plut., Cato Minor, XVI-XVIII; Sueton., Div. Jul., XI; Asconius, 92.

(Calpurnius Bibulus) – شهدت روما من الحفلات والمآدب ما لم ترَ له مثيلاً من قبل وعُزي الفضل في ذلك الى قيصر . وزاده محبة بين العامة أنه أعاد إقامة الأنصاب التذكارية لانتصارات ماريوس على يوجورتا والتيوتون والقيمبري وهي التي كان صلا قد أمر بإزالتها[11] . وبطبيعة الحال كان من شأن اجتراء قيصر على تحدي السناتو على هذا النحو بعد أن تحداه من قبل بحمل صور ماريوس في جنازة أرملته إثارة قلق النبلاء من هذا الشاب الذي كان يشق طريقه بخطى سريعة نحو زعامة العامة .

١ – استغلال أعضاء مؤامرة أول يناير :

ويصعب قبول ما يزعمه سويتونيوس[12] من أن مؤامرة أول يناير عام ٦٥ ق . م . كانت تهدف الى قتل عدد كبير من أعضاء السناتو وإقامة قراسوس دكتاتوراً وقيصر قائداً للفرسان . وحسبنا حجة لرفض هذا الزعم أن قراسوس وقيصر كانا أعقل من الإقدام على مثل هذه الخطوة الطائشة التي لم يكن من شأنها إلا إعطاء برمبي مبرراً مشروعاً لاستخدام كل قواته ضد القائمين بها وتبعاً لذلك القضاء على قراسوس وقيصر قضاء مبرماً . بيد أنه اذا كنا نستبعد اشتراك قراسوس وقيصر في هذه المؤامرة ، فإننا لا نستبعد أنهما كانا على علم بها . وتوحي القرائن بأن قراسوس وقيصر عملا على الإفادة من هذه المؤامرة بحماية المتآمرين من المحاكمة وتسخيرهم في الاستعداد لمجابهة عودة بومبي . ذلك أنه لا يمكن تفسير عدم إجراء تحقيق في المؤامرة وتعيين بيسو ، أحد المتآمرين ، حاكماً لولاية إسبانيا الدانية وتقدم القنصل توركواتوس لمؤازرة قاتيلينا في قضية ابتزاز الأموال إلا اذا كان قد حدث تفاهم بين قراسوس وقيصر من ناحية وجماعة من أعضاء السناتو من ناحية أخرى على أن الخطر الماثل في سلطات بومبي الواسعة وقواته الضخمة كان يستوجب إغفال شأن

(11) Cic., de Leg., II, 22, 26; Sueton., Div. Jul., X; Plut., Caes., V, 6; Dio Cass., XXXVII 8.
(12) Sueton., Div. Jul., IX; Cf. Scullard, 1970, n. 2 p. 422.

هذه المؤامرة الفاشلة والإفادة من مدبريها في الاستعداد لمواجهة عودة بومبي .

ويؤيد ذلك ما يحدثنا به صالوستيوس[١٣] من أنه بسبب شدة عداء بيسو لبومبي وبتأثير قراسوس عين السناتو الكوايستور بيسو حاكماً لولاية إسبانيا الدانية بمرتبة بروبرايتور (pro praetore) . ومن أن كثيرين من أعضاء السناتو كانوا يرون في هذا التعيين احتياطاً ضد بومبي . وإن دل هذا على شيء فهو يدل على أن قراسوس وقيصر أرادا أن تكون تحت إمرتهما قاعدة عسكرية خارجية يمكن الإفادة منها إذا اقتضى الأمر ، ولكنهما أساءا الاختيار ، فقد كان بيسو لا يفتقر الى الخلق القويم فحسب بل أيضاً الى الكفاية والخبرة ، ولم يلبث الإسبان أن قتلوه[١٤] .

ب – مشروع قانون بتحويل مصر الى ولاية رومانية :

وبإيعاز من قراسوس تقدم أحد ترابنة العامة بمشروع قانون يقضي بتحويل مصر الى ولاية رومانية وبإسناد هذه المهمة الى يوليوس قيصر[١٥] ، وذلك فيما يبدو لاتخاذ مصر قاعدة عسكرية ضد بومبي عند الحاجة أو على الأقل لاستخدامها في المساومة معه . ولم تعوز قراسوس الحجج التي تبرر الاستيلاء على مصر ، فقد كان شائعاً أن بطلميوس الحادي عشر أورث مصر لروما بمقتضى وصية لم ترتفع فوق مستوى الشبهات إلا أنه لم يثبت بطلانها ، وكان معروفاً أن السناتو لم يعترف بعد ببطلميوس الثاني عشر (أوليتس ، Auletes = الزمار) ملكاً على مصر برغم أنه ارتقى عرشها في عام ٨٠ ق. م. فقد أمعن السناتو في سياسة التسويف والتأجيل ليشبع أعضاؤه نهمهم من رشاوى الملك المتكالب على الفوز برضائهم والاعتراف به . ويفيد كبار الرأسماليين من القروض الكبيرة التي كان الملك مضطراً الى عقدها لشراء ذمم النبلاء الحربة . وكان من اليسير على قراسوس أن يبرز المزايا التي تعود

(13) Sallust, B.C., XIX, 1-2.
(14) Sallust., B.C., XIX, 3.
(15) Plut., Crass., XIII; Sueton, Div. Jul., XI.

على العامة والفرسان من وراء ضم مصر الى الإمبراطورية الرومانية ، فقد كانت مصر تهيء للفرسان مجالاً رحباً يجنون منه ثروات طائلة وتضمن للعامة الحصول على كل ما يحتاجون اليه من القمح . بيد أنه كان من شأن تحويل مصر الى ولاية رومانية حرمان النبلاء رشاوى الملك التعس وكذلك حرمان كبار الرأسماليين فرص إقراضه الأموال بل قد تضيع عليهم قروضهم القديمة وفوائدها الباهظة . وفضلاً عن ذلك فإننا لا نستبعد أن يكون تقرب قراسوس وقيصر الى الشعبيين قد أثار شكوك الأخيار والفرسان في نواياهما . وإذا كان الأخيار وبخاصة رجالاً من طراز قاتولوس ولوقولّوس وأفراد أسرة متلّوس يتوجسون خيفة من بومبي ويميلون الى كبح جماحه ، فلا بد من أنهم كانوا يخشون كذلك عواقب وضع دولة مثل مصر في قبضة قراسوس وقيصر . ولما كان الفرسان يرون في بومبي أكبر درع يقي صوالحهم من أعمال الشعبيين المتطرفة . بل إنه بانتصاراته في الشرق فتح أمامهم مجالات جديدة لاستغلالها ، فلا بد من أنهم كانوا لا يوافقون على ما من شأنه تهديد مركز بومبي . ويبدو أنه إزاء هذه الاعتبارات تكاتف النبلاء والفرسان في معارضة المشروع معارضة قوية مما أفضى الى عدم الموافقة عليه . وقد قام شيشرون بدور بارز في هذه المعارضة . ولا جدال في أنه كان شديد العطف على بطلميوس الثاني عشر ، ولكنه لعل أن العامل الأقوى أثراً في الموقف الذي اتخذه شيشرون إزاء هذا المشروع هو أنه كان صديقاً لبومبي ومن أقوى مؤيديه ، وذلك فضلاً عن أن شيشرون كان ينتمي الى طبقة الفرسان . ولسوء الحظ أنه لم تصل الينا من الخطبة التي ألقاها شيشرون[١٦] ضد هذا المشروع إلا شذرات يتعذر علينا أن نتبين منها الحجج التي استخدمت لهدمه .

ج ـ محاولة منح أهالي غاليا فيما وراء البو حقوق المواطنة الرومانية :

ولما كان أهالي غاليا فيما وراء البو (Gallia Transpadana) لم

(16) Cic., De Rege Alexandrino.

يمنحوا بعد إلا الحقوق اللاتينية – أي أنهم لم يحصلوا بعد على حقوق المواطنة الرومانية كاملة – وكانت هذه المنطقة تعتبر من أصلح مناطق إيطاليا لحشد الجنود الأشداء ، فإن قراسوس بوصف كونه قنسوراً اقترح على زميله تسجيل أهالي هذه المنطقة في عداد المواطنين الرومان الكاملي الأهلية ، أي منحهم حقوق المواطنة الرومانية كاملة بجرة قلم دون إصدار قانون بهذه المنحة ، وذلك ليكسب قراسوس ولاءهم ويفيد منهم عند الحاجة . وقد كان منح حقوق المواطنة لأهالي غاليا فيما وراء البو على هذا النحو إجراء باطلاً حتى اذا وافق عليه قاتولوس ، زميل قراسوس في القنسورية . ولا شك في أن قراسوس كان يدرك ذلك مثل ما كان يدرك أن قاتولوس سيعارض هذا الاقتراح . وبالفعل عارض قاتولوس وحال دون تنفيذه واستحكم الخلاف بين القنسورين الى حد أنهما اعتزلا منصبيهما دون إنجاز التعداد أو مراجعة قوائم أعضاء السناتو . غير أن قراسوس حقق هدفه الحقيقي بظهوره أمام أهالي غاليا فيما وراء البو في ثوب نصيرهم وهو أهم ما كان يعنيه في هذا الأمر . وكان كثيرون منهم قد وفدوا على روما ، إما لشد أزر اقتراح قراسوس بالدعاية له بأنفسهم وإما لأنهم سبقوا الأحداث وجاءوا لممارسة حقوق المواطنة ، ذلك أن بعض المصادر القديمة تحدثنا عن صدور قانون (Lex Papia) بطرد « غير المواطنين » من روما[١٧] . ويميل الباحثون الى أن الهدف الأساسي لهذا القانون كان إبعاد أهالي غاليا فيما وراء البو عن روما[١٨] . وصدور هذا القانون يوحي بأنه اذا كان اقتراح قراسوس قد أكسبه جانب أهالي غاليا فيما وراء البو فلا بد من أن يكون قد زعزع مكانته بين النبلاء والعامة . ولما كنا نعرف أن قيصر – في أثناء عودته من إسبانيا – قد عُني بالتودد الى أهالي غاليا فيما وراء البو بإظهار اهتمامه برغبتهم في الحصول على حقوق المواطنة الرومانية كاملة ، فإننا نرجح أنه كان يؤيد اقتراح قراسوس لكننا نستبعد ما يذهب اليه سويتونيوس من أن

---

(17) Dio Cass., XXXVII, 9; Cic., ad Att., IV, 18, 4.
(18) Heitland, III, pp. 73-4; C.A.H., IX, p. 481; Scullard, 1970, n. 2 p. 422.

قيصر كان يأمل في قيامهم بثورة[19] ، وذلك لأنه لم يكن من شأن نشوب مثل هذه الثورة أو وقوع انقلاب في روما إلا إعطاء بومبي الفرصة التي كان لابد من تفويتها عليه اذا أراد قيصر وقراسوس تحقيق هدفهما.

د ـ مساعدة قاتيلينا وأنطونيوس للفوز بقنصلية عام ٦٣ ق. م. :

وعندما فاز قاتيلينا بالبراءة رشح نفسه في صيف عام ٦٤ ق. م . لقنصلية العام التالي ، وراح هذا المرشح المفلس يوزع الرشاوى على نطاق كان لا يمكن أن يتيسر له إلا اذا كان وراءه ممول ثري . وإذا أخذنا في الاعتبار أن قراسوس أنقذ قاتيلينا ورفاقه من عواقب مؤامرتهم الفاشلة ، وأنه من الجائز أن يكون قراسوس قد ساعد قاتيلينا على الفوز بالبراءة من تهمة ابتزاز الأموال — وذلك على ضوء ما سنراه فيما بعد من الصلة بين قراسوس وقلوديوس وهو الذي كان يقوم بدور الاتهام في هذه القضية وأظهر تسامحاً شديداً في رد واختيار المحلفين الذين فصلوا فيها — فإنه لا يوجد ما يبرر التشكك في الاعتقاد السائد يومئذ بأن قراسوس كان ممول حملة قاتيلينا الانتخابية مثل ما كان ممول حملة مرشح آخر تافه مفلس فاسد الخلق وإن كان أيضاً ينتمي الى أسرة عريقة مشهورة ، وهو جايوس أنطونيوس ابن الخطيب الكبير وشقيق أنطونيوس الذي فشل في محاربة القراصنة وتوفي في كريت في عام ٧١ ق . م . ولما كانت أحكام القانون الخاص بتنظيم تولي الوظائف العامة لا تسمح لقراسوس وحليفه قيصر بتولي قنصلية عام ٦٣ ق . م . لعدم انقضاء عشر سنوات منذ تولى قراسوس قنصليته الأولى في عام ٧٠ ولعدم تولي قيصر بعد وظيفة البرايتورية ، وكانت لا توجد لدى هذين الحليفينالقوة العسكرية التي تمكنهما من اختراق حرمة القانون ، فإنه من المرجح أن هدف قراسوس وقيصر من وراء تأييد مرشحين تافهين مثل قاتيلينا وأنطونيوس كان السيطرة على مقاليد الحكم عن طريق فوز مرشحيهما بالقنصلية لعام ٦٣ ق. م . ، مما كان ييسر لهما تعبئة كل قوى الدولة ومواردها

---

(19) Sueton., Div. Jul., VIII.

ضد بومبي اذا اقتضى الأمر .

وكان شيشرون أصلح المرشحين جميعاً وأقدرهم : فقد أثبت كفايته ونزاهته في منصبي الكوايستورية والبرايتورية . وبفضل مواهبه الخطابية ودرايته القانونية اكتسب شهرة واسعة وأصدقاء كثيرين وبوجه خاص بين طبقة الفرسان التي كان ينتمي إليها . وكان أخطر مواطن الضعف في مركز شيشرون أنه كان « رجلاً جديداً » لم يتول أحد من عشيرته وظيفة القنصلية ، وهي الوظيفة التي كان النبلاء لا يزالون يحرصون على توليها حرصاً شديداً الى حد أنه برغم كل ما أصابهم من ضعف لم يفلح أحد من خارج طبقتهم في الفوز بها في خلال الثلاثين عاماً الماضية [٢٠] .

وإزاء السخاء في توزيع الرشاوى والتفاف الكثيرين من شباب النبلاء حول قاتيلينا وقد استهواهم بجرأته وحياته الفاجرة ، وإزاء تردد كبار النبلاء في تأييد شيشرون أو انقسامهم في الرأي بصدد ذلك ، بدا فوز قاتيلينا قاب قوسين أو أدنى لولا أنه ضرب بكل حيطة عرض الحائط ، فقد تمادى في تبجحه وأخذ يوزع الرشاوى علانية مما حدا بالسناتو الى اقتراح مشروع قانون جديد صارم ضد الرشوة في الانتخابات . وعندما قام أحد ترابنة العامة من أنصار قاتيلينا

---

(٢٠) تتجاوب أصداء قلق شيشرون على فوزه بالقنصلية لكونه « رجلا جديداً » في رسالة معاصرة عن أساليب الدعاية الانتخابية وتعرف هذه الرسالة أحياناً باسم **De Petitione Consulatus** وأحياناً باسم **Commentariolum Petitionis** ، راجع :

Tyrell and Purser, Correspondence of Cicero, I, Ep. 12.

وفي رأي بعض الباحثين أن كوينتوس شقيق شيشرون هو مؤلف هذه الرسالة ومثل ذلك :

Heitland, III, p. 79 n. 2; R. Till, Historia, 1962, pp. 415 ff.

ولكن البعض الآخر يشكون في ذلك مثل

M.I. Henderson, J.R.S., 1950, pp. 8 ff.; R.G.M. Nisbet, J.R.S., 1961, pp. 84 ff.

وسواء أكان كوينتوس مؤلف هذه الرسالة أم لم يكن فان هذا لا ينتقص من القيمة التاريخية لهذه الرسالة التي تدل محتوياتها على أن مؤلفها كان يحيط إحاطة تامة بالملابسات التي اكتنفت خوض شيشرون المعركة الانتخابية لوظيفة القنصلية لعام ٦٣ ق.م. ، راجع :

C.A.H., 18, p. 483 n. 12; cf. Scullard, 1970, n. 5 p. 422.

بمصادرة هذا المشروع . أُثيرت مناقشة الموضوع بحذافيره في السناتو قبيل الانتخابات ، وانتهز شيشرون هذه الفرصة وألقى خطبة هامة [٢١] (Oratio in Toga Candida) لم تصل الينا منها إلا شذرات ولكننا ندين الى تعليقات أسقونيوس[٢٢] (Asconius) على هـــذه الخطبة بكل معلوماتنا عن الملابسات التي أحاطت بانتخابات صيف عام ٦٤ ق . م .

وقد كان معروفاً أن قراسوس وقيصر يشدان أزر قاتيلينا، وإذ بدا الآن جلياً أن مصادرة مشروع قانون الرشوة كانت جزءاً من خطة مبيتة تستهدف تولي قاتيلينا القنصلية ، بدا كذلك أن قاتيلينا ومن وراءه قد لا يقفون عند حد لتحقيق هدفهم ، وأدرك النبلاء الذين كانوا يتوجسون خيفة من عودة بومبي أن قراسوس وقيصر كانا لا يقلان عنه خطراً على النظام الجمهوري بل ان خطرهما كان أشد لأنه كان أقرب كثيراً . وانتهز شيشرون هذه الصحوة المفاجئة ليهاجم قاتيلينا وأنطونيوس بكل ما أوتي من مهارة وبراعة ويبرز أن هذين الشخصين لم يكونا إلا جبهة أمامية تستّر وراءها غيرهما لتحقيق أهداف شخصية بعيدة المدى ، وربط بين ترشيح قاتيلينا وأنطونيوس وبين المؤامرة الفاشلة وإرسال بيسو الى إسبانيا ، وأوضح أن هذا الترشيح لم يكن إلا بديلاً للمؤامرة الفاشلة وأن ماضي قاتيلينا ينم بجلاء عن أن أهداف هذا المرشح لا يمكن أن تواثم صوالح النبلاء أو الفرسان ولم تفت شيشرون الإشارة الى أن الشعب كان لا يمكن أن يرضى عندئذ عن رجل كان بالأمس من صنائع صلا وارتكب في عهد الدكتاتور من الجرائم والموبقات ما أثار الاشمئزاز . وبفضل هذه الخطبة انضم أكثر النبلاء ومن ورائهم أتباعهم الى الفرسان في تأييد شيشرون ففاز بأغلب الأصوات وجاء بعده أنطونيوس ومن خلفهما قاتيلينا . وهكذا

---

(٢١) Oratio in Toga Candida = خطبة بالتوجا البيضاء ، وكان المرشح لوظيفة عامة يرتدي التوجا (الرداء القومي الروماني) البيضاء .

(22) Asconius, 86-7.

راجع :

Asconius' Commentary, ed. A.C. Clark, Oratio in Toga Candida

كانت قنصلية عام ٦٣ ق . م . من نصيب شيشرون وأنطونيوس . ويُعزى نجاح أنطونيوس من ناحية الى اسم أسرته ، وكان ذلك أمراً له قيمته في الانتخابات ، ومن ناحية أخرى الى تأييد قراسوس وقيصر .

ولم يكن من شأن نجاح رجل مثل أنطونيوس في الانتخابات مع زميل من طراز شيشرون أن يعزّي قراسوس وقيصر عن فشل قاتيلينا ، ولا سيما أن شيشرون بادر الى عقد صفقة مع أنطونيوس ليكفل عدم استخدامه أداة في قبضة المعارضة . ذلك أنه عندما أجريت القرعة لتحديد ولاية كل منهما كانت مقدونيا من نصيب شيشرون وبلاد الغال هذه الناحية من الألب (غاليا قيس ألبينا) من نصيب أنطونيوس . وإذ برم أنطونيوس بنصيبه وسال لعابه على نصيب شيشرون ، لأن ولاية مقدونيا كانت تشمل بلاد الإغريق ومناطق أخرى حيث كان المجال فسيحاً لابتّزاز الأموال والفوز بانتصارات سهلة على حين أنه لم توجد في الولاية الأخرى مثل هذه الفرص للثّراء والمجد، وعد شيشرون زميله بأن يبادله ولايته عند انتهاء عام حكمهما في روما اذا امتنع في خلال ذلك العام عن المشاكسة . وعلى هذا النحو اشترى شيشرون استسلام زميله له من قبل أن يتوليا مهام منصبيهما وحرم بذلك المعارضة سلاحاً كان من الممكن أن يكون بتاراً .

وقد سبقت انتخابات هذا العـــام وأعقبتها سلسلة من المحاكمات التي ترتبت على ما سبقت الإشارة اليه من إصرار قاتو على استرداد الأموال التي حصل عليها عملاء صلا ، وكذلك على استغلال قيصر هذه الفرصة ليكيل ضربة لأحد تشريعات صلا يصيب عن طريقها العملاء الذين أعانوا الدكتاتور على ارتكاب جرائمه وكذلك النبلاء الذين أفادوا من تشريعاته . وقد ساعد قيصر على ذلك أنه كان في ذلك العام رئيس محكمة القتل ودس السم . وإذا كان من الجائز أن قيصر كان يهدف من وراء ذلك الى كسب عطف الناقمين على أعمال صلا ، فإنه من الجائز أيضاً أنه كان مدفوعاً بذلك الجانب من خلقه السياسي الذي سنرى شواهد متعددة عليه تنم عن أنه كان ينأى بنفسه عن

الإسراف في الخصومة . وتحقيقاً لهدفه اعتبر تشريع صلا الذي كان يحمي من طائلة القانون الوشاة وقاتلي الذين جردهم صلا من حقوقهم المدنية تشريعاً باطلاً وسمح بإقامة الدعوى ضد مثل هؤلاء العملاء وأفلح في استصدار حكم بإدانة اثنين منهما على الأقل . بيد أن هذا الاتجاه بعث أحد أعضاء السناتو على توجيه ذات التهمة الى قاتيلينا ، ولكن قيصر بعد أن أرجأ نظر القضية حتى تم الانتخابات استصدر حكماً ببراءة قاتيلينا (٢٣) .

٣ ــ قنصلية شيشرون في عام ٦٣ ق. م. :

ا ــ مشروع قانون رولّوس :

وإذا كان شيشرون قد نجح في حرمان قراسوس وقيصر الإفادة من أنطونيوس ، فإنهما لم يُعدما وسيلة أخرى ألا وهي ترابنة العامة . وبما أن ترابنة العامة الجدد كانوا يتولون مهام أعمالهم في العاشر من ديسمبر والقنصلان الجديدان في أول يناير ، فإنه كانت لدى ترابنة العامة فرصة للإعلان رسمياً عن مشروعات قوانين جديدة والدعاية لها قبل أن يتولى القنصلان مهام منصبيهما . وهكذا عندما تسلم شيشرون مهام منصبه في أول يناير عام ٦٣ ق . م . وجد نفسه أمام عدد من مشروعات القوانين التي تقدم بها بعض ترابنة العامة الجدد بإيعاز من قراسوس وقيصر دون شك .

وكان أهم هذه المشروعات مشروع قانون للأراضي تقدم به تريبون العامة بوبليوس سرفيليوس رولّوس (Rullus) وحاول إقراره في شهر يناير عام ٦٣ ق . م . وكان المشروع في ظاهره مشروعاً سخياً يهدف الى توزيع إقطاعات من الأرض العامة الصالحة للزراعة في إيطاليا على عدد كبير من المواطنين الفقراء مع إعطاء المنتفعين حق توريث الإقطاعات لأبنائهم دون حق بيعها للغير . وإلى هنا لا غبار على مشروع إصلاح اقتصادي واجتماعي يخفف

(23) Dio Cass., XXXVII, 10; Plut., Cato Minor, XVII; Sueton., Div. Jul, XI ; Asconius, 91-92.

ضائقة الذين ساءت حالهم إما بسبب الأزمة الاقتصادية وإما بسبب أعمـــال مصادرة الممتلكات في عهد صلا . ويكون من شأن ذلك أيضاً تعمير الريف وازدهاره وتخلص روما من ازدحامها الخانق وما كان يترتب على ذلك من مختلف الأزمات وبخاصة توفير المؤنة اللازمة لإطعام أعداد كبيرة . بيد أنه لما كانت مساحة الأرض الزراعية الباقية من الأرض العامة أقل كثيراً من أن تفي بالحاجة ، فإنه لاستكمال هذا النقص اقترح المشروع شراء أراض خاصة ووسائل تمويل المشروع وتنفيذه . وهنا يبرز الهدف الحقيقي لهذا المشروع ، فقد اقترح أن تبيع الحكومة كل ما تبقى من أرض عامة في إيطاليا وكذلك كل الأراضي التي آلت إليها في الخارج منذ تولي صلا القنصلية في عام ٨٨ ق . م . واذا كان المشروع قد نص صراحة على كثير من هذه الممتلكات الخارجية مثل ممتلكات روما في ليونتيني (Leontini) بصقلية وفي قرطجنة القديمة والجديدة وفي قورنثة ومقدونيا وممتلكات أتالوس الثالث وميثريداتس السادس ، فإن بعض عبارات المشروع صيغت بغموض متعمد بحيث أنه كان يمكن تفسيرها بأنها تشمل ممتلكات البطالمة ، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار المحاولة الفاشلة التي بُذلت في عام ٦٥ ق . م . لضم مصر الى الإمبراطورية الرومانية . ولما كان من الجلي تعذر بيع كل هذه الممتلكات فإن المشروع خول للقائمين على تنفيذه فرض إيجار أو ضريبة على الأراضي التي لا تباع . واقترح المشروع كذلك أن تُضاف الى حصيلة البيوع والإيجار أو الضرائب كل العائد من فتوحات بومبي الأخيرة وأن يستخدم ذلك كله في شراء الأراضي اللازمة للتوزيع . ومن أجل تنفيذ هذا المشروع اقترح صاحبه اختيار لجنة من عشرة أشخاص تنتخبهم سبع عشرة قبيلة تُختار بالاقتراع من بين القبائل الخمس والثلاثين ، على أن يتمتع أعضاء اللجنة لمدة خمس سنوات بسلطة بروبرايتورية تخول لهم تنفيذ ما يقررونه بصدد النزاع على ملكية الأرض ، وطريقة التصرف في ممتلكات روما ، والأراضي التي تشترى للتوزيع . ولم يكتف صاحب المشروع أو على الأصح محرضوه باستخدام ثمار فتوحات بومبي في

تنفيذ المشروع بل حرص أو على الأصح حرصوا على استبعاد بومبي من عضوية لجنة العشرة ، ذلك أن أحد بنود المشروع اقتضى مثول المرشحين شخصياً أمام الناخبين .

لقد كان من شأن ذلك كله أن يفضح النوايا الخفية للمشروع وأن يثير تساؤلات كثيرة . ما سر العجلة الشديدة في محاولة إقرار المشروع في شهر يناير ؟ ولماذا يحتاج تنفيذ المشروع الى لجنة يتمتع أعضاؤها لمدة خمس سنوات بسلطات واسعة وتكون تحت تصرفهم موارد طائلة ؟ ولماذا يُقصر انتخاب أعضاء اللجنة على عدد معين من القبائل دون القبائل كلها ؟ ولماذا ينص المشروع صراحة على بعض ممتلكات روما الخارجية ويشفع ذلك بغموض قابل للتأويل وفقاً لما تراه اللجنة ؟ ولماذا يحرص المشروع بجلاء على استبعاد بومبي من عضوية اللجنة وفي الوقت نفسه يقضي باستخدام ثمار فتوحاته في تنفيذ المشروع ؟ وكيف يستطيع بومبي بعد عودته عما قريب ومعه حوالي ٤٠٠٠٠ جندي أن يجد أراضي لجنوده ؟ أليست هذه محاولة جديدة يقوم بها قراسوس وقيصر من وراء ستار لتقوية نفسيهما قبل عودة بومبي ليكونا في مركز يتيح لهما إملاء شروطهما عليه عند عودته ؟

وقد فطن شيشرون والنبلاء والفرسان للنوايا الخفية للمشروع فانبرى القنصل لمعارضته وشد النبلاء والفرسان أزر شيشرون الذي ألقى ضد المشروع أربع خطب وصلت الينا ثلاث[٢٤] منها ، ألقى إحداها في السناتو في اليوم الأول من شهر يناير والاثنتين الأخريين بعد ذلك في جمعية القبائل . وكانت أولى الخطبتين الأخيرتين أقوى الخطب جميعاً وأفعلها أثراً في إثارة العامة ضد المشروع الذي اضطر رولّوس الى سحبه قبل أخذ الرأي عليه . ذلك أن

(٢٤) تعرف هذه الخطب باسم De Lege Agraria راجع :
Heitland, III, pp. 86-7; E. G. Hardy, Some Problems of Roman History, pp. 68 ff.; A. Afzelius, Classica et Mediaevalia, 1940, pp. 214 ff. ; L. Agnes, Riv. di Filoligia, 1948, pp. 35 ff.; cf. G. V. Sumner, Trans Amer. Philol Assoc., 1966, pp. 569 ff.; Scullard, 1970, p. 111 and n. 6 pp. 422-3.

شيشرون أكد أن رولّوس لم يكن إلا أداة يحركها رجال يتظاهرون بالرغبة في تخفيف وطأة الضائقة الاقتصادية عن المواطنين المعوزين، ولكن هدفهم الحقيقي كان مناوأة بومبي والاستيلاء على مصر وخدمة صوالحهم الشخصية . ولكي يحقق شيشرون هدفه استغل الاعتقاد السائد بعدم أمانة الذين يضطلعون بالشئون العامة كما استغل عزوف العامة عن ترك حياة العاصمة بكل مغرياتها الى حياة الريف الشاقة الرتيبة . فقد عُني شيشرون بأن يبين أن السلطات المخولة لأعضاء لجنة العشرة والموارد الوفيرة التي ستصبح في أيديهم كانت كفيلة بإغرائهم على ملء جيوبهم . ولم يكن من شأن الضرب على هذا الوتر الحساس إلا إثارة نقمة المواطنين الفقراء لأنهم لن يشاركوا أعضاء اللجنة في الاغتراف من الأموال العامة . وشفع شيشرون ذلك بالتساؤل عما كان يضمن جودة الأرض التي ستشترى للتوزيع ، فالأمر كله في أيدي أعضاء اللجنة ، وإيطاليا زاخرة بالأراضي المجدبة وكذلك بالأراضي التي تتعذر زراعتها بسبب تفشي الملاريا في مناطقها .وأوضح شيشرون أنه بطبيعة الحال سيحاول أصحاب كل هذه الأراضي التخلص منها بعقد صفقات مجزية لهم ولأعضاء اللجنة على حساب المواطنين الذين يزعم صاحب المشروع أنه يريد إسداء خدمة لهم . ثم تساءل شيشرون إذا كان من أجل هذا النوع من الأراضي يترك المواطنون حياة روما السهلة اللينة بقمحها الزهيد السعر ومباهج حفلاتها والالتقاء في منتدياتها والمشاركة في اجتماعات جمعياتها الشعبية .

ب ــ انتخاب قيصر كاهناً أكبر وبرايتوراً :

واذا كانت الهزيمة التي مُني بها قراسوس وقيصر بسحب مشروع رولّوس قد وضعت حداً لتدابيرهما ضد بومبي ، فإنها لم تفل من عزيمة قيصر بل لعل أنها حفزته على دعم مركزه . ذلك أنه حدث أن توفي في شتاء عام ٦٤/ ٦٣ ق . م ، الكاهن الأكبر كوينتوس متلّوس بيوس . ولما كان الكاهن الأكبر يشغل منصبه لمدى الحياة ويتمتع باختصاصات واسعة تكسبه

نفوذاً كبيراً في الحياة العامة ، فإن قيصر عقد العزم على الفوز بمنصب الكاهن الأكبر . ولما كان أحد تشريعات صلا قد قضى بأن الجماعات الدينية هي التي تختار أعضاءها ، وكان من المستبعد أن تختار جماعة الكهنة رجلاً من طراز قيصر عضواً فيها وبذلك تؤهله للحصول على منصب كبير الكهنة بالانتخاب الشعبي وفقاً للعرف المتبع في اختيار الكاهن الأكبر ، فإن قيصر أوعز الى تريبون العامـــة تيتوس أتيوس لابينوس (Atius Labienus) فاستصدر قانوناً نسخ به تشريع صلا وقضى بالعودة في اختيار أعضاء الجماعات الدينية الى طريقة الانتخاب الشعبي وهي الطريقة التي كان قانون دوميتيوس (Lex Domitia) قد قررها في عام ١٠٤ ق. م. وسبق أن ذكرنا أنها حتى ذلك العام كانت مقصورة على اختيار الكاهن الأكبر من بين أعضاء جماعة الكهنة ، وهي تماثل الطريقة التي اقترحها مشروع رولّوس لانتخاب العشرة . ولا بد من أن يكون قد تبع صدور قانون لابينوس اختيار قيصر عضواً في جماعة الكهنة ليصبح بذلك مؤهلاً لترشيح نفسه لمنصب الكاهن الأكبر وهو الذي كان لا يُسند عادة إلا الى أحد السياسيين المخضرمين . وبرغم أنه كان ينافس قيصر على هذا المنصب قنصلان سابقان وهما بوبليوس سرفيليوس فاتيا « إساوريقوس » ، أحد قنصلي عام ٧٩ ق . م . ، وكوينتوس لوتاتيوس قاتولوس ، أحد قنصلي عام ٧٨ ق . م . وزعيم السناتو ، فإن قيصر انتصر على منافسيه انتصاراً كاسحاً . ويقال إنه كان للرشوة أثر كبير في ذلك . ولم يلبث قيصر أن نجح أيضاً بفضل الرشوة في الانتخابات لوظيفة البرايتورية(٢٥) لعام ٦٢ ق . م .

جـ ــ محاكمة رابيريوس :

وحدث في الشطر الأول من عام ٦٣ ق . م . أن قيصر رتب مسرحية سياسية لعل أن القصد منها كان الدعاية السياسية لإحراج السناتو وتحذير أعضائه

(25) Dio Cass., XXXVII, 37; Cic., de Leg. Agr., II, 16-19; Velleius, II, 43; Plut., Caes., VII; Sueton., Div. Jul., XIII-XIV.

ومن يلوذ بهم من إساءة استخدام « قرار السناتو النهائي » وذلك عن طريق اتهام أحد أعضاء السناتو بمقتل ساتورنينوس في عام ١٠٠ ق . م . في أعقاب القرار النهائي الذي أصدره السناتو ضد هذا الرجل المشاغب . وضماناً لإدانة المتهم دبر قيصر عدم عرض القضية على محكمة القتل ودس السم وإنما على محكمة الخيانة العظمى القديمة العهد (perduellio) التي كانت تتألف من قاضيين وترجع الى عهد الملكية وبطل عملها منذ وقت بعيد . وبيان ذلك أنه بإيعاز من قيصر اتهم عميله تريبون العامة لابينوس عضو السناتو جايوس رابيريوس (Rabirius) بقتل ساتورنينوس، واستصدر لابينوس من جمعية القبائل قانوناً قضى بإحياء تلك المحكمة القديمة وباختيار قاضييها بالاقتراع السري من قائمة يعدها برايتور المدينة كوينتوس متلوس قلر (Celer) . ولعل أنه لم يكن من باب الصدفة أن القاضيين اللذين اختيرا عندئذ كانا قيصر وأحد أقاربه . ولم يكتف القاضيان بإدانة رابيريوس بل إنهما جريا على سُنّة عتيقة كذلك قضيا بأن يربط رابيريوس الى صليب ويعلق من شجرة منكودة أي لا تثمر ولا تورق . واذا كان شيشرون قد سارع باستصدار قرار من السناتو باعتبار الحكم الصادر ضد رابيريوس باطلاً وباستخدام سلطته القنصلية في الحيلولة دون إعادة نظر هذه القضية ، فإن لابينوس لم يلبث أن وجه الى رابيريوس أمام جمعية القبائل عدداً من الاتهامات المختلفة لا يبعد أنها كانت مختلقة ولكنها أدت غرض لابينوس بأن اتخذ منها ذريعة ليجدد اتهام رابيريوس بارتكاب جريمة القتل . وبالاتفاق مع البرايتور قلر حولت هذه القضية الى جمعية المئينات ، فتولى شيشرون عندئذ الدفاع عن رابيريوس ، وببراعته المعهودة حوّل الى صدر قيصر الخنجر الذي أراد أن يطعن به السناتو . ذلك أن شيشرون صوّر التهمة على أنها ليست إلا تهجماً على قرار السناتو النهائي الذي أصدره في عام ١٠٠ ق . م . وعلى القنصل الذي قام بتنفيذ هذا القرار ، أي على جايوس ماريوس البطل الشعبي وزوج عمة قيصر . وإزاء هذا الحرج الذي وجد قيصر نفسه فيه ، استخرج من جعبته حيلة بدائية أخرى فض بها

اجتماع الجمعية قبل أخذ الأصوات . ذلك أن قيصر رتب مع البرايتور قلر إنزال العلم الأحمر الذي جرت العادة منذ إنشاء جمعية المئينات على رفعه فوق تل يانيقولوس في أثناء انعقاد هذه الجمعية ، وعلى اعتبار إنزاله إنذاراً بأن الإتروسقيين كانوا على وشك القيام بهجوم مفاجيء ودعوة للمواطنين الى فض اجتماعهم وحمل السلاح لصد العدو(٢٦) .

ومهما يكن هدف قيصر من وراء محاكمة رابيريوس فإنه يمكن اعتبار هذه المحاكمة مثل محاكمة عملاء صلا في العام السابق انعكاساً للجانب النبيل الرحيم في خلق قيصر برغم كل ماكان في هذا الخلق من عيوب ، وهو الجانب الذي كان ينأى به عن الإسراف في العداء الى حد التنكيل بالخصوم من مواطنيه على نحو ما سنرى عند الحديث عن حكمه فيما بعد . وقد يبدو هذا الرأي غريباً بعد الحكم المنكر الذي أصدره قيصر ضد رابيريوس ، ولكنه يجب أن يلاحظ أنه لم يكن مقصوداً بهذا الحكم إلا الإرهاب والتشهير بالنبلاء وكسب جانب عامة الشعب ، لأنه لم يكن هناك شك في أن رابيريوس كان سيستأنف الحكم أمام جمعية المئينات وهو ما كان قيصر يرمي إليه لكي يتسع المجال أمامه هناك ليصول ويجول في مهاجمة النبلاء .

د ـ محاولة إنصاف أبناء ضحايا صلا :

وتتمشى مع هذا الجانب الرحيم من خلق قيصر وكذلك مع سعيه لكسب الأنصار تلك المحاولة التي قام بها لإنصاف أبناء ضحايا صلا . فقد أوعز قيصر الى أحد ترابنة العامة بتقديم مشروع قانون يقضي برد الحقوق المدنية لأبناء ضحايا صلا . بيد أن جهوده في تأييد هذا المشروع لم تجد نفعاً أمام براعة شيشرون الخطابية(٢٧) وتحالف الفرسان والنبلاء حفاظاً على صوالحهم

(26) Dio Cass., XXXVII, 26-28; E G Hardy, Journ. Philol., XXXIV, 1915, pp. 12 ff.; Some Problems of Roman History, pp. 99 ff; C.A.H., IX, pp. 489-90.
(27) Quintil., XI, 1, 85.

وإبقاءً على الأوضاع الراهنة . ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن موقف شيشرون القنصل في هذه المناسبة يتعارض تماماً وموقفه في مناسبات سابقة حين نقد الأعمال الانتقامية التي ارتكبها صلا[٢٨] . وهذا مثل آخر من أمثلة تضحيته ببعض مبادئه سعياً وراء تحقيق هدف مهم وهو في هذه الحالة الرفاق بين الفرسان والنبلاء إنقاذاً للنظام الجمهوري من المخاطر التي كانت تتهدده .

هـ ـ الانتخابات لقنصلية عام ٦٢ ق. م. :

خرج شيشرون من كل هذه الأزمات منتصراً ليواجه أخطر أزمة تعرض لها في أثناء قنصليته . وقد كانت هذه الأزمة وليدة النتيجة التي أسفرت عنهـــا انتخابات شهر يوليه عام ٦٣ ق . م . لقنصلية العام التالي . وكان هناك أربعة مرشحين لقنصلية ذلك العام وهم : يونيوس سيلانوس (Silanus)، وكان شخصية محبوبة بفضل الحفلات الباهرة التي أقامها في أثناء توليه وظيفة الأيديلية ؛ وليقينيوس مورنا ، وكان منذ عهد قريب حاكم غاليا فيما وراء الألب وخدم مع أبيه تحت قيادة لوقولّوس في الشرق . وفضلاً عن ذلك فإنه تصادف أن لوقولّوس لم يقم مهرجان انتصاره إلا قبيل الانتخابات وأن بعض محاربي مورنا القدماء وفدوا على العاصمة لمشاهدة هذا المهرجان ، وعلى هذا النحو توافر في روما عدد كبير من مناصري مورنا . وكان المرشح الثالث خطيباً ممتازاً وفي مقدمة فقهاء القانون عندئذ وهو سرفيوس سولبيقيوس . وكان رابع المرشحين هو قاتيلينا . ولما كان نجاح قاتيلينا مع أي واحد من المرشحين الثلاثة الآخرين ، وكانوا جميعاً من أنصار الحكومة ، لا يخدم أغراض قراسوس وقيصر مثل ما كان يخدمها نجاحه مع أنطونيوس في العام السابق ، فإن قاتيلينا لم يلق في هذه الانتخابات أية مساعدة من ناصريه السابقَين ، وتبعاً لذلك لم يعد في وسعه الاعتماد على أموال قراسوس الوفيرة في الدعاية الانتخابية . وإزاء ذلك عقد قاتيلينا أمله في النجاح على الرشوة قدر طاقته وعلى

---

(28) C.A.H, IX, p. 491.

الوعد بإلغاء الديون (novae tabulae) عندما يتولى القنصلية . وقد استهوى هذا الوعد أفئدة فريق كبير من صغار المزارعين – مثل أولئك الذين نكبتهم الحروب الأهلية وكذلك مستعمري صلا الذين فشلوا في ممارسة الزراعة – وأفئدة عدد قليل من الفرسان أوقعهم في الدين تورطهم في المضاربات ، وأفئدة عدد غير قليل من النبلاء أفلست بعضهم حياة النزق العابثة وفرضت على بعضهم الآخر ديوناً ثقيلة حياة الترف ومظاهر الأبهة التي كانت مكانتهم الاجتماعية تستوجبها . بيد أنه من ناحية أخرى كان الوعد بإلغاء الديون لا يعني في كثير أو قليل فقراء روما فقد كانوا أفقر من أن تكون عليهم ديون ذات بال ، على حين أن هذا الوعد كان يثير نقمة الفرسان بوجه عام لأنهم كانوا يؤلفون غالبية الدائنين وكانت صوالحهم تتأثر كثيراً بإلغاء الديون . وفضلاً عن ذلك فإن جرأة قاتيلينا واستهتاره وإلقاءه الكلام على عواهنه كانت مرة أخرى سبب نكبته ، فقد أتاحت لشيشرون الفرصة ليحشد ضده الفرسان وأكثر النبلاء وكل الذين يبغضون أعمال العنف والشغب . ففي أثناء مناقشة جرت في السناتو بين قاتو وقاتيلينا صرح الأخير بعبارات كان من اليسير تأويلها بأنها تهديد بإشعال نار ثورة عارمة إذا فشل في الانتخابات . وبعد ذلك بقليل أبلغ شيشرون السناتو بأنه نما الى علمه أن قاتيلينا عقد في بيته اجتماعاً صرح فيه لأنصاره بأنه عندما ينجح في الانتخابات سيشنها حرباً عواناً على الأثرياء وبأنه لن يثنيه شيء عن وضع أمور المفلسين في نصابها . وعندما طلب شيشرون الى قاتيلينا أن يفسر للسناتو ما عُزي اليه لم يحاول نفي ذلك أو وصفه بالتحريف أو الاعتذار بأنه كان زلة لسان ، وإنما رد بصفاقة قائلاً إنه مصمم على أن يتولى زعامة الكثرة الفقيرة غير المنظمة ضد الأقلية الفاسدة وزعيمها ، أي شيشرون ، المترنح من خوار العزيمة . وقد أكد المخاوف من احتمال التجاء قاتيلينا الى أعمال العنف أنه قبيل الانتخابات وصلت الى روما من أترووريا جماعة من قدماء المحاربين المؤيدين لقاتيلينا .

وإزاء استخدام الرشوة على نطاق واسع استصدر شيشرون قانوناً

(Lex Tullia) صارماً ضد الرشوة في الانتخابات . فقد أضاف الى عقوبات القانون القائم عقوبة النفي لمدة عشر سنوات . وسواء أكان شيشرون يخشى فعلاً الاعتداء عليه يوم الانتخاب أم أنه أراد أن يضمن فشل قاتيلينا بالتظاهر بالخوف من حدوث ذلك ، فإنه عشية اليوم المحدد لإجراء الانتخابات طلب القنصل الى السناتو تخويله تكوين حرس خاص لحمايته وتأجيل موعد الانتخابات فترة من الوقت تسمح بانفراط عقد قدماء المحاربين الذين قدموا من أتروريا . وقد رفض السناتو تخويل شيشرون تكوين الحرس الخاص ولكنه وافق على تأجيل الانتخابات بضعة أيام كانت كافية ليكوّن الفرسان من صفوفهم حرساً صحب شيشرون الى ساحة الإله مارس حيث أجريت الانتخابات تحت إشراف شيشرون . ولما كان قد أصبح شائعاً معروفاً أمر الخصومة بين قاتيلينا وشيشرون ، وكذلك خوف شيشرون على حياته من اعتداء خصمه . فإن شيشرون لجأ في اللحظة الحاسمة ، أي في يوم الانتخابات. الى استخدام آخر سهم في جعبته ضد قاتيلينا ، فقد تعمد القنصل أن يكشف عن الزرد الذي كان يرتديه تحت ملابسه وذلك ليستدر العطف على شخصه ويثير النقمة على قاتيلينا[٢٩] .

و ــ مؤامرة قاتيلينا [٣٠] :

وعندما أسفرت الانتخابات عن فوز سيلانوس ومورنا ، أطاش الفشل البقية القليلة الباقية من صواب قاتيلينا ، فانتقل من التهديد والوعيد الى تدبير

(29) Cf., Cic., de Officiis, II, 24, 84; pro Murena, 25, 51; Plut., Cic., XIV; Cato Minor, XXII-XXIII; Sueton. Div. Jul., XIV-XVI; Velleius, II, 34-35; Dio Cass., XXXVII, 29; Sallust., B.C., XXIV-XXVI; Heitland, III,, pp. 90-92; C.A.H., pp. 491-494.

(30) Cic., In Cat., I-IV; Dio Cass., XXXVII, 30-42; Sallust., B.C., XX ff.; Plut., Cic., XIV-XXII; Caes., VII-VIII; E. G. Hardy, The Catilinarian Conspiracy, 1924 = J.R.S., 1917, pp. 153-228; Heitland, III, pp. 93 ff; C.A.H., IX, pp. 494 ff.; T.R. Holmes, Rom. Rep., I, pp. 455 ff; L. Hutchinson, The Conspiracy of Catiline, 1967; Scullard, 1970, pp. 112-4 and n. 8 p. 423.

مؤامرة في أواخر صيف عام ٦٣ ق . م . للاستيلاء على الحكم بالقوة المسلحة ، وقتل شيشرون وعدد من أعضاء السناتو ، وإرضاء أعوانه بإلغاء الديون وتوزيع أموال الأثرياء وممتلكاتهم عليهم .

وقد أثارت ريبة شيشرون ويقظته كثرة اجتماعات قاتيلينا بأعوانه سراً ، فأخذ القنصل يرقب نشاطهم عن كثب . ولكنهم تكتموا أمرهم إلى أن أدت العواطف الهوجاء التي تملكت أحدهم –كوينتوس قوريوس، Curius – الى إفضائه بنبأ تكوين المؤامرة الى حظيته فولفيا (Fulvia) التي هالها الأمر فبادرت الى إبلاغ شيشرون الذي بادر بدوره الى مكافأتها وطلب اليها متابعة الاتصال به . وعلى هذا النحو تمكن القنصل من الوقوف بانتظام على كل أعمال المتآمرين وخططهم وأسماء قادتهم . وقد تبين لشيشرون أن المتآمرين كانوا يتألفون من مزيج عجيب يحوي أشخاصاً من مختلف مشارب الحياة ، من العبد المعتق الى اثني عشر عضواً من أعضاء السناتو الى بعض الفرسان وفئة من ضباط صلا القدماء مثل لوقيوس مانليوس (Manlius) .

وقد علم شيشرون كذلك بأنه من أجل تنفيذ المؤامرة استأجر قاتيلينا جماعة من المجالدين ووضعهم في روما ، وعهد الى مانليوس بحشد قدماء محاربي صلا الذين مُنحوا إقطاعات في أتروريا . ويبدو أن تعليمات قاتيلينا كانت تقضي بأن تتسلل كتائب أتروريا متفرقة الى برابنستي وتتجمع هناك يوم ٢٧ من اكتوبر للزحف ليلاً على روما فتفاجأها في صباح اليوم التالي حين يكون سكان العاصمة لاهين في الاستمتاع بالألعاب التي كانت تقام في يوم ٢٨ من اكتوبر في كل عام احتفالاً بانتصارات صلا . وعلى هذا النحو يسهل على القوات القادمة من أتروريا عن طريق برابنستي وعلى المجالدين الموجودين في روما قتل الأشخاص المقصودين وتسليم زمام الحكم الى قاتيلينا .

وبرغم كل المعلومات التي تجمعت لدى شيشرون عن المؤامرة . فإنه كان لا يستطيع اتخاذ أي إجراء فعال دون الحصول من السناتو على قراره النهائي

(Senatus Consultum Ultimum) . وكان لا يستطيع الحصول على هذا القرار دون أن تكون لديه الأدلة التي يستطيع بها إقناع السناتو. ولم يلبث شيشرون أن حصل على دليل كان في حاجة ملحة اليه . ذلك أنه عند منتصف إحدى ليالي النصف الثاني من شهر اكتوبر وفد قراسوس على شيشرون ليوقظه من نومه ويبلغه بأن شخصاً مجهولاً سلم اليه مجموعة من الرسائل موجهة الى عدد من أعضاء السناتو وجميعها تحوي تحذيراً بمغادرة روما للنجاة من مذبحة وشيكة الوقوع . وإنه ليصعب الجزم اذا كان أحد المتآمرين هو الذي أعد هذه الرسائل لإنقاذ بعض أصدقائه ، أم أن قراسوس هو الذي أعد هذه الرسائل وقام بتسليمها الى شيشرون لينفي عن نفسه تهمة الاشتراك في المؤامرة ، أم أن شيشرون هو الذي دبر هذه الحيلة ليحقق هدفين: وأحدهما هو التأكد مما إذا كان قراسوس ضالعاً في هذه المؤامرة ، والهدف الآخر هو حث السناتو على تخويله السلطة التي كان يريدها . وعلى كل حال فإنه في صباح اليوم التالي دعا شيشرون السناتو الى الاجتماع وأبرز الرسائل وأعلن أن ما لديه من معلومات يشير الى أن المذبحة ستقع في يوم ٢٨ من اكتوبر . ومع ذلك فإنه إزاء ضيق النبلاء بأن مقاليد الأمور في قبضة « رجل جديد » (شيشرون) ، وعدم اطمئنانهم اليه، وخوفهم من أن يزج بهم في مأزق خدمة لصوالحه الشخصية ، اكتفى السناتو بأن طلب الى القنصل عمل تحريات أخرى لتقصي الحقائق . وبعد ذلك بيوم أو يومين —وكان يوم ٢١ من اكتوبر — أفضى شيشرون إلى السناتو بأن مانليوس يقوم بتحركات في أتروريا وبأنه سيزحف على روما في يوم ٢٧ من اكتوبر . وعندما أيد بيان شيشرون ما أفضى به أحد أعضاء السناتو مما وصل اليه من معلومات عن وجود استعدادات عسكرية في أتروريا لم يسع السناتو أخيراً إلا إصدار « قراره النهائي » . وعندئذ أبعد شيشرون المجالدين الى قابوا ، وأنفذ البرايتو قلر لحشد قوات في بيقنوم ، ولم يجد صعوبة في تكوين حرس لحماية روما وبراينستي عندما أهاب بكل من يخشى على نفسه وعلى ممتلكاته أن يشارك في قوات الدفاع عن هاتين المدينتين . ولما كان

كوينتوس مارقيوس ركس (Marcius Rex) معسكراً على مقربة من روما ومعه قوة صغيرة في انتظار موعد احتفاله بانتصاره جزاء نصيبه في قهـــر ميثريداتس ، فإن شيشرون عهد إليه بمراقبة مانليوس ومنع وصول قواته الى رومـــا .

واذا كان شيشرون قد استطاع بفضل ما اتخذه من تدابير أن يخيب على قاتيلينا خطته ، فإنه إزاء إدراك القنصل مشاعر النبلاء نحوه مع افتقاره الى الأدلة التي تثبت علاقة قاتيلينا بالمؤامرة وتدينه ، لم يجترىء القنصل بعد على إلقاء القبض على رئيس المؤامرة ، عضو السناتو النبيل . وعندما مر يوم ٢٨ من اكتوبر دون حدوث شيء في روما ، أخذ الناس يتهامسون بأن حالة شيشرون العصبية أثارت عاصفة هوجاء لم يكن لها مبرر .

وفي مساء السادس من شهر نوفمبر عقد قاتيلينا اجتماعاً في منزل أحد رفاقه (لايقا ، Laeca) حيث وضعت خطة جديدة لإشعال لهيب ثورة جامحة . وفحوى الخطة الجديدة هو قتل شيشرون في صباح اليوم التالي ، وإضرام النار في الوقت المناسب في أنحاء متفرقة في روما دفعة واحدة ، وإطلاق العبيد للسلب والنهب ، ومبادرة بعض المتآمرين الى إثارة مجالدي مدارس تدريبهم في قابوا والرعاة المسلحين المنتشرين في وهاد أبوليا وإقليم البروتيي والمزارعين البرمين بحالهم في غاليا هذه الناحية من الألب وفي المنطقة الجبلية الواقعة بين أواسط الأبنين والبحر الأدرياتي ، وبعد ذلك يتولى قاتيلينا قيادة القوات الموجودة في شمال أترووريا للزحف على روما .

وما أن انفض هذا الاجتماع حتى أنهت فولفيا الى شيشرون كل ما دار فيه . وكانت الخطة المبيتة لقتل القنصل هي أن يأتي اليه في الصباح اثنان من الفرسان (أوترونيوس وقورنليوس) بحجة الرغبة في تقديم تحياتهما إليه ويبقيان باب البيت مفتوحاً لتدلف الى الداخل عصابة من الأشرار وتجهز على القنصل . ولما كان الوقت أضيق من أن يتخذ شيشرون عدته لإلقاء القبض على معتزمي

قتله ، فإنه خيب عليهم خطتهم ببساطة متناهية . ذلك أنه عندما قدم إلى منزله أوترونيوس وليقينيوس قيل لهما إن القنصل غير موجود .

وبرغم أن المعلومات التي وصلت إلى شيشرون من فولفيا كانت بالغة الخطورة ، فإنها لم تمد شيشرون بالدليل الذي يستطيع الارتكان عليه لإلقاء القبض على قاتيلينا . بيد أن شيشرون دعا السناتو الى الاجتماع في يوم ٨ من نوفمبر وألقى فيه خطبته المعروفة باسم « الخطبة الأولى ضد قاتيلينا » . وبلغت بقاتيلينا الجرأة الى حد أنه حضر هذا الاجتماع . وبعد أن ألمح شيشرون في هذه الخطبة الى أنه على علم بكل دقائق المؤامرة ، هاجم بعنف خلق قاتيلينا المعيب وسلوكه الإجرامي ثم تعمد أن ينهي خطبته بخاتمة لينة طلب فيها بل توسل الى قاتيلينا أن يريحه ويريح روما بالرحيل الى جيشه الثائر في أترووريا . ولعل أن يكون شيشرون قد قصد أن يؤدي هذا التسامح الذي اتسمت به خاتمة خطبته إلى أن يعترض أعضاء السناتو على ذلك ويطلبوا اليه إلقاء القبض على قاتيلينا . واذا كان السناتو لم يحقق ما كان شيشرون ينشده ، فإن قاتيلينا غادر روما في اليوم التالي الى أترووريا لينظم قواته الرئيسية الموجودة هناك بقيادة مانليوس . وعندما علم السناتو بانضمام قاتيلينا الى مانليوس أصدر قراراً باعتبارهما عدوين للدولة . وقبل ذلك ألقى شيشرون خطبته الثانية ضد قاتيلينا في اجتماع عام من المواطنين لأنه رأى من الضروري تهدئة خواطر مواطنيه وإفهام المجرمين الموجودين في روما أنه سينزل عقاباً صارماً بكل من يجترىء على القيام بأعمال الشغب والنهب ، ولكنه هو نفسه لم يكن هادئاً ولا مطمئناً ، لأنه إذا كان قاتيلينا وبعض رفاقه قد غادروا روما فإن بقية رؤساء العصابة كانوا لا يزالون هناك . وفضلاً عن ذلك فإنه إزاء دقة الموقف كان مضطراً الى التزام جانب الحيطة في كل ما يفعله .

وبينما تأجل مؤقتاً الصراع الفعلي بين شيشرون وقاتيليا حل موعد محاكمة القنصل المنتخب مورنا بتهمة الرشوة في الانتخابات . وتولى الدفاع عنه شيشرون وهورتنسيوس وقراسوس . ولم يفز هؤلاء العمالقة بتبرئة موكلهم

لأن التهمة كانت مختلقة ، أو لأن الدفاع هدم أركان الدعوى ، وإنما لأن المحلفين كانوا أصحاب أملاك ورؤوس أموال ويهمهم استتباب الأمن والنظام وهدوء الأحوال ، ولأن الوقت لم يكن وقت الدفاع عن حرية الانتخابات وارتفاعها فوق مستوى الشبهات دون اعتبار لما قد يترتب على إلغاء انتخاب مورنا من النتائج الخطيرة . ولا سيما أن شيشرون — وكان يتوقع أن الصراع مع قاتيلينا لن ينتهي قبل بداية العام الجديد ورتب مع مورنا متابعة حماية الدولة من ذلك الرجل الشرير — أبرز للمحكمة خطر وجود قنصل واحد على رأس الحكومة في بداية العام الجديد وسط الأزمة الخطيرة التي تمر بها البلاد .

وحين كان شيشرون مشغولاً بقضية مورنا كان رجاله جادين في إحباط أكثر تدابير قاتيلينا . فقد تمكنوا من السيطرة على الموقف في كل مكان فيما عدا أتروريا حيث زيدت قوات الحكومة وأسندت القيادة الى القنصل الآخر أنطونيوس . ولكن هذا القنصل لم يحاول أو فشل في وقف نشاط رسل قاتيلينا في حشد جنود صلا القدماء فزاد عدد رجال القوة التي تجمعت في شمال أتروريا من ٢٫٠٠٠ الى ١٠٫٠٠٠ تقريباً ، غير أنها كانت محاطة من كل جانب بقوات الحكومة مما شل حركتها .

وإذ مل المتآمرون الموجودون في روما من طول انتظار وصول قاتيلينا قرروا إضرام النيران في روما وإطلاق العبيد عليها للنهب والسلب وقتل شيشرون وأبرز أعضاء السناتو وفتح أبواب العاصمة لقاتيلينا وقواته من أجل كيل الضربة القاصمة . وقد اختار المتآمرون لتنفيذ تدابيرهم السابع عشر من ديسمبر لأنه كان بداية الاحتفالات بعيد ساتورناليا (Saturnalia = عيد الإله ساتورنوس) ، وكان العبيد يُمنحون حريتهم في خلال الاحتفال بهذا العيد ، وبذلك كانت تتاح للمتآمرين كل الفرص لتنفيذ مؤامرتهم ، كما أنه كان من شأن الاضطراب الذي يترتب على ما يقع في روما من أحداث خطيرة أن يتيح لقاتيلينا فرصة مناسبة لبلوغ العاصمة دون مشقة ودخولها في يسر وسهولة.

بيد أن حماقة المتآمرين أدت الى حتفهم . ذلك أن الألوبرجس — من

سكان غاليا فيما وراء الألب – وقد ضاقوا ذرعاً بالمرابين الرومان أرسلوا سفراءهم الى روما يلتمسون من السناتو تفريج كربهم . وحين فشلت مساعي السفراء وكانوا على وشك العودة الى بلادهم في أواخر شهر نوفمبر ، اتصل بهم المتآمرون ووعدوهم بحل مشكلتهم اذا هم أمدوا جيش قاتيلينا بفرقة من فرسانهم . وبعد تردد رأي السفراء أن مصلحة وطنهم كانت في إسداء خدمة للحكومة ، وبناء على ذلك أفضوا الى شيشرون بما حدث ، فطلب إليهم القنصل التظاهر بالموافقة على تقديم المساعدة المطلوبة وإنما بشرط أن يعطيهم المتآمرون بوعدهم صكاً كتابياً يحمل أختام زعمائهم ويقره قاتيلينا بوضع ختمه أيضاً على هذا الصك . ولم يتردد خمسة من المتآمرين (لنتولوس . وقثجوس . وستاتيليوس ، وبوبليوس جابينيوس ، وقاسيوس) في الاستجابة الى طلب السفراء ، وأوفدوا معهم شخصاً يدعى فولتورقيوس (Volturcius) ليصطحبهم الى معسكر قاتيلينا ويحمل اليه رسالة من لنتولوس . وما كاد السفراء يبرحون روما في مساء الثاني من ديسمبر حتى أُلقي القبض عليهم هم وفولتورقيوس . وبدون إبطاء ألقى شيشرون القبض على أربعة ممن وقعوا الصك – لأن خامسهم وهو قاسيوس كان قد غادر روما – وكذلك على شخص يدعى كوينتوس قايباريوس (Caeparius) .

وفي يوم ٣ من ديسمبر دعا شيشرون السناتو الى الاجتماع وعرض عليه الأمر ، واعترف فولتورقيوس اعترافاً كاملاً عندما وُعد بالعفو عنه ، ثم أدلى السفراء بشهاداتهم ، فلم يجد المتآمرون مناصاً من التعرف على أختامهم وبذلك لم يعد هناك شك في جرمهم . فقرر السناتو حبسهم . بيد أنه لما كان أربعة من المتهمين أعضاء في السناتو ، فإنه مراعاة لمركزهم قرر السناتو تحديد إقامتهم في بيوت بعض الشخصيات البارزة التي كان من بينها قراسوس وقيصر .

ولكي يهدىء شيشرون روع العامة ويكتسب تأييدهم لتصرفات الحكومة . ألقى فيهم الثالثة من خطبه المشهورة ضد قاتيلينا . وقد أفهم شيشرون سامعيه أنه بعمله أنقذ فقراء روما من حرق بيوتهم وتركهم دون مأوى وهو ما كان

يستهدفه أولئك المتآمرون الذين كانوا يريدون أيضاً أن يأتوا الى إيطاليا بالغال أعدائهم القدماء . وبعد أن قال شيشرون لمواطنيه إنهم يدينون بسلامتهم إلى العناية الإلهية التي وفقته فيما فعل ، ألمع الى أنه هو ، حاميهم البشري ، قد يحتاج إليهم ليدفع عن نفسه حملات خصومه الذين أثار غضبهم منه ونقمتهم عليه بسبب قيامه بواجبه الوطني . وقد قابل العامة خطاب القنصل بالهتاف والتهليل واعتبروه ، على الأقل مؤقتاً ، بطلاً وطنياً .

وعندما نما الى علم شيشرون خبر محاولة لإنقاذ المتهمين دعا السناتو الى الاجتماع في الخامس من ديسمبر ليبدي رأيه في مصيرهم . وقد كان شيشرون يدرك تماماً أن الإجراء السليم في الظروف العادية كان ترك مصير المتهمين لتقرره إحدى المحاكم الدائمة وأن السناتو لم يكن محكمة قضائية . بيد أنه إذ كان القنصل يدرك أن الظروف الحالية لم تكن عادية بدليل أن السناتو أصدر له « قراره النهائي » لحماية الدولة ، ويعرف أنه في الظروف العصيبة التي مرت بها روما مؤخراً كان قرار السناتو النهائي يعتبر مبرراً كافياً لإعدام الثائرين على الحكومة ، ويوقن أن المحتجزين لم يكونوا إلا فئة قليلة من المتآمرين الذين كان باقيهم ورئيسهم لا يزالون طلقاء أحراراً وتحت إمرتهم قوة كبيرة مسلحة فضلاً عن أنه كان للمتآمرين أعوان كثيرون في روما وخارجها ، ويعتقد أنه كان من شأن إعدام ذلك العدد القليل من المحتجزين تثبيط همة باقي المتآمرين وأعوانهم ، كان يدرك كذلك أن هناك اعتراضات قوية على مثل هذا المسلك وذلك على أساس أن المتهمين الحاليين كانوا محتجزين ومن ثم يمكن القول بأنهم لم يعودوا يشكلون خطراً على الأمن العام يبرر إعدامهم دون محاكمة[٣١] . وإزاء ما توقعه شيشرون من عواقب إقدامه تلقائياً على إعدام المحتجزين بادر الى استطلاع رأي السناتو ليستند على الأقل على تأييده الأدبي في تنفيذ عقوبة كان هو وحده الذي يتحمل مسئولية تنفيذها . وبالرغم من أن شيشرون حرص

---

(٣١) عن مناقشة بعض المشاكل القانونية في هذا الصدد ، راجع :
H Last, J.R.S., 1943, pp 93 ff.

على أن يُدون بالاختزال محضر جلسة السناتو التي جرت فيها مناقشة هذا الموضوع ، فإن المصادر القديمة لا تتفق على تفاصيل هذه المناقشة . غير أن الصورة العامة لهذه المناقشة واضحة ويتبين منها أن القنصل المنتخب سيلانوس اقترح إعدام المحتجزين فوراً وحذا حذوه في ذلك خمسة عشر عضواً من أعضاء السناتو الذين سبق لهم تولي القنصلية . غير أن قيصر اعترض على اللجوء الى هذا الإجراء المتطرف المجافي للدستور لأنه يحرم المتهمين حقهم في المحاكمة ولأن السناتو لا يملك حق إصدار حكم بالإعدام على مواطنين رومان، واقترح بدلاً من ذلك مصادرة أملاك المحتجزين وسجن كل منهم لمدى الحياة في أي بلد يختاره شيشرون . ولا شك في أن قيصر كان يدرك أنه لم يكن من حق السناتو إصدار مثل هذا الحكم ، ولكنه فيما يبدو أراد إنقاذ المتهمين وفي الوقت نفسه الزج بالسناتو في مأزق يمكن محاسبته عليه فيما بعد . وعلى كل حال فإنه كان لخطبة قيصر وقع كبير في نفوس أعضاء السناتو ، فقد أخذ كثيرون منهم يخشون عاقبة التطرف ويميلون الى اتباع طريق وسط . وبعد أن تكلم بعضهم في هذا المعنى ، وقف التريبون المنتخب ماركوس بورقيوس قاتو وهاجم قيصر واقتراحه هجوماً عنيفاً وأهاب بالسناتو إصدار قرار حازم يتفق وقراره النهائي ، فقرر السناتو إعدام المتهمين . وفي اليوم نفسه نفذ شيشرون فيهم ذلك القرار وبلغ الذروة التي كان يصبو اليها على حين أن قيصر وجد نفسه مؤقتاً في مركز لا يحسد عليه .

ومن المفارقات التي تستوقف النظر أنه في أثناء هذه المناقشة الحامية الوطيس اتخذ كل من قيصر وقاتو موقفاً يخالف موقفه المألوف ، فقد نادى قيصر بضرورة مراعاة القواعد الدستورية مراعاة دقيقة ، على حين أن قاتو لم يأبه إلا باتخاذ الإجراء الذي تمليه خطورة الظروف الراهنة دون نظر الى أي اعتبار آخر . وقد كان من جراء تهجم قاتو على قيصر يومئذ أنه أشعل بينهما لهيب خصومة عنيفة ستتبين أثرها بعد قليل . ومن الجلي أن هناك فارقاً كبيراً واضحاً بين إقدام أوبيميوس على إعدام ذلك العدد الكبير من المواطنين الذين

أُلقي القبض عليهم بعد أن قصم ظهر الفتنة المسلحة باقتحام تل أفنتينوس وقتل زعماء تلك الفتنة وعدد كبير من أنصارهم وبين إقدام شيشرون على إعدام هذا النفر القليل من المتهمين الذين كان لهم شركاء تحت إمرتهم قوة كبيرة مسلحة ولهم أعوان كثيرون . وقد رأينا كيف أن جمعية القبائل برأت أوبيميوس من تهمة إعدام مواطنين دون محاكمة بالرغم من أنه لم يكن هناك مبرر لاتخاذ أوبيميوس هذا الإجراء ، وسنرى بعد قليل كيف أنه في عام ٥٨ ق . م . دفع شيشرون ثمناً غالياً لإنقاذ وطنه من خطر محقق في عام ٦٣ ق . م .

وأما الآن فإنه جزاء نجاح شيشرون في إحباط المؤامرة وبناء على اقتراح كوينتوس قاتولوس أغدق السناتو على شيشرون لقب « ابو الوطن »[٣٢] (Pater Patriae) . بيد أنه عندما تولى ترابنة العامة الجدد مهام مناصبهم في العاشر من ديسمبر عام ٦٣ ق. م . ألقى أحدهم — كوينتوس قايقيليوس متلّوس نبوس (Nepos) — خطبة ندد فيها بمسلك شيشرون غير الدستوري وأعقب ذلك بتقديم مشروع قانون يقضي باستدعاء بومبي للقضاء على قاتيلينا (وكان لا يزال مع قواته في شمال أتروريا) وإنقاذ الدستور من استبداد شيشرون (وكانت لا تزال أمامه بضعة أيام قبل انقضاء عام حكمه) . ولما كان نبوس أحد أعوان بومبي ، فإن الهدف الحقيقي من مشروع القانون الذي تقدم به كان إتاحة الفرصة أمام بومبي ليتوج انتصاراته الخارجية بإنقاذ المجتمع الروماني من خطر داخلي على غرار ما حدث في عام ٧١ ق . م . وكسباً لجانب بومبي انتهز قيصر هذه الفرصة فانبرى لتأييد مشروع قانون نبوس . غير أن قاتو — وكان أحد ترابنة العامة الجدد — صادر مشروع قانون زميله ، وعندما تجاهل نبوس « ڤيتو » قاتو والتجأ الى إثارة الشغب ، أعلن السناتو عطلة عامة (iustitium) . وعندما تجاهل نبوس ذلك أيضاً ، لم يرَ السناتو مفراً من أن يصدر قراره النهائي التقليدي لحماية الدولة من أن يصيبها أي مكروه . وعندما وصلت الأزمة الى هذا الحد رأى نبوس أن يتفادى مصير جايوس

(32) Cic., in Pisonem, 3, 6.

جراكوس وساتورنينوس بمبارحة روما والانضمام الى بومبي في الشرق . وفي خلال هذه الأزمة انتهت مدة قنصلية شيشرون ومنعه نبوس وأعوانه من إلقاء خطبة في الفوروم ولم يسمحوا له إلا بحلف اليمين المعتادة في مثل هذه المناسبة (٣٣) .

ولكي يسترضي قاتو حثالة العاصمة ويهدىء خواطرهم التي أثارتهـا تصرفات نبوس أقنع السناتو بزيادة الاعتمادات المالية المخصصة لبيع القمح للفقراء بسعر زهيد . واستنتاجاً من مقدار هذه الاعتمادات يبدو أنه منذ عام ٦٢ ق . م . أصبح حوالي ٣٢٠,٠٠٠ مواطن روماني يحصلون على معدل شهري لكل منهم مقداره خمسة مكاييل (modii) بسعر أقل من سعر السوق(٣٤) .

وفي هذه الأثناء أفضى إعدام المتهمين والقبض على كثيرين من أعوان قاتيلينا الى انفضاض الكثيرين من حوله وضياع أمله في الاستيلاء على روما ، فرأى أنه لم يعد أمامه إلا أن يحاول شق طريقه عبر الأبنين الى غاليا فيما وراء الألب . وإذ سدت عليه قوات الحكومة مسالك الأبنين، اضطر إلى خوض معركة يائسة قتل فيها عند بيستوريا (Pistoria) بالقرب من فلورنسا في أوائل شهر يناير عام ٦٢ ق . م.(٣٥)

٤ ــ الوفاق بين النبلاء والفرسان (Concordia Ordinum)

أدرك شيشرون أن ما انطوت عليه مؤامرة قاتيلينا من أخطار تهددت صوالح النبلاء والفرسان أدت الى أن يدفن الفريقان أحقادهما المتبادلة ويتعاونا سوياً مما ساعد على اجتياز هذه الأزمة بسلام . وتبعاً لذلك رأى شيشرون أنه اذا أمكن جعل هذا الوفاق المؤقت بين النبلاء والفرسان وفاقاً دائماً، فإنه يصبح في الإمكان إقامة حكومة قوية تستطيع الحفاظ على النظام الجمهوري ونشر

(33) Dio Cass., XXXVII, 43; Plut., Cic., XXIII; Cato Minor, XXVI-XXIX; cf Sueton., Div. Jul., XVI.

(34) Plut., Cato Minor, XXVI, 1; Caes., VIII, 4 ; C.A.H., IX, p. 524.

(35) Sallust., B C., LVI-LXI; Dio Cass., XXXVII, 39-41.

الهدوء وتوفير أسباب الحياة الكريمة[٣٦] (otium cum dignitate) ، وهو ما كان يصبو إليه كل مواطن مخلص للنظام الجمهوري . وضماناً لتحقيق الهدف المنشود كان شيشرون يرى أنه لا بد من كسب جانب قائد كبير يستطيع استخدام نفوذه ومحاربيه القدماء لدعم مركز هذه الحكومة إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد كان شيشرون أصدق من غيره تقديراً لنوايا بومبي عندما تصور أن هذا القائد المظفر لن يستغل انتصاراته ويستخدم قواته للإطاحة بالنظام الجمهوري ، ومن ثم فإن شيشرون حاول كسب بومبي ليشد أزر « الوفاق » ويساعد على إقامة الحكومة المرجوة . بيد أن شيشرون جرح غرور بومبي بارتكابه خطأين من وجهة نظر بومبي . وأحد هذين الخطأين هو أن شيشرون انفرد بالقضاء على مؤامرة قاتيلينا دون الاستعانة بخدمات بومبي . والخطأ الآخر هو أن شيشرون لم يفتأ الإشادة بإنقاذه الدولة من مخاطر قاتيلينا مما جعل بومبي يحس بأن شيشرون يريد أن يصور نفسه نداً له . ولم يلبث النبلاء أن قضوا على كل أمل في انضمام بومبي الى « الوفاق » بموقفهم المتعنت إزاء بومبي عقب عودته الى إيطاليا على نحو ما سنرى بعد قليل .

ومن ناحية أخرى ساعد على انحلال « الوفاق » ذاته أمران ، كان أحدهما نتيجة لفضيحة وقعت في عام ٦٢ ق . م . ذلك أنه في شهر ديسمبر من ذلك العام أقيم في المسكن الرسمي (domus publica) للكاهن الأكبر — يوليوس قيصر — حفل الإلهة الطيبة (Bona Dea) . ووفقاً للتقاليد كان حضور هذا الحفل مقصوراً على النساء دون الرجال ، ولكن الشاب النبيل العابث بوبليوس قلوديوس (Clodius) — وهو الذي رأيناه يثير الجنود على لوقولّوس في آسيا الصغرى — تسلل الى هذا الحفل مستخفياً في زي امرأة ، فقد كان يعشق بومبيا زوجة قيصر ، وكانت والدة قيصر تقف عقبة كأداء في سبيل العاشقين . وعندما كشفت خادمة أمر قلوديوس أُوقف الحفل وشاع خبر

(36) Cf. C. Wirzubski, Libertas as a Political Idea, 1950, pp. 64 ff.; and in J.R.S., 1954, pp. 1 ff.; J.P.V., Balsdon, Class. Quart., 1960, pp. 46 ff.

الفضيحة في روما . ولما كانت الطقوس التي اعتدى على قدسيتها عملاً عاماً (pro populo) ، وكانت الفضيحة تمس خصمين للودين النبلاء وهما قيصر وقلوديوس ، فإن السناتو عُني بالأمر عناية كبيرة للتشهير بأولهما ومعاقبة ثانيهما . فاستصدر في عام ٦١ ق . م . من جمعية المئينات قراراً بتشكيل محكمة خاصة للفصل في هذه القضية . وبرغم قوة الأدلة وشهادة شيشرون بأنه رأى قلوديوس في روما قبيل الحفل مما أثبت بطلان ادعائه بأنه لم يكن في العاصمة يومئذ ، فإن المحكمة برأت قلوديه س بأغلبية ٣١ صوتاً ضد ٢٥ لأن قراسوس اشترى ذمم غالبية المحلفين . ومما يجدر بالملاحظة أن قيصر رفض الإدلاء بشهادته ضد قلوديوس واكتفى بطلاق زوجته لأن « زوجة قيصر يجب أن تكون فوق مستوى الشبهات »(٣٧) ، وسارع الى ولاية إسبانيا القاصية ليتولى حكمها في عام ٦١ ق . م .

وقد ترتب على هذه الفضيحة القضائية التي توجت الفضيحة الخلقية أن السناتو أصدر في جلسة لم يحضرها شيشرون قراراً يقضي ببحث كل حالة رشوة بين المحلفين ، وذلك فيما يبدو لكي تطبق على المحلفين من الفرسان وترابنة الخزانة العامة العقوبات التي كان قانون صلا قد قضى بفرضها على المحلفين المرتشين حين كانوا يتألفون من أعضاء السناتو فقط . وبطبيعة الحال أغضب هذا القرار الفرسان وترابنةالخزانة ، كما أنه أزعج شيشرون بسبب ما كان يترتب عليه من إضعاف أواصر الوفاق بين طبقتي النبلاء والفرسان . وإزاء ذلك لم يتوان شيشرون في مؤاخذة السناتو مؤاخذة شديدة على إصداره مثل هذا القرار ، وذلك برغم إدراك شيشرون أن قضيته ضعيفة وأن السناتو كان محقاً في تصرفه(٣٨) .

وساعد على توتر العلاقات بين النبلاء والفرسان أن الشركة التي تعاقدت

---

(37) Plut., Caes., IX-X; Cic.; XXVIII-XXIX; Dio Cass, XXXVII, 45-46; J.P.V. Balsdon, Historia, 1966, pp. 65 ff.

(38) Cic., ad Att., I. 17, 8 (5 Dec. 61 B.C.).

على شراء حق جباية ضرائب ولاية آسيا لمدة السنوات الخمس التالية كشفت أنها في لهفتها على الفوز بالعقد عرضت لشرائه دفع مبلغ مرتفع جداً كان سداده يسبب لها خسارة كبيرة ، ولذلك فإنها تقدمت الى السناتو في أواخر عام ٦١ ق . م. ملتمسة إلغاء العقد أو على الأرجح منحها تخفيضاً في سعر شرائه . وبرغم تأييد قراسوس وشيشرون لالتماس الشركة المؤلفة من الفرسان ، تلكأ السناتو في نظر الموضوع [٣٩] حتى العام التالي ، وأخيراً بتأثير قاتو قرر رفض الالتماس في النصف الأول من عام ٦٠ ق . م [٤٠] .

ثانياً — موقف النبلاء من بومبي وقيصر بعد عودتهما من الخارج

١ — بومبي :

ويدل مجرى الأحداث التالية على أنه بعد السلطات الواسعة التي تولاها بومبي والانتصارات الباهرة التي أحرزها لم يصبح زاهداً في المجد والسلطة . وإنما أصبح يتصور أمرين وأحدهما هو أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذ الدولة من أزماتها الخطيرة. والأمر الآخر هو أنه في كنف الظروف العسيرة التي كانت روما تجتازها إذا هو أحسن التصرف فإنه كان لا بد من أن تؤول اليه مقاليد الأمور طواعية فيستتب له الأمر بطريقة مشروعة . وتبعاً لذلك فإنه لما كانت روما لا تواجه عندئذ أية أزمة تتطلب استخدام كفايته ومواهبه ، فإنه ما أن وصل الى بروندیسيوم في ديسمبر عام ٦٢ ق . م . حتى أدهش كل من كانوا لا يعرفون نواياه بتسريح قواته جميعاً عدا حرساً صغيراً احتفظ به حتى يحتفل بانتصاره . وعندما وصل الى روما أظهر استعداده للتفاهم مع النبلاء ، فقد ألقى في السناتو خطاباً معتدلاً ينم عن احترام عميق للنبلاء ورغبة قوية في استرضائهم ، وشفع ذلك بمحاولة فاشلة لمصاهرة قاتو* . وفضلاً عن ذلك فإنه تناسى تدابير قراسوس ضده وعني بإدخال الطمأنينة على قلبه فعاد هو

---

(39) Cic., ad Att., I, 17, 9
(40) J.P.V. Balsdon, J.R.S., 1962, pp. 135 ff
* Plut., Cato Minor, XXX; Pomp., XLIV, 1.

وأسرته الى روما بعد أن كانوا قد برحوها خوفاً على حياتهم مما كان يمكن أن يفعله بومبي لو انه حذا حذو صلا .

وقد كان كل ما يبتغيه بومبي عندئذ من السناتو هو أن يصادق على قراراته (acta) التي نظم بها شئون الشرق ، وأن يمنح إقطاعات زراعية لنحو من ٤٠,٠٠٠ من جنوده الذين سرحهم . ولم يكن في هذين المطلبين أي إسراف ، فقد راعى بومبي صوالح روما في الشرق وسلك في النظم التي وضعها مسلكاً حكيماً . وبطبيعة الحال إذا لم يصادق السناتو على هذه النظم ، فإنه لم يكن هناك ضمان للإبقاء عليها . ولا جدال في أنه كان من حق السناتو إدخال تعديلات على هذه النظم ، بيد أنه لو تغلبت الحكمة لكان من اليسير الوصول الى اتفاق وإنهاء هذه المسألة بسلام .

ولما كان قد أصبح تقليداً مألوفاً ومعمولاً به مكافأة الجنود المسرحين على خدماتهم في الحروب الخارجية بمنحهم إقطاعات زراعية ، فإنه لم يكن هناك أي داع للخلاف على مكافأة جنود بومبي المسرحين ، ولا سيما أنه كان لا يمكن الاحتجاج بعدم وجود المال اللازم لذلك بعد أن أودع بومبي في الخزانة العامة ٤٨٠ مليون سسترتيوس وترتبت على فتوحاته زيادة الجزية السنوية التي تحصل الدولة عليها من ٢٠٠ مليون الى ٣٤٠ مليون سسترتيوس .

وبدلاً من أن يقدر السناتو مسلك بومبي منذ عودته الى إيطاليا من الشرق ويسارع الى احتضانه واتخاذه سنداً قوياً يدرأ عنه وعن النظام الجمهوري عاديات المشاغبين والقواد ذوي الأطماع الجامحة ، ركب السناتو رأسه فقد اتخذ موقفاً صلباً متعنتاً إزاء بومبي . وكان الباعث على ذلك من ناحية معارضة نزيهة مردها الى عدم الثقة في نوايا بومبي ، ذلك أن بعض النبلاء لم ينسوا أن بومبي أرغم السناتو على السماح له بتولي قنصلية عام ٧٠ ، ثم استخدم سلطته القنصلية في تقويض دعائم دستور صلا ، وبعد ذلك سخر تريبونين من ترابنة العامة لمنحه في عامي ٦٧ و ٦٦ ق . م . سلطات هائلة لم يسبق لها مثيل . بيد أن هذه المعارضة برغم نزاهتها كانت قصيرة النظر لأنه إذا كان ماضي بومبي

يثير القلق فإن تسريحه قواته بمجرد عودته من الشرق ومبادرته الى إظهار استعداده للتفاهم مع النبلاء كانا كفيلين بتبديد المخاوف من إلغاء النظام الجمهوري أو من إقامة دكتاتورية عسكرية ، لأنه لو كان بومبي ينوي شيئاً من هذا القبيل لما كان أيسر عليه عمل ذلك في أعقاب عودته قبل تسريح جنوده. ومن ناحية أخرى كانت الأحقاد الشخصية هي الباعث على تحدي بومبي ، ذلك أن بعض النبلاء لم ينسوا كيف أن بومبي ادعى لنفسه دون قاتولوس الفضل في إخماد فتنة لبيدوس مثل ما ادعى لنفسه دون متلّوس الفضل كل الفضل في الانتصار على سرتوريوس ، وكيف أنه بفضل تدابيره مع تريبون العامة مانيليوس حرم لوقولّوس فرصة إنهاء الحرب ضد ميثريداتس وتولى القيادة في هذه الحرب بدلاً منه ، وكيف أنه ألغى بعض النظم التي كان لوقولّوس قد وضعها في آسيا الصغرى ثم حاول بوسائل خفية حرمان مارقيوس ركس ومتلّوس قرتيقوس ولوقولّوس الاحتفال بالانتصارات التي أحرزوها في الشرق . ومن ناحية ثالثة كان هناك باعث الغيرة من السلطات الواسعة التي تمتع بها بومبي والانتصارات الباهرة التي أحرزها . وإزاء هذا المزيج من البواعث أصر السناتو على مناقشة النظم التي وضعها بومبي في الشرق مناقشة تفصيلية تتناول كل صغيرة وكبيرة . وأما عن مطلب بومبي الخاص بمنح إقطاعات زراعية لجنوده المسرحين ، فإن السناتو رأى أن يعامل هذا المطلب على قدم المساواة مع مطلب متلّوس قرتيقوس الخاص بمنح جنوده أيضاً إقطاعات زراعية ، وأخذ يماطل في كيفية تنفيذ هذين المطلبين . وإذ ضاق بومبي ذرعاً بهذا التأجيل في مكافأة جنوده بعد أن استغرقت مناقشة هذه المسألة في السناتو عام ٦١ ق . م . لجأ بومبي الى تريبون العامة لوقيوس فلافيوس فتقدم الى جمعية القبائل في يناير عام ٦٠ ق . م . بمشروع قانون يقضي بتوزيع أراض على جنود بومبي المسرحين . ولكن خصوم بومبي كانوا له بالمرصاد، فقد عارضوا المشروع معارضة عنيفة أدت الى سحبه[٤١] .

(41) Dio Cass , XXXVII, 49-50, Plut., Pomp , XLVI; C.A.H., IX, pp 509-12

وتصور النبلاء في حماقتهم أنهم بشل حركة بومبي وإظهاره بمظهر القائد العاجز عن مكافأة جنوده قد لقنوه درساً قاسياً وأصبحوا سادة الموقف . ولعل أن يكون ذلك قد شجعهم على ارتكاب حماقة أخرى عندما عاد يوليوس قيصر من ولاية إسبانيا القاصية حوالي شهر يونيه عام ٦٠ ق . م .

يوليوس قيصر :

عندما انتهت مدة برايتورية قيصر في آخر عام ٦٢ ق . م . كان غارقاً في الديون ويلح عليه دائنوه إلحاحاً شديداً في السداد قبل مغادرته روما لتولي حكم ولاية إسبانيا القاصية في العام التالي . وما أن أفلح قيصر في تهدئة مخاوف دائنيه بحث قراسوس على أن يضمن وفاءه بديونه حتى سارع الى إسبانيا واضعاً نصب عينيه القيام بحملة ناجحة تعود عليه بأسلاب وفيرة وتمهد له سبيل الفوز بالقنصلية فيما بعد . وقد وجد قيصر من المعاذير ما برر قيامه بحملة برية وبحرية في غرب إسبانيا وشمالها الغربي وأظهر من الكفاية في قيادة قواته ما كفل إخضاع كل الشعوب النازلة في تلك الأصقاع وبذلك أكمل إخضاع إسبانيا كلها لروما وأدرك قيمة مواهبه العسكرية . واذا كان قيصر قد تمكن كذلك من ابتزاز أموال كثيرة فإنه عمل ايضاً على معالجة مشكلة الديون التي كان الأهالي يرزحون تحت عبئها ووجه عناية كبيرة الى إصلاح ميناء قادس مما أسهم في رخاء هذه المدينة التجارية الكبيرة .

وعندما خف قيصر عائداً الى إيطاليا . كانت آماله معقودة على الاحتفال بانتصاره وتولي قنصلية عام ٥٩ ق . م . ولما كان موعد الترشيح للقنصلية قد حان ، وكان دخول قيصر روما عندئذ يستتبع وفقاً للعرف والتقاليد حرمانه حق إقامة موكب انتصاره ، فإنه ظل خارج روما وبعث الى السناتو ملتمساً السماح له بترشيح نفسه غيابياً (in absentia) . وبرغم أنه كانت لمثل هذا الترشيح سوابق معروفة ، وأنه كان من اليسير على السناتو الاستجابة الى مطلب قيصر لو أن النبلاء أوتوا أي قدر من الحكمة السياسية العملية . فإن

النبلاء ركبوا رؤوسهم مرة أخرى ورفضوا التماس قيصر . وإزاء ذلك لم يكن من قيصر إلا أنه ضحى على الفور بموكب النصر وحضر الى روما ورشح نفسه .

وبفضل مكانة قيصر بين الجماهير من جراء الحفلات الباهرة التي أقامها في أثناء توليه منصب الأيديلية . واستغلال ثروة مرشح آخر مغمور في الدعاية الانتخابية بدا نجاح قيصر أمراً مؤكداً . مما حفز النبلاء على تأييد مرشح من صفوفهم – وهو ماركوس كالبورنيوس بيبولوس زميل قيصر في الأيديلية – وتوزيع الرشاوى على نطاق واسع ضماناً لفوز مرشحهم . وبالفعل نجح قيصر وبيبولوس في الانتخابات لقنصلية عام ٥٩ ق.م. وعندما حان الوقت لتحديد مهمة قنصلي ذلك العام بعد انتهاء مدة حكمهما في الداخل . خرج السناتو على العرف المألوف بتحديد ولايتين من الولايات الرومانية يتولى القنصلان حكمهما وقرر بدلاً من ذلك أن تكون مهمتهما بعد انتهاء عام حكمهما الإشراف على الغابات والمراعي العامة في إيطاليا (Silvae Callesque)[٤٢] ، وهي مهمة كانت أليق بكوايستور منها بقنصلين . وكان الهدف من ذلك واضحاً وهو حرمان قيصر فرصة الحصول على ولاية يحرز فيها أمجاداً عسكرية ترفع من شأنه ويحصل منها على أسلاب تصلح أحواله المالية المضطربة ، وذلك إمعاناً في النكاية بقيصر وإفهامه مثل بومبي والفرسان أن السناتو هو صاحب الأمر والنهي في الدولة !

ثالثاً – الحلف الثلاثي أو « الحكومة الثلاثية الأولى »[٤٣]

عرفنا كيف أن النبلاء أغضبوا الفرسان ومعهم قراسوس مثل ما أغضبوا

(42) Plut., Caes., XI-XIII, Sueton, Div. Jul, XVIII-XIX; Dio Cass, XXXVII, 52-54; cf. J.P.V. Balsdon, J.R.S., 1939, pp. 180 ff.

(43) Heitland, III, pp. 123-4; T.R. Holmes, Rom. Rep., I, pp. 474 ff, C.A.H., IX, pp 512-5, R. Syme, The Roman Revolution, 1939, Ch. I; C. Wirzubski, Libertas, pp. 74 ff; Scullard 1970, pp 117-8 and n. 15 pp 423-4.

بومبي وقيصر . وكيف أنهم تصوروا أن الأمور استتبت لهم وأنهم أصبحوا سادة الموقف . بيد أنهم بهذه التصرفات دفعوا قيصر وبومبي وقراسوس الى التحالف سوياً . فنشأ بينهم ما يدعوه بعض الباحثين « الحكومة الثلاثية الأولى » تمييزاً لهذا الحلف غير الرسمي عن « الحكومة الثلاثية الثانية » التي تألفت في عام ٤٣ ق . م . من أوقتافيانوس وأنطونيوس ولبيدوس بمقتضى قانون صدر بتكوين هذه الحكومة . ولعل أن الكتاب القدماء كانوا أصدق تعبيراً في تسمية تحالف قيصر وبومبي وقراسوس « تحالف القوة » (potentiae societas) أو « الوحش الثلاثي الرؤوس » (Tricarnus) أو « المؤامرة » (coniuratio) أو الطغيان (dominatio) . ذلك أن هذا الحلف الذي بدأ حلفاً سرياً لتحقيق أهداف أعضائه لم يلبث أن اعتمد على القوة المسلحة والتهديد باستخدامها لإملاء إرادة الحلفاء الثلاثة على الدولة وتحطيم مكانة السناتو وإرهاب الجمعيات الشعبية وكم أفواه ترابنة العامة أو إطلاق عقال ألسنتهم وفقاً لمقتضيات إرادة الحلفاء . وتبعاً لذلك كله أصبحت الدولة والدستور تحت رحمة هؤلاء الحلفاء . فلا عجب أن هذا الحلف يعتبر بداية النهاية للنظام الجمهوري الروماني . وسواء أصح ما يراه بعض الباحثين من أن هذا الحلف تكوّن قبل ظهور نتيجة الانتخابات لقنصلية عام ٥٩ ق . م . أم ما يراه البعض الآخر من أنه تكوّن بعد ظهور هذه النتيجة ، فإنه لا جدال في أن قيصر كان العقل المدبر في هذا الحلف ورئيسه الحقيقي ولكنه إرضاءً لغرور بومبي أوهمه قيصر بأنه هو الرئيس وصاحب الأمر والنهي . ولم يكن عسيراً على قيصر أن يتحالف مع برمبي وقراسوس ليحقق للأول مطلبيه اللذين رفضهما السناتو وليفوز للثاني بإعادة النظر في عقد شركة جباة ضرائب ولاية آسيا . وذلك لقاء الإفادة من مكانة بومبي ونفوذ قراسوس في تحقيق أهدافه الخاصة . وهكذا لفظ « الوفاق الحزبي » (Concordia Ordinum) أنفاسه الأخيرة في عام ٦٠ ق . م . وقام « الحلف الثلاثي » على أنقاضه . ولما كان قيصر يقدر مواهب شيشرون الخطابية ويدرك مكانته الكبيرة وبخاصة بين الإيطاليين . فإنه حاول ضمه الى جانب

الحلف ولكنه فشل في ذلك بسبب استمساك شيشرون بالقواعد الدستورية والنظم الجمهورية(٤٤) .

١ ـ تشريعات قيصر في قنصليته الأولى عام ٥٩ ق.م.

ا ـ قانون الأراضي (Lex Julia agraria)

ما أن تولى قيصر مهام وظيفة القنصلية حتى أعد مشروع قانون (٤٥) يقضي بأن توزع إقطاعات من الأرض الصالحة للزراعة على جنود بومبي المسرحين وكذلك على المواطنين المعدمين . ولما كان ما تبقى من الأرض العامة خارج قمبانيا لا يفي بالغرض ، وكانت الأرض العامة في قمبانيا تؤجر لقاء إيجار مجز للدولة ، فإن المشروع قضى بأن يخصص للتوزيع كل الأرض العامة فيما عدا ما يوجد منها في قمبانيا وكذلك باستثناء الأرض العامة التي وزعت على جنود صلا(٤٦) . وبأن يستخدم جانب من عائد فتوحات بومبي في شراء مساحة من الأرض الخاصة تكون كافية لتنفيذ المشروع ويكون شراؤها بالسعر الذي يقابل القيمة المحددة لهذه الأرض في سجلات الإحصاء ، وبألا يجوز للمنتفعين بيع أراضيهم قبل انقضاء خمسة وعشرين عاماً على حيازتها . وبأن يعهد بتنفيذ المشروع الى هيئة مؤلفة من عشرين شخصاً لا يكون من بينهم قيصر أو أي شخص آخر يشغل وظيفة عامة .

وبرغم اعتدال المشروع ومزاياه والحاجة الملحة إليه والتزام قيصر بادىء ذي بدء التقاليد المألوفة بتقدمه الى الساتو بهذا المشروع - مبدياً بذلك رغبته في الفوز بتعاون السناتو معه في تشريعاته وكذلك استعداده لقبول التعديلات التي قد يقترحها السناتو — أي برغم أن قيصر آثر أول الأمر مسالمة السناتو على إثارته بإغفال أمره كلية — فإن النبلاء أيدوا قاتو في معارضته الهوجاء للمشروع .

(44) Cic., ad Att., II, 18, 3 (cf. Plut., Cic., XXX, 2-3); IX, 2 a.
(45) Dio Cass., XXXVIII, 1-6; App. B C., II, 9-12.
(46) Cic., ad Fam., XIII, 4.

وعندئذ كشف قيصر عن أنيابه ثم عن مخالبه . ذلك أن قيصر لم يكتف بأن ضرب بمعارضة السناتو عرض الحائط وتقدم بمشروعه الى جمعية القبائل ولم يتقدم الى السناتو مرة أخرى بأي تشريع . بل إنه عندما عرض مشروعه على جمعية القبائل أضاف اليه بنداً يقضي بنفي كل عضو من أعضاء السناتو لا يقسم في خلال مهلة معينة على احترام المشروع بعد إقراره . وعندما انبرى بيبولوس . زميل قيصر في القنصلية ، وقاتو وبعض ترابنة العامة لمعارضة المشروع معارضة عنيفة ، لم يكن من قيصر إلا أنه أوعز الى بومبي فحشد جنوده المسرحين ويوم أخذ الأصوات على المشروع قام الجنود بطرد معارضيه عنوة من الاجتماع . وأقرت الجمعية المشروع فأصبح قانوناً . وقد كان من جراء استخدام القوة في إقرار المشروع بث الرعب في قلوب النبلاء . ولذلك فإنه عندما دعاهم بيبولوس الى إصدار قرار يعتبر قانون قيصر باطلاً لالتجائه الى وسائل غير مشروعة في إقراره وذلك على غرار ما فعلوا إزاء تشريعات ساتورنينوس مثلاً ، آثر النبلاء السلامة والعافية وحلفوا جميعاً اليمين على احترام القانون الجديد فيما عدا قاتو ومتلوس قلر وأحد حوارييه فإنهم ظلوا يرفضون بإباء وشمم حلف اليمين الى أن حذوا حذو زملائهم في اللحظة الأخيرة من المهلة التي كانت بعدها توقع العقوبة على من يرفضون ذلك . وأما بيبولوس فإنه انزوى في بيته وحاول دون جدوى شل حركة قيصر بأن يعلن في كل مناسبة يشرع فيها قيصر في إصدار أي تشريع أن الطلائع لا تبشر بخير [٤٧] .

ب ــ قانون أرض قمبانيا (Lex Julia Campana)

ولم تمارس اللاجنة عملها أكثر من بضعة أسابيع حتى تبين لها أن القانون الذي صدر مؤخراً لا يكفل تحقيق الهدف المنشود . وإذا كان من العسير الوقوف على سبب ذلك ، فإنه من الجائز أن تكون اللاجنة قد تبينت أنها لم تزود بسلطة

(47) Dio Cass., XXXVIII, 7; Plut., Caes., XIV, 5; Cato Minor, XXXII; Sueton., Div. Jul., XX, 1; cf. Cic., ad Att., II, 18, 2; A.W. Lintott, Violence in Republican Rome, 1968, pp. 144 ff.

كافية تهيء لها الحصول على مساحات كافية من الأرض ، أو أنه كان يتعذر عليها شراء الأرض اللازمة بسعر معقول لا يبهظ كاهل الخزانة العامة . وعلى كل حال فإنه في أواخر شهر مايو ، برغم معارضة قاتو ، استصدر قيصر قانوناً يكمل القانون السابق ويقضي بتوزيع الأرض العامة في قمبانيا . ويحدثنا ديون قاسيوس[٤٨] بأن قيصر وزع أرض قمبانيا على المواطنين الذين كان لكل منهم ثلاثة أبناء على قيد الحياة . ويضيف سويتونيوس[٤٩] الى ذلك أن عدد أولئك المواطنين بلغ ٢٠.٠٠٠ . ويذكر فلّيوس[٥٠] أنه بتأييد بومبي استصدر قيصر قانوناً قضى بتوزيع الأرض العامة في قمبانيا على « العامة » وأنه تبعاً لذلك أُنزل هناك حوالي ٢٠.٠٠٠ مواطن . ويخلط أبيانوس[٥١] بين قانوني قيصر الخاصين بتوزيع الأراضي ولكنه يقول إن الأرض وزعت على أولئك المواطنين الذين كان لكل منهم ثلاثة أبناء على الأقل . ويحدثنا بلوتارخ[٥٢] بأن أرض قمبانيا وزعت بين الجنود . ويتضح من إشارة عابرة لشيشرون في أحد خطاباته[٥٣] أن جانباً على الأقل من أرض قمبانيا أعطي للجنود المسرحين . وإشارة شيشرون العابرة تعطي وزناً كبيراً لرواية بلوتارخ ، لأن شيشرون كان دون باقي المصادر التي أوردناها معاصراً لصدور هذا القانون . ولما كان قيصر معنياً بإرضاء بومبي ، وكان فلّيوس قد ذكر أن قيصر استصدر القانون الخاص بأرض قمبانيا بتأييد بومبي . فإنه يصعب أن نتصور أنه لم يكن لجنود بومبي نصيب من هذه الأرض ولا سيما أنه من المستبعد أن تكون اللجنة القائمة على تنفيذ القانون الأول قد استطاعت توزيع الإقطاعات على كل جنود بومبي المسرحين في خلال الفترة الواقعة بين صدور القانونين الأول والثاني . ولعل أن يكون ما حدث هو أن جنود بومبي الذين لم يحصلوا على إقطاعات بمقتضى القانون الأول أعطوا

---

(48) Dio Cass., XXXVIII, 7, 3.
(49) Sueton., Div. Jul., XX, 3.
(50) Velleius, II, 44, 4.
(51) App., B.C., II, 10.
(52) Plut., Cic., XXVI, 3.
(53) Cic., ad Att., XVI, 8, 1.

الأسبقية في الانتفاع من أرض قمبانيا . وأن باقي هذه الأرض وزع على عدد من فقراء المواطنين الذين كان لكل منهم ثلاثة أبناء على الأقل[٥٤] .

ج — تشريعات أخرى :

وإذا كان قيصر قد تولى بنفسه استصدار هذين القانونين المعروفين باسم عشيرته ، فإنه عهد إلى ذراعه اليمنى تريبون العامة بوبليوس فاتينيوس (Vatinius) باستصدار أغلب تشريعاته . وتختلف آراء الباحثين أيما اختلاف حول ترتيب صدور تشريعات قيصر وإن كان من المرجح أن قانون الأراضي الأول كان أسبقها جميعاً [٥٥] . وعلى كل حال فإنه في أوائل عام ٥٩ ق . م . استصدر فاتينيوس مجموعة من القوانين[٥٦] قضى أحدها (Lex de actis Pompeii) بإقرار تنظيمات بومبي في الشرق جملة ، وقضى قانون آخر (Lex de Publicanis Asiae) بخفض المبلغ الذي تعاقدت عليه شركة جباية ضرائب ولاية آسيا بمقدار الثلث ، وقضى قانون ثالث (Lex de Ptolemaeo Aulete) بالاعتراف ببطلميوس الثاني عشر أوليتس (= الزمار) ملكاً على مصر[٥٧] . ويحدثنا سويتونيوس[٥٨] بأنه لقاء الاعتراف بهذا الملك التعس اغتصب منه قيصر لنفسه ولبومبي رشوة تبلغ حوالي ٦٠٠٠ تالنت (حوالي مليون ونصف مليون جنيه استرليني) . وسوف نتبين فيما بعد أنه الى أن توفي هذا الملك لم يكن قد سدد كل دينه لقيصر .

وإذا كان قيصر قد أرضى على هذا النحو بومبي وقراسوس والفرسان والعامة فإنه لم يغفل أمر صوالحه الخاصة بطبيعة الحال ، ذلك أن أهم التشريعات

---

(٥٤) عن هذه المشكلة ، راجع :
Heitland, III, pp. 136-9; C.A.H., IX, pp. 517-8; Scullard, 1970, p. 119.

(55) Cf. L.R. Taylor, Amer Journ. Philol., 1951, pp. 254 ff ; Historia, 1968, pp. 173 ff.; C Meier, Historia, 1961; pp. 68 ff.; J Linderski, Historia, 1965, pp 423 ff ; Scullard, 1970, n. 17 p. 424.

(56) Dio Cass., XXXVIII, 7; App., B.C., II, 13.

(57) Cf. L. G. Pocock, A. Commentary on Cicero, in Vatinium.

(58) Sueton., Div. Jul., LIV. 3.

التي استصدرها فاتينيوس من حيث أثرها على الأحداث المقبلة كان قانونـاً (Lex Vatinia de Provincia Caesaris) قضى بأن يُسند إلى قيصر حكم ولاية غاليا هذه الناحية من الألب (Gallia Cisalpina) وكذلك إلّوريقوم لمدة خمس سنوات تبدأ من أول مارس عام ٥٩ ق . م . وبأن توضع تحت إمرة قيصر ثلاث فرق عسكرية ، وبأن تطلق يده في اختيار هيئة مساعديه دون الرجوع في ذلك الى السناتو ، وبأن ينشىء ما يتراءى له من مستعمرات . ومما يجدر بالملاحظة هنا أن هذا التشريع ضرب عرض الحائط بالقرار الذي كان السناتو قد أصدره بتحديد مهمة قنصلي عام ٥٩ ق . م . ، وأن جمعية القبائل إذ اغتصبت لنفسها على هذا النحو تحديد ولاية قيصر لم تحدد مدة حكمه لهذه الولاية بعام واحد أو عامين على نحو ما جرى عليه العرف وإنما بخمسة أعوام (وذلك على غرار القيادة العسكرية التي سبق منحها لبومبي) ، ولم تجعل بداية حكم قيصر لهذه الولاية بعد انتهاء عام قنصليته وإنما من أول مارس في ذلك العام (ولعل أن ذلك التاريخ كان تاريخ صدور القانون الخاص بإسناد هذه الولاية الى قيصر) ، وأن هذه هي أول مرة نسمع فيها عن ضم إلّوريقوم الى ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ، إذ يبدو أن إلّوريقوم كانت تعتبر عادة جزءاً من ولاية مقدونيا . ولا شك في أن قيصر اختار بعناية فائقة تولي حكم ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ، لأنها وقد كانت ولاية غنية وأصلح أجزاء الإمبراطورية لتجنيد قوات كبيرة وشديدة القرب من روما كانت تتيح لقيصر أن يجند ما يشاء من القوات وأن يمارس قيادة عسكرية وأن يرقب مجريات الأحداث في العاصمة عن كثب وأن يخف اليها إذا ما اقتضى الأمر ذلك . وحدث بعد صدور هذا التشريع أن توفي متلّوس قلر وكان قد أُسند اليه حكم ولاية غاليا فيما وراء الألب في عام ٥٩ ق. م. ، فأصدر السناتو بإيعاز من بومبي قراراً بإسناد هذه الولاية أيضاً الى قيصر مع زيادة عدد فرقه العسكرية الى أربع فرق . وبما أن السناتو هو الذي أسند الى قيصر حكم هذه الولاية فإنه جرياً على العرف المألوف كان هذا الإسناد لمدة عام واحد قابل طبعاً للتجديد .

ولعل أن يكون السناتو قد وافق على طلب بومبي بإسناد حكم هذه الولاية الى قيصر إما لأنه أدرك عبث مقاومة مشيئة « الطغاة الثلاثة » ، وإما لأنه آثـــر استخدام حقه على أن يعطي جمعية القبائل فرصة أخرى لاغتصاب هذا الحق ، وإما على أمل أنه بتوسيع نطاق مهمة قيصر قد يفشل في الاضطلاع بها فيلقى حتفه بظلفه[٥٩] . بيد أنه كان في ضمير الدهر أن إسناد حكم هذه الولاية الى قيصر سيتيح له بناء مجد عسكري شامخ يفوق مجد بومبي العسكري وتكوين جيش قوي مدرب تدريباً عالياً . وهكذا كان من سخرية القدر أن بومبي والسناتو أسهما في شحذ السلاح الذي قضى به قيصر عليهما .

والى جانب هذه التشريعات التي خدمت صوالح الفرسان والعامة و « الحلفاء الثلاثة » ، قام قيصر بعملين جليلين كان أحدهما قانوناً[٦٠] جديداً ضد ابتزاز أمـــوال أهالي الولايات (Lex Julia de repetundis) . ويعتبر هذا القانون محاولة جدية لتحسين إدارة الولايات الرومانية وحماية أهاليها من جشع الحكام وعبثهم . فقد استوعب هذا القانون كل التشريعات السابقة الخاصة بهذا الموضوع وسد ما بها من ثغرات بفرض قيود مشددة على سلطة الحكام وفرض عقوبات صارمة على المخالفات ووضع قواعد محددة تحول دون التزوير في الحسابات الرسمية ودون إطالة نظر القضايا تفادياً لتبديد جهود الساعين الى اتهام الحكام العابثين .

وكان العمل الجليل الآخر هو أن قيصر عُني منذ بداية قنصليته بأن ينشر يومياً نسخاً رسمية لقرارات السناتو والجمعيات الشعبية[٦١] . وبما أن الشعب

(59) Sueton., Div. Jul., XXII; Dio Cass., XXXVIII, 8, 5; Velleius, II, XLIV, 5; Plut., Caes., XIV, 6; Heitland, III, pp. 134-6; C.A.H., IX, 518-9; Scullard, 1970, p. 119.

(60) Justinian., Digesta or Pandectae, XLVIII, title II de lege Iulia repetendarum; Cic., pro Rab. Post., 8; 9; in Pisonen, 50; 90; pro Flacco, 13-15; 37; 40; Heitland, III, p. 144; C.A.H., IX, p. 520; S.I. Oost, Amer. Journ. Philol., 1956, pp. 19 ff

(61) Sueton., Div. Jul., XX, 1.

كان يشارك في الجمعيات الشعبية ويحيط علماً بكل ما يجري فيهـا ، فإنه يتبين بجلاء بأن الهدف الأساسي لقيصر من الإجراء الذي اتخذه كان إحاطة الشعب علماً بكل ما يجري في السناتو وبذلك يضطر أعضاءه الى التزام الجدية في تناول ما يُعرض عليهم، وكذلك الحيلولة دون أي تلاعب في صيغ قرارات السناتو . ذلك أنه حتى هذا الوقت كان السجل الرسمي الوحيد لأي قرار أو أمر يصدره السناتو عبارة عن نسخة لهذا القرار أو الأمر يعدها الحاكم رئيس الجلسة ويشهد على صحتها عدد من أعضاء المجلس وتودع في دار المحفوظات بالخزانة العامة . وكان من الممكن حدوث تلاعب في صياغة نص القرار أو الأمر بالاتفاق بين رئيس الجلسة والأعضاء الذين شهدوا على صحة هذه الصياغة . وقد اتُهم شيشرون نفسه بمثل هذا التزييف . وأما الاقتراحات التي كانت تُرفض أو تُسحب فإن الحاكم رئيس الجلسة التي نظرت فيها مثل هذه الاقتراحات كان يدرجها في كراسته الخاصة ولا يوجد لها أي أثر في السجلات الرسمية . وقد أفضى الإجراء الذي اتخذه قيصر الى وجود سجل رسمي بكل ما كان يجري في الجمعيات الشعبية وفي السناتو ، وكذلك الى ظهور ما يمكن تسميته تجوزاً « جريدة رسمية » (Commentarii rerum urbanorum أو acta) تحتوي على أهم الأحداث العامة . ولا أدل على ضيق السناتو بما استحدثه قيصر من أن أغسطس — وقد كان حريصاً على استرضاء السناتو — ألغى نشر قراراته وأوامره (٦٢).

٢ — المعارضة وإعداد العدة لمجابهتها في أثناء غيبة قيصر :

وإذا كان استخدام القوة أو التهديد باستخدامها قد أفلح في منع المعارضة من التصدي علناً للأقطاب الثلاثة بعد إقرار قانوني الأراضي ، فإن بيبولوس لم ينقطع عن إصدار سلسلة من البيانات (edicta) اللاذعة التي لم يبزها إلا الرسالة العنيفة التي أصدرها ڤارّو (Varro) بعنوان الوحش الثلاثي الرؤوس

(62) Sueton., Div. Aug., XXXVI, 1; Heitland, III, pp. 126-7; C.A.H., IX, p. 520.

(Tricarnus) . وقد كان للأساليب العنيفة التي اتبعها الأقطاب الثلاثة والدعاية النشيطة التي قام بها ضدهم معارضوهم أثر عميق تبدى في تهامس الناس في أنديتهم وأحاديثهم الخاصة ، وفي التهليل لقوريو الصغير كلما ظهر في الفوروم (Scribonius Curio) لأنه — وفقاً لشيشرون — كان الرجل الوحيد الذي اجترأ على معارضة الحلفاء علناً ، وفي مظاهر السخط التي شهدها المسرح في عدة مناسبات ، حين كان النظارة من عامة وفرسان يهللون ويصفقون للعبارات التي تنطوي على التعريض ببومبي وقيصر[٦٣] . بيد أنه لم ينقض وقت طويل حتى كان المتظاهرون قد سلموا بالأمر الواقع إزاء التهديد بحرمان الفرسان المقاعد الممتازة المخصصة لهم في المسرح وحرمان العامة ميزة شراء القمح بأسعار زهيدة[٦٤] .

حقاً إن مظاهر الاحتجاج أقلقت بال بومبي وبعثته على محاولة التنصل من المسئولية[٦٥] ، فتوهم شيشرون وغيره من معارضي الأقطاب الثلاثة — وكانوا يتصورون أن بومبي هو رئيس الحلف — أن مظاهر الاحتجاج العلني ستؤدي الى انفضاض الحلف والتخلص من الكابوس الثلاثي . وربما كان تحت تأثير هذا الوهم أنه عندما تقدم شيشرون للدفاع عن أنطونيوس — زميله في القنصلية — حين قُدم للمحاكمة بتهمة يدور الجدل حولها ، وشعر بأن قضيته خاسرة حاول أن يكسبها شيئاً من القوة بإبداء الحزن والأسى على ما وصلت اليه الحالة السياسية في روما[٦٦] . ولكن شيشرون لم يفلح إلا في إثارة النقمة على نفسه .

وعندما قُدم لوقيوس فالريوس فلاقوس للمحاكمة بتهمة ابتزاز الأموال في ولاية آسيا ، تولى شيشرون الدفاع عنه فقد كان فلاقوس صديقه وأحد

---

(63) Cic., ad Att., II, 18; 19; 20.
(64) Cic., ad Att., II, 19; Heitland, III, p. 140; C.A.H., IX, p. 520; Scullard, 1970, p. 120.
(65) Cic., ad Att., II, 16, 2.
(66) Cic., de Domo, 41; Sueton., Div. Jul., XX, 4; Dio Cass., XXXVIII, 10, 4-11.

الذين ساعدوه على قاتيلينا . ولا شك في أن فلاقوس كان مذنباً ولكنه لا يبعد أن الغرض الحقيقي من اتهامه كان معاقبته على الدور الذي قام به ضد قاتيلينا ، ولا يبعد كذلك أن هذا الاتهام كان أحد تدابير قيصر . وقد كانت القضية التي يدافع عنها شيشرون ضعيفة واهنة ولكن النداء الذي وجهه الى المحلفين بألا يدعوا فلاقوس يذهب ضحية لجرائم قاتيلينا وأعوانه(٦٧) صادف هوى من نفوس المحلفين فبرأوا فلاقوس . وقد أثبت شيشرون بدفاعه في هذه القضية أنه لم ينحرف قيد أنملة عن السياسة التي اتبعها في أثناء قنصليته وكانت ترمي الى التوفيق بين طبقتي النبلاء والفرسان ، وأنه إذا تُرك حراً طليقاً في روما في أثناء غيبة قيصر عنها فإنه قد يتمكن من إحياء الوفاق بين النبلاء والفرسان مما يتهدد سياسة الطاغوت تهديداً خطيراً . وتبعاً لذلك كان يتعين تدبير أمر إبعاد شيشرون والخصم الخطير الآخر قاتو على نحو ما سنرى بعد قليل .

وفي هذه الظروف القلقة حدث أن جاسوساً محترفاً يدعى لوقيوس فتّيوس (Vettius) أسرّ الى الشاب سقريبونيوس قوريو خطة لاغتيال بومبي . وبرغم أن هذا الشاب كان مثل أبيه من معارضي الطاغوت ، فإنه كان لا يقر الاغتيال السياسي ، ولذلك فإنه بادر الى إبلاغ الأمر الى أبيه وقام الأب بإبلاغ بومبي فأنهى الأمر الى السناتو واستجاب المجلس الى طلبه بإجراء التحقيق في هذا الموضوع . ولما كان فتّيوس قد ادعى عندئذ أن قوريو زعيم مؤامرة يشترك فيها عدد من النبلاء كان من بينهم مارقوس بروتس والقنصل بيبولوس وشخص يدعى آيميليوس باولوس تصادف أنه كان إذ ذاك في مقدونيا فإن السناتو أوقف التحقيق واعتبر المسألة إحدى ألاعيب الجاسوس المحترف . وعندما استُدعي فتّيوس في اليوم التالي ليقوم قيصر وفاتينيوس باستجوابه في جمعية القبائل نفى أن بروتس كان من بين المتآمرين – وذلك فيما يبدو إرضاء لقيصر فقد كان أمر علاقاته الغرامية بوالدة بروتس شائعاً مفضوحاً – وأضاف بدلاً من بروتس أسماء أخرى كان من بينها لوقولّوس وشيشرون . وإزاء

(67) Cic., pro Flacco, 94-95.

هذا التضارب فى أقوال فتّيوس اقتيد الى السجن حيث مات في ظروف مريبة . ولا جدال في أن هذه المؤامرة كانت وهمية ، ولا في أن ملابساتها توحي بقبول ما ذهب اليه شيشرون من أن قيصر وفاتينيوس هما اللذان دبرا قصة هذه المؤامرة لإلقاء الرعب في قلوب المعارضة[٦٨] .

ولكي يأمن قيصر على الأوضاع في روما فيأثناء غيبته عنها بعد انتهاء مدة قنصليته ، اتخذ عدة خطوات . ذلك أنه زف ابنته الوحيدة المليحة يوليــا (Julia) الى بومبي برغم أنها كانت مخطوبة الى رجل آخر . وحتى وفاة يوليا في عام ٥٤ ق . م . ساعد هذا الزواج السعيد على التغلب على الأزمة التي صادفتها العلاقات بين قيصر وبومبي بسبب الأحداث التي ستطالعنا . ولما كان الثالوث قد اتفق على أن يتولى قنصلية العام التالي (عام ٥٨) أولوس جابينيوس – صنيعة بومبي القديم – ولوقيوس قالبورنيوس بيسو ، فإن قيصر ليربط بيسو اليه برباط المصاهرة فيأمن جانبه ويضمن إخلاصه له طلب إليه فسخ خطبة ابنته قالبورنيا وتزويجها له وكان له ما أراد[٦٩] . وبعد ذلك بقي على قيصر اختيار أداة ماضية تخلف فاتينيوس في عام ٥٨ ق . م . لتنفيذ أهداف الثالوث. وقد وجد قيصر ضالته المنشودة في الشاب النبيل العابث بوبليوس قلوديوس، عشيق مطلقته بومبيا ، وكان يتطلع الى فرصة للانتقام من شيشرون جزاء شهادته ضده في قضية حفل الإلهة الطيبة . غير أنه بسبب انحداره من إحدى عشائر البطارقة كان لا يمكن انتخابه تريبوناً للعامة إلا إذا تبناه أب أسرة تنتمي الى إحدى عشائر العامة ، وكان هذا التبني (adrogatio) رهناً بمشيئة قيصر لأنه بوصف كونه الكاهن الأكبر كان لا بد من أن يوافق على التبني قبل أخذ موافقة جمعية الكور (Comitia Curiata) العتيقة . ولا جدال في أنه

---

(68) Cic., in Vatin., 15; 24-26; ad Att., II, 24; Sueton., Div. Jul., XX, 5 ; Plut., Lucullus, XLII; Dio Cass., XXXVIII, 9; (cf. App., B.C., II, 12); Heitland, III, pp. 140-1; C.A.H., IX, pp. 520-1; W. Allen Jr., Trans. Amer. Philol. Assoc., 1950, pp. 153 ff.; Scullard, 1970, n 19 p. 424.

(69) Sueton., Div. Jul., XXI; Dio Cass., XXXVIII, 9; Plut., Caes., XIV, 4-5; Pomp., XLVII, 6.

لم يكن من باب الصدفة أن قيصر وافق على هذا التبني ودعا جمعية الكور فأقرته بعد ظهر ذات اليوم الذي ترافع فيه شيشرون مدافعاً عن أنطونيوس وعرّض في دفاعه بحالة روما التعسة تحت وطأة حكم قيصر وحليفيه. ومن الطريف أن الرجل الذي تبنى قلوديوس كان أصغر منه ببضع سنوات، مما حدا بشيشرون فيما بعد الى اعتبار هذا التبني باطلا (٧٠).

وقد نجح بيبولوس في إرجاء إجراء الانتخابات من شهر يوليه حتى شهر اكتوبر، مؤملاً فيما يبدو أن مظاهر الاحتجاج التي سبقت الإشارة إليها تؤدي الى رد فعل سياسي قوي ينجم عنه فشل مرشحي الطغاة الثلاثة في الانتخابات. ويبدو أن قيصر رأى أن من الحكمة التسليم بالتأجيل لأنه كان من شأن ذلك انقضاء فترة تهدأ فيها الأعصاب ويصفو الجو. وقد صدق تقدير قيصر، ذلك أنه عندما أجريت الانتخابات فاز جابينيوس وبيسو بمنصبي القنصلية كما فاز أكثر مرشحي الثالوث بمناصب تريبونية العامة. وكان من بين ترابنة العامة الذين تولوا مهام مناصبهم في ١٠ من ديسمبر عام ٥٩ ق. م. بوبليوس قلوديوس. وهو الذي رسم له قيصر الخطة الواجب اتباعها على أن يدفع للقنصلين ثمن مؤازرتهما له بأن يستبدل بالولايتين التافهتين اللتين خصصهما السناتو لهما ولايتين أخريين هما: سوريا لجابينيوس ومقدونيا لبيسو (٧١).

(70) Gaius, Instit., I, 97-107; Cic., de domo sua, 34-38; 77; Heitland III, p. 133.

(71) Plut., Cic., XXX, 1; Caes., XIV, 9, Heitland, III, pp. 140, 145.

الفَصْل العَاشِر

الأحداث الداخلية من عام ٥٨ حتى عام ٥٠ ق.م.

روما في أثناء غيبة قيصر

اولاً – المرحلة الأولى من عام ٥٨ حتى مؤتمر لوقا في عام ٥٦ ق.م

١ – تشريعات قلوديوس :

عندما تولى قلوديوس مهام منصبه تريبوناً للعامة استصدر في أوائل يناير عام ٥٨ ق. م. أربعة قوانين حاول شيشرون تعطيل صدورها عن طريق صديقه تريبون العامة لوقيوس نينّيوس كوادراتوس (Ninnius Quadratus) ولكن نينّيوس لم يلبث أن عدل عن معارضته لقاء وعد باطل من قلوديوس بأنه لن يمس شيشرون بسوء[1] .

ا – منح من القمح دون مقابل :

قضى أول قوانين قلوديوس بإلغاء اقتضاء المبلغ الصغير الذي كان القانون لا يزال يحتّم دفعه للحكومة نظير الحصول على حصة شهرية من القمح ، فاكتسب قلوديوس على الفور محبة الجماهير ، وهو الهدف الذي كان يرمي

(1) Dio Cass., XXXVIII, 13.

اليه هو وقيصر دعماً لمكانة التريبون الجديد دون أي اعتبار لما كان سيترتب على هذا القانون سواء من أعباء مالية على خزانة الدولة أم من تشجيع البطالة وما يصحب ذلك من آثار معنوية سيئة . فقد كان كل شيء يهون في سبيل توفير الأسباب التي تهيء لقلوديوس السيطرة على الموقف في روما في أثناء غيبة قيصر عنهـــا .

ب ـــ إباحة تكوين الجمعيات :

ولكي ينظم قلوديوس جماهير المتعطلين ويجعل منهم جهازاً سياسيا فعالاً يستطيع استخدامه في إرهاب المعارضة ، إستصدر قانوناً كان بالغ الأثر في الأحداث التالية . ذلك أنه حين اضطرب حبل الأمن في روما في عام ٦٤ ق. م. أصدر السناتو قراراً بحل كل الجمعيات (Collegia) فيما عدا بعض جمعيات الصناع غير المشبوهة . وبفضل هذا القرار تخلصت روما من عدد من الجمعيات التي كان كثيرون من المتعطلين قد كونوها مؤخراً ووضعوها في خدمة السياسيين الراغبين في إثارة أي نوع من الشغب . وما أن قضى قانون قلوديوس بإباحة تكوين الجمعيات في روما حتى نشأ سريعاً عدد كبير منها كانت طوعاً لأوامر قلوديوس وتضم أسوأ العناصر بل العبيد . وبفضل هذين القانونين أصبح قلوديوس صاحب الكلمة العليا في روما بل أصبح كل من في روما تحت رحمته.

جـ ـــ عدم طرد أي عضو من السناتو :

ولكي يأمن قلوديوس على احتفاظه بعضوية السناتو . استصدر قانوناً قضى بألا يُطرد أي عضو من السناتو إلا إذا قام القنسوران بفحص حالته ومحاكمته والاتفاق على إدانته .

د ـــ تقييد حق استخدام طالع النحس في وقف مباشرة الأعمال الرسمية :

ولما كان قيصر قد حاول أولاً كسب جانب شيشرون بأن عرض عليه

عضوية لجنة الأراضي ولكن دون جدوى[2] ، ثم حاول إبعاده عن روما بلباقة بأن عرض عليه تعيينه مساعداً له (legatus) يصحبه الى الخارج ولكن شيشرون رفض هذا العرض[3] ، فإن قيصر عهد الى قلوديوس بمهمة نفي شيشرون دون تأخير . وقد كان في الإمكان الحيلولة دون استصدار تشريع بذلك أو على الأقل تأجيل استصدار مثل هذا التشريع بحجة أن طلائع السماء لا تبشر بخير (obnuntiatio) وهي الحجـة التي كان قانونا آيليوس وفوفيوس (Leges Aelia et Fufia) قد خولا منذ حوالي قرن لبعض الحكام حق التذرع بها لوقف مباشرة الأعمال الرسمية ، ومن بينها انعقاد جلسات الجمعيات الشعبية، الى حين الانتهاء من « مراقبة السماء » (de caelo servare) وهو الحق الذي لم يُجد بيبولوس نفعاً استخدامه ضد تشريعات قيصر لأن قيصر نفسه كان الكاهن الأكبر . وإزاء ذلك نميل الى قبول ما يرويه ديون قاسيوس من أن القانون الرابع الذي استصدره قلوديوس — وهو الذي قضى بألا يحق لأي حاكم على الإطلاق أن « يرقب السماء » ، أي تعطيل مباشرة الأعمال الرسمية في أي يوم من الأيام المحددة في التقويم لانعقاد جلسات الجمعيات الشعبية — كان تمهيداً لنفي شيشرون دون تأجيل .

هـ — نفي شيشرون :

وعلى كل حال فإنه في فبراير أو مارس عام ٥٨ ق . م . تقدم قلوديوس الى جمعية القبائل بمشروع قانون يقضي بأن يحرم « الماء والنار » — وهي العبارة التقليدية للنفي — كل من أعدم أو يعدم مواطناً رومانياً دون محاكمة . وبرغم أن هذا المشروع صيغ في عبارات عامة دون ذكر اسم أي شخص بعينه ، وأنه لم يكن أكثر من متابعة سياسة الشعبيين على نحو ما أعرب عنها قانون جايوس جراكوس الخاص بحماية المواطنين من الإعدام دون إذن من الشعب ، وهي السياسة التي أكدتها محاكمة رابيريوس في عام ٦٣ ق . م . .

(2) Cic., ad Att., IX, 2 a.
(3) Cic., ad Att., II, 18, 3; cf. Plut., Cic., XXX, 2-3.

فإن الشك لم يداخل أحداً في أن شيشرون هو الذي كان مقصوداً بالذات . وإزاء هذا الخطر لم يترك شيشرون باباً دون أن يطرقه التماساً لمنع إقرار هذا المشروع . وذهب شيشرون الى حد أنه ارتدى ثياب الحداد وأطلق شعره على سجيته وراح يستجدي عطف عابري السبيل . وقد وجد شيشرون عطفاً كثيراً عليه لدى النبلاء والفرسان والإيطاليين . غير أنه لما كان قيصر لا يزال مرابطاً بالقرب من روما على رأس الفرق التي حشدها لتصحبه الى ولايته . وكان قلوديوس على رأس عصاباته المسلحة . فإنه لم يكن في وسع أصدقاء شيشرون الالتجاء الى القوة لإنقاذه . بل إنه عندما أراد السناتو إصدار قرار بإعلان الحداد احتجاجاً على المشروع اعترض القنصلان على ذلك . ولم يستطع الفرسان والإيطاليون إلا أن يتوسلوا الى الأقطاب الثلاثة أن يشفقوا على شيشرون ، ولكن دون جدوى . ولم يلق شيشرون من قراسوس إلا صداً فقد كان لا يطيقه . وأما قيصر فإنه زعم لشيشرون بأنه لم يكن هناك داع لإثارة هذه المسألة القديمة ولكنه أعرب له عن اعتقاده بأن إعدام المتآمرين كان أمراً غير مشروع ونصحه بمغادرة إيطاليا حتى لا يفقد حياته إذا بقي . وإزاء تحرج بومبي من المحنة التي كان فيها صديقه بارح روما الى قصره الريفي عند تلال ألبانوس ، وعندما علم بقدوم شيشرون لزيارته تنصل من مقابلته بالخروج من البـــاب الخلفي . وبعد ذلك لم يبق أمام شيشرون إلا أن يلجأ الى القنصلين ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأنهما كانا قد باعا نفسيهما أو بعبارة أخرى باعا شيشرون لقيصر وقلوديوس . ولما لم يعد هناك أي أمل في منع إقرار المشروع بطريق أو آخر ، أصغى شيشرون لمشورة قاتو وعدد من أصدقائه وبارح روما تحت جنح الظلام عشية إقرار مشروع قانون قلوديوس . وبعـــد ذلك ببضعة أيام استصدر قلوديوس قانوناً آخر يحظر على شيشرون الإقامة في أي مكان يقرب من إيطاليا بمسافة ٨٠٠ كيلومتر (٤) . وقد ظل شيشرون « أبو الوطن » في المنفى حتى صيف

(4) Liv., Ep., C III; Dio Cass., XXXVIII, 13, 3-17; Plut., Cic., XXX-XXXII; Pomp., XLVI; Cato Minor, XXXV; Velleius, II, 45, App. B.C., II, 15; Cic., in Pisonem, 12; ad, Att, II, 18-25; III, 15, 2; ad Fam., XV, 4, 12.

عام ٥٧ ق . م . على نحو ما سيأتي ذكره .

و ـ إقصاء قاتو :

ولما كان بطلميوس ملك قبرص لم يفتدِ عرشه مثل شقيقه بطلميوس « الزمار » ملك مصر بشراء رضاء قيصر وبومبي ، وكان قد أساء الى قلوديوس لأنه حين كان هذا الرجل في الشرق ووقع في قبضة القراصنة رفض ملك قبرص إعطاء القراصنة فدية لإطلاق سراحه ، فإن الوقت قد حان لمعاقبته واستغلال هذه الفرصة لإقصاء قاتو عن روما(٥) . وتبعاً لذلك استصدر قلوديوس قانوناً بضم قبرص الى الإمبراطورية الرومانية ، ثم أخذ يلح في ضرورة إسناد هذه المهمة الى رجل لا يرقى الشك الى نزاهته لكيلا يضيع على الدولة شيء من كنوز قبرص . وقد رفض قاتو هذه المهمة عندما عرضها عليه قلوديوس . ولكنه عندما قررت جمعية القبائل إسنادها إليه لم يسعه إزاء مبادئه الرواقية الصارمة إلا الإذعان لقرار أصدره الشعب . وخوفاً من أن ينهي قاتو مسألة قبرص سريعاً ويعود الى روما عُهد اليه أيضاً بفض بعض المنازعات في مدينة بيزنطة وكانت خاصة بإعادة بعض ساستها المنفيين . وقد استولت روما على قبرص دون عناء ، إذ أن ملكها لم يبد أية مقاومة وآثر الانتحار على أن يقبل عرض قاتو بأن يصبح الكاهن الأكبر لمعبد أفروديتي في بافوس (Paphos) . غير أنه إزاء انشغال قاتو بمشكلة بيزنطة وعنايته بحصر كنوز قبرص حصراً دقيقاً لم يستطع العودة الى روما قبل عام ٥٦ ق. م. . حين عاد بكنوز وأموال أثارت العجب بكثرتها والإعجاب بأمانة قاتو . وبرغم أنه حرص على إعداد نسختين بمحتويات الغنيمة التي أحضرها فإن النسختين كلتيهما فقدتا في الطريق الى روما مما أتاح لخصومه الفرصة للتهجم عليه(٦) .

(5) Dio Cass, XXXVIII, 30, 5

(6) Plut., Cato Minor, XXXIV-XL; Dio Cass., XXXIX, 22-23; Cic., de prov. consul., 45; Heitland, III, pp. 150-3; C.A.H., IX, p. 527; S. I. Oost, Class. Philol, 1955, pp 98 ff.; E. Badian, J.R.S., 1965, pp. 110 ff.; Scullard, 1970, p 121 and n 21 p. 425.

ز ـ مكافأة جابينيوس وبيسو :

وجزاء المساعدة التي لقيها قلوديوس من القنصلين في استصدار قانونه بنفي كل من أعدم أو يعدم مواطناً رومانياً دون محاكمة، استصدر في اليوم نفسه الذي صدر فيه هذا القانون الموجه ضد شيشرون قانوناً قضى بإسناد حكم ولاية سوريا الى جابينيوس وحكم ولاية مقدونيا الى بيسو في العام التالي (عام ٥٧ ق . م .)[٧] .

٢ ـ سطوة قلوديوس وتبجحه :

عرفنا أن سلطة الحلفاء الثلاثة كانت قد أصبحت الأداة الفعالة في الدولة بل إنها حلت مكان الدستور الجمهوري . وعندما بارح قيصر روما أصبح قلوديوس صاحب الكلمة العليا فيها بفضل المكانة التي اكتسبها بين أحط العناصر فيها وكذلك بفضل العصابات المسلحة التي جمعها . وإذ استبد الندم ببومبي على تواطئه في نفي شيشرون وأخذ يستطلع الآراء حول استدعائه ، رد قلوديوس على ذلك بتدبير هروب تيجرانس الصغير ابن ملك أرمينيا ، وكان بومبي قد أودعه رهينة في منزل البرايتور فلافيوس . وعندما احتج جابينيوس على هذا التحدي الصارخ لبومبي وآخذ قلوديوس على تصرفه اجترأ التريبون على إهانة القنصل وتحطيم شاراته الرسمية . وذهب في تبجحه الى حد التهجم على بومبي وإهانته أمام الملأ . لفرط سرور النبلاء جزاء تخليه عن شيشرون في محنته . وإرهاباً لبومبي ، اقترب منه في الفوروم أحد عبيد قلوديوس المسلحين لإيهامه بأن النية كانت مبيتة على قتله . ونجحت الحيلة في إرهاب بومبي فانزوى في بيته حتى انتهت مدة تريبونية قلوديوس[٨] .

---

(7) Heitland, III, p. 148; C.A.H., IX, p. 527.

(8) Plut., Pomp., XLVIII-XLIX; Dio Cass., XXXVIII, 30; C.A H., IX, pp. 527-8.

٣ – ميلو :

وقد ساعد على الحد من سطوة قلوديوس في عام ٥٧ ق.م. أنه لم يعد تريبونا للعامة، وأنه كان من بين ترابنة العامة في هذا العام تريبون يدعى تيتوس أنّيوس ميلو (Annius Milo) وكان لا يقل عن قلوديوس جرأة وميلاً الى الشغب ، وأن بومبي شجع ميلو على مقابلة العنف والقوة بمثلهما وساعده على تكوين عصابات من المجالدين تستطيع التصدي لعصابات قلوديوس . وكانت النتيجة الطبيعية أن الفوروم وشوارع روما أصبحت مسرحاً لصراع دموي عنيف راح الكثيرون ضحاياه [٩] .

٤ – استدعاء شيشرون من المنفى :

وساعد على استدعاء شيشرون من منفاه أن أحد قنصلي عام ٥٧ ق.م. – وهو لنتولوس سبينثر (Spinther) – وأحد ترابنة العامة الجدد – وهو بوبليوس سستيوس (Sestius) – كانا من أصدقاء شيشرون وأنصاره في أثناء أزمة قاتيلينا ، وأن بومبي زار جنوده المسرحين المقيمين في قابوا ليضمن تعاونهم معه إذا اقتضى الأمر . وأنه استحث البلديات (municipia) الإيطالية على أن تصدر مجالسها التشريعية المحلية قرارات باستدعاء شيشرون وعلى أن توفد مواطنيها للمشاركة في الموافقة على مشروع قانون بذلك . وبالرغم من تهديدات قلوديوس وأعمال الشغب والعنف التي دبرها ، فإن السناتو وافق بالإجماع – فيما عدا قلوديوس بطبيعة الحال ، على مشروع قانون تقدم به القنصل لنتولوس سبينثر لاستدعاء شيشرون من منفاه . وبعد ذلك ببضعة أيام – في الرابع من أغسطس عام ٥٧ ق.م. – وافقت جمعية المئينات على مشروع القانون . ولم يصل الينا نص هذا القانون . وأغلب الظن أن تكون الجمعية اعتبرت قرار نفي شيشرون باطلاً . وذلك على أساس أنه لا يجوز نفي أي مواطن روماني إلا بعد محاكمته وفقاً للإجراءات القانونية

---

(9) Cic., pro Sestio, 75-78; Dio Cass., XXXIX, 6-8.

الصحيحة . وعلى كل حال فإنه لم ينقض شهر على صدور القانون حتى كان شيشرون قد عاد الى روما حيث استقبل استقبالاً حاراً [١٠].

٥ ـ أزمة القمح :

وعلى حين فجأة واجهت روما بعد عودة شيشرون بثلاثة أيام أزمة شديدة في القمح الى حد أن جمعاً غفيراً أحاط بالسناتو وهدد أعضاءه بالقتل وإحراق المباني العامة . ولمواجهة هذه الأزمة تقدم الى السناتو في السابع من سبتمبر عام ٥٧ ق.م. كل من شيشرون وتريبون العامة جايوس مسّيوس (Messius) بمشروع قانون . وكان مشروع قانون شيشرون يقترح تعيين بومبي مشرفاً على التموين (curator annonae) لمدة خمس سنوات مع منحه سلطة بروقنصلية (imperium proconsulare) تخوله الرقابة على الموانىء والأسواق وتجارة القمح في سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية وشراء القمح وتوفير السفن اللازمة لنقله . وأما مشروع قانون مسّيوس فإنه مضى الى أبعد من ذلك ، فقد اقترح أن توضع تحت إمرة بومبي كل أموال الخزانة العامة وجيش وأسطول مع منحه سلطة أعلى (maius imperium) من سلطة جميع حكام الولايات . وعندما رفض السناتو هذا المشروع الواسع الفضفاض وأقر مشروع قانون شيشرون ، استصدر به القنصلان قانوناً من جمعية المئينات[١١] . وما أن صدر هذا القانون حتى أنفذ بومبي مساعديه (legati) الى مختلف البلاد المصدرة للقمح ، وخف بنفسه الى زيارة صقلية وسردينيا وولاية أفريقيا ، وجمع كميات كبيرة من القمح ، ووفر الناقلات اللازمة ، وبذلك قضى سريعاً على الأزمة[١٢] . وقد عزا قلوديوس الى بومبي تدبير أزمة القمح ليفوز بما كان يرنو اليه من سلطات واسعة [١٣] . بيد أنه يصعب

(10) Velleius, II, XLV, 3, Liv., Ep., CIV; Plut., Cic., XXXIII; Cic., pro Sestio, 35; 75 ff ; ad Att., IV, 1; Orationes post Reditum.
(11) Cic., ad Att., IV, 1; Dio Cass., XXXIX, 9; Plut., Pomp., XLIX, 4
(12) Plut., Pomp., L.
(13) Plut., Pomp., XLIX, 5.

قبول ذلك . لا لأن بومبي أصبح زاهداً في السلطة وإنما لأنه كان يفتقر إلى الخبرة اللازمة لاحتكار تجارة القمح العالمية بحيث يتمكن من حرمان روما احتياجاتها . وأغلب الظن أن رجال الأعمال هم الذين دبروا هذه الأزمة لاستغلال الظروف العصيبة التي كانت روما تجتازها عندئذ . وأن بومبي لم يصطنع الأزمة ولكنه أفاد منها . ولعل أن مشروع مسّيوس كان تعبيراً صادقاً عن الآمال التي كانت تجيش عندئذ في صدر بومبي وإن لم يستتبع ذلك حتماً أنه هو الذي أوحى بهذا المشروع .

٦ – تعويض شيشرون عن بيوته(١٤) :

ولم يكن قلوديوس قد وقف في انتقامه من شيشرون عند نفيه . بل إنه أعقب ذلك بتدمير بيتيه الريفيين وإزالة معالم بيته في روما وتكريس موقع هذا البيت لإلهة الحرية وإقامة تمثال لها على هذا الموقع ، وذلك ليحول قلوديوس دون استعادة شيشرون أرض هذا البيت وإعادة إقامته ثانية . بيد أنه في أواخر شهر سبتمبر عام ٥٧ ق.م. تقدم شيشرون بشكوى الى جماعة الكهنة ، وانتهزت هذه الجماعة فرصة غيبة قيصر ، الكاهن الأكبر ، وقضت بأن ما أقدم عليه قلوديوس كان إجراء باطلاً لأنه لم يُكلف رسمياً بتكريس موقع بيت شيشرون ، وبأنه تبعاً لذلك يجب رد الأرض الى صاحبها وتعويضه عن الأضرار التي لحقت به . واستناداً على ذلك وافق السناتو على ان يُمنح شيشرون التعويض الذي يقدره القنصلان . وبفضل العصابات المسلحة التي كانت تحت إمرة ميلو لم تُجد فتيلاً معارضة قلوديوس ولا اعتراض أحد ترابنة العامة على قرار السناتو . وقد خيب القنصلان أمل شيشرون بتقتيرهما في التقدير . ومع ذلك وبرغم سوء حالة شيشرون المالية . فإنه أعاد بناء بيته في العاصمة برغم اعتداءات عصابات قلوديوس المتكررة على البناءين مما حدا بشيشرون الى الاستعانة بميلو وعصاباته لحمايتهم . فشهدت سفوح تل بالاتينوس معارك

(14) Plut., Cic. XXXIII, 1; Dio Cass., XXXVIII, 6; Cic., de domo sua.

دموية متكررة . وذات يوم أضرم قلوديوس النار في بيت كوينتوس شقيق شيشرون وكان على مسافة يسيرة من بيت أخيه .

٧ ـ استمرار الصراع بين ميلو وقلوديوس :

ولم يقتصر الصراع بين ميلو وقلوديوس عند حرب العصابات بل امتد الى المحاكم . ففي أوائل عام ٥٧ ق.م. أقام ميلو الدعوى على غريمه بتهمة تعكير صفو الأمن . ولم يكن من قلوديوس إلا أنه أثبت عملياً صحة هذه الدعوى وفي الوقت نفسه قضى عليها في مهدها بإطلاق عصاباته على هيئة المحكمة في أثناء انعقادها فبددت شملها وحالت دون انعقادها مرة أخرى . وعندما اقترب موعد الانتخابات عاد ميلو فجدد شكواه على أمل أن تؤدي إقامة الدعوى رسمياً ونظر القضية إلى إبطال ترشيح قلوديوس لوظيفة الأيديلية لعام ٥٦ ق.م. ولكنه بفضل سلسلة من المناورات لعب فيها دوراً هاماً أحد القنصلين ـ وهو متلّوس نبوس ـ وكان يمت بصلة القرابة الى قلوديوس ، أمكن انتحال عذر دستوري لإرجاء إقامة الدعوى ، وبذلك فشلت حيلة ميلو وانتخب قلوديوس أيديلس[١٥] .

وقد أصبح واضحاً أن الصراع بين ميلو وقلوديوس لن ينتهي إلا بمصرع أحدهما أو كليهما . ولم يكن من شأن كل هذه الاضطرابات التي أزعجت المواطنين المسالمين وجعلت شوارع روما غير مأمونة إلا أنها أفادت النبلاء ففازوا بمنصبي القنصلية وبأغلب مناصب البرايتورية لعام ٥٦ ق.م.

٨ ـ مسألة إعادة بطلميوس « الزمار » إلى عرشه :

بعد أن آلت قورينائية الى روما في عام ٩٦ ق.م. بمقتضى وصية بطلميوس أبيون ، أصبحت قبرص آخر ممتلكات مصر الخارجية . وكانت قبرص في حوزة مصر منذ عهد بطلميوس الأول . وإزاء استيلاء روما على قبرص في

---

(15) Dio Cass., XXXIX, 7; Cic., ad Q. fratr., II, 1-2.

عام ٥٧ ق.م. دون أن يحرك بطلميوس الزمار ساكناً وانهماك هذا الملك التافه في إرهاق رعاياه بشتى التكاليف ليدفع الرشوة التي اشترى بها اعتراف روما به ملكاً . تذمرت الإسكندرية تذمراً شديداً . ويحدثنا ديون قاسيوس بأن الإسكندريين طلبوا الى ملكهم إما أن يسترد قبرص من الرومان وإما أن يقطع علاقاته مع مثل هؤلاء الأصدقاء . ولما لم يستطع الملك تهدئة ثائرة الإسكندريين ، فر هارباً الى روما حيث اتهم رعاياه بأنهم طردوه[١٦]. ويتبين من المصادر القديمة أن روما صدقت هذه المزاعم[١٧] ، بيد أن الشواهد تدل على بطلانها[١٨] .

وفي روما أحسن بومبي وفادة بطلميوس الزمار وأنزله في قصره الريفي عند تلال البانوس . وظل الملك الهارب في روما منذ أواخر عام ٥٨ حتى أواخر عام ٥٧ ق.م. يعمل بغير كلل على شراء ذمم أعضاء السناتو بالرشاوى والوعود لتحقيق بغيته . ولما كانت موارد مملكته قد انقطعت عنه فإنه استدان مبالغ طائلة من الممول الروماني رابيريوس بوستوموس (Rabirius Postumus)[١٩] . وعقب وصول الملك الى روما أوفد الإسكندريون الى السناتو بعثة كبيرة على رأسها الفيلسوف ديون لتبرر تصرفاتهم وتدحض مزاعم الملك . ولكي يحول بطلميوس دون سماع وجهة نظر الإسكندريين دبر مقتل بعض المبعوثين وهم في الطريق الى روما والبعض الآخر في روما ذاتها وشراء ذمم بقيتهم . واذا كان ديون قد نجا بحياته أول الأمر ودعاه السناتو إلى الإدلاء بأقواله ، فإن الملك أقنع ديون بوسائله الخاصة بألا يلبي الدعوة ، ثم دبر مقتله لكي يضمن ألا يفتح فمه على الإطلاق[٢٠] .

---

(16) Dio Cass., XXXIX, 12.
(17) Cic., pro Rab Post., 2; Liv Ep., CIV; Strab., XII, 558; XVII, 796.
(١٨) راجع إبراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالمة ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٢٥٢ — ٢٥٧ .
(19 Strab., XVII, 796; Dio Cass , XXXIX, 14; Cic., pro Rab. Post., 3.
(20) Dio Cass , XXXIX, 14; Cic., pro Cael., 10; 22.

وقد قرر السناتو إسناد مهمة إعادة الملك الى عرشه الى القنصل سبينثر وكان على وشك الذهاب الى قيليقيا ليتولى حكمها في العام التالي[٢١] . ولما كان الملك يفضل إسناد هذه المهمة الى بومبي فإنه غادر روما الى أفسوس تاركاً وراءه أمونيوس في روما للسهر على مصالحه وتوزيع الرشاوى أملاً في تعديل القرار لصالح بومبي[٢٢] . وقد كان كل من بومبي[٢٣] وقراسوس[٢٤] يطمع في الحصول على هذهالمهمة ، على حين أن فريقاً من النبلاء يتزعمهم ماركوس فافونيوس كانوا يعارضون التدخل في هذه المسألة على الإطلاق .

وقد استُخدمت حيلة بارعة لإبطال قرار السناتو من ناحية ولإنقاص قدر المهمة من ناحية أخرى فيزهد فيها بومبي . ذلك أنه عندما حدث في أوائل شهر يناير عام ٥٦ ق.م. أن صاعقة أصابت تمثال يوبيتر لاتياريس (Jupiter Latiaris) على قمة تلال ألبانوس ، انتُهزت هذه الفرصة لترويج شائعات بأن حدوث ذلك نذير سوء من السماء . وتبعاً لذلك فإنه وفقاً لعادة الرومان في مثل هذه الأحوال كان لا بد من قيام اللجنة المنوطة برعاية وتفسير كتب الوحي السيبولية (Sibyllae) المقدسة عند الرومان باستطلاع هذه الكتب بحثاً عن الوسيلة الملاءمة لاسترضاء الآلهة . وقد زعمت اللجنة أنها وجدت هذه النبوءة : « إذا جاءكم ملك مصر ينشد المعونة فلا ترفضوه صداقتكم ، ولكن لا تذهبوا لمساعدته بقوة كبيرة وإلا حاقت بكم المتاعب والأخطار » . وجرياً على العرف المألوف كانت النبوءات السيبولية تعتبر سراً خطيراً من أسرار الدولة الى أن تُبلغ هذه النبوءات الى السناتو ويتخذ قراراً بشأنها ، بيد أن تريبون العامة جايوس قاتو خرج على هذا العرف وأرغم اللجنة على إذاعة نص النبوءة على الملأ قبل صدور قرار من السناتو بذلك[٢٥] .

---

(21) Dio Cass., XXXIX, 13, 3.
(22) Cic., ad Fam., I, 1, 1.
(23) Cic., ad Fam., I, 1, 3.
(24) Cic., ad Q. fratr., II, 3, 2.
(25) Dio Cass. XXXIX, 15.

وسبب إقدام التربيون جايوس قاتو على إذاعة النبوءة على الملأ هو إرغام السناتو على مراعاتها إرضاءً لمشاعر الجماهير الدينية ، لأنه كان من حق السناتو إما أن ينفذ أية نبوءة تُبلغ اليه وعندئذ يقرر إذاعة نصها ، وإما أن يغفل أمرها على أساس أنها خرافة لا وزن لها ولا قيمة وعندئذ تبقى النبوءة طي الكتمان .

ولم يعد إذ ذاك مفر إذن من مراعاة مشاعر الجماهير الدينية ، بيد أن أولئك الذين كانت لهم صوالح في إعادة بطلميوس قالوا بأن الحظر لم ينصب إلا على استخدام القوة وبأنه يمكن إعادة الملك بالوسائل السلمية . وبقي إذن أن يتقرر من يكون المبعوث الروماني الذي يتولى هذه المهمة . أهو سبينثر أم بومبي أم قراسوس ؟ غير أنه لم تكن لبطلميوس ثقة إلا في بومبي . وقد احتدمت المناقشة في الجلسات التي عقدها السناتو في الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من يناير عام ٥٦ ق.م. حول ثلاثة اقتراحات. كان أحدها يدعو الى تنفيذ القرار الذي سبق للسناتو اتخاذه، أي الى قيام سبينثر بإعادة الملك . وكان الاقتراح الثاني يدعو الى إسناد هذه المهمة الى بومبي الذي تظاهر سواء في أحاديثه الخاصة أم في السناتو بتأييد سبينثر بينما نشط أصدقاؤه في الترويج لاختياره . وكان الاقتراح الثالث يدعو الى أن يقوم بمهمة إعادة بطلميوس ثلاثة مبعوثين بدلاً من مبعوث واحد . وكان قراسوس صاحب هذا الاقتراح ، وكان هدفه من وراء إسناد المهمة الى ثلاثة أشخاص بعث بومبي على الزهد فيها بعد الإقلال من شأنها إلى هذا الحد[٢٦] . ولم تتفق الآراء إلا على شيء واحد وهو عدم استخدام القوة في إعادة بطلميوس الى عرشه فأصدر السناتو قراراً بذلك[٢٧] . وفي السابع عشر من يناير أصدر السناتو قراراً بحظر التدخل في إعادة بطلميوس . ولكن بعض ترابنة العامة صادروا هذا القرار[٢٨] . وفي أواخر شهر يناير تقدم اثنان من ترابنة العامة الى جمعية القبائل بمشروع

(26) Cic, ad Fam., I, 1, 3.
(27) Cic., ad Fam, I, 2.
(28) Cic., ad Fam, I, 7, 4.

قانون يعهد الى بومبي بإعادة بطلميوس الى عرشه[٢٩] ، ولا نعرف كيف حيل دون الموافقة على هذا المشروع وإن كنا نعرف أنه كان يسود جلسات الجمعية شغب عنيف واضطرابات شديدة في شهري يناير وفبراير ، وأن قلوديوس كان يدعو الى اختيار قراسوس[٣٠] ، ولكن النبلاء استخدموا كل الوسائل للحيلولة دون ذلك . ويحدثنا ديون قاسيوس بأن الشعب أصدر قانوناً بعدم مساعدة بطلميوس على استعادة عرشه[٣١] ولكن شيشرون ، وهو الذي نستمد منه أكثر معلوماتنا عن هذه المسألة، لا يذكر شيئاً عن صدور مثل هذا القانون . ويدق علينا أن نفهم كيف أن جمعية القبائل أصدرت مثل هذا القانون دون أن يصادر مشروعه ترابنة العامة الذين كانوا يناصرون بطلميوس وصادروا من قبل قراراً مماثلاً للسناتو . وعلى كل حال فإنه في شهر يوليه عام ٥٦ ق . م . لم يكن قد تم شيء في مسألة إعادة بطلميوس إلى عرشه .

٩ — مؤتمر لوقا (Luca) :

عرفنا كيف أن الظروف أدت الى تكوّن « الحلف الثلاثي » لتحقيق أهداف أعضائه ، وكيف أن قيصر كان الرئيس الفعلي لهذا الحلف وأكثر أعضاءه مهارة وجرأة . وبعد أن تحققت هذه الأهداف وذهب قيصر الى ولايتيه بدأت أركان الحلف الثلاثي تتصدع . ذلك أن الدور الباهر الذي كان ابن قراسوس يقوم به مع قيصر في بلاد الغال ألهب طموح الأب في الفوز بمجد عسكري ، كما أن تعيين بومبي مشرفاً على التموين أثار من جديد غيرة قراسوس منه . وقد كان من جراء المشاعر التي استحوذت عندئذ على قراسوس أنها حفزته على منافسة بومبي منافسة شديدة على الفوز بمهمة إعادة بطلميوس الى عرشه . وإزاء الصلة الوثيقة بين قراسوس وقلوديوس، وموقف قلوديوس الودي تجاه قراسوس والعدائي تجاه بومبي ، لا بد من أن يكون بومبي قد أحس

---

(29) Cic., ad Fam., I, 5, ad Q. fratr., II, 2, 3.
(30) Cic., ad Q. fratr., II, 3, 2; Plut., Pomp., XLVIII.
(31) Dio Cass, XXXIX, 55, 1.

بأنه كانت لقراسوس يد في الإهانات البالغة التي ألحقها به قلوديوس ، ولا بد من أنه كان من شأن ذلك اتساع الهوة بين بومبي وقراسوس . ويعطينا صورة لموقف قلوديوس المتباين تجاه كل من بومبي وقراسوس وللأثر المحتوم لمثل هذا الموقف في نفس بومبي ما تحدثنا به المصادر القديمة من أنه عندما قدم قلوديوس غريمه ميلو للمحاكمة أمام جمعية القبائل في شهر فبراير عام ٥٦ ق . م . بتهمة إحاطة نفسه بحرس مسلح من المجالدين — أي بذات التهمة التي كان هو نفسه يرتكبها — وتقدم بومبي للشهادة في صالح ميلو ، طغى الضجيج على صوت الشاهد الكبير . وما كاد بومبي يختم كلامه حتى وقف قلوديوس للكلام ، فارتفعت الجلبة من ناحية معارضيه ليردوا له التحية بأحسن منها ، وانطلقت الألسنة تقذف قلوديوس وأخته قلوديا — وكان لا يُشق لها غبار في ميدان الهوى — بالشتائم والأشعار الجارحة . ووسط هذا الشغب رفع قلوديوس عقيرته موجهاً الى عصابته أسئلة كانت أجوبتها متفقاً عليها ، بدليل تكرار ذات الأسئلة وذات الأجوبة في عدة مناسبات . ومن أمثلة هذه الأسئلة والأجوبة : س : « من الذين يريد إهلاك العامة جوعاً ؟ » ج : « بومبي ! » س : « ومن الذي يريد الذهاب إلى الإسكندرية ؟ » ج : « بومبي ! » س : « ومن الذي تريدون إرساله إلى الإسكندرية ؟ » ج : « قراسوس ! »(٣٢) .

وكان بومبي برماً بقيصر أيضاً ، لأنه بعد أن ورطه في التواطؤ معه على نفي شيشرون مما أوقع بومبي في حرج شديد ، لم يحاول قيصر وقف الأساليب العنيفة التي استخدمها صنيعته قلوديوس للحيلولة دون إعادة شيشرون برغم موافقة قيصر على إعادته ، مما اضطر بومبي الى استخدام ميلو لمقابلة العنف بمثله .

ولا أدل على ضيق بومبي بحليفيه وشعور المقربين اليه بذلك مما يحدثنا به بلوتارخ(٣٣) من أن كوينتوس ترنتيوس قولّيو (Terentius Culleo) — أحد

(32) Dio Cass., XXXIX, 18-19; Plut., Pomp., XLVIII; Cic., ad Q. fratr. II, 3, 2.
(33) Plut., Pomp., XLIX, 3.

أصدقاء بومبي – نصحه بأن يطلق يوليا وينفض يده من قيصر وينحاز إلى النبلاء. ولعل أن بومبي لم يأخذ بهذه النصيحة لأن موقف النبلاء تجاه اقتراح مسّيوس في أثناء أزمة القمح وتجاه مطالبة بطلميوس الزمار بإسناد مهمة إعادته الى بومبي قد أقنعه بأن النبلاء لا يثقون فيه وبأنه لن يجني من وراء قطع علاقاته مع قيصر إلا كسب عدائه . ولا جدال في أن ذلك لم يكن أمراً هيناً ، لأنه إذا كان بومبي يلقى كل تلك الإهانات وهو لا يزال حليف قيصر فما بالنا بما كان يلقاه إذا جاهره بالعداء .

ولم يتعرض الحلف الثلاثي الى تصدع من الداخل فحسب بل الى هجمات من الخارج . ذلك أنه فضلاً عما سبقت الإشارة اليه من مظاهر الاحتجاج على مسلك الأقطاب الثلاثة ، فإنه ما أن تولى تريبون العامة بوبليوس روتيليوس لوبوس مهام منصبه في العاشر من ديسمبر عام ٥٧ ق . م . حتى هاجم قانون قيصر الخاص بتوزيع الأرض العامة في قمبانيا[٣٤] ، إذ يبدو أن جنود بومبي لم يكونوا أكثر توفيقاً من جنود صلا في ممارسة الزراعة ، وتبعاً لذلك ذهبت سدى تضحية الدولة بالدخل الذي كان يعود عليها من وراء تأجير أرض قمبانيا وكان مصدراً هاماً من مصادر إيرادات الخزانة العامة . وقد أصغى شيشرون منشرح الصدر لخطبة لوبوس (Lupus) التي جمعت بين التهجم على قيصر والتقرب الى بومبي . ولكنه نظراً الى غياب بومبي عن روما عندئذ لانهماكه في معالجة أزمة القمح والى ضرورة مناقشة الموضوع في حضوره أُرجىء الموضوع الى حين عودته . وفي شهر مارس عام ٥٦ ق . م . عندما تولى شيشرون الدفاع عن سستيوس هاجم قلوديوس وفاتينيوس ، صنيعَيّ قيصر ، هجوماً عنيفاً وناشد كل المواطنين الأوفياء للدستور أن يعدوا أنفسهم للدفاع عنه[٣٥] . وبعد ذلك بقليل ، في الخامس من أبريل ، أثــار شيشرون في السناتو مسألة أرض قمبانيا ، ولكن مناقشة هذا الموضوع أرجئت

---

(34) Cic., ad Q. fratr., II, 1, 1; ad Att., 7; ad Fam, VIII, 10, 4.
(35) Cic , pro Sestio; cf. L.G Pocock, A Commentary on Cicero, in Vatinium.

الى جلسة ١٥ من مايو ، وكان مقدراً ألا يثير شيشرون هذا الموضوع ثانية ، على نحو ما سنرى . ولا نعرف فحوى الخطبة التي ألقاها شيشرون في أبريل ، ولكنه يتبين مما جاء في إشارته(٣٦) اليها أنه نهج في هذه الخطبة نهج لوبوس في خطبته ، وهو نهج كان من شأنه توسيع هوة الخلاف بين قيصر وبومبي . وحوالي هذا الوقت كان لوقيوس دوميتيوس أهنوباربوس(Ahenobarbus) — أحد برايتورس عام ٥٨ ق . م . ومن أشد خصوم الحلف الثلاثي — قد بدأ حملته الانتخابية للفوز بأحد منصبي القنصلية لعام ٥٥ ق . م . وجاهر بأنه عندما يُنتخب سيستخدم سلطته القنصلية لحرمان قيصر ولايتيه(٣٧) ، وهما اللتان فشل في حرمان قيصر كلتيهما في مستهل عام ٥٨ ق . م . عندما طالب دون جدوى هو وزميله البرايتور جايوس مميوس بإجراء تحقيق في تصرفات قيصر في أثناء قنصليته(٣٨) .

وكان قيصر يقضي شتاء عام ٥٧/ ٥٦ ق . م . في ولاية غاليا هذه الناحية من الألب . وفي شهر أبريل عام ٥٦ ق. م . كان في رافنّا (Ravenna) حيث أتته أنباء النذر الخطيرة التي أخذت تتجمع في روما . وقد كان قيصر يدرك جيداً أمرين: وأحدهما هو أنه لم يكن عندئذ في مركز يسمح له بمواجهة حرب أهلية يتولى فيها بومبي قيادة خصومه دفاعاً عن الجمهورية ، ذلك أن أغلب جنود قيصر كانوا فيما وراء الألب وأهم من ذلك لم يكونوا قد بلغوا ما بلغوه فيما بعد من الكثرة والكفاية العسكرية . والأمر الآخر هو أن فتح بلاد الغال كان سيكسبه من المجد والقوة والأسلاب ما يتيح له أن يفعل بعدئذ ما يشاء . بيد أن الفترة الباقية من مدة قيادة قيصر — أي حتى أول مارس عام ٥٤ — كانت لا تسمح له إلا بالقيام بحملتين اثنتين فقط — حملتي عامي ٥٦ و٥٥ — على حين أن استكمال فتح بلاد الغال كان يتطلب تجديد مدة بروقنصليته خمس

---

(36) Cic., ad Q. fratr., II, 5, 1; cf. M. Cary, Class. Quar., 1923, pp. 103 ff.
(37) Sueton., Div. Jul., XXIV, 1.
(38) Sueton., XXIII, 1.

سنوات أخرى . وتبعاً لذلك فإنه لكي يحقق قيصر بغيته كان لا بد من أن ينفخ في صورة الحلف الثلاثي بالإصلاح بين بومبي وقراسوس وإشباع نزواتيهما .

وقد تصرف قيصر بسرعة مذهلة فإنه إذ دعا بومبي وقراسوس للاجتماع به في لوقا بشمال أتروريا ، أرسل الهدايا الى عدد كبير من أعضاء السناتو وحكام ذلك العام والحكام السابقين الذين كانوا على وشك الذهاب الى ولاياتهم. فخف الى لوقا ٢٠٠ من أبرز رجال الحياة العامة الرومانية و ١٢٠ من حشم الحكام . وإذا كان قيصر قد تعمد أن يحيط الناس علماً (lictores) باجتماع الأقطاب الثلاثة وذلك لإفهام الجميع أن الحلف الثلاثي كان لا يزال القوة الحقيقية في الدولة ، فإنه تعمد كذلك أن يبقي طي الكتمان ما اتفق الحلفاء الثلاثة عليه الى أن ينفذ كل شيء . وقد اتفق هؤلاء الحلفاء على متابعة التعاون سوياً وتحقيق أهدافهم باتخاذ الخطوات اللازمة لإطالة مدة بروقنصلية قيصر خمس سنوات أخرى ، وتولي بومبي وقراسوس قنصلية عام ٥٥ ق . م . على أن يتبع ذلك إسناد حكم ولايتي إسبانيا الى بومبي وولاية سوريا الى قراسوس لمدة خمس سنوات كذلك ، وإسناد مهمة إعادة بطلميوس الى عرشه الى جابينيوس . وكبح جماح قلوديوس وإسكات شيشرون [٣٩].

وقد كان كوينتوس شقيق شيشرون مساعداً (legatus) لبومبي في مهمة الإشراف على التموين . وفي طريق العودة من لوقا أسر بومبي الى كوينتوس أنه أخذ على مسئوليته أن شيشرون لن يعارض سياسة الحلف مستقبلاً وعلى ذلك فإنه ينبغي تحذيره بضرورة العدول عن مسلكه وإفهامه أنه أعيد من المنفى بموافقة قيصر بشرط ألا يهاجم تشريعاته [٤٠] . وعندما بادر كوينتوس بإبلاغ الرسالة الى أخيه ، أدرك شيشرون أن استمراره في سياسته العدائية سيؤدي الى نفيه ثانية ، وأنه لن يكون هناك شيء أحب الى قلوديوس من أن يتولى أمر

---

(39) App., B.C, II, 17; Dio Cass., XXXIX, 27; Sueton., Div. Jul, XXIV; Plut., Caes., XXI; Pomp., LI; Cato Minor, XLI; Crass., XIV

(40) Cic., ad Fam, I, 9, 8-12.

ذلك . وقد كانت نتيجة هذا التهديد أن شيشرون لم يثر ثانية موضوع أرض قمبانيا وهو الموضوع الذي مر بنا أن مناقشته أُجلت الى جلسة السناتو في ١٥ من مايو عام ٥٦ ق . م .(٤١) ولم يقف الأمر عند انقطاع شيشرون عن مهاجمة تشريعات قيصر ، إذ أنه دار دورة كاملة بحيث أصبح نصيراً للحلف الثلاثي ، فهو لم يلبث أن ألقى في السناتو في يونيه عام ٥٦ خطبة(٤٢) رنانة ضد المحاولة التي بُذلت عندئذ لتقليم أظافر قيصر بعد النجاح الذي أحرزه في محاربة الغال بإرسال قائد آخر يخلفه في قيادة القوات الرومانية في هذه الحرب . وفي العام التالي أيد شيشرون حق قيصر في إطالة مدة قيادته في بلاد الغال . وفي عام ٥٤ ق . م . عندما قُدم للمحاكمة فاتينيوس وجابينيوس ، صنيعتي قيصر وبومبي على التوالي، تولى شيشرون الدفاع عنهما . وفي خلال الفترة من عام ٥٢ الى عام ٥٠ ق . م . ، عندما تأزمت العلاقات بين بومبي وقيصر حاول شيشرون الإصلاح بينهما دون أن يصاحبه التوفيق في ذلك .

وانصراف شيشرون عن النبلاء ، وهم الذين كان يشاركهم الحرص على النظام الجمهوري ، الى المجاهرة بتأييد الحلف الثلاثي كان مسلكاً بغيضاً أشد البغض الى شيشرون ولكن الظروف أرغمته على اتباعه كارهاً ، وهو ما تنم عنه ثلاثة من خطاباته(٤٣) تفيض بالحزن والأسى على ما وصلت اليه الحالة السياسية من وضع جعله عاجزاً عن اتباع أي مسلك آخر. فقد أدرك والحسرة تقطع نياط قلبه خوار عزيمة النبلاء الذين كان يسرهم أن يروا اصطراعه مع الأقطاب الثلاثة ولكنهم كانوا لا يحفلون بما يحيق به ولا يحركون ساكناً لحمايته . وبمهـــارة فائقة يسّر قيصر على شيشرون هذا التحول ، فقد عُني قيصر بإظهار تقديره البالغ لمواهب شيشرون وبالاستجابة الى طلباته وتوصياته ، وكان منها ترقية كوينتوس شقيق شيشرون بتعيينه مساعداً (legatus) لقيصر(٤٤) .

(41) Cic., ad Q. fratr., II, 6, 2
(42) Cic., de provinciis consularibus, edited by M. Cary, 1924.
(43) Cic., ad Fam., I, 9, 10; ad Att., IV, 3, 2; 5.
(44) Cic., ad Q. fratr., II, 10 (12), 4, 5, Heitland, III, pp. 185-6

ثانياً – المرحلة الثانية : منذ مؤتمر لوقا حتى نشوب الحرب الأهلية

١ – انتخاب بومبي وقراسوس قنصلين مرة أخرى :

ولما كان قنصلا عام ٥٦ ق . م . –جنايوس لنتولوس ماركلّينوس (Marcellinus) ولوقيوس ماركوس فيليبوس – من النبلاء وخصمين للأقطاب الثلاثة ، فإنهما عند عودة بومبي وقراسوس من لوقا رفضا قبول ترشيح هذين القطبين لوظيفة القنصلية لعام ٥٥ ق . م . بسبب انتهاء موعد الترشيح . وإزاء ذلك استخدم القطبان تريبون العامة جايوس قاتو وغيره من الموالين لهما للحيلولة دون إجراء الانتخابات في خلال عام ٥٦ حتى اذا ما انتهى ذلك العام وانتهت معه مدة حكم القنصلين الخصمين دون انتخاب قنصلين جديدين ، وعين حاكم مؤقت (interrex) مسالم في أول يناير عام ٥٥ لإجراء الانتخابات تمكن بومبي وقراسوس عندئذ من ترشيح نفسيهما للقنصلية . وكان من جراء ذلك أنه باستثناء دوميتيوس أهنوباروس انسحب المرشحون الآخرون من المعركة الإنتخابية . ويعزى عدم انسحاب دوميتيوس إلى تأثير ماركوس بورقيوس قاتو . وكان قد عاد من الخارج ويرى أن انفراد الحليفين بالقنصلية يهدد النظم الجمهورية والحرية الرومانية . ولم يلبث أن هب كثيرون من النبلاء يشدون أزر دوميتيوس ويدعون الى انتخابه . وعندما خشي بومبي وقراسوس أن يؤدي ظهور دوميتيوس في جمعية المئينات يوم الانتخاب ومن حوله النبلاء الذين يشدون أزره ويناصرون انتخابه الى كسب جانب المواطنين المتزنين في الرأي وتبعاً لذلك إلى فشل أحد الحليفين ، أعدا العدة لمنع ظهور دوميتيوس في الجمعية يوم الانتخاب . ومن ثم فإنه في ذلك اليوم عندما كان دوميتيوس وبعض رفاقه في طريقهم إلى ساحة الإله مارس – حيث كانت تنعقد جمعية المئينات – انقض عليهم نفر من رجال الحليفين وقتلوا تابع دوميتيوس وأصابوا الآخرين بجراح فآثر دوميتيوس السلامة والعافية وعاد إلى بيته . وبذلك خلا الجو لبومبي وقراسوس فانتخبا قنصلين . وبعد

ذلك دبرا شغل أغلب الوظائف العامة برجال من أنصارهما والحيلولة دون فوز مارقوس بورقيوس قاتو بأحد مناصب البرايتورية حتّى لا يشتد ساعده في معارضة الحلف . وقد ساعد بومبي وقراسوس على إجراء الانتخابات وفق أهوائهما قدوم قراسوس الصغير (مساعد قيصر) الى روما على رأس بعض القوات فمضت الانتخابات في يسر وسهولة فيما عدا في حالة انتخابات الأيديلس فقد أريقت فيها بعض الدماء غير أن جميع شاغلي الوظائف باستثناء اثنين من ترابنة العامة ــ وهما جايوس آتيوس قابيتو (Ateius Capito) وبوبليوس أكويليوس جالّوس ــ كانوا من أنصار الحلف الثلاثي(٤٥) .

وهكذا بدا أن الأمور استتبت للحلف الثلاثي ، ولا سيما أن أكثر النبلاء استسلموا على الأقل لسيطرة بومبي . وأن الفرسان رأوا في تولي قراسوس القنصلية خير ضمان لممارسة نشاطهم في جمع المال . وأن كثيرين من العامة كانوا على أتم استعداد لإثارة الشغب والتصارع وفقاً لأوامر قلوديوس أو ميلو . بيد أن ذلك كله لم يفتّ في عضد فئة قليلة من النبلاء رأت في سيادة الحلف خطراً يتهدد مُثلها العليا واحترامها لذاتها وأطماعها الشخصية فأخذت تلتف حول قاتو وتشد أزره في المعارضة للحلف دفاعاً عن النظم الجمهورية .

٢ ــ تشريعات بومبي وقراسوس :

ا ــ قانون قضائي جديد :

يبدو أن أول هذه التشريعات كان قانوناً قضائياً استصدره بومبي (Lex Pompeia iudicaria) وقضى بألا يختار المحلفون إلا من بين أغنى أعضاء السناتو والفرسان وترابنة الخزانة العامة(٤٦) . ويبدو أن الهدف من هذا التشريع كان إصلاح القضاء بحرمان برايتور المدينة (praetor urbanus)

---

(45) Dio Cass., XXXIX, 27-32; Cic., ad Q. fratr., II, 7; App. B.C., II, 17; Plut, Cato Minor, XLI-XLII; Crassus, XV, Pomp., LII.

(16) Asconius, 17 C; C.A.H., IX, p. 615.

استغلال سلطته سنوياً في اختيار المحلفين ، وباستبعاد أقل العناصر ثراء على أمل أن تكفل وفرة الثراء جعل المحلفين أقل استعداداً لبيع ذممهم .

ب ـ قانون المنتديات السياسية :

ولما كانت المنتديات السياسية (Sodalicia) تنتشر بنوع خاص بين القبائل الريفية ، وكانت المعارضة قد لجأت الى استخدام هذه المنتديات في توزيع الرشوة على الناخبين(٤٧) ، فإن قراسوس لم يلبث أن استصدر قانوناً (Lex Licinia de Sodaliciis) قضى بفرض عقوبات على استغلال هذه المنتديات في الدعاية الانتخابية ، وباتباع إجراءات كان المراد منها تيسير الحصول على أحكام بإدانة مرتكبي جرائم الرشوة في الانتخابات . ذلك أن هذا القانون خول للمدعي في المحاكمات الخاصة بمثل هذا النوع من الجرائم أن يحدد أربع قبائل يُختار منها المحلفون على ألا يحق للمدعى عليه أن يرد أكثر من قبيلة واحدة من هذه القبائل (٤٨) . ومن الجلي أنه اذا كان من شأن هذا القانون أن يكفل محاكمة المتهم أمام محلفين لم يشتر ذمم قبائلهم ، فإنه لم يكن من شأنه أن يكفل منع المتهم من شراء ذمم المحلفين أنفسهم ، وهو ما كان أيسر وأقل ثمناً . وعلى كل حال فإن استصدار هذا القانون يدل على الشعور بأن الاحتياط الذي قضى به قانون بومبي القضائي من حيث اختيار المحلفين من أكثر المواطنين ثراء كان لا يكفل نزاهة الأحكام . كما أن استصدار هذين القانونين يدل على مدى تفشي الرشوة وكذلك على صعوبة استصدار أحكام بإدانة مرتكبيها .

وقد حاول بومبي توسيع نطاق قانون قيصر الخاص بابتزاز الأموال في الولايات . ولكنه عندما أثار الموضوع في السنانو لم يلق تأييداً من قراسوس وقضى على محاولته ما صادفه من معارضة النبلاء والفرسان(٤٩) .

---

(47) Heitland, III, p. 226.
(48) Cf Cic., pro Planc., 36-47.
(49) Cic., pro Rab. Post, 6, 13; C.A.H., IX, p. 615.

جـ – قانون بولايات بومبي وقراسوس وقانون بإطالة بروقنصلية قيصر :

وبرغم معارضة قاتو وفافونيوس وتريبوني العامة قابيتو وجالّوس ، صدر فيما يبدو في وقت واحد قانونان[٥٠] كانا أهم تشريعات قنصلية بومبي وقراسوس الثانية وأبعدها أثراً في مجرى الأحداث التالية . وأحد هذين القانونين هو القانون (Lex Trebonia) الذي استصدره تريبون العامة جايوس تربونيوس وقضى بأن يسند الى بومبي حكم ولايتي إسبانيا والى قراسوس حكم ولاية سوريا لمدة خمس سنوات منذ انتهاء مدة قنصليتهما مع تخويلهما حق إعلان الحرب وعقد الصلح وحشد كل القوات اللازمة سواء من المواطنين أم من الحلفاء . وأما القانون الآخر فإن القنصلين هما اللذان استصدراه بنفسيهما وهو القانون (Lex Pompeia Licinia de provincia Caesaris) الذي قضى بإطالة مـدة بروقنصلية قيصر خمس سنوات أخرى . وذلك تأميناً لاستمراره في حكم ولايتيه وبخاصة ولاية غاليا فيما وراء الألب ومن ثم إتاحة الفرصة أمامه لاستكمال فتح بلاد الغال . فقد كان هذا الفتح نتيجة لتولي حكم قيصر الولاية الأخيرة ، وهي التي مر بنا أن إسناد حكمها اليه أصلاً لم يكن بمقتضى قانون من الشعب لمدة خمس سنوات مثل ما كانت الحال فيما يخص إسناد حكم ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ، وإنمـا بمقتضى قرار من السناتو لعام واحد قابل للتجديد سنوياً ، وتبعاً لذلك كان رهناً بمشيئة السناتو . وتختلف آراء الباحثين اختلافاً بيناً حول تاريخ انتهاء الخمس السنوات الجديدة ، وفي اعتقادنا أنه ربما كان أدناها الى الصواب الرأي القائل بأن هذا التاريخ هو أول مارس عام ٤٩ ق . م .[٥١] وحسبنا دليلاً

---

(50) Dio Cass., XXXIX, 33-36; Plut., Pomp., LII; Cato Minor, XLIII; Crassus, XV, 5; App., B.C., II, 18; Sueton., Div. Jul., XXIV; Velleius, II, 24; Cic., ad Fam., III, 8, 4-9, 11, 3; ad Att., VII, 7, 6; 9, 3.

(51) Heitland, III, pp. 243-4; How and Clark, Cicero, Select Letters, Appendix V, 1926; T.R. Holmes, Rom. Rep., II, pp. 199 ff.; G. Elton, J.R.S., 1946. pp. 18 ff.; cf. Marsh, The Founding of the Roman Empire, 1927, pp. 275 ff. (أول مارس عام ٥٠) ; F.E. Adcock, C.A.H., IX, p. 617; Class Quar., =

على ذلك أربع قرائن : وإحداها هي أن الخمس السنوات الأولى كانت تنتهي في أول مارس عام ٥٤ ق . م . والقرينة الثانية هي أن قيصر كان يدرك تمام الإدراك أن خصومه متربصون لمحاكمته بمجرد انتهاء مدة بروقنصليته وأن فرصته لتفويت ذلك عليهم كانت في توليه القنصلية مرة أخرى في أعقاب انتهاء بروقنصليته . وأنه كان لا يستطيع ذلك دستورياً بمقتضى قانون تنظيم تولي الوظائف العامة (Lex Villia annalis) قبل انقضاء عشر سنوات على انتهاء مدة قنصليته الأولى أي قبل أول يناير عام ٤٨ ق . م . وتبعاً لذلك لا بد من أنه لم يفت قيصر أن يرتب مع حليفيه أن تكون إطالة مدته حتى أول مارس عام ٤٩ ق . م . دون أن تكون به حاجة الى مدها الى ما بعد ذلك لأنه في كنف قانون جايوس جراكوس (Lex Sempronia de provinciis consularibus) وهو الذي كان لا يزال عندئذ معمولاً به وكذلك وفقاً للعرف القديم المعمول به كان للبروقنصل الذي تنتهي مدة حكمه في خلال عام من الأعوام أن يبقى في ولايته حتى نهاية ذلك العام . وأما إذا لجأ السناتو الى التحايل على ذلك بوسيلة أو أخرى لإيفاد من يخلف قيصر بمجرد انتهاء مدة بروقنصليته فإنه كان في وسع قيصر عندئذ الاعتماد على أنصاره من ترابنة العامة في استخدام حق الڤيتو ضد هذه المحاولة . ولم يبق بعد ذلك إلا أن يدبر قيصر ترشيح نفسه للقنصلية غيابياً . ورواية كل من ديون قاسيوس [٥٢] وسويتونيوس عن ذلك تمدنا بالقرينة الثالثة على أن المدة الثانية لبروقنصلية قيصر كانت تنتهي في أول مارس عام ٤٩ أي في خلال العام الذي كان القانون يخوله ترشيح نفسه ثانية للقنصلية . ذلك أن ديون قاسيوس يحدثنا بأنه في خلال

1932, pp. 14 ff. (١٣ نوفمبر عام ٥٠); C.E. Stevenson, Amer. Journ. Philol., 1938, pp. 169 ff. (فيما بين يوليه واكتوبر عام ٥٠) ; J.P.V. Baldson, J.R.S., 1939, pp. 157 ff., (لم يحدد القانون موعداً بعينه) ; Scullard, 1970, p. 123 and n. 25 426 (أواخر عام ٥٠ أو أوائل عام ٤٩) (مصادر ومراجع).

(52) Dio Cass., XL, 51, 2; Sueton., Div. Jul., XXVI, 1.

عام ٥٢ ق . م . رتب بومبي مع ترابنة العامة أمر السماح لقيصر بترشيح نفسه غيابياً « عندما يحين الوقت المناسب طبقاً لأحكام القانون » . ويحدثنا سويتونيوس بأنه عندما علم قيصر في أوائل عام ٥٢ ق . م . بأن أنصاره كانوا يدعون الى اختياره زميلاً لبومبي في القنصلية طلب إليهم قيصر العدول عن ذلك وأوصاهم باستصدار قانون بالسماح له بترشيح نفسه غيابياً للقنصلية عندما تنتهي مدة بروقنصليته . وسنعرف فيما بعد أن ترابنة العامة العشرة استصدروا في عام ٥٢ ق . م . قانوناً بإعفاء قيصر من شرط ترشيح نفسه للقنصلية حضورياً . والقرينة الرابعة مستمدة مما سنراه من موقف بومبي في أواخر عام ٥١ ق . م . عندما تجلى ميله إلى استدعاء قيصر ولكنه فيما يبدو بدافع من الرغبة في الظهور بمظهر الرجل المنصف وفي احترام اتفاقه مع قيصر على مساعدته على الاحتفاظ ببروقنصليته حتى أول مارس عام ٤٩ صرح بأنه لا يمكن أن يشارك في مناقشة مسألة تعيين خلف لقيصر قبل أول مارس عام ٥٠، أي في بداية العام الأخير لبروقنصلية قيصر حين كان يتعين عمل الترتيب اللازم لاختيار من يخلف قيصر عند انتهاء مدته . .

د ــ قانون جديد للأراضي :

ومن المحتمل أنه في عام ٥٥ ق . م . استصدر خمسة من ترابنة العامة قانوناً [٥٣] (Lex Mamilia Roscia Peducaea Alliena Fabia) يكمل قانون الأراضي الذي استصدره قيصر في عام ٥٩ ويعد العدة لمكافأة جنود قيصر عندما يحين الوقت لتسريحهم .

٣ ــ استعدادات قراسوس لغزو بارثيا :

وفي خلال صيف عام ٥٥ ق . م . انهمك كل من بومبي وقراسوس في حشد قوات عسكرية . وكان قراسوس شديد اللهفة على الذهاب الى ولايته ليغزو بارثيا ويحرز أمجاداً عسكرية تضارع أمجاد حليفيه . وبرغم اعتراض

(53) Bruns, Fontes, 7th ed., 15; E.G. Hardy, Class. Quar., 1925, pp. 185 ff.; M. Cary, J.R.S., 1929, pp. 113 ff.; C.A.H., p. 618; Scullard, 1970, p. 123.

تريبون العامة قابيتو على حشد قوات قراسوس احتجاجاً على شن حرب دون مبرر . وبرغم التذرع بحجة طلائع التحس (obnuntiatio) بل الذهاب الى حد محاولة إلقاء القبض على قراسوس لمنعه من مغادرة روما ، استطاع قراسوس — بمساعدة بومبي وعدد من ترابنة العامة الموالين للحلف الثلاثي — التغلب على ذلك كله ومبارحة روما في ١٣ من نوفمبر[٥٤] عام ٥٥ ق . م . دون أن يدري أنه بتعجله كان يتعجل مصيره (مايو أو يونيه عام ٥٣) ومصير الحلف الثلاثي بل المصير المحتوم للنظام الجمهوري الروماني .

٤ — أحداث عام ٥٤ ق. م :

ا — بومبي يستحدث سابقة أخرى خطيرة :

وبانتهاء عام ٥٥ ق . م . انتهت مدة قنصلية بومبي وبدأت مدة بروقنصليته بوصف كونه حاكم ولايتي إسبانيا ، ولكنه بدلاً من أن يشخص الى إسبانيا ليتولى بنفسه حكم ولايتيه هناك أناب عنه في ذلك اثنين من مساعديه (legati) وهما لوقيوس أفرانيوس (Afranius) ومارقوس بتريوس (Petreius) وظل هو في إيطاليا[٥٥] أو على الأصح على أبواب روما ، لأنه بوصف كونه بروقنصلاً يتمتع بسلطة عسكرية كان لا يحق له دخول العاصمة . ولما كان بقاء بومبي في إيطاليا تحدياً سافراً للعرف ولكل السوابق ، فإنه انتحل لذلك حجتين : وإحداهما هي ضرورة الإشراف على التموين ، فقد كانت مدة هذه المهمة الخاصة لم تنته بعد ، والحجة الأخرى هي استكمال حشد القوات اللازمة لإسبانيا . غير أن السبب الحقيقي كان مراقبة الحالة في روما . وسواء أكان الغرض من ذلك تنفيذ خطة تم الاتفاق عليها في مؤتمر لوقا ، أم أن بومبي بدأ يشعر بأن قيصر منافس خطير يجب أن يحذره وعلى ذلك يجب البقاء بالقرب مما تصور أنه مركز القوة ، أم أنه كان هذين العاملين مجتمعين ، فإن بومبي لم

(54) Cic., ad Att., IV, 13, 2; Dio Cass., XXXIX, 39; App., B.C., II, 18; Plut., Crass., XVI; Pomp., LIII.
(55) Velleius, II, 48, 1.

يذهب إطلاقاً الى إسبانيا واستمر يحكم ولايتيه عن طريق مساعديه، واضعاً بذلك سابقة اتبعها الأباطرة فيما بعد. وعلى هذا النحو خطا بومبي خطوة أخرى نحو تطور نظام الحكم الجمهوري الى نظام حكم الفرد المطلق. وقد بدأ هذا التطور بتكرار انتخاب ماريوس للقنصلية عدة سنوات متتالية، وأسهم في هذا التطور تحول ولاء الجنود من الدولة الى قوادهم، واستيلاء صلا وقينّا على روما بالقوة. وسار بومبي بهذا التطور قُدُماً بتوليه القنصلية دون أن يسبق له تولي الكوايستورية فالبرايتورية ثم بحصوله على سلطات واسعة في مناطق شاسعة لآجال طويلة، وأخيراً — وليس آخراً — باتخاذه إيطاليا مقراً لممارسة سلطته البروقنصلية وإنابة مساعديه عنه عاماً بعد عام لحكم ولايتيه في إسبانيا. بيد أن بقاء بومبي في إيطاليا كان ضرباً من العبث. ولم يكن سبب ذلك أن بومبي لم يكن الرجل الذي يقضي على النظام الجمهوري المتهالك بقدر ما كان أن بومبي لم يفطن الى أن مركز القوة لم يعد عندئذ في إيطاليا ذاتها وإنما في بلاد الغال. ذلك أنه من حيث بناء قوة كاسحة، فإن الولايات وبخاصة ولاية غاليا هذه الناحية من الألب — بفضل رخائها ووفرة عدد سكانها ونشاطهم الدؤوب واستعدادهم للقتال — كانت أكثر أهمية من إيطاليا جنوبي نهر روبيقون حيث كان المواطنون الأحرار أقل ميلاً الى النشاط والقتال. ولعل أنه كان لبومبي عذره في عدم إدراك هذه الحقيقة التي غابت عن أهل عصره جميعاً باستثناء قيصر فيما يبدو، لأنه وضع جل اعتماده على ولايتيه الغاليتين في بناء قواته الضخمة[٥٦].

ب — إضطراب الأمن وتفشي الفوضى :

وقد شهد عام ٥٤ ق. م. أحداثاً خطيرة دامت أمداً طويلاً. ذلك أن خوف النبلاء من إعطاء بومبي فرصة للتدخل، منع السناتو من تخويل القنصلين والبرايتورس سلطة تعبئة قوات لحفظ الأمن والنظام في روما، فتفشت فيها الفوضى وبلغ استخدام الرشوة فى الدعاية الانتخابية لوظيفة القنصلية الى حد

(56) Heitland, III, pp. 229-30.

أنه في شهر يوليه تضاعف سعر الفائدة على القروص[٥٧] . وقد كان من جراء الاضطرابات واستخدام كافة الوسائل والأساليب لتأجيل إجراء الانتخابات أن عام ٥٤ انتهى دون انتخاب قنصلي العام التالي ، وأن الشائعات أخذت تتواتر بأن بومبي لا يريد انتخاب أحد قنصلاً لكي يُعين هو نفسه دكتاتوراً[٥٨] .

وفي خلال عام ٥٤ توفيت يوليا إبنة قيصر وزوجة بومبي وكانا يحبان بعضهما حباً جماً . وبوفاة يوليا انتهت الرابطة التي أسهمت حتى ذلك الوقت في تخفيف وطأة التنافس بين الحليفين ، وهو أمر لم يكن خافياً على أحد . ولا بد من أن يكون قد ساعد على تفاقم الاضطراب في روما ما يحدثنا به بلوتارخ عن احتدام الخصام بين أنصار كل من قيصر وبومبي عقب وفاة يوليا[٥٩] . وعندما عرض قيصر على بومبي تجديد رباط المصاهرة بأن يطلق قيصر زوجته قالبورنيا ويتزوج إبنة بومبي — وكانت مخطوبة الى فاوستوس صلا إبن الدكتاتور — ويتزوج بومبي من أوقتافيا حفيدة أخت قيصر برغم أنها كانت متزوجة[٦٠] ، رفض بومبي هذا العرض ، وتزوج في العام التالي (عام ٥٣) قرنليا إبنة قايقيليوس متلّوس سقيبيو[٦١] . وفي ضوء مشاعر بومبي تجاه قيصر وما سيأتي ذكره من اضطرار السناتو في عام ٥٣ ق . م . الى الاستعانة ببومبي لإقرار النظام في روما إن دل على شيء إعراض بومبي عن تجديد مصاهرة قيصر ثم مصاهرة أسرة نبيلة فإنه يدل على رغبة بومبي في التباعد عن حليفه والتقرب الى النبلاء دعماً لمركزه ضد هذا الحليف الخطير .

ج — محاكمات :

ولما كان عام ٥٤ ق . م . عامراً بالمحاكمات[٦٢] ، وكان شيشرون أبرز

(57) Cic., ad Q. fratr., II, 14 (15b), 4; ad Att., IV, 15, 7-8.
(58) Cic., ad Q. fratr., III, 8, 4-6.
(59) Plut., Pomp., LIII.
(60) Sueton., Div. Jul., XXVII, 1.
(61) Dio Cass. XL, 51, 3.
(62) Cic., ad Att., IV, 15, 4.

المحامين الرومان عندئذ فإنه الى جانب توليه الدفاع راضياً مرضياً عن صديقه جنايوس بلانقيوس (Plancius) ورجال ليس بينه وبينهم خصومة مثل جايوس مسّيوس (Messius) وماركوس ليفيوس دروسوس وماركوس آيميليوس سقاوروس ، تولى الدفاع أو بعبارة أدق اضطر الى تولي الدفاع عن خصمين شخصيين وهما فاتينيوس وجابينيوس ، إرضاء لقيصر في حالة فاتينيوس وإرضاء لبومبي في حالة المحاكمة الثانية التي قُدم لها جابينيوس ، كما اضطر الى الدفاع عن رابيريوس بوستوموس إرضاء لقيصر .

وقد كانت محاكمتا جابينيوس ومحاكمة رابيريوس أهم هذه المحاكمات جميعاً . ذلك أنه عندما فقد بطلميوس الزمار كل أمل في استرداد عرشه بتأييد السناتو أو بمساعدة سبينثر حاكم ولاية قيليقيا ، اتفق في عام ٥٥ مع جابينيوس حاكم ولاية سوريا على أن يعطيه رشوة ضخمة إذا حقق له أمنيته بالقوات التي كانت تحت إمرته[٦٣] . وبموافقة الحلفاء الثلاثة وبتشجيع بومبي تولى جابينيوس مهمة إعادة بطلميوس الى عرشه[٦٤] . وقد كان قيام جابينيوس بهذه المهمة ينطوي على ثلاث مخالفات خطيرة ، وهي خروجه من ولايته دون إذن ، واشتباكه من تلقاء نفسه في حرب حظر السناتو خوض غمارها ، وحصوله على رشوة ، مما كان يوقعه تحت طائلة قانون الخيانة العظمى (maiestas) الذي استصدره صلا وكذلك تحت طائلة قانون قيصر الخاص بابتزاز الأموال (Lex Julia de repetundis) . بيد أن جابينيوس استهان بعواقب هذه المخالفات بسبب الرشوة الضخمة التي وُعد بها وبسبب تفاهمه مع بومبي واعتماده على تأييده . وقد انتحل جابينيوس عذراً لقيامه بهذه المهمة خوفه من أن يعتدي على ولايته أسطول أرخلاوس (Archelaus ، زوج برنيقى إبنة الزمار وحاكمة مصر في أثناء غيبته عنها) والقراصنة التي قيل إن البحر كان يعج بهم[٦٥] ، ومن ثم فإن جابينيوس زعم أنه وجد نفسه في حالة الضرورة

(63) Plut., Anton., III; Cic., pro Rab. Post., 8; 11.
(64) Dio Cass., XXXIX, 55.
(65) Cic., pro Rab. Post., 8.

القصوى التي ينص عليها القانون وتبيح له التصرف كما يتراءى .

وقد كان أكبر دائني بطلميوس الزمار الممول الروماني رابيريوس بوستوموس ، وهو الذي بدأ بإقراض الملك مبلغاً كبيراً عندما اشترى من قيصر وبومبي الاعتراف به ملكاً صديقاً وحليفاً للشعب الروماني في عام ٥٩ ق . م . ولما كان بطلميوس قد فر من مملكته في العام التالي ، فإنه لم تكن لديه فرصة لسداد ذلك الدين . ولكي ينقذ رابيريوس قرضه الأول فتح خزائنه أمـــام بطلميوس ليغترف منها ما يشاء لشراء عودته الى عرشه . وما كاد بطلميوس يسترد عرشه في شهر أبريل عام ٥٥ حتى خف رابيريوس الى الإسكندرية ليحصل على أمواله وفوائدها وكذلك ليوافي جابينيوس بالمكافأة التي وُعد بها ، فعين بطلميوس ذلك الممول الروماني وزيراً للمالية [٦٦] . وقد استغل رابيريوس مركزه في اعتصار دافعي الضرائب ، فلا عجب أنه قبل أن ينتهي عام ٥٥ كان قد أثار نقمة الإسكندريين عليه الى حد أن بطلميوس اضطر الى سجنه هو وعماله حماية لهم من الاعتداء عليهم وكذلك لتهدئة ثائرة الإسكندريين. ويزعم شيشرون في معرض دفاعه عن رابيريوس أنه عندما لم يقنع الإسكندريون بسجنه وهددوا باقتحام أبواب السجن هرب عارياً خالي الوفاض بعد أن ظن أكثر من مرة أنه كان قاب قوسين أو أدنى من الهلاك .

وما كاد يتأيد في روما نبأ قيام جابينيوس بإعادة بطلميوس الى عرشه — وكان قد حرص على عدم موافاة السناتو بتقرير عن حماته — حتى تلقفه خصومه بالهجوم الشديد ، ولكن بومبي وقراسوس استخدما نفوذهما وسلطتهما القنصلية في منع استصدار قرار ضده في عام ٥٥ ق . م[٦٧] . بيد أنه ما أن عاد جابينيوس الى روما في ستمبر عام ٥٤ حتى قدم للمحاكمة أولاً بتهمة الخيانة العظمى . ولما كان جابينيوس أحد قنصلي عام ٥٨ اللذين باعا شيشرون لقلوديوس مما يسر نفيه على نحو ما عرفنا ، فإن رغبة شيشرون في إرضاء بومبي

(66) Cic., pro Rab. Post., 8; 10.
(67) Dio Cass., XXXIX, 59; Cic., in Pisonem, 21

تلاشت أمام رغبته في الانتقام من جابينيوس فأطلق العنان لفصاحته في مهاجمته. غير أن إغراء المال كان أقوى من كل شيء فقرر المحلفون تبرئة جابينيوس. بيد أنه لم يلبث أن قُدم للمحاكمة مرة ثانية بتهمة الرشوة التي اتفق عليها مع بطلميوس. وعندما صدر الحكم ببراءة جابينيوس من التهمة الأولى، وكانت أشد وأخطر من التهمة الثانية، ملك شيشرون فزع شديد اضطره الى الإصغاء الى طلب بومبي والدفاع عن جابينيوس في المحاكمة الثانية. وأما جابينيوس فإنه وقد أحس بالطمأنينة ارتكب خطأ فادحاً أثار عليه نقمة المحلفين في المحاكمة الثانية، ذلك أنه لم يسخ في شراء ذممهم قدر سخائه في شراء ذمم المحلفين في المحاكمة الأولى. وتبعاً لذلك فإنه بالرغم من دفاع شيشرون وكل محاولات بومبي وقيصر وشهادة سفراء الإسكندرية بأن جابينيوس لم يأخذ شيئاً على الإطلاق، صدر ضده حكم بالإدانة وبدفع غرامة قدرها ١٠,٠٠٠ تالنت (أي حوالي مليونين ونصف مليون جنيه استرليني). وإزاء عجز جابينيوس عن دفع هذه الغرامة كان مصيره النفي (٦٨). ولما كان المألوف في مثل هذه القضايا هو دفع ضعف الأموال المبتزة؛ فإن مقدار هذه الغرامة يدل على أن مقدار الرشوة المتفق عليها بين بطلميوس وجابينيوس كان ٥٠٠٠ تالنت.

وقد حوكم رابيريوس بتهمة حصوله على جانب من رشوة جابينيوس التي مر بنا أنه كلف بتحصيلها. وإزاء اتصال موضوع هذه التهمة بموضوع تهمة الرشوة التي وجهت الى جابينيوس، فإن قضية رابيريوس نُظرت أمام ذات الهيئة القضائية التي فصلت في قضية جابينيوس. وإرضاء لقيصر تولى شيشرون الدفاع عن رابيريوس في هذه القضية. بيد أنه ليس في مصادرنا شيء عن الحكم الذي صدر فيها، مما أفضى الى انقسام آراء الباحثين في هذا الصدد، إذ أن بعضهم يرجح أن رابيريوس أُدين وفرضت عليه غرامة كبيرة عجز عن دفعها فنُفي هو أيضاً (٦٩)، على حين أن البعض الآخر يرجح أنه

(68) Dio Cass., XXXIX, 60-63; Cic., pro Rab. Post., 8; 11-13.
(69) Bouché-Leclercq, Histoire des Lagides, II, pp. 168-71; Jouguet, Hist. de la Nation égyp., III, p. 202.

بريء وعاش في روما مستظلاً برعاية قيصر[٧٠] . غير أننا لا نستبعد أن يكون رابيريوس قد أدين ونفي الى أن استدعاه قيصر فيما بعد من المنفى مثل مـــا استدعى جابينيوس .

وإنه لمن اليسير أن نتصور محنة شيشرون حين اضطرته الظروف ليس فقط الى العدول عن مهاجمة الأقطاب الثلاثة بل أيضاً الى الاستجابة الى مطالبهم برغم إدراكه ما كان طغيانهم ينطوي عليه من التهديد الخطير للنظام الجمهوري الذي كان عزيزاً عليه . وإذا كان يعبر في بعض خطاباته عن غبطته بعلاقاته الوثيقة مع قيصر وبومبي ، فإننا نفتقد في تعبيره عن هذه العلاقات ذلك العمق الذي ينم عن الشعور الصادق النابع من القلب . وهو ما تؤكده بعض العبارات الغامضة والإشارات المتكررة الى ضرورة توخي الحذر في الكتابة . ولا بد من أنه كان يزيد في محنته شعوره الدائم بالخوف من قلوديوس وإدراكه أنه وهو الرجل الذي دُعي يوماً « أبو الوطن » كان محتاجاً الى الحماية في هذا الوطن ولا يستطيع أن يكون حراً طليقاً في الإدلاء بآرائه[٧١] . وحين رأى شيشرون النظام الجمهوري يتهاوى أمام ناظريه وهو عاجز عن عمل أي شيء لإنقاذه حاول أن يعزي نفسه بالابتعاد عن الحياة العامة والانهماك في التأليف على نحو ما سنرى في معرض الحديث عن الأدب والفلسفة.

٥ – تفاقم الشغب والاضطرابات في عام ٥٣ ق.م :

ولما كانت الاضطرابات والمناورات السياسية التي شهدها عام ٥٤ قد حالت حتى نهاية ذلك العام دون انتخاب حكام جدد لعام ٥٣ باستثناء ترابنة العامة ، فإنه لم يكن هناك مفر من تعيين سلسلة من الحكام المؤقتين (interreges) لتأدية مهام القنصلين . وإزاء نشاط بعض ترابنة العامة في منع إجراء الانتخابات حتى شهر يوليه عام ٥٣ ق . م . تفاقم الشغب والاضطراب . ووسط هذه

(70) H. Dessau, Hermes, 1911, pp. 613 ff.; Heitland, III, p. 237; C.A.H., IX, p. 622; Scullard, 1970, n. 24, p. 425.

(71) Cic., ad Q. fratr., II, 14 (15 b), 2; 15 (16) 2; III, 5, 6.

الظروف اقترح بعض ترابنة العامة العودة الى الفكرة القديمة التي جربتها روما فيما بين عامي ٤٤٤ و ٣٦٧ ق . م . حين استبدل الرومان بالقنصلين ، مراراً عديدة في فترات غير منتظمة ، هيئة من كبار الحكام تزايد عددهم باطراد حتى أصبحوا ستة وكانوا يدعون الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية (Tribuni militum consulari potestate) . واقترح بعض آخر إقامة بومبي دكتاتوراً . وإذا كان هذان الاقتراحان ينمان عن مدى الإدراك بعجز القنصلية عن القبض على ناصية الحال ، فإنه إزاء انتصار كل فريق لرأيه واعتراضه على رأي الفريق الآخر لم يكن نصيب هذين الاقتراحين إلا الفشل . بيد أنه لما كانت الحالة قد بلغت من السوء حداً لم يعد في وسع السناتو الصبر عليها ، وكان بومبي على أبواب روما ومستعداً لإجراء اللازم ، فإن السناتو لم يجد مفراً من السماح له بدخول العاصمة وتخويله سلطة استثنائية لوضع الأمور في نصابها . وقد أثبت بومبي أنه الرجل الذي لا غناء عنه حين تتأزم الأمور ويستعصى على غيره إنقاذ الموقف . ذلك أنه قبض سريعاً على ناصية الحال دون أن ينتهز الفرصة لإقامة نفسه دكتاتوراً، فقد اتخذ من التدابير ما كفل إجراء الانتخابات لوظيفة القنصلية . وقام القنصلان الجديدان — جنايوس دوميتيوس ڤالفينوس (Calvinus) ومارقوس فاليريوس مسّالا (Messala) — بإجراء الانتخابات للوظائف العامة الأخرى[72] للشهور المتبقية من عام ٥٣ ق . م .

وبقي بعد ذلك على القنصلين إجراء الانتخابات لحكام العام التالي (عام ٥٢) . بيد أنه قبل أن نتناول الحديث عن ذلك يجب أن نشير الى أنه في شهر مايو أو يونيه عام ٥٣ قُتل قراسوس في أثناء محاربة البارثيين . وبزوال هذا الحليف بعد انفصام عرى المصاهرة بين بومبي وقيصر بوفاة يوليا في العام السابق ثم اعتماد السناتو على بومبي في تهدئة الحالة في روما فعزوف بومبي عن تجديد مصاهرة قيصر مفضلاً على ذلك مصاهرة أسرة نبيلة ، أصبح وقوع

(72) Plut., Pomp., LIV; Dio Cass., XL, 45-46, App., B.C., II, 19-20.

صدام بين قيصر وبومبي أمراً محتوماً ، وإن كنا سنرى من القرائن ما يشير الى أن بومبي ظل يخشى جانب قيصر ويتفادى مجاهرته بالعداء قبل عام ٥٠ ق. م . وإن أخذ يعمل خفية منذ عام ٥٢ على تقويض دعائم مركزه .

وقد حال دون إجراء انتخابات لحكام عام ٥٢ ق . م . تجدد الشغب بسبب الصراع القديم بين قلوديوس وميلو ، فقد كان الأول مرشحاً لوظيفة البرايتورية والثاني لوظيفة القنصلية . وكان ينافس ميلو على القنصلية مرشحان تربطهما ببومبي صلات وثيقة ، فقد كان أحدهما حماه سقيبيو ، وكان الآخر أحد مساعديه في الشرق وهو بوبليوس بلاوتيوس هوبسايوس (Hypsaeus). ولما كان بومبي كعادته غير ميال الى استخدام القوة لإقامة نفسه دكتاتوراً بقدر ما كان شديد الرغبة في أن تدرك الأمة أنه لا غناء لها عنه في الملمات فتقيمه هي تلقائياً دكتاتوراً أو على الأقل تسند إليه تانية سلطات استثنائية لإنقاذها من محنتها ، فإنه ترك الأمور تسير في مجراها ووقف ينتظر فرصته .

٦ ــ أحداث عام ٥٢ ق.م :

ا ــ مقتل قلوديوس :

انتهى عام ٥٣ أيضاً دون إجراء الانتخابات واستمرت الاضطرابات كالحمى الخبيثة تشتد وطأتها تارة وتخف حدتها تارة أخرى دون أن تنقطع الى أن قلب روما رأساً على عقب ذات يوم حوالي منتصف شهر يناير عام ٥٢ مصرع قلوديوس في اشتباك وقع بين عصابته وعصابة ميلو في طريق أبيوس (Via Appia) ونقل جثة القتيل الى روما ، حيث عرضت في الفوروم وألهب أنصاره مشاعر الجماهير إلى حد أنهم أخذوا الجثة الى دار السناتو . وهناك استخدموا عدداً من المقاعد والموائد والأوراق لإحراق جثة القتيل وامتدت النار الى دار المجلس ذاتها ، ثم عاثوا في المدينة فساداً . وكان من جراء ذلك أن السناتو أصدر « قراره النهائي » الى الحاكم المؤقت (interrex) عندئذ وترابنة العامة وبومبي لحماية الدولة . كما خول بومبي حشد قوات

جديدة الى جانب ما كان تحت إمرته من قوات[٧٣] .

ب ـ إقامة بومبي قنصلاً مفرداً :

وعندما سيطر بومبي على الموقف كانت روما لا تزال بغير حكام ، ومع ذلك فإن بومبي على عكس ما فعل في العام الماضي لم يبادر الى إعداد العدة لإجراء الانتخابات . ولما كان بعض الناس قد أخذوا يدعون ثانية الى إقامة بومبي دكتاتوراً والبعض الآخر الى اختيار بومبي وقيصر قنصلين ، وكان أحلى هذين الرأيين مراً أجاجاً في نظر الجمهوريين ، فإنه تفادياً لتعيين بومبي دكتاتوراً وتولي قيصر القنصلية ثانية ورغبةً في إقامة أداة قوية ، استقر الرأي على اقتراح أبداه بيبولوس وأيده قاتو ، وكلاهما من أكبر دعاة التمسك بأهداب الدستور . وكان هذا الاقتراح يقضي باختيار بومبي قنصلاً مفرداً (Consul Solus) . وإن دل هذا على شيء فهو يدل على مدى المحنة التي كانت روما تجتازها عندئذ وكذلك على إدراك النبلاء أن قيصر كان أخطر من بومبي وأن بومبي كان أهون الشرين لأنه برغم حبه للمجد والسيطرة فإنه عندما تولى القنصلية مرتين وكذلك عندما أسندت اليه سلطات استثنائية لم يستخدم هذه الفرص لإقامة نفسه دكتاتوراً . وعندما وافق السناتو على اقتراح بيبولوس ـ لم يرَ الحاكم المؤقت (interrex) ، الفقيه القانوني سرفيوس سولبيقيوس روفوس مناصاً من اتخاذ الإجراء اللازم لانتخاب بومبي قنصلاً مفرداً . وبإتمام ذلك أصبح بومبي حاكم روما المطلق ، بيد أنه في شهر يوليه أو أغسطس اتخذ حماه سقيبيو زميلاً له في القنصلية[٧٤] . ومما تجدر ملاحظته أنه لم توجد أية سابقة لإسناد الحكم الى قنصل مفرد ، وأن ذلك كان خروجاً صارخاً على ذات مبدأ الزمالة الذي قامت عليه وظيفة القنصلية بل كل الوظائف العامة في الجمهورية الرومانية . وفضلاً عن ذلك فإنه لم تكن قد انقضت على

(73) App., B.C., II, 21; Dio Cass., 49-50, 1.

(74) Dio Cass., XL, 50, 3-51; Plut., Pomp., LIV-LV; Cato Minor, XLVII; App., B.C., II, 23; Heitland, III, pp. 241 ff.; C.A.H., IX, 624-6; R. Syme, J.R.S., 1944, pp. 99 ff ; H. Last, J.R.S., 1944, pp. 119 ff.

على تولي بومبي قنصليته الثانية في عام ٥٥ ق. م. فترة السنوات العشر التي كان القانون يقتضيها . وسنرى بعد قليل الفارق الهائل بين تغاضي النبلاء في هذه المناسبة عن القواعد الجوهرية في الدستور الروماني وبين محاولاتهم المستميتة لرفض مطالب قيصر المعتدلة وكسر شوكته .

جـ – قانون التراابنة العشرة :

وفي أثناء هذه الأحداث كان قيصر يقضي الشتاء كعادته في غاليا هذه الناحية من الألب ، وعندما علم بأن ترابنة العامة أنصاره كانوا يدعون الى إقامته زميلاً لبومبي في القنصلية طلب إليهم العدول عن ذلك لكيلا يضطر الى ترك بلاد الغال قبل الأوان ودون الانتهاء من استكمال فتحها من أجل تولي القنصلية ، وأوصى باستصدار قانون بالسماح له بترشيح نفسه غيابياً عندما تنتهي مدة بروقنصليته(٧٥). وعلى هذا النحو كانت تتاح أمام قيصر الفرصة لاستكمال فتح بلاد الغال ووضع أمورها في نصابها، وكذلك كانت تتم فترة السنوات العشر التي كانت أحكام قانون تولي الوظائف العامة تقتضي مرورها بين تولي ذات الوظيفة مرتين . واستجابة الى طلب قيصر تقدم بعض ترابنة العامة بمشروع قانون يقضي بمنحه إعفاء (privilegium) من شرط الحضور شخصياً لترشيح نفسه للقنصلية حين يحين الوقت المناسب طبقاً لأحكام القانون . وبرغم تحذير شيشرون ، وكان صديقه تريبون العامة قايليوس مستعداً لمصادرة هذا المشروع ، وافق بومبي على المشروع ، بل إن شيشرون نفسه بعد أن زار قيصر في رافنا ، أقنع قايليوس بعدم مصادرة المشروع(٧٦) . ولم يلبث الترابنة العشرة جميعاً أن تبنوا المشروع وأن تمت الموافقة عليه وأصبح قانوناً(٧٧) .

---

(75) Sueton., Div Jub., XXVI, 1.

(76) Cic., ad Fam., VI, 6, 5; ad Att., VII, 1, 4; Dio Cass , XL, 51, 2.

(77) Cic., ad Fam., VII, 6, App., B.C , II, 25; Liv , Ep., 107; C.A.H., p 626.

د ـ قانونان لبومبي ضد الشغب والرشوة :

وللقضاء على ما شقيت به روما مؤخراً من تفشي الشغب والرشوة على نحو لم يسبق له مثيل . إستصدر بومبي قانونين[٧٨] . كان أحدهما خاصاً بأعمال الإخلال بالأمن (Lex Pompeia de vi) والآخر خاصاً بأعمال الرشوة في الانتخابات (Lex Pompeia de ambitu) . وتضمنت بنود هذين القانونين فرض عقوبات صارمة، واتباع إجراءات كان من شأنها اختيار محلفين غير مجرحين وإسناد رياسة الهيئات القضائية التي تفصل في مثل هذه القضايا الى رجال من القناصل السابقين ، وكذلك سرعة الفصل في القضايا بالاكتفاء بمحام واحد عن كل متهم ، واختصار مدة المرافعة بقصرها على ساعتين للاتهام وثلاث ساعات للدفاع ، مع عدم السماح بسماع الشهود الذين لا تنصب شهاداتهم إلا على سجايا المتهم وحميد أخلاقه (laudationes) . وهو ما كان حتى الآن أمراً مألوفاً . وعندما هدد اثنان من ترابنة العامة بمصادرة مشروع القانون الأول، أعلن بومبي أنه سيستخدم القوة المسلحة إذا اقتضى الأمر لإقرار ذلك المشروع ، فتمت الموافقة على المشروعين دون عناء وأصبحا قانونين .

هـ ـ محاكمات :

وفي الرابع من أبريل عام ٥٢ ق . م . قدم ميلو للمحاكمة بتهمة قتل قلوديوس[٧٩] وتولى شيشرون الدفاع عن المتهم ولكن الوقت المحدد للدفاع لم يتح له الإدلاء بالمرافعة التي كان قد أعدها فقام بعد ذلك بنشرها[٨٠] . وفي الثامن من أبريل قررت المحكمة إدانة ميلو ونفيه بأغلبية ٥١ صوتاً ضد ١٣ فذهب الى ماسيليا . وأعقبت ذلك محاكمة عدد من أعوان ميلو ولكنهم فازوا بالبراءة .

---

(78) Cic., pro Milone, Dio Cass., XL 52; App., B.C., II, 23; Plut., Pomp., LV; Cato Minor, XLVIII.

(79) Asconius, 53.

(80) Cic., pro Milone.

وبعد أن فرغت روما من أمر ميلو وعصابته جاء دور محاكمة أعوان قلوديوس الذين نشروا الرعب في العاصمة بعد مقتل زعيمهم ، وكذلك دور المتهمين بالرشوة في الانتخابات . وكان أبرز الذين أدينوا في هذه المحاكمات بلاوتيوس هوبسايوس وتريبرنا العامة بومبيوس روفوس وتيتوس موناتيوس بلانقوس . واما سقيبيو ، حمو بومبي ، فإنه بفضل نفوذ صهره لم يُقدم للمحاكمة أطلاقاً برغم تقدم شخصين باتهامة بالرشوة (٨١) .

و ــ قانون بومبي الخاص بالحكام :

وقد استصدر بومبي قانوناً (Lex Pompeia de iure magistratuum) قضى أحد بنوده من جديد بأنه يتعين على المرشحين للوظائف العامة أن يمثلوا في روما أمام الجمعية الشعبية التي تنتخبهم(٨٢) . ويحدثنا سويتونيوس (٨٣) بأنه عندما فات بومبي استثناء قيصر من أحكام هذا القانون لم يستدرك ما فاته إلا بعد صدور القانون ونقشه على لوحة من البرونز وإيداعه في دار المحفوظات العامة بالخزانة العامة . ويذكر ديون قاسيوس(٨٤) أن بومبي عدل هذا القانون بحيث استثنى من أحكامه أولئك الذين مُنحوا بالإسم إعفاء من ترشيح أنفسهم حضورياً . ويأخذ المؤرخ القديم على بومبي أنه كان من شأن هذا التعديل إبطال مفعول القانون لأنه كان في وسع المرشحين ذوي النفوذ الحصول على الإعفاء المطلوب .

وهل قصد بومبي بهذا القانون حرمان قيصر الإعفاء (privilegium) الذي مُنحه بمقتضى قانون التربابنة العشرة ؟ هذا محتمل ولا سيما في ضوء مشاعر بومبي تجاه قيصر والتقارب الذي حدث بين بومبي والنبلاء وصدور القانون التالي الخاص بحكم الولايات وموقف بومبي تجاه قيصر منذ أواخر عام ٥١

(81) Dio Cass., XL, 53-55; Plut., Pomp., LV.
(82) Dio Cass., XL, 56, 1
(83) Sueton., Div. Jul., XXVIII, 3.
(84) Dio Cass., XL, 56, 3.

على نحو ما سنرى بعد قليل . ولا ينهض دليلاً على عدم صحة هذا الاحتمال أن بومبي سبق أن وافق على قانون الترابنة العشرة . ذلك أنه ليس من المستبعد أن بومبي لم يكن صادق النية في هذه الموافقة ، وأنه لم يبدها إلا مكرهاً أمام إلحاح ترابنة العامة أنصار قيصر ، لأنه لم يكن في وسعه رفض هذه الموافقة دون الكشف صراحة عن عدائه لقيصر . ولا جدال في أن قيام بومبي باستصدار القانون الجديد في تاريخ تال لقانون الترابنة العشرة كان يعطي خصوم قيصر حجة للتذرع بأن القانون الجديد ألغى الإعفاء الذي مُنحه بمقتضى القانون السابق وذلك بالرغم من أن الإعفاء الذي منح لقيصر كان اعفاء خاصاً بمقتضى قانون خاص . وأما أن بومبي – تحت ضغط أنصار قيصرمرة أخرى – عاد فأصلح ما زعم أنه فاته فهو يدل على أن بومبي إذ كان يحاول تهيئة الأسباب لإضعاف مركز قيصر كان لا يزال يخشى مجاهرته بالعداء[٨٥] .

ز – قانون بومبي الخاص بتنظيم تولي حكم الولايات :

واستصدر بومبي قانوناً آخر[٨٦] (Lex Pompeia de provinciis) لتطبيق قرار أصدره السناتو في العام الماضي[٨٧] . وقضى هذا القانون بألا يتولى القناصل والبرايتورس حكم الولايات إلا بعد مرور خمس سنوات على انتهاء عام حكمهم في روما . ولا شك في أنه كان من شأن هذا القانون تخفيف حدة التكالب على مناصب وظيفتي القنصلية والبرايتورية وتبعاً لذلك الحد من استخدام الرشوة للفوز بمناصب هاتين الوظيفتين من أجل الحصول بعد ذلك مباشرة على حكم ولايات غنية تعوض الفائزين بالمناصب عما أنفقوه للحصول عليها وتسد نهمهم . وقد كان طبيعياً أن يترتب على صدور القانون الجديد إبطال العمل بقانون جايوس جراكوس الذي كان يقضي بأن يحدد السناتو سنوياً ولايتي القنصلين الجديدين قبل انتخابهما ويحظر استخدام ڤيتو

---

(85) Cf. Heitland, III, p. 247; C.A.H., IX, p. 627; Scullard, 1970, p. 125.
(86) Dio Cass., XL, 56, 1.
(87) Dio Cass, XL, 46, 2-3.

ترابنة العامة ضد قرار السناتو في هذا الصدد .

وفي إبطال العمل بقانون جايوس جراكوس تكمن أهمية القانون الجديد بالنسبة لوضع قيصر . ذلك أنه في كنف قانون جايوس جراكوس ووفقاً للعرف القديم المتبع كان قيصر مطمئناً الى أنه لن يخلفه أحد في ولايتيه إلا بعد انتهاء عام ٤٩ ق . م . حين يكون قد حصل على القنصلية وفقاً لخطته وتبعاً لذلك يكون في مأمن من المحاكمة . وأما وفقاً لأحكام القانون الجديد فإنه كان من الممكن أن يعين السناتو واحداً أو اثنين من القناصل السابقين لتولي ولايتي قيصر بمجرد انتهاء مدة بروقنصليته في أول مارس عام ٤٩ ق . م . وعندئذ لا يكون أمام قيصر إلا أن يذهب الى المنفى تلقائياً أو أن يعود الى روما مسالماً ليفترسه خصومه أو أن يزحف على روما بقواته .

واذا كان بعض الباحثين يستبعد أن قانون بومبي الجديد كان موجهاً ضد قيصر ، فإن البعض الآخر لا يستبعد ذلك[٨٨] . وعندما يؤخذ في الاعتبار سوياً هذا القانون والقانون السابق والملابسات الأخرى يبدو لنا الرأي الأخير أرجح من الرأي الأول . ويوحي بتأييد ذلك ما يكشف عنه مجرى الأحداث التالية من محاولة خصوم قيصر استخدام هذا القانون الجديد ضده ومن رضاء بومبي عن ذلك . وتتكشف هذه الأحداث عن أمرين آخرين: وأحدهما هو أنه بالرغم من أنه بإبطال العمل بقانون جايوس جراكوس قد أُبطل كذلك حظر استخدام ڤيتو ترابنة العامة ضد قرار السناتو الخاص بالولايات القنصلية ، فإن خصوم قيصر حاولوا إحياء هذا الشق من قانون جايوس . والأمر الآخر هو أن قيصر وضع عندئذ جل اعتماده على ڤيتو الترابنة لحماية مركزه ، وهو بطبيعة الحال الأمر الذي كان قيصر سيلجأ اليه في حالة بقاء قانون جايوس ساري المفعول ومحاولة السناتو التحايل عليه وعلى العرف المتبع بوسيلة أو أخرى لإيفاد من يخلف قيصر في ولايتيه .

(88) Cf. Heitland, III, p 247; C.A.H., IX, pp. 627-8; Scullard, p 125.

ومهما يكن من أمر ذلك فإنه لم يكن ميسوراً تنفيذ قانون بومبي الجديد في خلال الأعوام الخمس التالية لصدوره دون الالتجاء الى تجنيد الحكام السابقين الذين لم يسبق لهم تولي الحكم في الولايات . وقد كان من بين هؤلاء بيبولوس وشيشرون ، وعهد إلى أولهما بحكم ولاية سوريا والى الثاني بحكم ولاية قيليقيا . ولما كان بومبي قد نزل على الأقل شكلياً عن سلطته البروقنصلية لحكم ولايتي إسبانيا عندما تولى قنصليته الثالثة في عام ٥٢ ق . م . فإنه قبل أن يجف مداد قانونه سالف الذكر قرر السناتو أن يسند اليه حكم هاتين الولايتين لمدة خمس سنوات . ويعلق ديون قاسيوس على ذلك بقوله إن بومبي الذي استصدر قانوناً يحظر على القناصل والبرايتورس تولي الحكم في الولايات قبل مرور خمس سنوات على انتهاء حكمهم في روما لم يخجل من قبول حكم ولايتي إسبانيا مباشرة لمدة خمس سنوات[٨٩] . ولا عجب أن يقول المؤرخ تاقيتوس عن بومبي إنه هدم بنفسه قوانينه التي استصدرها[٩٠] (Sûarum legum àuctor idem ac subversor) . وعلى غرار ما فعل بومبي في بروقنصليته السابقـــة ظل يمارس حكم ولايتي إسبانيا من إيطاليا عن طريق مساعديه وإن كان قد بارح العاصمة بعد انتهاء مدة قنصليته كما لو كان يتأهب للذهاب الى إسبانيا [٩١] .

ومما يجدر بالملاحظة هنا : أولاً : أنه بعد موافقة السناتو على اختيار بومبي قنصلاً مفرداً برغم مخالفة ذلك لأحكام الدستور والسوابق جميعاً ، منح بومبي سلطة بروقنصلية لمدة خمس سنوات برغم تعارض ذلك مع أحكام قانون بومبي الجديد وكذلك مع قرار السناتو الذي صدر هذا القانون تطبيقاً له . وثانياً : أن منح بومبي بروقنصلية جديدة لمدة خمسة أعوام تبدأ من عام ٥٢ ق. م. دون مد بروقنصلية قيصر لمدة مماثلة كان ينطوي على اضطراب في توازن القوى بين بومبي وقيصر ، وهو التوازن الذي تم الاتفاق عليه في مؤتمر لوقا . وثالثاً :

(89) Dio Cass., XL, 56, 2
(90) Tacit, Ann., III, 28, 1.
(91) Dio Cass., XL, 59, 2.

أن ذلك كله إن دل على شيء فهو يدل على حدوث تقارب شديد بين بومبي والسناتو وتبعاً لذلك تباعد بين بومبي وقيصر . ورابعاً : أنه لا بد من أن يكون هذا التطور في العلاقات قد أثار قلق قيصر وكان في حاجة ملحة الى تعاون بومبي لضمان إطالة مدة بروقنصليته في إحدى ولايتيه على الأقل لبضعة أشهر حتى يتم انتخابه قنصلاً في أثناء غيبته .

وبفضل استتباب الأمن والنظام في خلال عام ٥٢ أمكن إجراء الانتخابات لحكام العام التالي في المواعيد المعتادة . وقد فشل قاتو في الحصول على القنصلية وفاز بمنصبيها لعام ٥١ ق . م . سرفيليوس سولبيقيوس روفوس ومارقوس قلاوديوس مارقلّوس (Marcellus)[٩٢] وكان أولهما فقيهاً بارزاً في القانون ويتسم بالاعتدال والحذر وكذلك بالحرص على تفادي الأزمة التي كانت روما مقبلة عليها . وكان ثانيهما من أفضل النبلاء خلقاً وأشدهم استمساكاً بالنظام الجمهوري بيد أنه كان شديد الاندفاع بقدر ما كان بطيء التفكير قليل الفعالية .

٧ ـ انهيار الحلف الثلاثي صراحة :

ا ـ أحداث عام ٥١ : عداء مارقلّوس لقيصر ، ميوعة موقف بومبي قبل مجاهرته قيصر بالعداء :

في مطلع عام ٥١ ق . م . طلب قيصر إطالة مدة بروقنصليته فترة قصيرة لحكم ولايتي غاليا أو إحداهما ، ولكن السناتو رفض هذا الطلب ولم يبد بومبي حراكاً[٩٣] . ويبدو أن سكوت بومبي شجع النبلاء الجمهوريين على المضي قُدُماً في تحطيم قوة قيصر . وفي ضوء ما رأيناه تجاه بومبي من تغاضي النبلاء من أحكام الدستور والسوابق والتقاليد وما رأينا مثلاً منه وما سنرى أمثلة أخرى تجاه قيصر لمحاولاتهم المستميتة لكسر شوكته ورفض مطالبه

(92) Liv., Ep. 108; Dio Cass., XL, 58.
(93) App., B.C., II, 25; Plut., Caes., XXIX, 1.

المعتدلة يتضح لنا بجلاء أن النبلاء الجمهوريين – باستثناء قلة قليلة من أحرار الرأي المتفانين في الدفاع عن النظام الجمهوري – لم يكونوا جمهوريين قلباً وقالباً يدافعون عن مبدأ عزيز عليهم بقدر ما كانوا أعداء ألداء لقيصر خوفاً من أنه إذا آلت اليه مقاليد الأمور قضى على سطوتهم وامتيازاتهم وما كانوا يجنونه من وراء ذلك . وتبعاً لذلك فان القنصل مارقلّوس اقترح على السناتو إنهاء بروقنصلية قيصر قبل موعدها ، أي قبل أول مارس عام ٤٩ ، وذلك بحجة أن الحرب قد انتهت في بلاد الغال وأن الجيش المظفر يجب أن يُسرح ، كما اقترح ألا يُسمح لقيصر بترشيح نفسه للقنصلية الا حضورياً ، وذلك بحجة أن القانون الذي استصدره بومبي أبطل مفعول قانون الترابنة العشرة . وقد عارض هذا الاقتراح بعض ترابنة العامة والقنصل الآخر روفوس لأنه لم يرض عن استدعاء حاكم من ولايته قبل انتهاء مدته دون جريرة(٩٤) . ويحدثنا شيشرون بأن بومبي أيضاً عارض اقتراح مارقلّوس(٩٥) .ويبدو أن مرد معارضة بومبي كان الى أن اقتراح مارقلّوس تجاوز المدى وانطوى على إلغاء قانون بومبي وقراسوس (Lex Pompeia Licinia) وهو القانون الذي أُطيلت بمقتضاه مدة بروقنصلية قيصر خمس سنوات أخرى ، والى أنه حتى بارح بومبي العاصمة موهماً بأنه يستعد للذهاب الى إسبانيا (دون أن يغادر إيطاليا عندئذ على الإطلاق) لم يكن رأيه قد استقر بعد على الكشف صراحة عن ميله إلى استدعاء قيصر بعد أول مارس عام ٤٩ .

ولم يكتف مارقلّوس بذلك بل إنه تحدى قيصر تحدياً صارخاً آخر . ذلك أنه كان لا يجوز قانوناً جلد مواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية الكاملة ، وأنه بمقتضى السلطة التي خولها قانون فاتينيوس لقيصر منح قيصر حقوق المواطنة الكاملة لمستعمرة نوفوم قوموم (Novum Comum) التي أنشأها

(94) Dio Cass., XL, 59, 1-2; Sueton., Div. Jul., XXVIII, 2-3 Liv. Ep., 108; Hirt., B. Gal., VIII, 53
(95) Cic, ad Att., VIII, 3, 3.

مؤخراً في غاليا عبر البو ؛ وأن مارقلّوس انتهز فرصة وجود أحد أعضاء المجلس التشريعي المحلي لهذه المستعمرة في روما وانتحل عذراً لجلده وذلك ليثبت أنه لا يعتبر هذا الرجل مواطناً رومانياً(٩٦) وتبعاً لذلك أنه لا يعترف بما فعله قيصر . ويحدثنا شيشرون بأنه كان من شأن هذا التصرف إثارة غضب قيصر وكذلك بومبي(٩٧) . ومبعث غضب بومبي من هذا التصرف هو الوشائج التي كانت تربط أسرته بأهالي غاليا عبر البو منذ أن استصدر أبوه في عام ٨٩ ق . م . قانوناً مُنحوا بمقتضاه الحقوق اللاتينية .

ويحدثنا قايليوس في رسالة(٩٨) بعث بها في اكتوبر عام ٥١ إلى شيشرون في قيليقيا بأن مسألة حكم قيصر لولايتي غاليا ظلت معلقة الى أن ثبت أن بومبي يميل الى استدعاء قيصر بعد أول مارس . وتبعاً لذلك فإنه بناء على اقتراح مارقلّوس أصدر السناتو في ٢٩ من سبتمبر عام ٥١ قراراً يوصي قنصلي العام التالي بأن يعرضا على السناتو موضوع الولايات القنصلية في أول مارس عام ٥٠ على أن تكون لهذا الموضوع الأسبقية على كل ما عداه ، وعلى أن يستمر السناتو منعقداً الى أن ينتهي الى قرار . وقد تمت الموافقة على هذا القرار دون اعتراض من ترابنة العامة . وفي اليوم التالي (٣٠ من سبتمبر) صادر بعض ترابنة العامة ثلاثة قرارات أصدرها السناتو بناء على اقتراح مارقلّوس . وكان القرار الأول يعتبر استخدام حق الاعتراض (intercessio) على أي اقتراح يعرض على السناتو أو على أي قرار يصدره السناتو أمراً مجافياً لصوالح الدولة . وكان القرار الثاني يلزم السناتو بالنظر في حق جنود قيصر في التسريح والمكافأة . وكان القرار الثالث يقضي بجعل ولاية قيليقيا (وكانت عندئذ ولاية قنصلية يحكمها شيشرون وتشمل قبرص منذ ضمها) ولاية برايتورية وكذلك ثماني ولايات أخرى (٩٩) .

(96) Plut., Caes., XXIX, 2; App., B.C. II, 26.
(97) Cic., ad Att., V, 11, 2.
(98) Cael., in Cic., ad Fam., VIII, 8.
(٩٩) هذه الولايات هي : صقليه ، سردينيا وقورسقا ، مقدونيا وآخايا ، آسيا ، أفريقيا ، كريت ، قورينائية ، بيتونيا .

ومن الواضح أن أول القرارات التي صودرت لم يكن إلا محاولة للتخلص من ڤيتو ترابنة العامة ليتسنى لخصوم قيصر التصرف في أمره كما يشاءون . أو بعبارة أخرى محاولة ملتوية لإحياء الشق الثاني من قانون جايوس جراكوس الذي كان يحظر استخدام ڤيتو ترابنة العامة ضد قرارات السناتو بشأن الولايات القنصلية . وكان ثاني هذه القرارات مناورة مكشوفة للإيقاع بين قيصر وجنوده بإغرائهم على المطالبة بتسريحهم والمكافأة على خدماتهم الطويلة. وكان القرار الثالث مناورة ملتوية تهدف هي والقرار الذي لم يُصادر الى إثارة مسألة حكم قيصر لولايتيه دون النص على ذلك بالإسم . ذلك أنه كانت لروما عندئذ أربع عشرة ولاية وأن معنى النص على أن تكون قيليقيا وثماني ولايات أخرى ولايات برايتورية هو أن تكون الولايات الخمس الباقية ولايات قنصلية . وكانت هذه الولايات الخمس القنصلية هي ولايتا إسبانيا وولايتا غاليا وولاية سوريا . وبما أن حكم ولايتي إسبانيا كان قد أُسند الى بومبي منذ عهد قريب ، فإن ذلك لم يعد مجالاً للبحث ولا كان بيت القصيد على كل حال. ولما كانت تتبقى بعد ذلك ولاية سوريا وولايتا غاليا ، فإنه يتبين إذن أنه كان من شأن هذا القرار والقرار الأول الذي لم يُصادر أن تُثار في أول مارس عام ٥٠ ق . م . مسألة حكم قيصر لولايتي غاليا بقصد تعيين من سيخلفه فيهما وإرغامه على هذا النحو على التخلي عنهما بمجرد إنهاء مدة بروقنصليته في أول فرصة ممكنة . ومعنى ذلك أن النية كانت مبيتة على أن يُطبق على قيصر قانون بومبي الذي استصدره في عام ٥٢ ق . م . وكان يجيز إيفاد الحكام الى الولايات في أي وقت . وقد كان القصد من ذلك طبعاً هو حرمان قيصر ولايتيه قبل انتخابه قنصلاً لإرغامه على أن يختار بين أمرين إما الذهاب تلقائياً الى المنفى وإما الحضور الى روما مواطناً عادياً فيتلقفه خصومه بالمحاكمة وبذلك يحولون دون توليه القنصلية . ومن عجب أن يكون قد فات خصوم قيصر أن رجلاً مثله ، سياسياً داهية وقائداً ناجحاً على رأس جيش كبير مدرب تدريباً عالياً . كان لا يمكن أن يقبل أي لون من لوني الانتحار السياسي اللذين اختاروهما له . وأنهم اذا ضيقوا الخناق عليه

فإنه كان لا يسعه إلاَّ أن يحذو حذو صلا من قبل ، ولا سيما إذا كان هناك ما يبرر وجهة نظر قيصر ، على نحو ما سبق ذكره وما سنعرض له فيما بعد .

ويُفهم من روايتي أبيانوس(١٠٠) وأحد أنصار قيصر(١٠١) وكذلك من رسالة قايليوس سالفة الذكر(١٠٢) أنه عندما أُريد البت فوراً في مسألة تعيين خلف لقيصر اتخذ بومبي موقف الرجل المنصف ، وذلك بتصريحه بأنه لا يمكن أن يشارك في ذلك قبل أول مارس وأما بعد ذلك التاريخ فإنه لن يتردد في التصرف . ويمضي قايليوس فيروي كيف أنه عندما سئل بومبي « وماذا يكون الشأن إذا استُخدم حق الإعتراض يومئذ ؟ » أجاب « ليس هناك فارق بين رفض قيصر إطاعة السناتو وبين استخدامه بعض الناس لتعطيل قرارات السناتو . » وعندما قيل لبومبي « وهب أن قيصر تسول له نفسه أن يكون قنصلاً ويحتفظ بجيشه في الوقت نفسه » قال « هب أيضاً أن ابني تسول له نفسه أن يرفع علي عصاه ويضربني . » ويمضي قايليوس فيقول إن تصريحات بومبي أوحت الى الناس بنشوب الخلاف بينه وبين قيصر ، وإن جايوس سقريبونيوس قوريو — صديق قايليوس — سيبذل كل ما في وسعه ضد ما يطلبه قيصر . وموقف بومبي أصبح يدل صراحة على أنه إذا كان يربأ بنفسه عن أن يحنث بوعده لقيصر بتمكينه من الاحتفاظ بولايتيه حتى انتهاء مدة بروقنصليته بمقتضى قانون بومبي وقراسوس ، فإنه كان على أتم استعداد لإحباط مساعي قيصر لتولي القنصلية ثانية . ولعل أن يكون قد شجع النبلاء على تماديهم في تحدي قيصر إدراكهم — بعد أن كشف بومبي صراحة عن موقفه — أنهم يستطيعون الاعتماد عليه في كسر شوكة قيصر وتصورهم أنه إزاء مجد بومبي العسكري لن يجرؤ قيصر على استخدام القوة لتحقيق بغيته أو على أكثر تقدير لن يحالفه التوفيق في ذلك .

---

(100) App., B. C., II, 26.
(101) Hirt., B. Gal., VIII, 53.
(102) Cael., in Cic., ad Fam., VIII, 8, 9-10

وفي الخطاب[١٠٣] الذي أرسله شيشرون الى صديقه أتيقوس في ١٧ من ديسمبر عام ٥١ ق . م . يعرب شيشرون عن اغتباطه بما تناهى إليه من أن قيصر سيذعن لوجهة نظر السناتو . ونبأ إذعان قيصر كان مجافياً للحقيقة مجافاة تصدي قوريو لمعارضة مطالب قيصر . ذلك أن قيصر كان مصمماً على الوصول الى هدفه وأنه استخدم قوريو لتحقيق هذا الهدف. وبيان ذلك أن عام ٥٠ ق . م . كان عاماً حاسماً بالنسبة لقيصر لأنه سيتقرر فيه أمر ولايتيه وتبعاً لذلك فإنه حرص على أن يكون من بين ترابنة العامة في ذلك العام عدد كاف يسهرون على صوالحه . ولما كان قوريو خطيباً مفوهاً وشديد الرغبة في تولي أحد مناصب تريبونية العامة ، وكان شاباً متلافاً غارقاً في ديونه وكذلك معروفاً بأنه خصم لدود لقيصر ونصير قوي للجمهوريين ، فإن قيصر اشترى قوريو سراً[١٠٤] .

ب ــ أحداث عام ٥٠ ق.م :

دور قوريو

ويحدثنا ديون قاسيوس[١٠٥] بأن قوريو لم يكشف على الفور عن تبدل موقفه من مناصرة الجمهوريين الى مناصرة قيصر . ذلك أنه ليبعد قوريو عن نفسه مظنة بيعها لقيصر ويبدو كأن الجمهوريين هم الذين فرضوا عليه تغيير موقفه حرص على مخالطة الجمهوريين ومشاركتهم النيل من قيصر ومهاجمته ثم ما أن تولى قوريو مهام منصبه تريبوناً للعامة حتى ظهر بمظهر الزعيم الشعبي فقد تقدم بمجموعة من مشروعات القوانين كان واثقاً من أنها ستلقى معارضة قوية من السناتو ومن بومبي . وعندما حدث ذلك اتخذ منه ذريعة للمجاهرة بانتصاره لقيصر ولاعتراضه على قرارات السناتو ضد قيصر .

وكان قنصلا عام ٥٠ ق . م . ــ جايوس قلاوديوس مارقلّوس (إبن

(103) Cic., ad Att., V, 20, 8.
(104) Dio Cass., XL, 60; App., B.C., II, 26; Sueton, Div. Jul., XXIV, 1; Plut., Pomp., LVIII, 1.
(105) Dio Cass, XL, 61-62.

عم قنصل العام السابق) ولوقيوس آيميليوس باولـّوس (Paullus) — من أشد خصوم قيصر ولكنه أفلح في شراء ذمة ثانيهما[١٠٦] . وعندما اجتمع السناتو في يوم أول مارس عام ٥٠ استخدم قوريو حق الإعتراض على قرار بإنهاء بروقنصلية قيصر في ١٣ من نوفمبر . وكتب قايليوس الى شيشرون ينهي اليه ما حدث وتقديره أن اعتراض قوريو سيظل قائماً وأن قيصر سيدافع عن قوريو إذا بـُذلت محاولة لإرغامه على العدول عن موقفه[١٠٧] .

ومما يجدر بالملاحظة هنا أن تحديد ١٣ من نوفمبر عام ٥٠ نهاية لبروقنصلية يشير الى أن السناتو بدافع من رغبته الجامحة في إنهاء بروقنصلية قيصر في أقرب وقت ممكن إعتبر بداية فترة السنوات الخمس الثانية لبروقنصلية قيصر ١٣ من نوفمبر عام ٥٥ ، أي التاريخ الذي بارح فيه قراسوس روما الى الشرق ، وذلك بالرغم من أنه بمقتضى القانون الذي منُح به قيصر بروقنصليته أصلاً كانت فترة الخمس السنوات الأولى لبروقنصليته لا تنتهي إلا في أول مارس عام ٥٤ . ومن البديهي أن هذا التاريخ وليس أي تاريخ آخر كان البداية الطبيعية المنطقية لفترة الخمس السنوات الثانية لبروقنصلية قيصر . ولا جدال في أنه كان من حق السناتو اعتبار ١٣ من نوفمبر من أي عام بداية لأية بروقنصلية ، لأنه كان لا يجوز عادة لأي قنصل ممارسة سلطته البروقنصلية قبل هذا التاريخ . بيد أنه لو كان السناتو منصفاً أو على الأقل منطقياً مع نفسه لوجب عليه عندئذ احتساب بداية مدتي بروقنصلية قيصر منذ ١٤ من نوفمبر عام ٥٩ ، وتبعاً لذلك فإن المدة الثانية لبروقنصلية قيصر كانت لا تنتهي إلا في ١٣ من نوفمبر عام ٤٩ . وهكذا يتضح لنا بجلاء أن قرار السناتو الذي صادره قوريو كان قراراً عسفياً لا مبرر له إلا مناهضة قيصر وإرغامه على ترك ولايتيه قبل أول مارس عام ٤٩ لكيلا يتذرع قيصر بأنه وقد تولى بروقنصليته أصلاً ثم أطيلت مدتها في كنف قانون جايوس جراكوس كان من حقه البقاء في ولايتيه أو على الأقل في ولاية

(106) App., B.C., II, 26; Sueton., Div. Jul., XXIX, 1; Plut., Pomp., LVIII, 1.
(107) Cael., in Cic., ad Fam., VIII, 11, 3.

غاليا هذه الناحية من الألب حتى نهاية عام ٤٩ ق . م .

وعندما أثيرت المسألة ثانية في شهر أبريل عام ٥٠ ـ حين كان بومبي مريضاً في قمبانيا (١٠٨) ـ زعم قوريو أن أفضل مخرج من هذه الأزمة التي تتهدد فيها سلامة الدولة وجود قوات كبيرة تحت إمرة البروقنصلين ـ قيصر وبومبي ـ وشكوك كل منهما في نوايا الآخر ، هو أن يقوم كلاهما في وقت واحد بالتخلي عن بروقنصليته وتسريح قواته . وقد هللت الجماهير لهذا الاقتراح الذي أظهر قوريو بمظهر الرجل المتفاني في الحفاظ على الجمهورية دون أن يبالي بما سيجره عليه موقفه من عداء بومبي وقيصر . ورحب بهذا الاقتراح أيضاً فريق من النبلاء لأنهم كانوا يريدون تجنب نشوب حرب أهلية. وخرج بومبي من الحرج الذي أوقعه فيه قوريو بأن بعث الى السناتو برسالة وعد فيها بالتخلي عن بروقنصليته دون انتظار موعد انتهائها ، قاصداً بذلك ، على حد تعبير أبيانوس ، إظهار حسن نيته وفي الوقت نفسه التعريض بقيصر . وبعد عودة بومبي من قمبانيا تحدث بومبي الى السناتو في المعنى نفسه الذي أورده في رسالته ، مضيفاً الى ذلك أنه واثق من أنه سيسعد قيصر أن يتخلى مثله عن بروقنصليته ويعود الى الحياة المدنية بعد الصراع الطويل الشاق الذي خاض غماره ضد شعوب محبة للقتال ، قاصداً بذلك ، على حد تعبير أبيانوس ، أن يسرع السناتو بتعيين من يخلف قيصر في ولايتيه بينما يقنع هو بمجرد الوعد الذي أعطاه . بيد أن قوريو ندد بوعد بومبي واعتبره حيلة ليس المقصود منها إلا احتفاظه بسلطته البروقنصلية وجيشه مع حرمان قيصر سلطته وجيشه ، وهاجم بومبي هجوماً عنيفاً متهماً إياه بأنه يطمع في السيطرة على الدولة ، وأردف ذلك بقوله إن بومبي لن يتخلى عن سلطته وجيشه إلا إذا فعل ذلك والخوف يتملكه مـن فيصر . وقـد غضب بومبي من تهجم قوريو عليه وبارح روما ليرقب الأحداث فيها عن كثب . وأما قوريو فإنه مضى الى حد أنه اقترح إصدار قرار باعتبار بومبي وقيصر عدوين للدولة إذا لم يطيعا الأمر

(108) Juvenal, X, 283-6.

بالتخلي عن سلطتيهما وتسريح جيشيهما . وبرغم أن أغلب أعضاء السناتو كانوا لا يطمئنون سواء الى بومبي أم الى قيصر ، فإنهم كانوا يعتبرون قيصر أكثر الإثنين خطراً ولذلك رفضوا الموافقة على اقتراح قوريو[109] .

ويحدثنا قايليوس[110] بأنه في شهر يونيه أثار القنصل مارقلّوس مسألة تعيين حكام للولايات القنصلية واقترح على السناتو اتخاذ قرار ضد اعتراض قوريو على القرار الذي أصدره السناتو في أول مارس خاصاً بإنهاء مدة بروقنصلية قيصر في ١٣ من نوفمبر ، ولكن السناتو رفض بالإجماع اقتراح القنصل ، ويعرب قايليوس عن اغتباطه بهذه النتيجة . وإن دل موقف السناتو في هذه الجلسة على شيء فهو يدل على الخوف من نشوب حرب أهلية وعلى الرغبة في تفاديها . وفي شهر أغسطس يعرب قايليوس[111] عن اعتقاده بأنه في خلال عام ستؤدي الأزمة الى نشوب حرب أهلية إلا إذا انصرف أحد العملاقين — قيصر وبومبي — الى محاربة البارثيين .

قيصر يهادن ويستعد والنبلاء يتمادون في تحديه :

ولما كان في صالح قيصر أن يظل السناتو عاجزاً عن اتخاذ قرار باستدعائه قبل انتخابه قنصلاً ، وكانت مدة تريبونية قوريو الساهر على صوالحه تنتهي في ٩ من ديسمبر عام ٥٠ ق . م . ، وكان قد انتخب لتولي قنصلية عام ٤٩ خصمان لدودان لقيصر — وهما لوقيوس لنتولوس وجايوس مارقلّوس إبن عم قنصل عام ٥٠ — وكان لدى صديقه الكوايستور مارقوس أنطونيوس من الشجاعة والجرأة والكفاية ما يمكنه من القيام بدور قوريو بعد انتهاء تريبونيته ، فإن قيصر لم يدخر وسعاً في العمل على مساعدة أنطونيوس للفوز بأحد مناصب تريبونية عام ٤٩ ق . م . وكذلك بعضوية جماعة العراف[112] .

(109) App., B.C., II, 27-29; Plut., Pomp, LVIII.
(110) Cael., in Cic., ad Fam. VIII, 13.
(111) Cael., in Cic., ad Fam., VIII, 14.
(112) Plut., Anton., V, 1-2; Hirt., B Gal., VIII, 50.

وقد حدث حوالي منتصف عام ٥٠ ق . م . أمر لم يكن في حد ذاته هاماً وإنما كانت نتائجه بالغة الأهمية . ذلك أنه إزاء خوف بيبولوس حاكم ولاية سوريا من إقدام البارثيين على غزو ولايته ، قرر السناتو أن يسهم كل من قيصر وبومبي في الإمدادات الواجب إرسالها الى بيبولوس بتقديم إحدى الفرق التي كانت تحت إمرة كل منهما . وقد سارع بومبي الى تلبية قرار السناتو على أن تكون الفرقة التي يسهم بها هي تلك التي كان قد أعارها لقيصر منذ حوالي ثلاثة أعوام حين كانت العلاقات لا تزال ودية بينهما . ولم يتوان قيصر أيضاً في تلبية قرار السناتو ، فقد أرسل الى إيطاليا فرقة بومبي المعارة له وكذلك فرقته الخامسة عشرة التي كانت معسكرة في غاليا هذه الناحية من الألب . وعندما وصلت هاتان الفرقتان الى روما في خريف عام ٥٠ كان خطر البارثيين قد زال . فلم تُعادا الى قيصر وإنما أُرسلتا الى قابوا لقضاء فصل الشتاء هناك(١١٣) . ويحدثنا بلوتارخ بأن ضباط هاتين الفرقتين نشروا شائعات كاذبة ولكن بومبي صدقها فكانت سبب نكبته ، فقد روى هؤلاء الضباط أن جنود قيصر كانوا برمين به بسبب الحملات الكثيرة التي قام بها ، ويسيئون الظن بقيصر خوفاً من أن يقيم نفسه ملكاً ، ويتطلعون الى عبور الألب للانضمام الى بومبي والقتال تحت قيادته . وإذ أشبع ذلك كله غرور بومبي أهمل تزويد نفسه بالقوات اللازمة كما لو لم يكن هناك شيء يخشاه(١١٤) . ولعل أن تصديق بومبي هذه الشائعات كان أحد العوامل(١١٥) التي حفزت بومبي على تجنب الوصول الى حل وسط للأزمة وعلى إصراره على الحرب ، كما سيأتي ذكره .

وفي خريف عام ٥٠ ق . م . كان قيصر في غاليا هذه الناحية من الألب يعمل حثيثاً على دعم مكانته بين أهالي هذه الولاية ، ثم ترك لابينوس ليتولى

(113) App., B.C., II, 29; Dio Cass., XL, 65-66; Plut., Caes., XXIX, 3-5; Pomp., LVII, 4-5.

(١١٤) راجع المصادر الواردة في الحاشية السابقة .

(١١٥) عن العوامل التي حفزت بومبي على الحرب ، راجع .
L.G Pocock, Greece and Rome, 1959, pp. 68 ff.

أمرها وعبر الألب الى ولايته الأخرى حيث أمر الفرقة الثالثة عشرة بالذهاب الى غاليا هذه الناحية من الألب لتحل مكان الفرقة الخامسة عشرة وتكون قريبة من روما في حالة نشوب أزمة، كما أسند قيادة أربع فرق الى تربونيوس وقيادة أربع فرق أخرى الى فابيوس وأمر الأول بقضاء الشتاء في بلاد البلجيق في أقصى الشمال والثاني في بلاد الأيدوي (Aedui) في أواسط بلاد الغال (١١٦) . ومرد توزيع قيصر لقواته على هذا النحو الى أنه كان حريصاً على أن ينفي عن نفسه عزمه على الالتجاء الى القوة ولا سيما أنه في شهر سبتمبر تواترت شائعات بأنه ينوي أن يضع يوم ١٥ من اكتوبر أربع فرق في بلاقنتيا في ولاية غاليا هذه الناحية من الألب (١١٧) .

وعندما وصل شيشرون الى إيطاليا في ٢٤ من نوفمبر عام ٥٠ ظل بعيداً عن روما الى أن يصدر السناتو قراراً بمنحه حق إقامة مركب نصر . ولكنه يتبين من عدة خطابات (١١٨) أرسلها من أماكن مختلفة في إيطاليا الى صديقه أتيقوس أن شيشرون وقف سريعاً على حقيقة الأوضاع وأدرك أنه بعد ازدياد قوة قيصر ازدياداً هائلاً لا يمكن أن يقنع إلاّ بحل يرضيه مثل ما أدرك أن رفض هذا الحل لن يؤدي إلا الى نشوب حرب أهلية وهو ما يجب تفاديه بأي ثمن . ويتبين كذلك من هذه الخطابات ومما أورده بلوتارخ أن شيشرون لم يدخر وسعاً للإصلاح بين قيصر وبومبي ومنع نشوب حرب تكتوي البلاد بنيرانها وتتمخض عن قائد منتصر ينصب نفسه طاغية .

ويُفهم من أحد خطابات شيشرون (١١٩) أن طلب قيصر البقاء في ولايتيه والسماح له بترشيح نفسه للقنصلية غيابياً كان يستند على أن قانون التراابنة العشرة الذي خوله حق ترشيح نفسه للقنصلية غيابياً خوله ضمناً الاحتفاظ بسلطته البروقنصلية وبجيشه الى أن يمارس ذلك الحق .

(116) Hirt., B. Gal., VIII, 51-55.
(117) Cic., ad Att., VI, 9, 5.
(118) Cic., ad Att., VII, 2-9; Plut, Caes, XXXI; Cic., XXXVII.
(119) Cic, ad Att., VII, 7, 6.

ولا جدال في أن بقاء قيصر في ولايتيه حتى آخر عام ٤٩ ق. م . كان يتفق والعرف المعمول به في الماضي مثل ما كان يتفق والأوضاع السارية في كنف قانون جايوس جراكوس وهو القانون الذي كان نافذاً حين مُنح قيصر بروقنصليته وكذلك حين أطيلت مدة هذه البروقنصلية خمس سنوات أخرى . وأما عن انتخاب قيصر للقنصلية غيابياً فإنه لم يكن أمراً جديداً . فقد سبق انتخاب ماريوس للقنصلية غيابياً عدة مرات . هذا الى أنه قد صدر قانون خاص بإعفاء قيصر من شرط ترشيح نفسه حضورياً . ووافق بومبي على ذلك القانون مثل ما وافق على إعفاء قيصر من أحكام القانون الجديد الذي اشترط الترشيح حضورياً . وإنه لمما يجدر بالملاحظة أن قيصر تولى الوظائف العامة جميعاً طبقاً لأحكام قانون تنظيم تولي هذه الوظائف . وأن رغبته الحالية في تولي القنصلية ثانية كانت تتفق كذلك وأحكام هذا القانون لأنه في عام ٤٨ ق . م . تكون قد انقضت عشر سنوات على انتهاء مدة توليه القنصلية لأول مرة في عام ٥٩ ق . م . وأما بومبي — حليف الأمس وخصم اليوم وأكبر عقبة في سبيل تحقيق هذه الرغبة — فقد عرفنا كيف أنه تولى القنصلية لأول مرة في عام ٧٠ ق . م . دون أن يتولى قبل ذلك الكوايستورية ولا البرايتورية . وكيف أنه عندما تولى القنصلية لثالث مرة في عام ٥٢ ق . م . لم تكن قد انقضت عشر سنوات على توليه قنصليته الثانية في عام ٥٥ ق . م . وأما عن النبلاء الذين نصبوا أنفسهم حماة للدستور والنظام الجمهوري فقد عرفنا كيف أنه اذا كان السناتو قد أرغم على السماح لبومبي بتولي قنصلية عام ٧٠ ق . م . . فإن السناتو هو الذي خرج على أهم قواعد الدستور وجوهر النظام الجمهوري بإقامته بومبي قنصلاً مفرداً في عام ٥٢ ق . م . مثل ما عرفنا أيضاً كيف أن السناتو أسند في ذلك العام نفسه الى بومبي سلطة بروقنصلية لتولي حكم ولايتي إسبانيا قبل مرور السنوات الخمس التي اقتضاها القانون الذي أصدره بومبي نفسه وكذلك قرار السناتو الذي كان هذا القانون تطبيقاً له . فما أوسع الشقة بين مطلب قيصر المتواضع وبين كل ما أتيح لبومبي مراراً متعدده

استثناء من أحكام الدستور والعرف والتقاليد. وإزاء ذلك كله لا سبيل الى الشك في أن معارضة بومبي وأغلب الجمهوريين لقيصر لم يكن مردها الى الانتصار للقواعد الدستورية والنظام الجمهوري وإنما الى الخوف من أن عودة قيصر الى روما قنصلاً ستؤدي حتماً الى سيطرته المطلقة وتلاشي سطوة بومبي والقضاء على كل نفوذ للسناتو.

وبالرغم من غيبة قيصر عن روما فإنه لم يدخر وسعاً عن طريق عملائه في الفوز بتأييد واسع النطاق، فهو من ناحية اشترى بالهدايا أو القروض أو غير ذلك من الوسائل ود عدد كبير من رجال السياسة البارزين الذين كان من بينهم كثيرون من أعضاء السناتو بما في ذلك بعض أنصار بومبي، بل ذهب الى حد استمالة المعتقين والعبيد الذين كان لهم نفوذ لدى رعاتهم (patroni). ويحدثنا سويتونيوس بأن قيصر جعل نفسه ملاذاً لكل من كانت له مشكلة قضائية أو مثقلاً بالديون، ولكل الشبان المسرفين دون أن يكف مساعدته إلا عن أولئك الذين أوغلوا في الإجرام أو في الفقر أو في الحياة الماجنة، فقد قال لهؤلاء بصراحة إنه لا ينقذهم إلا نشوب حرب أهلية. بيد أن شيشرون يذهب في أحد خطاباته الى حد القول بأنه كان يؤيد قيصر كل المجرمين والذين نبذهم المجتمع وكل الشبان وكل غوغاء المدينة وكل ترابنة العامة الأقوياء وكل المفلسين وهم كثيرون الى حد يفوق الحصر. ومن ناحية أخرى لم تفت قيصر أيضاً أهمية الجانب المعنوي في الصراع، فقد اهتم بأن يعرض على الشعب عن طريق عملائه وجهة نظره واستعداده للتفاهم ورغبته في تفادي نشوب حرب أهلية، وكانت رغبة صادقة يدل عليه ما سنعرض له في محاولته التوصل الى حل وسط. وقد ساعدت على عطف غوغاء روما على قيصر وضيقهم ببومبي والنبلاء الجمهوريين تلك الإجراءات التي اتخذها بومبي حين انفرد بالقنصلية في عام ٥٢ فقد كان من جرائها أنه ساد جمعية القبائل منذ ذلك الوقت هدوء غير مألوف ولا مقبول للعامة. ومن ثم فإن الشعب أصبح يعتبر قيصر بطله ويتطلع الى عودته قنصلاً ليبعث الحياة من جديد في الجمعيات الشعبية. والى جانب هذا

التأييد الشعبي كان في وسع قيصر الاعتماد على ولاء جنوده الذين أحسن تدريبهم في أثناء محاربة الغال وأجزل لهم العطاء[١٢٠] .

وفي الجلسة التي عقدها السناتو في أول ديسمبر[١٢١] عام ٥٠ شن القنصل مارقلّوس هجوماً عنيفاً على قيصر ووصفه بأنه قاطع طريق وطلب الى السناتو اعتباره عدواً للدولة اذا لم يتخل عن ولايتيه وجيشه . فلم يكن من قوريو إلا أنه عاد فأبدى أن الحل الوحيد العادل المعقول هو أن يتخلى كل من قيصر وبومبي عن بروقنصليته . وقد تمخضت المناقشة عن ثلاثة اقتراحات تقدم مارقلوس باثنين منها وقوريو بثالثها . وكان أول اقتراحي مارقلّوس يقضي بإرسال خلف لقيصر ووافقت أغلبية السناتو على هذا الاقتراح ولكن قوريو استخدم ضده حق الفيتو وتبعاً لذلك أصبح هذا القرار غير ذي موضوع . وكان ثاني اقتراحي مارقلّوس استطلاعاً لرأي السناتو اذا كان يجب مطالبة بومبي بالتنحي عن بروقنصليته . وعندما رفضت غالبية السناتو الموافقة على ذلك أصر قوريو على أخذ الرأي على اقتراحه بتنحي قيصر وبومبي عن بروقنصليتيهما في آن واحد . ولفرط دهشة مارقلّوس وافق السناتو على الاقتراح بأغلبية ٣٧٠ ضد ٢٢[١٢٢] ولكنه يرجح أن تريبون العامة فورنيوس الموالي لبومبي أبطل هذا القرار باستخدام حق الفيتو ضده .

تهور مارقلّوس وبومبي :

وعندما عاد قيصر من غاليا فيما وراء الألب الى غاليا هذه الناحية من الألب في أوائل ديسمبر انتشرت شائعة كاذبة مفادها أن قيصر يزحف على روما ، فلم يكن من مارقلّوس إلا أنه دعا السناتو الى الاجتماع وأنهى اليه أن قيصر عبر الألب على رأس عشر فرق في طريقه الى روما . واقترح إصدار

---

(120) Plut., Pomp., LVIII; Caes., XXIX, 2-3; Sueton., Div. Jul., XXVII; Cic., ad Att., 3, 3; App., B.C., II, 30.

(121) Heitland, III, p. 267; C.A.H., IX, p. 635.

(122) App., B.C., II, 30; Pomp., LVIII, 3-5

قرار يقضي باعتبار قيصر عدواً للدولة وبإسناد قيادة الفرقتين الموجودتين في قابوا الى بومبي لحماية الدولة . وعندما اعترض قوريو على هذا الاقتراح على أساس أن الشائعة مكذوبة صرح مارقلّوس بأنه إزاء الحيلولة دون إصدار قرار للذود عن حياض الدولة فإنه بوصف كونه قنصلاً سيتخذ الإجراءات الكفيلة بذلك(١٢٣) .

وعقب هذه الجلسة توجه مارقلّوس والقنصلان الجديدان المنتخبان إلى بومبي وأسند اليه مارقلّوس قيادة الفرقتين الموجودتين في قابوا وخوله حشد كل ما يمكن من الجنود والزحف ضد قيصر . وبرغم إدراك بومبي أن تصرف القنصل كان غير دستوري لعدم استناده الى قرار من السناتو وأن المهمة التي أسندها اليه القنصل كانت تنطوي على إشعال لهيب حرب أهلية فان بومبي قبل هذه المهمة وشرع في حشد قوات(١٢٤) .

ويحدثنا شيشرون بأنه عندما زار بومبي في العاشر من ديسمبر علم منه بأن الحرب أصبحت أمراً يكاد أن يكون مؤكداً(١٢٥) . ويحدثنا شيشرون كذلك عن الأثر السيء لقبول بومبي المهمة التي أسندها اليه مارقلّوس ، وعما تبين له من اتصالاته المختلفة أنه لم يكن هناك أمـــل في أن تهب الطبقات جميعاً للدفاع عن الدستور ، فالسناتو لم يجرؤ على اتخاذ موقف حاسم ، والرأسماليون لا يبالون إلا بصوالحهم وجميعهم يؤيدون قيصر ، والمزارعون لا يعنيهم إلا تجنب نشوب الحرب مهما يكن الثمن ، وهو الرأي الذي كان شيشرون نفسه يحبذه(١٢٦) .

---

(123) Plut., Pomp., LXIII, 6; App, B. C. II, 31.

(124) App., B.C., II, 31; Plut, Pomp., LVIII, 6-LIX, 1; Dio Cass, XL, 64, 2; 66.

(125) Cic., ad Att., VII, 4.

(126) Cic., ad Att., 5, 4; 7, 5.

قيصر يتمهل ويحذر :

وفي ٢٤ من ديسمبر كان قيصر في رافنا حيث وافاه قوريو وأنهى اليه أخبار ما كان جارياً واستحثه على الزحف فوراً على روما ، ولكن قيصر آثر التمهل فأمر الفرقة الثالثة عشرة بالانتقال الى رافنا واستدعى من وراء الألب الفرقتين الثامنة والثانية عشرة بحجة أن ما أقدم عليه بومبي كان يهدد الأمن والسلام (tumultus) في إيطاليا على نحو يستوجب اتخاذ التدابير اللازمة لتأمين سلامة الدولة ، وعهد الى قوريو بأن يحمل الى السناتو رسالة أعدها بعناية لتلقي على خصومه عواقب رفض ما يطلبه وتحملهم تبعة نشوب الحرب . ذلك أنه قبل ذلك كان قيصر قد عرض عن طريق أصدقائه أن ينزل في أول مارس عام ٤٩ عن ولاية غاليا فيما وراء الألب وثماني فرق بشرط أن يرشح نفسه للقنصلية غيابياً ويحتفظ حتى نهاية عام ٤٩ بالّوريقوم وغاليا هذه الناحية من الألب وفرقتين ثم يبدو أنه عاد فقصر ما يحتفظ به على إلّوريقوم وفرقة واحدة فقط ، ولكن كل جهود قيصر للتوصل الى حل وسط لم تلق الا صداً إذ يبدو أنه في ضوء ما قيل عن تذمر جنوده توهم خصومه أن مبعث تواضع ما يطلبه كان شعوره بضعف مركزه[١٢٧] . ولعل أن ذلك الوهم كان سبب الثقة العمياء التي استشعرها بومبي وحفزته على أن ينحي جانباً التوصل الى حل وسط . فأفضى الى شيشرون عندما التقى به في ٢٥ ديسمبر عام ٥٠ بما ينم بجلاء عن عدم ميله إلى التفاهم وعن إصراره على الحرب[١٢٨] .

وفي الرسالة التي حملها قوريو الى السناتو اتخذ قيصر موقف الدفاع عن نفسه وعن الدستور وعن حقوق الشعب . ذلك أنه سرد في هذه الرسالة الخدمات التي أداها للدولة واقترح أن يتخلى عن بروقنصليته وأن يسرح جيشه بشرط أن يحذو بومبي حذوه في الوقت ذاته لأنه كان معنى انفراده باتخاذ هذا

---

(127) Sueton., XXIX, 2; App. B.C., II, 32, Velleius, II, 49, 4; Plut. Caes., XXXI, 1; Caes., B.C., I, 7-8;Introd., p. XXVII, ed, Guillaume Budé, 1968; Heitland, III, pp. 269-70; C.A.H., IX, pp. 635-6.

(128) Cic., ad Att., VII, 8.

الإجراء وإحجام بومبي عن اتخاذ إجراء مماثل أن يضع نفسه تحت رحمة خصومه ، وأوضح أنه اذا احتفظ بومبي ببروقنصليته وبجيشه فإنه لن يرى مفراً من الدفاع عن حقوقه وحقوق الشعب(١٢٩) .

وعندما اجتمع السناتو في أول يناير عام ٤٩ ق . م . (وفقاً للتقويم قبل تصحيحه) برياسة القنصل لنتولوس وأرغمه تريبونا العامة ماركوس أنطونيوس وكوينتوس قاسيوس لونجينبوس على تلاوة رسالة قيصر ، أعقبت ذلك مناقشة حامية انتهت بالموافقة على اقتراح قدمه متلّوس سقيبيو — حمو بومبي — بإنهاء مدة بروقنصلية قيصر «قبل يوم بعينه» (ante certum diem) يقوم المجلس بتحديده ، وباعتبار قيصر عدواً للدولة إذا رفض الإنصياع لأمر السناتو . ويبدو أن الغرض من إقرار مبدأ إنهاء مدة بروقنصلية قيصر دون تحديد تاريخ لذلك في تلك الجلسة كان اتخاذ موقف حاسم ضد قيصر دون تعجل وقوع المحظور قبل أن يستكمل بومبي حشد القوات اللازمة لمواجهة قيصر . وعندما استخدم تريبونا العامة أنطونيوس ولونجينوس حقهما في الاعتراض على هذا القرار ، طلب لنتولوس الى المجلس إبداء الرأي فيما يجب اتخاذه للتغلب على اعتراض تريبوني العامة، ولكن جلستي ذلك اليوم واليوم التالي انتهيتا دون الوصول الى قرار(١٣٠) . وإحجام السناتو عن اتخاذ قرار ضد اعتراض تريبوني العامة أنطونيوس ولونجينوس يدل على عزوف غالبية أعضاء السناتو عن دفع الأزمة الى حد لا بد من أن ينتهي الى حرب أهلية. وهو العزوف الذي سنلمسه في تردد المجلس في جلستيه التاليتين .

حماقة لنتولوس تعطي قيصر ذريعة قوية :

ولما كان اليومان الثالث والرابع من يناير مخصصين لانعقاد الجمعيات الشعبية وكان لا يجوز للسناتو الانعقاد فيهما ، فإن هذا المجلس لم يعقد جلسته

---

(129) App., B.C., II, 32; Plut., Caes., XXX; Pomp., LIX; Dio Cass., LXI, 1; Cic., ad Fam., XVI, 11, 2; Caes., B.C., I, 1 ff.

(130) Dio Cass, XLI, 2-3, 1; Caes, B.C., I, 1-3

التالية إلا في الخامس من يناير عام ٤٩ ق . م . (وفقاً للتقويم قبل تصحيحه) . بيد أنه إزاء الخوف من نشوب حرب أهلية انفضت جلستا اليومين الخامس والسادس دون أن يفلح لنتولوس والقنصل الآخر زميله وقاتو وأعوانهم في إقناع السناتو بالتغلب على ڤيتو تريبوني العامة ضد قراره السابق بإصدار « قرار السناتو النهائي » . وإزاء ما لمسه لنتولوس ومشايعوه من تردد المجلس وخوفه من الحرب يبدو أنهم لم يدخروا وسعاً في إفهام أعضاء السناتو أنه لن ينقذهم من النوايا الخطيرة التي زعموا أن قيصر كان يبيتها إلا إصدار « القرار النهائي » . وأخيراً في الجلسة التي عقدها السناتو في السابع من يناير أعلن لنتولوس أنه سيأخذ رأي المجلس على إصدار قراره النهائي ونصح تريبوني العامة ، أنطونيوس ولونجينوس ، بالانسحاب إذا كانا يؤثران السلامة والعافية . وبعد أن احتج أنطونيوس على هذا الاعتداء الصارخ على قدسية أشخاص ترابنة العامة ، انسحب هو ولونجينوس وسارعا مع قوريو وقايليوس الى قيصر في رافنـــا ، متخفين في زي العبيد خوفاً عـــلى حياتهم من جنود بومبي . وقد أصدر السناتو قراره النهائي الى القنصلين والبرايتورس والبروقنصلين الموجودين في إيطاليا (بومبي وشيشرون) باتخاذ ما يلزم من إجراء لحماية الدولة . بيد أنه على هذا النحو أعطى لنتولوس لقيصر ذريعة الدفاع عن حقوق ترابنة العامة والشعب . وإصدار السناتو قراره النهائي بعد ما بدا منه من تردد في عدة جلسات يوحي بتأييد رواية قيصر في مذكراته « الحرب الأهلية » عن تأثر موقف الكثيرين من أعضاء السناتو بأساليب التهديد التي عمد إليها القنصلان وبومبي ، وذلك بحشد قوات بالقرب من روما وملء العاصمة بأصدقاء القنصلين وأنصارهما وبمحاربي بومبي القدماء .

قيصر يعبر نهر روبيقون :

وقد بادر قيصر الى إلهاب مشاعر جنوده بأن عرض عليهم الأربعة الهاربين من روما وطلب الى هؤلاء الأربعة أن يقصوا على الجنود ما حدث . وفي مساء

الحادي عشر من يناير عام ٤٩ ق . م . أو بعبارة أدق مساء ٢٤ من نوفمبر عام ٥٠ ق. م. وفقاً للتقويم بعد تصحيحه بحسب تقدير جرويبي (Groebe) ــ وهو التقويم الذي يقرب من التقويم الجريجوري السائد اليوم والذي ستتبعه في تناول سيرة الحرب الأهلية ــ أمر قيصر الفرقة الثالثة عشرة بعبور نهر روبيقون ــ الحد الفاصل بين إيطاليا وولاية غاليا هذه الناحية من الألب ــ وبذلك بدأت الحرب الأهلية(١٣١) .

واذا كان قيصر هو الذي بدأ هذه الحرب بتخطيه حدود ولايته وقيادته قواته ضد الحكومة الشرعية ، فإن مسئولية نشوب هذه الحرب يجب أن يشاركه وزرها خصومه الذين دفعوه اليها رافضين التفاهم على حل وسط للأزمة. ذلك أن إصرارهم علي استدعاء قيصر قبل انتخابه قنصلاً لم يدع أمامه إلا أمراً من اثنين: إما التضحية بمستقبله السياسي أو بكرامته (dignitas) على حد تعبيره ، وإما تحقيق هدفه بالقوة . ولم يكن منتظراً من رجل مثل قيصر بعد الانتصارات التي أحرزها وبعد التطورات السياسية التي شهدتها روما منذ إصلاحات ماريوس العسكرية ، واستيلاء صلا وقينّا على روما بالقوة ، وتولي بومبي قنصليته الأولى تحت التهديد باستخدام القوة ، وتكون الحلف الثلاثي ، ومؤتمر لوقا ، إلا الإقدام على ما فعله . وطلب قيصر إطالة مدة بروقنصليته حتى آخر عام ٤٩ بدلاً من أول مارس عام ٤٩ مع الاحتفاظ بإلّولريقوم وفرقة واحدة فقط كان مطلباً متواضعاً لا يمكن أن يُقاس بكل الاستثناءات التي أُبيحت لبومبي وذلك فضلاً عن أنه كان أمراً مألوفاً . وكذلك كان طلب قيصر السماح له بترشيح نفسه للقنصلية غيابياً طلباً متواضعاً وأمره يسير وذلك فضلاً عن أن قانون التّرابنة العشرة خوله ذلك الحق مثل ما خوله ضمناً إطالة مدة بروقنصليته . وتبعاً لذلك يصعب تبرير موقف تلك الفئة القليلة من

(131) Dio Cass., XLI, 3-4; App., B.C., II, 33; Caes., B.C., I, 5-7; (ed. Guillaume Budé); Plut., Caes., XXXI-XXXII; Pomp., LIX-LX; Anton., V-IV; Heitland, III, pp. 272-4; C.A.H., IX, pp. 636-7; Scullard, 1970, pp. 125-7.

الأرستقراطية التي أصرت على استدعاء قيصر وضرورة ترشيح نفسه للقنصلية حضورياً ، وذلك بدعوى حماية الدستور وصيانة النظام الجمهوري وكفالة الحرية الشخصية ، مع أن هذه الفئة لم تر غضاضة في حث السناتو على الخروج على أصول الدستور وجوهر النظام الجمهوري بإقامة بومبي قنصلاً مفرداً ولا في انتهاك حرمة الحرية الشخصية إذ جرفت وراءها غالبية أعضاء السناتو بالتهديد والوعيد فاتخذ المجلس قراره النهائي الذي أشعل لهيب الحرب الأهلية. ولو أن تلك الفئة غلبت الصالح العام على صوالحها الشخصية وعلى خصومتها لقيصر أو لو كانت الأرستقراطية كلها أوسع أفقاً وأكثر شجاعة وأحسن تقديراً لموقف كان نتيجة طبيعية للتطورات السياسية التي سبق ذكرها ، لأمكن تجنب الحرب وعواقبها الحتمية الوخيمة . وليس معنى ذلك أننا نبرر احتكام قيصر الى القوة ، بيد أننا لو آخذناه على هذا المسلك لكان شأننا شأن الأرستقراطية التي غاب عنها أمر التطورات السياسية وحتمية نتائجها المنطقية [١٣٢] .

وقبل أن نتتبع سيرة الحرب الأهلية ، يجب أن نرى ماكان من أمر كل من قراسوس وقيصر في أثناء بروقنصليتيهما .

---

(١٣٢) عن تبعة الحرب الأهلية ، راجع :
Caes., B.C., I, 1; 9; Cic., ad Att., VII, 3, 4; 11, 1; VIII, 11; IX, 6; Tacit., Hist., II, 38, 1.
R. Syme, Roman Revolution, pp. 47 ff.; Wirszubski; Libertas, pp. 77 ff ; P.L.G. Pocock, Greece and Rome, pp. 68 ff.; Scullard, 1970, n. 27 p. 426.

الفصل الحادي عشر

كارثة قراسوس في الشرق وانتصارات قيصر في الغرب

اولاً — الحرب مع بارثيا

١ — مقدمة [1] :

إن الشعب الذي دعاه الإغريق والرومان البارثيين (Parthi) كان يسمى أصلاً البارنيين (Parni) وهم الذين كانوا أعضاء حلف يتألف من ثلاث قبائل أطلق الإغريق عليها جملة إسم داهاي (Dahae) . وكانت هذه القبائل شبه الرعوية تنزل أصلاً الى الشرق من بحر قزوين شمالي هورقانيا (Hyrcania). واذا كانت هذه القبائل خليطة في تكوينها ، فإن عشائرها الرئيسية كانت فيما يبدو إيرانية وتستخدم اللهجة الإيرانية المعروفة باسم اللهجة البهلوية (Pahlavi).

وحوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد هاجر البارنيون الى ولاية بارثيا السلوقية فكان ذلك منشأ تسميتهم بالبارثيين ، ولا سيما أنهم لم يلبثوا أن قضوا على حاكم هذه الولاية وتولى زعيمهم تيريداتس (Tiridates) الحكم باسم أرساقس (Arsaces) وهو اسم الأسرة التي انتمى إليها كل ملوك

(1) C.A.H., IX, pp. 574-602, with Bibliography; N.C. Debevoise, A Political History of Parthia, 1938; M.A.R. Colledge, The Parthians, 1967; Scullard, 1970, pp. 127-8, and n. 28 p. 426.

البارثيين . وقد تبعت ذلك سلسلة من المصادمات مع السلوقيين من ناحيـة والباكتريين والساقاي (Sacae) من ناحية أخرى . وبفضل المتاعب التي واجهت هؤلاء الخصوم ، استطاع البارثيون بعد صروف مختلفة من الفشل أحياناً والنجاح أحياناً أخرى أن يدعموا مركزهم ويبسطوا رقعة دولتهم ، فأصبحت لهم إمبراطورية تمتد من الفرات الى السند ومن بحر قزوين الى الخليج الفارسي . وكانت اقباتانا (Ecbatana) عاصمة هذه الإمبراطورية الواسعة .

وباستيلاء البارثيين على ولاية بابل السلوقية ، أصبحوا سادة إقليم متأغرق . وبالرغم من أنهم اتبعوا أساليب الإدارة الإغريقية ، وأفادوا من خدمات المواطنين الإغريق ومن ثمار العلوم الإغريقية ، وسكوا عملة على النمط الإغريقي ، واستخدموا الإغريقية في معاملاتهم التجارية ، فإنهم لم يتأثروا تأثيراً عميقاً بالحضارة الإغريقية . وإنه لمما يستوقف النظر أنه لم تصل إلينا أية وثيقة بارثية مع أنه من المعروف أن البارثيين كانوا يكتبون على الرق . وقد كان من شأن انتشار هذه الوسيلة أن البابليين تخلوا عن الكتابة المسمارية وأن الصينيين توصلوا الى اختراع الورق في عام ١٠٥ ق . م .

وعندما أنشأ البارثيون إمبراطوريتهم الفسيحة لم يدخلوا تعديلاً جوهرياً على أحوال الأهالي في الأقاليم التي فتحوها . ويبدو أنهم منحوا المدن الإغريقية التي خضعت لهم قدراً من الاستقلال الذاتي أكبر مما تمتعت به في عهد السلوقيين . ولما كان البارثيون قد عملوا على تشجيع التجارة عبر آسيا على نحو لم يعرف من قبل ، وكانت سلوقية على الدجلة مركز التقاء طرق التجارة الشرقية ، فإن هذه المدينة ازدهرت ازدهاراً كبيراً وأصبحت تسيطر على التجارة الأسيوية .

وكان البارثيون يؤلفون أرستقراطية من أرباب الأراضي . وكان على رأس هذه الأرستقراطية الملك وجماعة من النبلاء الإقطاعيين . وكان يحتل مكان الصدارة بين هؤلاء النبلاء رؤساء سبع أسرات كبرى كان كل منهم ملكاً تقريباً في إقليمه . وإذا كان البارثيون قد دأبوا على محاكاة الإغريق محاكاة دقيقة

في أكثر نواحي حياتهم ، فإنهم اتبعوا أسلوباً خاصاً بهم في القتال . ذلك أنهم حتى موقعة قارّهاي (Carrhae) لم يستخدموا إلا الخيالة في حروبهم . وكان النبلاء يسلحون أنفسهم بحراب ضخمة ويحمون أنفسهم بمعدات معدنية ثقيلة (خوذة للرأس وزرد يغطي الجسم حتى الركبتين ودرعين لوقاية الساقين)؟ ويحاربون على صهوة جياد أصيلة ضخمة تقي صدورها دروع ثقيلة ، مما يذكرنا بما اتبعه فيما بعد فرسان العصور الوسطى . وكان أتباع النبلاء يحاربون كذلك على صهوة الجياد ولكن دون معدات الوقاية ، وكان سلاحهم هو القوس والسهم . وكانت قوة الجيش البارثي تتألف عادة من حوالي ٦٠٠٠ من الفرسان الكاملي العدة و ٤٠.٠٠٠ من الفرسان الخفيفي العدة . وإلى أن حارب قراسوس البارثيين لم يكن الرومان قد خبروا بعد كفايتهم القتالية العالية أو قدروها حق قدرهـــا .

٢ – بارثيا وروما [٢] :

إزاء توسع مملكة بونطوس في عهد ملكها ميثريداتس السادس يوباتور خطبت بارثيا ود روما وحرصت على الحفاظ على هذه العلاقات الودية حوالي أربعين عاماً . ذلك أنه في عام ٩٦ ق . م . حين خرج صلا من ولايته في قيليقيا وأنقذ قابادوقيا من براثن ملك بونطوس ووصل الى الفرات ، أنفذ ملك بارثيا الى صلا مبعوثاً ينشد صداقة روما ومحالفتها . وفي عام ٧٣ ق . م . عندما ناشدت بونطوس مساعدة بارثيا ضد الرومان ، رفضت بارثيا الاستجابة الى هذا الطلب . وفي عام ٦٩ ق . م . – بعد انتصار لوقولّوس على تيجرانس وميثريداتس في معركة تيجرانوقرتا – ناشد الجانبان مساعدة بارثيا ، ولكن فرآتس (Phraates) الثالث آثر الوقوف عـــلى الحياد برغـــم العرض المغري الذي قدمه تيجرانس الى فرآتس وهو أن يرد اليه الأقاليم التي كان قد سلبها منه لقاء مساعدته ضد لوقولوس . وحين حل بومبي محل لوقولّوس ووعد فرآتس

(2) Plut., Pomp., XXXIII-XXXIX; Dio Cass., XXXVI, 45, 3; 51, 1; XXXVII, 5-7, XXXIX, 56; App., Mithr, 69-119; C.A.H., IX, pp. 603-4.

بتلك الأقاليم واعترف بالفرات حدوداً لمملكته ، إنحاز فرآتس الى جانب الرومان وغزا أرمينيا غير أنه فشل في الاستيلاء على أرتاكساتا وقفل عائداً إلى مملكته . وعندما استسلم تيجرانس لبومبي ، شرع فرآتس في استرداد الأقاليم التي كان بومبي قد وعده بها ، بيد أنه لما كان تيجرانس قد أصبح عندئذ صديقاً للرومان ، وكان بومبي فيما يحتمل قد قدر أن فرآتس لم يبد حماساً كافياً في مناصرة الرومان، فإن بومبي أمره بالانسحاب من جوردويني (Gordyene) ، ودون انتظار وصول رد الملك أمر القائد الروماني أفرانيوس بطرد القوات البارثية وإعادة جوردويني ونصيبيس (Nisibis) الى تيجرانس . وعندما احتج فرآتس على إخلال بومبي بوعده ولم يتلق إلا رداً جارحاً ، شرع ثانية في مهاجمة تيجرانس . بيد أنه حين أدرك فرآتس وتيجرانس أنه لن يفيد من اصطراعهما إلا الرومان قررا أن يصطلحا ويقبلا تحكيم بومبي في نزاعهما . وحدث أن تيجرانس احتفظ بإقليمي جوردويني ونصيبيس وأن فرآتس لم يحتفظ إلا بإقليم أديابني (Adiäbene) وأنه فقد كذلك جزءاً من غرب بلاد ما بين النهرين لحليفين عربيين من حلفاء الرومان كان أحدهما أبجر (Abgar) الثاني والآخر الخاودونيوس (Alchaudonius) أو الخايدامنوس (Alchäedamnus) .

ويحدثنا بلوتارخ وديون قاسيوس بأنه عندما احتج فرآتس على عدم وفاء بومبي بوعده ، فكر بومبي في غزو بارثيا . ولكنه عدل عن ذلك خوفاً من عواقب حرب قد يُمنى فيها بنكبة تذهب بكل النتائج التي أحرزها . بيد أن معنى ذلك أن محاربة البارثيين أخذت تراود الرومان منذ ذلك الوقت.

وحوالي عام ٥٧ ق . م . أودى بحياة فرآتس ابناه أورودس (Orodes) وميثريداتس ، وتولى أولهما العرش ولكن أخاه سرعان ما ثار عليه وطرده . وعندما استعاد أورودس عرشه بعد قليل ، فر ميثريداتس الى جابينيوس حاكم ولاية سوريا وأغراه على أن يقيمه ثانية على عرش بارثيا . وقد عبر جابينيوس الفرات لهذا الغرض ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه المهمة

ليتولى مهمة أخرى أكثر نفعاً وجدوى وهي مهمة إعادة بطلميوس الثاني عشر (الزمار) الى عرشه على نحو ما سبق ذكره .

٣ ـ قراسوس في الشرق[٣] :

مر بنا أن قراسوس تولى قنصليته الثانية في عام ٥٥ ق . م . وأنه أسندت اليه ولاية سوريا ليتولى حكمها لمدة خمس سنوات بعد انتهاء مدة قنصليته ، وأنه في أثناء هذه القنصلية أعد العدة ليقوم بغزو بارثيا من ولايته ، وأن قيامه بحشد قوات لهذا الغرض صادف معارضة شديدة استطاع التغلب عليها بمساعدة بومبي .

ومن الجائز أن غزو بارثيا كان من المسائل التي اتفق عليها الحلفاء الثلاثة (قيصر وبومبي وقراسوس) في مؤتمر لوقا . ويحدثنا ديون قاسيوس بأن قراسوس كان يستهدف الفوز بمجد حربي ومكاسب مادية . ويذهب بلوتارخ الى حد القول بأن قراسوس كان يرنو الى الفوز بانتصارات عسكرية تتضاءل الى جانبها الانتصارات التي أحرزها لوقولـوس وبومبي في الشرق بل تفوق في جلالها انتصارات الإسكندر الأكبر بالوصول الى البحار الشرقية . وفي رأي أحد الباحثين أن هدف قراسوس الرئيسي من وراء غزو بارثيا كان السيطرة على تجارة الحرير ، ذلك أنه باستيلائه على سلوقية ، ملتقى طرق التجارة الشرقية ، كان في وسعه التحكم في أغلب السلع التجارية القادمة من الشرق . ومع التسليم بميل قراسوس القوي الى جمع الثروة يصعب الأخذ بهذا الرأي الذي يغفل عاملاً هاماً في حياة قراسوس إذذاك وهو إحساسه بأنه بعد الثروة الهائلة التي كدسها لم يستطع الفوز بقدر من الشعبية والمجد يضارع ما كان يتمتع بـه

(3) Plut., Crassus, XVI ff.; Dio Cass., XXXIX, 39; XL, 12-30; Strab., XVI, 743-5; 748-9; Velleius, II, 46; Liv., Ep, 106; Heitland, III, pp. 238-9 M. Gelzer, Licinius (Crassus) no. 68 in Pauly-Wissowa-Kroll, Realencyc.; P. Giles, Proceedings Cambridge Philol. Soc., 1929, p. 1; C.A.H., IX, pp 605 ff.; Scullard, 1970, pp. 128-9, Bibliography n 28 p 426.

حليفاه . وإزاء ذلك لعل أنه لا يكون من الإسراف في الرأي القول بأنه إذا كان لا شك في أن ثروة بارثيا قد بهرت أنظار قراسوس فإن هدفه الرئيسي كان الفوز بانتصارات باهرة تكسبه مجداً يضارع إن لم يفق المجد الذي أحرزه قيصر وبومبي .

ومهما يكن من أمر ذلك ومن أمر المعارضة العنيفة لاعتزام قراسوس غزو بارثيا دون مبرر ، فإنه في لهفته الشديدة على تحقيق بغيته غادر روما في ١٣ من نوفمبر عام ٥٥ ق . م . — أي في أول يوم كان يجوز فيه للحكام الذهاب الى ولاياتهم — قاصداً برونديسيوم حيث أبحر الى دورّاخيوم (Dyrrachium) ثم زحف براً الى سوريا . وعندما وصل قراسوس في ربيع عام ٥٤ ق . م . وتسلم من جابينيوس مقاليد ولاية سوريا وما بها من الفرق الرومانية كان الصراع لا يزال محتدماً بين أورودس الثاني ملك بارثيا وأخيه الأصغر ميثريداتس ، وكانت سلوقية في قبضته .

وتبريراً لتحقيق النية المبيتة على غزو بارثيا ، فإنه ما أن وصل قراسوس الى سوريا حتى تذرع بحجة باطلة وهي أن بارثيا كانت تتهدد سلامة الولايات الرومانية المجاورة وشرع على الفور في غزو بارثيا . والواقع أن بارثيا كانت هي المجني عليها ، ذلك أن بومبي أخل بوعده لفرآتس وأن جابينيوس تدخل لمساعدة ميثريداتس ضد أخيه أورودس . وقد كانت تحت إمرة قراسوس قوة كبيرة تتألف من حوالي ٣٠,٠٠٠ مقاتل كان من بينهم سبع فرق كاملة العدة و ١٠٠٠ من خيالة الغال المنتقين . وقد كان شأن قراسوس شأن أكثر معاصريه من القواد الرومان من حيث الشجاعة وصلابة القناة والكفاية العسكرية المحدودة والاعتماد على قدرة الفرق الرومانية على اكتساح أعدائها عند الاشتباك معهم . وكذلك من حيث الافتقار الى سعة الحيلة والقدرة على ابتكار الخطط المناسبة لمواجهة ما قد ينشأ من ظروف غير مألوفة . وقد كان من سوء تقدير قراسوس أنه سارع الى خوض غمار القتال قبل أن يكتسب ولاء جنوده ودون أن يحيط علماً بأساليب البارثيين في القتال أو يتعرف على طبيعة الأرض التي

سيحارب عليها . وكذلك كان من سوء حظ قراسوس أن الساعد الأيمن لأورودس ملك بارثيا وقائد قواته كان شاباً شديد الجرأة واسع الحيلة يدعى سورناس (Surenas) ، وهو الذي تدارك لأول مرة ما كان قد فات غيره من ضرورة تزويد الخيالة رماة السهام بذخيرة جديدة دون إبطاء كلما استنفدوا ما كان معهم . ذلك أن سورناس خصص لهذا الغرض فصيلة من الجمالة يقوم كل رجل من رجالها بتزويد عشرة من الخيالة بحاجتهم الى السهام طوال القتال .

وقد بدأ قراسوس عملياته الحربية في عام ٥٤ بالقيام بإغارة ناجحة على الجزء الشمالي من بــلاد ما بين النهرين ، وكـــان حاكم هذه المنطقة يفتقر الى قوات كافية فاستولى قراسوس على عدد من المدن ترك فيها حاميات ثم انسحب الى سوريا لقضاء فصل الشتاء . وفي خلال هذا الفصل حشد قراسوس بعض الخيالة من سوريا وطلب الى أرتافاسدس (Artavasdes) — ملك أرمينيا وحليف روما — تزويده بمدد من الخيالة ، ولكن قراسوس بدلاً من أن يولي عنايته الى تدريب قواته تدريباً جدياً يعدهم إعداداً طيباً لحملة العام التالي إنصرف الى سلب كنوز المعابد في بامبوقي (Bambyce = بمبوج) وأورشليم .

وفي هذه الأثناء أنفذ أورودس الى قراسوس سفارة لمؤاخذته على عدوانه والاستفسار عن أسباب ذلك . ويقال إنه ما أن أنهى قراسوس الى السفراء بأنه سيجيب على هذا الاستفسار في سلوقية على نهر دجلة حتى انفجر كبيرهم ضاحكاً وأشار الى راحة يده قائلاً « سوف ينمو الشعر هنا قبل أن تصل الى سلوقية » . وقد وفد كذلك على قراسوس ملك أرمينيا أرتافاسدس ليعد بتقديم خيالته ويلح على قراسوس أن يغزو بارثيا عن طريق أرمينيا . ولما كان معنى ذلك أن يجعل قراسوس هدفه اقباتانا بدلاً من سلوقية وتبعاً لذلك القيام بحملة طويلة يسانده فيها حليف غير مأمون وتمكن مواقع مثل هذا الحليف من تهديد اتصال الحملة بقاعدتها ، فإن قراسوس رفض تعديل خطته . ومع ذلك فإنه تصور أن أرتافاسدس سيفي بوعده بوصف كونه حليف روما .

ولما كان أورودس أيضاً قد تصور أن أرتافاسدس سيساعد قراسوس الى أقصى حد ممكن وأنه تبعاً لذلك سيواجه حرباً في جبهتين ، فإنه قرر تقسيم قواته قسمين يتولى هو نفسه قيادة أحدهما ويقوم بغزو أرمينيا ، ويتولى سورناس قيادة القسم الآخر لمواجهة قراسوس والدفاع عن بلاد ما بين النهرين . وفي الشمال الغربي من هذه البلاد ، على ضفاف نهر بليق– أحد روافد الفرات – إتخذ سورناس قاعدة له في مكان يقع بين قارّهاي (Carrhae = حران) وإخناي (Ichnae) ، حيث كانت تلتقي الطرق القادمة الى بارثيا من بابل وبلاد العرب وسوريا ، ونشر سورناس قواته على امتداد الطريق الشمالي الممتد من قارّهاي شرقاً صوب الدجلة وكذلك على امتداد الطريق الجنوبي الممتد صوب الفرات ، وذلك ليكون في وسع سورناس على هذا النحو اعتّراض سبيل قراسوس سواء أجاء من الشمال أم من الغرب .

وفي ربيع عام ٥٣ ق . م . عبر قراسوس الفرات على رأس قوة كبيرة تتألف من ٢٨٠٠٠ من المشاة الكاملي العدة و ٤٠٠٠ من المشاة الخفيفي العدة و ٤٠٠٠ من الخيالة . وبعد عبور الفرات وانضمام الأميرين العربيين أبجر الثاني والخاودونيوس على رأس خيالتيهما الى الرومان ، زحف الغزاة جنوباً على الضفة الشرقية للفرات حتى مكان يقع أمام بامبوقي حيث كان الطريق البري يلتقي مع النهر . وعندما أبلغ طلائعهم قراسوس أنهم شاهدوا آثار حوافر خيل متجهة شرقاً ، عقد القائد الروماني مجلس حرب لتقرير الخطوة التالية الواجب اتباعها . وقد نصح الكوايستور قاسيوس لونجينوس بمتابعة الزحف على امتداد الفرات ، ولكنه لما كان قراسوس قد تصور أن العدو آخذ في الانسحاب خوفاً منه ، وكان ميالاً الى مطاردة العدو قبل أن يعيد تنظيم قواته ، فإنه آثر اقتفاء أثر العدو وقبل ما عرضه أبجر من أن يتولى مهمة إرشاد الغزاة . وتتهم المصادر القديمة أبجر بأنه قاد قراسوس عبر الصحراء ليقع فريسة سهلة لسورناس . ولكن بعض الباحثين ينفون عن أبجر هذه التهمة ، وذلك على أساس أنه كان صديقاً لبومبي وأنه لم يفعل أكثر من أنه قاد قراسوس على

امتداد الطريق العربي وهو الذي كان طريقاً تجارياً مألوفاً يمتد عبر الصحراء ويحتاج اجتيازه يوماً ونصف يوم قبل بلوغ نهر بليق . بيد أن هؤلاء الباحثين يسلمون بأمرين ربما يؤيدان هذه التهمة . وأحد هذين الأمرين هو أن أبجر هجر جانب الرومان قبل المعركة حين أدرك مصيرهم المحتوم . والأمر الآخر هو أن الطريق العربي الذي اتخذته الطلائع البارثية المرتدة وسلكه قراسوس وقواته إذا كان طريقاً تجارياً مألوفاً للعرب وجمالتهم ، فإنه كان شديد الوطأة كثير الوعثاء على القوات الرومانية . ولا جدال في أن أبجر كان خبيراً بهذه المنطقة ويعرف أنه كان يوجد الى جانب الطريق العربي التجاري طريق آخر أكثر أمناً وسلامة وهو الطريق الذي كان البارثيون يسلكونه عادة بالسير على ضفاف الفرات من زيوجما (Zeugma) حتى نيقفوريوم (Nicephorium) عند مصب نهر بليق . فلماذا لم ينصح أبجر باتخاذ هذا الطريق ؟ أكان الباعث على نصيحة أبجر هو أن الطريق الأخير كان أكثر تعرضاً لهجوم سورناس ؟ أم الرغبة في إرضاء قراسوس المتلهف على مطاردة العدو المرتد وفقاً لتصوره ؟ أم سوء تقدير أبجر لقدرة الرومان على تحمل مشاق الطريق العربي ؟ أم الغدر ؟ إنه لمن العسير ترجيح أي احتمال من هذه الاحتمالات ونحن في مأمن من الزلل .

ومنذ العصور القديمة حتى اليوم يؤخذ على قراسوس أنه لم يشق طريقه عبر جبال أرمينيا ، حيث كان يصعب على الخيالة البارثيين مهاجمة قواته ، ولم يتفاد اجتياز الصحراء بالزحف جنوباً بمحاذاة الفرات . بيد أنه يجب أن يُلاحظ أن أكبر خطر على قراسوس كان يكمن في الخيالة البارثيين . وأن قراسوس — وقد جعل سلوقية هدفه — فإنه سواء أشق طريقه عبر جبال أرمينيا — وكانت لا تقل مشقة على خيالته منها على خيالة البارثيين — أم مضى بمحاذاة الفرات — لم يكن أمامه مفر ، إن عاجلاً أو آجلاً ، من أن يواجه الخيالة البارثيين في أرض مكشوفة .

وما كاد قراسوس يبتعد عن الفرات حتى وفد عليه مبعوثون أنفذهم

أرتافاسدس لإبلاغه بأنه إزاء قيام أورودس بغزو أرمينيا لا يستطيع تقديم المعونة التي وعد بها . فأرغد قراسوس وأزبد وتوعد وضاعف سرعة زحفه بالرغم من تذمر رجاله نتيجة لمشاق الزحف عبر الصحراء . وزاد الطين بلة أن ما انتشر بين القوات الزاحفة من قصص عن قوة البارثيين وشدة فتك سهامهم خفض روح الغزاة المعنوية . وفي منتصف اليوم السادس من شهر مايو أو شهر يونية عام ٥٣ ق . م . وصلت القوات الرومانية الى نهر بليق فيما بين قارّهاي وإخناي بعد أن أضناها الجوع والعطش والتعب . ولما كان قراسوس لم يجد هناك أثراً للعدو ، وكانت قد استبدت به الرغبة في ملاحقة هذا العدو الهارب على حد تصوره ، فإنه بدلاً من أن يستمع الى النصيحة ويقيم معسكراً بجوار النهر ويريح رجاله ويقوم بعمليات استطلاعية ، أمر رجاله بتناول وجبة طعام على عجل وخف جنوباً صوب إخناي للحاق بالعدو الهارب !

ولم يكد قراسوس يبدأ زحفه جنوباً حتى أبلغه طلائعه بزحف البارثيين ، فانسحب على الفور أبجر والخاودونيوس بخيالتيهما وشرع قراسوس في تنظيم قواته الكاملة العدة على هيئة مربع استعداداً لخوض المعركة . وكان الضلع الأيسر للمربع يستند الى ضفة نهر بليق ويحمي الضلع الأيمن بوبليوس قراسوس — ابن القائد العام — على رأس قوة منفصلة من الخيالة الغال وثماني كتائب من المشاة الكاملي العدة و ٥٠٠ رجل من المشاة الخفيفي العدة . ولكن البارثيين أقبلوا على القوات الرومانية قبل اكتمال تكوين المربع فأمر قراسوس ابنه بوبليوس بمهاجمة العدو وشغله الى أن يتم تكوين المربع . وعندما تراجع البارثيون لاستدراج مهاجميهم بعيداً عن القوات الرومانية الرئيسية وكانت تفوقهم أضعافاً مضاعفة ، أغرى ذلك التراجع بوبليوس على التمادي في مطاردة البارثيين ، ولكنهم على حين فجأة استداروا وأحاطوا بمطارديهم وأفنوهم عن آخرهم تقريباً وكان بوبليوس من بين الذين لقوا مصرعهم . وبعد ذلك زحف البارثيون على المربع المكتمل وأصلوه وابلاً من قذائفهم حتى أرخى الليل سدوله فانسحبوا لعجزهم عن إصابة الهدف بإحكام في أثناء الليل . وتحت

جنح الظلام انسحبت القوات الرومانية الى قارّهاي تاركة وراءها ٤٠٠٠ من الجرحى تحت رحمة البارثيين الذين قضوا اليوم التالي في أخذ قسط من الراحة وفي القضاء على الشاردين من القوات الرومانية . ولما لم يكن في وسع قراسوس سواء البقاء في قارّهاي لافتقارها الى ما يلزمه من المؤنة ولعدم وجود قوات احتياطية في سوريا يمكن أن تهب لنجدته ، أم الاجتراء على اجتياز الصحراء وعبور الفرات ، فإنه قرر الانسحاب في مساء اليوم الثامن من الشهر (مايو أو يونيه) الى بلدة سينّاقا (Sinnaca) عند سفوح جبال أرمينيا على أمل أن تحمي الجبال قواته من هجمات الخيالة البارثيين ، ولكن الدليل ضلله لكي يحل النهار قبل وصوله إلى هدفه . وأسوأ من ذلك أنه فقد سيطرته على رجاله فانفرط عقد نظامهم ، وأن الكوايستور قاسيوس لونجينوس رفض المضي في هذه المتاهات وقرر العودة الى سوريا على رأس ٥٠٠ من خيالته . بيد أن أوقتافيوس – مساعد قراسوس – نجح في بلوغ سينّاقا مع ٥٠٠ من رجاله عند بزوغ الفجر ووقف داخل الأسوار ينتظر وصول قراسوس . وعندما رأى أوقتافيوس قائده قراسوس فوق تل على بعد ميلين منه وليس معه إلا أربع كتائب والعدو على مقربة من هذه القوات القليلة ترك الأسوار وخف الى قائده وصحبه ، ولكن العدو لم يقم بالهجوم المنتظر . ذلك أن سورناس لجأ الى الخديعة بأن عرض على قراسوس الهدنة وتأمين انسحابه اذا عقد معه معاهدة يعترف فيها بالفرات حدوداً لبارثيا . وإزاء هياج الجنود الرومان وإلحاحهم في قبول العرض ، اضطر قراسوس صاغراً الى التفاوض مع العدو برغم إدراكه أن الأمر لم يكن إلا خدعة . وعندما قبل قراسوس المفاوضة ونزل من الجبل للقاء سورناس أصر القائد البارثي على إحضار جواد ليركبه قراسوس بحجة أن المعاهدة يجب أن توقع على الفرات عند حدود بارثيا لأن الرومان يميلون الى إغفال معاهداتهم . وعندما أدرك أوقتافيوس وبعض الضباط الذين رافقوا قراسوس أن البارثيين كانوا يهدفون الى أسر قائدهم ، وقع اشتباك بين الفريقين قُتل فيه قراسوس وعدد كبير من الجنود الرومان .

وبهذه المأساة انتهت حملة قراسوس المنكودة التي راح ضحيتها حوالي ١٥,٠٠٠ قتيل و ١٠,٠٠٠ أسير ، ولم ينج منها إلا حوالي ١٠,٠٠٠ تمكنوا من الوصول الى سوريا حيث شكل منهم قاسيوس لونجينيوس فرقتين للدفاع عن هذه الولاية . ومن سخرية القدر أن سورناس لم يعمر طويلاً بعد قراسوس ، لأن خوف أورودس من أن يتطلع قائده البارع المظفر الى العرش حدا به الى إعدامه . وبطبيعة الحال استردت بارثيا كل بلاد ما بين النهرين حتى الفرات بما في ذلك نصيبين وجوردويني . بيد أن إعدام سورناس أدى الى فشل خطة بارثيا لغزو سوريا في عام ٥٢ ق . م . وإذا كان باقوروس بن أورودس غزا سوريا في عام ٥١ ق. م . فإن الفارق كان كبيراً بين جيشه وجيش سورناس . حقاً إن فرسانه نجحوا في اكتساح المناطق المكشوفة وفي إثارة الناقمين على الحكم الروماني ولكنهم فشلوا في اقتحام أسوار أنطاكية . وعندما حاولوا الاستيلاء على مدينة أنتيجونيا، نصب لهم قاسيوس لونجينوس كميناً ودحرهم . وعندما تولى بيبولوس حكم سوريا نجح في إثارة شكوك أورودس في ابنه باقوروس مما أدى الى استدعائه وإن كان جزء من جيشه قضى الشتاء في قورّهستيقى (Cyrrhestice) ولم ينسحب آخر فارس بارثي شرقي الفرات إلا في صيف عام ٥٠ ق . م . وإزاء انـدلاع لهيب الحرب الأهلية بعد ذلك ببضعة شهور وما تبع ذلك من أحداث جسام لم يحاول الرومان الثأر لهزيمة قراسوس ومصرعه قبل انقضاء ثلاثين عاماً .

ثانياً — فتوحات يوليوس قيصر

١ — بلاد الغال فيما وراء الألب قبل فتوحات قيصر[٤] :

كانت هذه البلاد تتألف من قسمين رئيسيين متفاوتين في المساحة تفاوتاً

---

(٤) المصادر :

Caesar, Bell. Gall., esp. VI, 13-20; Diod., V, 21-23, 25-32; Strab. VI.

كبيراً . وكان أصغر هذين القسمين يقع في الجنوب الشرقي مما يعرف اليوم بفرنسا وتتكون منه الولاية الرومانية « غاليا فيما وراء الألب » أو غاليا الناربونية وهي الولاية التي عرفنا أن الرومان أنشأوها حوالي عام ١٢٠ ق . م . وكان القسم الأكبر عبارة عن المنطقة الفسيحة الممتدة من الولاية الرومانية وجبال البرانس جنوباً الى مصب نهر الراين شمالاً ومن نهر الراين شرقاً حتى المحيط الأطلسي والقنال الإنجليزي وبحر الشمال غرباً ، أي على وجه التقريب أغلب فرنسا وسويسرا وبلجيكا . وكان الرومان يطلقون على هذه المنطقة الفسيحة « غاليا قوماتا » (Gallia Comata) أي بلاد الغال أصحاب الشعور الطويلة .

وكانت تعيش في « غاليا قوماتا » قبائل كثيرة تتألف من عناصر خليطة ، ولكن العنصر الغالب في أكثر هذه القبائل كان من سلالة القلت الذين أخذوا يعبرون الراين ويفدون على بلاد الغال منذ حوالي عام ٨٠٠ ق . م . أفواجاً تلو أفواج حتى شغلوا الجانب الأكبر من وطنهم الجديد وبخاصة منطقته الوسطى فيما بين نهر السين والمارن شمالاً ونهر اللوار جنوباً . وقد استوعب الغزاة السكان الأصليين باستثناء أهالي أكويتانيا في الجنوب فيما بين اللوار والبرانس ، حيث ظلت الغلبة للعنصرين الليجوري والأيبيري . وكان البلجيق أحدث الغزاة القلت ، فقد وفدوا حوالي عام ٢٠٠ ق . م . واحتلوا المنطقة الواقعة شمالي السين والمارن . وكانت تجري في عروق البلجيق دماء جرمانية ، ولعل أن هذا يفسر إختلاف لغتهم عن لغة القلت الآخرين . ولم تلبث جماعة من البلجيق أن عبرت القنال الإنجليزي واحتلت الجزء الجنوبي الشرقي من بريطانيا . وفي ضوء ما عرضناه يمكن تقسيم سكان « غاليا قوماتا » الى ثلاث

= المراجع :

C. Jullian, Hist. de la Gaule, II, 4th ed., 1921; C.A.H., IX, pp. 537 ff.; A. Grenier, Les Gaulois 1945; T.G.E. Powell, The Celts, 1958; R. Lantier, J.R.S., 1946, pp. 76 ff.; P.-M. Duval, Historia, 1956, pp. 238 ff.; Marsh, Roman World, 3rd. ed., 1965, pp. 194-7; Scullard, 1970, pp. 130-2, and n. 3 p. 427.

مجموعات وهي : البلجيق (Belgae) في الشمال ، والقلت (Celtae) بأدق معنى هذه الكلمة في الوسط ، والأكويتاني (Aquitani) في الجنوب .

وكانت حضارة الغال حضارة خليطة تتسم بمظاهر التقدم في بعض النواحي وبمظاهر التأخر في بعضها الآخر . فقد كان الغال يزاولون الزراعة وتربيـــة الحيوان وعلى قدر من المهارة في استخراج المعادن وصناعتها . وبفضل وفرة الأنهار الصالحة للملاحة استطاعوا تنمية تجارتهم الى حد كبير . ومن أجل معاملاتهم التجارية ألفوا استخدام العملة ، وكان بعضها إغريقية والبعض الآخر قومية سكوها على نمط النماذج الإغريقية .

وتتضح أبرز مظاهر التأخر بين الغال في المجال السياسي . ذلك أنه من ناحية لم يكن عندهم إلا عدد قليل من المدن الصغرى مثل أفاريقوم (Avaricum = بورج ، Bourges) وقنابوم (Cenabum = أورليان) ، ومن ناحية أخرى كانوا ينقسمون الى عدد كبير من الوحدات القبلية الصغرى (pagi) على حد تعبير قيصر . ونستطيع أن نلمس تطورهم السياسي في اتجاهين ، كان أحدهما هو الميل نحو إدماج هذه الوحدات القبلية الصغرى في وحدات قبلية كبرى يدعوها قيصر دولا (Civitates) . وقد كان هذا التطور أبرز ما يكون في بلاد الغال الوسطى ، على حين أن الوحدات الصغرى كانت أطول بقاء في أكويتانيا وكذلك في بريطانيا حيث لم تبدأ أولى محاولات تكوين وحدات كبرى إلا عند غزوة قيصر . وقد كانت « دولتا » الأيدوي (Aedui) والأرفرني (Arverni) أقوى دول الغال ، وعملت كل من هاتين الدولتين على أن تربط بعجلتها دولاً أضعف منها بروابط تفاوتت من المحالفة الى التبعية . ولم يكن من شأن نشاط كل من هاتين الدولتين الكبريين في بسط نفوذهما على جيرانهما مساعدة تحقيق الوحدة بين الغال وإنما إعاقتها بسبب ما أفضى اليه ذلك النشاط من الصراع المرير الذي نكبت به الحياة السياسية في بلاد الغـــال .

وكان الاتجاه الآخر في تطور الغال السياسي هو التحول من نظام الحكم الملكي الى نظام الحكم الأرستقراطي . ومرة أخرى كان هذا التطور أظهر ما يكون في بلاد الغال الوسطى . وكان قوام نظام الحكم الأرستقراطي مجلساً للشيوخ يتألف من النبلاء وحاكماً واحداً أو أكثر لمدة عام واحد . بيد أنه كثيراً ما تهدد استقرار الأوضاع الجمهورية إما محاولات الأسر المالكة القديمة إعادة النظام الملكي وإما محاولات واحد أو آخر من النبلاء الأقوياء الطموحين الاستيلاء على السلطة والانفراد بمقاليد الحكم . وتبعاً لذلك نُكبت الحياة السياسية في بلاد الغال بعامل آخر من عوامل التناحر والاضطراب وعدم الاستقرار ، مما جعل توحيد الغال أمراً عسير المنال .

وقد ساعدت طبيعة تكوين المجتمع على هذا التناحر والاضطراب وعدم الاستقرار . ذلك أن الثروة والنفوذ السياسي كانا من نصيب النبلاء (وهم الذين يدعوهم قيصر الفرسان ، Equites) ورجال الدين (وهم الذين كانوا يعرفون باسم درويداي ، Druidae) . وأما الزراع والصناع الأحرار فإنهم لم يكونوا في وضع أفضل كثيراً من وضع الموالي . وكان النبلاء يتنافسون على الفوز بأكبر عدد ممكن من الأتباع سواء من الأحرار أم من العبيد ، مما كان ييسر للنبلاء الأقوياء تحدي سلطة الحكام .

ويحدثنا قيصر بأن مهام الدرويداي[٥] لم تكن مقصورة على الشئون الدينية بل كانت تشمل كذلك التعليم والفصل في المنازعات التي تنشأ بين الأفراد وكذلك بين القبائل ، مما أكسبهم نفوذاً سياسياً كبيراً ، وبأنهم كانوا يؤلفون طبقة ممتازة معفاة من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ، وبأن هذه الطبقة كانت منظمة تنظيماً دقيقاً ، لها رئيس ينتخبه جميع أفراد الطبقة لمدى الحياة . ولها كذلك مجلس ينعقد سنوياً في إقليم القارنوتس (Carnutes) . ولما كانت القرائن توحي بأن الدرويداي لم يكونوا أقل من النبلاء انقساماً على أنفسهم ، فإنه

(5) Caes., B.G., VI, 13; T.D. Kendrik, The Druids, 1927; Stuart Piggott, The Druids, 1968.

لم يكن لهم أثر ملموس في تحقيق وحدة الغال برغم الفرص التي هيأتها لهم مكانتهم الممتازة وسيطرتهم على الديانة التي كان الغال جميعاً يدينون بها .

ومعلوماتنا عن مذاهب الغال الدينية قبل الفتح الروماني معلومات محدودة، لأن هذه المعلومات مستمدة من الأوضاع في العصر الروماني عندما طرأ عليها تغير كبير نتيجة لتشبيه الآلهة والمذاهب الغالية بالآلهة والمذاهب الرومانية . ويذكر قيصر ستة من أبرز الآلهة الغالية التي شبهت بالآلهة الرومانية : مرقوريوس (Mercurius) وأبولو ومارس ويوبيتر ومينرفا وديسباتر[٦] (Dispater) . ويُفهم مما يرويه قيصر أنهم كانوا يعتقدون في تناسخ الأرواح[٧] . هذا الى أن ما يرويه مصدران آخران[٨] عن عقد قروض تستحق السداد في العالم الآخر ينم عن اعتقاد الغال في وجود حياة ثانية تماثل الحياة الدنيا . وتذكر مصادر عديدة[٩] أن الغال كانوا يقدمون لآلهتهم قرابين بشرية .

وقد كان الفرسان يتكونون من النبلاء ويؤلفون القوة الرئيسية في جيوش الغال . وأما المشاة وكانوا يتكونون من الأتباع الأحرار ومن العبيد فإن دورهم كان في الغالب دوراً ثانوياً ، أللهم إلا إذا استثنينا الهلفتي[١٠] (Helvetii) — فيما بين بحيرة جنيفا والراين وجبال الجورا أي في سويسرا — والنرفي (Nervii) في أقصى الشمال ، فقد كانوا يعتمدون كثيراً على المشاة .

وإزاء ما أوردناه عن عوامل الفرقة والتناحر في داخل كل دولة وكذلك بين كل دولة وأخرى من دول الغال ، لم يكن في وسع الغال القيام بمجهود حربي فعال ضد خصم قوي . وقد زاد في إضعافهم وعجزهم عن متابعة القتال أمداً طويلاً ميلهم الى التفرق بعد المعركة إما للسلب وإما للعودة الى ديارهم .

---

(6) Caes., B.G., VI, 17; 18.
(7) Caes., B.G., VI, 14.
(8) Val. Max., II, 6, 10; Pomponius Mela, III, 2.
(9) e.g. Lucan., I, 466; Diod., V, 31.
(١٠) يدخل قيصر الهلفتي في عداد الغال (Galli). ويعتبرهم أكثر الغال شجاعة وقدرة على القتال (Caes., B. G. I, 1)

٢ – سبب التدخل الروماني في غاليا قوماتا : (أنظر خريطة بلاد الغال)

حين أنشأ الرومان ولاية غاليا فيما وراء الألب كانت أقوى قبيلتين أو دولتين في وسط غاليا قوماتا هما قبيلة أو دولة الأيدوى – الى الجنوب الغربي من مدينة ديچون الحالية – وجارتها الجنوبية قبيلة أو دولة الأرفرني . وفي خلال نزاع هاتين الدولتين على الفوز بالسيطرة على المنطقة الوسطى ساعد الرومان أصدقاءهم الأيدوي على تحقيق بغيتهم . بيد أن الرومان عزفوا بعد ذلك لمدة طويلة عن التدخل في شئون دول غاليا قوماتا ، وذلك برغم أن هذه الدول كانت تدين بإنقاذها من الغزاة الذين وفدوا عليهم من وراء الراين – التيوتون والقيمبري ورفاقهم – الى انتصار الجيوش الرومانية على هؤلاء الغزاة . وحوالي عام ٨٠ ق . م . آلت السيطرة على وسط غاليا قوماتا الى الأرفرني في عهد ملكهم قلتيلّوس (Cletillus) والد الزعيم المشهور ڤرقينجتوريكس (Vercingetorix) . غير أن الأيدوي لم يلبثوا أن استردوا سيطرتهم ثانية واحتفظوا بها حتى عام ٦١ ق . م . وإزاء نقمة السكواني (Sequani) – جيرانهم الشرقيين – على هذه السيطرة وعجزهم عن التخلص منها بمفردهم ، ارتكبوا حماقة كبرى بأن ناشدوا المساعدة من أريوڤيستوس (Ariovistus) ، وكان ملك شعب قلتي (أو جرماني على حد تعبير قيصر[11]) كبير يدعى سويبي (Suebi) وينزل شرقي الراين . وبفضل هذه المساعدة أنزل السكواني هزيمة حاسمة بالأيدوي ولكنهم اضطروا إلى النزول لأريوڤيستوس عن سهل الألزاس وكان جزءاً من إقليمهم . وقد كان من جراء احتلال أريوڤيستوس سهل الألزاس بقوة كبيرة تزايدت على مر الزمن بقدوم فوج تلو آخر من رعاياه النازلين شرقي الراين أنه أصبح يشكل خطراً كبيراً على السكواني والأيدوي مما حدا بهم الى التآلف سوياً في وجه هذا الخطر المشترك . وعندما لم يحقق هذا التآلف الهدف المنشود ونُكب المتحالفون بهزيمة فادحة ، اتجه الأيدوي

(11) Cf. Caes., B.G., I, 1; 33; II, 3-4; 29 et passim.

راجع الفصل الرابع ص ص ١٩٤ – ١٩٥ .

الى أصدقائهم الرومان يناشدونهم المساعدة . وفي أواخر عام ٦١ ق . م . أصدر السناتو قراراً يوصي حاكم ولاية غاليا فيما وراء الألب عندئذ وكل من يخلفه في حكم تلك الولاية بحماية صوالح الأيدوي وغيرهم من أصدقاء الرومان بقدر ما تسمح له ظروف ولايته . وإزاء انشغال الحاكم الروماني بالثورة التي نشبت بين الألوبرجس في ذلك العام ولم تُخمد إلا في العام التالي لم يتلق الأيدوي أية مساعدة من الرومان . بل إن السناتو لم يلبث أن استجاب الى مساعي أريوفيستوس واعترف به في عام ٥٩ ق . م . ملكاً وصديقاً للشعب الروماني (quod rex appellatus esset a Senatu , quod amicus...) . ويقر قيصر بمسئوليته عن إقناع السناتو بالاستجابة الى مطلب أريوفيستوس[١٢] ، دون أن يفسر سبب اتخاذه هذه الخطوة في أثناء قنصليته . والواقع أنه يصعب تفسير هذه الخطوة التي كان من شأنها دعم مركز أريوفيستوس وتشجيعه على التوسع في بسط سلطانه .

وفي هذه الأثناء آلت مقاليد الأمور في دولة الأيدوي الى فريق معاد للرومان كان يتزعمه رجل يدعى دومنوركس (Dumnorix) . وقد رأى هذا الزعيم إنقاذ وطنه من المخاطر التي كانت تتهدده بالتفاهم مع الهلفتيي ، وكانوا يعيشون حيث توجد اليوم سويسرا ويعانون من ضغط القبائل القلتية (الجرمانية) النازلة شرقي الراين . وأصبحوا في قلق شديد من جراء وجود قوات أريوفيستوس على مقربة منهم . وإزاء ذلك لم يجد دومنوريكس صعوبة في إقناع الهلفتيي بالهجرة من بلادهم واتخاذ وطن جديد لهم في غرب غاليا قوماتا فيما بين نهري الجارون واللوار . وعلى هذا النحو كان الهلفتيي يتخلصون من حالة القلق التي كانوا يعيشون فيها وفي الوقت نفسه كان الأيدوي يفوزون بحلفاء أقوياء يناصرونهم . وعندما استقر رأي الهلفتيي على الهجرة الى موطنهم الجديد حددوا يوم ٢٨ من مارس عام ٥٨ ق . م . لبدء تنفيذ رحلتهم .

---

(12) Caes., B.G., I, 43, 5.

٣ ـ فتوحات قيصر [١٣] :

مر بنا أنه حين كان قيصر يتولى قنصليته في عام ٥٩ ق . م . مُنح بمقتضى قانون فاتينيوس حكم ولاية غاليا هذه الناحية من الألب وإلّوريقوم وأن السناتو أضاف الى ذلك ولاية غاليا فيما وراء الألب ، وأنه بعد انتهاء عام هذه القنصلية

---

(١٣) إن مصدرنا الرئيسي في هذا الصدد هو « مذكرات يوليوس قيصر عن الحرب الغالية » . (Commentarii de Bello Gallico) . وتقع هذه المذكرات في سبعة أجزاء أضاف اليها أحد ضباطه أولوس هيرتيوس (Aulus Hirtius) الجزء الثامن . ولا تزال تواريخ تأليف هذه المذكرات ونشرها مثار جدل بين الباحثين. ولما كان كل جزء من الأجزاء السبعة يتناول أحداث عام واحد بعينه من أعوام الحملة على حين أن الجزء الثامن يتناول أحداث عامي ٥١ و ٥٠ ق.م فإن بعض الباحثين يرون أن الأجزاء السبعة الأولى نشرت على التوالي عاماً فعاماً أو في مجموعات على فترات متفرقة، بينما يرى البعض الآخر أن هذه الأجزاء نشرت سوياً في مجموعة واحدة حوالي عام ٥١ ق.م. ومهما يكن من أمر ذلك فإنه لا خلاف على أن « المذكرات » استندت على التقارير السنوية التي كان قيصر يوافي السناتو بها . ولا خلاف كذلك على أن «المذكرات» ليست تاريخاً بأدق معنى الكلمة، وإن كان قيصر قد استخدم في صياغتها أسلوباً رصيناً ينم عن كفاية أدبية عالية . أنظر :

Frank E. Adcock, Caesar as a Man of Letters, 1956, esp. pp. 7 ff.

ويشك بعض الباحثين في أمانة قيصر من حيث تحريه الدقة في عرض الوقائع ، أنظر :

M. Rambaud, L'art de la déformation historique dans les commentaires de César, 1953; G. Walser, Cesar und die Germanen, 1956.

بيد أن أغلب الباحثين يميلون الى أن الشك لا يرقى الى أمانة قيصر بوجه عام في سرد الوقائع ، إلا أن الدوافع التي يقدمها تعليلا لتصرفاته تقتضي التمحيص تمحيصاً دقيقاً ، كما أن الأعداد التي يذكرها للقوات المعادية تحتاج الى تعديل . أنظر :

C.A.H., IX, p. 537 n. 1; J.P.V. Baldson, J.R.S., 1955, pp. 161 ff.; Greece and Rome, 1957, pp. 19 ff.; A.N. Sherwin-White, J.R.S., 1958, pp. 188 ff.; D. Tempe, Historia, 1965, pp. 189 ff.; Scullard, 1970, n. 5 pp. 427-8.

المراجع :

T. Rice Holmes, Caesar's Conquest of Gaul, 1911; C. Jullian, Hist. de la Gaulle, III, 2nd ed., 1920; Vercingetorix, 1963; L.A. Constans, Guide illustré des campagnes de César en Gaule, 1929; C.A.H., IX, pp. 550-73; Marsh, Roman World, pp. 198-211; O. Brogan, Roman Gaul, 1953; E. Thevenot, Les Eduens n'ont pas trahi, 1960; J. Harmond, Une Campaigne césarienne: Alesia, 1967; Scullard, 1970, pp. 132-8, and n. 5 pp. 427-8, n. 7 p. 428.

ظل قيصر في روما بحجة حشد القوات اللازمة ولكن الباعث الحقيقي كان رغبته في الانتظار الى ان يطمئن الى صدور تشريعات قلوديوس التي اتُفق عليهـــا .

المرحلة الأولى : عام ٥٨ ق.م.

ا ـ الهلفتيي :

حوالي منتصف مارس عام ٥٨ ق . م . أتت قيصر رسالة عاجلة فحواها أن الهلفتيي يحتشدون على الضفة اليمنى لنهر الرون تجاه مدينة جنيف الحديثة استعداداً لاجتياز الولاية الرومانية ، فخف قيصر الى ولاية غاليا فيما وراء الألب ووصل الى مكان بالقرب من جنيف حيث علم أن الهلفتيي ـ رجالاً ونساء وأطفالاً وكذلك كل أفراد أربع قبائل من جيرانهم ـ الراوريقي (Raurici) والتولينجي (Toulingi) واللاتوفيقي (Latovici) والبويي ، (Boii) أي حوالي ٣٦٨٠٠٠ نسمة ربعهم رجال قادرون على القتال ـ أحرقوا مساكنهم ويريدون هجرة مواطنهم وأنهم يلتمسون السماح لهم بالمرور عبر الولاية الرومانية . ولما كان قيصر قد وضع ثلاث فرق في أكويليا بولاية غاليا هذه الناحية من الألب وفرقة واحدة في جنيف فيما وراء الألب ، فإن توزيع قواته على هذا النحو قبيل بدء العمليات الحربية في عام ٥٨ ق . م . يوحي بأن فكرة مبادرته الى القيام بفتوحات فيما وراء الألب في بداية بروقنصليته لم تطرأ على ذهنه إلا عندما هيأ له الهلفتيي الفرصة التي كان يتحينها .

وقد رد قيصر على التماس الهلفتيي ورفاقهم طالباً مهلة من الوقت يتدبر فيها الأمر ، واستغل هذه المهلة في تحصين الضفة اليسرى للرون جنوبي بحيرة جنيف ثم أبلغ الهلفتيي رفضه السماح لهم بدخول الولاية الرومانية . ولعل أن يكون قيصر قد رفض التماس الهلفتيي ليضطرهم الى البقاء في بلادهم فينقذ

بذلك الولاية الرومانية فيما وراء الألب من خطر مزدوج . ذلك أن هجرة الهلفتيي من مواطنهم كانت تكشف الولاية الرومانية وتعرضها لضغط القبائل القلتية (الجرمانية) القوية النازلة شرقي الراين ، كما أن استقرار الهلفتيي في مواطنهم الجديدة كان يتهدد سلامة الولاية لشدة قرب هذه المواطن من جزء من الولاية كان غنياً بالقمح وفي الوقت نفسه لا تحميه حواجز طبيعية .

ولم يبذل الهلفتيي محاولة جدية لتحدي قيصر واقتحام سبيلهم عبر الولاية الرومانية لأنهم لم يلبثوا أن حصلوا بمساعدة دومنوريكس على موافقة السكواني على المرور بإقليمهم . وحيث أن السكواني كانوا يؤلفون دولة مستقلة ، فإنه لم يكن لدى قيصر أي مبرر مشروع للتدخل في شئونهم أو اعتراض سبيل الهلفتيي إلا إذا وقع صراع خطير بينهم وبين الأيدوي حلفاء الرومان . ومع ذلك فإن قيصر صمم على التدخل في شئون دول الغال المستقلة . وقد صادف تصرف قيصر على هذا النحو نقداً شديداً ولكن قيصر برر تصرفه بضرورة حماية الولاية وتأمين سلامتها . والواقع أن هذا التصرف كان متمشياً مع السياسة التي دأب الرومان على اتباعها وكانت تهدف دائماً الى حماية الحدود الرومانية بالحيلولة كلما أمكن دون قيام أية دولة قوية بالقرب من هذه الحدود مثل الدولة التي كان يمكن أن يقيمها الهلفتيي في مواطنهم الجديدة . ولما لم تكن لدى قيصر قوات كافية تمكنه من التدخل فوراً ، فإنه أسرع الى ولاية غاليا هذه الناحية من الألب حيث حشد فرقتين جديدتين ضمهما الى الفرق الثلاث الموجودة هناك وعاد على رأس هذه الفرق الخمس الى بلاد الغال حيث عبر الرون شمالي التقائه مع نهر الساعون . وفي هذه الأثناء كان الهلفتيي قد اجتازوا إقليم السكواني وعبر الجانب الأكبر منهم نهر الساعون ودخل إقليم الأيدوي ، حيث كان الفريق الموالي للرومان قد استرد مؤخراً زمام الحكم وهيأ لقيصر الذريعة اللازمة للتدخل بمناشدته المساعدة .

وعندما بادر قيصر الى تقديم المساعدة المنشودة للأيدوي واجه في أول الأمر بعض المتاعب ، ولكنه لم يلبث أن اشتبك مع الهلفتيي بالقرب من

بيبراقتي (Bibracte = أوتان ، Autun ، عاصمة الأيدوي) في معركة عنيفة أنزل فيها بالمهاجرين خسائر جسيمة . وإزاء ذلك وامتناع أهالي هذه المنطقة عن تقديم أية مساعدة للهلفتيي وصحبهم خوفاً من قيصر لم يجدوا مناصاً من التسليم . وبناء على طلب الأيدوي سمح قيصر لجماعة من المهاجرين (وكانوا من قبيلة البويي) بالاستقرار في إقليم الأيدوي ، وأما البقية الباقية فإن قيصر اكتفى بإرغامهم على العودة الى بلادهم .

ب – أريوڤيستوس :

ولا أدل على الأثر العميق الذي أحدثه انتصار قيصر على الهلفتيي وصحبهم من أن أغلب دول غاليا قوماتا الوسطى أنفذت البعثات الى بيبراقتي لتهنئة قيصر والشكوى اليه من عسف أريوڤيستوس بالأيدوي والسكواني وغيرهم من الغال ، وحثه على العمل على إنقاذ بلاد الغال من المخاطر التي كانت تتهددها من جراء استمرار تدفق الجحافل القلتية (الجرمانية) من وراء الراين . وإزاء ما لمسه قيصر من الفزع الشديد الذي أثاره أريوڤيستوس في الغال ، أدرك عندئذ فقط ضخامة قوة أريوڤيستوس ومدى خطره على روما ولا سيما أن القلت (الجرمان) وقد أصبحوا يعتادون التوافد عبر الراين ربما يتكاثر عددهم الى حد يغريهم على أن يحذوا حذو القيمبري والتيوتون من قبلهم فيتكرر غزو الولاية الرومانية والانقضاض على إيطاليا . ولما كان السناتو – بإيعاز من قيصر – قد اعترف منذ حوالي عام بأريوڤيستوس ملكاً وصديقاً للشعب الروماني ، فإنه كان يتعين على قيصر أن يعمد الى الزج بأريوڤيستوس في موقف المتحرش بأصدقاء روما لكي يعطي قيصر بذلك ذريعة للاشتباك معه . وتبعاً لذلك طلب قيصر مقابلة أريوڤيستوس للاحتجاج على سوء المعاملة التي يلقاها منه جيرانه . وعندما رفض أريوڤيستوس مقابلة قيصر ، استند قيصر على القرار الذي كان السناتو قد أصدره في عام ٦١ ق . م . موصياً حاكم الولاية الرومانية عندئذ وكل من يخلفه في حكمها بحماية صوالح الأيدوي وغيرهم

من أصدقاء الرومان ، ووجه الى أريوڤيستوس إنذاراً يأمره فيه بأن يدع الأيدوي وغيرهم من أصدقاء روما يعيشون في أمن وسلام وبأن يوقف تدفق أفواج القلت (الجرمان) من وراء الراين على بلاد الغال .

وعندما رفض أريوڤيستوس الإنذار وتواترت الأنباء بأن أفواجاً جديدة من شعبه وصلت الى الضفة الشرقية للراين ، قرر قيصر أن يبدأ الهجوم فوراً قبل أن تعبر هذه الأفواج الراين وتشد أزر أريوڤيستوس . وقد تقدم قيصر سريعاً حتى وصل الى فسونتيو (Vesontio = بزانسون) ولكن اقترابه من القلت (الجرمان) أثار في جنوده فزعاً شديداً كاد أن يصل الى حد الفتنة ، غير أن قيصر تمكن سريعاً من السيطرة على الموقف ، وكان ذلك المرة الأولى وكذلك الأخيرة التي اهتز فيها ولاء الجنود لقيصر طوال حملاته الغالية . وبعد ذلك زحف قيصر حتى أعالي سهل الألزاس حيث كان أريوڤيستوس معسكراً . وعندئذ وافق أريوڤيستوس على عقد مؤتمر مع قيصر . وبعد فشل المؤتمر وبعض المناورات ، اشتبك الفريقان في معركة طاحنة قام فيها بوبليوس قراسوس بدور بارز ساعد على سحق قوات العدو (منتصف سبتمبر عام ٥٨) . وقد تمكن أريوڤيستوس من النجاة والفرار مع من فر من رجاله الى وطنهم شرقي الراين ، ولكنه ظل حتى وفاته حوالي بداية عام ٥٣ ق . م .[١٤] مصدر قلق لقيصر . على نحو ما سنرى .

وقد كانت النتيجة المباشرة لهذا النصر أن قبيلة السويبي فقدت ممتلكاتها غربي الراين وأن الجحافل التي كانت قد وصلت الى الضفة الشرقية للراين آثرت السلامة والعافية وقفلت راجعة الى بلادها . بيد أن قيصر أدرك أنه إذا بـــادر بالانسحاب الى الولاية الرومانية — وفقاً للسياسة التي اتبعها الرومان حتى ذلك الوقت — تاركاً دول غاليا قوماتا الوسطى تتابع تناحرها في حرية كاملة دون تدخل في شئونها ، فإن ذلك كان سيتيح للقلت (الجرمان) الفرصة لمعاودة غزو بلاد

---

(14) Caes., B. G., V, 29.

الغال وبناء قوة كبيرة تنطوي على مخاطر جديدة للرومان . وتفادياً لحدوث ذلك رأى قيصر أنه لم يكن هناك سبيل إلا أن يتولى الرومان الدفاع عن حدود الراين وبسط السيطرة الرومانية على غاليا قوماتا بأجمعها . وينم عن هذه السياسة الجديدة — دون المصارحة جهاراً بها — أن قيصر اتخذ عدة خطوات كانت أولاها هي أنه ترك فرقة تقضي شتاء عام ٥٨/ ٥٧ ق . م . في فسونتيو بإقليم السكواني تمهيداً للخطوة التالية .

المرحلة الثانية : عام ٥٧ ق.م.

ا — البلجيق :

وكانت الخطوة التالية هي إخضاع البلجيق لتتم السيطرة على الراين . وقد فطن البلجيق الى نوايا قيصر فقضوا فصل الشتاء في الاستعداد لمواجهته ، ولا سيما أن زعماء الغال المناهضين للنفوذ الروماني استحثوهم على التدخل للتخلص من الرومان . وفي خلال هذا الشتاء ذهب قيصر الى غاليا هذه الناحية من الألب وحشد فرقتين جديدتين قادهما الى فسونتيو فأصبح لديه هناك ثماني فرق . وفي ربيع عام ٥٧ ق . م . خرج قيصر من فسونتيو متجهاً صوب الشمال حيث قابلة سفراء قبيلة ريمي (Remi — وكانت إحدى قبائل البلجيق الكبرى وتنزل حيث توجد اليوم مدينة ريمس) وأعربوا له عن ولاء قبيلتهم وتأييدها له تأييداً مطلقاً . وبعد ذلك استولى قيصر على قاعدة أمامية شديدة الصلاحية لعملياته العسكرية مما أتاح له أن يتخذ موقفاً دفاعياً منيعاً شمالي نهر الأين (Aisne) وأن يطلق حلفاءه الأيدوي لتخريب حقول الأعداء . وعندما ظهر جيش البلجيق . وكان جيشاً ضخماً ولكنه غير منظم . فشل في زحزحة قيصر عن موقعه وفي عبور النهر . ولم تلبث مؤنته أن نفدت فأخذ ينسحب ويتفرق لحرص رجال كل قبيلة على حماية أراضيها . فاقتفى قيصر أثر الجيش المنسحب واستسلمت له بعض القبائل . وعندما أبت الاستسلام أربع قبائل

ـ كانت أهمها قبيلتا النرفيي (Nervii) والأتواتوقي (Atuatuci) ـ وأصرت هذه القبائل على المقاومة وزحف قيصر ضدها . نجحت في مباغتته على ضفاف نهر سامبر (Sambre) ذات يوم وقت الأصيل، حين أغفل اتخاذ الاحتياطات اللازمة في أثناء انهماك الجيش في إقامة معسكره . وكادت المباغتة أن تصيب قيصر بكارثة لولا حسن تدريب رجاله والمثل الفذ الذي ضربه لهم قيصر في الشجاعة والإقدام ، فلم يصمدوا فحسب بل أحرزوا على أعدائهم نصراً كاملاً أرغمهم على الاستسلام . وبعد أن قبل الأتواتوقي التسليم قاموا بهجوم ليلي غادر على الرومان ولكنهم هُزموا وعاقبهم قيصر على غدرهم ببيع من بقي منهم على قيد الحياة في سوق النخاسة وكان عددهم يبلغ ٥٣٠٠٠ .

ب ـ قبائل نورماندي وبريتاني :

وفي هذه الأثناء كان قيصر قد أنفذ بوبليوس قراسوس على رأس إحدى فرقه ضد القبائل الغالية البحرية التي كانت تقطن نورماندي وبريتاني . ولم تبد هذه القبائل أية مقاومة بل انها بادرت الى التسليم وأعطت الرومان رهائن ضماناً لولائهـــا .

وهكذا باستثناء إقليمي الموريني (Morini) والمنابيي (Menapii) في أقصى الشمال وإقليم أكويتانيا في أقصى الجنوب ، أصبحت كل غاليا قوماتا تحت سيطرة الرومان . وإزاء هذه الانتصارات الباهرة لم يسع السناتو إلا أن يقرر إقامة صلوات الشكر للآلهة على مدى خمسة عشر يوماً . بيد أن قيصر كان يدرك تماماً أنه برغم الانتصارات التي أحرزها كانت سيطرة الرومان على غاليا قوماتا لا تزال في حاجة الى الدعم . وتبعاً لذلك فإنه عندما دعا بومبي وقراسوس لعقد مؤتمر لوقا في أوائل عام ٥٦ ق. م. حرص على الاتفاق معهما على إطالة مدة بروقنصليته خمس سنوات أخرى . ويدل مجرى الأحداث التالية على حسن تقدير قيصر للموقف في بلاد الغال .

المرحلة الثالثة : عام ٥٦ ق.م.

١ ـ الفنتي ، أول ثورة للغال ضد الرومان :

لما كان الفنتي (Veneti) أقوى القبائل البحرية في غاليا قوماتا ويسيطرون على التجارة مع بريطانيا ويكرهون أن ينافسهم الرومان في هذا المجال ، وكان قد أثار مخاوفهم من ذلك أنه في أواخر عام ٥٧ ق . م . عهد قيصر الى بوبليوس قراسوس بالقيام برحلة إستطلاعية الى شواطىء بريطانيا الجنوبية ، فإنهم لم يلبثوا في شتاء عام ٥٧/ ٥٦ ق . م . أن نبذوا ولاءهم للرومان وألقوا القبض على بعض الضباط الرومان أملاً في أن يستبدلوا بهم رهائنهم . وقد شجع مسلك الفنتي أغلب القبائل في بريتاني ونورماندي على الانضمام الى الثورة ضد الرومان . وزاد الموقف خطورة أن القلت (الجرمان) كانوا يتحفزون للقيام بغزوة جديدة عبر المجرى الأدنى للراين .

وما أن عاد قيصر من مؤتمر لوقا حتى تولى بنفسه أمر الفنتي وجيرانهم في بريتاني ، وعهد الى أحد مساعديه ـ كوينتوس سابينوس ـ بإخماد القبائل الثائرة في نورماندي ، وأسند الى أمهر مساعديه ـ لابينوس (Labienus) ـ مهمة الدفاع عن الشمال الشرقي حيث كان القلت (الجرمان) يعتزمون القيام بغزوتهم . وقد نجح كل من سابينوس ولابينوس في الاضطلاع بمهمته .

ولما كان قيصر قد أدرك منذ بداية الثورة أن إخضاع الفنتي يقتضي تحطيم سيطرتهم البحرية وأنه لم يكن للرومان أسطول في المحيط الأطلسي ، فإنه صمم على إنشاء أسطول واستغل شتاء عام ٥٧/ ٥٦ ق . م . في بناء سفن حربية في نهر اللوار . وعندما تم إنشاء هذه السفن ، انضمت إليها سفن أخرى قدمتها القبائل البحرية النازلة بين اللوار والجارون ، وتولى دقيموس بروتس قيادة هذا الأسطول المشترك . وقد صدق تقدير قيصر لأن عملياته الحربية التي بدأها ضد الفنتي قبل اكتمال بناء الأسطول الروماني واشتراكه في قتالهم لم تسفر عن أية نتيجة . ولكنه ما أن وصل الأسطول وحطم بعض سفن العدو واستولى

على بقيتها حتى استسلم الفنتي وباقي جيرانهم في بريتاني وآلت الى الرومان سيادة البحر من خليج بيسكاي حتى القنال الإنجليزي .

وقد اعتبر قيصر أن الضباط الرومان الذين ألقى الفنتي القبض عليهم كانوا بمثابة سفراء وأن العمل الذي ارتكبه الفنتي كان خرقاً للقانون الدولي يقتضي معاقبتهم عقاباً صارماً . وتبعاً لذلك فإن قيصر أعدم زعماء الفنتي وباع باقي الأهالي في سوق النخاسة . ولعل أنه قد أراد بهذه المعاملة القاسية أن تكون عظة لباقي الغال فلا يحاولون الثورة . وبعد ذلك قصد قيصر غاليا هذه الناحية من الألب لقضاء شتاء عام ٥٦/ ٥٥ ق . م .

ب ــ أكويتانيا :

وحين كان قيصر يعالج أمر ثورة القبائل البحرية إنتحل عذراً واهياً لفتح أكويتانيا وهو احتمال مساعدتها أولئك الثوار وأسند الى بوبليوس قراسوس الاضطلاع بهذه المهمة . وقد نجح بوبليوس دون عناء في إخضاع قبائل كثيرة كانت تعيش فيما بين الجارون والبرانس .

المرحلة الرابعة : القلت (الجرمان)

مر بنا أن شعب السويبي (Suebi) كان شعباً قلتياً (جرمانياً) كبيراً شديد البأس مواطنه شرقي الراين ، وأنه في عهد ملكه أريوڤيستوس امتد نفوذه الى غربي الراين وسيطر على سهل الألزاس حيث استقر فريق من جحافلها وأصبحت تشكل خطراً على بلاد الغال الوسطى الى أن انتصر قيصر على أريوڤيستوس في عام ٥٧ ق . م . ففر هارباً هو وفلول قواته وذلك الفريق من رعاياه الذي كان قد هجر مواطنه الأصلية . وحدث قبل ذلك بحوالي عامين أن هذا الشعب ضغط ضغطاً شديداً على قبيلتين قلتيتين (جرمانيتين) من جيرانه ــ وهما قبيلتا يوسيبتس (Usipetes) وتينقتري (Tincteri) ــ فاضطرت هاتان القبيلتان الى هجرة مواطنهما والتنقل من مكان الى مكان شرقي الراين حوالي ثلاثة أعوام . وأخيراً في خلال شتاء عام ٥٦/٥٥ ق. م. عبرت

هاتان القبيلتان المجرى الأدنى للراين بالقرب من إكسانتن (Xanten) في جموع كبيرة قدرها قيصر بحوالي ٤٣٠.٠٠٠ نسمة وطردت المنابيي من إقليمهم ، بل إن فريقاً من هؤلاء المهاجرين تقدم الى ما وراء مدينة لييج الحديثة (Liège) . وإزاء ضخامة عدد المهاجرين وخوف قيصر من انضمامهم الى الغال الناقمين على الرومان ، بادر في عام ٥٥ ق . م . الى العودة مبكراً من غاليا هذه الناحية من الألب . وبعد أن اجتمع قيصر بزعماء غاليا قوماتا وحصل منهم على المساعدات اللازمة لحملته المقبلة ، زحف ضد المهاجرين . وفي الطريق جاء قيصر سفراؤهم يلتمسون الترخيص لهم بالبقاء في بلاد الغال . ولكن قيصر رفض التماسهم واقترح عليهم أن يحصل لهم على موطن على الضفة الشرقية للراين . وانتهت المفاوضات بالاتفاق على هدنة قصيرة حتى يبدي المهاجرون رأيهم في اقتراح قيصر . وفي أثناء الهدنة تابع قيصر زحفه شمالاً حتى أصبح على بعد ثمانية أميال من قواته الرئيسية وكانت معسكرة بالقرب من إكسانتن فيما بين نهري الميز (Meuse) والراين . وعلى حين فجأة هاجمت بعض الوحدات القلتية (الجرمانية) فرسان قيصر الذين كانوا قد تقدموا الى ماوراء قواته الرئيسية . وبرغم أن زعماء القلت بادروا في اليوم التالي بالذهاب الى قيصر للاعتذار والتنصل من المسئولية عما حدث بحجة أن بعض وحداتهم أقدمت عليه غير مأذونة بذلك ، فإن قيصر لم يثق في أقوالهم اعتقاداً منه بأنهم لم يهدفوا إلا الى كسب الوقت . ولا يبعد أن يكون قيصر قد قرر من قبل تلمس أية ذريعة ليجعل منهم عظة لغيرهم . وعلى كل حال فإن قيصر ألقى القبض على الزعماء وخف الى مباغتة قواتهم فتبدد شملها وولت هاربة ، ولكن قيصر طارد الهاربين بهمة ونشاط ولم تلبث المطاردة أن تحولت الى مجزرة بشعة هلك فيها زهاء ٤٠٠.٠٠٠ من المهاجرين دون أن تتعدى خسائر قيصر عدداً قليلاً من الجرحى على حد تقديره . ولا جدال في أن ما ارتكبه قيصر كان عورة في جبينه وفي جبين الشرف الروماني فحاول جاهداً في « مذكراته » تبرير مسلكه بالمخاطر التي كانت تتهدد الرومان من

ضخامة عدد المهاجرين. بيد أنه من العسير علينا قبول ذلك مبرراً لإزهاقه أرواح كل هذه الآلاف وإلقائه القبض على زعمائهم ، فقد كانوا سفراء قومهم وتبعاً لذلك كان القبض عليهم خرقاً لحرمة القانون الدولي وهو الأمر الذي اتخذ منه في العام الماضي ذريعة لمعاقبة الفنتي . وقد هاجم قاتو مسلك قيصر هجوماً عنيفاً وطالب بتسليمه لمن بقي على قيد الحياة من ضحايا جريمته . غير أنه يجب إلا يغرب عن البال أن الباعث الأول على موقف قاتو كان خصومته السياسية لقيصر . وعلى كل حال فإن السناتو لم يعر رأي قاتو انتباهاً وقرر إقامة صلوات الشكر للآلهة لمدة عشرين يوماً .

وبعد فراغ قيصر من مجزرته صمم على تأمين سلامة حدود الراين بالقيام بمظاهرة عسكرية على الضفة الشرقية لهذا النهر لإلقاء الرعب في قلوب السويبي فلا يحاولون ثانية الوصول الى الضفة الغربية والتدخل في شئون بلاد الغال . وقد شجع قيصر على تنفيذ تصميمه أن بعض القبائل القلتية (الجرمانية) التي كانت تنزل على الضفة الشرقية للراين أعربت لقيصر عن ولائها ووضعت نفسها تحت الحماية الرومانية . وقد شيد قيصر جنوبي المدينة الحديثة كوبلنز قنطرة فوق الراين ، وعبر بقواته الى الضفة الشرقية وخرب أراضي خصوم القبائل الموالية له . وعندما رفض السويبي الاشتباك مع قيصر في موقعة وانسحبت جموعهم الى الداخل ، قفل راجعاً الى الضفة الغربية وأزال القنطرة التي شيدها.

المرحلة الخامسة : غزو بريطانيا(١٥)

ا ــ الغزوة الأولى :

حينما عاد قيصر من مظاهرته العسكرية شرقي الراين كان موسم القتال في

---

(١٥) الى جانب المراجع الواردة في الحاشية (١٣) ص ٥٩١ ، أنظر :
R.E.M. Wheeler, Antiquity, 1933, pp. 21 ff.; T. Rice Holmes, Ancient Britain and the Invasion of Caesar, 1935, R.G. Collingwood, Roman Britain and the English Settlements, 1937; S.S. Frere, Britannia, 1967, Ch 3.

عام ٥٥ ق . م . قد قارب على نهايته ، ومع ذلك فإنه أعد حملة صغيرة لاستطلاع الأحوال في بريطانيا تمهيداً للقيام بغزوة كبيرة في العام التالي . وقد حاول قيصر تبرير غزوه بريطانيا بضرورة منع البريطانيين من مساعدة الغال الناقمين على الرومان . ومن الواضح أن هذه حجة واهية لأنه منذ أن آلت الى الرومان سيادة البحر من خليج بيسكاي حتى القنال الإنجليزي بعد هزيمة الفنتي ، كان في وسع قيصر منع البريطانيين من التدخل في بلاد الغال دون حاجة الى قيامه بغزو بريطانيا ذاتها . وفضلاً عن ذلك فإن محاولته بسط رقعة الإمبراطورية الرومانية الى ما وراء حدودها الطبيعية كانت تلقي على الرومان تبعات دون أن يقابلها ما يفيد صوالحهم سواء من الناحية السياسية أم العسكرية ، غير أن هذا التوسع كان يخدم صوالح قيصر الشخصية . ذلك أن بريطانيا كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة للرومان وأنه بولغ كثيراً في تقدير ثروتها ، ومن ثم فإنه يبدو أن قيصر تصور أن قيامه بغزو هذه الجزيرة الغنية غير المعروفة يكون أبلغ أثراً في نفوس معاصريه من الانتصارات الباهرة التي أحرزها في بلاد الغال وكذلك من انتصارات بومبي في الشرق . وإزاء ذلك يبدو أن السبب الحقيقي الذي حفز قيصر على غزو بريطانيا كان الرغبة في الفوز بانتصارات تفوق انتصارات بومبي فتضفي عليه من الجلال والمجد ما يكسبه مكانة أسمى من مكانة معاصريه جميعاً .

وفي ٢٥ من أغسطس عام ٥٦ ق. م. أبحر قيصر من بولوني (Bologne) على رأس فرقتين . وبعد عبوره القنال الإنجليزي ، نزل في اليوم التالي بالساحل الشرقي لمقاطعة كنت (Kent) الحديثة برغم المقاومة التي صادفها من البريطانيين . وإزاء ما مُنيت به قبائل كنت من فشل في منع نزول قيصر الى البر ، قدمت له فروض الطاعة إلا أنها لم تلبث أن غيرت رأيها بسبب ما حدث للغزاة بعد قليل . ذلك أنه بعد وصول قيصر بأربعة أيام . حطم المد عدداً كبيراً من سفنه كما أن الأنواء بددت شمل حاملات فرسانه وطوحت بها الى الشاطىء الفرنسي ، وبذلك حرم قيصر فرسانه ولم يعد في وسعه أن يتابع زحفه . وقد رأى

البريطانيون في النكبة التي حلت بقيصر مشجعاً لهم على مهاجمة المعسكر الروماني ولكنهم هُزموا هزيمة حاسمة اضطرتهم الى ان يعودوا فيقدموا له ولاءهم . وعندما استرد قيصر هيبته بهذا النصر ، رأى أنه من الحكمة انتهاز هذه الفرصة لمغادرة بريطانيا موفور الكرامة ، فبرحها حوالي منتصف سبتمبر .

ب ـ الغزوة الثانية :

وفي شتاء عام ٥٥/ ٥٤ ق. م. قام قيصر باستعدادات هائلة لم تدع مجالاً للشك في أنه كان يهدف الى فتح الجزء الجنوبي من بريطانيا . ومما يجدر بالملاحظة أنه في الوقت ذاته كان قراسوس أيضاً يعد العدة لغزو بارثيا دون أي مبرر سوى الفوز بأمجاد عسكرية شأنه في ذلك شأن قيصر بصدد غزو بريطانيا ، وأن قيصر سمح لبوبيليوس قراسوس بالانضمام الى أبيه .

وقد كان إقدام قيصر على غزو بريطانيا قبل أن تستتب له السيطرة على بلاد الغال ينطوي على مخاطرة كبيرة ، ولا سيما أن كثيرين من زعماء الغال كانوا غير راضين عن غزو بريطانيا بسبب الالتزامات التي فرضها عليهم قيصر للقيام بهذا الغزو ، وأن بعضهم اعتزموا انتهاز فرصة غيابه في بريطانيا لإثارة مواطنيهم عليه ، مما اضطر قيصر الى أن يأخذ معه زعماء الغال ليكونوا بمثابة رهائن تضمن له بقاء الغال على ولائهم له . وقد لقي دومنوريكس حتفه وهو يحاول الهرب من المعسكر الروماني ، وكان دومنوريكس زعيم ذلك الفريق من الأيدوي المناهض للرومان .

وفي أوائل شهر يوليه عام ٥٤ ق . م . أبحر قيصر على رأس حملة قوامها خمس فرق (حوالي ٣٠,٠٠٠ مقاتل) من المشاة وألفان من خيالة الغال . وقد نزلت القوات الرومانية على ساحل كنت دون مقاومة . وتحت جنح الظلام ، سارع قيصر بالزحف غرباً مع الجانب الأكبر من قواته ، وفي اليوم التالي هزم قوات كنت بالقرب من كانتربوري (Canterbury) . بيد أن إسراع قيصر بالزحف أفسد عليه خطة حملته . ذلك أنه اختصاراً للوقت ترك سفنه

راسية بجوار الشاطىء بدلاً من إخراجها من البحر ووضعها فوق البر ، وحدث في الليلة التالية لانتصاره أن هبت ريح عاتية ودمرت أربعين سفينة من أسطوله، مما اضطره الى العودة مع جيشه الى الشاطىء حيث سحب السفن الباقية الى البر وأنشأ لها استحكامات قوية لحمايتها . وقد كان لهذا التأخير أهمية بالغة ، فمن ناحية لم يبق لدى قيصر إلا شهران يستطيع القتال فيهما ، ومن ناحية أخرى أتاح هذا التأخير للبريطانيين الفرصة للاتفاق على توحيد قواتهم لصد الغزاة .

وقد اختار زعماء البريطانيين قائداً لهم : قاسّيفلاّونوس(Cassivellaunus)، وكان أصلاً ملك الإقليم الواقع شمالي نهر التيمس وغربي نهر لي (Lea) ، ثم بسط سلطانه مؤخراً على إقليم الترينوفانتس (Trinovantes) الواقع شرقي نهر لي ، مما حفز ماندوبراقيوس (Mandobracius) ابن الملك السابق لهذه القبيلة على اللجوء الى قيصر . وكان « قلت » بريطانيا لا يزالون يستخدمون العجلات الحربيـــة وهي التي كـــان قلت بلاد الغال قد نبذوا استخدامها منذ أمد طويل . وعندما استأنف قيصر زحفه أربكت هذه العجلات خيالة الغال وأحرزت بعض التفوق على فرق المشاة ذات مرة حين كانت صفوفها مضطربة ، ولكنه عندما التقى الفريقان في الموقعـــة الأولى كانت الغلبة لقوات قيصر . وبعد هذه الموقعة قرر القائد البريطاني أن يتفادى الاشتباك مع الرومان في مواقع نظامية، ومن ثم فإنه عمد الى تعطيل تقدمهم بالالتجاء الى أساليب حرب العصابات . وبرغم ذلك فإن قيصر تابع زحفه حتى المجرى الأدنى للتيمس حيث ضم ماندوبراقيوس قبيلته الى جانب قيصر وتبعتها في ذلك قبائل أخرى . وتبعاً لمشورة هؤلاء الحلفاء ، عبر قيصر النهر وهاجم أهم قلاع قاسّيفلاّنوس واستولى عليها . وفي هذه الأثناء أمر قاسّيفلاّنوس قبائل كنت بمهاجمة معسكر قيصر على الشاطىء أملاً في أن يضطره هذا الهجوم الى الانسحاب . وعندما فشل هذا الهجوم ، وافق قاسّيفلاّنوس على الدخول في مفاوضات مع قيصر ، وكان قيصر يريد إنهاء حملته البريطانية دون ضياع وقت ثمين بسبب اقتراب الشتاء وكذلك بسبب

الأنباء المزعجة التي وصلته عن تحرج الموقف في بلاد الغال. وقد قبل قاسّيفلاّنوس الشروط التي أملاها قيصر لعقد الصلح وكانت تقضي بتسليم بعض الرهائن ودفع الجزية للرومان وعدم التعرض لماندوبراقيوس والترينوفانتس. وما أن عُقد الصلح حتى عادت القوات الرومانية الى كنت حيث أبحرت إلى بلاد الغال حوالي منتصف سبتمبر. ومما يجدر بالملاحظة أن قيصر لم يترك وراءه قوات في بريطانيا لضمان تنفيذ شروط الصلح. ولا يبعـد أن قاسّيفلاّنوس لم يدفع الجزية إطلاقاً لأنه إزاء ما سنراه من انهماك قيصر في إخماد الثورات المتكررة التي نشبت في بلاد الغال، كان في وسع البريطانيين إغفال شروط الصلح وهم في مأمن من العاقبة.

المرحلة السادسة : ثورات الغال

١ – أمبيوريكس، عام ٥٤–٥٣ ق.م :

لم يكد قيصر يعود من بريطانيا في خريف عام ٥٤ ق. م. حتى اشتعل لهيب الثورة في بلاد الغال حيث كانت النقمة على السيطرة الرومانية تتزايد باطراد منذ أدرك الغال أن عليهم إعالة جيش الإحتلال وكذلك إشباع جشع قيصر وضباطه وكثيرين ممن لاذوا به. ففي عام ٥٤ ق. م. كان قيصر قد جمع ثروة هائلة يصعب على المرء أن يتصور أنها كانت كلها من حصيلة بيع الأسرى. وفضلاً عن ذلك فإن كثيرين من المغامرين الرومان الذين تدهورت أحوالهم المالية ولكنهم استطاعوا كسب رضاء قيصر يمموا وجوههم صوب بلاد الغال حيث وجدوا في استغلال الأهالي مرتعاً خصباً للثراء. ويدل على إحساس قيصر بضيق الغال بوطأة السيطرة الرومانية ما سلف ذكره من أنه أرغم زعماءهم على مصاحبته الى بريطانيا. بيد أنه إذا كان هذا الإجراء قد أفلح في منع نشوب الثورة في أثناء غياب قيصر فإنه لم يكن من شأنه بعث الغال على الرضاء بحالهم. وتحت وطأة السيطرة الرومانية نسي الغال إنقاذ الرومان لهم من مخاطر

القلت (الجرمان) وتناسوا أحقادهم ومنازعاتهم المتبادلة ، وأصبح هناك أمل في اتحادهم للقيام بحرب التحرير . غير أن تحقيق هذا الاتحاد كان يتوقف على موقف دول بلاد الغال الوسطى وهي التي أخضعها الرومان بالإغراء أكثر منه بالقهر ولم تكن هذه الدول مستعدة عندئذ للثورة . ولا سيما أن التذمر الذي تمخضت عنه الثورة الثانية لم يتمخض عنه زعيم قادر على كسب تأييد هذه الدول باستثناء القارنوتس والسنونس .

ولما كان قيصر يدرك أن البلجيق أكثر الغال تذمراً ، فإنه عقب عودته من بريطانيا وضع في مواطنهم فرقه جميعاً باستثناء واحدة منها أرسلها الى نورماندي . غير أنه إزاء سوء المحصول في ذلك العام وصعوبة الحصول على المؤنة اللازمة للجيش بأجمعه من منطقة واحدة ، اضطر قيصر الى توزيع قواته بين أماكن تفصل عن بعضها بعضاً مسافات شاسعة . ذلك أن قيصر نفسه عسكر في مكان بالقرب من مدينة أميان (Amiens) الحديثة ، وكوينتوس شيشرون — الأخ الأصغر للسياسي المعروف — في إقليم النرفيي (Nervii) ، ولابينيوس في إقليم الترفري (Treveri) ، وسابينوس في إقليم الأبورونس (Eburones) . وكان من جراء توزيع القوات الرومانية على هذا النحو أن الغال انتهزوا هذه الفرصة للانقضاض على الرومان .

وقد كان القارنوتس أول الذين رفعوا راية العصيان عندما قتلوا الملك الذي فرضه عليهم قيصر . وذات فجأة هب الأبورونس ثائرين بزعامة أمبيوريكس (Ambiorix) وحاصروا الحامية الرومانية التي كانت معسكرة بقيادة سابينوس في إقليمهم . ومن المحتمل أنه كان في وسع هذه الحامية الصمود في معسكرها الى أن تأتيها النجدة ، ولكن أمبيوريكس — وكان حتى ذلك الوقت صديقاً وفياً للرومان — خدع سابينوس بأن وعده بعدم التعرض له ولرجاله إذا أخلى معسكره وانصرف جنوباً الى لابينوس . واعتماداً على هذا الوعد ، أمر سابينوس قواته بالانسحاب ، ولكنه ما أن ابتعدت القوات الرومانية مسافة ميلين عن معسكرها حتى وقعت في كمين نصبه لها الثوار فقتل

أكثرها بما في ذلك قائدها ومساعده . ولم يفلح إلا نفر قليل في النجاة من هذه الكارثة وفي نقل أنبائها الى لابينوس .

وشجع هذا النصر الثوار فزحفوا فوراً على معسكر كوينتوس شيشرون في إقليم النرفيي . وبالرغم من انضمام النرفيي الى الأبورونس في محاصرة المعسكر الروماني فإن كوينتوس ورجاله استطاعوا الصمود وأفلحوا في إبلاغ قيصر خطورة موقفهم . فخف إليهم على رأس القوات التي تمكن من جمعها سريعاً ولم يجد عناء في تبديد شمل الثوار .

وفي هذه الأثناء طرد السنونس الملك الذي كان قيصر قد أقامه عليهم . وأخطر من ذلك أن الترفري هبوا ثائرين وهاجموا معسكر لابينوس ، ولكن هذا الضابط القدير هزم الثوار وأعدم زعيمهم .

وقد كان من جراء هاتين الهزيمتين أن كثيرين من الثوار انصرفوا الى حالهم وبدا أن الاضطراب قد هدأ وأن الأزمة قد انتهت . بيد أن قيصر كان يدرك أنه طالما بقي أمبيوريكس حراً طليقاً فإن احتمال تجدد الثورة كان يظل ماثلاً ، إلا أنه لم يكن في وسع قيصر أن يفعل في خلال شتاء عام ٥٤/ ٥٣ ق . م . أكثر من الاستعداد للقيام بعمليات عسكرية واسعة النطاق في الربيع التالي . وتبعاً لذلك استغل قيصر فرصة فصل الشتاء لتقوية جيشه فحشد فرقتين جديدتين واستعار فرقة ثالثة من بومبي — وكانت العلاقات لا تزال ودية بينهما — وبذلك أصبح تحت إمرة قيصر إحدى عشرة فرقة . وكانت هذه هي المرة الأولى التي قضى فيها قيصر الشتاء في بلاد الغال .

وفي ربيع عام ٥٣ ق . م . قام قيصر بمظاهرة عسكرية ضخمة عبر النصف الشمالي لبلاد الغال فسارع القارنوتس والسنونس والنرفيي الى تقديم فروض الولاء والطاعة ، ولأول مرة أخضع قيصر المنابيي في أقصى الشمال . وفي الوقت نفسه أنزل لابينوس بالترفري هزيمة ثانية . وقد كانت نتيجة هذه العمليات العسكرية أن أمبيوريكس والأبورونس أصبحوا في عزلة تامة عن

باقي الغال . غير أن قيصر أرجأ الثأر لسابينوس ورجاله حتّى يقوم بمظاهرة عسكرية أخرى شرقي الراين إرهاباً للسويبي الذين علم بأنهم يحتشدون على الضفة الشرقية ، فعــبر الراين مرة أخرى ولكنه ، مثــل ما حدث في المرة السابقة ، عندما انسحب السويبي الى الداخل ، امتنع قيصر عن المخاطرة بمطاردتهم وعاد أدراجه الى بلاد الغال .

وبعد ذلك زحف قيصر ضد الأبورونس . بيد أنهم لم يبدوا أية مقاومة جدية أو موحدة ، فخرب قيصر أراضيهم تخريباً ليهلك جوعاً من لم يلق حتفه بالسيف ، وبذل قيصر جهداً فائقاً للقبض على أمبيوريكس ولكنه فشل في ذلك لتمكن الزعيم الثائر من الهرب . وبثاً للرعب والفزع في قلوب الغال المتطلعين الى الحرية ، عقد قيصر في أواخر الصيف محكمة لمعاقبة الذين حرضوا على الثورة بين السنونس والقارنوتس . وقضى بجلد أقّو (Acco) وإعدامه . وكان زعيم الفئة المناهضة للرومان بين السنونس . وكذلك قضى قيصر بإباحة دم الزعماء الآخرين الذين أفلحوا في الفرار نجاة من العقاب .

وهكذا عوملت بلاد الغال لأول مرة في صراحة كاملة معاملة ولاية مقهورة خاضعة للسيطرة الرومانية . ولم يكن من شأن مثل هذه المعاملة إرهاب زعماء بلاد الغال الوسطى وإنما دفعهم الى الثورة . فما كاد قيصر ينصرف الى غاليا هذه الناحية من الألب لقضاء شتاء عام ٥٣/ ٥٢ ق . م . حتّى أخذ أولئك الزعماء يدبرون أمر القيام بثورة عارمة .

ب ــ ڤرقينجتوريكس : عام ٥٢ ق م :

ذهبت جهود الغال للتحرر سدى لأنهم لم ينجحوا في توحيد صفوفهم وتنسيق جهودهم والقيام سوياً بثورة عامة . ذلك أن بلاد الغال الوسطى برغم أنها كانت متذمرة من السيطرة الرومانية فإنها لم تقم بدور فعال في الثورة التي أخمدت . وعندما شبت نيران ثورة كبرى في هذه البلاد في عام ٥٢ ق . م . وقف الأكويتاني في الجنوب بمعزل عنها ، ولم يقم البلجيق في الشمال بأي

دور يذكر إلا بعد فوات الفرصة .

وقد شجع أهالي بلاد الغال الوسطى على القيام بثورتهم غياب قيصر في ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ووصول الأنباء عن الاضطرابات والفوضى التي سادت روما عقب مقتل قلوديوس حوالي منتصف يناير عام ٥٢ ق . م . وتصور الغال أن هذه الأوضاع القلقة المضطربة ستستبقي قيصر في إيطاليا . وقد أشعل فتيل الثورة حادث بشع وقع في الجزء الشمالي من بلاد الغال الوسطى . ذلك أن القارنوتس قتلوا التجار الرومان المقيمين بينهم في بلدة قنابوم (Cenabum = أورليان) ، وأن نبأ هذه المذبحة انتشر سريعاً في كل أرجاء بلاد الغال فبادر الأرفرني الى رفع راية العصيان بزعامة ڤرقينجتوريكس (Vercingetorix) — ابن أحد ملوكهم السابقين — وعزلوا حكومتهم الأرستقراطية وأقاموا هذا الزعيم ملكاً عليهم . وقد سارع ڤرقينجتوريكس الى دعوة دول بلاد الغال الوسطى للانضمام الى الثورة وصادفت دعوته قبولاً كبيراً ، فلم يكد ينقضي وقت قصير على دعوته حتى كانت هذه الدول جميعاً — باستثناء الأيدوي المنافسين القدماء للأرفرني الذين استغرقوا بعض الوقت قبل الانضمام الى الثوار — قد هبت ثائرة واختارت ڤرقينجتوريكس قائداً عاماً لهـا .

ولسبب يصعب تبينه لم يبد لابينوس حراكاً في أثناء ذلك برغم كفايته المعهودة ، وبرغم أنه كان معسكراً في بلاد الغال الوسطى على رأس ست فرق أي الجانب الأكبر من القوات الرومانية . ولكي يمنع الثوار قيصر من الوصول الى هذه القوات ، عهدوا الى بعض وحداتهم بالزحف على ناربو — عاصمة الولاية الرومانية فيما وراء الألب — أملاً في أن يضطر قيصر إزاء هذا الهجوم الى البقاء في الجنوب لدفع الخطر عن الولاية الرومانية . غير أن قيصر ما أن وصلته أنباء الثورة وأسرع الى ناربو ودعم تحصيناتها دعماً منيعاً حتى خف الى الشمال — مع بعض القوات التي كان قد حشدها مؤخراً لتعويض ما فقدته فرقه — ليضم الى قواته . وبرغم أن الثلوج كانت لا تزال تغطي جبال السڤن

(Cevennes) فإن قيصر نجح في اجتيازها على رأس القوات القليلة التي كانت معه ودخل إقليم الأرفرني حيث علم بــأن ڤرقينجتوريكس كان معسكراً على بعد حوالي مائة ميل شمالاً ، فشرع قيصر في تخريب الأراضي المكشوفة ، مما أرغم ڤرقينجتوريكس على الانسحاب من موقعه للدفاع عن هذه الأراضي وأتاح لقيصر فرصة المروق سريعاً عبر أراضي الأيدوي وقيادة الفرقتين اللتين كانتا تقضيان الشتاء هناك والانضمام الى الست الفرق الأخرى . وقد كان طبيعياً أن يفتقر قيصر افتقاراً شديداً الى الخيالة لأنه كانت تناصبه العداء عندئذ كثير من الدول الغالية التي كانت تزوده بحاجته الى الخيالة . ولكن قيصر تصرف سريعاً لسد النقص الذي كان يعانيه في هذه الناحية ، وذلك بشراء خدمات خيالة من القلت(الجرمان) النازلين عبر الراين .

وإزاء إيمان ڤرقينجتوريكس بعبث الاشتباك مع الرومان في معارك نظامية عمد الى محاولة إجاعتهم وذلك بمنع وصول المؤنة إليهم وتخريب المزارع ودك القرى والمدن . وبرغم نجاحه في إقناع مواطنيه باتباع هذه السياسة ، فإنهم رفضوا تدمير أفاريقوم (Avaricum = بورج ، Bourges) ، فلم يكن من قيصر إلا أنه حاصر هذه المدينة واستولى عليها برغم صعوبة حصوله على المؤنة وكذلك برغم الجهود التي بذلها ڤرقينجتوريكس لإنقاذ المدينة. ودون أية شفقة أو رحمة أعمل الرومان السيف فيمن وجدوهم داخل هذه المدينة التي لم ينج من أهلها إلا نفر قليل .

وعندما أقبل الربيع أنفذ قيصر مساعده لابينوس شمالاً على رأس أربع فرق ضد السنونس والباريسيين (Parisii) وقاد هو نفسه ست فرق ضد الأرفرني . ولما كان ڤرقينجتوريكس قد اعتصم بمدينة جرجوفيا (Gergovia) ، وكانت هذه المدينة تقع على هضبة مرتفعة بحيث أن الاستيلاء عليها بمهاجمتها هجوماً مباشراً كان أمراً متعذراً ، فإن قيصر حاول إخضاع هذه المدينـــة بمحاصرتها ؛ إلا أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك عندما أدرك استحالة تطويقها تطويقاً كاملاً لأن ڤرقينجتوريكس وضع جانباً من قواته في مراكز منيعة فوق

التلال المحيطة بالمدينة من الجنوب والجنوب الغربي . وحين أخذ قيصر يستعد للانسحاب لاحظ أن الغال أعادوا توزيع قواتهم فشجعه ذلك على القيام ببعض العمليات التي تمكنه من الانسحاب دون أن يفقد هيبته . وتبعاً لذلك قام قيصر ببعض المناورات ليوهم الغال بأنه سيهجم على مواقعهم في الغرب وانقض فجأة على مواقعهم الجنوبية واستولى عليها . ويحدثنا قيصر بأن جنوده ، خلافاً لأوامره ، تابعوا نجاحهم بالزحف على أسوار المدينة وتمكن بعضهم من تسلقها ولكن ڤرقينجتوريكس خف لنجدة الموقع المهدد مما أرغم المهاجمين على الارتداد ولا سيما أن الذعر دب في صفوفهم عندما ظنوا أن وحدات الأيدوي التي أرسلها قيصر لنجدتهم كانت قوات معادية . وقد راح ضحية هذه المغامرة الفاشلة ٧٠٠ مقاتل روماني . ومما يجدر بالملاحظة أن هذه كانت المرة الأولى التي مُني فيها قيصر بالهزيمة على أيدي الغال .

وقد ترتب على هذه الهزيمة أن قيصر اضطر الى رفع الحصار والانسحاب شمالاً ، وأن الأيدوي رأوا أن الأوان قد آن للانضمام الى الثوار ، فاستولوا على مستودعات قيصر عند نوفيودونوم (Noviūdunum) وحاولوا قطع الطريق على قواته المنسحبة بتدمير القناطر المقامة على نهر اللوار . بيد أن قيصر نجح في عبور نهر اللوار وفي الانضمام الى لابينوس وكان قد هزم الثوار في الشمال على الضفة اليسرى لنهر السين تجاه لوتتيا (Lutetia = باريس) عاصمة الباريسيين .

وقد قضى قيصر بضعة أسابيع في إقليم اللينجونس (Lingones — وكانوا هم والرمي ، Remi ، قد بقوا على ولائهم لقيصر) ليريح جنوده وكذلك ليبتاع من القلت (الجرمان) النازلين عبر الراين خدمات وحدات من الخيالة ومن المشاة الخفيفي العدة لتعزيز قواته . وفي هذه الأثناء زاد ڤرقينجتوريكس عدد خيالته فبلغوا ١٥٠٠٠ وحاول نشر الثورة في الولاية الرومانية فيما وراء الألب ولكنه فشل في محاولته . وعندما بدأ قيصر زحفه جنوباً انقض الخيالة الغال فجأة على القوات الرومانية عند مكان قريب من مدينة ديجون الحديثة . ولكن

الخيالة القلت (الجرمان) بددوا شمل المهاجمين، فاضطر ڤرقينجتوريكس الى الانسحاب صوب الشمال الغربي للاعتصام بمدينة ألسيا (Alesia)، وبادر قيصر الى محاصرة هذه المدينة . ولما كان قيصر يدرك أنه لا بد من أن جيشاً آخر من الغال سيفد لنجدة الزعيم المحاصر، فإنه أقام خطين من الخنادق والمتاريس، أحدهما لإحكام الحصار حول المدينة والآخر لحماية القوات الرومانية من جيش النجدة . وقد استغرق الغال بعض الوقت في حشد قوات جديدة، وعندما وصلت هذه القوات كانت المدينة المحاصرة تعاني من نقص المؤنة معاناة شديدة، وأصبح جلياً أنها لا بد من أن تسقط سريعاً إذا لم يقتحم الغال الاستحكامات الرومانية . وتبعاً لذلك قام جيش النجدة من ناحية وڤرقينجتوريكس من ناحية أخرى بسلسلة من الهجمات ولكن دون جدوى، ففت في عضد جيش النجدة وانفرط عقده مما أرغم فرقينجتوريكس على التسليم لينقذ أرواح رجاله . وقد بعث به قيصر الى روما حيث أودع السجن الى ان أعدم بعد ذلك بست سنوات عندما أتيحت لقيصر الفرصة لإقامة مهرجان انتصاره وعرض هذا البطل ضمن الذين عرضوا في هذا المهرجان .

وقد كان سقوط ألسيا ضربة قاصمة لثورة الغال الكبرى، فقد أعقب هذه الهزيمة إستسلام الأيدوي والأرفرني ونجاح الرومان في استعادة سيطرتهم سريعاً على أغلب أرجاء المنطقة التي ثارت عليهم . ومع ذلك فإن بعض دول الغال رفضت قبول مصيرها المحتوم . ولما كان قيصر حريصاً على استكمال إخضاع الغال ودعم السيطرة الرومانية عليهم بأسرع ما يمكن لأن علاقاته مع بومبي كانت في تدهور مطرد، فانه قرر قضاء شتاء عام ٥٢/ ٥١ ق . م . مع قواته في بلاد الغال .

جـ – قوريوس : عام ٥٢–٥١ ق.م :

وقد أحسن قيصر صنعاً ببقائه في بلاد الغال، لأنه ما كاد أن يوزع قواته على معسكرات الشتاء حتى اضطر الى إعادة حشدها لمواجهة موقف جديد

خطير . ذلك أن البلّوفاقي (Bellovaci — وكانوا من أقوى قبائل البلجيق) هبوا ثائرين بزعامة قائد بارع يدعى قورّيوس (Correus) ، ولم تلبث أن انضمت اليهم قبائل أخرى كثيرة من البلجيق . وقد عمد الثوار الى اتباع أساليب حرب العصابات متفادين الاشتباك مع الرومان في معارك نظامية . وقد كان من جراء ذلك أنه بالرغم من أن قيصر حشد ضد الثوار سبع فرق لم يستطع أن يصيب نجاحاً يذكر إلا بعد قتل قورّيوس في كمين نُصب له . وعقب ذلك مباشرة انهارت مقاومة الثوار البلجيق .

وفي هذه الأثناء لم يكن من الغال الذين لم يذعنوا بعد سقوط ألسيا إلا أنهم جددوا نشاطهم في الغرب جنوبي نهر اللوار . وعندما أخضع قيصر البلجيق كان في وسعه استخدام قوات كافية لإخضاع هؤلاء الثوار ولا سيما أنه حشد في خلال عام ٥١ ق . م . فرقة جديدة من أهالي الولاية الرومانية فيما وراء الألب وهي فرقة الآلاوداي (Alaudae) التي اكتسبت شهرة كبيرة فيما بعد . وبذلك بلغ عدد الفرق التي تحت إمرة قيصر اثنتي عشرة فرقة بما في ذلك فرقة بومبي المعارة له . ولم يواف شهر أغسطس عام ٥١ ق . م . — فيما يرجح — حتى كان قيصر قد أخمد آخر جذوة من جذوات الثورة .

المرحلة الأخيرة : تنظيم الفتوحات واسترضاء الغال

قضى قيصر بقية عام ٥١ وصيف عام ٥٠ ق . م . في تنظيم فتوحاته ومحاولة استرضاء الغال لتقبل الحكم الروماني عن طيبة خاطر . وقد أصاب قيصر توفيقاً كبيراً في ذلك باتباع سياسة كانت مزيجاً من الحزم واللين ، فساد السلام في بلاد الغال سنين عديدة .

ويرجع فشل الغال في الاحتفاظ باستقلالهم وفي الفوز بحريتهم من ناحية الى الخلافات الداخلية التي قطعت أوصال كل قبيلة أو دولة ، والمنافسات والأحقاد بين القبائل أو الدول المختلفة ، والعجز عن تنظيم مواردهم

وقواتهم وعن الوقوف صفاً واحداً ضد الرومان ، ومن ناحية أخرى الى عبقرية قيصر التي مكنته من أن يستغل الى أقصى حد ممكن مواطن ضعفهم المدنية والعسكرية . ومن المرجح أنه لو لم يتسم قيصر بمواهب عسكرية وسياسية فائقة ، لما نجح في إخضاع الغال ولا في تهدئة خواطرهم تهدئة كاملة . بيد أنه ينتقص من قدر قيصر أعمال القسوة التي ارتكبها قبل أن يعمد الى استرضاء الغال باللين والتسامح المشربين بالحزم .

وقد كانت لفتح بلاد الغال نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لهذه البلاد ذاتها ولروما ولقيصر . ذلك أن هذا الفتح أنقذ بلاد الغال من الوقوع فريسة للقبائل القلتية (الجرمانية) المتخلفة التي كانت تعيش شرقي الراين ودائبة الإغارة على تلك البلاد وهي التي يرجح أنه لم يكن في وسع أهلها المنقسمين على أنفسهم الصمود طويلاً أمام جحافل أولئك الغزاة المتخلفين . وبإنقاذهم من هذا المصير أتاح هذا الفتح لبلاد الغال أن تنعم بالسلام وبانتشار الحضارة الرومانية في أرجائها . ولاجدال في أن فتوحات قيصر كلفت الغال الكثيرين من الضحايا ، بيد أنه لا جدال كذلك في أنه لو أن القلت هم الذين قاموا بالفتح لكانت النتيجة المحتومة تكبيد الغال من الضحايا ما كان لا يمكن أن يقل عما تكبدوه على يدي قيصر ، وذلك فضلاً عن تقهقرهم الحضاري تقهقراً محسوساً .

ونجاح قيصر في فتح بلاد الغال أضاف الى الإمبراطورية الرومانية منطقة كبيرة خصبة زادت في مواردها وقوتها زيادة كبيرة ، وإن كان الدفاع عن حدود الراين فرض عليها أعباء ضخمة .

وقد غنم قيصر من وراء هذا الفتح مغانم طائلة كان لها أثر كبير في صراعه مع بومبي والسناتو . ذلك أن هذا الفتح أكسب قيصر شهرة نافست شهرة بومبي ، وأتاح له أن يكون تحت إمرته جيش كبير مدرب تدريباً ممتازاً ويدين له بالولاء الشديد ، ودر عليه قدراً كبيراً من الأسلاب والغنائم مما يسر له شراء أنصار كثيرين .

وإزاء استقرار الأوضاع في بلاد الغال عاد قيصر في صيف عام ٥٠ ق . م الى ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ليرقب سير الأحداث في روما عن كثب . وقد عرفنا كيف أن قيصر استجاب على الفور الى طلب السناتو وأرسل فرقتين الى إيطاليا لمواجهة احتمال قيام البارثيين بغزو سوريا . وهكذا فإنه قبيل بداية الحرب الأهلية كانت لدى قيصر عشر فرق[١٦] : أربع منها بقيادة تربونيوس في بلاد البلجيق ، وأربع أخرى بقيادة فابيوس في بلاد الأيدوي ، والفرقة الثالثة عشرة في ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ، وذلك فضلاً عن فرقة الآلاوداي . وإزاء التطورات التي حدثت في روما في أواخر شهر ديسمبر عام ٥٠ ق . م . أمر قيصر الفرقة الثالثة عشرة بالانتقال الى رافنا واستدعى من بلاد الغال الفرقتين الثامنة والثانية عشرة بحجة أن ما أقدم عليه بومبي من تولي قيادة الفرقتين الموجودتين في قابوا وحشد قوات جديدة كان يهدد الأمن والنظام (tumultus) على نحو يستوجب اتخاذ التدابير اللازمة لتأمين سلامة الدولة . وفي مساء ١١ من يناير عام ٤٩ أو بعبارة أصح مساء ٢٤ من نوفمبر عام ٥٠ وفقاً للتقويم الروماني بعد تصحيحه . أمر قيصر الفرقة الثالثة عشرة بعبور نهر روبيقون .

---

(16) C.A.H., IX, n. 5 p. 898, cf. p. 572.

الفصل الثاني عشر

الحرب الأهلية [1]

اولاً — إستيلاء قيصر على إيطاليا

مر بنا أنه عندما احتدم الخلاف بين قيصر والسناتو ، أمر قيصر الفرقة الثالثة عشر بالانتقال الى رافنا كما أمر الفرقتين الثامنة والثانية عشرة — الموجودتين في بلاد الغال — باللحاق به سريعاً ، وأنه في مساء ٢٤ من نوفمبر عام ٥٠ (وفقاً للتقويم المصحح) عبر قيصر نهر روبيقون على رأس الفرقة الثالثة عشرة . وهكذا فإنه عندما احتل أريمنوم في ٢٥ من نوفمبر لم تكن لديه إلا فرقة واحدة كما أنه لم يكن لديه أي أمل في وصول إمدادات اليه من قواته الموجودة

---

(١) المصادر الرئيسية :

Corpus Caesarianum: De Bello Civili; Bellum Alexandrinum; Bellum Africum; Bellum Hispaniense.
App., B.C., II, 34-117; Dio Cass., XLI-XLIII; Lucan., Bellum Civile (Pharsalia); Cic., ad Att., VII, 10; 11, 3-4; 12, 4; VIII, 11 A-D; 16; 17, 2; IX, 7; 7B-C; 9, 2-3; 11; 13A; 15-19; X, 4, 8; XI, 10, 2; 20, 2; ad Fam., VIII, 16, 1; 17, 2; XVI, 12, 3; et passim.

المراجع الرئيسية :

T. Rice Holmes, Roman Republic, III; C.A.H., Ch. XVI, with Bibl.; Marsh, Roman World, from 146-30 B.C., ch. XIV; Scullard, 1970, pp. 138-47, and notes 8-15 pp. 428-30.

فيما وراء الألب قبل أسبوعين على الأقل. وقد كان إقدام قيصر على غزو إيطاليا بفرقة واحدة ينطوي على مخاطرة كبيرة، لعل أنها كانت مما بعث لابينوس(٢) على المبادرة الى هجر جانب قيصر والانضمام الى خصومه. بيد أن قيصر أحسن تقدير الموقف، فقد قرر أنه إذا فشل في غزوته الخاطفة، فإنه كان في وسعه الارتداد الى ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ثم قيادة فرقه جميعاً والقيام بغزوة أخرى. وأما إذا هو أرجأ زحفه، فإنه كان يتيح لخصومه فرصة الاستعداد لصده باستقدام قوات من إسبانيا، وذلك فضلاً عن القوات التي كان جارياً حشدها في إيطاليا. ومن الجلي أن بومبي والقنصلين ارتكبوا خطأ جسيماً بتعجلهم إصدار قرار السناتو النهائي — وهو الذي كان بمثابة إعلان الحرب — ظناً منهم أن قوات قيصر لن تتبعه في خوض غمار حرب ضد الحكومة وبومبي، وذلك استناداً على المعلومات الخاطئة التي أفضت بها الفرقتان اللتان أعادهما قيصر مؤخراً الى إيطاليا. وإذا كان بومبي قد أعلن أن لديه عشر فرق مستعدة للقتال(٣)، فإن مجرى الأحداث التالية يوحي بأنه ربما كان يقصد إمكان إعداد مثل هذا العدد من الفرق بضم جانب من جيشه الموجود في إسبانيا الى الفرقتين اللتين أعادهما قيصر مؤخراً الى القوات التي شرعت الحكومة في حشدها.

وإزاء خطورة الموقف الناجم عن الخطوة السريعة التي اتخذها قيصر(٤) انسحب بومبي والقنصلان وأغلب الحكام والسناتو من روما الى قابوا، ولجأ بومبي الى حيلة المفاوضات كسباً للوقت، فبعث الى قيصر برسالة شخصية يستحثه فيها على وضع الصالح العام فوق الصوالح الشخصية راجياً عدم إساءة

---

(٢) عن ولاء لابينوس، أنظر:

R. Syme, J.R.S., 1938, pp. 113 ff.

وعن أنصار كل من قيصر وبومبي وعن الذين التزموا الحياد، أنظر:

D.R. Shackleton Bailey, Class Quar., 1960, pp. 253 ff.

(3) Caes., B.C., I, 6, 1 (ed. Guillaume Budé, 1969).

(4) Cic., ad Att., VII, 10; 11, 3-4; 12, 4; Lucan., Pharsal., I, 465-522.

الظن به للموقف الذي اتخذه دفاعاً عن الدولة(٥). وقد رد قيصر على هذه الرسالة بأن عرض تسريح جيشه إذا حذا بومبي حذوه ، وبأنه إذا أوقف بومبي حشد القوات في إيطاليا وذهب الى إسبانيا فإنه سيكون على أتم الاستعداد لتسليم ولايتيه وترشيح نفسه حضورياً لقنصلية عام ٤٨ متنازلاً عن الحق الذي خوله إياه قانون الترابنة العشرة ، بشرط إبرام هذا الاتفاق في لقاء يتم بينهما ، وبذلك تنعم إيطاليا بالسلام وتمارس أجهزة الدولة نشاطها بالطريقة الدستورية في مأمن من القسر بالقوات المسلحة(٦) .

ولا شك في أن هدف بومبي من محاولة التفاهم في هذه المرحلة المتأخرة لم يغب عن قيصر ، ومع ذلك فإنه لم يرفض التفاهم ولكن دون أن يهدر الوقت الذي تستغرقه المفاوضات . ذلك أنه إذا كان رد قيصر يوحي ضمناً باستمراره في متابعة تنفيذ خطته الى أن يتم الاتفاق على مقترحاته ، فإن ما سيأتي ذكره يوحي بذلك صراحة . ولعل أن قيصر قد قدر أنه اذا قبل بومبي مقترحاته فإنهما لن يعجزا عن اتخاذ ما يلزم من تدابير تكفل سلامة قيصر الى أن يتم انتخابه قنصلاً . بيد أنه كان معنى ذلك تضحية بومبي بمكانته الشخصية من أجل السلام وإعادة تكوين الحلف وإنما مع الاعتراف بأن قيصر صاحب الكلمة العليا في الحلف وفي الدولة بأسرها .

وعندما وصل رد قيصر عرضه بومبي على القنصلين اللذين قاما بدورهما بعرضه على السناتو . وبعد التشاور في الأمر أُرسل الى قيصر رد فحواه الوعد بذهاب بومبي الى إسبانيا إذا أخلى قيصر أريمينوم وانسحب الى بلاد الغال ،

---

(5) Caes., B.C., I, 8; 10; 14; Introd., Guillaume Budé, p. XXVII.

في رأي بعض الباحثين أن المبعوثين اللذين حملا الى قيصر رسالة بومبي كانا مكلفين من السناتو بأبلاغ قيصر قرار المجلس بضرورة النزول عن ولايتيه وإلا اعتبر عدواً للدولة . انظر :

T. Rice Holmes, III, pp. 3-4, 358-61, 375, 377; C.A.H., IX, p. 639.

وعن مناقشة هذه المسألة ، أنظر :

Marsh, op. cit., pp. 400-2; K. von Fritz Trans. Amer. Philol. Ass., 1941, pp. 125 ff.

(6) Caes., B C , I, 9, 5-6; Cic., ad Fam., XVI, 12, 3.

على أن يكون مفهوماً أن حشد القوات سيستمر الى أن يعد قيصر باحترام ما عرضه[7] ، أي تسريح جيشه وتسليم ولايتيه والحضور شخصياً لترشيح نفسه للقنصلية . ولما كان بومبي لم يعرض الذهاب للقاء قيصر ، ولم يحدد موعداً لذهابه الى إسبانيا ، ولم يبد أي استعداد لتسريح قواته إلا بعد أن يفعل ذلك قيصر وينزل عن ولايتيه ، فإن قيصر اعتبر الرد الذي وصل اليه شديد الإجحاف به[8] . وحقيقة الأمر أن كلاً من الطرفين كان لا يثق في الآخر ، وتبعاً لذلك لم يكن هناك سبيل الى فض الأزمة سلمياً .

وحين كان السناتو يتشاور في الرد على مقترحات قيصر ، استولى قيصر على الطرف الشمالي لكل من طريقي قاسيوس وفلامينيوس المؤديين الى روما ، وبذلك لم يؤمن نفسه فحسب ضد أي هجوم مفاجيء عليه بل هدد روما بالزحف عليها . وعندما وصل قيصر الرد غير المرضي وعلم بأن الفرقة الثانية عشرة اقتربت منه ، تابع زحفه عبر بيقنوم حيث فتحت له المدن أبوابها وانضمت اليه القوات التي كان أحد ضباط بومبي يجد في حشدها هناك ، ولكن ضابطاً آخر استطاع حشد ١٣ فصيلة وانسحب بها الى قورفينيوم (Corfinium) ، حيث وضع بومبي فرقتين بقيادة لوقيوس دوميتيوس أهنوباربوس ، وهو الذي كان السناتو قد عينه مؤخراً حاكماً لولاية غاليا فيما وراء الألب .

ولما كان قد أصبح لدى قيصر فرقتان من فرقه المدربة تدريباً ممتازاً فضلاً عن الحشود التي انضمت اليه وتولى ضباطه أمر تنظيمها وتجهيزها ، فإن بومبي رأى من الحكمة إرجاء الاشتباك مع قيصر الى ان يتم حشد قوات كافية ، ولذلك فإنه قرر الانسحاب الى لوقريا (Luceria) في مقاطعة أبوليا ليتخذ منها قاعدة لتجميع قواته ، وطلب الى أهنوباربوس إخلاء

---

(7) Cic., ad Fam., XVI, 12 3; Caes., B.C., I, 10, 3-4.
(8) Caes., B.C, I, 11.

قورفينيوم والتعجيل بالانسحاب جنوباً مع قواته[9] . بيد أن أهنوباربوس بوصف كونه حاكماً لولاية غاليا فيما وراء الألب لم يكن رسمياً مرؤساً لبومبي ، وأسوأ من ذلك أنه تصور نفسه قائداً جديراً بمواجهة قيصر فأصر على اعتراض تقدم قيصر عند قورفينيوم ولكنه فشل في مغالبة قيصر ووقع هو والمدينة في قبضته في ٢ من يناير عام ٤٩ ق.م. بعد حصار قصير ، وانضمت قوات الحكومة الى قوات قيصر الذي عفا عن أهنوباربوس وغيره ممن كانوا معه من كبار خصومه وأخلى سبيلهم[10].

وقد كان من جراء انضمام قوات الحكومة الى قيصر بعد سقوط قورفينيوم أن ميزان القوى أصبح في صالح قيصر بشكل ملحوظ ، فقرر بومبي الانسحاب من إيطاليا . وتبعاً لذلك انتقل الى بروندیسیوم ليرتب نقل قواته الى بلاد الإغريق . وقد سارع الى مرافقته القنصلان وأكثر أعضاء السناتو . وبرغم الجهود العاجلة التي بذلها قيصر للحيلولة دون ذلك ، فإن بومبي نجح في تنفيذ خطته وأبحر من بروندیسیوم الى دورّاخيوم في ٢٦ من يناير عام ٤٩ ق.م. وهكذا أصبح قيصر سيد إيطاليا في خلال حوالي شهرين منذ بداية حملته الخاطفة . ومما يجدر بالذكر أنه بعد سقوط قورفينيوم وقبل إبحار بومبي بذل قيصر محاولتين للتفاهم معه ولكن دون جدوى[11] .

وبفرار بومبي ضاع آخر أمل في التوصل سريعاً الى السلام . وهكذا اذا كان قيصر هو الذي بدأ الحرب ، فإن خصومه هم الذين آثروا الاستمرار فيها . وقد كان قيصر من البراعة بحيث أنه أظهر في خلال حملته الخاطفة من التسامح والكرم في معاملة خصومه المنهزمين ما لم يكن معروفاً من قبل في أية حرب أهلية مما أكسبه تأييد المجتمعات الإيطالية . وكذلك حرص

(9) Cic., ad Att., VIII, 11 A-D; cf. D.R. Shackleton Bailey, J.R.S., 1956, pp. 57 ff.
(10) A. Barnes, Historia, 1966, pp. 74 ff.
(11) Caes , B.C., I, 24, 5; 26; 2-5; Cic., ad Att , IX, 13 A; Scullard, 1970, p. 139, and n. 10 p. 429.

قيصر في أثناء حملته على أن يتابع التراسل مع شيشرون والنبلاء مؤكداً استعداده لعقد تسوية سلمية[١٢] .

وفي أوائل فبراير وصل قيصر الى مشارف روما ، بيد أنه قبل ذلك ، وعلى وجه التحديد في ٢٠ من يناير ، كان البرايتور لوقيوس روسقيوس قد استصدر بإيحاء منه قانوناً قضى بمنح حقوق المواطنة كاملة لأهالي غاليا عبر البو[١٣] (Gallia Transpadana).

ولما كان أكثر أعضاء السناتو قد هجروا روما مع القنصلين وأغلب الحكام ، فإن قيصر حاول عقد اجتماع للسناتو بالإعلان في كل المدن عن جلسة دعا تريبونا العامة أنطونيوس ولونجينوس الى انعقادها في ١٠ من فبراير عام ٤٩ ق.م. ومما يجدر بالملاحظة أن قيصر كان شديد الرغبة في وجود شيشرون في روما ، ذلك أنه في أثناء ذهاب قيصر من بروندیسیوم الى العاصمة كتب إلى شيشرون (وكان في فورمياي ـ Formiae) رسالة عاجلة يستحثه فيها على الحضور الى روما[١٤] . ويبدو أنه إزاء تباطوء شيشرون ، كتب اليه قيصر ثانية ثم ذهب لمقابلته وإقناعه بالحضور[١٥] ولكنه فشل في ذلك[١٦] مثل ما فشل بعد ذلك في إقناع أعضاء السناتو الذين حضروا هذه الجلسة بتجديد مفاوضات الصلح مع بومبي[١٧] . وإذا كان قيصر عند عودته الى روما لم يحذ حذو ماريوس وصلا بإعدام خصومه السياسيين ومصادرة أملاكهم ـ فإنه وهو الذي نصب نفسه مدافعاً عن حقوق ترابنة العامة تجاهل اعتراض تريبون العامة لوقيوس متلّوس على مد يده الى الخزانة العامة بل هدد متلّوس بالموت اذا أصر على الاستمرار في اعتراضه ثم أمر بتحطيم

---

(12) Cic., ad Att., IX, 7 B-C; 11; 13 A.

(13) Bruna, Fontes, 7th ed., 16 and 17; E.G. Hardy, Problems of Roman History, pp. 207 ff ; C.A.H., IX, pp 643-4; Scullard, 1970, p. 139, and n 10 p. 429

(14) Cic., ad Att., IX, 19; X, 3 A.

(15) Cic., ad Att., IX, 7; 15-18.

(16) Cic., ad Att., IX, 19.

(17) Dio Cass., XLI, 15, Plut., Caes., XXXV, 2; cf. Plut., Cic., XXXVII

أبواب الخزانة العامة والاستيلاء على كمية كبيرة من السبائك الذهبية والفضية لمواجهة نفقات الحرب [18] ، مما أثار الشكوك في سياسة اللين والاعتدال التي اتبعها [19].

وقد قضى قيصر حوالي الأسبوعين بجوار روما دون أن يدخل العاصمة ذاتها ، مراعياً في ذلك القاعدة التي كانت تقضي بحرمان البروقنصل سلطته البروقنصلية بمجرد دخوله روما . ويجدر التنويه هنا بأنه في خلال الأزمة عقد السناتو بعض جلساته خارج سياج روما المقدس ليتمكن بومبي من حضور هذه الجلسات ، لأنه بوصف كونه بروقنصلاً كان لا يستطيع اجتياز ذلك السياج دون ان يفقد سلطته البروقنصلية . ولما كان على قيصر ترتيب أموره قبل الخروج للقيام بحملته فإنه اتخذ سلسلة من الإجراءات الهامة ، وهي : أولاً — أقام نظاماً موقتاً لحكم روما بإحياء وظيفة قديمة بطل شغلها وهي وظيفة حاكم المدينة (praefectus urbi) وإسناد هذه الوظيفة الى البرايتور ماروقوس آيميليوس لبيدوس . وثانياً — عهد الى تريبون العامة ماركوس أنطونيوس بالإشراف العام على الحالة في إيطاليا ، حيث كان يجري تدريب القوات الضخمة التي حُشدت . وثالثاً — أرسل جايوس أنطونيوس ، شقيق تريبون العامة ماركوس ، إلى إلّوريقوم لضمان ولائها وحماية حدود إيطاليا الشمالية الشرقية . ورابعاً — أنفذ ماركوس قراسوس الى ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ليخلف لابينوس هناك . وخامساً — قرر إنشاء أسطول للبحر الأدرياتي وأسطول للبحر التيراني وعين هورتنسيوس ودولابلاً قائدين لهذين الأسطولين [20] . وسادساً — أوفد مساعده كوينتوس فالريوس على رأس فرقة واحدة الى سردينيا للاستيلاء عليها من حاكمها ماركوس قوتا ،

---

(18) App., B.C., II, 41; Dio Cass, XLI, 17; Plut, Caes., XXXV, 3-4; Pomp., LXII, 1; Plin., N.H., XXXIII, 56; Oros., VI, 15, 5.

(19) Cic., ad Att., X, 4, 8; Cael., in Cic., ad Fam.. VIII, 16, 1; Dio Cass., XLI, 16.

(20) App, B.C., II, 41.

وأنفذ البروبرايتور قوريو على رأس أربع فرق الى صقلية لانتزاعها من حاكمها ماركوس بورقيوس قاتو ثم التوجه فوراً الى ولاية أفريقيا (٢١) .

ثانياً — سردينيا وصقلية

وقد استولى فالريوس وقوريو على سردينيا وصقلية دون عناء . ذلك أنه ما أن علم أهالي سردينيا أن قيصر قرر إرسال فالريوس الى جزيرتهم حتى هبوا في وجه قوتّا ففر الى ولاية أفريقيا قبل أن يصل فالريوس الى سردينيا . وأما عن صقلية فإنه منذ أن عهد بومبي الى قاتو تنظيم الدفاع عنها نشط قاتو في الاضطلاع بمهمته نشاطاً كبيراً ، ولكنه عندما علم بانسحاب بومبي من إيطاليا وباقتراب قوريو وقواته من صقلية بادر الى الانسحاب منها (٢٢) بعد أن أعلن على الملأ أن بومبي خدعه هو وأعضاء السناتو بالتأكيد لهم أنه اتخذ كافة الاستعدادات للحرب وأن بومبي خاض غمار حرب لا ضرورة لها دون أن يُعد شيئاً على الإطلاق(٢٣) . وبعد أن انتابت شيشرون حيرة طويلة ، غادر إيطاليا في شهر يونيه وانضم الى بومبي ، برغم أن خطابات شيشرون توحي بأنه كان غير مرتاح الى الطريقة التي كان بومبي يتبعها في توجيه دفة الحرب(٢٤) .

ثالثاً — ماسيليا وإسبانيا

وقد كان من شأن الإجراءات العاجلة التي اتخذها قيصر تأمين إيطاليا

---

(٢١) يقول قيصر (B. C., I, 30) إنه أسند الى فوريو ثلاث فرق للاستيلاء على صقلية ثم التوجه الى أفريقيا ، ولكن قيصر يعود بعد ذلك فيقول (B. C., II, 23) إنه من بين الأربع فرق التي أسندها الى قوريو لم ينقل قوريو أول الأمر الى أفريقيا إلا اثنتين فقط .

(٢٢) يفهم من أحد خطابات شيشرون أن قاتو انسحب من صقلية في ٢٣ أبريل = ٣ مارس (Cic., ad Att., X, 16, 3) .

(23) Caes., B.C., I, 30.

(24) Cic., ad Att, VIII, 7, 2; 11 B, D; Plut, Cic., XXXVIII, 1.

من هجوم خصومه عليها . وكذلك ضمان عدم افتقار روما الى المؤنة . ولما لم يكن ضباط قيصر قد أتموا تدريب القوات الجديدة التي حشدت في إيطاليا ، وكان قيصر لا يزال مفتقراً الى أسطول يمكنه من عبور البحر . فإنه قرر إرجاء الاشتباك مع بومبي . ومن أجل حرمان بومبي الحصول على مساعدة قواته الموجودة في إسبانيا ، بادر قيصر الى غزوها براً . فبارح مشارف روما حوالي منتصف فبراير عام ٤٩ ق.م. قاصداً غاليا فيما وراء الألب . ولكي يحصل قيصر على نصر سهل سريع ، اعتمد على ست فرق من بلاد الغال وثلاث فرق أخذها معه من إيطاليا ، فضلاً عن ٩٠٠ من الخيالة . وفي الطريق الى اسبانيا ، وجد قيصر أن ماسيليا انحازت الى خصومه ، ولم يفلح في إقناعها بالعدول عن موقفها . وسرعان ما قدم دوميتيوس أهنوباربوس على رأس أسطول صغير لشد أزر ماسيليا . ولما كان عامل الوقت بالغ الأهمية ، فإن قيصر قرر حصارها بالفرق الثلاث التي أحضرها معه من إيطاليا وبإثنتي عشرة سفينة أمر بإنشائها في آرلاتي (Arelate = آرل ، Arles) على أن يتولى تربونيوس قيادة الفرق ودقيموس بروتس قيادة الأسطول [٢٥] . وبعد ذلك سارع قيصر صوب إسبانيا لملاقاة مساعده فابيوس ، الذي قام بتنفيذ تعليمات قيصر بأن قاد من بلاد الغال عبر ممرات البرانس ست فرق من المشاة الكاملي العدة و ٦٠٠٠ من المشاة الخفيفي العدة و ٦٠٠٠ من الخيالة الغال والقلت (الجرمان) ووقف عند إيلردا (Ilerda) ينتظر وصول قيصر [٢٦] .

وقد كانت لبومبي في إسبانيا سبع فرق رومانية وقوات كبيرة احتياطية من الإسبان . وكانت ثلاث من الفرق الرومانية في ولاية إسبانيا الدانية بقيادة أفرانيوس (وكان قائداً بارعاً محنكاً حارب ضد سرتوريوس كما حارب في الشرق مع بومبي) وفرقتان في القسم الشرقي من ولاية إسبانيا القاصية بقيادة

(25) Caes., B.C., I, 33-36.
(26) Caes., B C., I, 37-41.

بترّيوس (Petreius ، وكان محارباً عنيداً سحق قوات قاتيلينا سحقاً) وفرقتان في القسم الغربي من هذه الولاية بقيادة ماركوس ترنتيوس ڤارّو [٢٧] (وكان عالماً أكثر منه محارباً) .

وفي مطلع عام ٤٩ ق.م. كان رأي خصوم قيصر قد استقر على أن يبقى ڤارّو في ولاية إسبانيا القاصية — لإعداد إمدادات فيما يبدو — وعلى أن يضم أفرانيوس وبترّيوس ما كان تحت إمرة كل منهما من فرق رومانية وقوات مساعدة لتتوفر بذلك لديهما قوات كافية تمكنهما من تنفيذ الخطة التي أوصى بها بومبي ، وهي الصمود أمام قيصر في خلال موسم القتال في عام ٤٩ وتجنب الاشتباك معه في أية معركة إلا اذا كان الموقف في صالحهما . وكانت خطة قيصر هي محاولة تصفية القوات المعادية له في إسبانيا دون تعريض فرقه الى خسائر محتومة اذا خاض معركة على أرض لا توفر له ميزة واضحة على العدو . وتبعاً لذلك حرص قيصر على كبح جماح فرقه — وهي التي بثت فيها الانتصارات طوال سنين عديدة ثقة كبيرة — ليستطيع تفادي الخسائر في التغلب على القوات المعادية . وكانت تتسم بالأناة والمصابرة فضلاً عن خبرتها الطويلة في الحروب . بيد أن قوات قيصر كانت تمتاز على تلك القوات المعادية من حيث افتقار هذه القوات الى ما كان لدى قوات قيصر من خيالة الغال والقلت البارعين . حقاً إن قيصر لم يكن قائد فرسان من طراز الإسكندر الأكبر ، إلا أنه صمم على الإفادة من خيالته بالقيام بمناورات ترغم العدو على منازلته في أفضل مكان يناسبه .

وعندما انضم قيصر الى فابيوس في أول مايو عام ٤٩ ق.م. كان فابيوس معسكراً بقواته شمالي إيلردا الواقعة على الضفة الغربية لنهر سيقوريس (Sicoris) . حيث وضع أفرانيوس وبترّيوس قواتهما . وكانت إيلردا مدينة منيعة تقع على تل وبها حامية قوية ، وكانت قوات الدفاع الرئيسية معسكرة على تل مرتفع (تل جاردني ، Gardeny) يقع على بعد نصف

(27) Caes. B. C., I, 38.

ميل تقريباً الى الجنوب الغربي من المدينة . وكان النهر يحمي خطوط مواصلات هذه القوات ويضمن وصول المؤنة اليها . وتنفيذاً لخطة كل من الفريقين ، رفضت القوات المعادية لقيصر ترك موقعها الحصين المرتفع لمنازلته في المنطقة الواطئة حيث كان يمكنه الإفادة من خيالته الى أقصى حد ، وبالمثل امتنع قيصر عن مهاجمة موقع العدو الحصين لأن إقدام قيصر على ذلك كان يحرمه الإفادة من خيالته . وبعد فشل قيصر في الاستيلاء على نشز من الأرض يقع بين إيلردا وتل جاردني ، وانقطاع الإمدادات عنه فترة قصيرة بسبب فيضان نهر سيقوريس ، انتهز قيصر فرصة هبوط مستوى مياه هذا النهر ونجح في تحويل جانب من مجراه فيما وراء إيلردا بحيث استطاعت قواته اجتياز النهر خوضاً وقطع خطوط مواصلات العدو ومؤنته مما اضطره الى الانسحاب جنوباً في مساء ٢ من يونيه . غير أنه لم يكد ينقضي حوالي أسبوع على ذلك حتى كان قيصر قد قطع خط الرجعة على القوات المنسحبة ومنع عنها الماء والزاد فاضطرت الى التسليم في ١٠ من يونيه . وقد أظهر قيصر تسامحاً كبيراً في معاملة خصومه بالعفو عن أفرانيوس وبتريوس وبتسريح قواتهما [٢٨] .

وبعد ذلك تابع قيصر زحفه جنوباً حيث اضطر ڤارو بدوره الى التسليم عند قرطبة في ١٤ من يوليه ، ثم اتجه قيصر الى قادس فبلغها في ٢٤ من يوليه وأظهر عطفاً كبيراً على أهليها . وبعد أن أقام كوينتوس قاسيوس لونجينوس حاكماً على ولاية إسبانيا القاصية ووضع أربع فرق تحت إمرته سارع الى ماسيليا [٢٩] . وهكذا استطاع قيصر بفضل براعته الفائقة أن يسيطر على إسبانيا في حوالي ثلاثة أشهر .

وفي هذه الأثناء كان تربونيوس ودقيموس بروتس قد ضيقا الخناق على ماسيليا ولم يبق إلا اقتحامها عنوة . وعندما علم قيصر بذلك وأدرك ما كان

---

(28) Caes., B.C., I, 41-87.
(29) Caes., B.C., II, 17-21.

سيتبع ذلك حتماً من وقوع مذبحة مروعة يفنى فيها كثيرون من أهالي المدينة ، أمر بعدم اقتحامها . وتبعاً لهذا الأمر عقد تربونيوس هدنة مع ماسيليا الى حين وصول قيصر . بيد أنه عندما استغل أهالي المدينة هذه الهدنة وقاموا بهجوم مفاجىء على قوات الحصار ونجحوا في تدمير جانب من معدات الحصار ، لم يعد هناك مناص من اقتحام المدينة ، فسارع مهندسو قيصر الى بناء مصطبة كبيرة تصل الى أسوار المدينة . ولكنه قبل الانقضاض على المدينة بادرت الى التسليم . ولم يتردد تربونيوس في قبول ذلك ولا سيما أن المدينة سلمت أسلحتها ومعدات القتال وسفنها وكنوزها . وإزاء ذلك وإزاء ماضي المدينة فإنه عندما وصل اليها قيصر في ٣٠ من أغسطس ، بعد تسليمها بأيام قليلة ، سمح للمدينة بالاحتفاظ باستقلالها الذاتي ولكنه حرمها توابعها وأغلب أراضي إقليمها ووضع فيها حامية تتألف من فرقتين وأرسل باقي قواته الى إيطاليا لتنتظره في بلاقنتيا . وبعد أن وضع أمور ماسيليا في نصابها يمم وجهه صوب روما (٣٠) .

رابعاً — قوريو في أفريقيا (٣١)

وحوالي منتصف يونيه عام ٤٩ ق.م. أبحر قوريو من صقلية قاصداً ولاية أفريقيا لانتزاعها من بوبليوس أتيوس فاروس (Attius Vārus) ، حاكم هذه الولاية المناصر لبومبي . وإزاء استخفاف قوريو بفاروس لم يأخذ معه من فرقه الأربع وكل خيالته إلا فرقتين اثنتين و ٥٠٠ خيال ، ولم يرسل في استحضار باقي قواته الا بعد فوات الأوان . وأما فاروس فإنه أعد عدته للقاء عدوه وكانت لديه ثلاث فرق ، فضلاً عن الحصول على مساعدة يوبا (Iubā) الأول ملك نوميديا ، وكان لديه قائد بارع يدعى سابورّا (Saburrā) . ومرد هذا الوعد بالمساعدة الى ان والد يوبا كان يدين لبومبي

(30) Caes., B.C., I, 36; 56-58; II, 1-16; 22; Dio Cass., XLI, 19, 25.
(31) Caes., B.C., II, 23-44; Dio Cass., XLI, 41-48; App., B.C., II, 44-46.

بحصوله على مملكته ، والى أنه هو شخصياً كان يحمل ضغناً لقيصر وقوريو . لأن الأول حمى من بطشه أحد رعاياه الخارجين عليه . ولأن الثاني عندما كان تريبوناً للعامة اعتزم استصدار قانون بتحويل نوميديا الى ولاية رومانية .

واذا كان قوريو قد أظهر قدراً كبيراً من البراعة السياسية في خدمة صوالح قيصر ، فإنه كان يفتقر الى مثل هذه البراعة في المجال العسكري حيث لم تكن له أية خبرة . وفي أعقاب وصول قوريو الى أفريقيا ، أحرز بعض الانتصارات الأولية التي بثت فيه ثقة كبيرة بنفسه . غير أنه عندما هب يوبا لمساعدة فاروس، نجح سابورا في استدراج قوريو الى كمين نُصب له في وادي باجراداس (Bagradas) ، حيث حارب قوريو بشجاعة وبسالة الى أن خر صريعاً مع أكثر رجال قواته في ٢٨ من يونيه عام ٤٩ ق.م. وتبعاً لذلك حُرم قيصر ولاية أفريقيا وقمحها لمدة عامين ونصف عام ، وأصبحت هذه الولاية معقد آمال خصومه لمتابعة الصراع معه بعد هزيمة بومبي في فارسالوس وفراره ثم مقتله على نحو ما سيأتي ذكره .

خامساً — دكتاتورية قيصر الأولى وقنصليته الثانية

لم تكد الفرق التي عادت من إسبانيا تصل الى بلاقنتيا حتى أخذت الفرقة التاسعة تشعل نار الفتنة بين الفرق الأخرى بحجة أن القتال أنهك قواها وأنها لم تحصل على الأجر السخي الذي وعدت به من قبل ، ولكن السبب الحقيقي كان منعها من أعمال السلب والنهب . وإزاء إدراكها شدة حاجة قيصر اليها أرادت انتهاز الفرصة لإرغامه على إطلاق أيديها في إشباع نهمها . وعندما علم قيصر — وهو في طريق عودته — بما حدث خف إلى بلاقنتيا وعالج الموقف بحزم أعاد الى قواته رشدها ، ذلك أنه استعرض الفرق كلها وأعلن عن عزمه على إعدام رجال الفرقة التاسعة جميعاً . ولكنه إزاء توسلات ضباطه اكتفى بإعدام الذين تزعموا الفتنة وكانوا اثني عشر جندياً . وعفا عن

الباقين (٣٢) . وبعد ذلك انتقلت الفرق الى برونديسيوم للقيام بالحملة التالية ، وهي التي في خلالها تفانى رجال قيصر في إظهار ولأئهم له ، وذلك برغم كل ما صادفوه من أخطار ومتاعب .

ولما كان هدف قيصر الذي من أجله امتشق الحسام هو الحصول على القنصلية ، فإنه عهد الى البرايتور لبيدوس – وهو الذي كان قيصر قد أسند إليه حكم مدينة روما مؤقتاً – بمحاولة الحصول على موافقة السناتو بالإذن له بإجراء الانتخابات لوظيفة القنصلية لعام ٤٨ ق.م. بيد أن مثل هذا الإجراء كان مخالفاً للعرف والتقاليد لأنه كان لا يجوز لحاكم إجراء انتخاب لشغل منصب حاكم أعلى منه مرتبة (٣٣) ، وتبعاً لذلك فشل لبيدوس في مسعاه . وإزاء حرص قيصر على احترام الشكليات ورغبته في ألا يفوز بالقنصلية عنوةً ، استصدر لبيدوس في أثناء وجود قيصر في ماسيليا قانوناً بإقامته دكتاتوراً (٣٤) . ويبدو أن الهدف من ذلك لم يكن منح قيصر سلطات واسعة مثل التي حصل عليها صلا حين أقيم دكتاتوراً وإنما تخويل قيصر حق إجراء الانتخابات وإقامة الحفل اللاتيني على غرار ما حدث مراراً في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد حين كان يعين دكتاتور للاضطلاع بمثل هذه المهام غير العسكرية . ولا أدل على ذلك من أن قيصر لم يشغل منصب الدكتاتور إلا أحد عشر يوماً فقط ثم بادر بالتحلي عن هذا المنصب(٣٥) . وفي خلال هذه الفترة القصيرة التي قضاها قيصر في روما أقام الحفل اللاتيني وأجرى الانتخابات لكل الوظائف العامة وعين الحكام للولايات الرومانية الموالية له . وقد انتخب لقنصلية عام ٤٨ ق.م. قيصر ورجل مطيع من النبلاء يدعى بوبليوس سرفيليوس وانتخب للوظائف العامة الأخرى رجال من أشياع قيصر . وأسندت ولاية صقلية الى أولوس ألبينوس، وولاية سردينيا وقورسيقا

(32) Sueton., Div. Jul., 69; Dio Cass, XLI, 26-35; App., B.C., II, 47.
(33) Cic., ad Att., IX, 9, 3.
(34) Caes., B.C., II, 21; cf. Dio Cass., XLI, 36.
(35) Caes., B.C., III, 2.

إلى سكستوس بدوقايوس (Peducaeus) وولاية غاليا فيما وراء الألب ومعها بلاد الغال التي فتحت حديثاً الى دقيموس بروتس وولاية إسبانيا الدانية الى لبيدوس[٣٦] . ويبدو أن ولاية غاليا هذه الناحية من الألب ظلت تحت إمرة ماركوس قراسوس وهو الذي كان قيصر قد أرسله اليها قبل ذهابه الى إسبانيا ، مثل ما ظلت ولاية إسبانيا القاصية تحت حكم كوينتوس قاسيوس لونجينوس وهو الذي كان قيصر قد أقامه عليها بعد استسلام فارّو .

وفي أثناء تولي قيصر الدكتاتورية استخدم سلطته في استصدار بعض التشريعات الضرورية . ذلك أن حالة الحرب أدت الى نقص الأموال المتداولة وشل الحركة الاقتصادية ، ولا سيما أن الرأسماليين — وقد كانوا يخشون أن يحقق قيصر مطالب الدائنين بإلغاء الديون — أمسكوا عن تقديم القروض ، كما أن الدائنين أحجموا عن سداد الديون أملاً في أن يحقق قيصر مطالبهم . وإزاء هذه الحالة اتخذ قيصر إجراءين لإنعاش الحياة الاقتصادية ، فقد قضى أحدهما بقبول ممتلكات المدينين وفاءً لديونهم على أن تقدر قيمة هذه الممتلكات وفقاً لقيمتها قبل نشوب الحرب ، واحتساب الفوائد المسددة من أصل الدين مما أدى الى حرمان الدائنين حوالي ربع ديونهم[٣٧] ، ولكنهم سعدوا بذلك لأن قيصر لم يقض بإلغاء الديون كلية . وقضى الإجراء الآخر بحظر حبس مبالغ كبيرة عن التداول[٣٨] . وفضلاً عن ذلك فإن قيصر رد الى أبناء ضحايا صلا حقوقهم المدنية التي كانوا محرومين إياها ، كما أنه سمح لجميع الذين نُفوا نتيجة لمحاكمتهم طبقاً للقانونين اللذين أصدرهما بومبي في عام ٥٢ بالعودة الى الوطن ، ولم يستثن منهم إلا ميلو[٣٩] .

---

(36) App., B.C., II, 48.

(37) Caes., B.C., III, 1; Sueton. Div. Jul., XLII; M. W. Fredriksen, J.R.S., 1966, pp. 128 ff.

(38) Dio Cass., XLI, 37-38.

(39) Caes., B.C., III, 1; App., B.C., II, 48, Dio Cass., XLI, 36.

سادساً : قيصر في البلقان

١ ــ دورّاخيوم :

إن المشاغل التي انهمك فيها قيصر وعرفنا ما كان من أمرها أتاحت لبومبي الفرصة ليجمع تحت إمرته تسع فرق قوام كل منها ٤٠٠٠ مقاتل على الأقل . وكانت هذه الفرق تتألف من الفرقتين اللتين أعادهما قيصر الى إيطاليا قبل نشوب الحرب الأهلية ، وثلاث فرق تتكون من الجنود الذين حشدوا في إيطاليا ، وفرقتين استقدم بومبي إحداهما من قيليقيا وحشد الأخرى من قدماء محاربيه الذين استقروا في كريت ومقدونيا ، وفرقتين حشدهما القنصل لنتولوس في ولاية آسيا . وقد أدمج بومبي في هذه الفرق القوات التي حشدها في أبيروس وبلاد الإغريق . وفضلاً عن ذلك فإن متلّوس سقيبيو ــ حما بومبي وحاكم ولاية سوريا ــ كان في طريقه من ولايته على رأس فرقتين وقوة كبيرة من الفرسان لتعزيز قوات بومبي . وفي هذه الأثناء عنِي بومبي بجمع كميات كبيرة من المؤنة ومعدات القتال واتخذ من مقدونيا ميداناً لتدريب قواته فبلغت مستوى طيباً ولكنها لم تصل الى المستوى الذي بلغته فرق قيصر بفضل طول التجربة . وكانت لدى بومبي كذلك قوة كبيرة من الخيالة فضلاً عن أسطول كبير يتألف من ٣٠٠ سفينة على الأقل بقيادة بيبولوس . زميل قيصر في قنصليته الأولى .

وأما قيصر فإنه كانت لديه في إيطاليا اثنتا عشرة فرقة ، ولكن هذه الفرق لم تكن كاملة لأن عدد كل منها كان يتراوح بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ مقاتل فيما يبدو ، كما أن قوة خيالته كانت تقل كثيراً عن قوة بومبي . وبرغم كل الجهود التي بذلها أعوان قيصر في جمع وإنشاء السفن والناقلات ، فإنه لم يكن في وسعهم إعداد أسطول يماثل أسطول بومبي أو يستطيع نقل قوات قيصر جميعها دفعة واحدة عبر الأدرياتي . بيد أنه إزاء ثقة قيصر في تفوق جنوده على جنود بومبي من حيث الكفاية القتالية . وإزاء إدراك

قيصر أن كل تأخير في الاشتباك مع بومبي سيؤدي الى دعم مركز غريمه وازدياد خطورته . قرر قيصر أن يعبر الأدرياتي دون تأخير وأن يهدد مركزاً حيوياً بالنسبة لبومبي فيضطر هذا القائد المحنك الحذر على الاشتباك معه . وقد كانت القواعد البحرية الواقعة على الشاطىء الشرقي للبحر الأدرياتي تعني بومبي عناية كبرى لأنها كانت حلقة الاتصال بين جيشه وأسطوله . ولذلك فان قيصر قدر أنه اذا نجح في نقل قواته من إيطاليا الى ذلك الشاطىء فإنه كان إما أن يستولي عليه بأجمعه وإما أن يرغم بومبي على خوض معركة حاسمة معه . وبرغم المخاطر المترتبة على تفوق أسطول بومبي وافتقار قيصر الى ناقلات كافية لنقل قواته جميعاً دفعة واحدة ، فإن قيصر قرر أن الموقف يقتضي المخاطرة ونقل قواته على دفعتين أولاهما بقيادته والثانية بقيادة أنطونيوس . وعندما هبت ريح مواتية في السادس من نوفمبر عام ٤٩ ق . م . أفلح قيصر في أن يغافل أسطول بومبي وينتقل مع سبع فرق من بروندیسیوم الى موقع مكشوف على الشاطىء الشرقي للأدرياتي جنوبي أقروقراونيا (Acroceraunia) ، ثم أعاد الناقلات الى انطونيوس[٤٠] . ولكن بيبلوس كان قد أفاق من غفلته فلم يفلح أنطونيوس وباقي الجيش في الانضمام الى قيصر إلا بعد حوالي شهرين ، كما سيأتي ذكره .

وعندما نجح قيصر في عبور الأدرياتي ، أرغم قاعدتي بومبي البحريتين أوريقوس (Oricus) وأبولونيا على الاستسلام له (٨ و ٩ من نوفمبر) ، ولكنه فشل في الاستيلاء على دورّاخيوم[٤١] . ذلك أن بومبي ما أن علم باستعداد قيصر لعبور الأدرياتي حتى ترك مقدونيا وزحف غرباً ليحمي قواعده البحرية في حالة اذا ما أفلح هذا الغريم البارع في عبور الأدرياتي برغم وجود القوات البحرية المتفوقة المعادية له هناك ، ووصل بومبي الى دورّاخيوم في الوقت المناسب (١١ من نوفمبر) . وقد كان الموقف في صالح بومبي من

(40) Caes., B C., III, 2-8.
(41) Caes., B.C., III, 11-12.

حيث الموقع وكثرة القوات ووفرة المؤنة ، وتبعاً لذلك كان من المجازفة أن يحاول قيصر مهاجمة بومبي عندئذ . كما أن انسحاب قيصر كان يؤدي الى إفلات أوريقوس وأبولونيا من قبضته فاتخذ موقعاً حصيناً جنوبي نهر أبسوس[٤٢] (Apsūs ، ١٣ من نوفمبر). ويحدثنا أبيانوس وديون قاسيوس[٤٣] بأن بومبي أراد انتهاز هذه الفرصة لخوض معركة حاسمة مع قيصر ، بيد أنه اذا صح أن تكون مثل هذه الرغبة قد راودت بومبي ، فإنه لا توجد قرائن على أنه بذل محاولة جدية لتحقيقها ، إذ يبدو أن أقصى ما فعله بومبي هو أنه استخدم خيالته لحرمان قيصر الحصول على المؤنة اللازمة لقواته ، كما يبدو أن قوات الفريقين وقفت ترقب بعضها بعضاً على ضفتي نهر أبسوس فترة من الزمن توفي في خلالها بيبولوس قائد أسطول بومبي[٤٤] (حوالي ١٥ من يناير عام ٤٨) .

وأخيراً حوالي نهاية يناير عام ٤٨ هبت ريح مواتية فاستطاع أنطونيوس على رأس أربع فرق و ٨٠٠ خيال اجتياز الجانب الأكبر من الأدرياتي مع أربع فرق و ٨٠٠ خيال ، ولكنه ما أن انبرى أسطول العدو لاعتراض سبيل أنطونيوس وصحبه لمنعهم من بلوغ البر حتى غيرت الريح اتجاهها فجأة . وهكذا بفضل نفحة من الحظ السعيد يصعب تصديقها (incredibili felicitate) نزل أنطونيوس وقواته الى البر في أمان شمالي دورّاخيوم[٤٥] . ولم يلبث أنطونيوس أن نجح في الانضمام الى قيصر (أول فبراير) . وعندما أخفق بومبي في منع التقاء أنطونيوس وقيصر[٤٦] ، رفض الالتحام معهما وحشد قواته في مكان مرتفع اسمه بترا (Petra) كان يقع على البحر جنوبي دورّاخيوم بحوالي ستة أميال وتحيط به من ناحية البر مجموعة من التلال على

(42) Caes., B.C., III, 13.
(43) App., B.C, II, 58; Dio Cass., XLI, 47, 3.
(44) Caes., B.C., III, 18.
(45) Caes, B.C., III, 24-28.
(46) Caes., B.C., III, 29-30.

هيئة نصف دائرة[٤٧] . وزاد موقف بومبي مناعةً أنه بادر الى إنشاء استحكامات قوية تصل بين هذه التلال[٤٨] . وإزاء إحجام بومبي عن الإستدراج من موقعه عكف قيصر على محاصرته[٤٩] . بيد أن طول خطوط بومبي الدفاعية أرغم قوات الحصار على الانتشار مما أتاح لبومبي أن يقوم ببعض المناورات البارعة التي مكنته من اقتحام خطوط قيصر وإنزال خسائر كبيرة بقواته[٥٠] (أوائل مايو) .

٢ ــ فارسالوس :

في هذه الأثناء كان متلّوس سقيبيو يشق طريقه الى مقدونيا للانضمام الى بومبي [٥١] . وللحيلولة دون ذلك ، أنفذ قيصر مساعده دوميتيوس قالفينوس على رأس فرقتين الى مقدونيا[٥٢] ، حيث اشتبك مع سقيبيو في بعض المناوشات اضطر بعدها قالفينوس الى الانسحاب غرباً ، ثم عاد فزحف على تساليا تنفيذاً للتعليمات التي وصلت اليه من قيصر[٥٣] .

وقد كان من جراء الخسائر التي مني بها قيصر أنه أوقف حصاره الفاشل وأخذ يزحف شرقاً صوب تساليا حيث فتحت له المدن أبوابها ونجح في الانضمام الى قالفينوس، إلا أنه لم يفلح في منع بومبي من أن ينضم الى سقيبيو[٥٤] في أواخر مايو . وقد عسكر الغريمان على مقربة من فارسالوس . ولما كان بومبي يحتل موقعاً منيعاً فوق تل ويميل في البداية الى اتخاذ موقف الدفاع ، فإنه رفض القتال يوماً بعد آخر كلما حاول قيصر استدراجه الى القتال بعرض قواته أمامه . وليس معنى ذلك أنه لم يكن لدى بومبي أمل في النصر ، بل إنه

(47) Caes., B.C., III, 42.
(48) Caes., B.C., III, 44.
(49) Caes., B.C., III, 41; 43.
(50) Caes., B.C., III, 44; 47-72.
(51) Caes., B.C., III, 31-32.
(52) Caes., B.C., III, 34.
(53) Caes., B.C, III, 35-38; 79.
(54) Caes., B.C, III, 78-83.

بحكم ميله الى الحيطة والحذر يبدو أنه كان يريد تحين أنسب الفرص لضمان النصر بإغراء خصمه على أن يحاول اقتحام موقعه المنيع . ولما كان قيصر أعقل من أن يقدم عـــلى مثل هذه المجازفة ، فإنه عمد الى إرغام بومبي على ترك موقعه المنيع بأن أمر جيشه بالتحرك لتهديد خطوط مواصلات خصمه . وسواء أكان العامل الذي عجل الالتحام هو الخوف على خطوط المواصلات أم هو نفاد صبر النبلاء ، فإنه عندما شرع قيصر في التحرك تقدم بومبي لمنازلته ، ويبدو أنه كان واثقاً من أنه اذا استطاع مشاته الصمود أمام مشاة قيصر فإن تفوقه في الخيالة سيحقق له النصر . ولما كان هذا التفوق لم يغب عن قيصر فإنه اتخذ حيطته لمواجهة مـــا ينجم عن ذلك من خطر بـــأن وضع في مؤخرة خيالته ثمـــاني كتائب منتقاة من أفضل كتائبـــه المحنكة . وعندما بدأت المعركة بدد خيالة بومبي شمل خيالة قيصر ، ولكنهم عندما استداروا للإطباق على مشاة قيصر من الخلف تصدت لهم كتائب المشاة المنتقاة وأرغمتهم على الفرار ثم تقدمت من الجانب وهاجمت مشاة بومبي وهم الذين كان مشاة قيصر يحملون عليهم حملة صادقة ، فلم تلبث صفوفهم أن تمزقت شر ممزق وفر رجالها ينشدون الحماية في معسكرهم . غير أن قيصر جاء في أثرهم واقتحم عليهم معسكرهم فأسرعوا بالفرار صوب الشمال ، ولكن دون جدوى لأن قيصر نجح في سد الطريق أمامهم ، فلم يأت صباح اليوم التالي (٧ من يونيـــه عام ٤٨ ق . م .) حتى كان جيش بومبي لم يعد لـــه وجود فقد سقط منـــه في المعركة حوالي ١٥٠٠٠ بين قتيل وجريح واستسلم أكثر من ٢٤٠٠٠ وفر البـــاقون . وكان من بـــين الذين فروا بومبي نفسه وعدد من أعضاء السناتو ولابينوس . ولم يشترك في هذه المعركة لا قاتو ولا شيشرون لأن الأول أسندت اليه القيادة في دورّاخيوم ولأن الثاني منعه المرض من الانضمام الى جيش بومبي في زحفه شرقاً . وقد عفا قيصر عن الذين وقعوا في أسره لأول مرة ، وأما من سبق له أسرهم والعفو عنهم فإنه أعدمهم وكذلك قبل قيصر أن ينخرط في خدمته من أراد من جنود بومبي الذين نجوا

من المعركة[٥٥] .

سابعاً – قيصر في الإسكندرية

١ – مصرع بومبي :

عقب هزيمة بومبي في فارسالوس ، فر على التوالي الى لاريسا وأمفيبوليس وجزيرة لسبوس وقيليقيا ثم قبرص ، حيث علم بأن ولاية سوريا انحازت الى جانب قيصر وأن رودس منعت أتباعه من دخولها، فجمع من قبرص مقادير كبيرة من الأموال وألفي جندي ويمم وجهه صوب بلوزيون في مصر[٥٦] .

في عام ٥١ ق . م . كان بطلميوس الثاني عشر (الزمار) قد توفي تاركاً وصية تقضي بأن يخلفه على العرش أكبر ولديه (بطلميوس الثالث عشر ، وكان يبلغ عندئذ العاشرة تقريباً) على أن يتزوج أكبر أختيه (كليوبترة السابعة ، وكانت تناهز عندئذ الثامنة عشرة تقريباً) ويشتركا في الحكم سوياً[٥٧] . ولما كان الزمار يعرف مدى كراهية الإسكندريين له ويخشى عدم احترامهم وصيته ، فإنه عهد الى الشعب الروماني بالإشراف على تنفيذ وصيته، وأنفذ بعثة الى روما لتودع نسخة من الوصية في دار المحفوظات العامة ، ولكن الاضطرابات التي كانت تغشى روما عندئذ حالت دون ذلك فأودعت هذه النسخة من الوصية لدى بومبي كما أودعت نسخة أخرى منها في الإسكندرية[٥٨] ، حتى لا يتصرف الرومان في تنفيذ الوصية كما يشاؤون .

---

(55) Caes., B.C., III, 83-99; Plut., Pomp, LXVIII-LXXII; Caes., XLII-XL-VI; App., B.C., II, 70-82; M. Rambaud, Historia, 1955, pp. 346 ff.; W.E. Gwatkin, Trans. Amer. Philol. Ass., 1956, pp. 109 ff.; Y. Bequignon, Bull. Corresp. Hell., 1960, pp. 176 ff.

(56) Caes., B.C., III, 102-3; Plut., Pomp., LXXIII-LXXVII

(57) Dio Cass., XLII, 35, 4.

(58) Caes., B.C., III, 108.

وكان الملك الصبي واقعاً تحت نفوذ ثلاثة من رجال البلاط وهم : الخصي بوثاينوس (Potheinus) وكان وزير المالية ومربي الملك وأوسع رجال الدولة سلطة وأعلاهم كلمة ، وثيودوتوس (Theodotus) وكان أستاذ الخطابة ومعلم الملك الصغير ، وأخيلاّس (Achillas) وكان قائد الجيش . ولما كانت كليوبترة مصممة على ممارسة سلطتها الملكية كاملة ، وكان من شأن ذلك أن يخيب على أولئك الرجال الثلاثة رغبتهم في الاستئثار بالسلطة ، فإنهم أوغروا صدر الملك الصبي على أخته مثل ما أوغروا صدور الإسكندريين عليها باتهامها بممالأة الرومان البغيضين اليهم وبمحاولة اغتصاب الملك من أخيها ، فثار الإسكندريون على كليوبترة الى حد اضطرها الى الفرار من مملكتها ، قبل نشوب معركة فارسالوس ببضعة شهور . ولما لم تكن كليوبترة بالمرأة التي تنزل بمثل هذه السهولة عن ملكها ، فإنها جندت جيشاً من الأعراب المتاخمين للحدود الشرقية وأسرعت بالزحف على مصر . وإزاء ذلك جمع أوصياء الملك قواتهم وخفوا شرقاً ومعهم الملك الصغير لصد كليوبترة . وفي صيف عام ٤٨ ق . م . ، حين كان الجيشان يقفان أمام بعضهما بعضاً عند رأس قاسيون شرقي بلوزيون، شوهد وصول السفن التي تحمل بومبي وصحبه (٥٩) .

وقد استبقى بومبي مركبه والمراكب المرافقة له بعيداً عن الشاطىء وبعث رسلاً يلتمسون ضيافة الملك ، فأوقع ذلك رجال الحاشية الملكية في حيرة شديدة لأنهم اذا استضافوا بومبي تعرضوا حتماً لنقمة قيصر . واذا رفضوا الضيافة أغضبوا بومبي وكذلك قيصر لأنه سيضطر الى مطاردته . وأخيراً استقر الرأي على أن يحتالوا على بومبي لإحضاره بمفرده والإجهاز عليه « فالميت لا يعض » ، وبذلك يتخلصون منه وفي الوقت نفسه يكتسبون رضاء قيصر . وقد تولى أخيلاس تنفيذ خطة الغدر ببومبي (٦٠) .

(59) Caes., loc. cit.; Plut., Pomp., LXXVII; Caes., XLVIII-IX; Brutus XXXIII; App., B.C., II, 84

(60) Plut., Pomp., LXXVII-LXXX; App., B.C., II, 84-86; Liv., Ep., 112 ; Val. Max., I, 8, 9; Lucan., Pharsalia, VIII, 460-872.

٢ – بومبي في ذمة التاريخ :

وهكذا أنهى الغدر حياة رجل شجاع لم يكن الغدر شيمته . وقد كتب شيشرون الى صديقه أتيقوس عقب مصرع بومبي يقول : « لا يسعني إلا الشعور بالأسى على مصيره ، فقد عرفت فيه رجلاً يتسم بالشرف والمبادىء الخلقية الرفيعة »[٦١] . ولعل أن يكون مجيء مصرع بومبي في أعقاب نكبة فارسالوس وما انطوت عليه من نتائج محتومة قد أذهل شيشرون فأسرف في الإطناب في وصف خلق بومبي مثل ما أسرف فيما بعد المؤرخ تاقيتوس في الحكم على بومبي بأنه لم يكن خيراً من صلا وماريوس[٦٢] .

ومرد ترددنا في قبول وصف شيشرون الى ما كتبه عن بومبي في ثلاثة خطابات أخرى وكذلك الى ما نعرفه عن تصرفات هذا الرجل . ذلك أن ما جاء في هذه الخطابات الثلاثة يختلف اختلافاً جوهرياً عما كتبه شيشرون بعد ذلك ببضعة شهور في ذلك الخطاب الذي أشاد فيه بخلق بومبي . ففي أثناء الأزمة كتب شيشرون الى أتيقوس يقول إن شأن بومبي شأن قيصر فهو يعرض البلاد للخراب من أجل الفوز بالسلطة[٦٣] . وفي خطاب تال كتب شيشرون الى أتيقوس عقب بداية الحرب الأهلية يقتطف من سقيبيو قوله « ..... إن هدف السياسي المثالي هو إسعاد مواطنيه بأن يوفر لهم الأمان والرخاء والكرامة والرقي في معارج المجد » . ويردف شيشرون ذلك بقوله إن هذا الهدف لم يدر بخلد بومبي ، فهو أبعد ما يكون عن تفكيره في الظروف الحالية ، إذ أن السلطة المطلقة كانت قبلته هو وقيصر ولم يكن هدفهما توفير سعادة المجتمع وكرامته . ثم يمضي شيشرون بعد ذلك فيقول إن فكرة بومبي منذ البداية كانت إشعال لهيب حرب شاملة في البر وفي البحر ، وإثارة الأمراء

(61) Cic., ad Att., XI, 6.
(62) Tacit., Hist., II, 38, 1.
(63) Cic., ad Att., VII, 3, 4.

المتبربرين وإحضار قبائل متبربرة مسلحة الى إيطاليا وتكوين جيش هائل . لقد كان هدفه منذ أمد طويل وكذلك رغبة الكثيرين من أنصاره إقامة نوع من الحكم من طراز حكم صلا[٦٤] . وفي خطاب تال كتب شيشرون الى أتيقوس قائلاً : « ..... كشفت أن بومبي بدأ حرباً عنيفة مدمرة . وبشرفي كنت أتصور أن واجب المواطن الصالح هو أن يتحمل أي نوع من العقاب ويربأ بنفسه ليس فقــط عن القيام بالدور الرئيسي في مثل هــذه الفظائع بل عن الإسهام فيها على الإطلاق .... »[٦٥]

ولا جدال في أن بومبي كان قائداً بارعاً وحاكماً قديراً . ولا جدال كذلك في أنه كان سياسياً طموحاً لم يبال في سبيل تحقيق أهدافه بأي شيء سواء أكان قيماً إنسانية أم تقاليد وقواعد دستورية . فقد رأينا ما كان من أمر زيجاته السياسية ومشاركته في تدبير نفي صديقه الوفي شيشرون واجتياحه التقاليد والقواعد الدستورية ووضعه سوابق خطيرة مما كان نذير شؤم على النظام الجمهوري الروماني . واذا كان بعد حصوله على القنصلية عنوة في عام ٧٠ ق . م . وحصوله على سلطات واسعة في عامي ٦٧ و ٦٦ ق . م . ، وإحرازه انتصارات باهرة في الشرق ، أصبح أكثر ميلاً الى الأناة والروية ، فإن تصرفاته التالية تدل على أنه لم يصبح أقل حباً في المجد والسيطرة . وإنه لمن سخرية القدر أن بومبي – وهو الذي خرج في أكثر مراحل حياته العامة على كل التقاليد والقواعد الدستورية خروجاً سافراً أسهم في تقويض دعائم النظام الجمهوري – اضطلع في آخر دور له في الحياة العامة بقيادة الذين نصبوا أنفسهم – سواء عن عقيدة أم عن أنانية – للدفاع عن الدستور والنظام الجمهوري . ولا شك في أن انتصار بومبي لهذا الفريق لم يكن مبعثه احترامه للدستور ولا ولعه بالنظام الجمهوري وإنما حقده على قيصر وشغفه بالسلطة وحرصه على مكانته .

---

(64) Cic, ad Att., VIII, 11
(65) Cic., ad Att., IX, 6.

بيد أنه من الإنصاف لبومبي أن نقرر أمرين : وأحدهما هو أن تاقيتوس أسرف في وصف بومبي بأنه لم يكن خيراً من صلا وماريوس . ذلك أن بومبي برغم حبه للسلطة فإنه نأى بنفسه عن سفك الدماء وإقامة نفسه دكتاتوراً عنوة مع أن الظروف كانت تهيء له ذلك إذا أراد . والأمر الآخر هو أن حب بومبي للسلطة ورغبته الملحة في الفوز بها كانا نتيجة طبيعية لمواهبه العسكرية الممتازة وقبل كل شيء لظروف عصره التي تكيفت بما سبقها من تطورات . ومعنى ذلك أن بومبي لم يكن إلا ابن عصره ، ولعل أنه كان من أفضل أبناء ذلك العصر بفضل مواهبه ونزاهته وعفة يده بالقياس الى غيره[٦٦] .

٣ ـ تدخل قيصر في النزاع بين كليوبترة وشقيقها :

بعد فارسالوس صمم قيصر على القضاء على بومبي قبل أن يفلح في إعادة بناء قواته . وعندما علم قيصر بأن بومبي غادر قبرص رجح أن يكون قد اتجه الى مصر فخف اليها ووصل الى مياه الإسكندرية في أواخر يوليه قبل أن يبلغه خبر مأساة بومبي التي وقعت منذ بضعة أيام شرقي أطارف الدلتا ، ولذلك فإن قيصر حرص على استطلاع الحالة قبل النزول الى البر . فقد كانت مصر رسمياً حليفة لبومبي وتبعاً لذلك معادية لقيصر ، وكان من المنتظر أن يقوم بومبي بإعداد خطة للدفاع عن الإسكندرية بعد التجائه الى ملكها ، ولم تكن مع قيصر إلا قوة صغيرة تتألف من ٣٤ سفينة و ٨٠٠ خيال وفرقة واحدة من المشاة قوامها ٣٢٠٠ جندي . وقد تصور رجال البلاط أنهم بقطع رأس بومبي قد أثبتوا لقيصر أنهم قطعوا علاقاتهم بأعدائه ومن ثم فإنه لا يوجد داع لغزو مصر بوصف كونها نصيرتهم . وما أن علم رجال البلاط بمقدم قيصر حتى خف ثيودوتوس الى مركبه حاملاً رأس عدوه وخاتمه . ويقال إن قيصر بكى عندما تأكد أن الرأس رأس بومبي ، ولكنه بدلاً من أن يحقق آمال رجال

---

(٦٦) عن بومبي ، أنظر :
M. Gelzer, Pompeius, 1949; J Van Ooteghem, Pompée le Grand, 1954.

البلاط وينصرف عن الإسكندرية دخلها بعد قليل وسار في شوارعها تتقدمه شارات الحكم الرومانية بوصف كونه قنصلاً واتخذ قصر البطالمة مسكناً له . ولم يكن من شأن هذا المسلك إلا أنه أغضب الإسكندريين لأنه كان معناه اعتبار مصر ولاية رومانية والإسكندرية مدينة مقهورة . ولا بد من أن يكون قد زاد في حنق الإسكندريين اعتقادهم أن قيصر جاء مصر دائناً ليرغم ملكهم على دفع ما تبقى له في ذمة أبيه . وكان معنى ذلك أن يتحملوا عبء ضرائب جديدة الى جانب ما أثقل بـه كاهلهم ، فنشأت اصطدامات عنيفة بين الإسكندريين وجنود قيصر[٦٧] . وإزاء هذا الموقف القلق طلب قيصر الى دوميتيوس ڤالفينوس — وكان في آسيا الصغرى — موافاته بنجدات من الفرق التي كونها من جنود بومبي الذين انضموا اليه بعد فارسالوس[٦٨] .

ولما كان بطلميوس الزمار قد ناشد روما أن ترعى تنفيذ وصيته ، فإن قيصر أمر كليوبترة وأخاها بتسريح قواتهما والحضور الى الإسكندرية للفصل في نزاعهما . ولما كانت كليوبترة تخشى تخطي الحدود علانية والوصول الى الإسكندرية سالمة ، فإنها حضرت سراً بالبحر مع كاتم أسرارها أبولـّودوروس (Apollodorus) . وذات مساء حملها زورق صغير الى القصر الملكي المطل على البحر . وهربها أبولـّودوروس الى القصر داخل سجادة على اعتبار أن ما يحمله هدية من الملكة الى قيصر . ومـا أن ظهرت كليوبترة من السجادة فجأة أمام قيصر حتى بهرته واستولت عليه . وفي اليوم التالي أرسل قيصر في استدعاء بطلميوس الثالث عشر للتوفيق بينه وبين أخته، ولكن الملك الصبي ما كاد أن يرى أخته حتى استبدت به عاصفة من الغضب الشديد فقذف بتاجه الى الأرض وراح يجري في الشوارع صارخاً من الخيانة . وقد أعاد جنود قيصر الملك الصغير الى القصر ، ولكن صرخاته أثارت اضطراباً كبيراً بين الجماهير فحاصروا أسوار القصر ، مما اضطر قيصر الى الظهور

(67) Liv., Ep., 112; Plut., Caes., XLVIII; App., B.C., II, 89-90; Caes., B.C., III 106; Lucan., Pharsalia, IX, 1036 ff.
(68) Caes., B.C, III, 107.

أمامهم والتحدث إليهم واعداً إياهم بأن يعقد اجتماعاً للشعب ويتلو عليهم وصية الملك الراحل . وبعد بضعة أيام عُقد الاجتماع ، وقرأ قيصر الوصية ، وكانت تقضي – على نحو ما سبق ذكره – بأن تتولى العرش كليوبترة وأكبر أخويها وبأن ترعى روما تنفيذ هذه الوصية . ولما كان قيصر قد عين دكتاتوراً للمرة الثانية عقب انتصاره في معركة فارسالوس وأصبحت لديه كامل السلطة لتنفيذ الوصية ، فإنه أوضح للشعب حقه في التدخل في النزاع وقراره بإقامة كليوبترة وبطلميوس الثالث عشر على العرش احتراماً لما قضت به الوصية . ولكي يخلد الإسكندريون الى السكينة وعدهم قيصر بإعادة قبرص الى مصر لتتولى حكمها الأخت الصغرى (أرسينوى) والأخ الأصغر [٦٩] (بطلميوس الرابع عشر فيما بعد).

وقد كان من الممكن أن تستقر الأوضاع بعد ذلك لو أن بوثاينوس وزميلاه أذعنوا لخيبة الأمل التي أصابتهم بالتوفيق بين الأخوين ، ولكنهم لم يذعنوا وأخذوا يلهبون مشاعر الإسكندريين ، وكانوا برمين بتدخل قيصر في مشاكلهم وهي التي اعتادوا منذ مدة طويلة على حلها بطريقتهم الخاصة ، مثل ما كانوا برمين بمجيء قيصر اليهم دائناً يريد استيفاء ديونه . وذهب بوثاينوس الى حد نهب المعابد معتذراً الى اضطراره الى ذلك استجابة الى مطالب قيصر الملحة بعد أن أصبحت الخزانة العامة خاوية على عروشها . وكان قصد بوثاينوس من ذلك إثارة عواطف المصريين الدينية لعدم اهتمامهم بالمشكلة السياسية [٧٠] .

٤ – حرب الإسكندرية :

وعندما استوثق بوثاينوس من مشاعر الإسكندريين ، طلب الى أخيلاس الزحف بجيشه على الإسكندرية ، فترك أخيلاس في بلوزيون حامية تكفي

(69) Dio Cass., XLII, 34-35; Plut., Caes., XLIX; Lucan., Phars., X, 56 ff.
(70) Dio Cass , XLII, 34; Oros., VI, 15, 29.

لمنع جنود قيصر في آسيا من دخول مصر ، وزحف على الإسكندرية بقوة تتألف من ٢٠،٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الخيالة . وهكذا بدأت في أواخر أغسطس عام ٤٨ ق . م . « حرب الإسكندرية » التي لم تنته في منتصف يناير عام ٤٧ ق . م . إلا بعد مقتل بوثاينوس وأخيلاس وبطلميوس الثالث عشر ، ووصول نجدات برية وبحرية الى قيصر ، وتعرض قيصر لأزمات شديدة كاد أن يفقد فيها حياته (٧١) .

وبعد انتصار قيصر ومقتل بطلميوس الثالث عشر ، أقام على عرش مصر كليوبترة وأخاها الأصغر بطلميوس الرابع عشر . وأقصى عن مصر أختهما أرسينوى وكانت قد انضمت الى الجانب الآخر المعادي لكليوبترة . ولما كان قيصر يدرك أنه يتعذر على كليوبترة وأخيها اكتساب محبة الإسكندريين بسبب وفائهما له وحداثة عهدهما بالحكم فإنه قبل أن يبرح مصر ترك ثلاث فرق فيها لشد أزرهما(٧٢) . وبرغم بقاء قيصر طوال هذه المدة في مصر ، وبرغم أن الحالة في الأمبراطورية الرومانية كانت تحتم عليه الرحيل فوراً ، فإنه أبى إلا أن ينعم بالبقاء الى جانب كليوبترة ثلاثة أشهر أخرى تقريباً قاما سوياً في أثنائها برحلة نيلية الى أقاصي الصعيد(٧٣) . وبعد أن استولى قيصر دون شك على كل ديونه ، غادر مصر بين ١٥ من أبريل و ٥ من مايو عام ٤٧ ق . م . الى فينيقيا (٧٤) .

٥ ــ ماهية العلاقة بين قيصر وكليوبترة :

في أثناء إقامة قيصر في الإسكندرية توطدت أواصر العلاقة بينه وبين

(٧١) عن حرب الإسكندرية أنظر :

إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ ، الجزء الأول ص ص ٢٧٩ — ٢٨٥ .

(72) Bell. Alex., 32.

(73) Sueton., Div. Jul., LII; App., B.C., II, 90.

(74) Bell. Alex., 65-66; Joseph., A. Jud, XIV, 137, H. Heinen, Rom und Aegypten von 51 bis 47 V. Chr, Tübingen, 1966; cf. L.E. Lord, J.R.S., 1938, pp 18-38; E. Badian, 1968, pp. 258 ff.

كليوبترة ولم تحاول الملكة إخفاء ثمرة هذه العلاقة . ويعجب كثيرون من الباحثين من أن كليوبترة — برغم الأزمات الطاحنة التي اكتنفت العرش البطلمي وكادت أن تدكه بسبب سلوك أبيها وتصرفاته ، وبرغم أنها حتى مصرع أخيها بطلميوس الثالث عشر في يناير عام ٤٧ كانت شرعاً زوجة هذا الصبي — صرحت بأن قيصر كان والد الطفل الذي أنجبته في يونيه عام ٤٧ ودعته قيصراً (٧٥) . ولكنه يعرف عادة باسم التصغير قيصرون وهو الإسم الذي أطلقه عليه الإسكندريون (٧٦) . ونحن نعتقد أن مرد تصرف كليوبترة على هذا النحو ، كان الى أنها لم تعتبر نفسها خليلة قيصر وإنما زوجته . وآية ذلك أنها بمناسبة ميلاد ابنها أقامت معبد أرمنت أو أمرت بزخرفته وبأن يسجل على جدرانه أنها أنجبت قيصرون من آمون — رع الذي خالطها في صورة قيصر (٧٧) ، أي أن قيصر كان زوجها الشرعي وأنها جرياً على معتقدات المصريين الدينية أنجبت طفلها من الإله آمون — رع الذي خالطها في صورة زوجها الشرعي قيصر (٧٨) .

ونحن نعتقد أيضاً أن التفسير الحقيقي لماهية العلاقة التي قامت بين قيصر وكليوبترة يجب أن يُستمد قبل كل شيء من الأهداف التي كانت كليوبترة تتوخاها من وراء هذه العلاقة . ذلك أن دولة البطالمة كانت قد بلغت درجة شديدة من الضعف حتى كادت أن تصبح ولاية رومانية قبل عهد كليوبترة ، وأنه لم يعد في وسع أي جالس على عرش مصر عندئذ إنقاذ دولته المتداعية بأية قوة يملكها ، وأن كليوبترة كانت فتاة جميلة ذكية شديدة الطموح وتشبه من سبقنها من أميرات وملكات البطالمة من حيث الكبرياء وقوة الإرادة

---

(75) Stèle demot Musée Louvre no. 335; Revillout, Rev. Eg., II, p 100, no. 3, VII, p. 168.

(76) Plut., Caes., XLI X,5; cf. Dio Cass., XLVII, 31.

(77) Maspero, Ann., Ecole Hautes Etudes, 1897, p. 22; Lepsius, Denk., IV, 60-65, text, IV, pp. 2-11; Brugsch, Thesauros, p. 879.

(78) Maspero, Bib Eg., XXVIII, p. 278; cf Moret, Du Caractère religieux de la Royauté pharaonique, p. 68.

والتعطش للحكم وحب المجد والسيطرة . ووسط الأزمة الطاحنة التي كانت تكتنف كليوبترة تدخل لحل هذه الأزمة أقوى رجل في العالم يومئذ ، وكان رجلاً طبق في الآفاق صيته في ميدان القتال وكذلك في ميدان الفسق والفجور . وحسبنا ما يحدثنا به سويتونيوس من أن قوريو الكبير وصف قيصر في إحدى خطبه بأنه « امرأة كل رجل ، ورجل كل امرأة »(٧٩). ولا جدال في أنه إذ أمر قيصر كليوبترة وأخاها بتسريح قواتهما والحضور إلى الإسكندرية لم يغب عن فطنة كليوبترة أن رفضها هذا الأمر كان يستتبع حتماً ضياع كل آمالها في استرداد العرش بل ضياع حياتها ، ولا في أن إطاعة الأمر كان يجر وراءه عدم الإفلات من براثن ذئب كاسر مثل قيصر . ولا جدال كذلك في أنه إذا كان عسيراً على ملكة مثل كليوبترة ، سليلة تلك الملكات اللائي استبد بهن حب المجد والسيطرة ، أن تضحي بعرشها بل من المحتمل أيضاً بحياتها ، فإنه كان طبيعياً أن تحاول كليوبترة الإفادة من ظروفها الى أقصى حد لإشباع أطماعها عبر مكمن الضعف في قيصر ، وذلك باستغلال كل ما حباها به الله من فتنة وذكاء ليشعر قيصر بألا غنى له عنها ويرى فيها خير من تشاركه حكم الإمبراطورية الرومانية فيتخذها زوجة له . وهل يعقل أن تقنع أية امرأة طموح مغامرة على أي قدر من الذكاء بأن تكون مجرد خليلة حين تدرك مدى سلطانها على خليلها ومدى ما تجنيه من وراء تصحيح وضعها معه ؟ أليس طبيعياً أن ترغب هذه الخليلة ، ولا سيما اذا كانت ملكة طموحاً ذكية مثل كليوبترة ، في أن تغدو خليلة ؟ ولقد رأينا من القرائن ما يدل على مكانتها العزيزة لدى قيصر ، ولكن أبلغت هذه المكانة الى حد أنه قرر الزواج منها ؟ واذا صح ذلك فلما إذن لم يعلن خبر هذا الزواج ؟

من البديهي أن كليوبترة لم تذع على الملأ في مصر زواجها من قيصر إلا بعد اتفاقها معه على الزواج وكذلك على إذاعة نبأه في مصر ، وإلا لما اجترأت

(79) Sueton., Div, Jul., LII, 3.

على الذهاب الى روما في العام التالي (عام ٤٦ ق . م .) لرحيل قيصر من مصر وبدعوة منه . ولو أنه كان لدى كليوبترة أدنى شك في نوايا قيصر لما كان أيسر عليها من إخفاء ثمرة معاشرتها إياه معاشرة الأزواج بأن تنسب طفلها الى زوجها بطلميوس الثالث عشر الذي توفي قبل ميلاد قيصرون بستة شهور .

وإذا أغفلنا من الاعتبار ما أعلنه أنطونيوس للسناتو من أن قيصر اعترف بأبوته لقيصرون ومن أن جايوس ماتيوس (Matius) وجايوس أوبيّوس (Oppius) وغيرهما من أصدقاء قيصر كانوا يعرفون ذلك[٨٠] ، فإن هناك قرينة أخرى على صدق نية قيصر في الزواج من كليوبترة . ذلك أن قيصر أقام في معبد فينوس جنتريكس[٨١] (Venus Genetrix) — وكانت تعتبر أم الرومان جميعاً — تمثالاً من الذهب لكليوبترة الى جانب تمثال هذه الإلهة . واتخاذ قيصر هذه الخطوة — وهي التي تنطوي على الاعتراف بألوهية كليوبترة أم طفله وجعلها إلهة شريكة لأم الرومان — يوحي إيحاء قوياً بأن قيصر كان يمهد بذلك لإعلان زواجه من كليوبترة بعد إقامة ملكية هلينيسية ، أي ملكية تقوم على حق الملوك الإلهي[٨٢] . ومن ثم فإنه لا يبعد أن يكون قيصر وكليوبترة قد اتفقا على الزواج ، وعلى أن تعلن كليوبترة هذا الزواج بادىء ذي بدء في مصر بينما يرجىء قيصر إعلانه في روما . وما كان سر اختلاف التوقيت في إعلان كل منهما خبر هذا الزواج ؟ لقد كان هناك عامل حاسم يستوجب مبادرة

---

(80) Sueton., Div. Jul., LII, 2

لا يدلي سويتونيوس برأي في مسألة أبوة قيصر لطفل كليوبترة ، ولكنه يحدثنا بأن قيصر سمح لكليوبترة بإطلاق اسمه على الطفل ، وبأنه وفقاً لبعض كتاب الإغريق كان الطفل يشبه قيصر . ويضيف سويتونيوس أن جايوس أوبيوس نشر كتاباً ينفي فيه أبوة قيصر لطفل كليوبترة ، وأن تريبون العامة هلفيوس قينا اعترف بأنه بإيحاء من قيصر أعد مشروع قانون يبيح لقيصر الزواج من أي عدد من النساء لينجب أطفالا بيد أن ديون كاسيوس يذهب الى أن كليوبترة دعت الطفل بطلميوس وادعت أنها أنجبته من قيصر ولذلك اعتادت على أن تدعو الطفل قيصرون (Dio Cass., XLVII, 31) .

(81) App., B.C., II, 102; Dio Cass., LI, 22.

(٨٢) سنتناول في الفصل التالي الكلام عن قيصر والملكية .

كليوبترة الى إعلان خبر الزواج في مصر ، وهو إنجاب طفلها ، على حين أنه كان هناك على الأقل ثلاثة أسباب تضطر قيصر الى إعلان هذا الزواج في روما . وأول هذه الأسباب هو أنه — على نحو ما سنرى — حين كان قيصر في الإسكندرية لم تكن الأمور قد استتبت له بعد. ذلك أنه من ناحية كانت إيطاليا مسرحاً لاضطرابات شديدة ، ومن ناحية أخرى وأخطر شأناً أنه إذا كان خصومه قد تلقوا ضربتين قاصمتين بهزيمتهم في فارسالوس وبمقتل بومبي فإنهم كانوا لا يزالون كثيرين ولديهم قوات وموارد كبيرة ويستعدون لمنازعة قيصر سيطرته . ولا شك في أن قيصر كان يدرك أن إعلان نبأ زواجه من كليوبترة عندئذ كان سيعطي خصومه ذريعة جديدة تقوي دعوتهم لمناهضته وتثير لقيصر من المتاعب ما كان هو في غنى عنها . وثاني هذه الأسباب هو ضرورة استصدار تشريع خاص قبل إعلان هذا الزواج ، لأنه بمقتضى الشرائع الرومانية كان لا يستطيع أي مواطن روماني أن يعقد زواجاً صحيحاً على سيدة أجنبية . والسبب الثالث مستمد مما توحي به القرائن من أن قيصر كان ينوي إقامة نفسه ملكاً ومن أن الرومان كانوا يبغضون الملكية والزواج من أجنبيات . وإزاء ذلك فإن الحكمة كانت تملي على قيصر عدم اتخاذ أي إجراء رسمي لإشهار زواجه من ملكة أجنبية قبل أن يقيم الملكية ، أي قبل اتخاذ خطوة كان يعتبرها ضرورية لإصلاح نظام الحكم في الإمبراطورية وكذلك فيما يبدو تمهيدية لزواجه من ملكة . فزواج قيصر الملك من ملكة كان لا يمكن أن يثير في الرومان من الغضاضة ما كان يثيره فيهم زواج قيصر الدكتاتور من ملكة . وفي ضوء ذلك يمكننا أن نفسر زيارة كليوبترة لروما — بناء على دعوة قيصر [83] — وبقاءها هنـــاك من عام ٤٦ حتى مقتل قيصر في عام ٤٤ ، انتظاراً لليوم الموعود الذي ترتقي فيه عرش إمبراطورية عالمية لا تكون مصر إلا إحدى ولاياتها ، ويصبح ابنها قيصرون — ابن قيصر الأوحد — وريث هذه الإمبراطورية .

---

(83) Sueton., Div Jul., LII, 1.

ثامناً – قيصر في آسيا

عندما نشبت الحرب الأهلية ، خف أريوبارزانس ملك قابادوقيا ، وديوتاروس ملك غالاتيا وأرمينيا الصغرى الى مساعدة بومبي جزاء خدماته السابقة لهما . وقد انتهز ملك القرم – فارناقس الثاني ابن ميثريداتس السادس يوباتور – هذه الفرصة واجتاح قابادوقيا وأرمينيا الصغرى . وبعد فارسالوس ، عفا قيصر عن أريوبرزانس وديوتاروس لقاء وعدهما بأن يقدما له كل مـــا يمكنهما من المساعدات ، وأسند الى دوميتيوس قالفينوس مهمة وضع أمور آسيا الصغرى في نصابها فذهب اليها على رأس ثلاث فرق كونها قيصر من جنود بومبي . بيد أنه إزاء تحرج مركز قيصر في الإسكندرية واضطرار قالفينوس الى نجدته بإرسال فرقتين اليه ، لم يتبق لدى قالفينوس قوات كافية لردع فارناقس ، وكان قد انسحب من قابادوقيا ولكنه احتفظ بأرمينيـــا الصغرى . وفي كنف هذه الظروف عمل قالفينوس على أن يحشد في بونطوس أحسن ما كان في وسعه حشده من قوات . وكانت هذه القوات تتألف من قوة صغيرة من الخيالة أسهم بها ديوتاروس وأريوبارزانس ومن أربع فرق كانت إحداها هي الفرقة السادسة والثلاثون المؤلفة من جنود بومبي المدربين تدريباً طيباً ، وكانت فرقتان أخريان قد حشدهما ديوتاروس من غالاتيـــا ودربهما وسلحهما على النهج الروماني ، وكانت الفرقة الرابعة تتألف من جنود جُمعوا على وجه السرعة من بونطوس . وعندما تم حشد هذه القوات ، أغفل قالفينوس شأن البعثات والهدايا التي أرسلها اليه فارناقس وزحف حتى نيقوبوليس (Nicopolis) حيث توقف قبل الوقوع في كمين نصبه له فارناقس .

ويبدو أن قالفينوس توقف عند نيقوبوليس على أمل أن يؤدي زحفه الى إلقاء الرعب في قلب فارناقس فينسحب من أرمينيا ، بيد أن نجاح فارناقس في الوقوف على محتويات الرسائل التي بعث بها قيصر الى قالفينوس عن تحرج

الموقف في الإسكندرية وضرورة إرسال نجدة لإنقاذه شجع فارناقس على أن يختار موقعاً منيعاً أمام نيقوبوليس منتظراً أن يقوم العدو بأحد أمرين إما الإنسحاب وإما الصلح . ولكنه بدلاً من ذلك اشتبك قالفينوس مع فارناقس في معركة مُنيت فيها قوات قالفينوس الأسيوية بهزيمة فادحة لم يحل دون تحولها الى كارثة محققة إلا صمود الفرقة السادسة والثلاثين . وبفضل بقايا قوات قالفينوس وقدوم الشتاء أُنقذت ولاية آسيا من براثن فارناقس ، فولى وجهه شطر بونطوس واكتسحها وارتكب فيها من أعمال السلب والنهب والقتل والتعذيب ما يجل عن الوصف(٨٤) .

وعندما غادر قيصر مصر اتجه أولاً الى بطوليميس آقي (Ptolemaïs Ace = عكا) على الشاطىء الفينيقي . ويحدثنا المؤرخ اليهودي يوسف بأن قيصر كافأ يهود فلسطين على المساعدة التي قدموها لجيش النجدة بإنقاص الجزية المفروضة عليهم وبإعفائهم من الخدمة العسكرية والإلتزامات الإضافية ، وبالسماح لهم باعادة بناء أسوار أورشليم ، وباستعادة ميناء يافا ، وبأن قيصر كافأ كذلك كلاً من هورقانوس وأنتيباتروس بالإعتراف بالأول كاهناً أكبر وحاكماً أعلى لليهود وبترقية الثاني الى ما يمكن تشبيهه بوزير الأول(٨٥) .

وبعد ذلك اتجه قيصر الى أنطاكية حيث قضى بضعة أيام أنهى فيها تنظيم ولاية سوريا وأقام عليها سكستوس قيصر ، ثم بارحها الى طارسوس حيث استدعى لمقابلته مندوبين عن كل مجتمعات قيليقيا . وبعد أن نظم على عجل شئون هذه الولاية والبلاد المتاخمة لها خف شمالاً مع الفرقة السادسة الى قابادوقيا ومنها الى حدود بونطوس حيث انضمت اليه الفرقة السادسة والثلاثون والفرقة التي كان قالفينوس قد حشدها في بونطوس وفرقة من المشاة وقوة من الخيالة قدمهما ديوتاروس . وبفضل حملة خاطفة لم تستغرق أكثر من خمسة

---

(84) Bell. Alex., 34-41; Dio Cass., XLI, 62-64; LII, 45-46; App., B.C., II, 91.
(85) Joseph., Ant. Jud., XIV, 190 ff.

أيام غزا قيصر بونطوس وهزم فارناقس هزيمة فاصلة عند زيلا[٨٦] (Zela). فلا عجب أن قيصر وصف هذا النصر السريع الخاطف بجملته الموجزة المشهورة « جئت ورأيت وانتصرت »[٨٧] (Veni, Vidi, Vici).

وحين كان فارناقس منهمكاً في فتوحاته في آسيا الصغرى ثار عليه أحد حكامه — وكان يدعى آساندر ، Asander — لاعتقاده أن نجاح مولاه لن يدوم طويلاً وأن الرومان سيكافئونه على ثورته بالاعتراف به ملكاً على القرم. وعندما نجا فارناقس مع بعض قواته من كارثة زيلا ، حاول استرداد القرم من آساندر ولكنه فشل في ذلك ولقي مصرعه[٨٨] . وقد خيب قيصر آمال آساندر بإعطاء مملكة القرم لميثريداتس البرجامي على أن يقوم بافتتاحها من آساندر . واذا كان قيصر اعترف بديوتاروس ملكاً على غالاتيا فإنه حرمه الجزء الشرقي من هذا الإقليم وأعطاه لميثريداتس البرجامي كما حرمه أرمينيا الصغرى وأعطاها لأريوبارزانس . وبعد أن جمع قيصر الغرامات والهدايا من المدن المقهورة ترك لقالفينوس استكمال تفاصيل التسوية التي وضعها ، وأسند الى مساعده قايليوس فينيقيانوس (Vinicianus) قيادة الفرقة السادسة والثلاثين وفرقة بونطوس ، ثم أبحر حوالي أواخر يونيه عام ٤٧ ق . م . الى بلاد الاغريق ومنها الى إيطاليا حيث كانت الحالة تستدعي وجوده[٨٩] .

---

(86) Bell. Alex., 66-76; Dio Cass., XLII, 47.

(٨٧) يقول بلوتارخ (Caes., L, 2) إن هذه الجملة كانت عبارة عن رسالة أنهى بها قيصر وصف هذه الحملة الخاطفة الى صديقه آمانتيوس (Amantius) . ويحدثنا سويتونيوس (Div. Jul., xxxvii, 2) بأنه كان من بين ما عرضه قيصر في موكب انتصاره على بونطوس لافتة عليها نقش يتألف من هذه الكلمات الثلاث .

(88) Dio Cass., XLII, 47; App., Mithr., 120.

(89) Bell. Alex., 77-78; Dio Cass., XLII, 48-50, 1; App., Mithr., 121.

تاسعاً — دكتاتورية قيصر الثانية فقنصليته الثالثة

برغم أن غيبة قيصر في مصر وآسيا أتاحت لخصومه الفرصة لتجميع قواتهم في ولاية أفريقيا ، فإن قيصر آثر الذهاب أولاً الى إيطاليا لوضع الأمور في نصابها بعد أن تحرجت الحالة فيها في أثناء غيابه عنها . ذلك أنه قبل معركة فارسالوس ، حين كان الموقف مائعاً بين قيصر وبومبي ، أثار قايليوس الإضطراب في روما . ومرد هذا الإضطراب كان من ناحية الى أنه عندمـــا انتُخب تربونيوس وقايليوس برايتورين لعام ٤٨ فضل قيصر الأول على الثاني باختيار تربونيوس برايتوراً للمدينة (praetor ŭrbanus) واختيار قايليوس برايتوراً للأجانب (prâetor peregrinūs) ، ومن ناحية أخرى الى أن القانون الذي استصدره قيصر في عام ٤٩ لتخفيف ضائقة المدينين لم يرض أولئك الذين كانوا يطمعون في إلغاء الديون إلغاء كاملاً . وإزاء ذلك عمد قايليوس الى إعاقة تربونيوس عن تنفيذ قانون قيصر الخاص بالديون وأخذ يدعو مستأجري المساكن الى عدم سداد الإيجار لمدة عام ويحض الدائنين على عدم سداد ديونهم ، فالتف حوله كثيرون من المفلسين . وإزاء ما ترتب على تصرفات قايليوس من اضطرابات في روما ، استصدر القنصل سرفيليوس قراراً من السناتو بتنحية قايليوس عن منصبه ، فانضم الى ميلو ، وكان قد انتهز فرصة غياب قيصر للعودة من المنفى الى جنوب إيطاليا ، حيث جمع حوله عدداً كبيراً من الأفاقين وأخذ يعيث في البلاد فساداً، بيد أنه قُضي سريعاً على ميلو وقايليوس[٩٠] .

وفي انتظار أنباء معركة فارسالوس لم تُجر الانتخابات لعام ٤٧ ق . م . وذلك برغم انقضاء شهر يوليه (وفقاً للتقويم القديم الذي كان لا يزال متبعاً) وهو الشهر الذي كانت الانتخابات تُجرى فيه عادة . ولم يصدق الرومان نبأ انتصار قيصر في فارسالوس إلا عندما وصل أنطونيوس الى روما على رأس

(90) Dio Cass., XLII, 22-25; Caes., B.C., III, 20-22.

الفرق التي قرر قيصر إعادتها الى إيطاليا . وقد حمل أنطونيوس معه رغبة قيصر بتعيينه دكتاتوراً[٩١] لمدة عام واحد على الأرجح من أواخر يونيه (أوائل اكتوبر) عام ٤٨ وتعيين أنطونيوس قائداً للفرسان[٩٢] (magister equitum). وقد كانت مهام أنطونيوس – بوصف كونه مساعداً لقيصر ونائباً عنه في أثناء غيابه عن روما – هي المحافظة على الأمن والنظام في إيطاليا والسيطرة على قدماء محاربي قيصر الى حين عودته ، ومعاملة أنصار بومبي معاملة تتسم بالتسامح والحيطة .

بيد أنه لم يكن من شأن إسراف أنطونيوس في إشباع نزواته الماجنة تيسير اضطلاعه بالمهام التي أسندت اليه أو استقرار الأوضاع . ذلك أنه لم يلبث أن واجه مصدرين خطرين للمتاعب ، كان أحدهما شاباً عابثاً من النبلاء وهو بوبليوس قورنليوس دولابلاّ (Dolabella) الذي أصهر الى شيشرون وتبنته إحدى أسر العامة وكان أحد ترابنة العامة في عام ٤٧ ق . م . وقد وجد دولابلاّ عندئذ الفرصة سانحة ليحاول استصدار قانون بإلغاء الديون ، فيتخلص هو وأمثاله من شباب النبلاء المسرفين من ربقة ديونهم ويكتسب تأييد كل الذين كانوا يضيقون بديونهم . وعندما تصدى لمقاومة مشروع قانون دولابلاّ زميله تريبون العامة لوقيوس تربلّيوس (Trebellius) ولجأ الطرفان الى أساليب العنف والشغب ، وقعت اضطرابات شديدة ، مما حدا بالسناتو الى إصدار قرارين قضى أحدهما بعدم إدخال أي تغيير على الأوضاع القائمة الى أن يعود قيصر ، وخول القرار الآخر لأنطونيوس الإحتفاظ بقوات داخل روما ذاتها . وعندما أمعن دولابلاّ في المضي في طريقه ، لم يحل دون استصدار قانونه إلا ظهور أنطونيوس على رأس قواته في الفوروم[٩٣] .

---

(٩١) عن مدة دكتاتورية قيصر الثانية ، راجع :

U. Wilcken, Abh. Preuss. Akad., 1940; V. Ehrenberg, Amer Journ. Philol., 1953, pp. 129 ff.; A.E. Raubitscheck, J.R.S., 1954, pp. 70 ff.; Scullard, p. 145, and n. 16 p. 430.

(92) Dio Cass., XLII, 21; Plut., Anton., VIII.

(93) Dio Cass., XLII, 29; Plut., Anton., IX.

ومع ذلك فإن الصراع استمر على أشده بين دولابيلا وتربليوس دون أن يستطيع أنطونيوس السيطرة على ناصية الحال [٩٤] .

وقد كان أخطر شأناً من ذلك أن جنود الفرق التي أعادها قيصر الى إيطاليا تمردوا بسبب طول انتظارهم عودة قيصر ليسرحهم ويكافأهم على خدماتهم الطويلة ، وأن هؤلاء الجنود المتمردين أصبحوا خطراً على الدولة ونقمة على المقاطعات التي أنزلوا فيها دون أن يفلح أنطونيوس في وضع حد لمسلكهم المشين . وإذا صدقنا ما يرويه بلوتارخ بهذا الصدد فإن مسلك أنطونيوس المعيب كان حافزاً لأولئك الجنود على ما ارتكبوه من أعمال العنف والجشع [٩٥] .

وسط هذه الأزمة الخطيرة ، وصل قيصر الى روما (حوالي منتصف يوليه عام ٤٧ ق . م .) ، وأنفذ البرايتور صالوستيوس الى الجنود المتمردين حاملاً إليهم وعداً من قيصر بزيادة المكافأة التي وُعدوا بها قبل فارسالوس ، ولكنهم استقبلوا صالوستيوس استقبالاً عدائياً وكادوا أن يفتكوا به . وعندما تمادت الفرقة العاشرة في غيها وزحفت على روما حيث عسكرت في ساحة الإله مارس ، فاجأ قيصر أولئك الجنود المتمردين بالظهور أمامهم وتسريحهم على الفور إذ أنه خاطبهم بقوله « أيها المواطنون المدنيون بدلاً من أيها الجنود » (Quirites eos pro militibus appellarat) ، ووعد بمكافأتهم على ألا يشاركه في مواكب نصره إلا الراغبون تلقائياً في مشاركته الإجهاز على ما تبقى لخصومه من قوات . فلم يكن منهم إلا أنهم استعادوا صوابهم وندموا على مسلكهم ووعدوا بمصاحبته الى أفريقيا [٩٦] .

ولما كان هناك أساس فعلي لمشكلة الديون التي سببت تلك الإضطرابات التي سبق ذكرها ، فإن قيصر قضى بإعفاء مستأجري المساكن من سداد إيجارها لمدة عام في حدود ٢٠٠٠ سسترتيوس في روما و ٥٠٠ في باقي إيطاليا ،

---

(94) Dio Cass., XLII, 30-33.
(95) Dio Cass., XLII, 30; Plut., Anton., X, 1
(96) Dio Cass., XLII, 52-55; Sueton., Div. Jul., LXX, App., B.C., II, 92-94

وكذلك باعفاء المدينين من دفع الفوائد المتراكمة على ديونهم منذ امتشق الحسام ضد بومبي ، على أن يؤخذ في الاعتبار ما كان قد قضي به قبلاً من حيث تقدير قيمة ممتلكات المدينين وفقاً لقيمتها قبل نشوب الحرب(٩٧) . وبفضل ذلك خفف قيصر وطأة الضائقة الإقتصادية وفي الوقت نفسه أدخل الطمأنينة على قلوب أصحاب رؤوس الأموال لكيلا يعزفوا عن إعطاء القروض(٩٨) .

وقد عفا قيصر عن كبار أنصار بومبي الذين استسلموا له . وإزاء الخدمات التي سبق أن أداها لقيصر كل من أنطونيوس ودولابلا ، فإن الدكتاتور غض الطرف عن مسلك الأول وفشله في الحفاظ على الأمن والنظام وعن الإضطرابات التي تسبب فيها الثاني ، إلا أنه لم يكافئهما مثل ما كافأ غيرهما من أنصاره . ذلك أنه سمح بانتخاب قالنوس (Calenus) وفاتينيوس قنصلين للشهور الباقية من عام ٤٧(٩٩) وبانتخاب عشرة برايتورس للعام التالي، أي بزيادة برايتورين عن العدد الذي أصبح مقرراً منذ عهد صلا، وكذلك زاد عدد أعضاء الجماعات الدينية الرئيسية بإضافة عضو جديد لكل من جماعة الكهنة (pontifices) وجماعة العراف (augures) وجماعة حراس الكتب المقدسة (Quindecimviri Sacris Faciundis) . ولما كان السناتو قد فقد الكثيرين من أعضائه من جراء الحروب ، فإن قيصر ملأ الأماكن الشاغرة (١٠٠) من أنصاره بطبيعة الحال .

ولما كان خصوم قيصر قد حشدوا قوات كبيرة في شمال أفريقيا وأصبح يتعين عليه الخروج اليهم ، فإنه أرجأ باقي إصلاحاته الى أن يفرغ من هذه

(97) Sueton, Div. Jul., XXXVIII, 2; Fasti Ostiensis (C.I.L., XIV, Suppl. 4531); Cic., de Off., II, 23, 83; Dio Cass., XLII, 51; M.W. Frederiksen, J.R.S., 1966, pp. 128 ff.; cf. J. Crook, Law and Life of Rome, 1967, pp. 176 ff.; Scullard, 1970, n. 12 p. 429.

(98) C.A.H., IX, p. 680.

(99) Plut., Anton., X; Dio Cass., XLII, 56.

(100) Sueton., Div. Jul., XLI, 1.

الحملة . وإزاء ذلك فإنه بعد انتخابه هو ولبيدوس قنصلين للعام التالي (عام ٤٦) بارح إيطاليا في شهر سبتمبر [١٠١] .

عاشراً — حملة قيصر الأفريقية

عرفنا ما كان من أمر نكبة قوريو في أفريقيا في عام ٤٩ . ولم يكن في وسع قيصر عندئذ أن يفعل أكثر من اعتبار يوبا (ملك نوميديا وحليف فاروس حاكم ولاية أفريقيا الموالي لبومبي) عدواً للدولة الرومانية والإعتراف بجاري يوبا وخصميه الأخوين بوجود (Bogud) وبوكوس (Bocchus) ملكين على موريتانيا [١٠٢] . وبعد القضاء على حملة قوريو ظلت ولاية أفريقيا تحت سيطرة فاروس الذي عكف وهو ويوبا على إعداد العدة للدفاع عن نفسيهما ، ولذلك فإنه عندما هُزم بومبي في فارسالوس أصبحت ولاية أفريقيا معقد آمال الجمهوريين لمتابعة النضال ضد قيصر .

ويتبين من مصدرنا الرئيسي لهذه الحرب وهو المعروف باسم « الحرب الأفريقية »[١٠٣] (Bellum Africum) أنه قد كان من أبرز الجمهوريين الذين وفدوا على ولاية أفريقيا منذ فارسالوس : قاتو ولابينوس وأفرانيوس

(101) Plut., Caes., LII, 1; Anton., X, 1.
(102) Dio Cass., XLI, 42, 7.

(١٠٣) هذا المصدر عبارة عن سجل لأحداث الحرب التي خاض غمارها قيصر في أفريقيا في شتاء عام ٤٧/٤٦ ق.م. وينم أسلوب هذا المصدر ومحتوياته عن أن كاتبه كان أحد ضباط قيصر الذين اشتركوا في هذه الحملة إلا أنه لم يكن على صلة وثيقة بقيصر تمكنه من معرفة خططه . وقد عنى الكاتب بإثبات تواريخ الأحداث والمسافات بين الأماكن المختلفة ، بيد أنه إزاء اقتصاده في توضيح الإتجاهات وما نال السجل من تشويه على أيدي الذين نسخوه نشأت بعض الصعوبات الطوبوغرافية المحيرة التي لم تفلح بعد جهود الباحثين في التغلب عليها تماماً . راجع :
T. Rice Holmes, Roman Republic, III, p. 274; C.A.H., IX, pp. 684-5.
راجع كذلك :
App., B.C., II, 95-100; Plut., Caes., LII-LIV; Dio Cass., XLII, 13; 56-58; XLIII, 2-14, 2.

وبتريوس وفاوستوس صلا وابنا بومبي سكستوس وجنايوس والقنصل سابق كوينتوس متلّوس سقيبيو – حمو بومبي – وهو الذي أُسندت اليه القيادة العليا لقواتهم . وكانت هذه القوات تتألف من عشر فرق من المشاة الكاملي العدة (حوالي ٣٥٠٠٠ رجل) فضلاً عن قوة كبيرة من المشاة الخفيفي العدة ورماة النبال ورماة الحراب وأصحاب المقاليع ، وحوالي ١٥٠٠٠ من الخيالة، وأسطول يتألف من حوالي خمسين أوستين سفينة . هذا الى جانب قوات يوبا وكانت تتألف من حوالي ٣٠٠٠٠ مقاتل من المشاة وقوة كبيرة من الخيالة . فضلاً عن حوالي ٦٠ فيلاً .

وحشد كل هذه القوات من الخصوم يفسر سبب مبادرة قيصر الى مبارحة روما ليقضي على هذا الخطر بنفسه ، والى اتخاذه صقلية قاعدة أمامية لقواته المؤلفة من عشر فرق من المشاة الكاملي العدة وحوالي ٣٠٠٠ من المشاة الخفيفي العدة وحوالي ٤٠٠٠ من الخيالة . وقد واجه قيصر الموقف بجرأته المعتادة . ذلك أنه لم يكن لديه الوقت ولا الوسائل لبناء أسطول يمكنه من السيطرة على البحار سيطرة فعالة ، كما أنه كان يفتقر الى ناقلات كافية لنقل قواته دفعة واحدة ، مما اضطره الى المجازفة بنقلها على دفعات واستغراق ثلاثة شهور – منذ بداية الحملة – لاستكمال نقلها جميعاً . وكان قيصر يتوقع الحصول على بعض المساعدات في أفريقيا من ملكي موريتانيا فضلاً عن المغامر بوبليوس سيتّيوس (Sittius) ، وهو الذي كان قد فر من دائنيه في روما وذهب الى إسبانيا لتكوين ثروة جديدة ثم كون جيشاً خاصاً وأسطولاً صغيراً وانخرط منذ حوالي عشرين عاماً في خدمة حكام موريتانيا .

ولم يكن في وسع قيصر مباغتة خصومه لأنهم وضعوا حاميات في أكثر الموانئ وحصنوا عدداً كبيراً من المدن . ولما كان عامل السرعة قد أملى على قيصر المجازفة بنقل قواته في خلال عواصف الخريف ، فإنه في الثامن من اكتوبر أبحر من ليلوبايوم ومعه ست فرق وسبع كتائب من المشاة الكاملي العدة وقوة صغيرة من المشاة الخفيفي العدة و٢٦٠٠ من الخيالة . وعندما وصل الى هادروميتوم

(Hadrumetum) لم يكن معه إلا عدد قليل من السفن على ظهرها ٣٠٠٠ من المشاة و ١٥٠ من الخيالة ، لأن العواصف التي هبت شتتت شمل أسطوله . ولما كانت هادرومتوم محصنة تحصيناً قوياً ، ولم يكن في وسع قيصر مهاجمتها بالقوة الصغيرة التي معه ، فإنه اتجه صوب لبدة الصغرى (Leptis Minor)، وكانت تقع جنوبي هادرومتوم بحوالي أحد عشر كيلومتراً . وقد رحبت لبدة بقيصر ، ولم يلبث أن أتاه عدد من سفنه الحربية وناقلاته فأصبح لديه حوالي ٥٠٠٠ مقاتل . وعلى الفور بادر قيصر بإرسال رابيريوس بوستوموس الى صقلية لاستقدام باقي القوات على عجل ، وعهد الى صالوستيوس بمهاجمة جزيرة قرقينا (Cercina) حيث اختزن العدو كميات من القمح . ثم ترك ست كتائب في لبدة وخرج قاصداً الاستيلاء على هضبة بالقرب من روسبينا (Ruspina) ، وكانت تبعد حوالي سبعة كيلومترات الى الشمال . وبعد استيلاء قيصر على روسبينا وتحصينها تحصيناً قوياً بدأ يقوم بعمليات لجمع المؤنة فوقع في مأزق حرج .

وبيان ذلك أنه عند قدوم قيصر كانت القاعدة الرئيسية لقوات خصومه هي أوتيقا (Utica) — حيث كانت توجد ثماني فرق وأغلب الخيالة بقيادة سقيبيو ومساعديه لابينوس وبتريوس — وأنه كانت توجد في هادرومتوم فرقتان بقيادة قونسيديوس (Considius) ، وأن باقي القوات كانت موزعة في حاميات على عدد من المدن ، وأن يوبا كان لا يزال في نوميديا . وعندما تأكد لخصوم قيصر نبأ وصوله . خف إلى مهاجمته لابينوس وفي أعقابه بتريوس على رأس قوات من الخيالة والمشاة الخفيفي العدة ، ثم تبع ذلك زحف سقيبيو من الشمال ويوبا من الغرب . وقد كاد لابينوس وبتريوس أن يلحقا بقيصر هزيمة فادحة لولا قيامه بمناورة جريئة بارعة أتاحت له الإفلات من المأزق الذي وجد نفسه فيه والانسحاب وراء التحصينات المنيعة التي أقامها فوق هضبة روسبينا . وقد مضت بعد ذلك ثلاثة أسابيع حدث في أثنائها أن باقي سفن الدفعة الأولى وصلت فازداد عدد قوات قيصر . وأن يوبا اضطر الى العودة الى

نوميديا لصد الهجمات التي شنها بوكوس وسيتيوس على مملكته إلا أنه ترك لحلفائه بعض فرق الخيالة وثلاثين فيلاً . ومع ذلك فإنــه دون مساعدة يوبا كانت قوات الجمهوريين أضخم من أن يستطيع قيصر المخاطرة بشن هجوم عليها عندئذ . بيد أنه عندما وصلت بعد قليل الدفعة الثانية من قوات قيصر وكانت تشمل فرقتين و ٨٠٠ خيــال و ١٠٠٠ من رماة النبــال وأصحاب المقاليــع ، وبذلك أصبحت لدى قيصر ثمــاني فرق من بينها ثلاث تتألف من قدماء المحاربين المجربين ، انتقل زمام الموقف الى قيصر . فقد غدا وطيد الأمل في الانتصار على خصومه إذا أرغمهم على الاشتباك معه قبل عودة يوبا بقواته الضخمة ونازلهم في مكان لا يتمتعون فيه بميزة واضحة من حيث الموقع . ولما كان موقع قيصر عند روسبينا غير موات للحصول في يسر وسهولة على التموين اللازم لقواته ولا سيما بعد ازديادها ، وكانت الخيول قد بدأت تعاني من الافتقار الى العلف الطازج ، فإنه في مساء السابع من نوفمبر انتقل بقواته الى مجموعة من التلال الواقعة جنوبي موقعه السابق بحوالي عشرة كيلومترات ، ولكن سقيبيو رفض مبارحة موقعه المنيع عند أوزيتا (Uzita) والاشتباك مع قيصر . وعندما وصلت قيصر الفرقتان الباقيتان من قواته ، عمد الى مد خطوطه بحيث يهدد أوزيتا لإرغام سقيبيو على الاشتباك معه . ولكن لابينوس خيب على قيصر هذه الخطة بمناورات بارعة ، ودأب دون كلل على عرقلة جمع وسائل الإعاشة لقواته .

وإزاء ذلك قرر قيصر الانسحاب جنوباً على أمل أن يتمكن من القيام بمناورات تتيح له فرصة الاشتباك مع خصومه في مكان ملائم . وفي ٢٦ من يناير عام ٤٦ ق . م . نزل قيصر بمكان يدعى أجّار (Aggar) على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من أوزيتا . وهناك أيضاً فشل قيصر في إغراء سقيبيو على منازلته ، فانتقل الى سارسورا (Sarsura) حيث قضى على حاميتها النوميدية واستولى على مستودعات المؤنة الموجودة فيها . ثم عاد الى أجّار في أوائل فبراير . وفي هذه الأثناء كان يوبا قد أسند الى قائده سابورا

(Saburra) مهمة صد سيتّيوس وانضم بباقي قواته الى سقيبيو .

ولما كانت قد انقضت أربعة أشهر منذ وصول قيصر الى أفريقيا دون الوصول الى نتيجة حاسمة ، وكانت فرصته الوحيدة لإحراز النصر هي إرغام خصومه على منازلته في مكان تستطيع فيه مهارة قواته التغلب على تفوقهم العددي ، وكانت كل محاولات قيصر السابقة قد باءت بالفشل ، فإنه لم يبق أمامه لتحقيق هدفه المنشود إلا الإقدام على اتخاذ خطوة جريئة . وقد هدت قيصر قريحته الوقادة الى القيام بمحاصرة ثابسوس (Thapsus) ، وكانت توجد حامية كبيرة في هذه المدينة ، وهي التي كانت تقع على البحر شمالي أجّار بحوالي خمسة وعشرين كيلومتراً ولا يمكن الوصول اليها براً إلا عن طريق برزخين يؤديان اليها من الجنوب والغرب ويقع أحدهما شرقي مستنقع كبير والآخر شمالي هذا المستنقع . وتحت جنح الظلام وصل قيصر الى البرزخ الشرقي وأقام تحصينات بالقرب من مدخله الجنوبي وزحف على ثابسوس . وإزاء ذلك تصور سقيبيو أن أفضل خطة تكفل له النصر وإن كانت تقتضي تقسيم قواته هي تضييق الخناق على قيصر بالسيطرة على البرزخين فيحرمه الحصول على المؤنة ويضطره الى التسليم . وعندما زحف سقيبيو على البرزخ الشرقي وأوقفته تحصينات قيصر، ترك أفرانيوس ويوبا لإغلاق مدخل هذا البرزخ واستدار ليلاً مع الجانب الأكبر من قواته حول الجانب الغربي للمستنقع . وعند فجر السادس من فبراير كان سقيبيو على بعد كيلو مترين من قيصر ، وكان قد توقع مثل هذه الحركة وترك فرقتين لمحاصرة المدينة وتأمين مؤخرته وزحف غرباً الى أضيق منطقة في البرزخ الشمالي بعد إرسال سفنه للظهور في مؤخرة العدو في الوقت المناسب . ولما كان سقيبيو في اندفاعه لبلوغ أضيق منطقة في البرزخ قد اقترب من عدوه اقتراباً شديداً . وكان البحر يحيط به من ناحية والمستنقع من ناحية أخرى ، فإنه لم يعد في وسعه الإنسحاب انسحاباً آمناً . وما أن بدأت المعركة حتى اكتسحت قوات قيصر قوات العدو ، فترك جانباً من قواته تطارد الهاربين من المعركة وذهب

مع جانب آخر عن طريق المدينة الى البرزخ الشرقي حيث ظهر أمام معسكر أفرانيوس ويوبا ولكنهما كانا قد هربا بمجرد سماعهما بنبأ هزيمة سقيبيو فطارد القوات الباقية ورد كثيرين من الهاربين على أعقابهم . وعندما تجمع هؤلاء فوق أحد التلال وألقوا سلاحهم والتمسوا الرأفة لم يفلح ذلك في إنقاذهم من الجنود المنتصرين فقد أجهزوا عليهم جميعاً دون رحمة أو شفقة . ويقدر عدد ضحايا هذه المعركة بحوالي ٥٠,٠٠٠ كان من بينهم أقطاب الجمهوريين فيما عدا لابينوس وفاروس وسكستوس بومبي فقد تمكنوا من النجاة وبلوغ إسبانيا حيث كان سقيبيو قد أوفد جنايوس بومبي للانضمام الى فرق قيصر المتمردة هناك ، على نحو ما سيأتي ذكره فيما بعد .

وفي العاشر من فبراير كان خيالة قيصر على بعد مسيرة يومين من أوتيقا . وكانت مهمة الدفاع عنها قد أسندت الى قاتو . وعندما أدرك قاتو أن كل أمل في المقاومة قد تبدد ، آثر الانتحار على الوقوع أسيراً في قبضة عدوه . وتعتبر وفاة قاتو رمزاً لنهاية عهد النظام الجمهوري ، وهو النظام الذي حاول جاهداً طوال حياته الدفاع عنه وتأييده بكل قوة وحماس . فلا عجب أنه في عهد النظام الملكي اعتبره الفلاسفة الرواقيون شهيداً خالداً لإيمانه بالنظام الجمهوري ونموذجاً كاملاً للفضائل الرواقية [١٠٤] .

وفي خلال ثلاثة أسابيع من معركة ثابسوس ، وقعت ولاية أفريقيا بأسرها في قبضة قيصر . وأما عن نوميديا ، حيث كان سيتيوس قد هزم سابوراً ، فان يوبا تمكن من الوصول حتى مشارف عاصمته زاما وفي رفقته بتريوس . ولكنه لما كان يوبا قد أعد العدة قبل خروجه من زاما لإحراقها وأهلها بما في ذلك هو نفسه وأسرته وكنوزه في حالة هزيمته ، فإن المدينة أوصدت دونه

---

(١٠٤) عن قاتو وهو الذي يدعى عادة قاتو الأوتيقي (Cato Uticensis) تمييزاً له عن قاتو الكبير أو القنسور (Cato Censorius) ، راجع :

Plut., Cato Minor, LXV-LXXII; L.R. Taylor, Party Politics in the Age of Caesar, 1949, Ch. VIII; A. Afzelius, Classica et Med., 1941, pp. 100 ff.

أبوابها . وعندئذ قرر يوبا وبترَيوس أن ينهيا حياتهما فقتل أحدهما الآخر ثم طعن نفسه طعنة قاتلة .

وقد حول قيصر الجانب الأكبر من نوميديا الى ولاية رومانية باسم ولاية أفريقيا الجديدة (Provincia Africa Nova) ، وسُميت ولاية أفريقيا الأصلية ولاية أفريقيا القديمة (Africa Vetus) . وجزاء انضمام ماسينيسّا – ملك الجزء الغربي من نوميديا – الى جانب الجمهوريين ، قسم قيصر مملكته قسمين وأعطى نصفها الغربي الى بوكوس ونصفها الشرقي الى سيتّيوس الذي حصل كذلك على شطر من مملكة يوبا .

ولما كانت لبدة الكبرى (Leptis Magna) قد حالفت يوبا واستضافت قاتو فقضى فيها شتاء عام ٤٨/ ٤٧ – حين كان في طريقه الى ولاية أفريقيا – فإن قيصر أنزل هذه المدينة من مرتبة حليفة وصديقة الى مرتبة مدينة تابعة لروما ، وفرض عليها جزية سنوية قدرها ثلاثة مليون رطل من زيت الزيتون . ومن المعتقد أن أويا (Oea = طرابلس) وصبراتا كانتا تتبعان سياسة لبده وأنهما تبعاً لذلك أُنزلتا أيضاً الى مصاف المدن التابعة لروما . وإذا صح ذلك فإنه من الجائز أنهما كانتا تسهمان في دفع الجزية السالفة الذكر ولا سيما أنها كانت أضخم من أن تتحملها لبدة وحدها .

حادي عشر – إقامة قيصر دكتاتوراً للمرة الثالثة ثم انتخابه قنصلاً مفرداً (قنصليته الرابعة) :

عندما وصلت الى روما أنباء معركة ثابسوس أقيم قيصر دكتاتوراً لمدة عشر سنوات ومشرفاً عاماً على الأخلاق ! (Praefectus moribus) لمدة ثلاث سنوات وأضفيت عليه مظاهر تشريف كثيرة[١٠٥] .

---

(105) Dio Cass., XLIII, 14; Cic., ad Fam., IX, 15, 5.

لا يعد ما ذهب اليه أحد الباحثين من أنه كانت تفصل بين دكتاتورية كل سنة وأخرى =

وعقب وصول قيصر الى روما ، عُني بأن يبث الطمأنينة في نفوس مواطنيه فألقى فيهم خطاباً مستفيضاً حرص على أن يؤكد فيه أنه لن يكون من شأن الإنتصارات التي أحرزها والسلطات الواسعة التي أصبح يتمتع بها أن يرتكب من أعمال القسوة مثل ما ارتكبه صلا وماريوس وقينا وغيرهم ممن انتصروا على خصومهم ، أو أن يقيم نفسه طاغية مستبداً ، بل أن يقوم بكل ما فيه صالحهم وصالح البلاد . وقال لهم إنه إزاء رغبته الأكيدة في عدم إثارة الماضي أحرق المراسلات الخاصة التي وجدها في معسكري بومبي وسقيبيو دون أن يطلع على هذه المراسلات أو أن ينقل صورها . وختم خطابه بدعوة الجميع الى تناسي الماضي ووضع أيديهم في يده للعمل سوياً في خدمة الصالح العــــام (١٠٦).

وللحفاظ على شعور المواطنين الرومان بوجه عام والجمهوريين منهم بوجه خاص، حرص قيصر على تجنب الظهور بمظهر المنتصر في حرب أهلية وعمد بدلاً من ذلك الى الظهور بمظهر المواطن الذي دافع عن حــــدود الإمبراطورية وبسط رقعتها ، فلم يحتفل بانتصاره على بومبي وأنصاره في فارسالوس ولم يعتبر انتصاره في ولاية أفريقيا إنتصاراً على سقيبيو وصحبه بل على يوبا . ذلك أن قيصر احتفل بانتصاره على الغال وعلى الإسكندريين وعلى فارناقس وعلى يوبا بإقامة أربعة مواكب للنصر فاقت في فخامتهــا وروعتها كل ما شهده الرومان من قبل ولا سيما من حيث عدد الأسرى الذين عرضوا في هذه المواكب وكان من بينهم الأميرة أرسينوى شقيقة كليوبترة وعدوتها والأمير يوبا الصغير إبن ملك نوميديا الراحل وفرقينجتوريكس الذي اقتيد بعد ذلك ليلقى مصرعه . ووزع قيصر على كل جندي ٥٠٠٠

= فترة قصيرة كان قيصر يعتبر فيها دكتاتوراً مرشحاً (dictator designatus) لدكتاتورية العام التالي ، أنظر :

Raubitschek, J.R.S., 1954, p. 71; Scullard, 1970, p. 146

(106) Dio Cass., XLIII, 15-18; Plut., Caes., LV, 1.

ديناريوس وعلى كل صف ضابط (قنتوريون ، Centurion) ضعف هذا المبلغ وعلى كل مواطن شهد المواكب ١٠٠ ديناريوس . وبعد انتهاء مواكب النصر التي استغرقت أربعة أيام ، أقام قيصر وليمة هائلة صفت فيها ٢٢٠٠٠ مائدة . وفضلاً عن ذلك كله فإنه إجلالاً لذكرى إبنة قيصر ، زوجة بومبي المتوفاة ، أقيمت حفلات تمثيلية ومعركة بحرية صورية ومبارزات بين المجالدين وأسرى الحرب ومباريات متعددة الأنواع بعضها رياضية وبعضها لسباق العربات وبعضها لصيد الحيوانات المفترسة (١٠٧) .

وبعد ذلك وجه قيصر عنايته الى القيام بإصلاحات واسعة النطاق ، ولكنه اضطر الى وقف إصلاحاته للقيام بآخر حملاته لأن البقية الباقية من خصومه نجحت في تكوين قوة كبيرة في إسبانيا عجزت عن التصدي لها القوات التي أرسلها لردعها . وإزاء ذلك فإنه ما أن أجرى لبيدوس (وكان أحد قنصلي عام ٤٦ ق. م . وكذلك قائد فرسان أي مساعد الدكتاتور) الإنتخابات لقنصلية عام ٤٥ ق . م . وانتخب قيصر بمفرده قنصلاً حتى يمم القنصل الدكتاتور وجهه في أوائل نوفمبر عام ٤٦ صوب إسبانيا لينضم الى قواته هناك (١٠٨) . ولما كان قيصر قد استكمل إصلاحاته بعد عودته من إسبانيا ، فإننا سنتناول هذه الإصلاحات جميعاً في الفصل التالي .

ثاني عشر – قيصر في إسبانيا (١٠٩) للمرة الثانية ، إقامته دكتاتوراً لمدى الحياة

عرفنا أن قيصر أقام كوينتوس قاسيوس لونجينوس حاكماً لولاية إسبانيا

---

(107) Dio Cass., XLIII, 19-25, 1; App., B.C., II, 101-102; Plut., Caes., LV; Sueton., Div. Jul., XXXVII-XXXIX.

(108) Plut., Caes., LVI, 1; App., B.C., II, 103; Dio Cass., XLIII, 28.

(١٠٩) المصدر الرئيسي لهذه الحملة هو « الحرب الإسبانية » (Bellum Hispaniense) . ولعل أن كاتب هذا المصدر كان أحد جنود قيصر غير المثقفين بدليل ما يشوب هذا المصدر من عجز وقصور في وصف الأحداث ومن خلط بين التعبيرات الدارجة والمقتطفات المأخوذة من انيوس . راجع الى جانب ذلك :

Dio Cass., XLIII, 29-43; App., B.C., II, 103-106.

القاصية . ولكنه إزاء صلف هذا الرجل واستبداده وجشعه تمردت عليه الفرق التي كانت تحت إمرته وكذلك خرجت عن طاعته بعض مدن ولايته ، مما حدا بقيصر الى تعيين تربونيوس خلفاً لهذا الحاكم . وقد هدأت الحال فترة من الوقت ، غير أن الخوف من انتقام قيصر دفع المتمردين الى الاتصال بسقيبيو في ولاية أفريقيا عارضين عليه استعدادهم لمناصرة الجمهوريين فأنفذ إليهم بعض القوات بقيادة جنايوس بومبي . وقد اتجه جنايوس أول الأمر الى جزر البليار واستولى عليها دون عناء ، ولكنه بسبب مرضه هناك تأخر وصوله هو وقواته الى إسبانيا . وإزاء ذلك ووصول الأنباء بأن سقيبيو وأكثر أقطاب الجمهوريين لقوا مصرعهم في معركة ثابسوس وبأن الأسطول الذي أرسله قيصر بقيادة ديديوس كان في الطريق ، بادر المتمردون الى اختيار تيتوس كوينتوس سقابولا (Scapula) وكوينتوس آبونيوس (Aponius) قائدين لقواتهم وقاموا بطرد تربونيوس من جنوب إسبانيا ، ونجحوا في إثارة أهالي وادي بايتيس (Baetis) للخروج على طاعة قيصر .

وعندما شفي جنايوس بومبي ووصل الى إسبانيا وسارعت مدن كثيرة الى الالتفاف حوله بفضل المكانة الكبيرة التي كانت لأبيه بينهم لم يجد المتمردون مناصاً من إسناد القيادة العليا اليه . ولم يلبث أن انضم اليه كل رجال الفرق التي كانت تحارب ضد قيصر بقيادة أفرانيوس وبتريوس كما انضم اليه كثيرون ممن نجحوا في الفرار من أفريقيا وكان أبرزهم أخوه سكستوس وفاروس وأهمهم لابينوس الذي قدم على رأس أسطول . وسرعان ما ازدادت قوات خصوم قيصر فأصبحت تتألف من ثلاث عشرة فرقة من المشاة كاملي العدة فضلاً عن القوات الخفيفة العدة و ٦٠٠٠ خيال . وإزاء ذلك لم يسع القوات القليلة التي أرسلها قيصر بقيادة كوينتوس فابيوس ماكسيموس وكوينتوس بديوس (Pedius) إلا تجنب الإشتباك مع العدو واستصراخ قيصر أن يأتي على عجل .

واستجابة الى هذا النداء ، غادر قيصر روما في أوائل شهر نوفمبر عام

٤٦ ق . م . ووصل الى إسبانيا مع جانب من قواته في ظرف سبعة وعشرين يوماً . وبوصول باقي القوات بعد قليل أصبح لدى قيصر ثماني فرق من المشاة الكاملي العدة فضلاً عن القوات المساعدة و ٨٠٠٠ خيال . وعندئذ عمد خصوم قيصر على مدى ثلاثة شهور الى تجنب الإشتباك معه في معركة فاصلة ، والانسحاب جنوباً رويداً رويدا ، فأخذت الحرب طابع سلسلة من حصار مدينة بعد أخرى ومناورة بعد مناورة الى أن بلغ جنايوس بومبي مشارف مدينة أورسو (Urso) ، حيث صمم على أن يتخذ لقواته موقعاً منيعاً مرتفعاً بين هذه المدينة ومدينة موندا (Mūnda) — أي بين إشبيلية وملقا — لوثوقه من أن قيصر سيعزف عن مهاجمة مثل هذا الموقع المنيع . وفي السابع عشر من شهر مارس عام ٤٥ ق . م . عبر قيصر النهر الذي كان يمتد أمام موقع خصمه ووقف بقواته متحدياً إياه أن ينازله عند سفوح الموقع المرتفع . ولما كان انحدار السفوح في صالح بومبي فإنه لم يتردد في الاشتباك مع قيصر . وقد كانت المعركة ضارية تبادل فيها الفريقان الهجمات عدة ساعات الى أن تمكنت فرقة قيصر العاشرة من رد الجناح الأيسر للعدو على أعقابه وانتهز بوجود هذه الفرصة لينقض بقواته وخيالته على العدو من الجانب والخلف . وعندما أدرك لابينوس الخطر المحدق بباقي الجيش سحب بعض القوات من الجناح الآخر لتحل مكان المرتدين وتحمي قلب الجيش من ناحية جانبه المكشوف ، ولكنه عندما شرع في تنفيذ فكرته تصور قلب الجيش — وكان الضغط عليه شديداً — أن هذه الحركة كانت بداية الفرار من المعركة فولى رجاله الإدبار . غير أنه لما كان طول الصراع قد أنهك قواهم ، فانهم خروا فريسة سهلة لمطارديهم وقُضي عليهم قضاء مبرماً . ولم ينج من هذه المعركة من زعماء الجمهوريين إلا سكستوس بومبي ، فقد استطاع الفرار وركوب البحر والاختباء الى أن ظهر بعد مصرع قيصر وشارك في مناوءة أنصاره الذين هبوا للثأر له .

وبتحطيم جيش العدو لم يجد قيصر عناء في إخضاع الأقاليم التي خرجت عليه وأيدت خصومه . وقد عامل قيصر هذه الأقاليم بقسوة متناهية . وبعد

أن وضع ترتيبات أولية لمستعمرات الجنود التي اعتزم إنشاءها في إسبانيا قفل راجعاً الى روما لاستكمال إصلاحاته .

وعندما وصلت الى روما أنباء معركة موندا ، أغدق السناتو على قيصر مظاهر تشريف جديدة كان من بينها منحه لقب « ابو الوطن » (Pater Patriae) وإقامة تماثيل له في كل المعابد والأماكن العامة والولايات . وأما باقي مظاهر التشريف التي تنم عن تأليه قيصر في حياته فإننا نرجىء الحديث عنها الى الفصل التالي . وعقب عودة قيصر الى روما ، أقام موكب نصر جديد احتفالاً بانتصاره على إسبانيا . وفي شهر اكتوبر عام ٤٥ ق . م . نزل قيصر عن وظيفة القنصلية التي تولاها بمفرده هذا العام حتى ذلك الوقت ، واختار بدلاً منه كوينتوس فابيوس ماكسيموس وجايوس تربونيوس . وعندما توفي الأول في آخر يوم من قنصليته أقام قيصر بدلاً منه جايوس قانينيوس ربيلوس (Caninius Rebilus) قنصلاً ليوم واحد ! وأخيراً رضي قيصر عن أنطونيوس وسمح بانتخابه زميلاً له لقنصلية عام ٤٤ ق . م . ويحتمل ان إقامة قيصر دكتاتوراً لمدى الحياة (Dictator perpetuus) كانت حوالي منتصف شهر فبراير [١١٠] عام ٤٤ ق . م .

وتعتبر معركة موندا خاتمة سيرة قيصر العسكرية ، وهي السيرة التي يتم تتبعها منذ أن حارب الهلفتيي الى أن قضى على آخر قوات خصومه في معركة موندا عن أنه كان يماثل الإسكندر وهانيبال من حيث الجرأة وسرعة الحركة والقدرة على جعل جنوده أداة ماضية شديدة الفتك بالعدو الذي يتصدى لها . ولعل أن أبرز صفات قيصر القائد كانت شدة ذكائه وسرعة بديهته في تقدير كنه أغلب المواقف التي جابهته وانتهاز أفضل الفرص لتسديد الضربة القاتلة لخصمه ، مما بعث فيه ثقة كاملة بمواهبه . فهو إذا أدرك أن الموقع غير ملائم لقواته دبر من المناورات ما أتاح له الموقع المناسب ، وإذا قدر أن الظرف

(110) Dio Cass., XLIII, 44-49; App., B.C., II, 106-107; Velleius, II, 56; Scullard, 1970, p. 147.

يقتضي المجازفة أقدم دون تردد وأما إذا أحس أن الظرف يقتضي الإنتظار كان طويل الصبر والأناة . وقد كانت سرعة تحركاته من أهم عوامل انتصاراته . واذا كان في بعض الأحيان قد كال ضربته قبل الوقت المناسب مثل ما حدث عند جرجوفيا وإيلردا ودورّاخيوم ، فإنه قلما سدد ضربته بعد فوات الأوان .

وكان قيصر يفضل استخدام قوات قليلة العدد نسبيا ولكنها على مستوى رفيع من التدريب ، وذلك لسببين ، كان أحدهما هو أنه كان يشارك غيره من القواد تقديرهم صعوبة تموين قوات كبيرة العدد . وكان السبب الآخر هو ثقته في قدرته على الإفادة الى أقصى حد من كل جندي من جنوده .

ويعزو النقاد العسكريون انتصارات قيصر الى قوة شخصيته ، ويرون أنه لم يبتكر جديداً في فن الحرب الروماني ، ولذلك يرون أنـــه من هذه الناحية لم يكن نداً لماريوس ولا أيضا فيما يبدو لصلا . وإذا كان قيصر يفتقر كذلك الى ما امتاز به بومبي الأكبر من القدرة على الإفادة من قواته البرية والبحرية في آن واحد ، كما كان يفتقر الى إدراك الإسكندر الأكبر لأهمية الفرسان بوصف كونهم قوة ضاربة شديدة الفتك ، فإنه استغل مواهبه العقلية الممتازة في استخدام المألوف من أساليب الحرب الرومانية وأحرز نتائج باهرة ، فلا عجب أن أكثر النقاد العسكريين يعتبرونه أعظم القواد الرومان[١١١] .

---

(111) C.A.H., IX, pp. 704-5.

الفصل الثالث عشر

دكتاتورية قيصر

أولاً – رأفة قيصر

لا يوجد مبرر كاف للاعتقاد بأن قيصر كان يعد العدة منذ أمد طويل لخوض غمار حرب أهلية ، ولا بأنه كان يصبو الى الفوز بشيء أكثر من مركز يعادل مركز بومبي ، وكان مركزاً غريباً عن روح الجمهورية . وقد رأينا كيف أنه تحت ضغط الظروف القلقة المضطربة اضطر الجمهوريون الى تمكين بومبي من ذلك المركز إلا أنهم صمموا على الحيلولة دون تحقيق أمنية قيصر . وإزاء عناد الجمهوريين وتصميمهم على مناهضة قيصر لم يعد أمامه إلا أن يختار بين أمرين إما الإنتحار السياسي وإما محاربة الجمهوريين . ولما كان اختيار الأمر الأول عزيزاً على نفس رجل في مقدرة قيصر فإنه لم يبق أمامه سوى الحرب الأهلية .

وعندما استولى قيصر على إيطاليا في يناير عام ٤٩ ق.م. (وفقاً لتقويم قيصر المصحح) ورأف بالذين استسلموا وناشدوه العفو ، تصور كثيرون أن هذه الرأفة لم تكن إلا سياسة موقتة أملتها مقتضيات الأحوال . بيد أنه عندما اتبع هذه السياسة نفسها في عام ٤٨ ق.م. بعد انتصاره في إسبانيا ، وفي عام ٤٧ ق.م. بعد انتصاره على بومبي والإسكندريين وفارناقس ، وفي

عام ٤٦ ق.م. بعد انتصاره عند ثابسوس[١] ، وفي عام ٤٥ ق.م. بعد انتصاره عند موندا[٢] ، أي حين أضحى العالم الروماني بأسره تحت رحمته ، لم يعد يداخل أكثر الناس شك في صدق ميول قيصر الى الرأفة بخصومه . وإزاء ذلك تقرر ان يقام معبد مشترك لقيصر ولإلهة الرأفة (Clementia)[٣] إعراباً عن تقدير الرومان لقيصر ولهذه الصفة الرفيعة التي اتسم بها[٤] .

وقد كان شيشرون من أبرز الذين عفا عنهم قيصر . وقد عرفنا أن شيشرون انضم الى بومبي في البلقان ولكنه بسبب المرض لم يشترك في معركة فارسالوس . وبعد هذه المعركة وفرار بومبي ، لم يفر شيشرون مع غيره الى ولاية أفريقيا لمتابعة الصراع وإنما عاد إلى إيطاليا . وما أن رجع قيصر من الشرق في عام ٤٧ ق.م. حتى خف اليه شيشرون فعفا عنه قيصر وأحاطه بقدر كبير من الإجلال والرعاية[٥] . ولا شك في أن رأفة قيصر بخصومه بعد استيلائه على إيطاليا وانتصاره في إسبانيا كانت أحد العوامل التي حفزت شيشرون على التسليم بالهزيمة . ويبدو أنه كان هناك عاملان آخران : وأحدهما هو أنه بعد هزيمة بومبي لم يعد هناك أمل في الانتصار على قيصر . وأما العامل الآخر فإنه مستمد من تصرفات شيشرون وكتاباته بعد عودته الى إيطاليا ، فهي تنم عن الأمل في الحفاظ على النظام الجمهوري اذا أمكن التوفيق بين قيصر والجمهوريين والمشاركة مشاركة فعالة في الشئون العامة على نحو يتيح لقيصر أن يجني ثمار النصر ولكنه يحول دون ذهابه الى حد القضاء على النظام الجمهوري[٦] . وتتجاوب في الكثير من مراسلات شيشرون أصداء خيبة أمله في إنقاذ الجمهورية وهي الخيبة التي حدت به الى اعتكاف الحياة العامة بقدر ما سمح له قيصر .

---

(١) راجع الخطبة التي ألقاها قيصر في روما بعد هذه المعركة .
Dio Cass., XLIII, 15-18.

(2) Sueton., Div., Jul. LXXV; Velleius, II, 56; Florus, II, 13 91.

(3) App., B.C., II, 106.

(4) Plut., Caes., LVII, 3.

(5) Plut., Cic., XXXIX.

(6) Cf. C.A.H., IX, pp. 691 ff.

ثانياً — إصلاحات قيصر

في عام ٤٦ ق.م. ناشد شيشرون قيصر القيام بإصلاحات يكون من شأنها بعث الحياة من جديد في الجمهورية. ويتردد هذا النداء في رسالتين (Epistulae ad Caesarem Senem De Republica) يعزوهما بعض الباحثين الى المؤرخ صالوستيوس(٧) ، وهو الذي كان قيصر قد أقامه حاكماً على ولاية أفريقيا الجديدة بعد معركة ثابسوس. والواقع أن قيصر لم يكن في حاجة الى أن يستحثه أحد على الإصلاح ، ذلك أن قيصر رجل الدولة كان شأنه شأن قيصر القائد من حيث إدراكه كنه كل موقف ومتطلباته. ولا أدل على ذلك من أنه شرع في الإصلاح منذ سيطر على إيطاليا في عام ٤٩ ودأب على متابعة الإصلاح كلما أتيحت له الفرصة. وبانتصاره في موقعة موندا وقضائه في هذه الموقعة على آخر مقاومة منظمة له ، أتيحت له الفرصة لاستئناف إصلاحاته. بيد أن سلطته المطلقة أزعجت النبلاء إزعاجاً شديداً فأجهزوا عليه في منتصف مارس عام ٤٤ ق.م. وبذلك ترك عمله قبل إتمامه كما ترك العالم الروماني فريسة لحرب أهلية جديدة.

وعلى الرغم من قصر فترات الهدوء التي أتيحت لقيصر في خلال الأعوام الخمسة التي أعقبت استيلاءه على إيطاليا وانتهت بمصرعه ، فإن الإصلاحات التي أنجزها وتلك التي وضع خطتها وتم تنفيذها بعد مقتله كانت جليلة الشأن. وتوخياً للإيضاح وتيسيراً لتتبع إصلاحات قيصر يحسن تقسيمها على النحو التالي:

١ — إصلاحات عامة :

ا — تصحيح التقويم(٨) :

درج الرومان على استخدام السنة القمرية في تقويمهم بدلاً من السنة

---

(7) C.A.H., IX, p. 693; Scullard, 1970, p. 148, and n. 20 p. 430.

(8) Dio Cass., XLIII, 26; Sueton., Div. Jul., XL; Plut., Caes., LIX; C.A.H., IX, p. 696; Lewis-Reinhold, Roman Civilization, I, pp. 511 ff.; Scullard, 1970, p. 148.

الشمسية التي كان المصريون يستخدمونها منذ أمد بعيد ، وتبعاً لذلك كان هناك فارق في كل عام قدره عشرة أيام وربع يوم . وتعويضاً لهذا الفارق لكي تقابل السنة الرومانية فصول السنة الشمسية كان الرومان يضيفون شهراً نسيئاً كل عامين بين ٢٣ و٢٤ من فبراير . بيد أن إضافة هذا الشهر كانت رهناً بمشيئة الكهنة . وكانت هذه المشيئة تتأثر بعوامل مختلفة . وكان طبيعياً ان يترتب على إغفال إعمال هـذه المشيئة أو سوء إعمالها تفاوت بين التقويم وفصول السنة . ولا أدل على تسامح الرومان مع النقائص التقليدية وإغفال إضافة الشهر النسيء بانتظام من أنه في عام ٤٦ ق.م. كان التقويم الروماني يسبق فصول السنة الشمسية بحوالي شهرين . وقد كان وزر هذا التفاوت يقع أساساً على قيصر بوصف كونه الكاهن الأكبر منذ عام ٦٣ ق.م. وأما بعد أن أصبح قيصر دكتاتوراً كذلك فإنه بمساعدة عالم الفلك الإسكندري سوسيجنس (Sosigenes) صحح التقويم الروماني بإضافة أيام نسيء فيما بين آخر نوفمبر وأول ديسمبر عام ٤٦ ق.م. بحيث أصبح أول يناير عام ٧٠٩ منذ إنشاء روما يتفق وأول يناير والسنة الشمسية ٤٥ ق.م. وفضلاً عن ذلك فانه ليكون التقويم الروماني معادلاً لطول السنة الشمسية تقرر أن تُضاف عشرة أيام إلى الشهور القصيرة في التقويم بحيث يصبح عدد أيامه ٣٦٥ يوماً وبأن يُعوض ربع اليوم الباقي بإضافة يوم نسيء كل أربعة أعوام بين الثالث والعشرين والرابع والعشرين من شهر فبراير . وباستثناء التعديل الطفيف الذي أدخله البابا جرجوري الثالث عشر في عام ١٧٥٢ فإن التقويم السائد منذ ذلك الوقت حتى اليوم هو التقويم الذي صححه يوليوس قيصر .

ب – محاولة الحد من البذخ والإسراف[٩] :

بعد الأمثلة السيئة التي ضربها قيصر بمواكب انتصاراته وما أعقبها من حفلات ومآدب ، اقتفى أثر صلا في إصدار قانون للحد من مختلف ضروب

(9) Sueton, Div. Jul, XLIII; Dio Cass., XLIII, 25, 2.

البذخ والإسراف وبخاصة في المأكل ، فنشط الحراس (lictores) والجنود في مراقبة الأسواق وتفقد الموائد في البيوت . بيد أنه لم يكن لذلك كله نتيجة فعالة أطول من فترة قصيرة عاود الناس بعدها ما أصبحوا يألفونه وما كان الرأي العام لا يستهجنه .

جـ ـ في مجال القانون والقضاء :

وللقضاء على أعمال العنف والشغب اتخذ قيصر ثلاث خطوات ، كانت إحداها هي تشديد العقوبة على مثيري الشغب ، فقد أضاف الى العقوبات التي كانت تفرض على مرتكبي جرائم العنف (de vi) عقوبة التجريد من حقوق المواطنة[١٠] . وكانت الخطوة الثانية هي أنه إزاء أعمال العنف والشغب التي ارتكبها أعضاء الجمعيـــات (Collegia) والمنتديات (Sodalicia) منذ تريبونية قلوديوس ، قرر قيصر حل جميع هـــذه الجمعيات والمنتديات باستثناء القديمة منها مثل النقابات المهنية. وكانت الخطوة الثالثة هي أنه جعل التجريد من كافة الممتلكات عقوبة من يتعمد قتل أحد أقربائه (parricidia) والتجريد من نصف الممتلكات عقوبة من يتعمد قتل غير هؤلاء[١١] .

وفضلاً عن ذلك فإن قيصر استبعد ترابنة الخزانة العامة (tribuni aerarii) من عضوية هيئات المحلفين ، وقصر تكوين هـــذه الهيئات على الفرسان وأعضاء السناتو[١٢] .

وقد حالت المنية دون أن يضع موضع التنفيذ مشروعاً جليلاً أسهم في الاضطلاع به الأباطرة أغسطس وقلاوديوس ويوستينيانوس ، فقد أراد قيصر جمع وتنسيق أفضل التشريعات الرومانية التي تدخل في نطاق القانون المدني الروماني[١٣] .

---

(10) Cic., Philip., I, 9, 23.
(11) Sueton., Div. Jul., XLII, 3.
(12) Sueton., Div. Jul., XLI, 2.
(13) Sueton., Div. Jul., XLIV, 2; C.A.H., IX, p. 701; Scullard, 1970, p. 148.

د ـ منح حقوق المواطنة الرومانية :

ولم يكتف قيصر بمنح حقوق المواطنة الرومانية كاملة للأطباء والمدرسين الأجانب الذين استقروا في روما [١٤] . بل إنه منح هذه الحقوق على نطاق واسع في الولايات على نحو ما سيأتي ذكره في صدد الحديث عن الولايات .

هـ ـ الديون :

وقد مر بنا كيف أن قيصر عالج مشكلة الديون على نحو كان من شأنه تخفيف ضائقة المدينين المعسرين دون هضم حقوق الدائنين .

و ـ المكوس الجمركية :

أعاد قيصر فرض المكوس الجمركية (portaria) في الموانىء بعد أن كانت قد ألغيت في عام ٦٠ ق.م. وفي رأي بعض الباحثين أن الهدف من ذلك كان تشجيع الصناعة الإيطالية . بيد أنه لما كانت المكوس متواضعة وتجبى كذلك على الصادرات ، فإنه يبدو أن الباعث على فرض المكوس لم يكن تشجيع الصناعة الإيطالية بقدر ما كان ملء الخزانة العامة [١٥].

ز ـ الحكام ، الجماعات الدينية الرئيسية :

زاد قيصر عدد البرايتورس أولاً الى عشرة ثم الى ستة عشر وبذلك أصبح عددهم ضعف ما كان عليه منذ عهد صلا . وضاعف قيصر كذلك عدد الكوايستورس فأصبحوا أربعين ، وعدد الأيديلس فأصبحوا أربعة . وأسند قيصر الى الأيديلين الجديدين مهمة الإشراف على توزيع هبات القمح على المعوزين في روما ولذلك كانا يسميان « أيديلي الحبوب »[١٦] (aediles cereales) . وقد مر بنا أن قيصر زاد كذلك عدد أعضاء الجماعات

---

(14) Sueton., Div. Jul., XLII, 1.

(15) Cf. C.A.H., IX, pp. 697, 712; Scullard, 1970, p. 149.

(16) Dio Cass., XLIII, 49, 1; 51, 2-3; Sueton., Div. Jul., XLI, 1; Pauly-Wissowa-Kroll, Realencyc., s.v. Praetores, Quaestores, Aediles; Lewis-Reinhold, Roman Civilization, I, pp 408 ff.; Scullard, 1970, p. 152

الدينية الرئيسية بإضافة عضو جديد لكل من جماعة الكهنة وجماعة العراف وجماعة حراس الكتب المقدسة .

ك ـ السناتو :

زاد قيصر عدد أعضاء السناتو الى ٩٠٠ ، وذلك من ناحية لتوفير العدد اللازم من المحلفين ومن ناحية أخرى لمكافأة أنصاره الذين ساندوه وأخلصوا له في صراعه المرير الطويل ضد خصومه . ولم يكن تعيين الكثيرين من أنصار قيصر أعضاء في السناتو جزاء مناسباً لهم على خدماتهم فحسب بل كان أيضاً وسيلة مأمونة تكفل لقيصر التمتع بتأييد غالبية كبيرة في السناتو . والقصص التي تروى عن أعضاء السناتو من الغال المسرولين الذين لم يعرفوا طريقهم الى دار السناتو[١٧] ليست إلا انعكاساً لحقيقة لا شك فيها وهي أن قيصر أدخل في زمرة أعضاء السناتو فئة من أعيان ولاية غاليا فيما وراء الألب ، لعل أنهم كانوا من أصل روماني . والراجح أنه اذا كان أعضاء السناتو الجدد يضمون عدداً من ضباط الجيش ونفراً من المعتقين والغال فإن أكثرهم كانوا من أثرياء الفرسان الرومان وكبار أرباب الأملاك في المدن الإيطالية ، فضلاً عن عدد من نبلاء البطارقة الجدد الذين دبرهم قيصر عن طريق وسيلة التبني بالإيعاز الى أسر البطارقة القليلة الباقية بتبني بعض العامة واستغلال مركزه بوصف كونه كاهناً أكبر في الموافقة على هذه العملية الأولى من نوعها في العصور التاريخية . وإذا كان السناتو بتشكيله الجديد يضم غالبية كبيرة من مؤيدي قيصر الذين كانوا على أتم استعداد لتنفيذ مشيئته ، فانه كانت توجد في هذا المجلس فئة قليلة من النبلاء الذين لم يرضوا عن سلطات قيصر المطلقة ولم يعتبروه إلا طاغية من الطراز الإغريقي . بيد أن عامل الخوف أرغمهم على توخي جانب الحيطة في معارضة الدكتاتور[١٨] .

(17) Sueton., Div. Jul., XLI, 1; LXXX, 2; Dio Cass., XLIII, 3; XLIII, 47, 3; Heitland, III, pp. 360-1; C.A.H., IX, pp. 729-30, 733.

(١٨) عن أنصار قيصر وعن أعضاء السناتو ، أنظر . =

٢ ـ إصلاحات قيصر الخاصة بمدينة روما :

وجه قيصر عناية كبيرة الى تجميل مدينة روما فأقام فيها عدداً من المنشآت العامة كان من أهمها فوروم يوليوس (Forum Julium) وقاعة عامة كبيرة لانعقاد المحاكم وعقد الصفقات التجارية والمالية وهي القاعة المعروفة باسم باسيليقا يوليوس (Basilica Julia) ومعبد للإلهة فينوس جنتركس (Venus Genetrix) ، وهي الإلهة التي كانت عشيرته تزعم أنها تنحدر من نسلها وكانت تعتبر أم الرومان جميعاً ، ولذلك كان اهتمام قيصر بإقامة تمثال من الذهب لكليوبترة في معبد هذه الإلهة الى جوار تمثالها [١٩] ذا دلالة خاصة على نحو ما مر بنا .

وكان قيصر يعتزم طمر البحيرة التي حُفرت خصيصاً لإقامة المعركة البحرية الصورية التي سبقت الإشارة اليها وذلك ليقيم مكان هذه البحيرة معبداً ضخماً للإله مارس . وكانت في نيته كذلك تهذيب مجرى نهر التيبر لتتفادى العاصمة بذلك خطر فيضاناته ، وإنشاء مسرح على جرف تاربيا (Tarpeia) ، وإنشاء عدد من دور الكتب وبالفعل أسند إلى الفقيه الكبير ماركوس فارّو مهمة جمع وتصنيف الكتب اللازمة لهذه الدور . وفضلاً عن ذلك فإن قيصر كان يريد أيضاً تعميق ميناء أوستيا وتوسيعها بحيث تصبح قادرة على الوفاء بمتطلبات عاصمة الإمبراطورية فتكون بالنسبة لروما مثل ما كانت بيرايوس بالنسبة لأثينا [٢٠] .

وما دمنا بصدد الحديث عن إصلاحات قيصر الخاصة بمدينة روما فإنه يجمل بنا أن نتناول هنا مشروعي قانونين من بين مشروعات القوانين الأربعة التي كان قيصر جاداً في إعدادها عندما لقي مصرعه . وقد عُثر على أصول

R. Syme, Roman Revolution, Chs , V-VI; and in Papers of British School Rome, 1938, pp. 1 ff.; Scullard, 1970, pp 151-2

(19) Dio Cass., XLIII, 22, 2-3; App., B.C, 102.

(20) Sueton., Div. Jul., XLIV; Plut., Caes., LVIII, 4-5; C.A.H , IX, p. 701; Scullard, 1970, p. 149.

هذه المشروعات بين أوراق قيصر وحفظت نصوصها لنا لوحة برونزية كُشف عنها في مدينة هرقليا بجنوب إيطاليا ولذلك تعرف باسم لوحة هرقليا (Tabula Heracleensis) . ويقتضى القـانون المعروف باسم قانون أنطونيوس بإقرار أعمـال قيصر (Lex Antonia de Actis Caesaris Confirmandis) ، أصبحت هذه المشروعات تشريعاً واجب النفاذ [٢١] .
ويبدو أنه بناء على دراسة واقعية لحالة عامة روما المعوزين (plebs urbana) نص المشروع الأول على : ١ ـ تحديد قدر معين من الدخل للحصول على هبات من القمح بالمجان . ٢ ـ تسجيل أسماء الذين يحق لهم الحصول على هذه الهبات ، وقُصر عددهم على ١٥٠,٠٠٠ بعد أن كانوا ٣٢٠,٠٠٠ . ٣ ـ إلزام المنتفعين بهذه الميزة بتقديم إقرار عن دخولهم حتى لا يستمر في الحصول على الهبات من زاد دخله على الحد المقرر ، على أن تملأ الأماكن الشاغرة نتيجة للوفاة أو زيادة الدخل بالفقراء الذي تؤهلهم حالتهم للانتفاع بالهبات . ٤ ـ إيفاد الذين لم يتمتعوا بمنح القمح الى المستعمرات الجديدة . ومن الواضح أن الغرض من إبعاد هؤلاء المواطنين عن روما بإرسالهم الى المستعمرات الجديدة كان إتاحة الفرصة أمامهم لتكسب قوتهم بوسائل مجزية في المستعمرات فلا يصبحون عالة على العاصمة الرومانية ومصدراً للشغب والقلاقل فيها .

وكان مشروع القانون الثاني خاصاً بوسائل صيانة شوارع روما وضواحيها، وبتنظيم المرور في هذه الشوارع ، وكذلك بتنظيم استخدام الميادين والمباني العامة .

٣ ـ إصلاحات قيصر الخاصة بإيطاليا :

واستكمالاً للقانون الخاص بحل الجمعيات والمنتديات ، وهو القانون

(21) Bruns, Fontes, 7th ed, 18; E.G. Hardy, Six Roman Laws, pp. 149 ff.; Lewis-Reinhold, Roman Civilization, I, pp. 408 ff.; cf. Sueton., Div. Jul., XLI, 3; C.A.H., IX, pp. 698-9; Scullard, 1970, p. 149 and n. 21, p. 430.

الذي كان يهدف الى نشر الأمن واستتباب النظام في كل ربوع إيطاليا ، استصدر قيصر قانوناً يقضي بإلزام أصحاب المراعي بألا يقل عدد من يستخدمونهم من العمال الأحرار عن ثلث عدد عمالهم . وكان من شأن ذلك الإقلال من عدد العبيد وتبعاً لذلك الإقلال من خطر قيامهم بثورات إما لحسابهم وإما لحساب سادتهم . وفضلاً عن ذلك فإنه كانت هناك فوائد أخرى للمجتمع والدولة من وراء إقلال عدد العبيد ، ذلك أنه كان يترتب على نقص عدد العبيد ازدياد فرص العمل أمام المواطنين الأحرار وكذلك ازدياد عدد العناصر الصالحة للتجنيد(٢٢) . ويعزو ديون قاسيوس الى قيصر أنه منح بعض الإمتيازات للآباء الذين عندهم أبناء كثيرون(٢٣) . وهذا يتفق وروح التشريع الذي أصدره قيصر في قنصليته الأولى في عام ٥٩ ق.م. وراعى فيه عند منح الإقطاعات تفضيل الآباء الذين لديهم ثلاثة أبناء على الأقل . ومع ذلك فإن بعض الباحثين يميلون إلى القول بأن أغسطس هو الذي كان صاحب الفضل الذي عزاه ديون قاسيوس الى قيصر(٢٤) .

وينهض دليلاً على اهتمام قيصر بإصلاح الأحوال في إيطاليا عدد من المشروعات التي نفذت تدريجياً بعد مصرعه . ومثل ذلك مشروع بتجفيف مستنقعات بومبتيناي (**Pomptinae paludes**) في إقليم لاتيوم وبحيرة فوقينوس (**Fucinus lacus**) شمالي نهر ليريس ، ومشروع بشق طريق جديد يمتد من نهر التيبر إلى البحر الأدرياتي عبر جبال الأبنين(٢٥) .

والمشروع الثالث في لوحة هرقليا وضع قواعد معينة لتنظيم تولي الوظائف العامة والتمتع بعضوية مجالس السناتو المحلية في عدد كبير من البلديات (**municipia**) حيث كان يعيش مواطنون رومان خارج العاصمة . وقد اشترط هذا المشروع سناً بعينها لتولي الوظائف العامة في هذه البلديات لكنه

---

(22) C.A.H., IX, p. 697.
(23) Dio Cass., XLIII, 25, 2.
(24) J.S. Reid, J.R.S., 1915, p. 215; C.A.H., IX, p 698.
(25) Sueton., Div. Jul., XLIV, 3; Plut., Caes., LIX, 5.

أعفي من هذا الشرط أولئك الذين خدموا ست سنوات في فرق المشاة أو ثلاث سنوات في فصائل الفرسان الملحقة بهذه الفرق ، وكذلك الذين كانوا معفين من الخدمة في الجندية . واذا كان هذا المشروع حرم كل من كان يعمل دلالاً أو حاجباً أو حانوتياً حق تولي هذه الوظائف كما حرم الذين ارتكبوا نوعاً أو آخر من جرائم بعينها والمجالدين والمفلسين والذين فقدوا حقوقهم المدنية أو طردوا من الخدمة العسكرية أو أسهموا في أعمال الإغتيال ومصادرة الأمـــلاك (proscriptio) حق التمتع بعضوية مجالس السناتو المحلية ، فإنه سمح بذلك للمنفيين الذين عُفي عنهم . ومما يجدر بالملاحظة هنا أنه لا يوجد ما ينم عن حرمان المعتقين حق تولي الوظائف العامة المحلية أو حق عضوية مجالس السناتو المحلية . وقضى هذا المشروع كذلك بأنه كلما أجرى التعداد في روما القنسور أو أي حاكم آخر ، يجب أن يجري التعداد في كل بلدية من هذه البلديات أرفع حكامها مقاماً وأن تُرسل نتائج التعداد الى روما . ويتضح من أحد خطابات شيشرون(٢٦) أن هذا المشروع كان في دور الإعداد منذ وقت سابق لشهر فبراير عام ٤٥ ق.م.

والمشروع الرابع في لوحة هرقليا خاص بإدخال بعض التعديلات على بلدية (municipium) فوندى (Fundi) في قمبانيا .

وقد استخلص بعض الباحثين من المشروعين الثالث والرابع في لوحة هرقليا أن هذه اللوحة كانت تشمل فيما تشمله أجزاء متعددة من قانون واحد أراد به قيصر توحيد النظم في البلديات جميعها ، وأنه من المحتمل أنه كان يتناول أيضاً مدينة روما وأن قيصر كان يهدف إلى إنزال روما من عليائها وتحويلها إلى بلدية (٢٧) . ومعنى هذا الرأي الطريف : أولاً ، أن لوحة هرقليا تحتوي على مشروع قانون خاص بتوحيد النظم في البلديات جميعاً . وثانياً ، أنه بالرغم من أن روما لم تكن بلدية (municipium) وإنما مدينة بل عاصمة

(26) Cic., ad Fam., VI, 18 1.
(27) Cf. C.A.H., IX, pp. 700-1.

الإمبراطورية بأسرها ، وبالرغم من أنه لا توجد في لوحة هرقليا أية إشارة إلى مدينة روما ، فإن مشروع القانون الوارد في هذه اللوحة كان يشمل مدينة روما فيما يشمله وأن قيصر كان يريد تحويل هذه العاصمة الى بلدية .

وفي ضوء وجود مشروع قانون خاص بتنظيم الأوضاع في عدد كبير من البلديات ووجود مشروع قانون خاص ببلدية فوندى يتبين بجلاء أنه اذا كان يجوز القول بأن قيصر كان يستهدف وضع نظم موحدة لكثير من البلديات حيثما كان توحيد النظم أمراً ميسوراً أو مرغوباً فيه ، فإنه لا يجوز القول بأنه كان يستهدف توحيد نظم البلديات جميعها ، وذلك بداهة لعدم تماثل الأوضاع في البلدايات جميعاً . ولما كانت الأوضاع في مدينة روما تختلف عن الأوضاع في أية مدينة أخرى أو في أي مجتمع آخر ليس فقط في إيطاليا بل في العالم الروماني بأسره ، فإنه كان لا يمكن تبديل نظمها بحيث تصبح مماثلة لنظم غيرها من المدن والمجتمعات الأخرى في الإمبراطورية الرومانية . وتشريعات قيصر التي وصلت الينا لا تدع مجالاً للشك في أن قيصر كان يعتبر أن روما هي المدينة التي كانت تحكم الإمبراطورية ، وأن مواطني هذه المدينة كانوا هم الشعب الروماني ، وأن هؤلاء المواطنين هم الذين أسندوا اليه سلطات استثنائية في دولتهم .

٤ ــ إنشاء المستعمرات(٢٨) :

أنشأ قيصر عدداً كبيراً من المستعمرات في إيطاليا وفي الولايات . وكان الباعث على إنشاء بعض هذه المستعمرات هو الرغبة في مكافأة محاربيه القدماء بمنحهم إقطاعات زراعية ، على حين أن الباعث على إنشاء البعض الآخر من هذه المستعمرة كان الرغبة في تحقيق هدف مزدوج إقتصادي وسياسي .

(28) C.A.H., IX, pp. 705-11; M. Grant, From Imperialism to Auctoritas, 1946; F. Vittinghoff, Römische Kolonisation und Bürgerrechtspolitik unter Caesar und Augustus, 1952, pp. 49-95. list on p. 148; Scullard, 1970, pp. 149-50 and n. 23 p. 431.

وقد كان قدماء محاربي قيصر الذين خاضوا معه غمار حروبه منذ ذهابه الى بلاد الغال أصحاب الأفضلية في التسريح وفي المكافأة . وقد مر بنا أولاً أنه في عام ٥٥ ق.م. استصدر خمسة من ترابنة العامة قانوناً (Lex Mamilia Roscia Peducaea Alliena Fabia) لتدبير منح أراض لجنود قيصر عندما يحين الوقت المناسب لتسريحهم ومكافأتهم . وثانياً، أنه في عام ٥١ ق.م. أصدر السناتو قراراً بالنظر في حق جنود قيصر في التسريح وفي المكافأة ، وأن بعض ترابنة العامة صادروا هذا القرار الذي لم يكن إلا مناورة مكشوفة للوقيعة بين قيصر وجنوده بإغرائهم على المطالبة بالتسريح والمكافأة . وثالثاً، أنه في عام ٤٨ ق.م. نشبت فتنة في فرقة قيصر التاسعة بسبب طول خدمتها ورغبة رجالها في التسريح وفي المكافأة . ورابعاً ، أنه لإراحة الفرق التي حاربت في بلاد الغال والبلقان بادر قيصر إلى إعادة هذه الفرق جميعاً إلى إيطاليا فيما عدا الفرقة السادسة وهي التي يرجح أنها لم تحشد إلا في عام ٥٢ ق.م. بيد أنه كان من جراء طول انتظار عودة قيصر لمكافأة هذه الفرق وتسريحها أن نشبت في عام ٤٧ ق.م. تلك الفتنة العارمة التي قامت فيها الفرقة العاشرة بدور بارز .

بقيت الإشارة إلى أمرين جديرين بالملاحظة : وأحدهما هو أن قيصر جند من الإيطاليين جيشه الذي خاض به حملاته فيما وراء الألب ، وأن أكثر هذا الجيش قد جُند من منطقة في إيطاليا لم يكن مواطنوها قد منحوا حقوق الرومانية كاملة ، وهي منطقة غاليا فيما وراء البو التي عرفنا أنه بمجرد استيلاء قيصر على إيطاليا صدر قانون بمنح مواطنيها الحقوق الرومانية كاملة . والأمر الآخر ، هو أن الألاوداي (Alaudae) — وهم الذين جندوا من ولاية غاليا فيما وراء الألب — لم يعتبروا فرقة نظامية (legio) لها رقم يميزها إلا بعد بداية الحرب الأهلية عندما أصبحوا يُعرفون بالفرقة الخامسة . وأما فيما يخص الخيالة والجنود الخفيفي العدة الذين كانوا يعملون مع الخيالة فإن قيصر اتبع الوسيلة المألوفة لدى القواد الرومان وهي جمعهم من خارج

إيطاليا . بيد أنه لا يوجد مبرر كاف للافتراض بأن فرق قيصر كانت تضم عدداً كبيراً من الجنود غير الإيطاليين .

ويقدر عدد قدماء محاربي قيصر الذين خاضوا معه حملات بلاد الغال والبلقان وبقوا على قيد الحياة بعد هذه الحملات بحوالي ٢٠,٠٠٠ مقاتل . ويجب أن يضاف الى هؤلاء جنود فرق أخرى كانت قد حُشدت وخدمت مدة طويلة قبل نشوب الحرب الأهلية . وقد كان من حق هؤلاء وأولئك أن يُسرحوا ويكافأوا . وبطبيعة الحال لم يغب أمر ذلك عن قيصر فشكل لجنة للأراضي بعد عودته من الشرق . وفي خلال حملة قيصر الأفريقية كانت هذه اللجنة تعمل بجد في مسح ما تبقى من الأرض العامة دون توزيع ووضع يدها على مساحات الأرض الشاغرة . ومما يجدر بالملاحظة أن قيصر أمر اللجنة باحترام ملكية أراضي المجتمعات الإيطالية وكذلك ملكية أراضي قدماء محاربي كل من صلا وبومبي . وقد كان ذلك تصرفاً حكيماً ينم عن رغبة قيصر في استقرار الأوضاع وتفادي العواقب الوخيمة المحتومة للاعتداء على الملكيات .

وبمجرد فراغ قيصر من حملته الأفريقية منح إقطاعات في أفريقيا لجانب من قدماء محاربيه الذين فضلوا الاستقرار على الفور ، وأنفذ جانباً آخر للمشاركة في المستعمرة التي تقرر مؤخراً إنشاؤها عند قورنثه ، حيث يحدثنا بلوتارخ بأن قيصر اعتزم شق قناة عبر برزخ قورنثة وأسند هذه المهمة إلى أنينوس (٢٩) (Anienus) . ويبدو أنه باستثناء جنود الفرقتين السادسة والعاشرة مُنحت البقية الباقية من محاربي قيصر القدماء إقطاعات في إيطاليا . ذلك أننا نعرف عن يقين أن جنود الفرقتين السابعة والثامنة منحوا إقطاعات في قمبانيا (٣٠) ؛ ويحتمل أن ذلك كان شأن جنود الفرق الأخرى . وأما جنود الفرقتين السادسة

---

(29) Plut., Caes., LVII, 5; LVIII, 4; Strab., XVII, 833.
(30) Cic., ad Att., XVI, 8, 2; Nicolaus Damascinus, XXXI, 132; C.I.L., X, p. 369.

والعاشرة فإنهم بعد معركة موندا مُنحوا إقطاعات في بلاد الغال فيما وراء الألب عند أرلاتي (Arelate) وعند ناربو مارتيوس (Narbo Martius) على التوالي[٣١] .

ولما كانت لا تزال توجد خمس وثلاثون فرقة تحت السلاح عند وفاة قيصر ، فإن المستقبل كان يحمل في طياته مشكلة خطيرة ، هي مشكلة إيجاد الأراضي اللازمة لمكافأة جنود هذه الفرق عند تسريحهم .

والدافع على إنشاء النوع الآخر من المستعمرات هو أنه كان يوجد في إيطاليا وبوجه خاص في روما عدد كبير من المواطنين الذين لم تعد لهم أية قابلية أو أية فرصة للعمل بانتظام . وقد كانت إعالة كل هذه الأعداد الكبيرة من المواطنين المتعطلين أو شبه المتعطلين تلقي عبئاً كبيراً على الخزانة العامة ، وفضلاً عن ذلك فإن وجود أعداد كبيرة من هذا الطراز من المواطنين كان يشكل خطراً جسيماً على استقرار الأوضاع السياسية . وهكذا كان هناك دافع مزدوج ، إقتصادي وسياسي ، لتخليص إيطاليا وبخاصة روما من جانب كبير من العامة المتعطلين . ولما لم يكن في وسع أكثر هؤلاء المواطنين ممارسة الزراعة ، فإنه كان يتعذر تحقيق الغرض المنشود بإنشاء مستعمرات زراعية لهم . وتبعاً لذلك اتجه قيصر إلى إنشاء مستعمرات تتيح الفرص لممارسة الصناعة والتجارة . ويوحي هذا الإتجاه بأنه في هذا الجانب من سياسة إنشاء المستعمرات اقتفى قيصر أثر خطوات جايوس جراكوس .

ويُعزى الى مخاوف السناتو أو الى أهدافه السياسية القضاء على مركزين من أعظم المراكز التجارية في العالم القديم وهما قورنثة وقرطجنة . وقد مر بنا كيف أن جايوس جراكوس واجه مصاعب جمة من أجل البدء في إنشاء مستعمرة يونونيا على مقربة من قرطجنة ، وكيف أنه بعد مصرع جايوس جراكوس لم تعد توجد مستعمرة باسم يونونيا لكنه سُمح لمستعمريها بالاحتفاظ

(31) C.A.H., IX, p 706; Scullard, 1970, p. 150.

بما كانوا قد منحوه من إقطاعات هناك . وقد أخذ قيصر على عاتقه إحياء مشروع جايوس جراكوس لإقامة مستعمرة تكون مركزاً زراعياً وتجارياً[٣٢] وقد أنشأ قيصر كذلك على ساحل ولاية أفريقيا مستعمرتين عند قوروبيس (Curubis) وقلوبيا (Clupea) . ويحتمل أن قيصر هو الذي أنشأ أيضاً مستعمرات عند قاربيس (Carpis) وهيبّو ديارّهوتوس (Hippo Diarrhytus) وثوسدروس (Thysdrus) ونيابوليس . وفي هذه المجموعة من المستعمرات أنزل قيصر بعض محاربيه القدماء الذين تركهم في أفريقيا لأنهم آثروا الإستقرار فوراً في مستعمرات تتيح لهم لوناً من الحياة الحضرية التي كانوا يفضلونها على الحياة الريفية .

وفي الإقليم الذي احتفظ به سيتّيوس موقّتاً مكافأة له على المساعدات التي قدمها للحملة الأفريقية أنشئت مستعمرة عند قيرتا ، ومن المحتمل أيضاً مستعمـــرات عند روسيقادي (Rusicade) وخولّو (Chullu) وميلف (Milev) ، وذلك لإتاحة الفرصة أمام المواطنين المفلسين من أتباع ذلك المغامر ليبدأوا حياة جديدة كريمة .

وبحكم طبيعة قورنثة كانت المستعمرة التي أنشئت هناك مستعمرة تجارية قبل كل شيء . ومما يجدر بالملاحظة أنه قد كان من بين المستعمرين الذين أرسلوا الى هذه المستعمرة – قبل وفاة قيصر وبعدها – كثير من المعتقين الذين يُعتقد أنهم ابتاعوا حريتهم بفضل براعتهم في مجال الصناعة ولكنه يبدو أن أحوالهم ساءت لسبب أو لآخر فأُتيحت لهم الفرصة ليبدأوا حياة جديدة مثمرة .

وفي عام ٤٧ ق.م. أنشأ قيصر مستعمرة عند سينوب (Sinope) لتخلف مستعمرة قديمة هناك . ذلك أن هذه المدينة لم تقاوم فارناقس مقاومة جدية مما حدا بقيصر فيما يبدو إلى الاستيلاء على جزء من إقليمها ليوفر أراضي

(32) Dio Cass., XLIII, 50, 4-5.

لمستعمرين جدد . ولعل الأرجح أن مستعمري هذه المستعمرة التجارية كانوا من المواطنين الرومان المدنيين وليسوا من محاربي قيصر القدماء لأنه لم يكن مع قيصر في آسيا الصغرى من محاربيه القدماء إلا جنود الفرقة السادسة وهم الذين أعادهم إلى إيطاليا ومنحهم بعد موندا إقطاعات في المستعمرة التي أنشأها لهم عند أرلاتي ، على نحو ما سلف ذكره .

وقد امتد نشاط قيصر في إنشاء المستعمرات إلى إسبانيا ، حيث كانت توجد في كلتا الولايتين الرومانيتين هناك بعض المجتمعات المؤلفة من مواطنين رومان (Conventus civium Romanorum) فضلاً عن بعض المستعمرات القديمة . وقد رفع قيصر بعض هذه المجتمعات الى مرتبة « مستعمرة » (Colonia) مكافأة لها على ولائها له في أثناء الحملة الإسبانية ، ومثل ذلك قرطجنة الجديدة (Carthago Nova) وتاراّقو (Tarraco) وقلسا (Celsa) في ولاية إسبانيا الدانية ، وأوليا (Ulia) في ولاية إسبانيا القاصية ، حيث أنشأ قيصر مستعمرات على أراض استولى عليها من أقاليم أربع مدن هي : هيسباليس (Hispalis) وأورسو (Urso) وأوقوبي (Ucubi) وإتوقّي (Itucci) . ومن المحتمل أن يكون قيصر قد أنشأ هناك مستعمرات أخرى إلى جانب تلك التي أنشأها عند هذه المدن الأربع . وهكذا بدأ قيصر العمل الذي أتمه أغسطس على نحو جعله من أجل الأعمال التي قام بها ، وهو صبغ جنوب إسبانيا وجنوبها الشرقي بصبغة رومانية .

والأجزاء الباقية من دستور مستعمرة جنتيفا يوليا (Colonia Genetiva Julia) وهي التي أنشأها قيصر عند أورسو تعطينا فكرة عن طابع هذه المستعمرات وتبعاً لذلك عن سياسة قيصر إزاءها . ويتضح من دراسة هذا الدستور[٣٣]

---

(33) Bruns, Fontes, 7th ed., no. 28; S. Riccobono, Fontes Juris Romani Ante Just., 3rd ed., no. 21; E.G. Hardy, Three Spanish Charters and Other Documents, 1912, pp. 23 ff.; Abbott and Johnson, Municipal Administration in the Roman Empire, 1926, pp. 300 ff.; Lewis-Reinhold, Roman Civilization, I, 1951, pp. 420 ff.; C.A.H., IX, p. 709; Scullard, p. 150 and n. 23 p. 431.

أن بعض مواده منقول عن دستور قديم والبعض الآخر جديد استحدثه قيصر . ويبين أن قيصر هو الذي عين الفئة الأولى من حكام هذه المستعمرة واحتفظ لنفسه بحق تعيين حكامها مستقبلاً . وقضى الدستور بألا يحق لأي عضو من أعضاء السناتو الروماني أو لابن أحد من هؤلاء الأعضاء أن يكون راعياً (patronus) للمستعمرة إلا إذا كان مواطناً عادياً في إيطاليا لا يتمتع بسلطة تنفيذية (imperium) ، وبشرط أن يوافق على اختياره ثلاثة أرباع أعضاء (decuriones) المجلس التشريعي المحلي . وينص هذا الدستور على عقوبات صارمة نقداً ونوعاً ، لجريمة الرشوة في الإنتخابات . وينص كذلك على أنه لا يحق لأحد امتلاك مصنع ينتج أكثر من ٣٠٠ قالب من القرميد في اليوم الواحد . وهذا يشير إلى رغبة قيصر في الحيلولة دون تركيز الصناعة في قبضة نفر قليل من الأثرياء ، وذلك لإتاحة الفرصة أمام متوسطي الحال لتكسب قوتهم . ويتضمن الدستور نصوصاً دقيقة لتنظيم ممارسة الديانة الرسمية للدولة الرومانية في رعاية الكهنة والعراف . ويحدد الدستور ثلاثة أيام متوالية للاحتفال سنوياً بعيد الثالوث الروماني الرسمي يوبيتر ويونو ومينرفا ، ويوماً واحداً لعيد فينوس .

ومما له دلالته ومغزاه أن قيصر استحدث مبدأ دستورياً جديداً بأن أباح للعتقاء (liberti) أن يكونوا أعضاء في المجالس التشريعيـة المحلية في المستعمرات ، ذلك أن دستور هذه المستعمرة نص على ألا يجوز الإعتراض على حق أي مواطن من مواطني هـذه المستعمرة في أن يكون عضواً (decurio) من أعضاء المجلس التشريعي المحلي بحجة أنه من العتقاء ، كما أننا نجد هذا المبدأ مطبقاً كذلك في مستعمرتي قوروبيس وقلوبيا اللتين عرفنا أن قيصر أنشأهما في أفريقيا . وقد كان أمراً طبيعياً استحداث هذا المبدأ في دساتير المستعمرات الجديدة لأنه أريد من إنشائها أن تجتذب اليها جانباً من عامة روما وهم الذين كان من بينهم كثيرون من العتقاء . ولعل أنه لا يكون من الإسراف في الرأي أن نستخلص من المشروع الثالث في

لوحة هرقليا – وهو الذي لم يرد فيه ما ينم عن حرمان المعتقين حق تولي الوظائف العامة المحلية أو عضوية المجالس التشريعية المحلية في البلديات الإيطالية – أنه في السنة الأخيرة من حياة قيصر كان هذا الدكتاتور يتجه نحو مساواة العتقاء (liberti) بأبناء العتقاء الذين ولدوا أحراراً (ingenui) في كافة الحقوق ليس فقط في كل المستعمرات بل أيضاً في كل البلديات (municipia) . ولما كانت معاملة العتقاء معاملة كريمة منذ أمد طويل ليست إلا انعكاساً لتقدم الفكر السياسي الروماني في عصر الجمهورية ، فإن المبدأ الدستوري الجديد الذي وضعه قيصر ينهض دليلاً على اتباعه أنضج الإتجاهات السياسية الرومانية وأوسعها أفقاً المواتية لإصلاح الأوضاع .

وقول سويتونيوس[٣٤] أن قيصر أسكن ٨٠,٠٠٠ مواطن روماني فيما وراء البحار قد ورد في سياق حديث يوحي بأن هؤلاء المواطنين كانوا من سكان روما . ويمضي سويتونيوس فيقول إن قيصر حظر على المواطنين الإيطاليين الذين كانوا في سن التجنيد التغيب خارج إيطاليا لمدة تزيد على ثلاث سنوات إلا إذا كان تغيبهم بسبب الخدمة في الجيش . وهكذا يبين أن قيصر لم يهدف من وراء إنشاء المستعمرات خارج إيطاليا إلى مجرد مكافأة المحاربين القدماء بل أيضاً الى تخفيف عبء اكتظاظ إيطاليا بوجه عام وروما بوجه خاص بالمواطنين العاطلين ، دون أن يكون القصد من ذلك حرمان الإيطاليين امتيازات حقوق المواطنة وما يقابلها من واجب التجنيد .

٥ – قيصر والولايات :

تنهض الأدلة متتابعة على أن قيصر كان معنياً بأمر الولايات منذ أن نزل إلى معترك الحياة العامة . فقد مر بنا أنه في عامي ٧٧ و ٧٦ ق.م. أقام الدعوى على جنايوس قورنليوس دولابلا ثم على جايوس أنطونيوس هوبريدا متهماً الأول بابتزاز الأموال في ولاية مقدونيا والثاني بابتزاز أموال بعض الإغريق .

(34) Sueton Div. Jul., XLII, 1.

وقد مر بنا أيضاً أنه عندما تولى قيصر قنصليته الأولى في عام ٥٩ ق.م. استصدر قانوناً جديداً صارماً ضد جريمة ابتزاز أموال أهالي الولايات (Lex Julia repetundis) .

وعندما أصبح قيصر سيد العالم الروماني أنقذ أهالي ولايتي آسيا وصقلية من أخطر المظالم التي كانوا يعانونها ، وهي جور جباة الضرائب ، بأن استبدل بضريبة العشور في هاتين الولايتين ضريبة ثابتة نقدية على الأرض تتولى أمرها الحكومة المحلية في كل ولاية وتقوم هذه الحكومة بدفعها للخزانة العامة في روما . وفي ضوء ذلك لا يُستبعد أن يكون قيصر قد قضى كذلك في باقي الولايات على نظام بيع الضرائب المباشرة وإن كان قد استبقى هذا النظام فيما يخص الضرائب غير المباشرة مثل المكوس الجمركية [٣٥] .

ويؤخذ على قيصر أن رغبته في إصلاح حال الولايات لم تثنه عن توفير الفرص لمكافأة المقربين اليه ولم تعمه عن خطر الولاة الطموحين الذين قد تزداد سلطتهم إذا طالت مدة حكمهم في الولايات فتحدثهم أنفسهم بتحدي الحكومة المركزية . ذلك أن قيصر أبطل العمل بقانون بومبي الذي كان يقضي باختيار حكام الولايات من بين القناصل والبرايتورس السابقين الذين انقضت خمسة أعوام على انتهاء مدة حكمهم . بيد أنه من الإنصاف أن نذكر أن الجمهوريين أنفسهم خرجوا على هذا القانون قبل أن يجف مداده بمنح بومبي بروقنصلية ليتولى حكم ولايتي إسبانيا بمجرد انتهاء قنصليته الثالثة كما خرجوا على هذا القانون مرة أخرى قبيل اندلاع لهيب الحرب الأهلية بتعيين حكام للولايات لا يتوافر فيهم الشرط الذي نص عليه هذا القانون . وإذا كان الخطأ لا يبرره خطأ آخر ، فإنه لا بد من التسليم بأنه إزاء ظروف الحرب الأهلية لم يكن هناك مفر لقيصر من إسناد حكم الولايات لرجال من أنصاره الذين يثق فيهم . وتفادياً لخطر الولاة الطموحين حدد قيصر مدة حكم البروبرايتور (pro praetore) في أية ولاية بعام واحد ومدة حكم البروقنصل

(35) C.A.H., IX, p. 712; Scullard, 1970, p 149.

(pro consule) يعامين[٣٦] . ولا جدال في أن تحديد مدة حكام الولايات على هذا النحو كان لا يتيح للحاكم الصالح إفادة أهالي ولايته من ثمرة خبرته بعد دراسة الأحوال المحلية والوقوف على دخائلها . ولا جدال كذلك في أمرين : وأحدهما ، هو أن العرف السائد من قبل كان يقضي بأن تكون مدة حاكم الولاية عادة عاماً واحداً وأن مسألة صوالح الولاية أو أهليها لم تكن دائماً العامل الحاسم في إطالة مدة حاكمها ، وحسبنا دليلاً أن فرّس لم يبق في صقلية ثلاثة أعوام إلا لنهبها . والأمر الآخر ، هو أن قيصر كان حاكماً مطلقاً ، والهدف الأول لكل حاكم مطلق هو تأمين مركزه والحفاظ على سلطته .

وقد كان أبلغ أثراً من ذلك كله أن قيصر بدأ عملية إزالة الحواجز التي كانت تفصل بين إيطاليا والولايات ، وذلك عن طريق وسيلتين كانت إحداهما هي إنزال عدد كبير من المواطنين الرومان في كثير من الولايات بإنشاء عدد كبير من المستعمرات ، على نحو ما مر بنا . وكانت الوسيلة الأخرى هي منح حقوق المواطنة الرومانية لعدد غير قليل من أهالي الولايات . ذلك أن قيصر استخدم على نطاق واسع حق القواد الرومان في منح حقوق المواطنة الرومانية للمحاربين الذين أحسنوا البلاء في الخدمة العسكرية ، فقد منح قيصر هذه الحقوق لفرقة الألاوداي التي عرفنا أنه جندها من ولاية غاليا فيما وراء الألب . وفضلاً عن ذلك فإن قيصر قضى بمنح حقوق المواطنة الرومانية كاملة لأهالي المنطقة الواقعة شمالي البو في ولاية غاليا هذه الناحية من الألب[٣٧] ، وبذلك أصبح جميع سكان إيطاليا مواطنين رومان . وعمد قيصر في ولايات أخرى إلى منح حقوق المواطنة الرومانية كاملة لأهالي البلاد التي كان يوجد فيها إيطاليون كثيرون مثل جادس (Gades = قادس) وأوليسيبيو (Olisipio = لشبونة)، ومنح الحقوق اللاتينية لأهالي البلاد

---

(36) Dio Cass., XLIII, 25, 3; Heitland, III, p. 344; C.A.H., IX, p. 698.
(37) Dio Cass., XLI, 36.

التي كان أغلب سكانها من العنصر الوطني مثل فينا (Vienna) وأفينيو Avenio = أفينيون ، Avignon) وتولوسا (Tolosa = طولوز) وكـذلك فيما يرجح كل مدن صقلية .

وقد سبق أن ذكرنا أن قيصر منح حقوق المواطنة الرومانية للأطبـاء والمعلمين الأجانب الذين استقروا في روما ، وأنه مضى الى أبعد من ذلك بأن أدرج في زمرة أعضاء السناتو الروماني فئة من أعيان ولاية غاليا فيما وراء الألب . ومما يجدر بالذكر أيضاً أن قيصر ساعد الإسباني لوقيوس دقيديوس ساكسا (Decidius Saxa) على انتخابه تريبونا للعامة . واذا كان قيصر قد توسع كثيراً عمن سبقوه في منح حقوق المواطنة الرومانية لأهالي الولايات ، فإن توسعه كان محدوداً بالقياس إلى ما فعله الأباطرة فيما بعد[٣٨] .

ثالثاً — مركز قيصر في الدولة

يسود الاعتقاد بين الباحثين بأن قيصر لقي مصرعه قبل الانتهاء من إصلاحاته وإقامة نظام الحكم الملائم بعد أن أثبتت الأحداث والتطورات السياسية عدم صلاحية النظام القائم ، وبعد أن صدر عن قيصر ما ينم بجلاء عن أنه كان لا ينوي الإبقاء على النظام الراهن ولا اعتزال الحكم ، فالكل يقبل ما عزى اليه من التصريح بأن الجمهورية لم تعد الا اسماً لا جسد له ولا شكل ، وأن صلا باعتزاله الدكتاتورية أثبت جهله بأوليات السياسة[٣٩] .

(: nihil esse rem publicam, appellationem modo sine corpore ac specie. Sullam necisse litteras, qui dictaturam deposueri.)

وعند هذا الحد ينتهي إجماع الباحثين ويبدأ بينهم الخلاف على أشده حول ماهية نوع الحكم الذي كان قيصر ينوي إقامته .

---

(٣٨) عن منح قيصر حقوق المواطنة الرومانية والحقوق اللاتينية لأهالي الولايات ، راجع :
A.N. Sherwin-White, Roman Citizenship, pp. 136 ff.; M.I. Henderson, J.R.S., 1942, pp. 1 ff.; Scullard, 1970, p. 150 and n. 24 p. 431

(39) Sueton., Div. Jul., LXXVII.

١ ـ مسألة التأليه :

وفي طليعة المسائل التي يحتدم الجدل حولها مسألة تأليه قيصر في حياته ، وهذه المسألة تتصل اتصالاً وثيقاً بمركزه في الدولة وبنظام الحكم الذي كان ينوي إقامته . وتوخياً للموضوعية في عرض هذه المسألة سنسقط من حسابنا النقوش التي عثُر عليها في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ووصف فيها قيصر بأنه إله[٤٠] ، ذلك أنه يمكن الدفع بحق بأنها لا تمثل وجهة النظر الرسمية الرومانية وتبعاً لذلك لا يمكن اعتبارها دليلاً على تأليه قيصر في حياته تأليهاً رسمياً ، ولا سيما إذا صح أن تاريخ هذه النقوش سابق للخطوات التي اتخذت في روما . هذا وإن كان من البديهي أن وجود مثل هذه النقوش في في الولايات ينم على الأقل عن وجود اتجاه قوي في روما نحو تأليه قيصر وإلا لما رجعت هذه النقوش أصداء هذا الاتجاه . وسنغفل كذلك ثلاثة نقوش[٤١] عثُر عليها في ايطاليا ذاتها لأن هذه النقوش ترجع الى تاريخ لاحق لوفاة قيصر .

وأول ما يستوقف النظر هو نقش صورة يوليوس قيصر على العملة الرسمية الرومانية . ذلك أنه يتبين من دراسة العملة الرسمية أنه في الدول الهلينيسية كانت لا تنقش عليها عادة إلا صورة الآلهة والملوك وأنه في روما كانت لا تنقش عليها عادة إلا صور الآلهة . بيد أنه في عام ٤٥ ق.م. نُقشت ـ بأمر السناتو ـ لأول مرة على العملة الرسمية الرومانية صورة بشر على قيد الحياة هو يوليوس قيصر[٤٢] . ما معنى ذلك ؟ لنا عودة إلى هذا الموضوع .

ومن سياق حديث ديون قاسيوس[٤٣] عن مظاهر التشريف التي أُغدقت

---

(40) C.I.G., 2957 = Ditt., Syll., 3rd ed., 760; C.I.G. 2369 = I.G., XII, 5, 557; I.G., XII, 2, 165 b.
(41) Dessau, I.L.S., 73; 73 a; 6343.
(42) Dio Cass., XLIV, 4, 4; C.A.H., IX, p. 727; Plates, Vol. II, f, g, h.
(43) Dio Cass., XLIV, 6.

على قيصر قبل وفاته يتبين بجلاء أنه تقرر تأليه الدكتاتور بل رفعه الى مرتبة كبير الآلهة يوبيتر فأصبح الرومان يدعونه يوبيتر يوليوس (Jupiter Julius) ، وأن ماركوس أنطونيوس اختير كاهناً له بذات اللقب الذي كان يميز كهنة يوبيتر (flamen Dialis) . ويحـدثنا سويتونيوس (٤٤) . بأن قيصر قبل تعيين كاهن خاص له . وفي سياق حديث مجمل عن مظاهر التكريم التي أغدقت على قيصر يذكر شيشرون (٤٥) أن لقيصر كاهناً خاصاً هو ماركوس أنطونيوس مثل ما هناك كاهن خاص لكل من يوبيتر ومارس وكويرينوس .

وتعيين كاهن خاص لقيصر أمر لا يرقى الشك اليه ولا يثير جدلاً ، وأما محور الجدل فهو دلالة تعيين هذا الكاهن والهدف من ذلك . ولا جدال في أن الكثير من مظاهر التكريم والتشريف التي أغدقت على قيصر لا تنم حتماً عن تأليهه في حياته مثل إطلاق اسمه على الشهر الذي ولد فيه وكان شهر كوينقتيليس (Quinctilis أي الشهر الخامس وفقاً للتقويم الروماني حين كان العام يبدأ بشهر مارس) فأصبح يعرف بشهر يوليوس (وهو شهر يوليه الحالي) والاحتفال بيوم مولده . والدعاء لإطالة حياته ، ومنحه لقب « أبو الوطن » ، وإقامة عجلته الحربية في مواجهة تمثال يوبيتر بالمعبد المقام فوق تل قابيتو لينوس . ويذهب بعض الباحثين إلى أن تعيين كاهن ليوليوس قيصر في حياته كان شأنه شأن تكوين جماعة كهنوتية إضافية من عشيرة يوليوس (Luperci Julii) للأشراف على عبادة فاونوس (Faunus = بان ، Pan) ، أي أن تعيين كاهن خاص لقيصر كان أحد مظاهر تكريمه أكثر منه لعبادته (٤٦) . بيد أنه يتعذر علينا قبول هذا الرأي ، وذلك لسببين : أحدهما هو أن هناك فارقاً كبيراً بين تكريم عشيرة الدكتاتور بتكوين جماعة كهنوتية جديدة منها لإقامة شعائر عبادة إله بعينه وبين تعيين كاهن خاص

---

(44) Sueton., Div. Jul., LXXVI, I.
(45) Cic., Phil., II, 43, 110.
(46) e.g., Adcock, C.A.H., IX, p. 719.

لقيصر في أثناء حياته . والسبب الآخر هو أنه لما كان من المسلم به أن الكهنة كانوا يعينون لإقامة شعائر عبادة إله أو آخر وأنه عُين لقيصر كاهن خاص في أثناء حياته — وهو أمر لم يسبق له مثيل — فما كانت اذن مهمة كاهن قيصر وما كان مبرر تعيين هذا الكاهن الخاص إلا إذا كان قيصر قد رُفع فعلاً الى مرتبة الألوهية في حياته ؟

ويحدثنا أبيانوس[٤٧] بأنه تقررت إقامة معابد كثيرة لقيصر كما لو كان إلهاً . ويروي لنا سويتونيوس[٤٨] أن قيصر قبل أن تقام له المعابد والأضرحة ، وكذلك التماثيل جنباً الى جنب المقامة للآلهة . وإذا كانت رواية أبيانوس تتفق ورواية ديون قاسيوس[٤٩] من حيث أنه تقررت إقامة معبد لقيصر ورأفته ، فإن بلوتارخ[٥٠] يحدثنا بأنه تقرر إنشاء معبد لرأفة قيصر . ويرجح رواية بلوتارخ أنه عُثر على قطعة من العملة[٥١] تحمل صورة معبد ونقشا نصه « الى رأفة قيصر » (Clementiae Caesaris) . ويحدثنا ديون قاسيوس[٥٢] بأنم أقيم فعلاً لقيصر تمثالان أحدهما في معبد كويرينوس والآخر على تل قابيتولينوس بجوار تماثيل ملوك روما الأسبقين . ويسلم المعارضون لفكرة تأليه قيصر في حياته باحتمال صحة ما أورده ديون قاسيوس من أن أول هذين التمثالين اللذين أقيما لقيصر كان يحمل نقشاً نصه « إلى الإله الذي لا يقهر » ، وإن كانوا لا يستبعدون أن تكون هذه العبارة قد أضيفت بعد موت قيصر . بيد أنه اذا صح أن التمثال كان يحمل هذا النقش ، وأن التمثال أقيم بعد الانتصارات الباهرة التي أحرزها قيصر في كل الحروب التي خاض غمارها ، فهلا يكون الأقرب إلى الاحتمال أن

(47) App., B.C., II, 106.
(48) Sueton., Div. Jul., LXXVI, 1.
(49) App., loc., cit.; Dio Cass., XLIV, 6, 4.
(50) Plut., Caes., LVII, 3.
(51) C.A.H., Plates, Vol. II, 12, f; L.R. Taylor, The Divinity of the Roman Emperor, p. 69.
(52) Dio Cass., XLIII, 45, 3.

النقش يرجع إلى وقت إقامة التمثال في أثناء حياة قيصر ، ولا سيما أنه لا يوجد أي دليل على إضافة النقش بعد وفاة الدكتاتور ؟ ويُقال إنه عندما وصف قيصر في النقش الذي حمله التمثال الثاني بأنه نصف إله (hemitheos) أمر الدكتاتور بطمس هذا النقش . ويفسر البعض هذا الطمس بأن قيصر اعتبر هذا الوصف أكثر مما يستحقه ، ولكن البعض الآخر يفسر ذلك بأن قيصر اعتبر الوصف أقل مما يليق به ، وهو تفسير يبدو لنا أدنى الى الحقيقة وذلك في ضوء المكانة الرفيعة التي تبوأها بعد الانتصارات التي أحرزها والسلطات الواسعة المطلقة التي كان يمارسها . ولا جدال في أن إقامة تماثيل البشر في المعابد لا تنهض دليلاً قاطعاً على تأليههم ، غير أن قيصر لم يكن كسائر البشر ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار الى جانب مكانته وسلطاته ما سلف ذكره من نقش صورته على النقود في حياته وتعيين كاهن خاص له من مرتبة كاهن يوبيتر .

وثمة قرائن أخرى لها وزنها . ولعل أن أهم هذه القرائن هي : اولاً — أن السناتو اتخذ قرارين قضى أحدهما بأن يكون حلف اليمين بروح قيصر الحارسة[٥٣] (tyche) ، وقضى القرار الآخر بأن يُحمل تمثال قيصر وسط تماثيل الآلهة في كل مهرجانات الألعاب التي كانت تقام في مضمار السباق[٥٤] (ludi circenses) . وثانياً — أنه أقيم على واجهة بيت قيصر ذلك العنصر المعماري الثلاثي الأضلاع[٥٥] (fastigium = pediment) ، وهو الذي كان حتى ذلك الوقت من سمات المعابد دون غيرها من سائر المنشآت . وثالثاً — وجد في آيسرنيا (Aesernia) بإقليم سامنيوم نقش غير مؤرخ نصه « إلى الروح الحارسة ليوليوس قيصر المؤله وأبي الوطن الذي أدخله السناتو والشعب الروماني في زمرة الآلهة »[٥٦] .

(53) Dio Cass., XLIV, 6, 1.
(54) Dio Cass., XLIII, 45, 3; Sueton., LXXVI, 1.
(55) Cic., Phil., II, 43, 110.
(56) Dessau, I.L.S., 72.

وفي رأي بعض الباحثين أن نص النقش يوحي بأن تاريخه لاحق لوفاة قيصر ، وذلك استناداً إلى القول بأن قيصر لم يؤله رسمياً الا بعد وفاته . ولكنه يضعف من هذا الرأي أن الإهداءات الى الروح الحارسة نادرة فيحالة الموتى[57] .

ولا جدال فيأن قيصر ، بوصف كونهالكاهن الأكبر (Pontifex Maximus) ، وتبعاً لذلك الرئيس الأعلى للديانة الرسمية في الدولة الرومانية ، كان معنيـاً بالحفاظ على هذه الديانة في طول الامبراطورية الرومانية وعرضها . وفي رأينا أن تأليه قيصر في حياته كان لا يجافي أو يناقض اهتمامه بالديانة الرسمية للدولة الرومانية ، بدليل أنه على سبيل المثال لا الحصر لم يكن من جراء تأليه البطالمة أو السلوقيين لأنفسهم إغفال شأن الديانة الرسمية في دولتهم ، ذلك أنه لم يكن القصد من تأليه الملك البطلمي أو الملك السلوقي تقويض دعائم الديانة الرسمية وإقامة عبادة الإله الجديد على أنقاضها وإنما دعم مركز الحاكم بضمه الى زمرة الآلهة التي يتعبد إليها مجتمع يألف تعدد الآلهة منذ غابر الزمن . وبعد انتشار تقاليد العصر الهلينيسي وهو الذي دأب فيه الملوك على تأليه أنفسهم وأصبح تأليه البشر البارزين لا يعدو أن يكون تعبيراً عن الإعجاب والاعتراف بالفضل وحسن الصنيع ، لم يكن تأليه قيصر أمراً عسيراً بعد جلائل أعماله وبعد أن أصبح السيد المطلق للعالم الروماني .

وفي ضوء ما عرضناه يبدو أنه من الإسراف فيالرأي إنكار تأليه قيصر في حياته . وإذا صح أنه تقرر رسمياً تأليه قيصر فيحياته ، وهو ما نميل الى ترجيحه ، فهل كان ذلك وليد سياسة رسمها قيصر ، أم الأصح أن قيصر لم يفعل أكثر من أنه تقبل راضياً أحد المظاهر المعبرة عن ولاء المتحمسين من أنصـــاره ؟

---

(57) L. R. Taylor, op. cit., p. 269.

٢ ــ نظام الحكم المنشود :

إن الإجابة عن هذا التساؤل تقتضي أن نتبين أولاً طابع النظام الذي كان قيصر ينوي إقامته ليمارس سلطاته المطلقة في كنفه . ويسلم بعض الباحثين بأن المبررات الفلسفية للملكية الهلينيسية بإصرارها على واجبات الملك نحو رعاياه من حيث رعاية صوالحهم والنهوض بمرافق بلادهم والذود عن حياضها كانت تروق لأفضل الجوانب في خلق قيصر . بيد أن هذا البعض من الباحثين يرى أنه بالرغم مما أدته الممالك الهلينيسية من خدمات للحضارة وتطوير الحياة الإقتصادية قد أثبتت آخر الأمر فشلها فشلاً ذريعاً ، وأن تأليه الملك البطلمي مثلاً لم يُجده فتيلاً أمام اشتعال لهيب ثورة يقوم بها الإسكندريون أو المصريون . وإذ يسلم كذلك هؤلاء الباحثون بأن دستور الجمهورية الرومانية لم يعد صالحاً لحكم عالم البحر المتوسط ، يرون أن نظام الحكم الروماني نجح نجاحاً كبيراً بالقياس الى نظم الحكم في الممالك الهلينيسية ، وأن أحداث الحرب الأهلية قد أثبتت أنه من الناحية العسكرية كانت إيطاليا هي مركز الثقل في عالم البحر المتوسط ، ويرون أيضاً أن الملكية الهلينيسية غدت شبحاً وأن رجلاً واقعياً مثل قيصر كان لا يمكن أن يضحي بجوهر القوة من أجل الشبح .

وأما أن الممالك الهلينيسية ضعفت ضعفاً شديداً في النصف الثاني من العصر الهلينيسي ، فإن هذا أمر لا شك فيه . بيد أن مرد هذا الضعف في أعظم هذه الممالك مثلاً ، وهي مملكة البطالمة ، لم يكن الى النظام الملكي ذاته وإنما الى ثلاثة عوامل رئيسية . وأحد هذه العوامل هو أن ملوك البطالمة لم يكونوا ملوكاً قوميين وانما ملوك أجانب استهدفوا تحقيق مجدهم الشخصي وصوالحهم الخاصة وصوالح أعوانهم الأجانب على حساب أهالي البلاد ، مما دفع هؤلاء الأهالي الى القيام بثورات عارمة ضد مغتصبي بلادهم ومستعبديهم . وزاد في خطورة هذه الثورات القومية إحتدام النزاع بين أفراد أسرة البطالمة أنفسهم . والعامل الثاني هو أنه بعد بطلميوس الثالث آل المُلك الى ملوك ضعاف أو صبية صغار تحت وصاية أشخاص لم يرتفعوا الى مستوى المسئولية، مما كان

من جرائه أنه لم يتشجع المصريون فحسب بل الاسكندريون أيضاً على الثورة على أولئك الحكام العابثين الفاسدين . والعامل الثالث هو أنه منذ عهد بطلميوس الخامس تعرضت أمبراطورية البطالمة بل مصر ذاتها لأطماع ثلاث دول فتية هي دولة السلوقيين في عهد أنطيوخوس الثالث والرابع ، ودولة مقدونيا في عهد فيليب الخامس ، والدولة الرومانية منذ خروجها مظفرة من صراعها مع قرطجنة بانتصارها في معركة زاما عام ٢٠٢ ق . م . وأما في عهد البطالمة الثلاثة الأوائل ، أي على مدى أكثر من قرن ، حين كان على عرش مصر ملوك أقوياء ، فإن دولة البطالمة كانت أقوى الدول الهلينيسية وصاحبة أمبراطورية بحرية واسعة بلغت أقصى مداها في عهد بطلميوس الثالث حين امتدت من قورينائية حتى مارونية في تراقيا . ومعنى ذلك أن العلة لم تكمن في الملكية الهلينيسية ذاتها لأن حالها من قوة أو ضعف كان رهناً بمن كانت مقاليد الأمور في قبضته .

ألم يكن من شأن ذلك أن يستهوي رجلاً قوي الشكيمة مثل قيصر وهو الذي يسلم الجميع بأن كل الشواهد في السنة الأخيرة من حياته تشير الى أنه كان مصمماً على أن يمارس سلطة أوتقراطية ؟ ولا شك في أنه لو أتيحت لقيصر فرصة إقامة ملكية في روما لكانت هذه الملكية القومية التي تساندها أعظم قوة حربية عندئذ في منأى عن أخطر العوامل التي أدت الى تدهور مملكة البطالمة . وبتأليه عاهل المملكة الرومانية كانت تكتمل لهذه الملكية أهم مقومات البقاء . ويدل على صدق هذا التقدير ما كان من أمر الملكية التي أقامها أغسطس وسترها بقناع شفاف من الرياء السياسي .

ولا جدال في أن تأليه ملوك البطالمة الضعاف لم ينجهم من الثورات ، بيد أن هذا هو الشأن في أوقات الاضطرابات ، وخير دليل على ذلك أن قدسية أشخاص ترابنة العامة لم تفلح في حماية تيبريوس أو جايوس جراكوس أو ليفيوس دروسوس من مصيرهم المشئوم .

وقد كان يبرر إقامة النظام الملكي في روما أن التقاليد والقواعد الدستورية التي قام عليها النظام الجمهوري الروماني لم تصبح فحسب شبحاً من أشباح الماضي مثل الملكية الهلينيسية في شرق البحر المتوسط بل أصبحت جثة هامدة لا حراك فيها . ذلك أنه منذ أن تدهورت أخلاق الرومان ، وفاتهم أن يوائموا بين نظم روما المدينة وروما الأمبراطورية ، ومنذ أن عجز السناتو والجمعيات الشعبية والزعماء على اختلاف نحلهم ومشاربهم عن الإرتفاع الى مستوى الأحداث إما لقصور مداركهم وإما لتحكم النوازع الشخصية وإما لهذين العاملين معاً ، ومنذ أن حوّل ماريوس الجيوش الرومانية من جيوش مواطنين متطوعين الى جيوش محاربين محترفين ، وأهملت الدولة مكافأة هؤلاء الجنود المحترفين تاركة أمر ذلك الى القواد فأصبح مصير الجنود مرتبطاً بمصير قوادهم وتبعاً لذلك أصبح ولاء هؤلاء الجنود لقوادهم بدلاً من أن يكون للدولة ، ومنذ أن أبيح لماريوس تولي القنصلية عدة سنوات متتالية ، أصبح مصير النظام الجمهوري الروماني في كفة القدر . وعندما ضرب صلا المثل السيء باستخدام القوة في الاستيلاء على السلطة ، أصبح مصير النظام الجمهوري الروماني أمراً محتوماً . ولم يكن تولي بومبي قنصليته الأولى تحت ضغط التهديد باستخدام القوة ، ولا السلطات الواسعة التي منحت لبومبي لمحاربة القراصنة ثم لمحاربة ميثريداتس ، ولا سيطرة الحلف الثلاثي على الدولة سيطرة كاملة بفعل التهديد باستخدام القوة ، ولا السلطة البروقنصلية التي منحت لقيصر لخمس سنوات جددت لخمس أخرى ، ولابقاء بومبي في إيطاليا وممارسته سلطته البروقنصلية لحكم اسبانيا عن طريق مساعدَيه ، ولا تولى بومبي القنصلية بمفرده ، ولا زحف قيصر على إيطاليا وسيطرته عليها ، ولا توليه الدكتاتورية وممارسته سلطات أوتقراطية لم يسبق لها مثيل — لم يكن ذلك كله الا طعنة نجلاء بعد أخرى أُغمدت في جثة الجمهورية الرومانية المترنحة حتى أجهزت عليها إجهازاً مبرماً ، فلم يبق الا تشييعها الى مثواها الأخير . وليس وجه العجب هو القضاء على الجمهورية الرومانية بعد كل هذه الطعنات وإنما وجه العجب هو أن

الجمهورية إحتملت كل هذه الطعنات قبل أن تسلم الروح .

ويعزز ما نرجحه من اتجاه قيصر الى إقامة نظام ملكي في روما على غرار النظام الملكي الهلينيسي أن الباحثين جميعاً بما فيهم القلة المعارضة لاتجاه قيصر الى الملكية يرون أنه ليس هناك أي شك في أن علاج وجوه الضعف الكامن في نظام الحكم الروماني لعالم البحر المتوسط كان نوعاً من الحكم الأوتقراطي أو إسناد مهمة حل مشاكل الدولة الى شخص واحد . ويرون كذلك أنه منذ جيل أخذ الفكر السياسي الروماني يتجه على الأقل نظرياً نحو مثل هذا التغير الدستوري ، وإن كانت ذكرى الزمن الذي كان فيه السناتو يضطلع بهذا الدور ظلت تداعب الأفكار باستمرار . ومن الطريف أن البعض يقول بأنه إذا كان أغسطس قد عمل على التوفيق بين هذين الاتجاهين – حكم الفرد المطلق وحكم السناتو – بالوصول الى حل وسط ، فإنه من المستبعد أن قيصر كان ينحو هذا النحو لأنه لم يكن من طراز أصحاب الحلول الوسط ، لكنه من الجائز أنه في خلال الفترة الأخيرة من حياته كان بصدد الوصول الى نوع دائم من الأوتقراطية يوفق بين تقاليد الشرق والغرب . وهنا يتملكنا العجب من المصارحة بهذا الرأي الذي لا يكاد أن يستبعد على قيصر أن ينحو نحو أغسطس في الوصول الى حل وسط حتى يعود فيعزو الى قيصر احتمال الوصول الى حل وسط ، إذ أنه من الواضح أن ذلك النوع الدائم من الأوتقراطية التي يوفق بين تقاليد الشرق والغرب ليس إلا حلاً وسطاً . ثم ما هو هذا النوع من الأوتقراطية الذي يوفق بين تقاليد الشرق والغرب ؟ الا يكون ذلك نظام حكم يتمتع قيصر في كنفه بسلطة مطلقة مع السماح للهيئات الدستورية الرومانية بممارسة نشاط صوري أو مقيد في ظل هذه السلطة المطلقة ؟ وهل يختلف هذا النظام عن النظام الملكي البطلمي مثلاً حيث كان الملك صاحب السلطة العليا المطلقة وكانت المجامع الدستورية في الإسكندرية ونقراطيس وبطوليميس تمارس نشاطاً محلياً مقيداً ؟

وعلى كل حال فإنه لا خلاف إذن على أن علاج مشاكل روما عندئذ

أصبح يتطلب إقامة حكم الفرد المطلق ، وانما وجه الخلاف هو التسمية التي تطلق على هذا النوع من نظم الحكم . وللوصول الى هذه التسمية ليس أمامنا الا أن نستهدي بأمرين : وأحدهما هو الوظائف التي تولاها قيصر والسلطات التي كان يتمتع بها ويمارسها . والأمر الآخر ، هو القرائن التي توحي بما كان تفكير قيصر متجها نحوه .

ا ــ وظائف قيصر وسلطاته :

مع أن قيصر كان يتولى منصب الكاهن الأكبر منذ عام ٦٣ ق . م . الا أنه في عام ٤٨ ق . م . أُعطي الحق في أن يكون عضواً في الجماعات الكهنوتية جميعاً . وفي النصف الثاني من عام ٤٩ أُقيم دكتاتوراً ثم تخلى عن هذه الوظيفة بعد انتخابه لقنصلية عام ٤٨ . وقد شغل قيصر وظيفة القنصلية باستمرار باستثناء عام ٤٧ والفترة من أول اكتوبر حتى آخر ديسمبر عام ٤٥ . وكان قيصر يشغل وظيفة القنصلية مع زميل له فيما عدا قنصلية عام ٤٥ حين كان قنصلاً مفرداً من أول يناير حتى آخر سبتمبر . وبعد معركة فارسالوس أُقيم قيصر دكتاتوراً للمرة الثانية لمدة عام واحد . وفي أواخر ابريل عام ٤٦ ــ على الأرجح ــ أُقيم قيصر دكتاتوراً لمدة عشر سنوات ، بيد أنه قبيل منتصف فبراير عام ٤٤ تقرر أن يكون دكتاتوراً لمدى الحياة . وهكذا جمع قيصر بين وظيفتي الدكتاتورية والقنصلية ثلاث مرات . وفي عام ٤٦ مُنح قيصر سلطات القنسور (Censor) باسم المشرف على الأخلاق (praefectus moribus) لمدة ثلاث سنوات . وفي عام ٤٤ تقرر السماح لقيصر باستخدام هذه السلطات لمدى الحياة ، كما تقرر اعتبار شخصه مقدساً (Sacroscant) لا يجوز المساس به شأنه في ذلك شأن ترابنة العامة دون أن يتولى وظيفة تريبونية العامة[٥٨] .

وبوصف كون قيصر دكتاتوراً كان من حقه اتخاذ مساعد له وهو قائد الفرسان (magister equitum) ، وكان هذا المساعد ينوب عن قيصر في

(58) C.A.H., IX, pp. 729, 900 n. 6; Scullard, 1970, p. 153.

روما وإيطاليا ويستخدم سلطاته العليا في أثناء غياب الدكتاتور في الخارج لقيادة حملاته العسكرية . ومن أجل تصريف الشئون الداخلية سُمح لقيصر بتعيين موظفين كبار (praefecti) كانوا يستمدون سلطتهم من سلطته الوارفة . وفضلاً عن ذلك فإنه سُمح لقيصر أيضاً بأن يعين في الخارج مساعدين (legati) له وبأن يمنحهم مرتبة برايتور(٥٩) .

ومعنى ذلك كله أن قيصر قبض على زمام الأمور جميعاً في الدولة . والواقع إنه ليصعب أن نتصور تمتع أي حاكم بسلطات أوسع من السلطات التي تمتع بها قيصر ، ولا سيما أنه بإقامته دكتاتوراً لسن القوانين (legibus scribundis) وبناء الدولة (rei publicae constituendae) لم يكن يحق لترابنة العامة ولا لكبار الحكام القورولي الاعتراض على أي تصرف من تصرفاته ، هذا اذا كان لدى أحد منهم جرأة كافية للاعتراض . ويجب الا يفوتنا أن السلطات الدكتاتورية التي تمتع بها قيصر لم تكن سلطات دكتاتورية عادية لأنها ، وإن لم تكن مجرد سلطات عسكرية ، قد كانت فعلاً مستمدة من انتصارات قيصر العسكرية وتستند على ولاء محاربيه القدماء وولاء الفرق العسكرية الخمس والثلاثين التي كانت لا تزال قائمة وتبعاً لذلك تحت إمرته .

ومن عجب أن قيصر لم يقنع بالسلطات الواسعة التي كانت دكتاتوريته تخولها له ، فقد رأينا كيف أنه كان تارة يجمع بين الدكتاتورية والقنصلية مع زميل له ، وتارة أخرى بين الدكتاتورية وتولي القنصلية بمفرده . حقاً إن قيصر لم يبتدع سواء الجمع بين الدكتاتورية والقنصلية أم تولي القنصلية عدة سنوات متتالية أم تولي القنصلية منفرداً ، فقد سبقه صلا الى الجمع بين الدكتاتورية والقنصلية ، وسبقه ماريوس الى تولي القنصلية عدة سنوات متتالية ، وسبقه بومبي الى تولي القنصلية منفرداً . بيد أن تكرار ذلك كله وعلى هذا النحو في عهد قيصر ينهض دليلاً قاطعاً على أن القواعد الدستورية والنظم الجمهورية

(59) Dio Cass., XLIII, 47,-49; C.A.H., IX, p. 732.

لم تعد أكثر من أشباح وهمية .

ولا جدال في أن قيصر لم يعطل الأجهزة الدستورية ولم يلغ شيئاً من النظم القائمة ، فقد سمح للأجهزة الدستورية بممارسة نشاطها مثل ما سمح بالانتخاب للوظائف العامة . بيد أن كل هذه الضروب من النشاط الدستوري لم يكن لها وزن ولا قيمة ما دام أن الأمر كان أمر قيصر والمشيئة مشيئته . ذلك أن منح قيصر حق إصدار القوانين كان معناه نزول الأمة الرومانية عن حقها في التشريع . ولا يعنينا في هذا المقام أنه قد سبق منح صلا مثل هذا الحق ، ولا أن قيصر لم يسيء استغلال هذا الحق ، بقدر ما يعنينا ما ينطوي عليه منح هذا الحق ، أو على الأصح اغتصاب هذا الحق ، وهو الإدراك من جديد أن الدستور القائم لا يكفل مواجهة مشاكل الدولة .

ويزيد في أهمية ذلك في حالة قيصر أمر لم يسبق له مثيل ويدل على أن الأمة الرومانية لم تنزل عن حقوقها في التشريع فحسب — أو بتعبير أدق لم تُحرم حقوقها في التشريع فحسب — بل أيضاً في الانتخابات العامة . ذلك أنه بعد معركة موندا أعطى السناتو لقيصر حق اختيار المرشحين للوظائف العامة . ولا جدال في أن اختيار قيصر للمرشحين لم يكن الا تعييناً مقنعاً لهؤلاء المرشحين . وتبعاً لذلك لم تعد الانتخابات العامة الا مسرحية هزلية . وقد بلغت هذه المسرحية الهزلية ذروتها في عام ٤٤ ق . م . عندما قررت جمعية القبائل بناء على اقتراح لوقيوس شقيق ماركوس أنطونيوس السماح بإجراء الانتخابات عندئذ لاختيار شاغلي الوظائف العامة لثلاث سنوات مقبلة دفعة واحدة (٦٠) . وباستخدام قيصر الحق الذي منحه السناتو إياه ، لم يقرر قيصر عندئذ نتيجة الانتخابات لذلك العام فحسب بل أيضاً لعدة سنوات مقبلة . وإصدار جمعية القبائل مثل هذا القانون العجيب يعطينا فكرة جلية عن مدى مدى خضوع هذا الجهاز الدستوري الهائل لسيطرة قيصر . ويتجلى ذلك أيضاً

(60) Dio Cass., XLIII, 47, 1; 51, 2-3; Sueton., XLI, 2, LXXVI, 3; C.A.H., IX, p. 732.

فيما سيأتي ذكره فيما بعد عما فعلته هذه الجمعية عندما غضب قيصر على اثنين من ترابنة العامة .

ويحدثنا ديون قاسيوس بأنه في عام ٤٧ ق. م. مُنح قيصر حق إعلان الحرب وعقـد الصلح باسم الأمـة الرومانية(٦١) . واذا كانت الوقائع التي نعرفها لا تبرر قبول رواية ديون قاسيوس حرفياً ، فإنه من المرجح أن هذه الرواية لا تنطوي الا على قدر من التجوز في التعبير يصور حقيقة الواقع أكثر مما يصور المظاهر الشكلية بمعنى أن تكون جمعية المئينات قد ظلت نظرياً صاحبة الحق في إعلان الحرب وعقد الصلح إلا أنه من حيث الواقع كانت هذه الجمعية شأنها شأن جمعية القبائل وغيرها من أجهزة الدولة تأتمر بأوامر قيصر وتنفذ مشيئته فإذا شاء حرباً أو صلحاً إستجابت الجمعية إلى مشيئته ، ومن ثم فإن قيصر هو الذي كان في الواقع يعلن الحرب ويعقد الصلح باسم الأمة الرومانية ، وتبعاً لذلك لم يكن القرار الخاص بذلك الا صدى لمشيئة قيصر وإرادته .

وهل كان السناتو أسعد حظاً من جمعيتي القبائل والمئينات ؟ لقد عرفنا أن الحرب الأهلية أفنت عدداً كبيراً من أعضاء السناتو ، وأن قيصر أعاد تكوين السناتو وزاد عدد أعضائه ، وأنه بطبيعة الحال إنتهز هذه الفرصة وأدخل السناتو عـدداً كبيراً من أنصاره . أيمكن أن السناتو الـذي حشده قيصر بأنصاره كان أكثر استقلالاً في الرأي من جمعيتي القبائل والمئينات ؟ لا جدال في أن السناتو كان يجتمع ويناقش ويصدر القرارات، ولا في أنه كان من بين أعضاء السناتو عدد لا يقر تصرفات قيصر ولكن هذا العدد كان قليلاً . وبيت القصيد هنا هو هل كانت القرارات التي يصدرها السناتو تنبثق في الحقيقة عن التفكير المستقل لأعضاء هذا المجلس ؟ وهل سمح قيصر للسناتو بأن يقوم بأي قدر من دوره التقليدي في توجيه سياسة الدولة ؟ لقد مارس السناتو حقه التقليدي الى أقصى حد في منح مظاهر التكريم والتشريف فأغدق على قيصر من هذه

(61) Dio Cass., XLII, 20, 1.

المظاهر ما ينم عن أحط مظاهر الزلفى التي تفسد خلق أي حاكم مهما يكن حظه من الحكمة والاتزان . وإن كانت هناك ثمة حاجة الى دليل على أن قرارات السناتو لم تعد الا تعبيراً عن مشيئة قيصر واتجاهاته فحسبنا قرار السناتو الذي خول قيصر حق اختيار المرشحين للوظائف العامة . وليس لدينا ما ينم من قريب أو بعيد عن أن قيصر سمح للسناتو بالقيام بأي دور في توجيه سياسة الدولة . وخير دليل على ذلك ما نعرفه من أمر الشئون الخارجية وهي التي كانت منذ أمد طويل المجال الخاص بالسناتو دون غيره . حقاً إن السناتو هو الذي كان يصدر القرارات بإسناد القيادات العسكرية وتعيين حكام الولايات ، ولكن الشك لا يداخل أحداً في أن ذلك كله لم يكن الا تنفيذاً لمشيئة قيصر الذي كان يرشح بل يعين كل شاغلي الوظائف العامة ويختار القواد وحكام الولايـــات .

وعندما إتُّهم بالخيانة ديوتاروس ملك غالاتيا ، وهو الذي كان قيصر يشك في ولائه ولذلك حرمه بعد الانتصار على فارناقس الجزء الشرقي من مملكته وكذلك أرمينيا الصغرى ، لم يسمح قيصر للسناتو بالفصل في هذه المسألة التي تدخل في صميم اختصاص هذا المجلس باعتبارها من الشئون الخارجية ، ولا للبرايتور باعتبارها مسألة قضائية ، وانما تولى أمرها بنفسه وقام شيشرون بالدفاع عن الملك المتهم(٦٢) .

وأبلغ من ذلك في الدلالة على خضوع السناتو لمشيئة قيصر وعدم سماح الدكتاتور لهذا المجلس بممارسة اختصاصاته ممارسة حقيقية أنه عندما أنفذت ميتوليني (Mitylene) وقنيدوس (Cnidos) سفراءهما الى روما في شهر فبراير عام ٤٥ ق . م . لعرض مشاكلهما على السناتو ، أرجأ السناتو البت في الأمر الى أن عاد قيصر من اسبانيا ، فاضطر السفراء الى الانتظار حتى خريف ذلك العام(٦٣) .

---

(62) Cic., pro Rege Deiotaro; Phil., II, 37, 93-95.
(63) C.A.H., IX, p. 730.

ويكمل هذه الصورة ويعطينا فكرة عن كيفية صدور القررات في مجلس محدود العدد مثل السناتو ما يذكره شيشرون في خطاب أرسله في اكتوبر عام ٤٦ ق. م. الى صديقه بايتوس (Paetus). فقد جاء في هذا الخطاب أن اسم شيشرون أُدرج في عداد أعضاء السناتو الذين شاركوا في إصدار قرارات في موضوعات لا علم له بها في اجتماعات لم يحضرها[٦٤] . واذا كان هذا قد حدث مراراً في حالة رجل بارز مثل شيشرون ، فإنه يمكننا أن نتصور أن هذه الحالة لم تكن الحالة الوحيدة من نوعها . وأهم من ذلك الدلالة التي تنطوي عليها شكوى شيشرون وهي أنه كان يُعتبر أمراً مفروغاً منه موافقة السناتو على ما أوحى به قيصر . فلا عجب أن بعض الباحثين يرون بحق أن قرارات السناتو لم تكن أكثر من تسجيل قرارات قيصر نفسه .

وقد سبق أن ذكرنا أن قيصر زاد عدد الكوايستورس الى أربعين وعدد البرايتورس الى ستة عشر . واذا كان من شأن زيادة عدد الحكام الوفاء بمتطلبات حكم الولايات ، فإن ذلك أفسح المجال أمام قيصر لمكافأة أنصاره وكسب ولاء أنصار جدد ولا سيما بعد أن أصبح في الواقع هو الذي كان يعين شاغلي الوظائف العامة ويسند إدارة الولايات لمن يشاء . وقد عرفنا كذلك أن قيصر زاد أيضاً عدد أعضاء الجماعات الدينية الرئيسية . ولما كان النبلاء شديدي الشغف بتولي المناصب الكهنوتية بسبب ما كان ذلك يضفيه على شاغلي هذه المناصب من مكانة اجتماعية ممتازة ، فإن قيصر اتخذ من تعيين النبلاء في هذه المناصب وسيلة لكسب ولاء الكثيرين منهم[٦٥] . وإذا أخذنا في الاعتبار الى جانب ذلك كله مكافأة الأنصار بتعيينهم أعضاء في السناتو وما يحدثنا به سويتونيوس وديون قاسيوس[٦٦] عن الهدايا والأموال التي كان يغدقها على الأصدقاء ، يتضح بجلاء أن قيصر لم يترك وسيلة دون أن يستخدمها لدعم أو لشراء الولاء له .

(64) Cic., ad Fam., IX, 15, 4.
(65) Dio Cass., XLII, 51, 3.
(66) Sueton., Div. Jul., L, 2 ; Dio Cass., XLIII, 47, 5-6.

ولا أدل على مدى استخفاف قيصر بالنظم القائمة من أنه عندما توفي فابيوس ماكسيموس أحد قنصلي الشهور الثلاثة الأخيرة من عام ٤٥ ق . م . وهو العام الذي عرفنا أن قيصر جمع فيه بين الدكتاتورية وتولي القنصلية منفرداً لمدة الشهور التسعة الأولى ، قضى قيصر « بانتخاب » فانينيوس ريبلوس قنصلاً بديلاً للساعات الباقية من ذلك العام(٦٧) ، مما أثار سخرية شيشرون اللاذعة(٦٨) . والدفاع عن مثل هذا التصرف بأن الباعث عليه كان حرص قيصر على احترام الشكليات أكثر منه الاستخفاف بوظيفة القنصلية دفاع سقيم لا يمكن قبوله إلا اذا ألغينا عقولنا . ذلك أنه لو صح أن قيصر كان شديد الحرص الى حد التزمت في حرصه على احترام الشكليات لما قبل إجراء «الإنتخابات» لعدة سنوات مقبلة دفعة واحدة ، أو تولي الدكتاتورية لعام ثم لعشرة أعوام ثم لمدى الحياة ، أو الجمع بين وظيفتي الدكتاتورية والقنصلية ، أو تولي القنصلية منفرداً لمدة تسعة شهور من عام ٤٥ ثم « انتخاب » قنصلين بديلين للشهور الثلاثة الباقية من ذلك العام .

وهكذا يبين من العرض السابق أن قيصر كان يتمتع بسلطات مطلقة لا تستقيم بأي حال مع نصوص الدستور الجمهوري ولا مع السوابق والتقاليد المألوفة ، وأنه لم يكن هناك حد لسلطانه ولا رقيب على تصرفاته ولا سبيل الى الحد من مشيئته ، وأنه لم يكن للنظم القائمة أي وزن أو قيمة في نظره . وإذا كان قيصر لم يلغ نصوص هذا الدستور أو يعطل أي جهاز من أجهزته ، فإن هذه النصوص وهذه الأجهزة لم تعد إلا أدوات صورية لتنفيذ مشيئة الحاكم بأمره . ومما لا بد أن يكون له دلالته ومغزاه أن هذا السيد الأوحد للدولة الرومانية الذي سمت مكانته سمواً شاهقاً فوق سائر الرومان لم يكتف بالاعتماد على مجده العسكري وولاء محاربيه القدماء والفرق العاملة تحت إمرته ،

(67) Dio Cass., XLIII, 46, 3-4; Plut., Caes., LVIII.
(68) Cic., ad Fam., VII, 30, 1-2.

بل عمد الى حشد السناتو بالموالين له وجمع الأنصار حوله بشتى الأساليب . فإلى أي اتجاه يشير ذلك كله ؟

ب – القــرائن :

وأما عن القرائن التي توحي بنظام الحكم الذي كان تفكير قيصر متجهاً نحوه فهي كثيرة . وقد مر بنا أن شيشرون كان من أشد المتمسكين بالنظام الجمهوري ، وأنه كان من بين العوامل التي حفزته على التسليم بالهزيمة الأمل في الحفاظ على النظام الجمهوري . وعندما بلغ شيشرون عقب موندا أن الدكتاتور يفكر في إعادة بناء الدولة أعد رسالة تتضمن نصائحه في هذا الصدد ولكنه رأى من الحكمة أن يستطلع رأي المقربين الى الدكتاتور في هذه الرسالة فنصحوه بإدخال تعديلات عليها لأن الدكتاتور لن يرضى عما لا يتفق واتجاهاته. ويقول شيشرون إنه بإجراء هذه التعديلات لم تعد للرسالة قيمة . ويعرب شيشرون عن أساه لما وصلت اليه الحال ولذلك يرى أن من الأفضل له أن يعزي نفسه عن سوء الأوضاع بالانهماك في التأليف . ومما له دلالته أن أحد خطابات شيشرون لا يدع مجالاً للشك في أنه يرى وجه شبه قوي بين قيصر والإسكندر بعد ارتقائه العرش[٦٩] .

وقد سبق أن ذكرنا أنه في السنة الأخيرة من حياة قيصر قرر السناتو نقش صورة الدكتاتور على العملة الرومانية الرسمية ، وأن نقش صور البشر الأحياء على عملة الدولة كان أمراً لم يعهده الرومان عندهم من قبل ، وأنه في الممالك الهلينيسية كانت عادة لا تنقش على نقودها إلا صور آلهتها وعواهلها . والباحثون المعارضون للفكرة القائلة بأن قيصر كان في سبيله الى إقامة نظام ملكي يحاولون في حرج واضح التقليل من شأن هذه القرينة بحجتين ، وإحداهما هي أنه إذا كان قرار السناتو بإصدار تلك العملة التي تحمل صورة قيصر معناه أن قيصر كان ملك الرومان ، فلماذا إذن كان هناك من إيحاءات فُسرت بتطلع قيصر

(69) Cic., ad Att.. XII, 40, 2; 51, 2; XIII, 26, 2; 27, 1; 28, 2-3; 31, 3.

الى الملكية ؟ والرد على ذلك هين يسير وهو أن هذا القرار الذي أصدره أشياع قيصر ممن مــلأ بهم السناتو ليس معنــاه أن قيصر قد أصبح فعلاً ملك الرومان — وإن كان قد غدا كذلك فعلاً فيما عدا اللقب — وإنما معناه تمهيد الطريق لاتخاذ قيصر هذا اللقب . ذلك أن قيصر كان يدرك مدى كراهية الرومان للنظام الملكي ولذلك كان يريد إعداد الرأي العام إعداداً مكيناً قبل اتخاذ الخطوة الحاسمة في هذا الاتجاه . وهذا يفسر ما سبق ذكره عن اهتمام قيصر الشديد باستخدام كل الوسائل لكسب الأنصار الذين يسبحون بحمده . وأما الحجة الأخرى وهي أن فاوستوس صلا سك عملة تحمل صورة أبيه الدكتاتور بعد وفاته وأن الكوايستور جنايوس بومبي سك في إسبانيا عملة تحمل صورة أبيه بومبي الأكبر بعد مقتله ، فإنها أوهى من أن تستحق الوقوف عندها لمناقشتها . وأما القول بأن قرار السناتو لا ينم عن شيء أكثر من مظهر آخر من مظاهر المداهنة والتكريم لقيصر ، فإنه ضرب من العنت في الجدل لا يقل عن العنت في تفسير ما أوردناه من القرائن على تأليه قيصر في حياته بأنها أيضاً مظاهر أخرى من مظاهر المداهنة والتكريم لقيصر لا ترقى الى التدليل على تأليهه في حياتــه .

ولا جدال في أن قيصر برغم كل سلطاته الواسعة كان رجلاً لبقاً مهذباً رقيق الحاشية ، ومع ذلك فإنه في أوائل عام ٤٤ ق . م . عندما انخرط أعضاء السناتو في موكب وذهبوا يحملون اليه قرارهم بمنحه مظاهر تشريف جديدة لم ينهض قيصر من مقعده عند مدخل معبد فينوس جنتركس وإنما استقبلهم جالساً[٧٠] على غرار ما كان الملوك يستقبلون رعاياهم .

وقد كانت عصبة الرأس (didema) تعتبر كالتاج رمزاً مميزاً للملوك الهلينيسيين منذ أخذ الاسكندر هذا التقليد عن ملوك الفرس . وعندما حدث أن شخصاً مجهولاً وضع عصبة الرأس على تمثال قيصر المقام على منصة الخطابة

(70) App. B.C., II, 107; Sueton., Div. Jul., LXXVIII, 1; Dio Cass., XLIV, 8; Plut., Caes., LX, 3-5; Liv., Ep. 116.

في الفوروم وبادر تريبونا العامة فلافوس (Flavus) ومارولـّوس (Marullus) الى نزع العصبة . بوصف كونها تمثـل افتئاتاً صارخاً على النظام الجمهوري وحرية الشعب الروماني وحقه في الديمقراطية ، غضب قيصر من تصرف التريبونين بحجة أنهما لم يعطياه الفرصة لينزع العصبة بنفسه[71] . وذات وضع العصبة على تمثال قيصر أمر بليغ في دلالته سواء أكان الذي وضعها من أنصاره أم من خصومه ، لأنه إذا كان من الأنصار فأغلب الظن أن عمله لم يكن تلقائياً وإنما موعز به لجس النبض فيما اذا كان الوقت قد حان لإعلان الملكية . وأما إذا كان من الخصوم فإن عمله ينم عن ضيق المخلصين للنظام الجمهوري بسلطات قيصر التي جعلت منه ملكاً غير متوج مثل ما ينم عن إحساسهم بأن قيصر كان في سبيل إقامة نفسه ملكاً وكذلك عن رغبتهم في إثارة المشاعر ضد نواياه لإحباطها قبل فوات الأوان .

ولعل أن ما حدث في يوم ٢٦ من يناير عام ٤٤ ق. م. كان ضرباً آخر إما من الترويج لإقامة قيصر ملكاً وإما لمناهضة هذا الاتجاه. ذلك أنه حين كان قيصر عائداً يومئذ من الحفل اللاتيني وارتفعت أصوات منادية إياه « ملك » (rex) لم يثر قيصر أو يكفهر وجهه وإنما قابل النداء بابتسامة رقيقة وبقوله « لست ملكاً وإنما أنا قيصر » (non sum rex sed Caesar) . بيد أن تريبوني العامة فلافوس ومارولـّوس سارعا الى إلقاء القبض على الرجل الذي قيل إنه كان أول الذين جرى النداء على ألسنتهم . ولا يقل عن هذا النداء أهمية في الدلالة غضب قيصر عندئـذ من تصرف تريبوني العامة ، لأنه كان معناه اعتبـار وصف قيصر بأنه ملك جرماً يستحق العقاب . ولمـا لم يقف تريبونا العامة عند ذلك بل ذهبا الى حد إصدار بيان نددا فيه بحرمان ترابنة العامة حرية التصرف ، هاجمهما قيصر في السناتو هجوماً عنيفاً ، وبإيعاز منه تقرر حرمانهما عضوية السناتو واستصدر تريبون العامة هلفيوس قينّا من جمعية

(71) Sueton., LXXIX, 1; Dio Cass., XLIV, 9; Plut., Caes., LXI, 4; Liv., Ep., 116; App., B.C., II, 108.

القبائل قانوناً قضى بعزلهما من منصبيهما قبل انتهاء الموعد القانوني (٧٢) .

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع ـــ أي في النصف الثاني من شهر فبراير عام ٤٤ ق . م . ـــ أقيم في الفوروم حفل لوبرقاليا (Lupercalia) . وفي خلال هذا الحفل قدم القنصل ماركوس أنطونيوس عصبة الرأس الى قيصر باسم الشعب . وبعد أن تمنع قيصر عن قبول العصبة تمنعاً ظاهراً مرة بعد أخرى أهداها الى كبير الآلهة يوبيتر قابيتولينوس « ملك الرومان الأوحد » وأمر بأن يثبت في السجلات الرسمية أنه استجابة الى رغبة الشعب عرض القنصل ماركوس أنطونيوس الملكية على يوليوس قيصر ، الدكتاتور لمدى الحياة ، ولكن قيصر رفضها (٧٣) . ومما له دلالته ما يحدثنا به بلوتارخ وأبيانوس في هذا الصدد من أنه كلما قدم أنطونيوس العصبة الى قيصر كانت قلة من الحاضرين تصفق على حين أنه كلما رفض قيصر العصبة كان كل من في الفوروم يصفقون .

ومن الجلي أن هذه المسرحية التي مُثلت أمام حشد كبير من الرومان كانت ـــ على حد ما تقول به المصادر القديمة ـــ أمراً متفقاً عليه ، وأنها لم تكن إلا إحدى الخطوات التمهيدية لبلوغ الهدف المنشود ، فهي إن دلت على شيء فهي تدل على أن الملكية كانت النظام الذي يميل قيصر الى إقامته . بيد أن قيصر إذ كان يدرك أن الكثيرين من صنائعه على أتم استعداد للموافقة على أي نوع من نظم الحكم يريد إقامته ، كان يدرك أيضاً أن هناك حتى بين أكثر المقربين اليه من يكرهون الملكية كراهية التحريم . وتبعاً لذلك فإنه كان يتعين على قيصر أن يخطو نحو هدفه بخطى وئيدة قصد بها إظهار عزوفه وتعففه عن الملكية ، ومن ثم فإنه عمد الى أن يدخل في روع الناس أنه لا يفكر إطلاقاً في الملكية بدليل إصراره على رفضها عندما ألحف أنطونيوس في عرضها عليها على مرأى ومسمع من الجماهير المحتشدة في الفوروم لمشاهدة حفل لوبرقاليا.

---

(72) Dio Cass., XLIV, 10; App., B.C., II, 108, Sueton., LXXIX, 1; Plut., Caes., LXI, 4-5; Liv., Ep., 116.

(73) Dio Cass., XLIV, 11; Sueton., LXXIX, 2; Plut., Caes., LXI, 1-4; Ant., XII; Velleius, II, 56; App., B.C. II, 109, Liv., Ep.. 116.

وإذا أغفلنا أمر ما بدر من أشخاص مجهولين وليست لهم أية صفة رسمية وأمعنا النظر فيما صدر عن رجال مسئولين في الدولة كانوا طوع بنان قيصر ولا يمكن أن يصدر عنهم شيء الا استجابـة لمشيئته : فإنـه يتضح لنا أنه لو أن قيصر لم يكن حقاً يفكر جدياً في إقامة النظام الملكي ، لما قرر السناتو نقش صورته على عملة الدولة، ولما اجترأ ربيب قيصر وزميله في القنصلية ماركوس أنطونيوس على أن يعرض عليه الملكية . وإذا أغرقنا في السذاجة الى مدى التسليم بأنه لم تكن لقيصر يد في شيء من ذلك كله ، وبأن فكرة الملكية لم تدر بخلده قبل أن يلوح بها أمامه ويعرضها عليه المتملقون من أنصاره ، وبأنه كان جاداً في رفض الملكية عندما عُرضت عليه ، فإنه لا بد من التسليم أيضاً بأنه لم يكن هناك ما هو أيسر من أن ينتهي الأمر عند ذلك . بيد أن هذا لم يحدث على نحو ما سنرى تواً .

ذلك أنه في شهر فبراير عام ٤٤ ق . م . أصبح شائعاً معروفاً أولاً أن قيصر رفض الملكية عندما عرضها عليـه أنطونيوس باسم الشعب، وثانياً أن قيصر يعتزم محاربة بارثيا وأعد العدة لذلك . ولا جدال في أن الانتقام من بارثيا لهزيمة قراسوس كان أمراً قد طال أمد انتظاره . بيد أن إعادة بناء الدولة باستكمال إصلاح الأوضاع فيها كانت أكثر إلحاحاً من القيام بحرب لم تكن هناك حاجة ملحة على خوض غمارها بدليل أنه بعد ذلك بأربع عشرة سنة عندما قضى أغسطس على أنطونيوس وكليوبترة وضم مصر الى الإمبرطورية الرومانية فضل العودة الى إيطاليا لوضع الأمور في نصابها هناك على محاربة البارثيين ، وأنه انقضى على مصرع قيصر حوالي ربع قرن قبل أن يولي أغسطس عنايته الى البارثيين . ولما كنا نستبعد على رجل من طراز قيصر أن يكون قد سمح في هذا الوقت بالذات لرغبته في تتويج انتصاراته العسكرية بقهر البارثيين بأن تعميه عن حاجات الدولة وأشدها إلحاحاً وأكثرها أهمية . فلا بد من أن تكون اعتبارات سياسية بالغة الأهمية هي التي أملت على قيصر ضرورة تقديم محاربة البارثيين على كل ما عداها . ولسنا في حاجة الى الذهاب

بعيداً للتدليل على ذلك ، إذ أنه ما أن انتشر خبر اعتزام قيصر محاربة البارثيين وما صاحب ذلك بطبيعة الحال من دعاية لتبرير هذه الحملة بضرورة الثأر للشرف الروماني وتأمين الحدود الشرقية للإمبراطورية حتى قيل إنه وجدت في كتب الوحي السيبولية نبوءة غامضة بادر لوقيوس قوتا (أحد أعضاء اللجنة المنوطة برعاية هذه الكتب المقدسة وتفسيرها) الى تفسير هذه النبوءة بأن الرومان لن يهزموا البارثيين إلا اذا قادهم ملك ، والى تدبير إذاعة سر هذه النبــوءة (٧٤) .

ويجب ألا تغرب هنا عن البال ثلاثة أمور : وأحدها هو أن العرف جرى على أن تفسير هذه النبوءات كان يعتبر سراً خطيراً من أسرار الدولة الى أن يُبلغ هذا التفسير الى السناتو لأنه كان من حق السناتو وحده أن يأمر إما بتنفيذ هذا التفسير فيذاع وإما بإغفال أمره على أساس أنه خرافة لا وزن لها ولا قيمة فيبقى طي الكتمان تفادياً لما يترتب على عدم العمل بالنبوءة من إثارة مشاعر الجماهير الدينية . والأمر الثاني هو أن أغلب أعضاء السناتو كانوا من أنصار قيصر وعلى أتم استعداد لتنفيذ كل رغباته ، غير أنه كان يوجد كذلك في السناتو وحتى بين أقرب المقربين الى قيصر أعضاء يؤمنون بالنظام الجمهوري إيماناً قوياً . والأمر الثالث هو أن استخدام حيل النبوءات لتحقيق أهداف سياسية كان أمراً معروفاً وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال النبوءة التي زُعم أنه عثر عليها في الكتب السيبولية في عام ٥٦ ق . م . لإنقاص قدر مهمة إعادة بطلميوس الزمار الى عرشه لكي يزهد بومبي في هذه المهمة .

ولا بد لنا من أن نلغي عقولنا لنتصور أنه لم تكن لقيصر يد في العثور على هذه النبوءة الغامضة وتفسيرها على النحو الذي أوردناه وإذاعة السر قبل إبلاغه الى السناتو . ومن عجب أن يقول بعض الباحثين إن قيصر وجد نفسه عندئذ في حيرة شديدة . فهو من ناحية مصمم على محاربة البارثيين ومن ناحية أخرى

(74) App., B.C., II, 110; Sueton., LXXXIX, 3; Dio Cass., XLIV, 15, 3; Plut., Caes., LX, 1.

لا يستطيع إغفال ما أمرت به النبوءات السيبولية لأنه كان من شأن هذا الإغفال إثارة المشاعر الدينية بين الجنود وعامة الناس ! ونحن يدق علينا أن نرى سبباً لهذه الحيرة الشديدة ، ذلك أنه من ناحية لم تكن هناك اية ضرورة ملحة تستوجب محاربة البارثيين عندئذ ، ومن ناحية أخرى لو صح حقاً أن مسألة النبوءة المزعومة لم تكن من تدبير قيصر وأنه كان لا يتطلع الى إقامة نفسه ملكاً ، لما اجترأ قوتّا على إذاعة سر النبوءة ولما كان هناك أيسر على قيصر من أن يصرح بعدوله عن القيام بحرب يقتضي النصر فيها هدم النظام الجمهوري وإقامة النظام الملكي الكريه على أنقاضه وبأنه بدلاً من القيام بهذه الحرب سيولي عنايته الى إعادة بناء الدولة .

ويبدو لنا أن قيصر قد هدف من وراء تدبير مسألة النبوءة المزعومة وإذاعة سرها الى تحقيق هدفين ينيران له معالم الطريق نحو ضالته المنشودة . وأحد هذين الهدفين هو أن يتعرف على نوايا الجمهوريين بعد هذا التطور الأخير . والهدف الآخر هو أن يدخل في روع الناس أنه بعد أن رفض الملكية عندما عرضها عليه البشر لم يعد في وسعه إلا الإضطرار الى الاستجابة الى ما أوحت به النبوءات السيبولية المقدسة من أجل أن يؤدي للدولة واجباً يقتضيه تطهير الشرف الروماني من الدنس الذي لحقه بهزيمة قراسوس وتستوجبه حماية الحدود الشرقية وبذلك يسترد الرومان كرامتهم وتنعم الإمبراطورية بالسلم والرخاء . ألا يذكرنا هذا ببعض المبررات الفلسفية التي كانت الملكية الهلينيسية تستند عليهـــا ؟

ويبدو أن حيلة النبوءة لم تنطل على أولئك المستمسكين بالنظام الجمهوري ، وأن ذلك لم يثن قيصر عن المضي قدماً نحو هدفه ولكن على مهل . ذلك أنه عجل استعداداته لمحاربة بارثيا وفي الوقت نفسه أخذ عملاؤه يدعون الى ضرورة المناداة به ملكاً على الشعوب الخاضعة لروما . ومعنى ذلك أنه تنفيذاً للنبوءة كان لا بد من أن يحارب قيصر البارثيين بوصف كونه ملك الشعوب التابعة لروما ولكن دون أن يكون ملك الرومان مراعاة لمشاعرهم . بيد أن مجيء

هذه الدعوة في أثر ما سبقها من النذر الدالة على اتجاه قيصر نحو الملكية أقنع الجمهوريين بأنه اذا كان قيصر قد رأى من الحكمة أن يتمهل في إقامة الملكية في روما يومئذ فإنه سيفعل ذلك حتماً يوم يفرغ من قهر البارثيين، ولذلك دبروا المؤامرة التي أجهزت على قيصر في منتصف مارس عام ٤٤ ق. م. قبيل خروجه لمحاربة البارثيين بأربعة أيام[٧٥].

وإنه لاشتراك رجلين مثل تربونيوس ودقيموس بروتس في مؤامرة اغتيال قيصر دلالة بالغة تفسر لنا سبب الحذر الذي توخاه قيصر في تحقيق غايته المنشودة وكذلك ماهية هذه الغاية. ذلك أن هذين الرجلين كانا من أكثر المقربين الى قيصر ومن أكثر الذين أفادوا من صلتهم به وكذلك من أكثر المتحمسين للنظام الجمهوري، وعندما تكشف لهما بحكم صلتهما الوثيقة بقيصر تصميمه على تحويل نظام الحكم الجمهوري الى نظام ملكي هان عليهما كل شيء في سبيل الحفاظ على النظام الجمهوري. واذا صح ما يُقال من أن قيصر لم يقتل عندئذ لأنه كان يريد إقامة النظام الملكي وإنما لأنه تولى الدكتاتورية مدة أطول من المعتاد، فلما إذن لم يقتل في عام ٤٧ لانه تولى الدكتاتورية لمدة عام بدلاً من الستة الشهور المنصوص عليها في الدستور، أو لماذا لم يقتل في عام ٤٦ عندما أقيم دكتاتوراً لمدة عشر سنوات؟ أو اذا صح ما يقال من أن السبب الحقيقي لقتله كان إقامته دكتاتوراً لمدى الحياة، فلماذا لم يقتل عقب صدور القرار الخاص بذلك قبيل منتصف فبراير عام ٤٤ بدلاً من قتله في أعقاب النبوءة المشؤمة والدعوة الى ضرورة المناداة به ملكاً على الشعوب المقهورة وهي الدعوة التي كشفت النقاب تماماً عن حقيقة نواياه؟

وهكذا يتضح مما أوردناه سواء عن السلطات التي مارسها قيصر أم عن القرائن المختلفة أنه كان يعتزم إقامة النظام الملكي في روما، وأنه سعى الى ذلك سعياً حثيثاً في السنة الأخيرة من حياته. وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن تأليه

(75) Cf. App., B.C., II 110-111; Sueton., Div. Jul., LXXXIX-LXXX.

قيصر كان وليد سياسة مرسومة لإقامة ملكية من الطراز الهلينيسي ، أي ملكية تقوم على حق الملوك الإلهي . وفي اعتقادنا أن اتجاه قيصر الى إقامة مثل هذا النوع من نظم الحكم كان أمراً طبيعياً تقتضيه عدة عوامل ، لعل أن أهمها :
اولاً — أن مجرى الأحداث لا بد من أن يكون قد أقنع قيصر مثل ما أقنع الكثيرين من معاصريه والباحثين المحدثين جميعاً — على نحو ما مر بنا — بأنه لم يعد هناك سبيل الى حل مشاكل روما إلا عن طريق السلطة الأوتقراطية . بيد أنه لما كانت لروما تقاليد دستورية كانت لا تزال عزيزة على الرومان فإنه كان لا بد من أخذ ذلك أيضاً بعين الإعتبار.

ثانياً — أن استقرار الأوضاع في الدولة الرومانية كان يقتضي إقامة نظام دائم للحكم . وإذا كانت وظيفة الدكتاتورية توفر لشاغلها السلطة اللازمة لحل مشاكل روما المستعصية ، فإنه كان لا يمكن إقامة نظام دائم للحكم على أساس هذه الوظيفة ، لأنه بحكم التقاليد الرومانية المألوفة والقواعد الدستورية الرومانية كانت وظيفة الدكتاتورية وظيفة موقوتة بستة شهور لمواجهة أزمة شديدة طارئة. ولا أدل على ذلك من أن تولي صلا الدكتاتورية مدة أطول من ذلك أثار نقد الدستوريين وغضبهم، ومن أن صلا كفر عن هذه الإساءة وأظهر احترامه للتقاليد والدستور بنزوله تلقائياً عن الدكتاتورية واعتزاله الحكم . وقد أظهر قيصر مثل هذا الإحترام في بداية الأمر بنزوله عن الدكتاتورية عندما تولى قنصلية عام ٤٨ . واذا كان هذا الإحترام قد أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً بتوليه الدكتاتورية بعد فارسالوس لمدة عام ثم بتعيينه بعد ثابسوس دكتاتوراً لمدة عشرة أعوام وبعد موندا دكتاتوراً لمدى الحياة، فلا بد من أن قيصر كان يدرك في قرارة نفسه أن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم أو أن يصلح لاتخاذه أساساً لإقامة نظام دائم يكفل خدمة صوالح الدولة على المدى الطويل.

ثالثاً — أنه في كنف الملكية الهلينيسية كان يمكن الجمع بين السلطة الأوتقراطية ومظاهر الحكم الدستورية . ذلك أن الملك المؤله كان يستمد سلطته من الآلهة ، وبوصف كونه إلهاً لم تكن هناك حدود لسلطته ولا قيود عليها

ولا غضاضة من إملاء إرادته على الأجهزة الدستورية، وقد سبق أن ذكرنا أنه في دولة البطالمة مثلاً كانت توجد مدن ذات سيادة نظرياً وكانت لهذه المدن أجهزتها الدستورية التي تمارس نشاطها . بيد أن هذا النشاط كان في ظل الملك الوارف ولا يمكن أن يتعارض مع مشيئة الملك .

وفي ضوء ذلك كله وما رأيناه من أنه في كنف دكتاتورية قيصر لم يكن لمجلس السناتو أو جمعية القبائل أو جمعية المئينات أي نشاط لا يقره الدكتاتور أو يوحي به ، أليس من المرجح إذن أن قيصر كان يريد إقامة ملكية من طراز ملكية البطالمة يتمتع فيها بالسلطة المطلقة مع السماح للسناتو وجمعيتي القبائل والمئينات بالاستمرار في اتخاذ قرارات وإصدار تشريعات لا تكون عندئذ – أكثر مما كانت عليه من قبل في عهد دكتاتوريته – إلا تسجيلاً رسمياً لمشيئة قيصر الحاكم بأمره[٧٦] ؟

رابعاً – قيصر في ذمة التاريخ

ومهما يكن نوع نظام الحكم الأوتقراطي الذي كان قيصر يريد إقامته ، فأغلب الظن أن الباعث على اختياره ذلك النظام لم يكن حب قيصر للسلطة المطلقة بقدر ما كان إيمانه بأنه في كنف ظروف روما الراهنة بعد التجارب المريرة التي مرت بها لم يعد يصلح لمواجهة مشاكلها إلا مثل هذا النظام .

---

(٧٦) عن قيصر والملكية ، أنظر :

T. Mommsen, History of Rome, Bk.V, ch. XI; E. Meyer, Caesar Monarchie, 3rd. ed., 1922; J. Carcopino, Histoire romaine, II, 1936 ; F.E. Adcock, C.A.H., IX, pp. 718 ff.; R. Syme, Roman Revolution, Ch. IV, and J.R.S., 1944, pp. 99 ff.; H. Last, J.R.S., 1944, pp. 115 ff ; W. Burket, Historia, 1962, pp. 356 ff.; V. Eherenberg, Harvard Stud. Class. Philol., 1964, pp. 149 ff.; G. Dobesch, Caesars Apotheose zu Lebezeitein und sein Ringen um den Königstitel, 1966; K.W. Welwei, Historia, 1967, pp. 44 ff.; Scullard, 1970, pp. 155-6, and n. 29 pp. 431-2.

ولا جدال في أن جايوس يوليوس قيصر يعتبر من أبرز الرجال الجديرين بمكانة مرموقة في سجل التاريخ . ولا ينتقص من قدر قيصر افتئاته على التقاليد والقواعد الدستورية الرومانية بعد أن أصبحت — على نحو ما رأينا — جثة هامــدة وإن ظل يتشبث بها بعض المثاليين الخياليين الذين توهموا أنه كان لا يزال في الإمكان النفخ في صورتها وبعثها من جديد ، فقد كان قيصر رجلاً عملياً يدرك تمام الإدراك أن بعث الموتى خارج عن طاقة أي بشر .

وقد توافر لقيصر من المواهب المتعددة الجوانب ما لم يتوافر لكثيرين غيره من عمالقة التاريخ . ذلك أنه كان سياسياً بارعاً ، وحاكماً قديراً ، ومصلحاً نابهاً ، وكاتباً فذاً ، ومحارباً ممتازاً ، وقائداً من الطراز الأول ، مما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان رجلاً عبقرياً .

ولا جدال كذلك في أن قيصر كان رجلاً طموحاً . وقد كان مبعث طموحه مزيجاً من رغبة ملحة في أن يحقق لنفسه المجد الذي كان يؤهله له أصله العريق وعبقريته الفذة ، ومن رغبة لا تقل إلحاحاً في دعم عظمة روما وإقامة نظام للحكم كفيل بحسن تصريف أمور الدولة . وبفضل رجاحة عقله واتزانه وحسن بصيرته ، نأى بنفسه عن ارتكاب الأعمال الشريرة التي لوثت دكتاتورية صلا فأصبحت رأفة قيصر بخصومه السياسيين مضرب الأمثال ، وان كان البعض يرى في هذه الرأفة مسحة من الإزدراء وتحدياً سافراً للمستقبل . وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه لعل أن مبعث رأفة قيصر كان من ناحية ذلك الجانب من خلقه السياسي الذي كان ينأى به عن الإسراف في الخصومة الى حد التنكيل بالخصوم السياسيين ، ومن ناحية ثانية رغبته في تصفية الجو ضماناً لاستقرار الأوضاع . ومن ناحية ثالثة ثقته الشديدة في نفسه وفي ولاء جنوده ومحاربيه القدماء . ولا أدل على أن رأفة قيصر لم تكن صفة أصيلة انفطرت عليها نفسه من عدم تردده في القسوة الشديدة التي عامل بها غير الرومان وبخاصة الذين غدروا به . وهذا أمر خليق بأن يحسب على قيصر وأن ينتقص من قدره مثل حياته الشخصية المعيبة . ولرجال السياسة الرومان

من معاصريه عذرهم في عدم الثقة به ، لأنهم من ناحية كانوا يقيسونه بأنفسهم ، ومن ناحية أخرى رأوا سلطته الطاغية تزداد باطراد على مر الأيام .

. ولو أن قيصر أوتي من الفرص مثل ما أوتيه أغسطس من حيث تسلم السلطة العليا في مقتبل العمر ، وتوفر أصدقاء من حوله يستطيع الثقة فيهم والاعتماد عليهم لمشاركته أعباء الحكم ، والتمتع بصحة جيدة تسعفه على الاستمرار في أخذ الأمور بهوادة على المدى الطويل الذي كان يتطلبه تطوير نظام الحكم الروماني الجمهوري الى نظام ملكي ، لربما حالف قيصر من التوفيق ما حالف أغسطس من بعده . بيد أن قيصر وصل الى السلطة العليا في شيخوخته ، وكانت صحته معتلة ، وكان يفتقر الى أصدقاء من طراز أجريبا (Agrippa) ، مما حمله على التعجل في دفع مجريات الأمور دفعاً شديداً فاصطدم بأعتى صفات الخلق الروماني : وهي الحفاظ على تقاليد الآبـــاء والنفور نفوراً شديداً من التطور السريع ، وتبعاً لذلك خر قيصر ضحية لهذا الصدام . غير أن تضحية قيصر لم تذهب سدى . ذلك أن سلطته الأوتقراطية والحروب الأهلية التي أعقبت مصرعه مهدت السبيل الى تقبل الرومان حكم المواطن الأول (princeps) ، أو بعبارة أخرى الحكم الملكي الذي استتر وراء قناع شفاف من الرياء السياسي لم يلبث أن انحسر ليكشف عن أنياب الأباطرة الرومان ومخالبهم . وهكذا اذا لم يكن القدر قد أمهل قيصر ليشيع النظام الجمهوري الروماني الى مثواه الأخير بعد أن دق آخر مسمار في نعشه، فإنه قد تولى عنه هذه المهمة التاريخية ابنه بالتبني — حفيد أخته الصغرى يوليا — وكان يدعى أوقتافيانوس ولكنه يعرف عادة بأغسطس، وهو اللقب الذي خُلع عليه إجلالاً له وتمجيداً .

القسم الثالث

حضارة الرومان في القرن الأخير من عصر الجمهورية

الفصل الرابع عشر

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

اولاً – الحياة الاقتصادية

١ – النتائج المترتبة على التطورات السياسية :

كان طبيعياً أن تنعكس على حياة إيطاليا الإقتصادية نتائج دعم سيطرة روما على شبه الجزيرة الإيطالية ، وانتصارها على قرطجنة ، واتساع نطاق إمبراطوريتها في حوض البحر المتوسط . فلا عجب أن أبرز مظاهر الحياة الإقتصادية في إيطاليا في خلال القرن الثاني قبل الميلاد كانت من ناحية تكدس رؤوس الأموال في المدن الإيطالية وبخاصة في روما ، وزيادة مطردة في عدد الضياع الكبيرة (latifùndia) التي امتلكها نبلاء السناتو والأثرياء من رجال الأعمال الرومان والإيطاليين واستخدموا أعداداً كبيرة من العبيد في استغلالها ، ومن ناحية أخرى تناقص مطرد في عدد صغار أصحاب الأراضي (وهم الذين كانوا قوام الجيوش الرومانية) ، واكتظاظ روما بالمتعطلين أو أشباههم وهم الذين هجروا الزراعة إما لعجزهم عن منافسة الضياع الكبيرة وإما لأنهم بعد الحروب الطويلة أصبحوا لا يستطيعون مزاولة الزراعة بسبب عدم قدرتهم أو بسبب عزوفهم عن حياة الريف الرتيبة الخالية من عوامل

الإثارة التي ألفوها في حياة الجندية وكانوا يرون خير بديل لها حياة روما البهيجة بحفلاتها ومآدبها والاجتماعات العامة على اختلاف أنواعها . وقد كانت لذلك كله نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية .

ويستهل القرن الأخير في عهد الجمهورية الرومانية بالمحاولة الجريئة التي قام بها تيبريوس جراكوس في عام ١٣٣ ق . م . ومن بعده أخوه جايوس في عامي ١٢٣ و ١٢٢ ق. م. لوقف نمو الضياع الكبيرة وإعادة بناء طبقة صغار أرباب الأراضي . وقد كان اتجاه الأخوين جراكوس الى تحدي هيمنة السناتو على مقاليد الأمور والى الخروج على التقاليد والأوضاع الدستورية اتجاهاً ثورياً لو قُدر له النجاح لكانت النتيجة الحتمية المنطقية قيام حكومة شعبية يتولى زمامها زعيم شعبي ، أو بعبارة أخرى حرمان أوليجاركية السناتو سيطرتها التقليدية ونقل مقاليد الأمور الى الجمعية الشعبية وترابنة العامة ، وهو الأمر الذي وقف السناتو عقبة كأداء دون تحقيقه .

وبرغم ما بذله الأخوان جراكوس من جهود صادقة للإصلاح وما حظيا به من تأييد الطبقات الفقيرة ، فإنه لم يترتب على حركتهما الإصلاحية التي سرعان ما أصبحت حركة ثورية : إعادة بناء طبقة صغار أرباب الأراضي ولا تغير نظام الحكم ، وإن كان قد ترتب على هذه الحركة هز دعائم حكومة السناتو هزاً عنيفاً ، ووضع حد أقصى لملكية الأرض ، ومصادرة مساحات كثيرة من الأرض تزيد على هذا الحد ، ومنح عدد غير قليل من الإقطاعات الزراعية . ذلك أنه لم يكد ينقضي على مصرع جايوس نحو من عشر سنوات حتى كانت الطبقة الحاكمة الرومانية ، بتأييد نظرائها في المدن الإيطالية وكذلك بتأييد الأثرياء من رجال الأعمال الرومان والإيطاليين ، قد نجحت في هدم سياسة الإصلاح الزراعي التي اتبعها الأخوان جراكوس . ولعل أن أخطر ما تمخضت عنه حركة الأخوين جراكوس نتيجتان : وإحداهما هي أن هذه الحركة أضعفت أداة الحكم القائمة التقليدية دون أن تفلح في إقامة أداة بديلة أقدر منها على مواجهة مشاكل الدولة الرومانية . وأشعرت العامة بقوتهم

السياسية دون أن تكون لديهم القدرة على معالجة أمور الدولة . وشجعت زعماء شعبيين آخرين على تحدي أداة الحكم المهتزة ، مما أفضى الى صراع سياسي مشئوم . والنتيجة الأخرى هي أن هذه الحركة أشعلت لأول مرة في التاريخ الروماني فتيل الصراع الطبقي بين الأغنياء والفقراء ، وتبعاً لذلك ألهبت مشاعر أعداد كبيرة من سكان إيطاليا . وبحكم طبيعة النوازع الإنسانية متى بدأ مثل هذا الصراع كان من المتعذر وقفه .

وفي خلال المرحلة التالية من الإضطرابات الأهلية التي شهدتها إيطاليا تخلت مشكلة الأرض عن مكان الصدارة لمشكلة سياسية بحت هي مشكلة حصول حلفاء روما الإيطاليين على حقوق المواطنة الرومانية . ومما يجدر بالملاحظة في أمر هذه المشكلة الرئيسية الجديدة أن نشاط لجنة الأراضي كان من أهم المظالم التي حفزت الحلفاء على المطالبة بحقوق المواطنة الرومانية ، وأن جهود جايوس جراكوس بوجه خاص أعطت الحلفاء أملاً في الحصول على هذه الحقوق ، وأن الطبقة الحاكمة استغلت مشكلة الأرض ومناداة الأخوين جراكوس بحق فقراء الرومان في الحصول على إقطاعات زراعية فأثارت أحط الغرائز فيهم لرفض منح الإيطاليين حقوق المواطنة لكيلا يشاركوهم في الحصول على نصيب من الأرض العامة . وعندما نفد صبر الحلفاء دون أن يذعنوا للأمر الواقع ، نشب ذلك الصراع الذي تهدد كيان الدولة الرومانية وخربت في أثنائه أراضي وسط إيطاليا وبخاصة الأراضي المزدهرة التي كانت في حوزة قبائل السمنيين الشمالية . وحفاظاً على كيان الدولة من التصدع اضطر الرومان كارهين الى منح حقوق المواطنة لأغلب الإيطاليين .

وبعد انتهاء هذه المرحلة الأليمة عادت مشكلة الأرض تطل على المسرح السياسي بأكثر من رأس واحدة . ذلك أنه من ناحية كان من جراء إدماج الإيطاليين في زمرة المواطنين الرومان ازدياد عدد الفقراء المتذمرين الذين لا يملكون أرضاً ، وكانوا كلهم تقريباً على أتم الإستعداد للإسهام في الصراع

من أجل الحصول على نصيب من الأرض العامة . ومن ناحية أخرى ضم الأثرياء صفوفهم وتكاتفوا للحفاظ على الأوضاع القائمة . ولم يقف الأمر عند حد اتساع نطاق الصراع على الأرض وتعقد هذا الصراع تبعاً لمشاركة العناصر الجديدة فيه مشاركة فعالة ، بل إن طابع هذا الصراع تغير تغيراً يكاد أن يكون تاماً . ذلك أنه عندما أثبتت حرب يوجورتا وغزوة القيمبري والتيوتون وحلفاءهم تعذر التمسك بالقاعدة التقليدية المألوفة منذ زمن طويل وهي التي كانت تقضي بألا تتألف الفرق الرومانية إلا من أرباب الأراضي ، تغير تدريجاً ـ وان كان تغيراً جوهرياً ـ طابع الجيش الروماني وتكوينه الإجتماعي . إذ أنه بعد إصلاحات ماريوس العسكرية لم يعد الجيش الروماني جيشاً من المواطنين أرباب الأراضي الذين يتوقون إلى العودة إلى أراضيهم بمجرد انتهاء الحملة التي حشدوا من أجلها ، وإنما جيش من المحترفين المستعدين لخوض غمار حرب بعد أخرى . لأنه كان يتألف من المعدمين وفقراء المزارعين الأجراء الذين كانوا يرون في الخدمة العسكرية عملاً شريفاً يضمن لهم حياة مفعمة بالمغامرة ، وكذلك تكسب قوتهم بإنتظام ، فضلاً عن الفوز بنصيب من الأسلاب . وتبعاً لذلك كانوا يرحبون بقضاء أطول مدة ممكنة في الجيش . بيد أنه مهما تطل هذه المدة ، كان يتعين مكافأة هؤلاء المحاربين عند تسريحهم بمنحهم إقطاعات زراعية تدر عليهم ما يكفيهم لسد مطالب الحياة . وقد عمل ماريوس وصلا وبومبي وقيصر على توفير الأرض اللازمة لقدماء المحاربين إما في إيطاليا وإما في الولايات . وقد ترتب على ذلك زيادة عدد صغار أرباب الأراضي ، هذا الى أن انتشار المواطنين الرومان في أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية وفي بعض أقاليم عدد من الولايات أدى إلى نتائج اجتماعية بعيدة المدى والى الإسهام في نشر الحضارة الرومانية وأساليب الحياة الرومانية مما أفضى الى صبغ شبه الجزيرة الإيطالية بوجه خاص وبعض أقاليم الولايات بوجه عام بصبغة رومانية .

غير أنه من ناحية أخرى ترتب على تكوين الجيش الجديد ـ جيش

المحترفين ، نتيجة بالغة الخطورة . وهي أن هذا الجيش غدا أكبر وأقوى هيئة منظمة في الدولة الرومانية ، وأنه بحكم ارتباط مصائر الجنود بمصائر قوادهم أصبح ولاء الجيش للقواد بدلاً من أن يكون للدولة ذاتها ، وأن القواد أصبحوا زعماء سياسيين لا يترددون في استخدام الأداة الماضية التي في قبضتهم لتحقيق أطماعهم الشخصية دون أن يعبأوا كثيراً أو قليلاً بالعرف والتقاليد والقواعد الدستورية ولا بمعارضة السناتو أو ثرثرة الجمعيات الشعبية . وبالتدريج اغتصب القواد العسكريون الدور الذي كانت تضطلع به طبقة السناتو الحاكمة والجمعيات الشعبية (Senatus Populusque Romanus) .

وقد كان لوقيوس قورنليوس صلا أول القواد الرومان الذين استخدموا الجيش الجديد لتحقيق أطماعهم الشخصية . وعندما انقضى عهد صلا الكريه وجاءت المرحلة التالية من الحروب الأهلية لم يكن الصراع في حقيقة الأمر إلا صراعاً على السلطة بين أبرز قائدين وأكثرهما طموحاً يومئذ وهما بومبي وقيصر اللذان كان كل منهما يعتمد على مجده العسكري وولاء جنوده له وتأييدهم إياه .

٢ ــ الزراعــة :

واذا كانت لم تعد هناك ملكيات كبيرة تزيد على الحد الأقصى الذي تقرر بمقتضى قانوني الأراضي اللذين استصدرهما تيبريوس وجايوس جراكوس ولم يجرؤ الأثرياء على إلغائه ، وكانت ملكية كثير من الضياع الكبيرة قد انتقلت في أثناء حرب أو أخرى ، فإنه ظل يوجد عدد غير قليل من الضياع التي كان يملكها الأثرياء من طبقة النبلاء ومن طبقة رجال الأعمال . ومثل ذلك الضياع النموذجية التي كانت تنتشر في كل جنوب إيطاليا ووسطها وتُدار على أسس رأسمالية وفقاً للنمط الهلينيسي . حيث كانت أعداد كبيرة من العبيد تمارس فلاحة البساتين وغرس الكروم وأشجار الزيتون وتربية الماشية والطيور . ومثل الضياع التي كان يملكها في الشمال الشرقي بومبي ودوميتيوس أهنوباربوس . وقد عمد فريق من كبار أرباب

الأراضي الى تأجير الأرض الى مزارعين أحرار (Coloni) ، فكان في وسع بومبي مثلاً أن يحشد جيشاً من مستأجري أرضه وعبيده .

وكانت أبرز مظاهر الحياة الإقتصادية في أبوليا وسامنيوم وبعض أجزاء لاتيوم وجانب كبير من صقلية وسردينيا وقورسيقا هي أراضي المراعي التي كانت تُربى عليها مئات الآلاف من الأغنام والماعز والأبقار والثيران . وكان لا يزال يميز وادي البو وبيقنوم وأومبريا وجزء من أتروريا انتشار القرى ومزارع صغار أرباب الأراضي . وفي هذه الأصقاع كان يعيش في قرى ومزارع مماثلة مستأجرو أراضي كبار الملاك . وكان صغار أرباب الأراضي ومستأجري أراضي الأثرياء يزرعون الغلال لسد حاجتهم وحاجات المدن المجاورة لها . وهذا يفسر اعتماد روما المكتظة بالسكان على الإستيراد الخارجي للوفاء بحاجاتها الى المؤنة . ولا تدع مصادرنا القديمة مجالاً للشك سواء في ذلك أم في أن أغلب كبار أرباب الأراضي دأبوا على أن يتخذوا مقامهم في العاصمة دون أن يولوا اهتماماً كبيراً الى شئون الزراعة ، تاركين أمر ذلك لوكلائهم ، إذ أن بعض الأثرياء كانوا لا يعتبرون ضياعهم أكثر من مصادر دخل لا تستوجب التضحية بقضاء العمر الى جانبها ، وكان البعض الآخر لا يعتبرون ضياعهم سوى أماكن إقامة ريفية للترويح عن النفس . ولم تكن روما قبلة الأثرياء وحدهم ، ذلك أن الكثيرين من الجنود المزارعين الجدد إما فشلوا في ممارسة الزراعة وإما برموا بحياة الريف الرتيبة ، فآثر فريق منهم أن يبيع أرضه الى جيرانه الأثرياء فتحولت إقطاعاتهم الى ضياع الأثرياء نزلاء العاصمة ، ولجأ فريق آخر الى تأجير أرضه ، وشد الفريقان الرحال الى روما للاستمتاع بمباهجها [1] .

ولا جدال في أن الخدمة العسكرية حرمت الريف الإيطالي أعداداً كبيرة

---

(1) T. Frank, Economic History of Rome, 2nd ed., pp. 324 ff.; T. Rice Holmes, Roman Republic, I. pp. 56, 106; M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire, revised by P.M. Fraser, 1963, p. 31; cf. Heitland, J.R.S., 1918, p. 38.

من صغار أرباب الأراضي الذين غادروا مواطنهم الأصلية الى غير رجعة ، إما لأنهم فنوا في ميادين القتال ، وإما لأنهم بعد الحرب آثروا الإستقرار في روما أو الهجرة الى الولايات . بيد أنه ليس معنى ذلك أن طبقة صغار المزارعين قد اندثرت ، فقد أمكن تعويض هذا النقص ولو جزئياً بفضل المحاولات المتكررة لإعادة توزيع الأراضي ونجاح الكثيرين من المزارعين الجدد في حياتهم الجديدة . وقد كان من جراء حرب الحلفاء والحروب الأهلية شل الحياة الإقتصادية واضطرابها في أثناء تلك الأوقات العصيبة عندما غشى الرعب قلوب المواطنين جميعاً فما كان أحد يدري ما يخبؤه له الغد ، وأزهقت أرواح أعداد كبيرة من مختلف الطبقات ، وقُتل كثيرون من أبرز القادة ، وفقد كثيرون من مختلفي مشارب الحياة ممتلكاتهم ، لأن القواد المنتصرين إما باعوها لملء خزائنهم وإما وزعوها على جنودهم الذين أيدوهم وساعدوهم على إحراز النصر . ولا شك في أن الزراعة قد عانت كثيراً من آثار ذلك كله . ولا شك أيضاً في أن وجه الزراعة الإيطالية قد تغير نتيجة لاتجاه الرأسماليين الى العناية بزيادة المراعي والإكثار من تربية الحيوان ومن غرس الزيتون والكروم على حساب زراعة القمح .

ومع ذلك فإنه لا يمكن القول بأن الزراعة الإيطالية بوجه عام قد تدهورت ولم تنتعش بعد اجتيازها الأزمات العصيبة التي صادفتها[٢] . ويؤخذ دليلاً على هذا الانتعاش ما يحدثنا به فارّو[٣] في مؤلفه « ثلاثة كتب في الشئون الريفية » (Rerum Rusticorum Liberi III) الذي صنفه في أواخر أربعينات القرن الأول قبل الميلاد ، أي بعد حرب الحلفاء الإيطاليين وسلسلة من الحروب الأهلية التي كانت آخرها قد بدأت منذ قليل عقب مصرع قيصر . ذلك أن حديث فارّو ينم عن أنه في عصره كانت إيطاليا أكثر بلاد الدنيا ازدهاراً من حيث الزراعة والموارد الطبيعية . ويمضي فارّو فيصف إيطاليا

---

(2) C.A.H., IX, p. 791; Rostovtzeff, op. cit., pp. 30 ff.

(3) Varro, Rerum Rusticorum, I, 2, 3; 6 ff.

بأنها كانت « بستاناً كبيراً » ، حيث انتعش في أخصب البقاع غرس أشجار الكروم وغيرها من الفاكهة وكذلك الزيتون والبقول ، وذلك فضلاً عن تربية الحيوان والطيور . وحول المدن ، وبخاصة في الأجزاء الداخلية البعيدة عن منافسة النقل بأسعار زهيدة ، كانت الغلال لا تزال تزرع وفقاً للأساليب التقليدية . والوصف الذي يعطيه فارّو في الجزء الأول من كتابه تصويراً لازدهار الزراعة الإيطالية لا يناقضه شكوى فارّو في الجزء الثاني من اضطرار إيطاليا الى استيراد القمح والنبيذ لسد حاجتها . ذلك أن عدد سكان روما أخذ يتزايد باطراد تبعاً لازدياد أهميتها بوصف كونها عاصمة الإمبراطورية الرومانية مما اقتضى سد حاجة سكانها باستيراد القمح والنبيذ ، وبخاصة الأصناف الممتازة من الأنبذة فضلاً عن أنواع المأكولات النادرة استجابة لأذواق الأثرياء بعد أن أصبحوا يألفون الحياة المترفة . وقد هال فارّو استيراد القمح والنبيذ من الخارج لأنه كان يريد أن يتوافر لأيطاليا من الإكتفاء الذاتي ما يغنيها عن الإستيراد . وتبعاً لذلك كان شديد الحماس للاهتمام بالزراعة بقدر ما كان معارضاً لتربية الحيوان ، وهو ما يفسر حملته العنيفة على الرأسماليين لفرط اهتمامهم بتربية الحيوان بوصف كونها مصدراً للدخل يفوق زراعة القمح وغرس الكروم .

واذا كان من الجائز أن الصورة الزاهية التي رسمها فارّو لرخاء إيطاليا لا تخلو من بعض لمسات المبالغة التي يوحي بها مثلاً اعتباره إيطاليا أكثر بلاد الدنيا ازدهاراً في عصره ، فإنه من المستبعد أن يكون فارّو قد ذهب في مبالغته الى حد تصوير التدهور ازدهاراً يانعاً . ذلك أنه من ناحية لم يغفل فارّو ذكر العيوب الواجب تلافيها في الزراعة ، ومن ناحية أخرى أن الازدهار الذي تحدث عنه فارّو يجد سنداً قوياً في أمرين : وأحدهما هو القصور الريفية (villae rūsticae) الرائعة الزينة بمداخل من الرخام والمزودة بحدائق غناء . وهي القصور التي أقامها الأثرياء على شواطىء البحر في لاتيوم

وأتروريا وقمبانيا ويرجع بعضها الى القرن الأول قبل الميلاد[٤] . والأمر الآخر هو نمو مدينة بومبي (Pompeii) وازدهارها منذ ولجت مرحلة جديدة من مراحل حياتها في الثلث الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد . ذلك أنه ينتمي إلى الفترة الممتدة من عام ١٣٠ الى عام ٩٠ ق.م. عدد من أروع المنشآت العامة (مثل الباسيليقا) وكذلك عدد من المنشآت الخاصة (مثل القصرين المعروفين بقصر بانسا ، Pansa ، وقصر فاونوس، Faunus) . واذا كانت هذه المدينة قد نكبت باستيلاء صلا عليها في عام ٩٠ ق.م. ثم بإنشاء مستعمرة فيها ، فإنها لم تلبث أن أفاقت من آثار نكبتها وازدهرت ثانية وهو ما يدل عليه المعبد الجميل الذي أنشىء ليوبيتر قابيتولينوس في فوروم هذه المدينة . وتوحي القرائن بأمرين : وأحدهما هو أن ثروة بومبي وقمبانيا في أواخر العصر الجمهوري وكذلك في عصر أغسطس كانت مستمدة أساساً من الزراعة . والأمر الآخر هو أن الحالة كانت مماثلة لذلك في أغلب أنحاء إيطاليا [٥] .

والفضل في انتعاش إيطاليا وتغلبها على الأزمات الطاحنة التي مرت بها يرجع الى الولايات ، فهي من ناحية كانت تزود روما بمقادير كبيرة من الجزية النوعية والنقدية فضلاً عن أسلاب الفتح ومغانم الحكام . ومن ناحية أخرى كانت الولايات مرتعاً خصباً لنشاط الرأسماليين في مجالات التجارة وجباية الضرائب وإقراض النقود . ومن ناحية ثالثة كانت الولايات مجالاً رحباً لاقتناء مساحات واسعة من الأراضي سواء في صقلية أم في إسبانيا أم في أفريقيا . وهكذا أسهمت الولايات إسهاماً كبيراً في أن تتدفق على إيطاليا مختلف أنواع السلع ، وأهم من ذلك أكداس الثروة التي يسرت استصلاح

---

(4) Rostovtzeff, op. cit., I, p. 30.

للاطلاع على قائمة بهذه القصور الريفية وعلى المراجع ، أنظر :

Rostovtzeff., op. cit., II, n. 26, pp. 551-3.

(5) Rostovtzeff., op. cit., II, p. 551; cf. C.A.H., IX, pp. 838-9; K.D. White, Roman Farming, 1970.

الأراضي واستثمارها وفقاً لأحدث الأساليب الرأسمالية . وفضلاً عن ذلك كله فإن الولايات هيأت للدولة الرومانية السبل لتخفيف وطأة ازدحام إيطاليا بالسكان حين عز وجود هذه السبل في إيطاليا ، فقد رأينا كيف أنه بعد محاولة جايوس جراكوس إنشاء مستعمرة يونونيا في ولاية أفريقيا أُنشئت ناربو في ولاية غاليا فيما وراء الألب ثم أُنزل قدماء محاربي ماريوس في ولاية أفريقيا وفي غيرها . وإذا كان يوليوس قيصر قد تطلع في أثناء قنصليته الأولى إلى إنزال قدماء محاربي بومبي والأسر الفقيرة في إيطاليا ، فإنه فيما بعد عندما تضخمت مشكلة قدماء المحاربين والفقراء تضخماً هائلاً آثر قيصر ألا يكرر الإضطراب الذي أعقب استيلاء صلا على الأراضي في إيطاليا فاتجه إلى إنشاء مستعمرات كثيرة في الولايات الى جانب المستعمرات التي أنشأها على ما كان لا يزال شاغراً من الأرض العامة في إيطاليا .

ومما يجدر بالملاحظة أنه فضلاً عن المستعمرات التي أنشأتها الدولة في الولايات ، وجد كثيرون من سكان إيطاليا متنفساً لهم ومجالاً لبدء حياة جديدة مجزية في الولايات ، فقد هاجر كثيرون منهم في خلال القرنين الأخيرين من عصر الجمهورية إلى غرب البحر المتوسط وشرقه[٦] ، حيث أنشأوا مجتمعات (Conventus) كثيرة مثل التي مر بنا ذكرها في إسبانيا وعرفنا أن قيصر رفع بعضها إلى مرتبة المستعمرات (Coloniae) .

٣ ـ الصناعة :

ومثل ما تأثرت الزراعة تأثراً موقتاً بحرب الحلفاء وسلسلة الحروب الأهلية تأثرت كذلك الصناعة في إيطاليا غير أنها لم تلبث هي أيضاً أن عاودت نموها ولكن على النمط التقليدي . بيد أنه يجب التنويه بأن الزراعة ظلت المجال الرئيسي لنشاط جانب كبير من أهالي إيطاليا ، وبأن روما لم تتجه نحو الصناعة

---

(6) A.J. Wilson, Emigration from Italy in the Republican Age of Rome, 1966; Scullard 1970, pp. 179-180, and n. 3 pp. 437-8.

الا بخطى وئيدة شديدة التمهل فظلت أكبر المراكز الصناعية خارج العاصمة الكبرى في قمبانيا وفي أتروريا ، وبأن أكثر المشتغلين بالصناعة كانوا لا ينحدرون من أصل روماني . غير أن أولئك الصناع استطاعوا توفير الآلات والأدوات وغيرها من الإحتياجات التي كانت لازمة للزراعة والجيش والسفن الحربية والتجارية والحياة اليومية وإقامة المباني العامة والخاصة وإنشاء الطرق .

ولا شك في أن الصناعتين اللتين اشتهرت بهما قمبانيا من قبل وهما صناعة الأدوات البرونزية والفضية وصناعة الأثاث قد ظلتا مزدهرتين . وتشير القرائن الى أنه قد بدأت تظهر في قمبانيا في هذا العصر بعض دور الصناعـــة المتخصصة في الغزل والنسيج ، وإلى أن أرّتيوم (Arretium) – في أتروريا – بدأت تنتج نوعاً ممتازاً من الآنية الفخارية ذات الطلاء اللامع الأحمر اللون (Terra Sigillata ، وكانت تسمى الى عهد قريب آنية ساموس Samian Ware) . وكان بعض هذه الآنية يصنع في قوالب ويزخرف بنقوش بارزة مثل الآنية المعدنية ، على حين أن البعض الآخر كان يصنع بعجلة الفخراني ويخلو من النقوش البارزة . وقد كان مقدراً لهذا النوع من الآنية الفخارية أن ينتشر فيما بعد في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية وبخاصة ولاياتها الغربية .

ومع ذلك لا توجد أية قرينة على أنه في هذا العصر أحرزت الصناعة الإيطالية تقدماً ملحوظاً ، مما يدل على أنها تخلفت عن ركب التطور في مجالات الزراعة والنشاط المالي والتجاري وهو أمر يحار الباحثون في تعليله[٧] .

---

(7) J. Toutain, The Economic Life of the Ancient World, pp. 227 ff.; H. J. Loane, Industry and Commerce in the City of Rome, 50 B.C. — 200 A.D., 1938; C.A.H., IX, 729; Scullard, 1970, p. 180; F. Oswald and T.D. Pryce, Terra Sigillata, 1920; A. Oxé, Arretinische Reliefgefässe vom Rhein, 1933; J.H. Iliffe, Sigillata Wares in the Near East, Quart. Dept. Antiq. Palestine, VI, 1938, pp. 4-53.

٤ — التجـارة :

لم تُنكب التجارة الإيطالية بمثـل ما نكبت بـه الزراعة والصناعة من آثار حرب الحلفاء والحروب الأهلية فحسب بل نكبت أيضاً بنشاط القراصنة . بيد أنه في حالة التجارة كذلك لم تكن هذه النكبات أكثر من نكسات طارئة موقتة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه بسبب ازدراء الرومان التقليدي للتجارة لم يظهروا اهتماماً ملحوظاً بممارستها قبل أيام تيبريوس جراكوس ، على حين أن الكثيرين من حلفائهم الإيطاليين ومن مواطني المدن الإغريقية في جنوب إيطاليا كانوا يقومون بنشاط تجاري واسع النطاق . ويعبر شيشرون بإيجاز بليغ عن الإزدراء الذي كانت الأرستقراطية الرومانية — بوصف كونها مؤلفة من أرباب الأراضي — تكنه لمن يزاولون الأعمال اليدوية أو التجارة بقوله إن أهل الفريق الأول ليسوا فنانين وإن أهل الفريق الثاني لا يستطيعون الظفر بما يكسبون دون الإغراق في الكذب[8] .

وقد أسهم في تنشيط التجارة الإيطالية عاملان رئيسيان: كان أحدهما هو الفرص الواسعة التي هيأتها الولايات ليس فقط من حيث جباية الضرائب بل أيضاً من حيث إقراض الأموال بفوائد باهظة وكذلك التجارة . ووفقاً للقول المأثور « التجارة تتبع العلم » فإنه كلما ازداد عدد الولايات ازداد تبعاً لذلك اتساع الآفاق أمام التجار الإيطاليين . وقد مر بنا كيف أن التجار الإغريق في آسيا الصغرى شقوا بمنافسة التجار الإيطاليين مما كان أحد العوامل التي ساعدت ميثريداتس السادس على بسط سيادته على آسيا الصغرى . ومر بنا أيضاً ما قيل من أنه عندما قضى ميثريداتس بإعمال السيف في نزلاء ولاية آسيا من الرومان والإيطاليين راح ضحية هذا الإجراء الغاشم حوالي ٨٠,٠٠٠ نفس لا شك في أن أغلبهم كانوا من مختلف أنواع رجال الأعمال .

---

(8) Cic., ad Fam., XIII, 16.

وكان العامل الرئيسي الآخر في تنشيط التجارة الإيطالية هو أنه عن غضب الرومان على رودس في أعقاب الحرب المقدونية الثالثة أنشأوا ميناء حراً في جزيرة ديلوس . وبعد تدمير قرطجنة وقورنثة في عام ١٤٦ ق.م. أصبحت ديلوس أحد المراكز الرئيسية للتجارة في شرق البحر المتوسط . وقد وصلت الينا من ديلوس أدلة وفيرة على وجوه النشاط التي كان يزاولها هناك التجار الإيطاليون وهم الذين أصبحوا مواطنين رومان بعد التشريعات الرومانية التي صدرت منذ أواخر عام ٩٠ ق.م.

وقد نكبت ديلوس بنكبتين : كانت إحداهما في عام ٨٨ ق.م. عندما دمرها ميثريداتس . وكانت الثانية في عام ٦٩ ق. م. عندما أصبحت نهباً للقراصنة إلى أن طهر بومبي البحر المتوسط منهم في عام ٦٧ ق.م. واذا كانت ديلوس لم تستعد ثانية مكانتها السابقة فانها استمرت مركزاً تجارياً هاماً .

ولم يقصر التجار الإيطاليون نشاطهم على الحوض الشرقي ، بل لعل أن نشاطهم في حوضه الغربي كان أسبق وأقدم عهداً . ذلك أن ولاية صقلية وولاية سردينيا وقورسيقا كانتا أقدم ولايتين رومانيتين ثم تليهما في الأقدمية ولايتا إسبانيا ثم ولاية أفريقيا وبعد ذلك ولاية غاليا فيما وراء الألب . والأدلة على أهمية التجارة الغربية كثيرة متوافرة ، ومثل ذلك عناية الرومان بتطهير الحوض الغربي للبحر المتوسط قبل اتخاذهم أية خطوات جدية لتطهير الحوض الشرقي ، وازدهارناربو ، والمجتمعات الكثيرة التي كونها المواطنون الرومان في إسبانيا ، وما مر بنا من أنه عندما بدأ الصراع بين أدهربال ويوجورتا كانت مدينة قيرتا زاخرة بالتجار الإيطاليين وكانوا من الكثرة بحيث تمكنت هذه المدينة بفضل جهودهم في الدفاع عنها من الصمود أمام يوجورتا الى أن قرروا التسليم [٩] .

(9) J. Hatzfeld, Les Traficants italiens dans l'Orient hellenique, 1919; W.A. Laidlow, A History of Delos, 1933, ch. VI; A.J.N. Wilson, op. cit., pp. 85 ff.; Pauly-Wissowa-Kroll Realencyc., s.v. Industrie und Handel; Scullard, 1970, p. 181, and n. 5, p. 438.

وكانت صادرات إيطاليا لا تقاس بوارداتها ، ذلك أن الصادرات كانت عبارة عن مقادير متواضعة نسبياً من الآنية الفخارية والأدوات المعدنية والنبيذ والزيت ، على حين أن روما كانت تستورد كميات كبيرة من القمح والمواد الخام اللازمة لسد احتياجاتها العسكرية . وفضلاً عن ذلك فإن الطلب على سلع الترف كان في ازدياد مطرد تبعاً لازدياد الثروة والأخذ بأساليب الحياة المترفة . ولم تقتصر هذه السلع على الأصناف الممتازة من النبيذ أو الأنواع النادرة من المأكولات ، بل كانت تشمل التماثيل وغيرها من الأعمال الفنية ، والحلى مثل اللؤلؤ وغيره ، والمنسوجات التيلية والحريرية والصوفية المصبوغة بالصبغة الأرجوانية ، وورق البردى ، والآنية الزجاجية ، والأصناف النادرة من الأخشاب لصنع الأثاث الثمين ، والأنواع الممتازة من الرخام لتزيين المباني ، ومختلف أنواع الحيوان اللازمة لإقامة حفلات المجتلد . وقد غرقت بعض السفن التجارية وهي في طريقها الى روما وأخرجت من البحر في عام ١٩٠٧ مخلفات شحنة سفينة غرقت قرب الشاطىء الأفريقي تجاه المهدية كما أخرجت حديثاً بقايا شحنات بعض السفن التي غرقت قرب شواطىء الريفييرا الإيطالية والفرنسية . وأوصاف هذه المخلفات تطالعنا بصورة ناطقة لما أوجزناه عن الواردات [١٠] .

ومن الجلي أن القيمة الفعلية لواردات روما من القمح والمواد الخام وسلع الترف كانت تفوق أضعافاً مضاعفة قيمة صادراتها . ومع ذلك فإن هذا العجز في ميزان روما التجاري لم يكن إلا عجزاً نظرياً أو شكلياً . وسبب ذلك أن روما كانت تعيش على فتوحاتها وتزداد ثراء على حساب ممتلكاتها الخارجية عن طريق أسلاب الحرب والجزية المفروضة على الولايات ومغانم حكام هذه الولايات وأرباح التجار وجباة الضرائب والمصرفيين وغيرهم .

---

(١٠) عن هذه المخلفات ، أنظر :

Héron de Villefosse, Revue Archéologique, 1911; Ph. Diôle, Four Thousand Years under the Sea, 1954; Fr. Benoit, Rivista di Studi Liguri, 1952, pp. 237 ff.

من الرأسماليين الذين كانوا يمارسون نشاطاً محموماً في الولايات الرومانية وكذلك في أغلب الدول الخاضعة للنفوذ الروماني .

ثانياً ــ الحياة الإجتماعية

١ ــ طبقات المجتمع :

في أثناء تتبع الأحداث السياسية منذ عام ١٣٣ حتى عام ٤٤ ق.م. رأينا بجلاء الأهمية السياسية لانقسام المجتمع في الدولة الرومانية الى ثلاث طبقات رئيسية وهي الطبقة الأرستقراطية أو طبقة النبلاء وطبقة الفرسان وطبقة العامة . وقد بقي علينا الآن أن نلقي نظرة عاجلة على أبرز مظاهر الحياة الإجتماعية لهذه الطبقات .

ا ــ طبقة النبلاء :

وعند الحديث عن هذه الطبقة يجب ألا يفوتنا التنويه بأن الأسر النبيلة كانت تُعتبر صفوة الأمة الرومانية ، وبأنه بحكم العادة كان النبيل حرياً بأن يلقى احتراماً كبيراً مرده إن لم يكن الى نزاهته الشخصية فإلى مكانة أسرته ومكانته الشخصية التي اكتسبها من شغل إحدى الوظائف العامة العليا . وكان يرمز الى هذه المكانة وينم عنها عدد من المظاهر مثل الطلعة المهيبة والرداء الذي يلبسه والمقعد الأمامي الذي يحتله في المسرح . وقد كان من أبرز المظاهر الدالة على أهمية الرجل النبيل عدد الأتباع (clientes) الذين كانوا يفدون في كل صباح لتحية راعيهم (patronns) والتماس نصيحته أو معونته . وبهذا الإستقبال (salutatio) الصباحي كان النبيل يبدأ يومه المليء بالمشاغل حتى يحل موعد المآدب الليلية .

وقد كانت وفرة الثراء أمراً ضرورياً أولاً لشراء ذمم الناخبين لكي يتيسر الفوز بوظيفة عامة رفيعة تؤهل لمكانة اجتماعية مرموقة وبعد ذلك

للإنفاق عن سعة لكي يمكن الحفاظ على مظاهر هذه المكانة ، دون إهمال احتمال الحاجة الى شراء ذمم المحلفين للفوز بالبراءة من تهمة أو أخرى . وإذا لم يكن الدخل من الضياع كافياً ، فإنه كانت هناك سبل أخرى . ذلك أنه بالرغم من أن القانون كان يحظر على أعضاء السناتو مزاولة التجارة والأعمال المصرفية ، فإنه لم يكن أمراً عسيراً الإسهام خفية في هذه الضروب من النشاط المثمر . وقد مر بنا أن إحدى الفضائح المزمنة في الحياة العامة الرومانية كانت الرشاوى التي يضطر السفراء الأجانب ومبعوثو أهالي الولايات الى تقديمها للقناصل وأعضاء السناتو للفوز بما جاءوا لعرضه على السناتو ، وأنه من أجل تقديم هذه الرشاوى كان لا بد من عقد قروض كبيرة في روما بفوائد باهظة، وأن تريبوني العامة جابينيوس وقورنليوس حاولا في عام ٦٧ ق.م. وضع حد لهذا الضرب من العبث . وأن أعضاء السناتو كانوا شركاء مستخفين للمصرفيين ويستفيدون من الرشاوى ومن الفوائد الباهظة للقروض التي عقدت مع المصرفيين لتقديم هذه الرشاوى . ولم يقف الأمر عند استثمار أعضاء السناتو أموالهم في روما ذاتها ، وحسبنا أن نذكر بعض الأمثلة لهذا الإستثمار في الخارج . ذلك أنه عندما كان شيشرون حاكماً لولاية قيليقيا ، وهي التي عرفنا أن قبرص كانت تتبعها ، كشف أن النبيل الفيلسوف ماركوس بروتس كان يستثمر أمواله في إقراض النقود على نطاق واسع لأهالي مدينة سلاميس بجزيرة قبرص بفائدة باهظة قدرها ٤٨٪ بدلاً من السعر المقرر للفائدة وكان ١٢٪ ، وهو السعر الذي أعلن شيشرون في بيانه (edictùm) أنه لن يعترف بسعر أعلا منه . وقد كان لبروتس وكيل أعمال شرير يدعى سقابتيوس (Scaptius) عينه حاكم قيليقيا السابق أبيوس قلاوديوس مساعداً له (legatus) في قبرص وزوده بحرس من الخيالة فاستخدم سقابتيوس نفوذه وخيالته في محاصرة المجلس التشريعي المحلي في مدينة سلاميس حتى هلك خمسة من أعضائه واستجاب الباقي فيما يبدو الى مطالبه . وما أن تولى شيشرون حكم قيليقيا

حتى أنهى خدمة سقابتيوس (Scaptius) واستعاد القوات التي كانت تحت إمرته . وبسبب ما بدر عن هذا الرجل من سلوك مشين وانهماك في النشاط المالي رفض شيشرون رجاء بروتس إعادة سقابتيوس الى عمله في قبرص كما رفض إرغام المدينين على سداد ديونهم بفوائدها الباهظة إلا أنه استجابة إلى رجاء وكيل أعمال النبيل الفيلسوف ترك الأمر معلقاً دون الفصل فيه ، كما أنه رفض رجاء الأهالي إيداع الديون وفوائدها المألوفة في معبد لوقف احتساب الفوائد عليهم[11] . وهكذا كان أقصى ما استطاعه حاكم ولاية نزيه أنه عزف عن تنفيذ المطالب الجائرة التي كان ينشدها نبيل رأسمالي جشع ، تاركاً إصدار الحكم الذي كان يراه حقاً وعدلاً رهناً بمشيئة حاكم آخر قد تسول له نفسه السير في ركاب الظلم خدمة لصوالحه العاجلة والمستقبلة ، مادياً وسياسياً .

ويتبين من خطاب[12] أرسله شيشرون الى البروبرايتور بوبليوس سيليوس (Silius) حاكم ولاية بيثونيا أن شيشرون نفسه كان شريكاً في شركة جباة ضريبة المراعي (Scripturarii) في تلك الولاية ، وأن أعضاء هذه الشركة كانوا من أكثر الناس نفوذاً في الدولة ، وأن حاكم الولاية بمساعدته وكيل الشركة على أداء عمله سيكتسب على حد تعبير شيشرون « عرفان » أعضاء الشركة وكلهم يتمتعون بمكانة رفيعة فضلاً عن « تقدير » شيشرون . وهذا الخطاب إغراء قوي لحاكم الولاية على مساعدة شركة الجباة في اعتصار الأهالي ليجني شيشرون وشركاؤه ثمار ذلك دون أن ينسوا الحاكم « الشهم » بنصيب من الفائدة المادية العاجلة والفائدة السياسية الآجلة .

ويتبين من خطاب[13] آخر أرسله شيشرون الى البروبرايتو كوينتوس مينوقيوس ثرموس(Thermus) حاكم ولاية آسيا أن بومبي الأكبر كان شريكاً لمصرفي كبير من بوتيولي (Puteoli) يدعى قولفيوس (Culvius)

(11) Cic., ad Att., V, 21; VI, 1, 2.
(12) Cic., ad Fam., XIII, 65; cf. W.W. Fowler, Social Life, p. 78.
(13) Cic., ad Fam., XIII, 56.

وأن هذا المصرفي أقرض أموالاً كثيرة لأهالي عدة مدن في ولاية آسيا ، وأن هذه القروض وفوائدها كانت تستحق السداد ولكنه كانت هناك بعض المشاكل الخاصة بذلك ، وأن شيشرون يرجو الحاكم ويستحلفه أن يتدخل لتسوية الخلاف لأن هذه المسألة كانت تعنيه جداً لسببين وأحدهما هو أنها تمس صوالح بومبي والآخر هو أنها تثير في بومبي قدراً من القلق أكبر مما تثيره في ڤولفيوس .

وقد كان تولي حكم الولايات من أهم مصادر ثروة النبلاء بسبب ما كان ذلك يتيحه من فرص القيام بحملات عسكرية تمليها مقتضيات الأوضاع القائمة أو ظروف مختلفة للفوز بالأسلاب وأمجاد النصر . وذلك فضلاً عن فرص الإبتزاز السافر أو على الأقل الإبتزاز المستتر في شكل الهدايا الهائلة التي كان أهالي الولايات يقدمونها للحكام . فقد أصبح عرفاً مسلماً به تقديم مثل هذه الهدايا الثمينة . ومع أن شيشرون كان مثلاً لحكام الولايات في النزاهة والإستقامة والتعفف عن الظلم والجور ، فإنه لم يتعفف عن قبول الهدايا ، ولم ير ضيراً ولا بأساً في أن يتوسط لدى غيره من حكام الولايات ليرتكبوا ما كان هو نفسه يزور عنه . وقضية ڤرّس حاكم ولاية صقلية تعطينا صورة صارخة لمدى إيغال البعض على الأقل من حكام الولايات في ابتزاز أموال التاعسين الذي وقعوا في براثنهم . ولا شك في أن سماح نبلاء السناتو لڤرّس بالبقاء ثلاثة أعوام في صقلية بدلاً عن عام واحد كان له ثمنه . ولا أدل على مدى تفشي مثل هذا الفساد في الولايات من كثرة ما مر بنا ذكره من قضايا الإبتزاز ومن كثرة المحاولات لوقف هذا الفساد .

وقد كانت هناك وسائل أخرى لجمع الثروة . ومثل ذلك أن شيشرون الذي بدأ حياته بإرث متواضع درت عليه مهنة المحاماة مكاسب طائلة لم تأته عن طريق الأتعاب المنظورة ، فقد كان ذلك محظوراً بحكم القانون ، وإنما عن طريق الأتعاب غير المنظورة وكانت على هيئة هدايا وهبات . ولا يأخذنا العجب من أن شيشرون يفخر بأن قيمة الهبات التي أُوصي له بها بلغت عشرين

مليون سسترتيوس[١٤] ، ذلك أن الهبات كانت تعتبر دلالة على مكانة الشخص عند الناس ومحبتهم له . وقد مر بنا أن شيشرون بحكم نشأته كان من الفرسان ولكنه بحكم توليه القنصلية أصبح من النبلاء .

وثمة مثل فذ تطالعنا به حياة النبيل ماركوس ليقينيوس قراسوس ، عضو الحلف الثلاثي ، وهو الذي بدأ حياته بإرث لا يتجاوز ٣٠٠ تالنت وأصبح في عام ٥٥ ق.م. أغنى رجل في عصره ، فقد كانت ثروته عندئذ تقدر بحوالي ٧٠٠٠ تالنت . ويحدثنا بلوتارخ[١٥] بأن قراسوس اكتسب ثروته أساساً بالانتهازية البشعة التي اتخذت شكلين : كان أحدهما هو انتهاز فرصة أعمال المصادرات في أثناء دكتاتورية صلا وشراء العقارات بسعر زهيد ثم بيعها فيما بعد بسعر مرتفع عندما استقرت الأوضاع . وكان الشكل الآخر هو شراء عدد كبير من العبيد المهرة في إطفاء الحرائق وتصميم المنازل وبنائها واستغلال فرص الحرائق التي كانت تشب كثيراً في روما وذلك بشراء المنازل المحترقة وكذلك المنازل المجاورة لها والمهددة هي أيضاً بالاحتراق لقاء أسعار زهيدة جداً بطبيعة الحال ثم إطفاء الحرائق وإعادة بناء المنازل التي أتت النيران عليها وإصلاح ما كان في حاجة إلى ذلك ، وعلى هذا النحو أصبح يمتلك جانباً كبيراً من مدينة روما . ولا جدال في ان قراسوس كان يستثمر جانباً على الأقل من أمواله في مختلف الأعمال المصرفية .

وقد صحب ازدياد الثروة إقبال شديد على الحياة الرخية المترفة . ومما يجدر بالملاحظة أن هذا الاتجاه لم يتخذ شكلاً ملحوظاً الا في أعقاب حرب الحلفاء الإيطاليين ، وأنه ساعد على هبوط مستوى السلوك في الحياة العامة وفي الحياة الخاصة سواء بسواء . بيد أنه من اليسير الإسراف في تقدير مدى هذه المفاسد ، ذلك أنه مهما يكن انحراف الكثيرين من النبلاء عن أفضل تقاليد طبقتهم ومهما يكن هبوط المستوى العام لهذه الطبقة عن مستواها القديم

(14) Cic, Philip., II, 16, 40.
(15) Plut., Crass., II, 3-4.

في الحكم . فإن إحساس النبلاء بأنهم ورثة أمجاد عظيمة ظلَّ يحفز فئة منهم على التمسك بأهداب مستوى رفيع في أداء الواجب العام وعلى التزود بثقافة عالية وعلى الجنوح الى البساطة نسبياً في حياتهم .

وبطبيعة الحال كانت مظاهر الحياة اللينة الناعمة تتبدى في آجلى صورها في مساكن أولئك النبلاء الذين كانوا يميلون الى هذا اللون من الحياة . بيد أن كل نبيل كانت لديه الموارد الكافية كان يحرص على أن يكون له قصر في أحد أحياء روما الراقية مثل حي بالاتينوس وعدد من القصور الريفية إما على شاطىء البحر وإما على قمم الروابي . ذلك أن حمى إقامة القصور الريفية أو امتلاكها كانت فاشية بين النبلاء جميعاً . ولا أدل على ذلك من أن رجلاً معتدلاً في حياته وفي ثروته مثل شيشرون كان يمتلك ثمانية قصور ريفية على الأقل[١٦] . ويقارن فارّو بين البيوت الريفية التي كانت تشيد قديماً لتوفير لوازم الحياة الزراعية وبين القصور الريفية الأنيقة التي أصبح إنشاؤها حديثاً بدعة جارفة لا لشيء إلا لمنافسة قصور متلّوس أو لوقولّوس ، ويعتبر فارّو هذه البدعة كارثة قومية[١٧] . وقد كان خليج نابولي ومدينة باياي (Baiae) المجاورة له شمالاً يعتبران من الأماكن المفضلة للاسترواح فيها . ووصف شيشرون لقصر صلا وما احتواه من أثاث شرقي وتحف فنية وعدد هائل من العبيد الذين كانوا يشبعون ميول الدكتاتور الفنية وكذلك انحرافاته الخلقية يعطينا صورة للحياة المترفة في صدر القرن الأول قبل الميلاد . ويكمل هذه الصورة ويدل على أن هذا اللون من الحياة لم يكن مقصوراً على النبلاء بل كان يمارسه أيضاً كل من توافرت لديه ثروة عريضة ما يرويه شيشرون عن خرو سوجنوس ، عبد صلا الإغريقي المعتق ، وهو الذي أثرى ثراء فاحشاً من اقتناص الضياع المصادرة . فجمع كمية هائلة من الصور والتماثيل الرخامية والبرونزية . ويخص شيشرون بالذكر جهاز طهي آلي (authespa) اشتراه

(16) C.A.H., IX, pp. 792 ff.
(17) Varro, Rerum Rustic, I, 13, 6-7.

هذا الرجل – ثري المصادرات – في مزاد بثمن مرتفع الى حد أن الذين حضروا المزاد ولم يكن لهم علم بما ينم عنه الاسم الإغريقي لهذا الجهاز تصوروا أن الثمن دُفع لشراء ضيعة كبيرة[١٨] .

وقبيل منتصف القرن الأول قبل الميلاد كان من جراء المبالغ الطائلة التي درج لوقولّوس على إنفاقها في إقامة المآدب الحافلة بكل ما لذ وطاب وفي تشييد القصور الفاخرة وفي إنشاء الحدائق الغناء الزاخرة بأحواض السمك أن لوقولّوس أصبح مضرب الأمثال للبذخ والإسراف . بيد أنه من الإنصاف أن ننوه بأن لوقولّوس كان يقتني مكتبة كبيرة وضعها تحت تصرف الراغبين في الدراسة والاطلاع وأنه كان شديد الحدب عـلى فلاسفة الإغريق وأدبائهم [١٩] .

وقد كان طبيعياً أن حياة البذخ المترفة التي كان النبلاء يحيونها لم ترق لرجل ريفي الأصل جدي المزاج مثل ماريوس فحمل عليها حملة شعواء [٢٠] . ويسخر شيشرون سخرية مريرة من النبلاء الذين أغرقتهم حياة الترف حتى أعمتهم عن صوالح الدولة فلم تهزهم فضيحة اعتداء قلوديوس على طقوس الإلهة الطيبة ولا المخاطر التي كانت تتهدد سلامة الدستور الجمهوري [٢١] . وفي رأي شيشرون أن النبلاء يتصورون أنهم في نعيم مقيم وأن كل شيء بخير ما دامت الأحواض التي أقاموها في حدائقهم عامرة بالأسماك [٢٢] . ومن الجائز أن سخرية شيشرون من النبلاء كان مردها ولو الى حد ما الى سخريتهم منه بوصف كونه « رجلاً جديداً » وفد من أربينوم وشق طريقه في الحياة إلى أن أصبح في عدادهم نتيجة لتوليه القنصلية ومع ذلك فإن النبلاء كانوا يعتبرونه غريباً عنهم ودخيلاً عليهم . غير أنه لا جدال في أن الكثيرين من

(18) Cic., pro Roscio Amerino, 46, 133.
(19) Plut., Lucullus, XXXIX-XLII.
(20) Plut., Marius, IX, Sallust., B. Jug., LXXXV, 10; 12.
(21) Cic., ad Att., I, 18, 6; cf. I, 19, 6; 203.
(22) Cic., ad Att., II, 1, 7.

النبلاء أغرقوا في حياة الترف وأصبحوا من التفاهة مثل كثيرين من الأثرياء المترفين في كل عصر ومكان بحيث أن الشئون العامة لم تعد تعنيهم كثيراً ولا قليلاً ما دامت صوالحهم الخاصة بخير . ومع ذلك فإنه من الإسراف في الرأي القول بأن ذلك كان ينطبق على النبلاء جميعاً .

ب ـ طبقة الفرسان :

وإذا كانت طبقة النبلاء أرستقراطية أرباب الأراضي فإن طبقة الفرسان بأوسع مفهوم لهذه العبارة كانت أساساً أرستقراطية أصحاب رؤوس الأموال . بيد أنه على مر الزمن أضحى عدد كبير من الفرسان من كبار أرباب الأراضي بل إن الكثيرين منهم غدوا أوفر ثراء من بعض النبلاء المعتدلي الثروة .

وفي كنف هذه الظروف كان طبيعياً أن يضيق الفرسان باحتكار النبلاء الوظائف العامة الرفيعة والسيطرة على مقاليد الحكم والهيمنة على المحاكم . ومعنى ذلك أن الفرسان كانوا حلفاء طبيعيين للعامة في مناهضة استئثار النبلاء بإدارة دفة شئون الدولة ، إلا أنه بحكم انكباب الفرسان على مزاولة مختلف وجوه نشاطهم الرأسمالي وافتقار هذه الطبقة الاجتماعية الى كيان سياسي يميزها وينظم صفوفها ويعبر تعبيراً فعالاً عن اتجاهاتها ، لم يكن للفرسان أي أثر محسوس في الحياة السياسية أو في توجيه سياسة الدولة إلا منذ عهد جايوس جراكوس . ذلك أنه منذ أن حدد جايوس الشروط اللازم توافرها فيمن تتكون منهم هيئات المحلفين بحيث أنها كانت لا تتوافر إلا في الفرسان ، أي أنه منذ أن أسند جايوس ولاية القضاء إلى الفرسان ، اكتسبت طبقة الفرسان كياناً سياسياً واضح المعالم وأصبحت تتمتع بنفوذ كبير في الدولة . ومنذ أن قصر جايوس حق جباية ضرائب ولاية آسيا على الفرسان أتاح لهم فرصة عظيمة لزيادة ثرواتهم زيادة هائلة .

ومنذ ذلك الوقت لم تكن علاقات الفرسان مع النبلاء على وتيرة واحدة .

فقد كانت عدائية شديدة التوتر في كثير من الأحيان بسبب الصراع أسا على عضوية هيئات المحلفين ، وكانت ودية تعاونية في بعض الأحيان وبخاصة حين كانت أعمال العنف والشغب التي يثيرها الزعماء الشعبيون تتهدد صوالحهم المادية . وقد نكب الفرسان بكارثة كبيرة في عهد صلا عندما أعدم ١٦٠٠ منهم وصادر ممتلكاتهم . بيد أنهم لم يلبثوا أن أفاقوا سريعاً من هذه الكارثة وازدهرت حالهم إلى أن حرمهم قيصر جباية ضريبة العشور .

وقد كان شيشرون ينتمي إلى طبقة الفرسان بحكم نشأته . وكان أول من تولى القنصلية من هذه الطبقة . وبرغم أنه قد ترتب على تولي شيشرون القنصلية دخوله في زمرة النبلاء ، فإنه ظل شديد العطف على حق الفرسان في تكوين هيئات المحلفين وكذلك على صوالحهم المادية . وإزاء تضارب صوالح الفرسان والنبلاء فشلت بلاغة شيشرون وجهوده في جعل ذلك الوفاق (Concordia Ordinum) المؤقت الذي قام بين هاتين الطبقتين في أثناء مؤامرة قاتيلينا وفاقاً دائماً لإصلاح الأوضاع في الدولة وإنقاذها من الهوة التي كانت تسير نحوها بخطى سريعة .

وكانت وجوه نشاط الفرسان المالي تشمل التعاقد مع الحكومة على تزويدها باحتياجات الجيش والأسطول ، وإقامة المنشآت العامة ، وجباية الضرائب والمكوس الجمركية ، واستغلال المناجم والمحاجر ومصائد الأسماك ، وذلك فضلاً عن الاشتغال بالصناعة والتجارة وإقراض الأموال في كل أرجاء الامبراطورية الرومانية .

ولا جدال في أن الكثيرين من الفرسان قد أعماهم التكالب على جمع الثروة عن مقتضيات النزاهة والأمانة والشفقة بالناس . غير أنه قد يكون من الإسراف في الرأي القول بأنهم كانوا جميعاً من هذا الطراز أو بأن بعضهم على الأقل لم يؤدوا خدمات نافعة للدولة .

وقد كان طبيعياً أن تساعد وفرة الثروة على أن يحذو الفرسان حذو النبلاء

في حياة الترف والبذخ ، فشيد كثيرون منهم القصور الأنيقة ودأبوا على إقامة المآدب الفاخرة . وصديق شيشرون الحميم الذي كان يراسله بانتظام وهـــو تيتوس بومبونيوس أتّيقوس . (Pomponius Atticus) كان من طبقة الفرسان ونموذجاً لرجل الأعمال المثقف الناجح . وقد عزف أتّيقوس عن النزول إلى معترك الحياة السياسية بدافع من مبادئه الإبيقورية ، فعني بإشباع ميوله الأدبية والفنية دون أن يسمح لذلك طبعاً بأن يشغله عن اقتناء ثروة كبيرة بشراء واستصلاح مساحات واسعة من الأرض في أبيروس ، وبعقد الصفقات التجارية وإقراض النقود ، وباستخدام عدد من العبيد المهرة في نسخ المؤلفات وبيعها او بإنشاء مدرسة لتدريب المجالدين . وعلى عكس أتّيقوس كان جايوس أوبّيوس (Oppius) ولوقيوس قورنليوس بالبوس (الإسباني الأصل) وجايوس ماتيوس قالفنا (Matius Calvena) من رجال الفرسان الناجحين الذين أسهموا في الحياة العامة السياسية بنشاط وافر . ويتبين من مجموعة خطابات شيشرون أن هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا على اتصال وثيق بشيشرون [٢٣] وأن الأول والثاني حاولا منعه من الانحياز إلى بومبي في أثناء صراعه مع قيصر ، وأن الثالث كان يمثل وجهة نظر رجال الأعمال المعتدلين في الرأي الذين كانوا يعقدون آمالهم على قيصر للحفاظ على صوالحهم ولذلك أغضبهم مصرعه غضباً شديداً .

وإذا كان أتّيقوس وأوبّيوس وبالبوس وقالفنا أمثلة لرجال الأعمال الجادين ، فإن مارقوس قايليوس روفوس (Caelius Rufus) وجايوس سقريبونيوس قوريو كانا مثلين بارزين للفرسان الذين كلفوا بحياة البذخ المترفة وانغمسوا في حياة العبث الداعرة ، فقد دأب الفرسان على تقليد النبلاء ومجاراتهم ليس فقط في حياة الترف الزاهية بل أيضاً في الحياة البهيجة الفاسدة .

---

(23) Cic., ad Fam., XI 29 (Oppius); VII, 5, 2; 6, 1; 7, 1, 2; 9, 1; 16, 3; 18, 3; VIII, 9, 5; 11, 2; IX, 6, 1; 17, 1; 19, 1 (Balbus); XI, 28 (Calvena).

جـ ـ طبقة العامة :

كان عامة المواطنين الرومان ينقسمون فريقين رئيسيين : هما عامة الريف وعامة الحضر أو عامة روما . وفي أعقاب حرب الحلفاء ومنح أغلب الإيطاليين حقوق المواطنة الرومانية زاد عامة الريف زيادة كبيرة ، وكانوا يتكونون من ثلاث فئات رئيسية . وكانت إحدى هذه الفئات تتألف من صغار أرباب الأراضي ، وكانت فئة ثانية تتألف من مستأجري بعض أراضي النبلاء والفرسان وتبعاً لذلك كانوا أتباعهم (clientes) ، وكانت فئة ثالثة تتألف من الأجراء الأحرار الذين يقومون بأعمال موسمية في الضياع الكبيرة . ونظراً لبعد مواطن استقرار الغالبية العظمى من مواطني الريف عن روما وانهماكهم في مزاولة أعمالهم ، قلما كان هؤلاء المواطنون يجدون الفرصة لممارسة حقوقهم الدستورية أو يعنون بذلك ، إلا أنهم مع ذلك كانوا يؤدون الخدمة العسكرية كلما اقتضى الأمر .

وكان عامة روما كذلك يتكونون من ثلاث فئات رئيسية : كانت إحداها تتألف من أتباع (clientes) النبلاء والفرسان الذين عهد إليهم رعاتهم (patroni) بممارسة حرفة أو أخرى لحسابهم ، فكانوا تبعاً لذلك بمثابة صناع أو عمال أو موظفين يشتغلون لقاء أجر . وكانت فئة أخرى تتألف من مواطنين لا تربطهم رابطة التبعية بأحد ويتكسبون قوتهم بجهودهم المتواصلة في مجال أو آخر من مجالات العمل الدنيا . وعلى مر الزمن ازداد باطراد عدد أبناء العتقاء الذين كانت هذه الفئة تضمهم . وكانت الفئة الثالثة أكبر هذه الفئات جميعاً وأكثرها خطراً على الحياة العامة . ذلك أن هذه الفئة كانت تتألف من العاطلين أو أشباههم الذين لم يكن لهم مورد رزق منتظم ، ولكنه كان لديهم من فسحة الوقت ما يتيح لهم حضور أي اجتماع عام (contio) أو أية جلسة تعقدها الجمعية الشعبية . وإزاء فقرهم مع تمتع كل منهم بصوت انتخابي ، وإزاء تنافس المرشحين على الوظائف العامة تنافساً شديداً واستعدادهم لشراء أصوات الناخبين نقداً وبالوعود والمآدب

والحفلات ، إزدادت مطالب هذه الفئة التي كانت تعتمد بدرجات متفاوتة على الدولة لإعالتها ، كما ازدادت الحياة العامة شغباً وعنفاً.[٢٤]

ومنذ أيام تيبريوس جراكوس وأخيه جايوس حاول الزعماء الشعبيون معالجة حالة فقراء روما بتوزيع الأرض العامة وإنشاء المستعمرات وخفض سعر القمح لبيعه لهم بسعر أدنى من سعر السوق ، ولكن دون جدوى . ذلك أنه لما كان النبلاء قد كالوا ضربة قاصمة لسياسة الإصلاح الزراعي التي نادى بها الأخوان جراكوس عندما نجحوا (١٢١ أو ١٢٠ ق.م.) في استصدار قانون أباح بيع الإقطاعات الممنوحة ، وكانت الإقطاعات التي وزعت والمستعمرات التي أنشئت أقل من أن تستوعب كل الفقراء ، وكان الكثيرون من المزارعين الجدد لم يوفقوا في حياتهم الجديدة وباعوا أراضيهم أو هجروها وعادوا إلى روما ، وكان عدد السكان يتكاثر باستمرار — وما أكثر التناسل بين الفقراء — فإن المشكلة ما كانت لتختفي جزئياً برهة من الوقت إلا لتعود فتتجدد بل إنها تفاقمت بمضي الزمن . ومنذ أن ذهب قلوديوس في عام ٥٨ ق.م. الى حد أنه جعل سد حاجة فقراء روما إلى القمح منحة دون أي مقابل أصبح عامة روما يعتبرون ذلك حقاً ثابتاً لم يستطع أحد من أقطاب السياسة منازعتهم إياه بسبب الحاجة الى أصوات الناخبين . وقد ظل العامة يتمتعون بهذا الحق الى أن لجأ قيصر الى أن ينشىء من المستعمرات ما يكفل توفير أسباب الحياة لأعداد كبيرة منهم ، وإلى أن يعد مشروع قانون لإنقاص عدد الذين ينتفعون بمنحة القمح من ٣٢٠,٠٠٠ إلى ١٥٠,٠٠٠ مواطن[٢٥] على نحو ما مر بنا .

وكسباً لرضاء عامة روما وترويحاً عن نفوس هذه الجحافل زيد على مر

(24) Z. Yavetz, «Plebs Sordida», Athenaeum, 1965, pp. 295 ff.; «The Living Conditions of the Urban Plebs in Republican Rome,» Latomus, 1958, pp. 500 ff.; P.A. Brunt, The Roman Mob, Past and Present, 1966, pp. 3 ff.; A.W. Lintott, Violence in Republican Rome, 1968; Scullard, 1970, p. 185, and n. 9 p. 439.

(25) Cf., Sueton., Div. Jul., XLI, 3.

الزمن عدد الحفلات العامة بإنشاء حفلات انتصار صلا (Ludi Sullanae Victoriae) ثم حفلات انتصار قيصر (Ludi Victoriae Caesaris) .
وإلى جانب الحفلات العامة الرسمية التي كانت تقام بانتظام في مواعيد ثابتة في كل عام ، دأب الأثرياء وبخاصة المرشحين للوظائف العامة على التودد الى الناخبين بإقامة مباريات للمجالدين وأخرى لصيد الحيوانات المفترسة .

وفضلاً عن ذلك فإنه كانت تقام حفلات هائلة في مناسبات بعينها مثل مناسبة احتفال قيصر بذكرى ابنته عندما أقام تلك الحفلات الباهرة التي سبق الحديث عنها ، ومثل المناسبة التي أهدى فيها بومبي لروما في عام ٥٥ ق.م. أول مسرح بُني من الحجر . فقد أقيم عندئذ حفل ضخم دام خمسة أيام كانت في خلالها تقام مباريات صيد الحيوان مرتين في كل يوم ، وبلغ عدد الحيوانات التي لقيت مصرعها في هذه المباريات ٥٠٠ أسد و ٢٠ فيلاً . ويعلق شيشرون على هذا الحفل بقوله : « أية سعادة يمكن أن يشعر بها رجل مثقف عندما يرى حيواناً قوياً يبطش بإنسان ضعيف أو رمح صائد يصرع حيواناً رائع المنظر . وحتى إذا كان ذلك أمراً يستحق الرؤية ، فإن الناس رأوه مراراً ، وأنا - وكنت أحد المتفرجين - لم أر جديداً . وكان اليوم الأخير يوم صيد الفيلة وكان له وقع كبير في نفوس الجماهير إلا أنهم لم يظهروا أي شعور بالبهجة[٢٦] » . ويحدثنا بلينيوس بأن عدد الفيلة الذين قتلوا يومئذ بلغ العشرين وأن صياحهم من الألم هز مشاعر الجماهير هذا عنيفاً فهبوا واقفين هبة رجل واحد وأمطروا بومبي بلعناتهم[٢٧] . وإذا كنا نستطيع أن نتصور أن رجلاً مرهف الحس مثل شيشرون كان يؤذيه مثل هذه المناظر ، فإنه يصعب علينا قبول ما يرويه بلينيوس عن تقزز نفوس الجماهير من كثرة ما سفك من دماء الحيوان يومئذ . وإذا صحت رواية بلينيوس عما أظهرته الجماهير من مشاعر الاشمئزار في ذلك اليوم ، فلعل أن تلك المشاعر لم تكن

(26) Plut., Pomp., LII, 4; Cic., ad Fam., VII, 1. 3.
(27) Plin., NH, VIII, 7

أكثر من مشاعر عابرة بدليل شدة الإقبال باطراد على مثل تلك الحفلات وكذلك شدة الإلحاف في المطالبة بزيادة عددها ، فأصبحت أعلى الصيحات في عهد الإمبراطورية هي المطالبة بالخبز وحفلات الترفية المماثلة (Panem et Circenses)[٢٨] .

٢ — العبيـــد :

وبرغم الخدمات الجليلة التي كان العبيد يؤدونها للأسر الريفية (familiae rusticae) والأسر الحضرية (familiae urbanae) ، فإنهم كانوا لا يعتبرون جزءاً من المجتمع الروماني بأدق معنى الكلمة . ذلك أنهم وفقاً لأحكام القانون ووجهة النظر الشائعة بين الرومان لم تكن لهم شخصيات معنوية ، لأنهم كانوا لا يعتبرون أشخاصاً وإنما متاع كل أمره رهن بمن يملكه . وكانت أعداد كبيرة من العبيد تعيش في الريف لاستثمار أرض سادتهم من كبار أرباب الأراضي . وقد ظل العبيد يؤلفون الغالبية العظمى من اليد العاملة في الريف إلى أن قرر قيصر تحديد عددهم بثلثي العاملين في كل ضيعة . ويتبين مما كتبه فارو[٢٩] أن أحوال العبيد في خلال القرن الأول كانت أفضل مما كانت عليه في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد حين كان قاتو الكبير لا يزال على قيد الحياة ويرى أن ارهاق العبيد في العمل الى حد إبادتهم وشراء غيرهم كان أرخص من الترفق بهم .

وفي المدن وبخاصة في روما ، كان يعيش كثيرون من العبيد تلبية لطلبات سادتهم . وتتفاوت الآراء تفاوتاً كبيراً في تقدير عدد العبيد الذين كانوا

---

(٢٨) عن مبارزات المجالدين ، انظر :

M. Grant, Gladiators, 1967.

عن مباريات صيد الحيوان ، انظر :

G. Jennison, Animals for Show and Pleasure in Ancient Rome, 1937, ch. III; J.P.V.D. Balsdon, Life and Leisure in Ancient Rome, 1969, pp. 306 ff.

(29) Varro, Rerum Rust. Lib., I, 17-18.

يوجدون في روما ، ولعل أن يكون أكثر هذه التقديرات اعتدالاً وأقربها إلى القبول تقدير عددهم بحوالي ربع مليون عبد . . وفي الحضر لم يكن عمل العبيد مقصوراً على أداء الخدمات المنزلية الوضيعة مثل تنظيف البيت وغسل الملابس وطهي الطعام وخدمة الموائد ، فقد كان منهم من يستخدمون رسلاً أو رفاقاً في السفر . وكان العبيد المتعلمون يستخدمون سكرتيريين ونساخاً وأمناء للمكتبات ومعلمين وأطباء لأبناء الأسرة . وكان الأثرياء الذين يملكون قصوراً فسيحة يستخدمون عبيدهم في إنتاج أكثر احتياجاتهم ليكونوا الى حد كبير في غنى عن شراء لوازمهم . وكان بعض الرأسماليين يستخدمون عبيدهم في مصانع لعمل الآجر أو الآنية الفخارية أو الأدوات المعدنية أو غير ذلك .

وكانت فرص عبيد الريف لاشتراء حريتهم نادرة بل تكاد أن تكون منعدمة ، وأما عبيد الحضر فإن فرصهم كانت أفضل من ذلك بكثير ولا سيما أن بعضهم كان يفوز بحريته لقاء الإخلاص والوفاء (٣٠) .

٣ ـ المــرأة :

كانت المرأة الرومانية تتمتع بمكانة محترمة في المجتمع الروماني ، فقد كانت تحظى في الأسرة بقدر من التبجيل يماثل ما كانت الفتيات العذارى يحظين به في الدولة . وكانت المرأة الرومانية متحررة من قيود العزلة المفروضة على المرأة الإغريقية . وآية ذلك ما يحدثنا به نبوس (Nepos) في مقدمة كتابه من أنه كان أمراً مألوفاً في المجتمع الروماني مشاركة سيدة البيت زوجها في استقبال الضيوف ومصاحبتها إياه في المآدب والحفلات (٣١) . وهذا ينم بجلاء عن أن المجتمع الروماني كان يسمح من حيث اختلاط الجنسين بقدر

---

(30) T. Frank, Economic History of Rome, 2nd ed., 1927, pp. 207 ff.; C.A.H., IX, pp 787-9; N.H. Baynes, J.R.S., 1943, pp. 32 ff. Scullard, 1970, p. 185, and n. 10 p. 439.

(31) Nepos, Excell. Duc. Exter. Gent., Praefatio, 6.

كبير من الحرية لم يكن المجتمع الإغريقي يسمح به .

وقد تحلت رومانيات كثيرات بصفات رفيعة ، ومثل ذلك قورنليا والدة الأخوين جراكوس ؛ واتصفت بعضهن بقدرة فائقة على إدارة شئون الأسرة وممتلكاتها مثل ترنتيا زوجة شيشرون الأولى . وعنيت بعضهن عناية كبيرة بالدراسة والاطلاع مثل قايرلّيا (Caerellia) صديقة شيشرون .

وكانت المرأة الرومانية تمارس نفوذاً كبيراً في تكييف مجرى الشئون العامة إذا كانت تنتمي الى أسرة كبيرة أو تربطها صلات أخرى بذوي النفوذ ، فقد كان لنساء الأسر النبيلة من الأثر ما لا يقل كثيراً عن أثر الأميرات المقدونيات في شئون الممالك الهلينيسية التي قامت على أنقاض إمبراطورية الإسكندر . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر أنه في عام ٦٣ ق.م. عمل شيشرون جاهداً على مغالبة المتاعب التي أثارها له قرب نهاية قنصليته متلّوس نبوس ، على نحو ما مر بنا ، بالاستعانة بقلوديا (Clodia) وموقيا (Mucia) أختي قلوديوس ، وعندئذ كانت أولاهما زوجة كوينتوس متلّوس قلر شقيق متلّوس نبوس وثانيتهما زوجة بومبي وعشيقة قيصر ، لاستخدام نفوذ هاتين السيدتين في تحقيق غايته المنشودة (٣٢) . وعندما كتب شيشرون الى جايوس قلاوديوس مارقلّوس في سبتمبر عام ٥١ ق.م. لتهنئته على انتخابه قنصلاً للعام التالي اعترف بالخدمات الجليلة التي قدمتها إليه يونيا (Junia) والدة مارقلّوس فيما مر به من أزمات عصيبة (٣٣) .

ويحدثنا بلوتارخ عن النفوذ الواسع الذي كانت تتمتع به سيدة رائعة الجمال سريعة البديهة تدعى برايقيا (Praecia) وعن مكانة وسطوة عشيقها قثجوس (Cethegus) وعن اضطرار القنصل لوقولّوس الى التقرب الى برايقيا لكسب جانب قثجوس والفوز بولاية قيليقيا وتولي قيادة الحرب الثانية ضد ميثريداتس (٣٤) .

---

(32) Cic., ad Fam., V, 2, 6.
(33) Cic., ad Fam., XV, 7.
(34) Plut., Lucullus, V, 3-VI, 4.

ومن المعروف أن السيدات صاحبات النفوذ في روما كن من بين من عُني قيصر بإرسال الهدايا اليهم من بلاد الغال(٣٥) . ويرجح أن بوستوميا (Postumia) – زوجة سرفيوس سولبيقيوس روفوس – هي التي أوحت الى ابنها (سولبيقيوس روفوس الصغير) بالتفاني في تأييد قيصر برغم أن الأب كان من أنصار بومبي . ولا بد من أنه كان لبورقيا (Porcia) أثر كبير في شحذ ميول زوجها ماركوس بروتس الجمهورية ، فقد كانت هذه السيدة ابنة قاتو النصير القوي للنظم الجمهورية وأرملة بيبولوس ، خصم قيصر اللدود ، قبل زواجها من بروتس بعد أن طلق زوجته قلاوديا (٣٦) (Claudia) .

وقد كانت المصاهرة من الوسائل الدبلوماسية المألوفة في روما ، فقد عمل صلا على دعم صلته ببومبي عن طريق تزويجه من آيميليا ابنة زوجته الرابعة وانصاع بومبي لهذه الرغبة وطلق زوجته أنتيستيا . ولما كانت (٣٧) السلطات الواسعة التي مُنحها بومبي في عامي ٦٧ و ٦٦ ق.م. والانتصارات الباهرة التي أحرزها على القراصنة ثم على ميثريداتس وتيجرانس قد أثارت أشد مخاوف النبلاء منه ، فإنه عندما عاد إلى إيطاليا في أواخر عام ٦٢ ق.م. عمل على أن يكسب ودهم ويطمئنهم من ناحيته بالسلوك مسلكاً معتدلاً مثل ما عمل على كسب جانب قاتو بمصاهرته ولكن قاتو رفض هذه المصاهرة قائلاً إنه اذا كان مستعداً لمد يد المصادقة الى بومبي فإنه غير مستعد لإعطائه رهينتين (زوجة لبومبي وأخرى لابنه) لمجده على حساب الوطن . ولم يلبث (٣٨) بومبي بعد قليل أن تزوج يوليا ابنة حليفه قيصر(٣٩) . وبفضل هذا الزواج بقيت العلاقات ودية بين هذين الرجلين الطموحين حتى توفيت يوليا في عام

(35) Plut., Pomp., LI, 2.
(36) C.A.H., IX, pp. 782-3.
(37) Plut., Sulla, XXXIII, 3; Pomp., IX.
(38) Plut., Cato Minor, XXX; Pomp., XLIV, 1.
(39) Plut., Pomp., XLVII, 6; Caes, XIV, 4; Sueton, Div. Jul., XXI.

٥٤ ق.م. وبعد ذلك حاول قيصر أن يربط اليه بومبي برباط المصاهرة مرة أخرى بأن عرض عليه يد أوقتافيا حفيدة أخته برغم أنها كانت متزوجة [٤٠] ولكن بومبي رفض هذا العرض، وفي عام ٥٣ ق.م. أصهر الى أسرة نبيلة بزواجه من ابنة قايقيليوس متلّوس سقيبيو [٤١] . وحين عرض قيصر على بومبي الزواج من أوقتافيا عرض عليه أيضاً أن يتزوج هو نفسه ابنته وكانت مخطوبة الى فاوستوس صلا ولكن بومبي رفض هذا الطلب كذلك. ولم ير قيصر أية غضاضة في هذا العرض بالرغم من أنه كان لا يزال متزوجاً من قالبورنيا ابنة لوقيوس قالبورنيوس بيسو وهو الذي عرفنا أن قيصر صاهره [٤٢] في عام ٥٩ ق.م. ليضمن ولاءه له.

ولم يكن تحقيق أهداف سياسية هو الدافع دائماً وراء زواج المنفعة ، فقد كان حب المال هو الدافع أحياناً على مثل هذا الزواج. ذلك أن شيشرون يحدثنا عن شاب يدعى تالنا (Talna) أراد الزواج من سيدة عجوز تدعى قورنيفيقيا (Cornificia) وسبق لها الزواج عدة مرات ولكن هذه السيدة المجربة رفضت لقلة ثراء الشاب [٤٣] . ويُعزى زواج شيشرون نفسه مرة ثانية في أواخر حياته من كفيلته الشابة الثرية بوبليليا (Publilia) الى ثراء هذه الفتاة والديون التي أغرقت شيشرون فيها الحرب الأهلية وتبديد زوجته الأولى ترنتيا أمواله ، وإن كانت هذه السيدة عزت هذا الزواج الى وقوع الرجل الكهل في غرام الشابة الجميلة [٤٤] .

ومنذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد بدأت تظهر في المجتمع الروماني معالم التفكك في الروابط الأسرية ، وفي القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية تفاقم هذا التفكك تفاقماً شديداً جعله من أبرز ظواهر الحياة الاجتماعية في

(40) Sueton., Div. Jul., XXVII, 1.
(41) Dio Cass., XL, 51, 3.
(42) Sueton., Div. Jul., XXI-XXII ; Plut., Caes., XIV, 5.
(43) Cic., ad Att., XIII, 28, 4.
(44) Plut., Cic., XLI; Dio Cass., XLVI, 18, 3; Cf. e.g. Cic., ad Att., XI, 24; Plut., Cicero, XXIX, 2-3.

هذا القرن . وقد كان هذا التفكك نتيجة طبيعية للحياة المترفة المحمومة وللانحلال الخلقي ولتحرر الزوجة من سيطرة (manus) الزوج وقدرتها على التصرف في الممتلكات التي آلت اليها على هيئة صداقة أو إرث . وفي كنف هذه الظروف شاعت العلاقات غير المشروعة مثل ما شاع الطلاق لأسباب خلقية أو غيرها وتكرار الزوج لدوافع مختلفة .

وإذا كانت الأمثلة لا تعوزنا لحالات الطلاق بسبب الخلافات وعدم الوفاق مثل حالة شيشرون الذي طلق زوجته الأولى بعد حياة زوجية دامت ثلاثين عاماً وزوجته الثانية بعد عشرة قصيرة الأمد ، فإنها ليست بوفرة أمثلة الطلاق لأسباب خلقية . ومن الجائز أن تكون طرافة هذه الأمثلة هي التي جذبت أكثر من غيرها اهتمام الكتاب بتسجيلها مما قد يعطي انطباعاً بأن المجتمع بأسره كان مجتمعاً منحلاً ولكن هذا الانطباع غير صحيح . ذلك أنه مع التسليم بوجود قدر كبير من البذخ والإسراف والانحلال الخلقي فإنه من الإسراف في الرأي القول بأن ذلك كان شأن جميع أفراد المجتمع الروماني أو النبلاء والفرسان .

ولعل أن أشهر أمثلة الطلاق لسوء السلوك طلاق قيصر لزوجته بومبيا بسبب علاقاتها بالشاب النبيل العابث قلوديوس وهي العلاقات التي انفضح أمرها يوم الاحتفال بعيد الإلهة الطيبة بمنزل يوليوس قيصر [٤٥] في عام ٦٢ ق.م. وقد عُرف قلوديوس بكثرة علاقاته الغرامية التي امتدت الى أختيه ترتيا (Tertia) وقلوديا . وطلق بومبي أختهم موقيا لأنها أثناء غيابه عن روما خانته مع قيصر ؛ ومع ذلك لم يلبث بومبي أن تزوج يوليا إبنة قيصر .

ويحدثنا صالوستيوس [٤٦] بأنه قد كانت من بين مشايعي قاتيلينا سيدات دفعتهن حياة البذخ والديون الى التطلع الى قلب نظام الحكم للتخلص من

(45) Plut., Cicero, XXVIII-XXIX; Caes., IX-X; Dio Cass., XXXVII, 45-46; Balsdon, Historia, 1966, pp. 65 ff.
(46) Sallust., Cat., XXIV-XXV.

ديونهن . وقد كانت من بين هؤلاء السيدات سيدة نبيلة جميلة عالية الثقافة ذلقة اللسان تجيد الموسيقى والرقص، وهي سمبرونيا زوجة دقيموس يونيوس بروتس وكان أحد قنصلي عام ٧٧ ق.م. ووالد سميه الذي كان أحد قتلة قيصر . بيد أن سمبرونيا كانت شديدة الشغف بحياة المرح البهيجة وبإشباع نزواتها البهيمية الى حد أنساها التمسك بأهداب الشرف والفضيلة .

وكذلك كانت والدة متلوس نبوس متهمة بسوء السلوك . وآية ذلك أنه عندما اشتبك هذا الرجل النزق ذات مرة في مناقشة حامية مع شيشرون وأراد لسوء حظه أن يسخر من أصل شيشرون المتواضع ويحرجه بأن سأله أكثر من مرة « ومن يكون أبوك ؟ » لم يكن من شيشرون إلا أنه رد على خصمه رداً مفحماً ينطوي على تعريض شديد بسيرة أمه فقد قال شيشرون : « إن أمك جعلت ردك على مثل هذا السؤال عسيراً إذا وجهه أحد اليك » [٤٧] .

وبرغم أن مارقوس بروتس كان رجلاً نقي السيرة فإن الصداقة الحميمة بين أمه سرفيليا (أخت قاتو الكبير) وقيصر أثارت كثيراً من الأقاويل ؛ ولم ترحم الشائعات سيرة أختيه ترتيا أو ترتولا (زوجة قاسيوس) ويونيا (زوجة لبيدوس) اللتين وجد تمثال نصفي صغير لكل منهما مع تماثيل ثلاث سيدات أخريات متزوجات وسط متاع رجل ثري تافه يدعى بوبليوس قديوس (Vedius) كان يقوم برحلة في آسيا الصغرى [٤٨] . ويتبين من مراسلات شيشرون أنه بعد مصرع قيصر كان من رأي شيشرون أن يقبل قاسيوس ومارقوس بروتس مهمة شراء القمح من ولايتي آسيا وصقلية ولكن سرفيليا كانت لا توافق على هذا الرأي وتمكنت بنفوذها من منع صدور قرار من السناتو بإسناد هذه المهمة الى قاسيوس وبروتس برغم الخطبة الرنانة التي القاها شيشرون [٤٩] !

---

(47) Plut., Cicero, XXVI, 6-7.
(48) Cic., ad Att., VI, 1, 25.
(49) Cic., ad Att, XV, 11; 12, ad Fam , XII, 7.

ولعل أن تكون قلوديا شقيقة قلوديوس وزوجة كوينتوس متلّوس قلر قد فاقت في شططها كل النبيلات المستهترات اللائي نعرف أنهن جنحن الى حياة المجون في الفترة التالية لقنصلية شيشرون . ذلك أن قلوديا - سواء وهي زوجة أم وهي أرملة ، كانت شديدة الاستهتار إلى حد أنها كانت تظهر أمام الملأ وهي في صحبة خلانها المتعاقبين ، وما كان أكثرهم . وقد كان من بين عشاقها الشاعر قاتولّوس ، فتغنى بحبها في كثير مما نظمه من قصائد الحب حيث دعاها باسم لسبيا[٥٠] (Lesbia) . وقد ظل قاتولّوس متيماً بحب قلوديا الى أن قطع علاقاته بهذه المحبوبة غير الوفية إزاء تشجيعها لشاب مغامر من الفرسان يدعى قايليوس . وبعد أن أشبع قايليوس هواه من قلوديا أخذت عواطفه نحوها تفتر مما جرح كبرياءها وحفزها على الانتقام ، فدبرت مع أخيها تلفيق عدة تهم لقايليوس كان من بينها اتهامه بدس السم للفيلسوف ديون رئيس بعثة الاسكندريين الذي لقي حتفه مؤخراً في روما . وقد تولى شيشرون الدفاع عن قايليوس وفاز له بالبراءة . وكان طبيعياً أن يتضمن دفاع شيشرون هجوماً لاذعاً على قلوديا شبهها فيه بالشخصية الإغريقية الأسطورية مديا (Medea) ، وهي التي انتقمت من زوجها انتقاماً رهيباً عندما أراد هجرها واتخاذ زوجة أخرى غيرها . ونعت شيشرون قلوديا بأنها « صديقة كل رجل » ووصف حياتها « بالحياة الأجيرة »[٥١] .

ولم تنج من ألسنة الحداد صداقة شيشرون للسيدة العجوز قايرلّيا[٥٢] (Caerellia) وكانت سيدة عالية الثقافة شديدة الحرص على اقتنـــاء مؤلفات شيشرون . ولعل أن يكون أكبر دليل على بطلان هذه المزاعم أن هذه السيدة حاولت التوسط لدى شيشرون ليتزوج ثانية مطلقته بوبليليا[٥٣] .

---

(50) Catulus, e.g. V; VIII; XLIII et passim.

(٥١) أنظر :

Cic., pro Caelio.

(52) Dio Cass., XLVI, 18, 4.

(53) Cic., ad Att., XIV, 19, 4.

وكان طبيعياً أن يصاحب الإنحلال الخلقي وكثرة الطلاق تعدد الزواج مراراً . ومن أبرز الأمثلة أن كلاً من صلا وبومبي تزوج خمس مرات ، وأن قيصر تزوج أربع مرات ، وأن توليّا (Tullia) ابنة شيشرون تزوجت ثلاث مرات ، وكانت مثلها فولفيا وهي التي كان زوجها الثالث ماركوس أنطونيوس إلى أن طلقها ليتزوج من أوقتافيا أخت أغسطس وكان زواجاً سياسياً لم يدم طويلاً فقد أعقبه زواج انطونيوس من كليوبترة .

ولم تكن حياة الرذيلة وقفاً على النبيلات بل شاركتهن في ذلك نساء من مختلف الطبقات . ولعل أن أشهر الغانيات غير النبيلات كانت الممثلـــة (mima) قوثريس (Cytheris) حظية ماركوس أنطونيوس(٥٤) . وإذ يصف شيشرون علاقة أنطونيوس بهذه الحظية(٥٥) ، وعلاقات قاتيلينا وقلوديوس بحظاياهما (٥٦) يعطينا صورة قاتمة للحياة الماجنة الصاخبة التي كان فريق من الرومان يحيونها عند حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد .

وحسبنا أن نطالع أشعار لوقرتيوس لنتبين كم من الثروات بُددت في إقامة المآدب وعقد ندوات الشراب وتقديم أثمن الهدايا إرضاء للمعشوقات (٥٧) . والى جانب الغواني الهاويات اللائي كن يرحبن بل ينتظرن مختلف أنواع الهدايا ، كانت توجد كذلك كثيرات من بائعات الهوى المحترفات ، إلا أنه كان يتعين عليهن التسجيل في مكتب الأيديلس واستخراج ترخيص بمزاولة الرذيلة(٥٨) . وكان مظهرهن يتميز بكل سمات التبرج في الملبس والتزين من صبغ الشعر الى التعطر وكثرة الحلي . وكن لا يكتفين بالتسكع في الشوارع الضيقة بل يغشين المنتديات مثل المسرح والمجتلد ومضمـــار السباق . فما أشبه الليلة بالبارحه !

---

(54) Plut., Anton., IX, 4.

(55) Cic., ad Fam., IX, 26 ; ad Att., X, 10, 5; Philip II, 8, 20; 24, 58; 28, 69; 31, 77; 41, 105.

(56) Cic., in Cat., II, 10, 22-23; pro Milo., 21, 55.

(57) Lucretius, IV, 1071, 1121-1140.

(58) Tacit., Ann., II, 85.

٤ ــ مدينة روما [٥٩] :

كانت المدن الإيطالية هي الأماكن المفضلة لإقامة الطبقة الميسورة الحال وهي التي كان الأثرياء في مقدمتها . وكان أغلب أفراد هذه الطبقة من أرباب الأراضي ، وكان بعضهم يملكون الى جانب قصورهم بيوتاً وحوانيت يقومون بتأجيرها ، وكان البعض الآخر يمارسون مختلف أنواع النشاط المالي .

وكانت روما أكبر مدن إيطاليا جميعاً وأكثرها ثراء . فقد كانت أهمية مختلف وجوه نشاطها السياسي والمالي ، بوصف كونها عاصمة الإمبراطورية ، تجتذب اليها أبرز الأقطاب من طبقتي النبلاء والفرسان ،ومن ثم فإنها كانت مقر أهم رجال السياسة والمال .

وقد كانت روما تزهى فخاراً بالقصور الأنيقة التي شيدها الأثرياء في أفضل أحيائها وبالحدائق الغناء التي كانت تتصل بهذه القصور في ضواحي العاصمة ، وكانت أشهرها حدائق لوقولّوس وصالوستيوس ومايقناس (Maecenas) وقيصر . وكانت روما تزهى أيضاً بقناة المياه المرتفعة التي شيدت في عام ١٢٥ ق.م. وبالمباني العامة التي قرر صلا إصلاحها مثل دار مجلس السناتو (Curia) ومعبد يوبيتر قابيتولينوس ، أو أقامتها مثل دار المحفوظات العامة (Tabularium) وهي التي أتمها قاتولوس في عام ٧٨ ق. م. وبالمسرح الذي شيده بومبي في ساحة الإله مارس ومجموعة المباني العامة التي أقامها حول هذا المسرح ، وبمعبد فينوس جنتركس الذي شيده قيصر ، والفوروم (Forum Julium) الجديد الذي بدأ الدكتاتور إنشاءه تخفيفاً لوطأة الزحام في الفوروم القديم حيث أنشأ بجوار معبد قاستور قاعة عامة جديدة رائعة الجمال (Basilica Julia) .

---

(59) E.B. Van Deeman, J.R.S., 1922, pp. 1 ff.; T. Ashby and S.B. Platner, Topographical Dictionary of Ancient Rome, 1929; C.A.H., IX, pp. 792 ff., 830 ff.; E. Nash, Pictorial Dictionary of Ancient Rome, 2 vols., 1961-62; Scullard, 1970, pp. 186-7, and n. 12 p. 439.

وكانت هذه القاعة تعج يومياً بالذين يبيعون ويشترون أسهم وسندات شركات جباية الضرائب ومختلف أنواع السلع ، والضياع والأراضي في إيطاليا وفي الولايات ، والبيوت والحوانيت في روما وفي خارجها ، والسفن والمخازن والعبيد والماشية . وفي الحوانيت المقامة في الفوروم وفي الشوارع المجاورة له كان آلاف من أحرار الصناع وصغار التجار يمارسون نشاطهم وكذلك آلاف العبيد وأعداد كبيرة من وكلاء وأتباع الأثرياء ينتجون السلع ويبيعونها .

وعلى حين أن بيوت بعض أفراد الطبقة الدنيا كانت مقامة على تلى أفنتينوس وقايليوس وعلى بعض أنحاء تل أسكويلينوس ، كانت الأحياء الرئيسية لسكنى أفراد هذه الطبقة توجد في المنخفضات الطبيعية المؤدية من التلال إلى الفوروم مثل حي سوبورا (Subura) في المنخفض الواقع بين تسلي فيميناليس وأسكويلينوس ، وحي أرجيلتوم (Argiletum) في المنخفض الواقع أمام التل الأخير . وكان هذا الحي عامراً بصناع الأحذية وباعة الكتب .

وكان هؤلاء الفقراء يعيشون عادة في مساكن ذرية كانت عبارة عن عمائر استغلالية تتألف من عدة طوابق في كل منها مجموعة من الغرف التي كان ينحشر في كل غرفة منها أسرة بأكملها أو مجموعة من الناس لا تربطهم ببعضهم بعضاً أية صلة أو نسب . ولم تفتقر كثير من هذه العمائر الى صلابة البناء فحسب بل ايضاً الى كل الوسائل الصحية ، ذلك أن كثيراً من غرفها كان لا ضوء الشمس ولا الهواء النقي يعرف اليها سبيلا . وكان لا يقيم هذه العمائر إلا المضاربون الراغبون في استثمار أموالهم واقتضاء أكبر عائد ممكن منها فجعلوا همهم الأوحد توفير أكبر عدد ممكن من الغرف بأقل سعر ممكن من التكاليف دون نظر إلى أي اعتبار آخر .

وشتان ما بين هذه المساكن التعسة التي كان الفقراء يكدسون فيها وبين

القصور الأنيقة التي كان الأثرياء ينعمون فيها بحياتهم اللينة الرخية . ولم يكن الفارق بين الطبقتين يقل عن ذلك في المأكل . ذلك أن وجبات الأثرياء كانت تتألف من كل ما يمكن أن يخطر على البال من خيرات الأرض والبحر التي كان يقوم على إعدادها أمهر الطهاة ويتولى تقديمها خدم مدربون ، على حين أن العناصر الأساسية في وجبات متواضعي الدخل كانت تتألف من الخبز والبقول والفاكهة والنبيذ . وأما الفقراء فإنه كان حسبهم ما يتبلغون به .

وقد كان من شأن سوء مواد البناء المستخدمة في إقامة كثير من العمائر الفقيرة مع الإسراف في استعمال الأخشاب واكتظاظ السكان في هذه العمائر أن ذلك كله كان ييسر نشوب الحرائق بكثرة في روما . وكانت العاصمة الرومانية معرضة لخطر دائم آخر وهو طغيان فيضان نهر التيبر عليها . وفضلاً عن ذلك فإن شوارع روما كانت تضيق بحركة المرور فيها ولا تضاء ليلاً . وقد سلف القول أن قيصر كان يعتزم تهذيب مجرى التيبر لتتفادى العاصمة غوائل طغيانه ، وأنه أعد مشروع قانون خاصاً بصيانة شوارع روما وضواحيها وبتنظيم المرور فيها ، وكذلك بتنظيم استخدام الميادين والمباني العامة .

الفصل الخامس عشر

وجوه النشاط الفكري والفني

اولاً – إمتزاج الحضارتين الإغريقية والرومانية(١)

كان امتزاج الحضارتين الإغريقية والرومانية ثمرة عملية طويلة الأمد بدأت منذ أن تعرض الرومان في صدر تاريخهم للمؤثرات الإغريقية عن طريق صلاتهم بالإتروسقيين وبالمدن الإغريقية في جنوب إيطاليا . وفي خلال القرن الثالث قبل الميلاد عندما بدأ القواد الرومان والحكام والتجار يزورون الجزر الإغريقية ، أصبح التقاء الحضارتين الإغريقية والرومانية أكثر اتساماً بالطابع الشخصي . وقد بلغ هذا اللقاء الحضاري أقصى مداه في خلال القرن الثاني قبل الميلاد عندما ضمت روما الى حظيرة أمبراطوريتها بلاد الإغريق ذاتها وجزءاً من الشرق الهلينيسي زاخراً بالمدن الإغريقية .

ولا جدال في أن الإغريق أصحاب فضل لا ينكر على الرومان في تطوير حضارتهم ، بيد أن الرأي السائد اليوم هو أن الرومان بعد أن استوعبوا الكثير من تراث الحضارة الإغريقية أضفوا على ما استوعبوه طابعهم الخاص . فما أن وافى صدر القرن الأول قبل الميلاد حتى كانت حضارتهم

(1) Scullard, 1970, pp. 194-6.

مزيجاً متسقاً أسهمت فيه كل من الحضارتين الإغريقية والرومانية بنصيب وافر . ذلك أنه في خلال هذه الحقبة اذا كانت ذات الأنماط والأشكال التي اتخذتها الآداب والفنون الرومانية أنماطاً وأشكالاً إغريقية ، فإن الروح التي سرت فيها والمشاعر والأفكار التي عبرت عنها كانت رومانية . وإزاء ذلك فإنه قد يكون من الإسراف في الرأي القول بأن الحضارة الرومانية لم تكن الا الحضارة الإغريقية مستخفية تحت رداء روماني أو بأن روما لم تفعل أكثر من الحفاظ على تراث هذه الحضارة للعصور التالية .

ومما يجدر بالملاحظة أنه عند اصطناع هذا المزيج الحضاري تفاوت تأثر الرومان بتراث الحضارة الإغريقية في عصريها الكلاسيكي والهلينيسي ، وأن نتائج إلتقاء الحضارتين لم تكن متماثلة في كل نواحي الحضارة الرومانية ولا بين كل طبقات المجتمع الروماني . ولا جدال في أن الرومان المثقفين ثقافة عالية كانوا يلمون جيداً بتراث الحضارة الإغريقية الكلاسيكية ، ومع ذلك فإنه في القرن الأخير من عصر الجمهورية كان الفلاسفة والأدباء أكثر تأثراً بالمؤلفات الهلينيسية منهم بالمؤلفات الكلاسيكية ، فمثلاً كان دين شيشرون لمعاصره بوسيدونيوس يفوق دينه لأفلاطون ، وكان أغلب الشعراء الرومان ينسجون عادة على منوال شعراء الإسكندرية المتفقهين ، وكان المثالون والمعماريون أكثر تطلعاً الى مبتكرات الإسكندرية وبرجام منهم الى مبتكرات أثينا فيدياس (Phidias) وإقتينوس (Ictinus) .

ولم يكن دين الرومان للإغريق بمعدل واحد في كل المجالات ، فقد بلغ هذا الدين أقصاه في مجالي الأدب والفن وأدناه في مجال العلوم مثل الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والعلوم الطبيعية ، لأن الرومان لم يظهروا أي اهتمام جدير بالذكر في مجال العلوم برغم أنهم سايروا الإغريق في الكثير من نواحي نشاطهم العقلي والفني . ولعل أن أروع النتائج لامتزاج الحضارتين كانت في مجال الأدب حيث أفاد الرومان من الحوافز الإغريقية فأخرجوا مؤلفات امتزجت فيها العناصر الإغريقية والرومانية إمتزاجاً بديعاً .

وكذلك اختلفت نتيجة الالتقاء الحضاري تبعاً لاختلاف طبقات المجتمع الروماني . ذلك أن الطبقة الأرستقراطية كانت أكثر الطبقات تأثراً بالحضارة الإغريقية ، فقد كانت أكثر الطبقات استيعاباً للآداب والفلسفة وأساليب الحياة الإغريقية ، بقدر ما كان أهل الريف ولا سيما في الأماكن النائية أبعد ما يكونون عن التأثر بأي مظهر من المظاهر الإغريقية. وقد كان من شأن الاحتفاظ في روما بأعداد كبيرة من العبيد والعتقاء الإغريق والشرقيين المتأغرقين نشر العادات الإغريقية بين الطبقة الوسطى ، مثل ما كان من شأن قيام الجنود الرومان بحملات في بلاد الإغريق والشرق الهلينيسي وانتشار متوسطي الحال من رجال الأعمال في شرق البحر المتوسط اقتباس بعض المذاهب والمعتقدات الدينية .

ثانياً — الأدب[2]

كان كوينتوس أنيوس (Ennius ، ٢٣٩ — ١٦٩ ق . م .) أبا الشعر اللاتيني ، وكان ماركوس بوركيوس كاتو « القنسور » أو « كاتو الكبير » (٢٣٤ — ١٤٩ ق . م .) أول من كتب التاريخ بالنثر اللاتيني . وقد كانت المشكلة الرئيسية التي تشعبت إزاءها آراء عمالقة الأدب في القرن الأخير من عصر الجمهورية الرومانية هي : أكان يجب أن يظل أنيوس في الشعر وكاتو في النثر نموذجاً لأبناء عصر تخطوا آفاق هذين النموذجين كليهما ليس فقط في المثل بل أيضاً في اللغة ذاتها ؟ ويجب الا يغرب عن البال في هذا الصدد أن الميل الى محاكاة القديم — وهو الذي كان الى حد كبير من تراث أدباء الإسكندرية الفارهين — كان موائماً للرومان بحكم طباعهم المشربة بروح الحفاظ على القديم .

(2) T. Frank, Life and Literature in the Roman Republic, 1930; C.A.H., IX, ch. XVIII; J. Wight Duff, Literary History of Rome, 3rd ed., 1960; H. J. Rose, A Handbook of Latin Literature, 3rd., ed., 1966; Scullard, 1970, pp. 199 ff.

وفضلاً عن ذلك فإن الجمهورية الرومانية كانت قد بلغت عندئذ من العراقة وأحرزت من الأمجاد ما كان يبعث أبناءها على أن يكلفوا بأصلها ، وعلى أن يحذوا حذو أمثلة الأسلاف (exempla maiorum) للحفاظ على تقاليد اللغة اللاتينية . وإذا كان أسلوب اللوحات الإثنتي عشرة أسلوباً عتيقاً حتى في نظر أكثر المتحمسين للقديم وللمحافظة على نقاء اللغة اللاتينية ، فإن الأمر لم يكن كذلك في حالة كل من أنيوس وقاتو ، ومن ثم فإنه كان يمكن النسج على منوالهما . ولما كان ترنتيوس (Terentius) قد اصطنع في القرن الثاني قبل الميلاد أسلوباً من هذا الطراز ، فإن شعره كان يعتبر نمطاً لنقاء اللغة في نظر الأدباء البارزين مثل شيشرون وقيصر وغيرهما ممن كانوا يكرهون أكثر الأساليب تزمتاً بإسرافها في استخدام الصيغ البالية محاكاةً للأساليب العتيقة . وقد زادت مشكلة الأسلوب تعقيداً ضرورة ملحة هي ضرورة أقلمة صيغ إغريقية من أجل الوفاء بمتطلبات الشعر والفلسفة . ومما يجدر بالملاحظة أن الخطابة — وكانت في هذا العصر أهم الفنون الأدبية وأكثرها ازدهاراً — لم تعان من مشكلتي الصيغ القديمة والمتأغرقة ، ذلك أن الخطباء درجوا على التزام اللغة المألوفة في عصرهم . بيد أنه طوال القرن الأخير من عصر الجمهورية الرومانية كان الشعراء وكتاب النثر ينقسمون انقساماً واضحاً حول أنسب الصيغ والاساليب .

ولم يقل عن ذلك ايضاً إنقسام الشعراء والكتاب من حيث طابع إنتاجهم وروحه ، ذلك أنه من ناحية كان هناك أولئك الذين كان شأنهم شأن شيشرون تتأجج في صدورهم نيران الوطنية ويرون أنه مهما يكن دين الخطابة والتاريخ والفلسفة وغيرها من الفنون الأدبية أو العلمية الرومانية للإغريق، فإن قيمة هذه الفنون يجب أن تقاس عندئذ بمدى أصالتها الرومانية وبمعايير الثقافة الرومانية . فلا عجب أنه في عصر شيشرون أصبحت روما هي مصدر الوحي لأكثر الآداب اللاتينية . بيد أنه من ناحية أخرى كان لا يزال هناك أدبـاء بارزون، وبخاصة بين الشعراء، ممن كانوا في كلفهم بالأدب الأغريقي يكادون أن يغفلوا المعايير الرومانية كلية .

١ ــ الشعــر [٣] :

كان ذيوع الميل الى نظم الشعر من أبرز سمات هذا العصر . وآية ذلك أنه من بين الخطباء وكتاب النثر الكثيرين في هذا العصر لم يعزف عن نظم الشعر الا قلة قليلة فقط . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر أن هورتنسيوس وشيشرون وقيصر وفارّو وسيسنّا (Sisenna) وقورنليوس نبوس وفقيه القانون سولبيقيوس روفوس كانوا بعض الذين مارسوا نظم الشعر جنباً الى جنب ما مارسوه من فنون أدبية أخرى أو علمية .

ويحدثنا بلوتارخ[٤] بأنه عندما نضجت مواهب شيشرون إشتهر بأنه لم يكن أخطب خطباء الرومان فحسب بل أيضاً أشعر شعرائهم . وفي رأي بعض الباحثين أن هذه العبارة إن دلت على شيء فهي تدل على المستوى المنخفض الذي كان عليه الشعر اللاتيني قبل أن يتبوأ عرشه جايوس فالريوس قاتولّوس وتيتوس لوقرتيوس ، وهما الشاعران الجديران بمكانة سامية بين الشعراء في أية أمة متحضرة . وفي رأي البعض الآخر من الباحثين أن هذا النقد يسرف في الإجحاف بقدر أشعار شيشرون لأن هذه الأشعار التي تأثر بأسلوبها شاعر من طراز لوقرتيوس خليقة بألا تلقى مثل هذا الازدراء والاستخفاف . ولا سيما أن شيشرون أدى للشعر اللاتيني خدمة لا تنكر بالتزامه نمط أنّيوس مع تحاشي خشونة شعره . بيد أنه لا جدال في أن أشعار شيشرون الباكرة تتسم برقة تجنح الى الرتابة ، هذا الى أنه في القصيدتين (« في قنصليته » de suo consulato و « في أيامي » de temporibus meis) اللتين نشرهما في خريف حياته ، حين عمد إما الى تمجيد نفسه وإما الى الإشادة بماريوس وقيصر ، وقع فيما وقع فيه غيره من شعراء الرومان القدامى ، من حيث جعل الشعر ضرباً من التاريخ .

---

(٣) الى جانب المراجع المذكورة في الحاشية السابقة ، أنظر :
Gordon Williams, Tradition and Originality of Roman Poetry, 1968.

(4) Plut., Cic., II, 3.

ولما كان شيشرون الشاعر المتمسك بالتقاليد قد جعل هدفه الحفاظ على تراث أنيوس والنسج على منواله مع تجنب الخشونة الفظة التي اتسم بها هذا التراث ، فإنه ما كان ليرضيه إنصراف المدرسة الجديدة من الشعراء (poetae novi أو Neoterici) عن محاكاة تراث أنيوس الى محاكاة شعر الإسكندرية . ومع ذلك فإن شيشرون لم يرَ غضاضة في ترجمة أشعار آراتوس ، وبوصف كونه مترجم هذه الأشعار لم يكن في وسعه إغفال الظاهرة الرئيسية التي اتسم بها الشعر الإسكندري وهي ظاهرة التفقه التعليمي . بيد أنه لم يكن لشيشرون أي عطف على ما غشى الشعر الإسكندري من ظواهر التكلف والاصطناع السافرة .

ا ــ جايوس لوقيليوس[٥] :

ويستهل هذا العصر بالشاعر جايوس لوقيليوس (Lucilius) وهو الذي بدأ بنشر أشعاره في أواخر ثلاثينات القرن الثاني قبل الميلاد . وأهم ميزة لهذا الشاعر أنه برز في لون من الشعر يعتبر ابتكاراً رومانياً أصيلاً ، وهو شعر النقد اللاذع المصوغ في قالب عبارات مازحة على هيئة حديث عابر . وبفضل صداقة هــذا الشاعر للقطب الأرستقراطي سقيبيو آيميليانوس أصبح على صلة وثيقة بدخائل السياسة الرومانية وحياة المجتمع الروماني الراقي وأبرز الشخصيات الرومانية ، فاتخذ من رذائل العصر ونزواته مادة لأشعاره الساخرة التي لم ترحم لذعاتها خصوم آيميليانوس السياسيين بوجه خاص . وقد نشر لوقيليوس ثلاثين ديواناً من أشعاره الشائكة غير أنه لم يصل الينا منها الا ١٣٠٠ بيت فقط[٦] ، ولو أن كل إنتاجه الأدبي قد وصل الينا لألقى ضوءاً ساطعاً

---

(5) J. Wight Duff., Roman Satire, 1937; W S. Anderson, Recent Work in Roman Satire, Classical World, 1956, pp. 33 ff.; and 1964, pp. 293 ff.; 343 ff.

(٦) للاطلاع على ترجمة هذه الأشعار الى الانجليزيه ، أنظر :

E. H Warmington, Remains of Old Latin, Vol. III.

على الأحوال الاجتماعية والسياسية المعاصرة . وكان لوقيليوس يدعو قصائده أحاديث (Sermones) ولكنها عُرفت فيما بعد باسم ساتورا (Satura) بسبب مماثلتها ، من حيث لغتها الدارجة وموضوعاتها المتباينة ، لتلك المقطوعات الإيطالية التي عُرفت بهذا الاسم . وقد كانت أشعار لوقيليوس النموذج الذي حذا حذوه هوراتيوس (Horatius) فيما بعد .

ب ـ بعض شعراء المدرسة الجديدة :

وما أن ظهرت المدرسة الجديدة من الشعراء حول بداية القرن الأول قبل الميلاد حتى اكتسبت أتباعاً كثيرين ، ذلك أنه حوالي عام ١٠٠ ق . م . إتخذ لوتاتيوس قاتولوس (Catulus ـ أحد قنصلي عام ١٥٢ ق. م .) نمطاً لأشعاره أحد فروع الشعر الإسكندري ، ونعني بذلك القصيدة الغرامية القصيرة (erotic epigram) . وتفوق أشعار قاتولوس في الأهمية القصائد الغرامية القصيرة التي نظمها لايفيوس (Laevius) في مطلع القرن الأول قبل الميلاد . ومرد هذه الأهمية الى الأثر العميق الذي تركته هذه القصائد في الجيل الجديد من الشعراء ، وكان أبرزهم جايوس هلفيوس قينّا وجايوس ليقينيوس قالفوس (Calvus) وبوبليوس فالريوس قاتو وجايوس فالريوس قاتولّوس .

واستناداً على كثرة الإشارة في المصادر القديمة الى القصيدة المشهورة « إزمورنا » (Zmyrna) وهي التي نظمها قينّا ، يبدو أن هذا الشاعر كان أكثر أتباع المدرسة الجديدة إلتزاماً للمنهج الإسكندري . ويقال إنه قضى تسع سنوات في صقل هذه القصيدة الزاخرة بالتفقه المتكلف. ولسوء الحظ أنه لم يصل الينا شيء من أشعار قالفوس ، وهو إذا كانت مكانته خطيباً قد فاقت فيما يبدو مكانته شاعراً ، فإن شهرة شعره كانت كافية لأن يقرنه أوفيديوس بالشاعر الكبير جايوس فالريوس قاتولّوس . ومن المؤسف أنه لم يصل الينا كذلك من أشعار فالريوس قاتو شيء لا يرقى الشك الى أنه من نظمه . بيد أن

ما أجزل له أحد أصدقائه أو تلاميذه من ثناء عاطر ينم عن أنه كان معلماً بالغ الأثر في بث روح الإسكندرية وصنعتها . وإنه لمما يجدر بالملاحظة أن هذا الشاعر وكذلك الشاعر الفحل جايوس ڤالريوس ڤاتولّوس وكثيرين من شعراء هذا العصر كانوا من أبناء « غاليا هذه الناحية من الألب » (Gallia Cisalpina) .

جـ ـ جايوس ڤالريوس ڤاتولّوس[7] :

ولد ڤاتولّوس في ڤرونا (Verona) في عام ٨٧ أو ٨٤ ق. م . وذهب الى روما حوالي عام ٦٢ وتوفي حوالي عام ٥٤ ق . م . وقد كان أبوه صديقاً ليوليوس قيصر ورجلاً ثرياً . ولا بد من أن يكون الشاعر قد ورث عن أبيه ثروته ، لأنه وإن درج على العرف الشائع عندئذ من الشكوى من الفقر كان يمتلك قصرين على الأقل ، وكان رفاقه الرومان وكذلك معشوقته من الطبقة العليا ، كما أنه كانت تربطه صلات متفاوتة من الود بأبرز رجال الحياة العامة عندئذ ممن كانوا يكبرونه كثيراً في السن مثل شيشرون وهورتنسيوس . ولكنه فيما يبدو لم يستهوه الانخراط في سلك الحياة العامة . وان كان قد قضى بعض الوقت ضمن حاشية مميوس (Memmius) حاكم ولاية بيثونيا (عام ٥٧/ ٥٦ ق. م.) . وبرغم صداقة أبيه لقيصر فإنه كان من معارضيه ولم يتردد في المصارحة بهذه المعارضة سواء بمهاجمة قيصر نفسه أم بمهاجمته في شخص ماموراّ (Mamurra)[8] المقرب اليه . غير أنه عندما رأى قيصر أنه من الأجدى عليه اكتساب صداقة الشاعر الشاب وعمل على التودد اليه أصلح فيما بينهما قبل وفاة الشاعر[9] .

---

(7) E.A. Havelock, The Lyric Genius of Catullus, 1939; H. Bardon, La Littérature latine inconnue, I, 1952, pp. 115 ff.; R.G.C. Levens, Fifty Years of Classical Scholarship, 1954, pp. 284 ff.; G. Highet, Poets in Landscape, 1957, ch. I; Catullus, edition by C.J Fordyce, 1961 ; trans. by F.W. Cornish, 1966 (Loeb Class. Lib).

(8) Catullus, XXIV, LVII, XCIII.

(9) Cf. Catullus, XI.

ويعزى أساساً إطلاق لقب المتفقه[10] (doctus) على قاتولّوس ا
محاكاته إتجاهات الشعر الإسكندري في الكثير من أشعاره ، وبخاه
بالميثولوجيا واستخدامه مادتها وتصويره مناظر الطبيعة في هذه الأشعار
قصائده التي من هذا النوع هي قصيدة[11] « زواج بليوس ، ـ
وثتيس ، Thetis » . ونستشف من بين ثنايا الموضوع المعقد لهذه القصيده
احتفال الشاعر بجمالى الطبيعة وقدرته الخلاقة على رسم صور خلابة لهذا
الجمال . والطابع الإسكندري واضح هنا أشد ما يكون الوضوح . وهذا الطابع
لا يقل عن ذلك وضوحاً في قصيدة أخرى للشاعر نفسه وهي قصيدة أتّيس[12]
(Attis) ، وهي التي تعتبر فريدة في بابها من حيث الوزن (galliambic)
الذي نظمت فيه .

وفي رأي كثيرين من الباحثين أنه الى هذا الحد فقط يعتبر قاتولّوس من
شعراء المدرسة الجديدة ، وذلك على أساس أن مُثُله كانت تختلف اختلافاً
جوهرياً عن مُثُل الاسكندريين لأن أشعار أبولونيوس وقاليماخوس كانت
منفذاً للهروب من الحياة المعاصرة ، على حين أن أشعار قاتولّوس كانت تعبيراً
دافقاً عن حياته الخاصة وأن مهبط وحيه لم يكن دولة البطالمة وإنما جزيرة
لسبوس . ويصعب علينا قبول هذا الرأي لأن أشعار أبولونيوس وبوجه خاص
قاليماخوس لا تخلو من التعبير عن الحياة الخاصة لكل منهما بل إنهما يعبران
أصدق تعبير عن هذه الحياة إذ يحاولان الهرب منها الى آفاق أخرى . ولو جاز
القول بأنه لا بد من أن تكون دولة البطالمة مهبط وحي الشاعر حتّى يصدق
وصفه بأنه من مدرسة الشعر الإسكندري لجاز القول بأن الشاعر الكبير
ثيوقريتوس ــ شاعر بلاط بطلميوس الثاني ــ لم يكن من شعراء هذه المدرسة
لأنه عندما كان يتغنى بجمال الطبيعة كان لا يصف جمالها في مصر وانما في قوس
وسراقوسة .

(10) Tibullus, III, 6, 41; Ovid., Amores, III, 9, 62; Mart., I, 61, 1.
(11) Catullus LXIV.
(12) Catullus, LXIII.

ولا جدال في أن قاتولـّوس كلف كلفاً شديداً بجزيرة لسبوس وبمحاكاة شاعرتها الشهيرة صافو (Sappho)، وهي التي كانت تعيش في أواخر القرن السابع والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد. وقد لا نعدو الحقيقة اذا عزونا هذا الاتجاه الى تأثير شعراء الإسكندرية، ذلك أنه من المعروف أن أسقلبيادس (Asclepiades) — ألمع شعراء الإسكندرية، الذين نظموا القصائد الغرامية القصيرة — وكذلك ثيوقريتوس بثا روح الحياة في أوزان الشعر القديمة التي كان يستخدمها شاعرا لسبوس القديمين المعاصرين لبعضهما بعضاً وهما ألقايوس (Alcaeus) وصافو.

ولا أدل على ما كان قاتولـّوس يدين به لصافو من أن أعذب أناشيد الزواج التي نظمها هو ذلك النشيد[13] الذي يذكرنا على الفور بأناشيد الزواج (epithalmia) التي اشتهرت بها صافو. ويعبر قاتولـّوس صراحة عن دينه لصافو بنقله أنشودتها العظيمة الى اللاتينية في أنشودته الرقيقة[14] التي مطلعها « إنه يبدو لي صنواً لإله » (ille mi par esse deo videtur)، مثل ما يعبر عن هذا الدين تعبيراً لبقاً خفياً باستعارته اسم « لسبيا » لمعشوقته قلوديا.

ولا يعنينا في هذا المقام أمر غرام قاتولـّوس المشبوب بهذه المعشوقة الغادرة الا من حيث أن هذا العاشق الولهان في تعبيره عن المشاعر المتأججة التي أذكاها هذا الغرام العنيف إرتفع إلى مرتبة وضعته على قدم المساواة مع صافو وجعلت منه شاعر الحب دون منازع في العالم الروماني. وحين يقول قاتولـّوس « أكره وأحب. وإذا سألتني السبب حرت جواباً ولكنني أشعر بذلك وأحس بالألم يعتصرني »[15] يبدو أنه يجمل تصوير مشاعره نحو معشوقته الغادرة قبل أن يقطع صلته بها نهائياً. وكذلك يعبر عن أبرز ما كان قلبه ينبض به من

(13) Catullus, LXI.
(14) Catullus, LI.
(15) Catullus, LXXXV.

العواطف الجياشة: عواطف الحب الدافق لمعشوقته وأصدقائه ، وعواطف الحزن والأسى لعدم وفاء معشوقتهوكذلك عواطف الكره العميق لخصومه. ذلك أن ديوان قاتولوس زاخر بالأشعار التي تصور مشاعره نحو محبوبته. مثل ما تصور عواطفه الحارة نحو صديقيه فرانيوس[16] (Veranius) وقالفوس[17] ، وحزنه العميق على وفاة أخيه وهو الحزن الذي تتجاوب أصداؤه في الكثير من مراثيه ويبلغ ذروة الأسى في المرثية التي نظمها عقب زيارة قبر أخيه[18] . وتتجلى كذلك في أشعار قاتولّوس عواطف البغض الشديد لخصومه ، سواء أكانوا من السياسيين مثل قيصر وماموّرا ، أم خصوماً شخصيين مثل قايليوس[19] وجلّيوس[20] (Gellius) وهما اللذان نافساه في حب معشوقته الهوائية فأطلق لنفسه العنان في مهاجمتهما هجوماً لم يترفع عن الإسفاف. بيد أنه يجب التنويه بأن مثل هذا الإسفاف لم يكن أمراً غير مألوف في ذلك الوقت ، وبأن مثل هذه الأشعار النابية لم تكن الا جزءاً طفيفاً من إنتاج قاتولّوس الأدبي.

ولقب « المتفقه » الذي خلعه الرومان على قاتولّوس يوحي بأنهم كانوا يعلقون على « فن » قاتولّوس قدراً من الأهمية أكبر مما كانوا يعلقونه على « عبقريته » . وميل الكثيرين من النقاد المحدثين الى الإشادة بأن أرق الشعراء الرومان كان شاعراً مطبوعاً إذا كان ينصف عبقرية قوتولّوس فإنه لا يفي فنه حقه. ولا جدال في أن بعض سمات الصنعة الإسكندرية التي التزمها قاتولّوس وأترابه تنفر المحدثين مثل ما نفرت شيشرون ، الا أنه لا جدال كذلك في أن قاتولّوس ومدرسته أسدوا خدمة جليلة للشعر الروماني بتخليصه من شوائب خشونة مدرسة أنّيوس ومهدوا السبيل الى ما اتصف به الشعر الروماني في عصر أغسطس من صقل بل إسراف في الرقة والتهذيب.

---

(16) Catullus, IX.
(17) Catullus, XIV; XCVI.
(18) Catullus, CI.
(19) Catullus, LVIII.
(20) Catullus, LXXXVIII-XCI; C; CXVI.

د ـ تيتوس لوقرتيوس قاروس[21] :

وقد كان لوقرتيوس أعظم الشعراء الرومان في عصره . ومع ذلك فإننا لا نعرف شيئاً عن حياة هذا الشاعر الكبير أكثر من أنه ولد حوالي عام ٩٤ وتوفي حوالي عام ٥٥ ق. م. دون أن نعرف أين ولد ولا من كان أبواه . واذا كان بعض الباحثين يعتقد أنه كان من أتباع عشيرة لوقرتيوس (gens Lucretia) الأرستقراطية ، فإن البعض الآخر يرى أنه كان سليل هذه العشيرة لأن آراءه في سلوك المجتمع الروماني وأهدافه ، وهي الآراء التي أعرب عنها في قصيدته المشهورة المطولة أو على الأصح في ديوان شعره « في طبيعة الأشياء» (De Rerùm Natura) ، تتسم بطابع أكثر مواءمة لرجل رفيع الأصل منه لأحد الأتباع . وفضلاً عن ذلك فإن الأسلوب الذي خاطب به جايوس ممّيوس ـ وكان صهر الدكتاتور صلا وأحد البرايتورس في عام ٥٨ وحاكم ولاية بيتونيا في عام ٥٧/ ٥٦ ق . م . ـ حين أهدى إليه قصيدته أو ديوانه أسلوب خطاب الند للند لا التابع لمولاه .

وفي ضوء ما يتجلى في أشعار لوقرتيوس من القدرة على التحليق طويلاً في جوزاء أسمى الأفكار التي أبداها في معالجة موضوع فلسفي شاق دون أن يتخلل ذلك أي شذوذ في التفكير أو في الأسلوب يصعب قبول الرواية التي تتهمه بأنه كان نهباً لنوبات من الجنون . ولعل أن المصدر الذي انبثقت عنه هذه التهمة كان ديوانه الفلسفي فقد كان مغامرة فكرية من اليسير أن ندرك أنها كانت فوق مستوى عقلية أكثر معاصريه . ولسنا ندري كذلك مدى صحة الشق الثاني من هذه الرواية وهي أنه مات منتحراً . غير أنه لا يستبعد أن تكون الظروف التعسة التي شهدتها البلاد في خلال حياة لوقرتيوس القصيرة وكانت تسير بالجمهورية الرومانية نحو الهاوية قد أضنت مشاعره الرقيقة فلم يعد يحتمل

---

(21) E.E. Sikes, Lucretius, Poet and Philosopher, 1936; C. Bailey, Lucretius, 3 vols., 1947; Lucretius, 1956, ed. by D.R. Dudley

الحياة في كنف تلك الظروف فآثر الموت . وهذا الأثر البالغ لسوء الحياة العامة في نفس لوقرتيوس لا يناقضه أنه وفقاً لمبادئه الأبيقورية عزف عن الاشتراك في الحياة العامة .

ولا يختلف شاعر عن آخر من حيث الأسلوب ومادة الموضوعات ووجهة النظر الى الحياة قدر اختلاف لوقرتيوس عن معاصره اللامع الأصغر قليلاً في السن : قاتولّوس . ومما يجدر التنويه به هنا هو أنه في خلال الربع الثاني من القرن الأول قبل الميلاد شاعت بين الطبقة العليا الرومانية بدعة الإقبال على الفلسفة الأبيقورية . وقد كان من بين الذين شُغفوا بهذه الفلسفة بيسو (صهر قيصر) وأتّيقوس (صديق شيشرون الحميم) وبانسا (Pansa — أحد قواد قيصر) وقيصر نفسه فترة من الوقت والشاعر لوقرتيوس . واذا كان بعض دعاة الأبيقورية مثل أمافينيوس (Amafinius) وغيره قد كتبوا في هذه الفلسفة باللاتينية نثراً ، فإن نظم قصيدة أبيقورية كان حدثاً جديداً لم يحاوله الإغريق أنفسهم . ذلك أن الفلاسفة الإغريق من أتباع أبيقوروس إقتفوا أثره في التزام نوع من النثر الجاف في مؤلفاتهم . وقد كان لوقرتيوس أول من تناول الفلسفة الأبيقورية شعراً في قصيدته المشهورة « في طبيعة الأشياء » ، وهي القصيدة الوحيدة التي نظمها ولم يتمها وقام شيشرون بنشرها بعد وفاة الشاعر .

ولا أدل على مواهب لوقرتيوس العقلية وكفايته الفنية من قدرته على أن يستوحي الشعر من فكرة جامدة مثل فكرة الذرة . ولم يكن من شأن أسلوب لوقرتيوس الجاف الذي عبّر به عن « كشوفه القدسية » تيسير مهمته بل زيادتها مشقة . واذا كانت قصيدة لوقرتيوس تنم عن تأثره الى حد ما بشعر أمبدوقلس (Empedocles) — وهو الشاعر الإغريقي الذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد — فإن نموذج لوقرتيوس المباشر كان شعر أنيوس . والواقع أنه يمكن اعتبار لوقرتيوس آخر أتباع منهج أنّيوس . وبمقارنة أشعار لوقرتيوس بأشعار شيشرون — وناهيك عن أشعار فرجيليوس — يبدو على الفور تزمت لوقرتيوس الشديد في التزامه المنهج القديم سواء في قواعد اللغة أم في الألفاظ .

وذلك برغم اضطراره الى الاستحداث لترجمة الاصطلاحات الفلسفية ، شأنه في ذلك شأن شيشرون .

ولا جدال في أن قصيدة لوقرتيوس قصيدة تعليمية . وحق الشاعر في أن يقيم نفسه معلماً يجد سنداً ومبرراً في تاريخ الشعر الإغريقي ونقده منذ هسيودس الى أراتوس . ولما كانت مادة الموضوع الذي عُني لوقرتيوس بتلقينه للناس مادة جافة ، فإنه حرص على تغطية مذاق دوائه الأجاج باضافة عنصر معسول اليه ، ومع ذلك فإنه من شأن تناول جرعات متتالية من هذا الدواء الإحساس بمذاق شديد المرارة . ذلك أن الشاعر لم يعف القارىء من دقائق فكرة الذرة في الجزءين الأول والثاني ، ولا من أغوار علم النفس في الجزء الثالث ، ولا من تفاصيل الإدراك بالحواس في الجزء الرابع . ولا يصبح الموضوع دراسة إنسانية قبل منتصف الجزء الخامس عندما يصف الشاعر في روعة وجلال أصل الإنسان وانتقاله من دور البداوة الى دور الحضارة .

ويبدو أن الهدف الأول الذي توخاه لوقرتيوس في قصيدته هو أن يبدد خوف الإنسان في حياته من آلهة غضبى أو عشوائية التصرفات ، ومن انتقام هذه الآلهة بعد الممات . وانطلاقاً من ذلك يهيب الشاعر بالإنسان أن يلقى الموت غير هياب . ولعل أن لوقرتيوس لا يبلغ الذروة في أي جزء من أجزاء قصيدته مثل ما يبلغها في الجزء الثالث حيث يحارب الخوف من الموت، لا بهدوء الذي لا يبالي على غرار أبيقوروس نفسه ، ولا ببسالة اليائس على نحو ما يتصور بعض الباحثين ، وإنما بحماس المؤمن بأن الموت حق على كل إنسان .

واذا كان لوقرتيوس يقسو على الرعديد الذي يتشبث بأهداب الحياة ، فإنه أشد قسوة على الغني الكسول الذي يجهل كيف يحسن الاستمتاع بسني حياته . فهو يهدرها في سأم البطالة محاولاً دون جدوى مغالبة هذا السأم بالتنقل مرة بعد أخرى بين قصوره في العاصمة وفي الريف[٢٢] . بيد أنه برغم رواقيته

(22) Lucretius, III, 1060-67.

الصارمة – فالرواقية والأبيقورية تتفقان في هذا الصدد – لا يغفل حزن الموت ، الا أن هذا الحزن ليس حزن المتوفي وإنما هو حزن الأقربين عليه . حزن الزوجة والأولاد على العزيز الراحل (٢٣) .

وعند لوقرتيوس أن الاستلقاء على الحشائش وسط الزهور في فصل الربيع أفضل من حياة البذخ في القصور (٢٤) . وأن الإنسان نفسه مصدر كثير من شقائه بسبب ما يعتوره من نقائص ويكمن فيه من نوازع الضعف مما يدفعه الى ارتكاب الحماقات بالإسراف في الأطماع أو في الحياة المترفة ، أم بالوقوع في غرام ذميم ، وأنه يمكن الاستمتاع بالحياة أيما استمتاع باعتناق تعاليم أبيقوروس والاهتداء بهدي تعاليم هذا الأستاذ وهو الذي يعتبره الشاعر إلهاً وخير ما أهدته أثينا إلى البشرية (٢٥) .

وينهض دليلاً على سمو قدر لوقرتيوس في نظر معاصريه ما شهد به أبرز أدباء عصره وهو شيشرون . ذلك أنه بالرغم من أن قصيدة لوقرتيوس ليست إلا رسالة في الفلسفة الأبيقورية ، ومن أن شيشرون كان يمقت هذه الفلسفة ، فإنه بعد أن استوعب هذا الأديب الفذ قصيدة لوقرتيوس كتب الى أخيه كوينتوس شيشرون في عام ٥٤ يقول إن شعر لوقرتيوس يجمع بين العبقرية والكفاية الفنية . ولكي نقدر مدى قيمة هذا الثناء يجب التنويه بأن الرومان درجوا عادة على التفرقة بين العبقرية والكفاية الفنية وبأن الأغلب الأعم هو أن الشاعر الفاره كان يعتبر إما من أصحاب العبقرية وإما من ذوي الكفاية الفنية . وهكذا فإن حكم شيشرون بأن لوقرتيوس كان يجمع بين هذين الصفتين المميزتين ينم عن أن هذا الشاعر كان في نظر شيشرون أسمى مرتبة من نموذجه أنيوس وهو الذي لم يشتهر إلا بعبقريته . وإن دل هذا على شيء فهو يدل على المكانة الرفيعة التي احتلها لوقيوتيوس في نظر معاصريه من الأدباء

(23) Lucretius, III, 894-901
(24) Lucretius, II, 24-6.
(25) Lucretius, I, 62 ff.; III, 9 ff.; IV, 1071 ff.; V, 8; VI, 26 ff.
(26) Cic., ad Quin. fratrem, II, 9, 3.

البارزين . وشهادة الباحثين المحدثين بأن لوقرتيوس كان شاعراً ممتازاً تدل على أن معاصريه لم يسرفوا في الإشادة بقدره .

هـ - أدب المسرح[٢٧] :

وقبل أن نترك الشعر لا بد لنا من وقفة قصيرة عند أدب المسرح . وإنه لمما يستوقف النظر أن هذا اللون من الأدب لم يجتذب في القرن الأخير من عصر الجمهورية إهتمام فطاحل الشعراء الرومان، على حين أنه في القرن السابق اجتذب إهتمام عدد كبير من أبرز الشعراء الرومان . ومن ثم فإن بداية القرن الأخير للجمهورية الرومانية تعتبر نهاية العصر الذهبي لأدب المسرح الروماني في مجالي التراجيديا والكوميديا سواء بسواء . ولا أدل على ذلك من أن أشهر مؤلفي المسرحيات وأحبهم الى القلوب لا في القرن الأول قبل الميلاد فحسب بل أيضاً في القرن الأول للميلاد ، وهو لوقيوس أقيوس (Accius) ، ينتمي الى القرن الثاني أكثر منه الى القرن الأول قبل الميلاد ، فقد ولد حوالي عام ١٧٠ وتوفي حوالي عام ٨٥ ق . م . ومن الأسف أن معلوماتنا عن مؤلفات أقيوس محدودة جداً فهي لا تتعدى أسماء هذه المؤلفات ، وأن أكثرها كانت مسرحيات تراجيديه (fabulae palliatae) يربو عددها على الأربعين مسرحية . وأنه تأثر في تأليفه بالمسرحيات الإغريقية ، وأنه كان يميل الى الموضعات العنيفة والى تصويرها تصويراً مفجعاً ، وأنه حظي بتقدير معاصريه مثل شيشرون وكذلك بتقدير أبناء الأجيال التالية مثل هوراتيوس وكوينتيليانوس . وإعجاب رجال من طراز هؤلاء الأدباء الممتازين بمسرحيات أقيوس ينم عن تمتع هذا الشاعر بمواهب لها وزن كبير .

وبوفاة المؤلف المسرحي توربيليوس (Turpilius) في عام ١٠٣

(27) G.E. Duckworth, The Nature of Roman Comedy, 1952; M. Bieber, The History of the Greek and Roman Theater, 2nd ed., 1961; W. Beare The Roman Stage, 3rd ed., 1964; Roman Drama, 1965, edited by D.R. Dudley and T.A. Dorey

ق . م . إنتهت في مجال الكوميديا عادة اقتباس المسرحيات الكوميدية الإغريقية للمسرح الروماني، وهي العادة التي كان يمارسها من قبله بلاوتوس (Plautus) وترنتيوس ببراعة كبيرة . بيد أنه لم يلبث أن ظهر نوع جديد من المسرحيات الكوميدية هو الكوميديات الشعبية (fabulae togatae) وهي التي كانت كانت تصور الحياة المنزلية في المدن والقرى الإيطالية . وكان أبرز مؤلفي هذا اللون من المسرحيات تيتوس كوينقتيوس أتّا (Quinctius Atta) وهو الذي برع في تصوير الشخصيات النسائية ، ولوقيوس أفرانيوس وهو الذي امتازت مسرحياته بخلفية إيطالية لقصص إستوحيت أفكارها من مناندروس (Menandrus) وغيره من شعراء الكوميديا الإغريقية الجديدة . وهذا الالتجاء ثانية في مجالي التراجيديا والكوميديا الى الاعتماد على أدب المسرح الإغريقي –وذلك بعد إنتاج أنّيوس وباقوفيوس وأقّيوس مسرحيات موضوعاتها رومانية بحت– يشير الى نضوب معين الوحي الروماني . وهذا التدهور الذي أصاب تأليف المسرحيات الكلاسيكية الرومانية قد أثار جدلاً طويلاً بين الباحثين دون أن يصيب أحد أي نجاح في تفسيره تفسيراً شافياً مقبولاً . وعلى كل حال فإنه لم يخلف أقّيوس في مجال التراجيديا ولا أفرانيوس في مجال الكوميديا مؤلف موهوب ؛ مما حدا بالرومان الى إحياء مسرحيات أنّيوس وباقوفيوس وبوجه خاص مسرحيات أقّيوس .

ومن ناحية أخرى وجدت الأذواق الشعبية المتواضعة ما يشبع حاجتها في نوعين من المسرحيات الهزلية . وكان أحد هذين النوعين هو المسرحيات الساخرة سخرية لاذعة خشنة وهي التي اشتهرت بها أصلاً بلدة أتلاّ (Atella) في قمبانيا ثم وصلت الى روما حيث لاقت رواجاً كبيراً وظلت تعرف باسم مسرحيات أتلاّ (fabulae Atellanae) . وكانت كل مسرحية من هذا النوع لا تخلو من أربع شخصيات وهي ماقّوس (Maccus) « المهرج » وبابّوس (Pappus) « الرجل العجوز » و « بوقّو » (Bucco) « البدين القصير » ودوسّنوس (Dussenus) « الأحدب الذكي » . وكان يصور

هذه الشخصيات ممثلون يرتدون أقنعة مناسبة لأدوارهم ، ولا يكتفون بالنص الأصلي بل يزيدون عليه ما يبتدهونه في أثناء التمثيل . وفي خلال الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد خلع على هذا النوع من المسرحيات طابعاً أدبياً عابراً الكاتبان بومبونيوس (Pomponius) ونوفيوس (Novius) ، فهما وإن كانا قد احتفظا لهذا اللون من المسرحيات بطابعها الريفي الخشن وشخصياتها الجوهرية الأصلية الا أنهما أضافا بعض الشخصيات النمطية المعروفة في الكوميديا الإغريقية الجديدة ، كما أنهما وسعا نطاق هذه المسرحيات بمعالجة موضوعات جدية ، سياسية ودينية وميثولوجية، في قالب هزلي . ومن المحتمل أنه بعد هذين الكاتبين عاود هذا النوع من المسرحيات سيرته الأولى واستمر يتمتع بشعبية كبيرة في عهد الأمبراطورية .

وكان النوع الثاني هو المسرحيات الهزلية الموسيقية (mimi : fabülae riciniatae) وكان هـــذا النوع أحب من غيره وأقرب الى القلوب . ونعرف من أوفيديوس أن موضوعات هذا النوع من المسرحيات كانت تُستمد من مغامرات الهوى ، وأنه كان يُستباح فيها من العبارات الفاحشة ما كان لا يُستباح في غيرها(٢٨) . وقد رفع هذا النوع من المسرحيات الشعبية الى مستوى الإنتاج الأدبي دقيموس لابريوس (Laberius) وبوبليليوس سوروس (Syrus)، وكان أولهما فارساً رومانياً وأما الثاني فإنه كان في الأصل عبداً سورياً وفد على روما فيما يرجح من إنطاكية(٢٩) ثم اكتسب حريته بفضل كفايته ليس فقط في التمثيل بل أيضاً في التأليف حيث بز لابريوس . وإزاء تعريض هذا الفارس المغوار بقيصر في إحدى مسرحياته أمره الدكتاتور بأن يمثل في هذه المسرحية فشكا لابريوس في البداية شكوى مريرة من عار الإهانة التي لحقت به من جراء ذلك فقد خرج من بيته فارساً رومانياً وسيعود إليه ممثلاً(٣٠) . وأما منافسه سوروس فإنه وقد كان عبداً معتقاً

(28) Ovid., Trist., II, 497.
(29) Plin., N.H., XXXV, 199.
(30) Macrob., Sat., II, 7.

لم يرَ غضاضة في ممارسة التمثيل . وقد إشتهرت مسرحيات سوروس بالأقوال المأثورة التهذيبية التي كان ينظمها شعراً ويجريها على ألسنة شخصيات مسرحياته. وقد اقتطف جلّيوس أربعة عشر من هذه الأقوال(٣١) . وهذا الاتجاه الذي اتخذه سوروس يفسر كثرة استخدام أشعاره في المدارس ، ويدل على أن هذا النوع من المسرحيات اذا كان مرتعاً خصباً للعبارات الفاحشة : فإنه كان من الممكن كذلك أن يكون مورداً عذباً للأقوال الأدبيـــة . وفي رأي سنقا (Seneca) أن سوروس كان أقدر من أي مؤلف مسرحي آخر على التعبير عن آرائه(٣٢) . وهذا النوع من المسرحيات أيضاً إستمر يتمتع بشعبية كبيرة في عهد الأمبراطورية .

٢ ــ الخطابـــة (٣٣) :

يجدر بنا الإشارة أولاً الى أن الفارق بين الخطابة وغيرها من فروع النثر كان عديم الأهمية في وقت كانت فروع النثر جميعاً ، شأنها شأن الأشعار ، تكتب لتتلى عادة بصوت مرتفع على جمهور كبير من الناس . ذلك أنه من ناحية لم تكن الطباعة معروفة ومن ناحية أخرى لم يكن ميسوراً إعداد عدد كاف من النسخ للمؤلفات .

ويمتاز هذا العصر بالكثيرين ممن اشتهروا بمواهبهم الخطابية مثل سقيبيو آيميليانوس وصديقه جايوس لايليوس والأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس ومارقوس أنطونيوس (أحد قنصلي عام ٩٩ ق . م .) والمحامي الكبير كوينتوس هورتنسيوس هورتالوس وجايوس ليقينيوس قالفوس (وهو الذي مر بنا ذكره بوصف كونه من أبرز شعراء المدرسة الجديدة) وشيشرون وقيصر

(31) Gell., Noc. Att., XVII, 14.
(32) Seneca, Controv., VII, 3, 8
(33) C.A.H., IX, pp. 755 ff.; M.L. Clarke, Rhetoric at Rome, A Historical Survey, 1953; S.F. Bonner, Fifty Years of Classical Scholarship, pp. 335 ff.; J. Wight Duff, A Literary History of Rome, 2nd ed., 1960, pp. 255 ff.; Scullard, 1970, pp. 206-8.

ومارقوس بروتس . بيد أنه باستثناء شيشرون لم تصل إلينا مما جادت به قرائح كل هؤلاء الخطباء إلا بقايا قليلة[٣٤] لا تغني ولا تذر . ومرد ازدهار فن الخطابة الى الازدياد المطرد في أهمية النبوغ فيه ، فقد أصبح حذق هذا الفن إحدى الوسائل لشق الطريق في مجال المحاماة وتولي أرفع الوظائف العامة مما كان يكسب الخطيب مكانة بارزة في المجتمع ويعود عليه بقدر كبير من المغانم .

ا ــ شيشرون :

ولا جدال في أن مارقوس توليوس شيشرون (Cicero ، عام ١٠٦ ــ ٤٣ ق . م .) كان أعظم الخطباء وكتاب النثر قاطبة في القرن الأخير للجمهورية الرومانية . وحسبنا دلالة على مكانة شيشرون الأدبية من أن مؤرخي الأدب اللاتيني يطلقون على هذا القرن « عصر شيشرون » . ومعلوماتنا عن شيشرون تفوق معلوماتنا عن أية شخصية أخرى عاشت في العصور القديمة . والفضل الرئيسي في ذلك يرجع الى العدد الكبير من الخطابات التي كتبها على مدى ربع قرن تقريباً .

قضى شيشرون باكورة شبابه في متابعة الدراسة المألوفة في عصره ، وعُني عناية خاصة بدراسة العروض والتدريب على نظم الشعر والترجمة من الإغريقية . وكان شيشرون في شبابه كثير التردد على الفوروم حيث كان يستمع الى أبرز الخطباء مثل أنطونيوس وقراسوس وهورتنسيوس . ويتبين مما كتبه شيشرون وتاقيتوس[٣٥] أن المستوى الذي بلغه معاصرو شيشرون في فن الخطابة فاق كثيراً مستوى الجيل السابق . والواقع أن النثر اللاتيني بلغ ذروة مجده في خطب شيشرون . ولم يكن ذلك ثمرة مواهب طبيعية فحسب بل أيضاً ثمرة دراسة فن الخطابة دراسة جدية أولاً في روما عندما زارها أستاذ الخطابة الرودسي العظيم أبولونيوس مولو (Molo) في أثناء دكتاتورية صلا ، وبعد ذلك

(34) E. Malcovanti, Oratorum Romanorum fragmenta, 2nd ed., 1955
(35) Cic., Brutus, 33, 166; Tacit, Dialogus de Oratoribus, 18

في أثينا وآسيا الصغرى ورودس[٣٦]، وممارسة الخطابة مدة غير قصيرة . ولا أدل على تفاني شيشرون في إتقان الخطابة مما يحدثنا به من أنه كان لا يدع يوماً يمر دون ممارسة التدريب عليها بشكل أو آخر[٣٧] ، ومما يرويه بلوتارخ من أن شيشرون درس على الممثلين المشهورين روسقيوس وآيسوبوس (Aesopus) أساليب الإلقاء والحركات[٣٨] .

وأول خطبة (pro Quinctio) ألقاها شيشرون في المحاكم (عــام ٨١ ق . م .) كانت قليلة الأهمية من حيث موضوع القضية التي ترافع فيها ، وتدل على أنه كان لا يزال أمامه شوط طويل قبل أن يصل الى ذلك المستوى الرفيع الذي وصل إليه بعد ذلك بأحد عشر عاماً . وكانت خطبته الثانية ، (pro Roscio Amerino) وهي التي ألقاها في عام ٨٠ ق . م . في أثناء دكتاتورية صلا وسبق الحديث عنها ، تفوق بكثير خطبته الأولى من حيث أهمية الموضوع وكذلك من حيث الأسلوب الا أنها تتسم ببعض آثار الأسلوب المدرسي الجاف الموروث عن مدارس الخطابة .

وإزاء اعتلال صحة شيشرون عندئذ اضطر الى أن يهجر ممارسة المحاماة لمدة عامين (٧٩ و ٧٨ ق . م .) زار في أثنائهما أثيناً أولاً حيث درس الخطابة على ديمتريوس والفلسفة على أنطيوخوس . وبعد ذلك اتجه شيشرون الى آسيا الصغرى حيث درس الخطابة على عدد من الأساتذة البارزين ثم يمم وجهه الى رودس حيث استأنف دراسة الخطابة على أستاذه السابق مولو كما درس الفلسفة على بوسيدونيوس . وقد عادت هذه العطلة على شيشرون بخير الجزاء فهو من ناحية استرد صحته ، ومن ناحية أخرى أفاد من بوسيدونيوس فائدة كبرى كان لها أثر عميق في فلسفته ، ومن ناحية ثالثة تحسنت قدرته الخطابية بفضل توجيهات الأساتذة الذين درس عليهم وبخاصة أستاذه الرودسي مولو

---

(36) Cic., Brutus, 89, 307; 90, 312; 91, 315; Plut., Cic., IV.
(37) Cic., Brutus, 90, 309.
(38) Plut. Cic., V, 3.

فأصبح في وسعه منازلة منافسه الرئيسي هورتنسيوس منازلة الند للند .

وعندما تولى شيشرون في عام ٧٠ ق . م . إتهام فرّس (Verres) آل إليه مكان الصدارة بين خطباء عصره مما ساعده على أن يرقى معارج سلك الوظائف العامة الى أن كللت جهوده في هذا المضمار بتولي قنصلية عام ٦٣ ق . م . وبرغم أنه في أثناء قنصليته وبعدها كانت أغلب خطبه سياسية أكثر منها قانونية بحتاً للدفاع أو الاتهام في المحاكم، فإنه باستثناء فترة نفيه إستمر يزاول المحاماة حتى عام ٥٢ ق . م . عندما تولى الدفاع عن ميلو (pro Milone) . وقد اختتم شيشرون نشاطه السياسي بوصف كونه خطيباً أو كاتباً سياسياً بسلسلة خطبه التي شن فيها قبل إعدامه في السابع من ديسمبر عام ٤٣ ق . م . هجوماً ضارياً على ماركوس أنطونيوس . ويصعب الجزم اذا كان شيشرون نفسه أو غيره هو الذي استعار لهذه الخطب اسم الفيليبيات (Philippica) ، وهو الاسم الذي عُرفت به الخطب التي هاجم فيها الزعيم الأثيني ديموسثينس سياسة فيليب الثاني المقدوني هجوماً عنيفاً .

وخطب شيشرون قسمان يتألف أحدهما من الخطب التي ألقاها فعلاً ثم نقحها قبل نشرها ومثل ذلك دفاعه عن ميلو . ويتألف الآخر من الخطب التي لم تُلق وإنما نشرت ومثل ذلك الفيليبية الثانية المشهورة والجانب الأكبر من مرافعته ضد فرّس . وتتكشف هذه المرافعة عن الأسلوب الذي اهتدى إليه شيشرون بالدراسة والمران وارتضاه لنفسه منذ ذلك الوقت . وآية ذلك أنه حتى في المؤلفات الفلسفية التي أخرجها شيشرون بعد ذلك لم يعدل تعديلاً جوهرياً الأسلوب الذي كان يستخدمه في خطبه .

وقد كان أسلوب شيشرون يحتل مكاناً وسطاً بين نقيضين : كان أحدهما هو الأسلوب البسيط الذي اشتهرت به المدرسة الأتيقية وكان يعتمد أساساً على الإيجاز والوضوح واستبعاد كل المحسنات اللفظية تقريباً . وكان أسلوب الخطيب الإغريقي لوسياس (Lysias — حوالي ٤٥٩ — ٣٨٠ ق . م .) أعظم

نموذج لهذا الأسلوب وهو الذي كان كثيرون من الكتاب والخطباء الرومان من معاصري شيشرون يميلون إلى تقليده ، وكان أبرزهم جايوس لقينيوس قالفوس وماركوس بروتس ويوليوس قيصر . وكان النقيض الآخر هو أسلوب البديع الذي اشتهرت به المدرسة الإغريقية في آسيا الصغرى ، وكان يعتمد أساساً على الجناس والطباق في سيل دافق من الكلمات المنمقة . ويعزو شيشرون تدهور مكانة هورتنسيوس الأدبية الى إصراره على الاستمرار في إستخدام هذا الأسلوب الذي كان يستهوي الشباب الناشئين ويوائمهم الا أنه كان غير خليق برجل ناضج تولى القنصلية[٣٩] (عام ٦٩ ق . م .) . بيد أن شيشرون لا يغمط هورتنسيوس حقه فهو يثني عليه بقوله إنه لا يفوقه أحد في الإيجاز ووضع النقط على الحروف حين يريد إثارة الضحك ، وإنه لا يفوقه أحد في القدرة على إثارة غضب القضاة أو إستدرار دموعهم ، بل إنه لا يفوقه أحد في تحقيق أعظم ما ينشده خطيب ألا وهو الإقناع[٤٠] . وإذا كان هذا الإطناب ينطبق على هورتنسيوس فإنه أكثر إنطباقاً على شيشرون .

وبعد أن مارس شيشرون الخطابة مدة تزيد على ربع قرن ، ضاق ذرعاً بالحياة السياسية في كنف سيطرة « الحلفاء الثلاثة » (قيصر وبومبي وقراسوس) على الدولة سيطرة خنقت حريته في الإعراب عن آرائه بالإنذار الذي صدر له بعد مؤتمر لوقا بالسير في ركاب الحلفاء إذا أراد الأمن والسلامة، بدأ يوجه إهتمامه الى التأليف فنشر في عام ٥٥ ق . م . كتاباً « في الخطيب » (De Oratore) يقع في ثلاثة أجزاء ثم اتجه إلى التأليف في الفلسفة . وفي عام ٤٦ ق . م . عاود التأليف في الخطابة فنشر كتابين آخرين أو الجزءين الرابع والخامس في هذا الموضوع وهما « بروتس » (Brutus أو De Claris Oratoribus) و « الخطيب »[٤١] (Orator) . ويعرض شيشرون في الكتاب الأول

(39) Cic., Brutus, 95, 325-7.
(40) Cic., Brutus, 93, 323; cf. 84, 290.

(٤١) في رأي البعض أن شيشرون أنتج المؤلفين الثاني والثالث فيما بين عامي ٤٦ و ٤٤ ق.م. انظر .
J. Wight Duff, op. cit., p. 267; cf. C.A.H., IX, pp. 758-9.

كيفية تكوين الخطيب المثالي ، وفي الكتاب الثاني تاريخ الخطابة الرومانية ، وفي الكتاب الثالث نموذج الخطيب الكامل . ويكاد هذا الكتاب أن يكون ترجمة ذاتية لحياة شيشرون الخطيب . ولعل أن أعظم ما حققه شيشرون ، من حيث الشكل ، كان التطوير النهائي لبناء الجملة . وهو يعني في كتـــابه « الخطيب » عناية كبيرة بتركيب الجملة وبخاصة نهايتها (clausula) . ويحلل تحليلاً دقيقاً إختيار الألفاظ وأثر الأسلوب النثري ، ويرى أن هذا الأسلوب يجب أن يكون منغماً ولكن دون الالتزام بأي وزن بعينه من أوزان الشعر ، ومعنى ذلك أن يكون من طراز ما يعرف بالشعر المنثور . وجملة القول ان أسلوب شيشرون كان يجمع الى ذخيرة الألفاظ جزالة التعبير وحبكة التركيب مع العناية بالنغم مما أضفى على أسلوبه من الجلال والطلاوة ما لم يتوافر لغيره .

وأما عن اتجاه شيشرون نحو التأليف في الفلسفة ، فاننا سنعود إليه عندما نتناول الكلام عن هذا الموضوع .

ولا يتسع المقام هنا الا لعرض موجز للقيمة الأدبية لذلك العدد الهائل من خطابات شيشرون ، وهي تتألف من مجموعتين كبيرتين هما مجموعة « خطابات الى الأخصاء » (Epistulae ad Familiares) ومجموعة خطابات الى أتيقوس (Epistulae ad Atticum) . ومن مجموعتين صغريين وهما مجموعة « خطابات الى أخي كوينتوس (Epistulae ad fratrem Quintum) ومجموعة « خطابات الى بروتس » (Epistulae ad Brutum) . وتتألف كل من المجموعتين الكبريين من ستة عشر جزءاً والمجموعة الصغرى الأولى من ثلاثة أجزاء والمجموعة الصغرى الثانية من جزءين . ويحدثنا نبوس (Nepos) بأنه رأى مجموعة خطابات شيشرون الى صديقه أتيقوس وبأن هذه المجموعة تغني قارئها عن الاطلاع على تاريخ متصل لروما منذ قنصلية شيشرون حتى وفاته[٤٢] أي منذ عام ٦٣ حتى عام ٤٣ ق . م . ولعل أن نبوس

(42) Nepos, XXV, 16, 3-4

لا يعدو الحقيقة الا من حيث أن تراسل شيشرون مع أتيقوس بدأ في عام ٦٨ واستمر حتى عام ٤٤ وأنه تتخلل هذه الفترة بعض الفجوات .

ولعل أن أهم ما يميز هذه الخطابات هو تباينها الشديد من حيث المحتوى والأسلوب والأشخاص الذين وجهت إليهم . ذلك أن الموضوعات كانت تتفاوت من مجال السياسة العليا في الدولة ، الى مجال دنيا الأعمال ، الى مجال الحياة المنزلية وشئون شيشرون الخاصة ، الى التوصية ببعض الأصدقاء وذوي القربى ، مثل ما كانت تتفاوت شخصيات الذين كاتبهم شيشرون من أرفع رجال الدولة مقاماً ، الى صديقه الحميم أتيقوس — وهو الذي اختصه شيشرون بالجانب الأكبر من مراسلاته — الى أفراد الأسرة وبخاصة شقيقه الأصغر كوينتوس ، الى عبده المعتق تيرو (Tiro) . وفي كل حالة كان الأسلوب الذي يختاره شيشرون يتوقف على نوع صلته بمن يكتب اليه . ذلك أن شيشرون كان يحرص حرصاً شديداً على أن يكون أسلوبه في خطاباته الى قيصر وبومبي مماثلاً لأسلوبه في خطبه ومؤلفاته ، على حين أنه في خطاباته الى أصدقائه الحميمين مثل قايليوس (Caelius) أو ترباتيوس (Trebatius) أو بوجه خاص أتيقوس كان لا يحفل بذلك كثيراً أو قليلاً بل يستخدم الألفاظ العادية المألوفة بين المتعلمين كما لو كان يتحدث الى نفسه على حد تعبيره (ego tecum tam-quam mecum loquor) . ومع ذلك فإنه حتى حين كان يستخدم الألفاظ العادية ، وهي التي يقول إنها تميز الخطابات عن الخطب ، كان دائماً متأنقاً في لغته . ومن السمات البارزة في خطابات شيشرون — ولا سيما خطاباته الى أتيقوس — كثرة ما يتخللها من الألفاظ الإغريقية وكذلك الأسماء المقتطفة من الشعر الإغريقي . ومرد ذلك في أغلب الأحيان الى أن استخدام كلمات إغريقية كان أوفى بالغرض من استخدام أخرى لاتينية للتعبير عما يدق من الخواطر والخلجات ، وفي بعض الأحيان الى الرغبة في السرية عند الخوض في المسائل السياسية . ذلك أن كثيراً ما كان شيشرون يملي خطاباته ولا يكتبها بنفسه فكان من الأحوط استخدام بعض الكلمات الإغريقية وكذلك بعض الأسماء

الإغريقية كناية عن بعض الشخصيات الرومانية البارزة .

ومن المؤكد أن خطابات شيشرون لم تُنشر في أثناء حياته ، ويصعب أن نتصور أنه كتب أكثر هذه الخطابات وفي نيته نشرها في أثناء حياته وإلا لعني بأسلوبها جميعاً ، ولما استرسل على سجيته في الإفاضة عن نفسه مخاطراً بحياته مخاطرة جسيمة بالكشف صراحة في مرات عديدة عن خبايا آرائه ، ولاحتفظ لديه بنسخ من هذه الخطابات . وحسبنا دليلاً على ذلك ما جاء في خطاب[٤٣] منه الى أتيقوس بتاريخ ٩ من يوليه عام ٤٤ « إن خطاباتي غير مجموعة » ثم يمضي فيقول « ولكنه لدى تيرو حوالي سبعين خطاباً[٤٤] ويمكن الحصول منك على بعض الخطابات . وهذه الأخيرة يجب أن أراها وأصححها وبعد ذلك يمكن نشرها » . ويتبين من ذلك أن شيشرون كان يعتزم في أواخر حياته نشر جانب من خطاباته وهي التي يبدو أن بعضها — مثل خطاباته الى تيرو — كانت خالية من الخوض في السياسة وتصلح للنشر دون تغيير أو تبديل، وأن بعضها الآخر — مثل خطاباته الى أتيقوس — كانت تفيض بالمسائل السياسية وتحتاج الى التنقيح على نحو يدفع الأذى عن شيشرون . ولعل أن فكرة قيام شيشرون بنشر خطاباته السياسية لم تدر بخلده الا في أواخر حياته حين بدا له أن يحذو حذو أفلاطون في مجال « الخطاب السياسي » مثل ما حذا حذوه في مجال الفلسفة السياسية .

ب — قيصر :

وقد كان قيصر خطيباً بارعاً لم يفقه من بين معاصريه جميعاً سوى شيشرون . وكان هذان العملاقان متماثلين من حيث اعتبار فني الكلام والكتابة سلاحين لازمين للبروز في الحياة العامة وكذلك من حيث حب اللغة لذاتها حباً شديداً يدل عليه في حالة قيصر أمران : وأحدهما هو الرسالة التي ألفها

(43) Cic, ad Att., XVI, 5.
(44) Cf. Cic, ad Fam., XVI, 17.

في قواعد اللغة اللاتينية (de Analogia) ولم تصل إلينا . والأمر الآخر هو نصيحته للكتاب بضرورة الحرص على تفادي استخدام الكلمات النـــادرة الاستعمال حرص الملاح على تفادي الصخور [٤٥]. واذا جاز للباحث أن يتشكك الى أي مدى كان ثناء شيشرون[٤٦] على قدرة قيصر الخطابية ، فإنه يبدد هذه الشكوك إجماع الكتاب المتأخرين[٤٧] ، بما فيهم تاقيتوس[٤٨] وكوينتيليانوس ، على أنه بعد الكفاية التي أظهرها قيصر في إتهام دولابلا في عام ٧٧ ق . م . وصقل مواهبه الخطابية في رودس بتوجيه أبولونيوس مولو — أستاذ شيشرون — أصبح يعد بين أبرز الخطباء . بيد أنه لما كانت خطب قيصر وكل خطاباته تقريباً قد اندثرت ، وكانت شهرته الأدبية ترتكز أساساً على ما كتبه عن حملاته في بلاد الغال وعن الحرب الأهلية ، فإننا نرجىء الكلام عن أسلوبه الى معرض الحديث عن مؤرخي هذا العصر .

ثالثاً — التعليم والعلوم والديانة

ا — التعليم[٥٠] :

كان نظام التعليم عند الرومان في القرن الأخير للجمهورية الرومانية يماثل نظام التعليم الشائع في العالم الهلينيسي . ذلك أنه اذا استثنينا أولئك الذين كان يعلمهم في بيوتهم مدرسون خصوصيون ، كان الصبية ذكوراً وإناثاً ، يتلقون تعليمهم الابتدائي في مدرسة أو أخرى حيث كان يتولى تعليم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب معلم (magister ludi) وضيع المكانة قليـــل الأجر .

(45) Gellius, Noc. Att., I, 10, 4.
(46) Cic., Brutus, 72, 252.
(47) e.g. Sueton., Div. Jul., LV; Plut., Caes., IV.
(48) Tacit., Ann., XIII, 3.
(49) Quintil., Inst. Or., X, I, 114.
(50) A. Gwyn, Roman Education, 1926; H I. Marrou, A History of Education in Antiquity (Eng. Trans.) 1956, pp. 242 ff.; Scullard, 1970, p. 208.

وكان الرومان بفطرتهم العملية يعلقون أهمية كبرى على تعلم الحساب وكان الأولاد الذين تتيح لهم مواردهم الاستزادة من العلم يذهبون الى مدرسة ثانوية حيث كان يقوم بتعليمهم مدرس (grammaticus) أوسع علماً من مدرسهم الأول وإن لم يفضله كثيراً في الأجر . وكان هذا المدرس يدرب تلاميذه على تلاوة أشعار ليفيوس أندرونيقوس وأنيوس وبلاوتوس وترنتيوس وبعض النصوص النثرية مع العناية بالنطق ومخارج الألفاظ ، وإلزام التلاميذ باستظهار فقرات مما قرأوه وبخاصة قوانين اللوحات الإثني عشرة . وكان المدرس لا يبخل على تلاميذه بالتعليق على نقاط أدبية أو فلسفية ترد في سياق ما يقرأونه . وعندما نشر العالم الفقيه فارّو بحوثه العميقة في قواعد اللغة اللاتينية أصبحت دراسة هذه القواعد جزءاً من المنهج في المدارس الثانوية . واذا كان أغلب التلاميذ لا يعرفون الا اللاتينية ، فإن أبناء الطبقة العليا كانوا يتعلمون الإغريقية في بيوتهم على أيدي العبيد الإغريق .

وكان لا يواصل الدراسة بعد المرحلة الثانوية الا أوفر الرومان مالاً وأكثرهم طموحاً وميلاً إلى الثقافة . وكان التعليم العالي يتألف أساساً من دراسة الفلسفة وفن الخطابة . وكان بعض الشبان الرومان يتابعون هذه الدراسة إما في مدينة أو أخرى من المدن الإغريقية التي ذاع صيتها بوصف كونها مركزاً علمياً مثل أثينا ورودس . وأما في روما حيث أن القرار الذي أصدره السناتو في عام ١٦١ ق . م . وقضى بأن يطرد من روما كل الإغريق الذين كانوا يدرسون هناك(٥١) سرعان ما أصبح باطل المفعول وأخذ يتوافد على روما أساتذة إغريق في فن الخطابة وفلاسفة من أتباع المذاهب الفلسفية الإغريقية المختلفة . وقد ظل تدريس الفلسفة وفن الخطابة وقفاً على الإغريق حتى صدر القرن الأول قبل الميلاد ، عندما بدأ بعض الرومان ينشئون مدارس لفن الخطابة اللاتينية . وكانت أهم هذه المدارس هي تلك التي أنشأها لوقيوس بلوتيوس جالّوس (Plotius Gallus) حوالي عام ٩٥ ق . م . بيد أنه في عام ٩٢ ق . م .

(51) Gellius, Noc. Att., XV, 11, 1.

قرر القنسوران الأرستقراطيان دوميتيوس (الكاهن الأكبر) وقراسوس (الخطيب الكبير) إغلاق مدارس فن الخطابة اللاتينية . وفي رأي بعض الباحثين أنه من الجائز أن الباعث على ذلك كان سياسياً وهو أن الأخيـار (Optimates) كانوا لا يريدون أن ييسروا للشعبيين (Populares) السبيل الى إتقان فن الخطابة . وعندنا أن هذا الرأي يسرف في التفسير . ذلك أن الزعماء الشعبيين — وهم الذين كانوا مكمن الخطر الحقيقي على الأخيار — كانوا من الطبقة العليا ولديهم من الثقافة وكذلك من الموارد ما يتيح لهم دراسة الخطابة حيثما شاءوا ، وأما أشياعهم من عامة الناس فإنه لم تكن لديهم القدرة على القيام بمثل هذه الدراسة . ولعل أن الأرجح هو ما يعزوه شيشرون الى قراسوس من أنه في نظر ذلك الخطيب الكبير لم يكن مدرسو الخطابة الرومان أفضل من الدجالين . ومهما يكن من أمر ذلك فإنه لما لم يكن ميسوراً الاستمرار طويلاً في منع المدرسين الرومان من ممارسة تعليم فن الخطابة اللاتينية . فإن هؤلاء المدرسين سرعان ما عاودوا نشاطهم .

وفي خلال ثمانينات القرن الأول قبل الميلاد نُشر باللاتينية كتاب من أربعة أجزاء في فن الخطابة (Ad Herennium)[٥٢] . وهذا الكتاب على هيئة رسالة موجهة الى شخص يدعى جايوس هرنّيوس ، ولكنه لا يعرف على وجه اليقين من الذي ألّف هذا الكتاب الذي عُزي منذ العصور القديمة أحياناً الى شيشرون وأحياناً أخرى — ولعل أن ذلك أصح — الى قورنيفيقيوس (Cornificius) . وعلى كل حال فإن هذا الكتاب في واقع الأمر عبارة عن كتاب مدرسي في أصول فن الخطابة وفقاً للمنهج الإغريقي مع العنايـة باختيار مقتطفات من أتّيوس وبلاوتوس وباقوفيوس ، وفضلاً عن ذلك فإنه لا يعرض للتدريب على الخطابة الموضوعات التقليدية الإغريقية فحسب بل أيضاً موضوعات رومانية منتقاة من المشاكل المثيرة في ذلك الوقت ، مما حدا

(52) Ad Herennium, ed. by H. Caplan (Loeb Class Libr.), 1954.

ببعض الباحثين إلى القول بأن المؤلف المجهول كان يعطف على الشعبيين . وهذا الكتاب يعطينا صورة من المزيج الحضاري الذي اصطنعه الرومان ، ويعتبر خطوة هامة في إرساء قواعد تدريس فن الخطابة اللاتينية وهو الذي أسهمت في تقدمه مؤلفات شيشرون في هذا الفن ، غير أنه يبدو أن تدريس هذا الفن لم يستقر على قواعد مكينة ويزدهر الا في عصر أغسطس .

٢ ـ التبحر في العلم :

ا ـ ستيلو برايقونينوس :

ويعتبر لوقيوس آيليوس ستيلو برايقونينوس (Aelius Stilo Praeconinus ـ ولد عام حوالي ١٥٠ ق . م .) أول العلماء الرومان الذين تبحروا في العلم ، فقد شملت مؤلفاته قواعد اللغة اللاتينية واشتقاق الكلمات والنقد الأدبي ، وذلك فضلاً عن قيامه بنشر مؤلفات أنّيوس وبلاوتوس ولوقيليوس نشراً علمياً مصحوباً بتعليقاته[٥٣] . وكان من أبرز تلاميذه فارّو وشيشرون[٥٤] .

ب ـ ڤــارّو :

واذا كان شيشرون يمثل أرفع مستوى للثقافة في عصره ، فإن ماركوس ترنتيوس فارّو أتاقينوس (Terentius Varro Atacinus ، ١١٦ ـ ٢٧ ق . م .) يعتبر أوسع الرومان علماً في العصور القديمة كافة . ذلك أنه ألف أربعة وسبعين كتاباً في كل فروع المعرفة عند الرومان وبعض هذه الكتب موسوعية في نطاقها . وتتناول مؤلفات فارو الأدب وقواعد اللغة والتاريخ والجغرافيا والطبوغرافيا والديانة والقانون والفلسفة والفن . وأشهر مؤلفاته موسوعة تقع في أكثر من أربعين جزءاً إستعرض فيها فارّو نشأة وتطور

(53) Sueton., Gram., III; Plin., N.H., XXXIII, 29; Gellius, N.A., XVI, 8, 1; Quintil., X, 1, 99.
(54) Cic., Brutus, 56, 205-7.

القانون المدني الروماني والديانة الرومانية (Antiqüitates rerüm humanarum et divinarum) . وقد كانت هذه الموسوعة مصدراً هاماً إعتمد عليه واقتطف منه كثيراً القديس أوغسطين (Augustinus ، ٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) وغيره من دعاة المسيحية .

ومن كل إنتاج فارّو الهائل لم يصل إلينا إلا عدد كبير من الشذرات وكتابان أحدهما في اللغة اللاتينية (de lingua Latina) وضاعت منه فقرات كثيرة ، والكتاب الآخر في الزراعة (Rerum rusticorüm liberi III) وهو أفضل حالاً من الكتاب الأول . ويقع الكتاب الأول في خمسة وعشرين جزءاً تتناول الاشتقاق وقواعد اللغة وتركيب الجمل وصياغة العبارات النثرية والشعرية ومناقشة مختلف النظريات اللغوية في الجناس والطباق . ويتألف الكتاب الثاني من ثلاثة أجزاء ويتخذ شكل الحوار بين فارو وعدد من الشخصيات إختارها المؤلف أساساً بسبب مواءمة أسمائها لموضوع الحوار مثل سقروفا (Scrofa) ومعناه الخنزير ، وكان يوجد فعلاً خبير زراعي بهذا الاسم . وأسماء الشخصيات التي تشترك في الحوار في الجزء الثالث تناسب موضوع هذا الجزء الذي يتناول الحديث عن الطيور والنحل .

وأسلوب فارّو ليس أسلوباً منفراً فهو وسط بين أسلوب قاتو الموجز وأسلوب شيشرون الفياض . وقدرته على حبك الحوار أدنى بكثير من قدرة شيشرون . والشذرات التي وصلت إلينا من أشعار فارّو تدل على أن قدرته على نظم الشعر جديرة بالاحترام . وقد نسج فارّو في نظم أشعاره على منوال الشاعر الإغريقي منيبّوس (Menippus) وهو الذي كان من أتباع الفلسفة الكلبية ويعيش في القرن الثالث قبل الميلاد حين كان الاتجاه السائد بين « الكلبيين » هو التعبير عن تعليقاتهم على المسائل الفلسفية وشئون الحياة العادية بلغة ساخرة . وكان منيبّوس أول أو من أوائل الذين اتخذوا هذا الاتجاه . وكان يمزج بين موضوعاته مثل ما كان يمزج بين النثر والشعر في كتابته . وقد درج فارّو أيضاً على المزج بين النثر والشعر في كتابته الساخرة ، وذلك خلافاً

لما درج عليه الأدباء الرومان الساخرون ، ابتداء من لوقيليوس حتّى يوفنال (Juvenal) ، من الاقتصار أساساً على الشعر في التعبير عن سخريتهم . ومعلوماتنا عن كتابة فارّو الساخرة مستمدة من أسماء الموضوعات وحوالي ٦٠٠ من شذرات هذه الموضوعات التي عالجها في ١٥٠ جزءاً (Saturarum Menippearum libri C L) . والأسماء أحياناً إغريقية، وأحياناً لاتينية ، وأحياناً إغريقية ولاتينية ، وكثير من الشذرات يوحي بأنها عروض مبسطة للفلسفة الكلبية نلمس فيها مزيجاً من المثالية الإغريقية واتجاهات الرومان العملية . ويعلق شيشرون [٥٥] على كتابة فارّو الساخرة بأنه يُقال إن فارّو يزعم أنه يحاكي منيبّوس مع قدر من الدعابة لكي يحبب الدراسات الفلسفية إلى الذين حظهم من العلم محدود، ثم يردف شيشرون ذلك بتهنئة فارّو على ما يتسم به إنتاجه الساخر من تباين الموضوعات، وعرضها عرضاً أنيقاً في كل وزن تقريباً من أوزان الشعر ، والإيحاء بالفلسفة أكثر من تدريسها .

ولا جدال في أن فارّو صاحب فضل لا ينكر في المجهود الهائل الذي بذله لينقل الى مواطنيه أفضل التراث الحضاري الذي جاءت به أثينا وبرجـــام والإسكندرية ، ويضفي على هذا التراث طابعاً رومانياً . بيد أنه كان يفتقر الى العبقرية اللازمة ليجعل من الذخيرة القيمة التي جمعها مصدراً للإلهام . وإزاء المعلومات الهامة التي نستمدها من القليل الذي وصل الينا من كتابة فارّو الساخرة يؤسفنا أشد الأسف إندثار ذلك القدر الهائل مما كتبه أعظم الفقهاء الرومان تعليقاً على الحياة الفكرية المعاصرة ونقداً لطباع الرومان وسلوكهم في عصره . وإذا كان المعاصرون قد وضعوا فارّو على قدم المساواة مع شيشرون من حيث أن كلاً منهما كان في ناحيته أعظم ممثل لعصرهما ، فإن الأجيال المتأخرة فرقت تفريقاً واضحاً بينهما من حيث القيمة الخالدة لكل منهما . ذلك أن فارّو — وإن كانت الأجيال التالية لم تهمل قراءة مؤلفاته وكان قد ترك طابعه على فرجيليوس وعلى النقد الأدبي — كان قليل الأثر

(55) Cic., Acad. Post., I, 2, 8 ff.

بوجه عام في الأدب اللاتيني ، على حين أن مؤلفات شيشرون غدت أعظم نموذج للنثر اللاتيني ورمزاً لأرفع مستوى بلغه الإنتاج الأدبي الروماني في الفكر وفي الأسلوب .

٣ ـ التـــاريخ [٥٦] :

يزخر القرن الأخير للجمهورية الرومانية بعدد كبير من المؤرخين . ويمكن تقسيم هؤلاء المؤرخين ثلاث فئات رئيسية ، تتألف إحداها من أولئك الذين عنوا بكتابة تاريخ روما منذ نشأتها حتى عصرهم ، وتتألف فئة أخرى من أولئك الذين اكتفوا بمعالجة فترة معينة أو موضوع معين من التاريـــخ الروماني ، وتتألف فئة ثالثة من أولئك الذين عنوا بتراجم حياة العظماء .

ا ـ مؤلفو التاريخ العام :

وكان أبرز الذين ينتمون الى الفئة الأولى ثلاثة مؤرخين أو بعبارة أدق ثلاثة من كتاب الحوليات عاصروا بعضهم بعضاً ونشروا مؤلفاتهم حوالي عام ٧٠ ق.م. ونحن لا نعرف هذه المؤلفات إلا من فقرات قليلة وصلت الينا من هذه المؤلفات ، ومما نقله عن هذه المؤلفات وقاله فيها كتاب متأخرون . وهؤلاء الثلاثة هم كوينتوس قلاوديوس كوادريجاريوس (Quadrigarius) وفاليريوس أنتياس (Antias) وجايوس ليقينيوس ماقر (Macer) . والسمعة السيئة التي لصقت بهؤلاء الكتاب الثلاثة مردها أساساً إلى معالجتهم الخيالية لتاريخ روما الباكر . واذا كانت مؤلفاتهم أجدر بالاحترام عند تناولها أحداث الفترات التالية للفترة الباكرة وبخاصة الفترة المعاصرة لهم ، فإنه يعيبها عندئذ الميل الى الثرثرة . وآية ذلك أن أكثر هؤلاء

(56) H. Peter, Historicorum Romanorum Reliquae, 2 vols., 1906-14; Oxford Class. Dict., s.v. Historiography etc.; C.A.H, IX, pp. 763-9, 882-90 ; M.L. Laistner, The Greater Roman Historians, 1947; A H. Mc Donald, Fifty Years of Classical Scholarship, pp. 384 ff.; Latin Historians, ed. by T.A. Dorey, 1966.

الكتاب ثرثرة ــ وهو فالريوس أنتيوس ــ خصص فيما يبدو جزءاً بأكمله تقريباً من أجزاء كتابه التي تزيد على السبعين جزءاً لتناول الكلام عن أحداث كل عام ابتداء من تيبريوس جراكوس .

وقد شهد كوادريجاريوس دكتاتورية صلا ومن المرجح أن يكون قد وصل في كتابة تاريخ روما حتى ذلك الوقت . واذا كان من حيث الزمن ينتمي الى جيل معاصري شيشرون المسنين ، فإنه من حيث الأسلوب ينتمي الى جيل قاتو الكبير بجمله القصيرة وعباراته العتيقة . واذا كان المؤرخ المشهور ليفيوس قد اقتطف كثيراً من كوادريجاريوس، فإنه لم يكن دائماً مرتاحاً الى هذا الاقتطاف . ولما كان كوادريجاريوس قد بدأ كتابة تاريخ روما منذ غزوة الغال ــ أي منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ــ ضارباً صفحاً عن نشأة روما وعهد الملكية والقرن الأول من العصر الجمهوري لافتقار بواكير تاريخ روما الى الأسانيد ــ وهذا اتجاه جليل يستوقف النظر في مؤرخ قديم ــ على حين أن معاصره فالريوس أنتياس بدأ تاريخه منذ نشأة المدينة (ab urbe condita) ، فإنه يبدو أن ليفيوس في معالجة أقدم فترات تاريخ روما سار معصوب العينين وراء أنتياس ولكنه أغفله في الفترات التي أعقبت ذلك عندما كشف أنه غالباً ما يصعب قبول رواية أنتياس ولا سيما الإحصائيات التي تضمنتها . ويبدو أن أسلوب أنتياس كان أقل من أسلوب كوادريجاريوس إتساماً بالصبغة العتيقة .

وأبرز ما يميز حوليات جايوس ليقينيوس ماقر ــ أحد ترابنة العامة في عام ٧٣ ق.م. ــ هو الاعتماد على قوائم الحكام ، وذلك في وقت كان يُهمل فيه عادة الرجوع الى المصادر الأصلية . بيد أن ليفيوس يحدثنا بأن حوليات ماقر غير جديرة بالتصديق حين يمس الموضوع شرف عشيرته .

ب ـ مؤرخو فترات أو موضوعات معينة :

فانّيوس وأسلّيو

وينتمي الى الفئة الثانية مؤرخون كثيرون أقدمهم جايوس فانّيوس (Fannius) وسمبرونيوس أسلّيو (Asellio) ، وكان أولهما أحد قنصلي عام ١٢٢ ق.م. وصنيعة جايوس جراكوس ولكنه كان من أقوى معارضيه في تحرير الإيطاليين ، وكان ثانيهما تريبوناً عسكرياً في حرب نومانتيا في عام ١٣٤ ـ ١٣٣ ق.م. ومعلوماتنا عما كتبه هذان المؤرخان لا تتعدى أن فانّيوس كتب تاريخاً لروما في خلال الجانب الأكبر من النصف الثاني للقرن الثاني قبل الميلاد ، وأن هـذا التاريخ كان يتضمن تصويراً للشخصيات المعاصرة ونصوصاً حرفية لخطبهم ، وأن صالّوستيوس وشيشرون إمتدحا التزام هذا المؤرخ جانب الصدق فيما كتبه ، وأن أسلّيو كتب تاريخاً لروما في الفترة الممتدة من تريبونية تيبريوس جراكوس حتى عام ٩١ ق.م.

سيسنّا

ويأتي بعد هذين المؤرخين من حيث الزمن قورنليوس سيسنّا (Sisenna ، ١١٩ ـ ٦٧ ق.م.) وهو الذي كان برايتوراً في عام ٧٨ ق.م. وكتب تاريخ روما منذ اندلاع لهيب حرب الحلفاء حتى وفاة صلا ، وكان صالّوستيوس وفارّو يعتبرانه حجة ومرجعاً . وقد أشاد شيشرون بغزارة علم هذا المؤرخ [٥٧] غير أن أسلوبه ـ وكان على نمط أسلوب قلايتارخوس ـ لم يحز إعجاب الخطيب الكبير[٥٨] . والواقع أنه لم يكن من شأن ما اتسم به أسلوب سيسنّا من سمات عتيقة تتمثل في استخدام كلمات نادرة وتراكيب شاذة وغير ذلك من الغرائب اللغوية إثارة إعجاب أديب من طراز شيشرون ، وإن أثارت

(57) Cic., Brutus, 64, 228.
(58) Cic., Brutus, 74, 259.

اهتمام فقهاء اللغة المعاصرين ولكن الى حد يقل كثيراً عن اهتمام المتأخرين منهـــم .

صالّوستيوس

وبعد ذلك نلتقي مع جايوس صالّوستيوس قريسبوس (Sallustius Crispus ، ٨٦ – حوالي ٣٤ ق.م.) . وإذا كنا نعرف أنه كان من العامة ، ومن أشد المتحمسين للاتجاهات الشعبية المناهضة لسيطرة النبلاء ، ومن أنصار قيصر الأوفياء ، وأنه كان تريبونا للعامة في عام ٥٢ ق.م. ، فإننا لا نعرف عن يقين متى انتخب كوايستورا واكتسب تبعاً لذلك عضوية السناتو ، وهي التي جرده منها القنسوران في عام ٥٠ ق.م. ويُتهم صالّوستيوس بأن سلوكه الشخصي كان معيباً في شبابه مما كان سبباً في طرده من السناتو ، ولكنه يصعب التحقق من صحة هذه التهمة مثل ما يصعب إتخاذ إخراجه من السناتو دليلاً على صحتها لأنه من الجائز أنه كان للبواعث السياسية دخل في ذلك . وعلى كل حال فإنه في عام ٤٩ ق.م. أعاد قيصر تعيينه كوايستوراً وبذلك استرد عضويته في السناتو . وفي عام ٤٦ ق.م. تولى البرايتورية ثم أُسند اليه في العالم التالي حكم نوميديا عندما حولت الى « ولاية أفريقيـــا الجديدة » . وقد حذا صالّوستيوس حذو غيره من حكام الولايات في جمع ثروة كبيرة شجعته على اعتزال الحياة العامة في عام ٤٤ لينعم بحياة مترفة ويكتب مؤلفاته . ولعل أنه قد نسى عندئذ جشعه في أثناء حكم ولايته فندد بالجشع فيما كتبه ، أو لعل أنه قد كتب من خبرته الشخصية حين قال : « الجشع معناه اشتهاء الثروة وهي ما لا يشتهيها رجل عاقل ، ذلك أن الثراء – كما لو كان مُشرباً بسموم وبيلة – يضفي على أكثر الأجسام والنفوس رجولة طابعاً نسائياً . واشتهاء الثروة لا حد له ولا يمكن إشباعه ، بل إنه لا يمكن إنقاصه سواء بالوفرة أم بالقلة »[٥٩] .

(59) Sallust., B. Cat., XI, 3

وقصره المشهور – وهو الذي عُرف باسم حدائق صالّوستيوس (horti Sallustiani) واجتذب اليه فيما بعد كثيرين من الأباطرة فاعتبروه مسكنهم المفضل – لا يوحي على الإطلاق بأن صاحب القصر الأصلي كان يمارس فضيلتي البساطة والتقشف اللتين أثارتا فيه الإعجاب بالرومان القدامى لتمسكهم بهما ، مما حدا بالكاتب المتأخر ماقروبيوس[٦٠] (Macrobius) الى القول بأن صالّوستيوس كان ناقداً شديداً للحياة المترفة التي يحياها غيره .

ومؤلفات صالّوستيوس التي لا يرقى الشك الى أنه صاحبها تتألف من كتيبين وصلا الينا كاملين ومن كتاب في خمسة أجزاء لم يصل الينا منها الا أربع خطب وخطابين وبعض الشذرات . واسم أحد الكتيبين « في مؤامرة قاتيلينا » (de Catilinne coniuratione) وإن درج الكتاب منذ كوينتيليانوس على تسمية هذا الكتيب « حرب قاتيلينا » (Bellùm Catilinae أو Bellum Catilinarum) . واسم الكتيب الآخر « حرب يوجورتا » (Bellum Jugurthinum) ، واسم الكتاب الكبير « التواريخ » (Historiae) .

ولعل أن مرد قيام صالّوستيوس بكتابة مؤلفه الأول الى أنه في عام ٤٢ ق. م. نُشر من أوراق شيشرون كتيب (de consiliis) إتّهم فيه قيصر بأنه كان المدبر الحقيقي لمؤامرة قاتيلينا مما حدا بصالّوستيوس الى تبرئة ذكرى ولي نعمته وزعيمه من هذا الاتهام الذي يُرجح أنه كان باطلاً . واذا كان صالّوستيوس قد عُني في هذا الكتيب بتبديد الشكوك التي حامت حول تواطؤ قيصر مع قاتيلينا ، فإنه عُني كذلك بتمحيص العوامل الدفينة التي أفضت الى قيام أوضاع بالغة السوء فتمخضت عنها شخصية كريهة مثل شخصية قاتيلينا . وخرج المؤلف من دراسته بأنه لم يكن في وسع أحد غير قيصر علاج تلك الأوضاع التي أدى اليها فساد حكم النبلاء . والصورتان الرائعتان اللتان رسمهما المؤلف لشخصيتي قاتو الصغير وقيصر[٦١] تنم عن

(60) Macrob., Sat., II, 41.
(61) Sallust, B.C., LIV.

اتساع أفق تفكير صالّوستيوس . بيد أنه لا يتفق والحيدة الّتي زعم هذا المؤرخ [٦٢] أنه توخاها : إسرافه في النيل من قاتيلينا، وإطراؤه الباهت على شيشرون ، وهو ضرب من الإطراء لا يتمشى وقول المؤرخ نفسه أنه كان من حسن حظ روما أنها ولدت من جديد في عهد قنصلية شيشرون [٦٣] . وهذا الكتيب بوصف كونه تاريخاً يعيبه الانحراف في عدة مواضع عن الموضوعية وجادة الصواب .

وبرغم أن موضوع الكتيب الثاني هو « حرب يوجورتا » وهي الّتي كانت نوميديا مسرحها ، وأن صالّوستيوس كان يعرف نوميديا معرفة وثيقة فقد عُين حاكماً عليها بعد مصاحبته قيصر في حملته الأفريقية ، فإن الكتيب يفتقر إلى الدقة ليس فقط في التواريخ والمعلومات العسكرية بل أيضاً في مواقع الأماكن . وقد اتخذ المؤلف من وصف هذه الحرب خلفية لمتابعة حملته على سوء حكم النبلاء ولتناول سيرة ماريوس منذ مقتبل حياته . ومن الواضح أن القصد من ذلك هو أن يبين المؤلف كيف أن لون الحياة الّتي شقها ماريوس لنفسه كان لا بد من أن ينتهي به الى مكان الصدارة في الدولة ، وأن يكشف كيف أن « رجلاً جديداً » (novus homo) أنقذ الدولة من الهوة السحيقة الّتي دفعها اليها قصور النبلاء وعجزهم وفساد حكمهم . وإنه لمما يثير الدهشة أنه برغم إعجاب صالوستيوس الشديد بماريوس فإنه لا يمدنا بمعلومات وافية عن الفترة التي تولى فيها هذا البطل القيادة العليا وأنهى الحرب بقدر ما يمدنا عن الفترة السابقة لذلك، وأن المعلومات الدقيقة الّتي يمدنا بها عن فترة قيادة ماريوس لا تخص هذا القائد وانما تخص مساعده صلا . بيد أنه من الإنصاف لصالّوستيوس يجب أن نقرر أنه برغم ميوله الشعبية آخذ الشعبيين (populares) على إساءة استخدام حريتهم مثل ما آخذ الأخيار على استغلال سلطتهم [٦٤] . واذا استثنينا الاستطرادات الّتي أشرنا اليها ، فإن

(62) Sallust., B.C., IV, 2.
(63) Sallust., B.C., XXVI; XXXI; XLIII.
(64) Sallust., B.J., XLI.

هذا الكتيب تاريخ موضوعي ، وعلى هذا الاساس يعتبر أفضل من الكتيب الأول .

والبقايا التي وصلت الينا من كتاب « التواريخ » توحي بأن صالّوستيوس عمد الى استكمال التاريخ الذي بدأه سيسنّا منذ اندلاع حرب الحلفاء الإيطاليين وتابعه حتى وفاة صلا ، ذلك أن صالّوستيوس بدأ كتابه منذ عام ٧٨ ق.م. وتابع عرض أحداث التاريخ الروماني تفصيلاً ، في الداخل وفي الخارج ، حتى وصل في الجزء الخامس من كتابه الى عام ٦٧ ق.م. ولما كان صالّوستيوس قد بدأ في إعداد كتابه في أوائل ثلاثينات القرن الأول قبل الميلاد، وكان قد توفي حوالي عام ٣٤ ق.م. فإنه من المحتمل أن يكون الموت هو الذي حال دون إكمال كتابه بالوصول به على الأقل حتى مصرع قيصر في عام ٤٤ ق.م.

وتوحي مؤلفات صالّوستيوس بأن النموذج الذي كان له أبلغ الأثر فيه هو المؤرخ الإغريقي الفذ توقوديدس (Thucydides) صاحب تاريخ « الحرب البلوبونيزية » . ذلك أن صالّوستيوس حاول محاكاة نموذجه الفذ في أسلوبه البليغ بإيجازه ، وفي تأملاته المتعددة سواء في المقدمة أم بين ثنايا عرض موضوعاته ، مثل ما حاول محاكاته أحياناً في الوصف النابض بالحياة ودواماً في إغفال شأن النذر وغيرها من الظواهر الطبيعية ، وفي إثبات نص الخطب التي ألقيت في بعض المناسبات . ولا جدال في أن الخطب التي أوردها صالّوستيوس ، شأنها شأن الخطب التي أوردها توقوديدس ، لم تكن هي ذات الخطب التي ألقاها أولئك الذين أجريت على لسانهم ، بيد أنه لا جدال كذلك في أنها كانت تلائم المناسبات التي ألقيت فيها وتتفق واتجاهات الذين ألقوها . غير أنه مما يجدر بالملاحظة أن خطب صالّوستيوس كانت من الطراز الشائع المفضل لدى مدارس الخطابة . ولعل أن الحفاظ على خطب كتاب « التواريخ » يرجع الى كونها نماذج مستحبة لفن الخطابة .

واذا كان كوينتيليانوس[٦٥] قد ذهب الى حد اعتبار صالّوستيوس

(65) Quintil., Ins. Or., X, 1, 101.

صنوا لتوقوديدس ، فإن سنقا [٦٦] (Seneca) يحدثنا عن نقد ليفيوس المرير لعمل صالّوستيوس . ولا جدال في أن صالّوستيوس قد حظا بكتابة التاريخ عند الرومان حظوتين الى الأمام ، وذلك بتخليه عن طريقة كتاب الحوليات وبرفعه المستوى الأدبي لكتابة التاريخ باللاتينية ، وبذلك شق الطريق الذي مهده ورصفه ليفيوس وتاقيتوس . بيد أن صالّوستيوس لم يبلغ المستوى الرفيع الذي بلغه توقيديس قبل ذلك بأربعة قرون سواء من حيث الحيدة أم تحري الدقة أم رصانة الأسلوب أم عمق التحليل .

جايوس يوليوس قيصر [٦٧]

والآن نلتقي مع جايوس يوليوس قيصر بوصف كونه مؤرخاً كتب سيرة الحملات التي خاضها في بلاد الغال [٦٨] (de Bello Gallico) وسيرة الحرب الأهلية [٦٩] (de Bello Civili) . ويقع الكتاب الأول في سبعة أجزاء أضاف إليها أولوس هيرتيوس (أحد ضباط قيصر) جزءاً ثامناً ، ويقع الكتاب الثاني في ثلاثة أجزاء . واذا كان من الجائز أن قيصر هو الذي كتب تاريخ « حرب الإسكندرية » (Bellum Alexandrinum) ، فإنه من المؤكد أن تاريخ حملته الأفريقية (de Bello Africo) وتاريخ حملته الإسبانية [٧٠] (de Bello Hispaniensi) كانا من عمل غيره .

ومنذ العصور القديمة حتى اليوم تختلف وجهات نظر النقاد في القيمة التاريخية لكتابي قيصر . ذلك أن البعض يعتبرهما جديرين بالوثوق بهما

(66) Seneca, Contr., IX, I, 14.

(67) M. Rambaud, L'Art de la déformation historique dans les commentaires de César, 1953; J.P.V Balsdon, J.R.S., 1955, pp. 161 ff.; Frank E. Adcock, Caesar as a Man of Letters, 1956; A.N. Sherwin-White, J.R.S., 1958, pp. 188 ff.

(68) De Bello Gallico, Trans. by J. Edwards (Loeb Class. Libr.) 1952.

(69) De Bello Civili, ed. and Trans. by Pierre Fabre, vol. I (Livres I et II) 1968, vol. II (Livre III), 1969 (Guillaume Budé).

(٧٠) للاطلاع على النص اللاتيني والترجمة الانجليزية لتاريخ الحروب الثلاث الأخيرة ، انظر :
A. G. Way, Loeb Class. Libr., 1955.

والاعتماد عليهما . والبعض الآخر يرفض ذلك رفضاً تاماً . والبعض الثالث يبدي رأياً وسطاً لعل أنه أدنى إلى القبول من الرأيين الأول والثاني . وفحوى هذا الرأي هو أن قيصر بعزوفه عن الإشادة بأعماله العسكرية ، وبسخائه في تقدير جهود مساعديه ، وبتوخيه الموضوعية ، جدير بالثقة به مما يبعث على قبول أغلب ما أورده عن حملاته الغالية وكذلك تفاصيل الأحداث العسكرية في الحرب الأهلية . بيد أنه من الجلي أنه كما عرض الموضوع في سرد حملات بلاد الغال على نحو يدفع عنه تهمة القيام بهذه الحملات خدمة لأغراضه الخاصة ويثبت أنه لم يكن هناك مفر من ضرورة القيام بهذه الحملات عرض كذلك مبررات الحرب الأهلية وجوانبها السياسية من وجهة نظره ، مما يقتضي تمحيص ذلك كله تمحيصاً دقيقاً .

ويتسم أسلوب قيصر في مؤلفيه وبخاصة في « مذكراته » عن حملات بلاد الغال بالوضوح والبساطة الأنيقة مما جعل هذه المذكرات في العالم الحديث كتاباً مدرسياً أساسياً لكل من يتعلم اللاتينية . واذا كان هذا الكتاب لم يصبح على الإطلاق كتاباً مدرسياً سواء في روما أم في العالم الروماني بأسره ، فإن مرد ذلك الى عزوف قيصر عن الأسلوب الخطابي .

أسينيوس بولّيو

وكان أسينيوس بولّيو (Asinius Pollio ، ٧٦ ق. م. — ٥ م) من أنصار قيصر وحارب معه ثم مع أنطونيوس ضد قتلة الدكتاتور وتولى القنصلية في عام ٤٠ ق.م. وعندما أقام أغسطس نظام حكم المواطن الأول على أشلاء النظام الجمهوري إعتزل بولّيو الحياة العامة وقصر نشاطه على المجال الأدبي ، وكان ناقداً أدبياً لاذعاً بقدر ما كان خطيباً بارعاً [٧١] . وقد وجد عندئذ الفرصة لكتابة تاريخ روما منذ عام ٦٠ ق.م. حتى مصرع قيصر فيما يرجح

(71) Quintil., Inst. Or., XII, 10, 11; 11, 28 et passim.

وقد اعتمد بلوتارخ وأبيانوس على هذا الكتاب الذي لم يصل الينا . ويبدو من نقد بولّيو لأسلوب شيشرون(٧٢) أنه كان من أتباع الأسلوب الأتيقي .

ويحدثنا سويتونيوس(٧٣) بأن بوليو يرى أن مذكرات قيصر يشوبها الإهمال وعدم تحري الدقة لأنه في أحوال كثيرة كان مستعداً لتصديق ما يرويه الآخرون عما قاموا به ، ولأنه قلب الحقائق فيما يخص ما قام به هو إما عن قصد وإما عن نسيان فيما يحتمل ، وأن قيصر كان ينوي مراجعة مذكراته وإعادة كتابتها . ويبدو من القليل الذي نعرفه عن بوليو بوصف كونه مؤرخاً أنه توخى الإنصاف فيما كتبه فهو برغم صلته الوثيقة بقيصر لم يُعفِ كتابته من النقد، وبرغم خصومته السياسية لشيشرون وبروتس وقاسيوس لم يغمطهم حقهم من التقدير .

ج ــ مؤلفو التراجم :

في أواخر عصر الجمهورية الرومانية نمت فئة مترجمي حياة العظماء . وفي مقدمة هذه الفئة يأتي فارّو فقد وضع مؤلفاً (٧٤) (Hebdomades vel de imaginibus) في خمسة عشر جزءاً عن تراجم حياة العظماء من الإغريق والرومان . ويحدثنا بلينيوس(٧٥) بأن هذا الكتاب زُين بسبعمائة صورة للشخصيات التي تناول فارّو الكلام عنها . ويبدو أن هذا الكتاب كان بالغ الأثر في الاهتمام بهذه الناحية من التاريخ .

وقد كان إمام مؤلفي التراجم الذين اقتفوا أثر فارّو وأبرزهم جميعاً قورنليوس نبوس(٧٦) . ولا نعرف عن حياة نبوس أكثر من أنه كان مثل فاتولّوس من أبناء غاليا هذه الناحية من الألب وصديق هذا الشاعر وكذلك من المقربين الى شيشرون وأتّيقوس . ويحتمل أن نبوس ولد في مطلع القرن الأول قبل

(72) Tacit., Dial., XXI, 13.
(73) Sueton., Div. Jul., LVI, 4.
(74) Gellius, Noc. Att., III, 10, 1.
(75) Plin., N.H., XXXV, 11.
(76) Cornelius Nepos, Trans. by John C Rolfe, 1966 (Loeb Class. Labr.).

الميلاد وعاش حتى حوالي عام ٢٤ ق.م. ويبدو أنه وفد على روما في صدر حياته وقضى فيها الجانب الأكبر من عمره ، وأنه كانت لديه موارد خاصة ؛ وأنه لم يشترك في الحياة العامة بل كرس وقته للنشاط الأدبي . وإذا كان نبوس قد صنف سجلاً موجزاً بأهم الأحداث في تاريخ الإغريق والرومان (Chronica) ، ومجموعة من النوادر (Exempla) ، ونظم كثيراً من الأشعار الغرامية ، فإن أهم ما اشتهر به وكذلك أهم ما يعنينا في هذا المقام هو تراجمه . وقد وضع نبوس كتاباً عن مشاهير الرجال (De Viris Illustribus) في ستة عشر جزءاً[٧٧] قسمها الى ثماني مجموعات اختص كل مجموعة منها بفئة بعينها من الرجال وجعل كل مجموعة تتكون من جزءين يتناول أحدهما جماعة من الشخصيات الأجنبية ويتناول الجزء الآخر جماعة مماثلة من الشخصيات الرومانية . ويبدو أن هدف نبوس من وراء هذا التقسيم كان المقارنة بين الشخصيات الرومانية البارزة من كل فئة وما يقابلها من الشخصيات الأجنبية وذلك على غرار ما فعله بلوتارخ فيما بعد . واذا كنا نعرف من نبوس نفسه[٧٨] ومن سويتونيوس[٧٩] أن أربعاً من هذه الفئات هي فئات القواد والمؤرخين والملوك والشعراء، فإن أمر الفئات الأربع الأخرى غير مؤكد ، بيد أنه من المحتمل أنها كانت فئات : الفلاسفة والخطباء ورجال السياسة وفقهاء اللغة .

ومن كل هذا الكتاب الضخم لم يصل الينا الا جزء واحد هو « كتاب في الممتازين من قواد الشعوب الاجنبية » (Liber de excellentibus ducibus exterarum gentium) وترجمتان لحياة شخصيتين اثنتين من الجزء الخاص بتراجم حياة المؤرخين الرومان (de historicis Latinis) . وفي الكتاب الأول يعرض نبوس في إيجاز سير حياة اثنين وعشرين قائداً

(77) Cf. Charisius, I, 141, 13 K.
(78) Nepos, X, 3, 2; XXI, 1, 1; XXIII, 13, 4.
(79) Sueton, Vit., Teren., III.

كانوا جميعاً من الإغريق فيما عدا القائد الفارسي داتامس (Datames) والقائدين القرطاجنيين هاميلقار بارقا وهانيبال . وإحدى الترجمتين اللتين وصلتا إلينا من الكتاب الثاني ترجمة لحياة قاتو الكبير ، والترجمة الأخرى لحياة أتّيقوس صديق شيشرون . ومن المعروف أن قاتو الكبير كان أول من كتب تاريخ روما بالنثر اللاتيني وأن أتّيقوس ألف كتاباً يسمى الحوليات (Liber Annalis) كان يتناول تاريخ روما عاماً فعاماً منذ إنشائها حتى عام ٤٩ ق.م. فيما يرجح .

ولعل أن أهم ما تتكشف عنه التراجم التي وصلت الينا مما كتبه نبوس هو ما يأتي :

اولاً — إنه كان لا يحسن استخدام مصادره ولا يخفل بتواريخ الأحداث ، ولا يهون من أمر ذلك اعترافه في ترجمة حياة بلوبيداس (Pelopidas) مثلاً بأنه لا يكتب تاريخاً وانما ترجمة حياة شخص[80] . ثانياً — إنه كان شديد الإعجاب بالشخصيات التي عرض سير حياتها ، وإن هذا الإعجاب أعماه عن نقائص هذه الشخصيات . وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الإعجاب المطلق الخالي من النقد أن ثمار عمله تحولت من تراجم صادقة الى مديح لا يصور الحقيقة كاملة . وخير دليل على ذلك أن سياسة مسايرة الأوضاع ، وهي السياسة التي اتبعها أتّيقوس طوال حياته ليضمن لنفسه السلامة والعافية في عصر زاخر بالصراع الحزبي ، اعتبرها نبوس أرفع درجات الحكمة . ولعل أن مرد ذلك كان من ناحية الى شدة اعتزاز نبوس بعلاقته الوثيقة بأتّيقوس ، ومن ناحية أخرى فيما يبدو الى اتفاقه في الرأي مع أتّيقوس من حيث الإعجاب بالنظام الجمهوري وتفضيله على غيره من النظم ولكن دون الاستعداد لركوب متن المخاطر في سبيل الحفاظ على هذا النظام . ثالثاً — إن أسلوب نبوس أسلوب ركيك ويفتقر الى الطلاوة وان كان يتسم

(80) Nepos, XVI, 1, 1.

بوجه عام بالوضوح وبالميل الى استخدام الجمل القصيرة . وحين يجنح نبوس في بعض الأحيان الى استخدام جمل أكثر طولاً لا يصيب في صياغتها توفيقاً ملحوظاً .

وجملة القول إن دراسة ما وصل الينا من عمل نبوس تدل على أنه كان كاتباً من المرتبة الثانية أنتج عملاً من ذات المرتبة . وتبعاً لذلك فانه اذا كان نبوس قد تأثر بفارّو فإنه لا يجوز اعتباره نداً أو منافساً له بأي حال . ولعل أن يكون تواضع مستوى نبوس السبب الرئيسي في ضياع أكثر إنتاجه الأدبي وفي عدم ورود اسمه في عداد الكتاب الذين أورد كوينتيليانوس ذكرهم بوصف كونهم جديرين بأن يقرأ الدارسون مؤلفاتهم .

٤ ـــ الفلسفة والديانة[٨١] :

منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد كانت الرواقية والأبيقورية أكثر المذاهب الفلسفية الإغريقية انتشاراً بين الرومان وتؤلفان جزءاً من دراستهم العليا . بيد أن الفلسفة الرواقية كانت أكثر قبولاً لديهم ، والسبب الرئيسي في ذلك هو إمكان تطبيق تعاليم هذه الفلسفة على أساليب حياتهم . وقد كان من أبرز أساتذة الفلسفة الرواقية عندئذ باناتيوس (**Panaetius**) الرودسي ، وهو الذي زار روما حوالي عام ١٤٤ ق.م. واكتسب صداقة سقيبيو آيميليانوس ورفاقه . وفي عام ١٤١ صاحب سقيبيو في أسفاره في الشرق .

(81) E.V. Arnold, Roman Stoicism, 1911; M Pohlenz, Die Stoa, 2 vols., 1948; A.J. Festugière, Epicurus and his Gods, 1955; M. L. Clarke, The Roman Mind, 1956; B. Farrington, The Faith of Epicurus, 1967 ; J. Rist, Stoic Philosophy, 1969; F. H. Cramer, The Humanism of Cicero, 1954; W.W. Fowler, Roman Festivals, 1908; The Religious Experience of the Roman People, 1911; F. Cumont, Les Religions orientales dans le Paganisme romain, 4th ed., 1929; A.J. Rose, Ancient Roman Religion, 1949; R.M. Oglivie, The Romans and their Gods, 1969; J. Ferguson, The Religions of the Roman Empire, 1970; R. E. Witt, Isis in the Graeco-Roman World, 1970; Scullard, 1970, pp 211-14 and nn 15-18 p. 441 and n. 14 p 465.

وبعد ذلك دأب مدة طويلة على الإقامة تارة في روما وتارة أخرى في أثينا .

وبفضل توجيهات بانايتيوس أمكن التوفيق بين تعاليم الرواقية واحتياجات رجال الدولة ، ساسة وقواداً . ذلك أن بانايتيوس مدفوعاً بإيمانه بأن واجب الفيلسوف يقتضيه مساعدة الذين يبذلون الجهد لزيادة حظهم من الحكمة والفضيلة دون الطموح الى اكتساب الحكمة من المعرفة الفكرية المثالية وحدها ، وبأن الحياة العامة تفيد من إسهام الحكماء في ممارستها ، تخلى عن التعاليم الرواقية القديمة القائلة بأن الحكمة المستمدة من المعرفة الفكرية المثالية هي وحدها قوام الفضيلة ، مثل ما تخلى عن وجهة النظر الرواقية القديمة التي كانت تنأى بالحكماء عن الاهتمام بالشئون السياسية . وتبعاً لذلك نادى بأن الحكمة يمكن أن تستمد ليس فقط من المعرفة الفكرية المثالية بل أيضاً من التمرس بالحياة العملية ، وأنزل الحكماء من أبراجهم العاجية ليعنوا بحاجات مجتمعهم ، ويشاركوه عواطفه الإنسانية من حب وولاء ، بل أيضاً لتولي زمام القياد .

وبتوفيق بانايتيوس بين مبادىء الأخلاق الرواقية واحتياجات رجال الدولة الرومانية أعطى مصادقة فلسفية لكثير من مميزات الخلق الروماني مثل الجد (gravitas) والشعور بالواجب نحو الآلهة والدولة (pietas) . وقد رفض بانايتيوس كثيراً من الظواهر الدينية الشعبية . ولكنه كان يعتبر الديانة وسيلة بالغة الأهمية في قبضة الحاكم للسيطرة على الجماهير . وبتشبيهه وجوه النشاط العقلي بوجوه النشاط السياسي التي كان الواجب يقتضيها والدين يقرها ازداد ازدياداً كبيراً تأثير مبادىء بانايتيوس على أفضل عناصر الأرستقراطية الرومانية . وكان من أبرز أتباعه من رجال الجيل القديم في هذا العصر سقيبيو آيميليانوس وبوبليوس روتيليوس روفوس وجايوس لايليوس والكاهن الأكبر كوينتوس موقيوس سقايفولا . وقد ساعد بوسيدونيوس على دعم تعاليم استاذه بانايتيوس فاكتسبت الفلسفة الرواقية كثيرين من رجال الجيل الحديث مثل قاتو الصغير ومارقوس بروتس وكذلك شيشرون وإن

كان يعتبر نفسه أكاديمياً أي من أتباع فلسفة أفلاطون. وتبعاً لذلك كانت للفلسفة الرواقية أثر ملحوظ في الحياة العامة الرومانية.

وفي صدر القرن الأول قبل الميلاد تزعم تدريس الفلسفة الأبيقورية في روما عالمان إغريقيان ممتازان هما فايدروس (Phaedrus) وفيلودموس (Philodemus). هذا إلى أنه عني بنشر تعاليمها وتقريبها الى المفاهيم أمافينيوس (Amafinius) وآخـــرون. واذا كانت الفلسفة الأبيقورية قد فازت بكثيرين من الأتباع الذين وجدوا في تعاليمها الداعية الى الابتعاد عن السياسة سلوى لهم وعزاء عن الحياة العامة الصاخبة، فإنه قد كان من جراء تعاليم هذه الفلسفة أن أثرها في الحياة العامة كان معدوماً. بيد أنه عندما ازداد طغيان قيصر إلى حد أن قاسيوس ورفاقه من أتباع هذه الفلسفة قرروا أن إنقاذ الحرية والنظام الجمهوري يتطلب القيام بنشاط سياسي عنيف، إضطروا الى أن يطرحوا ظهرياً مبادءهم الفلسفية وينزلوا الى معترك الحياة السياسية. وبرغم أن الفلسفة الرواقية كانت أبعد أثراً في الحياة العامة الرومانية وأكثر أتباعاً من الفلسفة الأبيقورية، فإن أحداً من الرواقيين لم يترك لنا رسالة رواقية مثل رسالة لوقرتيوس الأبيقورية.

وقد شق شيشرون لنفسه طريقاً وسطاً بين الفلسفتين الرواقية والأبيقورية كان أقرب الى الأولى منه الى الثانية وأكثر قرباً الى الفلسفة الأكاديمية، القديمة منها والجديدة. وقد اعتمد شيشرون مثل غيره من الرومان اعتماداً كلياً على الإغريق في دراسة الفلسفة إذ أنه درس في صباه أصول الأبيقورية على فايدروس عندما زار هذا الفيلسوف روما قبيل عام ٨٨ ق.م. وأقام فيها فترة قصيرة تولى في خلالها زعامة المدرسة الأبيقورية هناك. ولكن هذه الفلسفة لم تفلح في ضم شيشرون إلى صفوف أتباعها بسبب نفوره من الكثير من مبادئها وبخاصة مبدأها الداعي إلى الامتناع عن المشاركة في الحياة العامة. وأما الرواقية فإنها صادفت هوى كبيراً لدى شيشرون عندما درسها في روما حوالي عام ٨٥ ق.م. على الفيلسوف الإغريقي ديودوتوس (Diodotus)

وبخاصة عندما ذهب الى رودس في عام ٧٨ ق.م. ودرس على بوسيدونيوس — تلميذ بانايتيوس — وكان أعظم الرواقيين في عصره . ولا شك في أن إعجاب شيشرون بأرفع المثل الرواقية يرجع الى ما بثته فيه تعاليم بوسيدونيوس ومؤلفات بانايتيوس . وميل شيشرون الى الدراسات الفلسفية حدا به الى أن يدرس كذلك فلسفة « الأكاديمية الجديدة » على فيلون عندما قدم الى روما في عام ٨٨ ق.م. وعلى أنطيوخوس في أثينا في عام ٧٩ ق.م. وكان هذان الفيلسوفان رئيسي الأكاديمية الجديدة على التوالي ولكنهما كانا يختلفان في وجهة نظرهما من حيث إمكان الوصول إلى المعرفة الصحيحة . ذلك أن أنطيوخوس هجر مذهب الشكية المطلقة وأخذ بوجهة النظر الرواقية القائلة بقابلية وقوع الحواس في الخطأ وكذلك بقدرة العقل على تصحيح هذا الخطأ ومن ثم فإن الوصول الى المعرفة الصحيحة يكون أمراً ممكناً . وأما فيلون فإنه مع التزامه بمذهب الشكية لم يتخذ موقفاً سلبياً بحتاً بل ذهب الى حد التسليم باحتمال الوصول الى المعرفة الصحيحة ، وذلك اعتقاداً منه بأن الاحتمال هاد مأمون في التفكير النظري وفي الحياة العملية ، وتبعاً لذلك فإنه كان يرى أن الاحتمال يجب أن يخلف اليقين المطلق الذي يقول به الرواقيون . وقد أخذ شيشرون بوجهة نظر فيلون لأنها بإتاحتها للمفكر حرية الرأي وكذلك تغييره كانت تتيح لشيشرون منفذاً أميناً في الظروف السياسية العصيبة التي كان يجتازها . وهكذا يبين أن دين شيشرون للفلسفة الإغريقية أمر لا يرقى الشك اليه . فقد كان شأنه في ذلك شأن غيره من رجال الفكر الرومان .

وقد اتجه شيشرون الى التأليف في الفلسفة مرتين إحداهما تحت ضغط المحنة السياسية الداخلية حين اضطرته سيطرة « الحلفاء الثلاثة » الخانقة الى أن يجد متنفساً للتعبير عن آرائه في التأليف فوضع في عام ٥٥ ق.م. كتابه « عن الخطيب » . ثم اتجه الى التأليف في الفلسفة السياسية . ذلك أنه في شهر مايو عام ٥٤ ق.م. شرع في وضع مؤلفه الكبير « في الجمهورية » (De Republica) وبعد ذلك بقليل مؤلفه الكبير الآخر « في القوانين »

(De Legibus) . وقد سبق الحديث عن الكتاب الأول في معرض الحديث عن الخطابة . وقد عكف شيشرون في مؤلفه الثاني على دراسة الدساتير دراسة مستفيضة وخرج من دراسته بأن أفضل أنواع نظم الحكم هو الدستور الروماني كما تصوره شيشرون في عهده الذهبي ، أي قبل عصر الثورات الذي بدأ بتريبونية تيبريوس جراكوس . وذلك بفضل ما كان هذا الدستور ينطوي عليه من توازن بديع بين الملكية ممثلة في القنصلية والأرستقراطية ممثلة في السناتو والديمقراطية ممثلة في الجمعيات الشعبية . وقد أبدى شيشرون في مؤلفه الثالث مقترحاته لإصلاح شئون الدولة . وهذه المقترحات عبارة عن التطبيق العملي للآراء التي عرضها في مؤلفه الثاني . ومن رأي شيشرون أنه لضمان حسن تطبيق الدستور وانتشال الجمهورية الرومانية من الهوة السحيقة التي كانت منزلقة إليها بخطى سريعة يجب أن تكون في الدولة شخصية بارزة تحسم أمورها ببراعة السياسي المحنك وحكمة الفيلسوف .

وكانت المرة الأخرى التي اتجه فيها شيشرون الى التأليف في الفلسفة في عام ٤٥ — ٤٤ ق.م. عندما تلقى أكبر صدمة في حياته بوفاة ابنته المحبوبة تولّيا (Tullia) وحاول أن ينسى أحزانه بالانهماك انهماكاً محموماً في وضع عدد كبير من المؤلفات تتضمن ثمرة دراساته الفلسفية . ويعتبر ذلك العام عام الإعجاز (annus mirabilis) في حياة شيشرون ليس فقط من حيث كثرة المؤلفات التي وضعها عندئذ بل أيضاً من حيث تأثيرها الدائم على آداب الدنيا بأسرها .

وقد كان هدف شيشرون من وراء إصدار هذه المؤلفات إنارة عقول مواطنيه ممن لم تكن لهم قدرة على قراءة مؤلفات الفلاسفة الإغريق بنقل ثمار الفكر الإغريقي إلى اللاتينية . دون أن يستهدف على الإطلاق الدعوة الى مذهب فلسفي من ابتكاره . والواقع أن شيشرون لم يكن فيلسوفاً على جانب كبير من الأصالة . وهو نفسه يعترف صراحة في أحد خطاباته الى أتيكوس[٨٢]

(82) Cic., ad Att., XII, 52, 3.

بأن بعض مؤلفاته الفلسفية على الأقل ليست الا نقلاً عن غيره ، ويردف ذلك بقوله إن إسهامه الشخصي في هذه المؤلفات لا يتجاوز الكلمات ولديه منها فيض زاخر . بيد أنه لكي تدرك هذا التواضع على حقيقته يجب التنويه بأنه عند الرومان كان نصيب المترجم من الفضل يفوق كثيراً نصيبه في العصر الحديث .

ومقدار دين شيشرون إلى الفلاسفة الإغريق يتفاوت تفاوتاً كبيراً تبعاً للموضوع الذي عالجه ، فهذا الدين أكثر وضوحاً في آراء شيشرون في الميتافيزيقا والأخلاق منه في فلسفته السياسية وهي التي تتجلى في أكمل صورة لها في « الجمهورية » و « القوانين » . ولا جدال في أن أفلاطون كان النموذج الذي نسج شيشرون على منواله بيد أنه لا جدال كذلك في أن تعاليم بوسيدونيوس هي التي مكنت شيشرون من أن يكون صاحب الفضل في التطبيق العملي لآراء نموذجه النظرية ، وذلك بنقل جمهورية أفلاطون من عالم المثالية الخيالية الى عالم روما الواقعي . وما أبعد الشقة بين هذين العالمين . ومما يجدر بالملاحظة أن شيشرون لم يكن فيلسوفاً سياسياً متشائماً بدليل أنه حتى أواخر سني حياته عندما بدا أنه فقد الأمل في بقاء النظام الجمهوري الروماني كانت لا تزال تراوده الثقة في أن تتمكن الطباع والتقاليد القديمة (mores antiquii) من إنقاذ الجمهورية مثل ما تمكنت من إطالة حياة روما فعمرت أكثر مما عمرت بلاد الإغريق التي عرفها أفلاطون .

وقد كانت لكل من الفلسفتين الرواقية والأبيقورية إزاء الديانة الشعبية وجهة نظر مختلفة لانبثاق كل منهما عن نظام فيزيائي يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً . ذلك أنه عند الرواقيين لم تكن الآلهة المتعددة الا مظاهر لقوة قدسية عليا تغشى الكون بأسره وتؤثر تأثيراً فعالاً في كل أموره . وعلى هذا النحو استطاع باناتيوس التوفيق بين الرواقية وتعدد الآلهة الرومانية دون الاصطدام بالديانة الرومانية الرسمية وكذلك تفسير تعدد الآلهة وهي التي لم يعد الرومان المتعلمون يؤمنون بها . وقد كان الأبيقوريون يسلمون

بوجود الآلهة ولكنهم كانوا يقولون بأن الآلهة تعيش عيشة وادعة في عالم سماوي ولا تتدخل في شئون البشر أو توثر في حركات الكون ، وذلك لأنهم كانوا يرون أن القوة الحقيقية هي الطبيعة وبما أنها تعمل وفقاً لقوانين ثابتة فإنه لم يكن من شأن الدعاء أو تقديم القرابين التأثير في هذا العمل .

وقد كان الكثيرون من الرومان وبخاصة المتعلمين منهم يرون أن المذاهب الدينية الرسمية فقدت معناها الديني العميق منذ أمد طويل ، وأن العناية بإقامة شعائر هذه المذاهب لم تعد الا وسيلة سياسية القصد منها هو السيطرة على الجماهير باسترضاء مشاعرها لاعتقادها بأن إقامة شعائر المذاهب الدينية الرسمية وفقاً للأصول المرعية يكفل رضاء الآلهة وحسن علاقاتها (pax deorum) مع المجتمع الروماني . بيد أن العبادة البسيطة التي كانت كل أسرة تمارسها في بيتها ظلت محتفظة بقيمتها الدينية على الأقل في نظر أكثر الناس تمسكاً بالتقاليد القديمة .

وعندما فقدت الديانة الرسمية التقليدية قيمتها المعنوية في نظر كثيرين من الرومان ، وجدوا متنفساً لمشاعرهم الوجدانية والدينية في الإقبال على عدد من الطقوس والمذاهب الدينية الشعبية التي وفد بعضها على روما قبل هذا العصر — مثل عبادة الإله التراقي « باكوس » (Bacchns = ديونيسوس) والإلهة الفروجية « الأم الكبرى قوبلى » (Cybeio) والإلهين المصريين « سرابيس » و « إيزيس » — والتي وفد بعضها في أواخر عصر الجمهورية مثل الإله القابادوقي « ما » (Ma) والإله الفارسي « ميثراس » (Mithras). ولما كان كثيراً ما يصاحب إقامة طقوس باكوس وقوبلى ارتكاب كثير من جرائم العنف والتهتك ، فإنه في عام ١٨٦ ق.م. ضرب السناتو بيد من حديد على هذه الظواهر النابية وعمل على تهذيب هذه الطقوس لتوائم تقاليد الرومان وأساليب حياتهم المعتدلة . وقد كان من شأن ذلك أننا لا نسمع ثانية عن عبادة باكوس الا في عهد يوليوس قيصر عندما ظهرت في ثوب أكثر وقاراً واحتشاماً من ذي قبل . وأما عن عبادة قوبلى فإن الوصف المشهور الذي

يطالعنا به لوقرتيوس[٨٣] لطقوسها الصاخبة ينم عن استئنافها سيرتها السابقة واجتذابها اهتمام الرومان . وقد وجدت عبادتا سرابيس وإيزيس أتباعاً في عدد من المدن الإيطالية منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، وفي روما منذ عهد صلا . ويبدو أن هاتين العبادتين صادفتا في روما إقبالاً كبيراً يدل عليه اجتراء أتباعهما على إقامة الهياكل لهما على تل قابيتولينوس مما حدا بالسناتو في أواخر عام ٥٣ ق.م. الى إصدار قرار بهدم هذه الهياكل فاتجه أتباع هاتين العبادتين الى إقامة الهياكل لهما خارج سياج روما المقدس[٨٤] (pomerium). وأما عبادتا « ما » وميثراس فإنها وإن حظيتا بعدد من الأتباع في أواخر عصر الجمهورية إلا أنهما لم تكتسبا أهمية ملحوظة الا فيما بعد .

ومما يجدر بالملاحظة أنه لا أشعار لوقريتوس ولا آراء الفلاسفة نجحت في إقناع الناس وبخاصة الطبقات الدنيا في التخلي عن المعتقدات الخرافية . ولا أدل على ذلك من أن بوبليوس نيجيديوس فيجولوس[٨٥] (Nigidius Figulus) — وكان برايتورا في عام ٥٨ ق.م. وعالماً متبحراً وأحد أتباع الفيثاغورثية الجديدة وهي التي وفدت على روما في خلال القرن الأول قبل الميلاد وكانت تعتقد في تناسخ الأرواح — كتب رسالة هاجم فيها التنجيم وفضح أمر المنجمين وأباطيلهم بعد أن راجت حرفتهم رواجاً شديداً بالرغم من القرار الذي أصدره السناتو في عام ١٣٩ ق.م. وقضى بطرد المنجمين الكلديين من روما .

وقد مهد السبيل لازدهار التنجيم في روما نفوذ بوسيدونيوس هناك واهتمامه بالتنجيم اهتماماً ينم عنه ما وصف به من أنه كان فيلسوفاً منجماً . فقد كان بوسيدونيوس يعتبر التنجيم إحدى النواحي التطبيقية للفلك ، ويعتقد أن قوة عليا تسيطر على الكون بأسره وتربط أجزاءه بعضها ببعض صغيرها

---

(83) Lucretius, II, 624 ff.
(84) Dio Cass., XL, 47, 3-4.
(85) A. Swoboda, P. Nigidii Figuli operum reliquiae, 1889, P.-W.-Kroll, Realencyc.; Oxford Class. Dict., s v

وكبيرها . وقد كان من أثر هذه العقيدة والربط بين التنجيم القدرى والتعاليم الرواقية ذيوع الإيمان بالتنجيم ذيوعاً كبيراً ليس فقط بين المفكرين الذين وجدوا في التنجيم صلة تربط بين السببية البشرية والقوانين الكونية التي تنظم حركات النجوم، بل أيضاً بين الكثيرين الذين لم تستهوهم النظريات العلمية وإنما استهوتهم المشاعر الوجدانية والروحانية التي كان التنجيم يثيرها فيهم .

وبرغم مذهب الشكية الذي كان يدعو اليه رجال مثل لوقريتوس وشيشرون وقيصر ، فإن التنجيم اكتسب ما يماثل الاعتراف به رسمياً عندما اعتُبر أن « المذنب » الذي ظهر – وفقاً لرواية سويتونيوس – لمدة سبعة أيام متتالية قبل الغروب بساعة في أثناء أول حفل للألعاب أقامه أغسطس إجلالاً لذكرى قيصر يمثل وصول روحه الى السماء . وهكذا « لم يُدرج قيصر في عداد آلهة الدولة بناء على قرار رسمي فحسب بل أيضاً بناء على اعتقاد عامة الشعب الروماني »[٨٦] .

وليس في الإمكان أن نقرر الى أي مدى انتشر الاعتقاد في وجود حياة أخرى بعد الموت . ذلك أنه اذا كان الفلاسفة الأكاديميون والأبيقوريون والى حد كبير الرواقيون ينكرون وجود مثل هذه الحياة ، فإن هناك من القوائن ما يشير الى أنه كان يوجد في القرن الأول قبل الميلاد من يؤمنون بالحياة الأخرى بعد الموت . وآية ذلك ما سبقت الإشارة اليه من دعوة لوقريتوس الحارة الى نبذ الخوف من الموت ومن عقاب الآلهة بعد الممات . واذا كانت هذه الدعوة تعكس انتشار الاعتقاد في وجود نوع من الجحيم في العالم الآخر ، فإنه يصعب تقدير مدى انتشار هذا الاعتقاد . وينم عن عدم اقتصار وجود الاعتقاد في حياة أخرى على عامة الناس فقط أن شيشرون مثلاً عندما توفيت ابنته العزيزة قرر الا يقيم لها قبراً بل هيكلاً (fanum) وهو ما ينطوي على ميل الى الاعتقاد في الخلود .

---

(86) Sueton, Div. Jul., LXXXVIII.

(٥) القـــانون [٨٧] :

لعل أن التفقه في القانون كان أبرز نواحي الحياة الفكرية النشيطة التي اتسم بها القرن الأخير في عصر الجمهورية الرومانية . وكان القانون المدني المجال الطبيعي لدراسة الباحثين المتعمقين بقدر ما كانت المحاكم الدائمة (quaestiones perpetuae) أي محاكم الجنايات المسارح الملائمـــة لاستعراض مواهب ألمع الخطباء بحكم اهتمامهم أساساً بالوقائع بوصف كونها المحور الرئيسي الذي تدور حوله القضايا التي يترافعون فيها .

وقد كانت اللوحات الإثنتي عشرة ، بما تضمنته من قوانين جنائية ومدنية صيغت عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد صياغة دقيقة بعبارات موجزة عتيقة ، هي أول عهد الرومان بالقوانين المدونة . ولما كان الهدف من تدوين القوانين ونشرها هو جعلها معروفة للعامة والبطارقة على السواء ، فإن الرومان حرصوا حرصاً شديداً على الحفاظ على قوانين هذه اللوحات وأحاطوها بهالة من القداسة بوصف كونها بمثابة معاهدة بين طبقتي العامة والبطارقة .

وحيثما توجد قوانين وضعية في أي مجتمع آخذ في النمو والتطور ، تواجه الأوضاع الجديدة الناشئة عن ذلك إما بتشريعات جديدة وإما بتطوير في تطبيق القوانين القائمة على هدي ما توحي به التجارب العملية وجهود الفقهاء في تفسير القوانين . وتشير القرائن الى أنه في مجال القانون المدني آثر الرومان الوسيلة الثانية بوجه عام . مما أفضى الى بقاء قوانين اللوحات الإثنتي عشره عدة قرون بوصف كونها الأساس القانوني الرئيسي للمجتمع الروماني . ولا يمكن تفسير هذا الدوام الشكلي لتلك القوانين القديمة الا بأن الرومان أصابوا

---

(87) Heitland, III, pp. 473-8; C.A.H., IX, ch. XXI; F Schultz, History of Roman Legal Science, 1946, Pt. II; H.E. Johwicz, Hisorical Introduction to the Study of Roman Law, 2nd ed., 1952, chs. XII-XVIII; B. Nicholas, An Introduction to Roman Law, 1962; M. Kelly, Roman Litigation, 1966; W. Kunkel, An Introduction to Roman Legal and Constitutional History, 1966; J. Crook, Law and Life of Rome, 1967; Scullard, 1970, pp. 209-11 and n. 14 p. 441.

قدراً كبيراً من التوفيق في استحداث التعديلات اللازمة دون الاضطرار إلى نسخ القوانين القديمة .

وباستثناء إنشاء المحاكم الدائمة وقيام صلا ثم قيصر باستكمال نظامها لم يشهد القانون الجنائي أي تطور أو إصلاح حقيقي قبل عصر الأمبراطور هادريانوس (Hadrianus ، ١١٧ — ١٣٨ م) . وأما في مجال القانون المدني الروماني فإنه أسهم في تطويره عاملان رئيسيان هما تفسيرات فقهاء القانون (iuris prūdentes) أو المستشارين القانونيين (iuris consulti) وبيانات (edicta) البرايتورس وبخاصة برايتورس المدينة (praetores urbani) .

وفي أول الأمر كان تفسير القوانين وقفاً على البطارقة لأن عضوية جماعة الكهنة (pontifices) كانت مقصورة عليهم دون غيرهم ، ولأن الكهنة وحدهم هم الذين كان لديهم من المعرفة ما يسمح لهم بتفسير القوانين . بيد أنه على مر الزمن أسهم في القضاء على هذا الاحتكار عدة عوامل هي :

اولاً — تدوين القوانين ونشرها في اللوحات الإثنتي عشرة عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد .

ثانياً — قيام جنايوس فلافيوس (Flavius) عند أواخر القرن الرابع قبل الميلاد بإصدار كتاب جمع فيه الكثير من التفسيرات القانونية التي أدلى بها الكهنة ، وكذلك الكثير من الأحكام التي أصدرتها المحاكم ، فضلاً عن الإجراءات القانونية الواجب إتباعها عند إقامة الدعوى ، والأيام التي تنعقد فيها المحاكم .

ثالثاً — صدور القانون (Lex Ogulnia) الذي قضى حوالي عام ٣٠٠ ق . م . بفتح أبواب جماعة الكهنة أمام العامة .

وقد كان من جراء تدوين القوانين ونشرها أنها أصبحت معروفة للجميع . كما أنه كان من جراء العمل الجليل الذي قام به جنايوس فلافيوس أن أبواب

دراسة القانون فتحت على مصاريعها أمام الراغبين في هذه الدراسة . وقد ساعد على تشجيع التفقه في القانون أنه عندما سُمح للعامة بدخول جماعة الكهنة وتولى منصب الكاهن الأكبر في عام ٢٥٣ ق . م . رجل قانوني من العامة هو تيبريوس قورونقانيوس (Coruncanius)، أخذ هذا الرجل على عاتقه أن يناقش كافة المشاكل القانونية مع كل من يشاء من المعنيين بدراسة القانون . ولا أدل على مدى إتساع نطاق الراغبين في التفقه في القانون على مر الزمن من أنه في القرن الأخير للجمهورية كان فقهاء القانون ينتمون الى مختلف طبقات المجتمع الروماني . وقد تمخضت دراسات هؤلاء الفقهاء عن ثمار جليلة الشأن هي الآراء والنظريات التي مكنت من بسط مدلول القواعد القانونية التي يتضمنها القانون المدني القديم بحيث يمكن تطبيق هذه القواعد على الحالات الجديدة الناشئة عن تطور الأوضاع في المجتمع الروماني .

بيد أنه مهما تكن القيمة الذاتية للآراء والنظريات القانونية فإنه لا تكون لها قيمة فعلية إلاّ إذا طبقت واكتسبت قوة القانون . فكيف حدث ذلك مما أفضى إلى تطوير القانون المدني الروماني ؟ وهنا يجب التنويه بأن القضايا المدنية كانت تمر بمرحلتين للفصل فيها . ذلك أنه باديء ذي بدء كانت الدعوى تعرض أمام البرايتور مشفوعة بكل البيانات والأدلة اللازمة وفقاً لقواعد الاجراءات التي رسمها القانون بدقة وإلاّ قضى البرايتور بشطب الدعوى . وأما إذا وجد البرايتور أن كل الإجراءات الشكلية قد استوفيت تماماً ، فإنه على ضوء ما عُرض عليه كان يحدد موضوع النزاع ونصوص القانون التي تنطبق عليه ثم يحيل الأمر إلى القاضي (unus iudex) الذي اتفق الطرفان على إختياره — بمعاونة البرايتور — للفصل في النزاع . وكان القاضي فرداً من الشعب لا يشغل منصباً رسمياً إلاّ أنه كان عادة في باديء الأمر أحد أعضاء السناتو وفيما بعد أحد أفراد طبقة الفرسان. وتبعاً لأهمية موضوع النزاع كان يمكن زيادة عدد القضاة إلى حد أنه كانت توجد هيئات قضائية تتألف من مائه قاض (centumviri) . ولما كانت كثيراً ما تنشأ قضايا لا تنطبق على موضوعات

النزاع فيها النصوص الواردة في القانون المدني الروماني ، فإنه عند منتصف القرن الثاني قبل الميلاد صدر قانون (Lex Aebutia) يخول البرايتورس إعطاء القضاة توجيهات للتصرف بموجبها في مثل هذه القضايا . ولما لم يكن البرايتورس بوجه عام من رجال القانون أو على أحسن تقدير لم تكن لديهم القدرة على استنباط القواعد القانونية اللازمة لمواجهة الحالات الجديدة ، فإنهم دأبوا على الإفادة تباعاً من ثمار جهود فقهاء القانون بالأخذ بآرائهم ونظرياتهم وإدماجها في بياناتهم السنوية وفي توجيهاتهم للقضاة . وعلى هذا النحو طبقت كثير من آراء الفقهاء ونظرياتهم واكتسبت بالتدريج قوة القانون ، وتكونت على مر الزمن مجموعة من المبادىء القانونية المستحدثة التي أصبحت جزءاً من القانون القائم . وهكذا أسهم فقهاء القانون والبرايتورس المتتابعون في تطوير القانون المدني الروماني بالتدريج .

وقد كانت الفلسفة الرواقية أسمى المؤثرات الإغريقية الفعالة في الرومان في العهد الأخير للجمهورية . وبفضل ما تضمنته هذه الفلسفة من منطق صوري ومبادىء خلقية إيجابية كانت محببة الى أفضل العناصر الرومانية وبخاصة رجال القانون . فلا عجب أن أغلب كبار المحامين كانوا من أتباع الرواقية . ولما كان مثل هؤلاء الرجال في شغل دائم بإحقاق الحق ورفع الظلم مثل ما كانوا لا يفتأون يواجهون صعوبة التوفيق بين روح القانون ونصوصه ، فإنهم كانوا بوجه عام يميلون الى أن يتسم التطور القانوني بالعدل والإنصاف . ولم تقتصر الخدمة الجليلة التي أداها رجال القانون الرواقيون لوطنهم على ما أسهموا به في تطوير القانون . ذلك أنه وسط الانهيار الخلقي الذي صاحب عصر الثورات ، حين كانت الحياة السياسية مسرحاً للشغب والفساد ، وحين أصبحت الديانة وسيلة للخداع والحيل السياسية ، وحين أضحت الهيئات القضائية في محاكم الجنايات نهباً للرشوة والانحراف عن العدل . وحين كانت المؤلفات الأدبية تصور نقائص الحياة الإجتماعية . وحين كانت الولايات الرومانية مرتعاً للحكام الفاسدين . كانت أزهى وأنقى فترة في حكم الرومان

للولايات في العصر الجمهوري هي الفترة التي تولى فيها حكم ولاية آسيا الفقيهان القانونيان سقايفولا وروتيليوس روفوس ، كما أن المحاكم المدنية كانت أفضل أجهزة الدولة الرومانية . بيد أن هذه المحاكم تعرضت لخطرين كان أحدهما هو تزوير الأدلة والآخر هو تعطيل عملها بسبب الاضطرابات الأهلية . وقد واجهت المحاكم الخطر الأول بكل الوسائل الممكنة التي توافرت لديها . وأما الخطر الثاني فإنه لم يضع حداً له إلاّ إقامة نظام الحكم الأمبراطوري .

وهكذا على حين أن النظام السياسي الذي أُنشىء أصلاً لمدينة روما قد فشل الرومان في تطويره على نحو يجعله صالحاً لحكم أمبراطورية واسعة مترامية الأطراف ، وكانت النتيجة المحتومة لذلك الفشل هي القضاء على النظام الجمهوري الروماني ، نجح فقهاء القانون في تطوير القانون المدني الروماني بخطى وئيدة ولكنها أكيدة فاستطاع مواجهة المتطلبات المعقدة المتزايدة التي تمخضت عنها تطورات الحياة اليومية . ومرد هذا النجاح أساساً الى كفاية فقهاء القانون الرومان وقبل كل شيء الى ما انطوى عليه تطوير القانون المدني من فوائد عملية واءمت فطرة الرومان العملية .

وقد بقي أن نشير في إيجاز يسير إلى نفر من فقهاء القانون الذين برزوا في أواخر العصر الجمهوري والى بعض نواحي نشاطهم . وكان أقدم هؤلاء الفقهاء كوينتوس موقيوس سقايفولا (Mucius Scaevola) . وكان ابن الكاهن الأكبر بوبليوس موقيوس سقايفولا الذي أسدى خدمه جليلة للبحث العلمي في مجالات الدين والتاريخ والقانون بنشره حوليات كبار الكهنة وهي التي زودت قدامى الباحثين في هذه المجالات بمادة غزيرة . وكان كوينتوس مثل أبيه كاهناً أكبر فضلاً عن أنه كان أحد قنصلي عام ٩٥ ق . م . وعندما أولى كوينتوس عنايته إلى الدراسات القانونية نشر أول بحث علمي دقيق في في القانون المدني (Ius Civile) إستعرض فيه كل جوانب القانون الخاص . وقد كان شيشرون أحد تلاميذه ، لأن دراسة قدر من القانون المدني كانت

ضرورية لخطيب ينوي استخدام مواهبه الخطابية في محاكم الجنايات . ويدل عدد من القرائن على أن كوينتوس سقايفولا كان رجلاً شديد المحافظة في تفكيره ، ومثل ذلك أنه حين كان قنصلاً إستصدر هو وزميله ليقينيوس القانون (Lex Licinia Mucia de Civibus regundis) الذي قضى بأن يطرد من روما كل الذين يثبت أنه لا حق لهم في التمتع بالحقوق الرومانية . وقد سبق أن ذكرنا أنه إذا كان هذا القانون من الناحية النظرية عملاً سليماً لا غبار عليه ، فإنه من الناحية العملية كان خطأً سياسياً فاحشاً . بيد أنه كان رجلاً على خلق عظيم واشتهر بجهوده الدائبة على أن يسود حسن النية التعامل بين الناس . وكان حريصاً على استخدام عبارة « بحسن النية » (ex fide bona) في الصيغ القانونية . وعندما كان حاكماً لولاية آسيا ووضع بيانه (edictum) على هذا الأساس وتصرف وفقاً للمبادىء الرفيعة التي ضمنها بيانه ، أثار على نفسه غضب الماليين الرومان لكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه . ويعزى كذلك إلى كوينتوس سقايفولا فضل ابتكار وسيلة قانونية للتغلب على الصعوبات الناجمة عن الوصايا التي كان تنفيذها يتطلب شروطاً يصعب الوفاء بها .

ومن كبار فقهاء القانون الرومان بوبليوس روتيليوس روفوس (Rutilius Rufus) ، وكان مساعداً لسقايفولا في حكم ولاية آسيا وأثار على نفسه نقمة الرأسماليين الرومان بسبب نزاهته واستقامته فدفع ثمن ذلك إدانته ظلماً وعدواناً ، وكانت إدانته فضيحة قضائية خطيرة على نحو ما مر بنا . وكان من أهم أعمال روفوس في مجال الفقه القانوني نجاحه في تحسين الترتيبات اللازمة للوفاء بمطالب الدائنين من ممتلكات المدينين ، وفي الحد من حقوق الراعي (patronus) إزاء عبيده بعد عتقهم .

ويعطينا شيشرون[88] صورة رائعة لفضائل جايوس أكويليوس

(88) Cic, pro Caec, 77-78; Brutus, 42, 154.

جالّوس (Aquilius Gallus) ومهارته القانونية . وإلى جانب التعديلات الفنية التي أدخلها جالّوس على صياغة العبارات القانونية ، إشتهر بابتكار النظرية التي كان من جرائها أن التدليس جُعل (dolus malus) أساساً لإقامة الدعوى على من يرتكبه(٨٩) (iudicium de dolo) .

وكان سرفيوس سولبيقيوس روفوس (Sulpicius Rufus) صديق شيشرون وتلميذ جالّوس ومن فقهاء القانون اللامعين . وبرغم أنه كان خطيباً مجيداً وأحد قنصلي عام ٥١ ق. م . ، فإن مجاله الحقيقي وسبب شهرته كان التفقه في القانون ، وهو الذي تنهض دليلاً عليه كثرة بحوثه القانونية . ويحدثنا شيشرون بأن سولبيقيوس روفوس إستخدم في هذه البحوث درايته الفائقة بالمنطق ، وبأنه بفضل براعته في التحليل وفي التمييز وفي التعميم السليم تمكن من إحلال النظام مكان الفوضى التي كانت تسود التفسيرات القانونية ، وبأنه جعل من درايته بالقانون المدني فناً رفيعاً (٩٠) .

وقد كان من بين تلاميذ سرفيوس روفوس الفقيه أولوس أوفيليوس (Ofilius) وهو الذي كان المساعد القانوني لقيصر وصاحب عدد من البحوث القانونية المشهورة التي تناولت موضوعات كثيرة على جانب كبير من الأهمية ، ولكنه لم تصل إلينا من هذه البحوث إلاّ عدة مقتطفات (٩١) إذا لم تكن بذات عبارات أوفيليوس فإنها على الأقل تتضمن آراءه .

وإذا كان تعريف الإصطلاحات القانونية قد لقي إهتماماً متفاوتاً من رجال القانون جميعاً ، فإن جايوس آيليوس جالّوس (Aelius Gallus) قد وجه إهتمامه الرئيسي إلى هذا الموضوع .

---

(89) Cic., de Nat. Deorum, III, 30, 74; de Off , III, 14, 60.

(90) Cic., Brutus, 41, 152-153.

(91) F.P. Bremer, Iurisprudentiae antehadrianne quae supersunt Teubner, 2 Vols., 1898 and 1901.

رابعاً – الفن [92]

لا جدال اليوم في ثلاثة أمور ، أولها هو أن الرومان لم يتصفوا بما اتصف به الإغريق من مواهب فنية أصيلة ، وثانيها هو أن الرومان أخذوا الفن أول ما أخذوه عن جيرانهم الأتروسقيين الى أن جذبتهم روعة الفنون الإغريقية فوقعوا تحت تأثيرها . والأمر الثالث هو أنه بعد أن أحس الرومان بكيانهم وذاتيتهم أخذوا يضفون طابعهم على ما نقلوه ويودعونه مشاعرهم وخواطرهم . بيد أن معالم الأثرين الأتروسقي والإغريقي ظلت واضحة بدرجات متفاوتة في منتجاتهم الفنية .

١ – فن المعمـــار :

إن معلوماتنا عن المعابد التي شيدت في روما منذ أواخر عصر الملكية حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد لا تتعدى القليل الذي يرويه لنا الكتاب القدماء ، وذلك لسببين وأحدهما هو اتساع نطاق عملية إعادة تشييد المباني القديمة وهي العملية التي بدأها صلا وباشرها بنشاط كبير أغسطس وخلفاؤه . والسبب الآخر هو أنه عند الشروع في هذه العملية كان فن المعمار الروماني قد تأثر إلى حد كبير بفن المعمار الإغريقي . وقد كان أقدم تلك المعابد القديمة وأعظمها معبد الثالوث الرسمي يوبيتر ويونو وميترفا على تل قابيتولينوس ومعبد ثالوث قرس وليبر وليبرا (Ceres, Liber, Libera) بالقرب من مضمار السباق الكبير (Circus Maximus) . ويحدثنا فيتروفيوس (Vitruvius) ، وهو مصدرنا الرئيسي عن فن المعمار الروماني ، بأن

(92) Vitruvius, De Architectura, Trans. by F. Granger, 2 vols. (Loeb Class. Libr.); H.B. Walters, in Harmsworth's Universal History of the World, ch. 68; E. Strong, C.A.H., IX, ch. XXII; G.M.A. Richter, Ancient Italy, 1955, chs III-VI; J.M. Toynbee, The Art of the Romans, 1961; M. Wheeler, Roman Art and Architecture, 1964; H. Kähler, Rome and her Empire, Eng. Trans. by J.R. Foster, 1965; A. Boethius and J.B. Ward-Perkins, Etruscan and Roman Architecture ; Scullard, 1970, pp. 196-9 and n. 1 p. 439.

عمارة هذين المعبدين كانت أتروسقية وتختلف اختلافاً واضحاً من حيث التصميم والطابع والطراز عما هو مألوف في فن المعمار الإغريقي سواء أكان دورياً أم أيونياً . ويجب ألاّ يغرب عن البال أن الطراز القورنثي لا يختلف عن الطراز الأيوني إلاّ في شكل تاج العمود .

ولا جدال في أن أقدم المعابد الرومانية كانت أتروسقية في خصائصها جميعاً ، بيد أنه منذ أوائل العصر الجمهوري بدأت التأثيرات الإغريقية تظهر رويداً رويداً أولاً في الزخارف ثم في الطرز المعمارية . وعلى مر الزمن أصبح الرومان أكثر ألفة وألماماً بالقواعد المعمارية الإغريقية وأكثر ميلاً إلى الاقتباس منها في تشكيل الأعمدة وزخرفتها وتوزيعها حول المباني . ولكنه يجب أن يلاحظ أنه برغم العناصر الإغريقية التي أدخلت على المعبد الروماني فإنه ظل يحتفظ بخصائص تميزه عن المعبد الإغريقي تمييزاً واضحاً . وأهم هذه الخصائص أن المعبد الروماني كان يقف فوق مصطبة مرتفعة ، وأنه كان لا يتوسط المصطبة وإنما يبعد عن مقدمتها بحيث يحاذي جداره الخلفي نهاية المصطبة ، وأن الأعمدة الجانبية — وكذلك الأعمدة الخلفية إذا وجدت — لم تكن عادة أعمدة كاملة تقف منفصلة مثل الأعمدة الأمامية وإنما أنصاف أعمدة تلتصق بالجدارين الجانبيين . ولا يشذ عن ذلك إلاّ معبد واحد فقط من كل المعابد التي كشف حتى الآن عن بقاياها ، وهو معبد روما وفينوس الذي أقيم بجوار الطريق المقدس (Via Sacra) في روما في عهد الأمبراطور هادريانوس . ذلك أنه كان يحيط بكل جوانب هذا المعبد دهليز من الأعمدة الكاملة المنفصلة عن جدران المعبد . ومع ذلك فإنه يميز هذا المعبد عن أي معبد إغريقي أنه كانت توجد به على المحور نفسه قاعتان للعبادة متلاصقتان ولكن كلاً منهما تولي ظهرها للأخـــرى (٩٣) .

ومما يجدر بالملاحظة كذلك أنه عندما إقتبس الرومان من الإغريق الطرز

---

(93) H. Kähler, op. cit., pp 23-4, fig. 2.

الدورية والأيونية والقورنثية أدخلوا على هذه الطرز تعديلين رئيسيين عند استخدامها في منشآتهم . وكان أحد هذين التعديلين في النسب القياسية لهذه الطرز . ولا أدل على مدى التوفيق الذي أصابه الرومان في هذه الناحية من أن النسق الذي إستنبطوه لم يلق قبولاً في عصر النهضة فحسب بل إنه لا يزال في العصر الحديث النسق الذي يستخدم في المنشآت ذات الطرز الكلاسيكية . وكان التعديل الآخر في وظيفة الطرز المعمارية ، ذلك أنه عند الرومان كانت وظيفة هذه العناصر المعمارية عادة وظيفة زخرفية بحتاً ولم تكن وظيفة عضوية مثل ما كانت عند الإغريق .

وتتبين كل الظواهر التي أشرنا إليها آنفاً في معبد فورتينا فيريليس (Fortuna Virilis) ودار السجلات العامة (Tabularium) ، وهما المبنيان الوحيدان اللذان شيدا في روما في خلال القرن الأول قبل الميلاد — في عام ٧٨ — ولا يزالان قائمين ويعطيانا صورة جلية واضحة لفن المعمـــار الروماني بخصائصه المعروفة وهي التي تدل على أن الرومان بعد أن أخذوا عن كل من الأتروسقيين والإغريق عناصر معمارية معينة فرضوا طابعهم الخاص على منشآتهم المعمارية .

ونلمس هذا الطربع الخاص في ثلاث نواح أخرى بلغت ذروتها في عهد الأمبراطورية . وكانت إحدى هذه النواحي هي المعبد المستدير . ويُرجح أنه كان تطويراً للأكواخ المستديرة التي درج الرومان على استخدامها منذ فجر تاريخهم وكشف عن معالمها فوق تل بالاتينوس .

وكانت الناحية الثانية هي عبقريتهم في استخدام العقود لحل المشاكل الإنشائية ، مما يسر عليهم الإتساع أفقياً وعمودياً في إقامة منشآتهم مثل المسرح وأسوار المدن ، وذلك فضلاً عن إقامة المنشآت الرومانية الأصيلة مثل المجتلد (amphitheatrum) وأقواس النصر والجسور وقنوات المياه المرتفعة .

وكانت الناحية الثالثة هي البراعة في تصميم المنشآت حيث بلغوا مستوى

لم يعرفه الإغريق إطلاقاً . وهذه البراعة لا تتمثل في تعدد أنواع التصميم فحسب بل أيضاً في طريقة تصميم المبنى المكون من عدة أجزاء رئيسية بحيث تؤلف هذه الأجزاء وحدة مترابطة يسهل التنقل فيها من جزء إلى آخر ، وخير مثال لذلك الحمامات والمسارح . ومما يجدر بالملاحظة هنا أنه عندما أخذ الرومان المسرح عن الإغريق أدخلوا عليه من التطورات ما خلع عليه طابعاً مميزاً يبدو بوضوح في ثلاث ظواهر رئيسية وهي : ١ — أن أماكن المتفرجين كانت لا تستند الى جوانب الجبل وإنما كانت تشيد على مجموعة من العقود . ٢ — أن الجزء الخاص بالتمثيل وغرف المثلين إزداد تعقيداً كما ازدادت جدرانه إرتفاعاً بحيث أصبحت تصل إلى مستوى أعلى صف من صفوف مقاعد المتفرجين مع تزيين الواجهة المقابلة لهذه المقاعد بصفوف من الأعمدة تقف فوق بعضها بعضاً . ٣ — أن مختلف أجزاء المسرح أصبحت مترابطة بعضها ببعض بحيث تكون وحدة متماسكة .

ولم يول المعماريون الرومان إهتمامهم إلى وحدة الترابط في التصميم بين أجزاء المبنى الواحد فحسب بل أيضاً إلى وحدة الترابط في تصميم مجموعات مختلفة من المنشآت ومثل ذلك المجموعة المؤلفة من الفوروم وما يحيط به من مبان عامة دينية ودنيوية، والمجموعة المؤلفة من معبد وحمام وباسيليقا .

وهذا التفوق الذي امتاز به الرومان على الإغريق في التصميم يرجع أساساً فيما يبدو إلى عاملين رئيسيين . أحدهما هو أن الرومان كانوا يمتازون عن الإغريق باتجاهات عملية في كل نواحي تفكيرهم . والعامل الآخر هو أن المنشآت الدينية ، أي المعابد ، كانت تحتل مكان الصدارة عند الإغريق ، وأن المشاكل الإنشائية في المعابد كانت بسيطة نسبياً ، وأن المعماريين الإغريق وجهوا جل تفكيرهم إلى حل هذه المشاكل ، على حين أنه عند الرومان كانت المنشآت الدنيوية المتعددة الأنواع لا تقل شأناً عن المنشآت الدينية . وقد استخدم الرومان عبقريتهم في حل المشاكل الإنشائية التي واجهتهم . وتدل

النتائج التي توصلوا إليها على أن جهودهم كللت بنجاح باهر .

وقد كانت للرومان ثلاثة أنواع رئيسية من دور الإقامة وهي قصور الأثرياء وبيوت الطبقة الوسطى ومساكن الفقراء . وكانت قصور الأثرياء دوراً رحبة تهيء لسادتها كل أسباب الراحة والمتعة بوفرة الغرف والحمامات ودورات المياه وكل مظاهر الأناقة والترف المتمثلة في مواد البنــاء والأعمدة والصور الحائطية ومختلف أنواع التحف ، فضلاً عن عدد كبير من الغرف للخدم والعبيد . ويبدو الأثر الإغريقي في بهو الأعمدة (peristylum) وكان يقام إما في الحديقة وإما حول نافذة دخول مياه المطر (impluvium) لحمل سقف القاعة الكبرى (atrium) المائل إلى الداخل ، وإما في هذين المكانين معاً ، وإما في بعض الحالات بدلاً من القاعة الكبرى . بيد أن الطابع العام لعمارة هذه القصور كان رومانياً .

وكان أبرز ما يميز بيوت الطبقة الوسطى القاعة الكبرى الأمامية (atrium) ، وكانت تؤدي إلى بهو (tablinum) تصطف عادة باقي الغرف على جانبيه . وفي هذا العصر درج كثيرون على إنشاء حوانيت في واجهة القاعة الأمامية المطلة على الشارع . وكانت هذه البيوت رومانية ولا يبدو الأثر الإغريقي إلا في البيوت التي كان يقام فيها بهو أعمدة حول نافذة المطر في سقف القاعة الكبرى .

وقد تطورت أغلب مساكن الطبقة الفقيرة من مبان تتألف من صفوف من الحوانيت تقع خلفها أو فوقها مساكن أربابها إلى عمائر كبيرة دعاها الرومان « جزراً » (insulae) . وكان الطابق الأرضي يتألف من واجهة أمامية غاصة بالحوانيت ويقع خلفها فناء كبير تؤدي إليه مداخل من الشارع ، وتحيط بالفناء دهاليز تؤدي إلى عدد كبير من الغرف . وكانت تقع فوق الطابق الأرضي عدة طوابق مماثلة إلاّ من حيث أنه في الطوابق العليا تخلف حوانيت الطابق الأرضي غرف كان يُحشر فيها مثل ما يحشر في غيرها أكبر عدد ممكن من التاعسين . وإذا كان التوزيع الداخلي لهذه العمائر البائسة إغريقياً فإن طابعها

الروماني يبدو جلياً في تعدد الطوابق وفي الواجهة الأمامية بنوافذها .

وفي هذا العصر أخذ يزداد بالتدريج إستخدام مواد للبناء أفضل من المواد القديمة وهي التي كانت عبارة عن الخشب واللبن والمواد البركانية . فقد أخذ يخلفها رويداً رويداً استخدام أحجار جيرية من تيبور (Tibur) ورخام من قارّارا (Carrara) في شمال إيطاليا ومن الخارج . ومنذ حوالي عام ١٠٠ ق. م. أخذ يزداد باطراد استخدام الأبرق (الخرسانة) في إقامة الجدران الداخلية مع تغطية سطحها بلوحات صغيرة من نوعين من الأحجار يختلف لون الواحد منهما عن الآخر . وفي أول الأمر كانت هذه اللوحـــات غير منتظمة الشكل (opus incertum) وفيما بعد إتخذت اللوحات شكل مربعات أو معينات وكانت تُرص صفوفاً بحيث لا تتجاور أفقياً أو عمودياً قطعتان من ذات اللون (opus reticulatum) .

٢ ــ فن النحت :

منذ ازدياد ثروة الرومان في أعقاب فتوحاتهم الواسعة أخذ ميلهم إلى إقتناء الكنوز الفنية يزداد باطراد حتى بلغ ذروته في خلال القرن الأخير للجمهورية . وعندما نفدت الكنوز القديمة التي كان يمكن نهبها أو شراؤها أشبع الفنانون المعاصرون ــ وكان أغلبهم من الإغريق ــ نهم الرومان بإحدى وسيلتين : إما بعمل نسخ مطابقة تماماً للتماثيل القديمة الأصلية ، وإما بمحاكاة مبتكرات مثال أو آخر من مشاهير المثالين الإغريق القدماء دون التقيد بمدرسة معينة من مدارس الفن الإغريقي أو بفترة زمنية دون أخرى من فترات هذا الفن . ولم يقتصر أمر ذلك على التماثيل الرخامية بل شمل أيضاً التماثيل البرونزية الصغيرة والآنية الفخارية والزجاجية ولوحات الجص والأحجار النفيسة أو شبه النفيسة المزينة بنقوش . وإذا كان بعض هؤلاء الفنانين آثروا البقاء في مدنهم الإغريقية فإن بعضهم الآخر انتقلوا إلى روما .

ولعل أن تكون تسمية هذا الفن « الفن الإغريقي الروماني » أقرب إلى الصحة من غيرها . ولما كانت تتمثل في هذا الفن إتجاهات مختلفة لا تتصل ببعضها بعضاً فنياً أو زمنياً وذلك لأنه كان فناً إنتقائياً ، فإنه عند دراسة هذا الفن لا يمكن تبين مدارس ذات اتجاهات محددة ولا فنانين ممتازين لكل منهم طرازه الخاص ولا تطوراً مستمراً يتبعه تدهور ، على نحو ما نتبين في دراسة الفن الإغريقي . وأبلغ من ذلك أنه كثيراً ما يصعب على الخبير المدرب أن يحدد بالضبط تاريخ مثل هذه التماثيل بل إنه لا تتيسر دائماً التفرقة بينها وبين التماثيل الإغريقية المتأخرة أو الهلينيسية .

وتبرز الشخصية الرومانية بجلاء في فرعين من فروع فن النحت . وأحد هذين الفرعين هو التماثيل – الكاملة منها والنصفية – التي تصور الخصائص الفردية تصويراً ناطقاً واقعياً . ولا جدال في أن الرومان يدينون في هذا المجال إلى الأتروسقيين وهم الذين أخذوا عنهم هذا الفن الواقعي . وكذلك إلى الإغريق وهم الذين أخذوا عنهم أحياناً المثالية التي اتسم بها الفن الإغريقي حتى في تماثيل الأفراد حيث لم يُعن المثالون الإغريق بتصوير الملامح الشخصية قدر عنايتهم بتصوير الخصائص التي تنم عن نمط أو آخر من الناس . وتبعاً لذلك إذا كانت غالبية التماثيل التي صنعها المثالون الرومان للأفراد تصور أشخاص أولئك الأفراد تصويراً دقيقاً بكل ما هنالك من عيوب طبيعية مهما تبلغ من قبح ، فإنه توجد كذلك تماثيل رومانية للأفراد تجمع بين الواقعية والمثالية . وقد أسهم في ازدهار هذا الفرع من الفن عند الرومان حتى أصبح علماً عليهم ذات ميولهم الواقعية ودأبهم منذ وقت طويل على صنع أقنعة (imagines) لوجوه الموتى الذين ينتمون إلى أسر كبيرة ، وحرص أرستقراطية الأصل العريق وكذلك أرستقراطية المال الوفير على صنع تماثيل بالحجم الطبيعي لأربابها لعرضها في بيوتها وفي المواكب الجنازية الخاصة بالأسرة. وذلك فضلاً عن العادة التي تطورت حتى أصبحت قبل نهاية القرن الثاني قبل الميلاد أمراً مقرراً

كان من شأنه تكريم الذين أدوا للوطن خدمات جليلة بإقامة التماثيل لهم في الأماكن العامة .

والفرع الآخر وثيق الصلة بالفرع الأول من حيث أن الهدف في الحالتين هو التخليد . وهذا الفرع هو النقوش البارزة التسجيلية ، وهي نوعان : أحدهما نقوش زخرفية جنازية للتوابيت تصور تارة مناظر مأخوذة من الميثولوجيا وتارة أخرى مناظر معارك حربية أغلب الظن أنها كانت تخليداً لذكرى بطولات الموتى . والنوع الآخر هو النقوش التاريخية وهي التي ازدهرت في عصر الأمبراطورية لتخليد الأحداث العامة البارزة . ولم يكن الرومان هم الذين ابتدعوا فكرة النقوش التاريخية التسجيلية ، وإن كانوا هم الذين ابتدعوا فكرة تصوير سلسلة متتابعة من الأحداث تبدو كأنها تقع في آن واحد ويشترك فيها جميعاً أو في بعضها ذات الأشخاص . والقيمة الفنية لهذا النوع من النقوش البارزة طفيفة تتضاءل إلى جانب قيمتها التاريخية من حيث أنها تنهض دليلاً على ميل الرومان الشديد إلى النقوش التاريخية ، وأنها تحفظ لنا سجلاً مصوراً للأحداث الهامة المعاصرة .

٣ ـ فن التصوير بالألوان :

وقد أخذ الرومان كذلك فن التصوير بالألوان عن الإغريق وقطعوا شوطاً بعيداً في تطوير هذا الفن . والكمية الوافرة التي وصلت إلينا من إنتاجهم في هذا الفن نوعان : يتألف أحدهما من صور حائطية ـ أي صور طليت على الجدران ـ لمناظر طبيعية خلابة أو لمناظر مأخوذة من الميثولوجيا أو لمناظر معمارية تشكل خلفية أو إطاراً لصور أخرى . والنوع الآخر يتألف من صور أشخاص رسمت على لوحات صغيرة لتوضع في توابيت الموتى أو رسمت على التوابيت ذاتها . وإذا كانت صور المناظر الطبيعية تغفل الواقعية إغفالاً يكاد أن يكون تاماً ، فإن صور الأشخاص المرسومة بالألوان تطالعنا من جديد بذات السمات التي تتجلى في « الصور » المنحوتة .

الفهرس

الفصل السادس

الأحداث الخارجية والداخلية من أوائل القـرن الأول حتى عـام ٧٩ ق.م. ص ص ٢٩٣ – ٣٧٧

صـلا

الأحداث الخارجية ص ص ٢٩٣ – ٣١٣

الأحداث الداخلية ص ص ٣١٣ – ٣٧٧

الفصل التاسع

يوليوس قيصر

الفصل العاشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

القسم الثالث

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

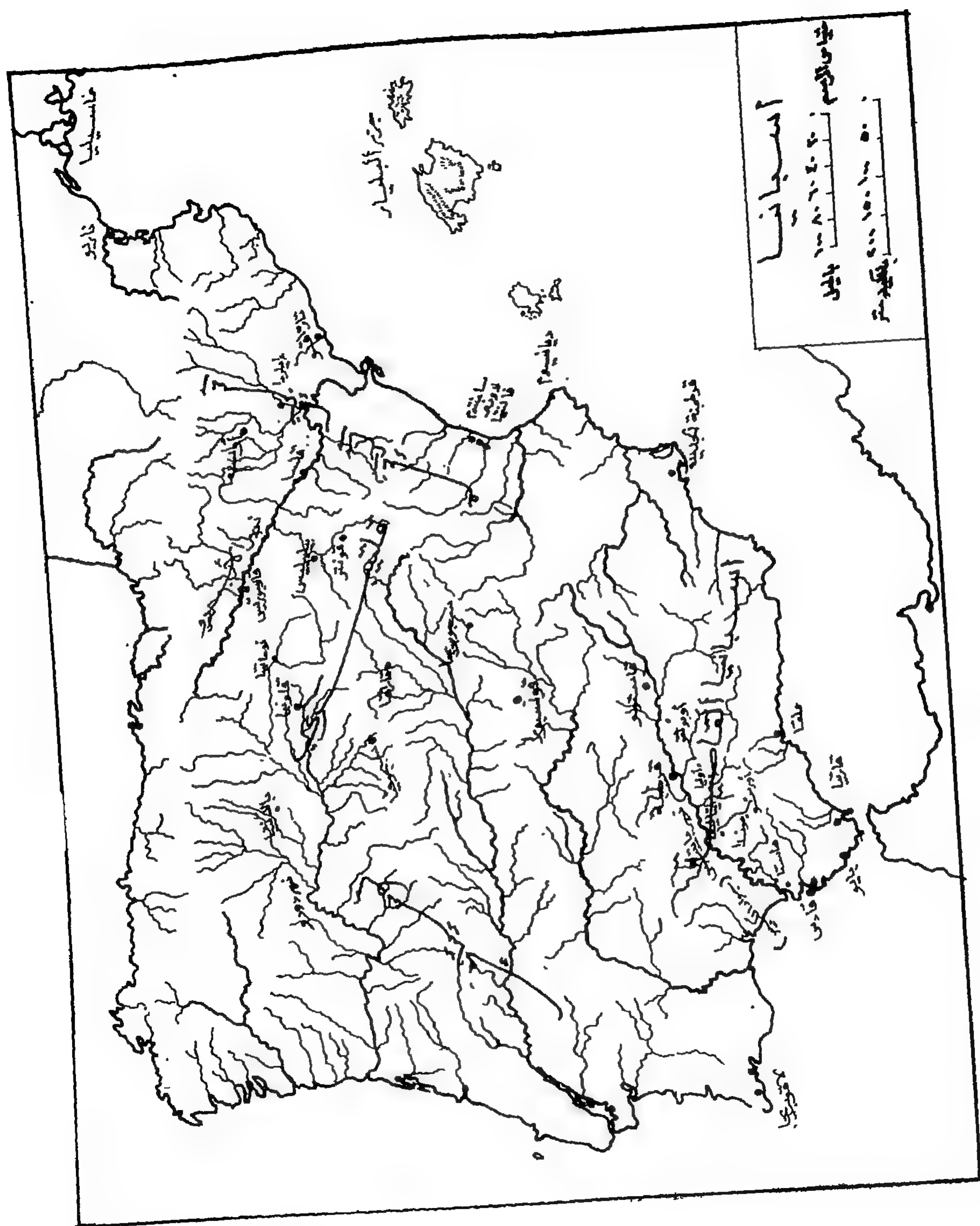
الخـــرائط

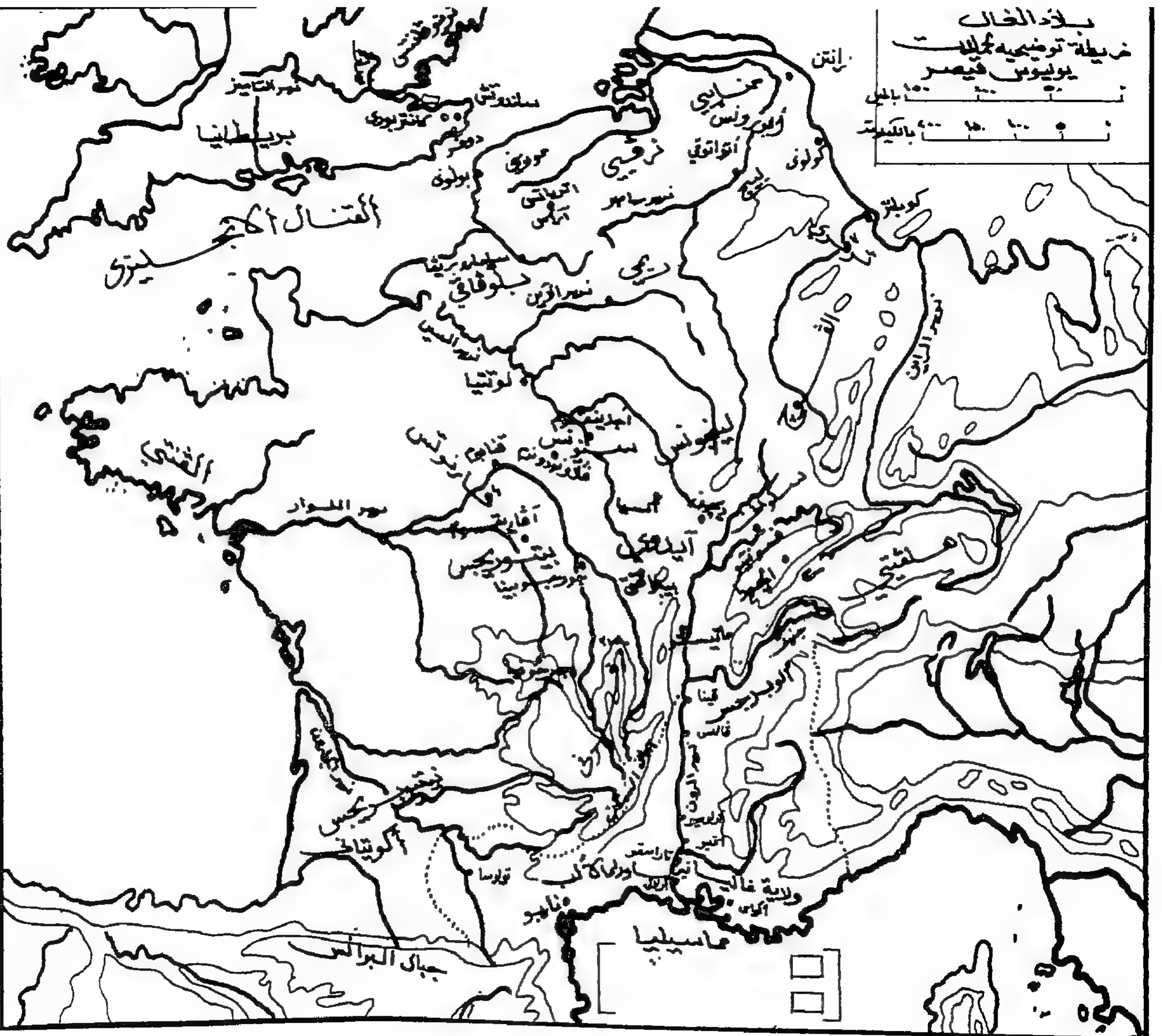
(في آخر الكتاب)

تم بحمد الله

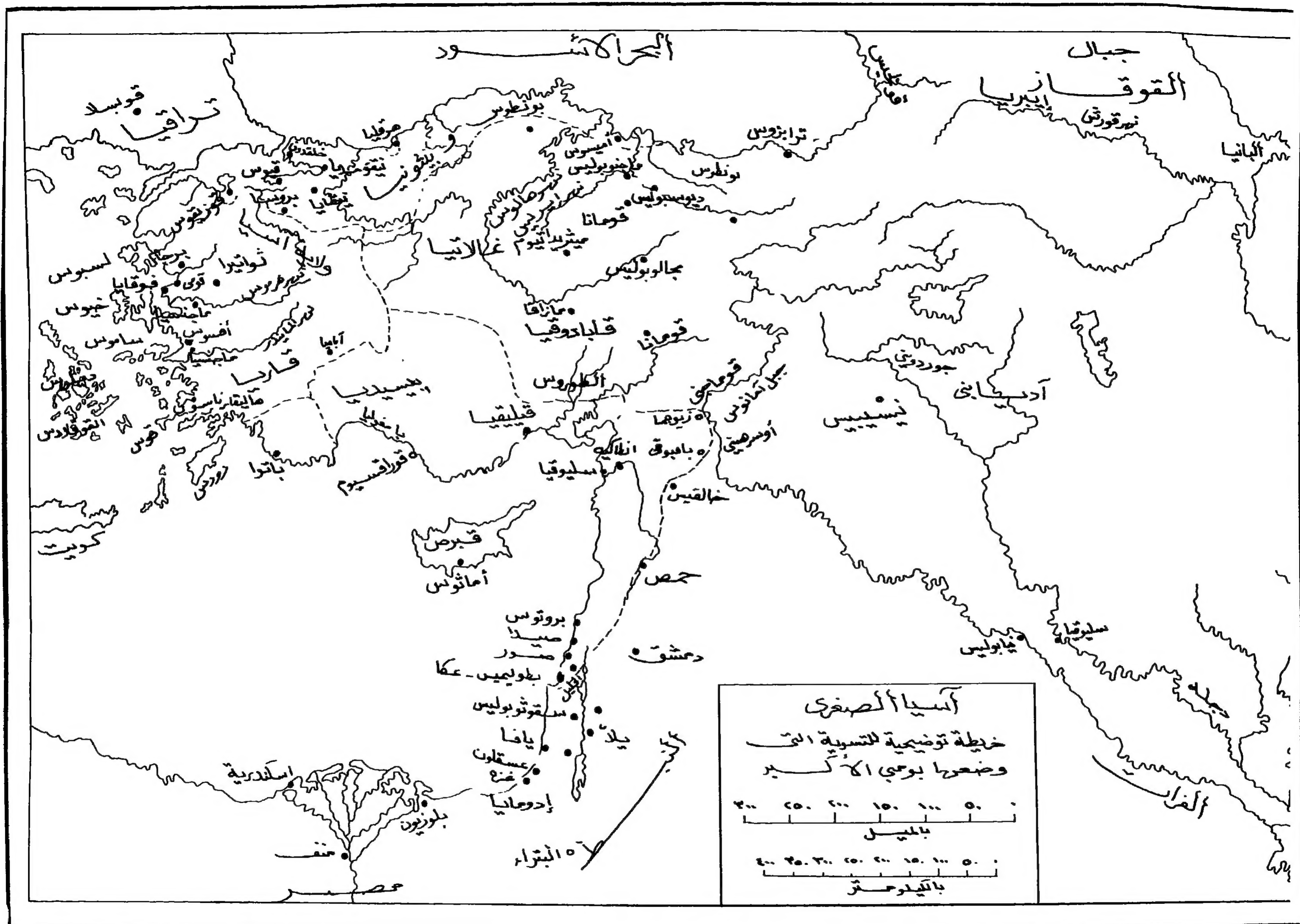
صفر ١٣٩٣

مارس ١٩٧٣





بلاد الغال
خريطة توضيحية لحملات يوليوس قيصر
بريطانيا
القنال الانجليزي
نهر اللوار
نهر الرين
جبال البرانس
ماسيليا
ولاية غاليا
كوبلنز



آسيا الصغرى
خريطة توضيحية للتسوية التي وضعها بومبي الأكبر
بالميل
بالكيلومتر
البحر الأسود
جبال القوقاز
ايبريا
ألبانيا
تراقيا
بونطوس
ترابزوس
غالاتيا
قبادوقيا
قيليقيا
بيسيديا
قاريا
نسيبيس
أديابني
قبرص
أماثوس
أنطاكية
سلوقيا
حمص
دمشق
صيدا
صور
بطوليميس ـ عكا
يافا
عسقلون
غزة
إدوميا
البتراء
اسكندرية
بلوزيون
منف
مصر
الفرات
رودس
كريت
ساموس
خيوس
لسبوس
أفسوس



مطبعة دار الكتب
بيروت - لبنان